في ظلال السيرة النبوية



محمد حمد عبدالله الصوياني

العبيكان
Obeikan

في ظلال السيرة

محمد بن حمد بن عبدالله الصوياني

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد حمد

في ظلال السيرة./ محمد حمد الصوياني.- الرياض، ١٤٣٦هـ

٨٤٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٥-٨٥١-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ٩٢٦٦ / ١٤٣٦

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: ٤١٦٠٠١٨/ ٤٦٥٤٤٢٤ - فاكس: ٤٦٥٠١٢٩ - ص. ب: ٦٢٨٠٧ - الرياض ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى الصديق المبدع (حمد الدريهم)، الذي أمضيت معه عشرات الساعات على الهاتف أتلقّى نقده وملاحظاته الرائعة.

- وإلى (ذلك الشاب المجهول)، الذي جعل الله تغريدته سببًا في تأليف هذا الكتاب وإخراج فقرة (في ظلال السيرة).

- وإلى زوجتي.. الناقد الأول للحلقات.



المقدمة

ذات يوم تشرفت بمكالمة هاتفية من أخي الكريم المذيع المعروف الأستاذ (حمد ابن محمد الدريهم)، وبعد السلام والتعارف، أبلغني أن الزملاء في البرنامج الشهير (بك أصبحنا) يريدون إضافة حلقة حول السيرة النبوية، وقد طلبوا اقتراحات لإثراء تلك الفقرة، وأنه قد تلقّى تغريدة من أحد المستمعين، يقترح فيها قراءة مقاطع من كتابي (السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة -قراءة جديدة)، فلما سألته عن المطلوب مني؟ قال: أن تقرأ مقاطع من الكتاب بوصفها فقرة ثابتة في البرنامج، فاعتذرت؛ لأن فن الإلقاء ليس فني، فله أهله ومبدعوه، وهو أستاذ في هذا الفن، فأخبرني أنه سيختار نصوصًا من الكتاب؛ ليلقيها بصوته العذب.

رحبت بالفكرة، ولكن بدا لي أن الكتاب أُعِدّ للقراءة الحرة، وفقراته متفاوتة الطول، وهم بصدد إعداد فقرة ثابتة الطول والموعد، ومن ثم سيختلف الوضع، فالقارئ يختار وقت القراءة، ويتنقل في الصفحات كما يشاء؛ لأن الوقت ملكه، أما المستمع فلا يملك وقتًا للإعادة أو المراجعة، فالنص والزمن والأحداث والأسماء تمر به دون توقف، والفقرة ستخاطب أطيافًا مختلفة من المستمعين، فتخاطب العالم والمثقف والطالب والأمي والكادح وربة المنزل،... وآخرين، وبناء عليه ستواجه الفقرة تحديًا لشدهم، ولكي تنساب في الوجدان يُفترَض أن تكون كتابة جديدة تجمع المتناقضات، بحيث تكون قصيرة وسهلة ومركزة، بعيدًا عن الأسلوب الخطابي التعليمي التقليدي المباشر؛ لأنه فَقَدَ قدرته على شد المستمعين، فقد قلّ تأثير كثير من خطب الجمعة للسبب نفسه، ويُفترَض ألا تتجاوز الحلقة سبع دقائق؛ حتى لا يفقد المستمع التركيز، وهي سنة النبي ﷺ في خطبة الجمعة التي لم تكن أطول من صلاته، أي إنها لا تتجاوز عشر دقائق تقريبًا.

حتى السرد القصصي فيها، يُفترض أن يكون جديدًا، فالفقرة ليست أقصوصة تستغرق كثيرًا من الصفحات، وتسمح بكثير من الوقت والمرونة؛ لذا لا مجال



لإهدار سطر بكلمات أو استطراد قد يربك انسياب الحلقة في الأذن، وهذا لن يتوافر إلا عن طريق إدخال المستمع في أجواء النص وبين شخوصه وتضاريسه، وكأنه معهم، وكأنه يشاهد فيلمًا، وكأنه يستعيد ذاكرة وأحداثًا مرت به، ما يعني ورود إشكاليات تتلخص في:

١- إشكالية الكتابة بأسلوب السرد القصصي الأدبي المعروف، مع الاحتفاظ بالنص النبوي اللفظي الصحيح، كما هو دون تدخل؛ لأنه لا ينطق عن الهوى.

٢- دمج عملية الشرح للنص الصعب، أو المفردة الصعبة ضمن السياق نفسه، بحيث لا يشعر القارئ بارتباك في أثناء ورود النص.

٣- إضاءة بعض الحلقات بالخلفيات التاريخية والثقافية، وبيان تهافت الشُّبَه التي يلقيها أعداء الإسلام، بأسلوب سهل وقصير ودون استطراد.

كان أكثر ما يسكنني في هذه الكتابة، هو تلك الحملة الشعواء التي تشنها القنوات التنصيرية التي كثرت كالوباء بشكل يثير التساؤل والاستغراب، وتلك المقالات العلمانية والرسوم الكاريكاتيرية الغربية حول النبي ﷺ، واتهامه بأنه قاطع طريق، وأنه نشر دينه بالسيف، وأنه كان يستحوذ على المال العام، ويمتهن النساء، وغيرها مما يردّده المنصرون وتلاميذهم العلمانيون.

لم يكن هناك وقت كثير للدراسة والتخطيط، فقد التقيت الأستاذ (حمد) يوم الإثنين أو الثلاثاء، وأخبرني أن البث سيبدأ يوم السبت مع بداية دورة إذاعية جديدة؛ أي كان لدينا يومان أو ثلاثة فقط، والحلقات لن تتناول شخصية خيالية، أو عادية، أو حتى استثنائية، فهي ستتحدث عن صفوة البشر وخيرهم، وقدوة الأمة ﷺ، وهنا تقلّ الحيلة، ولا يرى المرء سوى الله وتوفيقه سبحانه وتعالى، أو الفشل، فعندما يلجأ المرء لربه وحده تنتهي الأرقام والحسابات.

كتبت ثلاث حلقات، وطبعتها، وسلمتها لأستاذي (حمد)، فقرأها، وأبدى موافقته على الأسلوب، وتحمّس له، وبدأ البث، وتوالت الحلقات، وأوردت كل الشُّبَه التي رأيتها في تلك القنوات، أو قرأتها في تلك المقالات منزوعة عن سياقها وبتجنٍّ؛ ليتبيّن لمن يفتح عقله وقلبه من هو محمد نبي الله ورسوله ﷺ، فليقارنه بكل زعماء العالم وأنبيائهم من خلال كتبهم المقدسة؛ ليدرك الفارق.

في (في ظلال السيرة) اكتشفت النبي ﷺ أكثر مما كنت آمل، ففي البداية كان طموحي تقديم السيرة في صياغة وكتابة أخرى أكثر تشويقًا والرد على الشبهات، لكن ما إن بدأت مرحلة الهجرة، حتى اكتشفت عوالم مذهلة أشرعها النبي ﷺ، عوالم كفيلة بنهضة أمته ورقيها من جديد بعيدًا عن العكوف على انكسارات التاريخ التي زادتها انكسارًا، فالتاريخ الإسلامي ليس وحيًا، فهو تجارب بشرية في التعاطي مع القرآن والسيرة النبوية، والأمة بدولها وشعوبها وأفرادها وجميع مكوناتها في حاجة اليوم إلى تجاوز ذلك التاريخ والتعاطي مباشرة مع القرآن والسنة، كما تعاطى غيرها، والاجتهاد كما اجتهد أسلافها، واكتشفت أننا لسنا في حاجة إلى استعارة تجارب أو استعادة فتاوى بقدر ما نحن في حاجة إلى الشرب من النبع الذي ما زال نقيًّا، وقراءة السنة الصحيحة في سياق السيرة الصحيحة، فسنجد نبيًّا أرقى وأوسع أفقًا، وأكثر تحضرًا وحداثة وانفتاحًا وتسامحًا ونظامًا مما في العالم الحديث الذي أذهلتنا مدنيته وأنظمته عن كوارثه وعيوبه.

بقي أن أشير إلى أن الكتاب يعتمد الأحاديث الصحيحة فقط، التي أوردتها في كتابي (السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة) وكتابي الآخر: (الصحيح من أحاديث السيرة) وهو كتاب تخريج فقط للمتخصصين، وقد وضعت ألفاظ النبي ﷺ بين قوسين؛ حتى لا تختلط بغيرها، وكل ما بين الأقواس الأخرى فهو منقول نقلًا، لكن طبيعة السياق السردي تحول دون العزو، فإن وُفّقت فمن الله وحده، فله الحمد والثناء عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، وإن

أخفقت فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله، وأعتذر لأحبتي المستمعين والقراء، وكلي أمل في تزويدي بملاحظاتهم.

وأخيرًا... أشكر كل من أسهم في إخراج تلك الحلقات من مسؤولين وفنيين ومخرجين ومذيعين، خاصة أحبتي في برنامج (بك أصبحنا) الذين لم ألتقِ أحدًا منهم، فلهم مني جزيل الشكر، وأشكر كل مَنْ غرّد، أو أعاد بث الحلقات، أو أشار إليها، وأسأل الله أن يجمعنا مع نبيه ﷺ في جنة الخلد.

محمد الصوياني

مولده يوم جاء الفيل

في مدينة مكة، وقبل الهجرة بثلاثة وخمسين عامًا انتفضت الأرض تحت أقدام فيل ضخم.. يتقدم جيشًا مخيفًا مقبلًا من الجنوب.. من جهة بلاد اليمن. جيش زحف من أجل أن يثبت أن هذه الكعبة ليست آمنة، كما يشاع عند العرب: فيل وخيل وبغال، وعربات تحرث الأرض، وتسحب خلفها غمامة من الغبار الكثيف.. ترتفع كشبح هائل ومخيف، فيراها أهل مكة، فيتطايرون في الجبال، ويختبئون في الشعاب هلعًا، ولما وصل الجيش إلى مشارف مكة توقف الزحف وعسكر الجند، فعلم عبدالمطلب (وهو أحد قادة مكة) فخرج متوسلًا إلى ملكهم؛ لعله يقنعه بالعدول عن الهجوم.

دخل عبدالمطلب خيمة الملك، فقال:«ما جاء بك إلينا؟ ألا بعثت، فنأتيك بكل شيء أردت؟ فقال الملك: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن، فجئت أخيف أهله» عندها عاد عبدالمطلب ثقيلًا يسحب أقدامه وهمومه، واتجه بهما نحو أحد الجبال مع قومه.. متخليًا عن أصنامه، فقد رأى كل القوى تتلاشى أمامه إلا قوة الله. اتجه نحو ربه بالدعاء والصلاة، ونسي أصنامه في ساعة الشدة والخوف، فهي لا تضر، ولا تنفع في هذه الساعات الأليمة.. عاد التوحيد إلى عقل عبدالمطلب وقلبه، وناشد خالقه الواحد الأحد من أعماقه وقال: «اللهم، إن لكل إله حلالًا فامنع حلالك - لا يغلبن محالهم أبدًا محالك - اللهم، فإن فعلت فأمر ما بدا لك» لكن الملك أمر الجيش بالزحف لاحتلال مكة وهدم الكعبة.

تحرك الجيش، وارتفع الغبار من جديد، وامتلأت الأجواء بصياح الجند المنتشين بقوتهم وضعف عدوهم، وعندما بدأت الأقدام تلامس واديًا يقال له: (وادي محسر) أقبلت أسراب من الطيور الغريبة.. أقبلت كغمية سوداء من جهة البحر الأحمر.. تخترق ذلك الغبار والصياح وتحوم فوقه.. تحوم كالموت الأسود فوق ذلك الجيش الذي خرس من هول ما يرى. سكت الجند، وارتفعت أعناقهم، واتسعت أعينهم، وتحيروا على أرض ذلك الوادي وهم يشاهدون تلك الطيور المخيفة التي

تلتف فوقهم كإعصار أسود، وفجأة بدأت الطيور بالقصف بدقة مميتة.. كل طير كان يحمل حجرًا، ليتحول الصياح إلى صراخ وأنين، وتختلط في السماء الطيور والحجارة والصراخ والغبار والموت، وتتناثر آلاف الجثث قتلى وجرحى على تراب ذلك الوادي.. طيور (أقبلت مثل السحابة من نحو البحر، حتى أظلتهم طيرٌ أبابيل، التي قال الله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤]، أي حجارة من طين، فصار الفيل يصيح، فجعلهم الله ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، أي كالورق اليابس)، وولى الفيل هاربًا، ولم يخلف سوى روثه، ونجا بعض الجنود ومن بينهم قائد الفيل وسائسه، وقد أصيبا بالعمى والعجز.

عودة أهل مكة

كان أهل مكة يشاهدون ما يحدث في السماء، ويجهلون ما يجري على الأرض، حتى بدأ انقشاع الغبار، وتوقف الصراخ، ورحلت أسراب الطيور المحاربة، وصفت السماء، وهدأ الكون، فانحدرت قريش من مخابئها، وانتشرت كالحياة، لتجد الكعبة آمنة تحرسها أسراب الطيور، لكن الوثني إنسان جحود حين يتمرغ بالنعمة.. عادت قريش إلى أصنامها تعبدها، ونسيت نعمة ربها: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش:٤]، ورزقهم غنائم الحرب دون أن يطلقوا سهمًا، أو يسلوا سيفًا.. رزقهم غنائم الحرب وهم في مخابئهم.

هذا الحدث المعجز يعلن أن الجحود الوثني المظلم لن يطول أمده، ففي أحد بيوت مكة كانت هناك فتاة تدعى (آمنة بنت وهب)، وقد فجعت قبل أشهر بزوجها عبدالله وهو ابن القائد عبدالمطلب. كانت آمنة تعاني آلام الحمل، وذات يوم استيقظت من نومها، وهي على وشك الوضع، لتقول لمن حولها: إنها رأت في منامها رؤيا تؤذن بتلاشي ظلام لا تدري ما هو.. كانت تُحدث من حولها، وتقول: «رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام»، وبعد تلك الرؤيا المبهجة وآلام

الوضع المؤلمة ولدت طفلًا جميلًا كالصباح.. ولدته في أحد أيام الإثنين من شهر ربيع الأول من ذلك العام (عام الفيل)، طفل أطلق عليه اسم (محمد).

محمد من يُتمٍ إلى يُتمٍ

ولـد ﷺ يتيم الأب.. لم يحظَ بقبلات والده وحنانه وأحضانه، ولم تكتحل عيناه برؤيته، ولم يتذوق يومًا دلاله. وبعد عام أو أكثر من ولادته قدمت بعض النساء من باديـة يقال لها: (سـعد بن بكر) قرب الطائف إلى مكـة.. يردن إرضاع أطفال قريش مقابل مبلغ مادي كعادة بعض العرب، فكان محمد ﷺ من نصيب امرأة طيبة اسمها (حليمة السعدية).. أردفته لتزدان به مرابع قومها (هوازن).

وصل محمد وأمه من الرضاع إلى خيام القوم.. كان ينهض وإخوته من الرضاعة كل صبـاح من خباء حليمة.. يلاحقـون الغنمات ويرعونها، ويتراكضون ويمرحون حولها، ويتصارعون ويتسابقون، ويملؤون المرعى جمالًا وبراءة، فإذا قرصهم الجوع أخرجوا زادهم المتواضع، فأكلوه، ثم عادوا لمرحهم، وفي أحد الأيام نسوا طعامهم، فعاد أحدهم لإحضاره، وبينما كانوا يلعبون رأوا شيئًا يهبط عليهم من السماء.

رأوا طائرين ضخمين يهبطان من السـماء، وعندما اسـتقرا على الأرض توجها نحـو محمـد، فأخذاه برفق وهو دَهِـشٌ لا يدري ما يفعل، ثـم أضجعاه على الأرض وسط دهشة الأطفال واتساع أعينهم وارتجاف قلوبهم.

شق صدره في مرابع حليمة

قام الملكان بشق صدره.. عندها هرب الصغار نحو أمهم، وهم يصرخون: إن محمدًا قد قتل.. إن محمدًا قد قتل.



كانا من الملائكة.. شقّا صدره، وأخرجا منه شيئًا، ثم قالا كلمة لم ينسَها: «هذا حظ الشيطان منك» كان الأطفال في ذلك الوقت يركضون نحو حليمة، التي سمعت صراخهم، فاستقبلت خوفهم وفجيعتهم.. تسألهم.. تتصفح وجوههم الصغيرة التي لوّنها الفزع، وتلتقط كلماتهم الخائفة بين أنفاسهم وشهقاتهم المتقطعة.

تماسكت حليمة، وانطلقت تركض لإنقاذ صغيرها، لتفاجأ به مقبلًا يسير بهدوء نحوها، وقد تغير لونه، وحيرته الدهشة، لتعانقه بحرارة، وتغمض عينيها عليه، وتطوقه بذراعيها، ثم تفيق لتتحسس جسده الصغير، وتتأكد من سلامته، بينما كانت رؤوس الصغار وصدورهم ترتفع، وتنخفض من الهلع.. تكشف ثوبه، وتتأمل ذلك الجسد الصغير الغض، فتفاجأ: ما هذا؟ إنه أثر جرح قد شفي تمامًا، لكنها لم ترَه من قبل.. لم ترَه وهي تغسله، ويستحم بيديها، أو تغير ملابسه! أحد رفاقه يقول: «كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

ما الذي حدث؟ ما الذي جرى لك يا نور العين؟ روى محمد ﷺ لأمه قصة الطائرين، لكنها لم تطمئن للأمر، فلا يمكن لجرح أن يندمل في دقائق، ولم تدرِ أنها أمام معجزة ستخلد اسمها واسم ديارها، فاستبد الخوف بها، وخشيت أن يكون للجن يد فيما حدث، فأردفته، وتوجهت به نحو آمنة في مكة، وأخبرتها بما حدث، لكن آمنة طمأنتها، وقصّت عليها الرؤيا التي رأتها قبل ولادته، لتودعه حليمة، وتودع قلبها معه. أما محمد ﷺ فبقي في مكة.. يعطر طرقاتها وساحاتها ببراءته وعذوبته بين رفاقه، وقد يأخذه جده عبدالمطلب معه للطواف بالكعبة، أو للتبضع بين الدكاكين والأسواق، ثم يعود إلى أمه (آمنة) ليقص عليها ما فعل.

وفي يوم من أيام طفولته ﷺ.. حملته أمه معها نحو أخواله (بني النجار) في مدينة شمال مكة.. تسمى (يثرب) واسمها اليوم (المدينة)، حيث بقي محمد ﷺ مدة من الزمن يلهو ويلعب مع أطفال يثرب، وفي دروبها وبين نخيلها، وهو لا يدري أنه سيعود يومًا إليها ليغير اسمها، ويقيم عليها دولة جميلة... في ذلك الوقت كان اليهود منتشرين في طرقات يثرب وأسواقها.. جاؤوا المدينة (يثرب) ينتظرون نبيًّا سيهاجر

إليهـا، ويؤسـس دولة عليها، ويهزم أعداءه العرب انطلاقًـا منها، حيث يقول كتابهم المقدس: إنه (يهاجر من جبال «فاران» أي من جبال مكة نحو أرض ذات نخل).

محمد في يثرب

تـرى هـل رآه حاخام من حاخاماتهم ذات يوم؟ وما شـعوره لـو عرفه؟ الأيام سـتجيب. أما الطفل الجميـل محمد فتناديه أمه (آمنة) لأن موعـد العودة إلى مكة قد حـان، لتأخـذه بين أحضانهـا وقبلاتها وقصصها الجميلـة في أثناء السـفر، وتردّ على أسئلته التي تعنّ له، وتخبره بأسماء الأشجار والحيوانات التي قد تظهر هنا أو هناك.

وفي أثنـاء الطريـق توقفـت القبـلات، وانتهت القصـص، ولم تعد أسـئلته تجد جوابًا!

لقد مرضت آمنة، واشتد مرضها، وضعفت شيئًا فشيئًا، فأنزلوها عن راحلتها، وهـو ينظر إليها، ويتمنى فعل شيء يخفف مما بها، لكنها تزيد آلامه بنظراتها الضعيفة له، وخوفها على مصيره بعدها.. حتى تلك النظرات توقفت، فقد فارقت آمنة الحياة في مـكان يقـال له: (الأبواء)، وهو يهز جسـدها، فـلا ترد، ويصيح بهـا، فلا تجيب، ويغمر وجهها الحبيب بدموعه فلا تفيق، وتؤخذ من بين يديه وهو يتعلق بها، وتدفن أمـام عينيه الغارقتين بالدمـوع، ويُهال عليها التراب وهو يمسـح بيديه الصغيرتين، ثـم يؤخـذ وهو يريد البقاء عند قبرها علها تعود، ويحملونه على الراحلة ليكمل بقية السـفر من دونها.. يسـتيقظ من نومه، فلا يراها، ولا يسـمع ذلـك الصوت الحبيب الذي طالما سأله: هل هو جائع أم عطشان؟

يعـود كالحزن فـوق الراحلة.. قد تلهيـه لعبة أو دمية، لكـن سرعان ما تركض آمنـة في مسـاحات قلبـه، فيرمـي دميته ليلحق بهـا.. يا له مـن يتيم، ويا له من سـفر شـاق ومؤلم! ويصل محمد مكة وقد تيتم للمرة الثانية. لتتلقاه عماته بالدموع، فيشعر بالغربة، وهو بينهن دون أمه.

ربما سها وهو يلعب مع رفاقه فناداها، فلم تجبه، فينكسر قلبه، وتفضح الدموع انكساره.. ربما استيقظ ليلة فلم يجدها، فعاد إلى فراشه وله أنين.. ربما رآها في المنام، فاستيقظ، فازداد حزنه... يا لشوقه لآمنة الحبيبة ولهفته عليها!

مشاعر لم تغب عن جده عبدالمطلب، فأغدق عليه من حبه، وغمره بعطفه ورعايته، فكان قرة عينه وفرح قلبه.. لم يرسله في حاجة إلا أسعده بها، ولم يأمره بأمر إلا أتى به كما أراد، إلا ذلك اليوم الذي كان فيه عبدالمطلب مشغولًا برعاية الحجيج، وفجأة ذهل عبدالمطلب عنهم.

رعاية عبدالمطلب

ذهل الشيخ عبدالمطلب عن الدنيا كلها.. اسود العالم في وجهه، فصار يركض مفجوعًا وقلبه يسأل ملهوفًا: أين حفيدي محمد؟ عبدالمطلب يسأل من حوله: هل رأوا محمدًا.. هل مرّ بهم طيفه الحبيب، وكأن خوفه على حفيده يذكره بتأخر أبيه عبدالله، عندما عادت القافلة ولم يعد عبدالله.

ترى هل سيرحل محمد ﷺ بعيدًا عن عبدالمطلب كما رحل والده الشاب؟ ترك الشيخ مهامه.. ترك كل شيء وهرول إلى الملاذ الأول والأخير.. هرول نحو بيت الله، ولما توقفت قدماه أمام الكعبة.. تلاشت الأصنام، وعاد التوحيد مرة أخرى، فتوجه لله الواحد الأحد، وقال شعرًا يناجي ربه:

ربِّ ردّ إليّ راكبي محمدا يا ربّ ردّه واصطنعْ عندي يدا

كان أحد الحجاج ينظر إليه مستغربًا لهفته، فقال لمن حوله: «من هذا؟ فقالوا له: عبدالمطلب ابن هاشم، ذهبت إبل له، فأرسل ابن ابنه في طلبها، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها، وقد احتبس عليه»، ثم ما برح حتى جاء محمد ﷺ، وجاء بالإبل، فقال عبدالمطلب لمحمد: «يا بني، لقد حزنت عليك حزنًا، لا تفارقني أبدًا»، لكن البشر يرحلون، وقد حان موعد رحيل هذا الشيخ الطاعن، وها هو محمد ﷺ

خلـف سرير جده يبكي.. يبكيـه كما بكى آمنة.. هذا الفتى الحزين يفقد أحبته الذين يعيشـون في قلبه، فيشعر بالحسرة عليهم وهو في سنوات المراهقة الصعبة التي يحتاج فيها إليهم. ويشـعر عمه أبو طالب بالرحمة لهذا الفتـى المفجوع، ويرقّ لحاله، فيرعاه كأنـه من أبنائه.. ينسـيه وحدته ويتمه بمعاملة تـذوب حنانًا، فكان يرافقه في مجالس مكة وطرقاتها، بل وفي بعض الرحلات.

وفي إحدى تلك الرحلات مرت قافلتهم ببلدة صغيرة فيها معبد خارج البلدة.. يسكنه قس نصراني يقال له: (بحيرى).. كان القس من بقايا النصارى الموحدين لله، وكان لا يختلط بالمسافرين، ولا يكلمهم، لكنه رأى شيئًا أثار فضوله في تلك القافلة.

بين الراهب والنساء

خـرج الراهب مـن معبده، حين رأى سـحابة تُظـلّ فتى منعزلًا عـن القافلة.. تسـلل بـين الرواحل حتى اقترب منـه، ولما توقف أمامه حـدق في محمد ﷺ، ومحمد دَهِـشٌ من فضوله، ثـم التف الراهب حوله والفضول يقتلـه. تأمل ما بين كتفيه من الخلف، فارتجف قلبه هيبة.

يـا إلهي، إنه خاتم النبوة.. النبوة التي ظل ينتظرها، وزهد في الدنيا من أجلها.. توجه الراهب نحو أبي طالب، وناشده أن يرد محمدًا، فهو يخشى عليه، فرده أبو طالب إلى مكة، وفي مكة لم يكن ﷺ شابًّا فاشلًا.. كان ممتلئًا بالحياة والنشاط والصدق، حتى سـبقت الأمانة اسـمه واسـم أبيه، فذات يوم دخل على قومه، وهم مجتمعون حول الكعبـة، فقالوا: «أتاكم الأمين».. الأمين في تجارته وبيعه وشرائه.. في ممارسـته لمهنة الأنبياء، فما من نبي إلا رعى الغنم، وقد كان (يرعاها على قراريط لأهل مكة) يتتبعها في الأودية وبين الجبال.. مهنة شاقة وأجرها زهيد.. مهنة الأمانة أول شروطها، وفي المسـاء يأخذها إلى أبيات أهلها، وفي المسـاء يعود إلى أعمامـه وأصحابه.. حيث تحلو الحكايات ويحلو السـمر، فالجاهلية مجتمع شـعر وخمر وسـهر، وهو يخالط الشباب،

ويسـمع بمغامراتهـم.. مغامـرات ليسـت عيبًـا ولا محرمة عنـد قريـش والجاهلية، لكنه ﷺ لا يقارفها.. تمر بخاطره مرور سحاب الصيف.. سحاب يمر، فلا يمطر.

يقـول ﷺ: «**مـا هممت بـشيء مما كان أهـل الجاهلية يهمـون به من النسـاء، إلا ليلتـين، كلتاهما عصمني الله تعالى منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسـمر فيها كما يسـمر الفتيان. فدخلت حتـى إذا جئـت أول دار مـن دور مكة، سـمعت عزفًـا بالغرابيل والمزامـير. فقلت: مـا هـذا؟ فقيل: تـزوج فلان فلانة، فجلسـت أنظر، وضرب الله عـلى أذني. فو الله ما أيقظني إلا مس الشـمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا. ثم أخبرته بالذي رأيت**».

وفي اليوم المقبل كرر المحاولة، فعصمه الله بالنوم حتى طلعت الشـمس، بعدها يقـول: «**رجعـت إلى صاحبي**»، فقال: ما فعلت؟ قلـت: «**لا شيء. ثم أخبرته الخبر، فو الله ما هممت، ولا عدت بعدها لشيء حتى أكرمني الله بنبوته**».

تـرى هـل غابـت المرأة عـن قلبه وحياتـه؟ الإجابـة لدى امـرأة هام بـه قلبها، ورفرفـت حوله روحها.. تغمض عينيها على الأمل به، وتفتحهما على رفض والدها لـه! فهل من طريق إلى محمد؟ هل من وسـيلة تقنع هذا الشـيخ؛ علها تحظى بفارس أحلام فتيات مكة وسيد شبابها ﷺ؟

❧ ❧ ❧

لن تتزوجي محمدًا

خويلد.. شـيخ يحب الخمر، أما ابنته فتحب محمدًا ﷺ.. خديجة تهيم بهذا الفتى العشرينـي الـذي تحلـم به فتيات قريـش: لا أصنام.. ولا خمـر.. ولا خنا.. لا ميسر ولا قمار.. رجولة وجمال وذكاء وأمانة. كيف السـبيل إلى هذا القمر الذي يسـير على الأرض؟ كيف السـبيل يا ابنة خويلد، وأنت أكبر منه سـنًّا؟ كيف السـبيل ووالدك يرفض فقره على الرغم من كل صفاته؟

كانت خديجة في منافسة مع جميلات قريش، وهي تدرك حجم المنافسة، لكنها تدرك أن محمدًا يفوق سنه عقلًا وتفكيرًا، وأن المرأة بالنسبة إليه ليست مجرد وجه فاتن، أو جسد مثير، بل هي روح وعقل.. هي إنسان حافل بالمشاعر قبل ذلك، وأن الزواج مشاركة وتنازل ورسالة.. اقتحم هذا البدر قلبها، فهي هالكة إن تركت هذا البدر يتوارى عن سمائها.. أي عالم مظلم سيحتويها دون محمد؟!

فاتحت محمدًا في الأمر، فوافق... بقيت مشكلة الشيخ! لا بأس، فلقد أعدت خديجة خطة محكمة بالحب: أعدت أقداح الخمر لوالدها، فاستسلم الشيخ للشراب حتى بدأ يلعب برأسه، فألبسته ملابس أنيقة، ثم أخبرته بأن محمدًا يخطبها، فوافق على الفور، وبدأت الدفوف تبهج عرس محمد وخديجة، وتواصل الحفل حتى أفاق الشيخ من سكرته، فرأى أناقته وسط أجواء الاحتفال والتبريكات والتهاني! ما الذي يحدث؟ نادى خديجة، فلما جاءت قال: «ما شأني هذا؟ قالت: زوجتني محمد ابن عبدالله. فانتفض، وقال: أُزَوِّج يتيم أبي طالب؟! لا، لعمري» عندها أمطرته بسيل من العتاب، وذكرته قريش، وذكرته بسمعته بين قومه، فقالت: «أما تستحي؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش؟ تخبر الناس أنك كنت سكرانَ؟» فلم تزل تهمس به، وتعاتبه حتى لان ورضي.. عندها لم تتسع الأرض لفرحها.. غدت أسعد امرأة في الكون. يتبختر قلبها بين مواكب الغيرة وغبطة الفتيات، فقد نالت أعظم الرجال بين قومها، وأرقّهم وألطفهم عندها.. يخيط ثوبه، ويرقع دلوه، ويخصف نعله، ويخدم أهله.

تغمره بدلالها، وتواسيه بمالها، فيرزقهما الله أربع زهرات، هن: زينب، فرقيّة، فأم كلثوم، ففاطمة.. يلاعبهن ويلاعبنه.. يتراكضن نحو أحضانه وقبلاته ودلاله.. يتنافسن على ركوب ظهره والتعطر بثيابه.. يتسابقن لاستقباله وحمل ما بين يديه ورؤية ما أحضر لهن.. كأني بهن وإحداهن تغسل ثوبه، والثانية تسرح شعره، والثالثة تعبث بلحيته، وفاطمة الصغيرة تلثغ، وتتقلب في حجره، ويقص عليهن حكايات أسفاره، أو حكايات طفولته مع آمنة الحبيبة، أو بين مرابع حليمة، أو يعلمهن التوحيد.. كأني بخديجة تنظر إليهم من بعيد، وتبتسم.. وقلبها يقول:

يـا إلهـي.. ما أجمله وأجملهن.. مـا أجمله وأجملهن!، لكن أمـرًا كان يحزنه خارج هذا البيت المزين بالسعادة.

ما الذي يحزنك يا ابن عبدالله؟

سـفينة مجهولـة في البحر الأحمـر.. تتلاعب بها الأمـواج.. ترفعهـا تحطّها حتى حطمتها قرب مدينة جدة، وكان من بين الناجين نجار رومي، وهو الآن يتأملها على الساحل، أما في مكة، فكان محمد ﷺ في الخامسة والثلاثين.. يشارك قومه هموم مدينته وشـؤونها.. كانـت حالة الكعبة يرثى لها، فهي مهلهلـة وتحتاج إلى ترميم.. كانت لها زاويتـان فقط، أي على هيئة الحرف الإنجليـزي (D).. جدرانها حجارة بعضها فوق بعـض لا طين بينها، هدتها السـيول وغيرها الزمن، حتى أصبحت قصيرة تسـتطيع العناق القفز عليها، ولم يكن لها سـقف، فإذا أرادوا كسـوتها أحضروا قطع القماش، ثم وضعوها على تلك الجدران، وكان الحجر الأسود بارزًا فوق السور.

أرادت قريش بناءها، وبعد مشاورات قرروا ألا تبنى إلا بمال حلال، فلم يجدوا ما يكفي لبنائها؛ لأن الربا كان فاشـيًا بينهم.. سـمعوا بخبر السـفينة، فتوجهوا نحو جـدة، فوجدوا النجار عندها، فاسـتأذنوه بأخذ الخشـب، فأعطاهم إياه، وفاوضوه لصنع سـقف الكعبـة وبابها، فوافقهم وسـار معهم. ولما وصلـوا أحضروا الحجارة مـن الوادي، ثم هدموها، وأعادوا تشـييدها بارتفاع عشريـن ذراعًا.. كان محمد ﷺ يشاركهم برفقة عمه العباس، وفي يوم انحنى ليحمل حجرًا، وكان إزاره ضيقًا يعيق حركته، فأشـار عمـه العباس عليه أن يرفـع إزاره، فرفعه، فبدت عورته وهو يسـير في مـكان يقـال له: أجيـاد، وفجأة أصابه شيء لم يـرَه، وصوت مصاحـب يقول له: «غطِّ عورتك» فسقط مغشيًّا عليه، وسقط الحجر بجانبه. رآه العباس، فألقى حجره وركض لإسـعافه، فوجده ينظر إلى السماء، فقال له: «ما شأنك؟» فقام وأخذ إزاره، وقـال: «نُهيـتُ أنْ أمشيَ عريانًا». فكتـم العباس الخبر عن قريش خشـية أن يقولوا: مجنـون، نهض محمد وعمـه، وأكملا عملهما، لكن البناء لم يكتمل، فقد نفد الخشـب

والمال الحلال، ولم تستطع قريش سقف كل الكعبة، فاكتفت بسقف المربع الحالي، وتركت الجدار القصير المنحني الذي يسمى الحجر دون سقف.

انتهى البناء، وعاد محمد إلى بيته، لكن خلافًا وقع بين أسر قريش: من الأحق بوضع الحجر الأسود في مكانه؟ ارتفعت الأصوات، وعلا الضجيج، واهتزت الأيدي حتى كادت تمتد للسيوف.. كادت الدماء تلوّن جدران الكعبة الجديدة، فقال أحد الحكماء: «اجعلوا بينكم حكمًا»، فاقترحوا أن يكون أول من يخرج عليهم. فأشرق محمد، فقالوا: «أتاكم الأمين» وقبلوا أن يكون حكمًا، فوضع الحجر في ثوب، ثم دعا كبار أسرهم، وطلب أن يمسكوا بأطراف الثوب معه، ثم حمل الحجر، فوضعه بيده في مكانه.

ارتاحت قريش لهذا الحل، لكن محمدًا لم يرتحْ بعد.. إنه يتساءل: ما هذا الصوت الذي صاح به؟ ما هذا الحجر الذي يسلم عليه خارج مكة كلما مرّ به؟ كان يخشى البوح، حتى ضاق بالأمر.

عندما لا تجد من تبوح له

كيف يبوح ﷺ لمجتمع جاهلي بشقّ صدره.. بالحجر الذي يسلم عليه.. بالصوت الذي أسقطه، وأسقط حجره؟

الصمت ثقيل.. ثقيل، لكنه أرحم من الاتهام بالجنون. توجه لحبيبته، فقال: «**يا خديجة، إني أرى ضوءًا، وأسمع صوتًا، وإني أخشى أن يكون بي جنون؟**» فأجابته بلغة الواثقة بربها المتيقنة من صدق زوجها: «لم يكن الله ليفعل ذلك بك يا ابن عبدالله»، ثم دفعته لمواصلة النجاح في عالم الاقتصاد والتجارة، ليتنامى نشاطه وعلاقاته.. شارك تاجرًا نزيهًا يقال له: السائب، وفي يوم رأى الناسُ السائبَ، فمدحوه، فقال ﷺ: «**أنا أعلمكم به**»، فرد السائب محتفيًا به: «صدقت بأبي أنت وأمي، كنت شريكي، فنعم الشريك كنت، لا تداري، ولا تماري».

اشـترى ﷺ طفلًا اسـمه (زيد بن حارثة)، لكنه لم يعامله معاملة قومه لعبيدهم وخدمهـم، بـل أعتقه، وتبناه، وسـماه (زيـد بن محمـد)، وأحبه حبًّا شـديدًا، وصار يلازمـه كرفيقـه: عبدالله بن عبدالرحمن بـن أبي قحافة المعروف بـأبي بكر. تعلم زيد التوحيـد منه، لكن زيدًا أراد أن يداعبه ذات يوم، فصحبه للطواف بالكعبة، وحولها صنم من نحاس يقال له: (إساف) يتمسح به المشركون إذا طافوا.

يقـول زيـد: «فلما مررت مسـحت بـه. فقال ﷺ: «لا تمسـه»، فقلـت في نفسي: لأمسـنّه حتى أنظر ما يكون، فمسـحته. فقال: ألم تُنْهَ؟. فو الذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنمًا».

يـا لغربته في غابة الأصنام، متى تدرك هـذه الجموع التائهة أن الله أعظم من أن ينحـت من نحاس أو خشـب، أو يُصنع من تمـر أو أقط، ثم يؤكل؟لم يكن ﷺ وحده في غربته.. يوجد بمكة غرباء آخرون قليلون.. أحدهم اسـمه ورقة بن نوفل، وآخر اسـمه زيد بـن عمرو بن نفيل.. أما ورقـة فاكتفى بقراءة التـوراة التي تبشر بخروج نبـي من جبال فـاران، وفاران هي مكة. وأما زيد بن عمرو، فكان قلبه يتوقد شـوقًا إلى الحق، فطاف البلاد بحثًا عنه حتى عثر على التوحيد، وأخيرًا أرشـده مجموعة من الرهبان إلى قرب خروج نبي في أرض مكة، فعاد زيد بلهفة المحب إليها.

سـمعته فتاة صغيرة اسـمها أسـماء بنت أبي بكر، وهو يسـند همومه وظهره على جدار الكعبة، ويقول: «يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده، ما أصبح أحد منكم عـلى ديـن إبراهيم غيري»، ثم يقـول: «اللهم، لو أعلم أحـب الوجوه إليك عبدتك به»، ثم يؤدي حركة غريبة تنبض بشوقه لرضا الله. كان يسجد على راحة يده، وكان يقول: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم».

يـا لهـا من أرواح، ويا لها من غربة!.. حينها بحـث ﷺ عن أمكنة أخرى.. تتيح لروحه الانعتاق، ولعقله الانطلاق بعيدًا عن عالم الأصنام.. فأين الملاذ والكعبة تئنّ تحت ثلاث مئة وستين صنمًا؟

الأنثى في غربة أيضًا

يخرج الجاهلي الوثني من بيته.. يحمل طفلته الرضيعة، وأمها تمد يديها ترجوه بقلب يحترق أن يعيدها لها، لكنه لا يأبه لمناشداتها.. المؤلم أنه لم ينتزعها من أمها بسبب طلاق أو خيانة، ولن يضعها على قارعة الطريق علّ أحدًا يلتقطها، ولن يعطيها لمن حرم الذرية ليتبناها... الجاهلية أقسى من ذلك!

إنه يأخذها بعيدًا، ثم يضعها على الأرض، ويحفر لها حفرة، ثم يضعها في عمقها، وهي تناغيه بصوتها العذب، أو ربما تبكي، وترتعش يداها، وتتأمله بعينيها، ولا تدري ما سيفعل بها، فيمد ذراعيه لا ليعانقها أو يقبلها، ولكن ليهيل التراب على هاتين العينين البريئتين.. يمتلئ فمها الصغير بالتراب، ويبدأ بكاؤها وارتعاشها بالضعف شيئًا فشيئًا، فلا يلين قلبه.. لقد وأدت الجاهلية الرحمة في أعماقه. مشاهد قاسية تفتت قلوب الموحدين الذين يرفضونها.

زيد بن عمرو بن نفيل يلاحق أولئك القساة.. يناشد الواحد منهم قائلًا: «لا تقتلها ادفعها إليَّ أكفلها، فإذا ترعرعت فخذها»، ثم يضم تلك البراءة بين يديه برفق وحنان، لكن زيدًا شاخ وهرم، وقد حانت ساعة رحيله، لتبكيه الفتيات وأمهاتهن، وليبعثه الله يوم القيامة أمة وحده.. رحل بعد أن أنقذ الكثير من الرضيعات، وأسعد الكثير من الأمهات، لكنه لم يسعد بلقاء نبيه، أما محمد ﷺ فكان أشد كرهًا للوأد من زيد، فبناته بساتين حياته وقرة عينه وصديقاته.

ها هي زينب تكبر، وتزدان خلقًا وتربية، فتملأ قلب خالتها هالة بنت خويلد، وتراها أفضل عروس لابنها أبي العاص بن الربيع، لتزين قلب ذلك الشاب الوفي الخلوق، فيتأنق، ويخرج نحو زوج خالته محمد ﷺ ليفاتحه في أمر زينب، ثم تضرب دفوف الفرح في احتفالهما، وتبتهج مكة بعرسهما، ثم يتهادى بعده شاب آخر ينضح حياء وكرمًا اسمه: عثمان بن عفان، فيخطب رقية، فتزفها مكة له.

أما محمد ﷺ، فعلى الرغم من فرحه ببناته وأصهاره، فإن غربته تزداد، وتتعاظم أسئلته وحيرته مما يجري حوله من أسرار.. إنه لا يرى في منامه رؤيا إلا تحققت

كالصباح.. ما هذا؟ غربة شعر بعدها بحب الخلوة خارج مكة.. خارج هذا الجو المكفهر بالأصنام والوأد والربا.. فوق الجبال، وعبر البطاح مناجاة وتأمل، حتى صفت روحه، فأصبح يجدد شهرًا من كل عام للخلوة بربه في غار جبل يسمى حراء، فإذا ما انتهى زاده انحدر من غاره نحو زاد عمره خديجة، فإذا ما مر بمسكين واساه وأكرمه، وإن صادف محتاجًا أعانه، لكن ليلة من ليالي الغار غيرته.. أخافته.. لم يعد بعدها لغاره.. ليلة جعلته يرتجف خوفًا وألمًا، حتى ظن أنه سيلقى حتفه على قمة ذلك الجبل.

أعظم ليلة في التاريخ

اختفت السماء والنجوم من مدخل الغار، فالتفت محمد ﷺ، فرأى شخصًا ضخمًا يسد باب الغار، ويتهادى نحوه بهدوء.

فزع لمنظره، وواصل الشخص تقدمه، فنهض ﷺ لملاقاة هذا الغريب الذي لا يعرفه، ولا يدري ما الذي يريده، فإذا بالغريب يقترب، ويفتح ذراعيه، ثم يضمه إليه بقوة، حتى ظن محمد أنه سيموت من شدة ضمته، ثم أطلقه، وخاطبه بصوت مهيب: ﴿ٱقْرَأْ﴾ دهش ﷺ لطلب الغريب، فقال متسائلًا خائفًا: «**ما أنا بقارئ**».

إنه جبريل المهيب عليه السلام.. كبير الملائكة، الذي عاد لضمه مرة أخرى، ثم أطلقه، وقال وحيًا: ﴿ٱقْرَأْ﴾ لكن محمدًا ﷺ لا يجيد القراءة ولا الكتابة، بل ولا يدري ما المطلوب منه، ليقول والحيرة تملؤه: «**ما أنا بقارئ**» فعاد جبريل، فضمه ضمة ثالثة يتحدث عنها محمد، فيقول: «**فأخذني فغطني الثالثة، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني**»، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، ثم أطلقه، والتف نحو باب الغار، واختفى.

ارتجف ﷺ من قوة الشخص، وذهل من كلماته التي لم يسمع أروع منها من قبل.. ارتجف قلبه، وكأن الجبل يرتج به، ثم مشي نحو باب الغار خائفًا، وتلفت

لينظر هل مازال الشخص في الخارج، لكنه لم يرَ شيئًا، فزاد خوفه وارتجافه، وانحدر بسرعة.. لم يدرِ أنه تحول من شخص عادي إلى نبي ﷺ.

انحدر يتصبب عرقًا وحيرة، ولما لامس الأرض ركض، وحالما دخل بيته قال، وهو يرتجف: «زملوني زملوني» فغطته خديجة وأم كلثوم وفاطمة، وهن يشعرن بالخوف عليه حتى هدأ روعه.. عندها سألنه، فقص عليهن ما جرى له، وبعد أن انتهى التفت إلى حبيبته خديجة بسؤال كالدموع، وقال لها: «**يا خديجة ما لي؟ لقد خشيت على نفسي؟**» فأجابته إجابة زوجة قرأت حبيبها من ألفه إلى يائه، فوجدته أكمل الرجال وأعقلهم وأكرمهم، وأحنهم وأطهرهم وأصدقهم وأنقاهم عقيدة. قالت كلمات كالمطر: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ (المحتاج) وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

هدأ ﷺ ثم غفا على كلمات الزوجة الرائعة، ولما أشرقت الشمس نهض، ونهضت، ثم أحبت التخفيف عنه، فأخذته إلى مكان قد يعيد الطمأنينة لقلبه.

أنت نبي

أشرقت شمس أخرى على مكة، وأشرق محمد وخديجة في شوارعها.. خرجا يسيران نحو بيت ابن عمها (ورقة بن نوفل).. كان من النصارى الموحدين الذين يقال لهم: الإريوسيين، وهم أتباع الراهب إريوس الذي رفض عقيدة التثليث عام ٣٢٤م، وكانوا يشكلون أغلبية النصارى، حتى اعتنق الإمبراطور الروماني الوثني قسطنطين عقيدة التثليث، ففرضها بقوة السيف.. عندها تفرق الموحدون في أرجاء الأرض هربًا، وانتظارًا لنبي يأتي من بعد عيسى اسمه (أحمد).

دخلت خديجة وزوجها بيت الراهب المتواضع، ثم جلسا أمامه فأنصت لهما، ولما انتهى ﷺ تلألأ وجه ورقة بهجة، ليبشره أن هذا هو الوحي الذي نزل على موسى.. شعرت خديجة بالغبطة تملؤها، وتسري في عروقها، وهي تتأمل هذا الزوج

النبـي، ثم تنهـد ورقة بكلمات أصابتـه ﷺ بغصّة، حين قال: «يا ليتنـي فيها جذعًا.. ليتنـي أكـون حيًّا إذ يخرجك قومك» فوجئ ﷺ فقال بحزن: «**أو مخرجي هم؟**» قال: «نعـم.. لم يـأتِ رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا».

انحلت الألغاز، وانكشفت الأسرار، فإلهه الذي طالما ناجاه، وأنطق له الأحجار يصطفيه من بين أهل الأرض للنبوة.

أسـلم ورقة وخديجة، فكانا أول من أسـلم، وعاد ﷺ وزوجته إلى بيتهما أسـعد النـاس، وأكثرهم شـعورًا بالمسـؤولية، ليجـدا بناتهما قلقات، لكـن البشرى غمرتهن سعادة، فأسلمن، وأسلم أخوهن زيد. أخبر ﷺ صديق عمره أبا بكر، فأسلم. وأسلم ابـن عمه علي، لكن حزنًا خيّم عـلى حياته.. لقد مات ورقة رضي الله عنه، ولم يعد جبريل مرة أخرى، ومحمد لا يدري ما المطلوب منه حتى الآن.. أين جبريل؟ كيف سيبدأ؟

أسـئلة وحـيرة وحزن امتدت أشـهرًا، وفي أحد الأيـام كان ﷺ يمشي مهمومًا، وفجـأة ملأ السـماء صـوت مهيب.. توقف ﷺ ورفع رأسـه، وما إن نظـر فوقه حتى عجـزت قدمـاه عن حمله، فسـقط على الأرض من الخـوف.. كان جبريل عليه السلام بهيئته الهائلـة المهيبـة على كرسي بين السـماء والأرض. أفـاق النبي، ثم نهـض ﷺ نحو بيته وقدمـاه بالـكاد تحملانـه.. يرتجـف مـرة أخـرى، ويدخل وهـو يقول مـرة أخرى: «**زملـوني زملوني**». وبعد أن دثروه.. بدأت حبات العرق تتقاطر كاللؤلؤ من جبينه، حتى غاب عن الوعي، وبعد فترة أفاق، فأفاقت الدنيا.

وبدأت المهمة

أفـاق النبـي ﷺ فقـرأ على مسـامع زوجته وبناتـه قـول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ١-٥]، فتوجـه بهـذه الكلـمات إلى خديجة وبناتـه، ثم بدأ بأقرب النـاس إليه؛ صديقـه أبي بكر، فلم

يزد رَضِوَاللَّهُعَنْهُ على أن قال: صدقت، فسمي (الصديق)، توجه إلى ابنه زيد وابن أخيه علي، فأسلما رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، وبدأت الدعوة سرية تسري في أقرب الناس إليه.. لم يسلم أبو العاص بن الربيع زوج زينب، لكن عثمان بن عفان أسلم، وبعد مدة من الدعوة السرية أنزل الله على نبيه ﷺ قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وبعد أن أشرقت الشمس، واستيقظت مكة، وبدأت الحياة تدب في طرقاتها وأسواقها خرج ﷺ من بيته متوجهًا نحو الكعبة، ثم توجه نحو جبل صغير بقربها يسمى (الصفا).. صعده، ولما وقف على قمته تلفت، ثم صاح كأنه منذر حرب: «**يا صباحاه.. يا صباحاه**».

انتبهت قريش على صوت الأمين الذي لا يكذب. تركت دكاكينها، وخرجت من بيوتها.. دبت مئات الخطوات من الرجال والنساء مشكلة دائرة حول جبل الصفا.. دائرة من الأعين المفتوحة والآذان المنصتة، والترقب القلق! تلفت ﷺ حوله، وتأمل اكتمال قومه، فأحب قبل أن يتفوه بحرف أن يحصل منهم على شهادة جماعية بأمانته وصدقه؛ لأن الدين رسالة، والرسالة لا يمكن أن تقبل إلا إذا كان حاملها صادقًا أمينًا، فمن كان لديه مستند ولو على كذبة، أو خيانة واحدة رصدها عليه فليظهرها الآن.

صاح بهم، فوصل مدى صوته إليهم جميعًا، قائلًا: «**لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟**» قالوا: «نعم.. ما جربنا عليك إلا صدقًا».

شهادة موقعة من قريش في مكان واحد، وزمان واحد.. انتزعها منهم بعد أربعين عامًا من فن التعامل الراقي والمهذب.. ملك عقولهم وقلوبهم. عندها أطلق رسالته رحمة وشفقة بهم، فقال: «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبدمناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا**»، ثم نادى أشخاصًا بعينهم، فبدأت الجموع تنظر في فضول إلى بعضها، ثم قال للجميع: «**إني نذير لكم بين يديّ عذاب شديد**»، ثم سكت والدهشة تملؤهم.

كانـت القلـة المؤمنة بـين الجموع قلقة.. تتلفـت.. ترصد ردّات فعـل العادات والتقاليد وسـدنة الأصنام والأوثان. أطبق السـكون على المكان.. أطبق السكون.. لم يخترقه سوى صوت قبيح.

أول المكذبين

صوت نشـاز يشـوه المكان. ينطلق مـن جوف الخرافة.. صـوت عبدالعزى بن عبدالمطلب المعروف بـ (أبي لهب) يصيح حسدًا في وجه نبي الله: «تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟»، ثم ينسحب من المكان، وتتبعه زوجته أم جميل ولها ولولة.

تجاهل ﷺ هذا الأحمق وزوجته، فالانشـغال بالحاقدين والمنغلقين تبديد للجهد والزمن، واتجه لمن يفتح عقله وقلبه، ويطرح الأسئلة الجادّة، ثم تنزل آيات تحرق أول مكـذب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

كثـر أتبـاع النبـي ﷺ سرًّا، وشـعرت قريـش بنظافـة وسـكينة بعـض أبنائهـا وبناتهـا وعبيدهـا.. بارتياحهـم والتماع أعينهم كلما ذكر اسـم محمـد. عندها عُقدت الاجتماعات، وجرت المشـاورات يقودها طواغيت أمثال أبي لهب وأبي جهل وعقبة ابن أبي معيط وأمية بن خلف، ثم بدأت التحقيقات والاسـتجوابات، فأسفرت عن مفاجآت مخيفة: الإسلام قد انساب كالماء العذب إلى بيوتهم دون أن يشعروا.

هبـوا فزعين.. بدؤوا بالترغيب، ولما فشـلوا حوّلوا مكـة إلى زنزانة مرعبة لكل مـن يخرج عن دين الأجـداد. مكة لم تعد آمنة؛ لذا لم يجرؤ أحـد على البوح بإيمانه إلا قلة من المؤمنين، فأول من أظهر إسلامه سبعة: (النبي ﷺ وأبوبكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد).. إذا مشيت في ساحات مكة رأيت الأهوال:

هـا هـو أبو جهـل قد أضجع عمار بـن ياسر وأمه وأباه ﷺ.. يسـلخهم بسـوطه ولسـانه، فيمر ﷺ لا يسـتطيع فعل شيء لهم سوى أجمل العزاء: «**صبرًا آل ياسر، فإن موعدكـم الجنة**»، فيتطاير الشر من عيني أبي جهل، ويأخذ بقبضته رمحًا، ويتجه نحو أم عـمار التـي تثير جنونه بكلمـة: لا إله إلا الله.. يفقد صوابـه ورجولته، فيطعنها في أسـفل بطنها حتى يخرج الرمح من ظهرها.. يصرخ عمار مفجوعًا، وينتفض جسـد العجوز النحيل من حر الطعنة، ثم يهدأ شـيئًا فشـيئًا حتى يسكن لتحيط به دائرة من الدم الزكي، وتصعد روح أول شـهيد في الإسـلام (امرأة) وتسـمع أم سلمة بالخبر، فتركـض نحـو أمها مـن الرضاعـة، وتنحنـي كالفجيعة عليهـا. تتفتـت كبدها على حبيبتها.. تئنّ أم سـلمة وهـي تنظر إلى أخيها عمار ووالـده، ويصاب أبو جهل بنوبة طغيان أخرى، فينتزع الرمح، ويتساءل الحزن: من الشهيد المقبل؟

من الشهيد المقبل

ينزع أبو جهل رمحه، ويتجه نحو الشـيخ الحزين الذي ينظر إلى زوجته الشهيدة، فيشـتاق إليهـا.. يريد اللحاق بها ومسـابقتها نحو أبواب الجنـة، فيصغر أبو جهل في عينه، فيعاجله المجرم بطعنة حتى يتفجر دمه، ويئنّ عمار مرة أخرى، وينحني وجدًا عـلى حبيبيه، لتمتزج دموعـه بدمائهما، ويحترق جوف أخته من الرضاعة أم سـلمة، ويهيج فرعون الأمة كالثور، فيناشده عمار الكف، فلا يكفّ إلا إن نفذ أمرين:

اشـتم محمدًا، وامدح هبـل والأصنام. فيفعـل، فيتركه بين دائـرتي الدم والندم اللتين تتسعان كما يتسع حزنه، ثم يحمل عمار والديه تشخب دماؤهما.. تروي تراب مكـة، بينـما يتأمله المسـتضعفون من بعيد لا يسـتطيعون صنع شيء سـوى الدموع، ويـوارى الشـهيدان، فلا يتلقى عـمار العزاء إلا سرًّا، أو من عين تمـرّ ممتلئة بالدموع، ويهيم على وجهه بعد أن فقد والديه، وفقد دينه.

أي كـرب هـو عمار؟ يأتيـه نبيه ليعزيـه، فيبكي حرقـة، ويبثّ حزنـه بين يديه، فيعـذره ﷺ، وينـزل الله قرآنـا يعذر كل مـن تعرض للعـذاب مثله: ﴿ مَن كَفَرَ

بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦]. فتنفرج بعض همومه، ويستعيد سكينته، ويحتسب والديه.

لكـن الصراخ والغبار يعلـوان في مكان آخر.. مجموعة من المراهقين تكتشـف إسـلام شـاب اسـمه خباب بـن الأرت، وهي الآن تقيـم طقوس التنكيـل به، وهو كالذبيحـة بـين أيديهم.. يقوم بعضهم بجمع حطب، ثم يشـعله حتـى يتحول جمرًا، لتبدأ تسـلية شـباب الأصنام. يربطون يديه ورجليه، ويكشفون ظهره، ثم يسحبونه مـن بعيد ليمرروا ظهره عـلى الحصى والتراب، ثم على كتل الجمـر، فيتطاير الشرار، ويتطاير صراخ خباب، وهو يتلوى من الجمر الملتصق بظهره، لكن الجمر لم ينطفئ، فيثور صراخ المجرمين لتكرار المحاولة، فيكررونها، ليتحول ظهر المسكين إلى شواء، ولا تتوقف عملية السحل حتى ينطفئ الجمر.

إنه لم يسرق بيوتهم ولا ماشـيتهم.. إنه لم يشـتم حتى آلهتم.. كل الذي فعله أنه قال: لا إله إلا الله. ويأتي المساء، فيتعب الوثنيون، ويرمونه ليشقى بجراحه.. ها هو يبكي، ويحدث من حوله، فيقول: «لقد أوقدت لي نار، وسـحبت عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهـري» وفي يوم آخر ملتهب، تبلغ شـمس الظهـيرة أوج حرارتها، فيؤتى بخباب ورفاقه ليفاجؤوا بابتكار جديد للعذاب. ما هذا الذي بأيديهم كالدروع؟

أجل إنها أدراع الحديد

إلى إحـدى السـاحات يسـحب بـلال وخبـاب وصهيـب ورفاقهم.. حيـث تتقد الرمضاء، وكأن شمسهم تنشر أحزانًا، وتتقاطر دمًا، فتعرى أجسادهم، ويلبسونهم تلك الدروع الحديدية الملتهبة، التي تزيدهم عذابًا واختناقًا تحت ألسنة الشمس والسياط.

يطلبـون الرحمـة.. يسـتغيثون شربـة فلا مجيـب، وبعد أن يغشـى عـلى بعضهم يسحبون بقيودهم، ليطعموهم شيئًا يبقيهم لحفلة أخرى من العذاب.

يستجيب الجميع لمطالب الطواغيت إلا بلالًا. استشعر عظمة الله، فملأ قلبه، فانشغل عما حوله ومن حوله.. أصبح لا يعيش إلا حبه، ولا يردد سوى اسمه: أحد.. أحد (هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه) تعب مالكه أمية من تعذيبه، فأمر بربط عنقه بحبل، ثم نادى مجموعة من الأشرار، فألقي بطرف الحبل لهم ليتسلوا به، وكأنه دمية.. كأنه ليس من البشر، فأخذوه في الشوارع.. يسقط، فيسحبونه.. يتعثر، فيركلونه.. يعرج، فيشتمونه، ويحثون التراب في وجهه، ويبصقون وسط قهقهات أمية ورفاقه الذين يمارسون قبحهم على جسده، لكنهم عجزوا عن إطفاء النور الذي يحرره من أعماقه: أحد.. أحد.

تحرر بلال من كل لغات الإملاء، وبلغ أقصى مسافات الحرية، فلم يعد يرَ أمامه من يستحق الخوف والإذعان سوى خالقه.. كان يحاول أن يسقيهم رشفة من نبع السماء، لكنهم يصرون على الانحناء للأخشاب والخرافة.

ضاقت قريش بالتوحيد، وتسلل المعذبون لنبيهم يشكون. يكشفون له آثار التعذيب، فيناشده خباب: «يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟» تأثر ﷺ فاعتدل في جلسته، واحمر وجهه، وقال: «**إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ﷻ والذئب على غنمه**».

ترتفع معنويات المعذبين لهذا الوعد الحق، وتنتشر أخبارهم في جزيرة العرب حتى تصل رجلًا يقال له: (أبوذر الغفاري)، فيرسل أخًا له من أمه يقال له: عمرو ابن عبسة السلمي يكره الأصنام، ويرى الوثنية خرافة، فيمتطي عمرو راحلته تقطع به الفيافي والأودية، وحين تحط به حول الكعبة ينزل عنها، ثم يطوف بالبيت، ثم يتلفت.. يبحث، ويتلفت، فلا يرى منهم أحدًا..!

أين من شغلت أخباره الجزيرة كلها؟ إنه لا يسمع إلا الجرأة على شتمه والنيل منه، فهل سيعود دون مقابلته؟

أين اختفى المسلمون؟

تأمل عمرو بن عبسة وجوه مكة، فرأى الوجوم يملؤها، أما النبي الذي يبحث عنه فمستخفٍ، وقومه يتسلون باختراع التهم له وشتمه في مجالسهم. لذا تلطف في سؤاله حتى تمكن من الوصول إليه، ولما وقف بين يديه لم يرَ معه أتباعًا، فسأله: (ما أنت؟ قال: «**أنا نبي**». قال: وما نبي؟ قال: «**أرسلني الله**». فقال: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «**أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**». قال: فمن معك على هذا؟ قال: «**حر وعبد**» (ومعه يومئذ أبوبكر وبلال)) فظن نفسه رابع شخص يعتنق الإسلام؛ لذا يقول: «لقد رأيتني ربع الإسلام».

تحمس عمرو، فأراد البقاء في مكة، لكن النبي ﷺ أجابه إجابة تنضح بالواقعية، فقال: «**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتِني**».

انتهت المقابلة الخطيرة، فعاد عمرو وأحزان الدروب تسأله: أمثل هذا العظيم يعيش خائفًا لا يستطيع أحد أن يبوح بحبه، أو أن يأخذك إليه؟ ما الذي جرى للقوم؟ ألم تكن مكة قبل سنة تصيح بصوت واحد: (أتاكم الأمين)؟

عاد عمرو إلى أخيه أبي ذر يحمل قلبًا آخر، ويقول: «والله لقد رأيت رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشر» لكن أبا ذر لم يقنع بما سمع.. كان شغوفًا بالمزيد من التفاصيل، فقال لأخيه: «لم تشفِني من الخبر» ثم نهض أبوذر، وملأ جرابه بالزاد، وأخذ عصاه، وامتطى راحلته، ليكتشف بنفسه ما الذي يجري داخل مكة.

أما في مكة فيتسلل شاب وشابة من بيتهما نحو النبي ﷺ ليسلما.. هما سعيد ابن منقذ الرضيعات زيد بن عمرو بن نفيل، وزوجته فاطمة بنت الخطاب، ثم يعودان لبيتهما سعيدين خائفين، وكان خوف فاطمة مضاعفًا، فأخوها عمر شاب فاق شيوخ قريش هيبة وقوة.. على الرغم من أنه في الثامنة والعشرين من عمره، وكان عمر بن الخطاب قد سمع بأمر النبوة والتوحيد لأول مرة، حين كان عند أحد

الكهنة.. قرب أحد الأصنام.. حينها أقبل رجل وثني يسحب خلفه عجلًا ليذبحه، ولما توقف أمام الكاهن استأذنه في ذبحه تقربًا وعبادة للصنم، ثم أخرج سكينه، وسمى باسم الصنم، وغرز السكين في جسد العجل، فانفجر الدم، وفجأة انفجر صوت مخيف ملأ المكان، وأفزع عمر والكاهن، وكادت معه تسقط سكين الوثني، أو ربما سقطت. فما المخيف في تلك الكلمات؟

صيحة جني

صرخ صارخ بصوت أفزع الذين حول الصنم.. صارخ يقول: «يا جليح.. أمر نجيح.. رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله» فز الرجل من تحت الصنم، وارتجف الكاهن، أما عمر فقال: «لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا»، ثم صرخ الصوت: «يا جليح.. أمر نجيح.. رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله» ولما أعلن النبي ﷺ نبوته كان عمر من أشد الناس على المؤمنين، وعندما علم بإسلام أخته وزوجها اتجه يحمله الغضب للتحقيق معهما، فاعترفت فاطمة، وتحدى سعيدٌ، فبدأ بتعذيبهما في الحال.. ربطهما بالحبال حتى قال سعيد لقد: «رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته».

كان ابن الخطاب ينشر الرعب في شوارع مكة، وقلوب الموحدين عليهم السلام، لكن النبي ﷺ رأى فيه شخصًا آخر، فصار يبحث عنه في السماء لا في الأرض.. يبحث عنه بالدعاء، ويقول: «**اللهم، أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة**» ارتفعت الدعوة، وارتفعت راحلة أبي ذر، وانخفضت به يحدوها حب مكة والشوق إليها، حتى وضعته بفناء الكعبة في ظروف مرعبة.. أقسى من الظروف التي أتى بها أخوه عمرو بن عبسة لدرجة يقول فيها: «أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه ﷺ، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد». ظل أبوذر يقتات بما بقي من زاده وبماء زمزم، حتى لاح الأمل: شاب يقترب من العشرين يقبل نحوه.. يتأمله، ويشفق على غربته.. إنه علي بن أبي طالب الذي عاجله بسؤال من كرم، فقال: «كأن الرجل غريب؟» فأجاب: نعم. فأخذه إلى بيت أبيه، فأكرمه الشيخ أبوطالب، وفي

المساء عاد أبوذر ليبيت في المسجد، وفي اليوم الذي يليه مر به علي، فأخذه. وهكذا فعل ثلاثة أيام.. لا يستطيع أبوذر البوح، ولا يقدر علي على الإفشاء، حتى اطمأن علي، فسأله: «ما أمرك وما أقدمك هذه البلدة؟» هنا تلفت أبوذر، واقترب، وهمس، وكأن الجدران تتلصص: «إن كتمت علي أخبرتك. قال: فإني أفعل» فأخبره. فتهلل وجه علي، ووعده بأخذه إليه.

لكن مهلًا.. الطرقات خطيرة والعيون أخطر، ولا يمكن أن يسير بجانبه؛ لذا قال علي: «اتبعني، أُدخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحدًا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامضِ أنت».

انطلقا. علي يتلفت.. يرصد الأبواب والزوايا، وأبوذر يتبعه من بعيد كأنه لا يعرفه، وعيناه ترصدان حركات علي وإشاراته، ومع ذلك تعرض أبوذر لضرب كاد يفقده حياته. فما الغلطة التي ارتكبها أحدهما؟

محاولة اغتيال أبي ذر

يدخل علي على النبي، ويتلفت أبوذر، ثم يدخل، فيرحب ﷺ بهما، فيسأله أبوذر: «اعرض علي الإسلام» فيعرضه عليه، فيسلم. لكن النبي ﷺ يفاجئه بطلب غريب: «**يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل**».

ما أعظمه من دين سلاحه الكلمة!.. الكلمة فقط في مواجهة آلاف السيوف والسياط والرماح والشتائم، وركام الأصنام والعادات والتقاليد، لكن تلك الكلمة أججت حماس أبي ذر، فأراد أن يزين بها الأرض والسماء، فأقسم بالله قائلًا: «والذي بعثك بالحق لأصرخنّ بها بين أظهرهم» ثم اشتد كالتحدي نحو الكعبة، ولما رأى تلك الأصنام شعر بعظمة التوحيد، فصاح: «يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

لم يمهلـه الوثنيون.. لم يسـألوه.. صرخوا كالمجانين: «قومـوا إلى هذا الصابئ» فقامـوا، وأحاطـوا به وضربوه، حتى كاد يموت، فسـمع أحـد العقلاء ضجيجهم، فانطلق يرمي نفسه بين الجموع.. حشر نفسه منحنيًا على الرجل، فانفرجت لوجاهته دائرة الوثنيين، وتوقفوا وصدورهم ترتفع، وتنخفض كرائحتهم.

رفع أبو ذر رأسـه، فإذا هو العباس بن عبدالمطلـب.. حدق فيهم وجهًا وجهًا، وقبحًـا قبحًا، فزجر غباءهم: «ويلكم تقتلون رجلًا من غفار ومتجركم وممركم على غفار!؟».

لكـن أبـا ذر كرر المحاولة في اليوم المقبل والذي بعـده، فكرروا جنونهم، وكرر العبـاس إنقـاذه، وفي اليوم الرابع أدرك أبوذر أن مكة ليسـت مكة التي يعرفها، وأن وصيـة نبيـه أسـلم وأحكم، فأخـذ راحلته، ومضى حزينـًا يظن أن عـدد المؤمنين لا يتجاوز الأربعة.

غادرها وقلوب المؤمنين تلوح له.. تود لو صافحته، وعانقته.. تود لو قالت له: نحن بالعشرات، ونحن نحبك يا أبا ذر، لكننا لا نستطيع، حتى توديعك. عاد أبو ذر غريبًـا كما أتى.. تحول بينه وبين نبيه غربة يُخـوّن فيها الأمين، ويُصدّق فيها الكاذب، وتمر أعوام ثلاثة، فلا يرى ﷺ في قيادات قريش أملًا، فيتجه إلى قيادات أخرى علّها تتبنى دعوته.. يغتنم موسـم الحج، وسـوق عكاظ ومجنة يناشدهم: «**من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي ﷻ وله الجنة؟**» فلا يجد أحدًا ينصره ويؤويه، فلقد بثّت قريش دعاياتها بين العرب، فنجحت تلك الدعاية في تشـويهه، لدرجة أن الرجل إذا أراد السـفر إلى مكة ودّعه أهله بزاد وبكلمات تقول: «احذر غلام قريش لا يفتنك» وعندما يصل يقتله الفضول حتى يراه، فإذا رآه عاد الفضول ليسـأله: من هذا الذي يلاحق محمدًا كظله، ويحثو التراب على ظهره كالمجنون.

يرفضون العلم في سوق الكلمة

كلما أقبلت أشهر الحج الثلاثة: شوال وذوالقعدة وذوالحجة.. تقاطر الشعراء والخطباء والتجار من كل أنحاء الجزيرة نحو مهرجانات الكلمة والبضاعة:

عكاظ في شوال، ومجنة في ذي القعدة، وذي المجاز في ذي الحجة.

حل شوال ونصبت الخيام، وافتتح سوق عكاظ، ليحلو السمر وإنشاد الشعر ورواية القصص.. ثقافة العرب الشفهية التي لم تفتتح مدرسة، أو تؤلف كتابًا، أو تقم دولة.. يحاول ﷺ منحهم ذلك، فيأبى سدنة الأصنام والظلام.. يصل عكاظ رجل اسمه عباد الديلي.. يتجول بين البضائع والقصائد والخيام، وبصحبته طفله الصغير ربيعة.. يمسك بيد والده تارة ويفلته أخرى. تأخذ عينيه البريئتين حركة هنا، أو لعبة هناك، وفجأة يعدو خلف مجموعة من الصغار.. يقترب ليرى ويسمع سبب زحامهم، فإذا سيد الخلق ﷺ يعطر الخيام.. يخاطب الزعماء والعوام بألطف عبارة.. يبشرهم برفاه الدنيا والآخرة، ويقول: «**من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي ﷻ وله الجنة**» يشكر حسن ردهم، ويصبر على صدهم، لكن ما إن يبدأ حتى يشوش عليه صوت قادم من الجحيم.. صوت أبي لهب يقول: «**يا أيها الناس، إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن مآثر آبائكم**» حارس الظلام هذا يرفض التوحيد.. يرفض اقرأ.. يرفض القلم.. يرفض العلم. يلتصق بالعادات حتى لو كانت سجودًا لخشبة، أو وأدًا لأنثى.. حتى لو كانت سلبًا ونهبًا.

يحاول نبي الله ﷺ التخلص منه، فلا يستطيع.. يسرع، فيسرع خلفه، والأطفال من ورائهما، ومعهم ربيعة الذي يقول: «رسول الله يسعى وهو على أثره، ونحن نتبعه» وينتهي السوق، فتطوى الخيام، ويعود ﷺ إلى مكة، ويدخل ذوالقعدة، فيتكرر المشهد في سوق مجنة، ويأتي ذوالحجة، فيقام سوق ذي المجاز قرب عرفة، فيزداد شر عمه لقربه من مكة.. كان عمًّا مخجلًا لا يكلّ، ولا يملّ.

شاب آخر اسمه طارق المحاربي ينصت للنبي ﷺ وهو يناشد الناس: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**»، فيقول: إنه رأى أبا لهب يتبع النبي ﷺ.. يرميه

بالحجارة يدمي كعبيه وعرقوبيه، ويقول: «يا أيها الناس لا تطيعوه، فإنه كذاب» ويقترب المساء، فيعود ﷺ حزينًا إلى بيته.

في إحدى الصباحات يسير ﷺ وأبوبكر نحو الكعبة، فيُفتح باب بيت أبي لهب.. إنها نوبة زوجته الشريرة أم جميل قد بدأت.. تخرج مسرعة، ثم تلتقط حجرًا كبيرًا، وتواصل هرولتها لتكمل ما بدأه زوجها.. تحرث الأرض، تثير الغبار بأقدام ليست لأنثى.

مواصفات ليست لأنثى

تخرج أم جميل تلعن وتشتم، وتتلفت في الطرقات، وتسأل، فيخبرها السفهاء أن مبتغاها هناك.. عند الكعبة. فتهرول كالمعتوهة نحوها، وهي تولول بكلمات الكفر: «مذممًا أبينا.. ودينه قلينا.. وأمره عصينا».

ترددها كالبلهاء، وعندما تصل تشد يدها على الحجر، فلا ترى إلا أبا بكر، فيراها أبوبكر، ويقول: «يا رسول الله، قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك» فقرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[الإسراء: ٤٥]، وتقترب، وتتلفت كالأفعى ولها فحيح.. تحدق.. تبحث، ثم تصيح بأبي بكر وتستجوبه ورذاذ الحقد يتطاير من فمها: (يا ابن أبي قحافة، إني أخبرت أن صاحبك هجاني؟ ما شأنه ينشد في الشعر؟ فقال أبوبكر: لا، ورب هذا البيت ما هجاك، والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر. فقالت: أليس قد قال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾[المسد: ٥]، فما يدريه ما في جيدي، فهمس النبي ﷺ لأبي بكر: قل لها: «ترين عندي أحدًا؟ فإنها لن تراني، جعل بيني وبينها حجاب» فسألها أبوبكر؟، فقالت: أتهزأ بي يا ابن أبي قحافة، والله ما أرى عندك أحدًا. فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيدها. ولت وهي تثير الغوغاء والمراهقين.. تحرضهم على النيل من رسول الله الذي لا يعرف اليأس.

نهض ﷺ وصاحبه لإيصال رسالة التوحيد: (لا إله إلا الله)، وفي يوم هاجمهما مجموعة من المجرمين.. حاصروهما، لكنهما وبعد جهد والتفافات استطاعا الفرار حتى وصلا أحد المراعي.. يقتلهما العطش والإرهاق، ويلاحقهما الخوف.. شاهدا من بعيد قطيعًا من الأغنام، فتوجها نحو الراعي.

كان فتى قصير القامة.. نحيل الجسد جدًّا.. دقيق الساقين لدرجة لافتة.. فتى كله أمانة يدعى عبدالله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه. اقتربا منه علّه يسقيهما، فقالا: «يا غلام، عندك لبن تسقينا؟» فأجاب: «إني مؤتمن، ولست بساقيكما».

لم تُغْرِهما كثرة الغنم وضعف الراعي باغتصاب شربة لبن، ولم يأبه لهما الراعي، فالقطيع لمجرم تهابه قريش يدعى: عقبة بن أبي معيط، لكن شيئًا حدث جعل الراعي يذهل عن نفسه وغنمه، وعن جبروت عقبة ومرتبه. طلب ﷺ من الفتى جذعة ليس في ضرعها لبن، فتحرك الفتى والاستغراب يسأله: وماذا عسى هذا الرجل يجد في شاة لا لبن فيها؟ تسلل بين غنماته، وأحضر ما طلب منه متعجبًا! لكن ما إن وضعها بين يدي نبي الله ﷺ حتى فتح الراعي فمه، واتسعت عيناه، وهاله ما يرى.

مولد عالم في مرعى الغنم

أمسك أبوبكر رضي الله عنه بالجذعة، وأمسك ﷺ الضرع، فدعا. فعلم أبوبكر بما سيحدث، فنهض، وبحث حوله، حتى وجد صخرة منقعرة، فنظفها، ووضعها تحت الضرع، فحلب ﷺ فيها والفتى فاغر فاه من هول ما يرى. ثم شرب الثلاثة لبنًا لا يحلبه سوى الأنبياء، ثم قال ﷺ للضرع «**اقلص، فقلص**» وعاد كما كان ناشفًا. ثم غادرا المكان، وأخذا معهما قلب الفتى وعقله.

تأمل المرعى بعدهما، فرآه أضيق من الآفاق التي فتحاها له.. آفاق لا تعرفها ثقافة الأصنام.. أضناه الشوق، فأطلق ساقيه النحيلتين بحثًا عن حبيبه ﷺ حتى وجده، فأعلن إسلامه، ثم رجاه قائلًا: علمني من هذا القول الطيب القرآن.

فقال ﷺ: «**إنك غلام معلم**» كلمات تشجيع أذكت عقل الفتى وذاكرته.. تبشر بمولد عالم يتحدث عن بداياته، فيقول: «فأخذت من فيه ﷺ سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد» ويعلم سيده عقبة بن أبي معيط بأمره، فيجن جنونه ويخبر أبا جهل، فيلقاه أبو جهل في إحدى الطرقات، فيتفنن في لكم ذلك الجسد النحيل وركله، ثم يتركه جثة من الألم والأنين لمن مر من السفهاء، أما عقبة فيصل به الغضب والجنون إلى محاولة اغتيال النبي ﷺ.

طفل وديع يدعى عبدالله بن عمرو بن العاص.. جالس عند الكعبة.. يشاهد منظرًا أفزعه: أقبل عقبة بن أبي معيط وحوله زبانيته، فباغت النبي ﷺ من الخلف كالغدر، ثم وثب عليه ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا ونبي الله يتلبط.. يريد الخلاص، فقام شخص بإخبار أبي بكر، فأقبل يركض غاضبًا، فشق الجمع، وقفز على كتفي عقبة ودفعه بكل قواه، حتى تدحرج، وأنقذ نبيه. ولما اطمأن على سلامته قام عنه، واتجه غاضبًا نحو أولئك الأوغاد.. متعجبًا من عجزهم وضعف حجتهم، وصاح بهم: «أتقتلون رجلًا أن يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم» ليعود ﷺ إلى خديجة، فتدمع عيناها وعيون بناته، وقد آلت الأمور إلى الاغتيال.

يشاهده ابنه زيد.. يتمنى لو أزال حزنه أو خفّفه، فيتأمله ﷺ فتقر عيناه بهذا الفتى، فيحب أن يفرحه على الرغم من أحزانه.. أحب ﷺ أن يسعده على الرغم من همومه، فتوجه نحو امرأة تكبره اسمها بركة (أم أيمن) فخطبها لابنه زيد، فوافقت لتزف إليه وسط أجواء مشحونة بالكراهية والدماء، ويرزقان بطفل أسود سمياه أسامة.

أسامة يضيء قلب النبي ﷺ.. يقبله، يحمله، يداعبه، يضعه على فخذه، ويناشد ربه حبًّا: «**اللهم، إني أحبّه فأحبّه**»، فتملأ السعادة قلب أمه وأبيه، وتمر الأيام، فيصل مكة وفد غريب.. وفد يريد انتزاع ابنه زيد منه.

آه لو تدري كم أحبك!

غريب تحمله الراحلة والشوق إلى أخيه، الذي خطف من مرابع قومه.. غريب اسمه جبلة بن حارثة.. تصله بعد بحث طويل أخبار أن أخاه زيدًا حي يرزق، وأنه يعيش في مكة.. قد اشتراه رجل اسمه محمد بن عبدالله.

اهتـزت قلوب عائلة جبلة، وحرضته على إدراك أخيه، فانطلق ملهوفًا.. تسرع بـه راحلته عبر الصحارى وكأنها أكثر شـوقًا إليه، وعندمـا لاحت جبال مكة تنفس جبلـة الذكريات، وطافـت بمخيلته أيام الصبا مع أخيه، وهما يلعبان.. تخيل فرحته، وفرحة أهله، وهو يردفه خلفه عائدين إلى ديارهم.

سـارت الراحلة الهوينى، ودقات قلب جبلة تكاد ترددها الجبال.. سـأل وسأل، لكنه صدم بصلف قريش وقسـوتها على ابنها الأمين ﷺ، وظن أن هذا أجمل الأوقات لاسترداد أخيه. كأن فرح جبلة يهتف: افرح يا زيد، ها أنا قادم لإنقاذك وإراحتك من أبي لهب وأبي جهل، ولكن أين أنت؟ توقفت الراحلة. ها هو محمد ﷺ فأين زيد؟

اقـترب جبلـة، فحيا نبي الله، ثم ناشـد أخلاقـه ومروءته وكرمـه، وقال: (ابعث معي أخي زيدًا). نظر ﷺ إلى شوق الرجل لأخيه، ونظر إلى حبيبه المتربع في قلبه، فآثر إسعاد الناس على سعادته، فتهدجت الكلمات، وهو يستعد لفراق ابنه الحبيب، وقال: «**هو ذاك، فإن انطلق معك لم أمنعه**» لم تسع الدنيا فرح جبلة، فتوجه إلى أخيه يبشره.

تعانـق الأخوان، وطلب جبلة من زيد الاسـتعداد للرحيـل، فتأمله زيد ولم يجبه، بـل نظرَ إلى حبيـب قلبه وقرة عينه، الذي لم يضربه يومًـا أو يعنفه.. نظر إلى أكثر الناس تبسمًا في وجهه.. نظر إلى من منحه اسمه ودلاله وعرفه بربه ﷻ، وعلمه حبه وتوحيده، فغـاب كل البشر، وتلاشـت كل المرابع، واشـتاق إليـه وهو بين عينيه، فبـاح بعبارات الشوق الذي لا يطيق الفراق: «لا، والله يا رسول الله، لا أختار عليك أحدًا أبدًا».

تـرى كم دمعـة ذرفتها تلك الكلمات.. تحير جبلة من هـذا الحب الذي لم يعرفه مـن قبـل، ثم أسـلم فيما بعـد، ولما تذوق حـب الله ورسـوله أدرك أي قلب كان بين

أضـلاع زيـد حينها، فقال: «رأيت رأي أخي أفضل من رأيي» عاد جبلة بغير القلب الـذي قدم به.. تاركًا مكة عالمًا من المشـاعر والدموع والدماء والفرح الخائف، ففي أحد البيوت الحزينة تزف الشـابة أم سـلمة إلى أخ النبي ﷺ من الرضاع (عبدالله بن عبدالأسـد).. كأني بدمـوع فرحهـا تمتزج بدموع الشـوق للشـهيدة سـمية أمها من الرضاعـة، وكأني بعـمار ينظر إليهـا، فيخالط فرحه حـزن، وهو يتمنى لو أن سـمية شاركت في زفافها.

متى كانت الغربة تضمد للقلب جراحه؟

في مكة يتسـابق الحزن والسرور إلى قلب شـاب بالغ الكرم والشجاعة.. اسمه جعفر بن أبي طالـب، حين تزوج من فتاة تشـع إيمانًا وثقة بالنفس تدعى: أسـماء بنت عميس؛ ليشكلا مع أم سلمة وزوجها وعثمان ورقية وغيرهم من الشباب فرق عمل تنـشر الكلمـة التي قـال عنها ﷺ: «**خير مـا قلت أنـا والنبيون من قبـلي لا إله إلا الله وحـده لا شريك له**» وقال: «**إن السـماوات السـبع والأرضين السـبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله الا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله**» شباب لم يرفع سيفًا، ولم يغتل أحدًا، ولم ينشـغل بشـتم الآخرين. شباب سـلاحه الكلمة، لكن طواغيت قريش تجعل التفوه بها جريمة.. تسحل من يؤمن بها.. تسلبه حريته وحتى ماله.

هـا هـو خباب مـرة أخرى يقـول: «لم يكن لي أحـد يمنعني، فلقـد رأيتني يومًا أخـذوني، وأوقدوا لي نارًا، ثم سـلقوني فيها، ثم وضـع رجلٌ رجله على صدري» ها هـو رضي الله عنه يترنح في طرقـات مكة الحزينة.. يمـشي معدمًا إلى طاغوت اسـمه العاص ابـن وائل.. لا ليطعمه، أو يكسـوه، ولكن لأن لخبـاب عليه دينا يريد التقوي به على هذا العيش الذي لا يطاق.. يسـير بين كلـمات الازدراء ونظرات الحقد، فتحنّ عليه الجـدران. وقـف أمام البـاب، فطرقه، ولما فُتـح طلب مقابلة العـاص، فخرج ليرى مـا الخبر؟ أخبره خباب أنه يريـد ماله، فنظر العاص إلى هيئته الرثّـة، وثيابه الممزقة، وجسده المحروق مزدريًا، ونطق ساخرًا: «والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد».

ليتك قلت غيرها يا ابن وائل، أتدري ما فعلت؟ لقد دست على حقل ألغام العزة في نفس هذا الفتى المؤمن، فتفجرت الكلمات من صدره كالبركان.. تحرق ما تبقى لهذا الطاغوت من كبرياء. هانت الحياة، وهان المال فداء لأبي القاسم ودين أبي القاسم، فصاح خباب: «والله لا أكفر به أبدًا حتى تموت، ثم تبعث» تناثرت كبرياء العاص، فحاول لململة بقاياه بشيء من اللصوصية المغلفة بالمكابرة، فقال: «فإني إن بعثت كان لي مال وولد فتأتيني فأقضيك» انصرف خباب منطويًا على فقره وآلامه، لكن كلماته صعدت للسماء، فانتصر لها جبار السماوات والأرض:

نزل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٧-٧٩].

أغلق العاص بابه، وأغلقت قريش كل أبواب الحرية، فجاء الشباب يبكون يشكون.. ينثرون جراحهم بين يدي حبيبهم ﷺ، فأشار هناك.. هناك حيث البحر، لكن متى كانت الغربة تضمد للقلب جراحًا؟

عندما يغيب العدل تضيق الأرض

أفضل أرض الله وأطهرها لم تعد تتسع للشباب المؤمن.. حاول ﷺ تحويلها أرضًا للتوحيد والعدل بوحي يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فأبى سدنة الظلام.. رفضوا الكتاب، وعادوا القسط والميزان.. حولوا مكة نقاط تفتيش ورقابة على الكلمات والحركات.

مكة تتوجع، والكعبة تئنّ تحت ثلاث مئة وستين صنمًا، أما الإسلام، فالإسلام للعالم أجمع، لا لقريش فقط.. للأرض كلها لا لمكة وحدها. نادى ﷺ شبابه، فأشار عليهم بركوب البحر، فوراء البحر مساحات لم يلوثها أبو لهب وأبو جهل، فقال

والحزن يملأ قلبه: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلَم أحد عنده، فالحقوا ببلاده، يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**».

أبحـرت أم سـلمة، فوصفت أجـواء مغادرتهـا بقولها: «ضاقت مكـة، وأوذي أصحـاب رسـول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البـلاء والفتنة في دينهم، وأن رسـول الله ﷺ لا يسـتطيع دفـع ذلـك عنهـم. فخرجنا أرسـالًا»، وبعـد أن خرجوا دفعات ابتهج الطغاة والمتسلطون، وهم يرون الموحدين يحملون أطفالهم، ويودّعون مكة الحبيبة.. تحرق محاجرهم الدموع، وهم يتركون نبيهم وبيوتهم وإخوانهم للريح والسـياط.. فرح المتسـلطون إلا واحدًا.. كان يرقب المشـهد.. يتأمله.. يقف ملجمًا بالحـزن مثقلًا بالندم.. ينظـر إلى ضحاياه.. يتأمل ثيابهم الرثة، وأجسـادهم الناحلة التي أضناها العذاب. ينظر إلى أعين أطفالهم البريئة.. ينتزع المشـهد الحزين من عمر ابن الخطاب بعض قسوته.

صامـت واجم والنـدم يخاطبه. يؤنبه: ماذا فعلت يا ابـن الخطاب، وماذا جنت يـداك؟ ويحك إنهم أهلك وجيرانك وأصحابك.. ألا ترحم، ألا يلين قلبك؟ نسـاء ثكالى وشـباب حيارى وأطفال غربتهم دون ذنب، ورجـال كرام أهنتهم وقهرتهم، وهـا أنت تشردهم بعـد أن ملوا الحياة بجوارك، وهم الذين كانوا يكرمون الضيف، ويواسـون الضعيـف. إلى أين ألجأتهـم يا ابن الخطاب؟.. إلى بحـر يتقلب بهم، أم إلى أرض لا يعرفون بها أحدًا. ماذا سيكون مصيرهم؟ أنت لا تعرف، وهم لا يعرفون، هل خلقت بلا قلب يا عمر؟ تقدم وقل شيئًا يخفف لوعتهم.

كان عمـر ينظـر إلى زوجـة أخيه بالتبني عامـر بن الخطـاب، وكأني بها لا تطيق وجوده في هذه اللحظات، ولا النظر إليه. فما بها من الحزن على نبيها وديارها وأهلها لا يطـاق.. كأني بها تتشـاغل عنه بابنها. بترتيب متاعها.. بأي شيء ينسـيها ذكرياتها المريـرة معه، ثـم تركب بعيرها تريد تـرك الأرض التي يتحكم فيها.. تاركة المشـهد يسـافر في أضلعه كالخناجر. لم يطق ابن الخطاب طوفان الحزن الذي يطوقه، فتهادى ثقيلًا نحو بعيرها، ولما دنا منها خاطبها، فغيرتها كلماته.

مولد الفاروق

دنـا ابـن الثلاثين عامًا.. دنـا عمر بن الخطاب من البعير الـذي يحمل أم عبدالله الحزينة زوجة أخيه بالتبني، والمتوجهة نحو السـاحل.. رفع عمر رأسـه، ونظر إليها وهـي لا تطيقـه، فسـألها سـؤالًا، هو مَن صنـع إجابته، فقـال: «أين يـا أم عبدالله؟» فأردتـه، وأحيته بكلمات من دموع: «آذيتمونـا في ديننا، فنذهب في أرض الله، حيث لا نـؤذى في عبادة الله. والله لنخرجـن في أرض من أرض الله، إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتـى يجعل الله لنا مخرجًا»، غصّ عمر بمرارة لم يعرف أمرَّ منها.. تغير وجهه وتحير، وأحزنته تلك الكلمات الباكية.

تقـول ﵂: «ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا، فجاء زوجـي عامر بن ربيعـة، فأخبرته بما رأيت من رقّة عمر» فأجـاب عامر إجابة بالغة اليأس، فقال: «ترجين يسـلم؟ فقالت: نعم. قال: فو الله لا يسـلم حتى يسـلم حمار الخطاب»، وهذا من شدته على المسلمين.

غـادرت أم عبـدالله وزوجهـا وأسـماء بنت عميس وجعفـر، وعانقت خديجة رقيـة مودعـة، وبكتها زينب وأم كلثـوم وفاطمة، وودعها أبوهـا ﷺ، وودع زوجها عثـمان ﵁.. حملتهم المراكب ترتفع بهم الأمـواج والهموم وتنخفض.. لا يدرون أي عالم ينتظرهم حتى ألقى بهم البحر إلى سواحل الحبشة الساحرة، لكن لِمَ الحبشة؟

الإجابـة وحـي يذكّر الملوك أن أجمـل الإنجازات هو العدل، حـين قال ﷺ: «**إن بـأرض الحبشـة ملكًا لا يظلم أحد عنده**» تنفس الشـباب هناك حريـة وعبيرًا آخر بين غابـات إفريقيا وأنهارها، حتى قالت أم سـلمة: «اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، آمنين على ديننا، ولم نخشَ فيها ظلمًا»، فالظلم هناك حيث يحكم أبولهب وأبوجهل وأميـة وأكوام الأصنـام والعادات والتقاليـد.. حيث أصبح النبـي ﷺ وأصحابه أقل وأكثـر ضعفًـا، وأصبحت قريش أكثر جرأة وحقدًا، فقد سـمع زبانيتهـا أن الراحلين يشعرون بالأمن، وأن هبل واللات والعزى لا قيمة لها هناك، فجنّ جنونهم، وأرادوا التنغيص عليهم.. أرادوا تلويث أجواء الحبشة وتكدير صفو أنهار عدلها.

اجتمعوا، وتشاوروا، وبعد لغط وثني قرروا رشوة النجاشي؛ كي يعيد لهم أولئك الشباب، أو على الأقل يطردهم. تساءلوا عن الهدايا التي يفضلها النجاشي؟ فإذا هي الجلود، فطافوا الأسواق، وجمعوا ما استطاعوا من أجودها، ثم رشحوا رجلين للقيام بهذه المهمة هما: عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، وحملوهما الهدايا والوصايا، فانطلقا، وبينما كانت قريش تنتظر إعادة الشباب.. كان في شوارع مكة رجل يطوف كالمجنون.. يصيح ببيوتها بدكاكينها بأسواقها، فتردد الجبال صياحه.. خرج عمر يلاحق الرجل، وخرج طفله عبدالله خلفهما، وفجأة تداعى الناس فزعين، ثم أثارهم ذلك الرجل، حتى نشبت بينهم معركة بالأيدي.

قريش تذهل عن مهاجري الحبشة

يا للهول: عمر بن الخطاب في ضيافة النبي ﷺ! ثم خرج الفاروق.. ولد الفاروق، فأراده إعلانًا مزلزلًا.. سأل عن وكالة أنباء تتلهف لنشر الأخبار، فلم يجدوا له أفضل من جميل بن معمر.. رجل لا يكاد يلامس الخبر أذنه حتى يكتبه لسانه.

طرق عمر بابه، وحالما فتحه صدمه قائلًا: «أما علمت يا جميل، أني قد أسلمت، ودخلت في دين محمد ﷺ؟» لم يستفسر معمر منه، فالاستفسار مضيعة للوقت مع هذا السبق الإخباري.. تركه في الحال، وربما ترك بابه مفتوحًا، وانطلق يجر رداءه من العجلة.

يصيح في الشوارع والميادين، فلحق به عمر، وكأنه يريد أن يضيء كل شبر أشرك فيه بالتوحيد، أما جميل فتوقف أخيرًا، حيث يجتمع طغاة قريش عند الكعبة، وتوقف خلفهما الطفل الجميل عبدالله بن عمر، فوصف ما حدث قائلًا: «اتبعت أبي حتى إذا قام جميل على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش.. ألا إن عمر قد صبأ».

لم يسأل الطغاة جميلًا: ما الخبر، وكيف يسألونه؟ لم يمهلهم عمر.. صاح متحديًا: «كذب معمر، ولكن قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأن محمدًا عبده ورسوله» هنا هجم الوثنيون كالوحوش عليه، فتصدى لهم جميعًا فضربوه وضربهم، واستمر العراك حتى قامت الشمس على رؤوسهم.. بعدها سقط عمر من شدة الإعياء، وابنه خائف عليه، وعلى الرغم من الإعياء توعدهم قائلًا: «افعلوا ما بدا لكم، فأقسم بالله أن لو كنا ثلاث مئة رجل لقد تركناهم لكم، أو تركتموها».

عندها قرروا الفتك به، فجلجل صوت من خلفهم: «ما شأنكم؟» فتوقفوا، والتفتوا، فإذا هو والد عمرو بن العاص؛ العاص بن وائل الذي جحد مال خباب. فأجابوه: «صبأ عمر بن الخطاب. قال: فمه؟! رجل اختار لنفسه أمرًا، فماذا تريدون؟».

خشي العاص أن تتصدع قوة قريش، فقال: «أترون بني عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم؟ هكذا عن الرجل». تنفس عبدالله، ووصفهم وهم ينقشعون عن أبيه، وقال: «والله لكأنما كانوا ثوبًا كشف عنه»، ثم نهض عمر، وأخذ بيد ابنه وانصرف تاركًا الطواغيت يهزون رؤوسهم.. يزمّون شفاههم.. يعضونها حسرة.

مشى شامخًا تشخب دماء العزة منه.. تلون ثيابه هيبة، فتذهل قريش عن الحبشة، ويراه المستضعفون، فترتفع معنوياتهم. فقد أصبحوا به كثرة بعد قلة، وقوة بعد ضعف، وجرأة بعد تردد، حتى إن الفتى النحيل عبدالله بن مسعود تجرأ على فعل ما لم يكن يجرؤ عليه من قبل.

هل سمع أهل الحبشة عن إسلام عمر؟

كانت الكعبة محرمة على المستضعفين قبل إسلام عمر، ولو تجرأ أحدهم لتمّ سحله تحتها، فلما أسلم تنفسوا.. ها هو الفتى ضعيف البنية ابن مسعود يبتهج بعمر، فهو القوة التي تمكن بها بفضل الله من الطواف بالبيت.. يتذكر كيف وظف طاقته للذود عن الضعفاء، وحقهم في اعتناق التوحيد.. يطرب قلبه لسيرة عمر، فيقول:

«إن إسلام عمر كان فتحًا، ولقد كنا، وما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا، حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه» هذا الفتى يختصر احتفاءه بعمر بكلمات تقول: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر».

ترى هل علم المهاجرون الغرباء بما جرى؟ ها نحن نبحر نحوهم.. ها هي الحبشة.. ما أجمل أنهارها، وأجمل ملكها العادل الذي استقبلهم خير استقبال، لكن مركبًا محملًا بالقسوة والجلود والهدايا يرسو بساحلها، فينزل منه عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، فيلبسان ثيابًا أنيقة ويسيران، وخلفهما كثير من الرجال يحملون الهدايا، وقبل أن يدخلا على النجاشي يقومان بحصر رجال البلاط الملكي ورجال الدين أيضًا. حتى قالت أم سلمة: «لم يدعوا رجلًا منهم إلا هيّؤوا له هدية على حدة» تنفيذًا لوصية الطواغيت الذين قالوا: «ادفعوا إلى كل بَطْرِيق (أي بطريرك) هديته قبل أن تتكلموا فيهم، ثم ادفعوا هداياه. وإن استطعتما أن يردهم عليكم قبل أن يكلمكم فافعلوا».

نفذ الرجلان ما طلب منهما، ثم توجها لكبار القساوسة، وقالا: «إنا قدمنا إلى هذا الملك في سفهاء من سفهائنا.. فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه، فأشيروا عليه أن يفعل». فقالوا: نفعل. طوعت الرشوة كبار القساوسة، ففرشوا للرجلين طريقًا من الأحلام والورد. وفي اليوم الموعود جلس الملك، فرفع الحاجب صوته، فدخلا مزهوين بهداياهما. فرحب بهما.. بعد ذلك قدما التماساهما، قائلين: «أيها الملك، إن فتية من سفهائنا فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجؤوا إلى بلادك، فبعثنا آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردّهم»، ثم التفتا نحو القساوسة، فنطقت الرشوة، وقال كبارهم: «صدقوا أيها الملك» حينها التفت العدل نحوهم، وتغير وجه الملك غضبًا، فصاح فيهم: «لا، لعمر الله لا أردّهم إليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم، وأنظر ما أمرهم، قوم لجؤوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري! فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم» أحرق العدل هدايا الوثنية، وانفضح الرهبان الذين انحازوا لها من أجل قطعة قماش

أو جلد شاة، وأفسح العدل فضاءً للموحدين، فليقولوا ما شاؤوا، فلا مكان هنا لشريعة أبي جهل.

عندما يسافر جعفر بالقلوب

أصدر النجاشي أمره بإحضار المهاجرين ليستمع إلى مرافعتهم، فتبادل القساوسة نظرات مرتبكة، ونظر ابن العاص إلى صاحبه، فأصيبا بإحباط، ثم التفت النجاشي للقساوسة، وأمرهم بنشر مطوياتهم وكتبهم المقدسة، فقد يحتاج إليها.

أما رسوله فوصل إلى مقر المهاجرين الذين اجتمعوا على الفور، وتشاوروا، فقال بعضهم: وماذا نقول؟ فنطق البعض بكلمات واثقة: «نقول والله ما نعرفه، وما نحن عليه من أمر ديننا وما جاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما كان» فلن يلاقوا أشد مما لاقوه في ديارهم، ولئن كانت الغربة لن تمنحهم حرية، فما قيمة العيش فيها.

رشحوا ابن عم رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب ليكون متحدثًا، ثم نهضوا، وانطلقوا خلف رسول النجاشي، ولما وصلوا استأذن لهم، فدخلوا وحيوه، ولما مثلوا بين يديه تأمل حالهم وثيابهم فرق لهم، وسألهم: «ما هذا الدين الذي أنتم عليه.. فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية.. ما هذا الدين؟».

تكلم جعفر، فسافر بالمشاعر والعقول، وقال: «أيها الملك، كنا قومًا على الشرك نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها. لا نحل شيئًا، ولا نحرمه، فبعث الله إلينا نبيًّا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ولا نعبد غيره» لم يستطع ابن العاص وصاحبه الرد أو التكذيب، أما النجاشي فاشتاق قلبه للمزيد، وقال: «فهل معك شيء مما جاء به؟» فانتقى جعفر ما يصدع هذا القلب الطيب، حين قرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[مريم: ١-٤]، ولما مر على قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[مريم: ٢٢-٢٣]، وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[مريم: ٢٩-٣٣]، توقف جعفر، لكن رحلة النجاشي لم تتوقف.. أخذته كلمات الله بعيدًا، حيث نبي الله عيسى عليه السلام، حين اتهموا أمه، وطاردوه، وعانى هو وأصحابه المرارة من قومهم، فتداعت مشاعره، وسالت دموعه شوقًا إلى أحبته.

هل سيتراجع النجاشي عن وعده؟

كانت أم سلمة هناك في بلاط النجاشي.. تشارك، وترى، وتروي أثر القرآن عليه، فتقول: «فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها عيسى.. انطلقوا راشدين»، ثم التفت إلى رسولي قريش وهما كتلتان من الغم، فقال لهما: «لا، والله لا أردهم عليكم، ولا أنعمكم عينًا». تقول أم سلمة: «فخرجنا من عنده».

عاد عمرو وصاحبه إلى مكان إقامتهما، وقد قنع ابن ربيعة بما آلت إليه الأمور، لكن عمرو خطرت له فكرة ستقلب موازين العدل.. كان ينظر لوجه رفيقه والثقة تملؤه، ويبشره: «والله لآتين النجاشي غدًا بما أستأصل به خضراءهم: إنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد» حاول ابن ربيعة ثنيه قائلًا: «لا تفعل، فإنهم وإن كانوا خالفونا، فإن لهم رحمًا ولهم حقًّا»، لكنه أصر، ولما جاء الغد فوجئ المهاجرون بالخوف يطرق

بابهـم.. يطلـب مثولهم مرة أخرى. ارتجوا، وتحيروا حتى قالت هند (أم سـلمة): «ولم ينـزل بنا مثلها» تشـاوروا وبعدها أيقنـوا أن الصدق الذي أنجاهـم الله به لن يخذلهم، فقالـوا: «نقـول والله الذي قال الله تعالى فيه، والذي أمرنا به نبينا ﷺ أن نقول فيه»، ثم انطلقوا وقلوبهم تبتهل لربهم، فدخلوا عليه، ولما اكتمل حضورهم سـألهم النجاشي: «ماذا تقول في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر: نقول عبد الله ورسوله وكلمته وروح منـه ألقاها إلى مريم العذراء البتـول»، عندها انحنى النجاشي نحو الأرض، ومدّ يده، فالتقـط عودًا صغيرًا، ثم رفعه ليراه الحاضرون كلهـم، فاعترف، وهو ممتلئ بالإيمان: إن وصف القرآن لعيسى لم يزد ولو بمقدار هذا العود على حقيقته.

لم تعجـب إجابتـه القساوسـة، فبـدؤوا يتنحنحـون ويهمهمـون، وكثـر لغطهم وتناخرهم، فأقسم بالله إن هذه هي الحقيقة وإن تناخروا، ثم توجه بالبشارة للموحدين الخائفـين والدمـوع تلمع في عينيـه، وكأنه يعتذر لهم ولرسـول الله ﷺ، فقال: «اذهبوا فأنتـم سـيوم. أي آمنون.. من سـبكم غرم.. من سـبكم غرم.. من سـبكم غرم. ما أحب أن لي ذهبًا وأني آذيت رجلًا منكم»، ابتسم المهاجرون شكرًا لله، وأدرك عمرو فداحـة مـا فعل، وشـعر بالندم، أما النجـاشي فأجهز على ما بقي له مـن معنويات.. عندما صاح بحاشـيته غاضبًا: «ردوا عليهما هداياهمـا، فلا حاجة لي بها. اخرجا من بـلادي» فخرجا منكـسي الرؤوس.. يجـران الهزيمة والجلـود، فلم يجدا ما ينسـيهما خيبتهما سوى الخمر، لكن حتى الخمر لم تنسِهما، بل جعلت بعضهم يضرب بعضًا.

قتال في الحبشة

ركب ابن العاص وابن ربيعة ورفاقهما مركبًا فوق النهر، وقد جلبوا الخمر علها تذهـب ما هم فيه مـن الغم والهزيمة.. بدؤوا يحتسـونها، فبدأت تخـرج ما بداخلهم مـن عبث الوثنية وألفاظهـا، فطارت العقول، وارتفعت الأصوات، فاسـتفز عمرو صاحبه الذي يفوقه طولًا وعرضًا، فنهض غاضبًا نحو عمرو، وأمسـكه بكلتا يديه،

ثـم رفعه، ورماه في النهـر. بدأ ابن العاص يتلبط في النهـر.. يتنفس هواء مرة، ومرة يتنفـس ماء.. كان يصرخ بين الماء المتطاير.. يناشـد ابـن ربيعة إنقاذه، وأخيرًا مدّ يده لـه، وانتشـله من النهـر، وأدخله المركب، فاسـتلقى كقطعة إسـفنج يسـيل الماء من جسده وشعره وثيابه.

أفاق عمرو من سـكرته، فشـعر بعداوة تفوق عداوتها للمهاجرين، فقرر الانتقام والتخلـص من صاحبه في الحبشـة، وقـد نفذ مخططه، وعاد لمكة، أمـا المهاجرون فزالت همومهم وهم يرون النجاشي يتطلق في وجوههم بشاشـة، ويعلن إسـلامه على أيديهم، ويقول: «مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى، ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أقبل نعليه، امكثوا في أرضي ما شئتم، وأمر لهم بطعام وكسـوة»، عندها ازدانت غابات الحبشة وسـهولها، وازدادت عذوبة أنهارها حتى قالت أم سـلمة: «فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار»، فمكثوا أشـهرًا من السـعادة والأمن. وفجأة تحدث مصيبة على الجانب الآخر من النهر تهدد حرية المهاجرين.

اقـترح بعضهـم نفخ قربـة لأصغرهم، وهو الشـاب الزبير بن العـوام ابن عمة رسـول الله ﷺ؛ كي يعوم ليأتي بالأخبار. ها قد وصل، وقد وصل قبله جيش يقوده عدو للنجاشي.. جاء لانتزاع الحكم منه، وأمامه جيش النجاشي.

بـدأت المعركة، وارتفعت الأصوات، وتناثرت الجثـث، أما على الضفة الأخرى فتصف أم سـلمة المشـاعر، قائلة: «فوالله ما علمنا حزنًا قط كان أشـد منه فرقًا من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرف، فجعلنا ندعو الله، ونستغفره للنجاشي» وبعد ساعات فوجئ المهاجرون بالزبير يركض.. يلوح بردائه.

تـرى هـل هو النذير أم البشـير؟ إنـه يصيح من الفـرح: «ألا أبشروا قـد أظهر الله النجاشي» فتلألأت وجوههم سرورًا حتى قالت أم سلمة: «والله ما علمنا فرحنا بشيء قـط فرحنـا بظهور النجاشي، ثـم أقمنا عنده حتى خـرج مَن خرج منـا راجعًا إلى مكة، وبقي من بقي» ترى كيف هي أوضاع حبيبهم ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم جميعًا؟

زلزال في مكة

وصل ابن العاص مكة، فاستقبلوه متغيرًا حزينًا. سألوه عن رفيقه ابن ربيعة، فلا أدري بِمَ أجابهم، لكن الإجابة أحبطت معنوياتهم، وفاقم من إحباطها خبر زلزل مكة من أقصاها إلى أقصاها. حمزة بن عبدالمطلب يعلن إسلامه.. يطوف بالبيت لا يجرؤ أحد على التعرض له، فمن أراد أن يفقد حياته، وتثكله أمه فليتعرض لأبي عمارة.

فزع حكيم قريش عتبة بن ربيعة، وهو يرى البطش والقمع لا يزيدان الإسلام إلا قوة وانتشارًا. ففي أحد الأيام كان ﷺ يرتل سورة النجم، فلما وصل آية السجدة سجد، فسجد معه المسلمون والمشركون، غير شيخ أخذ كفًّا من حصى أو تراب، فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. خشي عتبة على هبل واللات والعزى وبقية الحطب، فقال وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ في المسجد وحده: «يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد، وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا»، وذلك حين أسلم حمزة؟.

نهض عتبة، ومشى ممتلئًا بالأمل حتى جلس أمام نبي الله ﷺ فقال بكل لطف: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم.. فرّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها؟».

فقال ﷺ: «قل يا أبا الوليد.. أَسمع». قال: «إن كنت تريد مالًا جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا (أي مسًّا من الجن) لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب».

لم يقاطعه ﷺ. تركه حتى انتهى، ثم سأله: «فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع مني». قال عتبة: أفعل، فقرأ ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت: ١-٢]، أخذت الآيات عتبة.. صدعت قلبه حتى غيرت جلسته، فألقى يديه خلف ظهره من الذهول، ولما قرأ: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾[فصلت: ٣٨]، سجد ﷺ ولم يسجد عتبة، فقد تحول تمثالًا من دهشة. رفع ﷺ رأسه والخشوع يضيء وجهه، ثم نظر لعتبة، وقال: «**قد سمعت أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**»، جمع عتبة يديه من خلف ظهره، وجمع ثيابه وشتاته مشدوهًا لا يستطيع الرد، ثم قام ثقيلًا نحو أصحابه الذين صدموا بهذا الوجوم القادم نحوهم، وبتلك الملامح المسافرة في آيات ذكرته بعظمة الله ومصير الطواغيت الذين تجبروا، وعاندوا، وبطشوا بالأنبياء والدعاة، ولما اقترب عتبة أقسم بعض أصحابه: «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به».

قرآن يخترق الحصار

جلس عتبة بن ربيعة واجمًا.. أذهله القرآن عما حوله حتى أفاق على نداء أصحابه: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: «ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به». قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد، بلسانه. قال: «هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم».

تأثر عتبة، لكن طاغوتًا آخر لا تجدي معه لغات الإقناع، فقلبه مغموس بالحسد.. ها هو أحد دهاة قبيلة ثقيف يدعى المغيرة بن شعبة ينحدر من بساتين الطائف وجبالها على دابته ببطء نحو مكة.. يطوف بالبيت، ثم يتوجه نحو صديقه أبي جهل، فيسلكان أحد الأزقة، فيشاهد المغيرة نبي الله ﷺ لأول مرة، حين توقف يخاطب أبا جهل بكل رفق: «**يا أبا الحكم، هلم إلى الله ﷻ وإلى رسوله؟**» فرد الطاغوت بصلف: «يا محمد، هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقًا لاتبعتك» سكت ﷺ ثم انصرف. عندها التفت أبو جهل

للمغيرة، وقال ساخرًا: «والله إني لأعلم أن ما يقول حق، لكن بني قصي قالوا: فينا الحجابة.. فينا الندوة.. فينا اللواء.. فينا السقاية. فقلنا: نعم. ثم أطعموا، وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا: منا نبي! والله لا أفعل».

اكتشف المغيرة في ذلك الزقاق أعماق أبي جهل السوداء، فعجب لهول الحسد الذي يحرق قلبه، وعجب لقوم يتسللون نحو بيته ﷺ في المساء يطرقون بابه.. يضعون أماناتهم عنده كلما أرادوا سفرًا، فهو أوثق عندهم من آبائهم وأمهاتهم، وفي النهار ينكلون بأصحابه، ويتهمونه بتهم لا تنتهي.

ها هو الطبيب اليماني ضماد بن ثعلبة يصل مكة، فيسمع سفهاء الناس يقولون: إن محمدًا مجنون. فيرق قلبه الطيب، ويقول في نفسه: «آتي هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي» بحث ضماد حتى وجده، ولما وقف بين يديه عرض مساعدته، قائلًا: «يا محمد، إني أرقي من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء فهلم».

عندها قال ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهدِه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله**» شعر ضماد أنه هو المريض، وأن تلك الكلمات قد شفته، فقال: «والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فهلم يدك أبايعك على الإسلام»، فبايعه ﷺ وقال له: «**وعلى قومك**». أشرق ضماد على بلاده كأبي ذر والنجاشي، لكن آخرين يأتون ينصتون يؤمنون، لكن الخوف يمنعهم من البوح بمشاعرهم وإيمانهم، إلا على ضفاف الموت كهذا الشاب الصغير المقبل من يثرب.

يثرب عاشقة الأنبياء

كانت يثرب تموج بالثارات والدماء، والوعيد بالمزيد من الدماء، فقد تقاطر عليها اليهود من كل مكان حين بشرتهم التوراة بنبي يهرب من جبال فاران (مكة). طالبتهم باستقباله في مدينة النخيل، ووعدتهم بانتصاره على العرب أبناء قيدار،

فاستوطن اليهود مدن النخل تبوك وهجر ويثرب وغيرها، وشيدوا الحصون وبنوا داخلها أحياءهم الخاصة المسماة (الغيتو) استعدادًا للحرب خلف هذا النبي المنتظر.

ظنوا أنه يهودي؛ لأنه سيحارب عربًا. ها هو أحد حاخاماتهم.. ربما كان فلكيًّا يصرخ فوق أحد الحصون قائلًا: «يا معشر اليهود، فاجتمعوا إليه قالوا: ويلك ما لك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة. حاخام آخر يدعى ابن الهيبان كان رجلًا صالحًا يلجؤون إليه للاستسقاء، فلا يخرج إلا بعد أن يتصدقوا على الفقراء. وهو الآن طريح الفراش وحوله أصحابه كالحزن.. يوصيهم بشوق لا يطيقه قائلًا: «يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير، إلى أرض الجوع والبؤس؟ فيقولون: الله أعلم. فيجيب: إني قدمت إلى يثرب انتظر خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا يسبقنكم إليه يا معاشر اليهود، أحدٌ». فينصت لتلك الوصية ثلاثة من الشباب، فيتركون ديارهم، ويسكنون حصن قبيلة بني قريظة.. في مكان آخر طفل من أهل يثرب يدعى سلمة بن سلام ينصت لحاخام يذكر الناس بيوم البعث والحساب والجنة والنار، ويقول: إنه يتمنى لو أنه أُدخل فرنًا من أفران الدنيا مقابل النجاة من جهنم.

اقشعرت أبدان الوثنيين، واتسعت أعينهم، فسألوه: ويحك يا فلان، أو ترى هذا كائنًا؟ الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ ثم طلبوا منه دليلًا على ما يقول؟ فأخبرهم أن الدليل هو نبيٌّ يبعث من هنا. ثم مد يده جنوبًا نحو مكة.

اضطرب الحاضرون، وصاحوا: متى؟ تلفت الحاخام، وكأنه يبحث عن النبي نفسه، ثم وقعت عيناه على سلمة، وأشار إليه. فوجهوا أبصارهم نحو الطفل، فقال: «إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه» وتمر السنوات، وتزداد الثارات بين قبيلتي الأوس والخزرج، فتمتلئ المقابر بالقتلى، فيلجأ الأوس لمكة طلبًا للمساعدة، فيقابلهم النبي ﷺ ويدعوهم للإسلام، فلا ينصت له إلا شاب يدعى إياس بن معاذ..

كان يلتقط الإسلام كلمة كلمة حتى غيرته، فأمسى غريبًا بين نخيل المدينة.. يقتله الشوق إلى نبيه، ولا يستطيع البوح، وتثور معركة (بعاث) في يثرب، فيلتحق بها، ثم يسقط على ضفاف الموت، فينصت أحد أصدقائه له، وهو يبوح أخيرًا بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير والدموع حتى صعدت روحه.

لغة العضلات

على الرغم من بطش الشرك، ينتشر التوحيد كالهواء.. ينساب كالماء.. يحمله نبي خلقه القرآن.. نبي كريم متسامح لا يعرف الغل. يمشي ذات يوم، فيصادف وثنيًّا مليئًا بالغل تجاهه.. مفتول العضلات.. مفتونًا بالعضلات.. كل همه البحث عمن يقدر على طرحه أرضًا، فلم يجد، ولما شاهد النبي ﷺ وجدها فرصة ليتسلى، ويسخر منه، ويضعه ضمن قائمة ضحاياه الطويلة، وقصصه العجيبة التي تشد المراهقين.

عرض على النبي ﷺ شيئًا من غنمه إن استطاع التغلب عليه. فرأى ﷺ أن هذه الرياضة نوافذ تطل على روح تائهة حان استردادها، فوافق. عندها أمسك ركانة نبي الله بالطريقة التي يجيد بها طرح خصومه، ولما بدأ الأمر، إذ بعضلاته وجسده وطريقته كتلة تتمرغ بالتراب.

أفلته ﷺ، فنهض ركانة فزعًا ينفض التراب والهزيمة عن جسده وثيابه.. كانت نظراته وأنفاسه ورائحته الثائرة تنبئ عن تحدٍّ جديد، فأعلن بعصبية رهانًا آخر. فوافق ﷺ، فجرب الرجل طريقة أشرس لا تصلح إلا للأقوياء، هزه ﷺ، فاضطرب وحاصت قدماه، وأثارتا غبار الأرض مرة أخرى، ثم خر صريعًا، فأحس بعار وانكسار لم يعهده. عار لن يمحوه سوى طرح محمد بأي ثمن، حتى لو خسر بقية غنماته؛ لذا جعلها رهانه الأخير، ورمى بكل قوته وخبرته معها.

تأهب ركانة وعلا زحيره، وتصبب عرقه، ونتأت عروقه، فصرعه ﷺ للمرة الثالثة.

هنا تناثرت كبرياؤه، فتأمله ﷺ، فرأى نثارًا لا تزيده الجاهلية إلا انكسارًا، فأحب أن يبنيه من جديد بالإسلام، فرد عليه غنماته بلطف دون أن يسخر منه، أو يفخر عليه، ولما هم ﷺ بالانصراف أفاق ركانة، فرأى نبيًّا عظيمًا لا يبحث عن مال أو مجد دنيوي.. نبي يستطيع تمريغ أي صنديد من الوثنيين بالوحل، ومع ذلك يأبى خلقه فعل ذلك. أدمته قريش.. ضربته.. خنقته.. شتمته، وسحلت أصحابه، فلم تسجل عليه يومًا أنه آذى أحدًا منها، أو ضربه، أو شتمه.. خادمًا كان أو عبدًا أو طفلًا أو امرأة.

عثر ركانة على روحه وعقله بين يدي محمد ﷺ، فأدرك أنهما أهم من تقاسيم جسده وقوة عضلاته، فأشرق التوحيد مع روحه المحررة، وقال: «يا محمد، ما وضع جنبي في الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إلي منك، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله». انصرف ركانة أقوى من قبل. أما نبيه ﷺ فتوجه إلى حطام آخر يتكوم الآن في بيت عمه.

عندما يدوس المرء على عقله

فقد زبانية قريش السيطرة على مكة دون حرب.. دون سلب أو نهب. الفارس الوحيد الذي يسلب القلوب والعقول هو محمد ﷺ، على الرغم من أنه لا يحمل سيفًا، ولا يضرب أحدًا.

ها هو الشيخ الوليد بن المغيرة خال عمر، ووالد خالد يمشي في إحدى الطرقات متنكرًا أو متلثمًا.. يتلفت.. لا يريد أن يراه أحد حتى وقف بباب النبي ﷺ، فيرحب به، ويدخله.

يجلس المغيرة كالعطشان.. يريد الارتواء من القرآن، فيتلو ﷺ عليه، فتحلق روحه، ثم يعود في يوم آخر وهو أشد شوقًا، فيعلم فرعون الأمة الذي يبدو أنه وضع عينًا على كل صنديد.. يعلم بتسلله وانخطاف روحه، فيسبقه كالشيطان

إلى بابه باستفزاز شيطاني، قائلًا: «يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا، قال الوليد: لِمَ؟ قال أبوجهل: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قبله. قال الوليد: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا! قال أبوجهل: فقل فيه قولًا، يبلِّغ قومك أنك منكر له».

عندها رفرفت روح الوليد، ونطقت مشاعره وقناعته، فقال وهو يسخر من عقل أبي جهل وضحالة ثقافته: «وماذا أقول، فوالله ما فيكم أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن.. والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته» عندها أراد أبوجهل نبش كل ما بأعماق عمه من جاهلية على وشك الموت.. ذكره بمكانته التي تضررت، والتي لا بد أن يدفع ثمن ترميمها، فقال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني أفكر فيه.

أخذ الوليد وقته من التفكير: حسنًا، ليس هناك سوى القفز للأمام.. دعنا من الحديث عن لغته المعجزة. دعنا نقفز لتأثيره. وجدتها: السحر.

قال الوليد: «هذا سحر يأخذه عن غيره» فنزل قوله تعالى يفضحه، ويفضح تقاسيم وجهه وهو يكذب: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ١٨-٢٣]، تصفحت قريش قول الوليد بن المغيرة، وقارنت أوله بآخره، فأدركت أن أكاذيبه لا تصمد أمام حقائقه، فالقرآن استثنائي ومعجز ومقنع، ولئن تراجع الوليد فمن يضمن تراجعه عن تراجعه؟ من يضمن ألا ينضم له بقية الصناديد؟ أمر مخيف جعل قريشًا تجتمع.. تتداول ما هي فيه، ثم ينهض الطواغيت نحو بيت أبي طالب؛ عله يكف ابن أخيه عن خطف القلوب والعقول والأرواح.

هل ترون الشمس؟

كانت الشمس تصب لهيبها على مكة.. في وقت تختفي فيه الأقدام عن الطرقات.. وقت للظل والماء البارد، لكن أبا طالب فوجئ بعشرات الأقدام تخطّ أتربة الطريق نحو بيته.. تطرق بابه في وقت ليس وقت زيارة. رحب بهم، فدخلوا وملؤوا مجلسه والعرق يلمع في جباههم. أدرك أن وراء هذا التوقيت شيئًا غير عادي، فسألهم مستغربًا زيارتهم، فقالوا: «إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهَه عنا».

كان أبوطالب حكيمًا.. يدرك أن محمدًا لن يرفض له طلبًا من أمور الدنيا، لكن هؤلاء السطحيين يطلبون شيئًا ليس في يده، ولا حتى بيد محمد ﷺ؛ لذا لم يعدهم بشيء.. أرادهم أن ينصتوا إلى محمد نفسه، حتى يدركوا أي شخص يتحدثون عنه، وأي أمر هو ماضٍ فيه.

التفت أبوطالب إلى ابنه الأكبر عقيل، وقال: «يا عقيل، انطلق فأتِني بمحمد» يقول عقيل: «فانطلقت إليه، فاستخرجته من خيس بيت صغير» امتثل ﷺ احترامًا لنداء عمه على الرغم من السموم والرمضاء.. كان ﷺ من شدة الحرارة يتتبع الظل قرب الجدران والعرق يتصبب منه حتى وصل، ولما وقف بين يدي عمه حدق به الجميع، وهم يتمنون أن يسيل دمه بدلًا من عرقه، أما عمه فخاطبه بلطف.. يستثير فيه شيئًا من المداهنة والتنازل في عقيدته، فقال: «إن بني عمك قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانتِه عن أذاهم؟» عندها أراد ﷺ حسم أمر العقيدة معهم، فحلق ببصره إلى السماء، وقال: «**أترون هذه الشمس؟**» ترك الوثنيون التحديق به ﷺ ورموا بأبصارهم نحو الشمس ينتظرون شيئًا مخيفًا، وقالوا وهم في حالة استغراب: نعم، فقال: «**فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك.. منكم على أن تشعلوا منها شعلة**».

تلفّت بعضهم إلى بعض من شدة الغيظ، وأدرك أبوطالب أي عزم حديدي يملأ ابن أخيه المضطهد، فقال: «**والله ما كذبنا ابن أخي، فارجعوا**».

انقشع الركام عن مجلسه، وعادت قريش أكثر تصميمًا على البطش بدعوته، فاجتمعت وما أكثر ما تجتمع، فكان قرارها استئناف التنكيل بالمؤمنين حتى لو

كانوا بقوة عمر بن الخطاب. بل ذهبت مجموعة كبيرة منهم بسيوفهم نحو بيت ابن الخطاب يريدون رأسه.

طوقوا بيته، ورصدوا نوافذه وأبوابه، وسمع عمر أصواتهم، فاستعد للحاق بياسر وسمية، أما طفله عبدالله فكان حالة ذهول يركض.. يصعد الدرج نحو سطح المنزل، ولما استقرت به أقدامه الصغيرة تلفت فإذا به يرى الموت والسيوف تطوق بيتهم.

حصار عمر وهجرة أبي بكر

كان الطفل ابن عمر يذرع سطح منزلهم.. يرتجف.. يحدق في الوثنيين الذين سال بهم الوادي، فتشع سيوفهم في عينيه. ينتظر طعنة من هنا أو هناك تستقر في قلب أبيه أو ظهره.. يتلصص اليتم عليه من شقوق الأبواب والنوافذ.. ينتظر الفجيعة في أي لحظة. يتحدث حزنه: هل سترحل أيها الحبيب.. هل ستتركني وحيدًا؟

كان ابن عمر يدعو، وفجأة ابتسم، وربما سالت دموع الفرح من عينيه البريئتين، فقد رأى رجلًا أنيقًا يرتدي حلة فاخرة: قميصًا مكفوفًا ومخططًا بالحرير، وثوبًا مزينًا بالنقوش.. قد التف بقباء من الديباج الخالص. شقت أناقته وهيبته هذا الجيش، ثم طرق باب عمر، ففتح له، وما إن دخل حتى سأله عن سر هذا الحشد، وقال: «ما بالك؟» قال عمر: «زعم قومك أنهم سيقتلونني» هون الرجل من الأمر، وطمأن ابن الخطاب، وقال له: «لا سبيل إليك».

يصف عمر مشاعره حينها، فيقول: بعد أن قالها أمنت، ثم فُتح الباب مرة أخرى، فخرج الرجل، فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فصاح: «أين تريدون؟» فقالوا: «نريد هذا.. ابن الخطاب الذي صبأ». قال: «لا سبيل إليه. أنا جار له». فأغمد الجميع سيوفهم، وانصرفوا. أما ابن عمر فيصف تغير المشهد، فيقول: «فرأيت الناس تصدعوا عنه، فتعجبت من عزه» خلت الساحة من الحقد والإقصاء،

وانحدر الطفل، وكأنه منح أباه من جديد.. يركض نحو دموع أمه، وقد انقشع عنه شبح اليتم والوثنية، ثم سأل عن هذا الرجل؟ فقالوا له: إنه حليف عائلة عمر (العاص بن وائل السهمي).

لكن إذا كان الحلف قد صد القتل عن عمر، فهناك من لا حلف له سوى الواحد الأحد.. هناك بلال الذي لا يريد مالكه أن يقتله، فيخسر قيمته، ولا يريده أن يحيا، فيقلق وثنيته بصيحته الخالدة: أحد.. أحد. كان يتفنن في تعذيبه وكان آخر فنونه في ذلك الحر اللاهب أنه أضجعه عاريًا على الرمضاء، ثم أحضروا له صخورًا ألهبتها الشمس، فغطوه بها، فمر أبوبكر بأخيه بلال وهو على تلك الحال، فتوقف وقلبه ينزف حزنًا.. ضاقت به الأرض وتوجه نحو مالكه أمية بن خلف، فساومه على شرائه حتى سلمه الثمن الذي أراد، ثم توجه رضي الله عنه نحو ذلك الجبل الأشم المكسوّ بالحجارة، فأزالها عنه حجرًا حجرًا، ثم كساه ثيابًا، وعانقه حبًّا ودموعًا، وبشره ببشرى لم يتسع لها قلبه حين أخبره بأنه حر لوجه الله.

بكى بلال من الفرح طويلًا. لكن مكة أبكت أبا بكر حزنًا. ضاقت به حتى حمل زاده، وودعها.

عندما ضاقت بأبي بكر حبيبته

كان عمر يتأمل بلالًا.. يتذكر أنينه في سبيل الله، فترحل به الذكريات إلى أبي بكر، ويقول: «أبوبكر سيدنا، وأعتق سيدنا»، يعني بلالًا. فبلال سيد عجزت السياط عن إسكات صيحات التوحيد من أعماقه: أحد أحد، وأبوبكر سيد تشهد مكة أنه أقرب الناس إلى نبيه ﷺ.

ها هي طفلته عائشة تتحدث عن جزء من برنامج أبيها اليومي الذي لم يَخْلُ من زيارتين يتفضل بهما نبي الله ﷺ يوميًا: مرة في الصباح، وأخرى في المساء. فأي الناس أسعد من الصديق بهذا الحب والزيارات؟

عائشـة تصف طفولتها، وتفتـح عينيها على التوحيد وإيمان أمهـا وأبيها، وعلى العطر الذي يهب على بيتهم صبحًا ومساءً، فتقول: «لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية».

زيارات تبوح بالمسـاحات التي قطعها الصديق في قلب حبيبه ﷺ.. كان أبوبكر يمتلـك القلوب بأخلاقه وجمـال صفاته كنبيه، فالذي أدب نبيه ﷺ وأحسـن تأديبه يقـول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أجـل، يـا محمـد، لو كنت فظًّا لانفض عنك أبوبكر وعمر وعلي وخديجة وبقية أصحابك، ولما فداك بلال وخباب بأرواحهم.

آه مـا أجمل أخلاق محمدٍ!.. ما أعـذب أسرها، وما أجمل أخلاق الصديق رجل الأعمال الذي أنفق ماله على الدعوة حتى شهد ﷺ له بكلمات أسالت دموعه! فقال: **«إن مـن أمـن النـاس عليَّ في صحبتـه وماله أبا بكر، ولـو كنت متخـذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته»**.

أبوبكر يبذل ماله لفقراء مكة ومحتاجيها وضيوفها.. أبكاه نبيه أيامًا، لكن القرآن يبكيه كل يوم.. ها هو رضي الله عنه بفناء داره يرتل القرآن، فيتهدج صوته خشوعًا، فترفرف الأرواح حولـه، وتحدق العيون به وهي تلمع، ثم يجمـع القلوب، ويأخذها معه إلى بيته، فيشـتكي عشـاقه الوجد، وينتظرون الغد، حتى أصبح فنـاؤه موعدًا للمتيمين بالقـرآن.. يهيمون بفنائه. ينتظرون الإفراج عن قلوبهـم وإطلاق أرواحهم نحو الله بعيدًا عن ملوثات الوثنية.

شـعر شـياطين قريـش بأن الصديـق أخذ قلـوب أبنائهـم وبناتهـم، وأبقى لهم الأجسـاد، فأرسـلوا شـياطين لا قلوب لهـا، ومراهقين بـلا عقول للتشـويش عليه وشتمه وضربه، حتى مل رضي الله عنه.. ضاقت به مكة التي لم تعرف سوى ابتسامة شفتيه، وعطفـه وسـخاء يديه. ضاقت حبيبته مكـة، فعذرها، وقرر الهجرة للحبشـة، فأخذ زوجته وبناته، وانطلق.

ما الذي أتى بك إلى برك الغماد؟

ها هو الصديق يحزم متاعه، وها هي زوجته الرائعة أم رومان.. تتفقد ما يحتاجان إليه من زاد وثياب للرحلة، وابنتهما الصغيرة عائشة تتحرك بفضول الطفولة وبراءتها حولهما، بينما كانت أختها من أبيها أسماء بالغة تشارك شقيقها عبدالله في حزم الأمتعة، وتشعر بالألم على عدم إسلام أمها حتى الآن.. يبكي من حضر من الموحدين لحظات الوداع، ويبكي بلال بحرقة، وهو يرى حبيبه أبا بكر يسافر بقلبه بعد أن أعتقه وحرره. ركب المهاجرون، فتحركت بهم مطاياهم حتى وارتهم الجبال بعيدًا عن أنظار الأحبة.. تتمايل بهم جنوبًا أيامًا وأسابيع، حتى اقتربوا من اليمن، ولما حطت رواحلهم بمكان يقال له: (برك الغماد).. صادف وصولهم وجود أحد سادات العرب، ويدعى ابن الدغنة، وهو سيد عشيرة يقال لها: القارة.

تهلل وجهه لما رأى أبا بكر، فهو يحترمه، ويعرف قدره.. حيا الرجلان بعضهما، وبعد حوار قصير تحسس ابن الدغنة نزفًا في كلمات الصديق، وحزنًا في ملامحه وعينيه.. كانت عائشة الصغيرة تتأمل المشهد بفضول، فتقول: «ابتلي المسلمون، فخرج أبوبكر مهاجرًا قِبَل الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي».

انتفض ابن الدغنة مستاءً.. كيف تضيق مكة بابنها الكريم السخي، وهي التي اتسعت لغل وحقد في صورة رجال كأبي جهل وأبي لهب؟ عجب ابن الدغنة لهذا الفكر الإقصائي، الذي اتسع لكل الهراء الممثل بأكثر من ثلاث مئة صنم، وضاق بكلمة التوحيد، لكن رحلة أبي بكر توقفت بعد هذا الحوار، وعادت مطاياه أدراجها، فقد قال ابن الدغنة كلمات من مجد: «يا أبا بكر، إن مثلك لا يَخرج، ولا يُخرج، فإنك تكسب المعدوم وتصل الرحم، وتحمل الكلّ وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك».. كان الصديق يدرك وزن الرجل، فعادا معًا.. يشقان المسافات الشاقة حتى لاحت جبال مكة الحبيبة.

نـزل ابـن الدغنة، وبعد أن اسـتراح، وألقـى عنه عناء السـفر خرج، ومـر على كبار المتآمرين فردًا فردًا، وقال محذرًا، ومعلنًا أن أبا بكر منذ الآن في جواره.

تغيرت وجوههم، واضطربوا، وهمهموا، ثم اجتمعوا فلم يجدوا بدًّا من القبول، لكـن لا بد من تعكير الصفو؛ لـذا فرضوا شروطًا تقيد حركة أبي بكر وعبادته، فهل سيوافق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

الحرية ليست من حقوق الدعاة

سـار ابـن الدغنـة نحو زعامـات قريـش.. معلنًا دعمـه لأبي بكـر في الحصول عـلى حقـه في عبادة ربه. قدم لهم قائمـة بصفاته البيضاء، وكأنه يقـول لهم: مهلًا أيها الإقصائيـون، فأبوبكر ليس بقاطع طريق، ولا بقاتل، ولا مغتصب.. إنه المطر يهمي رحمـة.. إنـه النهر الذي يروي مسـاكين مكة. قال لهم: «إن أبـا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخـرج! أتخرجـون رجلًا يكسـب المعـدوم، ويصل الرحـم، ويحمل الـكلّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟».

خجـل الطواغيـت مـن شـهامة الغريـب، وهـو يعدد صفـات ابنهـم الموحد، فانفضحـت قلـة مروءتهـم، فاشـترطوا شرطًـا يفصـح عـن عـدم ثقتهم بأنفسـهم وفكرهم. فقالوا: «مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصلِّ وليقرأ ما شـاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا».

اعـتراف وثني بـأن دين محمد ﷺ مقنع، وإقرار بممارسـتهم حجب الكلمة عن عقول الأجيال، ومصادرة حقها في الاختيار.. سـلوك يلازم أعداء التوحيد إلى قيام الساعة.

عـاد ابـن الدغنـة إلى أبي بكـر، فأخبره، فلـزم بيتـه، وحرمت القلـوب المتلهفة للقـرآن، وتبعثرت مئات الخطوات حول فنائه، لكـن الصديق وجد العزاء في عودة خطوات لا تتبعثر.. خطوات نبيه ﷺ وزياراته لبيته صبحًا ومساءً، وفي يوم من تلك

الأيـام كانـت خطواته ﷺ لا تتجه لبيت الصديق، فقـد حاصره مجموعة من الوثنيين الأشرار، وعـلى الرغـم من قوتـه لم يُبْدِ أي عنف.. لا بلسـانه ولا بيـده، فاجترؤوا، وهجموا عليه، وضربوه حتى سـال دمه، فهرب ﷺ خارج مكة حتى أصبح وحده، ثم جلس على صخرة أو على الأرض مثقلًا بالحزن.. يمسح الدماء التي تلون جسده وثيابـه.. بلـغ حزنه مداه وهو لا يجـد مبررًا لهذا الحقد ولا لكل هـذه الكراهية، فهو مسـالم لا يشـتم من شـتمه، ولا يسـب من سـبه، ولا ينتقم ممن ضربه.. هو السماحة كـما صورته زوجته: «ما خـير ﷺ بين أمرين قط، إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وما انتقم ﷺ لنفسه في شيء قط».

لقد لبث المسيح عليه السلام على الأرض ثلاث سـنوات بهذه السـماحة، فسـمي نبي السـلام، فما الذي يسـتحقه من مكث ثـلاث عشرة عامًا لم يحمل سـلاحًا، ولم ينتقم لنفسه من عدو قط.

في تلـك اللحظـات البالغة الوجع نزلت رحمة الله، وهمى دعمه يغسـل حزنه.. يمـده بطاقـة لا حدود لها.. نـزل جبريل عليه السلام وهو جالس حزينًـا، فقال له: «مالك؟ قـال ﷺ: فعـل بي هؤلاء، وفعلوا. فقال لـه جبريل: أتحب أن أريك آيـة؟ قال: نعم، أرِني».

***

أتحب أن أريك آية؟

كان جبريـل عليه السلام قـد هبط في ذلك الوادي، لمواسـاة النبـي ﷺ الذي ينزف على ضفافه دمًا وألمًا، فقال له: «أتحب أن أريك آية؟ فقال ﷺ: نعم».

التفـت جبريـل إلى الوادي، ثم رمـى ببصره إلى شـجرة خلفه، ثم أشـار إليها، وقال: ادعُ تلك الشجرة. فدعاها ﷺ. وإذ بالمعجزة تشق الوادي، وتمسح الأحزان.. أقبلـت الشـجرة بجذورهـا.. بسـيقانها.. بأغصانها تشـق الـوادي حتـى قامت بين أيديهـا.. بـين أعينهما، فقال ﷺ وهـو أكثر إيمانًا وثقـة بربه: «**مُرْهـا فلترجع. فأمرها**

فرجعت إلى مكانها» عندها التفت ﷺ لحبيبه جبريل، وقال: «**حسبي**»، ثم صعد جبريل، فنهض ﷺ مطمئن القلب.. نهض لا يعرف اليأس في دروب الدعوة، لكن الأشرار لا يملون من الأذى.

ها هم يفاجئونه ﷺ في أحد الأماكن.. يضربونه حتى ينزف أصبعه، فينظر ﷺ إلى ذلك الأصبع الملون بالدم، فيخاطبه، وكأنه يخاطب أحد أصحابه الذين يئنون، وينزفون، ويقول: «**هل أنت إلا أصبع دميت.. وفي سبيل الله ما لقيت**» ثم يعود إلى بيته.. إلى حبيبته خديجة وبناته.. يمسحن دماءه وجراحه.. يغسلن ثيابه من التراب والغبار.. تقتلهن المرارة وهن يشاهدن خير من مشى على الأرض يطرح على التراب، ويؤذى، ويضرب.. يعود ﷺ إلى بيته ليجد الزوجة الحانية.

ها هي تعد له شيئًا يواسي جسده المنهك، وإذ بشخص يدخل بيته دون علمها، بل يكلمه بشأنها، ثم ينصرف، وبعدما انصرف تهادت رضي الله عنها بطبقها، فابتسم ﷺ بوجهها، واستنار وجهه.. لم تستغرب ابتسامته فهو أكثر الناس تبسمًا وبشرًا، ولكن ابتسامته كانت تتكلم.. تبوح بهدية لا يتسع لها الفرح. هل سيبشرها بأنها حامل؟ لا. فقد تجاوزت الستين.

بشرها بأجمل، فقال ﷺ: «**جاءني جبريل، فقال لي: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة، من قصب لا صخب فيه ولا نصب**» ابتهجت الحبيبة التي بدا الإجهاد على بدنها من المعاناة، فدموعها لا تكاد تتوقف حزنًا على زوجها مما يتعرض له، لكن ذلك يوشك أن ينتهي.. قصر من اللؤلؤ بانتظارك في الجنة يا خديجة.. لا تجاورك فيه أم لهب.. جيرانك مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وأمثالهما من الرائعات.

هناك حيث لا ملل ولا تعب، ولا مرض ولا قمع ولا موت، فالجنة شباب وجمال وحب دائم، وأمن وغنى وسعادة لا حدود لها.

دموع أبي بكر مكلفة

أبوبكر الصديق يفكر في الحرية مهما كانت مكلفة.. فكر في بناء مسجد صغير بفناء داره.. بنى المسجد، وعمره بالصلاة وقراءة القرآن.. يأخذه القرآن في حالة من الخشوع ينسى فيها من حوله وما حوله.. يعبد الله كأنه يراه، فإذا الدموع تجمع القلوب والعيون حوله.. كانت طفلته عائشة تتفرج وتتأمل الدهشة التي تلتف حول فناء بيتهم، فتقول: «تقصف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبوبكر رجلًا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن» فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين. فأرسلوا رجلًا يستدعي ابن الدغنة لمناقشته حول جرأة أبي بكر.

لبس ابن الدغنة ثيابه، وجاء مع رسول قريش، ولما وقف أمامهم سألهم عن سبب استدعائه، فقالوا: «يا ابن الدغنة، إن هذا الرجل الذي أجرت رجل له حال ما هو لغيره.. إذا تلا ما جاء به محمد بكى بكاء لا يبكيه أحد، فيرقّ لذلك منه ضعفاؤنا ونساؤنا وخدمنا، فمره فليكف عنا» «إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره، وإنه جاوز ذلك، فابتنى مسجدًا بفناء داره، وأعلن الصلاة والقراءة، وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا. فأته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان».

طغاة قريش في ظاهر الأمر يلتزمون العهد، لكنهم في الحقيقة يقننون الظلم. لم يرد عليهم ابن الدغنة.. كان قلبه مع الصديق، وكانت سمعته مرهونة عند الوثنيين.

تركهم، وتوجه نحو بيت أبي بكر ليتأكد بنفسه، ولما وصل شاهد الفناء والمسجد فطرق الباب، ولما فتح له رحب به أبوبكر.. جلس ابن الدغنة وهو عالم من الإحراج، وكأنه يقول لأبي بكر: إن قومك لا يتورعون عن إلصاق التهم. وكأنه يقول: ألا تراهم يسمون ابنهم محمدًا مذممًا.. يصفونه بالكاذب والساحر، وهم الذين لقبوه طوال أربعين عامًا بـ(الأمين)، وشهدوا كلهم أنهم ما جربوا عليه كذبًا.

هواجس أرغمت ابن الدغنة على أن يقول: «قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. قال أبوبكر: إني أرد لك جوارك، وأرضى جوار الله» نهض ابن الدغنة ثقيلًا وتوجه نحو الأشرار، وصاح فيهم: «يا معشر قريش، إن أبا بكر قد رد عليّ جواري، فشأنكم بصاحبكم» عندها انفتحت أبواب البطش على الصديق من جديد.

أول من نشر الكتاب

على الرغم من معاناة النبي ﷺ واضطهاده كان يؤسس للمستقبل.. يثقف أصحابه.. يحثهم رجالًا ونساء على تعلم القراءة والكتابة، ثم يجعل منهم كتّابًا للوحي وحملة للرسالة وقناديل للوعي. يقول لهم: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**» ها هو الشاب مصعب بن عمير ابن الأسرة المترفة.. يلفّ على جسده النحيل أسمالًا بالية هي رأس ماله، بعد أن حرمته أسرته الدلال، لكنه يجد العزاء في الإسلام.

يملأ القرآن صدره، فيكتب الوحي، ويعلمه لشباب قريش وشيوخها، وينشر الوعي في كل مكان يحل فيه.. يحقق مع رفاقه سبقًا تاريخيًّا على مستوى العالم، فهم أول من نشر الكتاب في البيوت:

كتاب الله الذي يحوي عقيدة، وعبادة، وتربية، وأخلاقًا، وفقهًا، وسياسة، واقتصادًا، وتاريخًا، ومنهج حياة.. قرآن معجز يفجر الطاقات.. حتى المهمشين يحولهم إلى طاقات، كهذا الشاب الأعمى الذي يدعى ابن أم مكتوم.. تعرف مكة خطواته وخطوط عصاه. يخرج من بيته يبحث عن نبيه لينهل منه.. يتحسس طريقه حتى يصل، فيجده مشغولًا بدعوة طاغوت للإسلام، لكن شغف ابن أم مكتوم بطرقات الجنة جعله يلحّ: «يا رسول الله، أرشدني». فجعل ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر.

فيكرر حتى عبس النبي ﷺ. كان ذلك العبوس حركة لا إرادية، وكانت ستمضي دون علم أحد، لكن الله أنزل آيات تعاتب نبيه من أجل هذا المسكين، فاستدعاه، وحياه، واعتذر منه، وتلا عليه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾[عبس: ١ - ٢]، امتلأ ابن أم مكتوم بإيمان فوق إيمانه، وهو يرى الله يتكلم عنه، ونبيه يعتذر منه.

الفقراء قوة هائلة في الصف الإسلامي.. حاول المشركون صدعها خاصة عندما رأوا ستة من الفقراء حوله ﷺ هم: سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وبلال وثلاثة آخرين، فقالوا: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه. فأنزل الله ﷻ كلامًا لا ينقله إلا الأمين: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٢].

أصبح ﷺ أكثر حبًا للمساكين.. يبحث عن جوارهم حتى خارج حدود الدنيا. كان يدعو: «**اللهم، أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**» أثبت الإسلام أن هؤلاء المساكين لا يقلون عن الأغنياء، وأنهم طاقات ستغير وجه العالم.. شعر الطواغيت بقوة هذا الصف، فاجتمعوا ليقرروا شيئًا مخيفًا.

ما الذي أخاف فاطمة؟

هل كانت تطوف بالكعبة، أم كانت تعبر المسجد الحرام في طريقها للمنزل؟ لا أدري، لكن كلمات جذبتها، فجعلت خطواتها تتباطأ شيئًا فشيئًا حتى أوقفتها.. أسرتها.. جعلت دقات قلبها تتسارع وقلبها يرتجف، ثم انطلقت خائفة مذهولة.. تسرع ودموعها تسابقها على خديها.. تفتح الباب، وتعانق أمها خديجة وأنفاسها تتسارع، والنشيج يقطع كلماتها، فتسألها عن سبب كل هذا النشيج والدموع؟، فتتوجه بكلماتها الباكية نحو قرة عينها وأبيها ﷺ، وهي لا تريد أن يؤخذ عنها أو

يفارقهـا، فتقـول له: «يا أبت، هؤلاء الملأ من قومـك في الحجر، قد تعاهدوا باللات والعزى ومناة، أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا وقد عرف نصيبه من دمك».

كانـت كلـمات الزهراء تحرض أباها ﷺ على الهرب.. عـلى الاختفاء.. على فعل أي شيء مقابـل ألا تخسره، وتبكي فراقه، فأمها قد شـاخت، وهي في أمسّ الحاجة إليه بجانبها، وهي وأم كلثوم بنات وسـط وحوش تئد البنات.. كانت حالتها تحتاج إلى حكمته ﷺ؛ حتى لا يذهب بها الرعب نحو الأمراض والوساوس.

بدأ ﷺ بانتشالها من حالتها النفسية، إلى حالة أخرى تنسيها ما تعرضت له.. بدأ بتشـتيت ما مرت به من رعـب.. طلب منها طلبًا غريبًا.. طلبٌ سـحب ما بداخلها من كلمات الوثنيين، فقال لها: «**يا بنية، أدني وضوءًا**» جفت دموعها، وأدخلها الطلب الغريـب عالمًا آخر، فتحركت متسـائلة لتحضر الماء، ولمـا أحضرته صبت له، فتوضأ وهي تنتظر ما بعد الوضوء.

لم يصـلِّ ﷺ بذلـك الوضوء، بل نهـض وخرج مـن البيت.. توجه ثقـة ووحيًا نحو المسـجد.. نحو مكان الاجتـماع، وموقع التهديد والمؤامـرة.. أقبل عليهم، فلما رأوه رفعـوا أبصارهـم، فقالوا وكلهم عـزم على تنفيذ الجريمة: هو هـذا. لكن بدلًا مـن أن يقوموا ليغمدوا سـيوفهم في جسـده الطاهر.. حـدث شيء أخاف المشركين وأبهـج المؤمنين، فالذيـن كانوا يزبدون ويرعـدون قبل قليل، قد تحولـوا إلى خراف ترتجف ذلة وصغارًا.. خفضوا أبصارهم وسـقطت أذقانهم في صدورهم وعقروا في مجالسـهم. فلم يرفعـوا إليه أبصارهـم، ولم يقم منهم رجـل. أطبق الصمت والخوف عـلى المكان، وترقب الناس مآلات المشـهد، فانحنـى عليه السلام نحو الأرض بهدوء، ومد يـده، وأخـذ بقبضته بعض التراب، ثم قام على رؤوسـهم فحصبهـم حصبًا، وقال: «**شـاهت الوجوه**» ثم تركهم وهم حالة من الخيبة والعار، وغادر المسجد، وهو هالة من الهيبة والوقار.

قريش تسلم

بعد مغادرة النبي ﷺ المسجد أفاق المجرمون، فتحسسوا وجوههم، فإذا التراب والغبار والعار يغطيها.. فكروا وفكروا وقدروا، فأخذتهم العزة إلى أقصى مسافات الإثم، وبعد التداول، وعندما رأوا نبي الله ﷺ يتجه نحو منى ليدعو الحجيج للإسلام.. كان أبولهب وأبوجهل يتناوبان كعادتهما في ممارسة هوايتهما الحقيرة: المشي خلفه وتكذيبه، ورميه بالحجارة والتراب. كان ﷺ يواصل دون أن يأبه بهما، فلأن يهدي الله به رجلًا واحدًا خيرٌ من أن يرضي كل طواغيت الأرض، لكن الطواغيت يمرون بحالة نفسية يائسة.

ها هو ابن مسعود يجلس مع نبيه في تلك الليالي.. ليالي منى المقمرة التي تسمى التشريق. فإذ بمجموعة من الطواغيت تحاصر مجلسهم، والنبي ينصت وهم يطالبون بآية غير الصدق.. غير القرآن المعجز.. آية يتسلون برؤيتها بأعينهم.

رفع ﷺ طرفه إلى السماء، وطلب منهم أن ينظروا، فقال ابن مسعود: انشق القمر، ونحن مع النبي بمنى، فقال ﷺ: «**اشهدوا. اشهدوا**»، لكنهم لم يشهدوا. صاح بعضهم معاندًا ساخرًا، وقال: «هذا سحر ابن أبي كبشة». لكن البعض طلب التريث حتى توثق تهمة السحر، ويتم القضاء على صدقية محمد، وذلك بسؤال القادمين من خارج منى.. من خارج مكة، فقالوا: «انتظروا ما تأتيكم به السفار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم». انطلق الوثنيون يترصدون للمسافرين.. تطلعوا للقائهم وسؤالهم، ولما وصل بعضهم تعلقوا بأزمّة مطاياهم، وسألوهم عن القمر حين كان مكتملًا؟ فقالوا: ذاك، وأكدوا أنهم رأوا القمر قد انشق.

تحيرت قريش، فلا هذا النبي بكذاب، ولا بساحر، ولا هم بقادرين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن. غلا العناد في رؤوسهم.. صار يستفزهم: لقد أفحمكم محمد، وأتاكم بآية خارقة فلا حجة لكم، ولا حيلة أمامكم سوى جعل المعجزات تسلية ومتعة تشغلونه بها. فانطلقوا نحوه كالمراهقين ليتقدموا بطلبات صبيانية بالغة السخف، ولما وقفوا بين يديه ﷺ قالوا له: «ادع لنا ربك أن يجعل لنا جبل الصفا ذهبًا حتى نؤمن بك».

مهلًا هناك طلب آخر: مكة ضيقة عليهم.. يريدون من الله أن ينحي الجبال عنهم ليفسح لهم مساحات يقومون بزراعتها.

لم يقاطعهم ﷺ، وبعد أن انتهوا سألهم: «**وتفعلون؟**» قالوا: نعم. سنؤمن. فدعا ربه، لكن الاستجابة كانت سؤالًا، وها هو جبريل عليه السلام يطرحه:

لقريش ما أرادت ولكن

ها هم صناديد قريش وبكل سخف يطلبون من النبي ﷺ أن يحوّل لهم جبل الصفا إلى كتلة من الذهب، وأن يزحزح الجبال عن مكة حتى يجدوا مساحات للزراعة، فدعا ﷺ ربه، فنزل جبريل، فقال: «**إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة**».

تأمل ﷺ أي الخيارين أجمل لمكة، فأشرقت رحمته بصبيتهم آملًا أن يحملوا راية التوحيد، بعد أن حمل آباؤهم راية العناد والأصنام، فقال لجبريل: «**بل باب التوبة والرحمة**».

ظل ﷺ في مكة لا يحمل سيفًا، ولا يحرض على عنف ولا شتيمة يناديهم: «**يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة**» ومع ذلك تصر قريش على المماحكة.. هذه المرة تقدم قائمة أسخف من القائمة الأولى، فتقول: يا محمد، لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا لا ينقطع، أو تكون لك بساتين وحدائق من نخيل وعنب، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أو أسقط السماء علينا قطعًا نلمسها بأيدينا، أو ائتنا بالله والملائكة أمامنا نراهم ونكلمهم، أو اجعل لك بيتًا من ذهب، أو ارتقِ في السماء، وحتى لو صعدت أمامنا لن نؤمن أنك قد صعدت حتى تهبط ومعك كتاب نقرؤه.

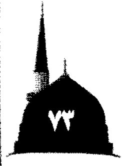
سكت ﷺ أمام هذه العقول الصغيرة التي تشبه عقول اليهود، عندما قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وأوحى الله لنبيه أن

يقـول: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، هـذه هـي حـدودي، وهـذه هـي دعـوتي: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، هـذا هـو الخطـاب الأمثل للمعاند.

تأجـج حقدهم بعد إهمال عنادهم، فقرروا تحويل حياة المتعاطفين مع النبي ﷺ إلى جحيم، ففي مكان يقال له: المحصب يقول ﷺ: «**إنهم تقاسموا على الكفر**» وذلك عندما تحالفت قريش وكنانة على بني هاشـم وبنـي عبدالمطلب: ألا يزوجوهم، ولا يبايعوهـم حتى يتخلـوا عنه، فضاق بهم الحال، وتضاغـى أطفالهم، وجاعوا كلهم، حتـى قـال ﷺ: «**لقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة ومـا لي ولبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال**»، أما الشـاب عتبة بن غزوان فيقول: «**لقد رأيتني سـابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا**» أما مصعب بن عمير فلا تملك العيون سوى الدموع حين تراه.

بطل إلى النار

ها هو مصعب بن عمير وسـط ذلك الحصار.. هـا هو الفتى المدلل في الجاهلية يخـر عـلى الأرض جوعًا.. يحملونـه على العيدان في مشـهد يذيب الصخـر، ورفيقه الشاب سعد بن أبي وقاص يتحدث عن ألمه، فيقول: «كنا قومًا يصيبنا صلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترمنا لذلك، وصبرنا لـه، وكان مصعب أنعم غلام بمكة وأجوده حلة مع أبويه، ثم لقد رأيته جهد في الإسلام جهدًا شـديدًا حتى لقد رأيت جلده يتحشـف تحشـف جلد الحية عنها»، ومع ذلك فليس أحد بأحسن حالًا من أحد، حيث يقول سعد: «وما يقصر عن شيء بلغناه».



مصعـب يطلع على رفاقه وعليـه بردة مرقوعة بفرو، فتدمع العيون وهي تقارن حالـه عندمـا كان منعـمًا بحالته اليوم.. حصـار قاسٍ ومؤلم أدمى قلبـه ﷺ، لكن ألمه يـزداد لمـرأى عمه الشـيخ أبي طالـب، وهو يـلازم الفراش بعـد أن هدّته السـنون، وحطمته صلافة رفاق الوثنية، وزاد من حزنه ﷺ علمه بأن أبا جهل قد جاء لزيارته بمعية عبدالله بن أبي أمية أخو أم سـلمة، وهم سـبب بعض معاناته. كان ابن أبي أمية سـليط اللسـان على رسـول الله ﷺ، وها هو لسـانه يحاول منع أبي طالب من التفوه بأمنيـة يتحـرق لها النبي، فيتحرك ﷺ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذا الشـيخ الطيب، الذي يوشك على الرحيل.

دخـل عليه ونظـر إليه، فأخذته الرحمة برجل مثل أبيـه.. حماه وذب عنه، فقال: «**أي عـم، قـل: لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله**». فقال الرجلان: أترغب عن ملـة عبدالمطلب؟ فكرر النبي مناشـدته، فكررا اسـتفزازهما حتى كانت آخر كلماته: «هو على ملة عبدالمطلب»، ورفض أن يقول: لا إله إلا الله.

فاضـت روحه، فنهض ﷺ مثقلًا بالحزن عليـه.. نهض، ثم حلف، فقال: «**والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك**». فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: ١١٣]، غادر أبوطالب الدنيا بطلًا، لكن بطولته لم تكن لله.. كانت لمحمد ابن أخيه، لا لمحمدٍ رسول الله.. كان نضاله حمية لا عبادة، أما الله سبحانه.. أما الجنة، فلا رصيد لها في نفسه.. كم توجع نبي الله ﷺ حين سمع عمـه يقـول: «لـولا أن تعـيرني قريش، فتقـول: إنما حملـه على ذلك الجـزع لأقررت بها عينك».

كانـت قريـش أهم عنده مـن الله، وكان رضاها أهم من رضـا الله والجنة. نهاية محزنـة كتبها أبوطالب بنفسـه.. لم يرغمه أحد، ويوم القيامة سـيبحث طويلًا وكثيرًا لكن قريشًا لن تسعفه. خرج ﷺ فلحق به ابن عمه علي حائرًا.

عام الحزن والحصار

غادر أبو طالب الدنيا بعد أن أحزن رحيله قلب النبي ﷺ، فقام ابنه علي ممتلئًا بالكمد نحو نبيه.. وقف أمامه لا يدري ما يفعل، فالكلمات تخرج منه مزيجًا من الألم والحزن، والغضب على هذا الأب الشيخ، الذي بخل على من خلقه، ورزقه بكلمة.

تحير علي ما الذي يفعله، فقال: «يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضالّ قد مات، فمن يواريه؟» سؤال يبكي والدًا حنونًا، وأبًا عطوفًا، لكنه لم يعرف حق ربه عليه.. رفض كل محاولات الإقناع.. الدنيا مظلمة في وجه علي، فقد كان يتحرق لسماع التوحيد من أبيه.. يتمنى لو أن أباه قال: لا إله إلا الله.. دموع علي وقلبه بين يدي نبيه، ونبيه ﷺ كان طبيبًا للقلوب.. طبيبًا للنفوس. قال لابن عمه الحزين: «**اذهب فوارِ أباك، ولا تحدثنّ شيئًا حتى تأتيني**» انطلق علي فغسل أباه وكفنه، هو وإخوته، ولما عاد أمره ﷺ بالاغتسال فاغتسل، ثم جاء فدعا له بدعاء سر عليًّا، وفرج همه وغمه.. دعوات يصف تأثيرها عليه، فيقول: «دعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بهن ما على الأرض من شيء».

هكذا غاب أبو طالب عن المشهد، وهكذا ابتهج أبو جهل ومن معه، وهم يرون أحد الجدران التي كان محمد ﷺ يستند إليها قد انهار. سر الوثنيون، وصفا الجو لهم؛ ليمارسوا ما شاؤوا من تنكيل، حتى قال أحد المؤمنين: «مازالت قريش كاعة مترددة حتى توفي أبو طالب».

لم يكن موت أبي طالب آخر الأحزان، ولا نهاية الآلام، ففي مكان آخر ترقد خديجة، فللسن أحكامها، وللمعاناة حدودها.. وهن عظمها، وهي الآن تضعف شيئًا فشيئًا حتى لازمت الفراش، فلم تستطع مغادرته وسط الحصار والظلم.. بناتها يبكين من حولها، وزوجها ﷺ حزين يتأملها.. يتأمل هذا الوفاء الذي يحتضر بجانبه، وهذا الحب الذي يوشك على السفر.. يتأمل المرأة التي أسكنته كل غرف قلبها، وأشرعت له كل بساتينه.. يبكي الحبيبة التي قال عنها: «**لقد آمنت بي، إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها، إذ حرمني الناس**»، وتموت

خديجة، فيبكي ﷺ، ويعلو نشيج فاطمة وزينب وأم كلثوم، أما رقية، فيالحزن رقية.. هي هناك خلف البحار غريبة شريدة في الحبشة.. لم تحظَ بتمريضها ولا بقبلة وداع منها. رحلت خديجة، ولكن عن المعاناة.. سافرت إلى حيث قصرها اللؤلؤي الذي لا صخب فيه ولا تعب، ولا أبوجهل ولا أبولهب. أما ذكراها فذكرى الحبيب الذي يزيد الشوق للجنة كلما هبت أحرف اسمه، أو أطرب القلب صوت يذكر برسمه.

ذكرى خديجة يهب عندما يُطرق الباب، ويلتقي الأحباب.. ذكرى خديجة يهب مع هذه المرأة التي تدخل عليه، فيقدم ﷺ لها الطعام، ويناولها بيده وكأنها أمه.. يفعل ذلك إكرامًا لحبيبته.

ذكرى الحبيبة

يمر الزمن على رحيلها، فلا يحتل أحد مكانها، ولا يتنازل حبها عن عرشه.. يمر العمر، فيزداد الشوق لصوتها، والحنين لطيفها.. تمر الأيام، فتطرق الباب عجوز غريبة.. لم يعرفها أحد من أهل الدار، لكن قلبه ﷺ هش لزيارتها، وابتهج بضيافتها، فتدخل وتجلس أمامه، فيسألها سؤالًا يتحسس ملامح هذا الطيف المشتاق، ويقول: «من أنت؟» فتجيبه: أنا جثامة المزنية. فيمازحها ممازحة أنعشت قلبها، وأعادت له شبابه، حين قال: «**بل أنت حسانة المزنية**» ثم يمطر قلبها بأسئلة عطوفة: «**كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**» فتتلألأ عيناها فرحًا بهذه العذوبة، وتفديه بأغلى من مر عليها، وتقول: «بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله».

تأخذها الذكريات حتى قاطعتها ربة البيت بطعام، فيضعه ﷺ بين يدي العجوز، ويتلطف بحركة تفيض ذوقًا ورحمة.. يمد يديه للطبق، ثم يناولها لقمة لقمة، وهي تكاد تبكي من هذا الدلال.. تكاد تبكي فنبيّ العالمين يخدمها، وكأنه أبر أبنائها، وتستأذن العجوز للرحيل، بعد أن أمضت أحلى لحظات حياتها، وأسعد زياراتها، فيودعها، فتسأله إحدى أهل بيته والاستغراب يملؤها من هذا العطف

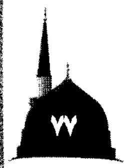
الـذي غمـر به تلك العجوز، فتقول له: «يا رسـول الله، تقبل عـلى هذه العجوز هذا الإقبـال؟»، فإذ بوقع خطوات خديجة يرتفع في ممـرات قلبه، وإذ بطيفها يتهادى بين أضلعه، فيقول: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**».

وتطـرق البـاب امـرأة أخرى قادمة مـن عالم الذكريـات، فيطرب قلبـه قبل أن يراها، ويأخذه صوتها إلى خديجة وأسـلوب استئذانها، فيقول: «اللهـم، هالة» ويُفتح الباب، فإذ بها أختها هالة بنت خويلد.

كان ﷺ وفيّـا يكثر ذكرها، وربما ذبح الشـاة، ثـم يقطعها أعضـاء، فلا يبقى منها سـوى القليل؛ لأنه أرسـل تلك الأعضاء هدايا إلى صديقـات حبيبته خديجة، فتغار أوفى النسـاء لخديجة وأكثرهن نقلًا لأخبارها. تغار عائشـة الوفيـة، فتعاتب حبيبها، وتقـول: «كأنه لم يكن في الدنيـا امرأة إلا خديجة؟» فتعتذر الكلمات بالوفاء، ويقول: «**إنهـا كانت وكانت**» وبعد فراقها وفراق عمه يشـعر ﷺ بوحـدة وألم، فقد تعاظمت جـرأة الوثنيـين عليه دون رأفة بحالـه، فيهيم حزينًا على قدميه خـارج مكة.. يصعد جبـال الطائف لعل وعسـى، فيُسـتقبل بالتكذيب والحجـارة، فينثنـي نازفًا، ويعود منطويًا على حزن أثقل من تلك الجبال، ويجلس على قارعة الطريق غارقًا في الهموم، فقد أُوصدت أبواب الأرض دونه، لكن أبواب السماء تفتح.. يشعر ﷺ بظل سحابة هائلـة، فيرفع رأسـه فإذ بحبيبـه جبريل عليه السلام ينتشـله من طوفان الهموم.. يواسيه.. يعزيه، ويعرفه بملك مهيب نزل معه يعرض عليه الانتقام له.

فرصة للانتقام

يصف ﷺ حزنه وانكسـاره حين عودته لمكة، فيقول: «**انطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أسـتفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسـحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل** عليه السلام» ناداه جبريل نداء ذي القوة الذي لا يقهر.. نداء يحمل نصر الله ومعجزاته، ويقول: «**إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**».



التفت ﷺ، فبادره الملك المهيب بالسلام، وقال: «**يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**» عندها أدركته ﷺ الرحمة بقومه.. لم يكن يريد سحق جثثهم تحت صخور الجبلين الهائلين، اللذين يسميان الأخشبين.. احتسب جراحه وآلامه، وتنهد رحمة: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**».. لو كان ﷺ ممن ينتقم لنفسه لكان دك الجبال يطحن جماجمهم، لكنه ما انتقم لنفسه ولا بعث لينتقم.. يصعد الملكان على كلمات الرحمة، ويعود ﷺ جريحًا منكسرًا، كما خرج.. يتسلل إلى بيته حيث بناته.. لا بد أن دموعهن سالت لمرأى الشحوب في وجهه، والدماء تتلألأ في جروحه، فأسرعن لمواساته ومداواة جراحه.

ربما دمعت عيناه ﷺ عندما تلفت في أرجاء البيت، فلم يمر به طيف خديجة.. يالبيتها الحزين.. هنا زفت إليه، وهنا كانت تسامره، وهنا كانت ترضع **فاطمة**، وهنا كانت تلاعب **زينب**، وهنا كانت تسرح شعر **أم كلثوم**، وهنا كانت تزين **رقية** لزفافها. هنا كان الحب.. هنا كانت خديجة، فما أطيبها وأطيب ذكرها!.. أحزان لا يمكن أن تزول إلا بعزاء يفوق مساحات الأرض والسماء.. عزاء يغمره في ليلة لا كالليالي حين كان نائمًا، فإذا بجبريل يأخذه للمسجد والناس نيام.. يضجعه على الأرض، ويشق صدره، ويغسله مجددًا لأمر مهول، ويهيئه لأحداث مذهلة تتلاشى فيها المسافات، وينعدم فيها الزمن.. يحضر له جبريل دابة ليست من دواب الأرض، ولا تخضع لقوانينها.. قريبةً من حجم الحصان.. اسمها (البراق) يستوي ﷺ على ظهر البراق، وإذ به على أرض الشام.. في مسجد إيليا في المسجد الأقصى.

ما سر هذا الشام؟ منه رفع نبي الله عيسى ﷺ، وفيه سينزل، وإليه سيحشر الناس يوم القيام خلف الداعي، ومنه سيصعدون إلى أرض بيضاء بالغة الاستواء.. لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا.. هناك في المسجد أحداث وصلوات وحوار، وصفوف مهيبة تتلألأ بأنقى البشر وأطهرهم، وأكثرهم معاناة في سبيل الله.. صفوف تملأ جنباته.. صفوف الأنبياء الذين يعرفهم، والذين لا يعرفهم صلوات الله عليهم وسلامه. هناك يكبر فيكبرون، ويقرأ فينصتون، ويركع فيركعون، ويخر ساجدًا

فيسـجدون، ومن هناك يأخذه جبريل إلى رحلة أخـرى، وتفاصيل نورانية أخرى.. تلاشت معها أحزانه وهمومه.

في عالم الإسراء والمعراج

ركب النبي ﷺ البراق، فإذا هو في المسجد الأقصى.. في معجزة إلهية طويت فيها المسـافات.. ينزل ﷺ من البراق، ويدخل المسـجد الأقـصى، فيصلي ركعتين دون أن يراه أحد.. ليس لأنه مهجور، فهو يقع تحت عناية وإدارة الدولة البيزنطية النصرانية، التي من شدة حرصها على تنصير القدس حرمت على اليهود السكن فيها.

لم يَـرَه أحد؛ لأن عـالم السرعة التي يتحرك بها جبريل ومحمد عليهما السـلام تلك الليلة عالم لا يمكن للعين إدراكه، ولا للمقاييس البشرية رصده.. صلى ركعتين، وبعد الصـلاة بدأت لغة الرموز.. حين خرج من المسـجد، فجـاءه جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإنـاء مـن لبن وقدمها لـه. يقـول ﷺ: «**فاخترت اللبـن، فقال جبريـل عليه السلام: اخترت الفطرة**».

وتنتهـي رحلـة الإسراء، وتبـدأ الرحلة الأعظـم.. رحلة المعـراج إلى ملكوت السـماوات، وعالم الأنوار والملائكة والأرواح والجنـات.. يحمل جبريل العظيم نبي الله، ويصعد به عبر الكواكب والمجرات.. يسـتفتح عند كل سـماء، فيتلقى السـؤال نفسـه والاستفسار نفسـه عند كل سماء. يقال له: «**من أنت؟ فيقول: جبريل**» فيُطرح عليـه سـؤال آخر يدل على أن الملائكة لا يعلمون الغيـب، ولا يدرون إلا عما يرونه، حـين يقولون: «**من معك؟ فيقـول: محمد. فيقولون: وقد بعث إليـه؟ فيقول جبريل: لقد بعث إليه**»، ثم تفتح له أبواب السـماوات السـبع سـماء سـماء، فيعـبر النبي عالمًا جديدًا مذهلًا وجليلًا.

هو عالم السماء الدنيا، ويقصدان مكانًا محددًا، ويقبلان على إنسان بعينه، فيشير جبريل، ويقول: «**هذا أبوك آدم فسـلم عليه**» فيتقدم ﷺ فيسـلم على أبيه، فيرد عليه آدم عليه السلام ويقول:

«**مرحبًا وأهلًا بابني نعم الابن أنت**»، وفي عالم السماء الدنيا تتكرر الرموز، فيرى ﷺ عن يمين آدم أسودة تدخل السرور إلى نفسه، ويرى عن شماله أسودة ينظر إليها فتحزنه وتبكيه. فيقال له: «**إن أهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار**»، ثم يصعد ﷺ نحو السماء الثانية، بعد أن دعا له آدم، ورأى ما قدر له أن يرى من عالم السماء الدنيا.

يستفتح جبريل، فتفتح له السماء الثانية، وهناك يرى أخاه نبي الله عيسى بن مريم، ومعه ابن خالته اليزابيث يحيى بن زكريا عليهم الصلاة والسلام جميعًا. فيقول جبريل: «**هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما**»، فيسلم ويردان ويقولان: «**مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح**» تأمل ﷺ عيسى، فرآه يشبه رجلًا من زعماء أهل الطائف هو عروة بن مسعود الثقفي.. كان عيسى رجلًا ليس بالطويل ولا بالقصير.. يميل للحمرة.. وضيء الوجه ناعم الشعر.. من يرى شعره يظنه خرج من ديماس، وهو حمام البخار الروماني، ثم ودعه ﷺ، وصعد به جبريل للسماء الثالثة، وهناك قابل نبيًّا أعطاه الله شطر جمال الرجال.

حين بكى موسى في السماء

بعد لقاء النبي بأخيه عيسى ابن مريم صعد ﷺ للسماء الثالثة، وهناك شاهد نبيًّا أعطاه الله نصف جمال الرجال، حيث يقول: «**فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب، ودعا لي بخير**».

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، وفيها قابل النبي الذي قال الله فيه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].. قابل إدريس ﷺ، فسلم عليه، فرد عليه، وقال: «**مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح**».

ثم صعد نحو السماء الخامسة، حيث لقي النبي الفصيح.. خليفة أخيه موسى ووزيره، فقال جبريل: «**هذا هارون فسلم عليه. فسلم فرد هارون، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح**».

ثم صعد للسماء السادسة، فقابل نبيًّا طويلًا مكتنز العضلات.. كأنه من رجال أزد شنوءة. فقال جبريل: «**هذا موسى فسلم عليه. فسلم عليه**» ورد موسى، ورحب به، لكن على الرغم من ترحيبه شعر موسى بمرارة أبكته حالما غادر النبي ﷺ فسئل: «**ما يبكيك؟ قال: يا رب، هذا الغلام الذي بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي**».

لم يكن ذلك البكاء حسدًا من موسى لمحمد، ولا لأمة محمد ﷺ، فالحسد يموج هناك على وجه الأرض.. يملأ قلب أبي جهل وأمثاله.. الحسد أخرج إبليس من الجنة، وحول ابن آدم قابيل إلى قاتل.. الحسد ليس من صفات الأنبياء والصديقين والمؤمنين.. موسى عليه السلام يبكي حسرة وآسفًا لعناد أمته، وتعنتها بعد كل الذي بذله، وعاناه من أجل هدايتها.. موسى يحب أمة محمد ويعطف عليها، وسيثبت ذلك في هذه الرحلة.

أما محمد ﷺ فصعد إلى آخر السماوات، وهناك رأى ما لا يستطيع وصفه من عوالم.. هناك رأى بيتًا يطوف به آلاف الملائكة، فتوجه نحوه، فرأى نبيًّا جالسًا عنده.. مسندًا ظهره عليه. تأمله النبي جيدًا.. تأمل وجهه وتكوين جسده، فلم يرَ وجهًا، ولا تقاسيم، ولا أعضاء تشبهه مثله. فقال جبريل: «**هذا أبوك إبراهيم، فسلم عليه، فسلم عليه، فردّ، وقال: مرحبًا بك من ابن ونبي**».

يقول ﷺ: «**رأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، ونظرت إلى إبراهيم، فلا أنظر إلى أرب من آرابه إلا نظرت إليه مني**» ثم سأل جبريل عن هذا المكان المقدس.. الذي يطوف به الملائكة، ويسند إبراهيم ظهره عليه فقال: «**هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه**».

أخذته هيبة المكان، لكن إبراهيم أخذه إلى أمته.. حمله رسالة ووصية لنا.. وصية تهفو إلى أرض الأحلام والآمال، ومهوى الأفئدة والدعوات، وملتقى الأحبة فقال: «**يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التراب عذبة الماء، وإنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**» وعليك

السلام يا خليل الرحمن ورحمته وبركاته، وجزاك الله عنا خير الجزاء. ترى ما الذي رآه محمد من عوالم بعد السماء السابعة.

ماذا رأى ﷺ بعد السماء السابعة؟

يصعد النبي ﷺ إلى مكان لا يمكنه وصفه، فيأخذه جمال لا يقدر على التعبير عن مشاعره أمامه، وهو الذي أوتي جوامع الكلم. يرى شجرة من الجمال المبهر هائلة تخلب الألباب.. إليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها، فيقبض منها.. اسمها سدرة المنتهى.. يغشاها ما يغشى، فتتغير ألوانها تغيرًا يأخذ بعقله ﷺ ومشاعره، فيقول: «**ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها**» فيا ترى كيف هي الجنة؟!

إنه في الطريق إليها.. ها هي أنوارها.. ها هي أشجارها وزهورها.. لا نهاية لألوانها وعبقها.. ها هي قصورها التي لم تُبْنَ من الطين أو الأسمنت، بل من الذهب أو الفضة، أو اللؤلؤ، أو ما شاء الله من أحجار الجنة الكريمة.. ها هي ميادينها وساحاتها ومساحاتها الغناء بكل الألوان والعطور.. لا تحتاج لعبورها إلى هوية أو جواز سفر، ولا يمنعك أحد من السفر في سحرها، أو يمن عليك بأمتار منها.. على الرغم من أن كل متر منها كنز من الفنون والثراء.

كنز يقول عنه ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**» طرقاتها لم تشق عبر التراب، أو تعبد بالأسفلت. طرقات منقوشة بالجواهر والأحجار الكريمة.. تسحر الماشي ألوانها وطريقة رسمها.. تنطلق التأوهات، ويبعد الخيال ويبعد، لكنه مهما أبعد يظل دون ملامسة بداياتها وأدنى منازلها.

يقول ﷺ: «**أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك**».. أنهارها وبحارها لا تعرف التلوث أو الملوحة أو التغير، وقيعانها لم تعد من الطين

والطمي، فحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران. سار ﷺ وسار، فرأى القصور والأنهار.

رأى نهرًا عذبًا ضفتاه لم ترصعا بالدر، بل هما من الدر، أما عبير مائه فيقول عنه: «**بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل. قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبه مسك أذفر**».

ترى هل شاهد قصر خديجة، فاشتعل شوقه للبقاء في الجنة...؟

الجنة حيث سافرت خديجة وسمية وياسر.. حيث الأماكن التي لا تستطيع الأرض منحنا إياها، والفرح الذي لا تتسع له الأرض، والوجوه التي نشتاقها...

الجنة حيث نهايات الحدود، وبدايات إشراق الوعود، ووداع المعاناة.

الجنة زمن الحصول على الحريات، فلا قمع ولا سياج ولا سجون، ولا خوف من القادم والمجهول.

الجنة موت المحرمات، وموت الممنوعات، وموت السلطات...

الجنة موت الملل.. موت التعب.. موت اليأس...

الجنة موت الموت.

غادرها ﷺ، لكنه أبقى قلبه معلقًا بها، وارتقى في عالم نوراني مهيب، وهناك التفت إلى صاحبه جبريل، فرأى جبريل قد تغير.

جبريل في عالم الأنوار

التفت النبي ﷺ إلى رفيقه ودليله جبريل عليه السلام، وهما في عالم الأنوار.. في عالم الملأ الأعلى، فرأى عظمته تذوب، ورأى تلك الهيبة التي أسقطته على الأرض يومًا تتحول إلى تذلل وخشوع، وكأنه قطعة قماش بالية، فقال: «**مررت ليلة أسري بي**

بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالي من خشية الله».. من هيبة الخالق وعظمته وجلاله. إنها أماكن يستحيل وصفها، ولا يمكن للأحرف رسم الشعور بها.. إنها فقط تستشعر. هناك تتلاشى كل القوى، إلا قوة الجبار، وهيبة الجبار وجلال الجبار.

هناك يبلغ المخلوق أقصى حالات الخضوع، وأعمق مشاعر الخشوع، فكيف بنعيم رؤيته ﷻ في الجنة.. تلك حالة يكون فيها الإنسان غير الإنسان، والأبدان غير الأبدان.. هناك يعاد خلق الإنسان لتحمل أقصى درجات النعيم، فالأجساد الدنيوية ضعيفة سريعة العطب والتغير.. محدودة الطاقة والعمر.

أجساد تموت.. تنهار.. تشل عند درجات من الحزن أو الخوف أو حتى الفرح، ولولا تهيئة الله لجسده ﷺ لما تحمل رحلة الإسراء، فضلًا على المعراج، وعلى الرغم من تلك التهيئة لم يَرَ ﷺ ربه، بل قال: «**أنىَّ أراه**» لكنه رأى نورًا في عالم الأنوار، حيث توقفت رحلته.

توقف ليتلقى راحة الأرواح وحياة القلوب.. تلقى عبادة تجعل المؤمن في أقرب حالاته من ربه، حيث يقول ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**».. تلقى الأمر بخمسين صلاة في اليوم والليلة.. صلاة تخفف عن أمته متاعب الحياة، وتريحهم من كدر العيش، وتأخذهم، إن خشعوا إلى معارج روحانية. بعدها بدأ ﷺ رحلة العودة، وقبل عودته تنبه لهاتف يناديه، كي يسلم على ملك مخيف.. ملك جواره لا يسر. قال قائل: (يا محمد، هذا مالك صاحب النار. فسلم عليه. يقول ﷺ فالتفت إليه، فبدأني بالسلام) ورأى ﷺ بعض العوالم التي يشرف عليها مالك ؈.. رأى الجانب الآخر من مآلات البشر، والمشهد المخيف والمصير المفزع لأعداء التوحيد ومحاربي الله ورسوله.

في تلك الهوة الهائلة المروعة، وما بداخلها من دركات وعوالم مرعبة ومفزعة، وأودية مخيفة تعجّ بأشجار شائكة، وثمار بالغة المرارة، ومياه تغلي منذ أن خلقها الله دون أن تتبخر، وروائح لا تطاق، وأنهار من القيح وعصارة الجسد الجهنمي القبيح.

رأى مائدة مقززة بالغة النتانة.. نظر ﷺ في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف المنتنة، فقال: «**من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في**

أعراضهم»، فكيف هي مائدة من يقع في ذات خالق الناس ﷻ، وكيف هي مائدة من يسب خير الناس وخاتم الأنبياء.. كيف هي مائدة من يقع في عرضه ﷺ؟

لو تعلمون ما أعلم

إطلالتان على النعيم والجحيم حظي بهما النبي ﷺ في تلك الرحلة جعلتاه يناشد أمته، قائلًا: «**يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**» بكيتم خوفًا.. بكيتم شوقًا.. بكيتم حبًّا. هاهو ﷺ تفتح له أبواب السماء.. يهبط.. يحمل خمسين صلاة لأمته، فيمر بإخوته عليهم السلام، ولما مر بأخيه موسى استوقفه حبًّا، فسأله قائلًا: «**ما صنعت؟ فقال ﷺ: فرضت علي خمسون صلاة**».

هنا تجلى حب موسى لأمة محمد وحدبه عليها، فقال: «**أنا أعلم بالناس منك.. عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، وإن أمتك لا تطيق فارجع إلى ربك فسله التخفيف. فرجع ﷺ فسأل ربه، فجعلها أربعين صلاة**» ولما عاد مر بموسى، فناشده العودة مرة أخرى والمطالبة بالتخفيف، فعاد فجعلها ربه ثلاثين، وهكذا يتردد بين الملأ الأعلى وبين موسى، حتى جعلها الله خمس صلوات. فطلب موسى عليه السلام منه العودة، فاعتذر ﷺ، وقال: «**سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم**» ثم ودع أخاه، وبعيد مغادرته سمع الوحي يقول له: «**أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرًا**».

ثم فتحت له بقية أبواب السماء، فنزل منها نحو الشام.. نحو بيت المقدس بسرعة لا تنتمي لعالم الأرض.. سرعة لا يشعر بها، ولا يمكن رصدها. سرعة تنتمي لعالم آخر.. تختفي فيه الأرقام والحسابات، حتى وجد نفسه بجوار المسجد الأقصى، فتوجه نحو بابه ليجد المفاجأة السارة داخله. فلما دخل ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي، فالتفت، ثم التفت، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. منهم من يعرفهم أو قابلهم في السماء، ومنهم من لم يقصصهم الله عليه. صفوف لأنقى البشر وأتقاهم

وأعذبهم.. صفوف لأكثر الناس معاناة وأشدهم بلاء وتضحيات عليهم الصلاة والسلام في صلاة تعبر عن منزلته عند ربه وبينهم، وبعد الصلاة التف بعضهم حوله، فجرى حوار حول أكثر ما يشغل أمم الأنبياء.

جرى حوار حول الساعة وأمور أخرى كالدجال ويأجوج ومأجوج.. هنا سكت كل الأنبياء، واعتذروا، وهنا يقول ﷺ: «**لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم. فقال إبراهيم: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى موسى** عليه السلام**. فقال: لا علم لي بها. فردوا الأمر إلى عيسى** عليه السلام**، وسألوه عنها**».

هنا تحدث عيسى.. تحدث النبي الذي سيواجه الدجال بوصفه قائدًا من أمة محمد، وسيعاني همجية يأجوج ومأجوج ومجازرهم، فأخبرهم بأن موعد الساعة بالتحديد ووجبتها لا يعلمها أحد إلا الله، لكن الله أوحى له بأحداث تقع قبيل الساعة.. يكون طرفًا فاعلًا فيها، فما الذي قاله عيسى عليه السلام؟

المسيح يتحدث عن الدجال

كان الأنبياء عليهم السلام ينصتون لعيسى ابن مريم، وهو يحدثهم عن مهمته القادمة ضمن أمة محمد ﷺ.. يحدثهم عن أناس من بني آدم من البشر، لكن أخبارهم اختلطت مع مرور الزمن بالأكاذيب والإسرائيليات.

فالدجال يهودي من بني إسرائيل.. إحدى عينيه طافية بارزة، وقد جعله الله اختبارًا لإيمان الناس الذين سيخرج في زمانهم، فيمنحه الله قدرات خارقة كإنزال المطر وإنبات الزرع تستخف ضعاف العقول والإيمان والمنافقين، فيكونون من جنده.

أما يأجوج ومأجوج فبشر آسيويون عاديون، لكنهم دمويون، أما كثرة جيشهم الهائل فليس نتيجة لما يقال: إن أحدهم لا يموت حتى يولد له مئة ولد، فهذه قصص لا صحة لها.. كثرتهم هي ككثرة المغول والتتار.. سببها اجتياحهم للبلدان

التي يمرون بها، وتسخيرهم لشبابها، فيزداد عددهم حتى يصبح بالملايين، كما ازداد عدد التتار الذين كانوا في بداياتهم مجرد جيش صغير.

هؤلاء هم يأجوج ومأجوج.. ليس لهم قدرات خارقة.. ليس صحيحًا أن أحدهم يفترش إحدى أذنيه، ويلتحف الأخرى.. ليس صحيحًا أن بعضهم طوله شبر، وبعضهم عملاق كشجرة الأرز، فتلك إسرائيليات وأكاذيب.. هم بشر دمويون لا يختلفون في همجيتهم عن التتار أو الصليبيين، ولا يختلفون في دمويتهم عن الغرب المستعمر، أو حتى الغرب الحديث الذين قتلوا، وأبادوا مئات الملايين في القرن الماضي، ومازالوا. يأجوج ومأجوج بشر متوحشون لا يحملون عقيدة ولا أخلاقًا ولا رسالة.. لا يحملون سوى الحراب والسيوف يغرزونها في أجساد أطفال وشيوخ الأمم التي يمرون بها، ويسخرون رجالها الأقوياء للقتال معهم، أما إنجازاتهم فليست سوى النهب والسلب والاغتصاب، وحرق المدن والقرى. لكن ما علاقة ابن مريم بهم؟

ها هو ﷺ يحدث الأنبياء، فيقول: «**إن الدجال خارج، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص**» أي يذل، وتتلاشى قوته، فيهلكه الله على يد ابن مريم، ويقتله بفلسطين.. بمكان يقال له باب لد، وهنا تنزل المعجزات التي تأتي مع الأنبياء، وتختفي معهم، فيتحدث ﷺ عن معركته مع الدجال وجنده، فيقول: «**يهلكه الله حتى إن الحجر والشجر ليقول: يا مسلم، إن تحتي كافرًا، فتعالَ فاقتله، فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم.. لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم، فأدعو الله فيهلكهم، ويميتهم، حتى تجوي الأرض من نتن ريحهم، فينزل الله ﷻ المطر، فتجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر**» وبعد أحداث المعراج خرج ﷺ من المسجد الأقصى، وركب البراق، فإذا هو في مكة.

حائر بعد الإسراء

عـاد النبـي ﷺ إلى بيته.. عاد إلى فراشـه دون جلبة أو ضجيج.. دون أن يعلم به أحـد، وفي آخر الليل أيقظـه جبريل عليه السلام مرة أخرى، فتوضأ ثـم أخذه نحو الكعبة، ولما ظهـر خيط النـور في أفق الـشرق أوقفـه جبريل عـن يمينيه، ثم كـبر نحو بيت المقدس، فكـبر النبي ﷺ بعـده، فأمّه جبريل، فأديا صلاة الفجر لأول مرة، ثم أخبره جبريـل أن هـذا الوقـت هو بدايـة وقت صلاة الفجـر، ثم انصرف جبريـل، فتوجه النبـي ﷺ إلى بيتـه، وأيقـظ بناتـه، وعلمهن صـلاة الفجر فصلين، وقـص عليهن ما جرى له في الليل من إسراء ومعراج.

ولما انسـابت خيوط الشـمس في سـماء مكة، ودبت أنفاس الصبح في شوارعها تغير ﷺ وانسـاب الحزن إلى نفسـه على الرغم من السعادة التي تغمره، واليقين الذي يملؤه.. إنه الآن معتزل في الحجر.. يفكر بِمَ سـيقوله، ويتأهب لردود الفعل تجاه ما سيقوله.. فأي كفر ذلك الذي سيشهده هذا الصباح؟

يقـول ﷺ: «**لما كانـت ليلة أسري بي، وأصبحت بمكـة، فظعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلًا حزينًا**»، وفجأة خرج أبو جهل، فرآه حزينًا، فعرف أن شـيئًا ما قـد حدث، فتاق لاسـتفزازه وزيادة أحزانه، فتوجه نحـوه، واقترب منه حتى جلس إليه، فقال سـاخرًا: «**هل من شيء؟ فقال ﷺ بكل ثقة ويقين: نعم. ابتهج أبو جهـل فقال: ما هو؟ قال ﷺ: إنـه أسري بي الليلة. فقال: إلى أين؟ قال ﷺ: إلى بيت المقدس**».

هنا اتسـعت عينـا أبي جهـل، وازداد حماس التكذيـب في ثيابه، فقـال متظاهرًا بتصديقه: «**أسري بك، ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال ﷺ: نعم**» فركت الشماتة يديها في نفس هـذا المجرم، ونهض مـن الحجر بهدوء، ولم يُشـعر نبي الله أنـه يكذبه مخافة أن يجحـده الحديـث إذا دعا قومه إليه، ثم قال: «**أرأيـت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم**».

انطلق فرعون الأمة إلى مكة.. إلى طواغيتها وسفهائها.. ملأ الشوارع بالضجيج والغبار.. يحشد الوثنيين.. يصرخ في ميادين مكة: «**هيا يا معشر بني كعب بن لؤي**» فانتفضت إليه المجالس، وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. كان أبو جهل مسرورًا بالحشود التي اكتملت من كل الجهات، وكونت نصف دائرة من الاستغراب والترقب والعيون المفتوحة على الدهشة حول النبي ﷺ ثم قال: «**حدِّثْ قومك يا محمد، بما حدثتني**» فقال ﷺ بكل ثقة: «**إني أسري بي الليلة**. قالوا: إلى أين؟ قال ﷺ: **إلى بيت المقدس**. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال ﷺ: **نعم**» هنا بدأ بعضهم بالتصفيق، وبعض الآخر فغر فاه، ووضع يده على رأسه متعجبًا ومكذبًا، لكن بعضهم طلب دليلًا، فما الذي سيقدمه ﷺ لهؤلاء المكذبين وما الذي يجدي معهم؟

الإسراء والعناد

عند الكعبة وفي الحجر بالتحديد.. كان ﷺ محاصرًا بنظرات أعدائه.. امتلأ المسجد الحرام بصيحات التكذيب، ورددت جنباته أصوات التصفيق، وشعر أبو جهل بنشوة استثماره للحادثة، لكن تفاصيل الرحلة أخافته.. أخافته تلك الأودية الشاحبة الموحشة، التي تغص بشجر وصف الله ثمره وصفًا يخيف من يتخيله، فكيف بمن يأكله ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾[الصافات: ٦٤-٦٧]، شعر بالرعب، فحاول القفز على خوفه بالتهكم؛ كي لا يتسلل الرعب إلى قلوب أتباعه، فقال: «**يخوفنا محمد شجرة الزقزم، هاتوا تمرًا وزبدًا، فتزقموا**» قهقه بعضهم، وخاف بعضهم الآخر، وزاد إيمان المؤمنين الذين خبروا نبيهم أصدق أهل الأرض، وما كان ليدع الكذب على الناس ليكذب على رب الناس. لكن بعض من أسلم حديثًا ارتد، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل.

هنا أراد الوثنيون تسجيل ولو كذبة واحدة على النبي ﷺ ليلوثوا بها تاريخه النقي.. طلبوا دليلًا على ما يقول: فليصف بيت المقدس، ولا سيما وهو لم يَرَه من

قبـل. قالـوا: «هل تسـتطيع أن تنعـت لنا المسـجد، وفي القوم من قد سـافر إلى ذلك البلد، ورأى المسـجد؟» عندها شـعر ﷺ بكرب شـديد، فبدأ يصف ما علق بذاكرته والتقطته عيناه، حتى التبس عليه بعض الوصف. فاجتاحته مشـاعر قال عنها: «**لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسـألني عن مسراي، فسـألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثلها قط**».

وفجـأة يجـلي الله له بيت المقدس حتى صـار ينظر إليه بين المسـجد الحرام وبين دار ابـن عمـه عقيل بن أبي طالب.. يتأمله.. يطوف به بصره، فلا يسـألونه عن شيء مـن أبوابه ونوافذه وجدرانه إلا أخبرهم، فيلتفـت بعضهم لبعض حائرين من هذه الدقة حتى قالوا: «**أما النعت فو الله لقد أصاب**» بعدها انصرفوا وقلوبهم شـتى، أما هو فتوجه ﷺ نحو أصحابه يقص عليهم ما رأى من عوالم هائلة، ونعيم ينتظرهم.

أخبرهـم بفـرض الصلوات الخمس، وحـدد لهم بداية صـلاة الفجر فقط، ولما توسـطت شمس الظهيرة في السماء هبط جبريل، فأخذه للمسجد، وأراه بداية تحرك الشـمس نحو جهة الغروب، وأخبره بأن هـذا هو وقت دخول صلاة الظهر، فصلى بـه، ثـم انصرف، ثم عاد عندما أصبح ظل الإنسـان يسـاوي طولـه، فأخبره أن هذا هـو وقت دخول صلاة العصر، ثم عاد عند غياب قرص الشـمس، فأخبره بأن هذا موعد دخول صلاة المغرب، ثم عاد عندما تلاشـت بقايا أشـعة الشـمس الحمراء في جهة الغروب وهي التي تسمى الشفق الأحمر، فأخبره بأن هذا دخول صلاة العشاء. ثـم عـاد بعد دخول وقت صلاة الفجر، لكنه لم يصلِّ به كالعادة، ولم يدعه يصلي، فما الذي حدث؟

لِمَ يمنعون الصلاة؟

استيقظ ﷺ قبيـل طلوع الفجـر، فإذ بجبريـل عليه السلام عنده. لم يصلِّ بـه ولم يدعه يصـلي، بل انتظر حتـى ظهر النور، واتضحـت معالم الأرض، فصلى بـه قبيل طلوع

الشـمس. ثـم جاءه عند دخول وقت صلاة الظهر، فلم يصـلِّ به الظهر حتى أصبح ظله مسـاويًا لطوله، ثم دخل وقت صلاة العصر مباشرة، فأخرها أيضًا حتى أصبح ظله يسـاوي طوله مرتين. ولما غابت الشـمس لم يصلِّ به المغرب حتى غاب الشـفق الأحمر، ثم أخر صلاة العشاء أيضًا حتى ذهب ثلث الليل.

تشـوق ﷺ لتفسـير سر تبكـير صلوات الأمـس وتأخير صلـوات اليـوم، فقال جبريـل: «يـا محمـد، هذا وقـت الأنبياء مـن قبلك، والوقـت ما بين هذيـن الوقتين» انـصرف جبريـل، وانـصرف النبـي ﷺ ليعلـم أصحابه أوقـات الصلـوات، فبدؤوا يعطرون بيوتهم بها. لكنهم يتلهفون لأدائها في بيت ربهم.. يتقاطرون نحوه، فيصلون في اتجاه بيت المقدس؛ لأنها قبلة المسلمين آنذاك.. يبكون، يدعون الله أن ينصرهم على أعداء التوحيد الذين آذوا نبيهم، وسخروا منه، وشتموه، وآذوهم في دينهم.

توحيـد وصلـوات أفزعـت أبا جهـل ورفاقه: ما هـذا وما الذي يجـري؟ أهذه نتيجـة معركـة الإسراء التي ظن أبوجهل أنه ربحها؟ المسـلمون يزدادون، ويصلون آنـاء الليـل وأطـراف النهار عند الكعبـة؟ أمر لا يمكـن قبوله. انتفخـت أوداج أبي جهـل، فتعهـد لرفاقـه أن يضع لهذا الأمر حـدًّا، فقال: «**لئن رأيت محمـدًا يصلي عند الكعبة لأطأنَّ على عنقه**».

وصل تهديد هذا الأحمق إلى مسامعه ﷺ فهون من شأنه، وقال: «**لو فعل لأخذته الملائكـة**» وتفاقم حمق أبي جهل، فتوجه نحو النبـي مباشرة، وهدده، وتوعده إن رآه يصلي عند البيت. لم يكتفِ ﷺ بتجاهله، فها هو ذات نهار يمشي للمسـجد ثقة بربه، فلما توقفت قدماه أمام الكعبة.. جعلها بينه وبين المسـجد الأقصى، ثم كبر مبحرًا في صلاة خاشعة. شاهده أحد محبي الشر ومشعلي الحرائق، فانطلق إلى أبي جهل ليخبره بتحدي محمد له.

جـن جنون الشرير، فخرج من منزله كالمسـعور نحـو النبي ﷺ ولما وقف أمامه صرخ بـه معتـدًّا برفاقه: «ألم أنهك عن أن تصلي يا محمد؟ لقد علمت ما بها أحد أكثر ناديًـا منـي». التفـت ﷺ له، وحدق بـه، ثم انتهره بكلـمات أسـكتته. فهبط جبريل،

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾[العلق: ١٧ - ١٨]. أخبر النبي أصحابه، وقال: «**والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب**» وفي نهار آخر توجه ﷺ نحو المسجد، فإذا أبوجهل ورفاقه هناك، فتجاهلهم، واتجه لصلاته وحقدهم يحدق به.. كان أبوجهل خائفًا، لكنه شعر أنه إن لم يقم وينفذ تهديده فسوف يصغر شأنه بينهم.

نهض، ومشى نحو النبي ﷺ وما إن اقترب منه حتى توقف فجأة واهتز، ورفع يديه وكأنه يحمي رأسه ووجهه من شيء مخيف، ثم رجع للوراء يسقط، وينهض حتى جثا عند رفاقه يتصبب عرقًا، وينتفض خوفًا.

خندق من نار

الحقد يأخذ أصحابه إلى مسافات يغيب فيها العقل والحكمة، وأبوجهل أستاذ في فن الكراهية. لم يشتمه نبي الله.. لم يضربه، ولم يؤذِه، ومع ذلك يقول لأصحابه كوصي على عقولهم ساخرًا من سجود النبي ﷺ لربه: «هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟» نظروا إليه نظرة تساؤل، فقالوا: نعم. عندها أقسم، فقال: «واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب».

دخل ﷺ المسجد، وشرع في الصلاة، فكان السجود فرصة لهذا الجبان، فالنبي ﷺ سيكون في وضع يصعب عليه القيام والمقاومة. نهض أبوجهل من بين أصحابه، وماهي إلا خطوات، فإذا به يفجؤهم وهو ينكص على عقبيه إلى الوراء، ويتقي بيديه، وكأنه يحمي وجهه من ضربة سيف أو أنياب أسد، ووجهه الشاحب باتجاه النبي ﷺ حتى انغمس بينهم، لينهار ويسقط مرتجفًا. تعجب أصحابه من شجاعة لم تصمد ثواني حتى تلاشت، وتحولت جبنًا مخجلًا، مع أن محمدًا كان ساجدًا لم يمسه، ولم يرفع رأسه نحوه.. أصابهم الهلع، فصاحوا به: ما لك؟ فقال والكلمات ترتجف رعبًا: «إن بيني وبين محمد لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة».

سكتوا..، فالقائل ليس محمدًا حتى يكذبوه.. القائل هو أبو جهل، أما الصحابة فكان بعضهم هناك.. تختلط داخلهم مشاعر الهيبة بالفرح، وبعد فراغه ﷺ من صلاته أزاح الستار عن دهشتهم، فقال: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا)، ثم أنزل الله ﷻ آياته: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ٩-١٩]، فامتثل ﷺ وسجد على الرغم من أنف أبي جهل ومن معه، ثم توجه ﷺ إلى بيته، أو توجه كعادته لبيت صاحبه أبي بكر، كما يفعل كل يوم.. يزوره صبح مساء، لكن، وفي أحد الأيام لم يطرق النبي ﷺ باب أبي بكر.. الذي طرقه رجل مهيب يقدره أبوبكر والنبي ﷺ أيضًا.. اسمه المطعم بن عدي.

كان المطعم قد جاء ليخطب عائشة لابنه جبير بن مطعم، فوافق أبوبكر، وكان من عادات القوم آنذاك تزويج بناتهم وهن صغيرات. ظلت عائشة مخطوبة حتى جاءت تلك الليلة الغريبة التي أقبل فيها رجل غريب نحو النبي ﷺ حاملًا عائشة وسط قطعة من الحرير الفاتن، وكأنه يزفّها إليه.

استيقظ ﷺ من نومه متسائلًا، وفي ليلة أخرى أشرق الرجل نفسه يحمل بنت الصديق على تلك الحريرة الجميلة مرة أخرى. استيقظ ﷺ، وقال: «**إن كان هذا من عند الله يُمْضِه**»، لكنه لم يخبر صاحبه أبا بكر بأمر الرؤيا، بل ولم يكلمه في شأن عائشة أو يخطبها. ترك الأمر لله. فما الذي جرى؟

عائشة مخطوبة

لم يبحث النبي ﷺ عن امرأة بعد خديجة، على الرغم من أنه حلم النساء الآن أكثر منه حين كان شابًّا.. كان مشغولًا بالدعوة، لكن امرأة مؤمنة كانت مشغولة

به.. تغمره بأحاسيس الرحمة.. عظيمة اسمها خولة بنت حكيم.. تشعر بمعاناته بعد خديجة، وحاجته إلى من تشاركه عناء الطريق المملوء بالاضطهاد والتنكيل.

سألت وسألت دون أن تخبره، حتى وقع اختيارها على امرأة وفتاة. ثم مشت نحو بيته ﷺ، ولما استأذنت، ودخلت، وجلست إليه عرضت عليه الزواج، فسألها عمن تتحدث؟ فقالت: «إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. قال ﷺ: **فمن البكر**؟ قالت: ابنة أحب خلق الله ﷻ إليك عائشة بنت أبي بكر. فقال: **ومن الثيب؟**» فأشارت إلى أرملة طيبة كبيرة السن اسمها سودة بنت زمعة، فامتدحتها، وقالت: «قد آمنت بك واتبعتك. قال ﷺ: **فاذهبي فاذكريها علي**». توجهت خولة نحو بيت أبي بكر، فاستقبلتها زوجته بلطف، وبعد حسن الضيافة قالت خولة: «يا أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ فسألتها: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة».

تحيرت أم رومان، فالفتاة مخطوبة لشاب مشرك هو ابن المطعم بن عدي، لكن نبي الله لا يعدله أحد؛ لذا لم تخبرها بشيء حتى لا تفقد أمل مصاهرة خير خلق الله، بل استبقتها قائلة: انتظري أبا بكر حتى يأتي. مر الوقت، وإذا بالصديق يدخل، ويسلم على أهل بيته وضيفته، ولما جلس رضي الله عنه فاتحته في الأمر، فاستغرب، وقال: «وهل تصلح له ﷺ إنما هي ابنة أخيه؟» كلمات ألجمت خولة، وجعلتها تستأذن لتعود إليه وتسأله، فقال ﷺ: «**ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي**». عادت خولة إلى أبي بكر، ونقلت توضيح النبي ﷺ، فسكت أبوبكر من فرط السعادة والقلق معًا، فلم يرد عليها.

فكر أبوبكر في وعده، ثم قام وقال لها: انتظري. ثم غادر المنزل، فتحيرت خولة: ما الذي يحدث، ولِمَ كل هذا الغموض؟ لكن أم عائشة أزالت حيرتها حين أخبرتها عن مكانة المطعم عند أبي بكر، فقالت: «إنه ما وعد وعدًا قط، فأخلفه لأبي بكر» أما الصديق فكان يمشي في طريقه لمنزل المطعم.. تحاصره التساؤلات، وكأنها لا تريد إفساح الطريق له حتى وصل البيت، ولما دخل جلس أمام المطعم لا يدري ما يقول، فجاءت امرأته فجلست، وهي تشعر بأن أبابكر جاء ليتحدث عن

ابنهـا، فقالت: «يا ابن أبي قحافة، لعلك مصبـئ هذا الفتى، ومدخله في دينك الذي أنـت عليه إن أنت زوجته»؟ طرح أبوبكر تسـاؤل المرأة عـلى زوجها، فقال: «أتقول مـا تقول هـذه»؟ فأيدها، وقال: «إنها لتقول ذلك» وكأنه يقول الأمر بيدها ولا شيء بيـدي؟ شـعر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بارتيـاح كبير، فهو لم يخلف وعـده للمطعـم، وأم الفتى هي التي فسخت الخطوبة، فنهض، وخرج من بيتهما ليجد الطرقات أفسح مما كانت وأجمل.

هل يوافق أخو سودة؟

عـاد أبوبكـر الصديق إلى بيتـه تحمله البشريـات، بينما كانت خولـة وزوجته أم رومـان تنتظرانـه بلهف. دخل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيته، فتطلعتا إلى وجهه، فـإذا هو يتهلل، فزينت الابتسامات الوجوه والدور، فالتفت إلى خولة بنت حكيم، وقال: «ادعي لي رسول الله». انطلقـت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ترفـرف بهـا السـعادة، فأخبرتـه ﷺ، فنهض نحو بيـت صاحبه، فزوجـه لكـن دون أن تزف إليه عائشـة، فقد بقيت في بيت أبيهـا، وأقبلت أيام الحج التي ينتظرها ﷺ، عل وافدًا من إحدى القبائل يتبنى دعوته، أو يحميه ليبلغ دينه.

توجه نحو مخيمات القبائل في منى.. يرفع أخبيتها.. يدعوهم قبيلة قبيلة، وخيمة خيمة، فاسـتغلت خولة غياب عبد بن زمعة.. شـقيق سودة وذهابه للحج، فمشت إلى سـودة نفسـها وبشرتهـا، قائلـة: «ماذا أدخـل الله عَزَّ وَجَلَّ عليك من الخـير والبركة؟» دُهِشَتْ سودة، فقالت: «وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه».

أخذهـا طوفان السـعادة.. أخذها أبعد من أحلامها، فهي سـتصبح زوجة نبي العالمين.. لم تتمالك نفسها أن قالت: «ادخلي إلى أبي، فاذكري ذاك لـه». قامت خولة، فدخلـت المكان الذي يحتضن الشـيخ.. كان طاعنًا في السـن ابيضـت لحيته، وعجز حتى عن المشاركة في الحج. تصف خولة تلطفها معه، فتقول: «دخلت عليه، فحييته بتحيـة الجاهلية: أنعم صباحًا» رفع الشـيخ حاجبيه المثقلـين بالزمن، وتأمل صاحبة الصـوت الغريب، فقـال: «من هذه؟ قالـت: خولة بنت حكيم. فقال: فما شـأنك؟ قالت: أرسلني محمد بن عبدالله أخطب عليه سودة».

شعر الشيخ بالفخر على الرغم من شركه، فقال: «كفء كريم. ماذا تقول صاحبتك؟ قالت: تحب ذاك» عندها اجتاحه ما يجتاح أي أب حنون، وهو يرى فلذة كبده تستعد لمغادرة بيته، فقال: «ادعيها إلي» أقبلت سودة على استحياء، فخاطبها بأحرف من حنان: «أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم. أتحبين أن أزوجك به؟ فقالت: نعم»، فالتفت نحو خولة، وقال: «ادعيه لي».

كان ﷺ مشغولًا بدعوة الحجيج، بينما كان أبو لهب مشغولًا بملاحقته وتكذيبه ونثر التراب عليه كعادته في كل حج.. عاد ﷺ بعد نهاية الحج، ثم توجه نحو الشيخ زمعة بن قيس، فطلب يد سودة، فزوجها إياه، وبعد الزفاف عاد شقيقها عبد بن زمعة من الحج، ولما دخل البيت تلفت، فلم يجد سودة.. ناداها فلم تجبه.. سأل أهل البيت عنها؟.. سأل والده؟ فأخبره بأنه زوجها من عدوه محمد بن عبدالله. اسودت الدنيا في وجهه، وغضب غضبًا أفقده صوابه، فقام بحركة جاهلية عصابية: جثا على الأرض، وبدأ يجمع التراب بكفيه، ويرفعه، ويحثوه على رأسه من هول الخبر.

بلغ الغضب بعبد هذا المبلغ، لكن الكراهية بلغت بكارهي النبي ﷺ مستوى من الانحطاط غير معقول.. أحدهم الآن في مكان لا يطاق.. يعبث في المزابل، ويقلب النفايات، فما الجنون الذي أصابه؟

أعداء النبي يفتشون المزابل

ظل ﷺ بعد زواجه بسودة ينشر التوحيد، والوعي بالتوحيد وسط حصار قريش، وإهانة طواغيتها الذين انحطوا في فجور الخصومة إلى الحضيض.. سفلوا لدرجة ممارسة شيء لا يليق إلا بمن لا كرامة له ولا أخلاق، وإلا فمن يصدق أن الحقد أوصل وجوه القوم وسادة قريش لدرجة نبش المزابل بالأيدي.. ليس بحثًا عن درهم أو دينار أو جوهرة ثمينة، ولكن بحثًا عن القذارة نفسها.

الشاب النحيل ابن مسعود كان هناك في المسجد.. ينصت خائفًا لأبي جهل الذي فقد الجرأة على الاقتراب من النبي ﷺ، فأراد استغلال مكانته في توظيف شخص ساذج ينفذ أحلامه بدلًا منه، حتى لا يفقد هيبته أمام القوم. كان يهتف: (أيكم يقوم إلى سلى ناقة بني فلان التي ذبحت بالأمس، فيأخذه، فيضعه على كتفي محمد إذا سجد؟) تقزز الجالسون، لكن المجرم الذي حاول خنق النبي ﷺ ذات يوم: عقبة بن أبي معيط فز من مكانه كالأبله، وقصد تلك المزبلة التي يختلط فيها الدم ببقايا الطعام والعظام والفرث والسلى، ولما وصل استقبلته رائحة كريهة، فلم يبالِ، بل مد يده نحوها.. غمسها فيها وقلبها، وأخيرًا وجد الكنز. ها هي المشيمة.. يسحبها من بين الأكوام.. يرفعها.. تتدلى وهو يهرول بها. ربما مر أحد، فتساءل: أهكذا يفعل الحقد على محمد بكبار القوم؟. انطلق عقبة نحو أطهر بقعة تقدسها العرب.. أنساه حقده حرمة الحرم.. تجاهل أن الناس تقدره وتقدر قومه من أجل هذا الحرم، ولما اقترب من النبي ﷺ انتظر لحظة سجوده، وابن مسعود يشاهده.. يحترق جوفه.. لا حول له ولا قوة، يتنبه أحد العقلاء، فينطلق مسرعًا نحو بيت النبي ﷺ، فيطرق الباب بقوة، فيخبر فاطمة بما سيجري، فتركض ﷺ نحو أبيها، لكنها تصل وعقبة بن أبي معيط يرمي المشيمة على ظهره الطاهر، فينفجر مجلس الوثنيين بالضحك، حتى مال بعضهم على بعض من شدة الضحك. فتبكي فاطمة، وتنحني على ظهر أبيها، وتنزع عنه القذر، وترميه خارج الحرم، ثم تمر بأشباه الرجال.. تنظر إليهم بعيون غارقة بالدموع.. تصرخ في وجوههم، فلما فرغ ﷺ من صلاته رفع صوته مستغيثًا بجبار السماوات والأرض، فقد قلت حيلته وعز نصيره: «**اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش**».

أطبق الخوف على الطغاة.. أغلق الخوف أفواههم، وخيّم السكون على المكان إلا من نشيج فاطمة، ثم دعا ﷺ دعاء جعلهم يتخيلون الموت خيمة تضرب أطنابها حول مكة، فقال: «**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية ابن خلف، وعقبة بن أبي معيط**» ثم نهض ﷺ حزينًا، وأخذ ابنته التي تكفكف دمعها، وتمسح عن ظهر أبيها آثار القمع الذي جعل مكة لا تطاق، فهل من سبيل للخروج من هذا المعتقل الكبير؟!

أشباح في طريق عكاظ

مرت أكثر من عشر سنوات على بعثته ﷺ ودعوته. لم يحمل خلالها سيفًا أو خنجرًا، ولم تمس يده أحدًا بأذى.. عشر سنوات سلاحه الكلمة وحسن الخلق والتعامل، فزاد محبوه، وازداد حقد أعدائه حتى اضطر للبحث عن قوة تحمي دعوته.

ها هو شهر شوال قد أقبل وأقبل معه سوق عكاظ، ليخرج ﷺ ومعه بعض أصحابه، وفي الطريق وفي مكان يقال له: (نخلة) خيم الليل عليهم، فقسموه بين مناجاة ونوم، وعند الفجر شرعوا في صلاتهم خلف النبي ﷺ، فإذا بتسعة أشباح مخيفة تنحدر عليهم من بين الجبال والشعاب.. دون أن يشعروا بها، أو يروها.. تطوف حولهم.. تتفرس في وجوههم.. في ركوعهم.. في سجودهم، فيأخذ القرآن بعقول تلك الأطياف، وتأسرهم آياته حتى انقضت الصلاة. ولما انقضت انطلقوا إلى قومهم من الجن، وقد آمنوا بربهم، وقالوا لهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]، وأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: سورة الجن. وأخبره بما جرى حوله.

وواصل ﷺ طريقه إلى عكاظ ولكن دون نتيجة، ثم عاد لمكة، وفي ليلة من الليالي كان مع أصحابه، وفجأة اختفى عن أنظارهم، فبحثوا عنه، فلم يجدوه. نادوه بين الأودية والشعاب، فلم يجبهم.. خيم عليهم الحزن، وذهبت بهم الظنون حتى قالوا: «لقد استطير نبي الله، لقد اغتيل» ولما ظهر الفجر إذا بطيفه الجميل يتهادى من جهة جبل حراء، فانزاح همهم، واحتضنته قلوبهم، وقالوا: «فقدناك فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم! فقال: **أتاني داعي الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن**» ثم أخذهم، فأراهم آثار الجن وآثار نيرانهم.

في ليلة أخرى كلم أصحابه، وأخبرهم بأنه سيلتقي بعض الجن. فطلب الفتى ابن مسعود مرافقته، وانطلق معه، ولما وصلوا أعلى مكة توقف ﷺ، ثم خط برجله خطًّا يبدو أنه دائري، ثم التفت إلى ابن مسعود، وأمره بالجلوس فيه وعدم مغادرته، ثم مشى خطوات عدة، ثم جلس.. كان ابن مسعود يراه جيدًا، وكانت عيناه وقلبه

ومشاعره على نبيه ﷺ، لكن شيئًا غريبًا حدث.. فجأة اختفى ﷺ.. اختفى عن ناظريه على الرغم من أنه لا يبعد عنه سوى أمتار.

منى تكتنز بالمفاجآت

جلس ﷺ بين الجبال والليل والشعاب، فإذا بقطع داكنة تهتز نحوه عبر ظلمة الليل.. تتجمع حوله، حتى اختفى تمامًا عن ابن مسعود، الذي شعر برهبة عندما تلاشى صوت نبيه أيضًا، لكنه لم يغادر الخط الذي خطه له. ولما بدأت خطوط الفجر تتسلل في الأفق.. شق ﷺ جدار الجن، وذهب بعيدًا حتى اختفى، فبدأت أطياف الجن تتفرق شيئًا فشيئًا، ولما عاد ﷺ من قضاء حاجته مر بصاحبه، فسأله عنهم؟، فأخبره بأنه لم يبقَ منهم سوى القليل. فتوجه ﷺ إليهم، وكلمهم، ثم غادر مع صاحبه المكان يشقان طريق الخوف نحو مكة، بعد أن التقى ﷺ الجن، لكن الله لم يأمره بالاعتماد عليهم، أو الخوف منهم، ولم يطلب من أصحابه التواصل معهم، على الرغم من أنه أخبرهم بأن منهم إخوة لهم في الإسلام، فلهم عالم، وللجن عالم آخر، ولا تأثير لشياطينهم فيمن يحصن نفسه بذكر الله. ومرت الأيام، فأقبلت أشهر الحج، وتناثرت خيام العرب على أرض منى، فقصدها ﷺ ليجد لغة أخرى لم يعهدها، ووجوهًا أكثر بشرًا.

مختلف هذا العام وأيامه استثنائية.. لم يحضره أبولهب ولا أبوجهل.. ربما أخافتهم دعوته، وفيه قابل ﷺ رجلًا من همدان، فرحب به الهمداني وأنصت باهتمام لما يقول، وتحمس لنصرته، فسأله ﷺ سؤال من يبني دولته بالسلم لا بالعنف.. برضا أهلها لا بقمعهم.. بتأييدهم والتعاقد معهم، لا بمخاتلتهم وغشهم، فقد كان بإمكانه إقامة دولة صورية في مكة تحت رعاية الأصنام وطواغيتها، عندما عرضوا عليه الزعامة، لكنه يأبى أن يخدع أو يُخدع. لذا سأل الهمداني، فقال: «هل عند قومك من منعة؟» فقال: نعم. ثم انطلق الرجل، لكنه عاد بعد قليل ليشترط موافقة قومه، ثم يعود في العام القادم ليخبره بالنتيجة.

ودعه ﷺ وانطلق مع أبي بكر وعلي رضي الله عنهما إلى خيام تنضح بالجمال وحسن الاستقبال.. خيام تسفر عن أجمل ما في القبيلة من قيم وجمال.. حل ﷺ ضيفًا على خيام بني شيبان بن ثعلبة الذين يسكنون جوار دولة فارس، فأثنى أبوبكر عليهم، وقال لنبيه: بأبي أنت وأمي هؤلاء غرر الناس.. بعدها جرى حوار أداره أبوبكر.. معطر بالحكمة ولين الكلام.. حوار جميل مع قوم أثاروا إعجاب النبي ﷺ، فهل ستقام أول دولة إسلامية على أرض دجلة والفرات؟

في مجلس مفروق

مشى النبي ﷺ وأبوبكر وعلي رضي الله عنهما بين خيام منى، حتى توقفوا أمام مخيمات بني شيبان بن ثعلبة، وكان قائدهم يدعى مفروق بن عمرو.. رجل وسيم قد أرخى جديلتيه على صدره، ومعه رجل الدين هانئ بن قبيصة، ورجل الحرب المثنى بن حارثة وغيرهم. فسأله أبوبكر عن عددهم، فقال: «نزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة، وإنا لأشد ما نكون حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله».

تأمل مفروق تلك الوجوه المشرقة، فأدرك أنه أمام من ملأت أخباره الدنيا، فقال: «لعلك أخو قريش؟» فتقدم ﷺ فجلس، أما أبوبكر فلم يجلس، بل قام، ونشر يديه بثوب يظلل نبيه من حرارة الشمس، فقال ﷺ بعد أن دعاهم إلى الشهادتين: **«أن تؤوني وتنصروني، فإن قريشًا قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله الغني الحميد»**.

تعجبوا من إجلال أصحابه له، وصدعت قلوبهم كلمات المولى، حين تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[النحل: ٩٠]، فاعترف مفروق قائلًا: «دعوت والله يا أخا قريش، إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك»، ثم

تكلم رفاقه، فأخبروه بأن بينهم وبين كسرى معاهدة، ألا يحدثوا حدثًا، ولا يؤوا محدثًا، وأن دعوته هذه يكرهها الملوك؛ لذا قدموا اقتراحًا بأن ينصروه إن تعرض لاعتداء من العرب، لا من الفرس، فقال ﷺ: «**ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه**»، ثم قال كلمات تمطر معتنقيها بمستقبل أبيض.. قال: «**أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلًا حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟**» فقال أحدهم: اللهم، فلك ذلك. فتلا ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٦]، ثم ودعهم ومد يده نحو أبي بكر، ونهض قابضًا على يد الصديق، وهو يثني عليهم، ويقول: «**يا أبا بكر، أية أخلاق في الجاهلية، ما أشرفها، بها يدفع الله ﷻ بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم**». ثم تحرك وصاحباه قليلًا، فاستقبلتهم خيام كالعطور.

استقبلتهم أكرم وأجمل الخيام في الدنيا.

ما أجملكم يا أهل طيبة!

هدأت الحروب الجاهلية التعيسة بين قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب، لكنها لم تنتهِ.. أغمدت السيوف مؤقتًا، فلما جاء موعد الحج ركب بعض زعمائهم نحو مكة.. نصبوا خيامهم في منى.. ها هي خيامهم.. ما أبهاها وأجملها، وما أجمل تلك الخطوات التي تتجه نحوها!..

هنا التقى الغرباء بالغرباء.. هنا توقفت خطواته ﷺ، فتوقف التاريخ يشكو مجهدًا يترنح.. يتلقاه ﷺ، فينعشه بنبض التوحيد، ويفسح له مسارات مضاءة بالوحي.. مزينة بالعلم والقلم.

هنا التقى أجمل ما في مكة مهبط الوحي، بأجمل ما في يثرب مدينة الحب والنخيل.. يثرب عاشقة الأنبياء التي يقتلها الشوق إلى حبيبها. فيقول علي: دفعنا

إلى مجلس الأوس والخزرج، فقال ﷺ لهم: ممن أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. عندها تذكر ﷺ تدافع قبائل اليهود نحو يثرب بحثًا عن نبي منتظر، فقال: «أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن».

أفاق أبناء يثرب على كلام الله.. يشدهم.. يوقظهم، فإذا هم أمام النبي الذي طالما تحدث عنه اليهود، وانتظروه. إنه النبي الذي كلما حصل بينهم وبين يهود نزاع هددوهم، فقالوا: «إن نبيًّا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم».

تلألأت عيون القوم سعادة، ورفرفت بقلوبهم وأرواحهم أنوار ومعارج.

سكت ﷺ فالتفت بعضهم إلى بعض، وتشاوروا، وقالوا: «يا قوم، اعلموا والله أن هذا النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه»، ثم قاموا من تشاورهم، واتجهوا نحوه.. يعلنون قبول دعوته إلى الله ﷻ وقبول الإسلام، ثم شكوا إليه حالهم، وبشروه، فقالوا بحروف تنزف ألمًا، وتشع أملًا: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله ﷻ أن يجمعهم الله بك، وسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

ودعهم ﷺ وانتهى الحج، فرجعوا إلى ديارهم تتمايل مطاياهم بأجساد تحمل قلوبًا أخرى، وأرواحًا أنقى. ولما حطت رواحلهم بيثرب بدأ نور الإيمان يسري في البيوت شيئًا فشيئًا، فلما حل موعد الحج المقبل كان شوقهم إلى لقاء الحبيب لا يطاق.

ليلة العقبة حين نام الحجيج

لم يعد الرجل الهمداني لمقابلته ﷺ في الحج المقبل، لكن قوافل الحب اليثربي وصلت.. ها هم قد نصبوا خيامهم على أرض منى، ليتسلل الشوق منها بحثًا عن

الحبيب ﷺ الذي ابتهج بهم، لكنه أشعرهم بخطورة الوضع، فأمرهم بالسرية، وحدد موعدًا للقاء بعضهم في ساعة متأخرة من الليل، حين يأوي الحجيج إلى مهاجعهم.

خيم الليل، وانتشرت النجوم، وكأنها تذكر الأحبة، فانتظروا حتى أُخمدت النيران، وغفت الأعين، وصفا الجو.. إلا من انسياب نسمة أو عواء ذئب. نهض اثنا عشر رجلًا دون أن يشعر بهم أحد، وتسللوا إلى مكان لا يعلمه غيره وغيرهم. فإذا المشاعر قد سبقتهم، ولما جلسوا عنده تكلم ﷺ فأنصتوا، فلما لهج أعاد بناءهم، حين قال: **«تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا... ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف»**، فصافحته القلوب قبل الأيدي.

شاعر يثرب كعب بن مالك كان هناك، وعبادة بن الصامت أيضًا، وهو يقول: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلًا» الشاب جابر بن عبدالله يتحدث عن تلك الليلة وعن آثارها في بيوت يثرب كلها، فيقول: «أنا وأبي وخالي من أصحاب العقبة، بعثنا الله ﷻ له ﷺ من يثرب، فيأتيه الرجل منا، فيؤمن به، فيقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام».

اطمأنت يثرب، وبدأت القلوب فيها تتماهى، وبدأت أخوة الإسلام تغسل عداء الجاهلية.. شعر أهلها بنظافة ونظام، وأخوة وطمأنينة، وثقافة لم يعهدوها من قبل، ولا يملك كبيرهم عبدالله بن سلول القدرة على توفيرها، أما خارج يثرب فأخبار انتشار الإسلام فيها تشرق مع شمس كل صباح.. تتجاوز الجبال والشعاب والبحار، حتى أبحرت نحو الحبشة، فأججت حماس المهاجرين، فعاد الكثير منهم. عادت هند أم سلمة وزوجها أبو سلمة، وعاد الشاب الزبير بن العوام، فوجدتها أمه صفية عمة رسول الله فرصة ليخطب الفتاة الرائعة أسماء بنت أبي بكر، فخطبها، فزفّها أبوبكر إليه، وفي يثرب أيضًا كان كبار الأوس والخزرج يبحثون عن المزيد من هذا الحب والإيمان والعلم؛ لذا اجتمعوا، فاتفقوا على أمر خطير قد يؤثر في علاقتهم بمكة.

شوق البراء للكعبة

بعـد أن غيرتهم كلماته، وصاغتهم من جديد.. أصبح ﷺ أحب إلى الأنصار من أبنائهم وأنفسـهم.. يتسـاءل الحنين بين أضلاعهم: ترى هل هـو بخير.. هل أصابه مكـروه؟ يقـول أحدهم: «اجتمعنا سـبعين رجـلًا منا، فقلنا: حتى متى نذر رسـول الله ﷺ يطـرد في جبـال مكـة ويخـاف؟ فرحلنا حتـى قدمنـا عليه، وذلك في موسـم الحج»، حيث سال الحجيج من كل فج نحو مكة، لكن الكعبة لم تكن بشوق إلا لهم، وفي الطريـق وفي مكان يقال لـه البيداء توقفوا، فترجلوا عـن رواحلهم، ثم انتشروا يسترخون.. يتناولون طعامهم، ولما حانت الصلاة.. إذا بمشهد غريب يحدث ساعة شرعوا في الصلاة، واستقبلوا جهة الشمال.. جهة المقدس: فسيدهم البراء بن معرور يمارس حركة غريبة.

إنه يصلي معهم، لكنه يركع ويسـجد في اتجاه معاكس، أي في اتجاه الجنوب.. في اتجـاه مكة. تعجبوا من صنيعه، فقال لهم: «يا هؤلاء، تعلمون أني قد رأيت رأيًا والله مـا أدري توافقـون عليه أم لا؟ فقالوا: وما هـو يا أبا بشر؟» فأخبرهم بأنه لا يريد أن يجعل الكعبة خلف ظهره، فقالوا: «لا، والله لا تفعل، والله ما بلغنا أن نبينا يصلي إلا إلى الشـام»، فأصر على صنيعه طوال الطريق، ولما وصلوا مكة شـعر بحرج، فالتفت للشاعر كعب بن مالك، وقال: «يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله حتى أسأله عما صنعته في سـفري هذا»، فانطلقا، فلما وصلا مكانًا يقال له الأبطح، سـألا أحد المارّة عنه ﷺ، فقال: (إذا دخلتما المسجد فانظرا العباس فهو الرجل الذي معه).

دخـلا المسـجد، فإذا هـو جالس مع عمـه العباس. فسـلما، فلما رآهمـا العباس قـال للنبـي ﷺ: «هذا البراء بن معرور سـيد قومه، وهذا كعـب بن مالك. فقال ﷺ: الشاعر؟ فقال: نعم» فتلألأ وجه كعب فرحًا بهذا السؤال. ثم سأله البراء عن صنيعه في صلاتـه؟. فبـين ﷺ له أن العبادة لا تخضع للاجتهاد والهوى، بل هي وحي يوحى بقولـه: «**قـد كنت عـلى قبلة لو صـبرت عليها**»، ثـم أسر لهما ﷺ بمكان اللقـاء الثاني وتوقيتـه، فنهضا إلى خيام قومهـما، وفي الليلة الموعودة حدث شيء غريب، فالعباس

ملازم لرسول الله طوال الليل، فهل انكشف سر الموعد، أم أن النبي ﷺ سيؤجل الاجتماع، وماذا عن الأنصار فهم على أحر من الجمر للقائه؟

هل يعيق العباس بيعة العقبة؟

كان العباس ملازمًا للنبي ﷺ، وعلى الرغم من ذلك لم يؤجل الاجتماع، فنبي الله يثق به كما يثق الأنصار بعبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر.. كانت الليلة الموعودة هي ليلة الثاني عشر من ذي الحجة، حيث يكاد القمر يكتمل، وقبل أن يتحرك الأنصار جرت محاولات مع والد جابر علّه يسلم.. يتحدث عنها كعب، فيقول: «واعدنا رسول الله ﷺ العقبة أوسط أيام التشريق ونحن سبعون رجلًا للبيعة، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام (أبو جابر) وإنه لعلى شركه، فأخذناه، فقلنا: يا أبا جابر، والله إنا لنرغب بك أن تموت على ما أنت عليه، فتكون لهذه النار غدًا حطبًا، وإن الله قد بعث رسولًا يأمر بتوحيده وعبادته، وقد أسلم رجال من قومك، وقد واعدنا رسول الله ﷺ للبيعة».

نأى الشيخ العاقل بنفسه عن نار جهنم.. نأى بنفسه عن العناد والمكابرة والقرآن يتلى على مسامعه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وتطهر، ونهض معهم، فجعلوه أحد المسؤولين عنهم. خرجوا يتلفتون.. يتسللون بطريقة مدهشة يصفها كعب، فيقول: «لما استثقل الناس في النوم تسللنا من قريش تسلل القطا» حتى وصلوا حول مكان رمي الجمرات بعيدًا عن الأعين وجواسيس طواغيت مكة، فإذ بنبي الله ﷺ والعباس وحدهما.

جلس الأنصار، فأصر العباس على التأكد من مصير ابن أخيه والقوم الذين سيستقبلونه؛ لذا تكلم أولًا، فقال: «إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وهو في منعة من قومه وبلاده، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه، فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم تخشون من أنفسكم خذلانًا فاتركوه في قومه؟».

كان الأنصار ممتلئين بالإيمان والحماس والأدب الراقي، فقالوا: «قد سمعنا ما قلت». ثم التفتوا إلى نبيهم، فقالوا: «تكلم يا رسول الله» هنا تلا ﷺ القرآن، ورغب في الإسلام، فنثر الأنصار أموالهم وقلوبهم ومهجهم بين يديه ﷺ.. ينتقي منها ما يشاء، وقالوا: يا رسول الله، خذ لربك ولنفسك. فقال: «**إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم**»، فهتف البراء بن معرور بإيمان كالجبال، فقال: «نعم، والذي بعثك بالحق. فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر» هنا طرح أحدهم سؤالًا بحجم حبهم، فكانت الإجابة عليه بحجم محمد ودين محمد ﷺ.

هل ستتركنا أيها الحبيب؟

بكلمات تحتضن النبي ﷺ قبل البيعة، وبعد البيعة، وقبل الدولة، وبعد الدولة.. يبوح بها أحد الأنصار.. يبوح أبو الهيثم بن التيهان بمشاعر قادمة من أقصى القلب.. معبرًا عن توجس من عداء اليهود حلفاء الجاهلية، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالًا وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟».

أنصت ﷺ إلى ذلك الشوق الذي يفضح قلبًا يخشى حرقة الفراق، فنثر ﷺ دمه فداء للأنصار وحب الأنصار، وقال كلمات كاد المكان يُكبر من هولها وجمالها. قال ﷺ: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم**».

اهتزت القلوب، واقشعرت الأبدان لهول الكلمات، فلهج البراء بن معرور بحماس نحو نبيه، وقال: ابسط يدك يا رسول الله، نبايعك. فقال ﷺ: «**أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا**»، فانتقوا له تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فنهض البراء ابن معرور، وأخذ بيد رسول الله ﷺ فضرب عليها، وكان أول من بايع، ثم نهضوا

بعده، وقاموا خلفه، ولما صافحه أصغر السبعين، واسمه أسعد بن زرارة.. التفت إلى قومه يستحث عزمًا بحجم حب نبيه ﷺ، فقال: «رويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطايا إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله ﷻ»..

شعر الأنصار بأن كلمات أسعد تبدد وقتهم، فصاحوا به: «أبعد يدك يا أسعد ابن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها»، ثم أكملوا بيعتهم رجلًا رجلًا.. يأخذ عليهم شرطه، ويعطيهم على ذلك الجنة... الجنة أسمى الأهداف وأرقاها، ودونها تسهل المعاناة وتهون التضحيات، وبهذه البيعة الموثقة يشيد محمد ﷺ أول دولة في التاريخ بالكلمة.. بالمعاهدات. لكن تلك الأيدي وهي تتصافح كانت تخنق مخلوقًا مخيفًا.. مخلوقًا كالليل لا يُرى.. خفيًّا كالوسواس لا يُسمع. أحرقته البيعة، فنفد صبره، وصرخ صرخة مزقت ستار الليل، وأيقظت النيام في منى. صرخ هذا المخلوق، حين رأى لأول مرة شعبًا يسافر ليبايع قائدًا أعزل مضطهدًا ليس منه.. صرخ حين رأى محمدًا يؤسس دولة دون إكراه أو إراقة دم.

ماذا تفعلون يا أهل يثرب على أرضنا؟

كان الحجاج الوثنيون يغطون في نومهم على أرض منى، وفجأة دوت صرخة مزعجة أيقظتهم.. ملأت أجواء منى بالفزع، وجعلتهم يقفون على أقدامهم.. شخص لا يدرون من هو ينادي أهل المنازل.. يصرخ بهم كالمجنون: «يا أهل الجباجب، هلّا لكم في مذمّم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم».

أدرك الوثنيون أن هذا الصارخ عدو لمحمد؛ لأنه يسمّيه مُذمّمًا، ويسمي المسلمين بالصباء، فتأهبوا بسيوفهم، واستعدوا لجيش خفي لا يعرفون متى يفجؤهم، ولا

من أي الجهات ستكون غارته، أما رسول الله ﷺ فطمأن أصحابه، وأخبرهم بأن هذا صراخ شيطان العقبة، وأمرهم بالانصراف فورًا والتسلل عبر هذا الضجيج، لكن حماس الحرب اشتعل في رأس أحد الأنصار واسمه العباس بن عبادة، فتمنى خوضها لله.. كيف لا وهو الذي طالما خاضها للأصنام، فقال: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا؟». لكن النبي ﷺ هدأ حماسه، وأخبره بأنه لم يؤمر بحمل السلاح، وقال: «إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم»، فرجعوا، فاضطجعوا على فرشهم، بينما كانت منى ساحة من الفوضى والإشاعات.. إشاعات أخافت بعض الوثنيين، فغادروا فرشهم وخيامهم، واتجهوا نحو رواحلهم، ثم ركبوها، وأسرعوا نحو مكة لإنذار طواغيتها.

أشرقت الشمس على أرض منى، فإذا بدبيب الخيل يهز الأرض.. يثير الغبار من بعيد. اقترب الغبار، ودنت الخيل، فإذا بهم فرسان قريش.. أحدهم أخو أبو جهل واسمه الحارث بن هشام. طاف الفرسان، فطافت شكوكهم حول مخيم يثرب، ثم توقفوا أمامه، فصاح قائدهم برجال يثرب: «يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن ينشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم؟».

لزم المؤمنون الصمت، ولم يتفوهوا بكلمة، فتقدم وثنيو يثرب نحو المتكلم يعتذرون.. يقولون: «والله ما كان من هذا شيء، وما فعلناه» كان الشاعر كعب صامتًا يرمق والد جابر الذي أسلم البارحة، ووالد جابر ينظر إليه، ولغة العيون تتكلم، فلما همّ الفرسان بثني رقاب خيلهم والعودة لمكة.. أخرج الشاعر كلمات جعلت شقيق أبي جهل يرمي نعليه الجديدتين باتجاهه.

أحزان تتجدد على طريق الهجرة

أراد كعب بن مالك أن يبعد الشكوك حول الأنصار، فشارك بدعابة. رأى شقيق أبي جهل يلبس نعالًا جديدة، فهتف بوالد جابر: «يا أبا جابر، أنت سيد من

ساداتنا، وكهل من كهولنا.. لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟» فانحنى ابن الحكم نحو نعليه، ومد يديه فخلعهما، ثم رماهما إلى كعب، وقال: «والله لتلبسنهما» شعر الشيخ أن كعبًا قد أحرجه، فقال: «مهلًا أحفظت لعمر الله الرجل، اردد عليه نعليه» لكن كعبًا قال: «والله لا أردهما»، ثم همس بوالد جابر، وقال: «فأل صالح، والله إني لأرجو أن أسلبنّه».

اطمأن الوثنيون، فغادروا منى، واستعد الأنصار للرحيل، ليشرق يوم السفر بشمس جديدة وصباح منعش كالمطر.. غادرت رواحل الأنصار لتزين يثرب لاستقبال حبيبها.. نخيلها السامقات تتمايل تطلعًا وشوقًا إليه.. يثرب تنتظر نبيها الذي سيغير العالم، ويجعلها عاصمة لأعظم دولة في التاريخ، بعد أن كانت مجرد بلدة يتفاخر أبناؤها بنحر بعضهم من أجل دابة أو حتى مزحة.. يثرب ملت تقاتل فلذات كبدها.. ملت النواح وسكب الدموع على أجداثهم.

ها هو نبي الله ﷺ يمسح دمعها.. يبعث لها بمعلمين يعلقان قناديل الوعي والحب في بيوتها وأسواقها ودروبها: مصعب بن عمير الذي يتزر الجلد من الفقر، وابن أم مكتوم الأعمى الذي ينير بصائر وثنييها، أما في مكة، فنبي الله ﷺ يحدث أصحابه عن رؤيا كالوحي، فيقول: «أريت دار هجرتكم» ويصفها بأنها «ذات نخل بين حرتين» فيتسلل الشباب، وتهاجر أول عائلة.. «عائلة أم سلمة».

ها هي هند قد استوت على ظهر بعيرها، وزوجها يناولها طفلهما سلمة، ثم يأخذ بزمام بعيرها، وينطلق بها، وفي الطريق تفاجئهما مجموعة من الرجال تقطع الطريق، فيتوقفان، ويأمرون أم سلمة بالنزول، فيتقدم بعضهم، فينزع الطفل منها، وهي تبكي.

ماهذ؟ ألا تكف الوثنية عن إلحاق الأذى بهذه المؤمنة.. طعن أبو جهل حبيبتها سمية، وعذبوا أخاها من الرضاعة عمارًا، فصبرت.. ضيقوا مكة، فتركتها لهم، وهاجرت للحبشة، ولما سمعت ببيعة الأنصار وكرم يثرب.. عادت لتجد قريشًا في الطريق تمنعها من الهجرة.. تخطف صغيرها.. تحول بينها وبين زوجها، وتتركها على قارعة الطريق للدموع والأحزان.

أم سلمة عام من البكاء

اجتاح الخوف أم سلمة، حين أوقفت عائلتها بعيرها، وعنفوا زوجها، وتجاهلوا رجاءاته، وقالوا له: «هذه نفسـك غلبتنا عليها.. أرأيت صاحبتك هذه علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟» تقول ﵂: «فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه».

فاضـت عينـا أبي سـلمة، وتحير وقلّـت حيلته، فـودع زوجته وطفلـه، وانطلق وحيـدًا حزينًـا نحو يثـرب. وصلت أخبـاره لعشـيرته، فغضبوا، وانطلقـوا نحو أم سـلمة، لا لمواسـاتها، بل ليزيدوا آلامها. ها هم أمام بيوت أهلهـا يطالبون بالطفل، قائلين: «لا، والله لا نترك ابننا عندها، إذ نزعتموها من صاحبنا».

رفـض أهلهـا، فامتـلأت السـاحة بالضجيج والشـجار والتلويح، فاشـتبكت الأيدي، أما سـلمة الصغير فكان كالذبيحة بينهـم.. يتنازعونه.. يتجاذبونه وصراخ أمه يعلو.. تناشـدهم الرفق به، وتقول: «تجاذبوا ابني سـلمة بينهم حتى خلعوا يده» كان الطفـل يتوجـع، يـصرخ.. لا يسـتطيع تحريك يـده مـن الألم، وفي النهاية تمكن أعمامه من انتزاعه، وهو ينظر إلى أمه.. يناديها.. يمد يده السليمة نحوها حتى غابت عن عينيه.. يتفطر قلبها.. يحرمها الفراق لذة الزاد وطعم الرقاد.. يأخذها الحزن كل صبـاح إلى مكان يقال لـه الأبطح.. تدعو الله وتئن وتبكي قرابـة العام، حتى أشرق ذلك اليوم حين مر بها شـهم من بني عمومتها، فرأى جسـدًا ناحلًا وعينين توشكان على العمى من البكاء، فرق لحالها، واتجه غاضبًا نحو أهلها يؤنب ضمائرهم، ويقول: «ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها».

نظر بعضهم إلى بعض من الخجل، وعاد إليهم بعض رشدهم، فنادوها، وقالوا: «الحقـي بزوجـك إن شـئت» فتأهبـت للرحيل المـرّ.. دون صغيرها، ولمـا علم أهل زوجهـا لحقوها. التفتـت خائفة إلى من يلاحقها، ففوجئـت بصغيرها مقبلًا كالحياة نحوهـا.. انحدرت عن بعيرهـا لا تصدق ما تراه.. تركض نحـوه.. تفتح ذراعيها، وتحتضنـه، فتنهمـر دموعهـا، ويعلـو أنينهـا وهي تضمه وتشـمه وتضمـد جراحها برائحته الحبيبة، وتبدد وحشته بعد عام من اليتم والحرمان. عام شعرت بعده بأنه لا

مكان لها هنا سوى الأحزان، فانطلقت خشية أن يتراجعوا، وهي تقول: «وضعت ابني في حجري، ثم خرجت أريد زوجي وما معي أحد من خلق الله».

سر تضحية الصحابيات

انطلق بعير أم سلمة نحو يثرب، ولما وصلت مكانًا خارج الحرم اسمه التنعيم رآها شهم اسمه عثمان بن طلحة، وهو سادن الكعبة وصاحب مفتاحها، فعرفها، وسألها مستغربًا: «إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي» تلفت فلم يرَ معها أحدًا، فزاد استغرابه، وقال: «أوما معك أحد؟ فقالت: لا، والله إلا الله وابني هذا» شعر بغصة ومسؤولية تمليها رجولته، فقال: «والله مالك من مترك. فأخذ بخطام البعير، فانطلق يهوي بها نحو يثرب».

ترى ما سر تضحياتها وتحديها للقمع؟ إنه الدين المقنع، لا الوثنية التي تئدها، ولا حتى التوراة والإنجيل التي تحكم على المسيحية واليهودية إذا حاضت بأنها نجسة تنجس كل شيء تلمسه، أو تجلس عليه من أثاث أو أدوات، وتحكم أن كل من لمس أو جلس على شيء لمسته يصبح نجسًا، وعليه أن يستحم ويغسل ثيابه، وإذا أصابت الرجل قطرة دم منها، فينجس مدة أسبوع، أما إذا انتهت فترة حيضها فتبقى نجسة مدة أسبوع آخر، أي نصف كل شهر، أي نصف أجمل أيام عمرها، بينما كان النبي ﷺ يحلف على زوجته الحائض أن تشرب قبله، ثم يشرب بعدها، ويشعرها بحبه، فيبحث عن موضع شربها، فيشرب منه. ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها، وهي تسرح شعره، ولما أصابته ﷺ قطرة دم منها لم يغسل ثوبه، بل غسل القطرة فقط.

هذا هو سر انفلات المسيحية واليهودية، لا لأنها شريرة، أو تكره الدين والتدين، بل لأنه لا طاقة لها بتعاليم كتابها المحرف، أما الصحابية فتشعر بإسلام يحترم عقلها وآدميتها، ويدفعها لمنافسة الرجل ومسابقته نحو أبواب الجنة.. هذا هو سر تضحيات سمية وخديجة وأم سلمة.

أم سلمة التي يأخذها ابن طلحة هي وابنها بأسلوب راقٍ قائلة: «كان عثمان إذا بلـغ المنـزل أناخ بي، ثـم أبعد عني حتى إذا نزلت أخذ بعيري فحـطّ عنه، ثم قيده في الشـجرة، ثم تنحى عني إلى شـجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه، ثم أبعد عني، وقال: اركبي» فلما وصل إلى قرية قباء قال لها: «زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله».

تقـول أم سـلمة: (والله مـا أعلم أهـل بيت في الإسـلام أصابهم مـا أصاب أبا سـلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة) الذي عاد لمكة، فأسلم فيما بعد. عاد ليجد مكة موحشة وخائفة.

مكة تشعر بالوحشة

خلـت الكثير مـن بيوتها.. أبوابهـا كالقلوب تضطـرب وجدًا عـلى أحبتها الذين رحلوا.. ها هو ﷺ يتسـلل.. يزور أبا بكر كعادته صباح مسـاء، فيسـتأذنه الصديق في الهجرة واللحاق بيثرب، فمكة بدأت تخلو من الأحبة، فيصطفيه ﷺ لنفسه من بين أهله وأصحابه، ويبقيه، ويقول: «**على رسـلك، فإني أرجو أن يؤذن لي**» فتملأ السعادة قلب الصديق، وهو يحظى بصحبته، فيقول: «وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ فيقول: نعم».

تقول ابنته عائشـة: «فحبس أبوبكر نفسـه على رسـول الله ليصحبـه» أما أختها أسـماء فهي في أشـهر حملها الأولى، وهي الآن تودع زوجها الشاب الزبير بن العوام، الذي سيسـافر مـع بعض أقاربه نحو الشـام للتجـارة، وفي مكان آخـر يجتمع ثلاثة رجال سرًّا.. هم عمر بن الخطاب، وهشـام أخو عمـرو بن العاص، وعياش بن أبي ربيعة أخو أبوجهل لأمه.

اتفـق الثلاثـة على أن ينطلق كل واحد منهم، ويتسـلل بطريقتـه الخاصة خارج مكـة، ثم يجتمعون في يوم محدد.. في مكان اسـمه (ميضأة بنـي غفار) على بعد أميال من مكة، ومن هناك ينطلقون ليثرب، وأي تأخر هو دليل على انكشاف الخطة.

تأخر هشام، ويبدو أن أسرته شعرت من تصرفاته بعزمه على الهجرة، فتم اعتقاله والتحقيق معه وتعذيبه، فاعترف فحبس، وفي اليوم المتفق عليه كان عمر وعياش في المكان المحدد.

انتظرا صاحبهما وانتظراه فلم يأتِ، فأيقنا أنه قد تم القبض عليه، فاسترجعا، وانطلقا دونه، وفي الطريق توالت المفاجآت والابتسامات.. ثمانية عشر من المستضعفين يخرجون واحدًا تلو الآخر من مخابئهم على طريق الهجرة لمرافقة القائد عمر بن الخطاب.. كان منظرهم مبهجًا وهم يتحررون من الطغيان.

يقول أحد أطفال المدينة واسمه البراء بن عازب: «أول من قدم علينا مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ».

أما مكة، فمكة موحشة.. يسير أبوجهل في طرقاتها نحو بيت أمه، فيجدها في حالة غضب شديد، فيسألها، فتخبره بأن أخاه عياشًا قد فر نحو يثرب، وحلفت ألا يمس رأسها ماء أو مشط حتى يعود، فجن جنون الطاغوت، فنهض، وهيأ راحلته وحمل سلاحه، ونادى رجاله، وانطلق نحو يثرب محملًا بالشر.

أبو جهل ذليل أمام عمر في يثرب

نادى أبوجهل أخاه الحارث صاحب النعلين الجديدتين، وأخبره بضرورة إعادة أخيهما عياش من يثرب بالإقناع.. بالتحايل.. بالخطف بأي وسيلة. المهم أن يعاد ذليلًا إلى مكة. ركبا بعيريهما، وانطلقا سفرًا في سبيل الشيطان والتخلف والأوثان.

وصلا يثرب، وسألا عن مكان أخيهما، فأخبروهما عن أماكن وجود المهاجرين. فتوجها إليه، وسألا فوجداه، لكنهما وجدا معه عمر بن الخطاب، ولما رأى أبوجهل ابن الخطاب خنس، وتلاشى طغيانه، وأدرك حجمه الحقيقي كعادة الطغاة عندما يكونون بلا أتباع.. يتحولون إلى خراف؛ لذا تأدب في الحديث، قائلًا: «يا أخي، إن أمك نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك؟».

نظر عمر إلى وجه عياش، فرأى فيه التأثر والكدر، وقد رقّ، ولان لكلام أبي جهل، الذي لم يكن بهذا اللطف في شوارع مكة، ثم تفرس عمر في وجه الطاغوت، فقرأ في تقاسيمه خبثًا ومكيدة.. قرأ بين كلماته فخًا، فحدب على أخيه في الله، وخاطب عقله قائلًا: «يا عياش، والله إن يريدك القوم إلا عن دينك، فاحذرهم، فو الله لو آذى أمك القمل لامتشطت» جرفت العاطفة عياشًا، فبرر عودته قائلًا: «إن لي هناك مالًا، فآخذه».

كان ابن الخطاب واعيًا بحقد أبي جهل ضد كل ما هو إسلامي، فخشي على أخيه، لكن عمر لا يكتفي بالكلمات والمشاعر.. عمر يفعل ما لا يفعله إلا من ملأ قلبه حب الله ﷻ ورسوله ﷺ.. بسط ثروته فداء لأخيه، وناشده: «يا عياش، والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما».

تعجب الوثنيون من هذا الإيمان والإيثار العمري، لكن عاطفة عياش تجاه أمه أذهلته عن خبث أخيه، فأصر على العودة. ففكر عمر في آخر الحلول، ونادى عياشًا على انفراد وهو يمسك بزمام ناقته السريعة، ثم وضع زمامها بيد عياش، وناشده من أعماق قلبه، وقال: «أما إذا فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ذلول سهلة الانقياد، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، وشككت فانجُ عليها»، ثم ودعه بقلب مشفق يتفطر.

امتطى عياش ناقته، وخرج مع أخويه بينما كانت عينا عمر تناشدانه العودة، لكنه اختفى وغيبته المسافات، ولما أبعدوا عن يثرب التفت أبو جهل لأخيه هشام، فتبادلا نظرات مخيفة دون أن يشعر عياش بهما.

❧ ❧ ❧

عياش يبتلع الطعم

في الطريق إلى مكة رمق أبو جهل أخاه هشام بنظرة خبث اتفقا عليها، ثم نادى أخاهما المؤمن عياشًا بكلمات تنساب كالحية، وقال له: «والله لقد استبطأت بعيري

هـذا، أفلا تحملني على ناقتك»، فرحب عياش، وقال: بـلى. توقفت الإبل، وانحدر عياش وأبو جهل ليتبادلا المقاعد. لكن هشامًا ترجل أيضًا، فاستغرب عياش نزوله، وإذا بـه يفاجـأ بأخويـه يهجـمان عليه، ويطرحانـه حتى تمكنـا من تقييـده، ثم حملاه فوضعاه مكتفًا على ظهر البعير، وانطلقا به يتمايل كجثة خلال الطريق.

عيـاش كتلة من الندم.. يعاني طريقًا طال أكثر مما هو طويل.. قرابة الثلاث مئة ميل مثقلـة بالهواجس والهمـوم.. فقد فيها حريته وناقة صاحبه عمر الذي كان أحنّ عليـه من أمه.. تـرن كلمات ابن الخطـاب في أذنيه، وهو ينصت لشـتائم هذا الشرير يصادر حقه في الحرية والتوحيد، وحتى التوقف للصلاة، والعيش حيث يريد.

شاحب هذا الطريق، لا شمس فيه ولا قمر ولا أنيس، ولما وصلوا مكة أخذوه لمعتقله، وحبسـوه، وعذبوه حتى أذعن لمطالبهم، فأعـادوه مكرهًا لعبادة الأصنام.. وصلت أخباره يثرب، فتحسر ابن الخطاب على أخ لم يعد أخاه.. يتحسر عليه وعلى هشـام بـن العاص، ويتحدث لـمن حوله، فيقـول: «أوثقاه، ثم أدخـلاه مكة، وفتناه فافتتـن. فكنـا نقـول: والله لا يقبـل الله ممن افتتن صرفًـا ولا عـدلًا، ولا يقبل توبة، قـوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم» كان عياش وهشـام يقولان هذا لأنفسـهما.. موقنـين أنـه لا توبة لهما، وأن الله لـن يقبل منهما عـدلًا ولا صرفًا.. ترى هل لهذا الليل من نهاية؟ سـؤال ستجيب عنه أيام مكة التي بدأت تخلو من المؤمنين، ولم يعـد فيهـا منهـم إلا مختفٍ أو مأسـور.. في هذه الأيـام بدأ ظهـور النبي ﷺ يندر في شـوارعها ويقـل، ما أصـاب قريشًـا بالجنـون، وفي أحد الأيام نـزل جبريل عليه السلام بآيـة أخرجـت نبـي الله نحو صاحبه الصديـق. نزل قوله تعـالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٠]. أدخلنـي المدينـة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق. فانتظر حتى اشـتعلت الظهـيرة، والتهبت الرمضاء، واختفـت الأقدام من شـوارع مكة. فتلثم، وتنكر، وخرج يتسلل نحو بيت أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم يكن يزوره فيه.

ملثم على رمضاء مكة

ها هو النبي ﷺ يهم بالخروج من بيته.. في ظهيرة ملتهبة نثرت فيها الرمضاء جمرها على طرقات مكة، وقبل خروجه يقوم بالتنكر، فيغطي رأسه بثوب ويتلثم، ثم يتسلل عبر طرقات آمنة نحو بيت صاحبه أبي بكر، ولما وصل طرق الباب ففُتح، فهتف الذي فتح قائلًا: «هذا رسول الله متقنعًا».

لم يكن الصديق يتوقع زيارته في مثل هذه الساعة؛ لذا قال: «فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر» لم يدخل ﷺ، بل استأذن كعادته، فأذن له الصديق وقفز لاستقباله، وقبل أن يجلس طلب طلبًا غريبًا، فقال: «**أخرج من عندك**»، فقال أبوبكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله.. عندها جلس ﷺ وقال: «**إني قد أذن لي في الخروج**» فابتهج أبوبكر، وناشد نبيه رفقته، وقال: «الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله». فأكد أنه لم يأتِ إلا لهذا الأمر الذي خصه به بين أصحابه، وقال: نعم. ثم أطلعه على خطة الهجرة التي أعدها ﷺ بإحكام، ليتولى أبوبكر وأسرة أبي بكر تنفيذها، وقبل أن يغادر أخذه الصديق إلى فناء بيته، فأشار بيده إلى ناقتين قد أعدهما، وسمنهما بورق السمر منذ أربعة أشهر تأهبًا ليوم الرحيل، ثم أهداه قائلًا: «خذ بأبي أنت يا رسول الله، إحدى راحلتي هاتين».

نظر ﷺ للراحلتين بارتياح ووافق، لكنه اشترط أن يدفع ثمن الناقة، وقال: «بالثمن»، ثم خرج، وبعد خروجه قام أبوبكر بتوظيف ماله كله، وأسرته ومواليه لتنفيذ العملية، وأخذ ناقتيه لرجل خبير بدروب السفر الآمنة.. رجل مشرك من بني الديل يثق أبوبكر به، فطلب منه الاحتفاظ بالنياق عدة أيام، ثم إحضارها في يوم محدد.. في مكان محدد قرب جبل يقال له (ثور)، ثم توجه نحو أحد خدمه واسمه عامر بن فهيرة، فأمره أن يرعى الغنم قرب ذلك الجبل.

خلال تلك الأيام كانت مكة ساكنة سكون الأموات.. فقدت حيويتها، وعادت إليها رتابة الجاهلية المملة، فلا صلاة عند الكعبة، ولا حوار بين المسلمين والوثنيين، ولا ظهور للمؤمنين في الطرقات أو الأسواق.. شعر طواغيتها بسكون

يسبق العاصفة.. شعروا بدولة فتية في يثرب تتحرق شوقًا لقائدها، فاجتمع أبو جهل والطواغيت في مكان يقال له دار الندوة، وبعد نقاش محموم خرجوا بثلاثة خيارات لا رابع لها ولا رجعة عنها.

عندما تضيق الأوطان

كلما أغار الطواغيت على بيت مسلم لم يجدوه، ووجدوا حنين الجدران لتلك الوجوه المؤمنة، والأرواح الشفافة، والأصوات المتهدجة بقراءة القرآن.. وجدوا السؤال عن شباب وشابات تغربوا، فأين هم يا مكة.. أين هم؟

لم يكتفِ الطواغيت بتشريدهم وهم أطيب أهلها، بل تأجج حقدهم، فعقدوا اجتماعًا في دار الندوة أوجز سبحانه نتائجه، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ثلاثة خيارات لا رجعة عنها: إما إثباته في الأسر، أو قتله، أو إخراجه.

كانوا لا يعلمون بعزمه على الخروج؛ لذا بدؤوا بخيار القتل، فانتقوا مجموعة منهم ليتفرق دمه بين عائلات مكة، فلا يصبح أمام عائلته سوى القبول بالدية. أما هو ﷺ ففي بيته، ومعه ابن عمه علي بن أبي طالب ابن الثالثة والعشرين.. ها هو يسلمه أموالًا، لا ليلحقه بها في يثرب، بل ليعيدها لأصحابها الوثنيين الذين لم يجدوا أكثر أمانة منه، فعندما دنا الرحيل لم يقل ﷺ: ما داموا يخططون لقتلي فودائعهم حلال لي، وأماناتهم غنيمة، بل يقول: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك**»، وعندما خيم الليل خيم الحزن، وحان الفراق، فهل هو الوداع الأخير يا مكة؟ هل هو الوداع يا مهبط الوحي ومرتع الصبا ومغنى الأحبة؟

هنا كان المولد، وهنا كان يتراكض مع الأطفال، ويلعب.. هنا كانت تناديه آمنة. يأتيها ضاحكًا فتلاعبه، أو باكيًا فتهدهده، وتقص عليه وتسليه.. هنا استقبلوه يتيمًا بعد رحيلها، وهنا كان يمشي مع عبدالمطلب.. هنا تعلم ركوب الخيل ورعي

الغنم.. هنا تمنته الفتيات ففازت به خديجة، وهنا بكى على خديجة.. هنا مكة ما أطيبها وأطيب ريحها، فما أقسى فراق الأوطان عندما يضيقها الطغاة.. يقول لحبيبته وهو يهم بفراقها: «**أنت أحب بلاد الله إلى الله. وأنت أحب بلاد الله إلي. ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك**».

خيم الليل، فتداعى جنود الشيطان كالخفافيش لينكسوا سيوفهم في جسده الطاهر، الذي عانى الجوع والضرب والنزف منهم.. ليغرزوا خناجرهم في قلب يتفطر حسرة عليهم ورحمة بهم، فيسليه سبحانه، ويقول له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[فاطر: ٨]، فهل هو الوداع الأخير يا مكة؟

بيت أبي بكر وماله لله

استلقى النبي ﷺ على فراشه وعلي يراقب الوضع، ولما وصل بعضهم أطل أحدهم على فراشه، فرماه بحجر ليتأكد من وجوده، وبعد مدة اندس علي في فراشه، فتسلل ﷺ بمعجزة.. بحيلة.. بذكاء.. الله أعلم. المهم أنه تركهم محنطين كالغباء حول بابه، ولما اكتمل عددهم.. قاموا برميه بالحجارة ثانية، فلما أحس علي بالألم تضور وتحرك، فسلوا سيوفهم خشية أن ينهض، وانطلقت ساعة الغدر والاغتيال، فاقتحموا البيت، ولما أصبحوا أمام الفراش كانت صدمتهم كبيرة.. كان علي ينظر إليهم.. يحدق بهم باستشهاد وشجاعة ينتظر ساعة الرحيل إلى الرفيق الأعلى.

اتسعت أعينهم، وجمدت السيوف وأيديهم، وتحولوا إلى دمى بلهاء، حتى إن أحدهم قام يخاطب عليًّا من هول الصدمة، ويقول: «إنك للئيم، كان صاحبك نرميه فلا يتضور، وأنت تتضور، وقد استنكرنا ذلك» ثم أعادوا سيوفهم لأغمادها، وانصرفوا نحو رفاقهم ليحبطوهم بفشلهم.

جن جنون الطواغيت، فأمروا بتفتيش مكة، أما النبي ﷺ فقد وصل بيت صاحبه أبي بكر الذي أخذ معه خمسة آلاف درهم هي كل ماله.. كانت زوجته

أم رومان وابنتاه أسماء وعائشة قد صنعن لهما سفرة صغيرة، وكانت الفتاة الحامل أسماء متحيرة وهما في عجلة من أمرهما.. حيرة أكسبتها مجدًا، فتقول: «صُنعت سفرة رسول ﷺ في بيت أبي بكر، حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به» هنا التفتت إلى والدها، وقالت: «والله ما أجد شيئًا أربط به إلا نطاقي. قال: فشقيه اثنين، فاربطي بواحد السقاء، وبالآخر السفرة» مدت أسماء يديها إلى ذلك النطاق الذي يلتف حول ذلك البطن الذي يعد بمولود جميل، ثم حلته وشقته نصفين، ونفذت ما طلبه منها والدها العظيم، فسميت منذ تلك اللحظة ذات النطاقين.

ودع الصديق زوجته وابنتيه، وانطلق مع نبيه متنكرين في ظلمة الليل نحو جبل اسمه جبل (ثور)، فصعدا الجبل، وبقيا على قمته يترددان على غار في قمته، وربما ينامان فيه، لكن مهمة بيت أبي بكر لم تنتهِ.. ها هو مولاهم عامر بن فهيرة يحوم بغنماته حول الجبل في الفجر، ثم يصعد لهما ببعض اللبن والطعام، وفي الليل شعر نبي الله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه بأقدام فتى شجاع من مكة.

❧ ❧ ❧

مَنْ يُلام في حب أبي بكر؟

تأمل أبوبكر هذا الطيف الذي يتسلق الجبل نحوهما، فإذا هو ابنه عبدالله.. كان شقيق عائشة فتى ذكيًّا وشجاعًا؛ لذا كلفه والده بمهمة خطرة هي رصد حركة طواغيت قريش، وما يصدر عنهم، ثم يتسلل مساء نحو الجبل لتكون أخبارهم بين يدي نبي الله ووالده، فهل يُلام ﷺ في حب صاحب يفديه بكل ما يملك؟

سخر ابنه عينًا له على أعدائه، وراعي أغنامه ممونًا.. حتى صديقه جعله دليلًا لرحلته. هل يُلام ﷺ في حبه لأبي بكر، وهو يرى ماله كله بين يديه في الغار؟ أكثر من خمسة آلاف درهم هي كل ثروته يبذلها لله ورسوله. كان والد أبي بكر والمعروف بأبي قحافة شيخًا قد كف بصره، لكنه كان أدرى الناس بابنه وتضحياته وكرمه.

لما وصلته أخبار هجرته أدرك أنه سيفني ماله فداء لدينه، فحركه قلبه نحو حفيداته أسماء وعائشة.. طلب من أهل بيته عصاه، ولما أعطوه العصا قبض عليها، ونهض ثم خرج يتوكأ نحو أحفاده. دب الشيخ دبيب القلب الولهان حتى وصل، فنادى أهل البيت، فطربت لصوته قلوب حفيداته، ورحبن به، وأجلسنه، لكن الشيخ ما جاء ليرفّه عن نفسه، أو يسرد قصص السابقين.. جاء ليتفقد حبيباته؛ لذا سألهن سؤال من حمل أبا بكر بيديه رضيعًا، ولاعبه صغيرًا، وأقر الله عينه به شابًّا، وعرفه مجاهدًا سخيًّا، فقال: «والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه؟».

تكفلت ذات النطاقين بقلب جدها الحاني.. تكفلت الفتاة التي ثقفها القرآن والسنة، ورباها أبوبكر، فقالت: «كلا، يا أبت إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا» لم تقل: مالًا. قالت: خيرًا كثيرًا. ثم قامت وخرجت، فالتقطت أحجارًا، فوضعتها في كوة الجدار التي كان أبوبكر يضع ماله فيها، وغطتها بقماش غليظ، ثم عادت إلى جدها، وأخذت بيده برفق ليقوم معها، ويتأكد بنفسه، ولما أوقفته أمام الكوة مررت كفه على قطعة القماش، فابتهج، وقال: «لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا لكم بلاغ»، ثم ودعهن، وانصرف مطمئن القلب، أما أسماء فكانت تقول لمن حولها: «والله ما ترك لنا والدي شيئًا، ولكني أردت أن أسكن الشيخ».

لا يُلام ﷺ في حب هذا الحب، حين يقول: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبوبكر: صدق. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي؟».

لا تحزن يا أبا بكر

ظل النبي ﷺ وصاحبه ثلاثة أيام في غار ثور، فتحول طواغيت قريش إلى عاصفة تلتف بين الصخور والأشجار، وتجاويف الأودية وسفوح الجبال.. استخدموا ما لديهم من حلال وحرام، ومشروع وغير مشروع.. استأجروا من يقتص الأثر، وربما السحرة والكهنة والعرافين.

في أحـد تلك الأيـام المخيفة أبصر نبي الله وصاحبه كتيبة الطواغيت تقترب من جبلها، فنهضا نحو الغار.. حام الطواغيت حول الجبل، ثم قرروا صعوده.. تسلقوا كعناكب سامة، ولما اقتربوا من الغار اختلفت أقدامهم حوله، فاجتاح الحزن فؤاد أبي بكر على نبيه ﷺ.. خشي أن يصاب كما أصيب أنبياء قبله في لحظات تلمع فيها سيوف الحقـد وخناجـره.. كم من نبي أزهقت روحه قبـل أن يجد ملاذًا.. كم من نبي رحل عـن هـذه الدنيا لم يؤمن به إلا رجل أو رجلان.. كـم من نبي يأتي يوم القيامة وحيدًا ليـس معـه أحـد. أي هواجس حزينـة طافت بأبي بكـر، فجعلته يهمس بنبيـه قائلًا: (لـو أن أحدهـم نظر تحت قدميه لأبصرنـا)؟ لكن نبيه ﷺ همس ثقـة بالجبار، فقال: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبـة: ٤٠]، أخذ الله بصائرهم بنسـج العنكبوت، فأيقنـوا أن لا أحـد داخله، واسـتمر ﷺ في تطمين صاحبه قائلًا: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟**».

هنـا انتهـى الأمر، فـوالله لو خـرج معهـم كل أشرار الجن والإنس، وانشـقت المقابر، فخرج منها رفاقهم الأموات يجرجرون بقايا أكفانهم، لما قدروا على اثنين الله ثالثهما.. اثنين تغشـاهما لحظات النصر التـي تهمي قبيل اليأس.. لحظات النصر التي تتنزل بعدما يبذل المؤمن كل ما بوسـعه من أسـباب، ثم يسلم أمره وأمر أسبابه كلها لله، كما فعل ﷺ وصاحبه.. لحظات تتلاشى فيها قوى الطغيان أمام نصر الله لأوليائه المتوكلين الواثقين، لا المتواكلين المتشككين.

غاب الغار عن تفكير الطواغيت، فانحدروا يتصببون عرقًا وهزيمة، فخرج ﷺ وصاحبه من الكهف، لكنه لم ينحدر.. تركهم نهبًا للجنون والإحباط ثلاثة أيام حتى يئسوا، حينها عقدوا اجتماعًا قرروا فيه إغراء سيوف الجزيرة العربية كلها بدمائهما بما فيها سـيوف يثرب.. خرجوا من ذلك الاجتماع بالإعلان عن جائزة قدرها مئة ناقة لمن يأتي بمحمد وصاحبه أحياء أو أموات.

مطلوب حيًا أو ميتًا

بعد كل صلاة فجر يتأجج الشوق في قلوب الأنصار، فيحملهم إلى مشارف يثرب.. تتطلع قلوبهم للقادمين.. للمطايا علها تحمل حبيبهم ﷺ، فإذا ما اشتد حر الظهيرة عادوا، لكن شوقهم يتجدد مع كل صباح، ويشرق مع كل شمس. أما في مكة فيواصل علي إعادة ودائع نبيه، وبدلًا من أن يشكره الطواغيت.. أرسلوا للقبائل والمضارب حولهم رسلًا تغريهم بدم محمد مقابل مئة بعير.

ها هو ﷺ ينزل وصاحبه من الجبل، فيأخذان راعي الغنم ابن فهيرة معهما، وينطلقان نحو مكان قد أنيخت فيه ثلاث نياق.. يشرف عليها دليل اسمه (عبدالله بن أريقط)، ولما وصلوا ركبوها، فسلكوا طريق الساحل الذي لا يسلكه المسافرون نحو يثرب، وفجأة يراهم رجل من عشيرة تدعى (بنو مدلج) فيشك أنهم المطلوبون، فينطلق مسرعًا نحو مضارب قومه.. يتلفت يبحث عن فارس قومه سراقة بن مالك؛ عله ينال منهم، فيحذيه من المكافأة، فيراه وسط مجلس من مجالسهم، فيمشي نحوه، ويخاطبه قبل أن يجلس: «يا سراقة، إني قد رأيت أسودة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه؟» أدرك سراقة أنهم هم، فتدافعت في مخيلته مئة من الإبل تحتضنها مراعيه، فطمع فيها لنفسه، وتظاهر باللامبالاة وعدم الاكتراث، بل رد بأسلوب يثبط عزيمة الجالسين، فقال: «إنهم ليسوا هم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطلقوا بأعيننا»، فأُحبط الرجل، وجلس، واستأنف الجالسون حديثهم، بينما كان سراقة يغلي من الداخل.

ظل يشتت انتباههم مدة، ثم استأذن، ونهض بهدوء نحو خيمته، فدخلها، وأخذ كنانته، فملأها بالأسهم، وتقلد قوسه، وأخذ رمحه، ونادى خادمته، فهمس بها، وأمرها أن تخرج فرسه دون ضجيج خلف مكان مرتفع، بحيث لا يراها قومه، ثم تسلل من وراء الخيمة يخط رمحه بالأرض، ثم تناول زمام الفرس من الخادمة، واقتادها بهدوء حتى توارى عن القوم، فامتطاها تنهب الأرض.. تحرث رمال الشاطئ حتى أبصرهم من بعيد، لكن فرسه عثرت به، فسقط، وتدحرج على

الأرض، فنهض وعاد إليها، ثم مد يده للخرج، فأخرج الأزلام التي تشبه القرعة.. يحملها الوثنيون، ويستخيرونها، فرماها في الأرض، فخرج له أنه لن يضرهم، لكن طمعه عصى أزلامه، فركب فرسه نحوهم.

سراقة يقدم جائزة

سار النبي ﷺ ورفاق الهجرة نحو يثرب.. ساروا حتى ارتفعت الشمس فوق الرؤوس، وتصبب العرق.. عندها تلفت الصديق، فأبصر صخرة كبيرة، فانطلق نحوها، ولما وصلها وجد لها ظلًّا، فسوى الأرض، وفرش عليها فروة كانت معه، ثم دعا نبيه للراحة والاضجاع عليها، ولما غفا ﷺ انطلق الصديق مجددًا يبحث هنا وهناك، حتى صادف بعد مسافة راعي غنم، فسأله: «لمن أنت يا غلام؟» فأخبره بأنه لرجل من قريش يعرفه أبوبكر. فسأله: «هل أنت حالب لي؟ قال: نعم» يقول أبوبكر: «فأمرته، فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فضرب إحدى كفيه على الأخرى، فحلب لي».

أخذ أبوبكر اللبن الدافئ، وكان معه قربة صغيرة فصب قليلًا من الماء البارد على اللبن، ثم عاد، فوجد النبي ﷺ قد استيقظ، فاستأذنه بلطف: «أتشرب يا رسول الله. فشرب ﷺ وشربوا» ولما مالت الشمس قال أبوبكر: «قد آن الرحيل يا رسول الله» فنهضوا، وواصلوا رحلتهم، فكان ﷺ يقرأ القرآن، ولا يلتفت، أما الصديق فيكثر التلفت والمراقبة، فرأى سراقة يطوي الأرض نحوهم.. لم يكن معهم سلاح، ولا يمكن لسراقة التغلب عليهم، لكن أبابكر خاف أن يصاب نبيه بأذى، فقال: (هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله) فأجابه ﷺ بكل ثقة: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، لكن سراقة دنا منهم حتى سمع تلاوة النبي.. كان الرفاق ينتظرون أوامره، فلم يأمرهم بشيء، فدمعت عينا أبي بكر، وقال: «هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله» فتأمل ﷺ دموع صاحبه، وتساءل: «مايبكيك؟ فقال: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك».

فدعـا ﷺ بدعـاء يقصـم الجباريـن، فقـال: «اللهـم، اكفنـاه بـما شئت اللهم، اصرعـه»، فسـمعوا حمحمة الفـرس، فالتفتوا فرأوا شـيئًا مرعبًا: الفـرس غارقة إلى بطنهـا في الرمال، وسراقـة يقفز عن ظهرها خائفًا فزعًا يصرخ: «يا محمد، قد علمت أن هـذا عملـك، فـادعُ الله أن ينجني ممـا أنا فيه، فـوالله لأعمين على مـن ورائي من الطلب» سـكت ﷺ، فحاول سراقة إغراءه بأمواله المتناثرة بين مكة ويثرب، وليؤكد عرضه.. أخذ جعبة أسـهمه المميزة، ومدّها نحو النبي ﷺ، وقال: «هذه كنانتي فخذ منها سهمًا، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك».

من سراقة إلى أبي معبد

تحول سراقة بن مالك إلى أسـير دون حبال.. أدرك أن الذي أمامه أصدق خلق الله وأسمحهم، فهو لم يقتله.. لم يأخذ ماله ولا فرسه ولا سلاحه، بل لم يتركه ليحرقه العطش، وتشـويه الشـمس، وتنهشـه ذئاب الصحاري، مع أنه قاطع طريق مهدور الدم. تركه النبي ﷺ يحاسـب نفسـه بنفسـه، فتأثر سراقة برقيه ﷺ، وعرض كل ماله هديـة، وقال: «هذه كنانتي فخذ منها سـهمًا، فإنك سـتمر بإبلي وغنمـي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك».

أخذ ﷺ سـهمًا من الحب، فغرسـه في قلب سراقة، فقـال: «**لا حاجة لنا في إبلك وغنمـك**».. كلـمات قتلت سراقة. ما هذا السـمو.. مـا هذا العفـاف؟ رجل مطارد أعـزل تأتيه الدنيا راغمـة، فيرفضها، ويعفو عمن يريد قتلـه دون مقابل، وأنا الغني ألهـث في الصحـاري لأقتله من أجل إبل لا حاجة لي بهـا؟ هناك شيء أرقى من المال ومن الجاه يحمله محمد، ثم ما هذه المعجزة التي أمامي؟ خاطب سراقة نفسه، وقال: «وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمره ﷺ»؛ لذا أحب أن يكـون مـن رعايـاه، فطلب من النبي ﷺ أن يكتب له كتـاب أمان، فالتفت ﷺ إلى عامـر بـن فهيرة، فأخـرج عامر رقعة من الجلـد، وكتب كتابًا أملاه عليـه نبيه، وقبل الفـراق حاول سراقة تقديم خدمة لأحبابه الجـدد؟ فقالوا له: أخفِ عنا. ثم ودعوه

وأردفوا قلبه، ومضوا. تركوه بعد أن غيروه.. كان في الصباح متعطشًا للدماء، فبات في المساء حاقنًا لها.. صار يجوب دروب الساحل، فيمر به صائدو الجوائز وقطاع الطرق، فيسألونه هل رأى محمدًا وصحب محمد؟ «فجعل لا يلقى أحدًا إلا رده، وقال: كفيتكم ما هنا».

تمايلت المطايا بالمهاجرين أيامًا، حتى مروا بخباء أعرابي يقال له أبو معبد.. كان الجوع قد نال منهم، فسألوه لبنًا، فقال: «والله ما بقي لنا لبن» فأشار ﷺ إلى شاة لا لبن فيها، وقال: «**فما تلك الشاة؟**» فأُتي بها فدعا ﷺ بالبركة عليها) فإذا المعجزة تتسع لها أحداق أبي معبد، وهو يرى اللبن يملأ القدح، فأيقن أنه أمام من ملأ الدنيا وأشغل الناس، فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال ﷺ: «**إنهم ليقولون ذلك**». قال: أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال: أتبعك؟ لكن النبي ﷺ طلب منه ما يطلبه من كل غريب يسلم، ولا يستطيع حمايته، فقال: لا. حتى تسمع أنا قد ظهرنا.

أم معبد في الطريق أيضًا

في طريق الهجرة كان النبي ﷺ يرسم لأتباعه سنة تغيير الواقع للأفضل، دون تهور أو تخاذل، فهو لم يحمل سلاحًا طوال دعوته في مكة؛ لأنه بلا دولة. ثلاثة عشر عامًا مضمخة بالدماء والعرق والاضطهاد.. لم يحمل السلاح حتى بعد أن تلقى البيعة والعهود والمواثيق من الأنصار.. لم يحمل سلاحًا حتى في طريق هجرته.. لم يحمله لتأسيس دولته، ليجعل منها أول دولة في التاريخ تؤسس دون سلاح.

أول دولة تؤسسها الكلمة المقنعة، بل كان يأمر أتباعه الغرباء بالعودة لديارهم؛ لأنه لا يستطيع حمايتهم، ولا تعريضهم للخطر، ومن تجاوز ذلك فعليه تحمل مسؤوليته الشخصية.. هذي يخرس الألسن العفنة التي ظلت، وما زالت تصفه ﷺ بالدموية والفاشية ونشر الدين بالسيف! أين السيف وهو لم يرق قطرة دم واحدة في مكة، سوى دمه ودماء أصحابه؟ أين السيف وهو لم يمس شعرة من سراقة الصائل عليه؟ أين الانتهازية وهو يرفض قطعان الإبل والغنم، ويستأذن شربة لبن؟

هـا هو بعدما ودع أبا معبد بمسـافة طويلة.. يشـاهد عـلى جانب الطريق خيمة قد رفع رواقها الأمامي وفرش فناؤها.. يرى وسـط الفناء امرأة برزة جريئة محتبية.. تتعاطى مع المسـافرين بيعًا وشراء بثقة ودون ميوعة، فأراد ﷺ وأصحابه أن يشـتروا منهـا لحـمًا أو تمرًا، لكن يبدو من رثاثة المكان أن الحـال لا يسر، وأن القحط مر بهذه المرابع الحزينة. لم يجدوا عندها بضاعة يحتاجون إليها.. جالت عيناه ﷺ في الخيمة وما حولها، فأشـفق على هذا الحزن المحتبي بفناء الخيمة، فسـألها عن شـاة عجفاء مجهدة في كـسر الخيمـة؟، وقال: «ما هذه الشـاة يا أم معبد؟» قالت: شـاة خلفها الجهد عن الغنم. قال: «بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أفتأذنين لي أن أحلبها؟» قالـت: بأبي أنـت وأمي، نعم، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها. فدعا بها، فمسـح ضرعها بيـده، وسـمى الله ﷻ، ودعا، ففرجت رجليها. فطلب إنـاء كبيرًا، فدر الحليب حتى علـت رغوته الإناء، فأخذ الإناء بيديه، ونهض نحو المرأة، فسـقاها حتى رويت، ثم سـقى أصحابه حتـى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهـم. تعجبت المرأة مـن معجزة اللبن ومعجـزة الأخلاق، فجرى بينها وبينه حوار كحـوار زوجها، فآمنت، وبايعت، ثم ودعها، وارتحل.

محطات طريق الهجرة

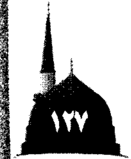
لم تكـن قلوب يثرب وحدها المتلهفة للقاء رسـول الله ﷺ، ففي الحبشـة قلوب تتحـرق وأشـواق تشـتعل، فعلى الرغم مـن كرم النجـاشي وعدلـه.. تتلفت قلوب المهاجرين بحثًا عن نبيهم ﷺ، ولعل أكثر تلك القلوب تلفتًا قلب ابنته الشـابة رقية، التي لم تحظَ بوداع أمها خديجة، ولم تهنأ بجوار والدها ﷺ.. رقية تسـتقبل بفرح غامر خـبر بيعة الأنصـار وكرم الأنصار، فيغمـر قلبها حب يثرب، فتركـب هي وزوجها عثـمان بـن عفان مطايا تحط بهما على سـاحل البحر الأحمر، ثم يسـتقلان مركبًا يشـق بهما عباب البحر، حتى رسـا بهما على سـاحل الجزيرة العربية، ليسـيرا آلاف الأميال نحـو يثـرب في أيام بالغـة الحرارة، بينـما كان والدها ﷺ في طريـق هجرته يتجنب به

الدليل طريق القوافل، حيث أخذه للساحل أسفل من عسفان، ثم عبر به «قديدًا»، ثم سلك مكانًا يقال له (الخرار)، ثم (ثنية المرة)، ثم سلك طريقًا يقال لها (المدلجة)، ثم مر به على (العرج)، وبماء يقال لـه الغابر، ثم مر على بطن رئم، وبذا أصبح بعيدًا عن مكة وطواغيتها.. قريبًا من يثرب وقلوبها.

كان خلال مسيره يلتقي بعض المسافرين الغرباء، وعند اللقاء كان أبوبكر يتكفل بالإجابة، فقد كان معروفًا لدى التجار، أما من ناحية المظهر، فكان أبوبكر قد شاب شعره.. بعكس نبي الله ﷺ الذي كانت شيباته بعدد أصابع اليد الواحدة. تقول عائشة أبوبكر شيخ يعرف، ونبي الله شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر، فيقول: «يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب المسافر أن أبا بكر يعني طريق السفر، وإنما كان يعني سبيل الخير» وفي أحد التقاطعات مع طريق القوافل التقى ﷺ مجموعة من التجار القرشيين المسالمين، وكان ضمن الركب الشاب الزبير بن العوام زوج أسماء بنت أبي بكر. سعد الزبير بنبيه وبصهره الصديق، ثم توجه إلى بضاعته، فأخرج منها ثيابًا بيضًا جديدة، فأهداها لنبيه ولوالد زوجته، ثم ودعهما، وانطلق إلى مكة، وبعد أن وصل بيته أمر زوجته الشابة الحامل أسماء بالاستعداد للرحيل إلى يثرب.. على الرغم من أنها في أشهر حملها الأخيرة.

النبي ﷺ يميل إلى قباء

ازداد شوق الأنصار لنبيهم، حتى قال أحدهم: «إنهم لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ، وتوكفوا قدومه، كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرونه، حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلًّا دخلوا، وذلك في أيام حارَّة» وفي أحد تلك الأيام الملتهبة عادوا إلى بيوتهم بعد طول انتظار، لكن صرخة مدوية من أحد الحصون اليهودية أوقفتهم.



أخرجتهم من بيوتهم، وجعلتهم يحملون السلاح، فعلى أطراف يثرب يقع حصن يهودي يحتوي كالعادة على حارات مغلقة مليئة بالأسرار والمؤامرات، وعلى سور ذلك الحصن شاهد أحدهم النبي ﷺ ورفاقه.. تختلط ثيابهم البيضاء ببياض السراب. لم يملك اليهودي أن صرخ بأعلى صوته: «**يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون**». فثار المسلمون إلى السلاح، وخرجوا من بيوتهم، وملؤوا الشوارع فرحًا، فتلقوه بظهر الحرة.

لم يتوقف ﷺ ولم يدخل يثرب، بل مال بأحبابه يمينًا إلى قرية صغيرة للطيبين بني عمرو بن عوف تدعى (قباء)، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول. ولما وصلها أناخ ناقته، ونزل عنها، وجلس على الأرض، فقام أبوبكر للناس، فتقدم بعض الأنصار الذين لم يروا رسول الله من قبل يحيون أبا بكر، لكن الصديق أخذ ثوبًا من ثيابه، فرفعه فوق رأس النبي ﷺ، ومد يديه ليظلله عن الشمس، فعرف أولئك الأنصار أن نبي الله هو الجالس، فأقبلوا يحيونه في مشهد تتزاحم فيه القلوب والأيدي والمشاعر، وبعد أن حيوه أخذوه إلى أحد البيوت؛ لكي يقيم فيها.

كانت قباء تبتهج بحبيبها.. تستنير بخطواته وهيبته وجلاله، وكان بين تلك الجموع عينان تحدقان بحقد في ذلك المشهد.. عينان تكرهان ما يحدث.. انسل صاحب العينين كخنجر، وانطلق مسرعًا نحو مزرعة ابن عمه اليهودي، ولما دخلها وجده جالسًا تحت نخلة، وفوق رأس تلك النخلة عبد أبيض البشرة غيرته الشمس، وشققت الغربة والشقاء والعبودية أقدامه ويديه وهو يخترف رطبًا.

وقف اليهودي أمام ابن عمه، فأخبره الخبر، فأظلمت الدنيا في وجهه، وقام من مجلسه فزعًا، أما العبد فارتجف قلبه، واهتزت يداه وبدنه حتى كاد يسقط من رأس النخلة.

عبد يتسلل نحو قباء

دخل اليهودي مزرعة ابن عمه، فوجده جالسًا تحت نخلة، فقال له: «قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء عند رجل قدم عليهم اليوم من مكة،

يزعمون أنه نبي» اسودت الدنيا في وجه اليهودي، وقام من مجلسه، أما عبده الذي يخترف الرطب فوق النخلة، فقد اهتز، وارتجف، وكاد يسقط، لكنه تماسك وانحدر، وأقبل يسأله بلهف: «ماذا تقول؟. ماذا تقول؟».

لم يجبه حامل الخبر، فقد تكفل سيده بإخراسه وإجابته إجابة يهودية بامتياز.. قبض اليهودي أصابع يده بقوة، ثم أطلقها لكمة شديدة في وجه عبده، وصاح به: (ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك).

وضع العبد الذي خط الشيب في لحيته ورأسه.. وضع يده على وجهه من شدة الألم، وأخرج من صدره اعتذار المساكين، وقال: «لا شيء، إنما أردت أن أستفتيه عما قال»، ثم انصرف إلى عمله.. انصرف تئن روحه من الغربة والشقاء والعبودية، لكن لكمة اليهودي لم تصل قلبه.. ظل قلبه معلقًا بالخبر، وفي المساء، وبعدما خيم الليل، وغفا سيده.. جمع شيئًا من الطعام، وتسلل من غرفته، وغادر ملك سيده حتى وصل ديار بني عمرو بن عوف الأكارم، فسأل عن مكان إقامة النبي ﷺ وصحبه، فأرشدوه، ولما وصل استأذن في الدخول، فأذن له. دخل الرجل، ولما أصبح بين يديه ﷺ كلمه بأدب، وقال: «إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي صدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم. ثم وضع الطعام بين يديه ﷺ» ولم ينصرف، بل مكث ينتظر حدوث شيء عانى الأمرين بحثًا عنه.

كان يحدق بنبي الله الذي نظر للطعام، فلم يمد يده له، ولم تدخل جوفه لقمة منه، بل التفت إلى أصحابه، وقال لهم: (كلوا) لم يحزن العبد، بل ارتجف قلبه فرحًا، ثم استأذن، ونهض مذهولًا، وعاد متسللًا إلى مزرعة سيده اليهودي، وهو يكلم نفسه بحماس، ويقول: «هذه واحدة. هذه واحدة».

ترى ما الذي يعنيه بقوله: هذه واحدة؟

الأيام ستجيب، أما نبي الله ﷺ فمكث في قباء ما يقارب الأربع عشرة ليلة، بنى خلالها أول مسجد أسس على التقوى (مسجد قباء) ثم أخبرهم فيما بعد بأن الصلاة

في مسجد قباء تعدل عمرة، ثم أرسل للأنصار رجلًا يخبرهم بقدومه ليثرب، فحمل الأنصار السلاح، وخرجوا لاستقباله.

النبي وصاحبه على القصواء في المدينة

بعد مرور نصف شهر على الإقامة الجميلة في قباء.. تحرك فؤاده ﷺ نحو يثرب.. يثرب التي غيّرها قبل أن يدخلها.. غيّرها بالقرآن الذي ألف بين القلوب، بعد قرون من الدماء والثارات.. غيّر حتى اسمها الثقيل إلى اسم صار وصفًا لمدائن العالم.

لم تعد يثرب، فاسمها منذ الآن سيكون المدينة بعد أن قال ﷺ: «**أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب، وهي المدينة**». فأرسل رجلًا من أهل البادية إلى بني النجار.. أخوال جده عبدالمطلب يخبرهم بقدومه، وآذن أبا بكر بالرحيل في آخر الليل، ثم توجه نحو ناقته القصواء، فركبها، وأمر أبا بكر بالركوب معه عليها، فسوف يدخلان معًا كما خرجا معًا. استويا على ظهرها، فنهضت بهما، وانطلقت بهدوء نحو المدينة. المدينة لا يثرب. وصل الخبر إلى بني النجار، فغمرتهم السعادة، وتنادت أسرهم وأبياتهم، وقاموا إلى أسلحتهم، وخرجوا لاستقباله في ظلمة الليل.

أفاقت المدينة على حركة بني النجار وأصواتهم، وهم يمشون في الطرقات.. فتحت الأبواب والنوافذ، واستيقظ الراقدون على السطوح، وأطلوا، فرأوا بني النجار، ورأوا السلاح والمشاعل، فانطلقت الأسئلة تستوقفهم.. تستفسر عن هذه الهبة المفاجئة؟ فأخبروا الناس بقدومه ﷺ. عندها ملأ التكبير أجواء المدينة، وأيقظت صيحات الفرح بقية النائمين، وتلألأت شوارعها وجدران بيوتها بأضواء المشاعل. انطلقت آلاف الخطوات خلف بني النجار ليس من ثنيات الوداع، فثنيات الوداع في جهة أخرى.. لقد خرجوا من جهة قباء.. خرج الرجال والنساء والأطفال والخدم.

ها هو الطفل أنس بن مالك الذي نذرته أمه الشابة أم سليم الأنصارية لله يشق حشود القلوب، ويصف مشاعره بأسلوب غاية في الروعة، فيقول: «لما كان اليوم

الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء» نبي الله يشرق على المدينة وأبوبكر خلفه بقلبه وروحه وجسده وماله وكل ما يملك. يصف الصديق مشهد الزحام والركض والفرح وهو على ظهر القصواء، فيقول: «مضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة، فتلقاه الناس، فخرجوا في الطريق وعلى الأجاجير»، أي الأسطح، «فاشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر جاء رسول الله.. الله أكبر جاء محمد».

العيون البريئة تتراءاه في مدينة المشاعر

طلع الفجر، فتوقفت القصواء، ونزل عنها النبي ﷺ وصاحبه الصديق.. لم يكن هناك من مسجد ولا أذان ولا إقامة. صلى النبي بالناس، ثم ركب ناقته، وأردف الصديق خلفه لتشرق على المدينة أجمل شمس وأسعد في كل تاريخها. طفل بريء اسمه البراء بن عازب يركض مع الأطفال، ويقول: «جاء رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء قط فرحهم به، حتى رأيت البنات والصبيان يسعون في الطرق يقولون: جاء رسول الله» أما الطفل العذب أنس بن مالك، فيبدو أنه كان ضئيل الجسم.. يركض.. يسابق الأطفال.. ينافسهم تلفتًا وبراءة، لكن هاتين العينين البريئتين لا تريان محمدًا.. لا ترى سوى لهفة القلوب والمشاعر، فيصف حاله، ويقول: «إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد، وأسعى ولا أرى شيئًا، ثم يقولون: جاء محمد، فأسعى، ولا أرى شيئًا».

كان الأطفال لوحة من مطر.. كانوا غيمة حب، أما حبيبهم ﷺ، فكان يكحل عينيه بحشود تسكب العبرات، وتنتقي ألطف العبارات.. عمر كان هناك وحمزة وعمار وابن مسعود.. المعلم الفقير مصعب بن عمير، وزميله الأعمى ابن أم مكتوم الذي يطرب قلبه، فيتمنى لو أبصر اليوم بعينيه ما يجري.. خباب وبلال حران في مدينة لا سياط فيها لأمية وأبي جهل.. لن يسحبهما السفهاء بالحبال بعد اليوم، فشباب المدينة ينافسون شيبهم كرمًا وأدبًا.

آه يـا مكـة... أي كآبـة تعانيهـا شـوارعها، وهـي تخلو من محمـد ﷺ وصحب محمـد ﷺ.. تخلو من الحوار والدعوة وقراءة القرآن وثقافته.. ها قد أعادها أبو جهل أسـيرة للكآبة ووأد البنات وعبادة الأخشـاب، أما المدينة، فالمشاعر فيها تقلّ نبي الله وتظلـه، وزمام القصواء تتخاطفه الأيدي والقلوب.. الكل يريده ﷺ.. الكل يتمنى اسـتضافته والاحتفال به.. يمر بشـارع، فيرى مجموعة من السعداء من أهل الحبشة يرقصـون رقصـة إفريقية ابتهاجًـا وفرحًا، فيقف أنـس ببراءة أمامهم، ويبتسـم، ثم يقول: «لما قدم رسـول الله ﷺ لعبت الحبشة بحرابهم فرحًا بقدومه».. المدينة شوارع من مشاعر، وشعب من حب وكرم.. هم الأنصار، وليس لكرم الأنصار مثيل.

بين قلوب الأنصار وقلب الحاخام

حـف بالنبـي ﷺ وصاحبه زهـاء خمس مئة مـن الأنصار المدججين بالسـلاح، وقالـوا: (انطلقـا آمنـين مطاعـين)، فانطلقا في الشـوارع، حيث كانـت الأيدي تمتد للزمـام، والعيون تحاول الارتواء منه، فتزداد عطشًـا للحبيـب القائد ﷺ.. يتواصل الركض والهتاف، وينتشر الأطفال والخدم في الطرقات كانتشـار نور هذا الصباح.. ينـادون حبيبهم: (يا محمد.. يا رسـول الله.. يا محمد.. يا رسـول الله)، ويلتفت أحد الأطفـال، فـيرى الفتيـات المراهقات وإشـاراتهن على أسـطح المنـازل، فيقول: «إن العواتـق لفـوق البيوت يتراءينه يقلـن: أيهم هو.. أيهم هو؟ فما رأينا منظرًا شـبيهًا به يومئذ»، ثم يقول: «شـهدت يوم دخل النبي ﷺ فلم أرَ يومًا أحسـن ولا أضوأ منه»، ويسـيل موكـب النور حتى يفيـض على حي بنـي النجار، وفي الحـي فتيات يضربن بدفوفهـن، ويتغنـين، ويقلن: «نحن جوار من بني النجـار.. يا حبذا محمد من جار» وفي ذلـك الجـوار يتوقـف ﷺ فيقـول لأخوالـه: «**أي بيـوت أهلنا أقـرب؟**» فيتقدم أنصاري سـخي.. يدعى أبو أيوب والسعادة تغمره، فيقول: «أنا يا نبي الله» ثم يشير أبو أيوب بيده، فيقول: هذه داري، وهذا بابي. فيقول ﷺ: «**فانطلق فهيئ لنا مقيلًا**».

كان ﷺ حديث المدينة.. وصل خبره إلى مسامع حاخام يهودي مثقف ومتواضع.. كان الحاخام فوق نخلة يخترف لأهله، فارتاع للخبر، وانخرط مسرعًا، وانطلق مذهولًا، ومن شدة ذهوله أنه جاء يركض وهو يحمل الوعاء الذي كان معه، دون أن يشعر، ولما وصل حي بني النجار وجد المكان مزينًا بالقلوب تحفه ﷺ.

هدأت خطوات الحاخام، وتقدم رويدًا رويدًا يحدق.. يتفرس في وجه النبي ﷺ حتى قال في نفسه: (هذا ليس بوجه كذاب)، ثم تأكدت فراسته عندما أخذت عقله وقلبه أول خطبة خطبها ﷺ.. كلمات راقية تسفر عن نبي وقائد جاء رحمة وألفة للعائلة، وللمجتمع وللوطن، وقبل ذلك إخلاصًا لله، حين قال ﷺ: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**».. قائد أول كلماته لشعبه سلام في الشوارع والبيوت والديار، ورحمة بالمساكين.. لم يعد الحاخام يملك قلبه، وهو يرى أبو أيوب يأخذ نبي الله لبيته، فتلفت وانتظر، فلما خلا المكان من اليهود لحق بالنبي ﷺ، ولما سلم عليه رجاه أن يخبئه عنده؛ حتى لا يراه اليهود.

التصنيف سنة يهودية

أخذ أبو أيوب نبي الله ﷺ وصاحبه إلى بيته، فلما دخلوا إذا بالباب يطرق، وإذا بالحاخام اليهودي يدخل.. يقبل على رسول الله ﷺ متهللًا، ويسأله عن أشياء لا يعلمها إلا نبي؟ وبعد أن سمع الإجابة قال: «أشهد أنك نبي الله حقًّا، وأنك جئت بحق»، ثم تحدث بصفته عالمًا من علمائهم ومثقفيهم، فقال: «إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، وقالوا فيَّ ما ليس فيَّ، ولقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعُهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت؟».

أصدر القائد ﷺ أول أوامره.. أرسل لحاخامات اليهود طالبًا لقاءهم، فجاؤوا، ولما اجتمعوا حوله قال ﷺ لهم ثلاث مرات:

«يـا معـشر اليهود، ويلكـم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هـو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًّا، وأني جئت بحق. أسلموا» فرفضوا ثلاث مرات، قائلين: (ما نعلمه).

هنا أراد ﷺ أن يكشفهم أمام أنفسهم والناس، فقال: «أي رجل عبدالله بن سلام فيكم؟» فابتهجوا بهذا السـؤال ظنًّا منهم أنه سـيدعوه لمناظرة، ولم يعلموا أنه خلف الباب. فقالوا: «هو خيرنا وابن خيرنا، وسـيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا». فقال ﷺ، «أرأيتم إن أسلم؟» قالوا: «أعاذه الله من ذلك».

هتـف ﷺ: «اخـرج يـا ابن سـلام»، فـإذ بالباب يفتـح وإذا بسـيدهم وحبرهـم وخيرهـم يتهادى.. اتسـعت أعينهم، وفتحـوا أفواههم، ونظر بعضهـم إلى بعض، فأرداهم ابن سلام، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

صدم اليهود، وأسـقط في أيديهم، لكن مخزون العناد والوقاحة لديهم لا ينفد.. حولوا المكان إلى لغط، وتنكروا لشـهادتهم قبل ثـوانٍ، وصاحوا بوقاحة: «هو شرنا وابـن شرنـا، وجاهلنا وابـن جاهلنا»، وتنقصـوه. عندها التفت ابن سـلام لنبيه ﷺ مؤكـدًا بعـد نظـره، فقـال: «هـذا الـذي كنت أخـاف يـا رسـول الله» وكان من بين الحاخامات الذين حضروا رجل يقال له يوشع.. كان ينذر سكان يثرب الوثنيين من نار جهنم، فطلبوا منه دليلًا، فأشار لطفل صغير اسمه سلمة بن سلام وقال: إن نبيًّا سيأتي من جهة مكة، وإن الطفل سلمة سيدركه إن عاش.

كبر سـلمة، وأدركه ﷺ وآمن هو وقومه، فذهبوا إلى يوشـع، فقالوا: «ويحك يا يوشع! ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، ولكن ليس به» لم يصدم الطفل سلمة وحده. طفلة يهودية مدللة صدمها حقد والدها وعمها على نبي الله ﷺ.

بين رقي أبي أيوب وانحطاط ابن أخطب

طفلـة يهوديـة بريئة من نسـل النبـي هارون ﷺ.. اسـمها صفيـة.. تنعم بدلال اسـتثنائي مـن والدها حيي بن أخطـب وعمها أبي ياسر، لكنهـما أهملاها ذات يوم،

وكأنها لم تخلق، فتقول: «لم يكن من ولد أبي وعمي أحدٌ أحب إليهما مني، لم ألقَهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم النبي ﷺ قباء غدا إليه أبي وعمي أبوياسر ابن أخطب مغلسين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، والله. قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم، والله. قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت».

عادا إلى حصنهما ليتدارسا الوضع، فقد باءت هجرات اليهود لمدن النخيل: المدينة وهجر وخيبر وتبوك وغيرها بالفشل، بعد أن جعل الله خاتم النبيين من العرب بني إسماعيل، لا من اليهود بني إسحاق، وعنصرية اليهود ترفض أن تكون النبوة في غيرهم، بل هي عنصرية تفاقمت حتى تطاولت على مقام الألوهية، فهم يعترفون بأن الله واحد أحد، لكنه إله لقبيلة بني إسرائيل فقط.

اليهودي العنصري لن يؤمن بمحمد؛ لأنه ليس من قبيلة إسرائيل؛ لأن البشر الذين لا ينتمون لهذه القبيلة أقل شأنًا في نظرهم، بحجة أن اليهود خرج منهم عشرات الأنبياء. لم يأبه النبي ﷺ لعناد يهود، بل عاد لبيت أبي أيوب.. هذا الأنصاري المهذب الذي يفيض بالمشاعر، فيقول: لما نزل عليَّ ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأُعظِم أن أكون فوقك، وتكون تحتي؟ فقال ﷺ: «**يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت**»، كان أبوأيوب وزوجته طيفان من الذوق.. انكسر لهما إناء لحفظ الماء، فاندلق الماء، فظلا يجففان الماء في لحافهما الوحيد خشية أن تتسرب قطرات على رأسه ﷺ، بل إنهما في الحقيقة لم يسكنا الدور العلوي كله.. كانا يتحركان وكأن أجزاء من الدور مسكونة.. إنهما يتجنبان السير في الكثير من مساحاته؛ خشية أن يسيرا فوق المكان الذي يُوجَد فيه النبي ﷺ.. مشاعر لم يطقها أبوأيوب ولا زوجته الطيبة، فقرر أبوأيوب البوح له ﷺ، فنزل إلى قائده، وصارحه.



أبو أيوب يهدي قلبه لنبيه

كان ليل أبي أيوب طويلًا.. يتململ في مجلسه وعلى فراشه.. حائرًا يسأل زوجته والإحراج يملؤه: «نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ؟!» لم يطق هذا الأمر؛ لذلك جمع متاعه وأثاثه في زاوية من البيت، وسكنها هو وزوجته؛ خشية أن يمشوا فوق رأس نبيهم.

همٌّ أرّقه حتى قرر حسم الأمر، فنزل، وقال لنبيه: «لا أعلو سقيفة أنت تحتها». فصعد ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفل. لم يقف حب أبي أيوب واحترامه وكرمه عند هذا الحد، بل كان يصنع له الطعام، فإذا عاد الطبق سأل بلهف حامل الطبق عن موضع أصابعه ﷺ ليتتبعها، أو يشرب من المكان الذي شرب منه، إلا في ذلك اليوم الذي حزن فيه أبو أيوب بعدما سأل حامل الطبق عن موضع أصابعه ﷺ، فأخبره بأن النبي لم يأكل منه. ارتج الأمر على أبي أيوب وفزع، وصعد لنبيه يستفسره عن عزوفه. فأخبره ﷺ بأن الطعام كان يحوي ثومًا. فقال أبو أيوب: «أحرام هو؟ فقال ﷺ: **لا، ولكني أكره ريحه**» وأخبره بأن كراهيته له من أجل مناجاته لجبريل. هنا تخلى أبو أيوب حتى عن حبه للثوم، فقال في الحال: «فإني أكره ما تكره».

كان ﷺ يستقبل أحبابه وأصحابه الذين يأتون للسلام عليه، وفي أحد الأيام، وفي إحدى مزارع اليهود كان ذلك العبد الأبيض الذي لكمه سيده اليهودي عند قدوم النبي ﷺ لقباء.. كان يجمع بعض الطعام، ثم استغل غياب سيده أو نومه، فتسلل نحو المدينة، كما تسلل نحو قباء، ولما لامست قدماه المتعبتان شوارع المدينة سأل أهلها عن مكان إقامة نبي الله ﷺ، فأخبروه بأنه في بيت أبي أيوب.. في حي بني النجار. سأل عن بيت أبي أيوب، فدلوه عليه، فتوجه إليه، ولما وصل طرق الباب، واستأذن، فأُذِن له بالدخول. فصعد الدرج، ولما رأى النبي ﷺ وأصحابه حيّاه وجلس بين يديه، ووضع الطعام أمامه، وقال: «هذا شيء كان لي، وأحببت أن أكرمك، وهو هدية أهديها لك كرامة ليست بصدقة، فإني رأيتك لا تأكل الصدقة» التفت ﷺ لأصحابه، وأمرهم بالأكل، فأكلوا، وأكل معهم، فشعر العبد بالارتياح، ثم استأذن، ونزل من الدرج، وهو يقول لنفسه: «هاتان اثنتان».

ترى من هذا العبد الذي شاب، وتشققت قدماه، وتغرب بحثًا عن رجل يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة؟ وهل هناك صفة ثالثة يبحث عنها؟

الأمر رقم (١) لمؤسس الدولة الإسلامية: بناء المسجد

ظل ﷺ يصلي بالناس كلما حان وقت الصلاة في أي مكان.. في الدور.. في الساحات.. في البساتين، وحتى في مرابض الغنم، ويقول لأصحابه: «**جُعِلت لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا**»، وذات يوم نظر ﷺ إلى بستان قديم في حي بني النجار.. أطال النظر فيه وكأنه عثر على كنز، فأرسل إلى أصحاب البستان، فجاؤوا مستبشرين، ولما أصبحوا أمامه عرض عليهم شراء بستانهم، فقال: «**يا بني النجار، ثامنوني حائطم هذا**».

هبت كلماته كالنسيم تهز ربيع الأنصار، ففاح الجود في أرض الجود. أقسم بنوالنجار ألا يأخذوا شيئًا، وقالوا: «**لا، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله**».

عندها أصدر ﷺ الأمر الأول لمؤسس أول دولة إسلامية.. دولة لم تؤسس على الجثث ولم تُبْنَ بالجماجم.. دولة قامت على إفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام والصلاة بالليل والناس نيام.. دولة عهود ومواثيق لا يمثل السجن أو القصر أول اهتمامات قائدها، كما في فارس والروم.. دولة أول مبانيها المسجد المدرسة.. حيث العلم أول شرط للعبادة. بدأ ﷺ البناء بنفسه، وأعانه المهاجرون والأنصار.. بدؤوا بهدم الخرائب وتسوية الأرض، ونقل القبور الغابرة، واقتلاع النخيل وتقطيع وتشذيب جذوعها، ثم حفروا حفرة طويلة غرزت فيها جذوع النخل وصفّت كالجدار في جهة الشمال.. باتجاه القبلة الأولى المسجد الأقصى.

انطلق بعضهم خارج المدينة لتقطيع الصخور ووضعها أساسات للجدران، ثم صنعوا من بقيتها عمودين لباب، وعمودين لباب آخر، ثم بدؤوا بناء الجدران بالطين. وهنا تألق صحابي اسمه طلق بن علي قادم من نجد.. من اليمامة بالتحديد. أظهر طلق براعة نجدية في صنع اللبن.

شاهد النبي قدميه تعالجان الطين، والمسحاة بيده تخلطه بمهارة، فقال ﷺ لأصحابه: «**قربوا اليمامي من الطين، فإنه من أحسنكم له بناءً**»، ظل اليمامي يمدهم بالطين واللبن. كان الصحابة ينقلون لبنة لبنة، أما عمار بن ياسر فكان ينقل لبنتين لبنتين، فمر به ﷺ فقال: «**يا عمار، ألا تحمل لبنة كما يحمل أصحابك؟**» قال: إني أريد الأجر من الله، فمد ﷺ كفيه نحو ثياب عمار المغبرة، فجعل ينفض عنها التراب.

ظل اليمامي يمدهم بالطين، حتى اكتملت الجدران والأبواب ولم تبقَ سوى مشكلة السقف.

سقف المسجد وأعماقه

كان المهاجرون والأنصار في حالة بناء.. في لحظة تشييد للوطن، وكان المسجد يمثل حجر الزاوية للوطن الحلم. الكل كان يشارك في البناء.. الكل يعرق.. يعطش في منافسة على الأجر.. كانوا يتغنون ويرتجزون والنبي ﷺ بينهم.. يرددون كلمات تنضح بالإيمان والحماس كلمات تقول:

اللهمَّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخرةْ　　　فاغفرْ للأنصارِ والمهاجرةْ

أما مشكلة السقف، فتم حلها بجعل جذوع النخل أعمدة داخل المسجد.. يسمونها أسطوانات أو سواري، ثم تم نشر جريد النخل عليها كسقف.. كان سقفًا متواضعًا لا يقي من المطر، لكنه يخفف حرارة الشمس اللاهبة، وأخيرًا قام بعض الصحابة بإحضار جذع شجرة عريض، ووضعه في مقدمة المسجد؛ كي يخطب القائد ﷺ عليه، فاكتمل البناء، وأصبح المسجد جاهزًا لاستقبال المصلين، ولكن دون أذان أو إقامة.

عبدالله بن عمر بن الخطاب.. طفل في الثانية عشرة من عمره.. يصف المسجد بعد اكتماله، فيقول: «**إنه كان مبنيًّا باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل**» فجعل ﷺ مقدمته للرجال، وخلفيته للنساء.. يصلون جميعًا الصلوات الخمس،

ثم أشار ﷺ لأحد البابين، وقال: «**لو تركنا هذا الباب للنساء**» وقال لأصحابه: «لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنّكم إليها» كان المشهد يثير حسد اليهود، وحسرة اليهوديات والنصرانيات.. اللواتي حرمهن رجال الدين حتى من السؤال داخل الكنيسة أو الكنس.

قالوا للمرأة: يحرم عليك الحديث في الكنيسة حتى مع النساء، وإذا أردت السؤال فلتطلبي من زوجك أن ينقل السؤال للحاخام، أو القس.. شعرن بالحسرة حين علمن بأن نبي الله ﷺ يتخطى صفوف الرجال نحو الصحابيات، فيحدثهن، فتطرح المسلمة أسئلة في شؤون دينها ودنياها.

شعرت الصحابية بإسلام يحررها.. إسلام يجعلها تنافس الرجل ركضًا نحو بوابات الجنة.. منافسة جعلت صحابية شغوفة بالعلم تقول: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله. قال: «اجتمعن يوم كذا وكذا». فاجتمعن فأتاهن ﷺ فعلمهن مما علمه الله. لم يكن المسجد للعبادة فقط. كان مبرّة.. كان واحة للفقراء.. ها هم الأنصار يمدون حبالًا بين أعمدة المسجد وسواريه، ليتدلى منها كرم الأنصار مرة أخرى.

شماريخ الكرم تتدلى في المسجد

لم تقنع نخيل المدينة الباسقة أن تكون جزءًا من جدران المسجد، وأعمدته وسقفه فقط.. إنها لا تكف عن الكرم. ها هم الأنصار يمدون حبالًا بين أعمدة المسجد وسواريه.. يعلقون عليها شماريخ البسر، فتتدلى منها الرطب الحمراء والصفراء.

يقول أحد الأنصار: «كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين، فيعلقه في المسجد، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو، فضربه بعصاه، فيسقط من البسر والتمر، فيأكل» وعلى الرغم من هذا المشهد الأخاذ كان ﷺ مهمومًا بشأن يتعلق بالصلاة، بعد أن نزلت عليه عدة أمور بعد هجرته.

كانت كل الصلوات في مكة ركعتين عدا المغرب ثلاث ركعات، وبعد الهجرة جعلت كل من الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات، وبقيت المغرب والفجر كما هما، كما حرم الكلام ورد السلام في أثناء الصلاة، لكن ما يشغله ﷺ هو جمع الناس لها، فالصحابة يعرفون مواقيتها التي علمها إياه جبريل بعد الإسراء، لكنهم بشر ينسون.. ينشغلون، ولا بد من تذكيرهم.

شعر صحابي اسمه عبدالله بن زيد بهمِّ نبيه، ولما خيّم الليل، وأوى لفراشه، وغاب في النوم.. رأى في الرؤيا رجلًا يلبس ثوبين أخضرين، ويحمل ناقوسًا، فسأله: «أتبيع الناقوس؟ فقال له: وما تصنع به؟ فقال ابن زيد: ندعو به إلى الصلاة. قال الرجل: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك. تقول: الله أكبر الله أكبر..... » ثم تلا عليه الأذان. ثم قال له: «إذا أقمت الصلاة تقول: الله أكبر. الله أكبر... » وتلا عليه الإقامة.

نهض ابن زيد لصلاة الفجر، فتوجه لنبيه، فأخبره بالرؤيا، فقال ﷺ: «**إنها لرؤيا حق إن شاء الله**» ثم سن لأمته سنة في اختيار المؤذنين من ذوي الأصوات الندية، فقال له: «**قم مع بلال فألقِ عليه ما رأيت فليؤذن، فإنه أندى صوتًا منك**».

ارتفع صوت بلال بالأذان، ولم يكن هناك منارة للمسجد، وهنا تسهم المرأة من جديد.. أنصارية كريمة تبرعت بسطح منزلها المرتفع، فتقول: «كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بسَحَر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى، ثم قال: اللهم، أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك ثم يؤذن، والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة».. إنه دين التسامح.. بلال يدعو لقريش بالهداية كل أذان، وقريش تريد قتله وقتل نبيه ﷺ.

الأنصار سادة الكرم

في المدينة كان المهاجرون والأنصار رجالًا ونساءً يجتمعون في المسجد خمس مرات.. تنظم الصلاة أوقات أعمالهم، وعباداتهم، واسترخاءهم، ومواعيدهم. خلقت الصلاة أجواء لا تعرفها الوثنية، ولا الأديان الأخرى، ولا حتى الحضارة الحديثة.

أمسوا لا مثيل لهم.. جعلتهم الصلاة أنظف شعب على وجه الأرض.. يغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم خمس مرات في اليوم، وتنظيف أسنانهم على مدار اليوم، حتى شعورهم تناولها ﷺ بقوله: «**من كان له شعر فليكرمه**» جعلتهم الصلاة الشعب الوحيد في العالم الذي يمارس نظافة الاستنشاق بالماء.. ذي الأثر الصحي على الجيوب الأنفية. جعلتهم الصلاة الشعب الوحيد الذي يحرص على طهارة ملابسه الداخلية كالخارجية تمامًا.

إنجازات سلوكية واجتماعية عجزت الدول في عقود عن تحقيقها، على الرغم من جيوشها الإعلامية والتعليمية والطبية.. أنجزها ﷺ بمجرد بنائه لمسجد متواضع سقفه من جريد النخل.. معجزة لا تتحقق إلا على يد نبي. وها هو ﷺ يصنع معجزة أخرى، وها هي أنصارية أخرى تسهم في صنعها.

أم سليم.. أم أنس.. تجعل من دارها مقرًّا لأعظم حدث بعد بناء المسجد.. ها هي الطرقات المؤدية إلى دارها تشهد زحامًا وفرحًا، أما دارها فتفيض بالمهاجرين والأنصار يحفون بالنبي ﷺ.. ها هو الطفل أنس بن مالك.. سنسأله عما يحدث في بيتهم؟

إنه يقول: «**حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا**» حلف ومؤاخاة أكسبتهم أخوة فوق أخوة الإسلام، فالمسلم أخو المسلم، لكن ميزة الأخوة في بيت أم سليم أنها لم تحدث من قبل ولن تحدث من بعد.. إنها غيمة وحي وحب أمطرتهم، ثم ارتحلت، فلم تمطر أحدًا سواهم.. ها هي الغيمة بين شفتي أحد الصحابة، وهو يقول: «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم».

إنهم يخرجون من الدار إخوة، فيتوهج كرمهم الأنصاري الفريد من جديد، فلا يكتفون بأن يرثهم الضيف المهاجر فقط.. إنهم أكرم من ذلك: شقاء عمرهم وكدهم وكدحهم.. يبذلونه كالماء البارد لضيوفهم وإخوتهم.. ها هم وقد تفجر إيثارهم ينطلقون للنبي ﷺ، فيقولون له: «اقسم بيننا وبين المهاجرين النخل».

الله يثني على كرم الأنصار

كرم الأنصار كرم دوّنه القرآن، وأثنى عليه القرآن، وخلده للأجيال.. تنهل منه، حين وصفهم بأنهم: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

ها نحن نقترب من أحد بيوت الجود من الخزرج.. بيت سعد بن الربيع، وهو يلح على أخيه القرشي عبدالرحمن بن عوف، ويقول له: «أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالًا، فانظر شطر مالي فخذه. وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها»، لكن الإسلام علم ابن عوف البذل والتضحية في مكة.. علمه أن يكون باذلًا لا انتهازيًّا، أو مستطعمًا أو متسولًا.

قال ابن عوف لأخيه: «بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق» انطلق ابن عوف للسوق، وانطلق غيره للمزارع بأمر من النبي ﷺ بعد أن جاءه المهاجرون.. يحملون قلوبهم التي أثخنها الأنصار بسهام الحب والحدب. جاؤوا يشكون حبًّا يجرفهم، ويخشون ألا يبقي لهم شيئًا.. يقولون: «يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلًا من كثير. لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله؟ قال ﷺ: **لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم**» ها هو يتلقى الطوفان الأنصاري.. يحوله جداول حين جاؤوه يناشدونه: «اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين النخيل. قال ﷺ: **لا**».

عندها التفت الأنصار إلى إخوتهم، فقالوا: «تكفوننا المؤونة، ونشرككم في الثمرة؟»، فأجاب المهاجرون: «سمعنا، وأطعنا». هوت عشرات الأيدي والسواعد بالفؤوس والمساحي تشق الأرض.. تزرع.. تحولت المدينة إلى واحة حب، وورشة عمل، لكن في واحة الحب هذه بعض المنغصات.. هناك يهود، وهناك ما هو أسوأ من يهود.

هنـاك بقايا الوثنيـين.. تدور أعينهم مـن الغيظ.. كان أكثر تلـك العيون شررًا عينـان لرجل حاقد يزعجه الأذان، وتدوسـه الخطوات للمسـجد.. تخنقه السـعادة التـي تملأ البيوت.. لم يشـعر بـه أحد، إلا في ذلك اليوم الذي سـأل فيه النبي ﷺ عن حبيبـه الأمير الأنصاري سـعد بن عبادة؟ فأخبروه بأنـه مريض، فركب ﷺ لزيارته، وفي الطريق شاهده هذا الحاقد، فلم يطق مروره، فانفجر بكلمات بذيئة.

تعامله ﷺ مع معارضيه وعملاء اليهود

في المدينة يجتمع الشمل.. يصل زيد ابن رسول الله بالتبني وزوجته وابنه أسامة، وتصـل رقيـة وأم كلثوم وفاطمة وسـودة، فيبني ﷺ لهن غرفًا صغـيرة متواضعة، ثم يغـادر بيـت أبي أيوب، ويسـكن معهن، وذات يوم يعلم ﷺ بمرض حبيبه سـعد بن عبـادة، فيأخذه قلبـه إليه، وفي الطريق يمـر بمجلس فيه وثنيون ومسـلمون ويهود، وبينهم وثني اسمه عبدالله بن سلول.. رجل حاقد بدأ منذ قدوم النبي ﷺ بالالتصاق بيهود.. يفكر معهم.. يحقد معهم.. يشتم معهم.

أقبل نبي الله ﷺ بتواضع على حمار.. يردف خلفه حفيده بالتبني الطفل الأسود أسـامة. غلت جاهلية وعنصرية ابن سـلول، وعلت من حوافر الدابة عجاجة غبار خفيفة، فأخذ ابن سـلول طرف ثوبه، ولفه على أنفه، ثم خاطب النبي ﷺ بوقاحة.. متجاهلًا أنه قائد الدولة، وقال: (لا تغبروا علينا).

سـلم ﷺ ووقف، ثم نـزل وتلطف بالحديث معهم وكأنـه في مكة.. دعاهم إلى الله ﷻ، وقرأ القرآن وابن سـلول يكاد ينفجر من الغيظ.. وقاحة جعلته يتفوه بوقاحة أشـد من الأولى، فقال مسـتخفًّا برسـول الله ﷺ: «أيها المرء، إنه لا أحسـن مما تقول إن كان حقًّا، فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه».

فأخرسـه أنصاري شجاع وشاعر مشهور اسـمه عبدالله بن رواحة قائلًا: «بلى، يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك»، فعارضه الوثنيون، وانضم لهم

يهود، فغضب الأنصار، وردوا حتى كادوا يرفعون السلاح... هنا قدم ﷺ درسًا للقادة الذين يحبون احتواء شعوبهم بكل أطيافهم واختلافاتهم.. قدم درسًا للقادة الذين يدمرون مصداقيتهم في انحيازهم.. لم يجعل ﷺ من نفسه طرفًا في الشجار.. ارتفع عنه وعن غباره، فالذي أقنع الناس وهو مطارد.. قادر على أن يقنعهم وهو قائد.

كل الذي فعله ﷺ هو أنه ظل يخفضهم.. يهدئ ثورتهم بطيب الكلام حتى سكتوا، ثم ركب دابته، وانطلق نحو صاحبه، ولما دخل عليه سلم وجلس ودعا له، وكان إذا عاد المريض مسحه بيمينه وقال: «أذهب الباس رب الناس، واشفِ أنت الشافي، اشفِ شفاء لا يغادر سقمًا» ثم خاطب سعدًا بصفته قائد الخزرج، وصاحب بيعة العقبة عنهم، فقال: «أيا سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب؟» فكان جواب سعد موافقًا لسنة نبي الله ﷺ في التعامل مع عملاء اليهود وكهوف مؤامراتهم.

ابن سلول كهف اليهود

مشاهد الحب تقتل ابن سلول، فالمدينة تحطم الأصنام، وتتنفس التوحيد، فيتهور، ويطلب من النبي ﷺ التوقف عن الدعوة. لم يعِ هذا الوثني بعد أن محمدًا هو قائد الدولة.. توجه ﷺ بسؤال لقريبه سعد بن عبادة طالبًا رأيه؟ نظر سعد بإجلال لنبيه ملتمسًا العفو وقائلًا: «يا رسول الله، اعفُ عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحرة على أن يتوجوه، فيعصبوه بالعصابة - أي يعمموه بعمامة القيادة - فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت».

أدرك ﷺ من التماس سعد أن الأنصار عند عهدهم وبيعتهم، فتلاشى وزن ابن سلول، وعلى الرغم من أن السلطة بيده ﷺ، إلا أنه لم يمارس ما مارسه الوثنيون من ثقافة الإقصاء في مكة، بل أمر أصحابه وهم الأكثرية بتجاهل شتائم المعارضين الأقلية، وهم الوثنيون واليهود، والصبر عليهم والعفو عنهم، بل نزل قرآن

يصبرهم، ويقول: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

أضحى ﷺ بتلك الآيات عدلًا وظلًّا وارفًا للمسلمين واليهود والوثنيين، وإلا لما تجرأ أحد منهم حتى على الهمس، أما ابن سلول فاشتعل حقدًا يحرق بعضه بعضًا.. إنه يقرأ هزيمته في كل سعادة أدخلها ﷺ على كل بيت.. يرى نكسته في فرح الكبار، وابتسامات الصغار وهم يلتصقون به ﷺ.. يراه في حب وصل درجة لا مثيل لها.. حب تتحدث عنه أنصارية كريمة تدعى أم العلاء، فتقول: «طار لنا عثمان ابن مظعون في السكنى، حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين».

تسابق الأنصار، فلم يجدوا بدًّا من إجراء القرعة، وكأن المهاجرين جوائز.. كأنهم هبطوا من السماء.. هم الأنصار، وقد قال حبيبهم ﷺ: «**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**».

ذات يوم يدخل المدينة رجل غريب.. يبحث عن النبي حتى وجده، فاستضافه القائد ﷺ، فلم يجد في بيته سوى ماء.. قائد الدولة ليس في بيته سوى ماء، فهتف ﷺ بشعبه: «**من يضيف هذا؟**»، فإذا الإجابة كرم أنصاري تدمع له العين.

حين أطفأت الأنصارية سراجها

قائد متواضع يعيش عيشة شعبه.. يأتيه ﷺ ضيف، فلا يجد في بيته إلا الماء، فينادي: «**من يضيف هذا؟**» فيشرع أحد الأنصار قلبه، ويقول: أنا.. أخذ الأنصاري بيد الغريب نحو بيته، ولما دخلا هتف بزوجته محرضًا كرمها بقوله: «أكرمي ضيف رسول الله ﷺ». لم يدرِ الزوج أن زوجته كريمة مثله.. لم تبقِ سوى طعام صبيانها. اجتاح المرأة حرج، فنادت زوجها، وهمست به: (ما عندنا إلا قوت صبياني).

قارن الأنصاري بيته ببيت نبيه وقائده ﷺ، فشعر بالثراء، وقال: «هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً»، فعلت الأنصارية ما طلب منها، وألهت صبيانها عن العشاء حتى ناموا، ثم حملت طبق الطعام المتواضع، ووضعته بين يدي الضيف، ثم توجهت نحو السراج متظاهرة بأنها تريد زيادة نوره، فأطفأته، ثم عادت، وجلست بجانب زوجها، وسمت وسمى زوجها، فبدأ الضيف بتناول العشاء، أما الأنصاري وحبيبته فكانا يمدان يديهما للطبق، لكنهما لا يمسان الطعام.

ظن الضيف أنهما يأكلان معه، فاستمر في الأكل والحديث، واستمر الزوجان في الجوع والحديث حتى انتهى الطعام. أوى الضيف إلى فراشه، وبات الأنصاري وزوجته جائعين هما وأطفالهما، لكن كرمهما بقي مستيقظًا ينتظرهما في المسجد، ولما نهضا لصلاة الفجر لمح النبي ﷺ حبيبه الأنصاري فناداه، وبشره أن الكريم سبحانه عجب من كرمه وكرم زوجته، فقال: «**قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة**».

أجواء حب رائعة ومشاعر تبكي لمثلها مكة

آه يا مكة، أي أجواء خانقة تعيشينها في ظل أبي جهل وأبي لهب.. فارق هائل صنعه التوحيد والقرآن بالمدينة.. فارق أجج نار الحقد في صدور طواغيت مكة. ما الذي يغيظهم؟ ألم يتركهم محمد وشركهم، فَلِمَ لا يتركونه وشأنه. هذا هو الفارق بين المبدع والفاشل. المبدع منشغل بالإنجاز بالتغيير للأفضل، أما الفاشل فمنشغل بالحقد ومحاولة إعاقة الإبداع، والتحريض والتأليب عليه. محمد ﷺ منشغل بتعليم أصحابه وتثقيفهم وإخائهم والتأليف بينهم، أما أبو جهل والطواغيت فلا يكفون عن اجتماعات التآمر والكيد والتحريض.. ها هم قد علموا بأن ابن سلول يكره محمدًا ﷺ، فبعثوا له رسالة تهديد تفجر حقده. رسالة ستحول المدينة إلى دماء وأشلاء ومعتقلات.

رسالة الدم

كان ﷺ منشغلًا بدولته.. يثقف مؤمنيها، ويدعو وثنييها ويهودها دون إكراه.. لم يعد يأبه بطواغيت قريش، لكنهم يأبهون. مازالوا متعطشين لدمه.. مأخوذين بالاجتماعات تلو الاجتماعات لإفشال دعوته، وتدمير دولته وتشريد أصحابه بين المنافي والمعتقلات؛ لذا بعثوا برسالة مع شخص مجهول لابن سلول. ولما وصل سلمه الرسالة، فلما فتحها، وقرأها انتفض قلبه. رسالة الدم هذا نصها: «إنكم آويتم صاحبنا محمدًا، وإنكم أكثر أهل المدينة عددًا، وإنا نقسم بالله لتقتلنه، أو لتخرجنه، أو لنستعن عليكم بالعرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم».

خالط ابن سلول شعور الخوف بالفرح بقرب نهاية محمد ﷺ وصحبه ﷺ.. طوى ابن سلول الرسالة، وعاد المبعوث بعد أن سمع إشارة إيجابية أفرحت طواغيت قريش، وربما فركوا أيديهم انتظارًا لنتائجها السعيدة، أما ابن سلول فراسل كبار الوثنيين في المدينة.. يستشيرهم.. يحرضهم، ويدعوهم لاجتماع بالغ الخطورة، وفي الموعد المحدد انسلوا كالحيات نحو مكان سريّ كالجحر.. ناقشوا الرسالة، ثم اتفقوا على شن حرب أهلية تستأصل دولة الإسلام، لكنهم في مدينة الحب والكرم والنخيل، ما كانت لتنقض بيعتها، ولا لتتخلى عن حبيبها.

شعر المؤمنون بحركات مريبة، فتتبعوها حتى أمست المؤامرة بين يدي قائد الدولة ﷺ. لم يكن ﷺ يبحث عن تصفية الخصوم، بل لم يكن يبحث عن خصوم أصلًا. كان رحمة مهداة، وقائد دولة وليدة متحضرة بالوحي.. مزينة بالأخوة والإيثار والعدل. ما كان ﷺ ليفرط في هذه المكتسبات، من أجل أن يشفي غليله من ابن سلول، وما كان ليضع دولته في مهب الريح، من أجل كلمة وثني سفيه بصقها في الطريق.. تحمّل ثلاثة عشر عامًا من الاضطهاد، أفلا يتحمل ثرثارًا قد يهديه الله؟!

جمع ﷺ بعض أصحابه، وتوجه نحو القوم، فإذا هم شر تأهب للفتك وكشر، فسل ﷺ سيف الحب، وأغمده في قلوبهم، أما الفتنة فولت حين سمعته يهتف بهم معاتبًا عقولهم، ويقول: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم

بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم!!). نظر بعضهم إلى بعض، فخجلوا، وخفضوا رؤوسهم وسيوفهم ندمًا، ثم تفرقوا.

هل أسس النبي دولته بالسيف؟

أصبح النبي القائد ﷺ معذورًا منذ أعلن أبو جهل الحرب على المدينة.. معذورًا في اتخاذ أي إجراء عسكري ضد قريش ومن معها، واتخاذ أي إجراء تأديبي ضد مواطنيه الوثنيين المتآمرين معها، لكنه رحيم حليم.. يجتمع بهم.. يذكرهم باستغفال أبي جهل لهم ليدمروا مدينتهم بأيديهم نيابة عنه، فيقول ﷺ: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم**».

كلمات أعادت لهم رشدهم، فزاد احترامه بينهم، فبدأ كثير منهم ينسحبون شيئًا فشيئًا من معسكر ابن سلول.. كان خطابه ﷺ لمواطنيه خطابًا تصالحيًّا يجمع الشمل، لا خطاب فرّقْ تسدْ.. يذكرهم بما يجمعهم، لا بما يفرقهم.. يذكرهم بالجوار والرحم والنسب.. يذكرهم بأمن دولتهم، كما فعل بالأمس عندما وقف على الحياد من الشجار الذي أثاروه مع اليهود ضد المسلمين، وكاد يصل للسلاح، فلم يصطف ﷺ إلى جوار أحد، بل بقي يسكنهم.. يهدئهم؛ لأن القائد.. إذا مال إلى طرف من شعبه لم يعد قائدًا ولا رأسًا، أصبح مجرد طرف.

ظل ﷺ رأسًا.. هامةً.. قائدًا يقنع بالكلمة كما كان في مكة.. بالكلمة لا بالسوط. كل هذه الروعة ومع ذلك لا يخجل أعداؤه حتى اليوم من الافتراء عليه، بأنه أسس دولته بالسيف، ونشر دينه بالدماء.. يشطبون التاريخ الذي سجل أن الوثنيين اضطهدوه فلم يرد، وطاردوه فلم يرد، وحاولوا اغتياله فلم يرد، ورصدوا الجوائز لقتله فلم يرد، وعرض عليه المَلَكُ إهلاكهم فأبى، وها هو التاريخ يسجل أنه لم يتغير بعد أن أصبح زعيمًا.

فهـا هي قافلة قرشـية فيهـا بضاعة لطاغوت مكـة أمية بن خلـف، الذي تفنن في تعذيـب بلال تصـل المدينة، فلا يتعرض لها ﷺ، بـل إن رجل الأعمال عبدالرحمن بـن عـوف يحميها باتفاقية مـع أمية في ظل الدولة الإسـلامية، فيقـول: «كاتبت أمية بـن خلـف كتابًا بأن يحفظني في صاغيتـي بمكة، وأحفظه في صاغيتـه بالمدينة»، اتفاق يكشـف أن نبي الله ﷺ كان مشـغولًا بالبناء لا الهدم، وبالحب لا الكراهية، وبأنه لا يحمل شيئًا ضد أحد، حتى قريش، ولكن الطاغوت يفسد كل شيء بحقده.

يتوجـه شـاب أنصـاري لمكـة، وبـدلًا مـن أن يحظى بالأمـن، كما تحظـى تجارة طواغيتها في المدينة.. يتهور أبوجهل فيسـتفزه، ويمنعه، فيقلب هذا الشاب حياة أبي جهل وأمية إلى جحيم.

أي عزة أنت يا ابن معاذ؟

سـعد بـن معـاذ زعيم أنصـاري ثلاثينـي.. تضلع بحـب الله ورسـوله.. يودع نبيـه ﷺ متوجهًـا نحـو مكـة لأداء العمـرة، ولما وصل توجـه نحو شريكـه أمية بن خلـف.. الحريـص جدًّا على مصالحـه التجارية، فعقـد اتفاقية حماية مـع عبدالرحمن بـن عـوف، وارتبط مـع ابن معـاذ بعلاقة مادية قويـة، ما يعني عدم تعـرض الدولة الإسلامية لأي قافلة لقريش.

رحـب أمية بشريكـه ابن معاذ، وتبادلا أحاديث التجارة والسـفر، ثم يسـتأذن سـعد لأداء العمرة، فيشـعر أمية بالحرج، فهو يخشى سلاطة أبي جهل ووقاحته؛ لذا طلـب منـه التريث حتـى تخف الأقـدام، وقال: «ألا انتظـر حتى إذا انتصـف النهار، وغفل الناس انطلقت، فطفت».

انتظر سـعد، فلما انتصف النهار خرجا، ولما وصل سـعد الكعبة بدأ بالطواف، وفجأة وفي أحد الأشـواط دوت صرخة قبيحة شوهت زوايا الحرم: «من هذا الذي يطـوف بالكعبة؟» التفت سـعد للصـارخ، فإذا هو أبوجهل.. تأملـه، فهان في عينه،

ونطق عزة وكأنه ليس في العالم سعد سواه، فقال: (أنا سعد) فصاح الطاغوت: «تطوف بالكعبة، وقد آويتم محمدًا وأصحابه، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم؟!».

غضب سعد، فرفع صوته دون اكتراث: نعم، فقال أبوجهل: «أما والله لو لا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا»، ثم توالت شتائم الطاغوت كالعادة، لكن هذا الهراء لا يخيف ابن معاذ.. علا صوته صوت أبي جهل تحديًا، فارتج أمية، وصاح بسعد: (لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي) لكن سعدًا لا يعرف سيدًا لهذا الوادي سوى الله.. إنه لا يرى سوى غبي سلم عقله لصخرة صماء.. لم يدافع سعد عن احتفائه بنبيه ﷺ، فذاك فخره، حين يفاخر الرجال؛ لذا لم يكن في حالة دفاع، بل في حالة هجوم كاسح للطاغوت.. يذله بقوله: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة. لأقطعن متجرك بالشام» شعر أمية بالخوف من تدهور الوضع، فأمسك بثياب سعد ليخرجه، وهو يقول: لا ترفع صوتك. فانفجر سعد بركانًا أصابت حممه أمية.. التفت إليه، وصاح به: «دعنا عنك يا أمية، فإني سمعت رسول الله يقول: إنه قاتلك» انخلع قلب أمية، ونسي سيد الوادي من الرعب، وسأل سعدًا عن تحديد مكان قتله، قائلًا: «بمكة؟ قال سعد: لا أدري» غادر سعد المسجد.. تاركًا أباجهل تمثالًا كأصنامه، أما أمية فنسي أبا جهل وأصنامه، وأصابه الموت قبل أوانه، فانطلق نحو زوجته يولول، لكن زوجته زادت من رعبه.

متى أكرهت الدولة الإسلامية على حمل السلاح؟

عاد أمية لزوجته.. تخرج الكلمات منه كالدموع يقول لها: «يا أم صفوان، ألم تري ما قاله لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري» ارتجف قلب المرأة، فاستعادت ذكريات ثلاثة وخمسين عامًا قضاها محمد في مكة.. فتشت ذلك التاريخ الأبيض، فلم تجد فيه كذبة، ولم

تجد لزوجها ملاذًا، فقالت واليقين يقتلها: «والله ما يكذب محمد..» كلمات حولت كل شبر خارج مكة إلى قبر في عين أمية الذي ارتجف، وارتجف، ثم حلف: والله لا أخرج من مكة.

عاد سعد بن معاذ للمدينة، بعد أن حول مكة زنزانة لأمية، فأخبر نبيه وقائده ﷺ بما جرى، وأن أبا جهل قد أصدر قرارًا بمنع مواطني الدولة الإسلامية من العمرة.. عبادة ما تجرأ أحد على منعها إلا هذا الأحمق، بل هدد بقتل كل مسلم تطأ قدمه مكة. لم يكتفِ بذلك، فثقافة الإقصاء والكراهية والحقد التي يعيشها أعداء الإسلام.. تصل بهم إلى حد التهور والجنون، فبدؤوا بتنفيذ تهديدهم بتحريض عرب الجزيرة على دولة الإسلام، حتى أمست مدينة الحب والسلام هدفًا لحراب يشعر بها الأنصاري أبيّ بن كعب، فيقول: «لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة».. أصبحت المدينة في حصار.. شعر القائد ﷺ بخطورة الوضع على دعوته ودولته، لكنه على الرغم من ذلك ظل منشغلًا بنشر التوحيد والوعي.. على الرغم من أنه تمر به ليالٍ لا يستطع فيها النوم، حتى قالت له زوجته، وهي بجانبه: «ما شأنك يا رسول الله؟ قال: **ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة**»، وبعد قليل سمع صوت سلاح، فقال: «**من هذا؟** فقال: أنا سعد بن مالك. فقال ﷺ: **ما جاء بك؟** قال: جئت لأحرسك يا رسول الله».. ظلت الوثنية تلاحق الصحابة، وكأن رعب مكة يلاحقهم، فبدؤوا بحمل السلاح دفاعًا عن النفس حتى قال أبيّ بن كعب: «كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه»، حتى سأل بعضهم بعضًا عن أمنيات تسكنهم؟ فقالوا: «هل ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله ﷻ» ازدادت هموم النبي ﷺ فهو لم يعد مسؤولًا عن أفراد كما كان في مكة.. أصبح مسؤولًا عن دولة.. عن شعب، وعن رسالة ربه.. هموم ومسؤوليات لا بد أن يتصدى لها؛ فالقادم مفزع وخطير.

أول مولود وأول راحل

كان ﷺ بحـارًا ماهرًا.. قاد سـفينة التوحيد خلال أمـواج الوثنيين بمهارة، وها هـي السـفينة تمخر، وبحـر الوثنية يسـتحيل محيطـات تتلاطم حولها.. لم يسـتفز ﷺ أحدًا.. لم يشترِ عداوة أحد.. كان يشتري الحب، ويحقن الدماء، لكن أعداء الإسلام لن يتركوه؛ وهو مسـؤول اليوم عن دولة وشـعب، وحمايتهم تثقل كاهله، وتتطلب قيادة إدارية حكيمة، وعسكرية صارمة. فالنظام بلا قوة تحميه مجرد شعارات.

بدأ ﷺ بتشـكيل بعض السرايا المكونة مـن بضعة أفراد من صحابته؛ لرصد أي تحـرك للوثنيـين الذين تحالفـوا مع قريش ضده، أمـا في الداخل فظل رحمـة مهداة.. قاضٍ عادل، وزوج ودود، وأب حانٍ، وجار رفيق.. تُزفّ إليه عائشة في تلك الغرفة الصغيرة التي هي مكان قبره اليوم، أما أختها أسـماء فوصلت قباء، وهي تعاني آلام الوضـع، وتقول: «خرجـت وأنا متم، فأتيـت المدينة، فنزلت بقبـاء، فولدت بقباء» وبعـد أن غسـلت ابنها لفّته بقطعـة قماش، ونهضت كالفرح تحمـل طفلًا كالصباح، ثم ركبت، وانطلقت نحو المدينة تبحث عن سبق في الإسـلام. هذه الفتاة الصغيرة التـي رباها الصديق.. تصل المدينة، فلا تبحث عن أحد سـوى نبيها ﷺ، ولما أشرق في وجهها مدت له أجمل ما حملته يداها لتقول: «وضعه ﷺ في حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغهـا ثـم تفـل في فيـه، فـكان أول شيء دخل جوفه ريـق رسـول الله، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، فكان أول مولود في الإسلام»، ثم مده لذات النطاقين، فضمته، وقبلته ودللته، وسـمته بخير الأسـماء: (عبدالله).. عبـدالله بن الزبير، ولئن كان هـذا الطفـل قد أسـعد النبـي والصديق، فـإن صحابيًّـا كريمًا أحزنهـما.. ها هو القائـد ﷺ يعـوده، وبعد مدة يموت الأنصاري الكريم أسـعد بن زرارة.. صاحب بيعـة العقبـة، وأول من صـلى بالناس في المدينـة الجمعة، فصلى النبـي عليه ودعا له، ودفنه وجلس حزينًا قرب قبر حبيب آواه ونصره، وفداه بماله ونفسه.

وفجأة يتسـلل بـين الصحابة غريب يبدو عليه الشـحوب ومـرارة الاغتراب، وذل الرق.. تلفت، وتلفت حتى رأى النبي ﷺ جالسًـا، فاتجه نحوه.. لم يكلمه، بل

التف حوله، وكأنه يبحث عن شيء أضاعه من سنين.. شيء فارق أحبته ودياره بحثًا عنه.. تأمله ﷺ فعرفه، وعرف ما الذي يبحث عنه، فمد يده نحو ردائه، وكشف له ظهره، فبكى الغريب، وأبكى الرجال.

حين بكى الغريب بين المقابر

مشى الغريب الحزين نحو نبي الله، فشعر ﷺ بما يريد، فمد يده نحو ردائه، وكشف عن ظهره.. ذهل الغريب عما حوله، وعمن حوله، فجثا على ركبتيه يقبل ظهر النبي ﷺ ويبكي بحرقة المشتاقين.. تركه ﷺ قليلًا، ثم قال له: (تحول) فنهض الغريب وتحول، وجلس بين يديه والدموع لا تكف ولا تتوقف.. إنه عبد اليهودي الذي أتاه ليلًا في قباء، فتصدق على النبي ﷺ بطعام، فلم يأكل منه وأكل أصحابه؛ لأنه لا يأكل الصدقة. ثم أتاه في بيت أبي أيوب، وأهداه طعامًا فأكل ﷺ منه، وها هو اليوم يرى خاتم النبوة في ظهره، ويقبله.. إنه القادم من بلاد فارس بحثًا عن التوحيد.

إنه سلمان الفارسي، وها هو بعد أن جفت دموعه يقص على النبي ﷺ قصته المريرة.. قصة بدأت قبل عشرات الأعوام.. عندما كان طفلًا مدللًا لأبوين غنيين جدًّا من مجوس فارس. كانوا يسكنون أصبهان، وبالتحديد قرية صغيرة يقال له (جي).. كان والده تاجر القرية وزعيمها. يكبر سلمان، ويكبر دلاله بين أبوين كادا يفسدانه بالدلال، فأبوه لا يريده أن يعمل في المزارع ولا التجارة.. قد شغف حب سلمان قلبه، فصار يلبسه أرق الثياب وأفخرها، ويخشى عليه حتى من النسيم؛ لذا أبقاه في معبد النار يتعهدها حتى لا تنطفئ.

تعلم سلمان المجوسية، وهي عبادة النار، وأصبح من خدمها، وذات يوم انشغل والده بمبانٍ يشيدها في القرية عن بساتينه ومزارعه، فاضطر إلى إخراج سلمان من بيت النار ليوم واحد، وأوصاه بإنجاز بعض الأمور المتعلقة بالمزرعة. وقبل أن يغادر أوصاه بوصية خارجة من أعماق قلبه، وكأنه لا يرى في الدنيا سوى سلمان، فقال: «يا

بني، لا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري» ودّع الابن أباه، وانطلق نحو الضيعة، لكنه رأى في الطريق مبنى تخرج منه أصوات غريبه لا يعرف ما هي، فمال نحوه ومشى، ثم دخل باحثًا عن مصدر الصوت، فإذا هم مجموعة من القساوسة النصارى.. يقومون ببعض التراتيل، وكان لا يدري ما النصرانية ولا غيرها. جلس معهم، فقارن عبادته للنار بها، فاستسخف عبادة النار، فبقي عندهم. أما والده فعاد إلى قصره، فلم يجد سلمان، فاسودت الدنيا في وجهه، وأرسل الخدم يبحثون عنه، لكن الشمس غابت، ولم يعد سلمان.

سلمان يخرج من الرماد

ظل الفتى سلمان بين القساوسة.. يخرج عقله من بيت النار.. ينظفه من رماد المجوسية، فيجد لدى القساوسة إجابات تقنعه مرة، لكنها تختلط بشرك يربكه، لكنه عثر على فرجة نحو السماء.. شعر بأن خلف الارتباك حقيقة لا بد من قطع مسافات للوصول لها، فسأل عن أصل النصرانية قائلًا: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام. فغادر الكنيسة شغوفًا بالنبع لا بالجداول.. يريد ارتشاف الحقيقة نقية.. يريد شرب الماء من المطر. غادر سلمان بعد أن غابت الشمس، وغابت الابتسامة عن محيا والده. أظلم الليل، وعاد الخدم، ولم يعد قرة العين.. لم يجدوه في الطرقات، ولا في الضيعة ولا في بيت النار. هل أصابه مكروه، أم اختطف أم اغتيل؟

أسئلة تطوف بوالد مفجوع يرى ابنه في كل زوايا قلبه، وفجأة يبتسم الوالد، فقد أشرق البدر ينير ظلمة الحزن.. أشرق سلمان بهدوء، فضمه والده، وكأنه يجمع شتاته، ويلملم جراحه.. عانقه وتحسسه، فسلامته أهم من مزارعه وبنيانه وممتلكاته، لكن سلمان الذي تلتف حوله المشاعر والعيون.. ليس الفتى الذي خرج في الصباح.

سأله والده عما أصابه، فلما أجاب أصيب الدهقان بطامة أخرى. يرويها سلمان للنبي ﷺ، فيقول: «رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن أمره كله، فلما

جئـت قـال: أي بني، أين كنت ألم أكن أعهـد إليك ما عهدته؟ قلت: يا أبت، مررت بأنـاس يصلون في كنيسـة لهم، فأعجبنـي مارأيت من دينهم، فـوالله مازلت عندهم حتـى غربت الشـمس. قال: أي بنـي، ليس في ذلك الدين خـير. دينك ودين آبائك خـير منـه. قلـت: كلا، والله إنـه لخير من ديننـا» ظل الوالـد يحاول إقناعـه أن عبادة النـار والرمـاد أفضل، لكن دون جـدوى، وعندما يئس نهض ليـترك ابنه كي يأوي إلى فراشـه ويرتاح، وبينما كان سـلمان يفكر في الشـام.. اقتحم الخدم غرفته، وأقبلوا يكتفونـه وعيناه زائغتان وقلبه يرتجف، ثم غادروا وغادر والده الذي يخشـى فراقه، بعد أن تركوا يديه ورجليه للسلاسل والأغلال. مرت الأيام مريرة على سلمان، لكن شـخصًا يثق به جاءه، فهمس به: أن يتوجه للكنيسـة، ويطلب من رجالها أن يبلغوه عن أي قافلة قادمة من الشـام. ذهب الشـخص، وبعد أيام عاد يبشر الفتى الأسـير بوصول قافلة شامية.

سلمان بين الأغلال

تظاهـر سـلمان بأنه قد ألف السلاسـل حتى يطمئـن والده، ثم أرسـل صاحبه لتجار الشـام يسـألهم متى يوم مغادرتهـم، وفي أحد الأيام عاد والـده المفجوع، فمر ليتفقد نور عينه الذي يوشـك أن ينطفئ.. دخل غرفتـه.. تلفت، فصاح كالمطعون، فاجتمع أهل القصر.. نظروا فلم يجدوا سـوى بقايا السلاسـل والأصفاد.. انطلقوا بحثًا في كل مكان.. توجه والده للمتهم الأول: الكنيسة.. سأل القساوسة، وبحث، وفتـش بلا جـدوى، ثم عاد محطـمًا يبكي حبيبًا أحـال فراقه الحياة مريـرة، أما الفتى فيتمايل الآن فوق مطيته عبر السهول والصحاري.. عبر دجلة والفرات.. عبر أشهر مـن المعاناة.. بحثًـا عن التوحيد.. كان يحـب أمه وأباه، لكنه إن بقي معهما فسـيظل عبـدًا للنـار في الدنيـا.. حطبًا لهـا في الآخرة. كان يبحـث عن خالق أمـه وأبيه، فهو وحده يستحق العبادة.

ها هي الشـام، وها هو يخبر النبي ﷺ عن وصوله، فيقول: «قدمت الشـام، فلما قدمتهـا قلـت: من أفضل أهـل هذا الدين علمًا؟ قالوا: الأسـقف» والأسـقف رتبة نصرانية فوق رتبة القس وتحت رتبة المطران.

توجـه الفتى لمقابلته، ولما وقف أمامه قال والشـغف يغمـره: «إني قد رغبت في هـذا الديـن، وأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيسـتك، وأتعلم منك، فأصلي معـك؟ فقال الأسـقف: ادخل» دخل سـلمان إلى كنيسـة زادت معاناتـه.. رأى فيها التناقـض يمزقـه، ويعـذب روحه، فقد كان هذا الأسـقف شـيخًا سـيئًا يأمر الناس بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له شيئًا كنزه لنفسه، ولم يعطِه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وفضة، فأبغضه سلمان بغضًا شديدًا، وعانى سنوات حتى لاح الفـرج. مرض الأسـقف، وتدهورت صحتـه، ثم مات، فأقيم له قـداس كبير، وفي وسط هذا الجو الجنائزي المهيب يفاجأ الحضور بصياح سلمان.

تـرى مـا الذي سـيقوله الخادم بلكنته الفارسـية المكـسرة. صاح سـلمان: «إن هذا الأسقف رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها كنزها لنفسه، ولم يعطِ المساكين منها شيئًا» ارتفعت أصوات الاستنكار واللغط، وهاج النصارى يطالبون الخـادم بالدليل. نظـر إليهم بثقة، وطلب منهم أن يتبعوه، ثم مشـى، فمشـوا خلفه، ثم توقف فتوقفوا، فحفر أو حفروا، فإذا المفاجأة تعقد ألسنتهم، وتشلّ تفكيرهم.

سلمان يضحي بكل شيء من أجل التوحيد

انتشل النصارى الغاضبون سبع قلال مملوءة ذهبًا وفضة.. يتساءلون: كيف يحتفظ رجل الدين بحقوق الفقراء لنفسه؟ لم يدركوا أن هذا السلوك غير مستغرب في أي دين فيه كهنوت ورتـب دينية، ورجال يغفرون، ويبيعون صكوك الغفران، ويأخذون المال باسم الرب، فرجل الدين بشر.. عنده ما عند البشر من الغرائز والشهوات.

لم يجد سـلمان في الإسـلام رجال دين، فها هو جالس أمـام نبيه.. لا يرى حوله كهنوتـًا ولارتبًا دينيـة، ولا ملابس خاصة بكبار الصحابة.. إنهـم يعملون بالزراعة

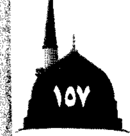
والتجارة والحرف المختلفة.. لا يأكلون بدينهم، بل بعمل أيديهم، حتى نبيهم وقائدهم ﷺ يلبس ويأكل ويسكن كسائر شعبه.

يواصل سلمان حديثه حول رؤية النصارى للقلال، فيقول: (لما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا)، ثم اتجهوا إلى جثته، فربطوها بخشبة، ثم نصبوا الخشبة، وصلبوه عليها، ثم التقطوا الحجارة، فرجموه.. بعد ذلك اجتمع القساوسة خجلين، فوضعوا مكانه رجلًا زاهدًا يبدو من الموحدين أتباع القس الموحد إريوس، لكن سعادة سلمان لم تدم، فبعد سنوات حضرته الوفاة، فحزن سلمان وها هو عند رأسه يبكيه.. يشعر بالضياع، ويقول له: «إني قد أحببتك حبًّا لم أحبه شيئًا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ فقال الأسقف: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلًا بالموصل فالحِقْ به».

مات الأسقف، فاتجه سلمان للموصل في شمال العراق، وبعده توجه لأسقف بمدينة نصيبين، ثم لقس بمدينة عمورية في تركيا، وهناك بدأ سلمان يشتغل إضافة إلى خدمة الكنيسة، فجمع مالًا، وامتلك بقرات وغنمًا، ولما حضرت الوفاة أسقف عمورية لم يوصِ سلمان بأحد، بل بشره قائلًا: «قد اقترب زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، يهاجر إلى أرض بين حرّتين، بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل» مات أسقف عمورية، فدفنه سلمان ورفاقه، ثم نهض وقد عزم على السفر بحثًا وشوقًا لهذا النبي، ولكن وفي الطريق إليه وثق بقوم، فغدروا به، ونهبوا بقراته وغنمه وحريته. ثم باعوا الفتى المدلل عبدًا.

حين باعوا الفتى المدلل

مات أسقف عمورية، بعد أن أشار على سلمان بالتوجه لجزيرة العرب.. عله يدرك نبيًّا سيخرج، ويهاجر نحو مدينة النخيل.. لم يغادر سلمان مباشرة، بل مكث



في عمورية وقتًا. وذات يوم رأى تجارًا عربًا، فاهتز قلبه شوقًا، فاستوقفهم، وقدم لهم عرضًا، فقال: «احملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي وغنيماتي هذه؟ قالوا: نعم» فانطلقوا به عبر بلاد الروم تركيا فسوريا ففلسطين، ثم دخلوا الجزيرة، فتوقفوا ببلدة ذات نخل يقال لها وادي القرى قرب تبوك، حيث ينتشر اليهود في انتظار النبي نفسه.

رأى سلمان النخيل ففرح، لكن فرحته لم تكتمل، فسلمان الذي ضحى برفاهيته ودلاله بحثًا عن التوحيد، وضحى بكل ما يملك بحثًا عن هذا النبي المنتظر.. يستعد الآن لدفع أغلى ثمن يدفعه إنسان. فوجئ بأولئك التجار العرب يغدرون به.. يسحبونه كعبد نحو سوق الرق ليبيعوه.

رضي سلمان بقدره، فهانت نفسه في سبيل الله، وتشققت قدماه ويداه من الكدح دون مقابل.. ربما تلوى من التعب والجوع يومًا، فتذكر فراشه الوثير، وطعامه الفاخر بين أمه وأبيه في فارس، فيعزيه مرأى النخيل بأمل لقاء رسول الله.. سلمان روح شفافة تهفو نحو السماء.. أمثاله لا يعرفون الحقد، ولا تثقلهم الشهوات، ولا يبيعون دينهم بالدراهم والمناصب.. تتطامن الهامات أمام قامته السامقة، حين يقول: «ظلموني، فباعوني على رجل يهودي عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة، فاشتراني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفتها بصفة صاحبي لها، فأقمت بها».

قاسية كانت أيام سلمان، لكن سيده اليهودي كان أقسى.. أشغله بالكدح عن السؤال عن نبيه، فلم يسمع عن بعثته حتى هاجر نحو قباء، وها هو اليوم يكحل به عينيه، ويقص حكايته بين يديه، فتدمع عيون إخوته الصحابة من حوله.

قرر النبي ﷺ تحريره، فقال: (كاتب يا سلمان) فنهض، وكاتب سيده اليهودي، ثم عاد، وقال لنبيه: «كاتبت صاحبي على ثلاث مئة نخلة» يحييها مقابل حريته. فرح ﷺ بما سمع، لكنه لم يكتفِ بالفرح.. هتف بأصحابه محرضًا كرمهم، وقال: «**أعينوا أخاكم**».

بيت الحمى والشعر والحنين

نهض ﷺ حزينًا بعد دفن صاحبه أسعد بن زرارة وبعد مدة أهداه بعض الصحابة حليًا، فلم يعطِه لبناته رقية وأم كلثوم وفاطمة، ولا لعائشة أو سودة. انطلق به نحو بيت حبيبه أسعد؛ ليسعد طفلتيه اليتيمتين.. هدية بقيت عندهما حتى شابت ذوائبهما. ويعود ﷺ يومًا إلى بيته فيجد عائشة في انتظاره.. قلقة تستأذنه بعد أن علمت بمرض والدها، فأذن لها، ولما دخلت بيت أبيها، وسلمت على أمها رأت مشهدًا أحزنها: ثلاثة فرش تنضح بالحمى والحنين والشعر: فراش يتقلب عليه والدها الصديق، وثانٍ يرقد عليه راعي الغنم عامر بن فهيرة، وثالث في فناء البيت لبلال. دنت من والدها، فانطلق السؤال من قلبها: «يا أبت، كيف تجدك» فكان جوابه شعرًا منقوعًا بالموت يقول:

كُلُّ امْرِئٍ مُصْبِحٌ فِي أَهْلِه وَالموتُ أَدْنَى مِنْ شِراكِ نَعْلِه

شعرت بأوجاع أبيها، فقالت: «والله ما يدري أبي ما يقول» ثم دنت إلى عامر بن فهيرة، فقالت: «كيف تجدك يا عامر؟» فرد رفيق الهجرة بشعر يقول:

وَجَدْتُ الموتَ قَبْلَ ذَوْقِه إِنَّ الجبانَ حَتْفُه مِنْ فَوْقِه

فقالت: «والله ما يدري ما يقول»، ثم اتجهت لفناء البيت، حيث يئن بلال، فقالت: (كيف تجدك) فلهج بلال بكلمات يحرقها الشوق لمكة مهوى الفؤاد، ومرتع الصبا، كلمات تعشق سوق مجنة.. الذي يطل عليه جبل شامة وجبل طفيل، وكأنهما ينصتان إلى أصوات الباعة والشعراء فيه، فيقول:

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً بِوادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدْنَ يَومًا مِياهَ مجنَّةٍ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شامَةٌ وَطفِيلُ

بلال الذي يدعو الله بعد كل أذان فجر أن يهدي قريشًا.. تشتعل الحمى في جسده، فتفقده لذة العيش، فيدعو مما به على طواغيتها، ويقول: «اللهم، العن عتبة

ابـن ربيعة، وشـيبة بن ربيعة، وأمية بـن خلف، كما أخرجونـا إلى أرض الوباء» وقد كانت المدينة حينها مشهورة بالحمى.

كلمات وأبيات أبكت عائشـة، فغادرت بيت الحنين والشـعر بقلب يذوب على أبيهـا ورفاقـه، وأخبرت حبيبها بما رأت. فرفع ﷺ رأسـه للسـماء بدعـاء ينضح حبًّا ورحمـة بالمدينـة وأهلها، وقال: «**اللهم، حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشـد، اللهم، وصححها، وبارك لنا في مدّها وصاعها، وانقل حماها**».

المرأة المخيفة تخرج من المدينة

امرأة مخيفة لم يرَها أحد سـوى النبي ﷺ تمشي في المدينة ناشرة شـعرها المجعد في كل اتجاه، حتى خرجت منها، وتوقفت، فنزلت في الجحفة، وهي المنطقة التي تسمى مهيعة. استيقظ ﷺ من رؤياه، فقصها على أصحابه، وفسرها، فقال: «**أولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة**» رؤيا تدل على استجابة الله لدعائه السابق.

أصبحـت أجـواء المدينـة أصح، ومشـاعر الحب في قلـوب المهاجريـن ونبيهم أعظـم، حتـى أعلن ﷺ حبـه في طرقاتهـا لأطفالها ورجالها ونسـائها وحتـى جبالها. ففي أحد الأيام رأى النسـاء والصبيان مقبلين من عـرس، فقام وقال حبًّا للأنصار: «**اللهـم، أنتـم من أحب الناس إلي. اللهـم، أنتم من أحب النـاس إلي. اللهم، أنتم من أحب الناس إلي**».

كلـمات أبهجتهم أكثر مما أبهجهم العرس، لكنّ في المدينة قلوبًا تريد اغتيال هذا الحـب. قلوب تشـتعل حسـدًا في صدور يهود، عـلى الرغم من أن النبـي كان يحاول اسـتمالتهم، ويحـب موافقتهم فيـما لم يؤمر فيه.. حتـى في طريقة تسريح شـعره، فقد كان المشركون يفرقون رؤوسـهم، وكان أهل الكتاب يسـدلون شـعورهم، فسـدل النبـي ناصيته، حتى يوم عاشـوراء الذي كان النبي ﷺ يصومـه في مكة قبل الهجرة، فلـما هاجر اسـتمر في صيامه، وعـلى الرغم من ذلك حاول إشـعار اليهود بشيء من

الود؛ لما رآهم يعظمونه، ويتخذونه عيدًا، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم. حاول ﷺ أن يشعرهم بحبه لأنبيائهم، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومه. فقال ﷺ: **فنحن أحق وأولى بموسى منكم**» قال ذلك على الرغم من أنه كان يصومه بمكة.

شعر اليهود بغرور.. شعروا بتعالٍ على هذا النبي المتواضع، وظنوا أنه يقلدهم، لكن الأمر لم يطل، ففجأة وبينما كان ﷺ يصلي بالناس.. إذا بالوحي ينزل عليه في أثناء الصلاة بشيء أغاظهم.. نزل بحكم جعله يتحرك في الصلاة حركة أحرقت ما تبقى من كبريائهم، وجعلتهم يتمنون أن يعود لمجاملتهم.

نزل جبريل على النبي ﷺ وهو يصلي بأصحابه، فأمره بالاستدارة نحو الكعبة واستقبالها، وترك استقبال بيت المقدس، وذلك بعد مرور عام وأربعة أشهر. جن جنون يهود، فأصبحوا يقولون لأنفسهم ولمن حولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾[البقرة: ١٤٢].

جذوع ألين من قلوب يهود

غضبت اليهود من تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فقالت: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾، فجاء الرد وحيًا يسفه عقولهم، ويقول: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ١٤٢]. انتقلت القبلة من مقدمة المسجد إلى مؤخرته، وتم نقل الجذع الذي كان النبي ﷺ يخطب عليه إلى القبلة الجديدة، وظل يخطب عليه حتى جاء ذلك اليوم الذي بكى فيه الصحابة من أجل ذلك الجذع.

ها هو أحدهم اسمه سهل بن سعد يقول: كان رسول الله يقوم إذا خطب إلى خشبة كانت في المسجد، فلما ذاع الناس، وكثروا قيل له: يا رسول الله، لو جعلت

منـبرًا تشرف على الناس منه؟ هنا يأتي دور المرأة الذي لا يغيب في الإسـلام. إحدى الأنصاريات المصليات في المسجد.. تنافس تلك الأنصارية التي جعلت سطح بيتها مكانًا للأذان.. تأتي لنبيها، وتعرض عليه أمرًا، وتقول: «يا رسول الله، ألا أجعل لك منبرًا تقعد عليه، فإن لي غلامًا نجارًا؟ فقال: إن شئت».

انطلقت المرأة، وأمرت غلامها بصنع المنبر، فانطلق الغلام النجار ومعه سـهل ابن سـعد نحو أشـجار الأثل في الغابة.. بدأ بتقطيع الأثل وتشذيبه ونشره حتى قال سهل: (فقطع منها أثلًا، فعمله وهيأه، ثم أتينا نحمله، فكان درجتين، والثالثة مقعد لرسـول الله). ولما جاء يوم الجمعة، ودخل النبي المسـجد ليخطب.. سـلم، وتوجه نحـو المنـبر، فصعده، فأذن بـلال، ولم يكن للجمعة سـوى أذان واحد، وبعد الأذان خطب ﷺ. وكانت سـنته أن تكون خطبته أقصر من صلاته، حيث يقول: «**إن طول صـلاة الرجل وقصر خطبته مئنـة من فقه الرجل، فأطيلوا الصـلاة، واقصروا الخطبة، وإن من البيان سـحرًا**»، وفي أثناء الخطبة سـمع المصلون والمصليات أنينًا حزينًا يأخذ بنيـاط القلـب.. يصـدر قرب النبـي ﷺ. التفـت الجميـع إلى مصدر الصـوت، فإذا المعجزة تُبكي من في المسجد.

نزل ﷺ فتوجه نحو مصدر الصوت.. نحو الجذع الذي يئن.. نحو الجذع الذي جعله الله آية من آيات نبوته.. بكى الجذع حنينًا إلى ذكر الله ونبي الله، فضمه ﷺ حتى سـكن حنينه وأنينه، ولما سـكن التفت ﷺ إلى صحابته، وقال: «**سبحان الله ألا ترون إلى هذه الخشبة.. بكت على ما كانت تسمع من الذكر عندها**».

***

بناء الدولة يتطلب حمايتها

انشـغل النبي ببناء دولته وشعبه عقيدة وعلمًا وعبادة، وتثقيفهم صحيًّا وتربويًّا واجتماعيًّـا وعاطفيًّا، وانشـغل الطواغيت بقتل مشروع التوحيـد الحضاري.. الذي يهفـو إلى العالم.. كل العالم، فالطواغيت يصرون على إعادة البشر للسـجود للحجر،

حتى قال أحد الصحابة: «لما قدم رسول الله وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه»؛ لذا شكل القائد ﷺ بعض السرايا لرصد أي تحرك وثني حماية لدولته.

شكل أول سرية إلى منطقة العُشيرة قرب ينبع.. قادها بنفسه، ثم سرية الأبواء وهو مكان بين مكة والمدينة، حيث وقفت المطايا بمحمد وهو طفل ليعاني لحظات موت أمه ودفنها هناك. ما من تفاصيل صحيحة عن سريتي العشيرة والأبواء، لكنهما مرتا بسلام، أما السرية الثالثة فكانت موجهة إلى مكان مجهول وأفرادها من المهاجرين فقط، لكنها أحدثت زلزالًا صدع هيبة قريش. بكى أميرها أبو عبيدة ابن الجراح صبابة وشوقًا لنبيه عند انطلاقه، فأبقاه ﷺ وعيّن مكانه صحابيًّا اسمه عبدالله بن جحش، وها هو يتأهب للمسير، ونبيه يودعه، ويسلمه خطابًا، لكنه يأمره ألا يفتحه إلا بعد مرور يومين.

انطلقت السرية، وبعد يومين فتح عبدالله الكتاب، وقرأه، فإذا فيه: «**إذا نظرت في كتابي هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد بها قريشًا، وتعلم لنا من أخبارهم**» طوى عبدالله الكتاب، وقال: سمعًا وطاعة. ثم التفت لأصحابه، فقال: «قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، فأرصد بها قريشًا، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع؟ فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله» لم يرجع أحد، لكن في مكان يقال له بُحران تلفت سعد بن أبي وقاص ورديفه عتبة بن غزوان، فلم يجدا راحلتهما، فانطلقا يبحثان عنها، ومضى الباقون حتى وصلوا نخلة، وفجأة ظهرت قافلة قرشية قادمة من الشام، فأصابت المهاجرين بالارتباك، فليس معهم أوامر بالقتال، لكن واقد بن عبدالله التميمي تحمس، فقام بعمل تحدث عنه العرب، ووظفته قريش واليهود أسوأ توظيف، فما الذي فعله المهاجر التميمي بالقافلة.

هل أطلق التميمي أول سهم في الإسلام؟

كان سعد بن أبي وقاص يقول: «أنا أول من رمى بسهم في سبيل الله» فهل أطلقه قبل اليوم، أم لم يعلم بما حدث في سرية نخلة بعد انفصاله عنها.. أفراد السرية المتحضرون يتداولون الآن الأدلة حول مشروعية الهجوم على قافلة الوثنيين.. الذين طردوهم من ديارهم، وأعلنوا الحرب على من آواهم، وعذبوا إخوتهم وأخواتهم لأكثر من عشرة أعوام، ومنعوهم من دخول مكة إلا إن كفروا.

يتناقشون على الرغم من أن عمار بن ياسر معهم، وهو الذي طعن أبو جهل أمه، ونحر أباه، ومما زاد في تعقيد الأمر أن اليوم هو الثلاثون من جمادى الآخرة، وربما يكون الشهر غير مكتمل، فيكونون في أول يوم من شهر رجب، ورجب شهر يحرم فيه القتال، والأهم أن نبيهم لم يأمرهم بقتال، وبعد نقاش اعترضوا القافلة التي ليس فيها سوى أربعة رجال. صعق الوثنيون، لكن عندما رأوا رأس الصحابي عكاشة بن محصن محلوقًا ظنوا أنهم معتمرون، فارتاحوا، لكن الحماس كان يشتعل بين جنبي الصحابي واقد بن عبدالله التميمي، فمد يده نحو كنانته، فانتزع سهمًا، ثم أطلقه كالرصاصة في جسد الوثني عمرو بن الحضرمي فخر صريعًا.

نظر الوثني نوفل بن المغيرة إلى جثة صاحبه تتلبط على الأرض، فلاذ بالفرار، أما أخوه عثمان فاستسلم، واستسلم معه الحكم بن كيسان. أكملت السرية مسح المنطقة، ثم عادت بالقافلة والأسيرين للمدينة، ولما وصلت فرح اليهود بقرب نشوب حرب بين محمد وحليفتهم قريش، فقالوا يتفاءلون: «الحضرمي حضرت الحرب، وواقد وقدت الحرب» أما النبي ﷺ فأقبل على الأسيرين وكأنه في مكة.

أقبل على عثمان بن المغيرة، فدعاه للتوحيد فأبى، فأبقاه في الأسر يطعمونه الطعام المحبب لهم، ثم التفت للحكم بن كيسان، فكلمه ودعاه، فاكتشف الحكم نبيًّا لم يتغير سلوكه الراقي.. على الرغم من أنه أصبح زعيمًا.. رأى نبيًّا يحرص على هداية الأسرى والضعفاء، كحرصه على هداية الزعماء. أدرك أنه أمام نبي يحب

للنـاس ما يحب لنفسه، فأسـلم، وبقي في المدينـة، ثم جرى الحديـث عن مشروعية الهجوم على القافلة. فما موقفه ﷺ مما حدث؟

❧❧❧

عندما يكون المواطن أشد عداوة

مخجـل موقف المواطنـين اليهود مما حدث في سرية نخلة.. إنه أشـد من موقف طواغيـت قريش، على الرغم مـن أن اليهود من مواطني الدولة الإسـلامية، لكنهم تحولـوا إلى جيـوب خيانة وعملاء للأجنبـي.. اليهود قتلة الأنبيـاء في حالة فرح علّ حربًـا تنشـب بـين محمد وقريـش. هـم لا يأبهـون بقريش بقدر مـا يأبهون بإشـعال الفتـن والدسـائس، وفرّقْ تسـدْ، وضرب الأمم ببعضها. أما قريـش، فكان موقفها أهـون.. لم يعترضوا على القتـل؛ لأنهم أحرص الناس عليه، فهـم من قتل الصحابة والصحابيات، وهم من حاولوا قتل النبي ﷺ، وحرضوا على قتله في طريق الهجرة، وأرسلوا رسالة تهديد للوثنيين يهددونهم باجتياح المدينة بجيش من قبائل الجزيرة.

كان احتجاج قريش منصبًا على التوقيت فقط؛ لذا قالوا: إن محمدًا يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من اسـتحل الشـهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. فرد عليهم المسـلمون، وقالـوا: إنما قتلناه في جمادى. ظل الأمر مقلقًـا للصحابة؛ لأنهم أصحاب مبـادئ.. على الرغم من هول الظلم الـذي وقع عليهم، والحصار الذي يضربه وثنيو الجزيـرة، حتى نزلـت آيات أذهبت الغـم، وأراحت الأنفس، وسـلطت الضوء على القلـوب الوثنيـة، فـإذا الحقـد والافـتراء يتكـدس في تجاويفهـا، حين قال سـبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[البقرة: ٢١٧]، ثم إن قريشًا على علم بأن طريق الشام التجاري أصبح مهددًا بقرار من سعد ابـن معاذ، ردًّا على تهديد أبي جهل له بالقتل، ومنعه من الطواف هو أو أي منتسـب لدولة الإسلام.

أنهت تلك الآيات الجدل حول السرية، وعاد ﷺ لشعبه ودولته يزينها واحة للإيمان، فتتطاير أخبار الحب في الجزيرة، فتشتاق القلوب لطيبة، ويتداعى نحوها مهاجرون جدد، فتمتلئ بيوت الأنصار، ويتأمل القائد ﷺ مسجده، فيقرر بناء غرفة في خلفيته للضيافة سميت الصفة.. لم تكن تلك الصفة مجرد مأوى.. كانت مدرسة.. جامعة تخرج فيها العلماء والقادة والدعاة والأمراء.. على الرغم من أنك لن تملك دموعك، عندما تتأمل ثياب ساكنيها وطعامهم.

أهل الصفة عشاق المدينة

فرغ الصحابة من بناء الصفة، فتداعى نحوها المهاجرون الجدد.. كانوا فقراء يحظون بوجبة واحدة في اليوم، وهي عبارة عن تمرات فقط.

يقول أحدهم واسمه طلحة بن عمرو: «كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ، وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة، وكنت فيمن نزل الصفة، وكان يجري علينا من رسول الله كل يوم مد من تمر بين رجلين».

كان القائد ﷺ مع فقراء شعبه بمشاعره.. بسنته.. بوحي ربه، «فأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها».

يخرج ﷺ من بيته للصلاة، فيقيم بلال، فيصف الصحابة خلفه، والصحابيات خلفهم، فيكبر ويكبرون، وينسابون في مناجاة ربهم، وفجأة يدوي صوت ارتطام بالأرض.. تتبعه حركة بين الصفوف وأنين يصدع القلوب.. تلمع العيون القريبة وهي تلمح أحد أهل الصفة يتلوى على الأرض جوعًا، وبعد الصلاة يطل الأغراب، فيعتقدون أن به مسًّا، أما النبي ﷺ فينهض، ويتهادى نحو حبيبه الذي خر مغشيًّا عليه، فيواسيه بأحرف كثمار الجنة قائلًا: «لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة».. فاقة عاناها أحدهم، فقال: «والله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع».

ترى.. ما الذي أغرى هؤلاء بصفة المدينة حتى تركوا عيشهم الرغيد في ديارهم؟ السر موجود على بعد خطوات.. هناك.. في الحجرة النبوية.. في منزل القائد.

سنتجه نحو زوجته ﷺ، فقد تحدثنا عن الموائد الشهية.. عن الأطباق اللذيذة والحلوى الفاخرة التي تعد له على يد أمهر الطهاة، لكن عائشة تحلف بالله أنه يمر بهم الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال.. يمر ستون يومًا، وما أوقد في أبيات رسول الله نار.. يمر شهران دون طبخ.. أيحدث هذا في بيت أفضل من مشى على الأرض؟ إذًا فما طعامه؟ الإجابة مبكية، لكنها أوجدت شعبًا يفضل الموت على أن تمس قائده شوكة.. الإجابة أبكت عمر بن الخطاب، حين تلفت في بيت نبيه، فسالت دموعه رأفة به ﷺ.

القيادة مسؤولية لا غنيمة

تلك كانت عائشة.. حدثتنا عن طعامها وطعام زوجها القائد ﷺ، الذي يقتصر على الأسودين: التمر والماء، لكنها تستدرك، وتتذكر أن له جيرانًا من الأنصار.. كانت لهم منائح من الغنم، فكانوا يرسلون إليه من ألبانها، فيسقونه.. هذا هو طعام قائد الأمة الذي يصفه أعداؤه بالباحث عن الشهوات، أما قصره، وأثاثه الفاخر، وأرائكه وسجاده وستائره وتحفه، فمجموعة نادرة أبكت ابن الخطاب، بعدما دخل بيت نبيه ﷺ فوجده مضطجعًا على حصير، ووسادته من جلد محشو بالليف، فرأى جنبه قد تحول إلى خطوط وحفر حمراء، من أثر الحصير القاسي.

تأملت عينا عمر خطوط جسده الشريف، ثم طافت في أرجاء المكان، فرأى خزانة الطعام ليس فيها سوى قبضات من شعير، ورأى ورق السلم الذي يستخدمه ﷺ في دبغ الجلود، ورأى جلودًا معلقة استعداد لدبغها، وصنع وسادة أو قربة منها.. جالت عينا عمر تبحث عن الحرير، والذهب والفضة والتحف النادرة.. جالت وجالت، فإذا الدموع قد سالت.

رأى ﷺ تلك الدموع، فقال: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**» فتعجب عمر من سؤال نبيه، فتنهد بسؤال كالجمر على كبده: «يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته، وهذه خزانتك؟!، عندها أجابه ﷺ إجابة لو وعاها القادة لأصبحوا عشق شعوبهم، وشعرهم ومشاعرهم. قال ﷺ: «**يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟**».

لا يلام أهل الصفة على عشق المدينة.. لا يلامون على عشق دولتهم، مادامت هذه هي أخلاق قائدهم ﷺ.. إنهم يرونه بينهم.. حول جراحهم ومعاناتهم.. ها هو أحدهم يصيح، وقد احترق جوفه: (يا رسول الله، قد أحرق التمر بطوننا). لم يهمل القائد ﷺ نداءه، ولم يقمع شكواه، بل قام فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر ما لقي هو وأبوبكر الصديق من قومهما، فقال: «**مكثت أنا وصاحبي بضع عشرة ليلة ما لنا طعام إلا البرير، وهو ثمر الأراك، فقدمنا على إخواننا من الأنصار، وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيه**»، ثم حلف لمواطنيه فقال: «**والله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم**»، فهل يلامون على حبه، وحب الأرض التي يمشي عليها.

الوطن الآخر للمهاجرين والأنصار

لم تملأ كلمات القائد ﷺ بطون الفقراء، لكنها أشعرتهم بأن لهم وطنًا آخر اسمه قلب محمد ﷺ، الذي يجوع معهم، ويشعر بهم.. ها هو الوحي ينزل ليبشر أهل الصفة بمستقبل مشرق بالأزياء والموائد، فيقول ﷺ: «**والله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن تدركون زمانًا، أو من أدركهم منكم، تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى عليكم، ويراح بالجفان**». فرح أهل الصفة بمستقبل أبيض، لكن نبيهم ﷺ لا يكتفي بالوعود الصادقة ﷺ.. كان يتحرك، ويحرك المدينة من أجل فقراء شعبه، فإذا ما توافر لديه طعام لم يحتفظ به لأسرته.. كان أول من يلوح في ذاكرته أهل الصفة. ذات يوم هتف بأصحابه، فقال: «**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس**».

يقـول أحـد أبناء الصديق: (إن أباه جـاء بثلاثة، أما النبـي ﷺ فانطلق بعشرة)، لم يكـن الجـوع وحده ما يميز أهـل الصفة.. لو رأيت لباسـهم لحزنت، ولوشـعروا بنظراتك لاستحيوا منك: سبعون رجلًا ناحلة أجسامهم.. بادية أضلاعهم.. عارية ظهورهم.. لا يجدون ما يغطونها به. بعضهم يلبس ثيابه على طريقة الصبيان يربطها في عنقه. فإذا ركع قبض على إزاره مخافة أن تبدو عورته. خاطب النساء من أجلهم، فقال: «**خير صفوف النساء المؤخر، وشرها المقدم، يا معشر النساء، إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن لا ترين عورات الرجال**» من ضيق الأزر.

رجال فقراء، لكنهم يأسرون الأرواح. ذات يوم كانت عائشة في طريقها لبيتها، وقبـل أن تدخـل توقفـت طويلًا خلف جدار المسـجد، ثم دخلت عـلى زوجها ﷺ، فقال: (أين كنت؟ قالت: يا رسـول الله، سـمعت قراءة رجل في المسجد، ما سمعت مثله قط).

نهض ﷺ معها شغفًا بسماع القرآن، فهو يقول: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**» وعندما انسـاب الصوت العذب إلى مسـامعه.. التفت إليها، فسـألها: «**ما تدرين من هـذا؟**» فقالت: لا: فقال: «**هذا سـالم مولى أبي حذيفة**»، ثم قال كلمة تكشـف عظمة هـذا الدين الذي يحتفي بالعبيد والفقراء احتفاءه بالوجهاء والأغنياء، فقال: «**الحمد لله الـذي جعـل في أمتي مثل هذا**»، لقد حـوّل القرآن أهل الصفة إلى شـموس، حين وقف ﷺ عليهم، فسألهم عمن يحب الحصول على ناقتين سمينتين عظيمتي السنام؟

حلقات القرآن تنير العالم

سـأل القائد ﷺ أهل الصفة عمن يحب الحصول على ناقتين سـمينتين عظيمتي السـنام؟، فهتفوا: يا رسـول الله، نحب ذلك، فقال: «**أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد، فيتعلـم، أو يقـرأ آيتين من كتاب الله ﷻ، خـير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل**»، فانطلقوا يتعلمون القراءة والكتابة

للقرآن، فوضعوا أنفسهم على طريق العلم.. لم يجدوا القرآن وعظًا وإرشادًا فقط.. وجدوه ينظم أحوالهم الشخصية والاجتماعية، والنفسية والتربوية والعبادية، والعسكرية، والسياسية والاقتصادية، فهاموا به كبقية أهل المدينة.. حيث كل بيت فيه مصحف أو جزء من مصحف أو سورة.. لأول مرة في الدنيا والعالم.. ينتشر الكتاب في البيوت.

شيء عظيم لم يحصل للتوراة التي ضاعت؛ لأنه لا يمسها إلا حاخامات يهود، أما التوراة الموجودة اليوم فلم تكتب إلا بعد سبع مئة عام من نزولها، أما الإنجيل الأصلي فشفهي غير مكتوب، والموجود اليوم لم يكتبه عيسى ولا حواريوه، لكن بعد مئة عام تقريبًا من رفع المسيح ظهرت عشرات الأناجيل.. ليس منها واحد ينسب لله، أو حتى للمسيح، بل هي منسوبة لرجال لم يَرَهم عيسى، ولم يرَوه، ولم يروا من رآه.

القرآن وحده كتب في أثناء نزوله.. وحده تم حفظه في الصدور والسطور.. وحده يتم تداوله والتعبد بتلاوته طوال اليوم في الصلوات.. في المساجد والبيوت، والأسواق والدكاكين، والمزارع والأسفار، وحتى على الفرش.. المبصر يكتبه والأعمى يحفظه. أما المعجز، فهو أنه الكتاب الوحيد في الدنيا الذي يحفظه الملايين من غير الناطقين بلغته، بينما لا تجد قسًّا أو حاخامًا يحفظ التوراة أو الإنجيل.

القرآن جعل أهل الصفة وإخوتهم أنظف شعوب الأرض، بينما كان الأوروبيون وغيرهم يتعبدون بقلة الاستحمام، وكانوا يعزلون نساءهم في فترة الحيض في أماكن قذرة؛ لأن توراتهم تقول: إن المرأة نجسة تنجس كل شيء تمسه، أو تجلس عليه.

أنس بن مالك يصف ما شاهده، فيقول: «إن اليهود كانت إذا حاضت المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها» القرآن لا يتوقف غيثه.. ها هو ينزل رحمة بأهل الصفة وأمثالهم، بعد أن حوّل أحد الأشهر إلى مشاعر تطوف بهم.

***

شهر الشعور بالفقراء

شـهر رمضان في الطريق.. يحمل شيئًا مختلفًا هذا العام، حين أنزل الله سبحانه قولـه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة: ١٨٥]، زاد استبشـار الصحابـة، حين بشرهـم نبيهم ﷺ بقـول الله: «**كل عمل ابن آدم لـه إلا الصوم، فإنه لي، وأنـا أجـزي به**»، لكنه حذرهم من أخطر الأشـياء على الصوم، فقال: «**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**».. كان صيام رمضان في البدايـة اختياريًّا، فمن حق المسـلم أن يفطر، ولكن يجـب عليه تقديم فدية قدرها إطعـام مسـكين.. عن كل يـوم لا يصومه، فقـال تعـالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٨٤] ، وكان الصيام في البداية أيضًا بلا سحور، أي إن الصائم يعرف وقت الإفطار، لكنه يجهل وقت الإمساك، وهذا معناه أنه بعد غروب الشمس يجوز له الشرب والأكل مادام مسـتيقظًا، لكن لو نام، ثم اسـتيقظ في الليل، فلا يجوز له الأكل حتى غروب شمس اليوم المقبل.

ها هو الأنصاري أبو قيس.. يتهادى نحو بيته بعد مغرب يوم من العمل والصيام، ولما وصل دخل بيته، فسـأل زوجته: (هل من شيء؟ فقالت امرأته: ما عندنا شيء).. رق قلب الزوجة الحنون على هذا الحبيب الجائع، فقالت: (أخرجُ ألتمس لك عشاء)، فانطلقت تبحث عن طعام، أما هو فوضع رأسـه، فنام من التعب، ولما عادت وجدته نائمًا فأيقظته، فاستيقظ، لكنه لم يأكل شيئًا، ثم صلى، وواصل رقاده، وبات صائمًا، وفي الصبـاح اتجه لعمله حتى ارتفعت شـمس الظهـيرة.. عندها لم يسـتطع الصمود فخر مغشيًّا عليه.. بعد ذلك بمدة نزل قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[البقرة: ١٨٧].

ولما نزلت هذه الآية فرح المؤمنون، ففسرها أحدهم بأسـلوب طريف أضحك النبي ﷺ، فقد أحضر حبلين أسـود وأبيض، ووضعهما عند رأسـه، كي يعرف وقت

الإمساك حين يفرق بين لونيهما. فضحك ﷺ من صنيعه ومازحه، قائلًا: «**إن وسادتك لعريض، إنما هو سواد الليل وبياض النهار**»... ما أجمل أول رمضان، لولا هذا الحزن الذي خيّم على بيته ﷺ فجأة، فأبكاه.

هل هو الوداع يا رقية؟

ضربت قريش حصارًا اقتصاديًا خانقًا على دولة الإسلام، ومنعت مواطني الدولة الإسلامية من الحج والعمرة، فأرسل النبي القائد ﷺ أنصاريًا يدعى بسيسة في مهمة سرية، لكن خبرًا محزنًا يصل النبي ﷺ: رقية مريضة.. رقية التي لم تهنأ بشبابها في مكة، فهاجرت للحبشة، وماتت أمها خديجة بعيدًا عنها، ثم هاجرت للمدينة، ولم تكد تحظى بقرب والدها، حتى عاجلها مرض خطير، فهي تئن الآن على فراش الموت.. يعودها ﷺ، فيحزن لحالها، فتنظر إليه بعينين باكيتين، فيودعها، ويخرج من عندها؛ لأن دولته في خطر، وشعبه أهم من أسرته.

وصل المبعوث الأنصاري، فنزل عن راحلته، ودخل بيت نبيه وقائده ﷺ، فأخبره بأن الحركة التي رصدها.. كانت لقافلة قرشية يقودها أبوسفيان. خرج القائد ﷺ فخاطب رجاله، واستشارهم، فتكلم أبوبكر، فأعرض عنه، ثم تكلم عمر، فأعرض عنه، ففهم أسد الأنصار سعد بن عبادة المغزى، وأن هذا القائد ملتزم ببيعة العقبة، فقال: «إيانا يريد رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار، لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد، لفعلنا».

ابتهج القائد ﷺ، فقال: «**من كان ظهره حاضرًا فليركب معنا**» فطلب البعض الانتظار ليحضروا رواحلهم من علو المدينة. فقال ﷺ: «**لا، إلا من كان ظهره حاضرًا**».

عجت المدينة بالحركة، واجتمع كبار المهاجرين والأنصار، فحاصرتهم العيون البريئة.. جاء عمر بابنه عبدالله، فتأمله القائد ﷺ، فوجده طفلًا، فأعاده مكسور

الخاطر، بعد أن كان يحلم بخطوات يسيرها في دروب البطولة والشهادة، وجاء طفل آخر اسمه البراء بن عازب، فرده، فراح يقول: «استصغرت أنا وابن عمر يوم بدر»، وجاء سعد بن أبي وقاص بأخيه عمير، فتأمله ﷺ، فاستصغره، فقال: «ارجع» عندها بكى عمير. فرقّ ﷺ له، فأجازه، فغمرته السعادة.. كأني به ينظر إلى أخيه، ويبتسم وهو يمسح دموعه. كان العناق والوصايا في كل مكان.. على أحد الأبواب تعانق امرأة عظيمة اسمها عفراء ولديها، وأخرى تودع نور عينها الحارث.

انطلق النبي القائد ورجاله وشبابه، بعد أن أبقى عثمان وحفيده أسامة بن زيد عند رقية، فخيم على المدينة ليل حزين.. يضج بالدعاء لله أن يحفظ الأحبة، أما مكة فخيم عليها ليل مخيف، وفارس مرعب يشق ظلام الليل.. يصرخ، فيزلزل الجبال والبيوت.

فارس مرعب يخيف ليل مكة

ليالي رمضان بمكة تعج برائحة الخمر وغطيط السكارى، إلا بيوتًا تحترق بزفرات المؤمنين، كزينب بنت رسول الله ﷺ.. يحرقها الشوق لأبيها وأخواتها، وفي بيت غير بعيد عنها.. كانت عمة أبيها عاتكة بنت عبدالمطلب.. خائفة تحدق بفارس مخيف يصيح بأعلى مكة: «يا آل غدر، ويا آل فُجر.. اخرجوا لمصارعكم. يا آل غدر، ويا آل فُجر.. اخرجوا لمصارعكم في ليلتين أو ثلاث». ثم انحدر الفارس، فدخل المسجد على راحلته، فصرخها ثلاث مرات، فاجتمع الرجال والنساء والصبيان، وقلوبهم تطير فزعًا، ثم قفز براحلته على ظهر الكعبة، فكرر صيحته حتى سمعها كل سكان مكة، ثم قفز، فإذا هو فوق قمة جبل أبي قبيس، فصرخها ثلاثًا، ثم قبض بيديه على صخرة عظيمة في أعلى الجبل، فاقتلعها، ثم طوّح بها بكل قوته نحو أهل مكة.. تهوي ولها دوي مخيف، وما إن ارتطمت بالأرض حتى تفجرت شظايًا تتطاير في كل اتجاه، فلم تترك بيتًا في مكة إلا أصابته. نهضت عاتكة من رؤياها خائفة، وفي الصباح انطلقت لبيت أخيها العباس، فأخبرته برؤياها، وقالت له: «لقد خشيت على قومك أن ينزل بهم شر».

ارتج العباس خائفًا على مكة، وظل مهمومًا حتى أقبل الليل، فلقي صديقه الوليد بن عتبة، فسارّه بالقصة، وأمره بكتمانها.

افترق الرجلان، لكن سرًّا مثيرًا كهذا لا يستطع الوليد كتمانه، فأفشاه لأبيه، وهذا أفشاه لأخيه، وظل السر يفشو، وينتشر حتى وصل أبا جهل، الذي وجد فرصته، فبكر لمجلس قريش صباحًا، ولما أقبل العباس، وبدأ بالطواف بالكعبة.. تحمس أبو جهل، فناداه: «**يا أبا الفضل، إذا قضيت طوافك فآتِنا**».

انتهى طواف العباس، فاتجه نحوهم، فعاجله الطاغوت قائلًا: «يا أبا الفضل، ما رؤيا رأتها عاتكة؟» نظر العباس للوليد، وقال: «مارأت من شيء. قال: بلى». ثم أخرج بقايا حقده على نبي الله ﷺ، وقال: «أما رضيتم يا بني هاشم، بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء، إنا كنا وأنتم كفرسي رهان، فاستبقنا المجد، فلما تحاذت الركب قلتم: منا نبي؟ فما بقي إلا تقولوا منا نبية!».

سكت العباس، وانصرف مهمومًا، فلامت سكوته نساء بني هاشم، مر اليوم ثقيلًا على العباس، وخيّم ليل أثقل، لكن الشمس أشرقت على مكة، فشاهد أهلها آثار فارس الليل.. شاهدوا بعيرًا ينزف، وراكبه قد شق ثوبه يصيح صياحًا أصاب الطاغوت بالجنون.

الطواغيت تصاب بالجنون

استمر أبو جهل في السخرية من العباس بن عبدالمطلب أمام الناس، وكأنه ينفس عن حقده على رسول الله ﷺ، بل هدده بكتابة صحيفة تصف بني هاشم بأنهم أكذب العرب، وتعليقها على الكعبة، فقال: زعمت عاتكة أن الراكب، قال: «اخرجوا لمصارعكم في ليلتين أو ثلاث، فلو قد مضت هذه الثلاث تبين لقريش كذبكم، وكتبنا سجلًا ثم علقناه بالكعبة: أنكم أكذب بيت في العرب رجلًا وامرأة».

أحرج العباس، فصار يردد: «ما رأت عاتكة شيئًا، ولا سمعت بهذا» ثم انصرف مهمومًا، لكن همومه زادت عندما رأى نساء بني عبدالمطلب يحاصرنه، ويقلن غاضبات: «أصبرت لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم تناول النساء وأنت تسمع، فلم يكن عندك في ذلك غيرة؟».

اعترف العباس بتقصيره، وقال: «قد والله صدقتن، وما كان عندي في ذلك من غيرة، إلا أني قد أنكرت ما قال، فإن عاد لأكفينّه» ولما أشرق صبح الغد خرج وكله طاقة للتصدي لأبي جهل، الذي وصفه العباس بأنه كان حديد الوجه، حديد النظر، حديد اللسان. بقي ينتظره حتى أقبل من بعيد، فنهض العباس نحوه، وفجأ انحرف الطاغوت، وهرب يركض ويركض، فلحقه العباس ظانًّا أنه يهرب منه، وإذا به يتجه نحو صراخ مفزع فتح أبواب مكة، وأخرج رجالها ونساءها، فاحتشدوا في المسجد حول رجل اسمه ضمضم بن عمرو، وإذا هو قد شق قميصه، وقطع أنف بعيره يتقاطر دمًا.. يصرخ في المسجد صراخًا محملًا بثارات الوثنية، ويقول: «يا معشر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان وتجارتكم، قد عرض لها محمد وأصحابه، فالغوث.. الغوث» نظر الناس إلى بعضهم.. تحولوا إلى أعين وأفواه مفتوحة، وأيدٍ تصفق، وأخرى تشد الرؤوس، وذهول يعصف بالمكان.. رجل كان بالأمس طريدًا يُسحب أتباعه بالحبال، ويطاف بهم في الشوارع، وتتلقفهم القبضات والشتائم، واليوم يمرغ كرامة الوثنيين، ويرد على رسالة التهديد التي أرسلوها، بل يفك حصارهم بحصار.

اجتمع الطغاة، فقرروا الثأر إلا طاغوتًا واحدًا: أمية يذهب لبيته للبس أداة الحرب، فتذكره زوجته بكلمات النبي ﷺ، فإذا به قد انهار.. خارت قواه، وقرر البقاء، فهل سيتركه أبو جهل يهنأ بالعيش، ويذهب للثأر بدلًا عنه.

أمية منهار في بيته

دخل أمية بيته، فطلب من زوجته عدة الحرب، وبدلًا من أن تعطيه سلاحه ودرعه.. طعنته طعنة جعلته يشلّ في مكانه.. طعنته بكلمات لا تكذب، فقالت له:

«أما علمت ما قال لك أخوك اليثربي؟» أفاق أمية على ذكريات ذلك اليوم، حين أعلن أبوجهل للأنصاري سعد بن معاذ منع أي مواطن من الدولة الإسلامية من أداء العمرة، فهدده سعد بقطع تجارته، وعندما تدخل أمية أخبره سعد بأن نبي الله أخبره أنه قاتله. حينها قال أمية: (والله لا أخرج من مكة).

واليوم يعيدها، فيقول لزوجته: (لا أخرج). لكن هيهات. فأبوجهل في الطريق.. لقد سمع بنية أمية، فزحف نحو بيته كالحية، ولما دخل قال له كلامًا معسولًا، بل تنازل عن لقب (سيد الوادي) له، فقال: «يا أبا صفوان، إنك متى يراك الناس قد تخلفت، وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك!» وظل يتحايل عليه، ويتحايل، حتى لان أمية، فوافق، وقال: «أما إذ غلبتني فوالله لأشترين أجود بعيرٍ بمكة» ابتسم أبوجهل بخبث، وخرج، ثم خرج أمية يبحث في السوق عن أسرع وأقوى بعير بمكة؛ عله ينجيه عند أي مكروه.

بحث وبحث، وتحسس حتى وجده، ثم عاد لزوجته ليودعها، ويقول: (يا أم صفوان، جهزيني) نظرت إليه بعيون خائفة، وبقلب يؤمن أن محمدًا لا يكذب، فقالت: «يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ فأحب أن يطمئنها، فقال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا».

ركب أمية بعيره بصعوبة؛ نظرًا لضخامة جسمه وترهله، ورافقه ابنه علي، ثم توجها لرفقة جيش يقترب عدده من الألف.. انطلق الوثنيون.. (خرجوا بطرًا ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله). وانطلق معهم أمية خائفًا يتلفت.. يرى الموت خلف كل شجرة وصخرة.. يراه في تجاويف الأودية، وبين سراب الصحاري.

كان من شدة خوفه لا يترك منزلًا إلا عقل بعيره استعدادًا للهرب.. الجيش في عالم وأمية في عالم آخر.. عالم شاحب صنعته كلمات محمد ﷺ الذي لا يكذب.

محمد رسول الله.. ترى أين هو الآن، وهل تمكن من هدفه أم عاد للمدينة؟

جيش من المشاعر

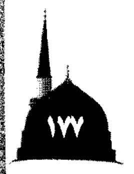
بـدأ القائـد ﷺ انطلاقه من المدينة بإصدار أمر بقطع الأجـراس عن أعناق الإبل، وكان عددها أقل من ثلث جيشه المتواضع، الذي كان طعامه التمر.. جيش ليس معهم سوى فرسين: للزبير وللمقداد، أما البقية فيتناوبون على الركوب في مشهدهم خلاب.

فقـر وحفاء وعـوز، ومع ذلك لم يسر أحـد منهم على قدميـه كل الطريق، ولن يركب أحد كل الطريق.. كانت قافلةً من القلوب والمشاعر. ابن مسعود يقول: «كل ثلاثـةٍ على بعير» أما أروع ما في ذلك الطريق، فمشـهد قائـد الأمة، وزعيمها المفدى بالأرواح والمهج.. يسير كفرد من أفراد جيشه.

لم ينفرد بحصان أو بعير، ولم يركب طوال الطريق.. كان يكرر سـنته في التماهي بشـعبه في المأكل والملبس والمسـكن، وها هو يشـاطرهم المركب أيضًا.. إنه ينزل عن البعير ليركب أبولبابة، وبعد مسـافة ينزل أبولبابة فيركب علي، ثم ينزل علي ليركب النبي، فإذا أراد ﷺ أن ينزل ناشـداه أن يبقى قائلين: «نحن نمشي عنك» فيسـن سـنة لمن أراد أن يكون ملء سـمع وبصر شـعبه وجنده قائلًا: «**ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**» فيسلمان أمرهما لله، ويفسحان لقدميه الشريفتين الطريق؛ كي تغبر في سبيل الله.

جيش من المشـاعر والإيثار والأرواح العالية، وفجأة يرتفع خلف الجيش غبار راحلة مسرعة.. اقتربت، فإذا برجل ممتلئ بالشـجاعة والنجدة، فيسر الصحابة لهذا المدد الذي لحق بهم في مكان يقال له حرة الوبرة.. شق الرجل جموع المشاة والركاب باحثًـا عـن القائد ﷺ، فلما صـار بجانبه قال: جئت لأتبعك، وأصيب معك. فسـأله النبي ﷺ: «**تؤمن بالله ورسـوله؟**» قال: لا. قال: «**فارجع، فلن أسـتعين بمشرك**»، ثم مضى حتى إذا كانوا بمكان يقال له الشجرة لحقه، فناشده مرة أخرى، فردّه ﷺ.

عـاد الرجل مذهولًا من هذا القائـد الذي لا يعرف الانتهازية.. على الرغم من أن ثلثي جيشـه من المشاة، ومع ذلك يرفض استغلاله واستغلال دابته.. عاد الرجل



بـلا قلـب.. بحث عن قلبه، فوجده رديف رسـول الله ﷺ، فلحـق بقلبه في البيداء.. هنـاك أعـاد ﷺ السـؤال نفسـه: «**تؤمن بالله ورسـوله؟**» فقـال الرجل: نعـم. عندها قال ﷺ: «**فانطلق**».

سـار الرجل وسط احتفاء إخوته الجدد، لكن أخبار مفاجئة كدرت صفو ذلك الاحتفاء.

هل انتهت المهمة؟

سـار جيش الإسـلام، ثم توقف للاسـتراحة، فشرع النبي ﷺ في صلاة نافلة.. مسح أصحابه المنطقة، فرأوا عبدًا لبني الحجاج من قريش، فعادوا به وهم يسألونه: أيـن أبو سـفيان؟ فيجيـب: «والله ما لي بـشيء من أمـره علم، ولكن هـذه قريش قد جـاءت، فيهم أبو جهل وعتبة وشـيبة ابنا ربيعة وأمية بـن خلف». فإذا قال لهم ذلك ضربوه، فيقول: «دعوني. دعوني أخبركم» فإذا تركوه كرر إجابته، فلما أتم ﷺ صلاته لام صحابتـه، وقال: «والذي نفسي بيده إنكم لتضربونـه إذا صدقكم، وتدعونه إذا كذبكم، هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان».

تبخـرت القافلـة، وحل جيـش الطواغيـت مكانهـا، فتكدر بعـض الصحابة، خاصـة بعـد أن طـاردوا رجلين هـرب أحدهما، وقبضـوا على الآخر، فـإذا هو عبد للطاغـوت عقبة بن أبي معيط، الذي وضع السلى على ظهـر النبي ﷺ وحاول خنقه عند الكعبة. سأله القائد ﷺ عن عددهم، فقال: «هم والله كثير عددهم شديد بأسهم» حـاول ﷺ جاهـدًا أن يخبره، فأبى. فسـأله عن الإبل سـؤالًا ذكيًّا: «**كـم ينحرون من الجزور؟**» فقال: عشرًا كل يوم فقال ﷺ: «**القوم ألف، كل جزور لمئة**».

هنـا كـره بعض الصحابـة مواجهة ألف رجـل يأكلون اللحـم والخبز، ومعهم مـن الإبل ما يحملهـم، ويطعمهم حتى عودتهـم لمكة.. مقارنة بجيـش أحرق التمر أجوافهم، وأدمت الصخور أرجلهم. لم تكن سنته ﷺ الانفراد بالرأي، وفرضه على

شعبه دون مشورتهم في الأحوال التي لم ينزل فيها وحي، كهذا الحال؛ لذا قام في وادٍ يقال له ذفران، فاستشارهم حول التصدي للجيش؟ فقام أبوبكر، فقال وأحسن، ثم قام عمر، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: «يا رسول الله، امضِ إلى حيث أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى برك الغماد، وهي بالحبشة، لجالدنا معك، نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك» ثم تكلم أسد الأوس سعد بن معاذ، فقال كلامًا كله وفاء وعزم وتضحية.. كان ﷺ ينصت لأصحابه، فإذا وجهه قد أشرق فرحًا وسرورًا برجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وإذا بالوحي ينزل يبشرهم بأحد نصرين.

ذكريات طالوت في منتصف رمضان

زحف ألف مقاتل وثني.. مدجج بالسلاح نحو المدينة، فعلم جيش النبي ﷺ المتواضع، فهب لصدهم.. جيش بلغ عدده الثلاث مئة وبضعة عشر. عدد قليل، لكنه يثير التفاؤل والحماس، فهو العدد نفسه الذي صمد خلف الملك طالوت، بتوجيه أحد الأنبياء حين سار بجيش يهودي كثير، فمر بنهر، وأخبرهم بأن من سيشرب منه أكثر من ملء الكف فلن يكون من جيشه.

كان اختبارًا من الله لليهود الذين طلبوا القتال، فلما أمروا به نكصوا، ثم طلبوا أن يولي عليهم ملكًا، فعين عليهم طالوت، فاحتجوا، ولذا شربوا من النهر عنادًا كعادتهم، ولم يمتثل سوى ثلاث مئة وبضعة عشر مؤمنًا. نادى طالوت تلك القلة المؤمنة، فانطلق بهم، فواجهوا جيش عدوهم جالوت، وانتصروا. فهل سينجح الصحابة في أول اختبار عسكري؟

الصحابة بشر، وهم معذورون إن انسحبوا، فما خرجوا لقتال، ولا استعدوا له.. خرجوا لفك الحصار عن دولتهم، علَّ قريشًا ترعوي عن غيها، وتترك دولة

الإسلام وشأنها؛ لذا كرهت قلة منهم المواجهة، فأنزل الله آيات تكشف هذا الكره المبرر، فقال سبحانه: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾[الأنفال: ٥].

لكن الله ينزل في بقية الآيات وعودًا وبشريات، فيقول: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الأنفال: ٧].

بعدها قال النبي القائد ﷺ لرجاله: **«سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين»** يقصد القافلة أو الجيش ذا الشوكة. **«والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدًا»** طابت أنفس الصحابة بهذا الوعد المحقق، وجاءتهم الأنباء أن الوثنيين يقتربون من منطقة يقال لها بدر، فسبقوهم إليها، وعسكروا فيها في السادس عشر من رمضان.. قبل وصول المشركين، وتم بناء قبة للنبي القائد ﷺ كغرفة قيادة، وتم تقسيم الجيش، وتحديد قادته ورماته ومراقبيه، وفي أثناء ذلك يقبل من بعيد فارسان أحدهما شيخ اسمه حسيل يلقب بـ (اليمان) وبرفقته ابنه الشاب حذيفة.

توقف الفارسان، وسألا عن القائد ﷺ؟، وقابلاه، فأعلنا إسلامهما، ثم طلبا الانضمام للجيش، لكن النبي ﷺ رفض طلبهما، وأمرهما بمواصلة السير للمدينة.

ترى ما الذي فعلاه حتى أمرهما بالانصراف؟ الإجابة عظيمة.. عظيمة بحجم محمد ودين محمد ﷺ.

هل تعرف الدنيا قائدًا عسكريًّا مثل محمد؟

في المعارك.. حين تُحز الرؤوس، وتتطاير الأرجل والأيدي، وتتفجر شلالات الدماء.. يباح كل شيء إلا في دين محمد ﷺ، فالعسكرية الإسلامية فروسية راقية، وأخلاق تطاول السحاب.. في دين محمد ﷺ تقبض القيم على السيوف.. يأتي رجل

مشرك للقتال معه فيرده؛ لأنه قد جاء من أجل المال، ومن يقاتل للمال أو المنصب ينتهك.. يدوس القيم.. يغتصب.. يحرق، ويبيد الحرث والنسل.

ثم يأتي اليمان شيخ من بني عبس.. برفقة ابنه حذيفة.. يسلمان، ويطلبان الانضمام لجيش بأمس الحاجة لهما، فيرفض ﷺ انضمامهما مراعاة لعدوته قريش، وحفظًا لحقها! ما هذا؟ وما الذي يجري؟

لقد قبضت قريش على حذيفة ووالده قبل قليل، وها هو حذيفة يقول لرسول الله: «أخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرف إلى المدينة، ولا نقاتل معك» هنا نطق ﷺ وحيًا.. نطق كلمة ﷺ لم تنجزها الحضارات.. كل الحضارات إلا على الورق.

قال لصاحبيه الجديدين: «**انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم**» فأكملا مسيرهما للمدينة حزينين، أما محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، فنقش على أرض بدر أرقى القيم العسكرية، وأكثرها تحضرًا.. لا غدر.. لا خيانة، بل الفروسية في أرقى معانيها.. تمليها التربية القرآنية، وتكتبها دولة النظام والمواثيق.

خيم الليل على أرض بدر، فخيم الخمر على جيش الأوثان، وأمضوا ليلهم في الشرب علها تنسيهم ساعات الانتظار، أما المؤمنون فصلوا المغرب والعشاء، ثم استسلموا للنوم بعد يوم حافل بالتجهيز والإعداد، وعندما انتصف الليل كان الكل نائمًا من التعب، إلا قائد الأمة ونبيها.. كانت هموم أمته لا تعرف الرقاد بين أضلاعه.. تنحدر دموعه.. تصعد دعواته للجبار.. يستغيثه نصرًا، وفجأة تدب الحركة حوله في المعسكر كله.. الكل يريد الاحتماء.

هل باغتتهم قريش؟ لا. فالخمر أثقل رؤوس طواغيتها.. إنه المطر.. يتساقط قطرات قطرات، ثم زخات زخات، فينهض الصحابة يبحثون عن وقاء حتى توقف، ثم يلوح الفجر، فيصدح بلال بالأذان، ثم تشرق الشمس، فإذا أجواء بدر منعشة، وأرضها ملبدة، وإذا الجيشان يستعدان، لكن نبي الله يعود لقبته.. يناجي ربه ويبكي، ثم يخرج متهللًا.. يمشي بين جنوده، ويمد يده نحو مكان بالأرض ويشير، ثم يمشي ويمد يده نحو مكان آخر، ويشير.

السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة

أمس وعلى ثرى بدر كان ﷺ يدعو ربه: «**اللهم، إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم، إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا**» يستعطف رحمته بأحبته: «**اللهم، إنهم عراة فاكسُهم، اللهم، إنهم جياع فأشبعهم**»، فيهتز قلب وزيره الأول أبي بكر، ويمسك بيده، ويقول: «حسبك، حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك»، ثم دخل خيمته، ثم خرج، فنزلت البشرى آيات تقول: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[القمر: ٤٥-٤٦]، ثم بدأ يمشي، ويضع يده على الأرض، وكأنه يفجر مواضع الحماس والفداء، وعمر بن الخطاب يتابعه، ويقول: «إن رسول الله ليخبرنا عن مصارع القوم: هذا مصرع فلان إن شاء غدًا، ووضع يده على الأرض. وهذا مصرع فلان، ووضع يده على الأرض». ولما جن الليل أحياه بالدعاء والصلاة حتى أصبح، فصلى بأصحابه، ثم أخذته إغفاءة قصيرة، فأراه الله الوثنيين قلة: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾[الأنفال: ٤٣].

ثم أشرق صبح السابع عشر من رمضان منعشًا بعد ليلة مطيرة، فقال ﷺ: (إن جمع قريش عند هذه الضلع الحمراء من الجبل)، وفجأة يقبل محارب قرشي اسمه عمير بن وهب نحو المسلمين.. يتفرس في وجوههم وهممهم، فيأمر القائد ﷺ بالانضباط، ويقول: «**لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**».

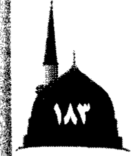
عاد عمير للوثنيين، فأخبرهم بأن عدد المسلمين ثلاث مئة.. يزيدون قليلًا، أو ينقصون، ثم انطلق عمير مرة أخرى يمسح المنطقة، حتى توغل في أقصى الوادي بحثًا عن مدد للمسلمين، فلم يجد مددًا، لكنه شعر برعب، فعاد يحمل الموت، ويبشر بالمقابر قائلًا: «مارأيت شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا: نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يُقتَل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك. فرُوا رأيكم».

كلمات هزت شيخًا على جمل أحمر، فبدأ بحقن دماء قومه.. شيخ يثير إعجاب النبي ﷺ، وتلاحقه نظرات شاب مسلم طالما حمله هذا الشيخ، ولاعبه وهو طفل، أما اليوم فالشاب في العدوة الدنيا، ووالده هناك.. يطوف على جمله في العدوة القصوى من الوادي.. تأمله ﷺ، فتمنى لو أطاعته قريش، فقال: «إن يكن عند أحد من القوم خير، فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».

صاحب الجمل الأحمر الحكيم

على جمل أحمر يطوف ذلك الشيخ، الذي عرض على النبي ﷺ ذات يوم بمكة المال والسلطة.. مقابل ترك الدعوة للتوحيد، فلما قرأ ﷺ عليه القرآن أخذته آياته، فنهض نحو قومه، فقال: «سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به».

وها هو الشيخ اليوم يكرر مناشدته.. كان نبي الله ﷺ يراقبه من بعيد، فلمح عمه حمزة قريبًا جدًّا من معسكر الوثنيين، فنادى عليًّا، وقال: **«يا علي، نادِ لي حمزة»** انطلق علي فناداه، فأقبل فلما جاء سأله ﷺ: **«من صاحب الجمل الأحمر، وماذا يقول لهم؟»** فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول: «يا قوم، إني أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي، وقولوا: جبن عتبة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم» كلمات عتبة أسعدت ابنه المؤمن أبو حذيفة.. كأني به يرفع رأسه.. يتطاول عله يحظى بنظرة أخيرة لهذا الشيخ، الذي طالما لاعبه وهو طفل، وقبله وطاف به حول الكعبة، فهل من خاتمة حسنة لهذا الأب الذي أكلته الجاهلية. بدا من إنصات الوثنيين لعتبة أنهم قد اقتنعوا.. خاصة أمية الذي يشعر بأنه ينقذه من الموت، لكن إن اقتنعت كل قريش.. فهل سيقتنع أبو جهل الذي استنفر قومه ليشفي حقده.. أبو جهل الآن أكثر حماسًا للقتال بعدما رأى قلة المؤمنين وضعف تسليحهم، لدرجة أنه شبههم ببعير مطبوخ جاهز للالتهام.



تخوف عتبة من عناد أبي جهل، فأرسل له رجلًا يدعى حكيم بن حزام.. مشى حكيم بين أخبية الجيش، حتى وجد الطاغوت جالسًا يطلي درعه بزيت، ولما وقف أمامه أخبره باقتراح عتبة، وأنه قد تكفل بدفع دية عمرو بن الحضرمي، الذي قتله التميمي في رجب الماضي، فنهض أبو جهل غاضبًا ليحطم هيبة عتبة.. صاح بعتبة، واتهمه بالجبن، وأنه لا يخشى على قريش، وإنما يخشى على ابنه من سيوف قريش، وقال: «إنما محمد وأصحابه كأكلة جزور»، فثار عتبة، وبادله الشتائم، وقال: «ستعلم أينا الجبان»، ووصفه بالذي لا يستطيع التحكم ببطنه عند الخوف.

ارتفعت الأصوات واللغط، فهل سيحدث انشقاق بين الوثنيين؟

معركة بدر

كانت أرض بدر تتهيأ لمعركة شرسة.. بين جيش قرشي قوي، وجيش ذكي يقوده النبي ﷺ منظم ومنضبط.. تغشاه السكينة وذكر الله، والشوق للقائه. وزع القائد ﷺ في خيمة القيادة جيشه بطريقة تمكنهم من الخروج منها بأقل الخسائر.

جعل له لواءً أبيض، وراية سوداء مربعة أكبر من اللواء، وأبقى الشيوخ تحتها، وميز المقاتلين بالصوف الأبيض، ليعرفوا بعضهم عند الالتحام، ثم صفّهم كبنيان مرصوص، ولما رأى أحدهم متقدمًا هتف به: «معي معي»، ونظرًا لكثرة الوثنيين واعتمادهم على أسلوب الكر والفر.. أعطى ﷺ تعليماته لرماة الأسهم بطريقة صدهم عند هجومهم الشامل، فقال: «ارموهم بالنبل» لكن نبههم إلى عدم الرمي دون حاجة، فقال: «واستبقوا نبلكم» بينما دب الشجار بين جيش الوثنيين.. شجار يثيره طاغوت طائش لا يحسب حسابًا لحكيم أو عاقل.

إنه نسخة من طواغيت الأرض.. أنانيون.. لا يأبهون بغير شهواتهم وأحقادهم، وحقد أبي جهل على كل ما هو إسلامي جعله يلغي رأي غيره، ويهين عقلاء قومه، ويسخر منهم ومن نصائحهم.. خاصة عندما علم بتكفل عتبة بدية ابن الحضرمي

لإنهاء الأمر، فرأى أن دوافع القتال تذبل، ونار الحماس تخبو شيئًا فشيئًا، فخشي أن تثنيهم حكمة عتبة، وتعود بهم لمكة، فأراد سكب ما تبقى لديه من زيت الفتنة، ليؤجج نار الحرب، فمشى كالشيطان نحو عامر الحضرمي.. يحرضه قائلًا: «ها قد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك».

غلا الثأر برأس عامر، فكشف رأسه، وصرخ باسم أخيه: (واعمراه واعمراه)، فهاج جيش الوثنيين، بينما كان جيش المؤمنين يغشاه نعاس مفاجئ أمنًا من الله.. نعاس طار حالما سمعوا صراخ الجاهلية، فامتلؤوا حماسًا، لكن عبدالرحمن بن عوف كان يشعر بعدم الراحة في الصف؛ لوجود شابين أنصاريين صغيرين عن يمينه وشماله.. ينظران إليه، وينظران إلى بعضهما.

استغل أحدهما انشغال صاحبه، فدنا من ابن عوف، وهمس بأذنه بشيء أذهله وغيره، وبدلًا من أن يتمنى ابن عوف مكانًا آخر.. صار من تأثره يبحث للفتى الصغير عن الهم الذي أخرجه من بيته، وجعل أمه عفراء تزفه للحرب بدموعها. همس الفتى من أعماق قلبه وإيمانه قائلًا: «يا عم أتعرف أبا جهل».

يا عم، أتعرف أبا جهل؟

تعجب عبدالرحمن بن عوف من بحث الفتى الصغير عن أبي جهل! فأجابه: «نعم، وما حاجتك إليه؟» فهمس الشاب بكلمات كالموت، وقال: «أُخبرت بأنه يسب رسول الله، وعاهدت الله إن رأيته أن أقتله، أو أموت دونه» «والذي نفسي بيده لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا».

تعجب ابن عوف لهذا الحب والفداء، والغيرة التي يحملها فتى صغير لنبيه ﷺ، لكن غمزة أخرى من الفتى الآخر زادت تعجبه، عندما همس أيضًا بالسؤال نفسه. شعر ابن عوف بفخر لوجوده بين هذين الشبلين، وقال: «فما سرني أنني بين رجلين مكانهما» وتغير حاله فصار يبحث لهما عن شاتم الرسول ﷺ ويتراءاه

حتى رصده، ولما رصده أفسح لهما طرقات البطولة، وأشار بيده نحو أبي جهل، وقال: «هذا صاحبكما الذي سألتماني» ركز الفتيان على الطاغوت، وسلا سيفيهما في انتظار لحظة إغمادهما في ذلك الثعبان الأسود، الذي مازال يستفز عتبة، ويفرغ سمه فيه، أملًا في توظيفه باتجاه الحرب.

صرخ عتبة في وجه أبي جهل متحديًا ومتأسفًا على قومه، وقال: «ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قومًا يضربونكم ضربًا، أما ترون؟ كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجوههم السيوف» ثم صرخ عتبة طالبًا خوذة لرأسه تسمى البيضة، فلم يجدوا ما يناسب رأسه الكبير، فلف عليه ثوبًا، ثم صاح بأخيه وابنه: «يا شيبة بن ربيعة، ويا وليد بن عتبة»، فأقبلا يمشيان عن يمينه وشماله، فخرج بهما نحو جيش المسلمين، وصرخ: من يبارز؟ فإذا بالفتى ابن عفراء ينطلق من جانب بن عوف، واسمه معاذ بن الحارث، فلحق به أخوه عوف، وشاب اسمه عبدالله بن رواحة.

اقتربوا، فتفرس عتبة في وجوههم، ثم سألهم: «من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقال: ما لنا بكم حاجة»، فرجعوا، ثم صرخ عتبة: «يا محمد، أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا» فاستشرف المهاجرون لسحق الطواغيت الثلاثة، لكن عتبة كشف بكلمات حجم الغل على نبي الله. فطلب أن يبارزهم رجال من بيت عبدالمطلب بالتحديد، فقال: «لا نريد هؤلاء، ولكن نبارز من بني عمنا من بني عبدالمطلب» نظر القائد ﷺ، ثم انتقى ثلاثة أسود من بني عبد المطلب، وهتف بهم: **«قم يا حمزة، وقم يا علي، وقم يا عبيدة»**.

قم يا [illegible]

هتف القائد ﷺ: **«قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة»** اقترب المتبارزون من بعضهم: ثلاثة رسالتهم التوحيد والعلم والعدل، وثلاثة رسالتهم عبادة الحصى

والقمع، ووأد البنات.. حدق بعضهم في بعض، وتحفزوا، وتسارعت دقات قلوبهم، فإذا بعتبة يرتطم بالأرض كتلة حمراء.. تتلبط تحت قدمي حمزة، وإذا بشيبة يهوي جثة هامدة تحت علي، وإذا بقلب أمية يكاد يتوقف، وهو يرى الشجعان لم يصمدوا بضع ثوانٍ.

أما أبو جهل، فأدرك فداحة جرمه، فحاول ترقيع ما مزقه طيشه، فتظاهر بالنصح، وصاح بدعاء محاولًا رفع معنويات الوثنيين المنهارة، وقال: «اللهم، أينا كان أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة» كان أمية ينظر إليه، ولسان حاله يقول: لعنة الله عليك من أفاك. لكن ماذا عن المتبارزين الباقيين عبيدة بن الحارث ابن عبدالمطلب والوليد بن عتبة؟

لقد جرح كل منهما عدوه، فمال حمزة وعلي عليهما بسيفين يقطران موتًا، فأجهزا على الوليد بن عتبة، وأخذا عبيدة الجريح، ليلتحقوا بالجيش الذي ارتجت الأرض بتكبيره. فأجج ﷺ ذلك التكبير والحماس هاتفًا: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات الأرض**» سمع أحد الصحابة ذكر الجنة، فطار قلبه، واتسعت عيناه وهو يتلقى دعوة مفتوحة إلى احتفالاتها، فهتف بنبيه: «يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم. قال: بخٍ بخٍ».

استغرب ﷺ تلك العبارة، فسأله عن سببها؟، فقال عاشق الجنة: «لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها» عندها حجز ﷺ للرجل في الجنة قصورًا وعوالم قائلًا: «**فإنك من أهلها**»، ذهل الرجل لا يدري ما يفعل، فقد أصبح من ملاك الجنة وفتيانها الفاتنين.. تحير من شدة الفرح.. لا يدري ما يفعل، وكأنه يسأل نفسه ما الذي أفعله هنا، فأنا من أهل الجنة؟ أدخل يده في جعبته، وكأنه يبحث عن مفاتيح قصره، فأخرج منها تمرًا، وصار يأكل دون شعور.. ترى هل في الجنة تمر؟ ثم قتله الشوق وهو يرى نبيه ينحني نحو الأرض، ويقبض قبضة من تراب، ثم يرميه في اتجاه قريش، ويقول: «شاهت الوجوه» ثم يصيح: «احملوا».

تأمل الرجل تمراته، فخاف أن يتأخر عن رحلته، فيسبقه أصحابه لأبواب الجنة، فرماها، وانطلق وكأنه يرى رطب الجنة بألوان ومذاقات لا حصر لها.

وهوى الطاغية

عمير بن الحمام.. هو ذلك الأنصاري الذي يستعد لدخول الجنة، وهو يمسك بتمراته، فيزن بها الدنيا، فإذا التمرات أثقل وأطول عمرًا، حين سمع نبيه يقول: (احملوا) تأمل تمراته، فقال: «لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة»، فرمى بما كان معه من التمر، ثم انطلق يسابق أصحابه نحو رقاب الوثنيين.. يتوغل في غابة السيوف حتى خر شهيدًا، أما ابن عوف ففوجئ بالغلامين معاذ بن الجموح ومعاذ بن عفراء يتركانه نحو أبي جهل، فيقول: إنهما شدا عليه مثل الصقرين، لكن صرخة وثنية تدوي فجأة: (أبو الحكم لا يخلص إليه)، فأحيط الطاغوت بسياج من الوثنيين كالشجر الملتف، لكن معاذ بن عفراء عازم على اجتثاث هذا الشجر المتعفن، فيقول: «لما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه».

ضرب بسيفه ففك الحصار، فأصبح والطاغوت وجهًا لوجه، ثم قال: «فضربته ضربةً أطنت قدمه بنصف ساقه» رأى عكرمة بن أبي جهل ساق والده تدوسها الجمال والرجال، فضرب بسيفه يد معاذ من مفصل الكتف، فتدلت لا يمسكها سوى بقايا العضلات. في هذه اللحظة هبط منافسه معاذ بن الجموح.. هبط كالموت على بقايا أبي جهل، فضربه ضربة حولته كتلة لحم.. تدوسها الأقدام والأخفاف والحوافر، ولا يتحرك فيها سوى عينين زائغتين ذليلتين.. لا تجدان من يأبه بهما.

لم يحمله أحد، ولم يلتفت إليه أحد، حتى سيفه النادر الذي لم يضرب به أحدًا.. كان بجانبه مضمخًا بدمائه. انطلق الفتيان للفتك ببقية الطواغيت، لكن يد بن عفراء تعيقه، فهي تتدلى في كل اتجاه، فانتحى عن الوغى، ولما صار وحده انحنى، حتى أصبحت كفه على الأرض، فضغط بقدمه عليها، ورفع ظهره بقوة

حتى قطعها، ليجد من يسعفه، ويوقف نزيفه، وفي مكان آخر.. كان حمزة كالأسد.. يبيد الطواغيت واحدًا تلو الآخر، وكان من بين ضحاياه طاغوت يقال له طعيمة بن عدي.. أخو الشهم مطعم بن عدي، وفي مكان ثالث يسقط طاغوت من على بعيره الثمين، فيتموج شحمه وهو يرتطم بالأرض، وحوله ابنه علي يرتجف خائفًا مثله. يسقط أمية بن خلف، فيوقن أنه الموت، وفجأة يرى الحياة تسير بين الجثث.. يرى صديقه عبدالرحمن بن عوف، فيناشده الاستسلام، فيستجيب له ليتنفس أمية مؤقتًا.

دور الملائكة على أرض بدر

على الرغم من تخطيط القائد ﷺ ودهائه، ونظامه الدقيق.. ظل متعلقًا بنصر ربه، فما النصر إلا من عند الله.. استقبل القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم دعا ودعا بإلحاح: «**اللهم، أنجز لي ما وعدتني، اللهم، إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا**»، فما زال يستغيث بربه، ويدعوه حتى سقط رداؤه.

اقترب أبوبكر، وانحنى نحو الأرض، فرفع رداء نبيه، وغطى به كتفيه الشريفين، والتزمه بروحه وقلبه، وهو يقول: «كفاك يا نبي الله، بأبي وأمي مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك»، فأنزل الجبار سبحانه على نبيه آيات رفعت معنويات المؤمنين: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: ٩]، بشر ﷺ محاربيه، ثم حرضهم هاتفًا بطاقاتهم: (من صنع كذا وكذا، فله كذا وكذا، فسارع في ذلك شبان الرجال، وبقي الشيوخ تحت الرايات).

كانت معنويات مرتفعة كالسماء، والسماء تمطر نصرًا.. ملائكتها تستجيب لربها الذي يخاطب نبيه مبشرًا: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[الأنفال: ١٢]، ثم يأمره: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢].

لم يكـن تدخل الملائكة حسـمًا للمعركة، فملك واحد كفيل بسـحق الوثنيين.. كان تثبيتًا للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا وثقة بعقيدتهم ومنهجهم، وهي معجزات تأتي مع الأنبيـاء، وترحـل معهم، وعلى من يأتي بعدهم أن يبـذل مثلما بذل محمد ﷺ ورجاله الذين فعلوا كل الأسـباب المتاحة، ولم يتكلوا عليهـا، بل جعلوها جزءًا من توكلهم عـلى الله، وعندمـا نزلـت الآيات: خفق رسـول الله خفقـة في العريـش. وبعد تلك الإغفاءة انتبه ﷺ، فنادى أكثر الناس ملازمة له.

نـادى أبا بكـر الصديق، وبشره: «**أبشر يـا أبا بكر، هذا جبريـل معتجر بعمامته، آخذ بعنان فرسـه يقـوده، على ثناياه النقع، أتاك نـصر الله وعدته**» يبشره وكأن جبريل يرافق الصديق، فقد قال علي: قيل لأبي بكر وعلي يوم بدر: «مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل».

معنويات المؤمنين تزيد اشتعال المعركة، فيبدأ الوثنيون بالهرب أو الاستسلام.. يلحـق أحـد الأنصار بوثنـي فيهرب، وفجـأة يسـمع أصواتًا فوقه.. صوت سـوط وصياح. ينظر فلا يرى شيئًا، فيكمل مطاردته، فإذا بالوثني يتدحرج أمامه.

العباس يبحث عن الفرس الأبلق

كان أحـد الأنصار يطارد وثنيًّا، وفجأة سـمع أصوات سـياط، وصراخ يقول: «أقـدم حيزوم» نظر الرجل في السـماء فلم يرَ شـيئًا، فأكمل مطاردتـه، فإذا بعجاجة غبـار أمامه. شـق تلك العجاجة، فإذا بالوثني يتدحـرج صريعًا.. توقف الأنصاري مذهولًا أمام جثته، فإذا أنفه قد خطم، ووجهه قد شق بضربة كضربة السوط.

لم يجـد تفسـيرًا لمـا حـدث، فانطلق نحـو نبيـه وقائـده ﷺ.. يسـتفسره؟ فقال: «صدقـت، ذلك من مدد السـماء الثالثة»، وفي مكان آخر.. يـسرع فارس قوي البنية بـارع الجمال على فرس أبلق خلـف العباس بن عبدالمطلب حتـى أوقفه، وأنزله عن

راحلتـه وهمّ بـأسره دون مقاومـة، فقد خرج ورجـال عائلته مكرهًـا إلا أبا لهب..
أبو لهب.. أول المكذبين وأشرس الوثنيين على ابن أخيه ﷺ أين هو؟

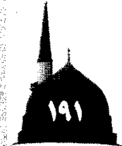
إنه ليس في المعركة.. ترى هل مات في الطريق؟ أم أصابه مرض، فمات في مكة؟ الله أعلم، لا نملك خبرًا صحيحًا عن كيفية موته، لكنه امّحى.. تلاشى ولم يبقَ سوى عـاره يطارده إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١، ٢].

ها هو أخوه الطيب العباس.. الذي يخفي إسـلامه بين يدي الفارس الوسـيم، وفجـأة يقبل أنصاري قصير القامة، فيقوم بتكتيفه دون جهد يذكر، ثم يسـوقه نحو نبيه ﷺ.. في مشـهد غريب، فالأنصاري مشغول بأسيره، بينما العباس مشغول بشيء آخر.. يتلفـت.. ينظر.. يتأمـل الوجوه.. يتفـرس في الرواحـل.. يبحث عن فرس أبلق وفارس وسـيم قوي، فإذا طرفه يرتد، فيشـعر بالغرابة، بل بالمهانة؛ لأن حجمه الضخم لا يتناسـب وحجم الأنصاري الضئيل.. الذي يشـعر بالغبطة لهذه العملية السـهلة، ويقول: «أنا أسرته يا رسـول الله» لكن العباس يحلف: «يا رسول الله، والله إن هـذا ما أسرني، لقدأسرني رجل أجلح، من أحسـن الناس وجهًا، على فرس أبلق ما أراه في القوم»! فقال الأنصاري: «أنا أسرته يا رسول الله»، فقال ﷺ: «**اسكت فقد أيـدك الله تعالى بملك كريـم**» كان فعل الملائكة نادرًا وقليـلًا لتثبيت المؤمنين في أول معركة يخوضونها، بينما كانت شجاعة الصحابة في حالة تنافس، وها هي قريش تكر كرتها الأخيرة، فإذا بأشـجع رجل في الجيش الإسلامي يتصدى، وخلفه الصحابة.. ترى من هو الأشجع على أرض بدر؟

ها هو علي يحارب خلفه، ويكشف هويته.

أشجع رجل على أرض بدر

على أرض بدر حلق الحارث في سـماء الشـهادة.. على الرغم من أنه كان ضمن مراقبي الجيش، ورفرف معه الفتى عمير بن أبي وقاص، الذي رده النبي فبكى، فلما



بكى أذن له، ليتأجج حماس أخيه سعد، وكأنه يقاتل عنه، فيدهش أحد الصحابة، ويقول: «كان سعد يقاتل مع رسول الله يوم بدر: قتال الفارس والراجل»، ويسمع المسلمون صياحًا وتحد!

وثني قد غطى جسده بالحديد، وكأنه من قادة الإغريق أو الرومان.. لا يظهر منه سوى عينيه يصرخ: (أنا أبو ذات الكرش) فيتصدى لقلعة الحديد هذه ابن عمة رسول الله.. الشاب الزبير بن العوام برمحه، ويقول: «لقيت يوم بدر عبيد بن سعيد ابن العاص، وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة، فطعنته في عينه، فمات» وفي مكان آخر يجتث أبوبكر الطواغيت، ويطاردهم عمر، ويرعبهم حمزة.. يرعبهم، ويفتك بهم ابن عبادة وابن معاذ وبلال وعمار وغيرهم. كتيبة المهاجرين والأنصار الرائعة هذه.. تتعرض لهجمة انتحارية يائسة، فإذا بالكتيبة كلها.. بكل شجعانها.. تتراجع خلف أشجع رجل على أرض بدر. ها هو علي بن أبي طالب.. يحدثنا عن تلك اللحظات الشديدة، فيقول: «لقد رأيتنا يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، اتقينا المشركين برسول الله، وكان أشد الناس بأسًا» وعلى صخرة بأسه ﷺ تكسرت هجمة المشركين، فتفتتوا مجددًا، وهربوا مجددًا، واستسلم العشرات. ليعود ﷺ إلى عريش قيادته.. ليدير ما تبقى من المعركة، فيتسابق نحوه الفتيان اللذان سحقا شاتم النبي معاذ بن عفراء وصديقه معاذ بن الجموح.. ها هما أمامه ﷺ يخبرانه.. يشفيان جراح مكة، وينتقمان لعمار وأمه سمية وأبيه. ابتهج ﷺ وسألهما: «أيكما قتله؟ قال معاذ: أنا قتلته، وقال معاذ الآخر: أنا قتلته. فقال: **هل مسحتما سيفيكما؟**» قالا: لا. عندها سل كل فتى سيفه، ومده لرسول الله، فنظر ﷺ في السيفين، وتأمل دم الطاغوت، ثم قال مبشرًا: «**كلاكما قتله**» ولكن على الرغم من ذلك، كان النبي القائد يريد التأكد من نهاية الطاغوت؛ لذا أمر أن يبحثوا عنه بين القتلى. فقال لأصحابه: «**من يعلم ما فعل أبوجهل، من ينظر ما صنع أبوجهل؟**» فأقبل رجل قصير.. نحيل الجسم.. دقيق الساقين كان يرعى الغنم بمكة، فقال: أنا يا نبي الله.

نهاية الطاغوت مذلة

ها هو ابن مسـعود.. تتهادى سـاقاه النحيلتان بين أكثر من ستين جثة من جثث الطواغيـت.. يقلب بعضها.. يحـاول قراءتها على الرغم من الدمـاء والغبار، والعار الذي يكسـوها. وفجأة يتوقف أمام جثة بلا سـاق.. يتأمل عينين شريرتين تضعفان شـيئًا فشـيئًا.. إنه هو. مد ابن مسـعود يده، فقبض على لحية الطاغوت، وقال: «أنت أبو جهل؟» نظر الطاغوت، فإذا راعي الغنم الفقير، الذي طالما ضربه وشتمه، ومنعه مـن الطـواف ببيت ربه، فتحول إلى شـاة بين يديـه، لكنه تظاهر باللامبـالاة، كعادة أعـداء الإسـلام عند الهزائم.. تظاهـر، وهو الذي كان يصاب بالجنـون إذا رأى من يصلي، وهو الذي أمضى خمسـة عشر عامًا في حرب سـافلة على الدعاة ونبيهم، وعلى كل ما هو إسلامي، فقال: «وهل فوق رجل قتله قومه؟».

أدرك ابـن مسـعود أن هـذا الثعبـان متورم بسـم لا مثيل له، فجرعـه المزيد من الذل، فقال: «أي عدو الله، قد أخزاك الله»، ثم نهض فسـل سـيفه القصير غير الحاد، فضربـه فاهتـز، لكنـه لم يتأثـر، فالتفت فـرأى يد الطاغـوت قد تجمدت على سـيف حاد، فضرب يده، فسـقط السـيف منهـا، فأخذه، ثم نزع خوذته التي تسـمى المغفر عن رأسـه، ورفع سـيفه أمام عينيه، وهوى بكل قوته على عنقه. ثم عاد لنبيه فبشره، فاسـتحلفه ﷺ قائـلًا: «**الله الـذي لا إلـه إلا هـو**»، فقـال: «الله الـذي لا إلـه إلا هو» كان ﷺ في غايـة الـسرور حتـى كررهـا ثلاث مـرات، لكن سـقوط طاغـوت مثله يسـتدعي التثبت، لا بث الإشـاعات. فقال: «**انطلق، فاسـتثبت**» يقول ابن مسعود: «فانطلقت أسـعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسـعى مثل الطائر، أضحك فأخبرته»، فقال ﷺ: «**فانطلق، فأرِني**» أخذ ابن مسعود قائده مسرورًا حتى أوقفه على جثته.

وقـف ﷺ على أيقونة الحقـد والإقصاء والظلم، فقال: «**هذا فرعون هذه الأمة**» رأسـه هنـا، ورجله هنـاك، وباقيه في مكان آخـر.. أبو جهل الذي وصف المسـلمين بأنهم مجرد وجبة طعام.. مجرد لقمة.. يسقط على أرض بدر دون أن يمس أحدًا منهم

بـأذى.. دون أن يشـفي غليلـه ولو بضربة واحدة، أما سـيف أبي جهـل الثمين، فلم تصدر منه سوى ضربة واحدة.. حزت رقبة أبي جهل نفسه.

هـلاك أبي جهل مـروع، والتاريخ يكتب للطغاة بحـبر المضطهدين، لكنهم لا يقرؤون، وإن قرؤوا لا يتعظون.

ريشة نعام على صدر أسد

حمزة.. أبوعمارة.. عم رسـول الله ﷺ.. على صدره ريشـة نعام، وبكفه بتار يهد الوثنيين هـدًّا.. يقوضهم كفرًا كفرًا.. كأنه ينتقي ضحاياه، أو يسـوق خراف العيد. رآه أميـة بـن خلف، فهلـع وحرك بعيره بعيـدًا عنه، لكن الخوف حاصره، فأسـقطه عـلى حافـة هاوية المـوت، وفجأة يلمـح أمية طوقًـا للنجاة حـين رأى شريك الأيام الخـوالي بمكـة، فصرخ بأعلى صوته: «يا عبد عمرو، يا عبـد عمرو» لكن عبد عمرو مشـغول باجتثاث الطواغيت.. كلما اجتث طاغية نـزع درعه، وأمية ينادي: «يا عبد عمـرو» سـمعه عبدالرحمن بن عوف، لكنـه لم يرد عليه؛ لأنه يناديه باسـمه الجاهلي، فأدرك المجرم أن الجاهلية لن تسـعفه، فتذكر الاسـم الذي اتفقا عليه بمكة، فصاح: «يـا عبدالإله»، فالتفت ابن عوف، فرآه واقفًا يرتجـف بجوار ابنه علي، فقال: «نعم» فقدم أمية عرضًا: الاستسلام مقابل ثروة، قائلًا: «هل لك في، فأنا خير لك من هذه الأدراع التـي معك؟» كان ابن عوف رجل أعـمال ناجحًا، وتاجرًا خيره لدينه وأمته ودولته، فرأى بعقليته الاقتصادية، أن فدية هذا الثري أجدى لدولته من دمه، فرمى الـدروع على الأرض، وأمسـك بيده، وبيد ابنه.. منطلقًا بهـما نحو جبل يخفيهما ريثما تنتهي المعركة. انفرجت أسـارير الطاغوت، فراح يتباسـط في الحديث، ويسـتظرف نفسـه قائـلًا: «ما رأيت كاليوم قـط، أما لكم حاجة في اللبـن؟» لم يكن ابن عوف في مزاج لتقبل هذا الثقيل، الذي كان متعطشًـا للكلام.. أي كلام يخفف رعبه؛ لذا غيّر الحديـث، فقال: «يا عبدالإله من الرجل المعلم بريشـة نعامـة في صدره؟ فقال: ذاك حمزة» عندها اعترف بشيء خلع قلبه، فقال: «ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل».

ظل أمية يتحدث.. يثرثر، وفجأة دوت صرخة اتسعت لها عينا أمية، ففغر فاه، وعجز عن الحركة.. دوت صرخة حرى من أعماق الألم، من جراح الماضي.. من شمس القيظ الحارقة، حين كان أمية يسلخ جسد بلال العاري بالسياط والحجارة على الرمضاء، ثم يربطه بحبل، ويعطيه للمراهقين ليتسلوا بسحبه في الشوارع.. كل هذا الحقد لمجرد أنه قال: لا إله إلا الله.

شل أمية وابنه، وبلال يقبل يهز الأرض.. يملأ السماء، وكأنه يطلق آخر آهات مكة.. يقبل ابن رباح كالموت الأسود يصرخ: «رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا».

بلال يشفي آخر جراحه

(بلال سيدنا).. هكذا يصفه الفاروق.. يقبل الآن كالموت، فيراه ابن عوف، فيحاول منعه يناشده: «أي بلال أسيري» لكن بلالًا لا يسمع.. لا يرى سوى ثلاثة عشر عامًا من السحل له، ولإخوته، فيصرخ: «لا نجوت إن نجا» وابن عوف يرجوه التوقف، فيلجأ بلال إلى غضب لا يطاق.. يلجأ لشباب الأنصار.. يذكرهم بطاغوت كأبي جهل. صاح بأعلى صوته: «يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف» أفاق الشباب على اسم شاتم الرسول ومعذب أصحابه، فإذا هم كالمنايا خلف بلال.

استدارت السيوف حول أمية، وابن عوف يذبّ عنه، فله حساباته الجميلة لدولته الإسلامية حتى بين حمم الموت، ولما رأى إصرارهم ترك لهم علي بن أمية ليشغلهم به، وهرب بصيده.

انقض أحد الشباب على ابن أمية، فضرب رجله فهوى، ليجهز الباقون عليه، فصاح أمية لما سقط ابنه صيحة يصفها ابن عوف، فيقول: (ما سمعت بمثلها قط، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان أمية رجلًا ثقيلًا) تحير ابن عوف ما يفعل بهذا الصيد الوثني، فصرخ بأمية: (ابرك) فبرك الطاغوت على الأرض ينتظر مصيره، وتنتفض أطرافه،

فألقى عبدالرحمن بجسده عليه، وغطاه علهم يتركونه، لكن حماس الشباب يطيح بأعتى الطغاة، والغضب لله ولرسوله لا يصد. انحنى بلال والشباب والسيوف نحو الأرض، وكأنهم يحاصرون حية في جحرها، ثم أغمدوا سيوفهم في تلك الحية الملتصقة بالتراب. يقول ابن عوف: «فتخللوه بالسيوف من تحتي، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه».

نهض ابن عوف يعرج، وهو يصيح بآخر كلمات يسمعها الطاغوت قبل السفر للجحيم قائلًا: «أَنْجُ بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغنى عنك شيئًا» وما هي إلا ثوانٍ، وإذا بأستاذ التعذيب جثة تشويه شمس كشمس مكة.. لم تسعفه أمواله ولا جاهه، أو لقب سيد الوادي، ولا بعيره الثمين الذي انتقاه بعناية للفرار.

نهض ابن عوف بين الدم والسيوف.. يبحث عن أدراعه، فلم يجدها، وتأمل قدمه النازفة، فإذا قلبه أبيض.. لا يعرف الحقد على إخوته، بل توجه لله بدعاء كالمطر، وقال: «يرحم الله بلالًا، فجعني بأدراعي وبأسيري» عاد بلال وشباب الأنصار وابن عوف نحو نبيهم إخوة.. يجمعهم حب الله ورسوله مهما اختلفت اجتهاداتهم ووجهات نظرهم.

الأسرى يتحسسون رقابهم

فر أكثر من ثماني مئة وثني من أرض بدر.. تاركين خلفهم تسعًا وستين جثة، وواحد وسبعين أسيرًا، وعشرات الإبل، بينها بعير لأبي جهل مزين بحلقة فضة، وأجود بعير بمكة لأمية.. فروا يسحبون الغبار خلفهم، فصفت الأجواء، وتزينت السماء بقطع السحاب، وثناء المؤمنين على ربهم، بينما ضربت خيمة الذل أطنابها على الأسرى، وهم يرون رجلًا عاش بينهم خمسين عامًا.. لم يكذبهم.. لم يغشَهم، ولم يمد يده يومًا على أحد منهم، ومع ذلك ضربوه وشتموه، وكذبوه ووزعوا أصحابه بين المنافي والمعتقلات والموت دون مبرر.

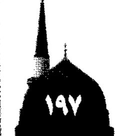
ذات يوم كان ﷺ يصلي فجاء عقبة بن أبي معيط.. يحمل بيده سلى ناقة من إحدى المزابل، فرماه على ظهره الشريف، فضحك بقية الطغاة حتى مال بعضهم على بعض، ثم أتت فاطمة تبكي، وتزيله عن ظهره. وتمادى هذا الطاغوت يومًا، فحاول اغتيال النبي ﷺ وهو يصلي، فلوى ثوبًا على عنقه ليخنقه، فأتى أبوبكر يركض، فدفعه عنه وهو يبكي، ويقول: «أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله» أكمل ﷺ صلاته تلك، ثم نهض وحيًا، ومشى ثقة نحو أولئك الطواغيت الستة: عقبة وأبوجهل وأمية والوليد بن عتبة ووالده وعمه. نظر ﷺ إليهم ولما حاذاهم رفع كفه بشكل مخيف، ثم مررها على حلقه ورقبته كما تمرر السكين، فقلصت شفاه الطواغيت، وخرسوا كخراف تنتظر الذبح، بل لاطفه أبوجهل والموت يخلع مفاصله قائلًا: «انصرف أبا القاسم فما كنت جهولًا. فقال ﷺ: أنت منهم».

وها هم الطواغيت الستة الذين أمر بقتلهم بمكة.. جثثًا متعفنة إلا واحدًا، وها هو أبوالقاسم ﷺ ينظر في الأسرى يبحث عن سادسهم، فإذا الطاغوت منزوٍ بينهم.. تلمع عيناه كلصّ في غرفة مظلمة. التقت عيناه بعيني أبي القاسم، فأمر بإخراجه، فنهض عقبة بن أبي معيط ترتعد فرائصه.

نهض وحده من بين كل الأسرى، فنادى ﷺ عليًّا ليجعله في الرحلة المسافرة بأصحابه للجحيم.. مشى الطاغوت ذليلًا كجدي بين يدي حيدرة، وفجأة التفت مستجديًا النبي القائد ﷺ يتوسل قائلًا: «من للصبية يا محمد؟» فأراد ﷺ أن يزيده حسرة، فنطق بكلمة أحر من السيف، فقال: «النار» ثم اجتره علي، وبعد دقائق رأى بقية الأسرى رأسه يتدحرج، فتحسسوا أعناقهم، واستعدوا للموت.

أسرى محمد وأسرى الحضارات

تدحرج رأس عقبة بن أبي معيط؛ لأن الله أمر بقتله، فتحسس بقية الأسرى رقابهم، فمحمد في نظرهم في ساعة انتقام، فهل سيبيدهم، أم سيكون تعامله



بمستوى تعامل الحضارات السابقة له: الفارسية والإغريقية والرومانية.. حيث يتم تعذيب الأسرى والاحتفال بإقامة مباريات مبارزة.. لا تنتهي بخروج المغلوب، ولكن بموت المهزوم، ولا نجاة إلا لآخر من يبقى على قيد الحياة.. مباريات تطلق فيها الوحوش الجائعة عليهم للتسلي برؤية أنيابها تمزق لحومهم أحياء، أم سيسن محمد بهم سنة الفراعنة، فيجعلهم يمضون بقية أعمارهم في بناء قبر شامخ له، حيث يبدأ الواحد منهم بناء الهرم وهو في شرخ الشباب، فلا ينتهي إلا والشيب يصبغ أصداغه، مع ملاحظة أن الهرم ليس قصرًا ولا مسرحًا ولا حتى ملعبًا للترفيه.

الهرم قبر لفرعون يريد رؤية قبره وهو حي، أم سيصل محمد في تعامله معهم إلى ما وصلت إليه اليوم أرقى الحضارات وأحدثها، وعلى يد ضباط درسوا في أرقى جامعات.. بلاد الديموقراطية وفصل السلطات وحقوق الإنسان والحيوان.. حيث شاهد العالم مصير الأسرى بين أيدي أولئك الضباط.. شاهدوا رؤوسهم تحشر في الأكياس.. تخنق الأنفاس، وإذا بالضباط يتبولون على أسراهم، وينتهكونهم، ويلوثون طعامهم، ويرمون مصاحفهم في المراحيض، وإذا ببعض الضباط هوايته جمع الجماجم البشرية، التي أردى أصحابها، وبعضهم هوايته جمع أصابع النساء والأطفال الذين قتلهم لمجرد التسلية.. يجعلونها تذكارات على جدران غرفهم.

العالم يحبس أنفاسه في انتظار سنة النبي القائد محمد بن عبدالله ﷺ في أسراه، وأي أسرى هؤلاء: إنهم ليسوا جنودًا لم يرَهم إلا في ساح الوغى، وليسوا مرتزقة قذفت بهم الحاجة.. هؤلاء في معظمهم طواغيت.. كرسوا ثلاثة عشر عامًا تعذيبًا وتشريدًا لأصحابه.

انتهت معركة بدر، فإذا الانتقام صريع بين الجثث، ونزل الوحي فإذا أرض بدر تهتز ربيعًا حول الأسرى.. نزل الوحي يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، يا إلهي.. الجبار سبحانه يطلب من جنوده أن يتقربوا له بإكرام أسراهم الوثنيين، وأن يحدبوا عليهم حدبهم على اليتامى والمساكين، وأن يخبروهم بأن سبب ذلك توحيدهم النقي كالمطر: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

سعادة الأسرى وطيور الشهداء

ها هم المجاهدون مع أسراهم.. في عالم من التحضر والانضباط لا يدانى، فقبل قليل كانت الرؤوس والأطراف تتطاير بسيوفهم، وها هو القرآن يحول جنوده بلحظات إلى مجموعة من المسعفين الرحماء.

انتهت المعركة، فانتهى قانونها، وبدأ قانون الأسر الإسلامي.. لكن هذا الحكم لايزال مجهولًا، فالقرآن لم ينزل بتفاصيله، وفي حالة عدم نزول حكم كان القائد ﷺ لا يستبد برأيه، ولا ينظر لمصلحته الشخصية، بل كانت سنته التي لم يتخلَّ عنها يومًا هي استشارة شعبه، والاستماع لوجهات نظرهم المختلفة.

توجه ﷺ لأصحابه، وطلب مشورتهم، فتكلم المهاجرون، وسكت الأنصار.. احترامًا لقرابة المهاجرين، فأشار أبوبكر أن يطلقوا مقابل مبلغ مالي تستفيد الدولة منه قائلًا: «يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام»، أما عمر بن الخطاب فكان يرى اجتثاثهم وإلحاقهم بأبي جهل، قائلًا: «لا والله، ما أرى الذي رأى أبوبكر، ولكني أرى أن تمكنّا، فنضرب أعناقهم»، بل طلب تمكينه من أحد أقاربه، وتمكين علي من أخيه عقيل. جهر الفاروق برأيه دون محاباة، حتى إنه اقترح تمكين حمزة ليضرب عنق العباس، قائلًا: «إن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها».

تأمل القائد ﷺ الرأيين، فمال للرأي الأرحم، فما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، بل زين ﷺ أرض بدر وسماءها بوفاء جميل، قائلًا: «**لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له**».

هنا تنفس الأسرى الصعداء، واطمأنوا، ثم انشغل وأصحابه بدفن الشهداء الثمانية عشر بدمائهم وثيابهم دون صلاة، ليتحدث بعدها ابن مسعود عن عالم الأنوار والجمال الذي رفرفت به أرواحهم، فيقول: «إن الثمانية عشر، الذين قتلوا من أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر، جعل الله أرواحهم في الجنة في طير خضر تسرح في الجنة، فبينما

هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: يا عبادي، ماذا تشتهون؟ قالوا: ياربنا، ما فوق هـذا شيء. فيقول: عبادي، ماذا تشتهون؟ فيقولون في الرابعة: ترد أرواحنا في أجسادنا، فنقتل كما قتلنا» فقد رأوا أن ما دفعوه لا يساوي شيئًا أمام ما هم فيه من النعيم، والرفاه الذي لا حدود له، ولا سقف لجماله وأفراحه ومفاجآته.

معجزة عند دفن المشركين

ذات يوم سأل أحدهم نبي الله، فقال: «أرأيت إن قتلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي؟»، فأجابه: «نعم، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر، إلا الدين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك» هكذا أمسى شهداء بدر.. رحيلًا إلى عالم يخطف العقول، ويسحر الأرواح، لكنه ممنوع على من امتلأت صحيفته بأموال الناس وأعراضهم وحقوقهم، أو حتى أموال دولته وممتلكاتها.. يغفر للشهيد كل الذنوب التي بينه وبين ربه صغائرها وكبائرها، مع أول قطرة ينزفها، وعندما يدخل قبره يرى بروحه كما يرى النائم قصوره ومنتجعاته، وأنهاره ومراكبه، والوجوه التي تتحرق شوقًا إليه، فيطير قلبه نحو ذلك النعيم، فيقال له: «نم. نم نومة العروس، لا يوقظه إلا أحب الخلق إليه» وهي نومة مهما طالت، فلن يشعر بها، فالزمن يموت بالنوم، وبالموت. غفا شهداء بدر على النعيم، ومكث نبي الله بعدهم ثلاثة أيام تحسبًا لهجمة من هنا أو هناك. في أثناء ذلك قام الصحابة بدفن جثث المشركين، وقد كان على أرض بدر بئر قديمة، فأمر بدفن أربع وعشرين من كبار الطواغيت فيها.

سحبت جثثهم واحدًا واحدًا، وعندما اقتربوا من جثة أمية وجدوها قد انتفخت وتعفنت، وتغير لونها.. حاول الصحابة، فعجزوا.. ليس لضخامتها، ولكن لأن لحمه تزايل، وبدأ يتفسخ.. عندها تركوه، وألقوا عليه التراب والحجارة حتى غطوا جثته.

كأني بهذا المشهد يبكي بلالًا، فكم دفنه أمية بالحجارة الحامية في حر الصيف، وكأني بأبي بكر يتذكر ذلك اليوم الذي اشترى فيه بلالًا ليعتقه.. اشتراه (وهو مدفون

بالحجـارة) بعد ذلك أمر القائد ﷺ بجمع الغنائـم والأنفال، وهو لا يدري ما يفعل بها، فالوحي لم ينزل عليه.

في أثناء ذلك شـاهد نبي الله ﷺ سـعد بن أبي وقاص يتوجه نحوه يحمل سـيفين.. سـيفه، وسـيفًا قويًا وجده بين الجثث، ولما وقف قال: «يا رسـول الله، إن الله قد شـفى صـدري اليـوم من العدو، فهب لي هذا السـيف. فقال ﷺ: ضعه. ثم قام سـعد، فقال: يا رسـول الله، نفلنيه. فقال: ضعه، إن هذا السـيف ليس لي ولا لك» تأثر سعد ووضع السـيف، وانـصرف حزينًـا وهو يقـول لنفسـه: (يعطاه اليوم مـن لم يبلُ بلائـي) وبعد ساعات سمع مناديًا يناديه، فارتجف قلبه خشية أن يكون قد نزل في إلحاحه قرآن يعاتبه.

أحكام الغنائم تنزل على أرض بدر

كان ابن الخطاب يسـير نحـو عريش القيادة على أرض بـدر، ولما وصل فوجئ بمشهد كدره، فنبيه ووزيره أبوبكر يجهشان بالبكاء، فقال: «يا رسول الله، أخبرني ما يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما» فأخبره ﷺ بعتاب الله لهم على قبول الفداء من الأسرى، وقال: «عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشـجرة» وتـلا: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٧-٦٨].

هـذا مايتعلـق بفديـة الأسرى، أمـا الغنائـم فقال سـبحانه فيهـا: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنفـال: ٦٩] ، ثـم نزلـت آيات تقسـم غنائم الحرب إلى خمسة أقسـام: خمس لله ورسوله ولبيت النبي ﷺ؛ لأن الصدقـة محرمـة عليهم، وللأيتام، وللمسـاكين وهـم الذين يملكون مـالًا، لكنه لا يكفيهم حيث وصفهم سـبحانه، فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾[الكهف: ٧٩]، وللمسـافرين الذين نفد مالهم، أو فقدوه، وقد حددها سـبحانه

في قولـه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[الأنفال: ٤١]، وأما الأربعة أخماس فتقسم بين أفراد الجيش.. بعدها نادى القائد ﷺ سعدًا، فجاء خائفًا، ولما أصبح أمام نبيه وقائده.. إذا به يمد له ذلك السيف، ويقول: «إنك سألتني هذا السيف وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي، فهو لك».

هدأ روع سعد، وفرح بسيفه، وحصل القائد ﷺ على سيف آخر مشهور.. يتحدث عنه أحد الصحابة، فيقول: «إن النبي تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر» لم تنتهِ مدرسة بدر من تقديم الدروس.. مازال لديها الكثير، ولم يكتفِ القرآن بإكرام الأسرى، بل إنه يأمر نبيه بالتوجه لهم بحديث كالماء البارد، وإغراء لطيف بالبشريات والرحمات، فيقول خالقهم سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنفال: ٧٠]، ثم أمر ﷺ ابنه زيدًا بركوب ناقته العضباء، والتوجه للمدينة ليبشرهم بنصر الله.

ركب زيد العضباء تنهب به الأرض، ولما وصل فوجئ بالمدينة في حالة حزن.

المدينة حزينة مشتاقة فرحة

يحلق به الفرح.. يكاد يطير من السعادة، وهو يمتطي ناقة نبيه العضباء، ولما لاحت لزيد نخيل المدينة خفق قلبه وهو يستعد لإلقاء البشريات، وجرف القلوب المتلهفة لأخبار الأحبة، لكن بيتًا من بيوت المدينة حزين، فقد خلا من زهرته وسر سعادته.. بيت تحن جدرانه إلى تلك التي ماتت في زهرة شبابها.

ها هو حبيبها عثمان بن عفان بين المقابر.. يواريها ويبكي، ويبكي معه أسامة ابن زيد.. ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ في أيام نصر الله.. ماتت قبل أن يبشرها، أو

يعلم عنها أو تعلم عنه، فبكت أم كلثوم، وبكت فاطمة، وبكت المدينة، وعاد عثمان من عند قبر حبيبته ورفيقته في مكة.. في غربته في الحبشة.. في الهجرتين. قضت نحبها دون أن تأخذ من الدنيا شيئًا، فتضحياتها لله وحده، لا من أجل مال أو حطام.

عاد عثمان هائمًا بذكرياتها، لكن وقع أخفاف العضباء أيقظه، وصياح زيد شفى بعض جراحه.. توقف عثمان وأسامة، فإذا الصوت يملأ السماء.. يزين الشوارع.. يفتح الأبواب، فتتدفق الجموع نحوه، وتمتلئ الطرقات بالرجال والنساء والأطفال، فيمر أحدهم بأسامة الحزين، وهو يشير إلى صاحب الناقة، ويقول: (ذاك أبوك) فيسعى أسامة لا يدري ما يقول: أيعزيه برقية، أم يسأله عن نبيه ﷺ؟ لكن صوت أبيه أحال الساحة صمتًا مطبقًا وآذانًا مصغية، وقلوبًا ترتجف، ثم انفجارًا هائلًا من التكبير والفرح. يقول أسامة: «سمعت الهيعة، فخرجت، فإذا أبي قد جاء بالبشارة على العضباء ناقة رسول الله ﷺ، فوالله ما صدقت. فجئت وهو واقف للناس يقول: «قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبوجهل، ونبيه ومنبه، وأمية بن خلف».

أسامة لايزال مذهولًا غير مصدق يصيح بأبيه: «يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم، والله يا بني» انفجر المكان تكبيرًا وتهليلًا وشكرًا للجبار سبحانه على هذا الانتصار، فازداد شوقهم لنبيهم. أما نبي الله ﷺ، فيمسك الآن بزمام ناقته، والصحابة على رواحلهم الجديدة.. ينتظرون إذنه بالتحرك، لكنه يمشي في اتجاه غير طريق المدينة.. يمشي حتى وصل ركية البئر وحافتها، ثم نظر إليها، ونظر لقبور الوثنيين حولها، وصاح بكلمات مخيفة تخلع القلوب ينادي: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة ابن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة...».

الطواغيت ينصتون في المعتقل الأبدي

مشى النبي ﷺ والصحابة ومعهم الأسرى.. مغادرين أرض بدر، لكنه اتجه نحو البئر والمقبرة التي حوله، ثم هتف وهو عند ركية البئر بكلمات تخلع القلوب:



«يا أبا جهل بن هشـام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شـيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسـوله؟» كلمات أثارت عمر، فاتجه نحو نبيه ﷺ متسـائلًا: «يا رسول الله، ما تكلم من أجسـاد لا أرواح لها؟ فقال ﷺ: **والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسـمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**».

ماتـت الإجابات، وجفت الصحف، وانطلقت الحسرات، وخيّم الندم حيث لا يجدي الندم، فالسـاعة سـاعة حسـاب، وقد منح الله هؤلاء خمس عشرة سـنة من الإقناع بالأدلة القاطعة، والدعوة باللين والأسـلوب العذب، فما عسـاهم يقولون، وبأي شيء يعتذرون؟ كلمات تجعل الصحابة يلهجون بالشـكر على نعمة التوحيد.. لم يكن ﷺ يطلب من الوثنيين أكثر من كلمة واحدة: لا إله إلا الله، لكنهم أبوا إلا أن يعبدوا أخشـابهم وصخورهم من دون الله.. أصروا أن يسـاووها بخالق السماوات والأرض وخالقهم، واليوم:

ها هُمْ أُسارَى فِي القُبُورِ تَحَسَّرُوا لا اللّاتُ تُسْعِفُهُمْ وَلاعُزّاهُمْ

تعرض أرواحهم على جهنم غدوًّا وعشـيًّا، ويوم القيامة يسـحبون لها.. هذا ما يفعله الحقد والحسد، والعناد والكبر بأصحابه.. هذا ما يفعله تقديم قول الناس على قول خالق الناس، وحب المناصب على حب الله ورسوله.

هـز ﷺ أرض بـدر بكلماته، ثم مـال بمطيته نحو طيبة.. ممتلئًا بالشـكر على هذا النـصر الـذي لا يمكن أن يتحقق بحسـب حسـابات البشر، ليذكرهـم ربهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، فيـزدادون تواضعًـا، ويتهادون نحو دولتهـم.. لا يعرفون غـرورًا ولاعلوًّا.. عادوا بإنجـاز لـو حققه وثني لنسـجت حوله الأسـاطير والخرافـات مع الزمن.. سـاروا وسـاروا، ولمـا تمايلـت نخيـل المدينة أمامهـم خفق قلبه ﷺ شـوقًا.. تـرى بأي عين سيقابله عثمان، وبأي لسان سيخاطبه.

لم تصفُ الحياة لهذا النبي، فها هو يفجع في أيام نصره بفقد فلذة كبده وحبيبته رقية، ولكن على الرغم من أحزانه ﷺ تظل أمته مقدمة على أسرته.

هل رأيتم الحارث؟

عاد المحاربون من القتال.. عادوا بالأسرى والغنائم والجِمال.. عبر شوارع من التكبير والهتاف. تتلقفهم الأحضان والابتسامات، وتتطلع لهم القلوب والأعين.. كانت النساء في شوق وترقب.. كلما لمحت إحداهن والدها أو ولدها، أو أخاها أو زوجها تنهدت شكرًا لله، إلا هذه المرأة المفجوعة التي تهرول بين الرواحل.. تتعلق بأزمّتها.. تبحث عن ابنها.. عن قرة العين، وحبيب القلب: أين الحارث؟ إنها لا تراه على ناقة أو بعير.. تسألهم: أين ابني؟ فإذا السهم الذي طعن الحارث يخترق قلبها، ويكسر فرحها، فتلفّها الفجيعة، فلا ترى في الدنيا سوى درب واحد نحو طبيب القلوب؛ عله يداوي هذا القلب الذي شقيت بأشواقه، ولما وجدته ﷺ تهدج صوتها حزنًا، وهي تقول: «ألا تحدثني عن حارثة» «يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترَ ما أصنع؟»، فداوى قلبها بعبارات تمنت معها اللحاق به، حين قال: «**ويحك أو هبلت؟ أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس**»، فاشتاقت للسير بجواره في طرقات الفردوس وميادينها، والبحث له عن فاتنة تزفها له هناك.

تلهف الناس لذكر الفردوس، فزاد ﷺ لهفهم، حين قال: «**غدوة في سبيل الله، أو روحة، خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم، أو موضع قدم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**»، فأمتارها ليست من الحصى والتراب، بل من الجواهر والأحجار الكريمة، التي يذهل نقشها، ثم أردى قلوب النساء العاشقات للجمال والدلال، بصورة من ملايين الصور التي سيكنّ عليها، فقال: «**لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحًا**»، فأي أجساد معطرة هناك، وأي فتنة ستتهادى في النعيم؟!

كان ﷺ يبشر شعبه، ويعزيهم بالجنان، لكنه لا يخدرهم عن واقعهم، ولا ينسى فقرهم ولا معاناتهم.. توجه لفقرائهم ومساكينهم وأيتامهم، فأعطاهم من الغنائم، وبعد أن أسعد شعبه التفت إلى جرحه وآلامه، حين رأى صهره عثمان بن عفان حزينًا، فداوى جرحه وبشره قائلًا: «**إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه**»...... يا له من أجر يا عثمان، حين «**اطلع الله على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**».

امرأة أخرى مفجوعة

لم تكن أم الحارث وحدها الحزينة، فعفراء تبكي شبليها عوف ومعاذ.. بشروها أنهما سحقا فرعون الأمة وبعض الطواغيت، فأسعدها الخبر، ثم انطوت على شوقها ليس لها سوى الاحتساب والصبر، فلن يدخلا عليها الباب، ولن تراهما بعد اليوم، ولن تهتف باسميهما كي يحضرا لها أغراضًا من السوق.. لن تبحث عن عروس لعوف، أو لأخيه، ولن تسعد مع نساء المدينة بزفاف بهيج لهما، لكن ستناشد الله بدموعها أن يكونا بانتظارها في الجنة.

كانت فجيعة عفراء كبيرة، فاجتمع النساء من المدينة لتعزيتها، وتهنئتها بالشهادة.. تهادت عائشة وسودة بنت زمعة لتعزية عفراء، فخففت زيارة آل البيت الكثير مما بها، لكن في أثناء العزاء سمعت النساء قائلًا يقول: «هؤلاء الأسارى قد أتي بهم».

لم يبنِ ﷺ لهم سجنًا، بل لم يبنِ سجنًا قبل بدر ولا بعدها.. قام بتوزيعهم على أبياته وأبيات أصحابه، وبعد أن خرجت سودة من عزاء عفراء نحو بيتها.. فتحت الباب، ففوجئت بأسير يقبع في زاوية الحجرة.. تأملته، فإذا هو ابن عمها.. خطيب قريش، وأحد كبارها.. رجل يقال له أبويزيد، واسمه سهيل بن عمرو، وقد وضعوه هنا توًّا.

شعرت سودة بذلة أصابت قومها، فأشفقت عليهم، وخاطبته دون أن تشعر: «أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم؟ ألا متم كرامًا؟» أطلقت سودة تلك الكلمات مأخوذة

برقة مشاعر امرأة واصلة للرحم.. مشفقة بقومها.. اجتاحتها الحمية، وأذهلتها، فلم تنظر في بقية البيت، حيث يجلس زوجها، فإذا بها تفاجأ بصوت حبيب يعاتب حميتها بلطف، ويقول: «**يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين؟**».

التفتت سودة، فإذا هو حبيبها ﷺ، فلم تزد على وصف مشاعر خرجت دون وعي، فقالت: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت».. عذرها القائد ﷺ، فقد كانت غارقة في بحار الحزن والألم: موت رقية، ومناحة عفراء، وأم الحارث، وبنو عمها المأسورون.

اعتذرت سودة، فقبل زوجها عذرها، وبقي الأسرى في حالة انتظار للقادمين من مكة.. مكة المصدومة بما حدث.. تضج بالصراخ والحزن والعويل، ولطم الخدود وشق الجيوب والتهديد والوعيد، لكن فجأة يطالب بعضهم بإيقاف كل ذلك لسبب أعظم.

مكة عالم من النواح

مكة عالم من الحزن والنواح، وشق الجيوب ولطم الخدود.. عالم من الغضب: هند بنت عتبة ينفطر قلبها لمقتل والدها وعمها وأخيها.. جبير بن مطعم تحاصره عائلته تطالبه بالثأر من حمزة؛ لقتله عمه طعيمة، فيعدهم بذلك. أبيّ بن خلف الذي نجا بجلده يشتري جوادًا يتدرب عليه.. أملًا في قتل نبي الله عليه.

طال النواح والعويل بين الوثنيين، فنبههم بعضهم قائلًا: «لا تنوحوا عليهم، فيبلغ ذلك محمدًا وأصحابه، فيشمتوا بكم» هنا انحسر النواح داخل البيوت.. أمست مكة عالمًا من الفوضى والانكسار، وبلا قادة، فقد سقط الطواغيت الستة، واختفى أبولهب. سقط أشرس أعداء التوحيد، وبدأ عهد جديد.. هو عهد الثأر.

اجتمعت قريش تبحث عن زعيم يخلف الطواغيت السبعة، فتوحدت لأول مرة، فالإسلام علمها كيف ترتب نفسها، فالتفّت حول زعيم واحد هو أبوسفيان..



لا ينافسه إلا العباس، لكن العباس مأسور في المدينة، ولا بد من إطلاقه.. ولا سيما وقد علمت قريش أن محمدًا لم يقتل الأسرى، وأنه يطالب بفدائهم، فبدأت كل عائلة ترسل فديتها، وهنا حدثت معجزة رآها الصحابة، بعدما رأى النبي ﷺ أسيرًا يقال له أبو وداعة السهمي، فقال لأصحابه وحيًا لا يكذب: «إن له بمكة ابنًا تاجرًا كيسًا ذا مال، كأنكم به قد جاءكم في فداء أبيه»، وذات يوم، وحين خيم الليل انسل المطلب بن أبي وداعة دون علم قريش، فقدم المدينة، ففدى أباه بأربعة آلاف درهم.

فرح المؤمنون بالفداء، وبتحقق المعجزة، أما في مكة فانتشرت أخبار دفع الفدية في بيوتاتها، حتى وصلت بيت رقية بنت رسول الله الشابة المؤمنة الحزينة، التي اجتمع أحبابها في المدينة، وهي وحيدة هنا، فزوجها أبو العاص بن الربيع أسير في المدينة، والشوق يقتلها للحاق بأبيها وأخواتها.

تسمع زينب بفداء الأسرى، فتمد يديها خلف رقبتها، وتحل قلادتها الغالية، التي أهدتها إياها خديجة يوم زفافها، ثم تضعها مع بعض المال في يد أحد أفراد عائلتها، ليأخذها للدولة الإسلامية.. علهم يطلقون زوجها.. علّ والدها يرق لحالها عندما يرى ذكريات خديجة مرصعة عليها.

تقاطر الوثنيون نحو دولة الإسلام يدفعون الفداء، ويتسلّمون الأسرى. هنا تقدم الأنصار بطلب حول أحد الأسرى، لكن النبي ﷺ رفضه بشدة.

النفاق يتسلل عبر قميص العباس

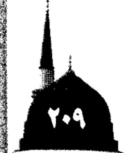
رأى الأنصار ما يجري من فداء للأسرى، فتوهج كرمهم، وطلبوا إعفاء كبير بني هاشم وعم رسول الله من دفع الفدية، وقالوا: «إيذن لنا، فلنترك لابن أختنا العباس فداءه؟ فقال: لا، والله لا تذرون منه درهمًا».

تم دفع فدية العباس الذي كان ممزق القميص بعد الحرب، وهنا وجد وثنيو المدينة الفرصة.. وجدوا في ثقوب ثوبه ثغرة يتسللون منها إلى جسد الدولة

الإسـلامية.. تسلل الوثنيون من خلال تلك الثقوب كالحيات.. يحملون سمًّا زعافًا، ويشـكلون حالـة جديدة في بنـاء المجتمع المسـلم.. حالة لا توجـد إلا عندما تكون الدولة الإسلامية قوية ومتماسكة.. حالة تسمى (النفاق).

ففـي مكة.. حـين كان النبي ﷺ مطـاردًا، وأصحابه مضطهديـن.. كان الناس معسـكرين: موحديـن مضطهديـن، ووثنيـين صرحاء، ويهـودًا ونصـارى.. ظلت الأمـور عـلى تلك الحـال حتى بعـد الهجرة، وعلى مـدى عامين، ولكـن وبعد غزوة بـدر.. صُدم وثنيو المدينة وهم يرون أبطال الإسـلام يبيدون طغاة مكة، ويسـوقون سـبعين منهـم أسرى، ومعهـم مئات الإبـل.. كادت أعينهـم تخرج مـن أحداقهم، وهي تدور غيظًا وحسـدًا.. أدركوا بعدها أن هذا النبي سـيحكم المدينة.. شاؤوا أم أبـوا، فاجتمعـوا حول كبيرهم عبدالله بن أبي بن سـلول، الـذي صرح بعدائه للنبي القائـد ﷺ في أول أيـام الهجـرة، ورفـض نـشر التوحيـد في المدينة.. حـين وقف ﷺ عليـه فنزل، ودعاه إلى الله ﷻ، وقرأ عليه القرآن، فقال ابن سـلول: «أيها المرء، إنه لا أحسـن مما تقول إن كان حقًّا، فلا تؤذنا به في مجالسـنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه».

أما اليوم فالأمر مختلف.. انتشر التوحيد، وشعر الوثنيون بأنهم قلة، وعلى الرغم من أن أحدًا لم يمسهم بسوء، إلا أنهم يشعرون في قرارة أنفسهم بأن التوحيد يؤلمهم، وأن ثقافتهـم لم تعد مقنعة.. أمام هذا النبي الـذي ينشر الحب والنظافة والعلم، ولو ظلوا على وثنيتهم لما آذاهم أحد، لكن الناس سيحتقرون تخلفهم، ولن يستطيعوا أن ينفسوا عن أحقادهم.. لا بد من فعل شيء يمكنهم من خرق السفينة والكيد للدولة الإسلامية. اجتمعوا، فأخبرهم ابن سلول بخطته، وقبل تنفيذها قام بإهداء العباس قميصًا بدلًا من قميصه الممزق لكسب قلب النبي ﷺ.



بدأ النفاق في العشر الأواخر من رمضان

كان وصـول النبي القائد ﷺ من غزوة بدر في العشر الأواخر من رمضان، وفي تلك الأيام الجميلة والليالي الروحانية قال ابن سـلول وكبار الوثنيين معه: «هذا أمر قد توجه. فبايعوا الرسـول على الإسـلام». هنا بالتحديد ولد النفاق.. حالة سيعاني المجتمـع المسـلم منها كثيرًا، فهم فئـة لم يرغمهم النبي ﷺ على اعتناق الإسـلام، ولم يكرههـم أحد على ترك الوثنية، لكنهم يشـعرون بالنقص كلـما توجه رجل أو امرأة للمسـجد.. كلما سـمعوا ذكـر الله والقرآن.. كلـما نظروا إلى من يتوضـأ للصلاة، أو يغتسـل للجمعة.. كلما رأوا هذا التكافل والترابط بين أفراد مجتمع من شـتى القبائل والأعـراق والألوان، بينما عجـزت ثقافة المنافقين عن إغماد السـيوف بين أبناء العم مئات السنوات، من أجل كلمة أو بعير، أو مزحة ثقيلة. يأتي هذا النبي، فيقدم دولة منظمـة، ومجتمعًـا متحضرًا.. يصحـو مع الفجر عـلى ذكر الله، ويغمـض عينيه على ذكـره.. يشـعر المنافقون بالفزع عنـد كل أذان، ويتمنون لو خنقوا بلالًا.. يشـعرون بانشـغال الناس عـن تفاهاتهم بنبيهم وهمـوم دولتهم وتوحيد ربهـم.. لم تعد المدينة هـي منتهى طموحهـم، ولا القبيلة آخـر همومهم.. إنهم ينظـرون إلى الأرض.. كل الأرض، ثم إلى السـماء، وما بعد السـماء. يا له من فارق في الاهتمام والطموح صنعه القرآن.. فارق جعل المنافقين يعلنون أمام الناس إسلامهم، ويحتفظون بأصنامهم في قلوبهم.. يمشـون للمسـاجد ولو دون وضوء.. يذكرون الله، ويقرؤون القرآن على مضـض.. حالة نفسـية، وفصام لا يخرجهـم منه إلا الخمر، وهم يرون قريشًـا تدفع المال لدولة الإسلام.

ها هو أحد الوثنيين يسلم شيئًا للنبي القائد ﷺ، فيأخذه، ويخفق قلبه، وتطوف بـه الذكريـات.. إنهـا قلادة خديجـة التي زُفت بها زينـب إلى ابن خالتهـا أبي العاص بـن الربيع.. ترى هـل فاضت عينا هذا النبي الحزين، وهـو يقلب جراحه بين يديه. أوجعتـه الذكريات، ورق لها رقة شـديدة؟، فالتفـت لأصحابه لا آمرًا ولا ناهيًا، بل جاعـلًا القرار لشـعبه؛ لأن الأمـر يتعلق بحقوقهم، فقـال: «**إن رأيتـم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**. فقالوا: نعم، يا رسول الله»، لكن زوجها لن

يغـادر دون مقابـل، فقد أخذه ﷺ قبل إطلاقه، ولم يتركه حتى وعده وعدًا أثقل عليه من الأسر.

هند بنت عتبة تمرّض زينب بنت محمد

تكـدر النبـي القائد ﷺ وهـو يقلب قلادة ابنتـه زينب، ثم توجه لشـعبه جاعلًا القـرار بأيديهـم، فالأمـر يتعلـق بحقوقهم قائـلًا: «**إن رأيتـم أن تطلقوا لها أسـيرها، وتـردوا عليهـا الذي لها فافعلوا**. فقالوا: نعم يا رسـول الله»، لكن إطلاق أبي العاص ابن الربيع زوج زينب بنت قائد الدولة لم يكن كما يبدو مجانيًّا.. لقد توجه ﷺ له قبل أن يطلقه، فلم يتركه حتى وعده أن يرسـل زينب له، فوافق. انطلق أبو العاص لمكة، وهو يشـعر بغصة لقرب فراق حبيبته، ولما وصل اجتاحته أمواج اللطم والنواح من عائلته؛ لهلاك عتبة وشـيبة والوليد، ثم مشـى نحو بيته.. نحو حبيبتيه زينب وطفلته أمامة، ليختلط في قلبه عناق الفرح بالحزن، واللقاء بالوداع، وهو يأمرها بالاستعداد للرحيل المر، أما الأمرّ من ذلك فهو أنها حامل، لكن وفاءه بوعده جعله يطلب منها الاسـتعداد عـلى الفور، وفي اليوم المحدد أركبها بعيرهـا، وبعثها نحو المدينة بصحبة قريب يدعى كنانة.

تهـادت بهـا راحلتهـا نحو طيبـة.. مردفة قلـب أبي العاص، ومحتضنـة ابنتها في وضـح النهـار، وأمام أعين قريـش الغاضبة.. المفجوعـة بأكبر قادتهـا.. عيون تكاد تقتلها، وفجأة انسـلت من بين تلك العيون عينان تتطايران شررًا وانتقامًا.. اختفت هاتـان العينـان، وواصلـت زينب طريقهـا نحو طيبـة، وبعدما توارت عـن العيون والبيوت ظهرت هاتان العينان فجأة.

ظهر رجل ينحت الثأر قسمات وجهه.. اسمه هبار بن الأسود.. ينهب الأرض نحـو بعـير زينب.. قابضًا على رمحه.. يقترب بسرعـة، فيغرز الرمح في بعيرها، وهي تصرخ، ويكرر طعنه حتى اختل البعير، وهوت زينب، وهوت معها صغيرتها.. تئن

زينب من شدة ارتطام بطنها بالأرض، وتبكي ابنتها ملتصقة بها، ويفر هبار ورفيقه، ليتحـول المكان تحت أنين زينب إلى دائرة مـن الدم.. خاف مرافقهـا كنانة، فعاد بها إلى مكـة.. تنزف بـين الموت والحياة.. قـد فقدت جنينها، وأجهضت حفيد رسـول الله ﷺ، وانتـشر الخبر، فتنازع أهلها بنوهاشـم، مع أهل زوجهـا بني أمية: أيهم أولى بتمريضها؟

ارتفعـت الأصـوات، وعـلا الضجيـج، وأخيرًا أخذهـا بنو أميـة، فحُملت إلى بيت أبي سـفيان، لتتولى زوجته هند بنت عتبة تمريضها.. هند التي قُتل أبوها وعمها وأخوها على أرض بدر.

من أعطاك خاتم حبيبي؟

بدأت زينب تفيق.. تتعافى شيئًا فشيئًا، وهند بنت عتبة ترعاها، وتعتني بها، فهما بنتـا عم على الرغم مـن كل الذي بينهما، لكن هند امرأة مفجوعة بأغلى ناسـها، وما زالت تفتقدهم؛ لذا فعندما يزداد وجع زينب تمرضها وتقول: «هذا بسبب أبيك».

شـعر ﷺ بشيء تجاه تأخر ابنته، وأتاه الوحي، فنادى ابنه زيدًا قائلًا: «**ألا تنطلق فتجـيء بزينب؟** فقال زيد: بلى، يا رسـول الله». عندها لَّمـح ﷺ له أن يتصرف بذكاء قائـلًا: «**فخـذ خاتمي، فأعطها إياه**» ودعا أحد الأنصـار، وطلب منه مرافقة زيد نحو وادٍ يقال له يأجج، وقال لهما: «**كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب، فتصحبانها حتى تأتياني بها**»، فانطلقا، وكان انطلاقهما بعد بدر بشهر.

سـار زيد متخفيًـا، حتى وصل ذلك الـوادي، فوجد فيه راعي غنـم لا يعرفه، فلاطفه، وسأله: «لمن ترعى. فقال الراعي: لأبي العاص بن الربيع» عندها شعر زيد بارتيـاح، فسـأله: «لمن هذه الغنم؟ فقـال: لزينب بنت محمـد» زاد ارتياح زيد، فظل يتمشـى مع الراعـي، ويبادله أطراف الحديث حتى اطمأن لـه، ثم التفت له بلطف، وقال له: «هل لك أن أعطيك شيئًا تعطيه زينب، ولا تذكره لأحد؟» لم يتردد الراعي

قائلًا: «نعم» عندها مد الخاتم، ووضعه في يد الراعي، ولما اقترب المساء انطلق الراعي بغنماته كعادته، وأدخلها في بيت أبي العاص، وبقي زيد والأنصاري في الوادي، ولما أظلم الليل توجه الراعي نحو بيت أبي سفيان، وطلب مقابلة زينب.

لم يشكّ أحد من أهل البيت بهذا الراعي، فالغنم لزينب، ومن الطبيعي أن يقابلها ليحدثها عن أجرته أو عن غنمها؛ لذا لم يرتابوا.

دخل الراعي، وتلفت، ولما اطمأن دنا منها، ومد لها خاتمًا مرصعًا بذكريات أحب الناس. أذهلتها المفاجأة.. اجتاحها الفرح، وهي تقلب الخاتم، ثم قالت: «من **أعطاك هذا؟** قال: رجل. قالت: فأين تركته؟ قال: بمكان كذا وكذا»، ثم ودعها.

لم تنم زينب تلك الليلة.. ظلت مستيقظة تنتظر رقود أهل البيت، ولما غفوا، وغفت مكة تحاملت على جراحها ونزيفها، وانسلت بهدوء تتهادى.. تتهزع.. تمشي.. تهرول أميالًا على قدميها.. تتقطع أنفاسها، ويتصبب عرقها.. تتلفت، وهي تحمل صغيرتها.. لا تدري ما الذي قد يفاجئها في هذه الليلة المخيفة.. خلال هذا الطريق المؤدي إلى الوادي الموحش.

محمد يستسلم للبراعة

خلال الظلام والرعب مشت زينب بنت رسول الله ﷺ أميالًا على قدميها من بيت أبي سفيان، إلى أن وصلت وادي يأجج.. تحمل طفلتها أمامة.. غرقت في ظلام الوادي تترنح من التعب والمرض.. تتلفت بحثًا عن حامل خاتم والدها، وإذا بطيف يتهادى نحوها يناديها.. إنه صوت أخيها زيد.. يبدد خوفها، ويمنحها السكينة.

هدأت أنفاسها، واستقرت ضربات قلبها، ثم ركبت خلفه على البعير، وانطلقوا نحو المدينة.. ساروا وتوقفوا، وساروا وتوقفوا، حتى احتضنتهم نخيل طيبة، فتمايلت راحلتها عبر الطرقات، حتى توقفت أمام بيت الأحبة، وبرك البعير، فانحدرت زينب عنه، وانحدرت دموعها ودموع أم كلثوم وفاطمة، وأمامة الصغيرة بينهم تتلقفها القبلات والأحضان.. لا تدري ما الذي يجري.

عانقتهم زينب وأبكتهم، وأخبرهم زيد بما جرى وأخبرتهم، ثم أخذوها لكي تستريح، لكن دموعها لم تسترح.. فاضت من جديد، حين علمت أن رقية لن تأتي للسلام عليها، فقد رحلت وسبقتهن إلى ديار خديجة.. ابتهج ﷺ بقدوم ابنته، ولهج بكلمات تثمن جهادها وما أصابها، فقال: «هي خير بناتي أصيبت فيَّ» أما صغيرتها، فاجتاحت قلب جدها.. يلاعبها.. يحتضنها يقبلها، ويؤذن بلال لإحدى الصلوات فيهم ﷺ بالخروج، فتنظر إليه الطفلة أمامة بعينيها البريئتين، وتلوذ بحنانه، فيستسلم لتلك البراءة الآسرة، ويحملها معه للمسجد، فيقيم بلال، وينهض الصحابة والصحابيات، ويتقدم ﷺ ليصلي بهم، وأمامة على عنقه.. كأني بها تتأمل عسب النخل ووجوه الرجال، وتعبث بشعر جدها وجدائله، وتلتفت لمن خلفه.. يا لها من إطلالة.. أبوبكر وعمر وعلي وعثمان الحزين وبقية الصحابة، ومن خلفهم تتراءى صفوف النساء.. حيث خالتها وأمهات المؤمنين.

يركع ﷺ، فيضع أمامة على الأرض، ثم يرفع ويسجد ويقوم، فيحملها مرة أخرى، ويكرر حركاته معها، ثم يجلس.. كأني بها تعبث بلحيته.. تمرغ وجهها في صدره الحنون.. تتقلب في حضنه، ثم ينهض بها إلى بيته إلى أمها، فتركض نحوها تلثغ بأحرف محببة، وكلمات غير مفهومة، وكأنها تريد أن تقص عليها جولتها الرائعة، وكأنها تقول: ما أروع جدي يا أماه، وما أجمل ابتسامات أصحابه!

***

إقفال ملف الأسرى

أطلق النبي ﷺ معظم الأسرى، ولم يبقَ سوى القليل ممن لا مال له، وفي أحد الأيام، وقبيل غروب الشمس بدقائق.. أقبل أحد وجهاء مكة، ويدعى جبير بن مطعم على بعيره، ثم أناخه، وانحدر عنه، وربطه، وسأل عن قائد الدولة الإسلامية، فأخبروه بأنه سيجده في المسجد، فقد حان وقت صلاة المغرب. عندها توجه له وهو المثقل بالثأر من حمزة.. المحمل بأنات أهالي الأسرى، لكن رسول الله غرز في قلبه سهمين.. كل سهم أشد من الآخر: الأول، حين كان جبير يسير بجوار

جدار المسجد، فسمعه يقرأ في صلاة المغرب من وراء الجدار: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ [الطور: ١ - ٣].

أبطأت تلك الكلمات خطوات جبير، وحيرته حتى توقف، وأسرته حتى تحول إلى تمثال من الإنصات، فقال: «سمعت النبي يقرأ في المغرب بالطور، سمعته وهو يقرأ وقد خرج صوته من المسجد: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧ - ٨]. فكأنما صدع قلبي. فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]. كاد قلبي يطير» شقي جبير بقلبه وهو ينتظر نبي الله ﷺ حتى فرغ من صلاته، فقابله وقدم التماسًا بإطلاق الأسرى. تأمل نبي الله جبيرًا الذي نجا من المعركة، ولم يقع في الأسر، فلم يعنفه، ولم يشتمه، ولم يقل ما يسوؤه، بل غرز في قلبه سهمًا من الوفاء.. حين ذكره بوالده الذي لم يَرَ منه سوءًا في مكة، فأخبره بأن لو كان المطعم بن عدي حيًّا لأطلقهم له.

عاد جبير مثقلًا بالهموم والخجل، أما القائد ﷺ فأدرك أن قريشًا لن تأبه بمن تبقى من أسراها، ولن يستفيد من إبقائهم عنده، أما العناد والمكابرة فلا مكان لهما في سنته؛ لذا قدم للعالم حلولًا.. خاصة لمن تغص سجونهم.

قدم بدائل أكثر نفعًا للسجناء والأسرى والشعوب والدول: الخدمة الاجتماعية بديلًا للسجن.. توجه للأسرى، وطلب منهم أن يعلموا أبناء المسلمين الكتابة، وكل من يخرج دفعة من المتعلمين سوف يتم إطلاق سراحه، وبذا أقفل ملف الأسرى وصداعه، وثقف شعبه، وعلمهم، وأشعرهم بأهمية العلم.

هدأت المدينة، وطوت ملف المعركة والأسرى، وتفرغت للحب والعطاء والسلام.

مدينة العطاء والحب والسلام

ها هي العشر الأواخر من رمضان تمضي، وقد هدأت النفوس بعد أيام دامية مثيرة، ليعم سكان الدولة الإسلامية الارتياح، على الرغم من الحصار الذي لا يزال مضروبًا عليهم من قبل الوثنيين، ويقترب العيد، فإذا الوحي يقدم الهدايا والهبات.. نزلت أحكام زكاة الفطر رحمة بالفقراء: صاع من تمر أو شعير أو زبيب أو أقط.. يدفعه المسلم الحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير، وقد أمر ﷺ أن يدفع قبل خروج الناس لصلاة العيد، وهذه الزكاة كفارة لكل الصغائر التي اجترحها الصائم في رمضان، حيث قال ﷺ لأصحابه: «**زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، من أداها قبل الصلاة، فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات**». أمرهم بالتبكير في دفعها حتى لا يبقى جائع ذلك اليوم، وليشعر الفقراء برباط الأخوة مع الأغنياء، وقد كان ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات وترًا. أي أعدادًا فردية من التمر واحدة أو ثلاث وهكذا، وبعد أن ارتفعت الشمس قليلًا أخذ ﷺ المسلمين والمسلمات إلى الصحراء ليصلي بهم صلاة العيد.. دون أذان أو إقامة، ولم يتنفل قبلها ولا بعدها، وهي ركعتان كالفجر، لكنه كبر في الركعة الأولى سبع تكبيرات، ثم قرأ الفاتحة وسورة (سبح)، وفي الركعة الثانية كبر خمس تكبيرات، ثم قرأ الفاتحة وسورة الغاشية، وبعد الصلاة التفت للناس، وقال: «**إنا نخطب، فمن أحب أن يجلس للخطبة فليجلس، ومن أحب أن يذهب فليذهب**»، وبعد الخطبة توالت مظاهر الفرح على الرغم من الأحزان، حتى سمع الناس صوت الدفوف في بعض البيوت.. كان مجتمعًا متآلفًا متسامحًا زادته الزكاة رحمة وتعاطفًا.

ظل ذكر الزكاة يشرق كالشمس، حتى لا تكاد تذكر الصلاة إلا وتلازمها الزكاة، لينشئ ﷺ مجتمعًا لا ينسى فقراءه، ولا يهمشهم.. في تلاحم أغاظ قلوبًا سوداء يقتلها الحقد، وهي تفتش كتابها المقدس، فترى بين كلماته ووعوده صفات لا

تنطبق إلا على محمد ﷺ.. لقد صدم اليهود حينما رأوا أن غزوة بدر، وقتل طواغيت قريش موجودة في التوراة حتى اليوم، فهل سيسلمون، ويعترفون بنبوته ﷺ، أم سيمسحون اسمه من التوراة؟

التوراة تحدث اليهود عن غزوة بدر

تسلل اليهود نحو مدن الجزيرة العربية المشهورة بالنخيل.. يحلمون بلقاء نبي سيظهر بين جبال فاران بمكة، ثم يضطهده قومه، فيهاجر نحو مدينة ذات نخل.. أمرتهم التوراة بملاقاته ونصرته، فتقاطروا نحو تبوك ويثرب وهجر وخيبر وفدك، وغيرهن من مدن النخيل.

لم يسكنوا مكة؛ لأنه سيهرب منها، وتمر القرون، ويظهر النبي ﷺ في مكة، ويضطهده قومه، فيهاجر إلى يثرب، فيتأكد اليهود أنه هو، لكنهم عنصريون.. صدموا؛ لأنه ليس من قبيلة (إسرائيل) وهو يعقوب بن إسحاق، بل من نسل عمهم إسماعيل.

لم تقف عنصريتهم على النبوة فقط، بل تجاوزتها للعقيدة، فهم يرون أن الله رب لليهود فقط، أما بقية البشر فكالبهائم قد تبرأ الله منهم.. غلا اليهود والنصارى في تعظيم إسرائيل حتى جعلوا له مرتبة فوق الله، فكتابهم المقدس يقول: إن الله ﷻ تصارع مع يعقوب، ففاز يعقوب؛ لذا لقبه الله بإسرائيل؛ لأنه قاهر البشر وخالق البشر. لم ينشغل النبي ﷺ بخرافات اليهود، بل عاملهم بلطف.. إن أتوه رحب بهم، وأجاب أسئلتهم، وإن أظهروا تكذيبًا تركهم وشأنهم، أما هم، فينتظرون نبوءة التوراة الكبرى التي حذفوا منها اسم محمد.. نبوءة تقول: «وحي في الوعر في بلاد العرب، فبيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدّانيين، وهاتوا ماءً للعطشان يا سكان تيماء، واستقبلوا الهارب الجائع بالخبز؛ لأنهم هاربون من السيوف والأقواس المشدودة وويلات الحرب. قال الرب: بعد سنة يفنى كل مجد عدنان، ولا يبقى من أصحاب الأقواس من جبابرة بني عدنان غير القليل».

هـذه العبارات تصـف الهجرة ومعركة بدر، ونهاية جبابـرة العرب كأبي جهل، لكن اليهود قوم بهت كما وصفهم حاخامهم السـابق عبدالله بن سلام.. اجتمع كبار قبائلهـم: قينقـاع والنضـير وقريظة بعد بدر.. مؤكديـن أن محمدًا هـو النبي المنتظر، لكـن لأنه ليـس يهوديًّا، فقد قرروا الحرب عليه وعلى دولته، والتحالف مع أي عدو ضده. منهم من بدأ يعمل سرًّا كحيي بن أخطب، ومنهم من جاهر، وأعلن وسـافر هنا وهناك يقول الشـعر، ويحـرض الوثنيين، ولأن هؤلاء اليهـود مواطنون في دولة الإسـلام، لكنهـم يحرضون الأجنبـي على دولتهـم العادلة، وقائدهـا ﷺ، فما القرار الذي سيتخذه القائد تجاههم؟

لا إقصاء للآخر في الدولة الإسلامية

بعـد غـزوة بدر ظل النبـي القائد ﷺ منشـغلًا كما كان بإرسـاء العـدل، والبناء والوعـي.. تجاهـل الحاقدين وأصحاب القلوب السـوداء.. لم يقـل لأصحابه صرنا أقويـاء، فأبلغوني عمـن يكذبني.. لم يطلق أعينهم لرصد من يسـبه، بل فتح عقولهم وآفاقهم على الآخر، فقال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»؛ لأنها مجرد حكايات وتـراث شـعبي لا يصـدق ولا يكـذب، لكـن عنـد الحديث عـن العقيـدة والعبادة والتشريع.. يعود ذلك التراث للأرفف، فلا قيمة له: ﴿[illegible]
وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

القرآن والسـنة هما نبـع العقيدة والعبادة الصافي، وحتـى يضمن ﷺ صفاء هذا النبـع، ولا يلتـاث كـما تلوثـت التـوراة والانجيل قـال لأصحابه: «**مـن كذب عليَّ متعمـدًا فليتبـوأ مقعده من النار**»، بل شـدد، فقال: «**من حـدث عني بحديث، وهو يرى أنه كذب، فهو أحد الكاذبين**».

منهج لم تعرفه الأمم، ثم أطلق أصحابه كالشموس، فقال: «**بلّغوا عني ولو آية**» لتصبح الحالة الثقافية للصحابة كالآتي:

أولًا: هناك تراث ديني يهودي ونصراني محشو بالأساطير والأكاذيب.. لا بأس من الاطلاع عليه.

ثانيًا: هناك علوم الدنيا من زراعة وصناعة وبناء وتقنية قال عنها ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**».

ثالثًا: هناك الأهم: العقيدة والعبادة، وهذه لا مصدر لها سوى وحي نقي.. هو القرآن والسنة، وعلى الأمة مسؤولية الحفاظ عليها من التلويث.

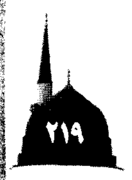
شعر بعض المواطنين كالمنافقين واليهود برغبة شديدة في تحطيم هذه الدولة الراقية، لكن قائدها ﷺ كان أبرع الناس في لم الشمل والوئام، حتى قال أحد أصحابه: «قدم النبي المدينة وأهلها أخلاط: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، فأراد ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك».

إذًا.. كان القائد ﷺ يريد استصلاحهم كلهم.. لا استصلاح المسلمين فقط، وهذا يعني أنه لا إقصاء، ولا اعتقالات، ولا تصفيات، فليعرض كل عقيدته تحت الشمس، فللناس عقول، والفوز للمقنع والمبدع؛ لذا انشغل المؤمنون بالإبداع والدعوة بالإقناع والتسامح، وانشغل المنافقون واليهود بالحقد والكراهية، وبث الفرقة والتآمر مع الأعداء.

أحزاب المعارضة منافقون ويهود

تشكل في المدينة حزبان معارضان لدولة الإسلام:

حزب صريح ومسلح.. هم اليهود، لدرجة وصفهم أحد الصحابة، فقال: «هم أهل الحلقة والحصون».



ومعارضة خفية تتظاهر بالإسلام، وهم المنافقون.. الذين يصعب تمييزهم إلا عند الشدائد.. حين يصبح الوطن في خطر.. عندها ينشطون، ويطلقون ألسنة كالأفاعي. ومع ذلك، ومهما بلغ خبث الحزبين، فلن تستطيع قوة في الأرض أن تزعزع دولة بناها محمد ﷺ؛ لأن المعجز في بنائه.. هو أنه لم يكن يستخدم القوة لقمع معارضيه، أو العنف تجاه من يكفر به.. كان يقمعهم بشيء أشد يسمى (العدل) فلا سيف أمضى منه.. العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض.. لن يعجز عن حماية دولة.

بدأ المنافقون واليهود بشتم النبي والإسلام سرًّا وعلانية.. في المجالس الخاصة والعامة، فنزل الوحي يفضح ممارساتهم، لكنه يأمر قائد الدولة ﷺ بعدم الإقصاء، أو العنف، بل أمره بالانشغال بالعدل والتسامح والعفو. فقال سبحانه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦]، وكان أشرسهم زعيم يهود بني النضير، يدعى: كعب بن الأشرف، ففيه وفي أمثاله قال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٠٩]، فالعفو والعدل يخجل المعارضة، ويجعل الناس يتخلون عنها.. يرونها مجرد ثرثرة، وهذا ما شعر به اليهود. شعروا بالإفلاس أمام رصيد محمد ﷺ في القلوب، فانتقلوا من الثرثرة إلى الحركة.

يقول أحد الصحابة: «إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا، وكان يهجو رسول الله، ويحرض عليه كفار قريش في شعره».

عفا النبي القائد ﷺ عن كعب، فتمادى، ثم عفا عنه، فتمادى أكثر، ثم بدأ يمارس تجييش الوثنيين ضد الدولة.. عندها تغير الوضع، فهذا الحاخام اليهودي ليس فردًا عاديًّا يمثل نفسه فقط، وينفس عن مشاعر الكراهية داخله، بل هو زعيم لأحد مكونات الدولة، لكنه عميل لأعدائها، ومع ذلك لم يتخذ القائد ﷺ قرارًا من نفسه.

تـرك القـرار لشـعبه، وجعـل التنفيـذ بأيديهم، حين قـال لهم: (مـن لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله).

المواطن اليهودي ابن الأشرف في رحلة خيانية

لم يكتـفِ حاخـام يهود بني النضير كعب بن الأشرف بعدائه للإسـلام، ولم يُجدِ معه تسـامح النبي ﷺ وعفوه عنه.. كان لئيمًا لا يزيده الإكرام إلا لؤمًا.. لما عجز عن تمزيق وحدة الدولة الإسـلامية.. انتقل للتحريض عليها من الخارج، بتأليب قريش والوثنيين. ها هو في حصنه في العوالي.. يهيئ راحلته للقيام برحلة بين القبائل الوثنية، لحشد تجمع وثني يهودي عسكري، لتحطيم الدولة الإسلامية، وقتل قائدها، وسبي نسائها، وتفريق مهاجريها، فعندما يكون الحقد والعناد وضعف الحجة هو المحرك.. لا يتسـاءل أحـد: مـا الذي يجعـل حاخامًا يهوديًـا ينتمي لدين سـماوي يتحالف مع وثنيـين يكفرون بالله واليوم الآخر والتوراة، ويعبدون الحصى والخشـب.. ضد دين الإسلام الذي يؤمن بالله واليوم الآخر والتوراة التي أنزلها الله؟

مـا الذي يجعل زعيـمًا يهوديًا يحرض وثنيـين يكفرون بأنبياء اليهـود.. ضد نبي يبجـل أبا اليهود يعقـوب، فيصفه بأنه (الكريم بن الكريم بـن الكريم)، ويقول عن نبـي اليهـود الأبـرز موسـى ﷺ: **«لا تخيروني على موسى، فـإن النـاس يصعقون يوم القيامـة، فأصعق معهم، فأكون أول من يفيق، فإذا موسـى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق، فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله؟»**.

أما الأسـوأ في رحلة هذا الحاخام اليهودي، فهي تصريحاته في أثناء محادثاته مع قريش، فبعد جلسة مباحثات ألب فيها على دولة الإسلام.. طمع وثنيو مكة بشهادة من هذا الحاخام قائلين: «نحن أهل السقاية والسدانة، وأنت سيد أهل يثرب، فنحن خـير أم محمد، هذا الصنيبير المنبتر مـن قومه، يزعم أنه خير منا؟» لم يتردد الطاغوت

اليهـودي في الكـذب عـلى الوثنيين واسـتغفالهم، قائـلًا: «أنتم خير منـه» فأخبر الله نبيـه ﷺ بـما جـرى في مكة وهو بـين أصحابـه.. ها هو الطفـل أنس بـن مالك يرى ويـروي، فيقـول: «بينـا رسـول الله ذات يوم بين أظهرنـا، إذ أغفى إغفـاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت عليَّ آنفًا سورة»، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾[الكوثر: ١-٣]، ثـم أخبرهـم بأن الكوثـر نهر وعده الله إياه، ثم تلا عليهم آيات أخرى فضحت الحاخام، وفضحت تزويره.

الشعب يقرر معاقبة الخائن

بعـد زيارة الحاخام اليهودي كعب بـن الأشرف الخيانية لقريش وغيرها.. عاد للمدينـة واثقًـا من الإطاحة بدولة الإسـلام، ليجـد القرآن قد سـبقه بآيات تفضح مؤامراتـه، وتزويره وافـتراءه.. نزل قوله تعـالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾[النساء: ٥١].

هنـا جعل قائد الدولة القرار لشـعبه كعادته، بل هي سـنته، فقال: «من لكعب ابن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسـوله» انبرى زعيم الأوس سـعد بن معاذ، الذي إذا غضب لله ورسـوله لا يحسـب حسـابًا لأحد، فهو من هدد أبا جهل في مكة.. في عقـر داره، وبـين جبابرتها، فكيف بخراف يهود؟ ولا سـيما وهو حليفهم وحاميهم، لكنهم قرروا الخيانة والتنصل من الحلف، وسعد لا يطيق الخونة؛ لذا جمع خمسة من رجال الأوس.. هم: ابن أخيه الحارث بن أوس، ومحمد بن مسلمة، وعباد بن بشر، وأبـا العبس بن جبر، وخامس يدعى أبونائلـة.. اختاره للتمويه؛ لأنه أخو كعب بن الأشرف من الرضاع. خمسة يكادون ينفجرون من خيانات ابن الأشرف، ومتعجبين من حلم نبيهم وقائدهم عليه؛ لذا توجه محمد بن مسلمة بعد الاجتماع لنبيه ﷺ ممتلئًا بالحـماس، فكانت أول كلماته: يا رسـول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم» لم يكن ﷺ

يريدها حربًا، بل درسًا للخونة.. عملية جراحية دقيقة، لاستئصال ورم سرطاني بالمدينة يدعى كعب بن الأشرف.

فكر ابن مسلمة في خدعة يستدرج بها الطاغوت، لكنه لن يفعلها حتى يستأذن قائده ﷺ، فالمسلم الحقيقي منضبط حتى في ساحات الوغى.. استأذن نبيه في أن يُظهر لكعب أنه معادٍ للإسلام حتى يثق به قائلًا: «فأذن لي يا رسول الله، أن أقول شيئًا؟ فقال ﷺ: **قل**»، سار الشجعان، وسار معهم قائدهم ﷺ، حتى وصلوا مكانًا يقال له بقيع الغرقد. هناك وجههم، وودعهم، فقال: «**انطلقوا على اسم الله، اللهم، أعِنْهم**».

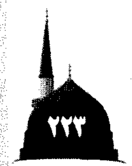
كانت الشمس على وشك الغروب، حين ساروا، ولما غربت توقفوا وصلوا، ولما حل الظلام كانوا على مقربة من منطقة العوالي.. حيث حصن بني النضير. ها هو مجلسهم يغص بمؤامراتهم وحاخاماتهم.. شعر اليهود بحركة، ورأوا أطياف الرجال، فاضطربوا، والتفت كعب بن الأشرف، وقد أصابه ذعر شديد، فصاح بهم: «ما جاء بكم؟».

◆ ◆ ◆

أين تخرج هذه الساعة؟

التفت كعب بن الأشرف، وهو في مجلس النضير بالعوالي إلى الشباب المقبلين عليه، فأنكر مجيئهم في هذه الساعة، وملأ الرعب ثيابه، فصاح: «ما جاء بكم؟» فقال أحدهم: «جاءت بنا إليك الحاجة» لم يكن كريمًا ليدعوهم، ولن يذهب إليهم، فهو خائف؛ لذا قال: «فليدنُ إلي بعضكم، فليحدثني بها».

هنا تقدم محمد بن مسلمة بهدوء، ولما اقترب منه أخبره بأنهم في حاجة ملحة للمال، لدرجة اضطروا معها إلى بيع دروعهم، وقال: «إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، وقد مللنا منه، وإني قد أتيتك أستسلفك»، شعر الطاغوت بارتياح كبير، فمن ناحية لاحت فرصة للنيل من محمد، ومن ناحية أخرى فرصة لممارسة الابتزاز بالمال، وهي هواية يهودية بامتياز؛ لذا قال: «والله لتملنه، ولقد



علمت أن أمركم سيصير إلى هذا»، فأظهر ابن مسلمة تأييده لكعب، لكنه أشعره بالتزامهم ببيعة العقبة، فقال: «إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أو وسقين؟»، فطلب كعب شيئًا يضمن ماله به، فقال: «أرهنوني؟» فأظهر الشباب موافقتهم حتى تتطاير الشكوك من رأس الطاغوت، فقالوا: «أي شيء تريد» فكان جوابه خسة يهودية، حين قال: «أرهنوني نساءكم»، فقالوا: «كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟» فقال: «أرهنوني أبناءكم». قالوا: «كيف نرهنك أبناءنا، فيُسب أحدهم، فيقال: رُهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا؟ ولكنا نرهنك اللأمة»، أي السلاح.

وافق كعب، ثم تفوه بكلمات تحريضية، قائلًا: «والله لئن فعلتم ذلك، لقد جهدتم» أظهر ابن مسلمة تأييده لكلامه، فوجدها كعب فرصة لتنفيذ مؤامرته، لكن المكان غير مناسب.. تلفت، ثم طلب من ابن مسلمة أن يأتيه بعد العشاء، حين يهدأ عنهم الناس، وتغيبهم البيوت.

وافق الشباب وانصرفوا، وبعد أن صلوا العشاء مكثوا وقتًا، حتى تأكدوا من نوم أهل الحصن وانطفاء مشاعله. أشرق البدر، وأنار للشباب دروبهم نحو الحصن، فساروا، ولما وقفوا تحت نافذة كعب.. صاح أبو نائلة: «يا أبا الأشرف».

انتبه الطاغوت الذي أخذه النعاس لطول الانتظار، ولما هم بإزاحة لحافه تعلقت به عروسه الجديدة، وهي مرتعبة تناشده البقاء، وتقول: «أين تخرج هذه الساعة؟».

صوت يقطر دمًا

دخل الحاخام كعب بن الأشرف غرفة نومه، فعطرته عروسه بأفخر عطورها، لكنه كان منشغلًا عنها بموعده.. ينتظر وينتظر حتى أصابه النعاس، فاستلقى على فراشه، وقبل أن يغرق في نومه انتبه على صوت أخيه من الرضاع أبي نائلة ينادي:

«يـا أبـا الأشرف»، نهـض الطاغوت وهمّ بإزاحة لحافه، فأمسـكت عروسـه بطرف اللحـاف وهـي خائفـة تقـول: «أين تخرج هذه السـاعة؟ أنـت امرؤ محـارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة؟» فقال: «إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبونائلـة، لو وجـدني نائمًا ما أيقظنـي». فقالت: «والله إني لأعـرف في صوته الشر». فقال لها: «لو دعي الفتى لطعنة أجاب».

تشـاءمت من كلماته، وازدادت ضربات قلبها، وحاولـت ثنيه عن عزمه قائلة: «مـا طرقوك سـاعتهم هذه لـشيء مما تحب»، فطمأنهـا قائلًا: «بلى، إنهـم قد حدثوني حديثهـم».. كانت تدرك أن هذا الشر الذي يجلس بجانبها لا يمكن السـكوت على مؤامراتـه، فلم تجد سـوى كلمات كالوداع، قائلة: «إني أسـمع صوتًـا كأنه يقطر منه الـدم» تجاهل رجاءاتها، وغـادر الغرفة، والطيب يتضوع من ثيابـه، ثم نزل نحو أبي نائلـة، ففاح الطيـب وهو مقبل، فهمس محمد بن مسـلمة برفاقه قائـلًا: «إذا ما جاء فإني سـوف أمد يدي إلى رأسـه فأشمه، فإذا رأيتموني اسـتمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه» أقبل الطاغوت متوشحًا.. ينفح منه الطيب، فأحب ابن مسلمة أن يشعره بالأمـان، فقـال: «ما رأيت كاليوم ريحًا أطيب» فشـعر بالزهو، وقال: «عندي فلانة، أعطر نساء العرب وأكمل العرب»، ثم أخذوا يحدثونه حتى اطمأن، فأغراه أحدهم بمسامرة في هذه الليلة القمراء قائلًا: «هل لك يا ابن الأشرف، أن نتماشى إلى شعب العجوز، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟» فأبدى موافقته قائلًا: «إن شـئتم» فتماشـوا.. يتهادون تحت شـعاع القمر.. هنا التفت محمد بن مسلمة للطاغوت قائلًا: «أتأذن لي أن أشـم رأسك؟ قال: نعم» أدخل محمد أصابعه في شعره، فشمه، ثم شمه أبونائلة، ثم طلب من رفاقه أن يشموه.

انطلقـت الهمهـمات، ورأس كعب يدور بـين الأيدي كرأس خـروف، ثم قال ابن مسـلمة: «أتأذن لي أن أعود؟ قال: نعم» هنا قبض ابن مسـلمة على شـعره قبضة أشعلت نيران الحصن كلها.

نيران الحصن تشتعل

قبض ابن مسلمة على رأس الطاغوت قبضة كالموت، ثم صاح بأصحابه: «دونكم فاقتلوه» سل الشباب سيوفهم، فأغمدوها في كتلة الخيانة، حتى إن بعضهم أصاب الحارث بن أوس من العجلة، فدوت من جوف الخائن صيحة أيقظت سكان الحصن، فأوقدوا مشاعلهم، وفتحوا نوافذهم ينظرون.. يسأل بعضهم بعضًا.

تلألأ الحصن بالنيران، وانفتحت الأبواب، وانحدر الرجال بمشاعلهم نحو مصدر الصوت، وانطلق رفاق ابن مسلمة، لكنه أراد التأكد من موت الطاغوت، فانتزع من حزامه سيفًا قصيرًا يسمى (المغول)، فأجهز به عليه، وانطلق خلفهم.

تفرق اليهود جماعات بحثًا عن مصدر الصوت، وأدركت آخر زوجات الطاغوت أن مكروهًا وقع له.. بحثوا خارج الحصن، فوجدوا جثته في الشعب غارقة بدمائها. علا النواح في الحصن، ودب الرعب بين سكانه بني النضير، وأدركوا أنهم تجرعوا السم الذي أعدوه لمحمد، أما ابن مسلمة ورفاقه، فظلوا يركضون.. يركضون.. حتى عبروا منطقة بني أمية بن زيد، ثم مروا بمنطقة محصنة يسكنها يهود بني قريظة، ثم مروا على بعاث، وهي منطقة الثارات قبل الإسلام، ولما لامست أقدامهم مكانًا يقال له حرة العريض تلفتوا، فلم يروا أوس بن الحارث.. لقد ضعف ركضه شيئًا فشيئًا مع النزيف، فقرروا الوقوف في الحرة وانتظاره حتى يصل، وبعد ساعة من الانتظار نظروا، فإذا هو مقبل يترنح من الإعياء والنزيف.

اقتربوا منه، فحملوه، وانطلقوا حتى دخلوا المدينة في آخر الليل، وحالما دخلوها توجهوا نحو بيت القائد ﷺ وهو قائم يصلي، فسلموا عليه من وراء الباب. سمعهم ﷺ، فلما فرغ من صلاته خرج لهم، وجلس معهم، فأخبروه بنجاح مهمتهم، فقال: «أفلحت الوجوه» ونجحت عملية استئصال الورم الخبيث، الذي كان يخطط لحرب أهلية تعيد أيام بعاث والوثنية، ثم نظر ﷺ إلى جرح الحارث بن أوس فنفث عليه، ثم انطلق الرجال إلى بيوتهم، وقد تحول حصن يهود بني النضير إلى حصن من الرعب لا يطاق.. كأن الأشباح تجوبه، فما من يهودي إلا هو خائف على نفسه.

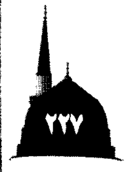
اجتمع كبارهم، فقرروا التوجه في الصباح للقاء يهود بني قريظة وبني قينقاع، وبقايا الوثنيين في المدينة.

وثيقة وطنية مكتوبة

لم يكـن اليهـود والوثنيون في حاجـة إلى هذا الرعب، الذي اشـتروه بخيانتهم، فأحد الصحابة يصف محاولات القائد ﷺ التي لا تتوقف لدمجهم قائلًا: «أراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجـل يكون مسـلمًا وأخـوه مشرك»، لكن اليهـود أيدوا زعيمهـم ابن الأشرف، للقيـام بتفتيـت دولة الإسـلام بالتآمر مع الوثنيـين، فدفع كعب حياتـه ثمنًا لخيانته، وهنا اجتمع كبار قومه بني النضير، ثم ساروا نحو حصني يهود بني قينقاع وقريظة، وبعد مشـاورات خائفة.. فضل الطرفان التوجه للمنافق عبدالله ابن سلول، ورفاقه الذين يتظاهرون بالإسلام، فعقدوا معهم مشاورات.. لم يكن بإمكانهم شن حرب، فمحمـد هزم قريشًـا، واجتـث طواغيتها.. كانـوا يبحثون عن التهدئـة مؤقتًا، حتى تلوح الفرصة للانقضاض.

انطلق الوفد، فاسـتقبلهم النبي القائد ﷺ، ولما جلسوا قالوا: «قد طُرق صاحبنا الليلة، وهو سـيد من سـاداتنا، فقتل غيلة» هنا قدم القائد ﷺ لهـم بالوثائق خياناته، وذكر لهم الذي كان يقول في أشعاره، ويؤذيهم به.. نظر بعضهم إلى بعض، وانعقدت ألسنتهم وألسنة الوثنيين. لم يكتفِ ﷺ بكشف مؤامراتهم وإحراجهم.

كان يهـدف إلى شيء أكـبر.. يهـدف إلى اسـتصلاحهم قبـل مغادرتهـم؛ لأنـه يحمـل رسـالة ونهجًـا تصالحيًّا راقيًـا، وقيـمًا للتعايـش والمواطنة، لكن إرسـاء تلك القيـم العظيمـة لا يتحقق بالـكلام العاطفي وهـز الرؤوس، وابتسـامات المجاملة، فالنبي ﷺ لم يعد مسؤولًا عن نفسه فقط كما كان في مكة ﷺ.. إنه الآن حاكم مسؤول أمام الله عن شعبه ودولته، ولن يتخلى يومًا عن حمايتها، وقطع اليد التي تمتد بالأذى



لهما، لكنه أيضًا لن يبني سجونًا ومعتقلات، ولن يبطش بالتهمة، بل سيضع كل أطياف المجتمع من مسلمين ويهود ووثنيين تحت طائلة النظام والقانون المكتوب.

دعاهم إلى كتابة وثيقة وطنية توقع عليها كل الأطراف، وتتحمل كل طائفة مسؤولية توقيعها؛ كي ينتهي هذا التوتر المفتعل.. دعاهم القائد ﷺ أن يكتب بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة فيها جامع أمر الناس. فوافقوا، فأملاها على أحد الصحابة، ووقع عليها اليهود والوثنيون دون إكراه، فعاشت المدينة في وئام وسلام واستقرار حتى علم طواغيت قريش بالأمر.

مدينة السلام والعدل

بعد تلك الوثيقة تنفست المدينة.. عادت واحة للسلام والأمن.. لم يعد المسلمون واليهود والوثنيون في حالة عداء، بل في حالة شراكة وطنية.. تنزلت الآيات تأمر بتطبيق الشريعة الإسلامية.. لم ينزل حد السرقة، ولا غيره من الحدود.

نزل أهم ما في الشريعة، بل القاعدة التي تبنى عليها الدول التي تبحث عن الاستمرار والاستقرار والقوة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

نزل قول الحق: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ولا يتضح العدل إلا حين يطبق في حق الآخر المخالف، أو الخصم، أو العدو الذي بينه وبين الحاكم شنآن وعداوة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، بل الله يأمره بالعدل مع أشد المعادين للقائد ﷺ ودولته، وهم اليهود على الرغم من أنهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، بل إن الله يجعل التعامل بذوق ورقي مع غير المسلمين سببًا في جعل الحاكم من أحباب الله،

فيقـول: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة: ٨].

تطمينـات وآيات هدأت أنفس عامة اليهود، لكنهـا أثارت حقد حاخاماتهم.. صنـع العـدل أجواء جميلـة تخللتها بعض المنغصـات، فها هو ﷺ حزيـن لفراق أحد أبطـال بدر: خنيس بن حذافة.. زوج حفصة بنت عمـر.. يصلي عليه، ويدفنه، وتمر الأيـام، وتنقـضي عدة حفصـة، فيتأملهـا والدها، ويتمنـى إزاحة حزنها واسـتئناف حياتهـا، فلم يجد أنسـب من صديقه عثمان بن عفان علهـا تعوض فقده لحبيبته رقية، ويعوضهـا فقدهـا لخنيس. توجه إليـه، وعرض عليـه، وقال: «إن شـئت أنكحتك حفصة» نظر عثمان إلى صاحبه، ولم يستعجل الرد، بل قال: «سأنظر في أمري»، وتمر الليالي وهو يراجع نفسـه، وبعدها اتخذ قراره، فاتجه إلى عمر معتذرًا وقائلًا: «قد بدا لي ألا أتـزوج يومـي هذا» حزن عمر لكن حبـه لحفصة جعله يذهب ليخطب لها من يدللها.

توجـه لأبي بكر الصديق، ولـما توقف بين يديه عرض عليـه، فصمت الصديق صمتًا طويلًا محيرًا.. أحزن عمر كثيرًا، فانصرف دون أن يسمع منه كلمة.

حفصة أسعد امرأة

اعتـذر عثمان عن الزواج من حفصة؛ لأن جرح حبيبته رقية لم يندمل.. تذكره بها جدران بيته، ويشـتاقها كلـما كحل عينيه بطيف والدها ﷺ، لكن عيني أبي القاسـم لا تخطئان مشاعر عثمان.. كان ﷺ يشعر بوجده على ابنته.. يشعر بدلاله لها، ورقته معها.. أشفق على قلبه، ودنا منه.. خاطبه، وخطبه لابنته وفلذة كبده أم كلثوم، على الرغم من أنه في الخمسـينيات، وهي دون العشرين، فإذا جراح عثمان تشـفى بعودة النسـب بينه وبين نبيه ﷺ.. أشرقت عليه أم كلثوم، فمن أسعد منه.. زفتها زينب وفاطمة، أما عمر فظل حزنه ثقيلًا، وعتابه أثقل على صاحبه أبي بكر وصمته الغريب.

لم يـدرِ أن الصديـق يكتم سرًّا لا يقوى عـلى البوح به، وتمر الليـالي حزينة، فإذا السـعادة تشرق عـلى حفصة، وإذا النبي ﷺ يتقدم لخطبتها، فلم تسـع الدنيا سـعادة أبيها، ولم تجد حفصة قلبًا يتسع لكل هذا الفرح.. زفت حفصة إلى زوجها، وسكنت إحدى بيوت القائد المتواضعة، التي لا يطبخ فيها أحيانًا إلا كل شـهرين، وابتهجت المدينـة بذلـك الزفاف، وتقاطـر المهنئون، وكان من بينهم أبوبكـر، الذي اقترب من أخيـه عمـر، فنظر إليه نظرات اعتذار، وكأنه يعيده مـن ظنونه التي كادت تبعده عنه قائلًا: «لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة، فلم أرجع إليك؟».

لم يخـفِ عمـر عتبه فأبوبكر يقف خلف رسـول الله في قلبه.. أجاب دون تردد: «نعم» وكأنه يقول: أنت لا تعلم كم هي المسـاحات التي تحتلها في قلبي يا أبا بكر.. عندها أفشى الصديق سره، وأزاح عن قلب عمر همه، قائلًا: «إنه لم يمنعني أن أرجع إليـك فيما عرضت، إلا أني قد علمت أن رسـول الله ﷺ قـد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله، ولو تركها لقبلتها».

عاد الشـيخان أكثر حبًّا لبعضهما من قبـل.. ذات يوم أقبل هذان الكهلان نحو مجلس نبيهما ﷺ، وكان علي بن أبي طالب جالسًا، فالتفت ﷺ إلى علي، وقال له كلمات مـن نعيـم.. يتحدث عنها عـلي، فيقول: كنت عنـد النبي ﷺ، فأقبـل أبوبكر وعمر، فقال: «**يا علي، هذان سـيدا كهول أهل الجنة بعد النبيين والمرسـلين**» يا لها من بشرى، ومـع ذلـك كان الشـيخان يتلهفان لقرب أكثر مـن نبيهما.. لم يكتفيـا بمصاهرته.. لم يكتفيا بعائشـة وحفصة في بيته وقلبه ﷺ. توجها كلٌّ على حدة أملًا في أن تكون آخر بناته فاطمة من نصيبه، فجاء الرد غاية في التهذيب والغرابة أيضًا.

فاطمة صغيرة

توجـه أبوبكر لنبيه ﷺ يخطب فاطمة، فنظر إليه وأجابه إجابة فهمها الصديق.. قال ﷺ: «**إنها صغيرة**»، ثم جاءه عمر، فخطبها، فأجابه الإجابة نفسها.

ترى هل فاطمة صغيرة على الزواج؟ بالتأكيد لا، فأختها أم كلثوم لم تبلغ العشرين وقد تزوجت عثمان الذي تجاوز الخمسين، وعائشة أصغر منها، بل إن عائشة كانت مخطوبة في سن السادسة لجبير بن مطعم.. قبل أن يخطبها النبي ﷺ، إضافة إلى أن النبي أكبر وأسن من أبي بكر وعمر، فالفتيات يتزوجن في سن التاسعة في ذلك الزمن.. إنها ثقافة اجتماعية متعارف عليها، بل هي مستمرة في بعض المناطق حتى اليوم.

إذًا فما الذي يعنيه النبي ﷺ وفاطمة قد تجاوزت الخامسة عشرة.. إنه اعتذار لطيف، فالنبي لم يكذب، ففاطمة صغيرة، لكن ليس على الزواج، والأمر لا علاقة له بالأفضلية، فالنبي ﷺ زوج رقية لعثمان، ولما توفيت زوجه أختها أم كلثوم، وعثمان ليس بأفضل من أبي بكر ولا من عمر، بل إن ابنته الكبرى زينب التي كادت تموت من أجله حتى قال عنها: «**هي خير بناتي أصيبت في**» هذه الفتاة لا تزال متزوجة من رجل ليس بمنزلة أبي بكر ولا عمر ولا عثمان، بل ليس مسلمًا حتى الآن، وهو أبو العاص بن الربيع.

سبب الاعتذار هو أن النبي ﷺ كان قد وعد ابن عمه علي بن أبي طالب بتزويجه فاطمة، ولا يريد أن يخلفه، لكن عليًّا لم يبادر ويخطبها حتى الآن.. إنه مشغول بجمع المهر، فهو وأخوه جعفر الذي لايزال في الحبشة حتى الآن لم يرثا من مال أبي طالب شيئًا؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**لا يرث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن**».. الذي ورث أبا طالب هو ابنه الكبير عقيل الذي كان بين أسرى المشركين في بدر، لدرجة وصف النبي استحواذ عقيل على الإرث بقوله: «**وهل ترك لنا عقيل من منزل**».

لم يدرِ علي أن الخُطاب يتهافتون على الزهراء.. كان غير مستعجل في طلب يدها، فقد وعده النبي بها، وليس مدقع الفقر.. صحيح أنه سار ثلثي الطريق لبدر على قدميه، لكنه عاد من المعركة بشارفين، أي بناقتين سمينتين: الأولى من الغنائم، والأخرى منحها إياه القائد ﷺ من الخمس. لكن الناقتين ذهبتا مع الريح والخمر.. تلاشتا في قصة أبكت عليًّا، وأدمت قلبه، وأحزنت نبيه ﷺ.



حين بكى عليٌ مهرَ فاطمة

بـدأت القصة في فترة الهدوء التي وفرتها الوثيقة الوطنية بين المسـلمين واليهود والوثنيين.. سـاد الوئام أرض الدولة الإسـلامية، فتوجه علي إلى صديق له من يهود قينقاع لجلب نبات الإذخر، كي يبيعه على الصاغة اليهود، وقبل أن ينطلق أناخ ناقتيه عند بيت أحد الأنصار.. بيت يعج بالطرب والخمر.. التي كانت مباحة حينها. كان عمـه حمـزة داخل ذلك البيت، وكان فيه أيضًا مغنية، وقـد رأت الناقتين عند الباب، فاشتهت بعض الشواء، فانتظرت حتى لحظات السكر.

دارت أقـداح الراح، وعـلا صوت الطرب، ولما لعبت الحميا بالرؤوس غنت المـرأة لحمـزة قائلـة: «ألا ياحمز، للشرف النواء»، فنهض حمزة وسـل سـيفه منتشـيًا بكلماتهـا، ثـم خرج نحـو النيـاق، فجبّ أسـنمتها، وبقـر خواصرهما، ثـم أخذ من أكبادهمـا، وقدمهـا لندمائه، فشـووا أو طبخـوا وأكلوا.. يحدث ذلـك بينما كان علي يغـبر قدميه بحثًـا عن شيء يضيفه لمهـر فاطمة، ولما انتهى أخذ الإذخر لسـوق يهود قينقاع، فباعه، ثم عاد لأخذ ناقتيه.. سار متعبًا عبر الطرقات حتى وصل، ولما وصل صدم ببركة الدماء، وفجع بضياع ماله، فسـأل عمـن فعل ذلك؟ فأجاب المحيطون بالناقتين: «إنه عمك حمزة، وهو في مجلس شرب في هذا البيت».

لم يطـرق البـاب على عمه، فقـد تحير وقلّـت حيلته، وفاضت عينـاه، وصارت فاطمة أبعد وأبعد.. لم يعد يملك سـوى درعه ودراهم الإذخر.. انطوى على حزنه، ولم يجـد من يبث شـكواه له بعد ربه سـوى نبيه ﷺ. توجه إليـه، ولما دخل عليه وجد عنده ابنه زيد، فسـلم وأخبره. تكدر ﷺ، وطلب رداءه، وانطلق مع علي حتى أوقفه على ساحل الدماء.

نظـر ﷺ إلى الناقتـين فغضب، ثم نظر للبيت المجاور، فاسـتأذن أهله للدخول، فأذنـوا لـه، وحين دخل رأى الخمر قد حولت الأبطال إلى أجسـاد مترنحة، وألسـنة ثقيلة، ورؤوس أثقل.. نظر إلى عمه حمزة، وانتهره ولامه على فعله، فرفع حمزة رأسه الثقيلة ببطء نحو النبي وعلي وزيد، وحدق بعينين كالجمر حمرة بقدمي النبي ﷺ، ثم

رفع نظره إلى ركبته، ثم إلى رأسه، ثم تفوه بكلمات جعلت النبي يرجع للوراء حزينًا، ويغادر.

ماذا بعد كارثة الخمر؟

نظر حمزة إلى النبي ﷺ ورفيقيه، فنطقت الخمر بكلمات ما كان أبو عمارة ليتفوه بها لولا تأثير الخمر. قال حمزة للنبي وزيد وعلي: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟» فأدرك ﷺ أنه ثمل، فنكص على عقبيه القهقرى وخرج، وخرج معه علي وزيد، فالحديث مع السكران عبث لا طائل من ورائه؛ لأنه حديث خارج العقل، والكلمات التي تصدر عنه لا حل لها سوى التجاهل.. إذا حضرت الخمر تماهى العقل بالجنون، والوعي باللاوعي، والحلال بالحرام، والدنس بالمقدس.

السكران قد يقتل دون سبب، وقد ينتهك محارمه دون وعي.. الخمر حالة حيرت عمر بن الخطاب، حتى ألح على الله بالدعاء أن يبين فيها حكمًا قاطعًا، فقد نزلت آيات في مكة تفرق بين السكر والرزق الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].. كانت الآية تشير إلى أن هناك فرقًا بين الرزق الحسن والخمر، لكن عمر يظل يدعو: (اللهم، بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا)، وبعد فترة نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢١٩]، ولما نزلت الآية استدعى النبي ﷺ عمر وتلاها عليه، فقال عمر: «اللهم، بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا». بعدها امتنع بعض الصحابة عنها، وظل بعضهم يعاقرها بحجة أن فيها منافع.

ظلت الخمر تلوث أجواء المدينة الصافية، وتلقي بشرورها حتى على من لا يشربها، فقد أفسدت على علي حلمه بفاطمة، وظل معلقًا بشيء واحد هو وعد النبي ﷺ له.. لم يكن يدري أن الزهراء حلم الصحابة، وأن الخطّاب بدؤوا بالوفود.. أخبار تسربت إلى مسامع امرأة يهمها أمر علي، فأقلقها الأمر، فانطلقت نحو بيت

سيدها المتواضع تحرضه، وتحضه خشية أن يخسر الزهراء، ولما دخلت عليه أنبته بسؤال قالت فيه: «هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله؟» نظر علي إليها مستغربًا، وقد وخز السؤال قلبه، «فقال: لا. فقالت: فقد خطبت».. ارتج الأمر على الشاب الفقير، لكن مولاته ظلت تناشده وتحرضه، وتقول: «فما يمنعك أن تأتي رسول الله، فيزوجك» تأمل علي بيته وأثاثه، فقال: «وعندي شيء أتزوج به؟!».

مهر ابنة قائد الدولة الإسلامية

ظلت مولاة علي تلح عليه، وتلح قائلة: «فما يمنعك أن تأتي رسول الله، فيزوجك فاطمة» تأمل علي حاله، فقال: «وعندي شيء أتزوج به؟!»، لكن تلك المرأة تنضح بالحكمة وبعد النظر.. هونت من أمر المهر؛ لأنها من أعرف الناس بنبيها ﷺ.. قالت بكل ثقة: «إنك إن جئت رسول الله زوجك» سكت علي، لكن المرأة لم تسكت.. ظلت تحرضه.. ترجيه، وتناشده حتى أخرجته من بيته، فخرج حائرًا خجلًا.. مشى يسحب خطاه، حتى وقف أمام بيت نبيه ﷺ فاستأذن، فأذن له، ولما دخل سلم، ثم جلس بين يديه، فغشيته هيبة قائده حتى لا يقوى على النظر إليه، ولا التفوه بما في قلبه.. صمت وصمت.. ضاعت الكلمات، وتلاشت العبارات، ولم يبقَ سوى خفقات القلب والعبرات، ونظرات تتحاشى اللقاء بعيني حبيبه ﷺ.

موقف وصفه قائلًا: «لما أن قعدت بين يديه ﷺ أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلالة وهيبة» تأمل ﷺ تلك النظرات الشاردة.. كأنها تبحث عن فاطمة، فحاول لململة شتاته بسؤاله: «ما جاء بك؟» لكن عليًّا ظل ساكتًا، فسأله: «ألك حاجة؟» حتى هذا السؤال لم يُزل رهبة الموقف.. لو كان عليًّا جائعًا لنطق، ولو جاء ليقترض لتكلم، أما حين لا يملك المرء ما يقوله سوى قلبه، فما عساه يقول، ولغة القلوب لا تكتبها الحروف، لكنه أمام من يقرأ العيون، ويداوي القلوب.

تسلل ﷺ إلى أعماق الفتى حتى عثر عليه.. ملفعًا بالخجل وقلة الحيلة، فقال له: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» تنفس الفتى، وكأن جبال الدنيا أزيحت عن صدره،

وقـال: نعم. فقال ﷺ: «**هل عندك من شيء تسـتحلها به**»، فقام ابـن عم قائد الدولة بجـرد ممتلكاتـه، فلم يجد مهرًا، أو بعض مهر، فعـاوده الوجع، وقال بصوت يتهدج بالحزن: «لا، والله يا رسول الله» ترى ما المهر الذي سيشترطه القائد لآخر بناته، وما المهـر الذي يليق بالزهراء؟ تذكر ﷺ أنه أعطى عليًّا شـيئًا يحبه علي، فقال: «**ما فعلت درع سـلحتكها**» درع لا تصل قيمتها في نظر علي أربعة دراهم، ومع ذلك قال لنبيه: «عندي» فقال ﷺ مذكرًا إياه بوعده الذي لن يخلفه: «**هي لك يا علي. لسـتُ بدجال**» «**قـد زوجتكهـا فابعث إليها بهـا**» درع مهترئة.. هـي صداق فاطمة بنت رسـول الله وقائد الدولة، لكن لا بأس، فربما يهديها القائد كنوزًا من خزينة الدولة.

أثاث بيت ابنة قائد الدولة

فاطمـة أصغر بنات النبـي ﷺ فتاة كغيرها.. تحب أن يكـون لها مهر مجزٍ، وحلي وزينـة، وأثـاث وبيت جميـل، فإذا بمهرهـا وهي ابنـة رأس الدولة الإسـلامية درع لا تسـاوي أربعـة دراهم.. لا بـأس، فربما يأتيها الثـراء، لكونها ابنـة الحاكم، فبنات الأغنياء والسـلاطين يكتسـبن رفاهيتهن من ثراء آبائهـن.. إذًا فقد تثري فاطمة. ها هو والدها.. ها هو رأس الدولة يقدم لها هدايا فاخرة، وأثاثًا باهظ الثمن.

أهداهـا ثلاث قطـع هي: قربة للماء، وسـجادة صـوف صغيرة يجلسـان عليها تسمى خميلة، ووسادة من جلد محشوة بنبات الإذخر.

ما هذا؟ كيف تكون تلك الأشـياء مهرًا لابنة أعظم رجل مشـى على الأرض؟ أين ذهب نصيبه من الغنائم؟ ألم يقل سبحانه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١] أين ذهب نصيبه من الخمس، فأعداؤه والحاقدون عليه حتى اليوم يقولون: إنه أخذ الخمس لنفسه طمعًا؟

سنعرف الجواب بعد صلاة العصر، فبلال يؤذن الآن، والصحابة والصحابيات يتقاطرون نحو المسجد.. ها هو ﷺ يدخل عليهم، فيصلي بهم، وبعد أن يسلم مباشرة

ينهض فجأة على غير عادته.. يشق صفوف الرجال.. يتخطى رقابهم، ويدخل بيته، ثم يخرج وفي يده قطعة ذهب.. يسلمها لأحد صحابته، ثم يعود للمسجد والصحابة والصحابيات في أماكنهم.. يتلفتون.. يسأل بعضهم بعضًا فزعين لا يدرون ما الذي حدث. فإذ به ﷺ يشرق وعلامات الارتياح تزيد في بهائه، ثم يحدثهم عن سر فزعه، فيقول: «**إني ذكرت وأنا في العصر شيئًا من تبر كان عندنا، فكرهت أن يبيت عندنا، فأمرت بقسمته**» لم يقسم ﷺ ذلك التبر من الذهب بين فاطمة وعائشة وحفصة، بل قسمه بين فقراء شعبه، فهو لا يستطيع المبيت وعنده رصيد، أو في بيته درهم أو دينار مادام في دولته أيتام وفقراء وجياع.

زفت فاطمة بقربتها ووسادتها، ورضيت بما قسم الله لها، فقد تربت على أنها مجرد مواطنة.. لها في بيت المال مثلما لغيرها من الفتيات.. تربت في بيت قائد غنم مئات الإبل من بدر، لكن بيته ظل كما هو.. يمر عليه الشهر والشهران دون طبخ، فطعام بيت رأس الدولة التمر والماء وبعض اللبن.

الخمر تهدم البيوت

كاد الخمر يفسد زواج علي، لكنه أفسد صلاته، فذات يوم أقام عبدالرحمن بن عوف مأدبة عشاء، وكان علي بين المدعوين، وكانت الخمر أحد أصناف تلك المائدة. أكلوا وشربوا حتى حان وقت الصلاة، فقدم صاحب المنزل عليًّا للصلاة بهم، فتقدم وقد لعبت الخمر بالرؤوس، فكبر، وقرأ الفاتحة، ثم قرأ: (قل أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون).

بعد هذه الحادثة وأحداث مشابهة نزل قول الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان بلال إذا انتهى من الإقامة للصلاة رفع صوته في المسجد، فقال: «ألا لا يقربن الصلاة سكران» عندها ينكسر الشاربون، ويخرجون من المسجد، ويحيد من كان في

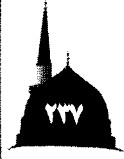
الطريق إليه.. يحيدون وضمائرهم تقتلهم، فيقلعون شيئًا فشيئًا، ولما نزلت تلك الآية قرأها ﷺ على عمر، وبعد أن أنصت لها ابن الخطاب لم يَرَ فيها تحريمًا، فظل يدعو، ويدعو، ويقول: «اللهم، بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا»، فصار من يشرب من الصحابة.. لا يشرب إلا في وقتين طويلين.. هما بعد العشاء مباشرة، أو بعد الفجر مباشرة، حتى يصحو منها قبل الصلاة التي تليها.

آية فهم منها أحد المدمنين، ويدعى مالك بن النضر أن الخمر في طريقها للتحريم، ونظرًا لضعف إرادته، فقد فضل معاقرة الخمر على زوجته الشابة الجميلة أم سليم، فهيأ راحلته، وطلق زوجته، وترك طفله أنس، ورحل للشام، أما زوجته الشابة العظيمة فتناولت خمارًا لها، وشقته نصفين.. جعلت نصفه إزارًا لطفلها الحبيب أنس، وجعلت من الآخر رداء يغطي به كتفيه الصغيرين، ثم أمسكت بيده الصغيرة، وهو يقترب من العاشرة، فانطلقت به حتى وقفت بين يدي نبيها ﷺ.. وقفت تهديه قرة العين وحشاشة الجوف، وتقول: «يا رسول الله، هذا أنيس ابني، أتيتك به يخدمك، فادعُ الله له. فقال: **اللهم، أكثر ماله وولده**».

صار أنس يخرج من بيت أمه كل يوم شوقًا لنبيه، الذي غمره بعذوبته حتى قال أنس: «خدمته ﷺ في الحضر والسفر، فوالله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه: لِمَ لم تصنع هذا هكذا؟» سلوك جعله يتدلل على نبيه، وكأنه من صلبه.. ذات يوم أرسله في حاجة، فقرر الطفل اختبار حلم النبي وحبه له.

أم سليم وأطفالها

نال الطفل أنس بن مالك من قلب نبيه، حتى تدلل عليه وكأنه من صلبه.. ذات يوم أراد معرفة حلم النبي ﷺ وحبه له.. حين أرسله لحاجة. فقال أنس: «والله لا أذهب»، ثم خرج وفي نيته أن يذهب.. مشى الطفل حتى مر بالسوق، فإذا أطفال يلعبون، فتوقف ببراءة الأطفال لمشاهدتهم حتى تأخر، وفجأة غمره فوح الطيب وهو يشعر بكفين ناعمتين تمسكانه برفق من الخلف.. هل هو نبي الله؟ ربما، فهو يقول: «ما شممت عنبرًا قط، ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله، ولا



مسست شيئًا قط، ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّا من رسول الله ﷺ» سمع الطفل صوتًا عذبًا يقول: «**يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك له؟**» اهتز الطفل والتفت، فإذا برسول الله يضحك في وجهه، فابتسم، وقال: «نعم، أنا أذهب يا رسول الله». وتمر الأشهر، وتنتهي عدة والدته أم سليم، فيتوجه أحد الوثنيين واسمه أبو طلحة إليها ليخطبها.. نظرت إليه بعينيها المليحتين، وعقلها الأكثر ملاحة، فجرفت قلبه، حين قالت: «يا أبا طلحة، ما مثلك يرد» لكنها صدمته بقولها: «ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة، لا يصلح لي أن أتزوجك» ظن أبو طلحة أن هذه المليحة تتمنع، ليضاعف مهرها من الذهب والفضة، فصارحها بظنونه، ففاجأته بطلبها مهرًا أغلى من الذهب والفضة.. مهرٌ لم تظفر به فتاة من قبل، فقالت: «إني لا أريد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام، فإن تسلم فذلك مهري لا أسألك غيره» ثم أخجلته، وهي تقول: «أما تعلم يا أبا طلحة، أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت».

انصرف أبو طلحة حائرًا مهمومًا، لكن قلبه أعاده مرات ليخطبها ليجد الإجابة نفسها حتى يئس.. عندها أعمل عقله، فإذا بنور الإيمان ينير قلبه، فينطلق نحوها ليبشرها بإسلامه، فتبشره بموافقتها.. أسلم على يد خطيبته العظيمة، ثم انطلق نحو نبيه ﷺ ليعلن إسلامه.. مشى أولى خطوات التوحيد نحو مجلس النبي، ولما أقبل تأمله ﷺ، فقرأ التوحيد في نظراته، فقال لأصحابه: «**جاءكم أبو طلحة، غرة الإسلام بين عينيه**»، وتمر الأشهر، فيرزق أبو طلحة بطفل ملأ شغاف قلبه، لكنه مرض ثم مات، ليفاجأ بفتاته أم سليم تتزين، وتتطيب يوم حزنه ورحيل صغيره، فيأخذ طفله ويقبله، ثم يتهادى حزينًا ليشكو زوجته عند نبيه ﷺ.

المرأة حين تتلمذ على يد محمد ﷺ

مات رضيع أم سليم، فبكته، واحتسبته، ثم تغلب إيمانها على حزنها، فغسلته وطيبته ووضعته في فراشه، ولما جن الليل نهضت، فأعدت عشاء، واغتسلت وتزينت

بأجمل ثيابها، وتطيبت، فلما عاد زوجها لم تصدمه بالولولة والنواح، بل راعته بأناقتها وطيبها، وحين سأل عن طفله طمأنته بقولها: «ما كان ابنك منذ اشتكى أسكن منه الليلة» تعشى الزوج، وأمضى ليلة من أجمل لياليه، ولما لاح الفجر نهض، واستعد للخروج، فأوقفته، وقالت بصوت ينث إيمانًا: «يا أبا طلحة، أرأيت لو أن رجلًا استودعك وديعة، فاستمتعت بها، ثم طلبها فأخذها منك، تجزع من ذلك؟ قال: لا. قالت: فإن ابنك قد مات» لكن أبا طلحة جزع، وعاتب حبيبته قائلًا: «تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني!» حمل طفله، وغمره بقبلاته الحزينة، ثم انطلق إلى نبيه ليحدثه بما فعلته زوجته بقلبه.

نظر ﷺ إليه متعجبًا من عظمة تلك الفتاة، وسأله: «**بتّما عروسين وهو إلى جنبكما**؟ قال: نعم، يا رسول الله، فدعا ﷺ لهما قائلًا: **بارك الله لكما في ليلتكما**»، فحملت تلك الليلة، وخلال حملها لم تتوقف عن صحبة نبيها ﷺ، فقد نذرت نفسها وأطفالها ووقتها لله.. كانت تصحبه في أسفاره حتى قال أنس: «إنها تخرج إذا خرج ﷺ، وتدخل معه إذا دخل»، فكان يثمن جهادها وتميزها، وتسخيرها بيتها لله.

ذات يوم عادت معه وهي على وشك الولادة، وقد توقف الركب على حدود المدينة، فأخذها الطلق، فقال ﷺ: «**إذا ولدت فأتوني بالصبي**، فولدت غلامًا، ثم قالت لأنس: انطلق بالصبي إلى رسول الله». انطلق أنس، فوجده يسم إبلًا، أو غنمًا.

نظر ﷺ لأنس، فقال: (أولدت بنت ملحان؟ قال: نعم. فألقى ما في يده، فتناول الصبي بحفاوة، وقال لأصحابه: «**ائتوني بتمرات عجوة**» مد أحدهم تمرات العجوة، فأخذ ﷺ إحداها فمضغها، ثم أخذ جزءًا منه بأصبعه، وجعل يحنك الصبي، أي يحك بالتمر سقف فمه، فبدأ الوليد يتلمظ بلسانه، فقال ﷺ لأصحابه كلمة جعلتهم يبتسمون.. قال: «**انظروا الى حب الأنصار التمر**»، ثم سماه عبدالله، كما فعل مع ابن ذات النطاقين العظيمة، حين أقبلت من مكة حاملًا.. كانت الفتيات تلميذاته، وشريكات نهضته، وناشرات الوعي والفضيلة في دولته.. تحضرٌ أصاب الوثنيين بالجنون، فأعدوا لتدميره.

تحضر أصاب الوثنيين بالجنون

تجذرت الخمر في النفوس، حتى جعلوا لمجالسها أساليب وفنون، فهناك الساقي الذي يسكب الراح، وهناك الأقداح التي أبدعوا لها أسماء وأشكالًا.. أوعية من اليقطين والقرع يسمونها الدباء، ومن جذوع النخل المنقورة يسمونها النقير، ومن الطين يسمونها الحنتم، وأوعية مطلية بالزفت تسمى المزفت، أو يطلونها بالقار فيسمونها المقير. كل ذلك من أجل لحظات نشوة.. سرعان ما ينتكس المرء بعدها، فيشتم نديمه، وربما ضربه، أما العنصرية والتفاخر، فأول ضيوف السكر.

الخمر إذا دخلت من الباب.. فرت العقول والرجولة من النوافذ. مرض يتدرج الإسلام في علاجه تدرجًا ضروريًّا.. تصفه عائشة بقولها: «إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا».

نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣]، وبعد مدة، وبينما كان النبي ﷺ على المنبر، إذ به يقول لصحابته: «**يا أيها الناس، إن الله تعالى يعرض بالخمر، ولعل الله سينزل فيها أمرًا، فمن كان عنده منها شيء فليبعه، ولينتفع به**». كانت المدينة تعيش حالة رقي تشريعي، ووئام وطني، على الرغم من الحصار الوثني.. وطن زادته الزكاة روعة.. حين حدد ﷺ أموال الزكاة وهي: الذهب والفضة والخارج من الأرض والإبل والغنم والبقر لعلاج الفقر، فلا رأسمالية يتغول فيها الأغنياء ورجال الأعمال، فيطحنون الفقراء. ولا شيوعية تسيطر فيها الدولة على كل شيء، فيعيش المواطنون فيها داخل ستار حديدي، بلا أفق أو حرية أو حلم.

قدم ﷺ بالوحي دولة تحترم حلم الإنسان، وحريته في أن يملك ما يشاء، لكن لفقراء وطنه حق في ماله، وإلا تحولوا إلى كارثة على التاجر والحاكم معًا، ثم نزل حكم كفيل بردع من يرفض أداء الزكاة: من حق الدولة مصادرة نصف ماله..

قـال ﷺ: «مـن منعها، فإنا آخذوها منه وشـطر ماله» ثم بـيّن ﷺ أنه لا حق لأسرته في الزكاة، فقال «لا يحل لآل محمد منه شيء».

إنجازات خففت الحصار، وألف الله بها القلوب، لكنها أصابت قريشًا بالجنون، فأعدت جيشًا ضخمًا لتمحو به دولة الإسلام المتحضرة.

مَنْ وحشيّ؟

في مكة، وفي بيت مطعم بن عدي.. يعيش رجل حبشي اشتهر بمهارته في رمي الرمح. لم يكن عبدًا لأبي سـفيان، ولا عبدًا لزوجته هند بنت عتبة، كما يشـاع.. كان عبدالجبـير بن مطعم، الـذي عاد لمكة مع من فر من معركة بـدر، ولما وصل حاصره النواح، وشـق الجيوب، ولطم الخدود على عمه الطاغوت طعيمة، الذي اجتثه حمزة ابن عبدالمطلب على أرض بدر.

طالبـت العائلة بأخذ ثأره من حمزة بالتحديد، لكن الفرصة لم تسـنح إلا الآن.. حيث يحشـد الوثنيون جيشًـا ربما فاق عـدده الثلاثة آلاف لاكتسـاح المدينة.. قرروا ذلك بعد أن خذلهم يهود بني النضير، الذين تمكن النبي القائد ﷺ من كسر خيانتهم، بالقضـاء عـلى زعيمهـم الحاخـام الخائن كعـب بـن الأشرف، الذي أغرى قريشًـا، ووعدهـا بالمشـاركة في تدمير دولة الإسـلام، وقتـل نبي الله، بل تمكـن ﷺ من الحد مـن خيانـات اليهـود، بالتوقيع معهم عـلى وثيقة وطنيـة ملزمة للمسـلمين واليهود والوثنيـين.. بعدم التخابر مع أعداء المدينة. جُنّت قريش، فزحفت لاجتياح المدينة، وقتل قائدها، وسـبي نسائها، واسـترقاق ذكورها، والقضاء على التوحيد، وقبل أن تتحرك نادى جبير عبده وحشيًّا، ولما وقف أمامه أراه أبواب الحرية، وقال له بالحرف الواحد: «إن قتلت حمزة عم محمد بعمي، فأنت حر عتيق».

تنفـس وحشي نسـيم الحرية، فهانـت التضحيات من أجلها، فأمسـك بحربته، وكأنه يمسـك بمفتاح الحرية، وسـار معهم لا يريد من سفره سوى أبي عمارة، وكأن

كل خطوة تقربه منه.. تبعده من رق الوثنيين الذين لا يؤاكلونه، ولا يشاربونه، ولا يرأفون بحاله.. سار جيش الوثنيين محملًا بأهازيج الثأر، وطبول الحرب، والكثير من الخمر.. حتى النساء خرجن ليشهدن الثأر للطواغيت، أما المدينة فلم تكن غائبة عما يجري، مادام محمد يقودها، فهو قائد فذ.. يدرك أن العرب كلهم رموه عن قوس واحدة؛ لذا كان دائم الاستعداد للأسوأ، وكتائب الاستطلاع الإسلامية لا تتوقف عن رصد تحركات الوثنيين.

وصل المستطلعون يخبرون القائد ﷺ بقدوم جيش وثني كبير، فلم يستبد برأيه، ولم يهمل رأي شعبه، فهم سنده، وهم قرة عينه.

قائد لا يستبد برأيه ولا تثنيه الرؤيا

وصلت الأخبار للنبي القائد ﷺ، بأن قريشًا بدأت زحفها نحو دولة الإسلام، فلم يستبد برأيه، بل جمع شعبه، وطلب رأيهم، فهو لم يؤسس دولته بالقوة، ولكن برضاهم، بل حين بايعهم بالعقبة.. اشترطوا عليه، واشترط عليهم.. نبي ينزل الوحي عليه، ومع ذلك يشترط عليه شعبه، فيرسم لأمته سنة بالالتزام بالعهود والمواثيق مع الأمة.

قائد لا يقول: لا أريكم إلا ما أرى، بل يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، أما المدهش في هذا الزعيم العظيم، فهو أنه يضع رأيه الشخصي ضمن آراء شعبه لا قبلها.. كان رأيه ﷺ أن يتم استدراج العدو المعتدي إلى داخل المدينة، وخوض حرب شوارع تنهك الوثنيين، وتقبرهم في الطرقات، فأيد كبار السن هذا الرأي، لكن للأكثرية وهم الشباب رأي آخر.. ولا سيما، ومنهم من غاب عن غزوة بدر؛ لذا قالوا: «يخرج بنا رسول الله إليهم نقاتلهم، ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر» كانوا في قمة الحماس، حتى إن أحدهم واسمه أنس بن النضر.. خاطب نبيه بكلمات تتفجر فداء قائلًا: «يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع».

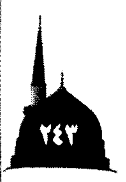
ألح الشباب، وما زالوا برسول الله ﷺ، حتى تنازل عن رأيه للأغلبية.. انصرف الجميع، وتوجه ﷺ لبيته، ثم خرج ومعه سيفه وعليه درعان، فلما رآه الشباب مسلحًا ندموا.. شعروا بأنهم قد أكرهوه على التنازل عن رأيه، فتقدم بعضهم خجلًا، وقال: يا رسول الله، أقم فالرأي رأيك. لكن نبي الله يقدم منهجًا للقادة في الإنصات للشباب والأكثرية قائلًا: «ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه» أما المثير في الأحداث، فهو أن نبي الله ﷺ رأى في المنام رؤيا مخيفة.. قصها عليهم، ولم يكتفِ بقصها، بل فسرها، فقال: **«إني رأيت أني في درع حصينة، فأوّلتها: المدينة، وأني مردف كبشًا، فأوّلته: كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فُلَّ، فأوّلته: فلًّا فيكم، أي انكسار، ورأيت بقرًا تذبح، فبقرٌ والله خير»**.

هذا التفسير يكشف أن دماء غالية ستسيل، وأن أحبة سيرحلون.. تفسير مخيف.. يزلزل القلوب، فهل انهارت معنويات شباب محمد ﷺ.. هل تراجعوا عن القتال خارج المدينة، وهل الرؤيا عند الصحابة تفتت الهمم، وتجلب الإحباط؟

الرؤيا عند شباب محمد

حين أراد القائد ﷺ اتخاذ قرار بالغ الخطورة، وهو الحرب.. أنصت لشعبه، وعلى الرغم من أن رأيه ورأي كبار السن هو البقاء في المدينة، وعلى الرغم من أنه رأى رؤيا تؤيد اقتراحه، إلا أنه احترم رأي الأغلبية، وهم الشباب.. راسمًا لأتباعه سنة حين لا يوجد وحي: أن يلجؤوا للأمة، وبتأييده لهذا الرأي.. يكشف عن سنة في التعامل مع الرؤيا، وهي أنها مجرد مبشرات.. لا تثني عزمًا، ولا تحطم همًا، فالمسلم يعيش حياته على الواقع لا في المنامات، أما الشباب، فلم تخفهم الرؤيا، بل زادتهم حماسًا، فحين قصها عليهم حلقت معنوياتهم نحو السماء، ورفرفت أرواحهم حول أبواب الجنة، وتحولت المدينة إلى مدينة أحلام وأمنيات.. تحولت طرقاتها إلى جسور للنعيم.

في إحدى تلك الطرق شاب يناجي صاحبه، ثم ينتحي به نحو مكان لا يراهما فيه أحد من المارة، وكأن كل واحد يريد أن يري الآخر تذكرة سفره، ومحطاته التي



يرنو إليها.. الشـابان هما: سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن جحش، وعبدالله يهمس لصاحبه: «ألا تأتي ندعو الله؟» فخلوا في ناحية، فباح سـعد بأمنيته، وقال: «يا ربِّ، إذا لقيت العدو، فلقّني رجلًا شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه».

نظر إليه عبدالله، وقال آمين، ثم كشف عبدالله عن محطة أحلامه، فإذا هي أبعد وأرقى، حين قال: «اللّهمّ، ارزقني رجلًا شـديدًا حرده، شـديدًا بأسـه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: يا عبدالله فِيمَ جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت».

أي شـعور يسـكن المرء حين يقول له الجبـار: صدقت؟ أحـلام، وهمم لم تحلق بالشباب فقط، فالشيوخ همم وقمم.. تخترق السماوات.. كل السماوات.

في أحـد البيوت حوار ونقاش حاد بين شـيخ وأربعة شـباب.. هم أبناؤه.. هم يريـدون منـه البقاء مع أمهم، ولا سـيما وهو يعاني مـن إحدى قدميـه، ويعرج منها عرجة شديدة، أما هو فيأبى.. يريدهم أن يسيروا خلفه في طرقات الشهادة، ودروب النعيم، فهم بالنسـبة إليه مجرد أشـبال. لم يُقنع الشيخ أبناءه ولم يقنعوه، فقرر أخذهم إلى أنـزه محكمـة وأعدل قاضٍ على الأرض، عله ينصفه ممـن يريدون حرمان عرجته من الخوض في أنهار الجنة.

∞ ∞ ∞

أرواح شابة في أجساد تشيخ

غضـب عمرو بن الجمـوح، حين قال أبناؤه الأربعـة: «إن الله ﷻ قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد؟».

فُتـح الباب، فخرج الشـيخ يعرج.. يترنح في مشـيته خلفه أبنـاؤه.. انطلق بهم يشـكوهم لأعدل قضاة الأرض: أمن البر أن ينطلقوا لقصور الجنة، ويتركوه وحيدًا

في بيتـه الدنيـوي المتواضـع؟ ولمـا أوقفهم أمام نبيهـم قال: يا رسـول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ فقال ﷺ: «نعم».

طار قلب الشيخ شوقًا لجنة لا إعاقات فيها، فبدأ مرافعته ضدهم قائلًا: إن بني هـؤلاء يريدون أن يمنعوني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن أستشـهد معك. لم يرد ﷺ أن يكلف الشـيخ فوق طاقته، فقال: «أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد»، ثم التفت لأبنائه علهم يرأفون بقلب هذا المتلهف للسـير عبر منتجعات الفردوس، فقال: «وما عليكم أن تدعوه، لعلّ الله ﷻ يرزقه الشـهادة» ابتسـمت روح الشـيخ، وتحول الأسـود الأربعة إلى أشـبال خلف الأسـد العجوز، الذي ينتظر رفقة صديقه وأخو زوجته عبدالله بن حرام.

تـرى أيـن عبدالله؟ إنه في بيته.. في حوار هادئ وحزيـن مع ابنه الوحيد جابر.. بيت يغص بالدموع والبنات والمشـاعر، فحول الشـيخ تسـع بنـات تفيض أعينهن، فيتفطر قلبه وهو يشـعر بخطوات اليتم تدب نحو حبيباته الصغيرات.. تسـع بنات طالمـا انتظرنـه في البيت، أو على عتبـة الباب، فإذا ما رأينه أقبلـن نحوه.. أيهنّ تحظى بقبلـة قبل أخواتهـا.. يتزاحمن على ما يحمله.. يردن التخفيـف عنه، ورؤية ما أحضر لهـنّ.. طالما أعددن شرابه وطعامه، وغسـلن ثيابه ومرضنـه.. كم حملهن ولاعبهن، وضاحكهـن، وقـصّ عليهـن.. كـم ألححـن عليـه ليشـتري لهـن الملابـس والحلي، فيسـتجيب مهزومًـا بالحب.. حتى أثقلته الديون، فلجأ للاسـتدانة مـن تجار اليهود حتى يسعدهن، لكن بين أضلاعه عشق للجنة لا يقاوم.. ينساب صوته حزينًا وهو يـوصي قـرة عينه، ويقول: «يا جابر، لا عليك أن تكون في نظاري المدينة، حتى تعلم إلى مـا يصـير أمرنا، فـإني والله لولا أني أترك بنـات لي بعدي، لأحببـت أن تقتل بين يـدي». دنـا الفراق، وفاضـت العيون البريئة، فمد الشـيخ يـده إلى شيء عله يخفف لوعته وحرقته على بناته.

البنات والمعركة

أذعن الشاب جابر بن عبدالله لرجاءات أبيه، وبقي ضمن حراس المدينة، فحراسة الوطن عمل جهادي يقول عنه ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» ترى هل هو الوداع الأخير؟

والد جابر يظن ذلك، ويوصيه قائلًا: «ما أراني إلاّ مقتولًا في أول من يقتل من أصحاب النبي، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك، غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ دينًا فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيرًا».. كلمات أثقلت كاهل الشاب، وثقافة جديدة جاء بها الإسلام تلغي قسوة الوأد الوثنية، والاحتقار المسيحي اليهودي للأنثى.

ثقافة راقية تقول: «**من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين**»، وأشار بأصبعيه. فكيف بمن عال تسع فتيات.. خرجت كلمات الشيخ الحزين كالجمر، لكنها لم تخفف النار المستعرة بين أضلاعه.. لقد استبد به الحزن على بناته، حتى اضطر إلى تناول شيء قد يخفف فراقه لتلك العيون البريئة.. تناول الشيخ شيئًا من الخمر التي لا تزال حلالًا.. علّها تخفف حزنه حتى تحين ساعة العراك.

يقول جابر: «اصطبح والله أبي يوم أحد الخمر، ثم غدا فقاتل» قد لا يكون والد جابر هو الوحيد الذي فعل ذلك هذا الصباح، فجابر يقول: «لقد صبح أناس غداة أحد الخمر»، وبعد ذلك توافد الجميع نحو قائدهم ﷺ، ولما اجتمعوا بدأ بفرزهم، فأعاد الأطفال الذين لم يبلغوا مثل عبدالله بن عمر، وأمر الضعفاء وكبار السن أمثال والد حذيفة بن اليمان، وثابت بن وقش بالمرابطة في المدينة وحراستها، فبقوا كارهين.

النساء كن متلهفات للعطاء.. فاطمة وعائشة وصفية عمة رسول الله ﷺ، وأم سليم وعمة جابر ونساء أخريات.. خرجن للإسعاف والتمريض، فالجنة ليست حكرًا على الرجال، وهن يحلمن بجمالها الذي لا يحتجن معه إلى مساحيق، أو عمليات تجميل.. يتلهفن لجمال خالد لا يتغير إلا إلى الأجمل، ولأجساد غضة لا تتهدل، ولا

تشـيخ، أو تتجعد.. أجسـاد فاتنة لا تفرز سوى العطور.. يتلهفن للتسوق فيها، فقد أخبرهـن ﷺ أن قطعة من أزياء الجنة أثمن وخير من الدنيا وما فيها.. التف عاشـقو الجنـة حول قائدهم ﷺ، ثم تحركوا نحو أحد، وفي أثناء سـيرهم حدث زلزال خطير في الطريق.. أوقفهم، فارتفعت الأصوات، وارتجت القلوب فما الذي حدث؟

زلزال في الطريق إلى أحد

أشرق الصبـح، فانطلـق جيـش الإسـلام نحو أحـد.. ترفرف رايته السـوداء، ولـواؤه الأبيض، وفي الطريق حدث شيء زلزل الجيش الإسـلامي.. مجموعة كبيرة بدأت ترتعد أوصالها هلعًا.. يتهامسـون.. تـدور أعينهم.. يتلفتون كاللصوص، ثم توقفوا، وانفصلوا عن الجيش.

فُجع المؤمنون، وناشدوهم: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾[آل عمران: ١٦٧]، بجموعكم لتكثيرنا، لكن ردهم كان جبانًا، فقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].. اسـتيقظت خيانة المنافقين، وهي أشياء تستيقظ فيهم عندما تقترب جيوش الأعداء من الوطن.. ماتت الرجولة والغيرة والنخوة، فالمنافق على استعداد للتماهـي مـع اليهود والنصـارى والوثنيين، بل مع أي عدو للقرآن والسـنة، وهو لا يجرؤ على ذلك إلا إن كان محميًّا من قبل عدو للإسلام.

صُدم المؤمنون بخيانة رجال يؤاكلونهم ويشـاربونهم، ويزاحمونهم في الأسواق والطرقات والمسـاجد.. حاولوا ثنيهم، فعجـزوا، ولم ينزل الوحي فيهم، فترك النبي الأمـر كعادته لشـعبه، فاقترح أناس قتالهم قبل قريـش؛ لأنهم أخطر، وقال آخرون: لا، لكـن الوحـي نزل بآيات تطالـب بتجاهلهم والتركيز على الهـدف الذي خرجوا لـه، فقـال تعـالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[النساء: ٨٨]، ووصـف



خيانتهم، فقال: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

تلاها ﷺ على جنده، ثم بين أن تلك الخيانة ما هي إلا تمييز للصف الإسلامي، وتنقية له فقال: «**إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث، كما تنفي النار خبث الفضة**».

عاد المنافقون كالفئران لجحورهم، وواصل جند محمد ﷺ، حتى وصلوا أحدًا، لكن وضعهم أصبح حرجًا للغاية، فقد قل عددهم وعدتهم، والوثنيون أكثر منهم ثلاث مرات، فتسلل الإحباط إلى معنويات بني الحارث وبني سلمة من الأنصار، فهم بشر يعتريهم ما يعتري البشر، لكن إخلاصهم لله سرعان ما استيقظ، فامتدحهم الله، وجعلهم من أوليائه في آيات ذكرتهم بضعفهم أيام بدر، فقال سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢ - ١٢٣]، هنا تحرك القائد ﷺ، وجال ببصره وعقله حول أحد، فعثر على شيء يعوض النقص في جيشه.

نبي وقائد عبقري

تأمل ﷺ جيشه، فوجدهم قلة، وتأمل الطبيعة من حوله، فأراد توظيفها لمصلحته. قام بفرز خمسين من الرماة المهرة.. تحت قيادة الشاب عبدالله بن جبير، وأمرهم بالصعود لجبل صغير، ثم أمرهم أمرًا قاطعًا كالسيف.. لا مجال فيه للتخمينات، ولا للاجتهادات.. طلب منهم عدم النزول من الجبل مهما كانت نتيجة المعركة، حتى لو مزقهم الوثنيون، وتركوهم قطعًا لمخالب الطيور، فقال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم، وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»، وبين مهمتهم وهي حماية ظهر الجيش من أي التفاف قد تقوم به مفرز وثنية، فقال: «**احموا ظهورنا**»، وأكد مرة أخرى على الأمر الأهم، فقال: «**فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا**».

صعد الرماة، ووزعهم أميرهم ابن جبير ليشكلوا مظلة جوية تقصف الوثنيين، وتربكهم بمطر السهام، لتحصدهم السيوف من الأرض.. خطة محكمة، ومعركة لا تحتمل الخطأ.. معركة بين جيش قوي وجيش ذكي.. جيش وثني يفتقد للعقيدة والهدف البعيد للمعركة، فكل وثني مشغول بهدف شخصي لا يتعدى أنفه: عكرمة ابن أبي جهل خرج للثأر لأبيه، وأبي بن خلف جاء ليثأر لأخيه أمية، وجبير بن مطعم وظف عبده ليقتل حمزة ثأرًا لعمه.. هكذا كان جيش الوثنيين.. قليل الطموح.. صغير الأهداف، أما جيش الإسلام فيدافع عن دينه ووطنه ورسالته، التي تستهدف إيقاظ العالم كله.

اصطف الجيشان، فإذا بشيء ثقيل يهبط على المؤمنين.. يذهلهم عن عدوهم، بل ويذهلهم عن سيوفهم حتى تساقط بعضها على الأرض.. غشيهم النعاس، وثقلت الرؤوس، وارتخت الأيدي حتى قال أحدهم، ويدعى أبو طلق: «غشينا النعاس، ونحن في مصافنا يوم أُحد، وكنت فيمن تَغَشَّاه النعاس حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»، وهذا أبو طلحة يحاول رفع جفنيه الثقيلين، ويتلفت يمينًا وشمالًا ببطء، فإذا به يرى مشهدًا يترنح خلف الدروع، وتحت التروس، ويصفه قائلًا: «رفعت رأسي يوم أُحد، وجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس»، وفجأة أيقظتهم صرخة كالانتحار.. وثني يصرخ فيهم: «من يبارز؟».

مَنْ يبارز؟

صباح مخيف على أرض أحد.. يحتشد الوثنيون أرواحًا فزعة، وقلوبًا حاقدة، وأحداقًا تتسع، بينما في الجهة المقابلة يصطف جيش مؤمن.. تعرض للخيانة قبل ساعات، فأصبح عدده أقل من ثلث الجيش الوثني، ومع ذلك يميد أفراده من النعاس، وكأنهم في نزهة، وكأن الأمر لا يعنيهم. ألقى الله عليهم السكينة والأمن، ودعا النبي ﷺ ربه، فقال: «**اللّهمّ، إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض**»، وفجأة تطاير

النعاس حين صرخ وثني يدعى سباع بن عبدالعزى: «هل من مبارز؟» فإذا بحمزة يقبل كالموت، فيهتز قلب وحشي وهو يراقبه من بعيد.

أقبل يزأر.. يمزق معنويات الوثنيين.. يصيح: «يا سباع، يا ابن أم أنمار، أتحادّ الله ورسوله؟»، ثم شد عليه، فإذا الطاغوت يرتطم بالأرض قطعة لحم تنتفض وشلال دم. مد حمزة يده، وانتزع سيف الطاغوت، وصار يلوح بسيفين، ويصيح: «أنا أسد الله».

غلت الدماء في عروق الصحابة، فأحب القائد ﷺ أن يؤججها، فرفع سيفًا كالحتف، وصاح بجنده: «**من يأخذ مني هذا السيف بحقه؟**» ارتفعت الأيدي كنخيل طيبة، وامتلأت السماء بالأصوات كلها تقول: أنا أنا. لكن القائد يبحث عن قتال استثنائي، فهتف: «**من يأخذه بحقه؟**» عندها خشي أكثرهم ألا يكون بمستوى هذا التحدي النبوي، فأحجموا، وإذا بفارس يقبل.. يمد روحه قبل كفه.. يدعى أبو دجانة يهتف: أنا آخذه بحقه. تلّ القائد ﷺ السيف بكف البطل، فقبض عليه بقوة، وانطلق كالرعب يشق جموع الوثنيين، وهجم الصحابة، فتحرك الوثنيون كالسيل لصدهم، فإذا بالسماء تمطرهم بسهام ابن جبير ورفاقه.

زخات موت تنغرز بأجسادهم.. تربكهم، فيتخبطون، ويبدأ الموحدون بحصدهم.. انطلقت السهام من الأرض أيضًا، فسعد أبي وقاص بجانب نبيه.. يتأمل مشهدين: مشهد أجج حماسه، فيقول: «رأيت بشمال النبي ﷺ ويمينه رجلين، عليهما ثياب بيض يوم أُحد، وما رأيتهما قبل ولا بعد.

ومشهد أغضبه، وثني يحرق المسلمين بسيفه، فهتف به نبيه: «**ارمِ فداك أبي وأمي**»، فأطلق سهمًا ليس فيه نصل.. أسقط الوثني، فانكشفت عورته، فالتفت سعد لقائده ﷺ ليرى ردة فعله، فإذا هو يضحك.

انهارت معنويات الوثنيين، حتى تناوب على رايتهم سبعة.. سقطوا واحدًا تلو الآخر، وسقطت رايتهم، ففروا من المعركة، لكن هذا النصر لم يدم.

حين انحدرت الفجيعة

سقط عشرات الوثنيين، وتعاقب أكثر من سبعة رجال على لوائهم.. كلهم تم اجتثاثهم حتى سقطت رايتهم ومعنوياتهم، وبدؤوا الفرار، وفر وحشي ممسكًا حربته.. موقنًا بضياع حريته، وفر معه سيده جبير.

لاحقهم جند محمد ﷺ حتى اختفوا عن الساحة.. تاركين أسرى، وتاركين نساءهم.. طاردهم الزبير، فلم يجد سيوفًا، بل وجد سيقان الوثنيات تلمع خلاخيلهن هاربات، فقال: «والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحباتها، مشمّرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير» أما الفتى البراء ابن عازب فيقول: «أنا والله رأيت النساء يشتددن على الخيل، قد بدت خلاخيلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن».

اختفت الوثنية، وهدأت الساحة، وخفتت الأصوات، وبدأ الغبار يتلاشى كما تلاشى الوثنيون شيئًا فشيئًا، حتى إن عائشة التي كانت خلف الجيش أيقنت أن أمر الوثنيين قد انتهى، فقالت: «هزم المشركون يوم أُحد هزيمة بيّنة تعرف فيهم» كان الرماة فوق الجبل منتشين بنصر الله.. يرصدون مشهد هروب العدو، أما على الأرض فصدرت الأوامر لبعض الصحابة بجمع الغنائم، فانطلقوا يجمعونها.

كان الرماة يشاهدون عملية جمع الغنائم، فظنوا أن كل شيء قد انتهى، وأن أولئك الصحابة الذين يجمعون الغنائم يجمعونها من عند أنفسهم دون أوامر، فخشوا أن يفوتهم الحصول على شيء من تذكارات مجد أسهموا في صنعه، فتنادوا: «الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنظرون؟».

صاح قائدهم ابن جبير: «أنسيتم ما قال لكم رسول الله؟» وأمرهم بالبقاء مذكرًا بقول نبيهم وقائدهم ﷺ: «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلاتنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلاتشركونا»، «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» وها هو النبي ﷺ لم يرسل أحدًا حتى الآن، فلم النزول؟ كانت ساعة

نصر ورخاء أخطر على النفس من ساعات الشدة.. أغرتهم الدنيا في لحظة ضعف بشرية، فقالوا: «والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»، ثم انحدروا فانحدرت معهم الفجيعة.

شبكة من الفوضى

انحدر معظم الرماة عن الجبل.. تاركين قائدهم عبدالله بن جبير وقلة من الرجال الصامدين، وكانت هناك مفرزة وثنية تراقبهم من بعيد، فلما نزلوا تسللت من الخلف، واقتحمت الجبل، فقاوم ابن جبير ومن معه ببسالة حتى استشهدوا على قمة الامتثال والجبل.. بعدها تقمص الوثنيون دور المسلمين، وسرقوا خطتهم، وبدؤوا القصف، أما الكارثة والفجيعة فكانت على الأرض، حيث نشبت معركة إسلامية إسلامية.. حين اقترب الرماة من الغنائم، فتصدى لهم الصحابة المكلفون بجمعها.. ظانّين أنهم من فلول قريش.. ولاسيما والسهام عاودت القصف من الجبل.

مأساة وكارثة حلت على أكثر الناس إخلاصًا؛ لأنهم سمحوا لأهوائهم بتجاوز أمر القائد القاطع الواضح، الذي لا غموض فيه.. صراخ وعاصفة من الفوضى يصفها أحد الصحابة بالشبكة المعقدة، فيقول: «التقت صفوف أصحاب النبي ﷺ فهم كذا»، وشبك أصابع يديه. حزن النبي ﷺ، وذهل المؤمنون حوله، فهم يرون قتالًا حول الغنائم، وليس من أجل الغنائم.. يرون إخوتهم يقتل بعضهم بعضًا، والسهام تعينهم على ذلك.. يا له من نصر لم يصمد ساعات، ويا لها من كارثة جلبها الارتجال.

سمع الوثنيون الفارّون صياح الحرب من جديد، فحدقوا في تلك الفوضى، فارتفعت معنوياتهم، وانتشوا، واستجمعوا قواهم، ونسوا هزيمتهم وقتلاهم قبل ساعة، وقرروا إعادة الكرّة والإجهاز على كتلة الفوضى تلك.. في أثناء ذلك وصل شيخان كبيران إلى أرض المعركة هما: اليمان والد حذيفة وثابت بن وقش.. كانا في المدينة يحرسان في الحصون مع النساء والصبيان، فالتفت أحدهما لصاحبه، وقال:

«لا أبا لك، ما ننتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منّا من عمره إلاظمأ حمار، إنما نحن هامة القوم، ألا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله ﷺ».

لم يفكرا كثيرًا، بل انطلقا نحو أحد، ولما وصل اليمان توجه نحو تلك الشبكة من الفوضى، فرآه بعض المؤمنين، فظنه وثنيًّا، فتصدوا لقتله.. في تلك اللحظة لمحه ابنه حذيفة، فصرخ فيه وفيهم عله ينقذ أباه ورفيق هجرته: (أبي.. أبي) ثم أسرع ليمنعه، لكن حبيبه هوى على الأرض.. مزقته سيوف وأخطاء أحبابه، فأقبل نحوهم، وقال كلمة بحجم إيمانه.

غابت أحد فأشرقت الجنة

هوى والد حذيفة شهيدًا على أرض أحد، وحذيفة يصرخ، فنظر الصحابة الذين قتلوه إلى حذيفة بعد فوات الأوان، وكأنهم يعتذرون، فانكب حذيفة على والده الحنون، وصديقه ورفيق هجرته، وقد قطعته السيوف، فلم يتلفظ بكلمة نابية، ولا حتى بعتاب مجروح.. لم يزد هذا المفجوع على كلمات تنهد بها.. ذرفها كالدموع، فقال: «غفر الله لكم، يرحمكم الله» خفّت الفوضى، ولكن بعد أن سقط الأحبة، وفقد جيش الإسلام مواقع فارقة على الأرض.. توقفت الفوضى، لكن مفاجآت أحد لم تتوقف.. فوجئ المؤمنون وهم في حالة ذهول بعدو يكتسحهم، وسهام تمطرهم.

استشهد الشيخ عبدالله بن حرام والد جابر، واستشهد صديقه عمرو بن الجموح، وثابت بن وقش، وأصبحت المبادرة بيد الوثنيين.. انتهى النظام، فلا قيادة، ولا ميمنة ولا ميسرة، ولا رماة، فشق شباب محمد بسيوفهم.. برماحهم.. بسهامهم طرقات أخرى للجنة كلٌّ على طريقته.. أيقنوا أنها قريبة، لكن هذه الأكداس الوثنية تحاول ردم الطرقات نحوها. غابت تضاريس أحد، وأشرقت منتجعات الجنة، وجزرها الساحرة، فانسابت أنهارها، وتمايلت أغصانها، وتلألأت طرقاتها المرصوفة بالجواهر، فبدؤوا يتزينون لها.

ها هو الشاب سعد بن معاذ سيد الأوس يصول ويجول، فيلمح صديقه أنس ابن النضر كأنه يقاتل عن معركتين: أحد وبدر التي غاب عنها.. يجتث من أمامه، ليبر بوعده لربه، حين قال: «لئن أشهدني الله مع النبي، ليرينّ الله ما أصنع» كان يصرخ معتذرًا عن أخطاء الرماة، فيقول: «اللّهمّ، إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء»، وينادي ربه متبرئًا من الشرك قائلًا: «وأبرأ إليك مما جاء به المشركون»، ثم يشير لصديقه ابن معاذ نحو بوابة قريبة من بوابات الجنة، فيقول: «يا أبا عمرو، أين؟ واهًا لريح الجنّة إني أجده دون أحد» طار قلب سعد، فطلب الصحبة، فقال: «أنا معك» فشدا يجتثان شجعان الوثنية، لكن أنسًا كان استثنائيًّا.. ضرب العشرات، وجُرح بالعشرات حتى تمزق جسده، وهو يلاحق روحه التي رفرفت عبر البوابة.. تاركة إياه ممزقًا دون ملامح. تأمله ابن معاذ، وتأمل جراحه المبكية، فاعترف بتفرده، وقال: «لم أستطع أصنع ما صنع»، وفي أثناء تلك الأحداث التقط وحشي حربته، وعاد من جديد يستشرف.. يبحث عن حمزة.

حمزة

التقط وحشي حربته، وعاد يحدق من جديد.. لا يبحث عن أحد سوى حمزة، فلا ثأر له إلا مع الرق.. يمشي، فيهوله طوفان تنهار أمامه السدود، فيدرك أن حمزة في الطريق، فلا أحد يفتك فتكه.. يصيح أبوعمارة بمعنويات شهيد: أنا أسد الله.

رآه سعد بن أبي وقاص، فقال: «كان حمزة بن عبدالمطلب يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسول الله بسيفين، ويقول: أنا أسد الله».. كلمات أرعبت وحشي، لكن مرارة الرق تجعله يصر على انتزاع حريته، حتى لو كان الثمن أبوعمارة.. ها هو يختل ختلًا.. يتوارى عن بصر حمزة بالحجر.. بالرجال والشجر، ويقول: «خرجت أنظر حمزة، وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهدّ الناس بسيفه هدًّا، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له أريده، وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني»، وفجأة رأى وحشي فسحة بينهما.. هز حربته، ثم استودعها قوته وآلام عبوديته،

وأطلقها قذيفة شـقت أسـفل بطن حمزة، ومزقت أحشـاءه، وخرجـت مقدمتها من ظهـره.. تفجـرت الدمـاء.. تسـاقطت، لكن حمزة لم يسـقط.. حـدق بوحشي الذي وقف بعيدًا ينتظر سقوطه. تحامل حمزة على جراحه، وترنح يريده، والحربة تتمايل في جسده، لكن روحه كروح أنس بن النضر.. تعجز الأجساد عن ملاحقتها.

ثقـل جسـده، فلم يعد قـادرًا على السـير.. هوى أبوعـمارة على الأرض سـيدًا للشـهداء، فارتوت أرض أحد بعطر دمه، ولما تيقن وحشي من موته مشى نحوه، ثم انحنى عليه، ومد يديه، فانتزع حربته وحريته من جسـده الطاهر، وعاد إلى معسـكر الوثنيين، فقد انتهت معركته. جلس في المعسـكر ينتظر عودة سيده جبير بن مطعم.. لا تهمه نتيجة الحرب، فلا شأن له بها.. كانت لديه قضية مع الرق، وقد أنهاها، ودفع أغلى ثمن يدفعه عبد لحريته، وهو الآن في انتظار سيده ليريه وثيقته الحمراء، ويتسلم حريته. تساقط الشـهداء بالعشرات، وفقدت الدنيا عظيمًا كحمزة.. فقدت مصعب ابن عمير المعلم.. الذي ترك دلال أمه وما لها لوجه الله.. خر شـهيدًا.. لم يترك سوى سـيفه وثوبـه، وقرآنًا أضاء به بيـوت المدينة. توالت المصائب بسـبب ارتحال الرماة، لكن أقساها كان صاعقة دوت في الأجواء.. صوت قبيح زلزل المؤمنين يصرخ: «إن محمدا قد قتل».

∞ ∞ ∞

هل قُتِل رسول الله أم رُفِع؟

حـوصر النبي القائد ﷺ مع سـبعة مـن الأنصار، ورجلين من قريـش.. قاومهم، فلـما تكالبـوا عليه قال: «من يردهم عنّا وله الجنّة؟» فتقـدم أنصاري، فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه، فقال: «من يردّهم عنّا، وهو رفيقي في الجنّة؟» فتقدم أنصاري، فقاتل حتى قتل. تكرر المشهد حتى قتل الأنصار السبعة، فقال ﷺ لصاحبيه: «ما أنصفنا أصحابنا».

لم يبقَ معه غير طلحة وسـعد، فتقـدم طلحة، فقاتل دونه حتى قطعت أصابعه، وشـلت يده، ورآه أحدهم، فقال: «رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي قد شـلّت».

ذهل الجميع عنه ﷺ، وانشغل عنهم، وتراجع المؤمنون، فاستغل الوثنيون الحاقدون هذا التراجع، فهرولوا نحو الشهداء يبقرون بطونهم، ويقطعون أنوفهم وآذانهم.. وسط هذه الفوضى المدمرة.. اقترب وثني، فضرب النبي ﷺ ضربة هشمت خوذته التي يحمي بها رأسه، وشج أحدهم وجهه، وكسر بعض أسنانه.. سال دمه الزكي، فصاح أحدهم: «إن محمدًا قد قتل».

سمعها الزبير الذي كان قبل ساعة يطارد فلول الوثنيين، فأصبح يبحث عن نبيه، ويقول: «مالت الرماة إلى العسكر يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل» صُعق الصحابة، وأصيب عثمان بن عفان والأنصاري سعد بن عثمان وبعض الصحابة بإحباط، فتركوا المعركة، وانتحوا عند جبل بعيد يقال له الجعلب، وكأنهم يقولون: لمَ القتال وقد مات النبي ﷺ، وصمد أبوبكر وعمر وعلي وابن معاذ وابن عبادة وبقية الصحابة.. يريدون الموت على ما مات عليه نبيهم وقائدهم، لكن عليًّا أصيب بذهول جعله يبعد في التفكير بعيدا جدًّا.

إنه يفتش بين القتلى.. يقلب الجثث.. يبحث عن نبيه، ويقول: «نظرت في القتلى فلم أرَ رسول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفرّ، ولا أراه في القتلى، ولكن أرى الله غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيّه، فما لي خير من أن أقاتل حتى أُقتل» هنا كسر علي جفن سيفه، وخاض غابة السيوف ليلحق بنبيه، لكن يبدو أن رجلًا قد سبقه.. الشاعر الشجاع كعب بن مالك يقاتل.. يبحث عن نبيه، وفجأة يرى شخصًا يترنح من العطش والإعياء، والدماء تسيل من تحت خوذته.. اقترب كعب منه، فتأمل عينيه تشعان من خلف القناع الحديدي، فصاح من فرحته صيحة ارتفعت معها المعنويات، وتعالت الهتافات.

عينان تعيدان المعركة

كان عبدالله بن جحش يهد الوثنيين ببسالة، حتى تصدى له وثني شديد.. تغلب عليه، فخرّ شهيدًا، ثم أقبل الوثني نحو جسده، فمد يديه نحو رأسه، وأمسك به، فقطع أنفه وأذنيه وثقبهما، وأدخل في تلك الثقوب خيطًا، وعلقها به، وكأنه يحقق لعبدالله ما تمنى، حين دعا: «اللّهمّ، ارزقني رجلًا شديدًا حرده، شديدًا بأسه، أقاتله فيك، ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت: يا عبدالله، فِيمَ جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت».

لم يتعرض عبدالله وحده للتشويه، فقد تراكض الهمج بحقد نحو أجساد الشهداء: حمزة ومصعب وابن النضر وغيرهم.. يشوهونهم.. يبقرون بطونهم.. يقطعون أنوفهم وآذانهم، ويعلقونها.. كانت ساحة من الإحباط والهزيمة، لكن الفشل لم يدم.. فجأة رأى كعب بن مالك شخصًا قد تلونت خوذته بالدم من نزف رأسه.. اقترب منه، فتأمل عينيه تزهران، وتشعان من خلف القناع الحديدي، الذي يسمى المغفر، فصرخ بأعلى صوته: «يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله» لم يقل ﷺ له شيئًا، بل أشار إليه إشارة تأمره بالسكوت.

سكت كعب، لكن الصحابة سمعوا الصرخة، فعادت الروح لهم، وتوجهوا نحو مهوى الأفئدة وقرة العين، فوجدوه جريحًا منهكًا من العطش، حتى جعل يقع على ركبتيه، فلما رأوه فرحوا كأنما كسبوا المعركة.. التفوا حوله لينظمهم، ليجبر كسرهم، ويجمع شتاتهم، ثم نهضوا به نحو الشعب ليستريح، وكان أول من وصل إليه من رجاله (أبوبكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير والحارث بن الصمة في رهط من المسلمين)، ثم أسندوه ليرتاح، وفجأة دوت صرخة وثني.. أقبل الطاغوت أبيّ بن خلف شقيق أمية بن خلف، حين رأى تلك الحفاوة تتجه نحو الشعب، فصدم.. أدرك أن محمدًا لم يمت، فجن جنونه، وأقبل يصرخ من بعيد: «أين هذا الذي يزعم أنه نبيّ، فليبرز لي، فإنه إن كان نبيًّا قتلني، ثم نادى: يا محمد، لا نجوت إن نجوت» هنا قال الصحابة: أيعطف عليه يا رسول الله، رجلٌ منّا؟ فقال ﷺ: «**دعوه. أعطوني الحربة**». فقالوا: يا رسول الله، وبك حراك؟ فقال: «**إني قد استسقيت الله دمه**».

تحامل القائد ﷺ على جراحه، ونهض، فتناول الحربة من صاحبه الحارث بن الصمة، ولما اقترب الطاغوت على جواده شد ﷺ على حربته بقبضته، ثم أرسلها قذيفة طوحت بأُبيّ، ليرافق أخاه إلى الجحيم.

شهيد يمشي على الأرض

قبض ﷺ على حربته، وهو في غاية الإعياء، فسددها نحو جسد الطاغية أبيّ ابن خلف، فصرعه، وتدحرج على الأرض، فهب الوثنيون لانتشاله، وأخذه إلى معسكرهم وهو يئن، وهم يستغربون هذا الأنين، فهم لا يرون طعنة تستدعي كل هذا الجزع، وقالوا له: «ما نرى بك بأسًا، قال: إني لأجد لها ما لو كانت على ربيعة ومضر لوسعتهم» أما رسول الله ﷺ فقال: «**اشتد غضب الله على من قتله نبي، واشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله**».

عاد نبي الله ﷺ ليستريح، ويشرب بعض الماء، لكن مكانه صار هدفًا لهجمة من هنا أو هناك، ليتصدى أبو طلحة الأنصاري للهجمات، ويجعل من ترسه وجسده درعًا دون نبيه، أما عندما تنكشف الرؤية، فإنه كان راميًا شديد النزع.. يرمي بسرعة وقوة، لدرجة أنه كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثة.. كانت دقته تثير إعجاب نبيه لدرجة أن الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول ﷺ: «**انثرها لأبي طلحة**»، ثم ينهض ﷺ ليشرف على القوم، فيقول أبو طلحة: «يا نبي الله، بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك» بل كان يمد يده ليبعد صدر نبيه خشية أن يصاب، ويقول: «يا رسول الله، هكذا لايصيبك سهم».

كان يجعل من جسده سورًا بين يدي نبيه ﷺ.. كان أبو طلحة قائمة من الخيارات الجميلة ينثرها، فيقول: «يا رسول الله، إني قوي جلد، فوجهني في حوائجك، وابعثني حيث شئت» لم تصب السهام رسول الله، لكنها أصابت فتى يقال له رافع ابن خديج، فحولته إلى شهيد حي.. أتى لنبيه ينزف، ويقول: يا رسول الله، أنزع

السهم؟ فقال: «**يا رافع، إن شئت نزعت السهم والقطبة جميعًا، وإن شئت نزعت السهم، وتركت القطبة، وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد**»، ففضل الشهادة، فنزع رسول الله السهم وترك القطبة، فعاش بها.. كانت الحرب على وشك النهاية، فالمواصلة أضحت صعبة، وقد أرهق الجيشان وتعبا، لكن صحابيًّا لم يتعب.. ظلت فروسيته تدهش الجميع.. تبهرهم حتى أخبروا نبيهم عنه. ذكروا اسمه ونسبه فلم يعرفه، ووصفوه له، فلم يعرفه، وفجأة مر يلاحق ضحية، فأشاروا إليه. نظر النبي ﷺ إلى الفارس المدهش نظرة أسف، ثم بث كلمة أوجعتهم، حين قال: إنه من أهل النار.

فارس إلى النار

قال الصحابة لنبيهم ﷺ: «إنهم لم يروا مثل صنيع فلان، لقد فرّ الناس وما فرّ، وما ترك للمشركين سادةً ولا قادةً إلا أتبعها يضربها بالسيف، قال: ومن هو؟ فنسب لرسول الله نسبه، فلم يعرفه، ثم وصف له بصفة، فلم يعرفه، حتى طلع الرجل بعينه، فقالوا: ذا يا رسول الله، الذي أخبرناك عنه. فقال: «**هذا؟**» فقالوا: نعم. فقال: «**إنه من أهل النار**».. اشتدّ الأمر على المسلمين حتى قال بعضهم: «أيّنا من أهل الجنّة إذا كان فلان من أهل النار؟!» لكن صحابيًّا تطوع لاكتشاف الأمر، وقال: «يا قوم، أنظروني، فوالذي نفسي بيده لا يموت على مثل الذي أصبح عليه، ولأكونن صاحبه من بينكم»، ثم لحق بالرجل يشد معه، ويقاتل خلفه، حتى أصيب الفارس إصابة ظل يئن منها حتى مل الألم، فمال إلى مكان، ثم نزل وظل قائمًا على قدميه، ثم قلب سيفه، فوضع قبضته على الأرض ورأسه للأعلى، ثم انحنى على السيف حتى غرز رأس السيف بين ثدييه، ثم ألقى بثقله عليه حتى اخترق صدره، وخرج من ظهره، فهوى على الأرض منتحرًا.. يسبح بدمائه.

عاد الصحابي يردد: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنك رسول الله. يكررها حتى وقف بين يدي نبيه، فسأله ﷺ: «**وذاك ماذا؟**» فقص عليه قصة الرجل، ثم قال:

«هو ذاك يا رسول الله، يضطرب بين أضغاثه. فقال ﷺ: **إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس، وإنه من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل الجنّة**».. نهاية كارثية هو الذي اختارها بنفسه.. لم يرغمه أحد.. لم يدرك أن الحرب ليست سياحة أو مغامرات، وليست نصرًا أو شهادة فقط، بل ربما تكون أسرًا أو إصابة أو إعاقة.. الجهاد ابتلاء من ألفه إلى يائه، والصبر على جراحاته وإعاقاتـه جهاد آخر، ففي يوم القيامـة عندما يرى المترفون نوعية القصور والمراكب والحدائـق والهدايـا، التي توزع على أصحـاب الابتلاءات المحتسـبين.. يتحسرون، فيتمنـون لو قطعت أجسـادهم في سـبيل الله بالمقاريـض، وأن لهم مثل مـا للمبتلين الصابريـن، أمـا الدنيا فلـم تَصْفُ لابن عبـدالله ﷺ، وأما أقدارهـا فمرهونة بالرضا والسخط.. من رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

قصة هذا المنتحر تشبه قصة جريح آخر تمرضه أخته في مكان آخر.

دخل الجنة ولم يركع ركعة

في مـكان آخـر من أرض أحد تضمد امرأة جـراح أخيها الذي يدعى عمرو بن أقيش، وعمرو هذا لم يكن سـاعة المعركة مسـلمًا، بل لم يكن في المدينة.. كان قد ربح مالًا ربويًّا في الجاهلية، فكره أن يسـلم حتى يأخذه، فسـافر لأخذه، فلما عاد للمدينة سـار بـين بيوتها، وتلفـت في شـوارعها، فوجدهـا خالية إلا مـن النسـاء والأطفال والمنافقين، فسأل: «أين فلان، أين فلان، أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحد».

أنـف أن يظـل بين المنافقين الجبناء، وتاق للتوحيد في سـاعة الشـدة، فأخذ أداة الحرب، وركب راحلته، وتوّجه نحو أرض المعركة، ويبدو أنه وصل في بدايتها؛ لأنه عندما أقبل رآه المسـلمون، فرفضوا مشـاركته على الرغم من قلتهم، وقالوا: «إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت» فرحبوا به، وقاتل معهم حتى جرح، ونقل لتمرضه أخته، فمر به سـعد بن معاذ، فقال لأخته: «سـليه حمية لقومك وغضبًا لهم، أم غضبًا

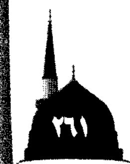
لله ﷻ؟ قال: بل غضبًا لله ﷻ ورسوله» وبعد ساعات استشهد، فدخل الجنّة، وما صلّى لله صلاة.

كانت أرض أحد دروسًا.. كانت مفعمة بالكرامات والمشاعر.. ها هو عامر بن أبي حنظلة الشاب العريس، الذي انسل من فراش عرسه صبح أحد، وودع عروسه وحبيبته يوم لقائها، لتتابعه بنظراتها ودموعها، وهو يلتحق بجيش الإسلام.. يشق صفوف الوثنيين حتى اخترقهم، وظفر بقائدهم.. بزعيمهم أبي سفيان بن حرب، فشد كالصقر ليجهز عليه، وقبل أن يصل سيفه لرقبته.. إذا برجل يقال له شداد بن شعوب يفاجئه بضربة أيمت عروسه.. ضربة زفته إلى أعراس الجنة بطريقة فريدة.. جعلت النبي ﷺ يتساءل عن سر ذلك الفتى، حين رأى الملائكة تتولى تغسيله، فقال: «**إن صاحبكم حنظلة تغسله الملائكة، فسلّوا صاحبته؟**».

رفرفت روح الفتى، ونجا أبوسفيان من سوء الخاتمة، وشعر بأن الأمر إن طال فستحل كارثة، فهؤلاء المسلمون يقبلون على الموت كما يتشبث أصحابه بالحياة.. أصحابه الذين تعبوا وخسروا أكثر من سبعين وثنيًا؛ لذا بدأ جيشه بالتراجع لمعسكرهم، ليتوقف القتال، ويهدأ المكان، وتصفو الأجواء، لكنه لوثها بصراخه قائلًا: «اعلُ هبل، اعلُ هبل» كلمات تضج منها السماوات والأرض.. ظل يرددها حتى أخرسه عمر.

الله أعلى وأجلّ

انتهت معركة أحد، وهي بحسب المقاييس العسكرية تسجل انتصارًا للمسلمين، على الرغم من استشهاد سبعين صحابيًا، فالمشركون سقط منهم أيضًا سبعون، وأُسر منهم رجال، لكن ما يرجح كفة المسلمين.. هو أن الوثنيين كانوا أكثر منهم ثلاث مرات، وقبيل نهاية المعركة أصيب المؤمنون بالنعاس مجددًا أمنًا وسلامًا، وطمأنينة من عند الله، إلا رجلًا منافقًا بقي مع المؤمنين ولم يهرب، ويدعى معتب بن قشير.



أحد الصحابة يقول: «أرسل الله علينا النوم، فما منّا من رجل إلاّ ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلاّ كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا، فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾[آل عمران: ١٥٤]، لقول معتب».

انحاز كل جيش إلى معسكره، فشعر أبوسفيان بنشوة، فصرخ مناديًا جيش المؤمنين: «أفي القوم محمد، أفي القوم محمد، أفي القوم محمد؟» نظر الصحابة لنبيهم ينتظرون أمره، فنهاهم ﷺ أن يجيبوه، ثم صرخ مرتين: «أفي القوم ابن أبي قحافة؟»، ثم صاح مرتين: «أفي القوم بن الخطاب» لم يجبه أحد، فالتفت إلى أصحابه يبشرهم بقتل النبي ﷺ وصاحبيه قائلًا: «أما هؤلاء فقد قتلوا، وقد كفيتموهم».

عجز عمر عن ضبط غضبه الذي انفجر بأعلى صوته: «كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك» أصيب الوثنيون بإحباط، فأحب زعيمهم إحباط المؤمنين، فقال: «يوم بيوم بدر، والحرب سجال» ثم إن الرجل أصدر بيانًا يتبرأ فيه من أي تعدٍّ على أجساد الشهداء، وفي مقدمتهم حمزة، فقال: «إنكم ستجدون في القوم مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني» شعر المؤمنون بألم لتشويه إخوتهم، لكنهم تألموا أكثر حين بدأ يرتجز، ويردد: «اعلُ هبل، أُعل هبل».

هنا لا سبيل للسكوت، فقال ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**. قالوا: يا رسول الله، ومانقول؟ قال: **قولوا الله أعلى وأجل**» أسقط في يد أبي سفيان، فلم يجد سوى التفاهة ليفاخر بها قائلًا: «لنا العزى ولاعزى لكم. فقال ﷺ: **قولوا: الله مولانا ولامولى لكم**» خرست كلمات الوثنية أمام شموخ التوحيد، فأخذت زعيمهم العزة بالإثم، فطالب بمعركة أخرى في العام القادم، وفي مكان هو الذي حدده، فقال: «موعدكم وموعدنا بدر الصغرى».

دعاء وجراح

فكك الوثنيون معسكرهم، وحملوا جرحاهم، وتركوا أسراهم للمؤمنين، وجثث قتلاهم للذئاب، وبدؤوا العودة لمكة، أما المؤمنون فلم يتزحزحوا.. ظلوا على

أرض أحد.. في حالة ترقب ودفاع حتى اطمأنوا لخلو الساحة.. حينها نهض القائد ﷺ ونادى أصحابه، ليختم بالدعاء كما بدأ، فقال: **«استووا حتى أثني على ربّي»**.

نهض الصحابة المتعبون والنازفون، حتى صاروا خلفه صفوفًا، ونهضت النساء خلفهم، فقال: **«اللهم، لك الحمد كله، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم، إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم، إني أسألك النعيم يوم العلية، والأمن يوم الخوف، اللهم، عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا، اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم، توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك إله الحق، آمين»**.

أمّن الصحابة، وفاضت العيون، وسكنت الأنفس، ثم بدأت لملمة الشتات، ومداواة الجراح وتفقد الأحبة، وأقبلت النساء يداوين الجرحى، ويحملن قرب الماء على ظهورهن ليسقين العِطاش، حتى قال أحدهم: «رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمّرتان، أرى خدم سوقهما تُنْقِزان، القرب على متونهما، فتفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأانها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم»، أما فاطمة فانشغلت بجراح أبيها ﷺ.. تغسلها، وعليّ يسكب الماء بالمجن، لكن فاطمة وجدت الماء لا يزيد الجرح إلا نزفًا، فتناولت قطعة من حصير، وأشعلت فيها النار، ثم أطفأتها، وألصقتها على جرحه ﷺ، فاستمسك الدم، وتوقف النزف. اطمأن القائد ﷺ على جرحه هذا، لكن جرحًا آخر انفتق.. جرح أشد نزفًا وألمًا.. غائر في أعماق القلب، حين نظر ﷺ إلى أصحابه، فسألهم سؤالًا حزينًا: **«من رأى مقتل حمزة؟** فقال رجل: أنا رأيت مقتله فقال: **فانطلق أرِناه»**.



من رأى مقتل حمزة؟

انفجر جرح بأعماق قلب القائد ﷺ، حين سأل أصحابه: «**من رأى مقتل حمزة؟**» فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله. قال: **فانطلق أرِناه**» انطلق الرجل يمشي.. يتخلل الجثث الدامية حتى اقترب منه، فإذا الجسد لا يشبه جسد حمزة، قد قطع أنفه وأذناه، وشق بطنه وشوه، فتكدر الرجل، واستدار مباشرة نحو نبيه خشية أن يراه، فقال وصوته يقطر حزنًا: «يا رسول الله، مثّل به والله». فكره ﷺ أن ينظر إليه. لكنه قال كلمة مبكية: «**لولا أن تجد صفية في نفسها تركته حتى تأكله العافية، فيحشر من بطونها**».

خشي ﷺ على مشاعر عمته صفية أن ترى ما فُعل بأخيها، لكن صفية علمت وهي بين النساء تسعف وتداوي، فتركت ما معها ومن معها، وأخذت ثوبين، وأقبلت بهما تركض ملهوفة.. تبحث عن شقيقها، ولما اقتربت من الأجساد المشوهة لمحها ﷺ من بعيد، فلم يعرفها، فكره أن ترى النساء ما جرى، فأمرهم بإيقافها، وصاح: «**المرأة، المرأة**» كان ابنها الزبير بن العوام إلى جانب قائده، فعرفها، فتوجه يركض نحوها ليوقفها، واستمرت تركض حتى اعترضها برفق.

كانت صفية بنت عبدالمطلب امرأة جلدة.. أصرت على المواصلة، فحاول ابنها منعها، فضربت صدره غاضبة حزينة، ونهرته قائلة: «**إليك عني لا أرض لك**» وقررت المضي، فأبلغها بلطف بوصية نبيها، وقال: «**إن رسول الله عزم عليك**» عندها كظمت حزنها، وامتثلت لأمر نبيها، فتوقفت، لكن دموعها لم تتوقف. أخرجت قطعتي القماش اللتين أحضرتهما، ومدتهما لابنها الزبير، وقالت وقد انفطر قلبها: «هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما» ثم انطوت على جمر الفراق وعادت، وعاد الزبير بالثوبين، وعند وصوله لأصحابه التفتوا، فرأوا شهيدًا أنصاريًّا قريبًا منه.. قد شوهه الوثنيون أيضًا.. هنا تقاسم المهاجرون والأنصار الأكفان، كما تقاسموا الأحزان، فقال الزبير: وجدنا غضاضة وحياء أن نكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له. فقلنا لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدرناهما، فكان أحدهما أكبر من الآخر. فلم يكن لعم قائد الدولة وسيد الشهداء

أن يحظى بكفن أفضل من أخيه الأنصاري.. تأبى أخلاق الإسلام؛ لذا أجرى الصحابة القرعة بينهما.

***

حين يتقاسم الأحبة الأكفان

أجرى الصحابة القرعة على الأكفان، فنال حمزة قطعة قماش بالية.. إذا مدت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مدت على رجليه بدا رأسه، فقال ﷺ: «**مدوها على رأسه**».

لم يكن حمزة وحده بهذه الحال، فحين تهادى ﷺ يتفقد أحبته المسافرين.. توقف أمام حبيب سبق أن أبكاه.. فاضت العيون أمام مسافر ليس في حقيبة سفره سوى قرآن أنار به البيوت والعقول.. رحل مصعب بن عمير لم يترك من الدنيا سوى سيفه، وثوب لا يستر كل جسده.

مشهد ظل يبكي عبدالرحمن بن عوف، ويبكي رفيقه خباب، فيقول: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، ووجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد، فلم نجد شيئًا نكفنه فيه، إلا نمرة كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، فإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فأمرنا رسول الله أن نغطي رأسه بها، ونجعل على رجليه من إذخر»، وإذا كان حمزة ومصعب لم يحظيا بكفن كافٍ، فهناك من لم يجد له ﷺ كفنًا، فاضطروا إلى لف الشهيدين والثلاثة في الكفن الواحد، حتى قال أحدهم: «قلّت الثياب، وكثرت القتلى، وكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون في الثوب الواحد».

كانت مناظر التشويه فظيعة، حتى خشي ﷺ على النساء من الاقتراب إلا واحدة، وذلك حين تعرف المؤمنون على شهدائهم إلا واحدًا.. بلغ التشويه به درجة عجزوا معها عن التعرف إليه، فرجحوا أن يكون أنس بن النضر، فهو ليس بين الأحياء، ولا يمكن أن يفر، فنادوا أخته الربيع بنت النضر علها تتعرف إليه، فأقبلت ملهوفة بين الجثث، حتى أوقفوها أمام جسد شجاع مجهول ومذهل.. توقفت تتأمل جسدًا مزقته أكثر من ثمانين ضربة، فلم تعرفه، لكنها لم تنصرف.

جلست وكأنها تفتش عن ذكريات الطفولة في شوارع طيبة.. مدت يدها نحو كفه، فرفعتها، فتسارع قلبها، وقلبت أنامله، ففاضت عيناها، وعلا نحيبها.. إنه هو.. إنها أنامل أنس.. جسده كان ساحة لمعركة أخرى، ولو كان له جسدان لأتلفهما في سبيل الله.. انحنت الربيع كالفجيعة على أخيها، والتف الأحبة حوله.. في الوقت الذي كان فيه ﷺ يتفقد بعض أجساد أحبته الشهداء.. أجساد لم تدفن، وليست على أرض أحد، فأين اختفت؟

أتبكينه يا فاطمة؟

بينما كانت الربيع بنت النضر تتأمل أصابع أخيها الشهيد أنس.. كانت فاطمة بنت حرام مشغولة بسكب دموعها على حبيبيها الشيخين: زوجها عمرو بن الجموح، وأخيها عبدالله. نهضت بعد أن احترق جوفها نحو بعيرها، ثم نادت من يعينها على حملها، وبعد أن عادلتهما على البعير.. أمسكت بزمامه، وانطلقت للمدينة لتدفنهما في مقابر العائلة.. سارت لا تدري ما الذي ستقوله لبنات أخيها التسع، فرأت أخاهن جابر على مشارف المدينة، فزاد مرآه همومها.. بكى حين رأى والده وزوج عمته، وبكت عمته، لكن صوتًا أوقف بكاءهما.. رجل ينادي بأعلى صوته كلَّ الذين أخذوا شهداءهم للمدينة قائلًا: «ألا إن النبي يأمركم أن ترجعوا بالقتلى، فتدفنوها في مصارعها، حيث قتلت» عاد جابر وعمته إلى أرض أحد، ولما وصلا أنزلاهما عن ظهر البعير، فأخذتهما موجة من البكاء.. انحنى جابر على وجه أبيه الحنون.. يكشفه.. يمطره بدموعه، فاقترب منه بعض الصحابه ونهوه، لكنه لم ينتهِ، أما النبي فقد رأى احتفاء في السماء فوق جابر وأبيه.. اقترب ﷺ فرآه يبكي والصحابة ينهونه، فلم ينههَ، ولم ينهَ عمته فاطمة، التي علا نحيبها.. أقبل ﷺ نحو هذا الفقيد الغالي، فقال لأخته: «**تبكيه، أو لا تبكيه، مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه**» ثم أمر ﷺ بدفن الشهداء بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، وبشرهم قائلًا: «**أنا شهيد على هؤلاء، لفّوهم في دمائهم، فإنه ليس جريح يجرح في الله إلاّ جاء وجرحه**

يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك»، ولما رأى أن القتلى بالعشرات قال: «**احفروا، وأوسعوا، وأحسنوا، وادفنوا في القبر الاثنين والثلاثة، وقدموا أكثرهم قرآنًا**»، قال جابر: فقدموا أبي بين يدي رجلين.

أتم الصحابة دفن شهدائهم، وأخذ الساحة سكون حزين، وفي إحدى لحظات السكون الحزينة تلك.. التفت ﷺ إلى جابر، فآلمه انطواؤه ورقّ له، وقال: «**يا جابر، ما لي أراك منكسرًا؟**». انتشل جابر رأسه من انكساره وهمومه، ونظر لقرة عينه ونبيه ﷺ، فبثه أحزان تسع أخوات يتيمات ينتظرن والدهن، ولا يدرين أن اليتم سيأتي بدلًا منه.

قال جابر: «يا رسول الله، استشهد أبي، وترك عيالًا ودينًا»، فأزال ﷺ جل أحزانه حين قال: «**أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟**».

أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟

اقترب القائد ﷺ من الفتى الحزين جابر بن عبدالله، وهو واجم حزين، فقال: «**يا جابر، ما لي أراك منكسرًا؟** قال جابر: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالًا ودينًا. فقال: **أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟** قال: بلى، يا رسول الله. قال: «**يا جابر، أما علمت أن الله أحيا أباك**» **فقال: يا عبدي، تمنّ علي أعطِك. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانية**» إذًا فقد حطت الأرواح في النعيم، ورفرفت في عوالمه الساحرة.. عوالم احتقر الشهداء معها جهادهم وما أصابهم، فهي لا شيء أمام ما يرونه ويعيشونه؛ لذا تمنى والد جابر أن يقتل، ويقتل علّه يدفع شيئًا يستحق هذه الرفاهية التي يعاني عشقها، لكن الرب الكريم سبحانه قال: «**إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب، فأبلغ من ورائي**» فأبلغ الله سبحانه نبيه ﷺ.

ترى ما سر هذا الاحتفاء بوالد جابر، وهو شيخ كبير سقط ضمن أول من سقطوا؟ إنه لم يقاتل كما قاتل حمزة، ولم تمزقه الطعنات كما مزقت أنس بن النضر، ومع ذلك يلقى كل هذا الفيض الغامر من النعيم!.. ليس هكذا يُنْظَر لوالد جابر.

دعونا نتأمل عالم هذا الشهيد من كل زواياه: إن هذا الشيخ الكبير لم يحارب عن اثنين كما فعل سعد في بدر، ولم يحارب بسيفين كحمزة، لكنه كان يحارب في معركتين شرستين: إحداهما على الأرض، أمّا الأخرى فكانت معركة بين حناياه، وهي أكثر ضراوة وقسوة.. إنها معركة مع الذات.. مع الدنيا.. مع عواطف الأبوة الجياشة التي تخشى على تسع بنات مسكينات، والدنيا.. كل الدنيا تدرك أن الشيخ أكثر حدبًا على بناته منه وهو شاب، والدنيا.. كل الدنيا تعرف أن للبنات رحمة لا تُعادل في قلوب الآباء، فكيف إذا كنّ تسع صغيرات؟ كان عبدالله بن عمرو بن حرام ينتزع نفسه من بين بناته.. ينتشلها من مشاعر الأبوّة الجارفة، ليتّجه بها نحو الله، فحب الله متشعب في عروقه ومشاعره، وهو في حاجة إلى الله أكثر من حاجة بناته إليه.. هكذا يمكن فهم هذا الشيخ، وهكذا يمكن فهم سر حفاوة الله به.

رفرفت روحه وروح رفيقه عمرو بن الجموح وبقية الشهداء، ووصلت رسالة الأرواح للنبي، فنظر ﷺ إلى أبطاله، وتلاها عليهم، ففاضت العيون، حتى تمنى القائد ﷺ لو كان ضمن رحلتهم هذا المساء.

رسالة من النعيم

وصلت رسالة الشهداء فقال النبي ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأُحُد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم، وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب. فقال الله ﷻ: أنا أبلّغهم عنكم، فأنزل الله ﷻ:** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾» [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

إذًا، فقد اكتست الأرواح أجسادًا طائرة ترف على النعيم، وتتقلب في أجوائه الساحرة.. حينها شغف الشوق للجنة قلب القائد ﷺ، وهفت روحه لها، فتمنى لو كان ضمن قافلة الشهداء، وقال: «أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحضن الجبل» وكان من بين المسافرين ربيع الكرم، وريحانة الأنصار سعد بن الربيع، الذي تنازل لعبدالرحمن بن عوف عن نصف ممتلكاته حين وصوله للمدينة، بل عرض أن يطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها.

ترى أي مشاعر جرفت ابن عوف.. حين رأى استشهاد حبيبه ابن الربيع، وأي حزن سكنه؟ لكن على الرغم من هول الفجيعة، إلا أن قريشًا شعرت بالهزيمة، فقد وصلوا إلى مكان يقال له الروحاء، فتوقفوا يحصون أسراهم وقتلاهم، فإذا هم بالعشرات، ونظروا إلى رواحلهم، فإذا هي خالية من فتيات الدولة الإسلامية، فقال بعضهم معترفًا بالهزيمة: «لا محمدًا قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم».

مشاعر لم تغب عنه ﷺ، فهو قائد فذ يقرأ تفكير عدوه جيدًا، ويضرب حسابًا لأسوأ الاحتمالات.. خاف أن يرجعوا، فعرض الأمر على جنده وقال لهم: «من يذهب في إثرهم؟» فتأهب الكثيرون، ثم انتقى سبعين رجلًا.. كان فيهم أبوبكر والزبير وغيرهما. انطلق السبعون لرصد الوثنيين حتى بلغوا حمراء الأسد، أو بئر أبي عيينة، ثم عادوا يخبرونه ﷺ بأن القوم قد غادروا، فأنزل الله آية تثني على السبعين، وتقول: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٧٢]، ثم خيم الليل والسكون والظلام على أرض أحد.. كل شيء هادئ.. كل شيء ساكن، إلا حركة غريبة تحدث هناك.. شبح مخيف يمشي خلال الظلام والجثث.

شبح على أرض أحد

خيم الليل والسكون على أرض أحد.. جثث، وظلام، وصمت مخيف، وفجأة ينهض شبح ثقيل بين تلك الجثث.. يسحب خطاه.. رجل جريح يقال له وهب ابن



عمير.. يبدو أنه أصيب في نهاية المعركة، ففقد الوعي بعد طعنة من أحد الأنصار، فلم يفق إلا في الليل، أو ربما تظاهر بالموت حتى خيم الظلام.. عندها رفع رأسه، وتلفت ببطء، ثم تحامل على جراحه ونهض، وبدأ بمغادرة أرض أحد، وبعد مدة وصل أو أوصل لمكة وتم تمريضه حتى شفي. ولما شفي خرج ذات يوم من بيته نحو الكعبة، ولما دخل المسجد نظر إلى الحِجر فوجد ابن أحد الطواغيب جالسًا فيه، واسمه صفوان ابن أمية بن خلف، فاتجه نحوه وجلس معه، وأخذا يتحدثان عن عدوهما محمد ﷺ.

كان وهب يشعر بحرقة على نتيجة أحد، وعجزهم عن قتل محمد؛ لذا التفت إلى صفوان وصارحه بأمر بالغ الخطورة، فقال: «لولا عيالي ودين عليّ، لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمدًا» استغرب صفوان هذه الأمنية، التي غدت بعيدة بعد كل هذه السنوات من الفشل في المحاولات، فقال: «كيف تصنع؟» فذكر له خطة قابلة للتطبيق، وقال: «أنا رجل جواد لا ألحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالسيف، فألحق بالخيل، ولا يلحقني أحد».

تهلل وجه صفوان، واستبشر بخطة هذا الفدائي، بل أبدى استعداده لتمويل هذه العملية الإرهابية، وتسديد ديون منفذها قائلًا: «فعيالك مع عيالي، ودينك علي». نهض وهب لبيته متحمسًا، وأعد عدة السفر، وبعد أيام ودع أهله واستودعهم صفوان، ثم ركب راحلته وانطلق، لكن قبل أن يصل دعونا نعود بالزمن للوراء.. دعونا نعود إلى ساعات مغادرة رسول الله ﷺ وجنده لأحد، بعد أن تعلم الصحابة درسًا بليغًا.. درسًا يقول: إنه حتى الصحابة الذين ينزل الوحي بين أظهرهم.. خير القرون وخير الأمة.. حتى هؤلاء سيتلقون الهزائم عند مخالفتهم لتعاليم نبيهم ﷺ.. على الرغم من أن مخالفة الرماة لم تكن في العقيدة، أو العبادة، بل مخالفة في تقنية من تقنيات الحرب الدنيوية.. مخالفة لنظام التزم به القائد قبل جنده. أُحد رسالة للأمة أنها لن تنهض في مصاف الأمم، إلا إن جمعت مع صفاء العقيدة إتقان الدنيا.

عاد الصحابة بهذا الدرس عبر شوارع من الحزن والنواح.. جددت ذكريات حمزة، فقال ﷺ: **«لكن حمزة لابواكي له»**، فإذا النساء يملأن بيت حمزة.

حمزة لا بواكي له

مـرّ ﷺ في طريـق العودة من أحد بحي بني الأشـهل، فسـمع نواح نسـاء الحي الأنصاريات وبكاءهن على شهدائهن، فتذكر عمه، وقلة من يبكي عليه، فقال كلمة كلها حمزة.. قال: «**لكن حمزة لا بواكي لـه!**» سـمع الأنصار تلك الكلمة، وتوجه ﷺ إلى بيـت فاطمة، فدخل ودخل علي ومعه سـيفه الذي كـسر جرابه على أرض أحد، فمد سـيفه لفاطمة وقد انحنى، وقال: «هاكي السـيف حميدًا، فإنها قد شفتني» فقال القائد ﷺ مثمنًا جهاد رفاقه: «لئن كنت أجدت الضرب بسـيفك، لقد أجاده سـهل ابن حنيف وأبودجانة وعاصم بن ثابت الأقلح والحارث بن الصمة».

وبعـد مدة خرج ﷺ لبيته ليسـتريح، وإذا بنسـاء الأنصـار يتقاطرن من بيوتهن، لينحـن على حمزة مع زوجتـه خولة بنت قيس، بعد أن أخبروهـن بوجد النبي عليه، وفي أثنـاء بكائهـن غفـا ﷺ ونـام، ثـم صحـا وقد أوحـي إليـه بحكم جديـد يتعلق بالنياحـة.. يتذكـره الفتى ابن عمر، فيقول: (جئن نسـاء الأنصـار، فبكين على حمزة عنده ﷺ، ورقد، فاستيقظ وهنّ يبكين، فقال: «**ويلهن إنهن لها هنا حتى الآن. ويحهن مـا انقلبن بعد. مروهن فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم**» والبكاء المنهي عنه هنـا هو النواح ورفع الصوت، وتعديد صفـات الميت؛ لذا قال ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت**»؛ لأن فيهما اعتراضًا على أقدار الله، أمـا البكاء وذرف الدمـوع فطبيعة بشرية، والله هو الذي أضحـك وأبكى، وما جاء القرآن ليكبت المشاعر أو يغتالها.

وسـط مشـاهد الحزن.. كان هناك إنسان يمشي نحو شـابة تبكي حبيبها حنظلة ابن أبي عامر، فبشرها أن الملائكة كانت تغسـله، وأن النبي ﷺ يسـألها عنه، فأخبرتهم أنه ودعها صبح عرسـه، وبعد أيام عاد الصحابـة الذين فروا من المعركة، واعتذروا، واستغفروا الله، فأنزل غفرانه لهم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ١٥٥]، فالصحابة بشر، وما نزل القرآن إلا ليصلحهم،

وتمر الأيام، ويستأنف القائد ﷺ ضخ الطاقة في دولته الفتية، وذات يوم وبينما كان عمر في إحدى الطرقات.. فوجئ عمر بوثني من خارج الدولة الإسلامية ممتلئًا حقدًا يحمل سيفه، فقرأ في التفاتاته شرًّا وشيكًا، فهاله الأمر، فشكل قوة حماية لنبيه.

إرهابي في المدينة

يا له من كره ذلك الذي حرض وهب بن عمير على قطع مئات الأميال من مكة، ليقتل قائد الدولة الإسلامية ﷺ، بعد أن تعهد له التاجر صفوان بن أمية بسداد دينه، ورعاية أسرته إن قام بعمليته الإرهابية. لخص وهب خطته لصفوان بقوله: «أنا رجل جواد لا أُلحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالسيف فألحق بالخيل، ولا يلحقني أحد».

وصل وهب المدينة، ونزل عن حصانه السريع، وربطه في مكان يمكنه من الهرب بسهولة، ثم أخذ يتجول.. يتلفت ليطمئن على خطته.. وهب الآن في الأسواق.. تقتله مشاهد دولة للحب والعدل والنظام، ونزاهة القضاء، والحدب على الفقراء، وفجأة يراه عمر، فيشعر بهول الأمر، ويشقّ عليه، ويدرك أن شرًّا سيقع، فهو من أعلم الناس بوهب.

فز عمر مباشرة نحو إخوته، وطلب منهم طلبًا عاجلًا، وقال: «إني رأيت وهبًا، فرابني قدومه، وهو رجل غادر، فأطيفوا نبيكم».

أحاط الصحابة بنبيهم ﷺ حين انتهى وهب من الرصد، ثم أقبل نحو القائد، ففوجئ به داخل حلقة من القلوب والسيوف.. نظر إلى رسول الله فحياه بتحية الجاهلية قائلًا: «أنعم صباحًا يا محمد. فقال ﷺ: قد أبدلنا الله خيرًا منها. فقال: عهدي بك تتحدّث بها وأنت معجب. فقال ﷺ: ما أقدمك؟ فقال: جئت أفدي أساراكم، فسأله ﷺ سؤالًا مفحمًا: ما بال السيف؟ فقال: أما إنّا قد حملناها يوم بدر، فلم نفلح، ولم ننجح» أيقن وهب بالغرق، لكن نبي الله لا يكف عن رمي أطواق النجاة قائلًا: «فما شيء قلت لصفوان في الحجر: لولا عيالي ودين عليّ لكنت أنا

الذي أقتل محمّدًا بنفسي» صدعت الكلمات قلب وهب، فاتسعت عيناه، وفتح فاه، وقال: «هاه.. كيف قلت؟» فأعاد ﷺ كلماته إعادة غسلت حقده، فقال: «قد كنت تخبرنا خبر أهل الأرض فنكذّبك، فأراك تخبر خبر أهل السماء! أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله» اطمأن الصحابة، وتهلل وجه عمر، فقال الفاروق لمن حوله: «لقد قدم وإنه لأبغض إليّ من الخنزير، ثم رجع وهو أحبّ إليّ من بعض ولدي».

عاد وهب لمكة بقلب آخر، وعاد القائد ﷺ لدولته.. لشعبه.. لفقرائهم.. لأيتامهم يواسيهم بالوحي.. بالعدل.. تأتيه زوجة الشهيد سعد بن الربيع بطفلتيها.. تشكو لقائدها رجلًا أخذ مال اليتيمتين، وجعلهما على حافة الفقر.

القائد يواسي يتيمات الوطن

قالت زوجة الشهيد سعد بن الربيع لقائد الدولة ﷺ: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد، قتل أبوهما يوم أُحد شهيدًا، وإن عمّهما أخذ مالهما فاستفاءه، فلم يعد لهما مالًا، والله لا تنكحان إلاّ ولهما مال. فقال ﷺ: «**يقضي الله في ذلك**».

عادات جاهلية تسحق الأنثى، ولا يزيلها إلا الوحي الذي نزل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].. تلتها آيات في المواريث، وبعد نزولها أرسل ﷺ لعمّهما، فقال: «**أعطِ ابنتي سعد الثلثين، وأمّهما الثمن، وما بقي فهو لك**».

نظام يحمي الأنثى من جور الجاهلية الذكورية، فالأنثى تعاني حتى في هذا العالم المتحضر اليوم استغلال الرجل لها، ومتاجرته بجسدها باسم الحرية والسياحة، حتى إن منهن من تسلم نفسها لأكثر من رجل في اليوم، أي لمئات الرجال في العام، ليس للتسلية، ولا إعجابًا بأولئك الرجال، ولكنها لقمة العيش المر، التي يتحكم فيها الرجل، فإن مرضت أو كبرت رماها على قارعة الطريق كقطعة لحم متعفنة، أما الإسلام فيوجب لها دخلًا على ابنها إن كانت أمًّا، وعلى زوجها إن كانت حليلة،



وعلى والدها إن كانت بنتًا، أما إن كانت بلا دخل، فدولة الإسلام أمها وأبوها، فهذا النبي القائد ﷺ يقول: «**أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالًا فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإلي وعلي**» الإسلام لا يعتني بالأنثى شابة، ويرميها في الأزقة والملاجئ حين تحدودب، بل عندما تكبر يكبر قدرها.. تصبح الجنة عند قدميها.. يصبح الإنفاق عليها جهادًا، وعلاجها عبادة، وحملها عبادة، وتكبيس قدميها الضعيفتين عبادة، ورسم الابتسامة على تجاعيدها الحبيبة عبادة، ولا ينقطع البر بموتها.. يظل وارفًا دعاءً وصدقة، أما في غير الإرث كالعطايا والهبات، فتنال الفتاة مثل ما يناله الفتى.

ففي أحد البيوت امرأة تطالب زوجها بمنح طفلها هبة، وأن يشهد النبي عليها. أمسك الرجل بيد طفله النعمان، وخرج به، ولما وصل عند أعدل القادة.. أخبره، فقال ﷺ: «**يا بشير، ألك ولد سوى هذا؟**» قال: نعم. فقال: «**أكلّهم وهبت لهم مثل هذا؟**» قال: لا. قال ﷺ: «**فلا تشهدني إذًا، فإني لا أشهد على جور**».

لن تجد الفتاة أعذب من محمد ﷺ وهو يقول: «**من ولدت له ابنة فلم يئدها، ولم يهنها، ولم يؤثر ولده عليها، يعني الذكر، أدخله الله بها الجنة**».

قائد يواسي يتيمات وطنه

ذات يوم طُرق باب القائد ﷺ ففتحت عائشة، فإذا امرأة وطفلتاها، والجوع رابعهن.. بحثت فلم تجد في بيت قائد الدولة سوى ثلاث تمرات، فآثرت المسكينات على نفسها. أخذت المرأة التمرات، فناولت واحدة لطفلتها التي سارعت بمضغها، وأعطت الأخرى التمرة الثانية، ففعلت مثل أختها، ثم رفعت الأم تمرتها إلى فمها، فرفعت الصغيرتان رأسيهما نحو أمهما، وحدقتا بتمرتها، فانكسر قلبها، وأمسكت التمرة بيديها، وقسمتها بينهما، وانطوت على جوعها، ثم نهضت وانصرفت، بعد أن واستها زوجة الحاكم بطعامها. أما عائشة فظلت تعيد المشهد حتى جاء النبي ﷺ،

فأخبرته عن غيمة الرحمة التي أمطرت قبل قليل ببابها، فإذا بتلك التمرة المغموسة بالرحمة تحمل الأم للنعيم، حين قال ﷺ: «**إن الله ﷻ قد أوجب لها بها الجنة، وأعتقها بها من النار**».

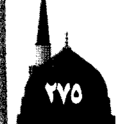
في مثل هذا الظرف يسأل القائد ﷺ عائشة: «**هل عندكم شيء؟**» فتقول: يا رسول الله، ماعندنا شيء. وبدلًا من أن يحول البيت عاصفة غضب.. يحول الجوع عبادة، فيقول: «**فإني صائم**».

كان القائد ﷺ يسير مع فقراء شعبه، حيث يسيرون.. ذات يوم ضاقت الدنيا بتسع يتيمات.. حين جاء مجموعة من التجار اليهود لأخيهن الفتى الفقير جابر بن عبدالله.. يطالبونه بسداد ديون والده، فرجاهم التنازل عن بعضها، أو أن يأخذوا تمر نخلات أبيه، فرفضوا، فلم يجد الفتى سوى قائده.. أرحم الناس وأعدلهم، على مكانته تخفف صلف يهود. انطلق الفتى حتى وصل باب قائده، فدقّ الباب. سمع ﷺ الطرق، فقال: «من ذا؟ فقال جابر: «أنا»، فقال ﷺ: «أنا... أنا»! كأنّه كرهها؛ لأن كلمة أنا ليست إجابة، ولا تعريفًا بالطارق، بل هي حيرة واستدعاء لمزيد من التساؤل.

تعلّم جابر على باب نبيه أدبًا رفيعًا، ثم بثّ شكواه له، فقال: «قد علمت أن والدي قد ترك دينًا كثيرًا، وإني أحب أن يراك الغرماء، فانطلق معي لكي لا يفحش عليّ الغرماء»، فلم يتخلّ القائد عن هذا المواطن الفقير، ولم يكل أمره لغيره على الرغم من صغر سنه وفقره.. سار معه وكأنه من كبار رجال الدولة.. سار معه نحو تجار ينتمون للأقلية، لا ليضطهدهم، ولا ليصادر مالهم، بل ليشفع ويتلطف، علهم يخففون معاناة هذا المواطن المفلس، فهل سيستجيب تجار اليهود لرجاءات قائد الدولة؟

كرامات الشيخ الشهيد تتوالى

عبر شوارع المدينة يمشي المواطن الفقير جابر بن عبدالله.. بجوار قائد الدولة ﷺ لمقابلة التجار اليهود، ولما وصل حصونهم خاطبهم بلطف، واقترح أن



يتنازلـوا عن بعض الدين، فلم يفعلـوا. فاقترح أن يقبلوا ثمر حائط النخل، ويحللوا والده، فأبوا. كانت انتهازيتهم واضحة، فعيونهم على الحائط كله.

يقـول جابر فلم: «يعطِهم رسـول الله، ولم يكسره لهم» بل التفت للفتى، وقال: «سـأغدو عليك إن شاء الله تعالى» ويبدو أن وزيريه أبا بكر وعمر كانا هناك، فتوقعا حدثًا عظيمًا غدًا.

خيـم الليل كالهمـوم، وبعد صلاة الفجر مر القائـد ﷺ بجابر، فأخذه للحائط، ولمـا دخله بدأ يتمشـى بين النخـل، ويدعو في ثمـره بالبركة، ثم أمر جابـرًا أن يجدَّه، وقـال له: «إذا جددته فوضعته في المربد، وهو مكان تجفيف التمر، فبيدر كل تمر على ناحية: العجوة على حدة، وعذق ابن زيد على حدة، ثم أرسل إليّ».

انـصرف النبـي ﷺ وتسـلق جابر نخلاتـه، واخترف تمره، ثم قسـمه، ولمـا انتهى أرسل للنبي ﷺ فجاء وكأن هذا الفتى الفقير من أبنائه، فقال: «**ادعُ غرماءك**» فانطلق، فجمعهم، فأقبلوا معه، ولما وصلوا أثارهم وجود النبي ﷺ، فعاودوا الضغط على الفتى، فلما رأى ﷺ ما يصنعون طاف حول أعظم التمر بيدرًا ثلاث مرات، ثم جلس عليه، ثم دعـا، ثم قـال: «**ادعُ أصحابك**»، فتقدم التجار اليهود نحو قائد الدولة واحدًا واحدًا.. يخبرونه بدينهم، فيكيل لهم ويكيل، حتى سدد الديون، وجابر يراقب بذهول، ويقول: «أنا والله راضٍ أن يؤدي الله أمانة والدي، ولا أرجع إلى أخواتي تمرة، فسلّم والله البيادر كلّهـا، حتـى إني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسـول الله ﷺ، كأنـه لم ينقص تمرة واحدة، وبقي مثل ما أعطاهم» نهض النبي عن البيدر المعجزة، ثم انصرف وسـط ذهول الفتى الذي حلقت به السـعادة ليبشر أخواته، ثم اتجـه للتجار الطيبين الذين لم يضيقوا عليه، فوفاهم دينهم، ولما غابت الشمس كان قد انتهى من كل شيء، وبقي له ولأخواته ثلاثة عشر وسـقًا.. سبعةً عجوة، وستةً لون، فذهب لنبيه، فأخبره، فضحك ﷺ وأمره بزف البـشرى لوزيريه، فقـال: «ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما، فأتاهمـا، فقالا: لقد علمنا، إذ صنع رسـول الله ما صنع أن سـيكون ذلك، وقال عمر: ألا يكون قد علمنا أنه رسـول الله، والله إنك لرسول الله» اطمأن جابر، ومرت الأيام، فسمع ﷺ خبرًا كدره عنه.

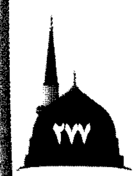
قائد يزور صغار مواطنيه

مـرض الفتـى الأنصاري جابر بـن عبدالله بعـد أن أغناه الله حتـى أشرف على الموت، فعلم قائد الدولة ﷺ، فأخذ وزيره الأول أبوبكر معه، وسارا على أقدامهما إلى حي بني سلمة، حيث بيت جابر.. استأذن ﷺ فخفف استئذانه حزن اليتيمات التسع على أخيهن، أما جابر فلم يرد على نبيه، فقد كان في غيبوبة وفقدان وعي، فطلب النبي ﷺ ماء فتوضأ منه، ثم رشّ على جابر، فأفاق... ما سر هذا البيت ومعجزاته؟ هل هي رحمة الشيخ الشهيد وابنه بالفتيات؟

أفـاق جابر، وفتـح عينيه، فـإذا أرأف النـاس وأحنّهم بجواره.. ينسـيه آلامه، فهـان ماله في حب الله ورسـوله، فقال: «يا رسـول الله، لا يرثنـي إلّا كلالة، فكيف الميراث؟» والكلالة هي من لا والد له ولا ولد.. «يا رسـول الله، إنما لي أخوات، ما تأمرني أن أصنع في مالي؟» سكت ﷺ فلم يجبه حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾[النساء: ١٢].

نهـض جابـر من مرضـه، وانـصرف ﷺ لشـؤون دولتـه ومواطنيه مهـا كانت ديانتهـم، فقد سـمع يومًا بمـرض فتى يهودي فقير، فانطلق لبيتـه يعوده، ولما أذن له دخـل فقعد عند رأسـه، وإذا بالغلام على وشـك الموت، فلم يتخـلّ عنه، بل رجاه، فقال: «**أسلم**».

شـعر الفتى بالرحمة تغمره، لكن هيبة والده وعناده جعلته ينظر إليه، فإذا بالوالد يقـول: «أطـع أبا القاسـم، فقال الغـلام: أشـهد أن لا إله الا الله، وأنك رسـول الله». تـرى مـا الذي سيسـتفيده قائـد الدولة ونبـي الأمة ﷺ من شـاب سـيموت.. إنه لن يخدمه.. لن ينشر دينه، أو يدافع عن وطنه.. هو فقط سيموت. هذه حسابات النفعيين الانتهازيـين، أمـا محمد ﷺ فرحمـة للعالمين.. ينفق حياتـه إنقاذًا للنـاس، ولذا قال بعد خروجه من عند الغلام: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»، كان قائدًا يسـن لأمته إنارة المستقبل، فيقول: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها**» على الرغم من أن فسيلة النخل تستهلك سنوات لتثمر.



نبي واقعي مشـغول بالمسـتقبل، فإن تخلفت أمته، فلأنها انشغلت عن المستقبل بشـهواتها وبالتغني بـماضٍ لم تصنعـه.. ظل هـذا القائـد الرحيم ﷺ مأخـوذًا بإنقاذ الناس، لكن الحياة لم تصفُ له.. ظل يُفجع بأحبته وهم يرحلون.. يعاوده الحزن من جديد في أحد البيوت، فينحني على أحد أحبته، ويبكيه.

أبوسلمة يهمّ بالرحيل

أسـقط المرض حبيبًا آخر.. أسقط المهاجر العظيم أبا سلمة، الذي عانى الهجرة مع زوجته للحبشة، ثم عاد لمكة ليعانى الأمرّين في هجرته للمدينة.. حيل بينه وبين أسرته، فأمسى في مكان، وأم سلمة في مكان، وابنهما في مكان ثالث، وبعد أن اجتمع الشمل.. ها هو يوشك على الفراق.

يدخـل ﷺ عليـه، فـإذا هند أم سـلمة تبكيه.. تبكـي شريك المعانـاة والنضال، فينظر ﷺ إليه، فإذا بصره قد شق، فيمد يده برفق، ويغمض عينيه، ويقول لمن حوله: «**إن الـروح إذا قبـض تبعه البصر، فضجّ ناس من أهلـه بالبكاء، فقال: لا تدعوا على أنفسـكم إلا بخـير، فـإن الملائكة يؤمنون على مـا تقولون، ثم قال: اللهـم، اغفر لأبي سـلمة وارفـع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابريـن، واغفر لنا وله يا رب العالمـين، وافسـح لـه في قـبره ونور له فيـه**».. دعاء خفف شـيئًا من حزن أم سـلمة، فقالـت: يا رسـول الله، كيف أقول؟ قال: «**قـولي اللّهـمّ، اغفر لنا ولـه، وأعقبني منه عقبـى حسـنة**»، فدعت وكأنها تتسـاءل: ومن مثل أبي سـلمة؟ تم تغسـيله، ثم حمله إخوتـه، فصلوا عليه خلف نبيهم، ثم دفنوه. غادر أبوسـلمة، فالناس تغادر.. أناس ترحـل وآخـرون يولـدون.. ذات يوم أقبل ركب مـن مكة، وكان مـن بينهم زوجة العبـاس عم النبـي ﷺ.. امرأة مؤمنة تدعـى أم الفضل تاركة.. ابنهـا الكبير الفضل وأخـاه الصغير عبدالله في مكة مـع والدهما، وكان معها ابنها الرضيع قثم.. بقيت في المدينة مدة، وفي إحدى الليالي رأت رؤيا أخافتها.

رأت أن جزءًا من جسد النبي ﷺ في بيتها، فأقلقتها الرؤيا، وجزعت منها، وخشيت أن تكون شرًّا، وفي اليوم المقبل انطلقت لنبيها ﷺ، ولما دخلت بيته قالت له: «إني رأيت في منامي في بيتي أو حجرتي عضوًا من أعضائك»، فجزعت. فطمأنها ﷺ وبشرها، فقال: «**تلد فاطمة إن شاء الله غلامًا، فتكفلينه**».

كانت فاطمة حاملًا، ولما جاءها المخاض ولدت طفلًا كالصباح، فأرسلت تبشر والدها، فأقبل ﷺ ليرى حفيده.. دخل على الزهراء، التي كان إذا دخل عليها قامت إليه، فأخذت بيده، فقبلته، وأجلسته في مجلسها، فقال ﷺ: «**أروني ابني**» فوضعوه بين يديه، فقبله، وقال: «**ما سميتموه؟**» فقال علي والسرور يجتاح قلبه: سميته حربًا.. ترى من هو حرب هذا؟

حين تتمادى البراءة يعظم حبها

حمل النبي ﷺ مولود فاطمة البكر، وقال «**ما سميتموه؟** فقال علي سميته حربًا» فلم يَرَه مناسبًا له، فقال: «**هو حسن**».. كانت عين فاطمة تسافر بين ابنها وأبيها، فقالت: «ألا أعق عن ابني بدم؟» فتذكر ﷺ مباشرة فقراء شعبه المعدمين، الذين يسكنون المسجد يسمون الأوفاض، فقال: «**احلقي رأسه، وتصدقي بوزن شعره من فضة على المساكين والأوفاض**»، فالمساكين لا يغادرون قلبه.. يتمناهم دائمًا حوله حتى يوم البعث، فيقول: «**اللهم، أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**» ثم توافر له مال، فعق عنه كبشًا.. نال منه الفقراء في يوم جميل بالحَسَن. أرضعته فاطمة، ثم بعثته لأم الفضل، فظل الحسن يتردد بينهما، وفي أحد الأيام اشتاق ﷺ لحفيده، فحملته أم الفضل لنبيها ﷺ، فتناوله برفق، وأجلسه في حجره، ولاعبه، وبعد دقائق رأت أثر بول الرضيع على ثوب نبيها، فهالها الأمر، فضربته بأصابعها بين كتفيه الصغيرين، فتألم ﷺ وقال: «**ارفقي بابني رحمك الله، أوجعت ابني**».. كانت أم الفضل مأخوذة بما حدث، فقالت: يا رسول الله، اخلع إزارك، والبس ثوبًا غيره حتى أغسله؟ فهون ﷺ من الأمر، وقال معجزة أدهشت

العلم: «**إنما يغسل بول الجارية، وينضح بول الغلام**» كان ﷺ يضعه في حبوته، ويقول: «**من أحبّني فليحبه، وليبلغ الشاهد الغائب**».

كبر الحسن، وبدأ يلثغ بالحروف بطريقة محببه، وبدأ يمشي، وصار أشبه الناس بجده الذي يخرج به.. يحمله على عاتقه، ويعلن حبه، ويقول: «**اللّهمّ، إني أحبه فأحبه**» ثم يراه أبوبكر، فيحمله على عنقه، ويفديه بأبيه، ويقول: «بأبي شبيه النبي. ليس شبيهًا بعلي». وعلي يسير بجانبه، ويضحك.

يخرج به ﷺ لصلاة العشاء، ولما تقدم وضع الحسن على الأرض وكبر.. كان الطفل يتأهب للحظة معينة، ولما سجد جده حانت اللحظة، فوثب على ظهره، فطالت السجدةً حتى رفع أحد الصحابة رأسه، فإذا بالصبي في قمة سعادته، فرجع لسجوده، فلما قضيت الصلاة تساءل الناس، فقال ﷺ: «**ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**» وفعلها مرة أخرى، ووثب على ظهره ثم على عنقه، فيرفع ﷺ رفعًا رفيقًا لئلا يصرع. فعلها أكثر من مرة، فلما انقضت الصلاة سألوه، فقال ﷺ: «**إنه ريحانتي من الدنيا**» لم يكتفِ الحسن بما فعل بقلب جده.. لقد أذهله يومًا حتى عن خطبة الجمعة.

قلب ينعم فيه الضعفاء

أذن بلال لصلاة الجمعة، وكان للجمعة أيام نبي الله أذان واحد، فدخل ﷺ المسجد وصعد منبره ذا الثلاث درجات، ليخطب كما هي سنته.. خطبتين مركزتين أقصر من الصلاة، فهو القائل: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة، واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرا**»، لكن خطبة هذه الجمعة تعرضت لفاصل مذهل.. سكت ﷺ فجأة فنظر الصحابة إليه، فإذا هو ملتفت، فالتفتوا وعيونهم مشدودة لمشهد أخاذ.. حفيده الحسن يدرج.. يتهادى.. قد لف على

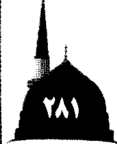
رقبته خرقة حمراء يسحب طرفها الآخر على الأرض، فتعثرت قدمه الصغيرة بالخرقة، فخر على وجهه الجميل، فخفق قلب جده وانحدر عن منبره دون شعور، ففزع الناس للطفل يحملونه لـه فضمه، ثم انتبه، فـإذا هو ليس على منبره، فكشف عما به، وقال: «**قاتل الله الشيطان، إن الولد فتنة، والله ما علمت أني نزلت عن المنبر حتى أوتيت به**».

كانت للأطفال مرابع في قلبه ليست لغيرهم.. ذات يوم زار القائد ﷺ بيت أنصاري يدعى الربيع بن سراقة، فلما دخل لمح طفله محمود في الخامسة من عمره، ولمح دلو ماء عند بئر المنزل، فأقبل نحو الدلو وملأ فمه بالماء، ثم توجه للطفل وخاتله، فلما واجهه مجّ الماء في وجهه.. وسط ابتسامات الرجال، وفرحة الطفل وركضه وضحكاته التي تزين المكان.. لم يكن قلبه ﷺ واحة للأطفال فقط، فلأصحاب الاحتياجات الخاصة حدائق بين أضلاعه.. كان القائد ﷺ بين رجال دولته، وإذا بطيف امرأة في عقلها شيء تقبل من بعيد نحوهم، فتناديه من بينهم، فيقبل رأس الدولة وسيد حقوق المرأة.. تاركًا عظماء الرجال نحو مواطنة مسكينة في عقلها شيء، ولما اقترب منها قالت: «يا رسول الله، إن لي إليك حاجة؟» فأخبرها أن كل الشوارع تؤدي لقلبه، وأن كل الدروب في خدمتها قائلًا: «**يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك**» أخذته، فأنصت باهتمام، فنحتت في مسامعه حقوقها، ولم تنصرف حتى حصلت عليها، ثم عاد لأصحابه.

كان ﷺ جنّة من المشاعر ينعم بها الشعب، حتى ضعاف العقول، حتى العصافير والطيور.. كان عذبًا أغرت عذوبته إحدى النساء، فلم تملك مشاعرها، فقامت تعلنها أمام الجميع في المسجد.

تبحث عنه وهو أمامها

ذات يوم كان النبي القائد ﷺ يصلي، وخلفه أصحابه، وخلفهم صحابياته، ولما سلم، فوجئت النساء بامرأة تنهض من بين صفوفهن.. تنادي نبيها.. تبحث



عنه وهو أمامها: «يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي؟» تأمل ﷺ تلك الخاطبة، ثم طأطأ رأسه، وسكت. أدركت المرأة أن سكوته ليس علامة الرضا، فجلست، وإذا بكتفين عاريتين ترتفعان من بين صفوف الرجال.. رجل مكشوف الظهر والبطن.. ليس عليه سوى إزار.. يخاطب قائده: يا رسول الله، إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها؟ فقال: «**هل عندك من شيء؟**» فقال: لا، والله يا رسول الله. قال: «**اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئًا؟**».

انتظرت المرأة الجريئة خطيبها، فلئن لم تفز بنبيها، فلتنل شرف تزويجه لها.. عاد الرجل صفر اليدين، فقال القائد ﷺ: «**انظر ولو خاتمًا من حديد؟**»، فذهب وبحث وبحث، ثم عاد كما ذهب.. ضاقت به الحال، فقدم عرضًا يائسًا يقول: (هذا إزاري، فلها نصفه، فقال ﷺ: «ما **تصنع بإزارك؟ إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك شيء**»... انكسر قلبه، فجلس مهمومًا بفقره حتى طال جلوسه، ثم نهض وغادر المسجد، فإذا بالقائد ﷺ يرق لهذا المواطن الذي لا يملك سوى قطعة قماش يلفها على خصره، فيقرر تزويجه.

أمر ﷺ بمناداته، فنهض أحدهم وناداه، ولما عاد جعل ﷺ العلم والثقافة مهرًا لمن لا مهر له، حين سأله: «**ماذا معك من القرآن؟** قال: معي سورة كذا وسورة كذا وسورة كذا. قال: **أتقرؤهن عن ظهر قلبك؟** قال: نعم، قال: **اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن**» خرج الزوجان من المسجد سعيدين، وحظيت المرأة بكلمات الله مهرًا يزين صدرها، ويخلد ذكرها، وسعدت بتزويج النبي لها، فقص أحد الصحابة القصة على إحدى بناته، فقالت: ما أقل حياءها، واسوأتاه! واسوأتاه! فقال: «**هي خير منك، رغبت في النبي، فعرضت عليه نفسها**» أشعر ﷺ المرأة بثقة أثارت حسرة اليهوديات والنصرانيات، اللواتي حرم عليهن كتابهن المقدس حتى السؤال في دور العبادة، ولم يكتفِ بذلك، بل أمر بعزلها عن بقية العائلة خمسة عشر يومًا من كل شهر، فعلم بعض الصحابة، فجاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذلك العزل ولاسيما وهو يحب موافقة أهل الكتاب. لكن النبي سكت، فلم يجبهم حتى نزل الوحي.

نبي يحطم زنزانات النساء

تساءل الصحابة عما يجري داخل حصون اليهود وأديرة النصارى، حيث يقرر كتابهم المقدس أن المرأة إذا حاضت تنجس كل شيء تلمسه، ويجب على الرجل الاستحمام وغسل ثيابه إذا جلس على شيء جلست عليه أو لمسته، من أثاث المنزل وأدواته، أو أي شيء، ثم يأمر بعزلها أسبوعًا آخر تكفيرًا لها، وبذا تصبح مدة نفيها نصف كل شهر. وإذا أصيبت بنزيف تعزل أيضًا، أما إن أصاب ثياب الرجل قطرة دم منها، فإن الرجل يصبح حائضًا مدة أسبوع، وتقع عليه أحكام الحيض نفسها.

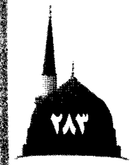
سكت النبي ﷺ فالوحي لم ينزل عليه، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾[البقرة: ٢٢٢]، ففسرها ﷺ لهم وأمرهم أن يعيشوا حياتهم كما هي، وقدم صورًا بالغة الرقة في التعامل مع الزوجة.

تأتيه عائشة بشراب وهي طامث، فتناوله القدح فيقسم أن تشرب قبله فتشرب الصديقة، ثم يتناول القدح ويبحث عن موضع فمها فيشرب منه، وتأتيه بالعظم فيه لحم، فيقسم أن تأكل قبله، ثم يبحث عن موضع أكلها ليأكل منه.

يناديها من المسجد لتناوله السجادة: «**يا عائشة، ناوليني الخُمْرَة**» فتعتذر بأنها حائض، فيقول: «**إن حيضتك ليست في يدك**».

يقرأ القرآن ورأسه في حجرها، فتقوم بتسريح شعره، وعندما أصابت ثوبه قطرة دم منها قام بغسل القطرة فقط، أما المعجزة فهي في حديثه عن الاستحاضة.. حيث سماها عِرقًا.. أي نزيفًا، كما سماه العلم الحديث، وأمرها بالوضوء لكل صلاة، بينما اليهودية والمسيحية تنجس، وتنجس كل شيء تمسه طوال مدة النزيف.

علم حاخامات اليهود بذلك، فقالوا: «ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه». فلم ينشغل ﷺ بالرد عليهم.. كان منشغلًا بالبناء، مع ترحيبه بملاحظاتهم ونقدهم، فقد أتاه حاخام قائلًا: «إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة؟» فلم ينهره النبي القائد ﷺ، ولم يقل له: تأملوا



عيوبكم أولًا، بل صحح ﷺ الخطأ الذي ارتكبه أصحابه، فقال: «**قولوا: ما شاء الله، ثم شئت، وقولوا ورب الكعبة**».. كان ﷺ مشغولًا عن المناكفة ببناء دولته بالعدل، وبث مشاعر الرحمة والحب بين مواطنيه.. ذات يوم وصلت مجموعة من المسافرين الوثنيين، فنظر ﷺ إليهم، وتأمل تشقق أقدامهم وشحوب ألوانهم، فأوجعه المشهد حتى فز من مجلسه على الفور، وتحرك، فتحركت المدينة كلها رحمة بهم.

قائد يعاني حين يعاني الإنسان

كانت الشمس تدنو من منتصف السماء، حين أقبلت مجموعة من المسافرين نحو مجلس القائد ﷺ وصحابته.. اقتربوا، فاقترب الحزن.. هيئتهم تسافر كالخناجر في القلوب: لا مراكب.. لا أحذية.. مئات الأميال شققت تلك الأقدام الحافية.. لا عمائم على الرؤوس، ولا أردية على الأكتاف.. عراة الظهور والبطون.. يلفون على خصورهم النحيلة قطع قماش بالية.

أوجعته ﷺ حالتهم على الرغم من وثنيتهم، فتغيّر وجهه لألم الإنسان.. لم يستطع البقاء في مكانه.. نهض لبيته، وبعد قليل خرج، فأمر وزير ماليته بلالًا، فأقام الصلاة، فصلّى بهم الظهر، ثم قام على منبره، فخاطب شعبه لشعبه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

آيات تخاطب الإنسان للإنسان.. خلقكم من نفس واحدة، ثم أغرى كرمهم بهؤلاء الغرباء المساكين، فقال: «**تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره**»، حثهم على الصدقة ولو بنصف تمرة.

انطلق الرجال والنساء نحو بيوتهم وبساتينهم، ثم عادوا ليحولوا ساحة المسجد إلى كثيب طعام وكومة ثياب وعشرات الابتسامات.. تفرقت سحب الحزن عن وجهه ﷺ، فأشرق كأنه مذهبة، فقال مبتهجًا بتلاميذه وتلميذاته: «**من سنّ في**

الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا».

تم توزيع الطعام واللباس في مشهد للرحمة لا تمل عاصمة الإسلام من تكراره، وكأن طيبة بنيت من الكرم.. كرم أغرى مجموعة من اللئام، فدبوا كالعقارب نحو المدينة، ولما وصلوا أعلنوا إسلامهم، فاحتفى بهم نبي الأمة وقائد الدولة ﷺ وأكرمهم، لكن الحمى أصابتهم فرقّ لحالهم، وأمرهم بالتوجه لمرعى إبل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها، وأمر لهم برجل يقوم بتمريضهم، وتغذيتهم والعناية بهم، حتى شفوا وعاد لهم نشاطهم، وفي إحدى تلك الليالي، وقبيل الفجر.. شعر الرجل بحركة مخيفة في الظلام.. فتح عينيه، فإذا الضيوف يحيطون به وعيونهم تحدق.. تتطاير شرًّا، ثم هجموا عليه وكتفوه، ومد أحدهم يده بشيء حاد، ففقأ عينيه، وأخرج أحدهم سلاحًا فنحره، ثم تركوه يتلبط بدمه، ثم انطلق الخونة لإبل الدولة التي عالجتهم وغذتهم، واعتنت بهم، فحلوا عقلها وحبالها، وساقوها، وهربوا بها قبل طلوع الشمس.

القائد واللصوص الإرهابيون

احتفى ﷺ بضيوف غرباء فأكرمهم، لكنهم أصيبوا بالحمى بعد أيام، فلم يتخلَّ عنهم على الرغم من أنهم ليسوا من شعبه، فأمرهم أن يتجهوا إلى مكان أفيح ترعى فيه إبل الصدقة، وهي إبل حصلت عليها الدولة من الزكاة؛ لذا فلبنها ونتاجها مخصص لفقراء الشعب ومساكينهم، ولبقية أهل الزكاة، ولا نصيب فيها للأغنياء ولا لأسرة القائد وآل بيته، وهؤلاء من أبناء السبيل، ثم أمر ﷺ رجلًا بمرافقتهم والعناية بهم وتمريضهم وتغذيتهم، بل طلب أمرًا كشف العلم الحديث معجزة من معجزات النبوة فيه، حين أمرهم أن يشربوا من ألبان الإبل وأبوالها. وصل الضيوف للمرعى، وشرع الصحابي بتهيئة المكان وتمريضهم وتغذيتهم على مدى أيام، حتى صحت أجسادهم وقويت، وعندما غابت شمس أحد تلك الأيام، وأغرق ظلام الليل

ذلك المرعى، ونام الصحابي.. نهض الضيوف للمغادرة، وبدلًا من أن يتجهوا لقائد الدولة ليشكروه، أو للصحابي ليظهروا امتنانهم على عنايته وحسن ضيافته فعلوا شيئًا آخر.. دبوا كالعقارب نحو مكان رقاده ليودعوه على طريقتهم.. فتح الرجل عينيه فجأة، وإذا بمشهد أرعبه.. الضيوف الغرباء يحيطون به واللؤم في عيونهم.. هجموا عليه فكتفوه، ثم فقؤوا عينيه، فانفجر الدم منهما، ولم يكتفوا بذلك، بل قام أحدهم بنحره، وتركوه يتلبط في دمه، ثم اتجهوا لإبل الفقراء والمساكين ليسرقوها، فحلوا حبالها، وساقوها قبيل طلوع الشمس.. أشرقت الشمس على مرعى كالحداد، وأقبل بعض الصحابة باكرًا، فإذا المرعى يكاد يبكي.. صامت خالٍ لا إبل فيه ولا راعٍ.. جالت العين في المكان الحزين، فإذا ببركة الدم تلون مرقد الراعي المسكين، وإذا بعينيه اللتين سهرتا على التمريض تنزفان.

علم قائد الدولة بالجريمة، فتكدر، وغضب غضبًا شديدًا، فنهض بمسؤوليته الأمنية تجاه مواطن مسكين، وتجاه شعبه ودولته، فطلب إحضار أشخاص مهرة بتتبع الآثار يسمون القافة، ودعمهم بفرقة لملاحقة اللصوص، فانطلقوا يذرعون الأودية والشعاب، فلم ينتصف النهار إلا وقد تم القبض عليهم، فاعترف اللصوص بجريمتهم وخستهم، في محاكمة عادلة تولاها أعدل قضاة الأرض.. دون تعذيب أو إكراه، ونزل قرآن في حكم السطو المسلح والعمليات الإرهابية.

عندما يضيع أمن المواطن

تم القبض على اللصوص، فاعترفوا دون إكراه بجريمتهم، وأنهم فقؤوا عيني الرجل الذي داواهم ومرضهم، وأطعمهم وخدمهم، ثم نحروه، وسرقوا إبل الفقراء والمساكين. وأنزل الله حكمه في السطو المسلح أو الإرهاب الموجه ضد الدين أو الشعب أو الوطن: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣]، فنفـذ القائد ﷺ الحد فيهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وفعل بهم كما فعلوا بالراعي.

تطايرت أخبار العقوبة الرادعة، فأدرك الوثنيون الذين اعتادوا السلب والنهب أن الدولة الإسلامية المتسامحة العادلة، التي أنشأها محمد غير قابلة للاستغفال، وأنها محصنـة بقيـادة واعية.. محصنة بتشريع جنائـي ونظام صارم لا يُجامـل فيه حتى أبناء قائـد الدولـة الـذي يعلن: «**والـذي نفس محمد بيـده لو أن فاطمة بنـت محمد سرقت لقطعـت يدهـا**» قائد يعدّ مجاملة المجرمين أول مسـمار يدق في نعـش الأمم، فيقول: «**إنـما أهلك الناس قبلكم، أنهم كانـوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**» والهلاك هنا ليس حجارة من السـماء، أو خسفًا أو مسخًا أو طوفانًـا.. الهـلاك هنا هـو تعثر الدولة وفشـلها؛ لأن الشريف المحصـن إذا تغول تحول إلى دولة داخل دولة.. يعيق نهضتها ويشـلّها، بل سـيخطط لإسقاطها والتآمر عليهـا إذا عارضـت مصالحـه.. قطع اليـد موعظة للـص؛ لأنه سـيبحث عن عمل شريف، ودرس لمن تحدثه نفسه، فيبحث هو الآخر عن عمل شريف آخر.

هنا تتسابق السواعد والطاقات نحو الإنتاج في أجواء آمنة، لكن عندما يأمن اللص، ويخاف المواطن.. يتحول خوفه مع الأيام إلى طاقة من الغضب والفوضى يصعب التعامل معها؛ لذا جعل القائد المجرمين دروسًا، لتصبح دولته مهابة من الخارج، بعد أن حصنها مـن الداخل، وهو الأهم.. حيـث كان ﷺ يمارس تعزيز أمن دولته من الداخل بتحصين الفـرد، فالأسرة، فالحي، فالمدينة، فالدولة... يسـير المرء في تلك الدولة الإسـلامية، فلا يرى ملائكة في البيوت، ولا في الشوارع، لكنه يرى أمرًا مدهشًا.

أمن الدولة يبدأ من الداخل

عندما يسـير المـرء في دولة النبي الإسـلامية.. لا يرى ملائكة تسـكن البيوت، أو ترتاد الأسـواق، وتتردد في الشـوارع، لكنه يرى شـيئًا جميلًا.. يرى بشرًا يحميهم



النظام، ولا يحابيهم.. نظام يطبق على الجميع دون استثناء، وعندما يسير المرء في دول الظلم، فإنه لا يرى شياطين في البيوت أو الشوارع، لكنه يرى نظامًا غائبًا، وحدودًا قد امحت. البشر هنا هم البشر هناك، لكن القوي يرى أن لا حدود تردعه، فتغريه قوته، وتتوغل به، فيلتهم الضعيف وحقوق الضعيف، ليتحول إلى كائن بلا أخلاق.

أما حكاية الضمير وتأنيب الضمير، فلا تسمن أو تغني من جوع في غياب النظام العادل.. إذًا فما ميزة دولة النبي ﷺ ومجتمعها على غيرهم.. ما الذي يضيفه الإسلام للدولة غير العدالة في تطبيق النظام؟

عندما أسس النبي ﷺ دولته دون إكراه.. بدأ بناء الفرد بالتوحيد، لا بالشعارات والمثاليات.. التوحيد يعني أن الكل لله، والكل في ملكه، وتحت قدرته وعدله ورحمته أو بطشه.. بنى المسجد ليذكرهم بذلك خمس مرات.. يذكرهم بالبعث والحساب، ثم اتجه للأسرة، فبناها على الحدب والحب.. ذات يوم كان ﷺ وصحابته في مجلس، فمر شاب جلد قد نحتت العضلات جسمه، وشع النشاط من حركته، فحدق به الصحابة، وقد أعجبتهم قوته، فالتفتوا لنبيهم ﷺ وقال أحدهم: «يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟» فأضاء لهم أن القوة حين توجه للعناية بالضعفاء لا للبطش بهم.. تصبح جهادًا، فقال: «**إن كان يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ففي سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه ليعفها ففي سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أهله ففي سبيل الله**» ثم قال: «**وإن كان خرج يسعى تفاخرًا وتكاثرًا ففي سبيل الطاغوت**».

أمر ﷺ ببر الوالدين، والعدل في العطاء بين البنات والبنين، وقال: «**خيركم خيركم لأهله، وابدأ بمن تعول**».. بين حقوق الزوج والزوجة والأولاد، وبعد أن أكمل ﷺ بناء الأسرة، وجعلها لبنة الأمن الأولى.. اتجه للبنة المجاورة، والباب المجاور.. باب الجار، فتحدث عن حقوقهما، فغدت الجدران بينهما كأنها جدران من المشاعر، حتى إن أحد تلاميذه ﷺ كان يوزع هداياه، فقال لخادمه: «**ابدأ بجارنا اليهودي**».

ابدأ بجارنا اليهودي

يقـوم الخادم بذبح الشـاة، ثم يبـدأ بتقطيع لحمهـا لتوزيعها هدايـا وصدقات، وبجانبه سـيده يوصيه: «**يا غـلام، إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي**» أنصت لسـيده، ثـم واصل عملـه وبعد مـدة قاطعه: «**يـا غـلام، إذا فرغت فابـدأ بجارنـا اليهودي**» تعجـب أحـد الضيوف، وقـال له: (كـم تذكر اليهـودي أصلحـك الله؟) هنا أضاء مجلسـه بالوحي، فقال: إني سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.. أي روعـة تجـاور ذلك اليهودي، وأي جمال يزين شـارعًا جيرانه بهذا اللطف، الذي بثـه النبـي بين أصحابه.. ذات يوم قال ﷺ لهم: «لأن يزني الرجل بعشر نسـوة، أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»، ثم سـألهم عن السرقة؟ فقالوا: «حرام حرمها الله ﷻ ورسـوله. فقال ﷺ: **لأن يسرق الرجل من عشرة أهل أبيات، أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره**»، فأي أمن سيشعر به اليهودي وغيره من الأقليات.. في أحياء يسكنها تلاميذ محمد ﷺ؟

سـألوه يومًـا عن امرأة تقوم الليـل للتهجد، وتصوم النهار تنفلًا، لكنها سـليطة.. تـؤذي جيرانها بلسـانها، فإذا بعباداتها تتطاير.. يتقاسـمها الجيران الذيـن آذتهم بغيبتها، ونميمتهـا، والتدخل في شـؤونهم، فقال: «**لا خير فيها، هـي في النار**» ووصفوا له امرأة فقيرة.. تصلي المكتوبة فقط، وتصوم رمضان فقط، لكنها كريمة على الرغم من فقرها.. لا تجد ما تتصدق به غير كسر الأقط.. كانت عفة اللسان لا تؤذي أحدًا، فقال ﷺ: «هي في الجنة».. تلك هي شوارع دولة محمد، وذلك الجمال هو جمال أحيائها.. أفنى ﷺ حياته لصنعهـا وتزيينهـا بالحب.. لقد لان القائد مـع جيرانه، حتى تجرأ الغربـاء في ملاطفته، فهـذا جاره الفارسي يصنـع مرقًا، ثم يأتيه لدعوته، فيشـترط ﷺ مرافقة زوجته عائشـة لتلبية الدعوة؛ فالصديقة جائعة.

رفـض الفـارسي، وقـال: لا. فقـال ﷺ: لا، ثم كـرر الرجل دعوته، فأشـار ﷺ لعائشـة قائـلًا: وهـذه. فقال: لا. فقـال ﷺ: لا، ثم وافـق على دعوتها أخـيرًا، فقاما يتدافعـان حتـى أتيـا منزله، فما كان ليشـبع وزوجتـه جائعة، وما كان ليـأكل وجاره جائع، وهو القائل: «**ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه**».

بهـذا المسـتوى من العدل والتديـن.. لم يعد لدى الدولة مـا تبذله تجاه الأمن في الداخـل سـوى القليل، أما الخـارج، فقد مر عام على أحد، وقريش الآن تعد جيشًـا للثأر.

معركة ثانية على أرض بدر

مر عام على أحد، فتذكر ﷺ تهديد قائد قريش أبي سـفيان، حين صاح متحديًا: «موعدك موسـم بـدر حيث قتلتم أصحابنـا» كان الوثنيون يريدونها ثـأرًا جاهليًّا.. كانوا يريدون اسـتغلال مناسبة موسم بدر، وهو موسـم للعرب يجتمعون فيه تجارةً وأدبًا وشـعرًا، ليجعلوا للحرب أسـهمها هناك، علهم يمسـحون من ذاكرة العرب كارثة بدر الأولى، حين اجتث أبوجهل وأمية وسبعون طاغوتًا، وهو جرح لم يندمل، ولن يشـفى إلا على أرض بدر؛ لذا تستعد قريش لاستعادة بعض ما تناثر من هيبتها هناك، ولاسيما والعرب سيكونون هناك، فليكن لأبي سفيان ما يريد.

اقـترب موعد إقامة سـوق بدر، وها هو القائد ﷺ يسـتعد.. يستشـير أصحابه كعادته، وكالعـادة ارتجف المنافقون، واعتذروا، وبدؤوا يطلقون صيحات التخذيل في ثيـاب النصـح، ويقولـون للمسـلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فـكان رد المؤمنـين وقائدهم ﷺ ثقة بالله، وعزمًـا لا يفل حين قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. بل زادت ثقتهم بربهم ونصره على الرغم من جراحات أحد، حتى أخذ بعضهم ماله للتجارة، فامتدح الله سبحانه هذا الإيـمان المتجذّر، وهذه الثقة الراسـخة، وأنزل قرآنـًا يثني عليهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وصل الشـجعان إلى أرض بدر، فرحبت بهـم، وذكرتهم بنصر الله، ولما وصلوا تلفتوا، واسـتشرفوا المـكان، فلم يروا أحدًا.. ذرعوا الأرض، ومشـطوها بحثًا عن

جيش الوثنيين، فلم يجدوهم! ما الذي حدث؟ شلت قريش، ولم يستطع جيشها مغادرة مكّة.. كانوا يخشون أن تحشر جثثهم في بئر أخرى، فعدلوا عن الفكرة، وهكذا انتهت غزوة بدر الثانية قبل أن تبدأ.. هكذا انهزمت قريش في معركة هي التي طلبتها، وحدّدت مكانها وزمانها، أما رسول الله ﷺ وجنده، فمالوا بمطاياهم نحو سوق بدر، فأتوه وتسوقوا وباعوا واشتروا، ثم عادوا لطيبة وأنزل الله: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٤].. عادو لطيبة، حيث ينتظره وينتظرهم حدث عظيم سيغير المجتمع.

نهايات كوارث الخمر

ظلت الخمر تؤرق مجتمع الدولة الإسلامية، ففي كارثة من كوارثها تسللت العنصرية لتعكر أعظم أخوة في التاريخ.. هذا شاهد عيان على ذلك.. أنفه الذي ينزف يشهد على ذلك، فقد صنع أنصاري طعامًا، فدعا بعض الأنصار والمهاجرين، فشربوا حتى انتشوا، فتفاخروا، فقالت الأنصار: «نحن أفضل. وقالت قريش: نحن أفضل». عندها انفعل أنصاري، فأخذ عظم بعير، فهوى به على أنف سعد بن أبي وقاص، ففزره.. خرت الدماء، وتكدر سعد، وتكدر الأنصاري بعد أن صحا.

لم تكتفِ الخمر بذلك.. امتد مخالبها المخيفة لتأخذ العقول إلى عالم الضياع، وساحات الثأر، وأيام الجاهلية بين أبناء المدينة نفسها، حين اجتمع بعض رجال قبيلتين من قبائل الأنصار حول أقداحها، فظلوا يمتحون من جرارها حتى ثملوا، فلما ثملوا قام أحدهم بتلطيخ وجه آخر ولحيته ربما بالطين والأوساخ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن. فلما أن صحوا تأمل الرجل وجهه ورأسه ولحيته، فرأى آثارًا لا يخطر بباله أن يفعلها أخ له، فقال: «صنع بي هذا أخي فلان؟ والله لو كان بي رؤوفًا رحيمًا ما صنع هذا بي!».

هنا تسللت الضغائن لقلوب أناس آثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وفقر، فالخمر تخلط الخطأ بالصواب، والحلال بالحرام، والأدب باللا أدب.. تمحو الفواصل، فيمتزج المقدس بالمدنس، لكن رحمة الله أدركتهم، فأنزل ﷻ قرآنًا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١]، هنا أصدر النبي القائد أمره لأحد رجاله بأن يسير في شوارع طيبة، ليعلن نزول تحريم الخمر.

خرج الرجل ينادي بأعلى صوته: «ألا إن الخمر قد حرمت، ألا إن الخمر قد حرمت» ظل ينادي.. يسير والخمر في الطرقات تسيل، حتى مر ببيت أم سليم.. داخل ذلك البيت كان ابنها أنس بن مالك يقوم بدور الساقي لعظماء أمثال أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجراح، والأسد أبي دجانة، وسهيل بن بيضاء، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزوجها أبي طلحة. فما الذي فعلوه حين سمعوا المنادي؟

اكسر القلال يا أنس

صوت يجلجل عبر طرقات طيبة.. ينادي من في الشوارع والبيوت: «ألا إن الخمر قد حرمت» وكلما مر بشارع فتحت الأبواب، وخرج الرجال والنساء يسفكون الخمر في الطرقات.. الخمر ساحت ورائحتها العفنة فاحت.. مر الصوت ببيت أم سليم.. كان ابنها أنس يقوم بدور الساقي لخمر مصنوعة من بسر وتمر، أما الندماء فهم أبوعبيدة وأبودجانة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وسهيل بن بيضاء وزوج أمه أبوطلحة.. مالت الرؤوس، فرفع أبوطلحة رأسه الثقيل على وقع الصوت، فقال لأنس: «اخرج فانظر».

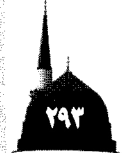
ترك الفتى ما بيده، وخرج، فإذا رجل يصيح: «ألا إن الخمر قد حرمت» عاد الفتى، فكيف استقبله أولئك الذين أدمنوها؟ فالمدمن يحبس أحيانًا في مصح؛ كي

يتخلّص من آثارها؟ الجواب كان تربية وإيمانًا من العمق والسموّ والامتداد، بحيث يتلاشى أمامه أي إدمان.. تعجب أنس من سرعة امتثالهم، فهم لم يقولوا: سنتثبت، وننظر، ونسأل، بل يقول: «والله ما عادوا فيها» ثم هتف أحدهم: «يا أنس، اكف ما بقي في إنائك» فسكب الخمر الذي بيده، ثم قال أبو طلحة: «يا أنس، قم إلى هذه الجرار فاكسرها»، فأخذ أنس فأسًا أو أداة أخرى، فمشى نحو المهراس الذي تخزن فيه الخمر، فضربه فتكسر وتدفق الخمر بقوة. يقول أنس: «فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال»، ثم قام بعضهم فتوضأ، وبعضهم اغتسل، ثم طيبتهم أم سليم من طيبها، ثم خرجوا للمسجد ليجدوا رسول الله يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١]. كان عمر في المسجد ينصت، فقال على الفور: «انتهينا انتهينا».

تطهرت أجواء المدينة من عفن الخمر، التي أجمع العقلاء والأطباء في العالم على أنها كارثة على الصحة والمجتمع، لكن أسئلة تداعت تستفسر حول استخدامات أخرى لها غير الشرب، حين أقبلت إبل من الشام يخض تمايلها روايا الخمر التي تحملها، ويقودها تاجر اسمه كيسان، ولما وصلت الإبل صدم كيسان بتحريمها، فسأل النبي ﷺ عن طريقة أخرى للتعامل معها؟

السماء تلطف بالخمر

قاطعًا مئات الأميال من الشام.. حط تاجر خمر اسمه كيسان في المدينة.. أناخ إبله المحملة بروايا الخمر قرب مكان وجود النبي ﷺ فلما قابله قال له: «**يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك**» لم يتذمر الرجل، بل طرح سؤالًا ينضح إيمانًا، فقال: «فأبيعها يا رسول الله؟ فقال ﷺ: **إنها قد حرمت، وحرّم ثمنها**».



استدار التاجر نحو رأس ماله، وكده الذي يملأ تلك الروايا، فحل أربطتها، وسكب ما بها على الأرض، فقد أعلن القائد ﷺ لأصحابه: «**إن الله تعالى حرّم الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء، فلا يشرب ولا يبع**» ثم جاءه رجل، فسأله عن استخدامها خلًّا؟ فقال ﷺ: (لا) وجاء رجل يقال له طارق بن سويد.. كان يصنعها فنهاه، فقال: «إنما أصنعها للدواء». فأجابه إجابة لا تنطق عن الهوى.. إجابة أجمع عليها أطباء العالم: (إنه ليس بدواء، ولكنه داء)، فحتى المطهر الكحولي للجرح.. يقتل من مضادات الجسم المفيدة عشرة أضعاف ما يفعله بالميكروبات.

تخلص جزء من مجتمع الدولة الإسلامية من شيء آخر لا يقل خطرًا: الميسر أو القمار.. مرض يفتك بالمجتمع والاقتصاد.. يبدد المرء ماله في لحظة طيش.. الخمر والقمار نوعان من الجنون، والإسلام رسالة للعقول. حين يمارس المرء القمار، فإنه يمر بلحظة جنون يعبث فيها بقوته وقوت عياله.. بمسكنه.. بمركبه، ليصبح هو وأسرته عالة في لحظات، والأسرة ركيزة المجتمع، وإفسادها تدمير للأمة؛ لذا صار لشرب الخمر حد، وقد كان في البداية مشددًا، فقال ﷺ: «**إن سكر فاجلدوه، ثم إن سكر فاجلدوه، فإن عاد في الرابعة فاضربوا عنقه**»، بل نهى ﷺ عن استخدام الأواني المخصصة للخمر كالدباء وهي من القرع، والنقير وهي من جذوع النخل المنقورة، والحنتم وهي من الطين، والمطلية بالزفت أو القار تسمى المزفت والمقير.. حتى لا تذكرهم بها، لكن الحكم نسخ، فقال ﷺ: «**اشربوا في كل وعاء غير ألا تشربوا مسكرًا**»، وألغي حد القتل، وبقي الجلد أربعين جلدة، الذي وصفه صحابي، فقال: «منا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه». اختفت الخمر من بيوت المؤمنين، لكن مصانعها ظلت في حصون يهود وبيوت المنافقين، وهم جزء من المجتمع حتى أغروا بها بعض المؤمنين.

مدمن يحب الله ورسوله

ظلت مصانع الخمر في حصون يهود وبيوت المنافقين؛ لذا ومع المخالطة ضعف صحابي فقير أمامها حتى أدمنها من جديد.. شرب ذات يوم، فخرج من بيته يترنح،

فأخذ نحو قائد الدولة ونبي الأمة ﷺ، فأقام عليه الحد، ثم أطلقه، وتمر الأيام فيعود للشرب، ويخرج فيقام عليه الحد، وعلى الرغم من تكرار الأمر، وعلى الرغم من أن للخمر ذنبًا من الوزن الثقيل والكبير، إلا أن للقلوب والمشاعر تجاه الله ورسوله أوزانًا أثقل، فنبي الله لم يبعده.. لم يهجره.. لم يعبس في وجهه، أو يسبه، ولم يطرده من مجلسه أو قلبه، بل أحبه.

أجل أحبه، وحرض على حبه! حدث ذلك حين أُحضر ذات يوم لقائده يترنح سكرانَ، فأقيم عليه الحد، فرآه أحد الصحابة، فغضب من تكراره، وقال: «أخزاك الله، اللهم، العنه، ما أكثر ما يؤتى به»، فالتفت ﷺ لذلك اللاعن، وأنكر عليه، وقال له كلمات تكشف عوالم الحب داخل ذلك الرجل المدمن.. قال ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله**».

كانت الخمر نقطة ضعف ذلك الرجل، والإسلام لا يتجاهل نقاط الضعف لدى الإنسان، لكنه لا يبالغ في وصفها، ووصف المعاناة منها.. الإسلام يقف أمامها ريثما ينتشل المرء منها.. يضمد جراحه وعواطفه من سنانها، ثم ينفث فيه من جديد طاقة الانطلاق والتجديد والتشييد.

التفت ﷺ إلى أحبته راجيًا منهم ألا يتركوا أخاهم للشيطان، ولا سيما واليهود والمنافقون مستعدون لتوظيفه.. التفت لصحابته، فقال: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا: رحمك الله**» كان ﷺ حانيًا رفيقًا.. يعرف أن صحابته ليسوا ملائكة؛ لذا فهو ينظر إلى المناطق الخصبة فيهم.. يمطرها بالحب، فتهتز ربيعًا أخاذًا، لكن يا ترى ماذا لدى شارب الخمر الفقير المعدم هذا من مساحات خصبة، حتى يحتفي به ﷺ؟

كان لديه مساحات الحب لله ولرسوله.. حب يشرق في قلبه، وينسرب في أعماقه؛ لذا بادله ﷺ بحب أجمل، فتحول ذلك المدمن الفقير إلى راسم للبسمات على ثغر محمد الجميل.. أغرته سماحة نبيه ﷺ وابتسامات نبيه إلى حد تدبير الدعابات لقائد دولته.. مقالب لا يجرؤ عليها كبار الصحابة، فكان ﷺ يتقبل دعاباته كالماء

البارد.. ها هو في السوق يتلفت بين الباعة والدكاكين.. ربما يعدّ دعابة لنبيه، وربما كانت عفوية دون تكلف.

الحب أقوى من الخمر

ملأ حب الله ورسوله ذلك المدمن الفقير، حتى أخرجه من بيته مرارًا شوقًا إلى نبيه ﷺ.. يريد أن يعبر عن مشاعر لا توصف، فتحمله تلك المشاعر فوق ما يحتمل.. تحمله للسوق خالي الجيب.. يتجول بين الباعة والدكاكين، وتجول عيناه بين البضائع التي يتمنى لو ملأت بيته.. يبحث عن ألذها، فلا يرى مثل السمن والعسل أحب إلى قلبه.. تنتقي عيناه أطيبها، فيشير نحوها، فيخرجها صاحب الدكان، ويمدها له، وينتظر الثمن، فيرجوه أن يمهله أيامًا للسداد، فيوافق التاجر في أجواء ثقة وفرتها الدولة الإسلامية.

ينحني الفقير إلى عكة السمن أو العسل، فيحملها، وينطلق بها.. ليس لبيته الخالي، ولكن لبيت قائده الذي لم يعنفه يومًا، أو يكشر في وجهه، أو يعيره بذنبه، أو يسخر منه. تحمله السعادة.. يحلم بدعوة من نبيه.. يحلم بمرافقته في الجنة، وعندما يصل يطرق بابه، ويستأذن ويدخل، ويمد لحبيبه الهدية، فيقبلها القائد ﷺ، ثم ينصرف والسعادة تملأ ثيابه، وتمر الأيام، ويتأمل التاجر حساباته، فيبحث عن الرجل حتى يجده ويقبض عليه، فإذا هو مفلس، لكن على الرغم من إفلاسه تأتي المفاجأة.

فبدلًا من أن يأخذه التاجر لقائد الدولة ليشكوه.. يقوم الفقير بأخذ التاجر إلى قائد الدولة ﷺ.. يسير به يبحث، والتاجر متعجب من جرأته، فإذا وجده سلم عليه، وكأن شيئًا لم يحدث، ثم يقول: «يا رسول الله، أعطِ هذا ثمن متاعه». فينظر القائد ﷺ إلى ذلك الذي لا يكف عن إضحاكه وحبه، فيبتسم، ويسدد ثمن الهدية.

كان ﷺ لطيفًا بشعبه، فلا يلامون حين تخرجهم قلوبهم من بيوتهم شوقًا إليه. ما أكثر ما تخرج القلوب أصحابها، وأسعد المحبين من يجد محبوبه، كهذا الرجل

الـذي خـرج لهفة لنبيه ﷺ، ولما وجده اشـتاق إليه وهو أمامه، فاحتز من قلبه سـؤالًا يقول: «متى السـاعة؟ فقال ﷺ: **وماذا أعددت لها؟**».. فتش الرجل، فلم يجد سـوى قلبه، فقال: «لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله». فإذا الحب يحلق.. يرفرف به فوق السماوات، حين بشره ﷺ، فقال: «**أنت مع من أحببت**» سمعها تلاميذ محمد، فطارت قلوبهم فرحًا، وقالوا: «ما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي: **أنت مع من أحببت**».

هكـذا كانـت طيبة.. مدينـة للحب، فأيـن تجثـم الكراهية؟ إنها هنـاك.. قرب عرفـة.. في منطقـة عرنة بالتحديد.. هناك يقبع طاغوت اسـمه خالـد بن نبيح، وهو الآن قد جمع جيشًا لغزو المدينة دون سبب سوى الكراهية للتوحيد ودولة الإسلام.

الطاغوت خالد بن سفيان بن نبيح

في مـكان يقال له عرنة قرب عرفة.. طاغوت اسـتخفته قريش اسـمه خالد بن سـفيان، فحشـد جيشًـا للإجهاز على الدولة الإسـلامية، لكن القائد ﷺ كان يرصد تحركات الوثنيين الذين رموه عن قوس واحدة.. فكر في طريقة يسل بها الشر.. دون حرب، كما سل الحاخام الإرهابي كعب بن الأشرف، ليحقن دماء بريئة من الطرفين، ويمنع حربًا لا مبرر لها، انتقى القائد ﷺ للمهمة شابًّا جسورًا يدعى عبدالله بن أنيس، وقـال لـه: «**إنه قد بلغني أن خالد بن سـفيان بن نبيح يجمع لي النـاس ليغزوني، وهو بعرنـة، فأتِـه، فاقتله**».. طلب بن أنيس وصفًا للطاغوت قائلًا: «يا رسـول الله، انعته لي حتى أعرفه». فأعطاه وصفًا أوحي إليه، وقال: «**إذا رأيته وجدت لـه قشعريرة**».

أراد الفـارس طمأنة قائده، فقال: «والذي أكرمك ما هبت شـيئًا قط»، ثم ودع نبيه وتوشـح سـيفه، وركب ينهب الأرض حتـى قطع مئات الأميـال على حصانه، ولما أشرف على منطقة عرنة.. كانت الشـمس تلون واجهات الجبال الغربية بطلائها الذهبـي. تأمل ظله على الأرض، فوجده يسـاوي طولـه أو أكثر، وهذا يعني دخول وقت صلاة العصر، فاستشرف السهول والوديان والناس، فرأى رجلًا يمشي وسط

نســاء باتجاه أحد المنازل، فحرك جواده نحوه.. ربما ليسـأله، لكن شيئًا أوقفه فجأة.. إنها القشعريرة تهز جسده.. إنه هو.

حار ابن أنيس: هل يشـد عليه، أم يصلي العصر؟ ثم نزل عن جواده، وأمسـك بزمامه ومشـى، ثم قال بصوت منخفـض: الله أكبر، وبدأ يصلي صلاة العصر صلاة خـوف، وهـو يمـشي.. يومئ برأسـه للركوع والسـجود، ووجهه نحو ابـن نبيح لا الكعبـة، فـالله سـبحانه يقـول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾[البقرة: ٢٣٩]، ولما انتهى من صلاته كان على مسـافة من الطاغوت، الذي توقف فجأة على وقع حوافر الحصـان خلفـه، والتفت، وصاح: «مـن أنت؟» فطمأنـه بأنه جاء ليشـاركه الغزو، وقال: «رجل من العرب سمع بك، وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا. قال: أجل، أنا في ذلك».

همس عبدالله بينه وبين نفسـه: (سـتعلم)، ثم أراد طمأنة الطاغوت أكثر، فقال: (هل من مبيت؟ فأجابه: نعم، فالحقْ بي).

مشى الشاب خلال موكب النساء مسافة، ثم تلفت، ولما اطمأن سل سيفه، فلم يغمده إلا والطاغية يتلبط تحته.. تغطيه خيمة من النساء والعويل والدماء.

رجل يعدل جيشًا

قفز الفارس عبدالله بن أنيس على جواده، بعد اجتثاثه للطاغية خالد بن نبيح.. حاقنًا دمـاء المؤمنين والوثنيين، ثـم انطلق ترفـرف ثيابه خلال الريـح حتى اختفى بـين حنايا الجبـال، ثم أوقف جـواده وصعد، وانتقـى نقطة مراقبة يرصـد منها ردة الفعـل. جـن الوثنيـون.. لا يدرون مـن أي أرض ظهر، من أي سـماء هبط الفارس على قائدهـم.. تفرقوا.. ابتلعتهم الطرقات.. يبحثون بـلا هدى، ولما اختفوا انحدر ابـن أنيـس، وركـب جـواده، وانطلـق للمدينة، وفـور وصولـه بحث عـن نبيه ﷺ الـذي هش بوجهه حالما رآه، وقال: «أفلح الوجه»، فهتـف ابن أنيس مبشرًا: (قتلته

يا رسـول الله)، فنهـض القائد ﷺ من مجلسـه، وأخذه لمنزله، ولما دخـلا التقط عصًا ومدها لجنديه، وقال: «**أمسك هذه عندك يا عبدالله بن أنيس**».

أخذهـا عبدالله ثم خـرج، فمر بحفاوة إخوته، فقالوا: «مـا هذه العصا؟ فقال: أعطانيها رسـول الله، وأمرني أن أمسـكها. قالوا: أَوَلا ترجع إلى رسـول الله، فتسأله عن ذلك؟ فرجع، وقال: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: **آية بيني وبينك يوم القيامة، تخصر بهذه حتى تلقاني، وأقل الناس المتخصرون**».

هانـت التضحيـات مع هـذه البـشرى، فأخذ عبـدالله العصـا، فقرنها بسـيفه، وخـرج، فأخبرهـم. أراح عبدالله بن أنيـس المؤمنين والوثنيين من طيـش ابن نبيح، الذي اسـتخفته قريش، فاسـتخف قومه.. ضربة واحدة حقنت دماء كانت ستسفح عبثًـا، فـلا النبي يريد بهـم شرًا، ولا دولته في حاجة إلى معـاداة أحد، أما الأهم، فهو أن قومه تخلوا عن مغامرته، ما يعني أنه كان مجرد طاغوت يقامر بشعبه لنزوة تهرش كالقمـل في رأسـه. فتح ذلك الهالك الأعين على مـشروع وثني خطير.. هو التناوب على غزو الدولة الإسلامية لإسقاطها.

لم يكـن ابـن أنيس وحده رجل المهمات.. هناك جسـور آخر اسـمه مرثد بن أبي مرثـد.. تخصـص في افتـكاك الأسرى المضطهدين داخل مكـة، وكان يمارس مهمته في أجـواء ثقة مـع امرأة يحبها تدعى عناق، لكنه انقطع عنها لسـبب مـا، وذات ليلة كانـت عناق تتمشـى تحت ضوء القمر، فإذا بطيف مرثد الحبيب يسـير متخفيًا تحت أحـد الجدران.. في مهمة إنقـاذ جديدة.. خفق قلبها، ونادته، فاعتذر عذرًا أغضبها، فصرخت بأعلى صوتها صرخة جعلت السيوف تحاصر المكان.

هل أتزوج عناق؟

كان الفدائي مرثد بن أبي مرثد قويًا جدًّا، وجسورًا جدًّا، وكأنه استجابة قنوت النبي ﷺ، بأن ينجي الله الأسرى المضطهدين بمكة، فهو يتسـلل ليلًا بأسـلوب مميز

نحو بيت العائلة التي تضطهد ابنها المؤمن، ثم يحمله بعيدًا عن البيوت، ثم يفكه، وينطلق به نحو مدينة النور وعاصمة الإسلام.

في إحدى الليالي المقمرة كان مرثد تحت أحد جدران مكة يتسلل.. أغرى ضوء القمر الحالم عاشقته عناق على المشي، وبينما هي تتمشى إذا بطيف افتقدته طويلًا.. اقتربت، وحدقت في هذا الطيف الذي يلتصق بالجدار؛ كي لا يفضحه الضوء. فقالت: «من هذا؟ مرثد؟» كشف عن وجهه، وقال: «مرثد. قالت: مرحبًا وأهلًا، هلم فبِتْ عندنا الليلة» لكن مرثدًا قد تغير.. غيره وحي طهر شبابه، فقال: «يا عناق، إن رسول الله حرم الزنا» صعقت المرأة.. شعرت برخصها وهي تعرض نفسها.. انهار إغراؤها أمام مؤمن وقّاف عند حدود الله، فقررت أن تحرقه كما أحرق إغواءها.

صرخت بأعلى صوتها كالمجنونة: «يا أهل الخيام، هذا الدلدل.. هذا الذي يحمل أسراءكم من مكة» ترك مرثد المكان لها وهرب، وإذا بثمانية وثنيين يقبلون ركضًا.. ينعكس ضوء القمر بسيوفهم، فدلتهم على اتجاه هروبه، فلاحقوه.. ظل يركض في اتجاه جبل في أحد مداخل مكة يقال له الخندمة.. تومض ثيابه وتختفي في القمراء، ثم صعد الجبل، ولاذ بأحد كهوفه، وكمن بين صخوره.

اختفى وحيرهم، فصعد بعضهم، فلم يَرَ شيئًا، وأيس منه، وكان يشعر بالحصر، فقام يتبول في الغار، فطار رذاذ بوله على رأس مرثد، ومرثد ساكن كامن. انتهى الوثني، ولحق بأصحابه، فانحدروا نحو مكة وعمّاهم الله، ثم نزل مرثد وهو يعاني مما في رأسه، لكنه قرر ألا يعود للمدينة إلا بأسيره. انسل حتى هبط على الأسير، فوجده، فانتشله بقبضتيه القويتين كتلة ملفوفة بالحبال، ونسفه على ظهره تتسارع أنفاسه ودقات قلبه، ويتصبب عرقًا، حتى وصل مكانًا يقال له الإذخر، وهناك أنزله، وقال: «فككت عنه أكبله، فجعلت أحمله، ويعينني حتى قدمت المدينة».

ابتهج الأسير بحريته وإخوته ودولته، أما مرثد فحملته تلك القمراء نحو نبيه، ولما وصل سلم عليه، واستفتاه في الزواج من حسنائه الخائنة.. سكت ﷺ ولم يرد عليه، وبعد أيام استدعاه ليجيب عن سؤاله.

أحمق يريد الحكم

نزل القرآن يقول: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٣]، فاستدعى النبي ﷺ مرثدًا ليجيبه عن سؤاله عن الزواج من الوثنية عناق، فتلا عليه الآية، ثم قال: «**لا تنكحها**».

امتثل مرثد، وانشغل عن تلك الوثنية بما هو أهم، فالأيام تعد له مهامّ، كما أن رأسه مطلوب هو وشجعان أحد، وفي تلك الأثناء برز طاغوت يدعى عامر بن الطفيل.. أكثر طموحًا من ابن نبيح.. أقبل مزهوًا نحو المدينة، ولما وصلها تأملها حالمًا باحتلالها، وإسقاط دولتها الإسلامية.. بحث عن قائدها ﷺ، ولما وقف أمامه قال بكل وقاحة مهددًا: «أخيرك بين ثلاث خصال: أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أن أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بألف أشقر وألف شقراء».

رفض القائد ﷺ تلك المطالب، التي تدل على ضيق أفق وحمق غريب، فالنبي ﷺ لم يعلن دولته ملكًا له حتى يقاسمه حكم الحاضرة والبادية، ولم يتحدث ﷺ عن هوية الشخص الذي سيحكم بعده، حتى يعينه بدلًا عنه.

النبي ﷺ أشار أن هوية الحاكم المسلم لا تهم بقوله: «**وإن تأمّر عليكم عبد حبشي**» لكنه تحدث عن الأسلوب الإسلامي للحكم: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**» والعدل قمة الرشاد، والرشاد ليس مقصورًا على زمن، أو جيل، أو شخص، والأمة هي من يشهد بالرشد، فقد قال ﷺ لأمته: «**أنتم شهود الله في الأرض**»، أما التهديد بالغزو، فالنبي القائد يأخذه على محمل الجد، وهو أبرع من يتعامل معه؛ لذا استدعى ﷺ عشرة من شجعانه.. أحدهم مرثد، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت، في مهمة لرصد التحركات في مناطق التوتر بين مكة والمدينة.

انطلق العشرة حتى وصلوا مكانًا يقال له الهدأة.. بين عسفان ومكة، وهناك شاهدهم وثنيو بني لحيان، فأخبروا قومهم، فزودوهم بقرابة مئتين من الرماة، وبدأت المطاردة واقتصاص الأثر، حتى وصل الوثنيون محطة يستريح فيها



المسافرون، فنزلوا يفتشون عن آثار، فوجدوا نوى تمر.. أخذ أحدهم النوى، فرفعه وتأمله، وأراه لأصحابه، فقالوا: «هذا تمر يثرب». فانطلقوا من جديد يلاحقونهم حتى رأوهم.

التفت العشرة، فرأوا الوثنيين خلفهم، فلجؤوا لمكان مرتفع كالرابية، لكن الوثنيين لحقوا بهم، والتفوا حول الرابية، وإذا بالأسهم تحاصرهم.

الاستسلام أو الموت

لجأ عاصم بن ثابت بجنده العشرة إلى فدفد مرتفع، لكن الوثنيين حاصروهم.. قرابة مئتي سهم مشدودة موجهة إلى أجسادهم.. نظر الفرسان إلى بعضهم، وكأنهم يسألون عن أقرب أبواب الجنة، فإذا بوثني يصيح: «لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلًا» لكن عاصمًا وبكل ثقة، وكأن بابًا للجنة قد فتح له على تلك الرابية.. رد متحديًا: «أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر»، فانضم إليه مرثد وخمسة من جنده، فاستودع عاصم ربه رسالة لنبيه، فقال: «اللّهمّ، أخبر عنا نبيّك ﷺ»، ثم هبطوا كالموت يقاتلون، وكأنهم يزيحون الوثنيين عن أبواب الجنة، لكن الكثرة تغلب الشجاعة. انطلقت عشرات الأسهم تخترق أجساد الفرسان.. تفجرت شلالات الدم.. هوت الأجساد على الأرض، ورفرفت الأرواح للنعيم، وبقي على الرابية ثلاثة: هم خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وثالث.

كرر الوثنيون هتافهم بالأمان، وأعطوهم العهد والميثاق، فوثق خبيب وزيد بالعهود، فترجلا عن الرواحل، واستسلما، فإذ بالوثنيين ينقضون عليهما، بينما قام آخرون بحل أوتار أقواسهم وتحويلها إلى أصفاد.. كان الثالث يراقب، فلما رأى الأوتار تحز السواعد صاح: «هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء لأسوة».. تسمر في مكانه.. لم يتزحزح، فقد اشتاق للشهادة، فطوقه الوثنيون حتى رموه عن راحلته، ثم قاموا بجره وهو يقاومهم.. حاولوا إرغامه على السير، فعجزوا،

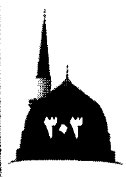
فجرجروه مجددًا، ولما أيقنوا أنه لن يستجيب غرسوا سيوفهم في جسده، ثم حملوا خبيبًا وزيدًا، وحولوهما إلى عبيد، وبعد مشاورات أخذوهما إلى ألد أعدائهما بمكة.

اقتيد الأسيران، وسحبا نحو السوق.. وسط دهشة الوثنيين ونظراتهم، وهناك فتحوا مزادًا علنيًّا لبيعهما.. تعالت الأصوات، فتداعت مئات الخطوات نحو المزاد، لكن رجالًا من أسرة الطاغوت الحارث بن عامر بن نوفل، الذي اجتثه خبيب ببدر وجدوا ثأرهم أمامهم.. دفعوا الثمن المطلوب في خبيب، ثم أخذوه لبيتهم، وهناك كبلوه بالحديد أيامًا تمهيدًا لإعدامه. خلال تلك الأيام كانت فتاة من بنات الطاغية تتأمل أسيرها بين الحين والحين حتى أسر قلبها، لكن هذا القلب كاد يتوقف، حين فوجئت بخبيب قد أضجع طفلها الصغير في حجره، وقد أمسك بموس حادة في يده.

خبيب أسير يأسر القلوب

في بيت الحارث بن عامر بمكة.. تثقل أصفاد الحديد خبيب بن عدي قبل إعدامه.. كانت ابنة الحارث بين وقت وآخر ترمق هذا الأسير الذي خطف قلبها.. أذهلها ذات يوم مشهد غريب حين حدقت بعنقود عنب بيده.. غيَّرها ذلك العنقود وهي لم تذقه. من أين حصل خبيب عليه، فمكة ليس بها عنب، بل الموسم ليس موسم عنب؟ أدركت أنه مقطوف من عالم آخر، فقالت: «ما كان إلا رزق رزقه الله خبيبًا».

حان يوم إعدامه، فاستعار منها موس حلاقة ليتزين للجنة.. ذهبت الفتاة وأحضرت الموس ومدته له، ثم انخرطت في عمل منزلها، بينما كان طفلها الصغير يلهو بقربها. درج الطفل، ثم وقف يتأمل ببراءة هذا الأسير الطيب الذي ابتسم له، ولاعبه، فلان الطفل وألقى بجسده الصغير عليه، وتقلب في أحضانه.. في تلك اللحظة افتقدت الفتاة حركة طفلها، فتذكرت الموس، فهرعت كالمجنونة نحو مكان الأسير، وإذا بها تتسمر.. تتسع أحداقها أمام مشهد يكاد يوقف قلبها.. طفلها على فخذ خبيب، وموسها بيده، واليوم يوم الثأر.



كان سكوتها يتوسل، وعيناها تناشدانه الرحمة، فنظر إليها وشعر بمسافات الوجع التي قطعها قلبها، فطمأنها، وقال: «أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى» فأدركت رقي الثقافة التي تشربها، وتحضر الدولة التي هو من جندها، فقالت: «ما رأيت أسيرًا قطّ خيرًا من خبيب».

مرت الساعات، وإذا بأصوات الرجال تخالط أصوات الحديد والسلاسل، وهم يحركون خبيبًا ليعدموه.. حان الرحيل، فساروا به يرسف في قيوده أمام عيني الفتاة الحزينة وطفلها، حتى أخرجوه خارج الحرم، ولما توقفوا تأهب خبيب للقاء ربه، فالتفت إليهم، وقال: «دعوني أصلي ركعتين» فتركوه، فكبر وصلى صلاة مودع لهذا العالم، ولما سلم التفت إليهم ثانية، فقال: «لو لا أن تظنوا أن ما بي جزع من الموت لطوّلتها» ثم دعا عليهم، فقال: «اللّهمّ، أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبقِ منهم أحدًا»، ثم قتل حماسهم بأبيات قال فيها:

فَلَسْتُ أُبالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذاتِ الإلهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبارِكُ عَلَى أَوْصالِ شِلْوٍ مُمزَّعِ

أحرقت الأبيات وثنيًا يدعى أبوميسرة، فالتقط حربة، ثم وضعها بكف طفل من أطفال الحارث يدعى عقبة، ثم قبض على يده الصغيرة والحربة معًا، ثم طعن خبيبًا بها.. تفجر الدم، وحلق خبيب شهيدًا نحو رفاقه.

البحث عن جثة الأمير عاصم

أخذ وثنيو قريش ثأرهم من خبيب وصاحبه زيد بن الدثنة غدرًا وخيانة.. تدينها كل الشرائع. سفلت أخلاق بعضهم، وتعاظم حقدهم حتى طال الجثث؛ لذا أرسلوا فرقة بصحبة الخونة من بني لحيان إلى جسد الأمير عاصم بن ثابت، ليأتوا به أو برأسه، أو بشيء من جسده، ولما أقبلوا على تلك الرابية وجدوا أجساد الفرسان الثمانية متناثرة، لكنهم لم يستطيعوا مس جسد الأمير.

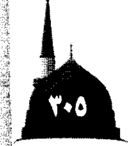
هنـاك شيء غريـب فوقه وله دوي.. اقتربوا منه، فإذا به سـحابة نحل لا يمكن الاقـتراب منهـا، فعدلوا عن رأيهـم، وتركوا رابية الاستشـهاد عـلى أرض الخيانة.. خيانة ليست من طباع كرام العرب.. تأثر منها المؤمنون، وحزّت في أنفس الشرفاء.. خاصة أناس يقال لهم بنو عامر.. كان بينهم وبين الدولة الإسلامية عهد؛ لذا جاءت مجموعة منهم بقيادة قائد لهم اسمه: عامر بن مالك، ويلقبونه بـملاعب الأسنة.

وصل موكب ملاعب الأسـنة إلى عاصمة الدولة الإسلامية لتلطيف الأجواء، وتعبـيرًا عـن حسـن النيات حمل هديـة لقائد الدولـة ﷺ.. كان النبـي في حالة حزن وغضـب شـديدين، لكنه لم ينسَ رسـالته: التوحيـد. عرض التوحيـد على ملاعب الأسـنة، فرفـض، فرفض ﷺ هديتـه، فحاول ملاعب الأسـنة أن يخفّـف عن النبي بعـض مـا في صدره من حزن على أصحابه، فاقترح أن يرسـل بعـض مثقفي الدولة لينشروا الإسـلام بين المدينة ونجد، وتعهّد ملاعب الأسـنة بحمايتهم، حتى يطمئن القائـد ﷺ أنـه لـن يصيبهم مـا أصـاب عاصـمًا وخبيبًـا وأصحابهـما، وكان مما منح النبي ﷺ ارتياحًا.. هو أن رجالًا من أحياء رعل وذكوان وعصية قدموا ضمن موكب ملاعب الأسنة، فأعلنوا إسلامهم، وبينوا أنهم في حاجة لمن يعلمهم الإسلام.

اسـتجاب ﷺ بناء على عهد ملاعب الأسـنة، فانتقى سبعين شابًّا من تلاميذه.. من حفظة القرآن.. تحار الكلمات في وصفهم. «كانوا إذا أجنّهم الليل آووا إلى معلم بالمدينـة، فيبيتون يدرسـون، فإذا أصبحـوا فمن كان عنده قوّة أصـاب من الحطب، وملأ القرب بالماء العذب، ومن كانت عنده سعة أصلحوا الشياه، وحلبوها للناس» لا لأنفسـهم.. تعجـز الكلـمات عن وصفهم، لكنهـا تعجز أيضًا عـن وصف الأمر الذي تعرضوا له في الطريق، فهل خانهم ملاعب الأسنة أيضًا؟

صفات شباب حلقات القرآن

تشرق شـمس عاصمة الدولة الإسـلامية، فيشرق معها أكثر من سبعين شابًّا.. يتفرقون نحو الآبار والغابات القريبة.. منهم من يملأ القرب بالماء.. يعلقونها سبيلًا



للعطشان.. منهم من يحلب للفقراء، وأما من في الغابة، فيحتطبون، ثم يجمعون الحطب، ويربطونه حزمًا تتمايل فوق ظهورهم حتى ينزلوها في السوق، وهناك يبدأ المزاد والبيع، وبعد أن يبيعوه بدراهم قليلة لا يحتفظون بها، بل يبقون في السوق ليشتروا ما استطاعوا من الطعام واللباس، فيهدونها لأهل الصفة وفقراء الشعب، ثم يعودون ليقيلوا ويستريحوا، وفي المساء يلتفون حلقات لتدارس القرآن حتى بدايات الليل. هل هم عمال، أم تجار، أم عباد، أم علماء؟ إنهم الشباب حين ينفث فيهم القرآن والسنة. انتقى القائد ﷺ سبعين من هؤلاء الأنقياء، وطلب منهم مرافقة الضيوف القادمين من رعل وذكوان وعصية، بل ومن بني لحيان، الذين باعوا خبيبًا.. طلب مرافقتهم ليعلموهم الإسلام؛ علهم يصنعون نسخًا جميلة منهم، فهم مصاحف تمشي على الأرض، وهم نجوم تزين السماء، وهم الإسلام عملًا وإبداعًا.

انطلقوا وقد أردفوا خلفهم القلوب.. في رحلة علمية سلمية، بعد أن تعهد ملاعب الأسنة بحمايتهم، وفي الطريق علم بهم جواسيس الطاغية عامر بن الطفيل، الذي جاء يومًا يهدد النبي ﷺ إن لم يناصفه الحكم، ويجعله خليفة له، فحرض قوم ملاعب الأسنة ليغدروا بهم فرفضوا، فتركهم وانطلق نحو وثنيي بني سليم، فاستجابوا وتأهبوا، ولما وصل السبعون شابًّا إلى بئر تابع لبني سليم.. يسمى معونة رأوا حشدًا مسلحًا أمامهم، فاقترح شاب اسمه حرام، وهو أخو أم سليم وخال أنس بن مالك.. اقترح قائلًا لإخوته: «دعوني فلأخبر هؤلاء أنّا ليس إياهم نريد، فيخلون وجوهنا» انطلق حرام ومعه شابان أحدهما يعرج يشكو رجله، وبعد مسافة التفت حرام إليهما، وقال: «كونا قريبًا مني حتى آتيهم، فإن أمنوني كنتم كذا، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم».. صعد الرجلان جبلًا ليراقبا، وواصل حرام حتى وقف أمام الجيش، فقال لهم: «أتؤمنوني أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم» اطمأن حرام، فراح يحدثهم عن التوحيد.. عن الإسلام.. عن العطاء، لكنه كان يحدث قلوبًا من الصخر. نظر أحدهم إلى شيطان منهم، وأومأ إليه دون أن يشعر حرام، فأخذ رمحه، وانسل حتى أصبح خلف حرام مباشرة.

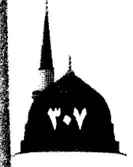
أين تلاشت أخلاق الجاهلية؟

حول بئر معونة يحتشد جيش وثني بني سليم.. أمام المعلم الشاب حرام بن ملحان.. شقيق أم سليم، وخلفه بمسافة صاحباه أحدهما أعرج.. يراقبانه من رأس جبل، وخلفهما بمسافة ينتظر سبعة وستون شابًّا من أعذب شباب الدنيا عطاء ورحمة وكرمًا.

بدأ حرام حديثه عن التوحيد والإسلام، لكن كلماته كانت تتلاشى في الهواء.. كلماته في وادٍ والقوم في وادٍ، وفي غفلة منه أومأ بعضهم لمجرم يحمل رمحًا، فانسل كالشيطان حتى أصبح خلف حرام، وفجأة أنَّ حرام.. توقف عن الكلام.. تغيرت ملامح وجهه، وطأطأ رأسه فإذا الرمح يخرج من بطنه.. رأى الدماء تنفجر بين يديه، فمدهما، وملأ كفيه من شلال الشهادة، ثم رفعهما ونضح وجهه بالدم، وهو يصيح: «الله أكبر، فزت وربّ الكعبة» ثم هوى شهيدًا.

بقي الأعرج على الجبل، وانحدر صاحبه لرفاقه ليهربوا، وإذا بالخونة يطاردونهم.. يحاصرونهم حتى أحاطوا بهم، فأيقنوا بالموت، فصاح بعضهم: «اللّهمّ، بلّغ نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا».. قاوموا دون دروع، فما خرجوا للقتال.. مزقتهم الأسهم والرماح، ونحر من أسر منهم بمنتهى الخسة والغدر، ونهبوا، وتركوا للصحراء.. لأنياب الوحوش ومخالب الطير.. تهاوت شموس العلم وأقمار الحب، ولم ينجُ سوى الأعرج على رأس الجبل.. يتلقى قلبه طعنات رفاقه، ولما انقشعت العقارب الوثنية عن المكان انحدر عله يجد حيًّا.

قلّت حيلته، وبكي أحبته المتناثرين لا يستطيع دفنهم، ولا مواراة أجسادهم.. مضى مهمومًا نحو طيبة يتهزع، فإذا الوحي قد سبقه بكلماتهم: «إنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا» قرأها ﷺ على شعبه فبكى، وأبكى المدينة، وحزن حزنًا لم يحزن مثله.. أحرق الدمع محاجر الأمهات والآباء والأطفال، وبكى أهل الصفة أحبتهم.. بكى أهل الصفة شبابًا طالما كدوا ليخفّفوا معاناتهم.. هذا قد منحوه ثوبًا، وهذا اشتروا له طعامًا، وذاك أعطوه فراشًا، وعابرو السبيل تخفق قلوبهم كلما رأوا قربهم



معلقة على باب المسجد، فكم من عطشان تنهد وهو يبلل شفتيه بها، وكم من قلب شقي بفقدهم!

فجعت الدولة الإسلامية بشهداء كأعداد شهداء أحد، لكن ما زاد الفجيعة.. هو أنها فقدتهم دون حرب.. فقدتهم غدرًا وخيانة، فيا لله أين ذهبت أخلاق الجاهلية؟!

الحسود بلا أخلاق

ترى أين ذهبت أخلاق الجاهلية.. من يقتل سبعين من أجمل شباب الدنيا غدرًا؟ إنه الحسد.

الحسد حين يتسلل إلى القلب تنطفئ فيه الشمس، وتختفي النجوم وينعدم الأفق. الحسد يصنع حقدًا على الناجح، وحقدًا على النجاح. الحاسد يتدحرج خلف المحسود ككتلة تتشرب الهفوات، وتلتصق بها الزلات. كيف يرى الحاسد الجمال وهو بين الأقدام؟ كيف ينجح وهو يحترق مع كل إنجاز؟ الحسد أفقد الوثنيين مروءتهم ورجولتهم، حين رأوا رجلًا كان بالأمس وحيدًا طريدًا يشيد دولة للأخلاق والنظم والتشريعات.. جن جنونهم وهم يرون رجالًا كانوا بالأمس عبيدًا يصبحون بالإسلام قامات وهامات.

خمسة عشر عامًا لم يخنهم محمد ﷺ.. لم يؤذِهم.. لم يمد يده على أحد منهم، ومع ذلك أوجعوه حتى ترك لهم أحب البلاد إليه، فلم يتركوه. روعوه.. لاحقوه بسيوفهم.. رموه عن قوس واحدة.. منعوه من بيت ربه، وغزوه في عقر داره، وتناوبوا على إخافته وتهديده، ولما أتوه أكرمهم.. أعطاهم، لكنهم خانوه مجددًا، فنحروا أصحابه نحر الشياه، ونحروا معهم أجمل أخلاق الجاهلية؛ لذا حذر ﷺ شعبه من دبيب هذا الداء الذي هو أبرز صفات إبليس.. الداء الذي يبيد الحسنات، فقال: «**دب إليكم داء الأمم، الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر،**

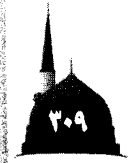
ولكن **تحلق الدين**»، ثم حلف، فقال: «**والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**»، أما شبابه المغدورون فلم يجد لهم سوى الدعاء.

ظل النبي ﷺ شهرًا كاملًا يدعو.. يقنت كلما رفع رأسه من الركوع الثاني لصلاة الفجر: «**اللهم، اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم كسني يوسف، اللهم، العن لحيان ورعلا وذكوان، وعصية عصت الله ورسوله**» والصحابة والصحابيات خلفه يقولون: آمين. يقول أحدهم: وذلك بدء القنوت، وما كنّا نقنت. لكن الله أنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فترك الدعاء عليهم، لكن سهام الفجر أصابت الطاغوت عامر بن الطفيل، الذي حرض على قتل الشباب والغدر بهم، فأصيب بمرض عضال.. ورمة كغدة البعير جعلت قومه ينفرون منه، فاعتزلهم في بيت امرأة، حتى مل الوحدة والعزلة والكآبة، فصاح كالمجنون بمن بقي معه: ائتوني بفرسي، فركبه، وانطلق هائمًا.

~ ~ ~

موت الطاغية عامر بن الطفيل

بعد قنوت النبي ﷺ على من غدروا بشبابه حفظة القرآن.. أصيب الطاغية عامر بن الطفيل بمرض عضال.. وصفه ﷺ بقوله: «**غدة كغدة البعير**» وسماه بالطاعون. وصف دقيق للطاعون الدبلي، الذي يتميز بتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط، أما جيش الطاغية الذي هدد به الدولة الإسلامية، فأمسى مجموعة لصوص وقطاع طرق.. رفضه قومه، وفروا منه خشية أن يعديهم، أما دولته التي حلم بحكمها، فأصبحت مساحتها لا تتجاوز مساحة غرفة.. فقد صوابه، وصار يصرخ كالمجنون: غدة كغد البكر، في بيت امرأة من بني فلان. ائتوني بفرسي، فانطلق بعضهم وأحضر فرسه، ولما أمسك بزمامها ركبها وانطلق هائمًا تعيسًا لا يدرى أين انتهى.. قتله حسده وكفره، وأصابته دعوات أهل المغدورين. أسقط الله هيبته، فزال سلطانه، وهام في البرية كبهيمة، ومن يهن الله فما له من مكرم. لم يقرأ



ما جرى للطواغيت أبي جهل، وأمية، وكعب بن الأشرف، وخالد بن سفيان.. ظل يؤمل ويؤمل، والله يمهل، ونبيه يقول: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته**».. لم يكتفِ ﷺ بالقنوت، فقد أصبح معذورًا في اتخاذ أي إجراء لتأديب عصابات الوثنيين، فهو مسؤول عن حماية دولته وشعبه ودينه؛ لذا جهز جيشًا لتلك الأرض التي غُدِرَ فيها بشبابه الأطهار، والتي تقع بين عسفان ومكّة، ويبدو أن وثنيي رعل وذكوان وعصية علموا بقدومه، فأدركوا فداحة جرمهم، وشناعة خيانتهم وانتهاكهم لعهد جارهم ملاعب الأسنة، ورأوا بأعينهم ما حدث للطاغوت الذي حرضهم، فهربوا.

وصل القائد ﷺ أرضهم، لكنه لم يجدهم، ولا سبيل للوصول إليهم سوى ملاحقتهم فردًا فردًا، لذا عاد ﷺ للمدينة بعد أن غطت هيبته منطقتهم.. هيبة منحت الاستقرار والهدوء للمدينة.. هدوء جعل الفتى جابر بن عبدالله يفكر في الزواج من أجل أخواته.

تزوج جابر، لكن الوثنيين عكروا عرسه، فقد استدعاه قائده ﷺ لخطر داهم رصدتْه سرايا الاستطلاع، التي عادت تقدم تقريرًا بتحرك جيش وثني قادم هذه المرة من نجد.. لا من الحجاز، فقد نجحت قريش في تأجيج وثنية الجزيرة كلها.. استنفرتها لتتناوب في استنزاف الدولة الإسلامية لكن نبيًّا عظيمًا وعبقريًّا اسمه محمد لها.

غزوة ذات الرقاع الأولى

تزوّج الفتى جابر بن عبدالله، لكن داعي الجهاد والدفاع عن الوطن استدعاه، ولن يتخلف بعد استشهاد والده عن غزوة بعد اليوم؛ لذا اشترى بعيرًا رخيصًا، وأوصى عروسه بأخواته اليتيمات، وانطلق خلف نبيه لصد هجوم قادم من أرض نجد.

سال الجيش عبر الأودية والشعاب، حتى وصل أرضًا بنجد يقال لها ذات الرقاع، وهناك مر بوادٍ تناثرت فيه أشجار كثيرة الشوك.. تسمى العضاة، فتوقف الجيش

للاستراحة، ونزل القائد ﷺ عن راحلته، ثم أخذ سيفه، وعلقه على شجرة سمر، واضطجع تحتها، وتفرق الجند تحت ظل الشجر، ونام معظمهم من إرهاق السفر.

غفا القائد ﷺ، فإذا بقدمين تتسللان نحو شجرة السمر تلك، وإذا بيد تمتد لسيفه، فتسله من فوق رأسه دون أن يشعر.. نطق المتسلل، فانتبه ﷺ وفتح عينيه، ليفاجأ بأعرابي من الجيش النجدي يتأهب لإغماد سيفه في جسده الشريف، ويهدد بكل ثقة قائلًا: من يمنعك مني؟، فإذا الثقة تنتقل لمكانها الحقيقي، حين أجابه ﷺ قائلًا: «الله ﷻ».. فوجئ الأعرابي غورث بن الحارث بالسيف يسقط من يده، فمد النبي ﷺ يده إلى السيف، فأخذه، ثم أعاد السؤال لصاحبه: «**من يمنعك مني؟**».

برق السيف كالموت بوجه الأعرابي، فأدرك أن لا خيار أمامه سوى الاستجداء، فقال: كن خير آخذ. هتف القائد ﷺ بجنده، ففزوا على الفور، وأحاطوا بقائدهم، وألجمهم المشهد، وقائدهم يقول للأعرابي: «**أتشهد أن لا إله إلاّالله**» قال: لا، ولكني أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك.

أخلى النبي ﷺ سبيل هذا الصائل المحارب، وعفا عنه على الرغم من خطورة الظرف.. خجل الرجل، وعاد مأسورًا بجميل قائد يعفو عند المقدرة.. رجع يمشي عبر الوادي نحو رفاقه حتى اختفى بين الشجرات، ولما أقبل عليهم أحاطوا به.. حاصره فضولهم.. يسألونه عما فعله بأشهر رجل في الدنيا؟ انطلقت الأسئلة: هل قتل محمدًا، وكيف قتله؟ فإذا الإجابة تفصح عن رجل ملكه محمد بعفوه، وأسره بأخلاقه، فقال مبجلًا أبا القاسم: «جئتكم من عند خير الناس»، ثم توجه نحو متاعه، ووضعه على راحلته، وركبها، وودعهم، وانصرف، فمثل أبي القاسم لا يقاتل، ومثل أبي القاسم لا يعادى.

هزت كلماته قيادات الجيش الوثني، فتضعضعوا وهم يرون أشجع رجالهم يتركهم.. يختفي.. يمحوه السراب والندم.

صلاة خوف ثانية على أرض نجد

تعجب جيش الوثنيين من طريقة عودة رفيقهم الشجاع غورث بن الحارث.. إنه يقبل واثقًا آمنًا بين جيش المسلمين، وكأنه يتمشى بين أصحابه، ولما وصل أخبرهم بقصته المؤثرة، وعفو النبي القائد ﷺ عنه، ثم ودعهم، وغادر المكان.. تتمايل به راحلته بين أمواج السراب.. مضى مردفًا خلفه معنويات جيش تاهت أهدافه بعد كلماته.. ظل أصحابه متوترين مترددين، حتى قال أحد الصحابة: «خرج النبي إلى ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعًا من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضًا، فصلّى النبي ﷺ ركعتي الخوف»، وهي تختلف عن صلاة عبدالله بن أنيس الذي صلى وهو يمشي؛ لأنه في حالة بالغة الخطورة.

في ذات الرقاع.. كبر ﷺ وصلى بنصف الجيش، وبقي النصف الآخر للحراسة.. صلى بهم ركعتين، فلما انتهى من التشهد الأول نهض للركعة الثالثة، لكن الذين معه لم ينهضوا.. سلموا، وانصرفوا للحراسة، وجاء بدلًا عنهم النصف الآخر الذين لم يصلوا، فصلوا معه ركعتين، ولما سلم ﷺ سلموا معه. كان جابر معهم، فقال: «كانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين».

كانت غزوة حافلةً بالمشاعر لا بالدماء.. حافلةً بالمعجزات والكرامات.. تفرّق الجيشان دون دماء، وحقّق جيش الإسلام نصرًا معنويًّا، وعطرت سمعتهم المكان، ثم عادوا كالشوق للمدينة، وكان من أشدّهم شوقًا الشاب العريس جابر بن عبدالله، لكن جمله يسير ببطء شديد، وطريقة مملة ومزعجة.. غير مبالٍ بمشاعر جابر، وكأنه يستمتع بالمناظر حوله. لمح القائد جنديه يسير خلف الجيش بمسافة وحده، فتحرك قلبه رأفة، وانطلق نحوه، ولما حاذاه قال: «**من هذا؟**» فقال: جابر. فقال ﷺ: «**ما لك يا جابر؟**» فقال: «يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا».

كان ﷺ لا يمل من الحدب على هذا الفتى؛ لذا قال له: «**أنخه**» توقف جابر، وأناخ بعيره، ونزل عنه، فرحب البعير بالمزيد من الراحة وبرك، وانحدر ﷺ عن ناقته، ثم قال لجابر: «**أعطِني هذه العصا التي في يدك**» مد جابر عصاه لنبيه،

فاقترب ﷺ من البعير ونخسه بالعصا نخسات عدة وهو يدعو، ثم قال: «**اركب يا جابر**» ركب الفتى، فنهض البعير، فرأى جابر معجزة طاب معها السفر، وطاب الحديث عن الأحبة وديار الأحبة.

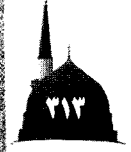
حين نهض جمل جابر

نهض بعير جابر نشيطًا، حتى صار يواهق ناقة النبي ﷺ مواهقة وينافسها. وواصل القائد ﷺ تفقد جنده، فهو لم يكن بمعزل عنهم.. لم يتميز عنهم بطعام أو فراش أو خباء.. كان خفق حب لا يهدأ، وسحابة لا تكف عن إمطار الحب.

يقول جابر إنه ﷺ: «كان يتخلف عن المسير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم»، وفي إحدى الجولات عاد ﷺ ليضفي المزيد من الحبور على الفتى الفقير.. اقترب منه، فقال: «**أتبيعني جملك هذا يا جابر؟**» فقال: بل أهبه لك. قال: «**لا، ولكن بِعْنِيه؟**».

أصبح الحديث حديث تجارة، فقال جابر: «فسُمْنيه؟» قال ﷺ: «**قد أخذته بدرهم**». فقال: «لا، إذًا تغبنني يا رسول الله». قال: «**فبدرهمين**»، قال: لا.. ظل ﷺ يرفع السعر، وجابر يأبى حتى رفع سعر الجمل إلى أوقية، فباعه جابر، لكنه اشترط أن يسلمه الجمل بالمدينة؟ فقال ﷺ: «**ولك ظهره إلى المدينة**».

اتفق الطرفان وتمت الصفقة، وعاد القائد لتفقد جيشه، وعندما اقتربوا من طيبة أسرع جابر.. يحمله الشوق والمعجزة والصفقة الرابحة، وإذا به يفاجأ بناقة النبي خلفه في جولة أخرى، وصوته الحبيب يهتف: «**ما يعجلك؟**» فقال: «إني حديث عهد بعرس». فقال: «**تزوجت يا جابر؟**» فقال: نعم. فقال: «**بكرًا أم ثيبًا؟**» قال: بل ثيبًا. قال: «**فهلّا جارية تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك؟**» فقال: «إن أبي ترك تسع بنات، فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مثلهن فتزوجت امرأة تقوم عليهن، وتصلحهن، تعلّمهن، وتؤدّبهن، امرأة تمشطهن، وتقوم عليهن».



أعجب ﷺ برجاحة عقل تلميذه، وحسن انتقائه، وحرصه على يتيماته قبل نفسه، فأيده قائلًا: «**أصبت إن شاء الله**» ودعا له، فقال: «**بارك الله عليك، بارك الله لك**»، ثم استشاره وكأنه من كبار رجال الدولة في أن يتوقفوا بمكان يقال له صرار، لينحروا جزورًا، فيصل الخبر للنساء، فيهيئن البيوت؟ توقف الجيش، وصنعوا طعامًا، وبعد الطعام تأهب البعض لدخول المدينة، فنبههم ﷺ إلى أن من الذوق إعطاء النساء فرصة للاستقبال، فقال: «**أمهلوا حتى تدخلوا ليلًا**» أي عشاءً.

خيم الليل، فتحرك الجميع، وحدث جابر عروسه بأسلوب النبي في التعامل مع المرأة، فتأثرت كثيرًا بذوقه. لم يكن ﷺ وحده غاية في الذوق.. نساؤه كنّ كذلك.. ذات يوم دخلت عليهن امرأة رجل ثري، لكنها كانت رثة سيئة الهيئة، فإذا بهن يغيرنها، ويغيرن زوجها معها.

المرأة والرجل والإسلام

لم يكن النبي ﷺ وحده في رقي الذوق، وروعة الأسلوب.. زوجاته كنّ مدارس للوعي. ذات يوم وهن مجتمعات.. دخلت عليهن امرأة عثمان بن مظعون.. خال عبدالله بن عمر، فصدمن بمنظرها.. كانت سيئة الهيئة.. رثة الثياب.. قد أهملت نفسها، فلا زينة ولا كحل، ولا ثياب تتناسب وحالتها المادية الجيدة! فقلن: «**ما لك، فما في قريش أغنى من بعلك؟**» فأجابت إجابة تكشف سر قتل الأنوثة في المرأة، وسبب إهمالها نفسها: لمن تتجمل إن كان حبيب القلب غائب المشاعر.. منصرف القلب، حتى وإن كان انصرافه للعبادة، لا لتجارة أو علم؟

كان جواب المرأة المحبطة خجولًا، وكأنها تخشى الشكوى، فقالت: «ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم» غضبت أمهات المؤمنين وتلميذات محمد ﷺ، وقررن إنعاش الحب في قلوب هذه الأسرة المؤمنة، فالمرأة ليست خادمًا أو قطعة أثاث.. انتظرن حتى عاد ﷺ، فلما أشرق خير الأزواج شكون عثمان له،

فأنصت لحقوق المرأة، وبعد أن خرج استدعى الرجل، ولما مثل أمامه قال: «**يا عثمان ابن مظعون، أما لك بي أسوة؟**».

صدم الصوام القوام، فقال: (يا بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: **تصوم النهار وتقوم الليل**؟ قال: إني لأفعل) حينها انتشله ﷺ من مثاليات الأديان المحرفة، إلى واقعية الإسلام، فقال: «**لا تفعل، إن لعينيك عليك حقًّا، وإن لجسدك حقًّا، وإن لأهلك حقًّا، فصلِّ ونَمْ، وصمْ وأفطر، يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، أما والله إن أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده لأنا**».

عاد عثمان لبيته.. لأسرته.. مدركًا أن أجر الود مع زوجته وملاعبته أولاده لا يقل أجرًا عن الصيام والقيام، فنبيه يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**».. مرت الأيام، فإذا بزوجة ابن مظعون تزور أمهات المؤمنين عطرة كأنها عروس، فاستغربن، وقلن لها: (مه؟ فقالت: أصابنا ما أصاب الناس) فسعدن بهذا التغير الإيجابي، أما نبي الله ﷺ فلم تنتهِ قصته مع جابر وجمله، فبعد أن ارتفعت الشمس.. زار جابر خاله للسلام عليه، فلامه على بيعه، فأخبره بقصته فاقتنع، ثم خرج من عند خاله ممسكًا بزمام جمله، فوجد نبيه على باب المسجد، فقال: «**هذا جملك**» لم يسأل القائد ﷺ عن الجمل، بل قال: «**آلآن قدمت؟** قال: نعم. قال: **فدع جملك، فادخل فصلِّ ركعتين**» ربط جابر جمله، ثم دخل المسجد، وصلى، ثم خرج مع نبيه، فأعطاه ﷺ الثمن، وأعطاه شيئًا بقي معه حتى مات.

النبي يؤسس لاستقلال القضاء

خرج جابر مع نبيه من المسجد نحو الجمل، فجعل ﷺ يطيف به.. يتأمله، ويقول: «**الجمل جملنا**»، ثم نادى وزير ماليته بلال بن رباح، وقال: «**يا بلال، اقضِه وزده**».

ذهب بلال، ثم عاد وبيده أوقية ذهب، فوضعها بكف جابر، وزاده قيراطًا.. تأمل جابر ذلك القيراط الذي دخل قلبه قبل جيبه، فقال: «لا تفارقني زيادة رسول



الله ﷺ. فلم يكن القيراط يفارق قرابه. ثم سأله ﷺ: **استوفيت الثمن؟ فقال: نعم»**. بعدها انصرف، ولما مشى مسافة قال القائد لصحابته: «ادعوا لي جابرًا». فانطلق أحدهم حتى أوقفه، وأخبره بطلب نبيه، فشعر الفتى بالقلق، وقال في نفسه: «الآن يردّ عليّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليّ منه». لكن أبا القاسم تهلل بوجه المواطن الفقير، وكأن سحابة الأبوة لا تتوقف عن إمطاره، فقال: «**يا ابن أخي، خذ برأس جملك، فهو لك، الثمن والجمل لك**» لم تسع الفرحة قلب الفتى، وهو ينطلق بالمال والجمل وحبّ النبي له، ورأفته بأخواته وزوجته.. كان ﷺ يقول لصحابته: «**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**» لكن السماحة أحيانًا تغري الانتهازيين، فيستغلونها؛ لذا لم يتركها ﷺ ضابطًا للبيع، فأرشد عند اختلاف المتبايعين إلى تقديم الدليل، فقال: «**البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه، وإلا فالقول للبائع**» أما الأروع، فهو أن قائد الدولة نفسه خضع لهذا القانون، ففي أحد الأيام.. دخل أعرابي وثني السوق ومعه فرس يريد بيعها، فاشتراها ﷺ منه، وطلب أن يلحقه ليعطيه الثمن.. أسرع ﷺ الخطا حرصًا على السداد، أما الأعرابي فحاصرته نظرات رجال لم يحضروا البيع، فصاروا يسومون الفرس، فطمع وأبطأ الخطا، فلما زاد السوم صاح الرجل الوثني بالنبي: «**إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته**» عاد قائد الدولة ﷺ مستغربًا، فقال: «**أو ليس قد ابتعته منك؟**» فأنكر، وقال: «**لا والله مابعتك. فقال ﷺ: بلى، قد ابتعته منك**».

تداعى المواطنون حول قائدهم غاضبين، لكن الخصم الوثني لم يخشهم؛ لأنه يُوجَد داخل دولة يحكمها النظام، ونظامها يسري على الجميع.. بمن فيهم قائدها ﷺ، فطالب بتطبيق النظام قائلًا: «**هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك؟**» عندها أعلن ﷺ لشعبه تأسيس مبدأ استقلال القضاء في الإسلام، وذلك عندما امتثل وهو نبي الله، وامتثل وهو قائد الدولة للنظام، فصار يبحث عن شاهد عيان، فهل سيجده؟

قاض عادل وقضاء مستقل

التـفّ المواطنون حول قائدهم ﷺ غاضبين من هذا الوثني الوقح، الذي بلغت به الوقاحة تكذيب نبيهم، وبخسه حقه داخل دولته.. لم يمسّوه بسوء، ولم يسجن، فلدولتهم الإسلامية نظام يكفل حماية حقوق المواطن والمسؤول، وحتى الغريب.

لكنهم تحيروا أمام قضية طرفاها أصدق رجل على الأرض، وهو رأس الدولة، والطرف الآخر مشرك غريب.. جرفه الطمع، فرماه في سواحل الكذب.. كل الذي قدروا عليه هو لومه، فقالوا: «ويلك، النبي لم يكن ليقول إلا حقًّا!» فلم يبالِ الأعرابي بهم، وظل يطالب قائدهم بالدليل، ويقول: «هلم شهيدًا يشهد أني بايعتك؟».

ألجم النظام القضائي تلاميذ محمد ﷺ، فلم يشهد أحد منهم، فأصبح الأعرابي تحت ظل القضاء العادل في حالة زهو، وفجأة حطم زهوه صوت واثق.. رجل اسمه خزيمة بن ثابت يهتف: «أنا أشهد أنك قد بايعته». التفت الناس نحوه.. حدقوا به، وتضعضع الأعرابي، فالتفت القائد لهذا الشاهد، فأقبل عليه مستغربًا، بل محققًا.. أقبل ﷺ عليه ليس فرحًا بشهادته، بل اختبارًا وفحصًا لصلاحية تلك الشهادة، فقال: «بم تشهد؟» فقال كلمة بحجم إيمانه.. إيمانه بوحي يهبط ليل نهار، وبمعجزات يراها الناس، وبقرآن معجز، فقال: «أشهد بتصديقك يا رسول الله». حينها جعل ﷺ شهادة خزيمة شهادة رجلين.

تعلم شعب الدولة الإسلامية معنى استقلال القضاء، وأنه لا أحد فوق النظام في التشريع الإلهي، وهم يرون قائدهم وقاضيهم ومؤسس دولتهم الإسلامية، وقبل ذلك نبي الله ﷺ يخضع لهذا النظام العادل، ويطبقه على نفسه أمام وثني غريب.. في دولة محمد ﷺ، ولأول مرة في التاريخ يصبح الرئيس والمرؤوس، والكبير والصغير، والمواطن والغريب، والمسلم وغير المسلم سواسية أمام القضاء.

كرس ﷺ تلك القيم بأسلوب أرقى مرة أخرى، حين اشترى للدولة بعيرًا من وثني آخر.. مقابل كمية من التمر خاص بالدولة، فأخذ الرجل ليسدد له، ولما دخل

مكان حفظ التمر بحث عنه فلم يجده، فخرج رأس الدولة لصاحب الجمل معتذرًا منه، وقال: يا عبدالله، إنا قد ابتعنا منك جزورًا بوسق من تمر الذخرة، فالتمسناه، فلم نجده.

غضب الأعرابي غضبًا شديدًا، فقام بالتلفظ على النبي الحاكم ببذاءة، واتهمه أمام شعبه بالغدر صارخًا: «وا غدراه»، فإذا بالمواطنين الذين يفدون نبيهم بأرواحهم يقبلون كالبراكين غضبًا.

استقلال القضاء

خرج القائد ﷺ من بيته بعد أن لم يجد ثمن البعير، فقال للوثني الغريب معتذرًا: «**يا عبدالله، إنا قد ابتعنا منك جزورًا بوسق من تمر الذخرة فالتمسناه فلم نجده**». غضب الأعرابي غضبًا شديدًا، فقام بالتلفظ على رأس الدولة ببذاءة، واتهمه أمام شعبه بالغدر قائلًا: «وا غدراه». اخترقت الكلمة آذان المواطنين كالمسامير الملتهبة، فأججت غضبهم، وطوقوه يزجرون وقاحته، ويقولون: «قاتلك الله أيغدر رسول الله؟» ذهل الأعرابي لهذا الغضب الجارف، وأدرك فداحة جرمه، لكنه لما رأى أن يدًا لم تمسه كرر وقاحته، فقال: «وا غدراه».

لم يبتسم النبي القائد لغضب أصحابه، ولم يصادر مال الغريب الذي شتمه وهو رأس الدولة ولم يسجنه، فإن لم يعدل محمد بن عبدالله، فمن يعدل؟ عاد يعتذر للأعرابي، ويقول: «**يا عبدالله، إنا ابتعنا منك ونحن نظن أن عندنا ما سمينا لك، فالتمسناه فلم نجده**»، فقال الإعرابي: «وا غدراه»، فهاج الصحابة غضبًا، فنظر ﷺ إلى شعبه.. نظر إلى حماة الإسلام، وقرة عينه، فقال سنة وعدالة.. قال لهم: «**دعوه؛ فإن لصاحب الحق مقالًا**»، ثم توجه للغريب يكرر اعتذاره مرتين أو ثلاثًا، والأعرابي يتهمه بالغدر.. بعدها أدرك ﷺ أن هذا الرجل لا يجدي معه الاعتذار، فلما رآه لا يفقه عنه.. نادى أحد رجاله، فطلب منه أن يتجه لإحدى النساء العظيمات، واسمها

خولة بنت حكيم بن أمية.. تلك التي خطبت له بمكة بعد وفاة خديجة.. أرسل لها علها تسعف دولتها بسلفة عاجلة.

انطلق الرجل نحو بيت المرأة، ولما قابلها قال لها: «إن رسول الله يقول لك: إن كان عندك وسق من تمر الذخرة، فأسلفناه حتى نؤديه إليك إن شاء الله؟ فقالت خولة: قل له: نعم، هو عندي يا رسول الله، فابعث من يقبضه». عاد الرجل، فأخبر النبي، فقال ﷺ: «**اذهب به فأوفِه الذي له**». سار الأعرابي الغريب مع الصحابي إلى بيت خولة، التي جهزت الكمية المطلوبة من التمر، ولما وصلا بدأ الصحابي يكيل للأعرابي ويكيل، حتى أوفاه حقه، وسدده ثمن بعيره. انصرف الأعرابي، لكنه لم يغادر المدينة، فقد تلاشت جلافته، وغمره شعور بالخجل، فعاد من الطريق نفسه، ثم توقف أمام مجلس الصحابة، وجالت عيناه حتى وقعتا على نبي الله جالسًا بين شعبه، فنظر إليه بإجلال، وقال ممتنًّا وشاكرًا: جزاك الله خيرًا، فقد أوفيت، وأطيبت، ثم غادر.

التفت القائد ﷺ لصحابته.. لأمته.. لقادة أمته.. يبشرهم بها للعدل وعدم هضم حقوق الناس عند الله، فقال: «**أولئك خيار عباد الله عند الله يوم القيامة، الموفون المطيبون**».

هند أم للمؤمنين

بدأت جراح المناضلة المجاهدة هند بنت أبي أمية (أم سلمة) تلتئم، فقد مرت أشهر على وفاة زوجها.. وضعت في أثنائها حملها، والأرملة أو المطلقة الحامل.. تنتهي عدتها بولادتها مباشرة؛ لأن العدة شرعت لحفظ هوية الجنين ومعرفة والده.

ولدت أم سلمة طفلة عذبة سمتها برّة، وإذا بدعوتها التي لقنها إياها النبي ترتسم حولها.. تطرق بابها، فها هو يزورها، ويزين بيتها بأحرف عذبة، بعد أن أخذ طفلتها بين يديه، فقبلها، وسأل عن اسمها؟ فأخبرته بأنها برّة، فغير اسمها، وسماها زينب.

ثم خطب أم سلمة التي لم تسعها الفرحة، لكن امرأة بإيمان أم سلمة أكبر من التفكير في نفسها فقط، فهي لن ترتبط برجل عادي لا تتحرج معه من هفوة هنا، أو زلة هناك.. خشيت أن يصدر منها شعور، أو تصرف يضيف همومًا لنبي وقائد حمل هموم دعوته وأمته خمسة عشر عامًا، بل إن همومه ومسؤولياته تتعاظم كل يوم.
اعتذرت أم سلمة لثلاثة أسباب، فقالت:

«أما أنا فلا ولد فيَّ، وأنا غيور ذات عيال!! فقال: **أنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأمّا العيال فإلى الله جلّ ثناؤه ورسوله**».

انزاح همها، فوافقت.. بقيت في بيتها، فجعل يأتيها واليتيمة قربها، فيقول: «**أين زناب**» يلاعبها يضاحكها، ثم ينصرف وسط ابتسامات أمها الصالحة، التي أفرحها لطف زوجها، فاطمأنت على أيتامها مادام هذا الزوج بهذا الذوق والرقي، والعاطفة الجياشة. لكن أخاها من الرضاع عمار بن ياسر.. علم بأن نبي الله لم تتح له ساعة للجلوس مع زوجته، فأقبل مسرعًا، وأخذ زينب إلى بيته.

ترى: إذا كان ﷺ بهذا الذوق، وإذا كان في عنفوان شبابه لَم يتزوج إلا امرأة في الأربعينيات، لتمر عشرينياته، وثلاثينياته، وأربعينياته وخديجة تغلق باب قلبه عليها.. حتى وهي تتجاوز الستين لم تجرؤ امرأة على طرق ذلك الباب، فما الحكمة من تعدد زوجاته.. هل هو المنصب؟ هل اتجه للرفاهية بعد أن حكم؟

هذا مستحيل، فهو أول زعيم لم يبنِ قصرًا، وأول زعيم لم يبنِ سجنًا، وهو الزعيم الأوحد الذي ربما مر الشهر والشهران.. لا طعام له سوى الماء والتمر واللبن.. إذًا فما سر تعدد زوجاته؟

تعدد زوجاته ﷺ دليل على نبوته

ظل سلوك النبي ﷺ بعدما أصبح رئيس دولة كما كان في مكة.. متسامحًا لا ينتقم لنفسه، بل لا يريد شيئًا لنفسه، حتى حلفت عائشة قائلة: «والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم لله».

حاول استصلاح اليهود والوثنيين والمسلمين جميعًا، لجعلهم مواطنين متناغمين لمصلحة الدولة، مع احتفاظ كلٍّ بخصوصيته.

سمح بالتعاون مع وثنيي قريش وتجارهم، بل وأقر أن يكون المسلم وكيلًا لتجارة أعدائه، وأن يكون الوثني وكيلًا لأعمال المسلمين من شعبه.

يزداد تواضعًا كلما كثر أتباعه: هل يعرف العالم حاكمًا قبله لم يبنِ قصرًا؟ هل يعرف العالم حاكمًا قبله لم يبنِ سجنًا؟ هل يعرف العالم حاكمًا بيته وهو حاكم أصغر من بيته عندما كان مواطنًا، فبيت محمد ﷺ بمكة أكبر من بيته بالمدينة.

بدا أعداؤه بالعداوة، فمنعوا شعبه من ممارسة حقهم في زيارة بيت ربهم.. أرغمه أعداؤه على الحرب، فعاملهم بتحضر.. لم ينقض لهم ميثاقًا، ولم يعذب أسيرًا، وعندما خانه مواطنوه اليهود حقن دماءهم وهو قادر عليهم، وتلطف بهم، وتناسى خياناتهم.. إنجازات ما كان ليحققها لو لم يكن نبيًّا. فالنبي ليس له ظاهر وباطن.. أعماقه هي سلوكه وأخلاقه، فإن كان ظاهره غير باطنه لم يكن نبيًّا. إذًا فما الذي بقي مجهولًا لم يعرفه العالم عنه؟

بقي شيء واحد هو: سلوكه في بيته.. حيث يضع ثيابه، ويبتعد عن المجاملات وضغوط المسؤوليات، ويظهر على حقيقته دون تكلف، ولذا لو كان له زوجة واحدة لقيل: إنها تحبه وتستر عيوبه، لكن عندما يكون له أكثر من زوجة.. تحتدم الغيرة، فتظهر العيوب، ومحمد لديه الآن أربع زوجات، فإن كان غير نبي، فستنتشر زلاته وتناقضاته وتصنعه، لكن الأيام تمر، ويظل ﷺ كما هو خارج بيته.

يرى العالم أن زوجاته اللواتي لم يحظين بقصور، أو أزياء أو حلي كن أسعد نساء الأرض؛ لأنهن فزن بقلبه.. بعذوبته ورقته وتعليمه. كان إجماعهن على حبه واحترامه وطاعته، على الرغم من الفقر، من أقوى الأدلة على نبوته. حب رفع مستوى اهتماماتهن حتى صرن مثله.. يتنافسن في العبادة والرأفة بفقراء الشعب.

ها هي عائشة تصف منافستها، فلا تتطرق للعطور والثياب، بل تقول: «إنها لم ترَ امرأة قط خيرًا من زينب أتقى لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة،

وأشـد ابتذالًا لنفسـها في العمل الذي تصدق به، وتقربًا إلى الله تعالى» كن يتنافسـن على البذل للناس ومواساتهم، لكن يا ترى من زينب هذه التي تنافس عائشة؟

زينـب: من هذه المرأة العظيمة؟

قصـة بـدأت حين اشـترى النبي وهو في مكة عبدًا اسـمه زيد بـن حارثة.. ملأ الطفل شـغاف قلبه ﷺ، فتبناه وسـماه زيد بن محمد، لكن أهله تحسسوا، وبحثوا عنه حتـى علمـوا أنه بمكة، فسـافر أخوه جبلة لاسـتعادته، ولما قابل النبـي رجاه قائلًا: «ابعـث معـي أخي زيدًا». لم يرفض ﷺ، لكنه أشـار إلى ابنه زيـد وهو بين وجعين.. فراقـه وحرمان أهلـه منه، فقال ﷺ: «**هو ذاك، فإن انطلق معك لم أمنعه**» مشـى جبلة نحـو أخيـه، فبشره، وطلب منه الاسـتعداد للرحيل، لكن زيـدًا لم يجبه.. نهض نحو حبيبـه وقـرة عينه الذي لم يضربه يومًـا أو يعنفه.. نظر لأكثر الناس تبسـمًا في وجهه، فقال: «لا، والله يا رسول الله، لا أختار عليك أحدًا أبدًا».

كـبر زيـد، فزوجه ﷺ من امرأة حبشـية تدعـى أم أيمن، فولدت له طفلًا سـماه أسـامة، أحبه النبي كحبه لأبيه، وبعد الهجرة تعاظم حبه، فاتجه ﷺ لعمته أميمة بنت عبدالمطلـب، فخطب ابنتها زينـب بنت جحش لزيد، فزفت إليه، ومرت سـنوات، وإذا بزيد وأسـامة يفجعان بشيء كالموت.. يفقدان شيئًا أغلى من أرواحهما.. حدث ذلـك حـين أنزل الله آيات تحرم التبني. قال ابن عمر: «ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيـد بن محمـد، حتى نـزل في القـرآن: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾» [الأحزاب: ٥].

أشرقت شـمس ذلك اليوم وهو ابن محمد، ولم تشرق ثانية إلا وهو ابن حارثة.. تجـرع زيـد مرارة الفقـد، ورضي بقدر الله، لكـن المرارة خفت حين أعلـن ﷺ أن زيدًا وأسامة يسكنان قلبه، بل جعلهما أميرين، وحلف يقصد زيدًا، فقال: «**وايم الله إن كان**

لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي»، ثم أشار لأسامة، فقال: «**وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده**».. حب أكده عمر، وهو يحدث ابنه عبدالله عن الفتى الأسود أسامة، فيقول: «إن أباه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وهو كان أحب إلى رسول الله منك». وتمضي الأيام، فيحدث في بيت زيد وزينب ما يحدث في البيوت.. ذبل الحب في قلب زينب، فتألم زيد، وأتى نبيه يشكو صد حبيبته، فصبَّره ﷺ، لكن الوحي نزل يأمر بحسم قضية التبني، ويأمر النبي بخطبة زينب، فحاول ﷺ التريث مراعاة لزيد وللناس، وقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾[الأحزاب: ٣٧]، لكن القرآن نزل يعاتب نبيه على تلك المجاملة.. فقرأها ﷺ، ولو لم يكن نبيًّا لأخفاها، ولما قرأها.

زوّجني ربي

عاتب الله نبيه ﷺ بآيات تقول: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾[الأحزاب: ٣٧]، كرر زيد شكواه من زوجته زينب، فلما رأى سكوت النبي طلقها، فلما انتهت عدتها ناداه ﷺ وطلب منه أن يخطبها له قائلًا: «**اذكرها علي**».

انطلق زيد ليخطب زينب لنبيه ﷺ، ولما وصل بيتها استأذن، فأذنت له، فسمعها تخمر عجينًا، فعظمت في صدره، فما استطاع النظر إليها على الرغم من أن الحجاب لم ينزل.. استدار، وأعطى الباب ظهره، ورجع للوراء حتى اقترب منها، ثم قال: «يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك؟»... لم تجبه، فالاقتران بمحمد غاية المنى، لكنها ستصبح شريكة لنبي الأمة وقائد الدولة، ليس بالثراء والوجاهة، ولكن بتحمل المسؤوليات؛ لذا قالت: «ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوامر ربي».

خرج زيد، فنهضت عن عجينها، وغسلت يديها، واتجهت لمساحة صغيرة في المنزل جعلت منها مسجدًا كعادة بعض الصحابة، ثم شرعت في صلاة واستخارت،

وإذ بالقرآن ينزل يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فأمست زينب بالوحي.. بهذه الآيات زوجة للنبي، وذكرت بقية الآية سبب ذلك، وهو: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: ٣٧].. بعدها توجه ﷺ لبيتها، فأخبرها وتلا عليها الآية، فلم تسع الدنيا فرحتها والقرآن يزوجها؛ لذا تقول لمن حولها من النساء: «زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات».

سمعت أم سليم بالخبر، فأسرعت لإدخال السرور على نبيها وعروسه، بإعداد طبق من الأقط والتمر والسمن يسمى حيس، وسكبته في إناء من حجر كبير محفور يسمى التور، ونادت ابنها أنس بن مالك، وأعطته الطبق، وبعثت معه ببطاقة شفهية، فانطلق أنس، فقال لنبيه: (إن أمي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منّا قليل يا رسول الله) رد ﷺ السلام، ثم قال: «ضعه» وضعه أنس، فلاح الشعب في ذهن القائد، فأمر أنسًا بأمر عجيب، فقال: «**اذهب فادعُ لي فلانًا وفلانًا وفلانًا ومن لقيت**».

انطلق الفتى نحو أصحاب الدعوات الخاصة، لكنه دعا أي شخص قابله في الشوارع والطرقات، ثم عاد ففوجئ بقرابة ثلاث مئة رجل مجتمعين حول البيت.. استأذن أنس، فدخل ليرى العروس جالسة ووجهها للجدار.

بداية نزول الحجاب

في يوم زفافها وفي بيتها الصغير المكون من غرفة وصفة.. جلست زينب بنت جحش ووجهها للجدار، وبجانبها زوجها ﷺ، الذي نادى الفتى، وقال له: «**يا أنس، هات التور**» حمل أنس طبق أمه الحجري المليء بالحيس، ووضعه أمام نبيه ﷺ، فوضع يده على الطعام، فدعا فيه، ومعه طبق آخر من الخبز واللحم، ثم نظر لضيوفه، فوجد غرفته لا تسعهم، فقام بتنظيمهم دفعات دفعات، وقال لهم: «**ليتحلّق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه**».

تحلق العشرة الأوائل حول الطبقين، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا يحمدون الله، ثم تلاهم عشرة آخرون... وهكذا، ولما شبعوا بهذه المعجزة قال ﷺ: «**يا أنس، ارفع**» فرفع أنس الطبق ممتلئًا حتى قال: «فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت». لكن آخر دفعة من الضيوف بقوا يتحدّثون في الحجرة، والنبي ﷺ قاعد وزوجته مولية وجهها للحائط.. طال بقاؤهم حتى ثقلوا عليه، واستحيا أن يصرفهم، فقام بحركة علهم يفهمونها.. جعل كأنه يتهيأ للقيام، لكنهم ظلوا في أماكنهم، فلما رأى أنهم لم يتزحزحوا تركهم وخرج، فقام سبعة وخرجوا، وبقي ثلاثة.

مشى ﷺ، ومشى معه أنس حتى بلغ حجرة عائشة، ثم ظنّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجع معه أنس، فإذا هم قعود في أماكنهم وزينب محرجة، فعاد هو وأنس يتتبع حجر نسائه، يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك. ثم رجع، فلما رأى الثلاثة رسول الله قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، فابتدروا الباب فخرجوا كلّهم، فدخل ﷺ البيت، ولما هم أنس بالدخول معه ألقى ﷺ الستر بينه وبينه، ثم نزل عليه الوحي، ولما سري عنه خرج على الناس، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].. في تلك الأيام كان من المنافقين رجال يتحرشون بالإماء في الطرقات، فأنزل الله آيات أخرى تأمر المسلمات الحرائر بالحجاب.

نزول الحجاب قراءة للمستقبل

قبل نزول الحجاب تمنى عمر على نبيه ألا ترى نساءَه عينٌ، وبعد نزوله كان له رأي أشد، فقد خرجت سودة بنت زمعة من بيتها لحاجة، وكانت فارعة جسيمة، فرآها عمر، فقال: «يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين»..

خجلت سودة، فانكفأت لبيتها، وشكت مقولة عمر.. أنصت ﷺ لقولها، ثم قال: **«إنه قد أذن لكنّ أن تخرجنَ لحاجتكنّ»** فالحجاب ليس حبسًا.

ذلك ما يتعلق بأمهات المؤمنين، أما بقية النساء، فقد كان بالمدينة منافقون يتحرشون بالإماء، فأمر الله النساء الحرائر بلبس قطعتين من القماش.. تمثلان الحجاب، وهما الخمار وهو غطاء الرأس، ويلبسه الرجال والنساء، بل كان ﷺ أحيانًا لا يزيح الخمار عن رأسه للوضوء، بل يمسح مقدمة الشعر، وهي الناصية وعلى الخمار. أما القطعة الثانية فهي الجلباب، ويختلف عن العباءة التي يلبسها الرجال، فالجلباب قطعة قماش كبيرة توضع فوق الخمار، وتغطي الجسد كله.

كل ذلك حدث بعد قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فسارعت الصحابيات لارتدائه دون إكراه.. طلبًا لرضا الرحمن.. فرض الحجاب قراءة لمستقبل المرأة، في هذا العالم الذي يزداد شراسة تجاه المرأة.. خاصة في دول تدعي التحضر، فالرجل المتحضر اليوم هو من يستعمل المرأة لترويج سلع لا علاقة لها بالمرأة، وهو من يعرض المرأة عارية على الواجهات كدمية، وهو من يؤجرها بالساعات، وكأنها جهاز منزلي، وهو من يقدمها لزبائنه، بل ويوصلها لعتبات أبوابهم كأنها وجبة طعام.. انحلال بلا حدود لم يطفئ سعار الرجل المتحضر، بل ازداد سعارًا وصل إلى حدوث جريمة اغتصاب كل دقيقتين، أو ثلاث عندهم.

نزل الحجاب لكي يحترم الرجل المرأة لذاتها، لا لجسدها، فاستجابت الصحابيات، وشعر الحاخامات والقساوسة بالإحباط، وهم يرون النساء اليهوديات والنصرانيات يرفضنه، وينفرن منه، مع أن كتابهن المقدس يقرر عقوبة قاسية على المرأة اليهودية والنصرانية التي لا تتحجب، وهي أن يحلق شعر رأسها، فما الفرق بين القرآن والكتاب المقدس في خطابهما للمرأة؟

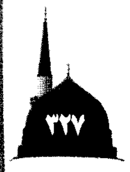
لماذا استجابت المسلمات للحجاب ورفضته النصرانيات؟

قبل أن يبعث النبي ﷺ كانت الحضارات تمتهن المرأة، فالثقافة اليونانية وفلاسفتها يتساءلون: هل للمرأة روح وعقل؟ والثقافة الهندوسية الهندية تحكم على المرأة بالحرق وهي حية.. بعد موت زوجها مباشرة؛ لأنها لا تستحق العيش، والثقافة الفرعونية تلقي بها في النهر فديةً، والجاهلية العربية تدفنها وهي رضيعة، أما الديانتان اليهودية والنصرانية فقستا على المرأة قسوة نفرتها من الدين وتعاليمه إلى غير رجعة؛ لذا رفضت اليهوديات والنصرانيات الحجاب، على الرغم من أن كتابهن المقدس يقرر عقوبة قاسية على الأنثى والأنوثة، فيأمر بحلق شعر رأسها إن لم تتحجب، وليته اكتفى بحلق شعر المرأة.. إنه يأمرها باقتلاع عينها إذا نظرت لرجل بإعجاب، ويحكم بقطع يدها إن كانت تدافع عن نفسها أو زوجها، فلمست عورة رجل أجنبي، بل يأمر بإعدامها إن اغتصبت، فلم تصرخ، حتى لو أغمي عليها.

الكتاب المقدس يجعل المرأة اليهودية والنصرانية مصدرًا للنجاسات إن حاضت، لدرجة أن من لمسها، أو لمس شيئًا لمسته، أو جلس على شيء جلست عليه، فعليه أن يستحم، ويغسل ثيابه.

ترى من المرأة التي تطبق هذه التعليمات؟، وما الحالة النفسية التي تصاب بها، وهي تتمزق بين زوج تحبه، وأطفال لا تستطيع تقبيلهم والعناية بهم، ولا حتى لمس أثاثها وأدواتها المنزلية خشية أن تنجسها..؟ ما حال الزوج وهو لا يستطيع حمل وتقبيل طفله الرضيع؛ لأن أمه أرضعته من ثديها النجس؟ أي زوجة تطيق ذلك؟

تركض النصرانية واليهودية ملهوفة بين سطور الكتاب المقدس.. علها تعثر على قدوة من النساء تنتشلها مما هي فيه، فلا تجد سوى الضياع والتناقض مرة أخرى، حين يصور لها هذا الكتاب بنات الأنبياء كمجموعة من الفاجرات.. عندها تقول لنفسها: إن كان هذا ما تفعله بنات الأنبياء، فمن أنا لأكون أحسن منهن؟ هنا



لم يبقَ مع تلك التعليمات القاسية من الدين سوى اسمه، ولا من الكتاب المقدس سوى رسمه، ويكفي دليلًا على ذلك.. التناقض الهائل في نظرتهم لمريم، فاليهود يرونها زانية ولا بد من رجمها، والنصارى يتطرفون حتى يرونها أما لربهم، أما القرآن فيقول عنها: ﴿يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

زينب المطلقة تزلزل القساوسة

حيّر الكتاب المقدس المرأة.. شلّ تفكيرها، وهو يبيح للرجل أن يتزوج بالمئات من النساء، ثم يتناقض، فيجعل الزواج أمرًا مكروهًا، ولو بواحدة، أما الكارثة فهي حين قام هذا الكتاب بتحريم الطلاق على النصارى، فجعل الزواج سجنًا، والضحية هنا ليس الرجل كما يبدو، بل المرأة؛ لأنه يحكم على المطلقة بأنها زانية، وأن من يتزوج بمطلقة فهو زانٍ، وهي زانية.

ما ذنبها إن كان زوجها ظالمًا لا يطاق؟ كيف يعقل أنها إن بقيت دون زواج تُعدّ زانية، وإن تعففت بالزواج تُعدّ زانية؟ أليست هذه الحيرة تجعل الحرام كالحلال؟ إذًا فما المانع من ارتكاب الرذيلة مادام الحكم واحدًا. هنا يمكن إدراك سر انتشار الانحلال.. يمكن إدراك لِمَ المرأة عندهم تبتعد كل يوم عن دينها، وأنه مهما بلغ إيمانها به، فلن تستطيع الالتزام به، لتأتي المدنية فتؤجج هذا الانحلال.

بُعث محمد ﷺ، فقدم خديجة المطلقة على أنها أفضل نساء الأمة، وزاد تكريم الإسلام لها، حين جعل المطلقة زينب المرأة الوحيدة التي زوجها الله، وزوجها من سيد البشر.. في النصرانية الزواج بالمطلقة رجس، وفي الإسلام تقول المطلقة: زوجني ربي.

لم يكتفِ القساوسة بقتل المرأة.. اتجهوا لبنات الأنبياء، فقذفوهن بالزنا، ثم تطاولوا على الأنبياء كالنبي داود، الذي وصفه القرآن بالأواب، ووصفته السنة

بالصوام، فقال ﷺ: «**أفضل الصيام صيام داود، يصوم يومًا، ويفطر يومًا**».. يشوه الكتاب المقدس هذا النبي العظيم داود، فيقول: إنه نظر في بيت جاره وقائد جيشه (أوريا الحثي)، فشاهد زوجته فأعجبته، فطلب من الجند إحضارها، ثم اعتدى عليها مرارًا حتى حملت، ولما أحس بشناعة عمله، أمر بقتل زوجها، وأبقاها في قصره، فولدت ابنه سليمان.

عندما تقرأ المرأة النصرانية هذا الكذب تتساوى أمامها الفضيلة بالرذيلة، والمقدس بالمدنس، وترفض الالتزام بدين مزور، فتكتفي بتعليق الصليب، ثم تمارس ما شاءت، فقد ضيّع القساوسة الحقيقة بتزويرهم، وشوهوا القدوة، وقذفوا المرأة في جحيم التناقض، ويكفي دليلًا على ذلك هذا التناقض الهائل في نظرتهم لعيسى، فاليهود يرون أنه ابن زنا، والنصارى يتطرفون فيجعلونه إلهًا، فينزل القرآن ليقول للطرفين المتطرفين: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران: ٥٩].

القرآن حرر المرأة

استجابت الصحابيات للحجاب، فلم يمنعهن من ممارسة حياتهن، بل والمطالبة بحقوقهن.. ها هي مجموعة من النساء تتجه لبيت قائد الدولة ﷺ، فيستأذنّ ويدخلن عليه، وتبدأ المطالبات بالحقوق، فيتلطف معهن حتى تجرأن، فعلت أصواتهن على صوته، وتحمس بعضهن حتى ارتخى حجابها، فسمعهن المارّة، ومر عمر فسمعهن فغضب، وطلب الإذن بالدخول، فأذن له، وما إن دخل خيم الصمت، وتحولت النساء إلى حركات بلا أصوات. ذهلن عن مطالبهن، وأخذ بعضهن بتعديل حجابها الذي اختل في أثناء الحوار.. كان عمر غاضبًا من جرأتهن على نبيه ﷺ، لكن شيئًا أذهله.. شاهد ثغر نبيه يفتر عن ابتسامة، وهو يضحك من حركات النساء. تعلق الفاروق بتلك الضحكة، فقال: «أضحك الله سنك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي. فقال ﷺ: **عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب**.

فقال عمر: أنت أحق أن يهبن يا رسول الله». ثم التفت زاجرًا النساء، وقال: «يا عدوات أنفسهن، أتهبنني ولم تهبن رسول الله؟» فإذ بإجابتهن تتغنى بلطف النبي وحدب القائد ولينه، فقلن لعمر: «إنك أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ».

سكت عمر، فهو أورع من أن يقبل مقارنة نبيه به، لكن رسول الله لم يتركه لهجوم النساء، فقال: «**إيه يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا، إلا سلك فجًّا غير فجك**».. تكلمت النساء؛ لأن الإسلام حررهن من الخوف، بعد أن أذلتهن الحضارات والوثنيات السابقة، والكتب الدينية المزورة.

ذات ليلة، وبينما كانت المدينة تغط في نومها.. كانت إحدى النساء قلقة تتململ.. تتأمل زوجها، فإذا هو رأس في قومه مقرب من نبيه، لكنها تبحث عنه داخل قلبها، فلا تراه. نهضت هذه المرأة الصالحة جميلة بنت سلول قبيل الفجر، لتزيح عن قلبها بقايا ليل ثقيل وهم أثقل، ولبست حجابها، وفتحت الباب.. تاركة البيت وصاحبه، وتسللت وكأنها تطارد الظلام خلال الطرقات، ثم توقفت أمام باب قائد الدولة ﷺ فلم تطرقه. تلفعت بهمومها، وقعدت عنده تنتظر خروجه. أذن بلال، فصلى ﷺ ركعتي الفجر، ثم خرج من بيته، ففوجئ بالمرأة عند بابه، فقال: «**من هذه؟**».

عندما تسافر القلوب عن المحبين

انساب نور الفجر في الأفق، وانساب معه صوت بلال لصلاة الصبح، ففتحت زوجة الأنصاري العظيم ثابت بن شماس.. أحد الخطباء والوجهاء.

فتحت باب بيتها، وخرجت.. تهادت خلال الطرقات الملونة بالظلام، حتى حاذت بيت نبيها. لم تدخل المسجد كعادة النساء، بل توقفت عند بابه ﷺ، فقعدت عنده تنتظر خروجه..

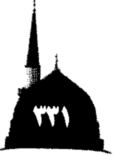
مـر وقت فخرج القائـد ﷺ، ففوجئ بالمرأة، فقال: «**من هذه؟**» فعرفته بنفسـها فقال لها: «**ما شـأنك؟**» قالت: «لا أنا، ولا ثابت بن قيس». فلما استفسر عن سبب طلبها الانفصال عن زوجها.. كشفت عن قلبها، فإذا ثابت لا أثر له فيه ولا مكان، فقالـت: «يـا رسـول الله، إني لا أعتـب عـلى ثابت في ديـن ولا خلـق، إلا أني أخاف الكفر»، وهي لا تقصد الكفر بالله، ولكن الكفر بالعشير والزوج، ثم بينت السبب، فقالت: «لا أطيقه بغضًا».

هنا أقفلت المرأة كل الأبواب.. إنها لم تخرج إثر ملاسنة عارضة، أو سوء معاملة أو نميمـة، أو ضغـط من أهـل، أو خلاف حـول النفقة والحقـوق والواجبات.. إنه البغـض، وليس بعـد البغض شيء.. انتظـر ﷺ حتى جاء ثابت، فسـأله عن مهرها، فأخبره بأنه قد قدم لها حديقة، فسألها النبي القاضي ﷺ فقال: «**فتردين عليه حديقته؟** قالـت: نعـم». فلـم يرغمهـا ﷺ على العيـش معه، بـل أمر ثابتًـا أن يأخـذ حديقته، ويطلقها، فاسـترد حديقته، وطلقها، وبذلك انتزعت هذه المرأة بالتشريع الإسلامي حقها، وحق غيرها من النسـاء في الخلع، فالزواج ليس سـجنًا ولا إكراهًا.. إنه حب ومشـاركة.. ألفة وود وتنازل وتكامل وتضحيات، فإن لم يكن الأمر كذلك فأبواب الرحمة مشرعة إلى يوم القيامة.

رحمـة اعـترف بها أحد القساوسـة حين ذكر أنه يسـلم سـنويًّا في بلاده خمسـون ألفًـا من النصارى.. الكثير منهم أسـلم لأن الكتاب المقدس المسـيحي يحرمهم حق الطلاق، فلجؤوا لاعتناق الإسلام ليستردوا هذا الحق.

رضي ثابت بن قيس بالفراق المر، فالزوجة ليسـت أمًّا أو بنتًا أو أختًا يسـتحيل الانفصال عنها.. الزوجة شريكة، والشراكة عقد قائم على الرضا والتوافق، وتنازل الطرفين. رضي ثابت بن قيس، لكن رجلًا آخر لم يرضَ.

تركتـه زوجتـه، فظل يبكي حرقة على حبيبته في الطرقات.. تسـيل دموعه وهو يسير خلفها، فيراه القائد ﷺ فيرق لعشقه، ويتجه لمحبوبته علها تحن عليه.



ألا ترأفين بهذا العاشق؟

هـو عبد وهي حرة.. هو سـلمها قلبه، أما هي فأخرجته مـن قلبها.. جمع بينهما الـرق ذات يوم، فتزوجته، ولما عتقت جعل الإسـلام مصير زواجها بيدها، فطلقته، فانفطر قلب (مغيث)، ورجاها البقاء، لكن (بريرة) رفضت.

احترقـت أضلاعـه، وألهبت الدمـوع محاجره.. تذكـره جدران البيـت وأبوابه بطيفهـا الحبيب.. تنطلق يومًا لبعض شـأنها خـارج بيتها، فيراهـا في الطريق، فيطير قلبـه، ويمـشي خلفهـا.. يكلمها فلا تـرد، وتسـيل دموعه على خديـه، فلا تكترث، ويظل هذا العاشـق في طرقـات طيبة.. يبكي حتى رآه النبي القائد ﷺ، فيشـفق على هـذا القلب الذي عنـا صاحبه، فالتفت إلى صحابي معه، فقال: «**ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثًا؟!**».

لم يكتفِ ﷺ بالتعجب فهو نبي الرحمة.. نهض قائد الدولة من أجل هذا المواطن العبد، فقصد محبوبته عل قلبها يلين.. مشى نحوها، ولما قابلها قال لها: «**لو راجعته، فإنـه أبو ولدك**» نظرت له كوالد محـب، وقائد حانٍ، لكنها وجلة.. خائفةً أن يرغمها على العودة له، فسألته: «يا رسول الله، أتأمرني؟ فقال ﷺ: **إنما أنا أشفع**».

تنفسـت بريرة، وهدأت ضربات قلبها، فقالت: «إن كنت شـافعًا، لا حاجة لي فيه». فانطوى المسكين على لوعة الفراق ومرارة الرق، فليس له سوى الرضا بما قدر الله، أما النبي القائد ﷺ فلم يغضب من موقفها، فالقلوب ليست بالأيدي.

لم يكن هذا المسكين وحده في قلب النبي.. مساكين شعبه كلهم في قلبه.. يحبهم.. يريدهـم دائـمًا حوله، فيقول: «**اللهم، أحيني مسـكينًا، وأمتني مسـكينًا، واحشرني في زمـرة المسـاكين يوم القيامة**». فقالت عائشـة: «لِمَ يا رسـول الله؟ قـال: **إنهم يدخلون الجنـة قبل أغنيائهـم بأربعين خريفًا**»، ثم يوصي حبيبته بمسـاكين شـعبه، فيقول: «**يا عائشـة، لا تردي المسـكين ولو بشق تمرة**». «**يا عائشـة، أحبي المساكين، وقربيهم، فإن الله يقربك يوم القيامة**»؛ لذا كانت الصديقة سخية.. لا تبقي شيئًا من المال متى رأت

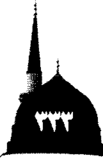
فقيرًا. مسكين آخر غير معروف القبيلة.. قصير القامة، ليس في وجهه مسحة جمال.. حدب القائد ﷺ على فاقته، فعرض عليه أن يتزوج، فتأمل الفتى فقره ودمامته، فلم يجد ما يغري النساء، فقال: إذا تجدني كاسدًا، فقال ﷺ: «**غير أنك عند الله لست بكاسد**». بعد هذه الكلمات سعى القائد بنفسه لتزويجه، وكأنه ابنه، وكأنه قطعة من قلبه، فمن الفتاة التي ستقبل بهذه المواصفات؟

القائد والعناية بالشباب الفقراء

يمشي قائد الدولة نيابة عن أحد الشبان الفقراء المعدمين من شعبه.. يمشي ﷺ خطوات نحو أحد الأنصار، فلهذا الأنصاري بنت ارتوت بحب نبيها، ولما قابله تحدث بلسان الفتى الفقير كأنه من لحمه ودمه، بل كأنه هو، فقال: «**زَوِّجْنِي ابْنَتَكَ**» استبشر الرجل، واستنار وجهه ونبي الأمة وقائدها يخطب ابنته، فقال: «نِعم وَكَرَامَةٌ يَا رَسُولَ اللهِ، وَنُعْمَ عَيْنِي، فإذ بطلب رسول الله يصدمه حين قَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ أُرِيدُهَا لِنَفْسِي**» فَقَالَ والد الفتاة وقد خفتت فرحته: «فَلِمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: لِجُلَيْبِيبٍ»، هنا شعر الرجل بعدم التكافؤ.. شعر بشيء قد يثير إشكاليات في منزله، فقال: «يَا رَسُولَ الله، أُشَاوِرُ أُمَّهَا؟»».

سكت النبي ﷺ فالزواج عقد، وأهم ما في العقد الرضا.. انطلق الرجل لبيته، ولما دخل نادى الأم، فانتحى بها عن البنت، التي رابها أمر هذا الانزواء، فقال لها: «رَسُولُ الله يَخْطُبُ ابْنَتَكِ.. ففرحت وقالت: «نِعِمَّ وَنُعْمَةُ عَيْنِي. فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يَخْطُبُهَا لِنَفْسِهِ، إِنَّمَا يَخْطُبُهَا لِجُلَيْبِيبٍ». ثارت ثائرة المرأة.. رافضة هذا الجليبيب الذي لا مال له ولا جمال وصاحت: «أَجُلَيْبِيبٌ إنية؟، لا لَعَمْرُ الله لا نُزَوِّجُهُ».

انتبهت الفتاة على صوت أمها، فاقتربت، فإذا الحوار عنها، فاقتحمت مجلسهما قبل أن ينهض والدها لنبيه.. دخلت وتصدت للأمر الذي يقضى دون مشورتها، مع أن القضية قضيتها، فقالت: «مَنْ خَطَبَنِي إِلَيْكُمْ؟» فَأَخْبَرَتْهَا أُمُّهَا، فتحولت الفتاة إلى



معلمة لوالديها، وقالت ثقة بنبيها وبنفسها، وقبل ذلك بربها: «أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللهِ أَمْرَهُ، ادْفَعُونِي، فَإِنَّهُ لَن يُضَيِّعْنِي».

شُلت الكلمات أمام يقين الفتاة وإيمانها، فنهض والدها، وانْطَلَقَ لرَسُولِ الله، فَأَخْبَرَهُ، وقال له: «شَأْنَكَ بِهَا فَزَوِّجْهَا».

زفت الفتاة للفتى الفقير، وما هي إلا أيام، وإذ بهجوم وثني على دولة الإسلام، فكان جليبيب من أول المبادرين للدفاع عن دينه ووطنه، فتحمست حبيبته، فخرجت تسابقه لأبواب الجنة.. انطلقا مع الجيش خلف نبيهما ﷺ، فدارت رحى المعركة، وبدأ جليبيب يجتث المعتدين واحدًا واحدًا وكأنه حمزة، حتى انتصر جيش الإسلام، وفر العدو، وهدأت الساحة، فأمر ﷺ بتفقد الغائبين، وقَالَ: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَفْقِدُ فُلانًا، وَنَفْقِدُ فُلانًا»، فعدوا الشهداء ولم يعدوا الفتى.. سألهم ثانية؟ فلم يعدوه.. سكتوا، فتلفت قلب النبي القائد ﷺ يبحث عن حبيبه جليبيب.

حين تكون سواعدك سريري

أخذ جليبيب سيفه، وخرج عروسه خلف نبيهما ﷺ.. دفاعًا عن الدين والوطن. دارت رحى معركة سقط فيها قتلى، وارتفع فيها شهداء، حتى انتصر الجيش الإسلامي، وفر العدو، وبدأ المكان يهدأ شيئًا فشيئًا، وبدأت لملمة الشتات ومداواة الجراح، وتفقد الشهداء المسافرين، فقَالَ القائد ﷺ لجنده: «هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» «قَالُوا: نَفْقِدُ فُلانًا، وَنَفْقِدُ فُلانًا»، فعدوا أناسًا من وجهاء القوم، فتلفتت عيناه ﷺ، وتلفت قلبه بحثًا عن حبيبه، فلم يجده، فأكد عليهم: «انْظُرُوا هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ؟» «قَالُوا: لا. سكت الجميع، فنطق الذي لا ينطق عن الهوى، وقال: «لَكِنِّي أَفْقد جُلَيْبِيبًا»، ثم أصدر أمره بالبحث عنه، فقال: «اطْلُبُوهُ فِي الْقَتْلَى».. تداول الجيش اسمه، حتى وصل الخبر لعروسه، فذهلت، وارتجف قلبها، وأقبلت خوفًا أن يكون الحبيب الذي انتقاه نبيها قد رحل.. أقبلت تبحث بين الجثث.. تتأملها.. تتصفح

وجوهها، حتى اقتربت من مكان مثير.. تناثرت فيه ثماني جثث، وكأنها في معركة أخرى!

دنت، وانحنت، فسالت دموعها: هنا سيف حبيبها.. هنا جسده الطاهر، فتهدج صوتها وهي تخبرهم عنه، فانطلقوا يخبرون قائدهم، فقَالُوا: «يا رَسول الله، هَا هو ذَا إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ». حزن القائد ﷺ، ثم تهادى بنفسه نحوه، ولما قام على جسده بكاه بكلماته، فقال: «**قَتَلَ سَبْعَةً وَقَتَلُوهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، هذا مني وأنا منه**»، ثم انحنى كالقلب عليه، وحمله عَلَى سَاعِدَيْهِ، وظل قائمًا يحمله، بينما هوت المعاول تحفر قبره، وجليبيب بين ذراعيه مَا لَهُ سَرِيرٌ إِلا سَاعِدَا رَسُولِ الله.. أمر لم يفعله ﷺ حتى بحمزة، ولما انتهوا من الحفر نزل في قبره، ووَضَعَهُ بنفسه، ثم دفنه وخرج، ثم التفتت الكلمات لتلك العروس المفجوعة.. تلك التي قدمت حب الله ورسوله على حب والديها، ورأي نبيها ﷺ على رأيهما، فإذ الدعاء يهمي عليها كالمطر: «**اللَّهُمَّ، صُبَّ عَلَيْهَا الْخَيْرَ صَبًّا، وَلا تَجْعَلْ عَيْشَهَا كَدًّا كَدًّا**». عادت العروس أرملة في أيام عرسها.. تبكي حبيبها وحبيب نبيها.. مرت الأيام، ومرت عدتها، ففوجئت بتزاحم الشباب والرجال على بابها يخطبونها.. يخطبون ثقتها بربها، وحبها لنبيها، ورجاحة عقلها، فكانت أكثر فتيات الأنصار خطابًا، حتى قال أنس: «فَمَا كَانَ فِي الأَنْصَارِ أَيِّمٌ أَنْفَقَ مِنْهَا».

مراحل الخيانة اليهودية في المدينة

شيد النبي ﷺ دولة للجميع.. للوثنيين.. لليهود، وللمسلمين.. يريد استصلاحهم جميعًا.. نسيجًا واحدًا يتشاطرون الحياة، ولكل دينه، لكن لليهود حقد لا تطيقه الأجساد، تفاقم على مراحل.. المرحلة الأولى: ما قبل الدولة الإسلامية، أي سبب قدومهم من الشام للمدينة.. كان الهدف هو الدم، والدم فقط، فقد كانوا أهل كتاب، والأوس والخزرج أهل أوثان، فكانوا إذا كان بينهم خلاف هددوا الوثنيين قائلين: «إن نبيًّا مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم».

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد الدولة الإسلامية، حين تبين لليهود أن محمدًا نبي حقًّا، لكنه عربي، وهو أمر يرفضونه، فكتابهم المقدس يقوم على التمييز.. بدءًا بالعقيدة، فالرب في الكتاب المقدس رب لليهود فقط، والدين لليهود، والأنبياء من اليهود؛ لذا رفضوا محمدًا ﷺ لأنه عربي.

المرحلة الثالثة: بدأت بعد انتصار بدر، الذي أجج حقدهم، فبدأ الحاخام كعب بن الأشرف بتكوين حلف مع جميع الوثنيين، للانقضاض على دولة الإسلام، ولو نجح حلف ابن الأشرف لسالت شوارع المدينة بدماء الرضع قبل الكبار، فكتابهم المقدس يقول: «اعْبُرُوا الْمَدِينَة، وَاضْرِبُوا، لاَ تُشْفِقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَتَعْفُوا، اقْتُلُوا اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ والْعَذْرَاء وَالطِّفْل وَالنِّسَاءَ، اَمْلَؤُوا الدُّورَ قَتْلَى» فاكتشف القائد ﷺ مؤامرته، فحقن دماء اليهود والوثنيين والمسلمين بالتخلص من كعب فقط، دون المساس ببقية اليهود.. إجراء يدل على تحمله ﷺ المسؤولية تجاه رسالته ودولته، ووطنه وشعبه، ثم احتاط فجمع قبائل يهود للتوقيع على وثيقة وطنية.. بينهم وبين المسلمين وبقايا الوثنيين، فوقعوا وهدأت الأوضاع، لكن خيانتهم استيقظت إثر غزوات وغدرات الوثنيين المتتالية على المدينة، وهيجتها رسالة تهديد وصلت من قريش تقول: «إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلُنَّ صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء».. هنا جاءت المرحلة الرابعة: فتسلح يهود قينقاع، وجيشوا جيشًا لغزو المدينة، فوصل الخبر للقائد ﷺ، فحرك جنده نحوهم، فعادوا لحصونهم يرتجفون، ولم يسعفهم يهود قريظة والنضير.. حاصرهم جيش الإسلام، فارتعبوا، ودخلوا في مفاوضات استسلام.. معترفين بارتكابهم للخيانة العظمى، وفجأة تحرك رجال من جيش المسلمين ليدافعوا عن اليهود.

قينقاع يعترفون بالخيانة

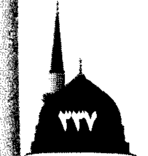
نقض يهود بني قينقاع الوثيقة الوطنية التي وقعوها مع المسلمين، بحشدهم جيشًا للقضاء على الدولة الإسلامية، وقتل قائدها ونبيها، لكن القائد ﷺ كان يقرأ

تفكـير الخيانـة جيدًا.. حرك جيشـه لصدهم، فلجـؤوا لحصونهم المنيعـة، وانتظروا النجدة من يهود قريظة والنضير، لكن الرعب شل القبيلتين.

يئسـت قينقاع مـن إخوتها الذين تخلوا عنها، فعزمت على الاستسـلام مدركين أن المـوت عقوبة الخيانة العظمى، وفجأة يخرج من صفوف المؤمنين رجلان حليفان لقينقاع.. رجلان من الخزرج: أحدهما رأس النفاق عبدالله بن سلول، والآخر عبادة بن الصامت. سارا نحو القائد ﷺ فتكلم ابن سلول، وألح على النبي أن يعفو عنهم؛ لأنهـم حلفاؤه، وهو يخشـى أن تصيبه دائـرة، فهو لا يثق بالله ولا برسـوله، وولاؤه ليهود لا لدولته وشعبه، ولما فرغ من كلامه نطق ابن عمه عبادة بن الصامت، فدوى بها لله ورسـوله، وقال: «أَتولَّى اللهَ وَرَسُـولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَبْرَأُ إِلَى اللهِ مِنْ حِلْفِ هَؤُلاءِ الْكُفَّـارِ وَوِلايَتِهِـمْ» مال النبي ﷺ للتسـامح، فعفـا عنهم، وتركهم يعيشـون ضمن دولته.. محتفظين حتى بأسلحتهم، على الرغم من خطورة التسامح مع هؤلاء، وعلى الرغـم من أن وجود معارضة مسـلحة داخل الدولة الإسـلامية خطير جدًّا، وينزل القـرآن فاضحًا ومحـذرًا من خيانة ابـن سـلول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

وتمـر الأيـام، وتسـتيقظ الخيانة مجددًا في حصـون قريظة والنضـير، الذين ظنوا لكثرة تسامح هذا النبي أنه يمكن استغفاله وإسقاط دولته، فأعدوا جيشيهما لمهاجمة المدينـة، ولكن بعد خطة خبيثة.. يتم فيها اغتيال رأس الدولة الإسـلامية، فيتشـتت أصحابه، ويسهل القضاء عليهم، لكن ما هذه الخطة؟

اجتمع حاخامات النضير، فقرروا اسـتدراج النبي لحـوار ديني، مع وعده بأنه إن أقنعهم سيسـلمون كلهم. قبـل النبي ﷺ ذلك العرض، أمـا الحاخامات اليهود، فتأهبوا للحوار، ولكن بعد أن خبؤوا الخناجر داخل ثيابهم.



حوار بنكهة يهودية

قـرر يهود قريظة والنضير غـزو المدينة، ولكن بعد إثـارة الفوضى بين المؤمنين؛ لذا طلب حاخامات النضير محاورة النبي قبل بدء الزحف.. حوار يتلخص برسـالة بعثوهـا للنبي ﷺ يقولون فيها: «اخرج إلينا في ثلاثين رجلًا من أصحابك، ولنخرج في ثلاثـين حبرًا حتـى نلتقي في مكان كذا، نصفٌ بيننا وبينكم، فيسـمعوا منك، فإن صدقـوك، وآمنـوا بك آمنا كلنـا؟»، فرحب ﷺ بالحوار، فانتقـى ثلاثين من أصحابه بحسب طلب اليهود، وإلا فلا حاجة لأحد مع نبي الله الذي لا ينطق عن الهوى، ثم ركب، وركبوا تتمايل بهم رواحلهم نحو المكان المحدد.

كان الحاخامات على أحرّ من الجمر، لكن لما رأوا الصحابة يصعدون مكانًا مرتفعًا مع قائدهم، ورأوا طريقة إجلالهم له، وخوفهم عليه، واسـتعدادهم للموت بين يديه، قـال بعضهـم: «كيف تخلصون إليـه ومعه ثلاثون رجـلًا من أصحابـه، كلهم يحب أن يموت قبله»، فتشاوروا، ثم أرسلوا رجلًا، وحملوه رسالة تتضمن تعديلًا للقاء.

انطلق اليهودي نحو ذلك المكان المرتفع، الذي يقف عليه القائد وأصحابه، ولما وصل قال للنبي ﷺ: «كيف تفهم، ونفهم، ونحن سـتون رجلًا؟ اخرج في ثلاثة من أصحابـك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسـمعوا منك، فـإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك».

وافق ﷺ فعاد اليهودي لحاخاماته يخبرهم بموافقته، فتهللت وجوههم، ودبت بينهـم حركـة مخيفـة: انتقـوا ثلاثة مـن الحاخامات الأقويـاء، ثم أعطوهـم خناجر، فأخذوها، وأخفوها بين أعطاف ثيابهم، ثم خرجوا يمشـون نحو النبي ﷺ.. هذا ما يحدث خارج حصن نضير، أما داخل الحصن وقبل سـاعات، فتقف يهودية مع فتى تثق به، وتسر إليه بأمر خطير، وتأمره بالانطلاق فورًا.

خـرج الفتـى من بـاب الحصـن، وانطلـق ينهـب الأرض حتى دخـل المدينة، فقصد ابن أخ المرأة وسـلمه الرسالة. صعق الفتى، وفز كالملدوغ من مكانه، وركب

نحـو حصـن النضير.. في تلـك الأثناء كان الحاخامات يمشـون نحـو نقطة الحوار، وكان ﷺ يمـشي نحوهـم، وفجـأة هبـط ابن أخ المرأة عـلى المكان، فاتجـه للنبي وهو يمـشي، فاعـترض طريقـه، وكلمـه، وعـلى الفور اسـتدار ﷺ وعـاد للمدينـة، فرآه الحاخامات، فأطلقوا أرجلهم يركضون للحصون.. يرتجفون، وينتظرون.

يهودية تحذر المسلمين

هـي يهودية مـن بني النضير.. أسـلم ابـن أخيها، فسـكن المدينة، ولما وصلها نبـأ خيانة قومها خشـيت عليـه شريعة اليهـود والنصارى، التـي لا تفرق في الحرب بـين الرضيع والعجوز، والمسـلح والمسـالم، فكتابهم المقدس يقـول لهم في الحروب: «اضْرِبُـوا لاَ تُشْـفِقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَتَعْفُوا، اقْتُلُوا اَلشَّـيْخَ وَالشَّـابَّ، والْعَـذْرَاء وَالطِّفْل وَالنِّسَـاءَ، اَمْلـؤُوا الدُّورَ قَتْلَى» نادت المرأة شـابًّا تثق بـه، وطلبت منه الانطلاق لابن أخيهـا علـه ينجـو، لكن ابن أخيهـا تذوق حب الله ورسـوله، فـرآه أعظم من حب النفـس والوالـد والولد.. فز وركب يسـابق الريـح، ليحذر أحب النـاس إليه، ولما وصـل مكان الحـوار زاد في سرعته وهو يرى نبيه يقترب مـن حافة الموت والغدر.. تمكن من اعتراض طريقه، فأخبره بالخيانة.

أنصـت القائـد ﷺ، ومبـاشرة عـاد للمدينة، فـأدرك الحاخامات أنهم كُشـفوا، فانسـلوا لحصنهـم كالحيـات، ثـم أوصـدوا بواباته، وتترسـوا بجدرانـه، وصعدوا يرقبـون من الشرفـات، وفي مقدمتهم الحاخـام المجرم حيي بن أخطـب أبوصفية.. تأملـوا المـكان حـول حصنهـم، فإذا السـاحة موحشـة قد خلـت.. أمسـت للريح والخـوف والمجهـول، وأمسـى اليهود عـلى شرفات القلـق حتى غابت الشـمس.. تسـحب خلفها طعم الأمن، وأقبل الليل كوحش مخيف.. لم تعد السـماء جميلة تلك الليلة ولا شاعرية، وكأن النجوم عيون تحدق بيهود.

أوقـدوا المشـاعل لليل طويـل لا مكان فيه للنوم، ثم أشرقت الشـمس لا تبشر بخـير، فالسـاحة خـارج الحصن صامتـة مخيفـة، وفجأة دبـت فيها حيـاة كالموت.. هبط الفرسـان شيئًا فشيئًا.. أقبل جيش الإسـلام يزعزع معنويات الخونة، وتنتفض لـه ركبهم.. توقف القائد ﷺ وجيشـه أمام الحصـن، فتأمله المؤمنـون فرأوا صعوبة اقتحامه، وظن اليهود أنه سيحميهم ريثما يأتي مدد شركاء الغدر قريظة.

مـر الوقت ولم يأتِ مدد، فصاحوا يطلبون التفـاوض، فعرض النبي القائد ﷺ عليهـم أمـرًا غايـة في العدل والتسـامح.. أمـرًا لا يرفضه إلا مجرم، فقـال: «**إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه؟**» قاله على الرغم من أنهم قد سـبق أن وقعوا عـلى وثيقة، فغدروا.. منحهم فرصة أخـرى، لكنهم رفضوا واثقين بحصنهم، وهـم سـفاحون عندما يثقون بقوتهم. بدؤوا يطلقون الأسـهم، والمسـلمون يردون طوال النهـار، حتـى أقبل المسـاء فهدأ كل شيء، وخيـم ليل طويل، ولما أشرقت الشـمس تنفـس يهـود، فقـد حـدث شيء غريـب.. حدقـوا بأبصارهم، فـإذا القائـد ﷺ يأمر بمغادرة المكان فجأة.

الانسحاب من حصن النضير

طلـع الفجـر حـول حصـن النضـير، فنهـض بـلال يصـدع قلـوب يهـود وأسـوارحصونهم بنداء الله أكبر، ثم أدى المسـلمون صلاة الفجر، وبعد أن ارتفعت الشـمس تنفس اليهود، فقد أصدرالقائد ﷺ أمرًا مفاجئًا بـ: الانسـحاب من حصن النضير دون حسم المعركة، فهل السبب مناعة السور وقوة التحصين؟

إن عاد ﷺ للمدينة فهذا هو السبب، لكنه لم يعد، بل انطلق بجيشه مباشرة لمصنع الخيانة قريظة.. خطوة عبقرية، فحين وصل المسلمون وجدوا قريظة في حالة هلع.. متحصنين كما وصفهم القرآن: ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾[الحشر: ١٤]، أرعبتهم هذه الخطوة العسكرية الذكية والجريئة.. هزمتهم

دون دماء؛ لأن وصول جيش المسلمين اليوم يعني أن أمر النضير قد انتهى، وحسم بالأمس، وإلا لما تجرأ محمد على حصارهم هذا الصباح.

تضعضعوا، فطلبوا التفاوض، فعرض القائد ﷺ أن يوقعوا على معاهدة سلام أخرى على الرغم من خيانتهم للأولى، فقال: «**إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه**»، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه وتم توثيق المعاهدة للمرة الثانية، فتنفست قريظة الصعداء، وكأنما انتشلوا من القبور، ثم تركهم ﷺ ليقوم بالخطوة الأهم: العودة لبني النضير قوم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، الذين أثبتوا أمس أنهم كقائدهم، وأن الخيانة متأصلة فيهم برفضهم للسلام والوئام الوطني، وإصرارهم على أن تكون العلاقة بالمسلمين علاقة حرب، على الرغم من أن النبي ﷺ كفل لهم حكمًا ذاتيًا، ولم يكلفهم إلا بكف الأذى، لكنهم أثبتوا أن هدفهم رأس الدولة ﷺ واجتثاث الإسلام، والتآمر مع الأجنبي الوثني، فأراد ﷺ حسم الخيانة اليوم.

ثارت حرب شرسة أطارت عقولهم، وخلعت قلوبهم، وزاد من انهيار معنوياتهم أن قريظة ورطتهم، ثم وقعت معاهدة سلام مع المسلمين.. أحبطوا، فطلبوا التفاوض مجددًا، فتوقفت المعركة، وأسفرت المفاوضات عن مغادرة الخونة أرض الدولة الإسلامية دون أن توقع عليهم عقوبة الخيانة، بل سمح ﷺ لهم بأن يأخذوا ما يريدون، لكنه رفض أن يأخذوا أسلحتهم، فقد يغرون بها يهود خيبر، وقد يسلحون بها الوثنيين وقطاع الطرق، فوافقوا، لكن وقبل مغادرتهم حدث شيء رهيب.. خيمت على الحصن سحابة كثيفة تعجب منها المسلمون.

سحابة على حصن النضير

لم يغادر بنو النضير.. مازالت أبواب حصنهم موصدة، وإذ بمشهد غريب يراه المسلمون.. سحابة خانقة تخيم على الحصن.. لا برد فيها ولا ماء، ولم تأتِ من



السماء، بل صعدت من الحصن.. سحابة غبار لم تثرها دوابهم، فدوابهم متوقفة. سحابة ثارت من البيوت، فبعد أن أناخوا إبلهم، وهيّؤوا بغالهم وحميرهم.. بدؤوا يحملونها بالذهب والفضة والثياب، وخرج حاخامهم الخائن حيي بن أخطب يحمل كيسًا من الجلد يسمى المَسك مملوءًا بالذهب والفضة، ليضعه على إحدى دوابه. لم يكتفوا بحمل ما خف وزنه وغلا ثمنه. توجهوا نحو الأبواب والنوافذ.. يعالجونها.. يخلعونها، ثم يراكمونها على ظهور الدواب، وبعد أن انتهوا.. أبعدوا عائلاتهم عن البيوت، لكنهم لم يغادروا. عادوا للبيوت يحملون العتل والفؤوس والمعاول.. يهوون بها على الجدران والأعمدة حتى خرت الأسقف، وارتفعت سحابة الغبار تلك، وكلما خر سقف تجشموا نحو أخشابه، فانتشلوها من بين الأكوام، وحملوها على الدواب؛ كي لا يستعملها المسلمون.

فُتحت أبواب الحصن، فشاهد الصحابة الخراب، فأدركوا هدف يهود، فأرادوا إشعارهم أن تلك البيوت والأموال لا تعني لهم شيئًا، ولو كان المال يهمه ﷺ لنشل خواتم النساء، وخلع أساورهن وأقراطهن وحليهن، ولصادر جمل ابن أخطب بما حمل، فهو ثروة طائلة تدعم خزينة الدولة الإسلامية.

تركهم ﷺ ولم يغير رأيه بعد رؤيته لعمليات التخريب، بل بادر المؤمنون بقطع النخيل وإحراقها معهم، فجن جنونهم وهم يرون هذا النبي لا يأبه بما هدموا، ولا بما أخذوا، ولا بما تركوا.. تساءل الصحابة: هل عليهم إثم من تلك الغضبة والإحراق؟ فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[الحشر: ٥].

غادر اليهود نحو خيبر، فاستقبلهم أبناء عمومتهم، ليجتمع حقدان في حصن واحد، وفي أحد الأيام تسلل الطاغوت ابن أخطب من حصن خيبر، ومعه كيسه المليء بالمال.. يتلفت خشية أن يراه أحد، حتى دخل إحدى الخرائب، فبدأ الحفر فيها، ثم أنزل الكيس، ودفنه وعاد، وعاد أيضًا لنشاطه الخياني ضد الدولة

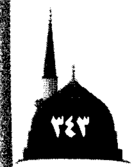
الإسلامية، بالتخابر مع قريظة والوثنيين، ونزلت سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، فما هو الحشر؟

حشر اليهود قبل محمد

أُجلي بنو النضير، ونزلت سورة الحشر، وفيها يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، وهذا يعني أنهم سيتعرضون لحشر آخر كلما كشفت الأمم خياناتهم ومؤامراتهم، كما تعرضوا من قبل لغضب الأمم بدءًا من الملك المصري شيشنك عام ٩٤٥ قبل الميلاد، الذي أغار على القدس، وأحرق نسخة التوراة الوحيدة، ثم أغار عليهم ملك العراق بخت نصر عام ٥٩٧ قبل الميلاد، فلم يكتفِ بحرق التوراة التي أعادوا كتابتها مشوهة، بل أخذ اليهود أسرى لأرض بابل بالعراق قرابة السبعين عامًا، حتى نشأ جيل يهودي آخر.. بعقيدة أخرى غير عقيدة موسى الصافية.

في بابل تمت كتابة توراة بديلة عنصرية.. قرروا فيها أن الله إله لليهود فقط، وأنهم ليسوا كبقية البشر، والدليل هو وجود نص في هذه التوراة المختلقة اليوم لا يمكن تصديقه يقول: «ثم مات موسى ودفن في سيناء ولا أحد يعرف قبره حتى الآن» هذا الكلام لا يمكن أن يكون من قول الله، ولا قول موسى، فالتوراة نزلت عليه، وهذا النص يتحدث عن موته، ولا يمكن أن يقوله صحابته ولا التابعون لهم، فهؤلاء لا يجهلون قبره.. إن كاتبه بعيد عن سيناء وفلسطين، ولا يمكن تفسيره إلا بزمن أسر بابل.

عاد اليهود لفلسطين، فهاجمهم ملك أنطاكيا سنة ١٧٠ قبل الميلاد، فدمر بيت المقدس ووضع صنمًا فيه، وذبح الخنزير داخله، وبعد ظهور عيسى هاجمهم ملك مصر تيتس، ونكل بهم.. لم يكن ما جرى لليهود ليجري لولا سلوكهم، ونظرتهم العنصرية لبقية البشر، وحتى لما حكم النصارى الدولة الرومانية.. لاحقوهم،



ورفضوا دخولهم بيت المقدس؛ لأنهم يتهمونهم بخيانة عيسى بن مريم، واتهام أمه بالزنا، وتسليمه وصلبه. وما صلبوه وما قتلوه. ومن شدة احتقار النصارى لليهود قاموا بتحويل الصخرة التي يقدسها اليهود إلى مكبّ للنفايات، حتى إن المزابل غطتها، ولما بعث محمد ﷺ حاول كثيرًا التعايش معهم وحوارهم، لكنهم خانوه، ثم كتب معاهدة معهم فخانه بنو النضير، فسامحهم وعاهدهم، فخانه قينقاع، فسامحهم وجدد معاهدتهم، فخانته قريظة، فسامحهم وجدد معاهدتهم. ثم عادت النضير للخيانة ومحاولة قتله، فأجلاهم، وكان جلاؤهم هو أول الحشر.

القائد يصبح ثريًا بعد النضير

بعد رحيل بني النضير جعل الله فيئها لنبيه ﷺ خاصة، فهل أصبح القائد بعد هذا الفيء من التجار المنشغلين بتجارتهم عن شعوبهم؟ هل بنى القصور، وشيد لزوجاته الفاره من الدور؟ هل انعزل في حصن النضير الحصين عن مواطنيه وصحابته، وشكل قوة لحمايته، وردع من يقترب منه؟

لم تكن الحضارة التي شيدها ابن عبدالله حضارة حجر كالفراعنة، الذين أهلكوا شعوبهم من أجل بناء قبر للفرعون بمساحة قرية، وعلو جبل.. لم يسكن ﷺ ذلك الحصن، ولم يستأثر بمحصوله، بل حلف عمر وهو يخاطب الصحابة، فقال: «والله ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد قسمها بينكم، وبثها فيكم».

عاد القائد ﷺ لغرفه المتواضعة الملاصقة للمسجد، التي لا يسكنها إلا الفقراء.. ظل فيها هو وزوجاته يعيشون حياة أقل فئات الشعب، فبكى عمر حين دخل على نبيه وقائده، فوجد الحصير الخشن قد ترك خطوطًا في جسد حبيبه، فقال: يا نبي الله، لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا؟ فقال ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها**»، أما بنو النضير، فأنشد الشاعر حسان بن ثابت أبياتًا يصف ذلهم، فقال:

وَهانَ عَلَى سَراةِ بَني لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالْبُوَيرةِ مُسْتَطِيرُ

طار شعره في أنحاء الجزيرة، ووصل مكة، فسمعه ابن عم للنبي ﷺ يدعى أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وهو ليس أبوسفيان بن حرب زعيم قريش، وكان شاعرًا شديد العداء للنبي، فأرسل أبياتًا تتشفى من نضير، وتتحدى المسلمين، فقال:

أَدامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ وَحَرَّقَ فِي نَواحِيها السَّعِيرُ

ستَعْلَمُ أَيّنا مِنْها بِنُزْهٍ وَتَعْلَمُ أَيَّ أَرْضَيْنا نَضِيرُ

أبيات توحي بأن قريشًا تعد لحرب حاسمة، لكنها ستكتفي مؤقتًا بتجييش الزعامات الوثنية، فالملاحظ هو أن البلاء يأتي من الزعماء لا من القبائل، فهؤلاء الطواغيت يخشون ذهاب جاههم إذا انتشر الإسلام؛ لذا يخيفون أتباعهم من الإسلام والقرآن، ومن هؤلاء زعيم قبيلة بني المصطلق العربية، واسمه الحارث بن أبي ضرار.. استخفته قريش، فأعد جيشًا لغزو المدينة وإسقاط دولة الإسلام.

القائد ﷺ يخترق الحصار بالقوة

انتقل يهود النضير نحو خيبر، فازداد الخطر على الدولة الإسلامية، حيث مثلوا نقطة انطلاق للمؤامرات في الشمال، بينما تتآمر قريش وبقية الوثنيين في الجنوب والجهات الأخرى.. حصار خانق سيتمادى إن لم تتحرك الدولة الإسلامية؛ لذا قرر القائد ﷺ فك هذا الحصار بإنهاك قريش اقتصاديًّا، وإرباك تجارتها للشام عن طريق الساحل.. نادى أمين أمته أبوعبيدة، وأمره على سرية من ثلاث مئة فارس لمسح الشريط الساحلي، فانطلقوا سالكين طريقًا شاقًّا أرهقهم، وأوشك زادهم معه أن ينفد.

شعر الأمير بخطورة الوضع، فنادى جنده، وأمرهم بجمع ما تبقى معهم من تمر؛ كي يشرف بنفسه على توزيعه. انطلق كل فارس لراحلته، وأخرج تمره، ثم عاد

يحمله نحو أبي عبيدة الذي أعد المزاود لها. توافر لدى أبي عبيدة مزودان كبيران، فبدأ يوزع منهما بالتساوي كل يوم، لكن الطريق شاحبة بلا حياة أو محطات يتزودون منها.

بدأ التمر ينفد حتى فرغ أحد المزودين، فتأمل أبوعبيدة المزود المتبقي، وتأمل بطون أصحابه فشعر بالألم، حتى اضطر يومًا لأن يعطي تمرة واحدة لكل جندي يشرب عليها الماء.

تساءل بعضهم عن جدوى تمرة لرجل في سفر شاق.. بحثوا وبحثوا، فلم يجدوا سوى نبات يقال له الخبط. هوت عصيهم وأقواسهم على شجيراته شبه اليابسة يضربونها.. يبلها الرجل بالماء، فيأكلها، أو يطحنها، ثم يسفها ويشرب عليها الماء.. معاناة لم يخففها جمال البحر وروعة ساحله.. معاناة جعلت البعض يسميه جيش الخبط.

رق زعيم الخزرج سعد بن عبادة لإخوته، وهو الذي تبرع بالكثير من الإبل لهذا الجيش دفاعًا عن دينه ووطنه، فقرر التصرف على الطريقة الأنصارية.. نادى ابنه قيس، وطلب منه نحر ثلاثة من الإبل، فلبى الكريم بن الكريم، وتم تقطيع اللحم وطهيه، فشبع الجند بعد شظف أحرق أجوافهم، وكلما جاعوا كرر سعد فعله ثانية.. ثالثة، ولما أراد تكراره للمرة الرابعة نادى ابنه لينحر. لكن قيسًا قال لوالده: (نُهيت).

امتثل سعد، فأبوعبيدة يخشى أن يُتلف هذا الكريم رواحل الجيش الذي واصل مسيره، وفجأة ارتفعت أمامهم صخرة ضخمة سوداء.. تلمع على الشاطئ. اقتربوا منها فإذا بها موت ينبض بالحياة.

الحوت والمجاعة

كان جيش أبي عبيدة يسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، وإذ بحوت هائل يسمونه العنبر قد استلقى على تلك الرمال البيضاء.. اقتربوا منه.. تأملوه والتسبيحات لله تنطلق من هول حجمه، وعجيب صنعه. كان قد فارق الحياة؛ لذا رفض أبوعبيدة أن يأكلوا لأنه ميتة، ثم تأمل القاعدة القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ

﴿فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[الأنعام: ١١٩]، فنادى جنده، وقال: «نحن رسل رسول الله، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا».

سلت السيوف تقد من هذا الطبق الطري الهائل، وكأنه كرامة من الله لمن جاءوا، وعانوا في سبيله، وفي يوم بدت فيه أضلاع الحوت.. نادى أبو عبيدة أطول رجل في الجيش، فأمره أن يركب بعيرًا، ثم نصب ضلعًا من أضلاع الحوت، ثم أمر الرجل بأن يقبل، فأقبل على بعيره، فمر من تحت تقوس ذلك الضلع الهائل.

طبخوا وشووا، وملحوا وادخروا، واستخرجوا الدهن وادهنوا، حتى صحت أبدانهم، وبعد مرور أكثر من نصف شهر طلب أبو عبيدة التأهب للعودة للمدينة، فتذكروا مرارة السفر وطعم الخبط، فأخذوا من وشائق لحم الحوت المملح المجفف ما يزيد على حاجتهم، ثم انطلقوا للمدينة، ولما وصلوا سلموا للقائد ﷺ تقريرهم وتفاصيل سفرهم، وأخبروه عن الحوت، فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا**». فأرسلوا له، فأكل منه، ثم سأله رجل فيما بعد، فقال: «يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال ﷺ: **هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**».

كانت غزوة سيف البحر اختراقًا للحصار الوثني، وتحذيرًا ليهود خيبر، الذين قرروا إحياء مشروع الحاخام الهالك كعب بن الأشرف الخياني، فبدؤوا الاتصال بالقبائل الوثنية بالجزيرة.. يجمعونهم.. يحرضونهم كما فعل ابن الأشرف، وقبل أن يبدؤوا بتنفيذ المشروع حدثت أمور عدة.. أحدها في حصن قريظة، ففي داخل ذلك الحصن يعمل أحد العبيد المسلمين بجهد استثنائي، فمالكه اليهودي اشترط أن يقدم له أربعين أوقية من الذهب، وثلاث مئة نخلة مع إصلاح تربتها وغرسها ثمنًا لحريته. ضاقت الأرض بالعبد، فلم يجد بعد الله أرحم من النبي القائد ﷺ.

قائد الدولة يغبر جسده وثيابه من أجل عبد

كان سلمان الفارسي قد تسلل ذات يوم من حصن قريظة نحو المدينة.. نحو النبي ﷺ، فأعلن إسلامه، وقص قصته الحزينة، وكيف تم بيعه ظلمًا. تأثر ﷺ، ولاسيما وهو يراه عبدًا مملوكًا ليهودي جشع، فأشرع القائد له أبواب الحرية، وقال: (كاتب يا سلمان) عاد سلمان لمالكه اليهودي، فعرض عليه الأمر، فقدم اليهودي شرطًا تعجيزيًّا ليعطيه حريته: أربعين أوقية من الذهب، مع ثلاث مئة نخلة صغيرة، وهي التي تسمى الودية، مع تسميد تربتها، وغرسها، وكبسها.

عاد سلمان لنبيه، فأخبره، فالتفت القائد ﷺ لشعبه.. لتلاميذه الذين وصفهم ربهم بأنهم رحماء بينهم، فقال: «**أعينوا أخاكم**».. لبوا كعادتهم، فقدم أحدهم ثلاثين ودية، وقدم آخر عشرين، وهكذا كلٌّ يعينه بحسب ما يجد وما تجود به نفسه، ولما وصل العدد إلى ثلاث مئة نخلة أخبر نبيه بالأمر، فأحب قائد الدولة ﷺ أن يسهم معهم، فقال: «**اذهب يا سلمان، ففقر لها**»، أي احفر للنخل حفرًا وسمدها، «**فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعها بيدي**».

انطلق سلمان وإخوته لليهودي.. يحملونها حتى وضعوها بين يديه.. أشار اليهودي للمكان الذي يريدهم أن يغرسوها فيه، فهوت عشرات المساحي تعزق الأرض.. تحفرها، ثم بدأت الأيدي تسمد أرض اليهودي، وتصلح تربته، حتى هيؤوا ثلاث مئة حفرة، ولما انتهوا انطلق سلمان نحو نبيه.. وقف أمامه، فأخبره بما فعل، فنهض قائد الدولة ﷺ بنفسه، وسار مع هذا العبد الفارسي الغريب، وكأنه من كبار رجال دولته، ولما وصل سره ما فعل رجاله، فاحتفز عند أول حفرة وحوله رجاله.. يحملون النخل الصغير.. يمدونها له ودية ودية، فيتناولها، ويغرسها بيديه واحدة واحدة.

اغبرت لحية زعيم الدولة ﷺ.. اغبر شعره وصدره وثيابه في خدمة فقير من شعبه.. يفعل ذلك تنفيذًا لطلب مواطن ينتمي إلى أقلية حاقدة وخائنة.. في مشهد لا تعرفه أمة من الأمم. كان بإمكان القائد تحرير سلمان دون مقابل.. كان بإمكانه

استرقاق اليهودي نفسه وسلب مزرعته، ولاسيما بعد خيانة قريظة، لكنه العدل عندما يحكم الإسلام.

اختلطت المشاعر لدى اليهودي، وهو يحدق بنبي الأمة وقائد الدولة، ورجاله يعملون دون مقابل من أجل هذا الفارسي الغريب.. نهض ﷺ بعد هذا المجهود المضني.. نهض بعد أن غرس بيديه ثلاث مئة نخلة.. ينفض يديه وثيابه.. يتصبب العرق من رأسه وجسده، ويرسم خطوطًا عبر طبقات الغبار التي تغطيه، فأي حاكم في الدنيا يفعل ما فعل محمد، وأي قائد يحتفي بالفقراء كاحتفاء محمد ﷺ.

يغرس ثلاث مئة نخلة خدمةً لعبد

في حصن قريظة وفي أحد بساتينها.. ينهض القائد ﷺ بعد أن غرس بيديه ثلاث مئة نخلة، ليهودي يعيش في دولته.. نهض يتصبب عرقًا على الرغم من أن شعبه يتمنون لو جلس في ظل بارد، وعلى كرسي وثير، وكفوه مؤونة الغرس والتعب.. أي حاكم في الدنيا يفعل ما فعله نبي الله ﷺ من أجل عبد فقير من شعبه؟!، أما النخلات، فيقول عنها سلمان: «والذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة».

تسلّم اليهودي بستانه الجديد، وهو الذي ظن أنه قام بتعجيز عبده، لكن سلمان لا يزال عبدًا؛ لأنه لم يدفع الأربعين أوقية بعد، لتمر الأيام وبعد إحدى الغزوات رأى ﷺ بين الغنائم قطعة ذهب مثل البيضة.. رآها فلم يقسمها بين زوجاته، أو بين بناته زينب وفاطمة وأم كلثوم، فحين يرى ﷺ الذهب يتذكر فقراء الشعب، فقد نهض ﷺ ذات يوم بعد إحدى صلوات العصر.. يتخطى رقاب الناس سريعًا حتى تعجب الناس لسرعته، فتبعه بعض أصحابه، فدخل على بعض أزواجه، ثم خرج، فقال: «**إني ذكرت وأنا في العصر شيئًا من تبر كان عندنا، فكرهت أن يبيت عندنا، فأمرت بقسمته**» أخرج القائد ﷺ التبر وهو الذهب من بيت زوجته، ليقسمه على الفقراء، كما يمسك الآن ببيضة الذهب، فيسأل رجاله سؤالًا يفيض رحمة، وقال:

«ما فعل الفارسي المكاتب؟» فكانت الإجابة أن انطلق رجل نحو حصن قريظة.. يبحث عن ذلك العبد الفارسي، الذي خفق له قلب القائد ﷺ، ولما وجده أخبره بأن قائد الدولة يسأل عنه، فترك سلمان ما معه ومن معه، وانطلق نحو حبيبه، ولما وصل وسلم على النبي، رد ﷺ السلام، وقال له: «**خذ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان**» فاستغرب سلمان، وقال: «وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟» لكن النبي ﷺ قال وحيًا.. قال معجزة وكرامة لهذا المناضل، الذي بذل الغالي والرخيص بحثًا عن التوحيد.. قال ﷺ: «**خذها، فان الله ﷻ سيؤدي بها عنك**».

أخذها سلمان، واتجه بها نحو التاجر اليهودي، وأمام الميزان صار يقطع لليهودي منها أوقية أوقية، وهو مذهول مما يراه بعينيه، ويلمسه بيديه، ويقول: (فأخذتها، فوزنت له منها، والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، فأوفيته حقه، وعتقت) تنفس سلمان هواء الحرية من جديد. فكان ذلك اليوم أسعد أهل الأرض بتوحيد ربه وصحبة نبيه ﷺ.

غزوة بني المصطلق

كان طواغيت الوثنية يبررون لقبائلهم غزو الدولة الإسلامية عن طريق تشويه النبي ﷺ.. تمامًا كما فعل فرعون حين برر لشعبه قتل موسى، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦].. قد يوجد دافع للطاغوت عندما يرى نبيًا مصلحًا على أرضه، لكن ما مبرر ابن نبيح وابن الطفيل، ومحمد ليس على أرضهم، ولا بين قومهم.. هو بعيد عنهم.. مشغول بدولته وبتوحيد ربه عن خرافاتهم.. أمر لا يمكن تفسيره إلا بأن الطواغيت شكلوا حلفًا وثنيًا ضد الإسلام، واليوم يأتي دور زعيم يدعى الحارث بن أبي ضرار.. زعيم قبيلة المصطلق.

وصلت أخبار تحركاته للقائد ﷺ، فأراد مباغتته قبل أن يباغته، وقبل أن يتحرك ﷺ أجرى قرعة بين زوجاته ﷺ، فهن يتلهفن لرفقته في جهاده.. كان التوفيق

حليف عائشة، التي استعارت من أختها أسماء قلادة مصنوعة من خرز يماني أسود.. في سواده بياض كالعروق؛ لتتزين لزوجها حتى في السفر، في تلك الرحلة حظيت عائشة بمرح أعقبه الكثير من الترح.

انطلق الجيش ترفرف رايته ولواؤه خلف القائد، وخلال الطريق كان ﷺ لا يهدأ.. مرة تراه في المقدمة، ومرة في الخلف.. «كان يزجي الضعيف، ويردف ويدعو لهم».. يعين هذا، ويرشد ذاك، ويتحدث مع ثالث.. في إحدى المرات تأخر وأمر الجيش بالمواصلة، ثم اقترب من هودج عائشة، وطلب منها النزول وهو يبتسم.. نزلت عائشة النحيلة، فأمرها ﷺ بأن تقف إلى جانبه، ثم اتفقا على نقطة معينة من الطريق، وطلب منها أن تسابقه نحوها. رحبت عائشة بالتحدي، فبدأ السباق، وانطلقت الأرجل تسابق الريح، وعند نقطة النهاية كانت عائشة تضحك سعيدة بنصرها. تقبّل ﷺ فوز حبيبته، لكنه أضمر لها سباقًا آخر يأخذ بثأره، والأيام بينهما.

عادت عائشة لهودجها، وعاد ﷺ لجيشه الذي أصبح على مشارف بني المصطلق قرب مكة.. كانوا في حالة استرخاء.. لم يتوقعوا أن محمدًا ﷺ بهذا الدهاء العسكري.. فوجئوا بالجيش يداهمهم يصعقهم، وإذ بقبيلة بني المصطلق كلها تتحول في طريق العودة إلى قافلة من الأسرى. رجع المؤمنون تحملهم السعادة إلا عائشة، فقد كانت حزينة لدرجة أن حزنها أوقف الجيش، وأغضب والدها عليها.

حتى حزن عائشة مبارك

سيقت قبيلة بني المصطلق كلها أسرى نحو عاصمة الدولة الإسلامية، ولقي الأسرى عناية ورحمة، فالله الذي أخرجهم للدفاع عن دينهم ووطنهم.. هو الذي يمدح رأفتهم بأسراهم بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

سار الجيش عبر الأودية وبين الجبال.. يسير ويتوقف، وفي إحدى وقفاته أقبل الرجال المكلفون بإنزال هوادج النساء، فأنزلوهن، وبعد نزول عائشة بدأت

بالتلفت وقلبها يخفق.. لقد تحسست رقبتها فلم تجد القلادة التي استعارتها من أختها أسماء.. سألت رفيقاتها، فبحثن، ولم يجدن شيئًا، فحزنت، وأخبرت زوجها ﷺ، فلم يأمر الجيش بالانطلاق.. أقبل المساء، واسترخى الجيش، وبدا أنه لن يتحرك إلا في الصباح، فشعر بعض الصحابة بالقلق، فأتوا أبا بكر يشكون ابنته.. يشكون زوجة القائد ﷺ، ويقولون: «ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء» شعر الوزير الأول بالإحراج، فانطلق غاضبًا نحوها ليؤنبها، فلما أقبل عليها وجد نبي الله نائمًا.. قد وضع رأسه على فخذها وهي جالسة.

اقترب بهدوء حتى جلس إلى جانبها والغضب يملؤه، وصار يهمس خشية أن يوقظ نبيه، ويلومها، ويقول: «حبست رسول الله والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء!» تقول عائشة: «فعاتبني، وقال ما شاء الله أن يقول».. لم يكتفِ الصديق باللوم، بل جعل يطعن بأصابعه في خاصرتها وهي متماسكة.. كانت تتحامل على ألمها؛ خشية أن تميل، فيفيق ﷺ.. إنها تقول: «لا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله على فخذي».

خيم الليل، وانتشرت نجومه، وأذن بلال للصلاة، فنهض الجيش، فوجدوا أن الماء لا يكفي إلا للشرب، فأنزل الله آية التيمم، وفيها: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾[النساء: ٤٣]، فأمرهم ﷺ أن يضرب الواحد منهم بكفيه الأرض، ثم يمسح بهما وجهه، ثم يضرب ثانية، ويمسح أعلى كفيه، فقال أحد الصحابة: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر»، ثم دعا للصديقة، فقال: «جزاك الله خيرًا، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله ذلك لك وللمسلمين فيه خيرًا» لم يكن العقد فقط هو ما أحزن الصديقة، فالحزن الأكبر والمرير ينتظر كوحش في الطريق.

وبدأت أحزان عائشة

تيمم الصحابة لصلاة المغرب والعشاء، باستخدام التراب بديلًا للماء في التطهر، حتى لو كان على المرء غسل، فقد وجب الغسل على عمار بن ياسر في سفر، فخلع ثيابه، وتمرغ في التراب ظانًّا أن التيمم بديل للوضوء فقط، فليكن التمرغ بديلًا للغسل، فعلم ﷺ بتمرغ عمار، فقال: «**إنما كان يكفيك هكذا**»: فضرب النبي بكفيه الأرض، ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه.

طلع الفجر، فنهض الناس وصلوا، ثم انطلقت عائشة تبحث عن عقدها، وبعد انطلاقها أمر ﷺ بالرحيل، وأمر جنديه صفوان بن معطل بمسح المنطقة تحسبًا لهجوم أو مدد وثني، وأقبل الرجال المسؤولون عن حمل الهوادج، فانحنوا على هودج عائشة، وأقلوه من الأرض، ووضعوه على ظهر البعير، وربطوه ظانين أنها فيه، فقد كانت نحيلة خفيفة الوزن، ولذا سبقت النبي ﷺ في السباق الذي جرى بينهما قبل أيام، أما هي فبعيدة.. تبحث.. تتبع خطواتها في الأماكن التي مشت فيها بالأمس، حتى ارتفعت الشمس.. أقفت العيس والصديقة تبحث، ولما يئست عادت.. عادت، فإذا المكان موحش لا جيش فيه، ولا أنيس سوى الله.

ازداد حزنها، وعظم همها.. تهادت لمكان هودجها، ولما وصلت رأت شيئًا يلمع تحت مبرك البعير.. إنه العقد. التقطته بحزن، وجلست حتى ارتفعت الشمس على مكان ليس فيه سوى فتاة منكسرة.. رحل حبيبها ووالدها، وصويحباتها وهودجها، لكنها قالت لنفسها: «**سيفقدونني، فيرجعون إلي**».. طال انتظارها حتى نعست، فتلففت بجلبابها، ونامت.. في أثناء ذلك كان الراصد صفوان بن معطل قد انتهى من مسح المنطقة، وتأكد من خلوها من الأعداء، فأقبل ليفاجأ بسواد على الأرض.. اقترب فإذا امرأة نائمة، فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦].. ظل يرددها حتى رفعت رأسها، فإذا هي أمه عائشة.. كان يعرف وجهها قبل نزول الحجاب، فتكدر.. غطت الصديقة وجهها، وجلست، فأدنى بعيره وأناخه، ووطيء على يد البعير لتركب، ولما ركبت أمسك بزمام البعير، وانطلق يقوده، وهو يمشي على

قدميه حتى وجدوا الجيش متوقفًا عند ماء، والشمس فوق الرؤوس. أناخ البعير بين الهوادج، فانحدرت عائشة عنه، والتحقت برفيقاتها سعيدة بهم وبعقدها، لكن الأكثر سعادة كان رأس النفاق عبدالله بن سلول، الذي عثر على شيء يكدر به هذا النصر.

ابن سلول كهف اليهود

ظل صفوان يمشي على قدميه يقود الجمل الذي يحمل أمه عائشة، حتى وجدوا الجيش. فأناخ البعير بين الهوادج، فانحدرت عنه عائشة، والتحقت برفيقاتها سعيدة بهم وبعقدها، لكن الأكثر سعادة هو رأس النفاق ابن سلول الذي كان ضمن جيش غزوة المصطلق.. على الرغم من خيانته هو وفئته التي تتآمر مع أعداء الوطن والدين بالخفاء، بينما تدعي الإسلام في الظاهر، فتفضحهم كلماتهم ومقالاتهم المليئة باللمز والهمز للإسلام ودعاته ونبيه ﷺ.

ابن سلول اليوم وبعد غزوة المصطلق يكشف قبحه، بعد أن رأى صفوان بن معطل يقود جمل عائشة، ليبدأ بنشر إشاعة عن عائشة.. متهمًا إياها بصفوان. ابن سلول الذي استمات بالأمس دفاعًا عن خيانة يهود قينقاع.. يطعن اليوم في أشرف عرض.. عرض نبي الله وقائد الدولة ﷺ، فأي روح شيطانية تلك التي تشتعل بين جنبيه؟!

هذا هو الفارق: فمحمد والذين معه أشداء على الكفار في الحروب.. رحماء بينهم، أما المنافقون فجبناء في الحروب.. أشداء على المؤمنين.. رحماء باليهود.. مستسيغين خياناتهم، لكن هذا النبي الكريم والقائد العظيم يدشن لقادة أمته منهج التعامل معهم.. لم يهدر طاقة دولته في التحسس والتجسس عليهم، فهي أمور لا تبني دولة. اتجه إلى ما يبني الدول ويقويها، ويطيل أعمارها: العدل والعفو والعلم، ولذا أوصى أمراء أمته وقادتها وعظماءها بأسر قلوب شعوبهم، لا إخافتها، فقال: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**» ويقول تلميذه ابن مسعود: «نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به».

ظـل القائد ﷺ مشـغولًا بالبناء.. بالجمال، لا بتتبع المنافقين، فمكتسـبات دولته أغـلى مـن أن تهدر عليهم.. سـماحة قد تكون مكلفة، وقد يسـتغلها الأنـذال، لكنها الحل لأمثال ابن سـلول. لم تنتشر الإشاعة حتى الآن، والجيش وصل المدينة، ووزع الأسرى بـين البيـوت تمهيدًا للبـت في أمرهم، وبعد أيام اسـتأذنت امـرأة، فدخلت على عائشـة، فلما رأتها كدرت مجلسـها مع حبيبها ﷺ. دخلت (برة)، وهي أميرة بني المصطلق.. تطالب قائد الدولة ببعض المال.

ابن شماس وقصة أخرى مع النساء

قبـل فترة كانت زوجة ثابت بن شـماس تطلب الخلع منـه، واليوم ها هي أميرة بني المصطلق سـبية في بيته.. تطالبه بالشيء نفسـه.. تناشده المكاتبة، والمكاتبة هي أن تشتري نفسها منه، لكن من أين لها المال، وقبيلتها أسيرة عن بكرة أبيها؟

ضاقـت الدنيا ببرة بنت أبي الحارث، بعد أن ورطها والدها بحرب لا مبرر لها، فانطلقـت مهمومة نحو محمد ﷺ.. نحو عدوهـا الأول: هكذا لقنها والدها، ولقنها وثنيـو قريـش، وهي اليوم سـبية في دولته الإسـلامية، فمن المؤكـد أن بغضها له قد ازداد، لكـن الأمـيرة تغيرت.. تغيرت وهي تسـاق ضمـن الأسرى، وتغيرت حين حطت بمدينة محمد ﷺ. لم تَرَ شيئًا من تلك الأكاذيب الوثنية التي ألصقوها به.

امحـت ثقافـة التلقـين، ودحرجة الـرؤوس خلف العـادات والتقاليـد، فبدأت تسـتخدم عقلها، وتكتشـف الأمور بنفسـها.. اكتشـفت أن هذا العـدو نبي صادق وأمين، فحملتها خطواتها نحو قصر القائد الذي زلزل الجزيرة العربية بكلمة (اقرأ)، ولما وصلت لم تجد قصرًا، ولا أسوارًا ولا حراسًا؟!

أشـاروا إلى غرفة متواضعة لا يسـكنها إلا المساكين.. أهذا هو قصر محمد مالئ الدنيـا وشـاغل الناس؟ اسـتأذنت، فأذن لهـا، فدخلت فتحركت غيرة عائشـة التي بـدأت تنظـر لغريبة (حلوة، ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسـه) قالت عائشـة:

«والله ما هـو إلا أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها» قدمت برة التماسًـا لا يوافق عليـه إلا العظـماء، فقالـت: «يا رسـول الله، أنا برة بنت الحارث بن أبي ضرار، سـيد قومـه وقـد أصابني من البـلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في السـهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي».

أسيرة تطالب آسرها أن يدفع عنها، لكن آسرها قدم عرضًا أفضل لها ولقومها، فقـال ﷺ: «**فهـل لـك في خيرمن ذلك؟**» قالـت: وما هو يا رسـول الله؟ قال: «**أقضي كتابتك، وأتزوجك؟**» حلقت روحها فرحًا، فقالت: «نعم، يا رسول الله».

انتشر الخبر في بيوت المدينة، فنظر الصحابة إلى أسراهم، فقالوا: «أصهار رسول الله، فأطلقوهـم» غـارت الصديقـة، لكنها أكـبرت منافسـتها، فقالـت: «لقد أعتق بتزويجـه إياها مئة أهل بيت من بنى المصطلق، فـما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها» زُفّت برة، فلم ينشـغل ﷺ بجمالها عن روحها وعقلها.. شرع بتوعيتها، وبدأ باسمها فغيّره.

أنت جويرية

زُفّـت بـرة بنـت أبي الحـارث إلى زوجها ﷺ، فـرأى في اسـمها تزكيـة للنفس، فأشـعرها بعظمـة التواضـع، وقـال لهـا: (أنت جويريـة) ارتقـت بذلك الـزواج.. أصبحـت أمًّا للمؤمنين.. ترأف بشـعبها كزوجهـا الذي بدأ تغييرهـا من الداخل.. ظل يعلمها.. يثقفها بوحي ربه، وسنته وسلوكه حتى أصبح أحب من أشرقت عليه شمسها، فدخلت في منافسة مع أمهات المؤمنين.. ليس بالثراء والمباهاة، وكثرة الحلي وامتلاك الأراضي، بل بالتسابق في مضمار طويل نحو الجنة.

حلقـت في أجواء الإيمان.. تعرفت إلى ربها، فأصبحت مناجاته أسـعد أوقاتها، بـل تنسـيها أوقاتها.. ذات يـوم خرج ﷺ من عندها وهي تصـلي الفجر، فلم يعد إلا في الضحى، فلما دخل عليها وجدها تناجي حبيبها سـبحانه وتعالى.. تناجي مَنْ مَنَّ

عليها بالتوحيد ورفقة نبيه، وأنقذها من النار، فسألها ﷺ: «**لم تزالي في مصلاك منذ خرجت؟**» فقالت: نعم. فقال محرضًا إياها على انتقاء الكلمات في مناجاة الحبيب.. قال ﷺ: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته**»، ودخل عليها يوم جمعة وهي صائمة، فاستغرب صيامها، فقال: «**أصمت أمس؟**» يعني الخميس. قالت: لا. قال: «**تريدين أن تصومي غدًا؟**» يعني السبت. قالت: لا. قال: «**فأفطري**»، فصيام يوم الجمعة وحده مكروه، حيث قال ﷺ: «**لا يصومن أحدكم يوم الجمعة، إلا يومًا قبله أو بعده**». فارق كبير تعيشه جويرية.. مقارنة بالبؤس الذي كانت تعيشه مع أصنامها، أما والدها فعاد لدياره.. عاد حرًّا مع قومه الأحرار.. عادوا يحملون محمدًا في قلوبهم.. صاهرهم، وأنقذهم بعفوه من حقد وثنيي قريش، الذين يريدون توريط الجزيرة كلها معهم، فأصبحت قبيلة بني المصطلق من القبائل الصديقة للدولة الإسلامية.

هدأت الأمور معهم، لكنّ أمورًا أخرى بدأت تثور.. بدأت إشاعة ابن سلول تنتشر، وصار عرض الصديقة عائشة يلاك على ألسنة المنافقين، وبدأت آذان المؤمنين تتكدر بسماعه، حتى وصل إلى نبي الله ﷺ الذي تكدر أكثر.. كل ذلك يجري وعائشة لا تدري.. المدينة كلها تدري إلا عائشة الغافلة المحصنة العفيفة.

ابن سلول وكر للدعارة واليهود

قبل نزول الحجاب دخل بيت عائشة بعض الحاخامات اليهود، وبدلًا من أن يجاملوا نبي الله ورأس الدولة.. بادروه بألفاظ لو قالوها تلك الأيام في أوروبا لزعيم نصراني لأبيدوا. قالوا: السام عليكم. أي الموت عليك. سمعت عائشة تلك الكلمة السافلة، فانفجرت غاضبة لرسولها، وقالت: «وعليكم السام واللعنة».

التفت ﷺ لحبيبته، فأرشدها إلى تحضره أمام ثقافة الكراهية عند الحاخامات، فقال: «**مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**. فقالت: يا رسول الله، أولم

تسمع ما قالوا؟ فقال: **قد قلت وعليكم**» حقد اليهود على الفتاة، ثم سقوا حقدهم لعملائهم وزوار حصونهم: ابن سلول وأمثاله. ابن سلول الذي كان يملك مجموعة من الجواري، وكان يأمرهن بممارسة الدعارة مقابل مال قذر، فإذ بجاريتين تتسللان نحو نبيهما تشكوانه. سكت ﷺ فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [النور: ٣٣]، فصدم المنافق ناشر الدعارة، ولما علم بقصة عائشة وجدها فرصة.. بدأ يلوث عرضها، ويرميها بصفوان بن معطل، فانتشرت إشاعته، فآذت المؤمنين، واستخفت ثلاثة منهم: حسان بن ثابت، وحمنة أخت زينب بنت جحش، وفقير كان أبوبكر ينفق عليه اسمه: مسطح بن أثاثة. فرددوها حتى وصلت للنبي ﷺ، فتكدر وحزن، وبدأت تحاصره نظرات الإشفاق من أحبابه، ونظرات التشفي من أعدائه.

كانت عائشة طريحة الفراش بعد غزوة المصطلق، ومما ضاعف مرضها تغير حبيبها ﷺ، فهو لم يعد يدللها كعادته عند مرضها.. رابها الأمر، فهل لزواجه بجويرية علاقة؟ إنه يدخل فيسلم، ويكتفي بسؤال حزين: «**كيف تيكم**» ثم ينصرف، وكأن أوجاع مكة تعاوده. لم ينزل الوحي، والمدينة تشتعل بمقالات المنافقين، وعائشة لا تدري، لكنها تقرأ حزنًا في عيون الأحبة.. تفتقد وجوهًا اعتادت زيارتها، وهدايا متواضعة لا تأتي للنبي ﷺ إلا عندما يكون عندها.. حتى أبوها الطيب.. حتى أمها التي طالما أسندت رأسها وهمومها لصدرها صامتة.. استبد بها الحزن، فقالت: «يا رسول الله، لو أذنت لي، فانتقلت إلى أمي، فمرضتني؟ قال: **لا عليك**» انتقلت لبيت والديها، فكان ﷺ يزورها، ولايزيد على تلك الكلمة: «**كيف تيكم**».. مر شهر، فعادت لبيتها، وفي أحد الأيام زارتها امرأة، فلم تتركها إلا وهي طريحة الفراش ثانية.

وانفطر قلب عائشة

خف مرض عائشة الذي هد جسدها، وزاد نحولها، فعادت لبيتها، وفي إحدى الليالي زارتها بنت خالة أبيها.. امرأة مؤمنة تحبها، وتشعر بفضل أبي بكر عليها، وتشعر أيضًا بالحرج من تصرف ابنها مسطح، الذي اتهم عائشة.. هو صحابي

جليل، لكنه يظل بشرًا يصيب ويخطئ. دخلت أم مسطح، وبعد مدة طلبت عائشة منها أن ترافقها إلى مكان قريب أشبه بدورات مياه للنساء.. خرجتا في ليلة يبدو أنها كانت تميل للبرودة، فأم مسطح تلف على بدنها كساءً من الصوف يسمى المرط، وفي أثناء عودتهما ارتخى طرف المرط، فوطئته، فعثرت، وسقطت على الأرض، فقالت وهي تنهض من عثرتها: «تعس مسطح»، تدعو على ابنها. غضبت عائشة من هذه المرأة الطيبة.. كيف تدعو على ابنها وهو رجل كان ضمن شجعان بدر.. قبل أن يولد النفاق؟ وقالت: «بئس ما قلت، أتسبين رجلًا شهد بدرًا» تنهدت الأم فداءً للصديقة بنت الصديق، ونظرت إليها بحزن عميق.. عميق، وزفرت قائلة: «يا هنتاه ألم تسمعي ما قالوا؟» سألت عائشة ببراءة وتلقائية: «وما قالوا؟» فأخبرتها عن فرية الإفك، وتلويث عرضها.

توقفت عائشة، وكأن العالم ينهار فوق رأسها، ثم أفاقت وكأنها عثرت على بقايا قطع الأحجية التي أعياها البحث عنها.. أحجية الصد من حبيبها ﷺ.. أحجية النظرات الدامعة من أمها وأبيها. سحبت قدميها ثقيلتين، وكأنهما لم تسبقا حبيبها قبل أسابيع.. دخلت بيتها، وهوت على الأرض، وعاودها الوجع أشد مما كان، وظلت تبكي، وتبكي، حتى ظنت أن البكاء سيصدع قلبها، فلما دخل ﷺ عليها ردد تلك التحية الحزينة: «كيف تيكم»، فتهدجت كلماتها مثقلة بالحزن والغضب والمرض، وقالت له: «أتأذن لي أن آتي أبويّ؟» فأذن ﷺ لها وأمر غلامًا بمرافقتها، فلبست جلبابها، وخرجت تريد أن تتحقق من الخبر.. من أبويها.

سارت تسابق دمعها، حتى وصلت بابهما، ولما وصلت سمعت القرآن ينساب من سطح المنزل بصوت والدها الحزين.. طرقت الباب ففُتح، فاستقبلتها أمها المؤمنة أم رومان.. دخلت الفتاة، فرفعت رأسها، ونظرت لأمها بعينين تفيضان عتابًا ودموعًا ﷺ وحيرة، وقالت: «يا أمتاه ما يتحدث به الناس؟» هنا سافر السؤال كخنجر في قلب الأم الحزينة.

هل يتحدث الناس عني يا أماه؟

مشت عائشة حزينة تبكي نحو بيت والديها، بعد شهر من المرض والجفاء.. مشت نحـو بيت والديهـا الحكيمين، اللذين لم يتسرعـا باتهامها، ولا بالدفـاع عنها على الرغم ثقتهما بها. فتح الباب، فاستقبلتها أمها أم رومان، بينما كان القرآن يتدفق من سطح المنزل بصـوت والدهـا الحزين.. تعلقت نظراتها بأمهـا عتابًا، وقالت: «يا أمتـاه ما يتحدث به الناس؟» شـعرت الأم بطعنة السـؤال في قلبها، فحاولت إيقاف نزفه.. حاولت إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الناحلة، التي هدها الحزن والمرض، فقالت: «يا بنية هوِّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة حسناء عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، إلا حسـدنها» لم تطفـئ إجابتها ما بقلبهـا.. بحثت عن آثار للخناجـر في قلوب الأحبة، فقالـت: «وقـد علـم به أبي؟ قالـت: نعم. فقالت: ورسـول الله؟ قالت: نعم، ورسـول الله» حينهـا احترقت أضلاعها، فزفرت من أعماقها زفرة حرى، وقالت: «سـبحان الله، وقـد تحدث الناس بهـذا، وبلغك ما بلغك، ولا تذكرين لي من ذلك شـيئًا؟» ثم خنقتها العبرات، وانهمرت الدموع، وعجزت عن الشكوى، وعلا نحيبها حتى سمعها والدها وهو على السطح، فتوقف عن التلاوة، فهذا النحيب يفتت الأكباد.

نـزل من السـلم، وحـين أصبح على الأرض نظر إليهما، وسـأل زوجته سـؤالًا متوجسًـا من إجابته، فقال: «ما شـأنها؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شـأنها» فاضت عينـا أبي بكر، وغـص بالمرارة، وهو يـرى دموع ابنتـه وقلة حيلتها.. أعياها السـهر والمـرض، وأضناهـا الحزن والبـكاء، لكنـه أدرك أن لا ملاذ لحبيبتـه إلا قرب نبيها، علّ وحيًا ينقذهـا، فاقترب من هاتين العينين الغارقتين، وناشـدها ورجاها، وقال: «أقسـمت عليـك أي بنيـة، إلا رجعت إلى بيتـك» امتثلـت الفتاة، وودعـت أبويها، وتهـادت خلال طرقات حزينـة ومظلمة، ولما دخلت بيتها ألقت بجسـدها الطاهر، الذي أنهكته خناجر النفاق على الأرض.. ظلت ترتجف مرضًا وبكاء طوال الليل.

أذن بلال لصلاة الفجر وهي تبكي، وأشرقت الشـمس وهي تبكي.. لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم، وأبطأ الوحي، فضاقت الدنيا برسـول الله ﷺ، فقرر البحث

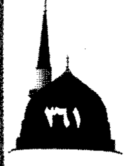
بنفسه، فتوجه نحو بيت زوجته زينب، فأختها حمنة هي أحد الذين نشروا الإفك، عله يجد إجابة لتحامل حمنة على عائشة. دخل ﷺ عليها، فزادته إجابة زينب حيرة.

نادوا بريرة

ضاقت الدنيا برسول الله ﷺ، وهو يرى المنافقين يلوكون عرضه، ويتشفون باتهام حبيبته، التي لا يعلم عنها إلا خيرًا، فاجتهد كعادته اجتهاد البشر، حين لا يكون لديه وحي.. أخذه الحزن لبيت زوجته زينب، وكان لزينب أخت مسلمة تدعى حمنة بنت جحش، وهي ابنة عمة النبي، لكنها تظل غير معصومة.. أخذتها الحمية لأختها التي كانت تنافس عائشة، وأخذها الهوى، فنقلت الفرية.

دخل ﷺ، فسأل زينب عن عائشة، وقال: «ما علمت. ما رأيت؟» فإذ بزينب ومخافة الله بين عينيها تقول: «يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا. قالت عائشة: فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك» ظل المنافق ابن سلول يستوشي الإفك يجمعه، ويتولّى كبره هو وحمنة، وأبطأ الوحي، فأراد ﷺ المزيد من التثبت، فاستدعى أعرف الشباب ببيته.. استدعى حفيده السابق أسامة بن زيد، فسأله؟ فلم يتردد أسامة، ولم يتلعثم وهو يتحدث عن فتاة طاهرة.. عرفها قبل أن تدلف قدماها بيت رسول الله ﷺ.

أكد أسامة براءة عائشة، بل حث نبيه على تجاهل مقالات المنافقين، وقال: «يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل» خففت إجابة أسامة وزينب من حزنه ﷺ، واتجه لعلي يسأله، فأجاب عليٌّ إجابة لا علاقة لها بعائشة.. إجابة تشفق على قلب نبيه، الذي امتلأ بحب عائشة، فالأهم عند علي هو ألا يتكدر ﷺ؛ لذا قدم اقتراحين.. قال في الأول: «يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإنك لقادر على أن تستخلف» الاقتراح الآخر: هو استدعاء جاريتها بريرة، فهي من ألصق الناس بها، وقال: «إن تسأل الجارية تصدقك».



لم يأخذ ﷺ بالاقتراح الأول، الذي يلوح الطلاق بين حروفه، إنما أخذ بالآخر، فاستدعى بريرة التي اشتراها الصديق لابنته، ولما وقفت بين يديه ﷺ قال لها: «**أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟**»، فإذ ببريرة تزيح الستار عن شمس البراءة.. ذكرت أنها لا تنتقد عائشة إلا في شيء واحد.. هو أنها فتاة حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الشاة الداجن، فتأكله.

غضب أحد الحاضرين من إجابتها البريئة، فصاح بوجهها.. فتساءلت، وكأنها تقول للدنيا: أنتم لا تعرفونها كما أعرفها.

عائشة كالذهب

غضب أحد الصحابة من إجابة بريرة رفيقة عائشة، لما ذكرت أن عيبها هو أنها قد تنام، فتغفل عن عجين أهلها، فتأتي الشاة، فتأكل ذلك العجين.. انتهرها قائلًا: «اصدقي رسول الله».. ترى ما الصدق إن لم يكن ما قالته صدقًا؟ ظلوا يلمحون لها، ويلمحون حتى قال ﷺ: «**لست عن هذا أسألك؟**»، ثم صرحوا لها، فتنبهت، فوجدتهم قد أبعدوا وأبعدوا، فقالت: «سبحان الله، والله ما أعلم من عائشة، إلاّ كما يعلم الصائغ من التبر الأحمر»، وماذا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر النقي.. قبل خلطه بغيره سوى النقاء؟ كانت بريرة تتحدّث عن الصفاء.. عن الطهارة.. عن عائشة، أمّا المنافقون فكانوا يتحدّثون عن صديد ينزّ من نفوسهم، لكن ماذا عن البريء الآخر: صفوان بن معطل، الذي تم قذفه أيضًا؟

لقد علم بالأمر، فأوجعه الافتراء عليه وعلى أمّه عائشة، وضاقت الأرض به، وضاق بنظرات الناس حتى حلف، فقال: «سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط». بعد تلك الشهادات الصادقة.. تبين كذب المنافقين، فبدأ ﷺ ممارسة دوره قائدًا للدولة.. جمع شعبه، لا ليعتقل ابن سلول ورفاقه، فدولته محكومة بنظام قضائي عادل، لكن يبدو أن حكم القذف لم ينزل بعد، فلجأ ﷺ لشعبه، وهي سنته عند عدم

وجود وحي. امتلأ المسجد بالرجال والنساء، فصعد منبره، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم استشارهم والمرارة في صوته، فقال: «**أشيروا عليّ معشر المسلمين، في قوم أبنوا أهلي**» أي رموهم بخلق قبيح.. «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي؟**» وإذ بصوت كالسيف يدوي.

صوت سيد الأوس.. سعد بن معاذ يهز جنبات المسجد غضبًا لله، ولعرض رسوله، فترتعد له فرائص النفاق صاح قائلًا: «أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا، ففعلنا أمرك».. أخذت الحمية سعد بن عبادة.. أحد السابقين للإسلام وسيد الخزرج، فقال: «كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. أما والله أن لو كانوا من الأوس، ما أحببت أن تضرب أعناقهم» ثار اللغط في المسجد بين الأوس والخزرج، وأطلت الفتنة كرأس الشيطان، فكيف سيتصرف القائد ﷺ؟

فتنة تثور في المسجد

امتلأ المسجد بالرجال والنساء.. يتطلعون إلى قائدهم ﷺ، الذي صعد المنبر طالبًا رأي شعبه في جريمة الإفك، فصاح سيد الأوس سعد بن معاذ: «أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك» فأخذت الحمية سعد بن عبادة.. أحد رجال بيعة العقبة، وسيد الخزرج، فقال: (كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. أما والله أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم» فالتفت أوسي اسمه أسيد بن حضير لابن عبادة، وصرخ بوجهه غضبًا لله، فقال: «كذبت، لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين».

كلمتان قسمتا الأنصار إلى جيشين، حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ في المسجد، وحتى همّوا أن يقتتلوا.. تأزم الموقف، ورقص الشيطان طربًا لما يحدث،

وبكت عائشة التي تنصت خلف بابها، من هول المسافات التي وصلت إليها الأمور، فالعبارات التي تفوّه بها ابن عبادة دفاعًا عن رأس المنافقين في ساعة غضب (خطيرة)، ولا تقل عنها كلمات ابن حضير، حين وصف ابن عبادة بالنفاق.. هنا يبرز دور القيادة.. هنا محكها، فالغضب أطلق كلمات كالرصاص الطائش.. تحت سمع وبصر قائد أهين في عرضه، وأُفتري على زوجته.. موقفان يتكرّران في كل زمان: موقف من تجتاحه الحمية، فيجاوز حدوده، وموقف من يغضب لله، فينسى حدوده.

لا هذا الموقف سنة، ولا ذاك. والرصاص الطائش لا يجني حصاده سوى أعداء الدين والوطن... ما يهم هو هذا القائم فوق منبره، فهو القائد والقدوة، وهو السنة التي لا تنطق عن الهوى ﷺ. قتل الفتنة والحمية في مهدها، ونظر لمستقبل دولته ودعوته وشعبه، فهم ثروته.. اتجه لهم بقلبه.. بكليته.. يهدئهم يسكنهم حتى ساد الصمت في المسجد، ثم صرفهم، فانصرفوا، ليعيدهم بلال بعد ساعات إخوة من جديد، ليكتشفوا كم هو محب وحكيم هذا القائد، الذي لم يرجح طرفًا من شعبه على طرف، ولم يوظف طرفًا ضد آخر، بل لم ينتصر لنفسه على حسابهم، أو حتى يظهر تأييده لمن انتصر له.. عادوا يكتشفون كم يداري، وينطوي على جراحه من أجلهم، أما حبيبته المظلومة فتفاقم حزنها حتى همت بأمر خطير كادت تندم عليه.

عائشة تهمّ بالموت

كانت عائشة تنصت للصياح والضجيج في المسجد، فتقول: «بكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم» أغلقت أبواب الأرض في وجه الفتاة الطاهرة، فوسوس لها الشيطان حتى قالت: «هممت أن آتي قليبًا، فأطرح نفسي فيه».. وسواس سرعان ما اختفى أمام رسوخ إيمانها، وثقتها بربها، وأنه لن يتركها وحيدة في هذا العالم الحائر، لكن وجعها جعلها تذبل في هذين اليومين.. عافت الطعام والشراب والحياة، وأصبحت على وشك الفناء، فانطلق من يخبر والديها، فجاءا وبقيا عندها، وفي اليوم الثاني وقبل

صلاة العصر استأذنت امرأة من الأنصار فدخلت، وصدمت وهي ترى هذا الجسد يذوي بين أبويه.. أهذه هي عائشة التي كانت قبل شهر فتاة تنبض بالحيوية والنشاط والجمال؟ أهذه عائشة التي سبقت حبيبها قبل الإفك؟

فاضت عينا الأنصارية، فجلست تبكي مع عائشة وأبويها اللذين قلت حيلتهما، وشوه المنافقون سمعتهما في الطرقات والأسواق.. أذن بلال لصلاة العصر، فخرج أبوبكر وخرجت الأنصارية للصلاة، وبعد أن انتهت الصلاة عاد أبوبكر لابنته وجلس بجانبها، وجلست أمها بجانبها الآخر يسندانها من شدة ضعفها، وإذ بالنبي ﷺ يدخل ويسلم، فردوا عليه السلام. لم يقل هذه المرة: كيف تيكم؟ بل جلس لأول مرة عند حبيبته منذ شهر، ولما جلس تشهد، ونظر إليها، وقال والحزن يسافر في كلماته: «**أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه**»، ثم سكت النبي ﷺ وسكت دمع عائشة.. جف تمامًا، فاستجمعت بقاياها، والتفتت لوالدها، وقالت: «أجب عنّي رسول الله فيما قال»، فقال الصديق والحزن يقتله: «والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فالتفتت إلى أمها، وقالت: أجيبي عني رسول الله. فقالت أم رومان: والله ما أدري ما أقول لرسول الله».

سكت الجميع، وتاهت الإجابات، فزفرت عائشة بكلمات للسماء، بعد أن ضاقت بها الأرض.. غاب بعدها نبي الله عن الوعي، فتحدرت من جبينه قطرات عرق كاللؤلؤ، فرفعت عائشة رأسها، ونظرت لوالديها وهما يرتجفان.. تكاد روحاهما تخرج خوفًا.

أبوبكر يكاد يموت خوفًا

بعد صلاة العصر دخل ﷺ على عائشة، فوجدها ذابلة.. تترنح بين والديها، وبعد أن كلمها استجمعت بقايا قواها، وطلبت من والديها أن يجيبا رسول الله عنها. فقال كلٌّ منهما: «والله ما أدري ما أقول لرسول الله».

ملأ الغرفة صمت حزين، وتاهت الإجابات، فزفرت عائشة بعبارات كالجمر، وخاطبت أحبتها الثلاثة.. تعاتبهم، وتبث حزنها إلى الله.. تبثه كما بثه يعقوب، حين فقد ابنه يوسف، فقالت لهم: «إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا، حتى استقر في نفوسكم، وصدقتم به، فإن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة، لتصدقونني»، ثم أخرجت من صدرها دعوات مظلوم لا تضل طريقها.. دعوات مكروب تشق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء.. دعوات أقسم الجبار بعزته أن ينصرها، فقالت: «وإني والله ما أجد لي ولكم مثلًا، إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾» [يوسف: ١٨]، ثم سكتت، وحنت جسدها الذابل نحو الأرض، وتوسدت أحزانها واضطجعت، وفجأة بدأ والداها يرتجفان من حولها. ثم نهض والدها يهتز والخوف يكاد يقتله.. نهض نحو النبي الذي بدأ يعاني ثقلًا وإجهادًا شديدين.. أخذته ﷺ مثل الحمى، فتحدر من جبينه عرق كاللؤلؤ.. غاب عمن حوله، وعما حوله، فعرف أبوبكر أنه يوحى إليه، فمد يده، وأخذ قطعة قماش وغطاه، ووضع تحت رأسه وسادة. شعرت عائشة بحركة مألوفة لديها، فرفعت رأسها ببطء وهي تتأمل ارتجاف أمها وأبيها، فرأت في وجهيهما خوفًا تكاد روحاهما تخرج من شدته.. خافا أن يدينها الوحي، أما عائشة الطاهرة فغشيتها السكينة، ووصفت مشاعرها، فقالت: «أما أنا، فوالله ما فزعت، وما باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأن الله مبرئي ببراءتي» ثم وصفت توقعاتها بتواضع مع ربها، وإجلال له، فقالت: «عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله ﷻ في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها».

غشيت المكان هيبة وجلال وترقب، ثم أفاق النبي ﷺ ورفع رأسه وهو يمسح عرقه ويبتسم، ثم نظر لحبيبته، فقال: «**أبشري يا عائشة**».

براءة عائشة تنزل من السماء

أفاق النبي ﷺ من الوحي.. يمسح عرقه، ويضحك، ويقول: «**أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك**».. امتلأ البيت بالبهجة، وابتسم الجميع إلا عائشة التي عادت الروح لها. التفتت أمها من شدة الفرح، فقالت: «قومي إلى رسول الله»، فنظرت إليها عائشة، وقد استبدلت بدموع الحزن التي جفت، دموع الفرح.. نظرت إلى أمها، فأطلقت كلمات الامتنان لله وحده.. ممزوجة بالعتاب لزوجها، ولأبويها، فقالت: «والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي».

لم يلمها زوجها ﷺ، فالمرارة التي مرت بها كادت تودي بها.. لم يلمها، بل زادها فرحًا حين تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١١].

حمد الصديق ربه، وخرج القائد ﷺ لشعبه، فجمعهم مجددًا، وصعد منبره، وقرأ الآيات، فاختنق ابن سلول والمنافقون عصر ذلك اليوم، وخجل حسان ومسطح وحمنة.. حاصرتهم العيون، وعاتبتهم الشوارع والطرقات، وأمست براءة عائشة قرآنًا يتعبد المؤمنون بتلاوته.. في المساجد والبيوت والطرقات والأسواق.. انتشرت سيرتها كالعطور في البوادي والمدائن، وأصبحت الوحيدة في الدنيا بعد مريم، التي يكفر من يقذفها.. نزل قائد الدولة ﷺ عن منبره، ليمارس مهامه تجاه عائشة المواطنة، التي قذفت بلا دليل ولا برهان، فطلب إحضار الثلاثة، فاعترفوا دون إكراه، فطبق في حقهم قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٤]، وأخذ الغضب أبوبكر، فقطع المعونة التي كان يرتبها لمسطح بن أثاثة، لكن عندما سمع قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢]، اهتز قلب الصديق أستاذ البذل والكرم، فقال: «بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي»، فأعاد المرتب لمسطح وكأن شيئًا لم يكن.

أمـا الغاضـب الذي لا يطاق غضبه، فكان الحزين صفوان بن معطل.. إنه الآن في بيتـه.. يبحث عن سـيفه بعد نزول الآيات، ثم يخرج متخفيًـا يبحث في الطرقات عمن قذفه.

سيف صفوان ولسان حسان

لم يكـن حـزن صفـوان بـن معطل بعيـدًا عن حـزن عائشـة.. شـوهه المنافقون، وضاقـت به الدنيا.. تلاحقه نظـرات الناس بعار لم يرتكبه.. يتوجع كلما رأى نبيه ﷺ، ويتمنـى لو دخل قلبه، ونقش على جدرانه براءته.. أكثر من شـهر من القهر والظلم عاشه هذا النقي الذي يحلف: «والله ما كشفت كنف أنثى قط»، حتى نبيه أثنى عليه، فقال ﷺ: **«ما علمت عليه إلا خيرًا»**.

ظـل صفـوان يكتـوي حتى تليـت عليه الآيـات.. تبرئ أمـه عائشـة، وتبرئه، فتنفس وحمد الله وهو يرى نظرات اللوم تتحول لنظرات إعجاب، وهمسـات الريبة إلى عبارات تهنئة.. احتفت به الشوارع والطرقات، لكن ما مر به لا يطاق.. انفجرت مشـاعر القهر، فاتجه لبيته دون شـعور.. يبحث عن سيفه، ولما توشحه خرج يبحث عمن قذفه، وفجأة يرى الشـاعر حسـان يمشي في إحدى الطرقات.. لحق به متخفيًا حتى أصبحا وحدهما بالطريق، فدب نحوه، وسـل سـيفه الذي يجيده، وسـل شعره الذي يجيده حسان، فضربه، وصاح في وجهه:

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيفِ عَنْكَ فَإِنَّني ... غُلامٌ إِذا هُوجِيتُ لَسْـتُ بِشاعِرِ

وَلَكِنَّني أَحْمِـي حِمـايَ وَأَنْتَقِمْ ... مِنَ الْباهِتِ الرّامِي البَرَاةِ الطَّواهِرِ

ملأت الطرقات صيحة حسـان، ففر صفـوان، وتراكض الناس نحو الصراخ، وأسـعفوا الجريـح، وبعد أن تعافى حسـان اتجه لقائده ونبيـه ﷺ يطالب بالقصاص، والقصاص بحسب النظام الجنائي الإسلامي يختلف عن الحد، فالحد لله، والواسطات والشـفاعات في قضاياه محرمـة وممنوعة إذا وصلت للقضاء، كحـد السرقة والحرابة

وشرب الخمر والقذف والزنا، أما القصاص فحق للناس.. من حقهم التنازل، أو الصلح أو أخذ الدية، وما فعله صفوان له حكم القصاص، أو الدية أو الصلح.. وقف حسان أمام قائده، فلم يطرده ﷺ، ولم يقل له: أنت كذبت، وقذفت زوجتي، فاغرب عن وجهي.. تجاهل أعدل القضاة والحكام غلطته، فلدولة الإسلام قضاء عادل، ومستقل، بل أنصت القائد لشكواه، ثم خيّره، بل استرضاه بنخل مقابل التنازل عن صفوان، الذي اختفى؛ لأنه يعلم أنه سيمثل أمام القضاء، فلا مكان للثأر في دولة الإسلام والنظام.

قبل حسان التنازل، وانتهت القضية، لكن ماذا عن ابن سلول؟ ماذا عن مشكلة النفاق ومقالات المنافقين، وكيف كان منهجه ﷺ وسنته في التعامل معهم.

محاكم التفتيش للمنافقين

المنافقون يكفرون بالإسلام، ويدعون اعتناقه.. يتآمرون مع أعدائه، ويدعون احترامه.. النفاق حالة من السفالة متدنية جدًا.. هم خلايا نائمة تنشط باقتراب العدو من الوطن.. حينها تزحف ألسنتهم كالأفاعي، ومقالاتهم كالسم في الدسم، فكيف كانت سنة النبي القائد ﷺ مع ظاهرة النفاق؟

قدم لأمته سنة كفيلة بوأد مؤامراتهم في جحورهم، وذلك بعدم الانشغال بهم.. لم يلاحقهم بالقتل، أو التجسس، ولم يَبْنِ لهم سجونًا أو محاكم تفتيش.. انشغل ببناء الوطن والمواطن.. كان يجمعهم خمس مرات في اليوم والليلة على الحب، ويستميل كرم أغنيائهم لعوز فقرائهم بالزكاة.. بالصدقات.. بالمكفرات، أما الصيام، فلا يكف عن التذكير بالفقراء كل عام.. كل شهر.. كل أسبوع.

جن جنون المنافقين حين عجزوا عن إدانة محمد ﷺ.. عن رؤيته يسرق أرضًا، أو يستأثر بثروة، أو يشيد قصرًا، بل حرم الله عليه وعلى أسرته أموال الزكاة والصدقات، وهي الدخل الأكبر للدولة.. حيرهم بعدله وخضوعه لأنظمة القضاء، وكأنه فرد من شعبه. حيرهم بإنصاته لأعدائه ومعارضيه! ما الذي بقي لم يفعله القائد ﷺ؟

أصبح المنافقون في حالة نفسية مزرية، كالنار تـأكل بعضها.. ظل ﷺ يعاملهم بالظواهـر، لا بالسرائـر، بينما في تلـك الأيام كانت الكنيسـة في أوروبـا تقيم محاكم التفتيـش، وحفلات التعذيب في أقبيتها لمن ترتاب بنفاقهم.. أقبية يفرم فيها اللحم، ويسـحق فيها العظم، وتقتلع فيها الأظافر، ويُجلس فيها المشـتبه بنفاقه على خوازيق كالرمـاح.. تخترق أسـفله، فأحشـاءه، ثم تحطم جمجمته.. أهوال تمارسـها الكنيسـة بتهمة الإساءة لها، أو لرموزها.. ظلت أوروبا تعذب بالشبهة.. تفرم بالتهمة أكثر من ألف ومئتي عام، بينما كان المنافقون يجلسون مع النبي وقائد الدولة ﷺ.. يأكلون من طعامه، ويمنحهم من مال دولته، مع أنه يعرفهم بوجوههم وأسـمائهم، فلايمسـهم بسـوء، بل يدخل عليه حاخامات من الأقلية اليهودية، فيقولون: السـام عليك. أي الموت عليك.. كلمة لو قالوها لكسرى.. لهرقل.. للبابا في أوروبا، لأبيدوا عن بكرة أبيهم.. يقولونها لمحمد النبي ﷺ، لمحمد رأس الدولة.. يقولونها في بيته، فلا يمسهم بسـوء، فتغضب عائشـة، وتلعنهم، فيقول لها: «**مهلًا يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله**»، رقي لا ينكره إلا حاقد أو أبله ميؤوس منه.

***

عواقب الدفاع عن ابن سلول

بعـد الإفـك، وبعد نـزول قـول الله تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾[النور:٤]، تساءل الصحابي العظيم سـعد بن عبادة الذي دافع في لحظة انفعال عن ابن عمه المنافق ابن سـلول.. تسـاءل: ماذا لو رأى مع أهله رجلًا؟ كيف يتصرف، ومن أين له الشـهود؟ بل قال لمن حوله: «لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح».

وصل كلام سـعد لقائده ﷺ فقال: «**يا معشر الأنصار، أما تسـمعون إلى ما يقول سيدكم؟** قالوا: لا تلمه، فإنه رجل غيور، ما تزوج فينا قط إلا عذراء، ولا طلّق امرأة له، فاجترأ رجل منّا أن يتزوجها. فقال ﷺ: «**أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني**»، لكن النبي ﷺ أخبرهم بأن الغيرة شيء، والنظام القضائي شيء آخر، فقال: «**فإن الله يأبى إلا ذاك**».

اعتـذر سـعد قائـلًا: «صـدق الله ورسـوله يـا رسـول الله، بأبي وأمـي والله إني لأعرف أنها من الله، وأنها حق، ولكن عجبت، والله لا آتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته»، ثم انصرف سـعد، وأقبل المسـاء، وأقبل ابن عم له اسمه هلال بن أمية مـن حديقـة له نحو بيته، ولما هم بدخول البيـت رأى خيانة زوجته مع رجل يقال له شريك بن سـحماء، فتكدر هذا الشـيخ الصالح، وظل مهمومًا طوال الليل.. لم ينم، وبعد أن صلى الفجر أتى يجر همومه نحو نبيه ﷺ، وحين وقف أمامه قال: «يا رسول الله، إني جئت أهلي عشـاء، فوجدت رجلًا مع أهلي» كره ﷺ الخبر، وثقل عليه جدًّا، وتغـير وجهـه، فقال هـلال: «والله يا رسـول الله، إني لأرى الكراهـة في وجهك مما أتيتـك به، والله يعلم أني صادق، وما قلت إلاّ حقًّـا»، نطق ﷺ عدالة، فقال: «البينة، أو حد في ظهرك» فقال الشيخ ثقة بربه: «لا، والله لا يجعل في ظهري ثمانين أبدًا، لقد نظرت حتى أيقنت، ولقد استسمعت حتى استشفيت».

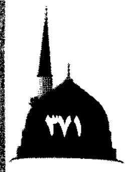
اجتمـع أبنـاء عمه، فلاموا سـعد بن عبادة عـلى جرأته، وقالـوا: «ابتلينا بها قال سعد»، ثم قالوا بحسرة: «أيجلد هلال بن أمية، وتبطل شهادته في المسلمين؟».

هـمّ ﷺ بتطبيـق حد القذف فيه، لكن الوحي سبقه، فتوجـه ﷺ نحوهم، وتلا عليهـم آية تتحدث عن حكم اتهام الرجل لأهله، وهي آية اللعان، ثم أرسـل رجلًا لينادي المرأة، فحضرت.

اللعان وأحكامه

طلب النبي ﷺ من هلال بن أمية أن يأتي بشـهود أربعة.. يثبتون اتهامه لزوجته وإلا فسيقيم حد القذف عليه، فالحدود لا وساطات فيها ولا شفاعات.

ضاقـت الدنيا بالرجل الصالح، لكن يبدو أنه ممن إذا أقسـم على الله أبره، فقال لنبيـه: «والـذي بعثـك بالحـق إني لصـادق، فلينزلن الله مـا يبرئ ظهـري من الحد» فنـزل قولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ



أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [النور: ٦-٨]، وبعد نزولها توجه ﷺ بحديثه إلى هلال الحزين، وقال له: «**أبشر يا هلال، فإن الله قد جعل لك فرجًا**». فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله. فقال ﷺ: «**أرسلوا إليها**»، فانطلق أحدهم لزوجة هلال، فاستدعاها، فجاءت، فلما اجتمعا عند القائد العادل.. سألها عن التهمة، فأنكرت وكذَّبتها، فخاطب ﷺ الزوجين، وقال: «**إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟**» سكتت المرأة، وقال هلال: «يا رسول الله، بأبي وأمي لقد صدقت وما قلت إلاّ حقًّا. فقال ﷺ: **لاعنوا بينهما**».

بدأ تطبيق اللعان، فطلب من هلال أن يقول أربع مرات: أشهد بالله أني صادق، فقالها. ولما جاءت الخامسة قال: لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين.

أصبح الأمر الآن بيد الزوجة، ومن حقها دفع التهمة عنها بأن تطبق الجزء الآخر من الآية، وهو قوله سبحانه: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٨- ٩]. فقالت أربع مرات: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين، ولما أرادت أن تقول الخامسة قيل لها: «اتقي الله، فإن عذاب الله أشدّ من عذاب الناس، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب».

خيّم السكوت، وتلكأت المرأة، وأوشكت على الاعتراف، ثم قالت: «والله لا أفضح قومي» وقالت: إن غضب الله علي إن كان من الصادقين.

هذا هو اللعان، أما نتيجته، فهي التفريق بين الزوجين دون رجم أو جلد. ففرق ﷺ بينهما، ولم يسأل عن شريك، أما الطفل الذي قد تنجبه فحَكَم بأنه لها، وأنه يحرم أن يقال له ابن حرام، بل أعلن القائد أن حفظ حقوق هذا الطفل من واجبات الدولة، فقال: «**أنا ولي من لا ولي له**». ذهب الرجل من طريق، والمرأة من طريق، وحملت المرأة، فعلم النبي ﷺ بأمرها، فأخبرهم بمعجزة ستحدث.

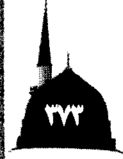
أحزاب في بيت النبي ﷺ

حملت المرأة من تلك العلاقة المحرمة. وعلم النبي ﷺ بالأمر، فطلب من أصحابه أن يتأملوا ابنها، فإن جاء كذا وكذا فهو لزوجها، وإن كانت مواصفاته كذا وكذا فهو لخليلها شريك ابن سحماء، فولدت المرأة، فإذا مواصفاته تثبت أنه لشريك.

زاد إيمان الصحابة بنبيهم ﷺ، لكنهم ازدادوا ثقة بنظام قضاء لا يعتمد على الغيبيات والكرامات والظنون، بل على الأدلة والبراهين المادية المحسوسة، حين قال ﷺ عن تلك المرأة: «**لولا ما سبق فيها من كتاب الله، لكان لي ولها شأن**» وقال في مثل حالتها: «**لو كنت راجمًا بغير بينة لرجمتها**»، أي إن الذي منعه من إقامة الحد عليها، هو تشريع اللعان.. فارق بين الحالتين اللعان، والإفك الذي رميت به عائشة، فكيف هي الصديقة بعد الإفك؟

لقد رفع الله قدرها.. غدت بنت أبي بكر بعد تلك الشدائد أكثر قربًا من حبيبها، على الرغم من عتابها له.. لاطفها ذات يوم، فقال: «**إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى**» فقالت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «**أما إذا كنت عني راضية، فإنك تقولين: لا، وربّ محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا، وربّ إبراهيم**» ابتسمت، وقالت: أجل، يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. عادت الهدايا إلى يوم عائشة، حتى غارت أمهات المؤمنين، بل انقسمن إلى حزبين: حزب ترأسه عائشة، ويضم حفصة بنت عمر، وسودة بنت زمعة. وحزب ترأسه أم سلمة، ومن أعضائه زينب وجويرية، ويبدو أن اجتماعًا جرى في بيت أم سلمة قلن فيه: «يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان» كان الاجتماع بدافع الغيرة، وإلا فلا علاقة لعائشة بهدايا الناس، فهم أحرار في توقيت هداياهم، ومع ذلك لا بأس من التجربة.

دخل ﷺ على أم سلمة، فعرضت الاقتراح عليه، فلم يجبها.. كررته ثلاث مرات، فلما كان الثالثة قال لها: «**يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل علي**



الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنّ غيرها».. لم ييأس حزب أم سلمة، فالمنافسة محتدمة على أزهى المقاعد داخل أجمل القلوب؛ لذا ارتأت أم سلمة توظيف عاطفة الأبوة، لعل وعسى.. اتجهت لفاطمة الزهراء، فهل ستنجح المحاولة؟

بيته ﷺ مثل باقي البيوت

قام حزب أم سلمة بتوظيف عاطفة الأبوة، فأوفد فاطمة للحديث بشأن توقيت هدايا الناس.. مع أن تلك الهدايا لم تكن تحفًا ثمينة، ولا مجوهرات.. إنها مجرد رطبات، أو حيس، أو قطع لحم، ومع ذلك فقيمتها ليست في ثمنها، بل في المشاعر التي تحملها. وصلت فاطمة في ساعة ليست ساعة زيارة، فاستأذنت وسلمت، ولم تجلس.. ظلت قائمة تكلم والدها الملتحف بمرط عائشة الصوفي، وتقول: «يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة».

كانت عائشة تحترم فاطمة.. تحبها؛ لذا سكتت.. كانت عائشة وفية لفاطمة، ولولاها لضاعت أخبارها، وأخبار أمها العظيمة خديجة، أما النبي ﷺ فنظر لابنته الحبيبة، وقال: «**أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟** فقالت: بلى، قال: **فأحبّي هذه**».

شعرت الزهراء بأن عائشة لم تسئ لأحد، وأنها مجرد غيرة نساء، فخرجت تحمل عائشة في قلبها.. عادت لمؤتمر الحزب، فأخبرتهن بما جرى، فطلبن منها تكرار المحاولة، فقالت: «والله لا أكلّمه فيها أبدًا».. هنا نهضت زينب، وقررت حسم الأمر بنفسها.. زينب التي تثني عائشة عليها، فتقول: «هي التي تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله، ولم أرَ امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم وأعظم صدقة، وأشد ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلى الله تعالى» لكن فيها حدة سرعان ما تنطفئ.. دخلت زينب التي زوجها الله، فرأت عائشة التي برأها الله مع زوجها، فتأججت غيرتها، فاستطالت على عائشة.. سكت ﷺ، فرفعت زينب صوتها، وسبت عائشة، وعائشة تتململ..

تنتظر إذن زوجها بالرد.. تنتظر إشارته ولو بنظرة، لكن شيئًا لم يحدث، فاستمرت زينب، فنظر ﷺ لعائشة، ففهمت أنه لا يمانع أن تدافع عن نفسها، فانطلقت كلماتها تفند أقوال زينب.. تفحمها حتى أسكتتها، فإذ بزينب تتراجع وتصمت، بينما كان خير الأزواج ﷺ ينصت للرأي والرأي الآخر.. في شأن خاص جدًّا، ولما عجزت زينب عن الرد تبسّم، وقال: «**إنها ابنة أبي بكر**».

انسحبت زينب، وأقر حزب أم سلمة بالنتيجة، بل قدم تنازلات مفاجئة، فبدلًا من أن يطالب الناس بأن يهدوا للنبي ﷺ في غير يوم عائشة.. بدأ الحزب نفسه يهدي في يومها. انقلب الحال، ومن كان لـه حيلة في الوصول لقلب الحبيب فَلْيَحْتَلْ.

حزب أم سلمة يقدم تنازلات

أرسلت أم سلمة للنبي ﷺ صحفة بها طعام، وعنده ضيوف.. لم تشعر عائشة بارتياح لهذا الكرم، فهي لم تطلب من أم سلمة المساعدة.. فقدت التحكم في قلبها، فحدقت بغضب في الطبق، ثم اتجهت نحو حجر في بيتها، فتناولته، وشدت عليه قبضتها، ثم هوت به على الصحفة، فتطايرت الثمار، وهوى الطبق يتلوى على الأرض كسرتين. توقف حامل الطبق مذهولًا، ولزم الضيوف الصمت، فإذ بالزوج الرائع، والنبي القدوة ﷺ ينهض بهدوء، فيجمع كسرتيه، ثم يجمع الطعام المتناثر بيديه، ويضعه أمام ضيوفه، ويقول: «**كلوا، غارت أمكم**»، ثم يقوم نحو طبق لعائشة، فيأخذه، ويملؤه بطعامها، ثم يسلمه لرسول أم سلمة كالاعتذار، وهو يقول له: «**طعام بطعام، وإناء بإناء**».

انتهى كل شيء دون ضجيج، فبيت قائد الدولة ﷺ كبقية البيوت.. تحدث فيه الخصومات، وتحتدم فيه الغيرة، لكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من تعدد زوجاته، لم تجد إحداهن فيه عيبًا يخدش مروءته، أو أنانية، أو حيفًا يقدح بنبوته، أو حتى رائحة تنفر منه.. كان سمحًا لا يبالغ في الحديث عن حقوقه.. كان رجلًا يتحمل

مسـؤولياته باقتـدار.. لم يرهقهن بالعمل، بل كان يخدم نفسـه.. يخصـف نعله.. يخيط ثوبه.. يرقع دلوه، ويحلب شاته.. على الرغم من أنه قائد دولة ومسؤول عن أمة.

يدخل بيته، فإن وجد طعامًا أكل، وإن لم يجد لم يشـعل الحرائق، بل يقول: «إني صائـم»، فمـن يلومهن في حب هذا الزوج، الذي يمنـح الأنوثة وهجها، بل لا تلام الغيرة إن اشتعلت بين أفراد الحزب الواحد.

ذات مساء ساحت العيس في سفر من أسفاره ﷺ، وعندما انتثرت نجوم الليل طاب حديث السـفر، فأحبت عائشـة أن تُري حفصة حبه ﷺ لهـا، فتبرعت بليلتها، وقالـت: «ألا تركبـين الليلـة بعيري، وأركب بعـيرك، فتنظرين وأنظـر؟».. لم تتردد حفصة في القبول، فأقبل ﷺ فسلّم ففوجئ بحفصة ترد، فسار معها يحدثها وتحدثه.. افتقدت عائشـة مسـامرة حبيبها، فظلت تلوم نفسـها طوال الطريق، وحين توقفت القافلـة انحـدرت في حالـة نفسـية يرثى لها.. جلسـت بـين نبات الإذخـر، ومدت رجلها، وحشرتها بين شجيراته، وقامت تدعو على نفسها: «يا رب، سلط عليَّ عقربًا أو حية تلدغني، رسـولك ولا أسـتطيع أن أقول لـه شـيئًا». كان حبه يذهل عائشـة الشابة.. يأكل معها، ويشرب، فكيف كان حبه هو لها؟

~ ~ ~

النبي ﷺ يبوح بحبه لعائشة

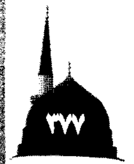
ذات يوم كانت عائشة تروي حكاية من حكايات العرب على حبيبها ﷺ، حين جلسـت إحـدى عشرة امـرأة بمجلـس، فتعاهـدن أن يتحدثن عـن أزواجهن، ولا يكتمن شيئًا.

بدأت الأولى تصف زوجها بأنه كلحم جمل غث، برأس جبل يصعب الوصول إليه، وتذمرت الثانية، فوصفته كأنه مستودع للعيوب والأمراض، وتكلمت الثالثة عن زوج طويل دون فائدة.. إن نطقت طلقها، وإن سـكتت علقها، وهامت الرابعة بزوج كليل تهامة في طيب نسـائمه.. لا تمله، ولا يملها، ووصفت الخامسـة زوجها

بالفهد لكثرة نومه، لكنه بين الناس كالأسد، وأنه لا يبالي بما تنفق من ماله، وما تبقي، ووصفت السادسة زوجها بالأناني.. كثير الأكل والشرب، حتى عند نومه يأخذ اللحاف عنها، ولا يبالي بمشاعرها، أما السابعة، فاشتكت زوجًا أحمق عيايا.. لا يُقترب منه.. أحيانًا يشجها، وربما كسر شيئًا منها، أو جمع الأمرين لها، وتغنت الثامنة بزوج له رائحة طيب يدعى الزرنب، وله مس الأرنب لرقته، فافتخرت التاسعة بزوج رفيع العماد بين قومه، طويل حمائل السيف لطوله.. عظيم الرماد لكرمه، حتى صار بيته كالنادي لقومه، أما العاشرة فوصفت زوجها بأنه خير من ذلك، فله إبل كثيرات.. إذا سمعن عزف العود علامة قدوم الضيف أيقنّ أنه سينحرهن، وأخيرًا تحدثت أم زرع عن زوجها أبي زرع الذي تزوجها فقيرة بشق خيمة متهالكة، فأسكنها أرضًا فيحاء ذات زراعة.. تجوبها الخيل بصهيلها، والإبل بأطيطها، ومنحها خدمًا نظيفة، لا يفشون سرًّا، ولا يفسدون طعامًا.. ألبسها حليًّا، وأشبعها، ودلّلها حتى سمنت، وعظّمها، فعظمت عند نفسها بين النساء، ورزقها الله ولدًا خفيف اللحم كالسيف المسلول، وبنتًا ريانة العود.. عفيفة مؤدبة وبارّة، لكن أبا زرع خرج يومًا، فصادف امرأة فاتنة الجسد، فتزوجها، وطلق أم زرع، وبعده تزوجت أم زرع شابًّا شريفًا غنيًّا كريمًا أكرمها، ومن كرمه طلب منها أن تنعم هي وأهلها بثرائه، لكن على الرغم من سعادة أم زرع، فإنها تتحسر على أبي زرع، فتقول: إنها لو جمعت كل شيء أعطاها زوجها الجديد، ما ملأ أصغر آنية أبي زرع.. كان ﷺ ينصت لتلك الحكاية، فإذ به يبوح لعائشة بحبه، ويقول: «**كنت لك كأبي زرع لأم زرع**» لكن أبا زرع طلق، أما النبي ﷺ فلم يطلق.

إحياء مشروع الحاخام ابن الأشرف

بعد غزوة بني المصطلق، وبعد فرية الإفك.. رصد القائد ﷺ حركة خطيرة على دولته، فقد تزامن حصار قريش والوثنيين مع نشاط خياني قادم من خيبر.. حيث قرر اليهود إحياء مشروع حاخامهم الهالك كعب بن الأشرف.. أحياه خليفته حيي



ابـن أخطـب، الذي اتصـل بالقبائل الوثنيـة في الجزيرة العربية، فأسـفرت اتصالاته عن إقامة حلف عسـكري يهـودي وثني لاجتياح المدينة، ليـس بالتناوب، فقد ثبت فشـل التنـاوب.. الخطة البديلـة هي هجوم كاسـح بجيوش وثنية ويهوديـة هائلة.. دفعـة واحدة تدكّ المدينة، وتجتث الدولة الإسـلامية، وقد وعدهم الحاخام حيي بن أخطب بإقناع يهود قريظة للقيام بهجوم خياني من الداخل؛ لتشتيت تركيز المسلمين وإرباكهم، فيسـهل القضاء عليهم. تم الاتفاق، وتم تحديد موعد الهجوم شتاء العام الخامس للهجرة.

ذهل المسـلمون مـن المؤامرة، وبـات الأمر مخيفًـا، فهم لا يسـتطيعون الخروج للتصـدي لتلـك الجيـوش الهائلـة، كـما حـدث في بـدر وأحـد وذات الرقـاع وبني المصطلق.. الخروج هذه المرة انتحار، وإلقاء بالدولة الإسلامية للتهلكة.

تأمـل القائد ﷺ تضاريـس حبيبته طيبة، فوجدها كجنده.. على أتم الاسـتعداد للوقوف معه.. الجبال تحميهم من هنا، والنخيل والمزارع من هناك، لكن بقي مكان واحد مكشـوف.. رخو كالخاصرة، وليس هناك وقت لبناء سـور؛ لذا قرر ﷺ حفر خندق لحماية الجبهة المكشوفة، ولم يصح أن سلمان الفارسي اقترح فكرة الحفر، فليس له خبرة عسـكرية، وعيشـته بفارس كانت مترفة، ولما هرب من والده عمل في دور العبادة، ثم أصبح عبدًا في مزارع يهود.

الخندق أسـلوب ابتكره النبي ﷺ، كما ابتكر أسـلوب الرماة بأحد.. نقلة فارقة في الفن العسكري أحدثها ﷺ في جزيرة العرب، التي تعتمد في حروبها على أسلوب الكر والفر، لكن تحالف الأحزاب سـبقوه بخطة تجويع شـديدة، فحين أقبل الشـتاء واشـتد الـبرد بدأت المؤونـة تقل، والمدينة تجـوع. قطع الأحزاب طـرق التجارة من الدولة الإسـلامية وإليها؛ لذا أصبح القائد ﷺ وكأنه في سباق مع الزمن.. أمر بحفر خندق على امتداد الجبهة المكشوفة، وحرض جنده، وحدد لهم بداية الخندق ونهايته وعمقه، ثم حدد المسـؤولين عن الحفر، والمسـؤولين عن نقل التراب، ثم بدأ بنفسـه حين هوى بمعوله مدشنًا الخندق.

حفر الخندق

كانت فكرة الخندق فكرته ﷺ.. أمر بها، ودشن مشروعه العسكري حين هوى بمعوله، وهوت المعاول والعتل والمساحي معه.. تعزف خندقًا.. تشق الأرض.. تملأ السماء بالذكر والحماس. تطاير غبار الخندق في أيام شاتية شديدة البرودة.. ملأ الغبار الوجوه، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد.. هكذا بشرهم ﷺ.. في الخندق يصعب تمييز القائد من الجندي، فالقائد ﷺ مرة مع من يحفر، ومرة مع من يحمل.

يقول الفتى البراء بن عازب: «رأيت النبي ﷺ يوم الخندق ينقل معنا التراب، حتى وارى شعر صدره، وكان رجلًا كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبدالله بن رواحة يقول:

والله لَولا اللهُ ما اهْتَدَينا   وَلا صُمْنا وَلا صَلَّينا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَينا   وَثَبِّتِ الأَقْدامَ إِنْ لاقَينا

وَالمشْرِكُونَ قَدْ بَغَوا عَلَينا   إِذا أَرادُوا فِتْنَةً أَبَينا»

ويصف حماس نبيه، فيقول: «كان ﷺ يرفع بها صوته: **أبينا أبينا**» يمد صوته بآخرها أحد المكلفين بالنقل يدعى سهل بن سعد شاهد النبي ﷺ يحمسهم، ويقول: «كنا مع رسول الله في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا، فقال ﷺ: **اللهم، لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة**»، فيزداد الحماس، ويرتج الخندق بحناجر المجاهدين، وهم يجيبون القائد:

«نَحْنُ الَّذِينَ بايَعُوا مُحَمَّدا   عَلَى الإِسْلامِ ما بَقِينا أَبَدا»

طالت مدة الحفر، وطال معها الحصار، وبدأ الطعام يقل، والخوف يزداد، وبدأت الجحافل الوثنية تقبل.. تهز الأرض نحو المدينة، وبدأت بيوت المؤمنين تخلو من الدقيق والتمر والسمن، فأصبح لزامًا على الشعب ترشيد استهلاكه للطعام، ففي

آخر أيام الحفر.. بلغ نصيب مجموعة منهم كمية من الشعير تملأ الكفين.. يضعون عليها شحمًا، ويطبخونها بالماء، ثم يتناولونها، وهي التي يسمونها إهالة سنخة.

يقول جابر بن عبدالله: «لما حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق أصابهم جهدٌ شديدٌ، حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع» شاهد جابر ذلك الحجر حين كان ورفاقه يحفرون، فصادفتهم كدية عجزوا عنها، فخرج جابر من الخندق نحو قائده، فقال: «هذه كدية قد عرضت في الخندق؟ فقال ﷺ: **أنا نازل**» نظر جابر للحجر ملتصقًا ببطن خير من مشى على الأرض، فتألم جدًّا، وانطلق لبيته يبحث عن طعام لنبيه، ففوجئ بطعام يكفي الجيش كله.

كرامات جابر لا تنتهي

ترك جابر الحفر في الخندق، وصعد نحو قائده ﷺ ولما وجده قال: «هذه كدية قد عرضت في الخندق؟ فقال ﷺ: **أنا نازل**». عاد جابر ليكمل حفره، ثم نزل ﷺ، فرشّ الصحابة ماء على الكدية، فقام ﷺ وبطنه معصوب بحجر، فأخذ المعول ورفعه، ثم قال: باسم الله، ثم رفع وهوى بكل قوته على الكدية، فإذا هي تتناثر شظايًا، ثم فوجئ الصحابة وسط هذا البرد والجوع والقلق بنبيهم.. يبشرهم بفتح إمبراطوريتي فارس والروم.

بشرهم ولسان حال المنافقين يقول: أي فتح والأحزاب قادمون؟ أي فتح وقائدكم يربط الحجر على بطنه جوعًا؟ اشبعوا أولًا، ثم احلموا، وإذا حلمتم فلا تحلموا بفارس والروم، أما المؤمنون فزادتهم البشرى إيمانًا، ولسان حالهم يقول: صدق الله ورسوله، وأما جابر فأوجعته تقاسيم الجوع على نبيه ﷺ.. نبيه الذي طالما حدب عليه وواساه، وصار له الأب بعد أبيه، فقال: «يا رسول الله، ائذن لي» فأذن له، فانطلق الفتى عبر شوارع المدينة التي يجوبها البرد والجوع والترقب.. دخل بيته

ليس هربًا كالمنافقين.. نادى زوجته، وقد تغير وجهه حزنًا، فقال: «**ثكلتك أمك، إني قد رأيت من رسول الله شيئًا لا صبر عليه، رأيت برسول الله خمصًا شديدًا، أي جوعًا، فما عندك؟**».. تألمت الزوجة الطيبة، فقالت: «**عندي صاع من شعير وعناق**».

ذكى جابر شاته، وقطع لحمها مع أخواته، ثم وضعوها في قدر يسمونه البرمة، وانشغلت زوجته وباقي أخواته بطحن الشعير وعجنه، ثم تركنه ريثما يصلح، ثم خرج جابر لإكمال عمله في الخندق، ثم عاد لقائده واستأذنه ثانية، فذهب لبيته وتأمل العجين، فإذا هو قد أمكن، وأصبح جاهزًا للخبز، ثم وضع ثلاثة أحجار يسمونها الأثافي، وأشعل بينها النار، ووضع القدر عليها، وقبل أن يخرج طلب من زوجته أن تخبز، فأوقفته ورجته أن يقلل عدد المدعوين، قائلة: «**لا تفضحني برسول الله وبمن معه**» وصل جابر، فتهادى، وهمس بنبيه ﷺ: «**إن عندنا طعيمًا لنا، فإن رأيت أن تقوم معي أنت ورجل أو رجلان معك فعلت؟**».

أنصت القائد ﷺ لكلمة (طعيم) فأراد استيضاحًا أكثر، فقال: «**ما هو، وكم هو؟**» قال: صاع من شعير وعناق. هنا نطق ﷺ وحيًا، فقال: «**ارجع إلى أهلك، فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التنور حتى آتي**».

شبع أهل الخندق وأقبل الأحزاب

نطق النبي ﷺ وحيًا، فقال لجابر: «**ارجع إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التنور حتى آتي**».. انطلق جابر ليخبر زوجته، ثم توجه القائد لجنده في الخندق، وهتف بهم: «**قوموا إلى بيت جابر**».

أُلقيت المعاول والمساحي والمحافر في الخندق، ونفض الرجال الغبار عن وجوههم وثيابهم، وغسلوا أيديهم، وسالت بهم الشوارع، واحتفت بهم الأحياء. سمع جابر أصوات الرجال في الخارج، فخرج، فصدمه المشهد، فقال: «فاستحييت حياءً حتى لا يعلمه إلاّ الله»، ثم دخل يتصبب خجلًا، وقال لزوجته: «قد افتضحت

ثكلتك أمك، وقد جاءك رسـول الله وأصحابه أجمعـون» لامته المرأة ظانّة أنه لم يخبر نبيـه بقلة الطعام، فقالت: «بـك وبك. فقال لها: قد فعلتُ الذي قُلتِ. فقالت: أكان رسـول الله سـألك عن الطعام؟ قال: نعم»، فهدأت وقالت: «الله ورسوله أعلم» ثم قامت بإطفاء نار التنور.. تاركة الخبز فيه، وتركت القدر على الأثافي، وشـيئًا فشيئًا اكتظت الشـوارع المؤدية لبيت جابر بألف بطل أنهكهم الجوع، وهم سـعداء بوجبة قد تطفئ لهب الجوع، وتخفف برد الشتاء.

اسـتأذن النبي القائد، فاحتفى به الفتى وهو خجل، فدخل ﷺ ثم توجه للفرن والقـدر، فدعـا ربـه أن يبـارك بها فيهـا.. أحضر جابر عـدة أطباق تسـمى الواحدة صحفـة، فخـرج ﷺ لأبطالـه وقـال: «**لا تضاغطوا**»، أمـا جابر، فجعـل هو ورأس الدولـة يخدمـان الجنـد.. يثردان خبز الشـعير عـلى الصحفة، ثـم يتجهـان للقدر.. يغرفـان مـن لحمـه ومرقـه، ويسـكبانه عـلى الثريـد.. كانـت الصحفة كبـيرة، ولذا قال ﷺ: «**ليجلس على الصحفة سـبعة أو ثمانية**»، وهكذا أصبحت الدفعة تقترب من الثلاثـين، أو تزيـد، ولما انتهـت الدفعة الأولى دخلـت الدفعة الثانية، فكشـف جابر الفـرن والقدر، ليفاجأ، ويقول: «كشـفنا التنور والبرمـة، فإذا هما قد عادا إلى أملأ ما كانا، فنثرد، ونغرف، ونقرّب إليهم، فلم نزل نفعل ذلك، كلّما فتحنا التنور، وكشفنا عن البرمة وجدناها أملأ ما كانا، حتى شبع المسـلمون منها، وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه، وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي».

نظر القائد ﷺ إلى الطعام الوفير، فلاح فقراء شعبه، فقال لجابر موصيًا بجيرانه.. بالفقراء: (إن الناس قد أصابتهم مخمصة، فكلوا وأطعموا. قال جابر: فلم نزل يومنا نأكل، ونطعم).

حاخام يتسلل كالحية

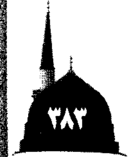
أكمـل المجاهـدون حفر خندقهم، ثـم وصلت الأخبار بـأن جيوش الأحزاب المرعبـة قـد حطـت، وعسكرت قبيـل المدينة.. نـزل جيش قريـش الكبـير برومة،

وعسكر جيش غطفان الهائل بجانب جبل أحد، وتفرقت اليهود وبقايا الوثنيين هنا وهناك.. أغلقت كل الطرق، وتم اكتساح كل البلدات المسلمة خارج المدينة، التي شهدت حركة نزوح داخلية للمسلمين هربًا من الفوضى التي أحدثها الوثنيون، وبدأت المباحثات بين القيادات الوثنية واليهودية.. كانت قيادات مزهوة بجيوشها وأسلحتها، وكلها ثقة من سحق الدولة الإسلامية في سويعات، ولم يبقَ سوى الدور اليهودي الأهم في الداخل، وهو دور بني قريظة الذين خانوا الدولة الإسلامية مرتين، لكن يبدو أنهم مازالوا ملتزمين بمعاهدتهم مع القائد ﷺ، ولم تصل منهم حتى الآن إشارات أو رسائل تدل على خيانة جديدة ﷺ.

شعر الأحزاب بأهمية دور بني قريظة في هذه المعركة الحاسمة، فهم من سيسهم في انهيار دولة الإسلام، ويعجل بسقوطها من الداخل؛ لذا تطوع الحاخام الخائن حيي بن أخطب للأحزاب بمهمة إقناع قريظة.. تسلل كالحية بين النخيل والجبال متخفيًا عن أعين المسلمين، فهو من أعلم الناس بالطرق الملتوية نحو قريظة.. مشى حتى وصل حصنهم.. طرق باب الحصن، وصاح بحراسه، فنظروا إليه فعرفوه، وفزعوا من مجيئه، ولم يفتحوا له.

اتجه حرس بوابة الحصن لقائدهم الحاخام كعب بن أسد، الذي وقع معاهدة الصلح مع الدولة الإسلامية، فأخبروه، ففزع وتشاءم من مجيء ابن أخطب، فأمرهم بإغلاق الأبواب وعدم السماح له بالدخول.. ظل حيي يرفع صوته.. ينادي كعب ابن أسد، ويقول: «ويحك يا كعب، افتح لي حتى أدخل عليك»، فلم يجد كعب بدًّا من طرده بنفسه، فنهض نحو البوابة وهتف: «ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشؤوم، وإنه لا حاجة لي بك ولا بما جئتني به، إني لم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاء، وقد وادعني موادعة، فدعني، وارجع عني» أدرك حيي أن مهمته صعبة، لكنه لم ييأس، فاستخدم عنصر الاستفزاز، قائلًا: «إن أغلقت دوني إلا عن خشيتك أن آكل معك».

شعر كعب بالإهانة، فأخذته العزة بالذنب، وأمر الحرس بفتح الباب له، فتسللت الحية، وغرزت أنيابها في ذلك الحصن الآمن، وأفرغت فيه بقايا سمها.



خبر عاجل عن خيانة يهودية ثالثة

قام حاخام قريظة كعب بن أسد الذي وقع المعاهدة الثالثة مع الدولة الإسلامية.. قام بطرد حاخام بني النضير حيي بن أخطب.. صاحب فكرة تحريض الأحزاب الوثنية على الدولة الإسلامية. لم ينصرف حيي.. كان يعرف كيف يستفز كعبًا؛ لذا قال له: إنك لا تريد أن تفتح لي لأنك لا تريد أن آكل معك.

نجح الاستفزاز، ففتحت بوابة الحصن اليهودي، ودخل حيي، لكن كعبًا قال: «يا حيي، إنك امرؤ مشؤوم، وإنه لا حاجة لي بك ولا بما جئتني به، إني لم أرَ من محمد إلا صدقًا ووفاء، وقد وادعني موادعة فدعني، وارجع عني»، فردّ عليه حيي والحماس يملأ ثيابه: «ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر، بقريش معها قادتها حتى أنزلتها برومة، وجئتك بغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتها إلى جانب أحد، جئتك ببحر طامٍ لا يرده شيء. فقال كعب: جئتني والله بالذل، ويلك فدعني، وما أنا عليه، فإنه لا حاجة لي بك ولا بما تدعوني إليه».

بدأ حيي يمني كعبًا بزوال الدولة الإسلامية، وانمحاء الإسلام.. بأمهات المؤمنين والنساء المسلمات جوارٍ في حصنه.. بدأ يجري له عمليات حسابية، وكأنه يقول له: ماذا يفعل ألف مقاتل مسلم جائع، أمام أكثر من عشرة آلاف مقاتل مدجج بالسلاح؟ بدأ بإخافته من الأحزاب، وأنهم سيعاقبونه إن ظل على مسالمته وعهده مع محمد.. ظل حيي بن أخطب يفتله في الذروة والغارب حتى أطاع له، لكن كعب بن أسد أراد ضمانات من حيي ألايتخلى عنه.. ماذا لو عاد الأحزاب دون حرب؟ هنا أعطاه حيي العهد والميثاق، فقال: «لئن رجعت قريش وغطفان قبل أن يصيبوا محمدًا، لأدخلن معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك»، فاقتنع كعب بن أسد بجدية العرض، وأن أكثر من عشرة آلاف مقاتل وثني سيدفعون فاتورة خيانته، فنقض العهد، وأظهر البراءة من القائد ﷺ وماكان بينه وبينه، بل أرسل له يعلن أنه مع الأحزاب، وأنه شريك في الحرب.

وصل الخبر للمسلمين، فزلزلوا زلزالًا شديدًا، وارتبكوا، وفتت خيانة يهود قريظة الثالثة من معنويات الكثيرين، وبدأ المنافقون يرتجفون، تدور أعينهم..

بدؤوا يستأذنون هربًا لبيوتهم، فشعر النبي القائد ﷺ بهول الأمر، فأمر بجمع النساء والأطفال في حصن منيع يقال له (حصن بني حارثة) فامتلأ الحصن بنظراتهم البريئة الخائفة.

أحد قادة الأحزاب يتسلل

تحركت كتائب الأحزاب نحو المدينة.. هزت الأرض، وأعلن يهود قريظة الحرب، وفر المنافقون لبيوتهم، وزلزل المؤمنون زلزالًا شديدًا، فجمع النبي القائد ﷺ النساء والأطفال في حصن بني الحارثة، ثم نشر الرماة على امتداد الخندق، فاتخذوا المتاريس وهم يرون طوفان الأحزاب، وصيحاتهم المتنشية تقترب تلوث الأجواء، وتثير الرعب، وفجأة تلاشى الصياح والحماس، وتلاشى الغبار.. ابتلع الخندق طوفان الحماس.. صعق الوثنيون لعبقرية محمد ﷺ ودهائه، وأذهلهم خندقه.. طافت خيلهم مذهولة حول المدينة.. جن جنونهم وهم يرون غابات النخيل والجبال تناضل عن مدينة التوحيد. تحير قادتهم، فقد خططوا لمعركة خاطفة وسريعة لا تستغرق ساعة من نهار.. يقتلون فيها محمدًا، ويطفئون نور التوحيد، ثم يعودون مردفين الصحابيات وأمهات المؤمنين، لكن الساعات مرت، واليوم الأول مر محبطًا. ففكر أحد قادة الأحزاب بغنائم مجانية، فتسلل دون علم قريش نحو القائد ﷺ.

تسلل الحارث الغطفاني سرًّا خلال طرق ملتوية حتى دخل المدينة.. سأل عن النبي ﷺ فدلوه عليه، ولما أصبح أمامه خاطبه بزهو، وهدده بثقة، فقال: «يا محمد، ناصفنا تمر المدينة وإلا ملأناها عليك خيلًا ورجالًا» أنصت ﷺ بهدوء، فلم يرفض دفع نصف إنتاج دولته من التمر، بل رأى أن إبقاء هذه القبيلة العظيمة غطفان على الحياد فرصة لتفكيك الأحزاب، والحفاظ على مكتسبات دولته، لكنه ما اتخذ قرارًا دون مشورة شعبه، وما نقض يومًا عهده لهم ببيعة العقبة، فلولا الله ثم شعبه لظل يطارد في شعاب مكة.

طلب القائد ﷺ من الحارث أن يمهله حتى يستشير زعيمي الأنصار، فانصرف الحارث على أن يعود ﷺ، فاستدعى ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، وشاورهما في تجنيب الدولة حربًا طاحنة، وقال: «**إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد**»، فلخص السعدان إجابتهما في ثلاث نقاط تمثل منهج المسلم في التلقي عن قيادته، فقالا: «يا رسول الله، أوحيٌ من السماء فالتسليمُ لأمر الله؟ أو عن رأيك أو هواك، فرأينا تبع لهواك ورأيك»، ولما نطقا بالثالثة كشفا أهمية الشورى في الإسلام.

الشورى حين بلغت القلوب الحناجر

لاحت فرصة للقائد ﷺ لتفادي الصدام مع جيوش الأحزاب التي لا قبل للدولة الإسلامية بها، وذلك بتقديم نصف إنتاج الوطن من التمر لقائد غطفان.. مرونة وذكاء قيادي للحفاظ على المكتسبات؛ لذا نادى وزيريه أميري الأوس والخزرج، فالتمر يخرج من أرضهم، والتمر ملك الناس لا ملك الدولة.. دعاهم ليستشيرهم كما هي سنته، فأجابه الوزيران: «يا رسول الله أوحيٌ من السماء، فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك فرأينا تبع لهواك ورأيك؟، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منّا تمرة إلا بِشِرى أو قرى، ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام؟»..

قدم ﷺ رأي وزيريه وهو خيار الصمود، على رأيه وهو تقديم التنازل المالي، بعد أن رأى عزمًا لا يفل، وعزيمة لا تتراجع، فما استشار شعبه إلا استنار برأيهم، وأخذ به، بل وقدمه على رأيه، كما أنه لم يكن عند استشارته يبحث عما يؤيده، ويبرر له، بل يبحث عن الأهم وهو ما يقوي دولته، ويحمي شعبه، وينصر دينه. انصرف الوزيران، وجاء الزعيم الوثني الذي طلب التمر، ولما وقف أمامه أخبره ﷺ برفض مستشاريه، فهاج غضبًا، وقال: «غدرت يا محمد» لم يرد ﷺ عليه.. صعقه حسان

ابن ثابت بأبيات، فصاح: «كفّ عنا يا محمد، لسان حسان، فلو مزج به ماء البحر لمزجه»، ثم امتطى راحلته، وغادر إلى معسكره ليشن حربًا مخيفة، أما القائد ﷺ فعاد لرماته المنتشرين على امتداد الخندق.. يبث فيهم الحماس خشية مباغتة الأحزاب، لكن خشيته من خيانة قريظة أعظم، فقد تكفل الخندق بصد الوثنيين، لكن من يصد قريظة إن تحركت؟ سيضطر ﷺ إلى سحب معظم جيشه لصدها، وبذا يترك الخندق مفتوحًا لعشرة آلاف وثني مدجج.. كارثة كشفت بعد نظره ﷺ، حين أمر بالتخلص من صاحب فكرة الأحزاب الخائن كعب بن الأشرف.

مر النهار، وخيم الليل، وأشعلت النيران على جانبي الخندق.. كان الليل مخيفًا وباردًا، والدروب غير آمنة، فخشي القائد ﷺ من تسلل الوثنيين، فأعطى رجاله كلمة سر يختبرون بها من يشكون في أمره، فقال: «**إن بيَّتكم العدو، فقولوا: حم، لا ينصرون**»، ثم أشرقت شمس يوم جديد، وإذ بهم يسمعون صياحًا: من يبارز؟

خندق من الرعب

طلع فجر جديد، وهب برد شديد زاد حيرة قادة الأحزاب الوثنية، الذين عقدوا الاجتماعات لاقتحام المدينة وحسم المعركة.. ثرثروا لكنهم لم يقولوا شيئًا، فقد قال محمد كل شيء.. عبقريته العسكرية أصابتهم بالجنون.. لم يبقَ لهم سوى ضرب الأكف وإشعال الحطب والاستدفاء، ثم قرروا قتل هذا الملل بأي شيء، لكن كيف ولا عدو بين أيديهم.. لاحت فكرة يائسة: من يبارز؟ صرخ بها شجاع يقال له عمرو بن ود، فبرز له علي بن أبي طالب، فاقترب منه وتواجها، فضربه ضربة تركه بعدها جثة يتلبط بدمه. لم يحدث اشتباك بعد المبارزة كما جرت العادة في بدر وأحد، فالاشتباك مستحيل بوجود هذا الخندق.. عادت جيوشهم من جديد للكمون الممل.. جربوا أسلوب القصف بالسهام، فرد المسلمون، فحدثت إصابات بين الطرفين، ثم سكتت الأسهم، وعاد الوضع لحالة الكمون مجددًا، وتململت الجيوش الهائلة، وأصابها الإحباط، ثم تقدم القناصة، فكمنوا خلف الأكمات، لتتحول معركة الوثنيين إلى رحلة قنص.

ظلوا يراقبون، ويقنصون من بعيد ساعات وساعات.. في عملية مملة تقتل المعنويات، وتشجع على شرب الخمر لنسيان البؤس حول هذا الخندق المخيف.. لم يبقَ للأحزاب إلا أمل واحد: قريظة.. إن هجمت، وطعنت المسلمين من الخلف فستنحلّ كل العقد، وستستباح المدينة، وهي مهمة لا يجيدها سوى رأس الفتنة الحاخام الخائن حيي بن أخطب الذي تسلل مجددًا نحو خونة قريظة، ليحرضهم على التحرك، ويغريهم بالهجوم، لكن الله ألقى الرعب في قلوبهم، فظلوا يرتجفون في حصونهم؛ لأنه لم ترد لهم أي أخبار عن اقتحام للمدينة، ولا يريدون أن تكون الضربة الأولى بهم.. لم يخرجوا، ولم يُخرجوا حيي الخائن بعد أن أدركوا هول الورطة التي ورطهم بها، أما المؤمنون فأصابهم رعب وصفه الله بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، وأما المنافقون فانخلعت قلوبهم وهربوا، ولم يكتفوا بالفرار، بل بدؤوا يخذلون كعادتهم.. ينادون المؤمنين: ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣]، وفجأة اكتشف الوثنيون ثغرة خطيرة في الخندق.. ثغرة أذهلت الصحابة عن كل شيء حتى عن الصلاة.

ثغرة في الخندق

في ظهيرة أحد أيام الحصار عثر الوثنيون على ثغرة يتسللون منها.. ربما كانت منطقة غير عميقة في الخندق، وربما كانت على أطرافه.. تكدس الوثنيون، وبدؤوا الاقتحام من خلالها.. قاوم المؤمنون، ووصل الخبر للقائد ﷺ، فانطلق نحو تلك الثغرة هو وبعض شجعانه لصد المقتحمين.. كانت معركة شرسة خاضها كبار الصحابة، ولم يتمكن ﷺ من مغادرة المكان، لكن الأماكن الأخرى حاضرة في ذهنه.. شعر بقلق من نقطة القوة لدى الأحزاب، وهي جيش قريظة، فهتف برجاله، فقال: «**من يأتِ بني قريظة، فيأتيني بخبرهم؟**» كان الزبير بن العوام قريبًا منه، فقال: أنا. ثم انطلق على فرسه كالسهم.. يرصد الطريق، ويتلفت حتى وصل الحصن..

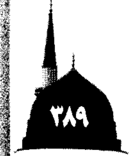
مسح المنطقة، فوجد اليهود في حالة تأهب للحرب، وإصرار على الخيانة، لكن شيئًا ما يجعلهم قابعين في حصنهم.. ربما ينتظرون اقتحام الأحزاب.

رجع الفارس ينهب الأرض، وفي الطريق مر بحصن بني حارثة، حيث زوجته ذات النطاقين وأمهات المؤمنين، وحيث تحدث حركة بألوان البراءة، ففي غفلة من أسماء بنت أبي بكر وأم سلمة صعد طفلاهما عمر بن أبي سلمة الذي تجاوز السادسة، وعبدالله بن الزبير الذي بلغ الخامسة.. صعدا لسطح الحصن لمشاهدة ما يجري على الأرض، لكن جدار السطح كان أرفع من قامتيهما، فاتفقا أن ينحني أحدهما، فيصعد صديقه على ظهره وينظر، ثم ينزل ليأخذ الآخر دوره.. حركات مفعمة بالحلم.. بالفروسية، وفجأة رأى عبدالله والده الزبير، فقال: «عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة على فرسه».

عاد الزبير لقائده، فقدم تقريره، فقال ﷺ مثمنًا فروسيته: «فداك أبي وأمي» وبعد فترة عاوده القلق من بني قريظة، فقال: «**من يأتيني بخبر القوم؟**» فقال الزبير: أنا. فانطلق، ثم عاد بالتقرير نفسه، فقال ﷺ: «**إن لكل نبي حواريًا، وحواري الزبير**».. ظل القائد ﷺ يدافع عن تلك الثغرة من الظهر حتى غابت الشمس، فيئس الوثنيون وانسحبوا، وإذ بعمر يقبل وهو يسب المشركين، ويقول: «يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب؟ فقال ﷺ: **والله ما صليتها**» ثم قام ﷺ ومن معه إلى وادي بطحان، فتوضؤوا وصلوا العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلوا المغرب.

عائشة تخشى على سعد بن معاذ

لم تكن النساء في حالة استرخاء في ذلك الحصن.. كنّ في حالة استنفار ودعاء وترقب، واستعداد حتى للقتال والشهادة، ففي بداية دخولهن الحصن خرجت عائشة وأم سعد بن معاذ تتقفيان آثار الناس، وفجأة سمعت عائشة وئيد الأرض



خلفها، فجلست إلى الأرض، فإذا هو سعد بن معاذ بهيبته وطوله الفارع وابن أخيه الحارث.. كان سعد يرتجز بأبيات تحتفي بالشهادة، ويقول:

لَبِّثْ قليلًا يُدْرِكُ الهَيْجا حَمَلْ　　　ما أَحْسَنَ المَوْتَ إِذا حانَ الأَجَلْ

هتفت أم سعد بقرّة عينها، وقالت: «الحق يا بني، فقد والله أخّرت» أما عائشة فتأملت درع المؤمن الذي دافع عنها بسيفه ولسانه، فخشيت على أطرافه؛ لأنها مكشوفة، فالتفتت لأمه وقالت: «يا أم سعد، لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي».. واصلتا المشي حتى وصلتا حديقة، فاقتحمتها عائشة، لتفاجأ بعمر بن الخطاب ومعه رجال.. أحدهم قد غطى وجهه بالحديد. أوقف عمر المرأة، وبدأ بسيل من اللوم لها قائلًا: «ما جاء بك لعمري؟ والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز. قالت عائشة: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت لي ساعتئذ، فدخلت فيها».

انزعج الفارس المدرع من كثرة اللوم للمرأة، فكشف عن وجهه، فإذا هو طلحة ابن عبيدالله، فهتف بعمر: «يا عمر، ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله ﷻ؟» فسكت عمر، وعادت عائشة وأم سعد للحصن، وصال سعد وجال حتى لمحه قناص وثني يقال له: ابن العرقة، فانتزع سهمًا، ووضعه في كبد قوسه، وشده بأقصى قوته، ثم أطلقه قذيفة، وهو يقول: «خذها وأنا ابن العرقة» انطلق السهم، فلم يتوقف إلا في عرق ذراع سعد بن معاذ الذي يسمى الأكحل.. تغيرت ملامح سعد، ومد يده الأخرى للسهم، فانتزعه، فانفجر الدم حيث تخوفت عائشة.

ربط إخوته جرحه، وأخذوه للقائد ﷺ الذي أحزنه ما حدث لوزيره، فاجتهد اجتهاد البشر فكواه بالنار، لكن الذراع تورمت، فطلب ﷺ أن تنصب له خيمة في المسجد لتمريضه. حمله الرجال، ولما أجلسوه في خيمة العلاج كان يعاني جرحًا أشد.. جرحًا لا يندمل.. جرحًا غائرًا في قلبه.. جرح خيانة حلفائه ومواليه اليهود، الذين خانوا حلفه، وغدروا بدولته، وتآمروا على نبيه ﷺ فناشد ربه: «اللهم، لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة».

داهية غطفان وخيانة قريظة الرابعة

في أثنـاء الحصار تحرك قلب أحد دهاة غطفان، فتسـلل نحـو المدينة حتى تمكن من رؤية النبي ﷺ، ولما رآه رأى الحياة.. شهد أن لا إله إلا الله، وشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وخلع الوثنية والأصنام، ورضي أن يكون محاصَرًا مع نبي الله، بدلًا من أن يكون محاصِرًا من أجل حطبة أو حجر.. أسـلم نعيم بن مسـعود الغطفاني دون علم قومه، وتمنى لو صعدت روحه دفاعًا عن دينه.

احتفى القائد ﷺ به، وفي أحد أيام الحصار استدعاه، وكان سبب استدعائه منعطفًا في سـير المعركة، فبعد أن تيقن يهود قريظة أن الأحـزاب الوثنية غير قادرة على اقتحام الخندق.. تحسسـوا رقابهم، وشعروا بورطتهم وفداحة جرمهم.. فكروا وفكروا بحثًا عن مهرب من خيانتهم، فلم يجدوا سوى علاج خيانتهم بخيانة معاكسة.

فُتـح باب حصنهـم، فانطلق منه راكب ينهـب الأرض.. يبحث عن قائد الدولة الإسـلامية ﷺ، ولمـا وصل أخذوه إليـه، ولما وقف أمامه قـدم اقتراحًا من حاخاماتهم يطلبون فيه الصفح مقابل عرض أغضبه ﷺ، وأكد له أن هؤلاء اليهود لا عهد لهم ولا أمـان، وكأن الخيانـة جزء من لحمهم ودمهم.. كأنهم يتنفسـونها مع الهواء، ويشربونها مـع المـاء. قـال الحاخامـات: «إن كان يرضيـك عنا أن تأخـذ رجالًا رهنًـا من قريش وغطفان من أشرافهم، فندفعهم إليك فتقتلهم؟» لم يرد ﷺ على رسالة الخونة.. تركهم في حيرتهـم، فانـصرف مبعوثهم حائرًا، ومباشرة اسـتدعى ﷺ داهيـة غطفان نعيم بن مسـعود، (وكان نعيم في الجاهلية نمومًا) يجيـد التحريش بين الخصوم، فقال ﷺ: «**إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجالًا رهنًا من قريش وغطفان من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم؟**».

نهـض نعيم لأداء مهمتـه، فلما ولى قـال ﷺ: «**إنما الحرب خدعـة**».. توجه نعيم نحو الحارث وأبي سـفيان، فأخبرهما بخيانة اليهود لهما، واسـتعدادها لاسـتدراجهما واسـتدراج كبـار الوثنيـين، ثـم أسرهـم وتسـليمهم لمحمـد ليقتلهم. صـدم زعماء الأحـزاب من خسـة قريظة، ومن موقف شريكهم حيي الـذي قام بجمع الأحزاب

وتأليبهم. وأدركوا أن من الغباء الوثوق بمعاهدة يوقع عليها يهودي.. أصيبوا بالإحباط، وخارت قواهم، وظلوا وسط عالم من الحيرة والخمول، وفجأة دبت بينهم حركة جنونية.. الكل يركض.. الكل يختبئ.. لكن إلى أين؟

الشبح الهائل يقتحم المعسكر

نحر نعيم بن مسعود الغطفاني قادة الأحزاب، حين أخبرهم بأن قريظة ستدعوهم لاجتماع، ثم تغدر بهم، وتسلمهم لمحمد ليحز رؤوسهم.. أدركوا أن الثقة باليهود انتحار.. انهارت معنوياتهم، ولفهم سكون وبرد كالموت.

لا بأس بإشعال الحطب والتحلق حوله لطرد البرد والسآمة بالثرثرة، وفجأة توقفت الثرثرة، وفز آلالاف، واتسعت أعينهم، وارتجفت قلوبهم، وامتدت أيديهم وأصابعهم تشير إلى شيء مقبل من بعيد.. دب في المعسكر الهائل نشاط كالجنون.. علا صياحهم وهم يرون جبلًا هائلًا يزحف نحوهم.. تراكض الشجعان والجبناء في كل اتجاه، فهو يطيح بكل من أمامه، ويسحق كل ما أمامه.. يحوله إلى نفايات وكأنه يقلب الأرض. غبار وأوراق وسعف وجرائد، وقش وثياب.

فوضى تملأ ما بين السماء والأرض.. فوضى يتعاظم حجمها.. تسد الأفق.. تغطي الشمس، وتقترب كالموت. اسودت الدنيا، وتحول النهار إلى ليل.. اندس الوثنيون في خيامهم، وامتدت قبضة الريح تدكّ معسكرهم، فجفلت الخيل، وندّت الإبل، والريح السوداء تطوح بالقدور.. بالفرش.. تنثر الجمر والرماد، والدقيق والطعام في كل اتجاه، وتقتلع الخيام، فإذا الوثنيون في عراء بلا مخابئ.. لا أحد يرى، فالريح تملأ الأعين والأفواه بالتراب.. لا أحد يسمع، فالريح تزمجر.. تصم الآذان.. لا أحد يتكلم، فالريح تلقي كلمتها. الوثنيون خائفون.. قد حنوا رؤوسهم، وألصقوها بالأرض، أو بين أرجلهم.. يحمونها بأيديهم وبما تبقى لهم من ثياب، وبعضهم ينبطح خشية أن تطوح به، وقريظة ترى الجبل الأسود يمر من بعيد،

فترتعد، والمنافقون في بيوتهم ينسون خمرهم وطعامهم وهم يرون المدينة بلا نهار.. بلا شمس. لأول مرة يرون هذه الأجواء المرعبة، أما المؤمنون فحول نبيهم يرتجفون بردًا وجوعًا ويتوجسون من هذا الجدار الأسود، الذي حال بينهم وبين الأحزاب، وإذ بالقائد يخرج عليهم.. يطلب منهم الانصراف لبيوتهم، وهو يرى نصر الله أمامه، فقد كان قبل قليل ببطن الشعب قرب خرابة قديمة.. يصلي.. يناشد الجبار: «**اللهم، منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم، اهزمهم وزلزلهم**».. يدعو، والريح استجابة.. يدعو، والريح تدمر.

برد أذهل كبار الصحابة عن نداء نبيهم

الريح تدمر.. تحول معسكرات الأحزاب حول الخندق إلى ساحة فوضى ونفايات، والبرد يجعل المكان زمهريرًا لا يطاق. كلما رفع الوثنيون رؤوسهم لا يدرون أينشغلون بأعينهم وأنوفهم وآذانهم، أم بالبحث عما يخفف هذا الزمهرير.. كانوا خائفين.. متسخين، وكأن العاصفة قد طوحت بهم لمكان لا يعرفونه.. عركوا أعينهم، ونظروا حولهم، فرأوا دوابهم ناقصة، وأوعيتهم ونيرانهم مختفية.. لا خيام.. لا طعام، والليل يقبل كالوحش.. كالموت، والكثير ينتظر توقف العاصفة ليهرب لدياره، فالمكان يجوبه الموت والجوع والبرد.. المكان مكب نفايات.

نال المدينة القليل من تلك العاصفة، والكثير من بردها، أما نبي الله فأيقن بنصر ربه، فطلب من أبطاله الذي ينتفضون من البرد الانصراف لبيوتهم، وحين خيّم الليل لم يبقَ معه سوى القليل، أحدهم عثمان بن مظعون، الذي نادى ابن أخته عبدالله بن عمر بن الخطاب ذا الخمسة عشر عامًا، فقال: «ائتنا بطعام ولحاف» لبى الفتى الذي يخوض أول حروبه نداء خاله، لكنه لن يذهب حتى يستأذن. توجه نحو قائده ﷺ، فاستأذنه، فأذن له، وحمله رسالة وسط هذا الزمهرير، فقال: «**من لقيت من أصحابي فمرهم يرجعوا**» انطلق الفتى يرتجف بردًا، ويقول: «ذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحدًا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، فما يلوي أحد منهم عنقه»

عـاد ابن عمر إلى العراء.. إلى مشـارف الخندق، حيث خفـت الريح، وازداد البرد.. برد جمد الصحابة.. أذهلهم حتى عن نداء نبيهم الذي يهتف: «**ألا رجل يأتيني بخبر القـوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» سـكت عظماء الصحابـة.. جمدت أطرافهم، فهم ليسـوا أصحاب قـوى خارقة.. هم بـشر، ولطاقتهم حدود بلغوها، فلـم يُجبه منهم أحد. كرر ﷺ: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟**» فلم يجبه أحد، فكررها ثالثة، فخيّم السكون حتى قال حذيفة: فسكتنا فلم يجبه منا أحد. فقال: «**قم يـا حذيفـة، فأتِنا بخبر القوم**». فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسـمي أن أقوم. نهض حذيفة، وأقبل ينتفض.. يرتجف.. يهتز في مشيته حتى وقف أمام قائده، فقال ﷺ له: «**اذهب، فأتِني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي**» أي لا تثرهم، ولا تلفت انتباههم علينا.. انطلق حذيفة، ولما انطلق تغيرت مشيته فجأة.

قم يا نومان

كان حذيفـة يلـف ثيابه على جسـده، ويرتجـف من البرد، حين نـاداه قائده ﷺ، وحالما لبى نداءه واتجه نحو معسـكر الوثنيين لرصد تحركاتهم تغيرت مشـيته.. رفع رأسه، ولم يعد يفرك يديه أو يشدهما حول كتفيه.. لقد انساب الدفء إلى جسده وكأنه في حمام للبخار.. إنه يقول: «لما وليت من عنده ﷺ جعلت كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهـم» تسـلل حذيفة، وتظاهر بالـبرد، وتقنع حتى لا يعرفه أحد، وفجأة اتسـعت عيناه على مشهد بالغ الإغراء، فانتزع من كنانته سهمًا، ووضعه في كبد القوس، وشد الوتر، لكن شيئًا جعله يعيد السهم إلى مكانه، ويقول: «رأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنـار، فوضعت سـهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسـول الله: ولا تذعرهم علي، أي لا تثرهم، ولو رميته لأصبته».

بـدأ حذيفة يتأمل المشـهد المذهل، ويقترب من أبي سـفيان الـذي أعطى ظهره للنـار.. شـعر أبو سـفيان بالهزيمة المحققه، فقـال: «يا معشر قريـش، لينظر امرؤ من جليسـه». قال حذيفة: «فأخذت بيد الرجـل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟

قال: فلان بن فلان»، ثم نهض أبوسفيان ثقيلًا محبطًا، واتجه بوجهه لبقايا الوثنيين.. يخطب فيهم.. يعلن نهاية الحرب الفاشلة التي ما جزموا يومًا بنصر مثلما جزموا بها. قام يعلن حجم الكارثة التي جرهم الخونة اليهود إليها، فقال: «يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، يعني الخيل والإبل، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل».

نهض الوثنيون، وبدؤوا يلملمون ما تبقى لهم.. يبحثون.. يفتشون عن أمتعتهم ودوابهم.. يسأل بعضهم بعضًا، فيكتفي الكثير منهم بضرب الأكف، وزمّ الشفاه، ورفع الحواجب واللعن والتذمر، فمحمد لا تفصله عنهم سوى بضعة أمتار، ومع ذلك يرونه أبعد من القمر.. من الشمس ومن السماء. بدأت رحلة الرجوع التعيسة على الأقدام والدواب، وعاد حذيفة لقائده ممتلئًا بالدفء وبالأخبار السارة، وما إن أخبر نبيه إلا وعاد إليه البرد، فطلب منه أن يخلد للراحة، وغطاه بعباءته، وظل ﷺ يصلي شكرًا لله حتى لاح الفجر، فأذن بلال، فاتجه ﷺ إلى حذيفة الغارق في نومه، وهتف به: «**قم يا نومان**».

وأشرق فجر النصر

صلى القائد ﷺ وخلفه جنده على مشارف الخندق صلاة الفجر.. وسط أجواء بالغة البرودة، فبشرهم بنصر الله، ثم خرجوا نحو معسكرات الوثنيين، فإذا هي خالية منهم.. مبعثرة.. قد اشتاقت لنبيها لأحبتها.. للتوحيد.. للدولة الإسلامية بعد احتلال دام أسابيع لوثها الوثنيون خلالها بأصنامهم وعربدتهم وخمرهم. رفع ﷺ صوته ثناء على ربه كما هي سنته في معاركه.

لم يقل لهم: انتصرت بعبقريتي ودهائي.. لم يقل انتصرت، بل قال «**نُصرت**».. كان ينسب الخير دائمًا لربه، وينسب الأخطاء لذاته البشرية بعيدًا عن الوحي..

قـال ﷺ لأصحابـه: «**نصرت بالصبا**» وهي الريح الآتية مـن المشرق، «**وأهلكت عاد بالدبور**» وهي الآتية من الغرب. أثنى ﷺ على ربه، وأعلن التوحيد مجددًا، فقال: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده**»، ثم أعلـن لجنده مرحلة انتقالية لدولتـه.. لا خوف بعد اليوم من قريش، ولا من الوثنية في الجزيـرة العربية التـي رمته كلها عن قوس واحدة، مـن أول يوم وضع قدمه فيها بالمدينـة دون مـبرر. بشر أصحابه بـأن هيبة الشرك وغطرسـته وخياناته قد انتهت.. هتف بجنده قائلًا: «**الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**».

انتهى زمـن الاضطهاد والترويع والتخويف، الذي ظل الطغاة يمارسـونه ضد نبي سلاحه الكلمة والإقناع.. ضد دعاة التوحيد.. ضد الدولة الإسلامية على مدى ثمانية عشر عامًا.. انتهى كل هذا، فقد أيقن كل وثني أن مواجهة الدولة الإسـلامية نـوع من العبـث. تفقـد المؤمنون المكان، وغنموا مـا غنموا دون حـرب، وعاد ﷺ للمدينة ليبشر شعبه الخائف المحاصر.. يسير عبر الطرقات فتفتح الأبواب، ويرتفع الحمد والشـكر والتكبير، وتنفتح أبواب أخـرى، فتطل منها عقارب النفاق.. تدور أعينهـم كاللصوص.. يحسـبون الأحـزاب لم يذهبوا، ولم يهزمـوا، ويتمنون لو كانوا بعيدًا في البادية.. يتلفت المنافقون.. يسألون المؤمنين عما جرى؟ فتصدمهم الإجابة، ويموت ابن سلول بغيظه، ويتجه الأبطال لبيوتهم وهم يستدفئون بشمس الظهيرة.. عادوا ليغسلوا غبار المعركة، وآثار المعركة.. أوقدت القدور لتسخين ماء الاستحمام في ذلك الشـتاء القارس، ودخل القائد ﷺ بيته ليضع سلاحه ويغتسل، وفجأة وبعد أن اغتسـل، وبينما كان يسـتعد للاسـترخاء قليلًا.. إذ برجل مدجج بالسـلاح يقف ببابه، ويأمره بلبس أداة الحرب، فهل عاد الأحزاب مجددًا؟

أمر عاجل بمعركة عاجلة

عـاد القائـد ﷺ من الخنـدق بعيد صـلاة الظهـر عبر شـوارع المدينـة الخائفة.. يطمئنهـا.. يبشرهـا بنـصر الله، وعلى وقع التكبـير فتحت بوابة حصـن بني الحارث

احتفاء به وبأبطاله.. الحصن الذي امتلأ بالأطفال والنساء الخائفين لأسابيع.. فتح لتنطلق منه النساء والأطفال.. ازدانت الشوارع بالعناق والدموع، وتدلت أرجل الأطفال الصغيرة على أكتاف الأبطال، وأشرقت ضحكاتهم وأسئلتهم والتفاتاتهم البريئة، والتمّ شمل العائلات، فتهادت نحو بيوتها، ليغسلوا عنهم غبار الريح والحصار، ويدخل القائد المظفر ﷺ بيته، فيضع سلاحه ويغتسل، وبينما كان يستعد للاسترخاء قليلًا إذ بفارس صارم مدجج بالسلاح يقف ببابه.

خرج ﷺ للقائه، فاستغرب الفارس اغتسال النبي، فالساعة لم تزل ساعة حرب.. حرب لم يخطط لها محمد ﷺ ولا فرسانه؟ إنها أوامر عليا من السماء لا تقبل التأجيل. قال الرجل بنبرة حاسمة: «**قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فأخرج إليهم**» استغرب القائد ﷺ الأمر، فالأحزاب قد لاذوا بالفرار، والساعة ساعة استرخاء؛ لذا قال لهذا الرجل الصارم: «**إلى أين؟**» رفع الغريب يده، ثم مدها كالرمح نحو بؤرة الخيانة، وحاخامات الغدر، الذين خانوا الدولة الإسلامية أربع مرات، وخططوا لاغتيال قائدها ﷺ أربع مرات، ونقضوا المعاهدات أربع مرات. رفع جبريل يده وهو على صورة فارس، وقال: «**ها هنا**». وأشار إلى يهود قريظة.

امتثل القائد ﷺ، فدخل بيته، وتسلح في وقت استرخاء وقيلولة، ثم استدعى الفتى الصغير الجسور عبدالله بن عمر، وبعض الشباب، وطلب منهم الانطلاق قبله للرصد، وقال: «**لا تصلوا العصر إلا في بني قريظة**»، بينما توجه هو لمسجده كالعادة، ليعلن الحرب من هناك، فهذه هي الحرب الوحيدة التي لن يستشير فيها شعبه، ولم تكن بإرادته.. دخل المسجد حيث تلك الخيمة الصغيرة، التي أمر بنصبها لعلاج حبيبه العظيم سعد بن معاذ، الذي دعا الله ألا يميته حتى يشفي غليله من حلفائه قريظة، الذين أكرمهم فأهانوه، وحماهم فخانوه، وسالمهم فغدروا به، وغدروا بدولته دون أي مبرر سوى الحقد. لكن كيف سيشفي غليله وقد نزف كمية من الدم لا يستطيع معها الحراك؟

قريظة تبحث عن طوق نجاة

انطلق الفتى عبدالله بن عمر وأصحابه لرصد تحركات قريظة، وفي الطريق توقفوا ونظروا إلى الشمس، وتأملوا ظلها، فوجدوا أن ظل الواحد منهم يعادل طوله مرة، وهذا يعني دخول وقت صلاة العصر، فتوقف بعضهم لأداء الصلاة، وواصل البقية متمسكين بقوله ﷺ: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**، فقالوا: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله، وإن فات الوقت»، ولما أشرفوا على الحصن صلوا.

أطل اليهود، فرأوا تلك السرية الصغيرة أمام الحصن.. رأوا موتًا حول الساحة، فأدركوا فداحة جرمهم، وهم يرون شبابًا كانوا يحلمون قبل أسابيع بقتلهم، وقتل نبيهم وقتل أطفالهم وسبي نسائهم، وإسقاط دولة التوحيد. نظر زعيمهم كعب بن أسد إلى الحاخام حيي بن أخطب، الذي ورطه، نظر إليه بعينيين تقولان: «ألم أقل لك يا حيي: إنك امرؤ مشؤوم، وإنه لا حاجة لي بك ولا بما جئتني به».. كان حيي أذل رجل في الحصن، وهو الآن يتجرع كأس تبنيه لمشروع أستاذه الخائن الهالك.. كعب ابن الأشرف، فقد ورط قومه في خيانات لا تغتفر.

ما ضره لو وفى للنبي القائد؟ لو فعل، لوجده ﷺ أكثر الناس رحمة وصدقًا وبرًّا، لكنها عنصرية اليهود، وحقدهم ضد كل ما هو غير يهودي.. كانت الأجواء داخل الحصن مشحونة بالخوف والتوتر، فشعر اليهود ببعض ما شعر به المسلمون خلال حصار الخندق، أما القائد ﷺ فتحرك وجنده نحو قريظة، ولما وصل أحب توظيف الشعر في اتجاه المعركة، فقال لشاعره حسان: «أهجم وجبريل معك»، فتقدم حسان، وأسمعهم من شعره ما خلع قلوبهم، فأصبحوا في أقصى حالات التوتر والخوف، وازداد لغطهم، فصعد أحدهم، وصار يصرخ ينادي أحد حلفائهم، ويُدعى أبو لبابة.

سمع أبو لبابة النداء، فاستأذن قائده ﷺ، وانطلق نحو الحصن، ولما أصبح تحته أطل الحاخامات يتباكون: «يا أبا لبابة، ماذا ترى، وماذا تأمرنا، فإنه لا طاقة لنا بالقتال؟» حدق أبو لبابة في الخونة، وكأنه يقول: آلآن لا طاقة لكم بالقتال أيها

الخونـة؟ ثم خلـع قلوبهم، حين رفـع كفه بطريقـة مخيفة، ومرر أصابعـه على حلقه، فارتفعت أصوات النحيب، ودب شجار بين الحاخامات وثلاثة شباب من اليهود.

شجار بين شباب اليهود وحاخاماتهم

تقـدم القائـد ﷺ نحو حصن قريظة، فعرض عليهـم أمرين: الأول أن يصبحوا إخـوة في الديـن، وينتهـي كل شيء، فربّه هو رب موسـى وعيسـى عليهما السـلام، والـذي أنزل التـوراة والإنجيل هو الذي أنـزل القرآن، وقد رأوا مـن المعجزات ما يكفي للتأكد من نبوته، وآخر المعجزات لم يمضِ عليها أسـبوع، وهي معجزة الريح التي عصفت بالأحزاب، بل إن ضمن جيش المسـلمين الآن حاخام سـابق.. وصفه اليهود بأنه خيرهم وابن خيرهم، وعالمهم وابن عالمهم، وهو عبدالله بن سـلام. فإن رفضوا فعليهم النزول عند حكم نبي الله فيهم.

رفـض اليهـود الإسـلام؛ لأنهـم عنصريـون لا يؤمنـون إلا بنبـي مـن قبيلتهـم (إسرائيـل)، بـل إنهم أقدمـوا على قتل أنبيـاء منهم، وحرضوا على قتـل يحيى ووالده زكريا، وهموا بقتل عيسـى عليهم السـلام، فكيف يؤمنون بنبي عربي؟ دبّ السكون على الحصن، وفجأة تعالى الصراخ داخله.. دبّ شجار بين حاخامات قريظة، وثلاثة شـباب هم: أسـيد بن سعية، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد.. شباب من قبيلة هدل اليهودية.. أنصتوا قبل خمسة عشر عامًا لكلمات حاخام قادم من الشام، وسكن يثرب يقال له ابن الهيبان. كان رجلًا خيرًا، وقد لجأ إليه أهل يثرب عدة مرات عند القحط.. يقولون: «يا ابن الهيبان، اخرج فاستسـقِ لنا» فيحلف ألا يستسـقي حتى يتصدق كل واحد بصاع من تمر، أو مدين من الشعير للفقراء. فإذا تصدقوا خرج بهم لحرة يثرب، فاستسقى الله، ونادرًا ما يقوم من مكان الاستسقاء حتى تمر الشعاب.

شـاخ الحاخام ابن الهيبان، وحضرته الوفاة، فاجتمع الناس إليه، فقال لهم: «ما ترونـه أخرجنـي مـن أرض الخمر والخمير، أي الشـام، إلى أرض البـؤس والجوع؟

قالـوا: أنـت أعلم. قال: إنما أخرجنـي أتوقع خروج نبي قد أظـل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فاتبعوه فلا تسـبقنّ إليه إذا خرج يا معشر يهود، ثم مات» وها هم الشـباب الثلاثة يصيحون بوجوه الحاخامات: «يا معشر يهود، والله إن محمدًا للذي ذكر لكم ابـن الهيبـان. فقالـوا: ما هو به؟ قالـوا: بلى، والله إنـه لصفته» لم يهدأ الشـجار، لكن بوابة الحصن فتحت، فإذ بالشباب يخرجون.. يمشون بإجلال نحو النبي ﷺ ليعلنوا إسلامهم بين يديه، وبعد أن أسلموا عادوا للحصن، فأخرجوا زوجاتهم وأبناءهم.

ارتج اليهود، وأفحِموا وتشـاوروا، وبعد التشـاور أطل يهودي، وصرخ مناديًا بحلٍّ ثالث.

المنافقون مازالوا يتباكون على قريظة

يتباكـى المنافقـون حتـى اليوم عـلى أحبابهم يهود قريظـة، الذين خانـوا الوثيقة الوطنية التي وقعوها مع النبي القائد ﷺ، حين أعلنوا الحرب عليه، ثم خانوا معاهدة السـلام الثانية، حـين حاولوا جمع الأحزاب بقيادة الحاخـام كعب بن الأشرف. ولما هلك خانوا المعاهدة الثالثة، حين قام الحاخام حيي بن أخطب بجمع أكثر من عشرة آلاف مـن الأحـزاب، ولو نجح اليهود لطبقوا على النبي ﷺ وشـعبه المسـلم تعاليم الكتاب المقدس، التي تبيح لليهود والنصارى عند الحرب أن ينشروا رقاب أسراهم بالمناشـير، ونوارج الحديد، وأن يقطعوهم بالفـؤوس، وأن يحرقوهم بأفران الآجر، لكنهم كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله، وهـم الآن يخشون أن يحكم محمد بحكم التـوراة، كـما فعل ذات يـوم حين أقبـل حاخاماتهم بيهـودي ويهودية زنيـا، فطلبوا منـه أن يحكـم عليهـما بصفته قائـد الدولة، فـأراد ﷺ أن يطبقوا ما في دينهـم ماداموا يرفضـون الإسـلام، لا أن ينتقوا أحكامًا بحسـب أهوائهم. طلـب أن يقرؤوا حكم التـوراة، فحاصوا وتلفتوا، ونظر بعضهم لبعـض، فقرأ أحدهم الحكم، ووضع يده على كلمة الرجم، ولم يقرأها. فلاحظ ﷺ حركته، فطلب أن يقرأ ما تحت يده. بعدها أدركوا أن النبي ﷺ أعلم منهم بحقيقة دينهم، فخافوا أن يحكم عليهم بحكم التوراة

على الأعداء، فيفعل بهم ما فعلوه هم بقبيلة يقال لها: بنو عمون، التي يقول كتابهم المقدس: إن أحد أنبيائهم أمر، فقال: «اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ، وَاضْرِبُوا اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ، لاَ تُشْفِقْ أَعْيُنُكُمْ، وَلاَ تَعْفُوا، اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ.. نَجِّسُوا الْبُيُوتَ، وَامْلَؤُوا الدُّورَ قَتْلَى» كان اليهود يخشون هذا المصير؛ لذا رفضوا حكم النبي ﷺ.. كانوا يريدون عقوبة على مزاجهم؛ لذا صاح أحدهم مطالبًا أن يحكم عليهم حليفهم في الجاهلية سعد بن معاذ، فهو أرحم بهم.

تنازل القائد ﷺ، ورضي بحكم سعد مهما كان، حتى لو عفا عنهم، فهتف بمجموعة من رجاله، وأمرهم بالانطلاق للمسجد، وإحضار سعد من خيمته التي يتلقى العلاج فيها، فانطلقوا حتى دخلوا المسجد، ودخلوا خيمته، فسلموا وأخبروه، فردّ السلام وشعر باستجابة الله لدعائه، حين قال: «اللهم، لا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة» حملوا الأمير، ووضعوه على الدابة، وانطلقوا به، فلما رآه اليهود ابتهجوا.

القائد يتنازل لليهود

حمل الشجعان الأمير المصاب سعد بن معاذ من خيمة التمريض المنصوبة في المسجد، ثم وضعوا إكافًا من الليف على الدابة كالسرج، ثم أركبوه، وانطلقوا به، وبعد مدة أشرق الأمير على ساحة قريظة.. حينها نسي سعد نزيفه وجراحه وآلامه، فقد كان يغلي غضبًا لله ورسوله على خونة اليهود، كغضبه لعائشة في الإفك.

كان القائد ﷺ جالسًا وحوله جنده في حال انتظار، أما اليهود فكانوا يحدقون بالأفق على أحرّ من الجمر، وإذ بهم يهمهمون.. ترتفع أصواتهم شيئًا فشيئًا.. يشيرون مبتهجين بحليفهم سعد، الذي يأملون ألا يحكم عليهم بحكم التوراة، فينشروا بالمناشير، ويقطعوا بالفؤوس، ويحرقوا بالأفران.

مـر سـعد من تحت حصنهم وهـم يصرخـون.. ينادونه يناشـدونه: «يـا أبا عمر، حلفاءك ومواليك، وأهل النكاية ومن قد علمت» كانت تقاسيم وجه سعد صارمة.. لم يلتفـت ليهود، ولم يرد عليهم، ثم توقف، وأعطى ظهره للحصن.. متوجهًا نحو إخوته وبركان الغضب يتفجر بين جنبيه، ثم هتف: «قد آن لي ألا أبالي في الله لومة لائم».

قلصـت شـفاه يهود، واتسـعت أعينهم، ونظـر بعضهم إلى بعض، وتسـارعت دقات قلوبهم، وأحسوا بخستهم مع هذا النبي الذي تحمل من خياناتهم ما لم يتحمله قائـد في العـالم.. لا يوجـد قائد تنازل لهم كما تنـازل النبي ﷺ.. كذبـوه فتجاهلهم.. شـتموه في بيته، فما ردّ عليهم.. تلطف بهـم، وأحب موافقتهم تأليفًا لقلوبهم.. بجّل أنبياءهم، واحترمهم لكن لهم قلوبًا لا تعرف سوى الحقد.

حاولـوا اغتياله فعفا، وخانوه أربع مرات، لكـن الخيانة هذه المرة كادت تودي بشعبه ودولته، ولو كان الأمر يخصه لعفا عنهم؛ لأنه لم ينتقم لنفسه يومًا، ومع ذلك ناشـدوه ألا يحكم عليهم، وطلبوا أن يحكم عليهم حليفهم سـعد بن معاذ، فتنازل، ورضي بحكم سعد حتى لو عفا عنهم، وها هو سعد يتهادى نحو قائده، فلما رآه ﷺ هتف برجاله: «**قوموا إلى سيدكم، فأنزلوه**».

نهـض الرجـال إلى سـيد الرجـال، فأنزلـوه بين يدي نبيـه، فنظر ﷺ إلى فارسـه الجريـح الذي ينزف، ويوشـك أن يفارق الدنيا بسـبب خيانة يهود، فلـم يغمزه، أو يـشر لـه بعينـه، أو يوحي له بحكم، بل اكتفى بقوله: «**يا سـعد، إِنَّ هَـؤُلاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ، احكم فيهم**» لم يتردد سعد.. حسم الأمر مباشرة.

ودفنت الخيانة في الخندق

نطق الأمير سـعد بن معاذ بحكمه، فقال: «فإني أحكم فيهم أن يقتل مقاتلتهم، وتسـبى ذراريهـم».. امتلأ الحصن بنـواح الخونة، ولكن بعد فـوات الأوان، فهم من اختـار الحاكـم، وتم إعـدام المقاتلـين، ومازال اليهـود والمنافقـون يتباكـون عليهم،

وينسـون أن سـعدًا حكم عليهم حكمًا مخففًا.. مقارنة بأحكام كتابهم المقدس، الذي يبيـح لليهـود والنصـارى أن يمارسـوا الفظائـع بأعدائهم، وسـعد فعل أقـل مما فعل قدواتهم وأسـلافهم، ومـازال دينهم حتى اليوم يقـول: «اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَـةِ وَاضْرِبُوا اَلشَّـيْخَ وَالشَّـابَّ، وَالْعَـذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَـاءَ، لاَ تُشْـفِقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَ تَعْفُـوا. اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ، وَامْلَؤُوا الدُّورَ قَتْلَى. اخْرُجُوا. فَخَرَجُوا وَقَتَلُوا فِي الْمَدِينَة، فَابْتَدَؤُوا بِالرِّجَالِ الشُّيُوخِ».

وينسـبون لأحد أنبيائهـم أنه ذهب إلى بلدة غير يهودية اسـمها ربـة، «فحَارَبَهَا وَاحتلهـا، ثم أَخَذَ تَاجَ مَلِكِهِمْ ولبسـه، وَأَخْـذ غَنائمَ الْمَدِينَةِ» أما شـعب تلك المدينة «فنـشر رقابهم بالمناشـير ونـوارج الحديد، وقطع بعضهـم بفُؤُوسِ حَدِيـدٍ، وَأَحرق بعضهـم فِي أَتُـونِ وأفـران الآجُـرِّ»، ومر على مدن يقـال لها مدن بنـي عمون، ففعل بمواطنيهـا ما فعـل من حرق وتقطيع ونشر.. لا يأمر كتابهـم المقدس بتلك الفظائع في حالـة الحرب، بل إن إهانـة يهودي واحد تجيز لليهود أن يبيدوا شـعبًا كاملًا دون شـفقة، ففي كتابهم المقدس قصة ينسـبونها لنبيهم يعقوب، حين سـكن هو وشـعبه مدينة شكيم، فخرجت ابنته (دينة) ذات يوم، فرآها ابن ملك يقال له حمور، فاعتدى عليهـا، ثـم ندم، فطلب من أبيـه أن يخطبها، فتكـدر اليهود لما حـدث، ووافقوا على الـزواج بشرط أن يختتن الملك وابنه ورجال شـعبه، وفي أثنـاء فترة آلام الختان هجم بنويعقوب، وغدروا بالملك على الرغم من العهود والمواثيق، وقتلوا كل ذكر صغارًا وكبارًا، ونهبوا النساء وجميع ثروتهم، وكل ما في بيوتهم، وحميرهـم وبقرهـم وغنمهـم.

إذًا، فالخيانـة عقيـدة عند هؤلاء القوم، وليسـت نزوة طارئة.. هي دين سـطره مؤلفـون كذابـون لذلك الكتـاب، فتوعدهم الله بقولـه: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: ٧٩]، ويبدو أن قتلى قريظة قد قـبروا في جـزء من الخنـدق، لتنتهي حقبة من الإرهـاب الوثني والخيانـة اليهودية.. انتهت أخطر غزوة على المؤمنين، فتباكى المنافقون على أساتذتهم اليهود، وقالوا أبياتًا يلومون سعدًا بها.

سعد بن معاذ تبكيه السماء والأرض

تباكى المنافقون على أساتذتهم اليهود الخونة، وقال شاعرهم يلوم سعد بن معاذ، ويثني على المنافق أبي حباب؛ أي ابن سلول، الذي دافع عن يهود قينقاع:

ألا يا سعدُ سعدُ بني معاذٍ ... فما فعلتْ قريظةُ والنضيرُ

لعمرُك إنّ سعد بني معاذٍ ... غداةَ تحمّلوا لهوَ الصبورُ

تركتُمْ قدرَكم لا شيءَ فِيها ... وقدرُ القومِ حاميةٌ تفور

وقد قالَ الكريمُ أبو حبابٍ ... أقيمُوا قينقاعُ ولا تسيرُوا

وقد كانُوا ببلدتِهم ثقالًا ... كما ثقلتْ بميطانَ الصخورُ

لم يأبه سيد الأوس بمقالات المنافقين التي تنضح بالخيانة، فقد وضع حدًّا لمن خططوا لإقامة المذابح لنبيه وشعبه وإسقاط دولته.

تم حمل سعد على دابته، وأعيد برفق إلى خيمته العلاجية، وأصبحت أموال قريظة غنيمة، فلم يسأل سعد شيئًا منها.. كان كنبيه ﷺ يبذل ما عنده ليسعد الآخرين.. كان يريد الحياة لتنهض دولته، لا ليقضي وقته بالرفاه والتقلب في النعيم.. كان يبحث عن عوالم أرقى، حين دعا: «اللهم، إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان من حرب قريش شيء، فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم، فافجرها، واجعل موتتي فيها» ولما خيم الليل رأى رجال من غفار يبيتون بخيمة مجاورة لخيمة سعد.. رأوا سائلًا أحمر ينساب لخيمتهم، فنادوا ممرضي سعد: «يا أهل الخيمة، ما هذا الدم الذي يأتينا من قبلكم؟» نظر رفاق سعد، فإذ بجرح سعد قد انفجر، فنهض بعضهم، وانطلق

نحو القائد ﷺ فأخبروه، واستأذنوا في حمله لطبيبة يقال لها (رفيدة) تداوي الجرحى؟ فأذن لهم، ولما أشرقت الشمس انطلق القائد ﷺ ليزور وزيره، ولما استأذن، ودخل عليه نظر إليه نظرة محب، وقال: «**كيف أصبحت؟**» وبعد أن اطمأن عليه خرج لإدارة شؤون دولته، ولما جاء المساء سار القائد ﷺ نحوه ومر عليه ليتفقده ويقول له: «**كيف أمسيت**».

ظل ﷺ يتفقد حبيبه صبحًا ومساء، لكن يبدو أن الفراق قد دنا، فقد بدأ سعد يحتضر، فحملوه من بيت رفيدة إلى منازل أسرته بني عبدالأشهل، وفي الصباح توجه القائد ﷺ كعادته نحو بيت الطبيبة رفيدة ليتفقده، فقالوا: «قد انطلقوا به» خفق قلبه ﷺ، وخرج يمشي مسرعًا لهفةً، والصحابة يسرعون.. يسرعون حتى تقطعت سيور نعالهم، وسقطت أرديتهم، فهتفوا بقائدهم الملهوف: (يا رسول الله، أتعبتنا في المشي؟) فأبكى قلوبهم حزنًا، حين قال: **إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه، فتغسله، كما غسلت حنظلة**».

إنجازات اهتز لها العرش

خفق قلب النبي ﷺ حزنًا على حبيبه سعد بن معاذ، فخرج يمشي مسرعًا نحو بيته، وأصحابه خلفه يسرعون حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم عن رقابهم، فهتفوا بنبيهم: يا رسول الله، أتعبتنا في المشي؟ فقال: «**إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه، فتغسله، كما غسلت حنظلة**».

وصل ﷺ لبيت سعد، فإذا حبيبه قد رحل.. انتقل للرفيق الأعلى، وها هو جسده على السرير بين يدي أحبته يغسلونه، فسمع أنين أمه تبكيه حرقة، وتقول: ويل أم سعد سعدًا.. حزامة وجدًّا. فقال ﷺ: «**كل نائحة تكذب إلا أم سعد**»، ثم لفوه بأكفانه، وحملوه نحو البقيع، بينما سبق آخرون.. أحدهم الشاب أبو سعيد الخدري الذي يقول: «طلع علينا رسول الله وقد فرغنا من حفرته، ووضعنا اللبن

والماء عند القبر، وطلع ﷺ فوضعه عند قبره، ثم صلى عليه، فلقد رأيت من الناس ما ملأ البقيع».

رحل سعد بن معاذ، الذي ناصف إخوته المهاجرين طعامه وشرابه ومسكنه.. رحل سعد بن معاذ الذي كان إذا غضب لله ورسوله تتطامن كل القامات أمامه.. رحل من هدد أبا جهل عند الكعبة.. غير آبه بزعامته، ولا بزبانيته.. رحل من قال لنبيه يوم بدر: «قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله».. رحل من سابق أنس بن النضر إلى رقاب الوثنيين يوم أحد.. رحل من فضل الموت بعزة، على أن يقدم تمرة واحدة رضوخًا للوثنيين يوم الخندق.. رحل من ملأ أركان المسجد مهددًا من يقذف عائشة.

سافر ابن معاذ، بعد أن طهر المدينة من الخونة، فقال له نبيه ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله**» ست سنوات هي عمر ابن معاذ في الإسلام.. كل عام بإنجاز غير مسبوق. بكاه نبيه، وبكاه المؤمنون، وامتلأ البقيع بالمشيعين، وازدانت السماء برفرفة الملائكة حول قبره، واهتز عرش الرحمن لموته، واشتاقته عوالم الجنة، وافتقدته نخيل طيبة التي مات، وهو يذود عنها.

حبيب آخر يسافر بعد سعد

الأحبة يرحلون.. رحل سعد بن معاذ بعد الخندق، ثم رحل حبيب آخر هو عثمان بن مظعون.. الزاهد الذي دخلت زوجته على أمهات المؤمنين، فلُمْنَها لرثاثة ثيابها، فأخبرتهن بأن عثمان في النهار صائم، وفي الليل قائم، فعاتبه ﷺ، وأخبره بأن لعينيه ولجسده ولأهله حقًّا، فعادت لهنّ كأنها عروس، لكن استعادتها لحبيبها لم تدم

طويـلًا.. إنها تمرضه اليوم، وتعاونها أم العلاء الأنصارية.. أم العلاء هي ربة العائلة الأنصارية الكريمة، التي آوت عثمان حين هاجر من مكة، فقاسمته مالها وسكنها.

مشى ﷺ نحو بيت ابن مظعون، فدخل والأحبة كالقلوب حوله، فانحنى عليه وكأنه يوصيه، ثم رفع رأسه وقد خرجت روحه، ثم انحنى ثانية، ثم رفع رأسه وهو يبكي، وعائشة تنظر إلى دموعه ﷺ تسيل على خدي عثمان، ثم انحنى ثالثة وقبله وله شهيق، فارتفع صياح الأحبة، فنهاهم ﷺ عن الصياح، وقال: «**مه، إنما هذا من الشيطان، فاستغفروا الله**. ثم قال: اذهب عنها أبا السائب، فلقد خرجت، ولم تلتبس منها بشيء». لم تملك أم العلاء نفسها، فشهيق نبيها يأخذ بنياط القلوب، فقالت: «رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتي عليك قد أكرمك الله».

توقف ﷺ عن البكاء وهو ينصت لهذه الكلمة التي صدمته، فقال لأم العلاء: «**وما يدريك أن الله أكرمه؟**» أمر مفزع! فالغيب لا يعلمه نبي، ولا ملك مقرب، وقد حلف رجل صالح عابد أن الله لن يغفر لرجل كثير الذنوب، فقال الجبار سبحانه: «**من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان، فإني قد غفرت له، وأحبطت عملك**».. ارتجف قلب أم العلاء، فقالت: «لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: **أما هو فقد جاءه والله اليقين، والله إني لأرجو له الخير، وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي**. فقالت: فوالله لا أزكي بعده أحدًا».

حُمل عثمان للبقيع ليدفن، وبعد دفنه فعل ﷺ شيئًا يدلّ على حبه له.. أمر رجلًا أن يأتيه بحجر، فقام الرجل نحو الحجر، ثم انحنى عليه ليقله فعجز، ثم كرر المحاولة، فلم يستطع. نظر القائد ﷺ إلى الرجل، فنهض ومشى نحوه، وحسر عن ذراعيه، وانحنى على الحجر فأقله، ثم أقبل يحمله حتى وضعه عند رأس القبر، وقال: «أتعلم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي».

عاد الجميع لبيوتهم، وخيم الليل، ونامت أم العلاء حزينة، فرأت في منامها عينًا عذبة تجري لعثمان بن مظعون، فأخبرت نبيها، فبشرها، وقال: «**ذلك عمله**».



اليهود بعد ابن معاذ

تخلصت الدولة الإسلامية من بؤر الخيانة اليهودية.. حتى قينقاع رحلوا، ويبدو أنهم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، بعد أن رأوا أن النبي الذي جاؤوا من أجله ليس من قبيلتهم، لكن خطورة اليهود تكدست ببلدة شمال المدينة اسمها خيبر.. تكدس فيها خونة لهم دور في تأليب الأحزاب.. أحدهم سلام بن أبي الحقيق، ويقال له: أبورافع، فقرر القائد ﷺ ملاحقته، فلن تكون الدولة الإسلامية بأمان وهو يصول ويجول. استدعى القائد فتية من الأنصار، وجعل أميرهم شاب يدعى عبدالله بن عتيك، وطلب منهم التخلص من هذا الأفعى بعملية جراحية تسله وحده.

سار الفرسان حتى اقتربوا من الحصن والشمس تغرق في الأفق.. صلوا، ثم كمنوا يراقبون اليهود وهم يعودون بأغنامهم وحميرهم للحصن.. لم يشتد الظلام بعد، فالتفت ابن عتيك، وقال لجنده: «اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أن أدخل»، ثم سار متلثمًا حتى دنا من الباب، لكنه لم يحتج إلى التلطف، فقد نجح في التسلل بين الداخلين، ولما أصبح داخل الحصن تلفت، فرأى زريبة قريبة، فدخلها.

أُغلق الباب، وفجأة سطعت الجدران من الداخل بنور مشعل، فإذا هو رجل يحمل مشعلًا، ويتجه نحو الباب بحثًا عن حماره، ففتح له الباب، فخرج معه رجال، وخرج ابن عتيك كأنه يبحث معهم.. بحثوا حتى وجدوا حمارهم، ثم عادوا بينما كان ابن عتيك قلقًا يواري وجهه، ولما خاف أن يُعرف توقف، وغطى رأسه ورجليه.. كأنه يقضي حاجته، فهتف البواب: «من أراد أن يدخل فليدخل» وابن عتيك مرتبك، وإذ بالبواب يهتف به: «إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب»، فاطمأن ودخل وعاد لمربط الدواب، وكمن في الظلام يراقب الحارس، الذي أغلق الباب، وعلق الأغاليق وهي المفاتيح الكبيرة على وتد وانصرف، ولما انصرف تسلل عبدالله نحو المفاتيح، فأخذها من الوتد، ثم توجه للباب ففتحه دون أن يشرعه، ثم تسلل في ظل القمر، حتى سمع رجالًا يسمرون، فإذا بصوت أبي رافع وحوله

رفاقه.. في غرفة في الدور الأول من البيت. توقف ابن عتيك، وانتظر حتى تعشوا، وأكملوا سهرتهم، ثم انصرفوا.

هدأت الأصوات، واختفت الحركة، وانطفأت معظم المشاعل، فرأى ابن عتيك سلمًا، فأسنده على الجدار، وصعد حتى أصبح داخل البيت الذي كان شبه مظلم.

نهاية اليهودي الخائن ابن أبي الحقيق

في ليلة مقمرة تسور عبدالله بن عتيك بيت الخائن اليهودي أبي رافع بن أبي الحقيق، فرأى بابًا مفتوحًا فتسلل عبره، ثم أغلقه من الداخل، ومشى فوجد بابًا آخر، فدخل وأقفله خشية أن يكشف أمره قبل أن ينفذ مهمته، فأراد أن ينشغل المسعفون بكسر الأبواب، ريثما يجهز عليه.

ظل يفعل ذلك بشجاعة نادرة، ولما همّ بدخول غرفة معتمة أطفئ سراجها.. سمع صوت الطاغوت.. حدق.. تلفت، فلم يَرَ سوى الظلام، فسل سيفه في الظلام، ونادى: «يا أبا رافع» انتبه الطاغوت مرعوبًا، ورفع رأسه، وصاح: «من هذا؟» فدب البطل، وهوى بالسيف على مصدر الصوت.

صرخ أبورافع، فأدرك ابن عتيك أنه لم يقضِ عليه، فضربه أخرى، ثم خرج لثوانٍ يرى هل جاء أحد؟ وأبورافع يصيح.. يستنجد بالأبواب المغلقة، ثم عاد ابن عتيك كالموت وغير صوته، وتظاهر بأنه يهودي جاء لإغاثته، فقال: «ما هذا الصوت يا أبارافع؟» فصرخ الطاغوت وهو يتلوى على الأرض: «ألا أعجبك لأمك الويل! فقال ابن عتيك: ما شأنك؟ فقال: إن رجلًا في البيت ضربني قبلُ بالسيف» اقترب عبدالله منه، فضربه بالسيف حتى سمع قرع العظم، ثم انطلق نحو الأبواب.. يفتحها بابًا بابًا، ثم انحدر مع درج، فظن أنه وصل الأرض، فسقط وأصيبت إحدى ساقيه، فعصبها بعمامته، ثم صار يحجل على قدم واحدة، حتى وصل باب الحصن المجافي فأشرعه، وهرب نحو رفاقه، فوصل إليهم وأنفاسه تتقطع وعرقه

يتصبب، فقال: «انطلقوا فبشروا رسول الله، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية»، ثم مشى يعرج، واختبأ بأحد المكامن يراقب الحصن الذي تلألأت جدرانه بالمشاعل، وكشفت أضواؤها جثة الطاغوت مضرجة بالدم.. حاولوا إسعافه، لكن الوقت فات، وعندما لاح الفجر، وصاح الديك.. صاح يهودي بأعلى الحصن يقول: «أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز».

أخذ ابن عتيك حماس جعله ينسى آلامه، فمشى نحو دابته، ثم ركب، وانطلق حتى أدرك رفاقه، فهتف بهم: «النجاء، فقد قتل الله أبا رافع» فانطلقوا مسرعين حتى وصلوا المدينة. ثم توجه الفارس نحو قائده، فبشره بنجاح مهمته، فسُرَّ ﷺ بالقضاء على أحد مهيجي الأحزاب، ثم نظر لِرِجْل بطله، فقال: «**ابسط رجلك**». فبسطها، فمسحها، فنهض ابن عتيك وكأن شيئًا لم يصبها، وأدرك الخونة أن يد الدولة الإسلامية باتت قريبة من رقابهم.

الدهاة يدركون نهاية الوثنية

بعد معركة الخندق تضعضع الوثنيون، فلم يعد محمد خصمًا يمكن التجرؤ عليه.. تحولت دولته الإسلامية إلى واحة أمن تغري الخائفين.

ذات يوم كانت مجموعة من الوثنيين في سفر، ومن بينهم ثقفي داهية يدعى المغيرة بن شعبة، ويبدو أن رفاقه أهانوه أو آذوه، فتربص بهم حتى أفناهم جميعًا، وسلب أموالهم.. ضاقت به الأرض، وكانت لا تضيق، فلم يجد سوى الدولة الإسلامية ملاذًا، علّه يغري قائدها ﷺ بماله. ركب مطيته محملًا بالثراء ملاحقًا بالثأر.. لاحت نخيل طيبة، فلاحت له حياة جديدة.. دخل شوارعها، وقصد النبي القائد ﷺ، فأعلن إسلامه، وأخبره بقصته، ونثر ماله بين يديه، فإذ به يفاجأ بقائد أول اهتماماته القلوب والعقول، وآخر همومه المال، فكيف بمال حرام؟

قال ﷺ: «أما الإسـلام فأقبل، وأما المال فلسـت منه في شيء» فالله طيب لا يقبل إلا طيبًـا، والنبـي قد نهى عن الخيانة، فقال: «أدِّ الأمانـة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» اكتشف المغيرة رقي الإسلام بذلك الموقف، لكنه لم يكن الوحيد الذي شعر بحالة نفسية سيئة مع الوثنية.. داهية آخر هو عمرو بن العاص.. ضاقت به مكة بعد عاصفة الخندق، وفقد ثقته بأصنامه.. تلاشى دهاؤه أمام عظمة الإسلام والتوحيد، فاكتشـف أنـه أضعف من أن يتصـدى لهذا الديـن العظيم، فاجتمـع بمجموعة من الوثنيين يرونه قدوة ومثالًا، فقال لهم: «تعلمون والله أني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علـوًّا كبيرًا منكرًا، وأني قد رأيت رأيًا، فما تـرون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي، فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا، كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه، أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا، فنحن مـن قـد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير. فقالوا: إن هـذا الرأي. فقال عمرو: اجمعوا له ما نهدي له»، وكان أحب الهدايا إليه الجلود. تفرقوا في السوق بعد هذا الاجتماع، فاشتروا له جلودًا كثيرة، وشحنوها على سفينة، وانطلقوا تحطّ بهم الأمواج وترتفع، حتى رسـوا بسـاحل إفريقيا، فهل تذكر عمرو رسوّه قبل عشر سنوات.. حين سافر للنجـاشي مزهوًّا.. حالمًا بإعـادة المهاجرين معه أذلة كالنعـاج؟ وها هو اليوم لاجئ مثلهـم.. خائـف مثلهـم.. هـارب مثلهم للمـكان نفسـه، فهل سـيحظى بترحيب النجاشي أم سيطرده وجلوده؟

عمرو يدوس على اللغم

رسـا قارب عمـرو بن العاص ورفاقه بسـاحل إفريقيـا، ثم ركبـوا المطايا نحو مملكة الحبشـة، ولما وصلوها تهيؤوا لمقابلة الملك النجاشي، وأخذوا معهم هداياهم، واتجهوا بها نحو قصره، ولما وصلوا استأذنوا، فأُذن لهم بالدخول إلى مجلس للانتظار، ريثما يسـمح لهم بالدخول إلى المجلس الآخر الذي يجلس فيه الملك لاستقبال الناس والوفود.

ظل عمرو ورفاقه ينتظرون دورهم في المجلس الأول، وفجأة شخصت أبصارهم وهم يرون رجلًا يمر من أمامهم.. جاء بعدهم، وأذن له قبلهم.. إنه عدوهم: الصحابي عمرو بن أمية الضمري.. قد أرسله النبي ﷺ للنجاشي.. يدخل معززًا مكرمًا.. يتهادى نحو الملك بعزة المؤمن.. لا ركوع ولا سجود، ولكن بحديث يعلوه السمت الوقار دون ذلة أو ابتذال.. جاء الضمري ليتحدث بهموم رعايا الدولة الإسلامية، الذين أصبحوا ملء سمع الملك وبصره.. لاحت لعمرو بن العاص فكرة شيطانية، فأقبل بوجهه نحو رفاقه الذين أدنوا رؤوسهم إليه كالدراويش، فقال لهم: «هذا عمرو بن أمية الضمري، لو قد دخلت على النجاشي، فسألته إياه، فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها، حين قتلت رسول محمد».

كان ابن العاص يريد من الملك أن يخون التقاليد التي تعارف عليها العالم، وهي أن الرسل لا يقتلون، ولا يُمسّون بأذى.. يريد قتله ليضع لنفسه خطًّا للرجعة مع قريش إن انتصروا على الدولة الإسلامية، وكأنه سيقول لهم: لا تظنوا أني هربت للحبشة خوفًا.. لا، بل كنت أناضل عنكم هناك. فكرة تدل على انهيار نفسية ابن العاص أوصلتها إليه الوثنية. خرج الصحابي، وأذن لابن العاص بالدخول وحده، فدخل وسجد للملك الإفريقي، وما له لا يسجد، وهو يسجد للأصنام، فقال النجاشي: «مرحبًا بصديقي» رفع عمرو رأسه، فقال الملك: «أهديت لي من بلادك شيئًا؟ فقال: نعم، أيها الملك، قد أهديت لك أدمًا كثيرًا».

طلب النجاشي الجلود، فأحضرت، واستعرضها عمرو، فأعجبت الملك، ولما رأى عمرو الارتياح على وجهه تقدم بالتماسه، وفجأة ارتعد عمرو خوفًا، وكأنه داس على لغم.. انفجر النجاشي في وجهه كالبركان، وقام بحركة أرعبت ابن العاص، فتمنى لو أن الأرض انشقت، فابتلعته خوفًا من غضب الملك.

النجاشي فخر إفريقيا

ابتهج النجاشي بهدايا عمرو بن العاص، بينما كان رفاقه ينتظرون في المجلس الآخر، ولما رأى الابتهاج على محياه قدم التماسه قائلًا: «أيها الملك، إني قد رأيت رجلًا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله؛ فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا» برزت عينا النجاشي، وتلاشت هدايا الوثنيين، وانفجر بركان غضب لا يطاق بين أضلاعه، فحرك يده من شدة الغضب، وضرب بها أنفه.. ضربة ظن ابن العاص أن أنف النجاشي قد انكسر.

تضعضع عمرو، وأخذه خوف كالموت، وتمنى لو انشقت الأرض فابتلعته من شدة الضربة، فاعتذر للملك مباشرة، وقال: «أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه» نظر إليه النجاشي نظرة كالسيف.. نظرة غضب لله ورسوله، وقال: «أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر، الذي كان يأتي موسى لتقتله!» حاول ابن العاص امتصاص غضبه، فقال: «أيها الملك، أكذاك هو؟» عندها تحول هذا الملك العظيم بكل هيبته وجاهه إلى جندي لمحمد ﷺ.. إلى داعية مسلم.. يتدفق رحمة، بعد أن كان يتفجر حممًا، فقال: «ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده».

تلفت عمرو خشية أن يسمع رفاقه القابعون في المجلس المجاور، ودنا من الملك، وقد عثر على ما يريح روحه التي أتعبها الضياع، فقال: «فبايعني له على الإسلام. قال: نعم» مد ابن العاص يده للملك، فمد الملك يده، وبايعه على الإسلام، ثم ودعه، وخرج نحو أصحابه بغير القلب الذي دخل به.. خرج إليهم، وهو يخشى أن يعلموا بإسلامه، ثم افتعل حديثًا آخر أقنعهم به، وخرجوا من القصر إلى حيث مقر إقامتهم، ومرت الأيام وعمرو يكتم إسلامه، وذات عشاء كان عمرو يمشي في إحدى طرق الحبشة، فلمح جعفر بن أبي طالب، فطار قلبه فرحًا، وتلفت فلم يَرَ أحدًا من أصحابه، وتلفت فلم يَرَ أحدًا من أصحاب جعفر، ففوجئ جعفر بعمرو يأخذ بيده كالمشتاق، وهو يقول: «تعلم أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول

الله؟» تفهم جعفر خوفه، فغمزه، وهمس به: «أنت على هذا» لكن كانت هناك عينان ترقبان من بعيد.. انسل صاحب العينين نحو رفاق عمرو، فأخبرهم.

اغتيال عمرو بن العاص في الحبشة

يبدو أن أحد الوثنيين من رفاق عمرو كان يراقبه، أو رآه وهو يصافح جعفرًا ويناجيه بطريقة تتحاشى العيون.. ودع عمرو جعفرًا ومشى نحو مقر إقامته.. عبر شوارع الحبشة الساكنة إلا من حفيف أو خشخشة دابة.. وصل ابن العاص البيت، وفتح الباب، فإذ به يرتطم بالأرض بشدة.

هجم عليه رفاقه، فطرحوه أرضًا، وهو في ذهول.. حاول المقاومة، فأخذ بعضهم قماشًا مخمليًّا، ولفّه حول رأسه ورقبته ليخنقه.. بدأ عمرو يتلبط.. لا يرى.. لا يتنفس، فجمع طاقته وهو يشعر بالموت، فأزاح القطيفة عن رأسه، فحاولوا خنقه مرارًا، وهو يتلوى بينهم، ويقاوم حتى تعرى تمامًا وهو يصارعهم، ثم تمكن من التخلص من قبضاتهم، والفرار من الدار.. ظل يركض ويركض عاريًا في الشوارع، حتى رأى امرأة تضع وشاحًا على رأسها، فانتزعه منها بسرعة، ولفّه على خصره، واتزر به، والمرأة مذهولة تصرخ متعجبة من جرأته تقول: (كذا؟) فالتفت إليها وهو يهرول، وهتف: (كذا) ظل عمرو يركض.. يتلفت وأنفاسه تعلو، ودقات قلبه تزداد؛ خشية أن يدركه أصحابه، ولم تتوقف قدماه إلا عند باب جعفر بن أبي طالب.

توقف يلتقط أنفاسه وبقايا حياته، ثم طرق الباب، فخرج جعفر وحدق بعمرو مستغربًا هيئته ولباسه وشعره وتقطع أنفاسه، فقال: «ما شأنك؟ فقال عمرو: ما هو إلا أن أتيت أصحابي فكأنما شهدوني وإياك، فما سألوني عن شيء حتى طرحوا على وجهي قطيفة غموني بها، وذهبوا بكل شيء من الدنيا حولي، وما ترى علي إلا قناع حبشية أخذته من رأسها» طمأنه جعفر، وقال: «انطلق» فانطلق الرجلان نحو قصر الملك، ولما صارا أمامه هتف جعفر بالحراس: «ائذنوا لحزب الله» فجاء الحاجب،

فقال: «إن الملك مع أهله. فقال: استأذن لي عليه. فاستأذن له عليه»، وكان النجاشي قد أصدر أمرًا بعدم منع جعفر من الدخول مهما كانت الظروف. فأذن له، وأخبره بمحاولة اغتيال عمرو وسلب ماله، فطلب الملك من عمرو أن يكتب قائمة بكل ممتلكاته، ثم أمر قوة بمصاحبته نحو رفاقه.

وقف الجند على الباب، ثم دخلوا، وبدؤوا بإخراج كل ما كتبه عمرو حتى منديله، فأخذ عمرو متاعه، والتحق بإخوته المهاجرين، وبقي معهم في ظل العدل النجاشي الذي أصبح يستقبل المزيد من المهاجرين.

هل ارتد عبيدالله بن جحش؟

ودع ثلاثة أشقاء من شباب اليمن ديارهم.. هم أبورهم، وأبوبردة، وثالثهم وأصغرهم أبوموسى الأشعري.. توجه الأشقاء نحو الميناء، فركبوا ضمن أكثر من خمسين راكبًا نحو سواحل الحجاز مهاجرين، لكن يبدو أن الرياح جرت بما لم تشتهِ السفن، فألقاهم المركب والرياح بسواحل الحبشة.. نزلوا هناك، فالتحقوا بإخوانهم، ولما قابلوا جعفر بن أبي طالب رحب بهم، وقال: «إن رسول الله ﷺ بعثنا ها هنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا» لم تكن الإقامة بلا منغصات على الرغم من أجواء العدل التي أضفاها القائد المسلم أصحمة النجاشي، فالشوق للنبي وللأهل والديار يعصف بالقلوب، ويهيج المشاعر، فقد وصل قبلهم بسنوات شاب اسمه عبيدالله بن جحش، وهو شقيق أم المؤمنين، وابن عمة النبي، وبرفقته زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رملة. زهدت رملة في ثراء والدها وزعامته، وتركت خير بقاع الأرض نحو قارة أخرى.. لا للسياحة والنزهة، ولكن لأن خير بقاع الأرض تفتقد أول حاجات الإنسان.. تفتقد (العدل) رسالة الأنبياء بعد التوحيد ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، لكن غربتها ازدادت حين مرض زوجها، ولازم الفراش، وبعد مدة أسلم الروح، ولم يصح أنه ارتد وتنصر، فقبل أن يسلم الروح نظر لزوجته، فرقّ لغربتها، فبعث برسالة للنبي ﷺ يوصيه بها.

توفي عبيدالله، فبكته بحرقة، ومرت الأيام سوداء ثقيلة، وانتهت عدتها وهي حزينة، وذات يوم أشرقت عليها شمس أخرى، حين زارها أو استدعاها الملك بكل وقار، ولما قابلته بشرها بخطبة النبي القائد ﷺ لها، فغدت أسعد امرأة في الدنيا.. غدت الحبشة بالنسبة إليها أجمل، وأنهارها أعذب، فوافقت، فزادها الملك الطيب سعادة، حين زوجها بنفسه، ثم قدم لها أربعة آلاف درهم أو دينار مهرًا.. إكرامًا للنبي ﷺ، وجهزها بالملابس والخدم، ثم استدعى أحد المهاجرين واسمه شرحبيل بن حسنة، فطلب منه أن يأخذها للمدينة.

أبحرت رملة، وأصبحت من أمهات المؤمنين وأصحاب الهجرتين، وأزاح عنها زواجها ما مر بها من أحزان ومعاناة، وغربة وتشرد. أما والدها أبوسفيان فيشعر بالغضب، ليس لزواجها، ولكن لأنه علم أن النبي ﷺ يهم بأداء العمرة لأول مرة بعد الهجرة.

ابنة رأس الدولة تطالب بخادمة

بعد الخندق بدت الدولة الإسلامية أغنى وأقوى.. حينها كانت ابنة القائد ﷺ قد رزقت بطفل آخر عذب سموه الحسين.. عقّ عنه جده ﷺ كبشًا كأخيه، وأحبه ولاعبه كأخيه.. يأخذهما للمسجد، فإذا سجد ركبا ظهره، فأراد الصحابة منعهما، فأشار ﷺ بيده إشارة تعني: دعوهما. فلما قضى الصلاة وضعهما في حجره، فقال: «**من أحبني فليحب هذين**» ويقول: «**هما ريحانتاي من الدنيا**».. كان يتجول بهما.. يسليهما، حتى قال أحد الصحابة: «لقد قدت بنبي الله ﷺ والحسن والحسين بغلته الشهباء، حتى أدخلتهم حجرة النبي، هذا قدامه، وهذا خلفه» كان يعوذهما، فيقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**» ثم يخاطبهما: «**إن أباكما إبراهيم كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق**».

كل هذا الحب والحدب، ومع ذلك لم يأمر لهما بمميزات سياسية، أو اقتصادية، أو دينية.. يؤتى بزكاة التمر عند صرام النخل، حتى تصير بين يديه أكوامًا والحسن

والحسين يلعبان حوله، فيأخذ أحدهما تمرة، فيجعلها في فمه، فيقبل القائد ﷺ بهدوء، ويخرجها من فم حفيده، ثم ينير في نفسيهما عدم التطلع إلى ما ليس لهما، فيقول: «**أما علمت أن آل محمد لا يأكلون الصدقة؟**» ملأ قلب الزهراء، فانشغلت بهما تهذيبًا ونظافة وعناية، لكنها جلست ذات يوم متعبة أمام حجري الرحى.. بدأت تذرّ الحب، ثم تدير الحجر العلوي على السفلي لتطحن، ثم تعجن، ثم تخبز وسط لهو الطفلين ومطالبهما، وبعد أن انتهت تأملت يديها، فإذا هما قد تشققتا، فصبرت حتى علمت أن لدى والدها سبيًا، فلبست جلبابها، وتوجهت لبيت عائشة، فلم تجده عندها، فأخبرتها بسبب مجيئها، وشكت لصديقتها، ثم عادت. شعرت عائشة بوجع الزهراء، فلما جاء ﷺ أخبرته بعناء ابنته، فانطلق القائد لبيت ابنته، ووصل وهي على وشك النوم، فأرادت النهوض له كعادتها، فقال: «**على مكانكما**»، ثم أقبل حتى قعد بينها وبين زوجها، وقال: «**ألا أعلمكما خيرًا مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعًا وثلاثين، وتسبحان ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم**» يقوله القائد ﷺ وعنده مطلبها.. يقوله وعنده مال فائض.. لكن سنته تقول: إن فقراء الشعب أولى بالمال من ابنة رأس الدولة وسيدة نساء الأمة.

حين تستقبلك العيون البريئة على أبواب الجنة

لم يكن القائد ﷺ يعيش في أبراج وقصور.. إنه بين شعبه.. يبتسم في وجوههم.. يزورهم، ويزورونه، ويلقون بهمومهم على صدره:

لفت قلبه ﷺ وهو في مجلسه رجل له ابن صغير يتراكض نحو أبيه.. يقفز على ظهره، فيمد الأب يديه بلين لصغيره يحمله، ثم يحتضنه، ويقعده بين يديه، وعيناه البريئتان ترتشفان هذا القائد العذب، الذي يبتسم بوجهه، وربما ضاحكه أو لاعبه.. مشهد ظل يأسر قلبه ﷺ، فسأل الرجل سؤالًا بلغ أقصى قاعات فؤاده، فقال: «**تحبه؟**» فإذا الإجابة طوفان من المشاعر، حين قال: «يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه».

مرت الأيام، فاختفى الرجل، واختفت معه تلك العذوبة.. لم يعد ذلك الطفل يزيد في بهـاء المجلس، فتلفت قلـب القائد ﷺ فقال: «**مالي لا أرى فلانًا؟**» فقالوا: يا رسـول الله، بنيـه الذي رأيتـه هلك. نهض قائد الدولة حزينًا من مجلسـه، ليـواسي صاحبه، ولما دخل عليه سـأله عن ابنه، فأخبره بأنه قد سافر.. مات، فعزاه عليه، ولم يكتفِ بالعزاء.. بشره بعينين بريئتين تشعان لهفة على أبواب الجنة، فقال: «**يا فلان، أيما كان أحب إليك: أن تمتع بـه عمـرك، أو لا تأتي غدًا إلى باب من أبواب الجنة، إلا وجدته قد سـبقك إليه يفتحـه لـك؟**» بكى قلب الرجل شـوقًا لابنه، فقال: «يـا نبي الله، بل يسـبقني إلى الجنة فيفتحهـا لي، لهـو أحب إلي. قال ﷺ: **فذاك لك**» اشـتعلت أشـواق رجل مـن الأنصار، فقال: «يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أله خاصة، أو لكلّنا؟ قال: **بل لكلكم**».

لم تنحـصر عناية النبـي القائد بالرجال فقط. فحين بلغه ﷺ أن امرأة من شـعبه مـات ابنهـا وليس لها غيره، وأنها جزعت عليه جزعًا شـديدًا.. تحرك نحوها، وأخذ معـه رجال دولته، فلما بلغ بابهـا قيل لها: (إن نبي الله يريد أن يدخل) رحبت الحزينة بالمعـزي، فدخل ﷺ فقال: «**أما إنه بلغني أنك جزعت على ابنك**، فأمرها بتقوى الله، وبالصبر، فقالت: يا رسـول الله، ما لي لا أجزع وإني امرأة رقوب لا ألد، ولم يكن لي غيره؟ فقال ﷺ: **الرقوب الذي يبقى ولدها**».

لم يكتـفِ ﷺ بتلك الكلمات.. أشـعل قناديلَ تنير طرقات للجنة، فقال: «**ما من امـرئ أو امرأة مسـلمة يموت لها ثلاثة أولاد يحتسبهم، إلا أدخلـه الله بهم الجنة**» كان عمـر ينصت على يمينـه، فقال: «بأبي أنت وأمـي، واثنين؟ قال: **واثنـين**» فهل هناك أجمل من تلك الأيدي وهي تتماسك حين تقول الملائكة: ادخلوها بسلام آمنين.

أول عمرة يقوم بها ﷺ في الإسلام

بعـد الخندق.. لم تقـم الدولة الإسـلامية بالانتقام، أو غزو مـن غزاها.. ظلت تحـت قيادة هذا النبي العظيم مشـغولة بتشـييد الإنسـان المؤمـن المتحضر.. ظل ﷺ

يعزز قيم الحب والتسامح والعدل والسلام.. قيم لا ترسم في الهواء، ولا تكتب على الماء، بل تغرس على أرض الواقع، لكنها لن تظل حية ما لم تكن هناك قوة تحميها، وقد حباها الله اليوم بقوة تحميها، بل وتؤهلها للمطالبة بحقوق شعبها في ممارسة شعائرهم كبقية الناس، ومن تلك الشعائر الحج والعمرة. حقوق يتمتع بها كل الوثنيين، ويحرم منها كل المسلمين بقرار من أبي جهل.. قرار مازال ساريًا حتى اليوم.

أعلن ﷺ لشعبه عزمه على أداء العمرة، فأحجم المنافقون خوفًا، وتهيأ أكثر من ألف وأربع مئة مؤمن، فانطلقوا في ذي القعدة من العام السادس، ولما وصل القائد ﷺ مكانًا يقال له: ذو الحليفة توقفوا للإحرام، والإحرام هو أن ينوي المسلم البدء بالعمرة أو الحج، وقبل الإحرام لم يقل لهم ﷺ: تخلصوا من ثيابكم المخيطة، بل نهاهم عن لبس أنواع من الألبسة هي: العمامة والقميص والبرنس، وهو كالقميص، لكن به غطاء للرأس، وعن لبس السراويل، إلا في حالة ألا يجد أحدهم إزارًا يلفّه حول خصره، وعن الخفين، إلا في حالة ألا يجد أحدهم نعالًا.. عندها يجوز له لبس الخف، ولكن بعد قطع الجزء الذي يغطي الكعبين، ونهاهم عن ارتداء أي ثوب أصابه زعفران أو ورس، أما النساء فنهاهن عن لبس النقاب والقفازين؛ لذا استعد الصحابة قبل تلك المنهيات بالاغتسال وتقليم الأظافر والاستحداد، وساق النبي ﷺ معه هديًا سبعين من الإبل لينحرها لله، وقد ميزها بتعليق أشياء في رقابها، أو إشعار أسنمتها؛ لكي يعرف الناس أنهم يريدون العمرة، لا الحرب. وقبل الانطلاق أرسل رجلين بأكثر من مهمة.

الأول: بشر بن سفيان الكعبي، ومهمته رصد أي تحرك وثني معادٍ.

الرجل الآخر: الصحابي المشهور بأبي قتادة، وقد كلفه بقيادة مجموعة من الرجال لأداء مهمتين: الأولى جمع زكاة بعض المسلمين في الجوار، والأخرى التصدي لسرية معادية من المشركين في مكان قريب من ساحل البحر الأحمر، ويسمى: (غيقة) بين المدينة ومكة. لذا قال القائد ﷺ لأبي قتادة: خذوا ساحل البحر حتى نلتقي.

دروس في الطريق للعمرة

انطلق أبو قتادة وكان غير محرم، أما من كان معه فكانوا محرمين، وفي أثناء الطريق توقفوا، ونزلوا عن رواحلهم للاستراحة، وانشغل قائدهم أبو قتادة بخصف نعليه، وفجأة رأى رفاقه شيئًا لا يستطيع نيله إلا هو؛ لذا اكتفوا بتبادل الابتسامات والضحكات.. كانت ابتسامات تتمنى لو رفع أبو قتادة رأسه، ونظر.

رفع أبو قتادة رأسه فرآهم يبتسمون، فتلفت ورأى شيئًا يتحرك من بعيد، فقال لرفاقه: «ما هذا؟ قالوا: لا ندري. فقال: هو حمارٌ وحشيٌّ؟ فقالوا: هو ما رأيت».

نهض أبو قتادة، فأخذ سرجه، ووضعه على ظهر فرسه التي سماها الجرادة، وطلب منهم أن يعينوه فالأمر عاجل، فأبوا أن يعينوه؛ لأنهم محرمون، وصيد البر محرم عليهم، فامتطى فرسه ونسي من العجلة سوطه ورمحه، فطلب منهم أن يناولوه إياها، فقالوا: «لا، والله لا نعينك عليه بشيء» غضب أبو قتادة، وانحدر عن الجرادة، وانحنى على الأرض، وأخذ رمحه وسوطه، ثم امتطى فرسه، وانطلق خلف الوحش، فهرب فشد عليه حتى عقره، وتركه في مكانه، ثم عاد لهم، فقال: «قوموا فاحتملوه. قالوا: لا نمسه» عاد أبو قتاده، فقطعه أوصالًا كبيرة، وحمله وأحضره لهم، ثم شرع في طبخ بعضه أو شوائه، ولما نضج دعاهم للأكل فأبى بعضهم وأكل بعضهم، فقال لمن لم يأكل: (أنا أستوقف لكم النبي ﷺ) ثم ركبوا وانطلقوا مسرعين حتى جنّ الليل عليهم، وبينما كانوا يتهادون في جوف الليل.. صادفوا رجلًا غفاريًّا، فسألوه عن القائد ﷺ؟، فأخبرهم بأنه تركه في منطقة (تعهن)، وأنه سيتوقف ليقيل في منطقة اسمها (السقيا)، فتوجهوا حيث نبيهم، ولما وصلوا قابلوه ﷺ، فسألوه عن الصيد؟ فقال: «**أَمِنْكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها**؟ قالوا: لا. قال: **فكلوا ما بقي من لحمها**» ثم قال لأبي قتادة: «**معكم منه شيء**؟ فقال: نعم». فأعطوه فأكل، ثم واصلوا المسير حتى وصلوا قرب مكان يقال له (عسفان) يبعد خمسين ميلًا عن مكة، فتوقفوا للاستراحة، وهناك وصل جاسوس الدولة الإسلامية، فأخبر القائد ﷺ بخبر غير سار.. قريش في الطريق.. قد حشدت جيشًا للحرب، مع أن النبي ﷺ لم

ينوِ حربًا ولا غزوًا.. كل الذي فعله هو وصحابته هو الشـوق لبيت ربهم، والتوجه لأداء العمـرة، فـما الضير في ذلك؟ نفث ﷺ كلمات حزينة، فقال: «**يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب!**».

يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب!

في مكان يقال له: غدير الأشـطاط قرب عسفان.. بين مكة والمدينة نزلت قافلة المؤمنين، وإذ بغبار فارس يلوح من بعيد.. اقترب الفارس، فإذا هو الجاسـوس بشر ابن سـفيان الكعبي.. انحدر عن مطيته وسـلم، وتوجه لقائده ﷺ وقال: «يا رسـول الله، هذه قريش قد سـمعت بمسـيرك، فخرجت معها العـوذ المطافيل، أي الأطفال والنسـاء، قد لبسـوا جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموا إلى كراع الغميم».

لم تزحـف قريش وحدهـا، بل صحبتهـا الأحابيش، وهم حلفاء لهـا من قبائل شـتى.. حزن ﷺ وتـألم، ثم قال: «**يا ويح قريـش لقد أكلتهم الحرب، مـاذا عليهم لو خلّـوا بيني وبين سـائر الناس، فإن أصابوني كان الـذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة**».

حلف ﷺ أن لن يترك رسالته ولو فقد روحه، لكن دون انفراد بالرأي، فلشعبه قيمته ورأيه، وما استشار شعبه إلا تنازل عن رأيه لهم؛ لذا جمعهم وهو الذي لا ينطق عن الهوى، فعرض الأمر عليهم دون استثناء، فقال: «**أشيروا أيها الناس عليّ: أترون أن أميل إلى عيال وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عينًا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين**»، أي مسـلوبين منكسرين؟

سكت الجميع، ونطق كبير الحكماء.. نطق الصديق الأكبر، فقال: «يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له» لم يعارض أحد من الشعب هذا الرأي، فأقره القائد ﷺ وقال: «**امضوا على اسم الله**».

نهض أكثر من ألف وأربع مئة صحابي وصحابية، وركبوا دوابهم، وساقوا هديهم.. خلالها كانت جواسيس خالد بن الوليد ترصد من بعيد، ولما صاروا بين ضجنان وعسفان تسللت سرية خالد، وهو قائد لا يلقي بجيشه في أتون محرق من الحماس والإيمان، لذلك فكر في طريقة ينقض فيها على المسلمين وهم غافلون، فقد سبق أن شاهدهم يصلون خاشعين لا يلتفتون.. لا يتكلمون، فقرر الفتك بهم وهم سجود.

معركة جواسيس

أذن بلال لصلاة العصر، بينما كان خالد بن الوليد وسريته يتأهبون للانقضاض في أثناء الصلاة، لكن خالد فوجئ بالنبي ﷺ يصفّ أصحابه صفّين، ثم يكبر، فكبروا جميعًا، ثم قرؤوا وركع، فركعوا جميعًا، ثم رفع فرفعوا جميعًا، لكن عندما سجد سجد معه الصف الأول، وبقي الصف الثاني قائمًا حتى انتهوا من السجود، ونهضوا.. عندها سجد الصف الثاني ثم نهضوا، ولما أصبحوا كلهم قيامًا تأخر الصف الأول، وتقدم الثاني، ثم كرروا الفعل كما في الركعة الأولى، ثم سلم ﷺ بهم جميعًا. عندها أدرك المشركون أن لا سبيل إلى المؤمنين حتى في الصلاة، فالصلاة وإن كانت اتجاهًا لله بكل المشاعر، إلا أنها لا تعني التسمر.. هي خشوع لا ينافي الشعور بما يجري حول الإنسان.. أدركوا أن هذا القائد يقرأ تفكيرهم، بل بلغ دهاؤه ﷺ أن وضع عيونًا على جواسيسهم، وكأنها حرب جواسيس، حين قال ﷺ لأصحابه: «**إن خالد بن الوليد بالغميم، في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين. فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هم بقترة الجيش**» صدم خالد بما يرى، وأيقن بالهزيمة، ففضل الفرار نحو قريش؛ لينذرهم.

لم يغب خالد عن جواسيس الجيش الإسلامي.. المزروعين في الطرقات.. متخفيين بأزياء رعاة أو تجار، أو عابري سبيل؛ لذا قال القائد ﷺ: «**إن عيون المشركين الآن على ضنجان**» قال ذلك تجنبًا للمتاعب التي تبحث عنها قريش، وتفتعلها.. أراد ﷺ تحاشي الصدام، فقال: «**أيكم يعرف طريق ذات الحنظل**».

نزل رجل عن راحلته ليدلّهم، فصار يمشي والحجارة تنكب قدميه، والأشجار تتعلق بثيابه، فقال ﷺ: (اركب)، ثم نزل آخر، فحدث له مثلما حدث لأخيه، فقال ﷺ: (اركب)، وفجأة صادفتهم ثنية تأملها ﷺ وكأن البشريات تنثال من جوانبها، فقال: (ما مثل هذه الثنية، إلا كمثل الباب الذي دخل فيه بنوإسرائيل، قيل لهم: وادخلوا الباب سجدًا نغفر لكم خطيئاتكم) ثم قال ﷺ: «**لا يجوز أحدٌ الليلة هذه الثنية إلا غفر له**» طارت قلوب الصحابة، فتزاحموا يركب بعضهم بعضًا، وكأنها بوابة من بوابات الجنة.. كان القائد ﷺ يكحل عينيه بعبورهم كلهم، إلا أنه رأى غريبًا لا يبالي بالمغفرة، ولا وزن لها عنده. فقال ﷺ: «**وكلكم مغفور له إلاصاحب الجمل الأحمر**» فمن صاحب الجمل الأحمر هذا؟

حينما يكون المرء حطامًا

لم تغب الدنيا عن محمد ﷺ، لكنها لم تكن تديره.. عاش حياته يمارس فن إدارتها.. يرسمها.. يتفنن في استثمارها. أوصاه جبريل، فقال: «**يا محمد، عش ما شئت، فإنك ميت، وأحبب من شئت، فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به**» عاش ﷺ يمارس تحطيم الحواجز بين الدنيا والآخرة، فإذا أنوار الآخرة تضيء عتمة الدنيا.. تفسح مضايقها، فيستشعر تلاميذه حجم المسؤولية عليهم.

بعد أن صعد الصحابة الثنية.. بشرهم رجالًا ونساء بالمغفرة، إلا رجلًا أكلت الدنيا قلبه.. قال ﷺ: «**من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحطّ عنه ما حطّ عن بني إسرائيل**» قال جابر: «كان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج، ثم تتامّ الناس،

فقال ﷺ: **وكلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر».** نظر الصحابة بعيدًا، فإذا رجل ينشد ناقة له، ففز بعضهم يناشده عله يعود.. عله يفيق.. كانوا كنبيهم: رحمة مهداة، فقالوا: «تعالَ يستغفر لك رسول الله. فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إليّ من أن يستغفر لي صاحبكم». كان الرجل أضل من ناقته؛ لذا عادوا لنبيهم الذي انحدر من الجهة الأخرى من الثنية، فإذا هو يشرق على أرض يقال لها: الحديبية بين جدة ومكة، وعندما لامست أخفاف القصواء أرضها توقفت فجأة.. بركت، فأقبل الصحابة نحوها يحثّونها على النهوض.. يصيحون بها: «حل. حل» لكنها لم تتزحزح.. نظروا لبعضهم، فقالوا: خلأت القصواء، أي حرنت، فقال ﷺ: **ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل».** أدرك ﷺ أن أمرًا سيحدث، فقال لهم وهو يفتح آفاقهم للمرونة حين يفاوضون دولًا معادية.. مبينًا أن السلاح آخر خياراته، حتى مع قوم كذبوه، وطاردوه، وقتلوا أصحابه، وهمّوا بقتله، وحاصروا دولته، وحاربوه.. يفعل ذلك كي لا يخسروا مكتسباتهم.

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**»، ثم زجر القصواء، فوثبت. فتحرك إلى أقصى الحديبية، وتوقف هناك على ثمد قليل، وهو مكان اجتمع فيه ماء قليل يغرف منه الناس بأكفهم فقال: «انزلوا».

تأمل الصحابة المكان، فقالوا: «يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس».

على أرض الحديبية قصة للمطر

توقف القائد ﷺ بأقصى الحديبية.. بين جدة ومكة، فنزل بعض أفراد الجيش، فوجدوا بها آبارًا على وشك أن تنشف.. أسرع الصحابة نحوها يستسقون، فنزحوها حتى لم يتبقَّ قطرة، فقال النبي ﷺ: «انزلوا. فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء

ينـزل عليه الناس، فأخرج رسـول الله سـهمًا من كنانته. فأعطـاه رجلًا من أصحابه، فنـزل في قليـب من تلك القلب، فغـرزه فيه، فجاش الماء بالـرواء.، وجلس ﷺ على شفير بئر آخر. فدعا بماء، فمضمض ومجّ في البئر.

فاض الماء، وبركت الرواحل حوله، وابتلت العروق.. كان نهارًا جميلًا لا ينغصه سـوى ترقـب ردة فعـل قريـش.. مضى اليـوم، وأقبل المسـاء، وحل الظـلام، وصلى الصحابـة، وتناثـروا هنـا وهناك.. نام مـن نام، وفجأة اسـتيقظ الجميـع على زخّات المطـر، ثم توقف المطر ولاح الفجر، فصدح بلال بالأذان، فصلى ﷺ بأصحابه، وبعد أن انتهـى من صلاته حدثهم عن ربهم حديثًا مليئًا بالعتاب، فقال: «**أتدرون ماذا قال ربكـم؟** فقالوا: الله ورسـوله أعلم. فقال: **قال الله: أصبـح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأمـا مـن قال: مطرنـا برحمة الله وبـرزق الله وبفضـل الله، فهو مؤمـن بي، وأما من قال: مطرنا بنجم كذا، فهو مؤمن بالكواكب كافر بي**»، فالكواكب مخلوقات سخرها الله ليسـتغلها الإنسان.. ليكتشـفها، ويسـتفيد منها: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠]، أما الوثنيون، فقد أهانوا عقولهم، وانحطوا بها لمستوى تخضع فيه للحطب ورماد اللهب.

تلقـى الصحابة تجديـدًا للتوحيد في ذلك الصباح المنعش، وأشرقت الشـمس، فاسـتدعى القائد ﷺ أحد رجاله واسـمه (خراش بن أميـة الخزاعي)، وكان ﷺ يثق بقبيلة خزاعة مسلمهم ومشركهم.. كانوا أصدقاء للدولة الإسلامية.. لا يخفون على رسول الله شيئًا كان بمكة.

حـضر خـراش، فانتقـى له القائـد ﷺ راحلـة مميـزة.. أركبه على جمله المسـمى (الثعلـب)، ثـم كلفه بمهمـة لطواغيت قريـش، وأمـره بالتوجه لمكـة، فانطلق على (الثعلـب) حتى لامسـت أخفافـه مدخلها، وفجأة حاصره وثنيون أشرار شـاهرين سيوفهم وألسنتهم، فتوقف، ولما توقف هوى أحدهم بسيفه على أحد قوائم الثعلب، فبرك على الأرض ينزف. ثم هجموا على خراش يريدون قتله.

قريش متوترة جدًّا

أصبح الصحابي خراش الخزاعي وسط غابة من السيوف.. لا تحترم حاجًّا ولا معتمرًا، ولا حتى مبعوثًا. هوى أحد الوثنيين بسيفه على إحدى قوائم بعير النبي ﷺ المسمى الثعلب، فكسرها وبرك البعير ينزف، وشعر خراش بدنوّ الموت، وفجأة دوى صراخ أناس خلف هؤلاء الهمج.. أناس يقال لهم: الأحباش، وهم حلفاء لقريش.. يزجرون المنفعلين عن ارتكاب جريمة أخلاقية، فكفوا أيديهم، وأغمدوا سيوفهم.

طمأن الأحباش خراشًا، وربما أعطوه جملًا بديلًا.. وصل الخبر لقبيلة خزاعة الوفية للنبي ﷺ، وهم قوم خراش، فانطلقت كوكبة من فرسانهم لمقابلة القائد ﷺ.. يقودهم فارس يقال له: (بديل بن ورقاء)، ولما وصل قال للنبي ﷺ: «إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، أي الإبل والأمهات بأطفالهن، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت؟» فقال ﷺ كلامًا امتزجت فيه الصرامة العسكرية بالحكمة السياسية، قال: «**إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا، حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره.** فقال بديل: سأبلغهم ما تقول».

انطلق بديل لمكة، ولما وصلها وجدها متوترة.. بحث عن زعمائها، فقابلهم، وقال لهم: «إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولًا، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا» غضب سفهاء الوثنيين، وصرخوا: «لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه شيء» لكن كبارهم قالوا: «هات ما سمعته. فقال: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأتِ لقتال، إنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحقه»، لكن قريشًا ظلت عنيدة.

عاد بديل يخبر القائد ﷺ بأن قريشًا تتهمه بالتخطيط لحرب، فعزم ﷺ على فك هذا الصدأ الوثني، فقرر إرسال عمر بن الخطاب ليخاطب قريشًا علّه يقنعهم،

لكن عمر يدرك أن قريشًا متعطشة لدمه؛ لذا رشح عمر لهذه المهمة رجلًا لأسرته وزنها الثقيل في مكة، بحيث لا يستطيع الوثنيون التعرض له، أو مسه بأذى، وبذا يضمن ﷺ سلامة مبعوثه، فمن هي الشخصية التي ستهاب قريش التعرض لها؟

النبي يعلن الحرب من أجل عثمان

رشح الفاروق رجلًا تهاب قريش أسرته.. رشح عثمان بن عفان؛ فأسرته أقوى أسر قريش، ويحسب الوثنيون لها حسابًا قبل المساس بأبنائها، فقال: «يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان ابن عفان؟».

اقتنع القائد ﷺ برأي عمر، فاستدعى ذا النورين.. زوج رقية وأم كلثوم، ولما حضر طلب منه أن يقنع قريشًا أنه لم يأتِ لحرب، وأنه جاء زائرًا لهذا البيت، معظمًا لحرمته. أنصت ذو النورين لأوامر قائده ﷺ، ثم امتطى بعيره، وانطلق نحو مكة.. كانت جواسيس قريش ترصد، فعلموا أن عثمان في الطريق، وإذ بأحد أقاربه، واسمه أبان بن سعيد بن العاص ينطلق لاستقباله، ولما تواجها انحدر أبان عن دابته، وأمسك بزمامها، ثم مشى نحو عثمان، وحيّاه، وركب خلفه.

هوى بهما البعير نحو مكة، فتحرك قلب عثمان لمراتع الصبا، ومهبط الوحي وبيت الله، فهو لم يرَها منذ أكثر من عشر سنوات.. مذ هاجر مع حبيبته الراحلة رقية للحبشة. صاح أبان بن سعيد والدابة تسير.. يعلن للناس إجارته لعثمان، وحمايته حتى يبلغ رسالة قائده.. سارت الدابة خلال طرقات مكة الحبيبة، فهل مر عثمان ببيت رقية الحبيبة.. سار حتى توقفت الراحلة أمام مجلس لزعماء قريش، فانحدر عنها وكلمهم، وأبلغهم أن نبيه ﷺ لم يأتِ للحرب، بل أتى للعمرة.. العمرة التي ما تجرأت قريش على منع إنسان يومًا منها، وها هي تمنع أصدق أبنائها.

خجل الطواغيت من موقفهم، فعرضوا على عثمان أمرًا قد يزيل غضبه، فقالوا: «إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به» كان عثمان مُحرِمًا، لكنه أبى أن يعتمر ونبيه محبوس عن مكة، فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله».

تشاور طواغيت قريش، ثم بدؤوا يماطلون عثمان حتى حبسوه من العودة، وإذ بجواسيسهم يبثون إشاعة أن عثمان قد قتل.. إشاعة حولت أرض الحديبية إلى أمواج متلاطمة من الغضب، فقد صُدم القائد ﷺ بالنبأ، فقرر شن الحرب من أجل ذي النورين، وهتف بأصحابه معلنًا حربًا بطريقة استثنائية لم تحدث من قبل.

قُتل عثمان واستعد عمر

استعد عمر، ولبس لباس الحرب بمجرد سماعه للإشاعة، واستدعى ابنه عبدالله ليحضر فرسًا له عند أحد الأنصار، وأوصاه، فقال: «يا عبدالله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله؟».

انطلق الفتى، فاكتشف أن الصحابة يفعلون أمرًا استثنائيًا حول شجرة سمر.. كانوا يمدون أيديهم لقائدهم ﷺ، ويمدون معها أرواحهم. أحب الفتى منافستهم وهو من أصغرهم.. زاحمهم، ثم مد يده الصغيرة، فبايعه ﷺ على الصبر، ثم توجه للأنصاري ليأخذ فرس والده، فسلمه إياها، فتهادى بها نحو أبيه، وأخبره بأمر البيعة، فانطلق عمر، فبايع. لكن يا ترى على أي شيء بايع، فتحت الشجرة ألفاظ متعددة؟ هناك من بايع على ألا يفر كجابر، وهناك من بايع على الموت كعبدالله بن زيد.

بايع عمر، وظل بجانب نبيه ﷺ آخذًا بيده، بينما كان صحابي اسمه معقل ابن يسار، يمد يده نحو غصن من أغصان الشجرة، فيرفعه حتى لا يؤذي نبيه. كان ﷺ يبتهج برجاله، فتقدم صحابي ضخم، وفارس مغوار، فمد يدًا ضخمة وصفها أحدهم بأنها كخف بعير، فبايع، ثم توجه إلى ظل شجرة، فلما خف الناس التفت إليه القائد ﷺ فقال: «**يا ابن الأكوع، ألا تبايع؟** فقال: قد بايعت يا رسول الله، في أول الناس. قال ﷺ: **وأيضًا**» فبايعه ثانية، وتأمله ﷺ فرآه أعزَل، فأعطاه

ترسًا من جلد، ولما انتهت البيعة بايعه للمرة الثالثة، لكنه لم يجد الترس معه، فسأله عنها؟ فأخبره بأنه منحها لعمه عامر بن الأكوع، فضحك ﷺ وقال: «**إنك كالذي قال الأول: اللهم، ابغني حبيبًا هو أحب إليّ من نفسي**».

بايع الجميع، وأحل الله رضوانه على المبايعين، وبشرهم بفتح قريب بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨].. بايع الجميع إلا رجلين.. أحدهما عثمان بن عفان؛ لأنه سبب البيعة، ومع ذلك مد النبي ﷺ يده اليمنى، فضرب بها على اليسرى، ثم قال: «**هذه لعثمان**».. تلك هي منزلة ذي النورين عند قائده ﷺ، وهذا هو مدى ثقته به وبإيمانه، أما الرجل الآخر فكان خال جابر بن عبدالله، واسمه جد بن قيس.. بحثوا عنه، فوجدوه مختبئًا تحت إبط بعيره.

ترى ما سرّ اختبائه.. الجبن، أم أمر أخطر؟ الله أعلم، لكنه كان الخاسر على أرض الحديبية.. استعد الجميع للشهادة، وإذ بهم يُفاجَؤون بجيش قريش يحاصرهم.

أحكام حول العمرة قبل الحرب

كان النبي القائد ﷺ يتفقد أصحابه في منطقة الحديبية، فمر على صحابي اسمه كعب بن عجرة، فرآه يوقد النار تحت قدر.. كان شعره شعثًا، والقمل يتهافت على وجهه، فرقّ له، وقال: «**أيؤذيك هوامك هذه؟** قال: نعم».

انصرف النبي من عنده لا يدري ما يقول له، فالرجل محرم، وحلق الشعر محرّم عليه حتى ينهي عمرته، فنزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة: ١٩٦]. فأتاه ﷺ وقال له: «**ما كنت أرى الوجع بلغ بك ما أرى: تجد شاةً؟** فقال كعب: لا. فقال ﷺ: **فصمْ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، ثم دعا**» ﷺ الحلاق، فحلق رأسه.

فرح كعب، لكن فرحه لا يعادل فرح الصحابة حين رأوا عثمان مقبلًا على بعيره مـن بعيـد، لكن الأمور لم تكـن كما أملوا، فقد طـرأت أحداث خطـيرة، فهناك قائد اسـمه عروة بن مسـعود الثقفي.. حرض أهل الطائف على حرب المسلمين، فرفض معظمهم، فانحدر بأسرته ومن أطاعه نحو مكة، فوجدهم قد لبسـوا جلود النمور، ولما قابل طواغيتهم قال لهم: «إني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولـدي ومن أطاعني» وانضم حلفاء قريش الذين يسـمون (الأحباش) تحت قيادة رجل اسمه الحليس بن علقمة، فزحفوا جميعًا للقتال حتى طوقوا المسلمين، وفي أثناء الحصار خطرت لعروة فكرة، فقال لقريش: «هل تتهموني؟ قالوا: لا. قال: فإن هذا، يقصد النبي، قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها، ودعوني آتِه» كان الطواغيت قلقين، فقالـوا: (ائتِه). نهض عروة ومشـى واثقًا نحو النبي ﷺ، حتـى جلس بين يديه، ولما جلس قال: «يا محمد، جمعت أوباش الناس، أي عبيدهم وأقلهم منزلة، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها» أي هاجمت أهلك، ثم ارتفعت نبرته بالتهديد، فقال: «إنها قريش، قـد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسـوا جلود النمور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهـم عنـوة أبدًا. فقال ﷺ: **إنـا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنـا معتمرين**» وكرر ما قاله سـابقًا، فأحب عروة أن يقلب الحق باطلًا، فقال: «أي محمد، هل سمعت بأحد مـن العـرب اجتاح أهله قبلك؟»، ثم نظر للصحابة، فشـتمهم قائـلًا: «فإني والله لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشـوابًا من الناس، خليقًـا أن يفروا، ويدعوك» حينها فقد أبوبكر الصديق أعصابه، فلم يستطع السكوت.

عروة يروي انبهاره من الصحابة

كان أبوبكـر الصديق وداهية ثقيف المغيرة بن شـعبة قائمـين خلف نبيهما ﷺ.. حـين كان عروة بن مسـعود جالسًـا يفـاوض النبي، لكنه لم يكن يجيـد الحوار.. كان استفزازيًّا يظن أنه بذلك يهز معنويات رجال بايعوا نبيهم على الموت. شتم أهل بيعة

الرضـوان وخير أهـل الأرض، فقال: «إني والله لا أرى وجوهًا، وإني لأرى أشـوابًا من الناس خليقًا أن يفروا، ويدعوك» لم يكن النبي القائد ﷺ لينزل إلى هذا المستوى من الحوار، فسكت، أما أبوبكر فاستشـاط غضبًا، فشتم المغيرة وآلهته اللات بكلمة مهينة، ثم قال: «أنحن نفر عنه، وندعه؟»".

نظر عروة خلف النبي، وقال: (من ذا؟ قالوا: أبوبكر)، فأخرسه كرم الصديق، وقـال: «أمـا والـذي نفسي بيده، لـولا يد كانت لـك عندي لم أجزِك بهـا، لأجبتك، ولكـن هذه بهـا»، ثم مد عروة يده باسـتفزاز آخـر نحو لحية النبـي ﷺ، فإذ بجراب سـيف يـضرب يده، ثم مدهـا مرة أخرى، فإذ بـه يتلقى ضربة أشـد، ومعها صوت كالرعد يقول: «أخر يدك عن لحية رسول الله، قبل والله لا تصل إليك».

رفـع عروة رأسـه، فوجـد رجلًا قـد غطى رأسـه ووجهـه بالحديد، فقـال له: «ويحك ما أفظّك وأغلظك» عندها تبسم القائد ﷺ، فقال عروة: «من هذا يا محمد؟. قـال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شـعبة».. صدم عروة بـكل هذا الفداء من ابن أخيه، وهـو الذي مـازال يدفع عنه دياتِه.. صدم بحب يتدفق حول محمد، فأحب الجلوس والتجـول بين رجاله.. سـحرته الحركة من حوله.. سـحره المكان، وأسرته مشـاهد الحـب التي تظل محمدًا وتقلّه.. أراد اكتشـاف هذا العالم المذهـل الذي يحتويه.. عالم الصحابة.

إن محمـدًا لم يلبسـهم الذهـب والفضة، ولم يسـكنهم القصور، فـما سر كل هذه الشـغف بـه، والخوف عليه؟!.. ظلـت عيناه تجوبان المكان.. تكتشـفان، حتى أعياه الاكتشاف، فنهض حائرًا وعاد ثقيلًا، ولما وصل قتل قريشًا بقوله: «يا معشر قريش، إني جئـت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجـاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكًا قط مثل محمد في أصحابه.. إذا أمرهم ابتدروا أمره، ولا يسـقط من شـعره شيء إلا أخـذوه، وإذا توضـأ، كادوا يقتتلـون على وضوئـه، وإذا تكلموا خفضـوا أصواتهم عنـده، وما يُحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشـد فاقبلوها، ولقد رأيت قومًا لايسلمونه لشيء أبدًا، فرُوا رأيكم».

قريش تتخبط في إرسال الوفود

قتل عروة قريشًا وهو يصف تبجيل الصحابة لنبيهم، وخوفهم عليه قائلًا: «يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكًا قط مثل محمد في أصحابه...»، فاهتزت معنوياتهم، وتضعضعوا.

نظر حليفهم سيد الأحابش، واسمه الحليس بن علقمة الكناني إلى وجوه الوثنيين الشاحبة، فأحب أن يسعفها، فقال: (دعوني آتِه) لم يتردد الطواغيت.. كانوا يبحثون عن حل يحفظ هيبتهم التي تتمزق على أرض الحديبية، فقالوا للحليس: (ائتِه) نهض الرجل، ومشى نحو المسلمين، فلما أشرف على النبي وأصحابه تأمله ﷺ، فعرفه، وعرف إجلاله لبيت الله وزواره، فأرسل سهمًا إلى قلبه، حين نادى أصحابه، وأمرهم أمرًا عاجلًا بقوله: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البُدْنَ»؛ أي يحترمون ما يذبح من الإبل والبقر والغنم في الحرم (فابعثوا الهدي في وجهه).

هب الصحابة بسرعة، فأطلقوا هديهم في طريق الرجل وهم يلبّون: لبيك اللهم، لبيك.. أنصت الحليس للتلبية، و«رأى الهدي يسيل من عرض الوادي في قلائده، قد أكل حباله وقيوده من طول الحبس» فشعر بالخجل من فعل حلفائه قريش، فتوقف، وعجز عن مواصلة المشي.. توقف حائرًا يفكر في عذر يبرر صد هؤلاء الأبرار عن بيت ربهم.. توقف إعظامًا للهدي، وقال لمن يسمعه: «سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت»، ثم رجع لقريش ثقيلًا خجلًا، ولما وقف أمام طواغيتها أنّبهم قائلًا: «يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صده: الهدي في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله!».

هزت تلك الكلمات مشاعر قريش، لكن العزة أخذتهم، فقالوا: «اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك».. شعر الطواغيت بأن سلوكهم لا ينتمي للعقل، ولا للأخلاق، ولا حتى لعادات الجاهلية الجميلة، وأن إرسال مفاوض عاقل إدانة لهم، فتطوع رجل متهور منهم يقال له: مكرز بن حفص للذهاب لإقناع محمد بالعودة، فرحب كفار قريش؛ علّه يرعب المسلمين بحماقته، ولما نهض، وأشرف على المسلمين

رآه القائد ﷺ فكره قدومه، وقال: «هذا مكرز، وهو رجل فاجر».. وصل مكرز، وجلس، وبدأ ثرثرته، فبدأ القائد ﷺ يعيد ما قاله سابقًا، وفي أثناء ذلك شعرت قريش بتهور مكرز، فقاطعت مفاوضاته.

حالات فرار من معسكر المشركين بالحديبية

كان يومًا طويلًا.. المسلمون محبوسون.. يتحرقون شوقًا لبيت ربهم، وكفار قريش يتخبطون لا يدرون ما يفعلون إزاء هذا الوهم الذي يغرز أظفاره في رؤوسهم، فهم يعتبرون دخول الموحدين لمكة إهانة لهم، بينما يرون زيارة أي وثني في العالم لمكة شرفًا، بل سببًا فخرهم؛ لذا أرسلوا رجلًا أحمق اسمه مكرز بن حفص.. عله يفتت معنويات المؤمنين، ويحبطهم، ولما وصل أخبره النبي القائد ﷺ بأنه ما جاء لحرب، بل جاء للعمرة، وفجأة تعالت أصوات عاقلة في قريش حتى أسكتت المتطرفين، فقررت قريش مقاطعة وسحب هذا المفاوض الذي وصفه النبي ﷺ بالفاجر، ورشحت رجلًا له وزنه يدعى سهيل بن عمرو.. طالبين منه أن يصالح محمدًا على أي شيء إلا العمرة هذا العام، وقالوا: «ائتِ محمدًا فصالحه، ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدًا».

أقبل سهيل في أثناء ثرثرة مكرز، فرآه القائد ﷺ من بعيد، فقال لأصحابه متفائلًا: «لقد سهل لكم من أمركم» وفي أثناء مسيره اهتز معسكر الوثنيين بصراخ وحركة تثيران الشفقة والغضب معًا.. مجموعة من العبيد تتغامز فيما بينها، ثم تنطلق هاربة نحو معسكر المؤمنين والحرية والتوحيد، فصاح مالكوهم بهم، فلم يلتفتوا لهم، وعجزوا عن ردهم، فأرسلوا للنبي ﷺ رسالة تقول: «يا محمد، والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك، وإنما خرجوا هربًا من الرق» سمع بعض الصحابة الرسالة، فخشوا من نفاقهم، فقالوا: «صدقوا يا رسول الله، ردّهم إليهم» فغضب ﷺ وأرسل لقريش قائلًا: «**ما أراكم تنتهون يا معشر قريش، حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا**» ورفض بشكل حاسم إرجاعهم، وقال: «**هم عتقاء الله ﷻ**» حل

العبيد أحرارًا كرامًا بين إخوتهم المهاجرين والأنصار، وتهادى سهيل بهدوء حتى جلس بين يدي القائد ﷺ تحت تلك الشجرة، (فتكلما، وأطالا الكلام، وتراجعا حتى) اتفقا.. عندها طلب سهيل توثيق الصلح كتابيًا، وقال: «هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا» فدعا القائد ﷺ علي بن أبي طالب ليكتب العقد، فأحضر محبرته وقلمه، وجلس بين يديه، فقال ﷺ: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**» فلما أخرج علي قلمه من المحبرة ليكتبها احتجّ سهيل بن عمرو.

الكفار يملون شروطهم والنبي يقبل

أحضر علي بن أبي طالب محبرته، ثم غمس قلمه في الحبر منصتًا بعناية لإملاء قائده ﷺ، الذي قال له: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» همّ علي بالكتابة، ففوجئ بمفاوض الوثنيين سهيل بن عمرو يحتج قائلًا: «أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب» أي في الجاهلية.. هنا ارتفعت أصوات الصحابة غاضبة: «والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم» أنصت القائد ﷺ للطرفين، وبين عينيه مصلحة ومكتسبات شعبه ودولته ودعوته.. بين عينيه مستقبل يزينه التوحيد والعدل.. أنصت وكأنه يرى أفول الوثنية، ثم حسم الأمر بهدوء، فقال لعلي: «**اكتب: باسمك اللهم**» سال المداد على الصحيفة، ثم توقف علي بانتظار بقية النص، فواصل ﷺ إملاءه قائلًا: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**».

أعاد علي قلمه لمحبرته، ثم شرع يكتب، وإذ بسهيل يحتج مرة أخرى، ويقول: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك: محمد بن عبدالله» لم يأبه علي باحتجاج سهيل، فكتب: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**» وسط ارتياح الصحابة وغضبهم، فنظر القائد ﷺ إلى سهيل بن عمرو بعقلية أرقى من مناكفة الوثنيين، فقال بكل ثقة: «**والله إني لرسول الله وإن كذبتموني**» ثم التفت إلى علي وقال: «**امحُ: رسول الله، اكتب محمد بن**

عبدالله»، فشعر علي بإهانة المشركين لنبيه بعد كفرهم باسم الرحمن، ففقد التحكم في غضبه، وقال لنبيه: «لا، والله لا أمحوك أبدًا».

لم يجف الحبر بعد، فمد القائد ﷺ يده للصحيفة، وتناولها برفق من علي (وهو لا يحسن يكتب) ثم قال له: «فأرِنيه» أي أرني مكان كلمة رسول الله، فأراه إياه، فمد ﷺ يده ومحاه بيده، وبعد أن محا كلمة رسول الله رأى الصحابة وسهيل شيئًا لم يعرفوه من قبل عن النبي ﷺ.. الجميع يعرف أنه لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولذا قال لعلي قبل قليل: «أرنيه» ولو كان يعرف ذلك لما سأله، لكنه فعل شيئًا غريبًا.. لقد مد يده إلى القلم، ثم رسم كلمة: (ابن عبدالله) فقط، ثم سلم الصحيفة لعلي ليكمل الكتابة.. ترى هل كانت معجزة، أم أن النبي ﷺ رسمها رسمًا.

شروط ظالمة ومحاولة اغتيال غاشمة

ترى.. هل كانت الكتابة معجزة، أم أن النبي ﷺ رسمها رسمًا لا كتابة؟ فمعظم الأميين يجيدون رسم أسمائهم وتواقيعهم، دون أن يعرفوا أحرفها.. إنها مجرد كلمة واحدة، ومن السهل تقليدها ورسمها.

بعد ذلك ناول القائد ﷺ الصحيفة لعلي ليكمل كتابة نص الاتفاقية والمعاهدة، لكن شيئًا خطيرًا زلزل المكان.. شيء كاد يحول الحديبية إلى أنهار دم.. فجأة هبط ثلاثون شابًّا وثنيًّا مدججين بالسلاح لاغتيال النبي ﷺ في أثناء انشغاله بالمعاهدة.

لم يتزحزح القائد ﷺ من مكانه، بل دعا عليهم، فأخذ الله ﷻ بأبصارهم، فأصبحوا لا يدرون أين النبي، فأخذ مجموعة من الصحابة سيوفهم وطوّقوهم، فاستسلم الشباب المتهور، ثم سيقوا كالذل نحو تلك الشجرة، وأوقفوا أمام القائد ﷺ الذي لم يتحرك، بل نظر إليهم، فسألهم سؤالًا عميقًا وخطيرًا: **«هل جئتم في عهد أحد؟ هل جعل لكم أحد أمانًا؟»** فقالوا: لا. فأمر ﷺ بإخلاء سبيلهم، فهم فتية طائشون متحمسون للوثنية دون وعي، فانصرفوا يتصببون خجلًا من هذا

القائد الذي لم يمسهم بأذى أو يشتمهم.. تركهم يقرؤون هذا الدرس، فلعلهم يومًا يسهمون في نشر التوحيد.

انصرف الشباب مثقلين بالندم، وانصرف ﷺ نحو معاهدة الصلح مع الكفار الوثنيين، بعد أن تأكد أنه لا علاقة لقريش بمحاولة الاغتيال تلك.. هنا بدأ مفاوض الوثنيين سهيل بن عمرو يملي شروطه على دولة الإسلام، وهي في مركز قوة لا ضعف، فقال لعلي: «اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو»، ثم أمطر عليًّا بشروط أغضب بعضها عليًّا وعمر والصحابة، وهي:

أولًا: وقف الحرب عشر سنين.. ثانيًا: يأمن الناس خلال هذه السنوات العشر، ويكف بعضهم عن بعض، فلا قتال ولا حرب. ثالثًا: أي رجل يأتي للنبي من أصحابه، أو حتى مسلمًا بغير إذن وليّه، فيجب على محمد أن يرده لقريش، وهذا يعني أن الدولة الإسلامية ملتزمة بتسليم أي رجل مسلم قرشي يهاجر إليها وإعادته للمشركين. رابعًا: لا تلتزم قريش بإرجاع أي رجل مسلم يريد ترك الدولة الإسلامية.

كان علي يكتب تلك الشروط، وكأن قلمه خنجر يحفر.. يمزق قلوب الصحابة، حتى قالوا لنبيهم: «يا رسول الله: أنكتب هذا؟».

∞ ∞ ∞

شروط الحديبية طوق نجاة لأي دولة إسلامية

أملى مبعوث الوثنيين سهيل بن عمرو على الدولة الإسلامية شروطه.. كان بعضها شبه تعجيزي.. فيه من الظلم ما لا يقبله إلا قائد ذو أفق بعيد: أول هذه الشروط: هدنة مدتها عشر سنوات بين الدولة الإسلامية وقريش. ثانيًا: يأمن الناس خلال هذه السنوات العشر، ويكف بعضهم عن بعض. ثالثًا: تلتزم الدولة الإسلامية بإعادة أي رجل مسلم قرشي يلجأ لها دون إذن وليّه. رابعًا: أي مسلم يريد ترك الدولة الإسلامية والانضمام لقريش، فليس من حق الدولة الإسلامية استعادته،

ولا تلتـزم قريش بإرجاعه، وهـذا يعني أن من ارتـد، وأراد اللحاق بقريش، فليس من حق الدولة الإسلامية منعه، أو المساس به. خامسًا: تفرض المعاهدة بين الطرفين عيبـة مكفوفـة، أي عـدم الغش بـين الطرفين، وعدم الإسـلال، وهـو السرقة، وقد مارسـها الوثنيون سـابقًا، فقؤوا أعين الرعي، وسـلبوا إبل الصدقة. وأنه لا إغلال أي لا خيانة، والوثنيون سبق أن ارتكبوا خيانـات مفجعة حين غدروا بالصحابة.. أهـل الرجيع، وخانوا مرثد وخبيب وأصحابهم. سادسًـا: مـن أحب من القبائل أن يدخل في عقد الدولة الإسلامية وعهدها دخل فيه، وهذا معناه توقيع معاهدة دفاع مشـتركة بين الدولة الإسلامية وأي قبيلة وثنية، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهـم دخل فيه. سـابعًا: يرجع محمد هذا العام، ولا يحق لـه دخول مكة. ثامنًا: تسـمح قريش لمحمد وصحبه بدخول مكة العام القادم، وتتعهد بإخلاء الحرم لهم، عـلى ألا تتجـاوز إقامة المسـلمين بمكة الثلاثة أيام، وأن تكون سـيوف المسـلمين في أغمدتها منذ أن يدخلوا إلى أن يغادروا. تاسعًا: ليس من حق القائد ﷺ منع أحد من أصحابه من الانضمام لمشركي قريش.

ذهـل الصحابـة، وغـلا الغضب في رؤوسـهم، فتلك الـشروط تقتل صبرهم، فاحتجـوا وهتفـوا بنبيهـم: «يا رسـول الله أنكتب هـذا؟» فقال القائـد ﷺ بكل ثقة: **«نعـم، إنـه من ذهب منـا إليهم فأبعـده الله، ومن جاءنـا منهم سـيجعل الله له فرجًا ومخرجًا»**.. كانت الشروط تعني توقف الجهاد، وعدم الاحتجاج على المرتد القرشي، وتسـليم المسـلم المهاجر لأعداء الله ورسـوله، وأن يحدد الكفار متى يحق للمسلمين أداء العمرة.. شروط لو قبلها غير رسول الله لحكم عليه بالردّة.

مدرسة فن السياسة الإسلامي في الحديبية

قبـل القائد ﷺ شروط الحديبيـة وهو في موقف قوة.. قبلهـا وهو القائل: **«الآن نغزوهم، ولا يغزوننا»**.. تلك مدرسة سياسية شيدها ﷺ على أرض الحديبية.. تتيح للقائد المخلص أن يكون بعيد النظر عند التعامل مع الأعداء. استشـار أصحابه في

شـن حرب، فأشـاروا عليه بأن يظل على سـلمية الرحلة، أما في قبول تلك الشروط فلم يستشر أصحابه، وهذا يعني أن قبولها كان وحيًا.

المدهش في الوثيقة.. أن يشترك في حبرها كلام القائد الذي لا ينطق عن الهوى، بكلام عدو وثني.. سـنة تكشـف للقـادة المخلصين أن يقبلوا مـن الأعداء أي شيء يـؤدي لرفعـة الدين والشـعب والوطـن، ولو مسـتقبلًا، وأن للدولة الإسـلامية أن تقيم معاهدات قاسـية للحفاظ على مكتسـباتها، ومن مثل قريش أخرجت المؤمنين مـن ديارهم، وظاهرت على إخراجهم، وحاربتهـم وحاصرتهم، واضطهدت نبيهم وحاولت اغتياله؟

الحديبيـة تتيـح توقيـع اتفاقيات دفاع مشـتركة مـع غير الدول الإسـلامية ضد الدول المعادية، فخزاعة ليسـت تابعة للنبي ﷺ ودولته، ولو كانت تابعة لما احتاجت إلى الدخول في حلف مع دولة الإسلام، على الرغم من أن أحد الصحابة وصفها بأنها موضع سره ﷺ وثقته، فقال: «كانت خزاعة في عيبة رسول الله، مسلمها ومشركها، لا يخفون على رسول الله شيئًا كان بمكة، كانوا عيبة نصح له».

قبـل القائـد ﷺ المعاهدة لأنه لن ينـصرف بعدها للدعة والاسـترخاء والتقلب في النعيـم.. الحديبيـة تعني إغـلاق باب الشر الأكـبر، الذي تتدفق منـه المؤامرات، فالوثنيـون العـرب لم يتحركوا ويحصـاروا ويحاربـوا الدولة الإسـلامية، إلا بعد أن حرضتهـم قريـش، وحرضهم اليهود، وقد تـم تحييد اليهود، واليـوم يغلق ﷺ باب الـشر الأكبر، ليتفرغ لبناء دولته وتثقيفها، والدعوة لرسـالة ربـه.. أصبحت الدولة بتلـك المعاهدة حرة في التحـرك، والتعاطي مع الجوار، بل مـع فارس والروم، لكن الحزن يفتك بالصحابة وهم يرون سهيلًا مزهوًّا بشروطه، وفجأة يحدث شيء يؤجج غضبهم.. ترتفع أصواتهم وهم يرون شـابًّا يقبل من بعيد.. يحجل حجلًا بين شـجر السـمر المتناثر هنا وهناك.. يثب وثبًا من شـدة قيوده، والغبار يثور مع كل وثبة من قدميه.. يصرخ.. يستنجد، ثم يرمي بنفسه وقيوده بين أيدي إخوته.

سـمع سـهيل الضجيـج، فالتفت، ورفع رأسـه، واتسـعت عينـاه.. لقد عرف الشـاب، وعرف القيود.. إنـه ابنه أبو جندل، والقيود هو من أمر بها.. نهض سـهيل نحوه، ولما قام على رأسه رفع يده، ثم هوى بلكمة قوية على وجهه.

تسليم المجاهد أبي جندل للكفار

بعد أن أملى سـهيل بن عمرو على الدولة الإسـلامية شرطًا يقول للنبي ﷺ: «لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا» تلفت المسلمون وأعينهم تدور غضبًـا، فقالوا: «سـبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسـلمًا؟» والتفتوا مرة أخرى، فإذ بحركة بين شجر السمر.. شاب يرسف في قيوده يتخلل الشجر متحاشيًا قريشًا.. يحجل حجلًا نحو معسكر المؤمنين.. يستنجد بهم، ثم يرمي بجسده بينهم، فيهبـون نحـوه، ويطوقونه كالقلوب. التفت سـهيل، وحـدق بالفتى، فـإذا هو ابنه أبو جندل. كيف هرب من زنزانته بمكة؟ كيف وصل الحديبية؟

تأجج الغضب برأسه، وهو يرى ابنه يتمرد على الأصنام، ويفر بقيوده نحو فضاء التوحيد، فدب ككتلة من الغضب نحو ابنه، فرفع يده، ثم هوى بها بقوة في وجهه.

لم يأبه الفتى لتلك اللطمة، فلطالما تلقى أشد منها في زنزانته.. لم يأبه، فهو أسعد أهـل الأرض الآن؛ لأنـه بـين أحبته ونبيه، وقد حانت سـاعة الحرية، فـما أجملها من سـاعة! التفت سـهيل للنبي ﷺ وهـو يصيح: «هذا يا محمد أول مـن أقاضيك عليه، أن تـرده إليّ» شـعر ﷺ بغصـة، فقال: «**إنا لم نقضِ الكتاب بعـد!**» فقال: «فوالله إذًا لم أصالحـك عـلى شيء أبدًا يا محمد، قـد لجت القضية بيني وبينك قبـل أن يأتيك هذا. فقـال ﷺ: **صدقت**» سـمع أبو جندل كلمة (صدقت) فتلاشـت سـعادته، وقلصت ابتسـامته، وتحطم حلمه بالحرية.. أكب والده عليه، وقبض على تلابيبه ومجامع ثيابه مـن جهة صدره بكل قوة، وبدأ يجره نحو معسـكر الكفر، بينـما كان الغضب يمزق المسـلمين.. يريدون انتشـال أخيهم الذي يصرخ.. يسـتنجد.. يمزق أنينه القلوب،

وتملأ استغاثته سماء الحديبية وهو على الأرض.. يتصفح وجوه إخوته يناشدهم: (يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك، فيفتنونني في ديني؟).

فاضت العيون من حوله، وسافرت نداءات الشاب كالخناجر في قلب القائد ﷺ، فالتفت لوالده سهيل ورجاه قائلًا: «أَجِزْه لي. فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك. قال: بلى، فافعل. قال: ما أنا بفاعل» مناشدة ألانت الصخر.. ألانت قلب الرجل القاسي مكرز بن حفص، فقال: «بل قد أجزنا لك» فرفض سهيل تدخل مكرز، وجر ابنه وهو يصرخ.. ثم توارى الفتى عن العيون الحزينة، وتلاشى صراخه.. ابتعلته زنزانة الطغاة.

منظر أبي جندل يذيب الصخر

اقتاد سهيل بن عمرو ابنه الشاب أبا جندل بقسوة، وهو يقبض على مجامع ثيابه والفتى يصرخ: «أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين، وقد جئت مسلمًا؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذابًا شديدًا في الله» وقف النبي القائد ﷺ ممتلئًا بالحزن.. مكبلًا بالمعاهدة.. يلاحق فتاه بنظراته الحزينة.. يتمنى لو رافقه لدولته، وكحل عينيه بنخيل طيبة، وطاف قلبه في شوارعها. مشهد زاد المسلمين شرًا إلى ما بهم، فهتف ﷺ بفتاه: **«يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا»** ثم بيّن له أهمية المعاهدات لدى الدولة الإسلامية والقيادة الإسلامية، فقال: **«إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه، وإنا لن نغدر بهم»**.

كان ابن الخطاب يفتل دهاءه كما يفتل سبلته، فأخذ سيفه وهرول حتى أصبح بجانب الفتى الحزين الذي يحجل بجوار والده.. نظر عمر لأبي جندل، وسلّ جزءًا من سيفه، وقرب مقبضه من الفتى علّه يأخذه بنفسه، ويتخلص من أسره، ثم حرضه عمر قائلًا: «اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب»

لكن الفتى لم يفعل.. يقول عمر: «رجوت أن يأخذ السيف، فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية».. كان عمر يريد منه أن يحرر نفسه بنفسه حتى لايلام النبي القائد ﷺ، ولا دولته ولا شعبه، لكن أبا جندل لم يفعل، فطار صواب عمر، وتوجه نحو قائده بعد أن سمع ورأى ما لا صبر له عليه، ولما وقف أمامه قال: «ألست نبي الله حقًّا؟» قال: «بلى». فقال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ ألسنا بالمسلمين أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال عمر: فلِمَ نعطى الدنية في ديننا إذن، علامَ نعطى الذلة في ديننا؟ قال ﷺ: «**إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري، أنا عبدالله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني**». فقال عمر: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت، فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال عمر: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به».

لم يهدأ غضب عمر.. مازال لديه أمل بمراجعة الاتفاقية، فتوجه لأعرف الناس بنبيه عله يتدخل عند نبيه، فيوقف العمل بالمعاهدة، فالأمر لا يطاق.. توجه عمر لأبي بكر.. للصديق الأكبر والوزير الأول للقائد ﷺ.

أبو بكر يوقظ عمر

توجه عمر للصديق عله يقنع نبيه بالعدول عن الصلح، فهم بين مكة وجدة، ومكة في مرمى البصر. فقال: «يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى. قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قال: فلِمَ نعطى الدنية في ديننا إذن؟» فنظر الصديق إلى الفاروق نظرة الواثق، وقال: «أيها الرجل، إنه لرسول الله، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق» فأعاد الفاروق سؤاله: «أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت، فنطوف به؟ قال: بلى. قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به».

أعادت كلمات الصديق السكينة لعمر، فسكت غضبه، ثم ندم على ما كان منه ندمًا شديدًا حتى قال: «مازلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت؛

مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذٍ، حتى رجوت أن يكون خيرًا».. كشف صلح الحديبية أمورًا: كشف مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية، وأبان قيمة المعاهدات مع الدول المعادية.. في الحديبية أشرع الله للدولة الإسلامية بوابات المستقبل، حين أباح لها الموافقة على شروط لو وقعها غير النبي ﷺ لاتهم بالردة، وارتكاب ناقض من نواقض (لا إله إلا الله). وحين قال ﷺ لعمر: «**إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري، أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني**».. هنا يبدو الأمر نصًّا لا مجال فيه للاعتراض، لكن هذا النص يسلط الضوء على الجهة التي وقَّعت.. أي القيادة، فهي قيادة جادة مجاهدة.. على الرغم من أنه ﷺ أقام دولته بالكلمة.. بالإقناع عبر محاولات دامت أكثر من عشر سنوات من جهاد الكلمة.. قيادة لم تكن في حالة تنسيق مع قريش ضد مواطنيها، ولم تكن تنام ملء جفونها عن حقوقهم، ولما شيد القائد ﷺ دولته لم يكن هدفه الانغماس في النعيم دونهم.

إذًا فهو لم يرحب بالمعاهدة لمصلحة شخصية.. قبل بالصلح وهو في موقف قوة، وعلى أبواب مكة، وهي إشارة على أن المحك في نقد معاهدات الصلح مع أعداء الإسلام هو سلوك القيادة، فإن كانت قيادة بناءة تقوم بالصلح لتتفرغ للبناء وتقوية الوطن بالعدل وبالعلم، فالصلح استمرار للحديبية، وإلا فلا، أما المدهش الآخر، فهو معنى المواطنة الذي كشفه ﷺ قبل ألف وأربع مئة عام.

مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية

واهم من يظن أن المواطنين في الدولة الإسلامية لا بد أن يكونوا كلهم مسلمين، وواهم من يظن أن حقوق غير المسلمين فيها منتقصة، فها هو النبي القدوة الأسوة ﷺ، الذي يقول للحكام: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، فتمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ**».. ها هو يحكم دولة إسلامية ينعم فيها رأس النفاق عبدالله بن سلول كهف اليهود، وقاذف عرض النبي وعرض قائد الدولة..

ينعم هذا المنافق بالأمن والأمان، وينعم فيها اليهودي لبيد بن الأعصم، كما نعم فيها قبله الحاخام ابن الأشرف، وابن أخطب، وابن أبي الحقيق.

قائد يتسامح مع هؤلاء المواطنين الحاقدين، بينما يمنع دخول المؤمن المعذب في الله أبي جندل بن سهيل، الذي يصرخ مستنجدًا: «يا معاشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك، فيفتنونني في ديني؟» فلم يزد ﷺ على قوله: **«يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه، وإنا لن نغدر بهم»**.

إذًا فالمواطنة في الدولة الإسلامية عقد لا يشمل كل مسلمي الأرض، بل يشمل من وقعت الدولة الإسلامية على منحه تلك الصفة، ولو كان كافرًا، حتى ديات القتيل تختلف بحسب المواطنة، فإن كان مؤمنًا مواطنًا، ففيه قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢]، أما إن كان مؤمنًا غير مواطن، بل ينتمي لدولة عدوة محاربة فلا دية له، بل قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النساء: ٩٢]، أما إن كان مؤمنًا أو كافرًا، لكنه ينتمي لدولة بينها وبين المسلمين معاهدة ومواثيق، فيقول تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النساء: ٩٢]، هنا الكافر له دية، وهناك المؤمن ليس له بسبب نوع المواطنة.

بدأ سريان معاهدة الحديبية، فلا عمرة هذا العام؛ لذا لا بد من التحلل من الإحرام والعودة للمدينة، فهتف القائد: **«قوموا فانحروا، ثم احلقوا»** نظر ﷺ إلى جنده. فوالله ما قام منهم رجل. فكررها، فلم يقم أحد من الهم والغم والإحباط، فكررها، فلم يقم أحد..

امرأة توقظ خيار رجال الأرض

بدأ سريان معاهدة الحديبية؛ لذا لا بد من التحلل من الإحرام والعودة للمدينة، فهتف النبي بأصحابه: «**قوموا فانحروا، ثم احلقوا**» نظر ﷺ إليهم فما قام منهم رجل. كررها مرة ثانية، فلم يقم منهم أحد مما بهم من الذهول، ثم قال الثالثة: «**قوموا فانحروا، ثم احلقوا**» فلم يفيقوا من ذهولهم.

أصيب ﷺ بحزن وهو يرى حالة الذهول بجنده، ولم ينزل عليه وحي، فتوجه نحو خيمته، ودخل على مستشارته وزوجته أم سلمة.. عله يجد حلًّا، فقال: «**يا أم سلمة، ما شأن الناس**؟ فقالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت. ثم قالت: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم منهم كلمة حتى تنحر بُدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فلو قد فعلت ذلك، فعل الناس ذلك». خرج ﷺ لينفذ مشورة امرأة في التعامل مع ألف وأربع مئة محبط.. مشى خلال خيار أهل الأرض نحو جمل في أنفه حلقة من فضة.. يثير الكثير من الذكريات، فأخذه حتى أوقفه قريبًا من المشركين. تأمله الوثنيون، فأثار لديهم المرارة.. إنه جمل طاغوتهم أبي جهل، الذي ركبه لحتفه ببدر.

أوقفه ﷺ ليغيظهم مثلما أغاظوا أصحابه، وكان هديه في نحر الإبل، أن يجعلها قائمة، ويوجهها للقبلة، ويثني إحدى يديها ويربطها، ثم يسمى وينحرها، ولما انتهى نادى الحلاق وجلس، فأقبل الحلاق بأمواسه، وتناول رأسه ﷺ فحلقه.. كان الصحابة يشاهدون ما يفعله نبيهم، فإذ بهم يفيقون، وكأن السماء تمطرهم.. نهضوا وهبوا هبة رجل واحد نحو إبلهم وبقرهم فنحروها، فقال جابر: نحرنا مع رسول الله عام الحديبية، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، نحرنا يومئذ سبعين بدنة.

قصر بعضهم شعر رأسه، وحلق بعضهم، وكان مشهد رؤوسهم طريفًا، وكأنهم قدموا من غزوة، فقلما تجد رأسًا لا ينزف مما بهم من الغم، حتى قال أحدهم: «جعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا». فقال ﷺ: «**اللهم**،

ارحم المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: **اللهم، ارحم المحلقين**. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: **والمقصرين**».. عادت السكينة لخيار أهل الأرض، وتحولت الحديبية إلى ساحة سلام.. اختلط فيها المسلمون بالوثنيين، لكن مشركين همجًا لم يعجبهم السلام، فقرروا إفساده واغتيال رسول الله ﷺ.

محاولة لنقض الصلح

كان سلمة بن الأكوع ذو الجسد القوي، والكفين الضخمين، الذي بايعه النبي ﷺ على الموت ثلاث مرات.. كان شابًّا معدمًا ترك دياره وماله وأهله لينجو بدينة، وها هو بالحديبية.. يعمل لدى طلحة.. يخدمه، ويعتني بفرسه، ويقول: «إن المشركين راسلونا الصلح حتى مشى بعضنا في بعض، واصطلحنا، واختلط بعضنا ببعض، وكنت تبيعًا لطلحة بن عبيدالله، أسقي فرسه وأحسه، وأخدمه وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجرًا إلى الله ورسوله».

شعر سلمة بالتعب، فتوجه نحو ظل شجرة، ثم قام بكنس الشوك المتساقط منها، ثم اضطجع تحتها، ولما هم بإغماض عينيه.. أقبل أربعة شباب وثنيين وقحين، لمزاحمته على الظل النظيف، بل وإبعاده بأسلوب غير مباشر.. بدؤوا بالثرثرة وشتم النبي ﷺ. فأبغضهم وترك الظل لهم، وتوجه لشجرة أخرى، فكنس ظلها واضطجع. علق الشباب أسلحتهم في شجرتهم، واستسلموا للنوم، وبدأ النعاس يغشى سلمة، لكن صيحة صحابي دوت من أسفل الوادي تقول: «يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم».

فز سلمة وسل سيفه، ومباشرة هجم على الأربعة الراقدين، وجمع أسلحتهم المعلق حزمة واحدة بيده اليسرى، وصرخ فيهم كالموت: «والذي كرم وجه محمد، لا يرفع أحد منكم رأسه، إلا ضربت الذي فيه عيناه»، ثم أمرهم بالنهوض، وساقهم كالخراف نحو قائده ﷺ، ولما أوقفهم رأى ثمانين مشركًا مكتفين.. أسرهم الصحابة، وكانوا قد انحدروا من جبل التنعيم لاغتيال النبي ﷺ، وقد جُمعوا كالذل أمامه.

نظر ﷺ إليهم، ثم قال لأصحابه: «**دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه**».. عفا عنهم ولم يبطل الصلح، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

كانت الحديبية مدرسة للقادة الإسلاميين في ضبط النفس.. مدرسة بدأت تجني الثمار حين قدم وفد من زعماء خزاعة للتحالف مع الدولة الإسلامية، وتوقيع معاهدة دفاع مشترك، بحيث يصبح الاعتداء على خزاعة اعتداءً على الدولة الإسلامية، أما المفاجأة الأخرى، فكانت قدوم أناس من قريش وانضمامهم للدولة الإسلامية، فلم يرجعهم ﷺ.. فعل ذلك دون أن يخرق الاتفاق، فهل كان أبو جندل ضمنهم؟

هاربون في الحديبية

فوجئ المسلمون بأطياف خائفة تتسلل.. نساء مستضعفات عانين العذاب من أهلهن الوثنيين، وفي مقدمتهن المؤمنة أم كلثوم.. بنت الطاغية الهالك عقبة ابن أبي معيط.. تلاحقهن خيل قريش، ولما وصلت الخيل طالبوا بإرجاعهن، لكن القائد ﷺ رفض.. ليس نقضًا للعهد والصلح، فهو أكبر من ذلك، وتاريخه أبيض في هذا الشأن، فقد رد حذيفة ووالده يوم بدر، ورد أبا جندل قبل قليل، فلم لا يرد أم كلثوم ورفيقاتها؟ الإجابة هي: أن النبي ﷺ وجد للمؤمنات ثغرة خلال نصوص المعاهدة نفسها.. ثغرة تتيح للمؤمنات التسلل من خلالها والهرب، فقد كان سهيل كغيره من المشركين.. لا يأبهون لشأن المرأة إلا حين تناديهم غرائزهم، ولذا حين أملى الشرط أملاه هكذا: «لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا».

هذا النص.. الشرط.. ينصب على الرجال فقط، والنساء لا يدخلن تحت طائلته، ثم أنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. تقول عائشة: إن رسول الله كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ

﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الممتحنة: ١٢]. فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها ﷺ: «**قد بايعتك**»، كلامًا يكلمها به، والله ما مست يده امرأة قط في المبايعة.

وفي مشهد متحضر للدولة الإسلامية.. أمر الله بإعادة المهور للوثنيين الذين هربت زوجاتهم وهاجرت، كما حرم أن تبقى الوثنية زوجة لمسلم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[الممتحنة: ١٠]، فاستجاب عمر فورًا، فطلق زوجتيه: قريبة بنت أبي أمية، وابنة جرول الخزاعي، فتزوجت قريبة من معاوية، وتزوجت ابنة جرول من أبي الجهم، وأُمر عمر وغيره بمطالبة الكفار بمهورهم، فرفض الوثنيون، فنزلت آيات توحي بخصم مهور المؤمنين من مهور الكفار، وبذلك أغلق ملف المهاجرات، لتبدأ رحلة العودة للمدينة.. رحلة حفلت بالكثير من الأحداث المثيرة.

العودة من الحديبية للمدينة

بدأت رحلة العودة للمدينة.. خيم الليل كالحزن على قافلة رضي الله عنها، وتحت تلك النجوم، وبين تلك الجبال السوداء.. اقترب عمر براحلته من ناقة نبيه، فعنّ له سؤال من أسئلة الطريق، فلم يجبه ﷺ. سكت عمر، ثم سأله ثانية، فلم يجبه.

واصل عمر المسير، ثم سأله ثالثة، فلم يسمع إجابة، فخاطب عمر نفسه مؤنبًا: «ثكلتك أمك يا عمر، نزرت رسول الله ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك» ثم حرك بعيره خجلًا، وانطلق حتى تقدم القافلة، وهو يشعر بالخوف أن ينزل به قرآن لإلحاحه في السؤال.. ظل عمر هائمًا في عالم التوجس والقلق، وإذ بصارخ في الظلام يوقظه.. يناديه. خفق قلب الفاروق، وعاد فورًا نحو نبيه مرتبكًا، فسلم عليه ورد القائد السلام.. لقد نزلت آية، لكنها ليست في عمر.. قال ﷺ: «**أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: ١].

أدرك عمر أن نبيه ﷺ كان مشغولًا بما هو أهم حين كان يطرح أسئلته، لكن القائد لم يكن ليترك رجاله تبعدهم الظنون وتحبطهم.. دعا عمر، وبشّره، وقرأ عليه سورة الفتح كاملة، ولما انتهى غمرت عمر السعادة، فهو أول من يسمعها طرية، فسأل سؤالًا محت إجابته هموم الحديبية: «يا رسول الله، أوفتح هو؟ قال: **نعم**» ولما وصلت القافلة مكانًا يقال له: كراع الغميم توقف ﷺ، وأمر الجميع بالاجتماع، ولما اكتملوا قرأها عليهم وهو على بعيره، فارتفعت المعنويات، ونشط الجميع.. ساروا، ثم توقفوا، ثم ساروا، لكن الطريق طويلة.. نفد خلالها الماء، ولم يبقَ سوى قليل في وعاء جلدي صغير يسمونه «الركوة».

اشتكى الصحابة عطشهم، فوضع ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، ثم قال: «**خذوا باسم الله**» «**حي على أهل الوضوء البركة من الله**»، ثم أصابهم جوع حتى هموا أن ينحروا بعض رواحلهم، فأمر ﷺ أن يضعوا بساطًا على الأرض، وأن يضعوا عليه ما تبقى لديهم من الطعام، لكنهم لم يجدوا في مزاودهم إلا ما يملأ (ربضة العنز)، فدعا ﷺ ربه، ثم ناداهم، فأحضروا أوعيتهم وبدؤوا يملؤونها.. معجزة من الله وتسلية لقلوبهم الحزينة، وتأكيدًا لنبوته ووعده، ثم واصلوا المسير نحو المدينة ليجدوا المدينة خائفة.. قد هاجمها اللصوص في غيبة أبطالها.

طريق العودة من الحديبية

في طريق العودة من الحديبية.. مرت القافلة المؤمنة بحي لبني لحيان، الذي شهد الغدر بأصحاب النبي ذات يوم، فتوقف القائد ﷺ قرب جبل يفصل بينه وبينهم.. نزل المؤمنون عن رواحلهم، وأنزلت الهوادج التي تحمل النساء وأمهات المؤمنين، وتفرق الناس هنا وهناك، فخشي ﷺ من مباغتة الوثنيين، فنظر للجبل، واستغفر لمن يصعده هذه الليلة لمراقبة تحركات الوثنيين.

سمع سلمة بن الأكوع استغفار نبيه، فرقى تلك الليلة مرتين أو ثلاثًا، ولما طلع الفجر ردد ذلك الجبل أذان بلال، فاستيقظ من كان نائمًا، وصف الرجال،

فالنساء خلف النبي ﷺ، فصلى بهم الفجر، ثم انطلقوا نحو طيبة الحبيبة.. قطعوا مئات الأميال يسيرون ويتوقفون، وكان ﷺ إذا عاد من الغزو أو الحج أو العمرة يبدأ، فيقول: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر»، ثم يثني على ربه خاصة على نصره يوم الخندق، فيقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**» وخلال الطريق كان إذا صعد مكانًا مرتفعًا قال: الله أكبر، وإذا هبط واديًا، أو نزل مكانًا منخفضًا قال: سبحان الله.

يقول جابر: «كنا إذا صعدنا كبرنا، وإذا نزلنا سبحنا» وكان إذا لاحت له المدينة تحرك قلبه، وحرك راحلته شوقًا لها.

يقول أنس: «كان ﷺ إذا قدم من سفر، فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها».

ها هي المدينة تستقبل أحبتها المحزونين.. لم يعتمروا، ولم يدخلوا مكة، وقد كانوا قاب قوسين أو أدنى منها.. المدينة لم تكن أقل حزنًا، فقد هاجمها مجموعة من اللصوص بقيادة رجل يدعى عبدالرحمن بن عيينة الفزاري، وقد نهب في ذلك الهجوم كل إبل الدولة المخصصة للفقراء.. صدم الصحابة بالخبر صدمتهم بالحديبية، لكن بطولات سلمة بن الأكوع داوت جراح المدينة.

غزوة لسلمة بن الأكوع

لم تكن عبثًا تلك البيعة المميزة، التي خص بها النبي سلمة بن الأكوع ثلاث مرات على الموت، فقد طلب القائد ﷺ منه أن يسبقه قبل طلوع الشمس للمدينة.. برفقة غلام للنبي اسمه رباح، وقد كان رباح مسؤولًا عن الإبل التي تحمل أثاث السفر.. في الليلة نفسها، وفي مرعى إبل الدولة الإسلامية المسمى ذي قرد.. كان

خادمًا لعبدالرحمن بن عوف يعيش أجواء مرعبة، فقد تسـلل مجموعة من اللصوص بقيـادة رجل يدعـى عبدالرحمن بن عيينة الفزاري نحو المرعـى، فنحروا الراعي، ثم حلوا رباط الإبل، ونهبوها.

صدم الخادم وعاد ليستنجد بمن في المدينة، فإذ به يرى سلمة يصل وهو يسوق فرسًـا، فصاح به: «أُخذت لقاح رسـول الله».. حل سـلمة رباط الفرس، وسـلمها لرفيقـه، وقال: «يا رباح، خذ هذا الفرس، فأبلغه طلحة بن عبيدالله، وأخبر رسـول الله أن المشركـين قد أغاروا على سرحه»، ثم ركب سـلمة بعيره، وصعد تلة، وتوجه نحـو المدينة، وتوقف، وصاح بأعـلى صوته: يا صباحاه.. يا صباحـاه.. يا صباحاه، حتى رددت الجبال صيحاته، ثم انحدر منطلقًا نحو مرعى ذي قرد، ليتتبع آثار الإبل من هناك.

وصـل المرعـى، فجـال بعينيه عـلى الأرض، فرأى الآثـار، وتتبعهـا حتى صعد مرتفعًـا، فتوقـف ونظر، فـإذا اللصوص قد توقفـوا حول إحدى الآبار.. مد سـلمة يـده نحـو كنانتـه، فانتزع سـهمًا، ووضعه في كبد القوس وشـده، ثـم صرخ: «أنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضع» وأرسل السهم قذيفة انغرزت في كتف أحدهم.. ارتبك اللصـوص، وزلزلتهـم الصرخـة والسـهام، فركبوا وتركـوا الماء ومتاعهـم، وهربوا عطاشًـا. انحدر سـلمة، فجمع ما تركوا، ووضع فوقه رجمًا من الحجارة علامة.. عل قائده ﷺ يراه، ثم انطلق خلفهم مرة أخرى حتى أدرك أحدهم، فرماه بسهم، فأصابه.

ظـل يلاحقهم خلـف الصخور والأشـجار كالشـبح المميت يظهـر، ويختفي، فتوقـف أحدهم، والتفت يريد التأكد من عدد المهاجمين، فرأى سـلمة وحيدًا، فقرر مهاجمته. فلاذ سـلمة بشجرة وهيأ سـهمه، ولما اقترب أطلق سهمًا، فعقره. ثم لاحق البقية حتى تخلوا عن الإبل، ولجؤوا لمضيق بين الجبال للاختباء من السهام.

سلمة يحاصر اللصوص

طارد الفارس سلمة بن الأكوع اللصوص، حتى شعروا بأن احتفاظهم بالإبل التي سرقوها انتحار، فأفلتوها، ودخلوا مضيقًا بين الجبال تصعب الحركة فيه.. تسلق سلمة الجبل، وصار يطل عليهم، فاحتفظ بأسهمه، وبدأ يلتقط من حجارة الجبل بيده الغليظة، التي شبهها أحدهم بخف البعير، ثم بدأ يقصفهم، فارتبكوا مرة أخرى، وهربوا، وكأن الذي يلاحقهم من الجن، فانحدر خلفهم، ولاحقهم حتى شعروا بأنهم لن ينجوا وهم محملون بالمسروقات، فألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا، فجمعها سلمة، وجعل عليها آرامًا من الحجارة؛ لعلها تلفت انتباه الصحابة.

انشغل سلمة بجمع بقايا المسروقات حتى ابتعدوا وارتفعت الشمس، واطمأنوا أنه لن يلاحقهم.. أصبح الوقت ضحى، فإذ بفرد من أفراد العصابة يلتحق بهم، ويدعى عيينة بن بدر.. سار معهم حتى توقفوا عند ثنية، فنزلوا ليستريحوا، وأنزلوا مزاودهم عن ظهور إبلهم، وأخرجوا طعامهم، وجلسوا يتغدون.. اقترب الوقت من الظهر، فرفع عيينة رأسه إلى الجبل، فإذ بشبح يظهر، ويختفي، فقال: «ما هذا الذي أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح، أي التعب والإجهاد الشديد، والله ما فارقنا منذ غلس، يرمينا حتى انتزع كل شيء من أيدينا» أدرك عيينة أن وراء الشبح جيشًا، فقال: «لَوْلا أَنَّ هَذَا يَرَى أَنَّ وَرَاءَهُ طَلَبًا لَقَدْ تَرَكَكُمْ، ثم قال: فليقم إليه نفر منكم أربعة».

نهض أربعة لصوص، وتسلحوا، وتسلقوا نحو سلمة، ولما اقتربوا منه صاح مهددًا: «أتعرفونني؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قال: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرم وجه محمد لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم، فيدركني» أيقن الأربعة بحتفهم فقال أحدهم: «أنا أظن» ثم انحدروا خائفين، وبدؤوا للملمة أشيائهم، وما هي إلا دقائق حتى نظر ابن الأكوع، فإذ بثلاثة فوارس خلفه يتخللون الشجر كأنهم الموت.. أوقفهم، فإذا هم إخوته: الأخرم الأسدي.. يتبعه أبو قتادة الأنصاري، فالمقداد بن الأسود.. رآهم اللصوص فهربوا، فهم الأخرم بمطاردتهم، فأمسك سلمة بزمام فرسه، وقال: «يا أخرم، احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق

رسـول الله وأصحابه» فناشـده الأخرم قائلًا: «يا سـلمة إن كنـت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحلْ بيني وبين الشهادة».

سلمة والفرسان الثلاثة

وصل الفرسـان الثلاثـة: أبو قتادة والمقداد والأخرم الأسـدي.. وصلوا لنجدة أخيهم سـلمة بن الأكـوع، ففر اللصوص، فـأراد الأخرم اللحاق بهم، لكن سـلمة أمسـك بعنان فرسـه وناشـده قائـلًا: «يا أخـرم، احذرهم لا يقتطعـوك حتى يلحق رسـول الله وأصحابه»، فناشـده الأخـرم أن يطلق العنان، وكأنه يشـعر بالجنة تفتح لـه، وقال: «يا سـلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخـر، وتعلم أن الجنة حق والنار حق، فلا تحلْ بيني وبين الشـهادة» أطلق سلمة عنان الفرس، فانحدر الأخرم ينهب الأرض حتـى ظفـر برئيـس العصابة عبدالرحمـن الفزاري، وهـرب البقية، فضرب الأخـرم فرس اللص، فسـقط، لكن اللص تمكـن من التقاط سـيفه، وقتل الأخرم، وأخذ فرسه.

شاهد أبو قتادة صاحبه يهوي شهيدًا، فتأجج غضبه، ولحق باللص حتى أدركه، فتبـادلا طعنتين، وطعن اللص فرس أبي قتادة، فسـقط أبو قتادة، ثم اسـتعاد توازنه، وتمكن من قتل اللص واستعادة فرس الأخرم، ثم ركبه، وعاد لرفيقيه.

قـام الفرسـان الثلاثة بالحفـر لأخيهم ودفنه، فالشـهداء يدفنـون في مصارعهم.. شـاهد ابـن الأكـوع بقيـة اللصوص قـد انعطفـوا ثانية لشـعب ذي قرد، فأدرك شـدة عطشهم، فهم لم يشربوا منذ حرمهم السقاء صباحًا، وخيلهم أشد عطشًا منهم، فلحق بهم على قدميه من طريق مختصر للماء.. ظل يركض حتى توارى عن أبي قتاده والمقداد.. كانت الشـمس فوق الـرؤوس حين اقترب اللصـوص من الماء، وإذ بهم يرون سـلمة مقبلًا يحمل سـيفه وقوسه، وكأنه قُدّ من الصخر.. أطلق سلمة سهمًا فصك أحدهم في نغـض كتفه، أي أعـلى غضروفه، وقال: «خذها وأنا ابن الأكـوع، واليوم يوم الرضع» كان المصاب هو نفسه الذي أصيب في الصباح، فجعل يصيح: يا ثكلتني أمي، أكوعي

بكرة!! أي هذا الذي يطاردنا منذ الصباح الباكر دون كلل. فقال سلمة: «نعم، يا عدو نفسه» ثم غرز سلمة سهمًا ثالثًا في جسده، فتركوا رفاقه الشعب، وهربوا إلى ثنية (ذي بئر) تاركين فرسين، فركب سلمة إحداهما، وساق الأخرى، ولاحقهم حتى أبعدوا، ثم عاد لنبيه ﷺ وهو يترنح من الإعياء والعطش، وبعد مسافة رأى عمه عامر بن الأكوع قد لحق به ليسعفه بقربة لبن، وقربة ماء.

توقف سلمة، ونزل عن فرسه، وغسل غبار المعركة، وتوضأ وشرب، ثم تهادى نحو معسكر قائده ﷺ، ولما وصل رأى النيران تتلألأ حول مياه أحد الشعاب، وإذ برائحة الشواء تملأ المكان.

مساء وشواء وغدير ماء

توقف سلمة بعد غزوته، وتناول قربة الماء التي أحضرها عمه عامر، فغسل غبار المعركة، وتوضأ، وشرب من اللبن واستراح، ثم امتطى فرسه، وتهادى مع عمه نحو قائده ﷺ، ولما وصل رأى النيران تتلألأ حول مياه الشعب، وإذا بالقائد ﷺ بين خمس مئة من أصحابه قد هبّوا لنجدته.. كانت مياه الشعب تومض.. تعكس نجوم السماء وضوء النيران، وإذ برائحة الشواء تملأ المكان، فقد نحر بلال إحدى تلك الإبل، وهو يشوي لقائده من كبدها وسنامها، والصحابة يقدون من لحمها، ويشوون.

اقترب سلمة من نبيه، فسلم عليه، فرد ﷺ السلام. كان سلمة مبتهجًا بإنجازه هذا اليوم.. سعيدًا باستعادته لكل المسروقات من إبل ورماح وبرد على الرغم من حزنه على الشهيد الأخرم الأسدي، وحزنه على الراعي المسكين الذي نحره اللصوص. تناول الصحابة شواءهم، ثم ناموا عند الغدير، وبعد أن صلوا الفجر، وأشرقت الشمس جددت الأجواء المنعشة طاقة سلمة للفداء، فعرض على نبيه ﷺ مواصلة المطاردة، وقال: «يا رسول الله، خلني، فأنتخب من القوم مئة رجل، فأتبع القوم، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته» عندها ضحك القائد ﷺ من حماس جنديه، وقال: «**يا سلمة، أتراك كنت فاعلًا**؟ فقال: نعم، والذي أكرمك. فقال ﷺ: **إنهم الآن**

ليقرون في أرض غطفان»، وبعد مضي وقت طويل وهم حول النبع مر بهم رجل من غطفان، فتوقف عند الماء، وحدث الصحابة بقصة مضحكة جرت للصوص.. تدل على هول الرعب الذي أحدثه سلمة فيهم، وهو أن اللصوص مروا برجل من غطفان، فأكرمهم، ونحر لهم جزورًا، فلما كشط جلد الجزور تمهيدًا لتقطيعها وطبخها.. رأى اللصوص غبارًا من بعيد، فعاودهم الرعب، وظنوا أنه غبار سلمة ورفاقه، فصاحوا ببعضهم: (أتاكم القوم) فانطلقوا هاربين، وتركوا مضيفهم وجزوره.

كان بعض الصحابة يبتسمون لسماع القصة.. في ذلك اليوم وقرب ذلك الماء حيث أثنى القائد ﷺ على أبطاله، فقال: «**كان خير فرساننا اليوم أبوقتادة، وخير رجالتنا سلمة**». ثم أعطى سلمة سهمين، أي نصيبين من الغنائم.. سهم لأنه قاتل راجلًا، وسهم لأنه قاتل فارسًا. يقول سلمة: (فجمعها لي جميعًا، ثم أردفني ﷺ وراءه على ناقته العضباء متجهين للمدينة) كان سلمة يستمتع بشرف الركوب مع نبيه وقائده، لكن رجلًا استفزه بكلمات عكرت استمتاعه.. جعلته يقفز عن العضباء، ويكمل العودة للمدينة على أقدامه.

الرياضة واللهو بين عيني القائد ﷺ

نادى القائد ﷺ بطل الأمس سلمة بن الأكوع، ولما جاء أركبه معه على ناقته القصواء تكريمًا له. كان سلمة يستمتع بشرف الركوب مع نبي الأمة وقائد الدولة، وكأنه لا يريد النزول، لكن الله حباه بجسد غير قابل للتحدي، وقد أثاره صوت أنصاري خفيف الظل.. يصرخ في الطريق.. ينادي الجيش بأعلى صوته: «ألا مسابق إلى المدينة؟» سكت خمس مئة مقاتل حياء، فلم يردوا، فصاح مرة أخرى: «هل من مسابق.. هل من مسابق؟» وظل يكررها حتى استفز سلمة وهو خلف نبيه، فقال للرجل: «أما تكرم كريمًا، ولا تهاب شريفًا؟» فقال الرجل المزوح بكل أريحية: «لا، إلا أن يكون رسول الله» عندها شعر سلمة بحاجة إلى إسكاته، فقال لنبيه ﷺ: «يا

رسـول الله، بـأبي وأمـي ذرني، فلأسـابق الرجـل؟ قال ﷺ: **إن شـئت**. فقال سـلمة للرجل: أذهب إليك».

لم يكد سـلمة يكمل كلمته حتى قفز المتحدي عن راحلته، فأصبح على الأرض وسـط دهشـة الصحابة، وثنى سـلمة رجله، فقفز عن العضباء، وبدأ الرجل يجري قبل سـلمة، فركض سلمة ركضًا خفيفًا حتى ظن الرجل أنه سينتصر، فأسرع سلمة حتـى اقـترب منه، ثم أبطأ سرعته حتى لاحت بيوت المدينة.. حينها شـد سـلمة كما شد بالأمس، فمر من عند الأنصاري الظريف بسهولة، فصكه بين كتفيه، وابتسم في وجهه، وقال: «قد سبقت والله» فضحك الرجل، وسلم بالنتيجة، وقال: «أنا أظن».

فـاز سـلمة بالجلاد أمس، وفـاز باللهـو والرياضة اليوم، وبـين يديه ﷺ، ويداه كانتـا ربيعًـا.. ينثال ذلك الربيـع للجميع، والجميـع الآن في المدينـة.. يرتاحون من عناء الحديبية، وذي قرد، ويغتسـلون من غبار السـفر.. كانـت المدينة في انتظارهم، لكنهـا لم تكن في انتظار هذا الفارس العاشـق الذي تعشـقه مثلهم.. تعشـقه، لكنها لا تسـتطيع احتضانه.. فارس أضناه الشـوق إلى قائده ﷺ.. إلى إخوته.. عجز السفر عـن إتعابه، وعجزت القيود عـن كسر إرادته وهمته، فقلبه عجـز عن مقاومة الحب والحنـين لمحمد، وصحب محمد ﷺ.. وصل هذا الفارس المغوار، فغرز وصوله الألم في قلوب القائد وشعبه، وأسال الدموع، وأحرق الأكباد.

أبوبصير يهرب من معتقلات قريش

كانت المدينة في حالة اسـترخاء بعد الحديبية وغزوة ذي قرد، وإذ بفارس يجدد أحزانهـا وينقـض جروحها.. فاتك يطـوف شـوارعها، وكأنه يتنفس هـواء جديدًا وحيـاة أخرى.. عرفه البعض، ولم تعرفه البقية.. يبحث عن قائد الدولة ﷺ، فيجده ويسـلم عليه، فيرد القائد السـلام، ويعرفه.. إنه الشـاب عتبة بن أسيد، الشهير بأبي بصير، وقد تمكن من الفرار من زنزانة طواغيت قريش. نظر ﷺ إليه بحزن، وتمنى لو كانت الظروف تسمح بإبقائه قربه، لكن معاهدة الحديبية تحول دون ذلك.

لم تمهل قريش الدولة الإسلامية للتفكير بشأن المجاهد أبي بصير.. فجأة يظهر في المدينة وثنيان أرسلتهما قريش لتسلّمه، فلم يتعرض لهما أحد من الشعب؛ لأنهما داخل دولة راقية، وبين شعب متحضر بالقرآن والسنة، بل دلوهما على مكان القائد ﷺ، ولما قابلاه قالا له بلغة حاسمة: «العهد الذي جعلت لنا؟» لم ينكر النبي القائد ﷺ وجود أبي بصير، ولم يخفه، بل أمر على الفور بتطبيق المعاهدة.

أمر ﷺ بتسليم المجاهد المغوار لمندوبي الكفار في مشهد يفتت الأكباد. تألم أبوبصير، لكنه عذر نبيه، فالمعاهدات مقدسة في الإسلام، وأدرك الوثنيان أنهما أمام قائد لا يخون ولا يغدر ولا يكذب، وأن أبا بصير لن يجد ملجأ إلا زنزانته بمكة. ويبدو أن أبا بصير كرس هذا الشعور في نفسيهما، مادام نبيه قد سلمه بنفسه لهما.. شعور أراح المندوبين الوثنيين، فأصبح السفر أكثر أمنًا وثقة أن أبا بصير لن يهرب، وأين سيهرب؟ ويبدو أنهما اشتريا من تمر طيبة الطيب، فتوقفا بذي الحليفة، وجلس الثلاثة على الأرض لتناول شيء منه، وبينما هم يتحدثون بكل أريحية.. التفت أبوبصير وحدق في سيف أحدهما، فقال: «والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان، جيدًا» فتدخل الوثني الآخر وسله، وقال: «أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت. فقال أبوبصير: أرني أنظر إليه».

لم يتردد الرجل، فالأمكنة آمنة على أرض الدولة الإسلامية.. قدم السيف لأبي بصير، فقبض عليه بقوة، وصار يهزه ويهزه، وفجأة هوى به على صاحب السيف، فإذ هو جثة تتلبط. رأى الوثني الآخر صاحبه يسبح في دمه، فوثب فوق دابته، وانطلق كالريح.. ليس لمكة، ولا للصحراء، بل للمدينة، فلن ينقذه سوى أبرّ الناس والقادة وأوفاهم بالمعاهدات.. محمد ﷺ. دخل الرجل المدينة يتلفت.. يرتجف وقلبه يرتجف مثله، فلم يجد ملاذًا سوى المسجد.

وثني لا يجد ملاذًا سوى المسجد

ضرب أبوبصير أحد الوثنيين بسيفه، فحوله إلى كتلة لحم تنتفض، فوثب المشرك الآخر فوق دابته، وانطلق كالريح خائفًا نحو المدينة، فلن يجد ملجأ كالدولة الإسلامية.. دولة يحكمها نظام يطبق على الجميع حتى أولاد القائد ﷺ.. حتى القائد نفسه. دخل الطاغوت شوارع المدينة يبحث عن آمنِ مكان.. عن المسجد النبوي حتى دخله.. يلتقط أنفاسه وبقايا حياته.. يتصبب عرقًا.. يهبط صدره، وينخفض هلعًا وعيناه زائغتان، فإذا القائد جالس بين أصحابه. نظر ﷺ إليه، فقال: «لقد رأى هذا ذعرًا».

التفت الوثني لمصدر الصوت، فرأى النبي ﷺ، وكأنما رأى الحياة، فتوجه مرتجفًا لأكثر رجال الأرض التزامًا بالعهود والمعاهدات، فأطلق من صدره أذرع الاستغاثة والاستنجاد، وقال: «قتل صاحبي، وإني لمقتول؟» لم يخرج النبي ﷺ هذا الكافر من المسجد، ولن تمسه يد وقائد الدولة ﷺ هنا، ولن يمس بأذى وهو بين شعب متحضر بالقرآن والسنة.. على الرغم من أن هذا المشرك أسهم في معاناة أبي بصير وتعذيبه.

حدقت عيون الرجال والنساء في هذا الطاغوت الذليل، وهمهمت الشفاه، وفجأة قطع همهماتهم زئير أسد بباب المسجد.. التفت الرجال والنساء نحو الباب، فإذ بفارس يهبط كالموت.. انتفض الوثني، وأيقن بالهلاك وأبوبصير يدخل باب المسجد.. يتلفت وسيفه يقطر دمًا. توجه أبوبصير لنبيه ﷺ.. ناشده أن يبقيه في دولته وبين أحبيته، وهتف: «يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم» لمعت عيون الصحابة رأفة وإعجابًا، ونظر ﷺ لفتاه بحزن وكمد، أما الوثني فتأمل عظمة هذا الدين وانضباط رجاله ونسائه.. ما أرقاه من دين وما أرقى أنظمته! فدولته لا تستطيع إيواء أبي بصير المسلم، ولا منحه حق المواطنة، وهو من عانى في سبيل الله، بينما يتمتع هذا الوثني، ويتمتع يهود ومنافقون ووثنيون بحماية الدولة، وأين؟ داخل المسجد.

نظر ﷺ لفتاه الذي لا يجد على الأرض أرضًا تؤويه، إلا مساحة تساوي مساحة سيفه، فقال: «**ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد**» اخترقت تلك الكلمة -الرسالة أذن أبي بصير، فأدرك أن القائد سيرده للمشركين، وأدرك أن الدولة الإسلامية غير مسؤولة عن تصرفاته، فهو وحده المسؤول؛ لذا خرج مسرعًا وركب راحلته، وانطلق إلى ساحل البحر، محولًا ذلك الساحل إلى رعب ومعسكر للموت.. معسكر جعل قريشًا تندم على شروطها الظالمة.

أبوبصير في المنافي وأبوجندل في الطريق

وقف الشاب أبوبصير أمام نبيه ﷺ.. وقف وأنفاسه تفوح موتًا، فقال: «يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم»، ثم سكت منتظرًا قرار قائد الدولة ﷺ.. سكت، فكان الرد رسالة تفتح لأبي بصير كل الخيارات، وكل الحلول إلا دخول الدولة الإسلامية.. هتف ﷺ به: «**ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد**» كلمات تقول لهذا المضطهد: دافع عن نفسك، لكن خارج حدود الدولة الإسلامية، فأدرك أنه سيقبض عليه إن طال مكثه.

خرج أبوبصير من المسجد على الفور، وهب لراحلته ووثب. وبقي الوثني في المسجد. انطلق أبوبصير مغادرًا الدولة الإسلامية الحلم.. مدركًا أن لا مكان له على الأرض إلا ظل سيفه، لكنه يدرك أن الاعتداء على الأبرياء جريمة، وأن الحرب التي سيسعرها لن توجه إلا ضد من اضطهدوه، وحرموه العيش بسلام بجوار نبيه ﷺ وداخل دولته.

فر أبوبصير فلم يجد أنسب من الساحل، أما طواغيت مكة فغلوا غضبًا مما جرى، ولم يستطيعوا إدانة عدوهم محمد، وتسرب خبر أبي بصير لأبي جندل بن سهيل ابن عمرو، وهو في زنزانته، فقرر التخطيط للهرب مرة أخرى، فنجح، لكنه لم يتجه للدولة الإسلامية، بل أخذ يتحسس أخبار أبي بصير.. كان متخفيًا يسأل ويسأل، حتى

علم أنه على سيف البحر، فانطلق يذرع المكان حتى التقى بـه، وهناك بدأا التخطيط لتحويل هذا الساحل إلى كابوس كالجحيم يحرق طواغيت قريش وحدهم.

يقول الفارس سلمة بن الأكوع: «فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم» وتركوا القريش النواح والندم على تلك الشروط، التي زرعت في طريقها أولئك الأسود.. أولئك الشباب الذين أودعوا الزنازين، وعذبوا، ومنعهم طواغيت مكة من حق الحصول على المواطنة في دولتهم الإسلامية.. منعوهم من سلوك أي طريق نحو الحياة الطبيعية، وألجؤوهم لطريق واحد: طريق العنف المضاد، فحولوا طرق الوثنيين إلى رعب وتلفت.. إلى نهر تهدر فيه دماؤهم وكرامتهم.. دمروا اقتصاد قريش بقطع شريان تجارتها مع الشام، لكن ماذا عن محمد ﷺ؟ أليس قائد الدولة الإسلامية شريكًا فيما يحدث لقريش من رعب؟ إطلاقًا، فمحمد ﷺ في حل مما يجري، ولا مسؤولية عليه مادام هذا العنف لا يمارس داخل دولته، ولا ينطلق من أراضيها، أو بدعم منها، فقد فعل ﷺ ما لم يفعله غيره. رفض ﷺ استقبالهم وحمايتهم تنفيذًا لشروط طواغيت قريش.. في الوقت الذي يتمتع فيه مبعوثهم بالأمن داخل المسجد، فمن مثل رسول الله ﷺ في تحضره ورقي قيادته؟

مَنْ مثل محمد ﷺ في تحضره؟

أمضى النبي ﷺ أكثر من ثلاثة عشر عامًا بمكة.. يدعو.. يناضل حتى أقنع المهاجرين، ثم الأنصار بالكلمة.. أقنعهم بالكلمة فقط، ومن مثله ﷺ أسس دولته الإسلامية بالكلمة فقط؟ لقد تحدث التاريخ قبله وبعده، أن الدول تؤسس على الجماجم وأنهار الدماء، بينما أسس النبي ﷺ دولته دون إراقة قطرة دم واحدة، وها هو اليوم، وبعد أن أصبح القوة الضاربة في الجزيرة العربية.. يقدم مثالًا حضاريًا فريدًا.. يأتيه الشباب المسلم الذين تحالفت قوى الوثنية لمطاردتهم، فيرفض إدخالهم

بلاده أو إيواءهم؛ لأنه وقع معاهدة الحديبية التي تشترط منع إيوائهم.

كان بإمكانه ﷺ أن يخفيهم، وينكر وجودهم، لكنه لم يفعل لأنه نبي، ولأنه قائد فذ يتعامل مع الآخرين بأخلاقه، لا بأخلاقهم، ولو عاملهم معاملة المثل بالمثل، لما بقي يهودي واحد على قيد الحياة.. ولكان الآن يطوف بمكة على الرغم من أنوف طغاة المشركين.. إذًا فما هي سنته ﷺ في هذا المشهد الجديد الخطير الذي نشأ على ساحل البحر: أبوبصير وجماعته؟ ما حكمه ﷺ فيهم؟

أولًا: هو يقرر أنهم أحبته وأصحابه.

ثانيًا: لديه دولة ذات نظام ومكتسبات، ولها معاهدات وعقود، وعليها التزامات، وفيها شعب لا يمكن المقامرة بهم مهما كان الثمن.

ثالثًا: هناك أعداء بادروه بقتل أصحابه، وخانوه، وحاصروه.. هم الذين بدؤوا، لا هو، وإلا فما مبرر اليهود لخيانته، وهو الذي احترمهم، وأحب موافقتهم، ولاطفهم. هذا الصنف من الأعداء الشرسين لا يوقف شرهم سوى المعاهدات أو السيف، وقد فعل..

بقي المشهد الخطير الذي ظل مهمشًا قرونًا.. تتناوله العواطف، ويحكمه الحماس، على الرغم من وجود سيرة النبي ﷺ التي تكفي لعلاجه.. سيرته المتحضرة الراقية التي لم يبلغ رقيها أحد قبله أو بعده في تعامله مع أعدائه.. بقي مشهد أبي بصير وأبي جندل.. مشهد عالجه النبي القائد ﷺ بالمعاهدات.. المعاهدات فقط، وعلى من يخون المعاهدة تحمل نتائج الخيانة المدمرة، وإلا فكيف يرفل مواطنون يهود ووثنيون بالأمن تحت حماية دولته، وفتيان الإسلام مشردون على السواحل.. المعاهدات هي الحل حتى لهؤلاء الشباب.

ما بعد الحديبية فجّر معركة مرعبة.. معركة صنعها طواغيت قريش دون أن يحسبوا حسابها.. هم من أجّجها، وهم من حدد أطرافها، وهم من حيّد الدولة الإسلامية عن الدخول فيها، وأخيرًا.. هم من أرغم أولئك الشباب على ترك حياتهم الطبيعية وحمل السلاح ضدهم؛ لذا اكتوى طواغيت قريش بنارهم.. نار

أشغلت قريشًا عن الحياة، وجعلت الدولة الإسلامية تتفرغ لاستقبال البنائين والمبدعين، كهذا المبدع اليماني الذي تطرب الدنيا لسماع اسمه.

القلوب تسافر نحو طيبة بعد الحديبية

العلم يمان.. ينطلق من اليمن شاب تتمايل به مطيته نحو طيبة، وبرفقته أمه المشركة العنيدة، وخادم يخدمها، ومعه بعض أهل اليمن.. أعياهم التعب، فنزلوا ليستريحوا، ولما خيم الليل استسلموا للنوم، لكن الخادم لم ينم.. ظل مستيقظًا.. ينتظر نوم سيده الشاب أبي هريرة الدوسي، ولما تأكد من نومه نهض، فأخذ متاعه، وانسل نحو راحلته وركب وهرب. استيقظ أبوهريرة.. رفع رأسه وتلفت، وهتف بخادمه فلم يرد.. بحث عنه، فلم يجده.

تألم الفتى، لكنه قارن ما أمامه من صحبة نبيه ﷺ، بما خلفه من مال وديار وخادم، فقال: (يا ليلة من طولها وعنائها... على أنها من دارة الكفر نجت).

نهض أبوهريرة نحو أمه، وأخذ بيدها وأركبها، وواصل ورفاقه سفرهم حتى احتضنتهم نخيل طيبة قبيل الفجر.. سارت قافلة اليمن خلال الظلام.. يحدوها صوت لا يشبه صوت بلال.. تهادت الرواحل نحو مصدر الصوت حتى أوقفتهم بباب مسجد رسول الله ﷺ. أناخوها، وأنزلوا هوادجها، ثم توضؤوا، ثم دخلوا المسجد الذي تومض جدرانه من الداخل بضوء السرج، فإذا النساء أكثر من الرجال.

صلوا ركعتي الفجر، وأقيمت الصلاة، فلم يخرج رسول الله ﷺ.. استغرب أبوهريرة، وزاد استغرابه حين رأى الرجل الذي يؤم الناس.. حدق به، فلم يسمع أحدًا يناديه برسول الله.. إنه سباع بن عرفطة الغفاري.

كبر سباع، فكبر الرجال والنساء، وقرأ الفاتحة وسورة مريم أو جزءًا منها، وقرأ في الركعة الثانية: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين: ١-٣]، سافرت تلك الكلمات التي تحارب الفساد والغش التجاري في الأسواق.. سافرت بأبي هريرة إلى دكان من دكاكين اليمن، حيث يقبع تاجر جشع يضع في دكانه مكيالين للغش، فقال في نفسه، وهو في الصلاة: «ويل لأبي فلان له مكيالان، إذا اكتال اكتال بالوافي، وإذا كال كال بالناقص»، ثم أكمل إنصاته للآيات، ولما انتهت الصلاة، وبدأ خروج بعض المصلين من المسجد نهض أبوهريرة للسلام على الإمام، وسأله عما يجري؟ أين القائد ﷺ.. أين أبوبكر وعمر.. أين المهاجرون والأنصار؟ رحب سباع به وبمن معه، ثم زودهم بالطعام، وما يحتاجون إليه، وأخبرهم بسر مغادرة النبي ﷺ عن المدينة بعد ثلاثة أيام من عودته من الحديبية.

حان الوداع يا أصحمة

تساءل قلب أبي هريرة: أين النبي ﷺ.. أين المهاجرون والأنصار.. لِمَ طرقات المدينة تشكو فراقهم؟ فأخبره سباع بن عرفطة بأن القائد ﷺ عينه أميرًا في غيابه، ولما أخبروه برغبتهم في اللحاق به زودهم بما يلزمهم من زاد، وودّعهم.

وفي مكان آخر بعيد.. يجري وداع آخر مرير.. خلف البحار.. في إفريقيا.. في الحبشة.. تسيل دموع الملك العظيم أصحمة النجاشي، وتسيل دموع رجال ونساء لم يروا منه إلا كرم الضيافة، وصدق الوعد والعدل.. جعفر بن أبي طالب وصحبه يهمون بمغادرة الحبشة.. أرض الملك الكريم العادل إلى طيبة أسطورة الكرم، وعاصمة العدل والتوحيد.. يودعون الملك الموحد، الذي حماهم، ودافع عنهم، ورفض رِشا المشركين لطردهم، بل خصّهم بالدخول عليه، ولوكان مع أهله.. ولو كان نائمًا.

لوحت القلوب للنجاشي.. لغابات الحبشة وأنهارها وأطيارها وأزهارها، وكأن القلوب تقول للنجاشي: إلى اللقاء بين أنهار أعذب وأشجار أطيب، وجمال

لم تَـرَه عين ولم تسـمع به أذن.. إلى اللقـاء في حدائق جنات الخلـد ومنتجعاتها. أخذ المؤمنـون أطفالهـم، وحملـوا متاعهـم، وركبوا رواحلهـم نحو السـاحل، ثم حملوها في السـفينة، وركبوا.. شـقوا عباب البحر حتى رسـت السـفينة على شاطئ الجزيرة العربية، وهناك امتطوا الإبل نحو طيبة.. شتان ما بين الرحيل والعودة.

لقـد بنى لهم الإسـلام دولة، وصار لها بـين العالم صولة وجولـة.. دلفوا طيبة، ففوجئوا كما فوجئ أبوهريرة، أين الحبيب الذي أحرق الشوق قلوبهم إليه؟ دخلوها فـرأوا نظـرات المنافقين تضيـق عليهم الـدروب، فاتجهوا لأميرها سـباع، فأخبرهم بـأن قائدهـم ﷺ مكـث بعد عودتـه من الحديبيـة ثلاثة أيـام، ثم أصدر أمرًا لجيشـه بالاسـتعداد للتوجـه إلى بلدة تتلوّى فيهـا بقايا الخيانة كالحية.. بلـدة تدعى خيبر.. فـر إليها، وتكـدس فيها بقيـة خونة يهود الذيـن خططوا لمعركة الأحـزاب، وكادوا يطيحون بدولة الإسلام، وقبل المغادرة طلب ﷺ من صاحبه أبي طلحة شابًّا يخدمه، فأخذ معه أنس بن مالك ابن زوجته أم سليم.

مشـى القائـد ﷺ لبيت ابنتـه فاطمة، وودعها، وودع الحسـن والحسـين، ونظر لفارسـه علي، فإذا هو لا يسـتطيع الإبصار بوضوح.. إنه يشـتكي الرمد، فطلب منه البقاء، ثم انطلق بقافلة خير أهل الأرض.. أهل بيعة الرضوان في أوائل شهر المحرم، ولما غادروا المدينة بمسافة لام علي نفسه، وقال: «أنا أتخلف عن النبي؟» فطلب تهيئة راحلته، ثم ركبها، وسـار بالكاد يسـتطيع تبين طريقه، لكن هناك من سـبقه وسـبق القائد ﷺ وجنده، فاقتحم حصن خيبر دون أن يراه حتى اليهود.

ليلة هوى فيها القمر في حضن العروس

سـجا الليـل في الطريـق إلى خيـبر، وانتشـرت نجومـه، ففاضـت مشـاعر أحد الصحابة، فحرك راحلته نحو فارس اسمه عامر بن الأكوع.. عم سلمة، وكان عامر شاعرًا عذب الصوت، فطلب منه التغني بأبيات تزيد من جمال الليل وبريق نجومه،

وقال: «يا عامر، ألا تسمعنا من هنيهاتك؟» فنزل عامر عن راحلته، وصار يمشي على قدميه، ويحدو بصوت عذب:

اللَّهُمَّ لَولا أَنْتَ ما اهْتَدَينا ... وَلاتَصَدَّقْنا وَلاصَلَّينا

فَاغْفِرْ فِداءً لكَ ما اقْتَفَينا ... وَثَبِّتِ الأَقْدامَ إنْ لاقَينا

وألقِينَ سكِينةً عَلينا ... إنَّا إذا صِيحَ بِنا أَتَينا

والمشْرِكُونَ قَدْ بغَوا عَلَينا ... وَبِالصِّياحِ عَولُوا عَلَينا

كان النبي ﷺ ينصت لهذا الصوت العذب، فقال: «**من هذا السائق؟**» قالوا: عامر. قال: «**غفر لك ربك**» انقبض قلب سلمة بن الأكوع من تلك الدعوة، وأيقن برحيل عمه وقرب أجله. لأن سلمة يقول: «ما استغفر رسول الله لإنسان يخصه إلا استشهد» سمع عمر استغفار النبي ﷺ، فاهتزت مشاعر الشوق لعامر وهو حي، فتمنى بقاءه، ونادى نبيه: «يا نبي الله، لولا ما متعتنا بعامر؟».

اختلطت المشاعر، وسلم الجميع أمرهم لله، وواصلت القافلة مسيرها نحو خيبر، حيث تجثم فلول الخونة اليهود، الذين خططوا لمعركة الأحزاب، وكادوا يطيحون بدولة الإسلام.. سارت القافلة، ثم توقفت، فتمكن علي من اللحاق بها، وغفا المجاهدون في إحدى المحطات، وفي أثناء النوم سبقهم شيء إلى الحصن.. شيء غريب ليس من البشر.. شيء أبيض له هالة بيضاء.. رفرف نزولًا من السماء حتى هبط على الحصن.. في ليلة اجتمع فيها الحاخامات، وتلوا الصلوات، وأجروا طقوس الزفاف لأميرة من الأميرات، وبعد الاحتفال غفت الأميرة العروس، فرأت في منامها رؤيا أخافتها.. رأت القمر يهبط من السماء حتى استقر في حجرها، فنهضت فزعة، فانتبه الأمير، وسألها عن سبب فزعها؟ فقالت: «إني رأيت فيما يرى النائم قمرًا وقع في حجري» لم يتردد الأمير في تفسير الرؤيا على الطريقة اليهودية.. فسرها بلكمة على ذلك الوجه الجميل، حتى أحدث هالة خضراء حول عينها.

ترى من هذه الأميرة، ومن هو زوجها الملاكم هذا، وما تفسيره لهذه الرؤيا؟

تفسير الرؤى على الطريقة اليهودية

زُفت الأميرة صفية بنت الخائن حيي بن أخطب إلى الأمير الخائن كنانة بن أبي الحقيق.. ابن الخائن سلام بن أبي الحقيق.. كان العروسان يشتركان في كره النبي ﷺ والعداء له، لكن العروس تلقت لكمة تركت هالة خضراء حول عينها بسبب محمد ﷺ، حيث تقول: «كان رأسي في حجر ابن أبي الحقيق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فأخبرته بذلك، فلطمني وقال: تمني ملك يثرب؟» آلمتها اللكمة، وأحزنتها الكلمات ولا سيما وهي تقول: «ما كان أبغض إلي من رسول الله، قتل أبي».

ترى هل كان كنانة عرافًا؟ فالقائد ﷺ في الطريق، وفي الطريق كان ﷺ يقرأ كل احتمالات الخطر، فعندما وصل إلى وادي الرجيع.. توقف لقطع أي إمداد عسكري قد يقوم به وثنيو غطفان ليهود.

يقول أحد الصحابة: «سار ﷺ إلى خيبر في المحرم، فنزل بالرجيع؛ وادٍ بين خيبر وغطفان، فتخوف أن تمدهم غطفان، فبات به حتى أصبح، فغدا إليهم». كان مسير القائد ﷺ وجيشه حالة من التماهي والود والعلم، فحين أشرف الصحابة على وادٍ رفعوا أصواتهم بالتكبير: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، قال ﷺ لهم: **أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم**»، وفي أثناء المسير كان أحد الصحابة خلف نبيه، فقال له ﷺ: «**ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟** قال: بلى، يا رسول الله، فداك أبي وأمي. قال: **لا حول ولا قوة إلا بالله**» وفي الطريق أيضًا لم يكن القائد يحظى بأفخم المراكب.. كان يركب حمارًا، وعلى تلك الدابة كان يسن لأمته سنة، فقد رآه الصحابة يصلي النافلة على حماره، والحمار يميل يمينًا وشمالًا، ونزولًا وصعودًا، بينما كانت القبلة خلفه ﷺ، وكان يومئ للركوع والسجود إيماءً، دون أن تمس جبهته ظهر الدابة.

يقول أنس عن تلك الرحلة: كنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيرًا يقول: «**اللهم، إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال**». كان ﷺ غاية في الرقة «يتخلف في المسير،

فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم».. رقة لا تعني التهاون مع المتآمرين، فمنذ اليوم لن يسمح لفلول الخونة اليهود أن يهددوا دولته، أو يحاصروا شعبه ليطفئوا نور الله.

لاح نور يوم جديد معطر بالنشاط والتوحيد، فتحرك الصحابة مع نبيهم ﷺ حتى وصلوا إلى مكان يقال له: (الصهباء) ظهرًا، وهذا يعني أنهم على وشك الوصول، فالصهباء أول حدود خيبر.

الوصول لخيبر

وصل القائد ﷺ إلى أول منطقة خيبر، التي تسمى الصهباء قبيل العصر.. كانت القافلة متعبة، فأمر ﷺ بالتوقف. توقفت المطايا، ونزل الجيش ليستريح، ثم أذن بلال لصلاة العصر، فأمهم ﷺ. شعر الصحابة بالجوع، وكان الزاد بالكاد يكفي، فكانت سنته ﷺ الاجتماع للطعام. فهو القائل: «**طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلاثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ**» وعلى أرض الصهباء يقول أحد الصحابة: (ثم دعا بالأزواد فلم يؤتَ إلا بالسويق، «وهو من الدقيق الذي مسته نار»، فأمر به فثري، فأكل رسول الله، وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ) وصلوا العشاء أيضًا، ثم تحركوا في الظلام حتى رأوا وميضًا من بعيد.. اقتربوا، فإذا هي مشاعل الحصن اليهودي.

أعاد مشهد الحصن ومشاعله ذكريات الفارس عبدالله بن عتيك.. حين أرسله قائده ﷺ لهذا الحصن لملاحقة أحد أقطاب مؤامرة معركة الأحزاب.. سلام بن أبي الحقيق، فتسلل ابن عتيك بمهارة وشجاعة نادرة داخل الحصن ليلًا، وتوغل داخل غرفه حتى ظفر بسلام، وتخلص منه، واليوم يعود مع نبيه ﷺ، وجيش هم خيار أهل الأرض، وأمام الحصن بمسافة أمر النبي ﷺ بالتوقف، ويفسر أنس بن مالك سبب التوقف بقوله: «خرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلًا، فلما أصبح ﷺ ولم يسمع أذانًا ركب، وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ».

طلع الصبح، ففتح باب حصن خيبر، فخرج المزارعون اليهود وعبيدهم بمكاتلهم ومساحيهم على أعناقهم نحو مزارعهم، وفجأة رأوا الجيش مقبلًا نحوهم، فبدؤوا يصرخون: «محمد والله، محمد والخميس» ويعنون بالخميس الجيش.

استدار اليهود مباشرة نحو حصنهم، واشتدوا يركضون.. يتزاحمون للدخول والنجاة، فلما رأى القائد ﷺ هروبهم رفع يديه، وقال: «**الله أكبر الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**». سمع اليهود التكبير.. حدقوا بالخيل والإبل وهي تجوب أزقة خيبر الخارجية وشوارعها، ونخلها ومزارعها، فامتلؤوا بالرعب، وأحسوا بشؤم الخيانة وفداحة ثمنها، أما القائد ﷺ فتأمل قوة التحصين، فأجل أمر الاقتحام إلى الغد، وعسكر الجيش حول الحصن، ولما أشرقت شمس الغد استدعى صاحبه الصديق، وسلمه الراية، وطلب منه دعوة اليهود للإسلام قبل أن تسل السيوف.

أبوبكر يقود أول حملة على حصون خيبر

أشرقت الشمس، فنادى القائد ﷺ صاحبه الصديق، وأعطاه الراية، فامتثل أبوبكر، ثم توجه بجنده نحو الحصن، فدعا القوم للإسلام فرفضوا، فجرت حرب طوال اليوم.. حرب لا نزال فيها، بل رماية من الطرفين، فالاقتحام صعب للغاية، واليهود يجيدون التحصن، ويجبنون عن المواجهة.

عاد أبوبكر في المساء دون فتح الحصن على الرغم من شجاعة جنده، وفي اليوم الثاني كرر ﷺ المحاولة، لكنه أعطى اللواء هذه المرة للفاروق، فتوجه عمر برايته للحصن، ودعاهم للإسلام فأبوا، وفجأة فتح باب الحصن، فخرج ملك خيبر، ويدعى (مرحب) متحديًا للمبارزة، يصرخ: «قد علمت خيبر أني مرحب.. شاكي السلاح بطل مجرب.. إذا الحروب أقبلت تلهب» فتصدى لهذا الملك الشجاع عامر بن الأكوع عم سلمة.. خرج من الصف يتحدى.. يردد: «قد علمت خيبر أني عامر.. شاكي السلاح بطل مغامر».

سل الشجاعان سيفيهما، ودارا حول بعضهما، فضرب كل واحد منهما الآخر ضربة، ثم رفع مرحب سيفه، فهوى به على عامر، فرفع عامر ترسه وتصدى للضربة، لكن في أثناء انحناء عامر لتفادي الضربة فقد توازنه، و إذ بسيفه يرتد في صدره ليهوي شهيدًا، فترتفع هتافات يهود فوق سور الحصن وعند بوابته.

وسط ذلك الهتاف عاد مرحب مسرعًا مزهوًّا لحصنه، ولما دخل أغلق الباب على نصر معنوي، لتجري بعدها معركة كمعركة الأمس.. بالسهام فقط، وإذ بالقائد ﷺ يسمع أصواتًا تتجه نحوه.. رجال يحملون جريحًا تنزف ساقه، ويقولون: أصيب سلمة بن الأكوع. فهل سيغادر آل الأكوع اليوم؟ لم تحن الشهادة بعد، فسلمة يقول: «إنه ضرب يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتى بي رسول الله ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيتها». نهض سلمة معافى، وذهب ألمه، لكنه أفاق على ألم أشد.. جعله يبكي وهو من أشد العرب والمسلمين بأسًا.. بكى سلمة حين مر بمجموعة من إخوته المجاهدين، وهم يتحدثون عن مصير عمه عامر بن الأكوع، الذي بارز مرحب ملك خيبر، فقالوا لسلمة: إن عمه قد انتحر، وقالوا بالحرف الواحد: «بطل عمل عامر، قتل نفسه». فبكى عامر لمصير عمه، وعاد لنبيه مفجوعًا عله يجد دواء لجرحه الأليم هذا.. وقف أمام قائده، فقال: «يا رسول الله، بطل عمل عامر؟ فقال ﷺ: **من قال ذلك؟** قال سلمة: أناس من أصحابك. فقال ﷺ: **كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين**».

عادت السكينة لسلمة، كما عاد جيش عمر دون أن يفتحوا خيبر، وسكنت الأجواء، وغربت الشمس عن يوم مرهق جاع فيه الصحابة جوعًا. جوعٌ حوّل أرض خيبر إلى مدرسة للتغذية الصحية.

حول حصن خيبر دروس متحضرة

غربت شمس اليوم الثاني دون فتح خيبر، فشدة التحصين كانت حائلًا دون الفتح، حتى قال أحد الذين شاركوا في الحملتين: «أخذ من الغد عمر، فانصرف

ولم يفتح له، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد». أقبل الجند على المعسكر، وأقبل الليل والجوع.. فتش الصحابة عن طعام في مزاودهم، فلم يجدوا سوى القليل الذي لا يكفي تلك البطون الخاوية، فنهضوا يذرعون أرض خيبر.. يبحثون هنا وهناك، وبعد البحث تلألأ المعسكر بنيران كثيرة.

نظر القائد ﷺ في أنحاء المعسكر، ففوجئ باشتعال تلك النيران التي بثت الحراك في المعسكر الجائع، فعلى تلك النيران، وعلى صخور الأثافي تغلي قدور ممتلئة باللحم.. فاحت الرائحة فقال ﷺ: «**ما هذه النيران، على أي شيء توقدون؟** قالوا: على لحم، فقال: **على أي لحم؟** قالوا: لحم حمر الإنسية» عندها قال ﷺ: «**أهريقوها، واكسروها**. قال رجل: يا رسول الله، أونهريقها، ونغسلها؟ قال: **أو ذاك**» ثم قدم ﷺ دروسًا للعالم أجمع في التغذية. يقول أحد الصحابة: «كانت حمرًا خارجة من المدينة، فنحرناها، فإن قدورنا لتغلي، إذ نادى منادي رسول الله: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر؛ فإنها رجس».

قبضت أيدي الصحابة بعرى تلك القدور، فحملوها بعيدًا عن النار، فأكفئت بما فيها من لحم، ثم نظفوا قدورهم، وأخذوا اللحم بعيدًا تأكله الوحوش والطيور القمامة، لكن الجوع حركهم من جديد، فوجدوا بعض الخيل والبغال الهائمة، فنحروها وطبخوها، فسألهم ﷺ عنها؟ فأخبروه. يقول جابر: «فنهانا ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهَنا عن الخيل».. بعدها قام ﷺ بجولة تفتيشية على المعسكر، فرأى قدورًا أخرى فقال: «**ما هذا؟** فقالوا: نهبة يا رسول الله. قال: **اكفؤوها، فإن النهبة لا تحل**».

حول حصن يهود كان الإسلام يتهادى بتعاليمه نحو العالمية.. لم يعد الإسلام مقتصرًا على المهاجرين والأنصار، ولا على المدينة فقط، ولا على القرن الأول.. إنه للدنيا بأسرها ولكل القرون، ومادام الإسلام بهذا التوجه، ومادام نبيه رحمة للعالمين، فلا بد أن يقدم مشروعًا يرتقي بالحاضر والمستقبل مهما بلغت البشرية من المدنية.. قدم النبي ﷺ في تلك الليلة القاسية قائمة بالأطعمة المحرمة، التي لا تناسب صحة الإنسان.. العلم الحديث يقول ذلك، ويؤكده، فما هي تلك القائمة؟

وتستمر دروس خيبر

في تلك الليلة القاسية من ليالي خيبر.. قدم النبي ﷺ قائمة بالأطعمة المحرمة، التي لا تناسب صحة الإنسان.. العلم يقول ذلك، ويؤكده. قد تشتهي النفس طعامًا ضارًّا وتألفه، وتتلذ بتعاطيه، وتتفنن في موائده وصناعته، لكن ذلك كله لن يجعله صحيًّا، ومازالت موائد الشعوب تحتوي الضار والمقزز، ومازال الخمر أكثر أنواع الشرب تفننًا في الصناعة والأسماء والألوان، وأماكن شربه تحف فنية، عوضًا عن التغني به وكتابة القصائد فيه، ومع ذلك يجمع الأطباء غير المسلمين على أنه خطر على قلب الإنسان ودماغه وبقية جسده، أما المحير فهو أن معظم أولئك الأطباء يشربه.. الأمر نفسه ينسحب على لحم (الخنزير) الضار، بل هناك شعوب تأكل الخنافس والصراصير والحيات والعقارب والكلاب.. هنا لا وجود للعقل ولا للعلم ولا للحضارة، بل حضور تام للجسد وشهواته.. حضور تام للعادات والتقاليد والموروث الشعبي.

في خيبر أباح الإسلام كل ما يطير، أو يدب على الأرض، إلا آكلة اللحوم، حيث يقول جابر: إن النبي ﷺ قال تلك الليلة: «**إن الله ﷻ سيأتيكم برزق هو أحل لكم من ذا وأطيب**»، ثم حرم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطيور، كما حرم ﷺ المجثمة. وهي الحيوان الذي يربط، ويوضع هدفًا للرماية والتسلية، أو يطلق للتسلي برميه، كما يفعل النصارى في مصارعة الثيران، فالحيوان له حقوق، وليس لعبة يتسلى الإنسان بتمزيق جسده، ويتفنن في إزهاق روحه في مسابقات تفتقر لأدنى صفة الرحمة والإنسانية، وقد دخلت امرأة عابدة النار؛ لأنها حبست هرة حتى ماتت، ودخلت امرأة عاصية الجنة؛ لأنها رحمت كلبًا عطشانَ فسقته، بل أمطرت رحمة الإسلام حتى على السباع، حين دافع ﷺ عن حقها في العيش، فنهى عن أكل الخلسة، وهي الفريسة التي يصطادها السبع، وتموت بين أنيابه، فيحرم انتزاعها منه.

وأخيرًا وعلى أرض خيبر.. فاجأ النبي ﷺ صحابته بالنهي عن زواج خطير اجتماعيًّا وصحيًّا.. يسمى (المتعة)، وهو يختلف عن الزواج المعتاد الذي أركانه

الرضا ووجود الولي، فزواج المتعة بلا ولي، ويُحدّد فيه وقت الطلاق قبل بدء الزواج، وخطورته تكمن في أنه مؤقت قد لا يستغرق ساعة، ما جعله مع مرور الزمن أخطر اجتماعيًّا وصحيًّا من ممارسة الرذيلة، بل وصل الأمر بمن يمارسونه اليوم إلى شيء ترفضه كل الديانات السماوية، وتنفر منه الطبائع البشرية السوية.

كراهية زواج المتعة في خيبر

في خيبر تم النهي عن زواج المتعة نهي كراهية.. في تشريع ينظِّر للمستقبل، فقد وصل الأمر اليوم بمن يصرون على ممارسته، والتعبد بممارسته إلى شيء تأباه الديانات السماوية، حيث أباحوا التمتع بالمرأة المتزوجة حتى وهي على ذمة زوجها، وهذا يعني أنها كلأ مباح لأي رجل.. لزميلها أو مديرها في العمل.. لصاحب دكان أو صاحب سلعة لا تملك ثمنها.. لخادم، أو حتى لضيف.. لمن هب ودب.. بعلم زوجها أو دون علمه... أمر ترفضه اليهودية والنصرانية والطبائع البشرية السوية؛ لذا وحتى لا تصل الأمور إلى هذا الانحطاط.. بدأ تحريم المتعة في خيبر نهي كراهية، ثم حرم قطعًا بعدها، وها هو علي بن أبي طالب بنفسه يؤكد ذلك، فيقول: «نهى رسول الله ﷺ عن المتعة عام خيبر، وعن لحوم حمر الإنسية».. مهلًا.. إذا كان علي بن أبي طالب سمع نبيه ﷺ يحرم زواج المتعة في خيبر، فماذا عن علي نفسه؟ هل مازال الرمد يلهب عينيه، وما دوره في هذه الغزوة؟ ها هو أبوالحسن جالس.. لا يستطيع السير إلا بدليل؛ لذا اكتفى بخدمة إخوته المجاهدين.. يطحن لهم البر والشعير بالرحى. في تلك الليلة الثالثة المفعمة بالدروس والنظافة والصحة.

هتف القائد ﷺ لأصحابه بكلمات جعلت المعسكر حالة من الشوق والتطلع، فقال: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فبات الناس ليلتهم: أيهم يعطى؟ فغدوا كلهم يرجونه**». فكلهم يحبون الله ورسوله، وكلهم يحبهم الله ورسوله، فهم أهل الشجرة، وهم من قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨]، إذًا فما سبب كرامة ذلك الفارس، وما التغير الذي سيجعل غدًا فتحًا مؤكدًا؟

أشرقت الشمس بعد أن صلى أهل بيعة الرضوان الفجر، وأشرق في نفوسهم شوق لحمل الراية والفتح.. هذا سهل بن سعد يتطلع، ويقول: «بات الناس ليلتهم أيهم يعطى، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها» أحدهم يلبس ثوبًا أحمر اسمه بريدة.. متشوق كغيره لحمل الراية.. يصف مشاعره، فيقول: «بتنا طيبة أنفسنا أن الفتح غدًا، فما منا إنسان له منزلة عند رسول الله إلا هو يرجو أن يكون صاحب اللواء، وأنا فيمن تطاول لها» نادى القائد ﷺ فارسه، فاستغرب الجميع.

استدعاء حامل الراية

ارتفعت الشمس قليلًا، فرفع ابن الخطاب رأسه على الرغم من طوله.. تطاول في ذلك الصبح المنعش، عل قائده ﷺ يعطيه الراية، ويقول: «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ، فتساورت لها رجاء أن أدعى لها».. إنها لحظة تشبه تلك اللحظة في غزوة أحد، حين رفع القائد ﷺ سيفه أمام الصف، وهتف: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**» فتطلع الجميع، فلم يعطِه لأبي بكر ولا لعلي، ولا حتى لحمزة، بل أعطاه لأبي دجانة.. إنها مناسبات للتميز، وفي كل مناسبة تميز لصحابي، فمن صاحبها اليوم؟

اصطف الجند صفوفًا من الحماس والفداء أمام قائدهم ﷺ، الذي هتف مطالبًا بإحضار اللواء، فأحضره أحد الصحابة، وسلمه له، ففوجئ المجاهدون به ينادي على اسم ليس بين الصفوف، ولا ضمن الترشيحات.. اسم لا يستطيع تبين طريقه، فضلا عن القتال.. هتف ﷺ فقال: «**أين علي؟**» خيم التعجب، فعلي لا يستطيع القتال، فقالوا: «يشتكي من عينيه يا رسول الله! فقال ﷺ: **فأرسلوا إليه، فأتوني به**».. أدركوا أنها كرامة له حين لحق بالجيش على الرغم من مرضه وعذره، فتوجه سلمة بن الأكوع لإحضاره، فوجده في حال يرثى لها.. كان أبو الحسن يمسك بحجر الرحى

الأعلى، ويديره على الأسفل.. يطحن القمح أو الشعير.. مكتفيًا من المعركة بشرف خدمة المجاهدين وقائدهم ﷺ. وقف سلمة على صاحب الرحى، فسلم عليه، فرد علي السلام، فأخبره بنداء نبيه له.

نفض علي يديه، ونهض، ومد إحداهما لسلمة الذي أمسك بها، وصار يقوده، ولما وقفا أمام القائد ﷺ استبعد علي خوض المعركة، ففوجئ بالقائد ﷺ يطلب منه أخذ الراية، فاعتذر علي، وقال: «يا نبي الله، ما أكاد أبصر ؟!» فانحنى ﷺ نحو عينيه، فنفث فيهما، ودعا له، فبرئ كأن لم يكن به وجع، ثم هز الراية ثلاثًا، ثم دفعها إليه.

قبض علي على الراية، وتنفس صباحًا جديدًا، وأشرقت الدنيا في عينيه، فأمره ﷺ أمرًا ينضح بالانتصارات. أمرٌ كالسيف: «امشِ ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك» شدد علي قبضته على الراية، وانطلق بقوة وثبات نحو الحصن، وفجأة تذكر شيئًا فتوقف، لكنه لن يلتفت.. تذكر الرسالة التي أخرجت نبيه من مكة، فهو لا يحتاج إلى دماء هؤلاء اليهود الخونة، ولا إلى أموالهم؛ لذا، ودون أن يلتفت صرخ ووجهه في اتجاه الحصن، وظهره للنبي ﷺ: «يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟» فهتف به ﷺ: **«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله رجلًا بك خير لك من أن يكون لك حمر النعم»**. هتف ﷺ بذلك على الرغم من خيانتهم له أربع مرات، فما خرج للانتقام منهم، ولا لسفك دمائهم، ولكن السكوت على خيانات هؤلاء اليهود معناه التخلي عن مسؤليته تجاه شعبه ودولته.

باب خيبر سر المعركة

هتف القائد ﷺ بعلي حين وجهه لليهود، الذين حاربوه، وحاصروه، وحرضوا الوثنيين على دولته.. هتف بتعاليم الفرصة الأخيرة التي لا يستحقونها بعد كل الذي ارتكبوه، فقال ﷺ: **«قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله»** أي إلا

إن ارتكبوا جرائم عقوبتها القتل. هتف ﷺ بذلك على الرغم من خيانتهم له أربع مرات، وعلى الرغم من أن هؤلاء لن يقر لهم قرار والإسلام له دولة ونظام.. ولا سيما وقد أخبره الله سبحانه أن عداوتهم للإسلام فاقت عداوة الوثنيين عبدة الخشب والحطب، فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[المائدة: ٨٢].

وصل علي للحصن، فنادى يهودًا ودعاهم للإسلام، عله يحصل على أجر وثواب كل من أسلم.. عله يكسب إخوة جددًا، لكنهم رفضوا منتشين بانتصار ملكهم مرحب بالمبارزة أمس، وفجأة فتح باب الحصن، فإذ بملكهم مرحب مدجج يختال مرة أخرى، وقد تورم من الغرور.. يتحدى من يبارزه، ويقول: «قد علمت خيبر أني مرحب.. شاكي السلاح بطل مجرب.. إذا الحروب أقبلت تلهب» لم يطق علي هذا الغرور، فأعطى الراية لأحد جنده، وصرخ: «أنا الذي سمتني أمي حيدرة.. كَلَيثِ غابات كريه المنظرة.. أوفيهم بالصاع كيل السندرة».

اقترب حيدرة، وتحفز مرحب، والمبارزة فن علي المفضل.. لمعت السيوف، ففوجئ مرحب بضربة خاطفة لرأسه، فإذا الملك اليهودي جثة بلا رأس.

خر الملك، وسقطت بسقوطه معنويات يهود، الذين ذهلوا عن باب حصنهم، ففوجئوا باقتحام الفرسان للباب، الذي تركوه مفتوحًا في انتظار عودة الملك، لكن الملك لم يعد، ولم يصح أن عليًّا اقتلع بابًا ضخمًا لم يستطع أربعون أو سبعون رجلًا حمله، ولم يصح أنه انتزع بابًا يعجز عن حمله سبعة رجال، ثم جعله بيده اليسرى ترسًا في أثناء القتال، فتلك القصص خرافات طائفية، فأبو الحسن أجهز على الطاغوت قرب الباب المفتوح، فاقتحمه هو والمجاهدون، وقتلوا حراسه، فإغلاق الباب هو سر عدم نجاح الحملة الأولى والثانية في اقتحام الحصن، أما في الحملة الثالثة فكان مفتوحًا.

اقتحم المجاهدون باب الحصن، وأشرعوه لبقية الجيش، فجرت مطاردات داخل السور الكبير، وهوى بعض الشهداء، وأصيب البعض ما اضطر اليهود إلى اللجوء لقصر محصن.

مسلسل الخيانات اليهودي يتكرر في خيبر

بدأ اليهود يهربون من بيوتهم، ويلجؤون إلى آخر معاقلهم، وهو قصر محصن داخل السور الكبير، وفي أثناء الهرب بدأ بعضهم يرمي أمتعته؛ كي لا يستفيد منها المسلمون، حتى رمى بعضهم الطعام، فهذا صحابي اسمه عبدالله بن مغفل يقول: «كنا محاصرين قصر خيبر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم، فنزوت لآخذه، فالتفت فإذا النبي، فاستحييت» حاصر المسلمون القصر الذي تكدس فيه اليهود، فارتعب قادتهم، وبدؤوا يتشاورون، وبعد حوار خائف من مصير قريظة قرروا الاستسلام.. هتفوا مطالبين بالتفاوض، فتوقف القتال، ونزل وفدهم ليقدم استسلامًا مشروطًا.

كانت شروطهم للاستسلام كشروط بني النضير، وهي: الجلاء من مدينة خيبر، مع حقهم في أخذ ما يستطيعون حمله من أمتعة، لكنهم أضافوا شرطًا مريبًا هو: أن للدولة الإسلامية الصفراء والبيضاء، أي الذهب والفضة!

كان القائد ﷺ في غاية التسامح مع هؤلاء الخونة، لكنه كان يقرأ تفكير الخيانة اليهودي جيدًا؛ لذا أضاف شرطًا ثالثًا يكشف مدى صدقهم هو: «ألا يكتموا شيئًا، ولا يغيبوا شيئًا من الذهب والفضة، فإن فعلوا ذلك وكتموا فلا ذمة لهم ولا عصمة» وقع الطرفان على المعاهدة، واستعد اليهود لهدم بيوتهم وخلع أبوابهم ونوافذهم، وأخذها معهم، كما فعلوا بحصن النضير؛ كي لا يستفيد منها المسلمون، لكن القائد ﷺ صدمهم بأمر قبل الرحيل.. طلب استدعاء أحد حاخاماتهم، وهو عم الهالك حيي بن أخطب، فجاء ثقيلًا ممتلئًا بالحقد، ولما وقف أمام القائد ﷺ سأله سؤالًا نزل كالصاعقة عليه.. سأله عن ذلك الكيس الجلدي الكبير، الذي يسمى المسك.. المليء بالذهب والفضة، فقال: «ما فعل مسك حيي الذي جاء به من النضير؟» ارتبك الرجل، فكذب كعادته، وقال: «أذهبته النفقات والحروب».

نظر ﷺ إلى الخائن نظرة تقول: أي نفقات وأي حروب؟، وواجهه بالحقيقة، وقال: «**العهد قريب، والمال أكثر من ذلك**» ثم دفعه للزبير بن العوام، ليخبره عن مكان المسك، فضربه الزبير، فاعترف مباشرة، وقال: «قد رأيت حييًا يطوف في خربة ها هنا»، فأرسل القائد ﷺ رجاله للخربة، فأخذوا معاولهم ومساحيهم، وطافوا

بها، وفتشوها، وحفروا، وإذ بالجلد يظهر تحت طبقات التراب.. أزاحوا التراب، وأخرجوا الذهب، فانهارت الاتفاقية قبل أن يجف حبرها.. لم يستطع اليهود مقاومة شهوة الخيانة ولو ساعة، وكأنها أقوى غرائزهم، فأي مصير ينتظر الخيانة هذه المرة؟

حتى الكرم اليهودي لا يخلو من خيانة

طبق ﷺ حكم الخيانة على من خانوا، وكتموا، وهم ابني أبي حقيق، وهو حكم وقعوا عليه قبل ساعات من اكتشاف خيانتهم، وبدلًا من أن ينطلق أفراد قبيلتي قريظة والنضير أحرارًا أفسدت الخيانة رحلتهم، فسبيت نساؤهم وذراريهم، وقسمت أموالهم للنكث الذي نكثوه، أما بقية يهود خيبر فسمح لهم بالمغادرة، وقبل مغادرتهم تشاوروا، وبعد التشاور توجهوا للنبي ﷺ باقتراح، فقالوا: «دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها» فكر القائد ﷺ، وشاور أصحابه بما يعود على دولته وشعبه، لا بما سيجنيه هو وأسرته؛ لذا أبقاهم مقابل حصولهم على نصف الإنتاج.

في تلك الأثناء وصل أبوهريرة، فكحل عينيه بنبيه ﷺ لأول مرة، وصلى معه في ذلك المسجد الذي شيد بخيبر، وبعد أن اجتمع الناس للصلاة إذ به يُخرج مجموعة من الصحابة من المسجد، وهم مجموعة أنهكهم الجوع، فبحثوا فلم يجدوا سوى الثوم، فقال ﷺ: «**من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئًا فلا يقربنا في المسجد.** فقال الناس: حرمت حرمت. فبلغ ذاك النبي ﷺ فقال: **أيها الناس، إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي، ولكنها شجرة أكره ريحها، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**».

رأى اليهود هذا القائد المتواضع، فأعجبتهم بساطته وسهولة الوصول إليه، فقرروا إكرامه على طريقتهم. قامت إحدى اليهوديات بذبح شاة، ثم حشتها، وأشعلت النار، وحرصت على شيها بنفسها، ثم أمرت بحملها للنبي ﷺ، وتقدمت بنفسها لدعوته، فقال ﷺ: «**ما هذه؟**» قالت هدية. وحذرت أن تقول من الصدقة؛ لأنه لا يأكل الصدقة. قبل ﷺ الهدية، وانصرفت المرأة، فجلس القائد ﷺ وبعض أصحابه، فسمى وسموا، ثم تناول لقمة وتناولوا، وفجأة قال لأصحابه: «**أمسكوا**»

فتوقفوا، فقد نزل الوحي يخبره بأن الشاة مسمومة.. محاولة اغتيال أخرى لقائد الدولة، وخيانتان ليهود في يوم واحد.. أي بشر هؤلاء؟

أصدر القائد ﷺ مباشرة أمرًا لجنده: «**اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود**» انطلق الجند، فجمعوا اليهود الذين أحضروا الشاة، فوقفوا أمامه وأعينهم تلحظ كأعين الثعالب، فقال لهم: «**إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقي عنه؟** فقالوا: نعم، يا أبا القاسم. فقال لهم: **من أبوكم؟**» قالوا: أبونا فلان. فقال ﷺ: **كذبتم، بل أبوكم فلان**. فقالوا: صدقت، وبررت» ثم سألهم ﷺ: «**مَنْ أهل النار؟** فقالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفوننا فيها. فقال ﷺ: **اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا**» وأخيرًا سألهم: «**هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟**» فقالوا: نعم، فقال: **ما حملكم على ذلك؟** فقالوا: أردنا إن كنت كذابًا نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك».

ها قد تبين أنه نبي، ثم ماذا؟ لا شيء. لم يسلموا.. لم يتركوا حقدهم وعنادهم، لكن القائد ﷺ لم يتركهم، فهناك جريمة، وهناك ضحايا.

محاكمة اليهودية القاتلة

تغلغل السم في أحشاء الصحابة الذين أكلوا من الشاة التي سممتها اليهودية، وهم الآن على فراش المرض، وهناك تشريع جنائي عادل. اعترف اليهود الذين أحضروا الشاة بأن فيها سمًّا، واعترفوا بأن المرأة التي شوتها حشتها بالسم، فلم يقتلهم ﷺ، ولم يقم بمجازر في خيبر، على الرغم من أن المستهدف هو نبي الأمة ورأس الدولة، بل طلب استدعاء المرأة المجرمة، فجاءت دون عنف، ولما وقفت أمام القائد ﷺ والناس في حالة طوارئ، وأيام حرب استثنائية. لم يصدر القائد حكمه بناء على شهادة الشهود من قومها، بل حاكمها محاكمة علنية عادلة وشفافة.. حضرها اليهود والمسلمون، فسألها النبي القائد القاضي ﷺ: عن سبب وضعها للسم؟ فاعترفت دون ضغط أو تعذيب بجريمتها، وقالت: «أردت لأقتلك. قال ﷺ: **ما كان الله ليسلطك عليَّ**».

تبين أن الهدف ليس اكتشاف صدق النبوة، بل القضاء عليها.. كانت أبصار الصحابة واليهود شاخصة.. ينتظرون الحكم، ففرغ صبر أحد الصحابة، فهتف: «ألانقتلها؟ فقال ﷺ: لا».. تركها ﷺ.. تركها القائد المتحضر.. لم يعتدِ عليها أحد في ظرف لو ارتكبه اليهود بحق قائد أمة من الأمم لأبيدوا جميعًا، فكيف وهي الخيانة السادسة أو السابعة للدولة الإسلامية؟!، وبعد أيام تمكن السم من أحد الصحابة، واسمه (بشر بن البراء بن معرور الأنصاري) فمات من السم، فأرسل ﷺ يستدعيها، وأمر بتطبيق القصاص، فقتلت، ولم يقتل غيرها.

امرأة أخرى تجني خيانة ثلاثة رجال: والدها وزوجها وأخوها، وهؤلاء الثلاثة وغيرهم سقوها بغض محمد حتى قالت: «كان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي، قتل زوجي وأبي».. إنها تلك الفتاة التي كانت قبل ست سنوات تنصت لأبيها وعمها، وهما يقبلان نحو حصن النضير كسلانين ثقيلين مهمومين بعد رؤية النبي ﷺ، وتأكدهما من صفته، فسأل عمها أباها عن موقفه من محمد ﷺ؟ فقال: «عداوته والله ما بقيت» هذه الفتاة الضحية هي صفية بنت حيي بن أخطب التي رأت القمر في حضنها، فأخبرت زوجها عن رؤياها، فلكمها حتى اخضرت عينها، ومازالت عينها مخضرة حتى الآن، وهي الآن سبية وهبها القائد لصاحبه دحية الكلبي.. كانت بلا حجاب، لكن هيئتها وملابسها أثارت فضول أحد الصحابة، فسأل عن هذه الفتاة القصيرة المميزة؟ فقالوا له: إنها صفية.. سيدة وأميرة قريظة والنضير، وهي من نسل نبي الله هارون. انطلق الرجل مباشرة نحو قائده ﷺ، ولما وقف أمامه قال: «يا نبي الله، أعطيت دحيةَ صفيةَ بنت حيي، سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك؟ قال: **ادعوه بها**، فجاء بها، فلما نظر ﷺ إليها قال: **خذ جارية من السبي غيرها**».

حين تحررت صفية من الكتاب المقدس

أصر دحية على الاحتفاظ بأميرة النضير صفية بنت الخائن حيي بن أخطب، فأعطاه النبي ﷺ بها ما أراد، فتنازل عنها، فتوجه ﷺ إلى تلك الأميرة، وهو يشعر

بحقدها عليه، ومرارتها مما هي فيه، وحزنها على أبيها وزوجها وقومها، فلم يعنفها، بـل بدأ بسـؤالها بلطف عن تلك الخضرة التي تسـتدير حول عينهـا؟ فقال: «ما هذه الخـضرة بعينـك؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن أبي حقيـق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرًا وقع في حجري، فقلت لزوجي: إني رأيت فيما يرى النائم قمرًا وقع في حجري، فلطمنـي، وقال: تريدين ملك يثرب؟» وتصف مشـاعرها تلك اللحظات، فتقول: «مـا كان أبغـض إلي من رسـول الله، قتـل أبي وزوجـي» كان هذا السـؤال اللطيف عـن تلـك الكدمة مقدمـة للدخول إلى عقـل وروح تلـك الفتاة، التـي أعماها حقد الحاخامـات وكتابهـم المقدس عن التفكير وقبول الحق، فالمـرأة اليهودية والنصرانية معزولة بحسب الكتاب المقدس عن التعاطي مع العلم.. ليس من حقها أن تتحدث في الكنائس والكُنس، ولا أن تسـأل حاخامًا أو قسًّـا بنفسـها، وإن أرادت، فتسـأل زوجها، وزوجها يسأل الحاخامات أو القساوسة، ثم ينقل لها الإجابة إن كان أمينًا.

المـرأة بحسـب الكتاب المقـدس تعزل عن المنزل مدة نصف شـهر: سـبعة أيام لحيضها، وسـبعة أيام تكفير عن حيضها.. تعزل لأنها تنجس كل شيء تمسـه.. بشرًا كان أو حيوانًـا أو جمـادًا. المـرأة في الكتـاب المقدس تورث، أي إنـه إذا مات زوجها تكـون على الرغم منها زوجة لأخيه... وأشـياء وأشـياء كانت تخنـق صفية، لكن لا حيلـة لها، وفجأة وجدت نفسـها أمـام عدوها محمد ﷺ، الذي لاطفها بسـؤالها عن إصابتها، ثم لاطفها أكثر، فبدأ يعتذر لها عن سـبب ما جرى لها، فهو ليس السـبب.. حاخاماتها هم مـن ناصبه العداوة، وخانوه، وحاولوا قتله ﷺ، وقاتلوه وحاصروه، وخططوا لمحو دين الله ودولة الإسـلام، وسُـمهم في جوفه الآن.. ظل ﷺ يعتذر لها ويعتـذر حتـى قالت صفية: «فـمازال يعتذر إلي، ويقول: يا صفيـة، إن أباك ألّب علي العـرب، وفعـل وفعل حتـى ذهب ذاك من نفسـي» أفاقت صفية عـلى حقيقة قومها المـرة، وتحرر عقلها مـن ثقافة التلقين، وغرس الأعداء في الـرؤوس دون مبرر، فإذا هـي أمام أرحم الناس وألطفهم وأرقهم، ثم توهجـت رحمته، فأعتقها من رقها، ثم ملك قلبها حين عرض عليها أن تلحق بأهلها.

نبي يصاهر أعداءه

أفاقت أميرة النضير وقريظة على نبي مقنع، وقائد عادل ورحيم، فأقرت بحقد والدها وقومها وخيانتهم. أسرها ﷺ برأفته بحالها حين حررها، وخيّرها بين أن تكون زوجته، أو تلحق بأهلها. لم تتردد الفتاة أمام هذه الخيارات الجميلة أن تنتقي أجملها، فكان محمد ﷺ هو خيارها وحبها، وعوض الله ابنة هارون عن زوج ملاكم خائن.. يعاقبها على رؤيا رأتها في المنام، بزوج رقيق يحرر عقلها من الخرافة والحقد والتقليد، ويجعلها تفكر بنفسها.. في مصيرها يوم تلقى ربها.. لم يفكر ﷺ نيابة عنها، بل أشرع لها كتاب الله وسنته، فأسلمت اقتناعًا دون إكراه.. أسلمت مأخوذة بهذا الاعتذار الذي لم يصادر مشاعرها، ولا إحساسها بالألم، ولم يجبرها باسم النبوة على التنكر لآلامها. أفاقت صفية مع النبي ﷺ على شيء أذهلها عن أهلها، فلم تعد تفكر في العودة للوراء.. ظلت مسكونة بالقادم.. بالمستقبل.. بالجنة، فمحمد حب يُنسي الحرقة والوجع، ومع ذلك لم تزف إليه؛ لأن لها زوجًا سابقًا لا بد من احترام نسبه، وعدة لا بد أن تمضيها ليتم التأكد من عدم حملها من ذلك الزوج.. احترامًا لحقه مهما كان دينه، ومهما كان حجم العداوة معه، وحفظًا لنسب الطفل البريء.

لكن أحد الصحابة لم يعبأ في علاقته بإحدى النساء بهذه العدة، فارتكب أمرًا أغضب النبي غضبًا شديدًا، فقد كان القائد ﷺ يتفقد معسكر جنده، فمر بامرأة حامل.. جالسة على باب خيمة صغيرة، فقال: «لمن هذه؟» فقالوا: لفلان. قال: «**أيلم بها؟**» قالوا: نعم. قال: «**لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره**»، ثم قال وهو في شدة الغضب: «**كيف يرثه وهو لا يحل له**» ندم الرجل وتعلم أن الجندية في الإسلام ليست انتقامًا، ولا حماسًا ولا إطلاقًا للشهوات ساعة النصر، بل انضباط تام، وإلا فإن عمله ليس جهادًا، وليس في سبيل الله، فالذي أخرجه من بيته هو الله، والذي سيعطيه ثمن خروجه هو الله، والثمن هو الجنة، ولن يدخلها ما لم يتوافر في جهاده شرطان:

أن يكون جهاده صوابًا لا تهور فيه ولا اعتداء ولا انتقام.

الآخـر: أن يكـون خالصًا لله.. لا رياء فيـه، وليس للمال، أو لمنصـب أو لرتبة، أو لشـهرة. هدأت أرض خيبر، وتحول الناس مسلمون ويهود ووثنيون إلى مواطنين ملتزمـين بعقـد المواطنة.. في ظل دولة إسـلامية عادلـة، فاختلطـوا ببعضهم تعاملًا وبيعًـا وشراءً لا اسـتغلال فيه للضعفاء، ولا اسـتقواء بالسـلطة، والدليل على ذلك هذه القلادة التي يقلبها أحد الصحابة.

لا استغلال لليهود

أصبـح اليهـود والمسـلمون مواطنين في خيـبر.. اختلطوا، وتبايعـوا، وتعاملوا بأريحية، وكأن الدماء لم تسل أمس. بسط الإسلام الأمن والعدل على المكان، وبدأت الدروس تثقف المسلمين في تعاملاتهم المادية.. وسط بلد كان يموج باحترافية اليهود للربا. يقول أحد الصحابة واسـمه (فضالة بن عبيد): «كنا مع رسـول الله يوم خيبر نبايـع اليهود الوقية الذهب بالدينارين والثلاثة، فقال ﷺ: **لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا وزنًـا بـوزن**» أي إن مـن يملـك ذهبًا، ويريد أن يشـتري به ذهبًا آخـر، فلا بد أن يكـون له الوزن نفسـه. أي جرام بجرام، أو أوقيـة بأوقية لا زيادة ولا نقصان، حتى لو كان أحد الذهبين جديدًا والآخر مستعملًا، ولا يجوز بيع الذهب بالذهب إلا يدًا بيد دون تأخير في التسـليم والاسـتلام، والأمر نفسـه ينطبق على الفضة، كما ينطبق عـلى أربعـة أنواع مـن الأطعمة هـي: التمر والبر والشـعير والملح، وهـذه الأطعمة هـي التـي تدخـر في حالات الطـوارئ والحـروب، والتلاعـب بها تلاعـب بالأمن الغذائي للشعوب.

تمشى فضالة بن عبيد في أحد الأسواق، فرأى قلادة من الذهب المرصع بالخرز بـين يدي أحد الباعة، فأعجبتـه، ففاوض صاحبها حتى باعه إياها باثني عشر دينارًا من الذهـب. سـلم فضالة دنانيره للبائع، وأخـذ القلادة، وانصرف لخبائه، ثم جلس يقلـب القلادة، ثم بدأ بفصل الخرز عن الذهب، ثـم قام بوزن الذهـب، فوجد وزنه أكثر من اثني عشر دينارًا. شك فضالة في جواز هذا الربح؛ لأنه ينتمي إلى دين ودولة

متحضرين، فنهض من خبائه، وتوجه نحو نبيه ﷺ فسأله عن حكم هذا الوزن الزائد من الذهب، الذي ربحه إضافة إلى الخرز. فقال النبي ﷺ: «**لا تباع حتى تفصل**».

هنا تشرق العدالة على أرض خيبر، فلو كان الحاكم يهوديًا، أو حاخامًا لأفتاه بجواز الربا مع غير اليهود؛ لأن غير اليهود كالبهائم عندهم.. لا حرمة لهم، وقد ذكر الله أنهم يقولون: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: ٧٥]، أي لا ذنب علينا في استغلال كل الأمم ولا حرج، ولطالما شردتهم الأمم في أوروبا وغيرها بسبب استغلالهم لحاجات تلك الشعوب، ولأنهم ركّعوا الحكام والدول بالربا، وابتزوها في أحلك الظروف، أما دولة محمد ﷺ فأرقى من أن تستغل حاجة المواطن؛ لأنها أقيمت من أجله.

في شرع الدولة الإسلامية الربا هو الربا.. مع مسلم أو يهودي أو وثني.. هو حرب على الله ورسوله.. نهى ﷺ صاحبه فضالة عن ذلك الربح المحرم، فأعاد القلادة لصاحبها، لكن الإسلام أوجد حلًّا لحالة الربا هذه، بل طهّر خيبر من الربا.

تطهير خيبر من الربا

في خيبر بيّن ﷺ أن شراء الذهب بالفضة أو الفضة بالذهب جائز مهما اختلف وزن الذهب عن الفضة، لكن يجب أن يكون التسليم والاستلام في الحال. يقول ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**» فالذهب والفضة يمثلان النقد، والتلاعب بهما بالربا يعني تكدسهما بأيدي المرابين، الذين لا يقدمون للشعب والوطن شيئًا سوى طوابير من الفقراء والفقيرات، ليتمكن المرابون من استغلالهم، بل يتمكنون مع مرور الزمن من استغلال الدولة نفسها وابتزازها، ومن ثم التحكم فيها، فالمرابي يتحول بالتدريج إلى دولة داخل دولة.. ينازعها السلطة،

ويهددها بالفوضى، وبعض المرابين يسـهم في نشر الرذيلة وهدم القيم، فالذي يأكل الربا تموت لديه الأخلاق؛ لأنه يستمتع بطحن المواطن والمجتمع.

في خيبر قرر القائد ﷺ أن يضع لـه نائبًا لإدارتها، وفي أحد الأيام أحضر له هذا النائب تمرًا لذيذًا يقال له (جنيب) فسأله ﷺ: (أكل تمر خيبر هكذا؟ فقال النائب: لا، والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة). هنا بيّن لـه ﷺ أنـه لا يجوز بيع صاع تمر إلا بصاع مثله، مهما كان صنف أحدهما جيدًا. فقال لنائبه: «**لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا**».

حـول اليهـود خيبر قلعة للربا، لكن بعد أن أصبحت ضمن الدولة الإسـلامية أصدر القائد ﷺ أمرًا بمنع التعاملات الربوية على المسلمين، وفي تلك الأثناء أمر ﷺ بجمـع الغنائم، وفي أثناء التوزيـع رأى الصحابة عجاجة غبار من بعيد تقترب، فإذا هم فرسان حزم خيلهم من الليف.. كانوا في مهمة استطلاع بأرض نجد، ويقودهم رجل يدعى أبان بن سـعيد بن العاص، وقد أسـلم أبان قبيل توقيع صلح الحديبية، فهو الرجل الذي أجار عثمان عند دخوله مكة. ترجل أبان عن راحلته ليفاجأ بوجود غريب لم يرَه من قبل يطلب من النبي ﷺ شيئًا من الغنائم، هذا الغريب هو أبوهريرة، فقال أبان كلمة قاسية: «لا تعطِه».

غضـب أبوهريرة الذي كان يتابع أخبار النبي ﷺ من اليمن، فذكّر أبان أنه قتل صحابيًّـا، فقـال: «هذا قاتل بن قوقل»، فرد أبان مشـبهًا أبا هريرة بالوبر المنحدر من مـكان يقال له قدوم الضـأن، فقال: «واعجبًا لك، وبر تـدأدأ من قدوم ضأن، ينعى عـلى امرئ أكرمه الله بيدي، ومنعـه أن يهينني بيده» وإذ بالقائد ﷺ ينهي ذلك الجدل المنفعـل، فقال: «يا أبان، اجلس». ثم أكمـل التوزيع، وفي أثناء ذلك كان أحد الجند يتأمل قطعة قماش، فأعجبته، فاستلها دون أن يراه النبي ﷺ.

درس في العقيدة في خيبر

بدأ القائد ﷺ بتوزيع الغنائم بنسبة واحد إلى ثلاثة: يُعطى صاحب الفرس ثلاثة أسهم، والذي لا يملك فرسًا له سهم واحد.. نظرًا لما بذله صاحب الفرس من جهد ومال. يقول الشاب ابن عمر: قسم رسول الله يوم خيبر للفرس سهمين، وللراجل سهمًا، ويقول: «**أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهمًا له وسهمين لفرسه**»، ومنح ﷺ العبيد من الغنائم حتى قال أحدهم واسمه عمير: «شهدت مع سادتي خيبر، فأمر بي رسول الله، فقلدت سيفًا، فإذا أنا أجره، فقيل له: إنه عبد مملوك. فأمر لي بشيء من خرثى المتاع»، وكان هذا العبد يمارس الرقية في الجاهلية لمن أصيبوا بالمس، فأحب بعد إسلامه أن يتأكد من مشروعية عمله ورقيته، فتوجه نحو نبيه ﷺ وقال: «عرضت عليه رقية كنت أرقي بها المجانين في الجاهلية، فقال ﷺ: **اطرح منها كذا وكذا، وارقِ بما بقي**» فالرقية هنا علاج لأمور غير محسوسة.. أشياء غير مرئية تؤثر في روح المريض وعقله، ومن ثم جسده، ولأن الرقية ليست أدوية ولا أعشابًا، بل أدعية وتعاويذ، فقد يتسلل منها الخطر على التوحيد، الذي من أجله بعث كل الأنبياء والرسل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦]، ولأن تأثير الرقية لا يخضع لتجارب المعامل، ولا يتكون نتيجة تفاعل مادي مدروس.

في هذه الحالة يكون الشفاء أشبه بالمعجزة.. عندها يتعلق المريض الجاهل بصاحب الرقية، مثل تعلق الغريق بأي شيء، وعندما تصل الأمور إلى هذه المسافة تنفتح بوابات الجهل للخيال المريض، ويبدأ التعلق بالأسباب، لا بخالق الأسباب سبحانه، ويجد الساحر والمشعوذ أعشاشًا في مخيلة العوام والبسطاء، ويعود الشرك من جديد باسم الرقية والعلاج؛ لذا حذف ﷺ من رقية عمير ما له علاقة بالشرك والتعلق بغير الله، وأباح له أن يرقي بالباقي.

واصل القائد ﷺ توزيع الغنائم، فأعطى النساء منها، ومن بينهن: صحابية اسمها سهلة بنت عاصم بن عدي، ولابنة لها ولدت في خيبر.. في تلك الأثناء انفصل رجل من جيش المسلمين، وتوجه نحو مكة، ولما وصلها احتفت به قريش احتفاء

عظيـمًا، فتكـدر العباس لاحتفائهم بهذا المنفصل حتـى عجز عن الحركة، فطلب من خادمه أن يحضر له ذلك الرجل، الذي أعلن عن هزيمة مفاجئة للمسلمين في خيبر.

هزيمة مفاجئة للمسلمين في خيبر

لاتـزال أرض خيـبر تقدم الـدروس لمواطنـي الدولة الإسـلامية، فعلى أرضها كان هنـاك خادم يدعى (مدعم)، وهو الآن يتأمل قطعة قماش من الغنائم.. لم يقاوم إغراءهـا، فاسـتلها دون علم قائـد الدولة ﷺ، ثم أخفاها مع أمتعته الشـخصية، أما نتيجـة هـذا العمل اليسـير في نظـر أناس فستكشـفه السـاعات القادمـة. انتهى أمر الغنائـم، فأمـر ﷺ بالاسـتعداد للتحرك نحـو وادٍ للذكريات والآلام اسـمه (وادي القـرى)، وفجأة، وقبل المغادرة اقترب منه أحد جنده، واسـمه (الحجاج بن علاط) فاستأذنه للسفر إلى مكة، بل استأذنه أن يعلن ردته وشماتته منه ومن صحابته هناك.. قائـلًا: «يا رسـول الله، إن لي بمكة مـالًا، وإن لي بها أهلًا، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك، أو قلت شيئًا؟ فأذن له رسول الله أن يقول ما شاء».

ركـب الحجـاج مطيتـه، واتجه بهـا جنوبًا.. مـارًّا بالمدينـة، ثم شـق طريقه نحو مكـة، ولما احتضنته جبالها تسـلل نحو بيته، ولما وصل أناخ بعيره ودخل، فدهشـت زوجتـه لمجيئه، فتظاهـر بالشرك، وأخبرها بأن محمدًا قد هزم في خيبر، وأن جنده قد استبيحوا، وأُصيبت أموالهم، وقال لها: (اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه) حلمت المرأة بالثراء، فتحركت على الفور لإحضار المال، بل قامت بتبشير جاراتها ومن لقيته.

انتشر الخبر في الطرقات والبيوت، فاحتفل الطواغيت، وفرح المشركون، ووقع الخبر كالصاعقة على المسلمين المحبوسين، وأثقل الخبر أحد زعماء مكة حتى عجزت قدمـاه عـن حمله حزنًا.. بلغ الخبر العباس بن عبدالمطلب، فعقر، وجعل لا يسـتطيع

أن يقوم، فنادى عبدًا له والحزن يلون وجهه، وأسرّ إليه بكلمات.. انطلق الخادم نحو بيت الحجاج، فاستأذن عليه، ولما دخل قال له: إن العباس يقول: «ويلك، ما جئت به وما تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به».

تلفت الحجاج، وهمس بالغلام: «اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره»، فانطلق الغلام كالريح عبر شوارع مكة الحزينة.. يحمله الفرح، وقبل أن يدخل قال وهو بباب الدار: «أبشر يا أبا الفضل» فز العباس قائمًا من هول المفاجأة، وتوجه نحو عبده، فطبع قبلة بين عينيه، وسأله؟ فأخبره ما قال الحجاج، فأعتقه من شدة الفرح.

العباس يفرح بفتح خيبر

بينما كان العباس عم النبي ﷺ غارقًا في حزنه على خبر هزيمة المسلمين في خيبر، إذ بصوت عبده يهتف عند الباب: «أبشر يا أبا الفضل»، فإذ بالحياة تسري فيه من جديد، ليفز، ويطبع قبلة على جبهته ويقول له: أنت أحر، ثم سأله عن البشرى، فأخبره بأن الحجاج بن علاط يقول له: «ليخلُ لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره» أرسل العباس للحجاج رسالة يحدد فيها مكان اللقاء، فتسلل الحجاج نحو البيت المحدد.. تحمله البشريات، فاستأذن، ودخل والعباس يحرقه الشوق للقائه.

تعانق الرجلان، وحيا بعضهما بعضًا، والابتسامات تملأ المكان، فقال الحجاج: «إن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله ﷻ في أموالهم، واصطفى رسول الله صفية بنت حيي، فاتخذها لنفسه، وخيّرها أن يعتقها، وتكون زوجته، أو تلحق بأهلها، فاختارت أن يعتقها، وتكون زوجته، ولكني جئت لمال كان لي ها هنا أردت أن أجمعه، فأذهب به، فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لي أن أقول ما شئت».

كان العباس يتلقى تلك الكلمات كما يتلقى رشات المطر في اليوم الصائف، ثم توجه الحجاج برجاء للعباس ألا يعلن الحقيقة لقريش إلا بعد ثلاثة أيام من

مغادرتـه، وقـال: «أخفِ عني ثلاثًا، ثم اذكر ما بدا لك» وبعد جلسـة عامرة بالحب والبشريات والأخبار الجميلة.. نهض الحجاج شوقًا لنبيه، وودع رفيقه وتسلل ثانية نحـو بيتـه، فإذ بزوجته قد جمعـت ما كان عندها من حلي ومتـاع، فدفعته إليه، فأخذ المال، وودعها وخرج، ليركب راحلته، وينطلق.

مـرت أيـام ثلاثـة، وفي اليوم الرابـع خرج العباس مـن بيته متوجهًـا نحو بيت الحجـاج، وهتـف مناديًا أهـل الدار، فـردت زوجته، فسـألها: «ما فعـل زوجك؟» فأخبرتـه بأنـه قد ذهب يوم كـذا وكذا، ثم رقت لحـال العباس، وقالـت تعزيه: «لا يخزيـك الله يا أبا الفضل، لقد شـق علينا الذي بلغك. فقـال لها: أجل، لا يخزني الله، ولم يكـن بحمـد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسـول الله، وجرت فيها سـهام الله، واصطفى رسـول الله صفية بنت حيي لنفسـه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به. قالت: أظنك والله صادقًا. قال: فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك»، ثم انطلق العباس نحو مجالس قريش التي افتقدته مجلسًا مجلسًا، ليقلب مشاعرها رأسًا على عقب.

العباس يعلن فتح خيبر في مكة

انطلق العباس نحو مجالس قريش مجلسًا مجلسًا، وكلما مر بقوم رفعوا رؤوسهم بوقـار يخفي الشـماتة، وهم يقولون: «لا يصيبك إلا خير يا أبـا الفضل» فينظر إليهم بثقة، ويقول: «لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسـوله، وجرت فيها سـهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ما له وما كان له من شيء ها هنا، ثم يذهب».

نزلـت الكلـمات كالطعنـات عـلى الطوغيـت.. حولتهـم إلى نظرات شـاردة، والتفاتات بلهاء، ورد الله الكآبة التي كانت بالمسـلمين عليهم. انتشر الخبر المعاكس في مكـة، وتحولـت بيوتهـا إلى حالة مـن الإحباط، لكـن عشرات الأطيـاف الجميلة

انسابت عبر الشوارع نحو بيت العباس، حتى اكتظ بيته بالرجال والنساء.. بالمؤمنين والمؤمنات المحبوسين ببنود صلح الحديبية والحزن يقتلهم.. يسألونه عما حدث؟ فإذا الخبر يحول البيت إلى فرح وحمدٍ وتكبير لله، فنبيهم قد فتح خيبر، ثم غادرها نهارًا بعد أن خطب بجيشه، فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، وتأتون الماء إن شاء الله غدًا. قال أبوقتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى إبهار الليل وأنا إلى جنبه، فنعس، فمال على راحلته، فأتيته فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى تهور الليل مال عن راحلته، فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة هي أشد من الميلتين الأوليين، حتى كاد ينجفل، فأتيته فدعمته فرفع رأسه فقال: من هذا؟ قلت: أبوقتادة. قال: متى كان هذا مسيرك مني؟ قلت: مازال هذا مسيري منذ الليلة. قال: حفظك الله بما حفظت به نبيه. ثم قال: هل ترانا نخفى على الناس.. هل ترى من أحد؟ قلت: هذا راكب، ثم قلت: هذا راكب آخر، حتى اجتمعنا، فكنا سبعة ركب».

تداعى الصحابة، فمال القائد ﷺ عن الطريق، وأمر بالتوقف.. كان الجيش مرهقًا فنزلوا، وألقوا بأجسادهم المنهكة على فرشهم، ثم قال ﷺ: «**احفظوا علينا صلاتنا**»، وأمر بلالًا أن يظل ساهرًا ليوقظهم لصلاة الفجر، وقال له «**اكلأ لنا الليل**» وبعد ساعات فوجئ بلال بنبيه ﷺ يوقظه.

ೋ ೋ ೋ

أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك يا رسول الله

بعد منتصف الليل، وبعد مسير شاق ومرهق خلال الطريق من خيبر إلى وادي القرى.. مال القائد ﷺ عن الطريق، وأمر بالتوقف. كان الجيش مرهقًا، فنزلوا، وألقوا بأجسادهم على فرشهم، ثم قال ﷺ: «**احفظوا علينا صلاتنا**»، وأمر بلالًا بالتحديد أن يظل ساهرًا ليوقظهم لصلاة الفجر، وقال له: «**اكلأ لنا الليل**».

امتثل بلال، وظل ليله يصلي، ويرقب، ويذكر الله، ونام النبي ﷺ وأصحابه، وقبيل الفجر بدقائق نهض بلال ومشى نحو بعيره، ثم جلس وأسند ظهره على

البعير ووجهه في اتجاه الشرق.. متأهبًا لرصد تسلل خطوط الفجر في الظلام، وشيئًا فشيئًا تسللت ظلمة حجبت السماء والأفق، فلم يعد بلال يرى أو يسمع.. تسلل النعاس، فأسدل جفني بلال، ثم فتحهما فإذا الشمس تملأ المكان، وقائده ﷺ قائم على رأسه يوقظه. فقد نام الجميع حتى ضربتهم الشمس، فكان ﷺ أولهم استيقاظًا، ففزع وقال معاتبًا صاحبه: «**أي بلال؟**» فاعتذر بلال وقال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك».

عندها أمر ﷺ بتحريك الرواحل عن المكان قليلًا، وقال: «اقتادوا»، فتحركوا حتى إذا ارتفعت الشمس توقف، ونزل ونزل الجيش، ثم نادى صاحبه أبا قتادة، وأمره بإحضار وعاء للوضوء يسمى ميضأة، فتوضأ منها وضوءًا دون وضوء. أي وضوءًا خفيفًا، وبقي فيها شيء من ماء، ثم قال لصاحب الميضأة أبي قتادة: «احفظ علينا ميضأتك، فسيكون لها نبأ».

أذن بلال للصلاة، فصلى النبي ﷺ ركعتين، ثم صلى بهم الفجر، ثم تحرك الجيش، فجعل بعض الصحابة يميل إلى بعض، ويهمس: (ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟) فهتف النبي ﷺ بهم: «**أما لكم فيَّ أسوة؟**» ثم قال: «**أما إنه ليس في النوم تفريط، إنما التفريط في اليقظة، فإذا نسي أحدكم صلاة أو نام عنها فليصلِّها إذا ذكرها. إنما التفريط على من لم يصلِّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلِّها حين ينتبه لها، فإذا كان الغد فليصلِّها عند وقتها**»، ثم تحرك الجيش الذي أصابه عطش شديد، حتى لم يستطع ﷺ أن يتفقده كعادته، فانقطع هو وأبو قتادة ومجموعة عن الجيش، فلم يعودوا يرونهم. فانقسمت آراء الصحابة حول مكان القائد ﷺ إلى رأيين: رأي لأبي بكر وعمر، ورأي آخر لمعظم الصحابة.

طاعة أبي بكر وعمر رشد

ارتفعت الشمس في الطريق من خيبر، وبدأت حرارة الجو ترتفع، وانقسم الجيش إلى قسمين لا يرى بعضهما بعضًا. نظر القائد ﷺ إلى من معه من الصحابة

وهـم في عطش شـديد، وتحدث عـن البقية، فقال: «ما ترون النـاس صنعوا؟ ثم قال: أصبح الناس فقدوا نبيهم، فقال أبوبكر وعمر: رسـول الله بعدكم لم يكن ليخلفكم، وقال الناس: إن رسول الله بين أيديكم، فإن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا» ويبدو أن الجيش أطاعوا أبا بكر وعمر، فتمهلوا في المسير، فلحق بهم ﷺ حين التهبت الشمس.

يقـول أبو قتـادة: «فانتهينـا إلى الناس حين امتـد النهار، وحمـي كل شيء، وهم يقولـون: يا رسـول الله، هلكنا عطشـنا؟ فقال: لا هلك عليكم. ثـم قال: أطلقوا لي غمـري» أي أعطوني إنائـي، ثم طلب من أبي قتادة أن يحضر ميضأته، ودعا ربه، ثم جعل القائد يصب من الميضأة في الإناء، وأبو قتادة يسقيهم.

تأمـل الصحابة الميضـأة، فأدركوا أنها لـن تكفيهم، فتزاحمـوا، وتكالبوا عليها، فقال ﷺ: «**أحسنوا الملأ كلكم سيروى**».

أيقن الجند بمعجزة سـتحدث، فانتظموا، وفعلوا ما أمرهم به نبيهم. فسـقاهم حتـى قـال أبو قتـادة: «حتـى ما بقي غـيري وغير رسـول الله، ثم صب رسـول الله، فقـال لي: اشرب. فقلـت: لا أشرب حتـى تـشرب يـا رسـول الله. فقال: **إن سـاقي القـوم آخرهم شربًا**» شرب أبو قتادة، ثم شرب قائد الدولة ﷺ بعد أن ارتوى شـعبه وجنده.. في مشهد عسكري لا تعرفه الأمم، ثم واصلوا مسيرهم حتى نزلوا ببئر أو نبع ماء (وهم جامين رواء) لا يشكون عطشًا.

نـزل الجيـش وعسـكر، واسـتراح بقية اليـوم، ثم واصلـوا مسـيرهم نحـو وادٍ قريب مـن مدائـن صالـح يسـمى (وادي القـرى) ولـه اسـم آخـر هـو (قـرح). كان واديًـا مليئًـا بالحدائـق والنخيـل واليهـود والذكريـات، ففـي هـذا الـوادي تـم اقتيـاد سـلمان الفارسي عبـدًا، بعدمـا سرق خاطفـوه بقراتـه، وباعـوه عـلى أحـد اليهـود، فظـل عنـده حتـى اشـتراه منـه يهـودي مـن بنـي قريظة. وصـل الجيـش، فلم يجـد مقاومة مـن اليهـود، ونزل القائد ﷺ، ونزل خادم له اسمه مدعم، فتوجه نحو ناقة النبي ﷺ ومد يديه نحو الرحل الذي يجلس عليه ﷺ، فحل رباطه، وإذ به يفاجأ بأزيز سهم طائشٍ يتجه نحوه، فينغرز في جسده.

درس حول اختلاس مال الدولة

في وادي القرى.. توقف الجيش القادم من خيبر، وأناخ القائد ﷺ ناقته، فتهادى خادمه مدعم، ومد يديه نحو حبال الرحل ليحلها، ويضعه على الأرض، وإذ به يفاجأ بأزيز سهمٍ طائشٍ ينغرز في جسده.

خرّ مدعم على الأرض، وتفجر شلال الدم حتى لفظ أنفاسه.. مشهد أثار غبطة المجاهدين، فقالوا: «هنيئًا له الشهادة» وإذ بالنبي ﷺ يصدمهم بكلمات اقشعرت لها جلود، ووجلت منها قلوب، حين قال: «**بل والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا**» إذًا فهو ذلك الشخص الذي أسلم حديثًا، والذي استل من مغانم المسلمين في خيبر قطعة قماش متواضعة.. تلف على الخصر تسمى الشملة.. استلها دون أن يستأذن قائد الدولة ونبي الأمة ﷺ.

كلمات لا تنطق عن الهوى.. كشفت هول مد اليد للمال العام.. مال الدولة.. انطلقت الكلمات كالسهم، فانغرزت في قلب مجاهد، فإذ به يتلفت ويبحث، ثم يتقدم نحو قائده، ويمد يده بسير نعال تافه يلف على القدم اختلسه من الغنائم، فقال: «هذا شيء كنت أصبته؟ فقال ﷺ: **شراك من نار**»، ثم نادى ﷺ وزيره ابن الخطاب، وقال له: «**يا ابن الخطاب، اذهب فنادِ في الناس: أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**» فانطلق بين الجند يعلنها.. يعلنها كما أعلن ﷺ لشعبه ذات يوم أن اختلاس إبرة من مال الدولة جريمة، فقال: «**من استعملناه منكم على عمل، فكتمنا مخيطًا فما فوقه، كان غلولًا يأتي به يوم القيامة**».

انصدع قلب موظف أسود من الأنصار بتلك الكلمات، فنهض نحو قائد الدولة ﷺ ليقدم استقالته قائلًا: يا رسول الله، اقبل عني عملك؟ قال ﷺ: «**ومالك؟**» قال: سمعتك تقول: كذا وكذا. قال ﷺ: «**وأنا أقوله الآن، من استعملناه منكم على عمل، فليجئ بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى**» استوعب المجاهدون أن جهادهم لا قيمة له.. إن لم ينضبطوا بتعاليم من يملك الجنة التي من

أجلها خرجوا، وأن كون بيت المال لجميع الشعب لا يعني أن يفتي الإنسان نفسه، فيمد يده إليه، وإذا كان الاختلاس قد أودى بفقير مجاهد في سبيل الله، فكيف بمن يختلس شيئًا لا حاجة له به، بل جشعًا وزيادة في الإثراء؟!

وادي القرى درس للفساد

في وادي القرى.. كان القائد ﷺ يؤسس لمكافحة الفساد في أعماق شعبه، لكنه لم يتركه دون عقوبة ورقابة دنيوية، فدون الرقابة قد يفسد الصالح.. السرقة عقوبتها قطع اليد؛ لأن تأثيرها في أمن الشعب وهيبة الدولة مباشر، بينما الاختلاس والنهب يأتي تأثيره مدمرًا بعد مدة، ولذا قال ﷺ: «ليس على منتهب ولا مختلس ولا خائن قطع» وفرق بينها، فحكم بالقطع على من سرق إبلًا من مرابطها، أو سرق ثمرًا من أماكن تخزينه، لكن لو نهب إبلًا ترعى، أو قطف بيده ثمرًا، وحمله معه خارج البستان، فلا قطع فيه، بل يحكم عليه بدفع ثمنه مرتين مع الجلد. حيث قال القائد ﷺ: «فيها ثمنها مرتين وضرب نكال» وهو أمر يمكن تطبيقه على من يختلس مال الدولة والشعب، لكن كل هذه التشريعات لا قيمة لها، بل السلطة القضائية برمتها لا قيمة لها، إن لم يطبق النظام على الجميع، كما قال ﷺ: «إنما أهلك الناس قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

لم يبرر القائد ﷺ لذلك الفقير اختلاسه قطعة قماش من مال الدولة بحجة فقره، فالإسلام جاء لإنصاف الفقراء، ولم يأتِ للمتاجرة بقضاياهم وأزماتهم، وعلى الفقراء كغيرهم مسؤولية، وعليهم النهوض بها، فالجنة سيدخلها الفقير والغني، وكذلك جهنم، وبهذا المنهج يتحول الفقير إلى طاقة فاعلة ومنضبطة.. لا طاقة هائجة ثائرة تحطم كل شيء، وتحرق اليابس والأخضر. فجيش محمد ﷺ معظمه من الفقراء، ومع ذلك فهو قمة في الانضباط وتحمل المسؤولية.

ها هي زوجة القائد ﷺ تقول: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر» إنها لم تقل نشبع من اللحم، أو الفاكهة أو السمن والعسل! قالت: التمر، بل حدثت ابن أختها أسماء ذات يوم عن موائد رأس الدولة، فقالت: «ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار» استغرب الفتى، فقال: «يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء» ثم ذكرت أن لقائد الدولة ﷺ جيرانًا يمنحونه من ألبانهم ﷺ ويسقونه. تحدثت أم المؤمنين عن خيبر والتمر، فماذا عن أم المؤمنين أميرة خيبر.. صفية بنت حيي بعد أن أسلمت، وهل زفت أم لا؟

زفاف صفية

غادر القائد ﷺ وادي القرى بعد أشهر من رصد تحركات اليهود، الذين غدوا مسالمين، حين أدركوا حجمهم، وأدركوا أنهم في حقبة لا تسعفهم فيها الخيانة، ومع ذلك ظل ﷺ يتودد لهم.. يتألف قلوبهم، بل ويصاهرهم. ففي طريق العودة للمدينة كانت صفية برفقة المجاهدة أم سليم.. أم أنس التي لم يسافر القائد ﷺ سفرة إلا وكانت ضمن جنده.. كانت صفية تتأمل هذه الصحابية التي أحسن الله خلقها وخُلقها.. تشع كرمًا أنصاريًا لا حدود له، وكأنها تقارن بينها وبين نساء قومها المهمشات، اليهوديات اللواتي خلقن كما يقول كتابها المقدس من أجل الرجل، بينما ترى نساء مسلمات خلقن لخلافة الله، وعمارة الأرض، ومنافسة الرجال في الطرقات إلى الجنة.

أسلمت صفية، وانتهت عدتها، وفي الطريق، وبالتحديد في مكان يقال له: (سد الصهباء) توقف الجيش، ونزل الجميع، ونُصبت القباب، وهي الخيام الصغيرة، وأمضت القافلة ليلة هادئة، وفي صباح اليوم المقبل هيأت أم سليم ضيفتها، فزينتها وزفتها لنبيها ﷺ، وأقيمت مائدة متواضعة لم تغل من أجلها القدور، ولم يتوافر فيها اللحم ولا الخبز.. حتى الماء في ذلك الزفاف كان على الأرض.. كان بقايا مطر.

قام الصحابة بغسل الجلود التي معهم، ثم حفروا حفرًا في الأرض، ثم ألقوا عليها تلك الجلود النظيفة، وضغطوها لتلاصق جدران تلك الحفر، فتحولت الجلود إلى أوعية، ثم قال القائد ﷺ: «**من كان عنده فضل زاد فليأتِنا به**» شارك الجند في وليمة قائدهم، فسكبوا السمن في أوعية الجلود، وغمسوا بالسمن ما معهم من الحيس، وهو خليط من معجون التمر والأقط المطحون، فأكل الجميع في ذلك الصباح الجميل، وكانت سنته في السفر والظروف الاستثنائية هي أن يقدم المسلم ما زاد عن حاجته للمحتاجين، فيقول: «**من كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له**»، ثم ذكر أنواعًا من المال يسن الاشتراك فيها، حتى ظن بعض الصحابة أنه لا حق لأحد منهم في الزيادة في حالة وجود من يحتاج إليها.

بعد وليمة صفية.. بدأ الهمس بين بعض الجند حول وضعها بالنسبة إلى النبي ﷺ؟ فقال بعضهم: «لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد؟ وقال بعضهم: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد» مضت ثلاثة أيام والجيش بين غدران الماء، وبعدها حان الرحيل، فأمر القائد ﷺ جنده بالتحرك، فجمعت الأمتعة، وطويت الخيام والفرش، ووضعت على ظهور الإبل، وركب الجميع والمتسائلون ينتظرون خروج صفية، فإن ركبت البعير بلا حجاب فهي أمة، وإن تحجبت، وحجبها فهي زوجته وأم المؤمنين.

أم المؤمنين الإسرائيلية

بعد ثلاثة أيام احتفالية مبهجة بين غدران الماء وحياضه، وتحت قطع السحاب التي تزين زرقة السماء.. تهيأ جيش خيبر للانطلاق من أرض سد الصهباء. وقف القائد ﷺ عند ناقته، فخرجت صفية وعليها جلبابها وخمارها.. تهادت بحياء نحو ناقة القائد ﷺ الذي كان يحوي لها بعباءته، ثم يقوم بحركة تنم عن منتهى الذوق والرقة والمواساة لهذه الأميرة. جلس عند بعيره، ثم ثنى ركبته لها، فوضعت الأميرة قدمها على ركبته الشريفه، ثم صعدت، وجلست على ظهر البعير.

أدرك الصحابة أن صفية أصبحت زوجة نبيهم ﷺ.. أصبحت أمهم، وشعرت صفية بحب يغمرها.. يبدد حزنها، فتحول بغضها للمسلمين حبًّا، وتلاشت عنصريتها اليهودية التي ترى أن اليهود فوق البشر، وهي ترى نفسها أمًّا لمؤمنين من شتى الألوان والأعراق.. أصبح قلبها مرتعًا لمحمد، وملكًا لرب محمد. وهي تقول: «كان رسول الله ﷺ من أبغض الناس إلي، فما زال يعتذر إلي، ويقول: إن أباك ألب علي العرب، وفعل وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي» اعتذارات ومشاعر كشفت الفارق بين هذا النبي الكريم، وبين زوجها السابق الحاقد العنيف، الذي كان يقودها إلى جهنم.. استيقظت على عالم النبوة والتوحيد، لا المتاجرة بهما.

واصل القائد ﷺ مسيره للمدينة محاطًا بجيش كالمشاعر.. تذكر سلمة بن الأكوع حداء عمه الشهيد على هذا الطريق، فهاجت مشاعره، فلم يجد ألطف من قائده ﷺ يشاركه تلك المشاعر، فحرك راحلته نحوه، ولما أصبح بموازاته قال: (يا رسول الله، ائذن لي أن أرجز لك. فأذن له. فقال ابن الخطاب: أعلم ما تقول. فقال سلمة:

والله لولا اللهُ ما اهتدَينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فقال ﷺ: «صدقت»، فواصل سلمة قائلًا:

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُولَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثم كرر سلمة سؤاله، فقال: يا رسول الله، إن ناسًا ليهابون الصلاة عليه يقولون: رجل مات بسلاحه؟ فقال ﷺ: **مات جاهدًا مجاهدًا، فله أجره مرتين**» ثم رفع إصبعين من أصابعه، وأشار بهما مؤكدًا.. لم يكن الشعر وحده يفيض في طريق العودة، فقد حدثت أمور كشفت كم كانت هذه القافلة قافلة قلوب.

جيش من المشاعر

كان الجيش العائد من خيبر يعبر حقولًا من الشعر والمشاعر.. الجيش كان أشواقًا لطيبة، وأحاديث تلهج بالذكر والود. اقترب علي فاتح خيبر من قائده ﷺ

وقد رأى معه خادمين، وكأنه يستحضر رفض قائد الدولة لإعطاء ابنته فاطمة خادمًا ذات يوم.. اقترب علي، فقال: يا رسول الله، أخدمنا؟ فقال: «**خذ أيهما شئت. فقال: خِرْ لي. قال: خذ هذا، ولا تضربه، فإني قد رأيته يصلي مقبلنا من خيبر، وإني قد نهيت عن ضرب أهل الصلاة**» فهل يا ترى أمر ﷺ بضرب غيرهم؟

قصة الخادم الآخر تجيب، فقد منحه لصاحبه أبي ذر، وقبل أن يأخذه قال له ﷺ: «**استوصِ به خيرًا**» تحير أبوذر في انتقاء أعذب خير يقدمه لهذا العبد اليهودي.. ظل يبحث ويفكر، وظلت القافلة تسير، والوقت يمضي ويسير، فشاهد النبي ﷺ أبا ذر مرارًا والخادم ليس معه، فناداه، وسأله: «**يا أبا ذر، ما فعل الغلام الذي أعطيتك؟** قال: أمرتني أن أستوصي به خيرًا، فأعتقته».

تغير أبوذر كثيرًا.. غيّره هذا القائد المتواضع، فقد كان سريع الغضب، وإن غضب لا يملك التحكم في نفسه. حدث ذلك بمكة، حين أوصاه ﷺ بعدم الجهر بإسلامه، فجهر ثلاثة أيام، فضربه طواغيت قريش ثلاث مرات، حتى كاد يموت بين أيديهم. لم يخفف الضرب حدته، بل زاده، لكن درسين من نبيه ﷺ أيقظاه.

ذات يوم اختلف مع أخيه بلال، فقال له: يا ابن السوداء. شعر بلال بالانكسار، وهو يعيره بأمه الحبيبة، ومَنْ مِنَ البشر يكره أمه؟!، فذهب إلى حبيبه ﷺ يشكو إليه كلمات لم يسمعها إلا أيام أبي جهل وأمية.. غضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا، فتم استدعاء أبي ذر، فجاء، فقال ﷺ وقد تغير وجهه: «**يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرو فيك جاهلية**» فرسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَؤوهُ، لَيْسَ لأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ إِلاَّ بِالدِّينِ، أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلًا جَبَانًا. إِنَّ اللهَ لا يَسْأَلُكُمْ عَنْ أَحْسَابِكُمْ وَلا أَنْسَابِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

أما الدرس الآخر، فتلقاه أبوذر حين كان جالسًا مع نبيه ﷺ بالمسجد، فهمس ﷺ بأبي ذر طالبًا أن يريه أرفع رجلٍ، وأن يريه أقل رجلٍ في نظره؟ فأشار إليهما. فلما حدق النبي ﷺ بهما تكلم، ولما تكلم صُدم أبوذر صدمة غيّرته حتى مات.

قلوب لم ترحب بصفية

ذات يـوم صلى الصحابـة والصحابيات خلف نبيهم ﷺ، ولما صلوا خرج من خرج، وتفرق البقية في أنحاء المسجد، فنادى النبي ﷺ صاحبه أبا ذر ليقدم له درسًا غـيّر حياتـه: أقبل أبـوذر، فجلس، فهمـس ﷺ به: «**انظـر أرفع رجل في المسـجد في عينيك**».

تلفـت أبوذر يبحث عن الأفضل دينًا ودنيـا.. في خير البقاع، فتأمل رجلًا أنيقًا في حلة فاخرة جالسًا يحدث رفاقه، فقال: هذا. فهمس ﷺ مرة أخرى، وقال: «**انظر أوضع رجل في المسجد في عينيك**» جالت عينا أبي ذر.. تبحث عن أقل الرجال منزلة دينًا ودنيا بحسب مقاييسه وهو العابد الزاهد، فوقعت عيناه على رجل مسكين.. قد اهترأت ثيابه من الفقر، وقل الاهتمام به، فقال: هذا. حينها قال ﷺ وحيًا: «**هذا خير عند الله يوم القيامة من قرار الأرض مثل هذا**».

صـدم أبـوذر، وهـو يرى أن أدنـى رجل في نظـره.. خير من مـلء الأرض من أرفع رجل بالنسـبة إليه.. أدرك أن اللون والمال والنسب لا تقدم متخلفًا، ولا تؤخر متقدمًـا، فلما أعطاه ﷺ عبدًا من يهود خيبر سـارع للإحسـان إليـه، فأعتقه، وها هو الآن مع نبيه يقترب من طيبة، فتهيج المشاعر، حين يعلن ﷺ حبه حتى للجبال.

لاح جبـل أحـد، فالتفـت ﷺ وقال: «**هذا جبـل يحبنا ونحبـه**»، وحين أشرقت بيوتات المدينة كالعاشقات.. أسرع كل شيء نحوها.. القلوب والأرواح والرواحل، وأسرع أنـس، وقال: «رأينا جدر المدينة، هششـنا إليها، فرفعنا مطينا، ورفع رسـول الله مطيته وصفية خلفه» لكن يبدو أن بعض القلوب مشتاقة لكل شيء تحمله المطية، إلا هـذه الأمـيرة التي تزاحمهن على قلبه ﷺ ومطيته، لكن شـيئًا حدث لصفية خفف من غيرتهن.

كانت العيون شاخصة، وفجأة عثرت الراحلة، فهوى ﷺ على الأرض، وهوت صفية، فقفز أبو طلحة عن بعيره نحو نبيه وهو خائف يقول: «يا رسول الله، جعلني الله فـداك أضررت؟ قـال: **لا. عليك المرأة**» «**إنها أمكـم**، فألقى أبو طلحة على وجهه

الثوب، فانطلق إليها، فمد ثوبها عليها، ثم أصلح لها رحلها»، «فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها، إلا النساء وبينهن شامتات يقلن: أبعد الله اليهودية».

نهض القائد ﷺ فستر صفية، ثم ركب، واكتنفه الرجال عن يمينه وشماله، ثم دعا دعاء العودة من السفر، فقال: «**آيبون عابدون تائبون، لربنا حامدون**»، فلم يزل يكررها حتى دخل المدينة. لم يكن الشوق وحده في انتظار هذا الجيش، فالمدينة تعد مفاجأة وفرحًا يعدل فرحة فتح خيبر.

فرح كفرح فتح خيبر

كان الفرح غامرًا باستقبال الفرسان الفاتحين.. ها هو أمير المدينة سباع بن عرفطة والمرابطون فيها يستقبلونهم، وعلى الرغم من الفرح، إلا أن الغيرة كانت بادية على بعض جواري أمهات المؤمنين، فشمتن لسقوط صفية من الراحلة، حتى قال أنس: «دخلنا المدينة، فخرج جواري نسائه يتراءينها، ويشمتن بصرعتها» أما القائد ﷺ فتأمل مدينته القوية.. مدينته التي أصبحت تلاحق الخائنين في جحورهم.. نظر إلى المدينة، فقال: «**اللهم، إني أحرم ما بين لابتيها بمثل ما حرم إبراهيم مكة، اللهم، بارك لهم في مدهم وصاعهم**» كان العناق والفرح في كل مكان.. الأطفال يتراكضون، ينطلقون من أيدي الأمهات نحو أحضان الآباء.. يتعلقون بهم يركبون خلفهم، ويدلون أقدامهم الصغيرة على أكتافهم، أما المدينة فكانت تعد للقائد ﷺ هدية.

نظر المجاهدون والمجاهدات للمستقبلين، فاتسعت أعينهم وخفقت قلوبهم وهم يرون عشرات الرجال والنساء الغرباء، الذين لم يروهم من قبل، أما المهاجرون فعرفوهم، وهتفوا لهم، وفرحوا بهم.. فرحوا بإخوتهم وأخواتهم الذين حرموا منهم منذ أكثر من عشر سنوات. تأملوهم فرأوا الوجوه قد تغيرت، ولمعت خصلات الشيب على بعض الأصداغ، ورزق البعض أطفالًا بعيدًا عن أوطانهم، وتلألأت عينا القائد ﷺ شكرًا لله، وفرحًا بهذا المشهد، فقال: «**ما أدري بأيهما أنا أفرح، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر**».

ها هو جعفر بن أبي طالب، وقد رزقه الله ثلاثة أطفال في الحبشة: عبدالله وعون ومحمد، وها هي أعينهم البريئة ترتوي من نبي طالما سمعوا والدهم وأمهم أسماء بنت عميس يتحدثان عنه. احتفى الفاتحون بإخوتهم الحبشيين.. بعد أكثر من عشرة أعوام في بلاد الغربة، وقد قدر ﷺ تلك المعاناة، فأحب أن يكرمهم ويواسيهم، ويخفف شيئًا من فقرهم وآلامهم حتى قال أحدهم: «وافقنا رسول الله حين افتتح خيبر، فأعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا» وبعد يوم احتفالي عاد الجميع لبيوتهم، وناصفوا إخوتهم تلك البيوت، وأوى من أوى منهم إلى الصفة، وذات يوم توجه عمر بن الخطاب إلى بيت ابنته أم المؤمنين حفصة، فلما استأذن دخل، فوجد أسماء بنت عميس زوجة جعفر، فقال: «من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال: الحبشية هذه، البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم» ففاخرها عمر ومازحها بكلمات أغضبتها حتى أخرجتها على الفور لتشتكيه عند النبي ﷺ.

تنافس بين المهاجرين

استأذن عمر على ابنته حفصة أم المؤمنين ودخل، فوجد عندها امرأة، فقال: «من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال: الحبشية هذه، البحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم» فمازحها قائلًا: «سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم» كلمات فجرت داخلها كل سنين المعاناة والغربة، فغضبت، وقالت: «كلا، والله كنتم مع رسول الله، يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله وفي رسوله»، ثم حلفت من شدة الغضب، فقالت: «وايم الله لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله، وأسأله، ووالله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد على ذلك».

خرج عمر نادمًا، فهو لا يتحدث عن نفسه.. يتحدث عن أبي بكر وعلي وبلال وحمزة وغيرهم.. ممن هاجروا، وخاضوا الحروب، واستشهدوا في سبيل الله،

وآخر إنجازاتهم فتح خيبر، وهي تتحدث عن المهاجرين اللاجئين، الذين جاعوا، وتغربوا، وخافوا في سبيل الله.. ظلت أسماء تنتظر وتنتظر، حتى جاء النبي ﷺ، ولما دخل وسلم أخبرته، فواساها، وقال: «**ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان**».

خرجت أسماء من بيت حفصة يحملها فرح لا حدود له، وأخبرت زوجها، وانتشر الخبر بين مهاجري الحبشة، فتوافدوا على مقر إقامة أسماء ليتأكدوا بأنفسهم، حتى قالت: «فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني أرسالًا، يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ»، فالإسلام لا يغفل دور مسلم مهما كان هذا المسلم ضعيفًا مغلوبًا على أمره.. مادامت معاناته في الله، فذات يوم رأى المجاهد العظيم سعد بن أبي وقاص أن له فضلًا على من دونه، فقال له النبي ﷺ: «**هل تنصرون، وترزقون إلا بضعفائكم**».

تلقى عمر درسًا جعله من أكثر الناس تواضعًا ورحمة، ومواساة للضعفاء والفقراء، وأقلهم اعتدادًا بإنجازاته، وأكثرهم محاسبة لنفسه، واستبشر أهل الحبشة بتثمين النبي ﷺ لهجرتيهم، وما مروا به في سبيل دعوتهم، لكنهم حملوا أيضًا الكثير من الحكايات الجميلة والمريرة.. حكايات اشتاق القائد لسماعها، ففي أحد المجالس التف الصحابة حول قائدهم، فنظر ﷺ إلى مهاجري الحبشة الموجودين، وقال لهم: ألا تحدثوني بأعجب ما رأيتم بأرض الحبشة؟

حدثوني عن أعجب قصص الحبشة

جلس بعض الصحابة حول قائدهم ﷺ، ومعهم بعض إخوتهم من مهاجري الحبشة، فنظر ﷺ لهم، وقال: «**ألا تحدثوني بأعجب ما رأيتم بأرض الحبشة؟**» فروى فتية منهم حادثة جرت أمام أعينهم هناك.. هناك في الحبشة، حيث تهادت عجوز نحو نهر أو نبع ماء.. تحمل جرتها الفارغة لتستقي، ولما وصلت غمستها في الماء حتى

ملأتها، ثم رفعتها ببطء فوق رأسـها، وعادت تتهزع نحو المكان الذي جاءت منه.. كان جسـدها يهتز، والجرة تهتز، فتتقافز قطرات الماء على شـعرها المجعد، وتنسـاب عـلى عاتقيها. مرت العجـوز بمجلس للمهاجرين، وعلى مقربـة منهم تجمعٌ لبعض شـباب الحبشـة المنحرفين.. أخذوا ينظرون إليها، وينظـر بعضهم إلى بعض بخبث، ولما تجاوزتهم أغراهم ضعفها واهتزازها، فتسـلل أحدهـم خلفها بخفة، ولما أصبح وراءهـا تمامًـا مد يـده بين كتفيهـا الضعيفتين، ثم دفعهـا بقوة، فخرّت عـلى ركبتيها ووجههـا، وهـوت الجـرة من يديهـا الضعيفتـين، وارتطمت بالأرض وطـش الماء، وساح على الطريق.

لملمـت العجوز بقايا عزمها، ورفعت رأسـها، وتأملت شـيخوختها الملقاة على الأرض، وكرامتها وماءها المسـكوبين.. تأملت كِسر جرتها المتطايرة حولها.. تأملت قلة حيلتها، فلم تجد سـوى الجبار سـبحانه.. نظرت للشـاب المزهو بقوته.. المنتشي بضحكات رفاقه.. حدقت به، فقالت والغصة تخنقها: «ستعلم يا غدر، إذا وضع الله الكرسي، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسـبون، فسوف تعلم أمري وأمرك عنده غدًا» قلصت شفتا الشاب الطائش، وأنصت الطريق ليـوم عدالـة قادم ومخيـف، ورق القائـد العادل ﷺ لحـال تلك العجـوز، ولضعفاء الشعوب، ثم قال لشعبه ولحكام أمته: «**صدقَتْ، ثم صدقَتْ، كيف يقدس الله قومًا لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟**».

كان ﷺ إلى جانـب الضعيـف حتـى يأخذ حقـه.. حتى لـو كان الضعيف وثنيًّا، وحتى لو كان عدوه أو خصمه. كان يطالب شعبه بالوقوف مع الحق.. لم يكن يخدرهم بالوعود والكلمات، بل يقنعهم بالأعمال والإنجازات، فقد جاءه أعرابي وثني يطالبه بديـن له، فتلفظ هذا الأعرابي الغريب على قائد الدولة ﷺ بألفاظ أغضبت أصحابه، حتـى قـال: «أحرج عليك إلا قضيتنـي. فانتهروه وقالوا: ويحك تـدري من تكلم؟» فقال الوثني وكله ثقة بعدالة الدولة الإسلامية: «إني أطلب حقي».

عندها التفت القائد ﷺ لشـعبه، وطالبهم بالتزام سـنته قائـلًا: «هلا مع صاحب الحق كنتم» ثم اقترض من إحدى المواطنات مالًا، فسدد له، بل وأطعمه. فقال الوثني:

أوفيـت أوفى الله لـك. فقال ﷺ: «أولئك خيار الناس» ثم بيّن سـنته للحكام والدول، وكأنه يقدم لها نصيحة تضمن لها القوة والاسـتقرار، فقال ﷺ: «**إنه لا قدسـت أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع**» أي يأخذ حقه بيسر دون منّة، أو أذى أو خوف.

المهاجرون لم ينسوا الجميل

بعـد خيبر أصبحـت الدولة الإسـلامية أغنـى، وتوافر لدى بعـض المهاجرين الأوائل مال، فكان أول ما أشرق في نفوسهم رد ذلك الجميل الذي غمرهم به أكرم أهل الأرض (الأنصار).. الذين شـاطروهم بيوتهم وأموالهم وزادهم، فردوا كل ما أخـذوه منهـم حتى قال الفتى أنـس: «لما فرغ ﷺ من قتال أهـل خيبر، وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم».

كانت نسـاء الأنصار ينافسن رجالهم سخاءً، فهذه أم أنس تمنح قائد الدولة ﷺ مجموعـة مـن النخيل، فإذ به يمنحها لامرأة سـوداء من شـعبه، هـي أم أيمن، وبعد خيـبر عـادت النخلات لأم سـليم، حيـث يقول ابنهـا أنس: «رد رسـول الله ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى أم أيمن مكانهن من حائطه» اتسعت مساحة الدولة الإسلامية لتشـمل المدينـة وخيبر ومـا بينهـما، وزادت كمية الطعـام قليلًا، حتـى قالت زوجة القائـد ﷺ: «لـما فتحـت خيـبر، قلنا: الآن نشـبع مـن التمر» قالـت: قلنـا، ولم تقل: شـبعنا، وكـما أن الدولة أصبحت أغنى وأكبر، فهي أيضًـا أصبحت أقوى وأعداؤها أضعف، فاليهود قد قلمت أظفارهم، وقريش قد حيدت بمعاهدة الحديبية، ما جعل بقيـة الوثنيـين في منطقة انعدام وزن؛ لأنهم كانوا نسـخًا مقلدة لقريش.. مجرد صدى لأكاذيـب طواغيتها وطواغيت اليهود.. اسـتخفوهم، فشـاركوهم القتال والحصار على مدى سبع سنوات دون مبرر.. ورطتهم قريش، ثم تركتهم في وضع لا يحسدون عليه.. أصبحوا ينتظرون سـقوط قريش أو سـقوط محمد؛ لينضمـوا للمنتصر منهما، لكن القائد ﷺ لا يريد لدولته أن تبقى في حالة قلق، وعلى الوثنيين تحديد موقفهم منذ الآن، فقد رموه، ورموا دولته بقوس واحدة؛ لذا بدأ بمن خانه، وغدر به دون مبرر..

بدأ بقوم المجرمين الذين أكرمهم ﷺ وداواهم، فلما شُفوا فقؤوا عيني الرجل المكلف بتمريضهم وإطعامهم وإكرامهم، ثم قتلوه، وسرقوا إبل الدولة المخصصة للفقراء.

لم يهاجمهم ﷺ ولم يفجئهم وهو قادر، وهم يستحقون، لكنه بعث لهم، وبعث لغيرهم رسالة تحمل الكثير من الأمن والسلام والمصالحة قال فيها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم:**

من محمد رسول الله لبني زهير بن أقيش، إنكم إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم الخمس، وسهم النبي والصفي، فأنتم آمنون بأمان الله وأمان رسوله»، فكيف كان رد الوثنيين؟

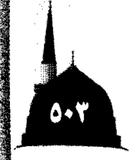
~~~

تشتت الوثنيين بعد الحديبية وخيبر

بعد تلك الرسائل الموجهة للقبائل الوثنية القريبة من الدولة الإسلامية.. استطاع القائد ﷺ تحديد البؤر والمناطق التي تصر على عدوانها للدولة الإسلامية دون مبرر، ولاسيما والنبي ﷺ لم يكن من أبنائها، ولم يهاجر منها، وربما لم يرَها يومًا.. كل الذي فعله قبل الهجرة هو أنه دعاها للتوحيد في الحج والمواسم، لا أكثر، وعندما أسس دولته لم يتعرض لها بسوء، فما مبررها للحرب مع طواغيت قريش؟.. ما مبررها لمشاركتهم في حصار المسلمين، بل والسلب والنهب للمدينة على مدى سبع سنوات؟

إذًا، فمن بدأ الاعتداء وزرع الشر، فعليه أن يتحمل حصاده، وقد أرجأ ﷺ تأديب الأشرار إلى حين عودته من خيبر، وقبل ذلك أرسل رسائل تطمين لهم، لكنهم أبوا؛ لذا نادى وزيره الأول أبا بكر، وعيّنه أميرًا على سرية لملاحقة قطاع الطرق من وثنيي فزارة، وهم الذين استغلوا غياب النبي ﷺ وصحابته في الحديبية، فأغاروا على المدينة، وسلبوها، وقتلوا من قتلوا، وكما كان لسلمة بن الأكوع بروز في تلك المطاردة، فسيكون له دور في ملاحقة فلول المعتدين وتأديبهم.. تحت قيادة الصديق.

انطلق الجيش، وانطلق جواسيسه ترصد المكان، ثم عادت تقدم تقارير عن


~~~

قطاع الطرق، وتخبر الأمير بأنهم جاثمون على مورد ماء يبعد ساعة.. كان الوقت متأخرًا، فأمر أبوبكر الجيش بالتوقف للاستراحة والنوم، فأمامهم غدٌ حافل.

نزل الأمير وجنده وخلدوا للنوم، ورابط من رابط للحراسة، ولما تسللت خطوط الفجر نهضوا، وصلوا خلف أبي بكر، وبعد الصلاة وانبلاج النور شنوا غارتهم على قطاع الطرق، الذين فوجئوا بالغارة، فاستسلم جزء منهم، وهرب آخرون نحو جبل قريب، فلحق بهم فارس المطاردات سلمة بن الأكوع، الذي خشي أن يحتموا بالجبل، فانتزع سهمًا من كنانته، وقال: «رميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا».

استسلم الهاربون، ولحق بهم سلمة، وأعادهم إلى بقية الأسرى، الذين شعروا بذل الأسر.. شعروا بفداحة جرائم السلب والنهب والقتل، التي ارتكبوها ضد المسلمين الذين لم يتعرضوا لهم يومًا.. عاد الجيش للمدينة، فرأى ﷺ بين الأسرى فتاة جميلة كانت فرجًا لصحابته المحبوسين بمكة.

تبادل الأسيرات وأسر أم الأيتام

كان من بين أسرى قطاع الطرق امرأة جميلة وهبها أبوبكر لسلمة بن الأكوع.. ظلت الفتاة معززة في بيته دون أن يخلو بها، وفي يوم انطلق سلمة للسوق، فرآه القائد ﷺ وناداه، ولما وقف أمامه قال: «**يا سلمة، هب لي المرأة**. فقال: يا رسول الله، والله لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوبًا» فانصرف القائد ﷺ، وظل سلمة يفكر في طلب قائده، ولما جاء الغد لقيه ﷺ فكرر طلبه، وقال: «**يا سلمة، هب لي المرأة لله أبوك**. فقال سلمة: هي لك يا رسول الله، فوالله ما كشفت لها ثوبًا» عندها أرسل ﷺ تلك الوثنية إلى حلفاء قبيلتها طواغيت قريش، وفاداها بأسيرات وأسرى مسلمين محبوسين يعذبون بمكة.

امـرأة وثنيـة أخـرى.. كانت في طريـق سرية أخـرى يقودها النبـي ﷺ.. سرية أشرقت عليها الشـمس، فاسـتيقظ أبوبكر، فخشي أن يوقظ نبيه، فعمران بن حصين يقـول: «كنـا لا نوقـظ نبي الله ﷺ من منامه إذا نام حتى يسـتيقظ، ثم اسـتيقظ عمر، فنهض من مرقده، ومشـى نحو نبيه، وبدأ يكبر، ويرفع صوته حتى اسـتيقظ ﷺ، فلما رفع رأسـه، ورأى الشـمس قد بزغت قال: ارتحلوا. فقال رجل: يا رسول الله، فاتتنا الصلاة؟ فقال: **لم تفتكم**. ولما توقفوا قال: **ائتوني بماء، ثم توضؤوا، وصلوا**».

في أثنـاء ذلـك اعتزل رجل المصـلى، ولم يصلِّ معهم، فلما سـلم ﷺ رأى الرجل متنحيًـا، فقـال: «**يا فلان، ما منعك أن تصلي معنا**؟ قال: يـا نبي الله، أصابتني جنابة. فأمره فتيمم بالصعيد، فصلى». ثم واصلت السرية سـيرها حتى نفد الماء، فنادى ﷺ فارسـيه عليًـا والزبير، وقال لهما: «**إنكما سـتجدان بمكان كذا وكـذا امرأة معها بعير عليه مزادتان، فأتياني بها**».

انطلـق الفارسـان نحو المكان المحـدد، فرأيا طيفًا مـن بعيد. اقتربا، فـإذا امرأة سـادلة رجليها بـين قربتين تتموجان بالمـاء، فتوجها نحوها، وقالا لهـا: «أين الماء؟» فنهرتهما بكل ثقة، وقالت: «أيهاه، أيهاه، لا ماء لكم. فقالا: كم بين أهلك وبين الماء؟ قالت: مسيرة يوم وليلة» شعر الفارسان بمسافة كالموت، فقالا: «انطلقي إلى رسول الله. قالـت: وما رسـول الله، هـذا الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، وهو رسـول الله» كانا عطشـانين والقربتان تضجان بالماء، ومع ذلك لم يرتشـفا منها قطرة.. انطلقا بها حتى أوقفاها أمام قائدهما ﷺ، ولما وقفت أمامه سألها ﷺ الماء بكل احترام؟، فقالت: «أيهـاه، أيهـاه، لا مـاء لكم. فقال ﷺ: أنيخـوا لها بعيرها» توجه بعـض الجند للبعير، فأناخوه، فارتعد قلبها، وناشـدت النبي، وأخبرته بأنها أم أيتام، وقالت: «اسـتقيت لأيتام، وقد احتبست عليهم جدًّا».

سرية الرحمة بالأيتام

علت الشمس الرؤوس، واشتدت الرمضاء، وتلمظت الشفاه حول قرب المرأة الخائفة التي تلاشت جرأتها، وارتعد قلبها، فراحت تستعطف النبي ﷺ، وهي التي وصفته قبل قليل بالصابئ، فناشدته الرحمة بأيتامها، وقالت: «استقيت لأيتام، وقد احتبست عليهم جدًّا» فقال ﷺ والعيون تحدق بالقرب: «**ائتوني بإناء**».

انطلق أحدهم، فأحضر إناءً ومده لنبيه ﷺ، الذي أخذه، ونظر إلى فتحة القربة السفلية التي تسمى العزلاء، فقال: «**افتحوا عزلاء هذه فخذوا منها ماءً يسيرًا، ثم افتحوا عزلاء هذه فخذوا منها ماءً يسيرًا أيضًا**».

امتدت الأيدي تحل رباط القربتين، والمرأة تحدق بقربتيها بحزن ويأس، وهي ترى ماءها يؤخذ منها، وتعبها يسكب في إناء غيرها، ثم أخذ ﷺ الإناء ودعا فيه، وغمس يده فيه، لتفاجأ المرأة بطلب أشد عليها من الأول، حين قال ﷺ: «**افتحوا لي أفواه المزادتين**». فُتح فم القربة والقربة الأخرى، فحثا من الإناء في هذه القربة قليلًا، وفي تلك قليلًا، ثم نادى القائد أفراد سريته الأربعين، فأحضروا قربهم وأوانيهم ليملؤوها، وبدأ ﷺ يسقيهم بيديه، ويخدمهم بنفسه واحدًا واحدًا، ثم أحضر الرجل الجنب إناء، فملأه، وذهب بعيدًا، فخلع ثيابه واغتسل.. يجري ذلك وسط ارتجاف قلب المرأة واتساع عينيها، وهي ترى قربتيها نهر ماء يتدفق دون توقف.. لتتسع أكثر، وتفاجأ أكثر، حين قال ﷺ: «**اسقوا ظهركم**» فسقوا إبلهم وخيلهم حتى رويت، ثم أمرهم بربط القربتين، فربطوهما، وقال: «**ابعثوا البعير**».. نهض بعير المرأة، وتموجت القرب تلمع ملأى.. لم ينتهِ المشهد، فقد دنا ﷺ من البعير، فمد يده نحو قطعة قماش للمرأة، فأخذها، ثم بسطها على الأرض، وقال لجنده: «**هاتوا ما كان عندكم**».

تفرق الجند نحو رواحلهم، وأخرجوا ما في مزاودهم، وإذ بكساء المرأة يتحول كثيبًا من كسر الخبز والتمر والأقط، فانحنى قائد الدولة ﷺ بنفسه ومد يده على أطراف الكساء وربطه صرة، ثم حمله بيده، ووضعه على ظهر البعير، وقال لها: «**خذي، هذا لأيتامك وهذا ماؤك وافرًا**».

خفـق قلـب أم الأيتـام، وانطلـق بعيرهـا يحملهـا عـبر طرقـات مـن الذهـول والانخطاف.. انطلقت لا ترى في الطرقات سوى محمد ﷺ.. وصلت قومها مكتنزة بالدهشـة، وأناخت بعيرهـا، فتراكض أيتامها نحوها، وحدقـوا فرحًا بتلك الصرة، ففاجأتهم بهدية أخرى.. فاجأتهم بكنز جعلهم يخرجون من ديارهم بحثًا عن باقيه.

أرملة تقود قومها للإسلام

حطـت أم الأيتـام بمضـارب قومها، وأناخـت بعيرها، فتراكض أيتامها بشـوق نحـو حضنها.. يعانقون عرقهـا ورائحتها الحبيبة. فتحـت صرة الطعام، وأطعمتهم، وسقتهم من ذلك الماء المبارك، ثم توجهت نحو مجلس قومها وهي عالم من الانبهار.. روت لهـم كيف تحولـت قربتها نهرًا.. روت أنهـا وصفت ذلك القائـد بالصابئ، فلم يأخذها سبية، ولم يصادر بعيرها وقربها وأصحابه عِطاش، بل أهداها صرة عظيمة من الطعام، وأوصاها بأيتامها على الرغم من وثنيتها.. أين العيوب التي رمته قريش بها؟! حارت وحيرتهم في وصفه، فقالت: «لقد لقيت أسحر البشر، أو إنه لنبي كما زعم!».

تداولـت مـع قومها ما مـرت به، فأيقنت بعـد تفكير أنه نبي، وأيقـن قومها أنه كذلك، فأسـلموا، أمـا القائد ﷺ فعاد للمدينة، وبعد شـهر فوجئت طيبة بأم الأيتام تتمايـل بهـا مطيتهـا نحوهـا.. تحـدُو ثلاثين بعـيرًا خلفهـا.. جـاء راكبوها للسـلام عليه ﷺ وإعلان إسـلامهم. فاسـتقبلهم بالقلب الذي يستقبل به كل حبيب مهاجر لمدينة التوحيد، وقدم لأصحابه طرازًا نسـويًّا رفيع المسـتوى.. أرملة تتسـلل إبداعًا نحـو عقـول قومها لتنيرها بالتوحيد.. إنجاز غير مسـبوق للمـرأة في زمن قياسي، لم ينجزه سوى النبي ﷺ، ولم يفخر به سوى الإسلام، والمرأة قادرة على أكثر إن تأملت ما حباها ربها من قدرات. وإذا كانت تلك السرية قد غنمت عقل تلك المرأة، فهناك سريـة عـادت ببعض الكدر! سرية بعثهـا ﷺ بقيادة أمير أنصـاري، وفي أثناء توقفها بدر من بعض الجند ما أغضبه، فاستدعاهم أميرهم، وقد اشتد غضبه، ولما اصطفوا أمامه هتف: «أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطبًا».

انطلـق الجند هنا وهناك يحتطبون، ثم عادوا ليكدسـوا كميـة كبيرة من الحطب أمام الأمير. فقال لهم: «أوقدوا نارًا» فأوقدوا ذلك الحطب، وارتفعت ألسنة اللهب تلفح الوجوه، وإذ بالأمير يصدر أمرًا مخيفًا: «ادخلوها»، همّ بعضهم بالقفز في النار، فإذ بمن حولهم يمسكونهم.. يصرخون في وجوههم: «فررنا إلى النبي ﷺ من النار» انقسـمت السريـة إلى فريقـين من الجدل واللجـاج حتى خمدت النار، وسـكن معها غضـب الأمـير، ثم عاد بالسريـة للمدينة، وقدم تقريره للنبـي ﷺ، وإذ ببعض جنده يرفعون دعوى عليه، فيقوم ﷺ باسـتدعائه ومحاكمته، فلا أحد في الدولة الإسـلامية فوق المساءلة.

الدولة الإسلامية ليست ثيوقراطية

وصلـت سرية الأمير الأنصاري للمدينة، فقـدم تقريره لقائده ﷺ، لكن بعض جنوده ذهبوا ليستطلعوا منه ﷺ شرعية أوامر الأمير الغريبة، وحدود إمارته وحدود أوامرهـا، وهـل خالفـوا الله ورسـوله حـين لم يرمـوا أنفسـهم في النـار؟ أنصت ﷺ للشـكوى، ثم حسـم الأمر بكلمات مخيفة قائلًا: «**لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف**».

لم يأمر ﷺ شعبه بما لا يطيقون، وهذا ما فهمه الأمير عبدالله بن حذافة السهمي، حـين قاد سرية صغيرة، فأوقدوا نارًا، فمازحهم طالبًا منهم أن يقذفوا أنفسـهم فيها، فتأهبـوا، فقال: «أمسـكوا على أنفسـكم فإنما أمـزح معكم، فذكـروا للنبي ﷺ حين عودتهم؟ فقال ﷺ: **من أمركم منهم بمعصية فلاتطيعوه**».

إذًا، فالأمر في الإسلام مختلف، وليس كما كان في أوروبا المسيحية ذلك الوقت، حيث كانت الحكومة الدينية الثيو قراطية تجثم كالكابوس.. دولة يكون فيها الحاكم إلهًا، أو نصف إله.. يتحدث نيابة عن الله وباسـم الله، أي إنه لا يتحاكم وشـعبه إلى الكتاب المقدس، بل هو نفسـه أصبح مقدسًـا لا يسـأل عما يفعل، وأوامره مقدسـة

كقدسية أوامر الله حتى وهو يرتكب الموبقات.. كانت دولة تنتشر فيها السجون أكثر من المدارس، بل إن أقبية الكنائس فيها تحولت إلى زنزانات تعذيب للمخالف.. النبي ﷺ قدم دولة حضارية.. لا أحد بعده معصوم، ولا أحد بعده يتحدث باسم الله، أو نيابة عنه، لا حاكم ولا عالم، ولا أحد يغفر أو يملك صكوك غفران، بل نظام يرجع فيه الجميع للكتاب والسنة، ويكفل للجميع أديانهم وحرياتهم.. قدم ﷺ نظامًا عادلًا يسري على الغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والصالح والطالح. قدم ﷺ نظامًا راقيًا في التعامل مع الغير.. لا يهدد أحدًا، ولا يكره أحدًا على الإسلام.. حتى الحروب التي خاضها.. خاضها دفاعًا عن دينه وصدًّا لمعتدٍ كأحد والخندق، أو عقابًا على خيانة كقريظة والنضير وخيبر، أو معاملة بالمثل كبدر وبني المصطلق.. خاضها حتى لا تكون دولته نهبًا لقطاع الطرق والمجرمين. ومن لا يفعل ذلك تجاه دينه وشعبه ووطنه فهو ليس أهلًا لأن يحكم.

محمد ﷺ مقارنة بقادة الأمم

عندما تتحدث الأمم عن قادتها تلتزم الصمت أمام محمد ﷺ.. الحاكم الذي أدبه الله فأحسن تأديبه.. قائد رسالته العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥]، يأمره خالقه، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء: ٥٨]، فربه سبحانه جعل العدل أحد أهم رسائل القرآن: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾[الشورى: ١٧].

العدل رسالة تطمين للكافرين والمشركين والمخالفين: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[الشورى: ١٥]، قائد جعل الحرب على الفساد رسالته:

﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٢-١٨٣]، وجعل العدل رسالة النخبة من المثقفين والعلماء والأمراء ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].. العدل أوجبه الله حتى مع من يبغضونه ﷺ ويعادونه ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وأوجب العدل حتى مع من يشوهون دينه، ويكذبون، ويسرقون، ويلفقون له التهم ممن هم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، بل إن الله جعل لذنب من يقتل شخصًا يأمر بالعدل عقابًا شنيعًا كعقاب من يكفر أو يقتل نبيًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

بهذه التربية من الله لنبيه ﷺ لم تعرف البشرية حاكمًا مثله، ولا دولة كدولته.. لم يبنِ قصرًا، ولم يبنِ سجنًا.. البناء الذي انشغل به هو بناء الإنسان، حين انشغل قادة الأمم ببناء الحجر.. كان ﷺ يبني الحياة حتى وهو يخوض غمرات الموت.. حدث ذلك حين دفن الصحابة أخًا لهم في إحدى المعارك، فمروا عليه من الغد، فرأوا قبره قد لفظه، فسألوا نبيهم، فكان في جوابه ﷺ تعظيم لحق الإنسان بغض النظر عن دينه.

قبر يلفظ صاحبه

استوعب جند محمد ﷺ أن المجاهد الحقيقي لا يخرجه من بيته سوى الدفاع عن وطنه، وأن تكون كلمة الله هي العليا.. كانوا حريصين على نقاء النية، لكن هذا الحرص لم يمنعهم من الوقوع في أخطاء؛ لأنهم بشر، لكن أخطاءهم لا تحسب على

الإسلام.. إنما تحسب عليهم أنفسهم؛ لأن النبي ﷺ كان حيًّا آنذاك، وقد قام بتصحيح تلك الأخطاء؛ حتى لا تبرر الأجيال القادمة ارتكابها بحجة أن صحابيًّا فعلها.

جاءه أحد المجاهدين يبشر نبيه ﷺ بنصر الله لسرية شارك فيها، ثم قال: «يا رسول الله، لحقت رجلًا بالسيف، فلما أحس أن السيف قد واقعه التفت وهو يسعى، فقال: إني مسلم.. إني مسلم. فقتلته، وإنما كان يا نبي الله، متعوذًا». كدرت تلك الكلمات فرح القائد ﷺ، وغيرت تهلل وجهه، فقال: «**فهلّا شققت عن قلبه، فنظرت صادق هو أو كاذب؟**» فقال المجاهد: «لو شققت عن قلبه ما كان يعلمني القلب؟ هل قلبه إلا مضغة من لحم؟ فقال ﷺ: **فأنت قتلته؟ لا ما في قلبه علمت، ولا لسانه صدقت!**» قال: يا رسول الله، استغفر لي. قال ﷺ: **لا أستغفر لك**. فدفنوه، فأصبح على وجه الأرض». فدفنوه في اليوم الثاني، فمروا به، فوجدوه خارج القبر، فدفنوه ثالثة، فلفظه القبر أيضًا.. تكدر أصحابه، واتجهوا لنبيهم ﷺ ليخبروه عن معجزة لا تحدث إلا في حياة نبي! فقال ﷺ: «**أما إنها تقبل من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعلمكم تعظيم الدم**». علم رفاقه بخطورة اقتحام النيات والرجم بالغيب، كما علم الفتى أسامة بن زيد عندما كان في سرية من السرايا، فكرر الخطأ نفسه، فقال ﷺ له: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟**» ظل ﷺ يكررها حتى تمنى أسامه أنه لم يسلم إلا اليوم.. لم تكن الجرأة على النيات محصورة في ساحات الوغى، فهناك جرأة حدثت في ساعة من ساعات الود والصفاء في بيت عتبان بن مالك.

في بيت عتبان سماحة وشدة

بعد أن أصبحت الدولة الإسلامية أقوى.. أصبح المنافقون في حالة نفسية بالغة السوء، فقد دحر الله أصدقاءهم اليهود، وصاروا يسمعون كل يوم عن هزيمة لإخوتهم الوثنيين، لكن مجالسهم كانت تنزّ بحقد لا يمكن تجاهله.. حقد أسود تمنى الصحابة لو حدد القائد ﷺ موقفه منه، فذات يوم شعر أنصاري من أهل بدر اسمه

عتبان بن مالك.. شعر بضعف بصره ضعفًا أثقل عليه الذهاب للمسجد، فأرسل شخصًا لنبيه برسالة يقول فيها: «إني قد أنكرت بصري، والسيول تحول بيني وبين مسجدي، إني أحب أن تأتيني، فتصلي في منزلي، فأتخذه مسجدًا».

لبى النبي ﷺ دعوة صاحبه، فنهض ومر على وزيره الأول أبي بكر الصديق، فأخذه معه، وسارا نحو بيت عتبان.. عبرا مجرى الوادي، ثم واصلا نحو حي عتبان وسط حفاوة الطرقات، واكتحال عيون الشعب بطلعة قائدهم ﷺ وصاحبه.. كثرت الالتفاتات والهمسات في الحي، وانتشر الخبر، ولما وقف ﷺ أمام الباب سلم، واستأذن، فردّ عتبان، وأذن له. دخل ﷺ وقبل أن يجلس نظر لعتبان، وقال: «**أين تريد أن أصلي؟**» فأشار بيده للمكان، فتقدم ﷺ وصفّ الرجال خلفه، فصلى بهم ركعتين.

كان عتبان قد أوصى أهل بيته بطبخ خزيرة، وهي عبارة عن قطع لحم صغيرة تطبخ، ثم يذر عليها الدقيق بعد نضجها، ولما انتهوا من الصلاة أراد القائد ﷺ الانصراف، فرجاه عتبان أن يبقى لتناول الطعام، فقبل ﷺ الدعوة، وجلس بين أحبته. وفي أثناء ذلك كان الخبر قد ملأ الحي، فتوافد الجيران يستأذنون للدخول والأنس بقائدهم، حتى امتلأ البيت بالحب والطعام والأحاديث، وفجأة قال أحد الجالسين: «أين مالك بن الدخشن؟» فغضب أحدهم وقال: «ذاك رجل منافق لا يحب الله ولا رسوله. فقال ﷺ: **لا تقول، هو يقول: لا إله الا الله يبتغي بذلك وجه الله**». فقال: يا رسول الله، أما نحن فنرى وجهه وحديثه إلى المنافقين».. كان بعض الحضور يتمنى لو أصابه شر يريحهم منه، بل تمنى أحدهم لو دعا النبي عليه، فهلك. فقال ﷺ لهم: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟** قالوا: إنه يقول ذلك، وما هو في قلبه. فقال ﷺ: **لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار**» شعر الصحابة بخطورة اقتحام النيات، لكن آية نزلت تحذرهم من بعض مجالس المنافقين.

آية تريح المسلم من دعايات النفاق

التفت ﷺ إلى رجاله وهو في بيت عتبان بن مالك، وهم يتهمون رجلًا بالنفاق، فقال لهم: «**لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار**» كف الصحابة ألسنتهم عن رجل لا يعلمون سريرته.. أخافتهم تلك الكلمة عن اقتحام النيات، وكأنه ﷺ يقدم لشعبه درسًا في التعامل مع المنافقين ومجالسهم، وهو أنهم جزء من الشعب.. لا يمكن اتخاذ أي إجراء ضدهم حتى يقوموا بتحرك أو نشاط خياني.. عندها يتدخل القضاء المستقل للحكم عليهم، وقد خذل المنافقون دولتهم في أحد والخندق، لكنهم لم يحملوا السلاح، ولذا فلم يصدر من القائد ﷺ شيء ضدهم.. إنما صدر أمر من الله سبحانه للمؤمنين بالتعامل مع السلوكيات.. لا الأشخاص، خاصة حالة السخرية بالله وقرآنه ورسول، فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

لذا.. لم تسجل على القائد ﷺ حالة اعتقال واحدة لمنافق، فليقولوا ما يقولون.. تلك هي سنته ﷺ، وسر نجاحه.

سر نجاحه هو في الانشغال عن تكميم الأفواه بفتح القلوب، وتنوير العقول والبناء، لا بملاحقة الفاشلين وإسكاتهم، فالفاشل لا يكف عن الثرثرة الساخرة، إلا عندما يكف الناجح عن الإبداع؛ لذا لم يلتفت ﷺ لمقالات المنافقين التي تنزّ حقدًا، لكن الحماس حمل أحد الصحابة على امتشاق سيفه، والتوجه نحو النبي ﷺ، فلما دنا منه همس به طالبًا تفويضًا بقتل أحد المعارضين لدين الله، فسأله ﷺ: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟** قال: بلى، ولا شهادة له. قال ﷺ: **أليس يصلي؟** قال: بلى، ولا صلاة له. فقال ﷺ: **أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم**»، فالمسلم غير معني باقتفاء مواطئ القلوب، ولا مراميها، فهي مسافات مهلكة.. تتلاشى فيها الأعمار وتهدر فيها الجهود والطاقات.. المسلم معني بتجديد الحياة، لا بالوقوف أمام الخرائب

والعقم.. بهذه السنة أصبح العدو الداخلي مكشوفًا؛ لأن عيون الشعب الموحد مسلطة عليه.

سرية الشهداء وذات الرقاع الثانية

أرسل القائد ﷺ سرية من عشرات الرجال، في مهمة لرصد تحركات الوثنيين المعادين، وبعد مغادرتهم بأيام.. كانت إحدى المواطنات تمشي نحو قائدها ﷺ بلهف، ولما وقفت أمامه سلمت، ثم قالت: «يا رسول الله، رأيت كأني دخلت الجنة، فسمعت بها وجبة ارتجت لها الجنة، فنظرت فإذا قد جيء بفلان بن فلان، وفلان بن فلان..، حتى عدَّتْ اثني عشر رجلًا، جيء بهم عليهم ثياب طلس، تشخب أوداجهم) ثم أخبرته بأنه أُمر، فقيل: «اذهبوا بهم إلى نهر البيدج. فغمسوا فيه، فخرجوا منه وجوههم كالقمر ليلة البدر، ثم أتوا بكراسي من ذهب، فقعدوا عليها، وأُتي بصحفة من ذهب فيها بسرة، فأكلوا منها، فما يقلبونها لشق إلا أكلوا من فاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم».

سكت ﷺ ولم يعبر الرؤيا، وبعد أيام أقبل رجل من تلك السرية نحو النبي ﷺ، فلما وقف أمامه قدم له تقريرًا، وقال: «يا رسول الله، كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان، حتى عد الاثني عشر الذين عدتهم المرأة» سر القائد بما سمع، وطلب من البشير البقاء، ثم طلب استدعاء المرأة، فذهب أحدهم فاستدعاها، ولما حضرت بين يديه قال لها محتفيًا بها: «**قُصِّي على هذا رؤياك**». فقصت الرؤيا.

غبط الصحابة إخوتهم الشهداء، وتمنوا لو كانوا معهم على تلك الكراسي الذهبية، وذات يوم خرج ﷺ في غزوة غير بعيدة، فأصر أبو موسى وخمسة من رفاقه الفقراء مصاحبة الجيش على الرغم من عذرهم، فعانوا معاناة جعلتهم يسمونها ذات الرقاع، حيث يقول: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماي وسقطت أظفاري، فكنا نلف على

أرجلنا الخرق، فسميت غزوة: ذات الرقاع» وذات الرقاع هذه تختلف عن غزوة ذات الرقاع السابقة؛ لأن تلك الغزوة سميت هكذا لمرور الجيش بمكان يقال له ذات الرقاع، وكانت بعد زواج جابر مباشرة، أي بعد أحد.. حينها كان أبوموسى في اليمن وبعدها بسنوات هاجر للحبشة، ولم يهاجر للمدينة إلا بعد خيبر. في هذه الغزوة ندم أبوموسى على ذكر معاناته خشية أن يكون قد وقع في الرياء.. سلوك غفل عنه أحد الصحابة ذات يوم.. حين مر رجل بمجلس، فسلم وواصل مسيره، فحدق به الصحابي، وقال: «والله إني لأبغض هذا في الله» ضج المجلس، فلم ينتهِ الأمر حتى عقد ﷺ جلسة حسم فيها أمر تلك الكلمات القاسية.

مجالس طيبة الطيبة

كان بعض الصحابة في مجلس، فمر بهم رجل وسلم، فردوا السلام، وواصل الرجل سيره، فحدق به أحد الجالسين ببغض لم يحتمل كتمانه.. بغض جعله يلتفت لمن حوله، ويقول: «والله إني لأبغض هذا في الله».. ضاق المجلس بهذه الكلمة، ورفض تلاميذ محمد ﷺ هذا السلوك من أخ تجاه أخيه، وقالوا: «بئس والله ما قلت، أما والله لتنبئنه» ثم طلبوا من أحدهم أن يلحق بالرجل ليخبره، علّ ما بينهما من إشكال يزول.

نهض المنتدب، ولحق بعابر السبيل، وأخبره. صدم الرجل، وتلاشت الطرقات أمامه: لم يعد للمجلس.. لم يواصل سيره نحو هدفه. أخذته الصدمة خلال طريق ثالث يؤدي لنبيه ﷺ ليستفسره، ولما وصل قال: «يا رسول الله، مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان» ثم أخبره بالقصة، وقال: «ادعُه، فسله على ما يبغضني؟»

طلب القائد ﷺ إحضار الرجل، فجاء ومثل بين يديه. نظر ﷺ له، فسأله عن سبب بغضه، فقال بكل ثقة: «أنا جاره، وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط، إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر! قال الرجل: سله يا رسول الله:

هل رآني قط أخرتها عن وقتها، أو أسأت الوضوء لها، أو أسأت الركوع والسجود فيها؟ فسأله، فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله، هل رآني قط أفطرت فيه، أو انتقصت من حقه شيئًا؟ فقال: لا. ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلًا قط، ولا رأيته ينفق من ماله شيئًا في شيء من سبيل الله بخير، إلا هذه الصدقة يعني الزكاة التي يؤديها البر والفاجر. قال: فسله يا رسول الله، هل كتمت من تلك الزكاة شيئًا قط، أو ماكست فيها طالبها؟ فسأله فقال: لا» عندها نظر النبي ﷺ للرجل الذي جعل من نفسه رقيبًا على الناس.. جعلها ميزانًا يقيس به الناس، فقال ﷺ له: «**قم إن أدري لعله خير منك**»فغمط الناس واحتقار أعمالهم وحتى أشكالهم وألوانهم من الكبر، والنبي ﷺ يقول «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان**»، وكأنه ﷺ يريد من يشعر بالتفوق على غيره أن يقابل ذلك بالشكر لله وحده، لا بانتقاص خلقه أو السخرية منهم.

غزوة نجد الثانية

اتجه القائد ﷺ بجيش لتأديب أحد أطراف الأحزاب، لكن للمرة الثانية لم يحدث قتال، وقد شارك أبوهريرة في هذه الغزوة، وتحدث عن صلاة الخوف فيها، وصفتها التي تختلف عن صلوات الخوف السابقة، فقد صلى هو ركعتين، وصلى كل قسم من الجيش ركعتين، وصفتها باختصار هي:

صف النبي ﷺ أصحابه صفين: صف خلفه، وصف آخر وجهه عكس القبلة للمراقبة، فصلى بالصف الأول ركعة، ثم قام للركعة الثانية، فانصرف هذا الصف للحراسة، وجاء الصف الثاني، فصلوا ركعة، والنبي قائم ولما انتهوا من ركعتهم صلى بهم ركعة أخرى، وجلس جلسة تشهد طويلة جدًّا ولم يسلم، وفي أثناء تلك الجلسة الطويلة سلم هؤلاء، وانصرفوا للحراسة، وجاء الصف الأول فصلوا ركعتهم الثانية، والنبي ﷺ لايزال جالسًا في انتظارهم، وبعدما جلسوا للتشهد إئتموا به،

فسلم بهم. وسر اختلاف صلوات الخوف يكمن في اختلاف الظروف التي تقام بها الصلاة من حيث قوة العدو، وصعوبة التضاريس، وشدة الخطر والخوف.

كانت تلك الغزوات والسرايا تأديبًا لشركاء قريش الذين حاصروا الخندق، بعد أن تمكن القائد ﷺ من تحييد قريش، وهي الآن تعاني الأمرّين، فقد حول أبوجندل وأبوبصير ومن معهما طرقاتها إلى رعب، وقوافلها إلى مواكب نواح وجنائز.. كانت قريش تدفع ثمن صلفها واستكبارها، وشروطها المتعنتة، ومما يزيد معاناتها أنها لا تستطيع لوم محمدٍ على قطرة دم واحدة، فالنبي ﷺ منع أولئك الفتية المؤمنين من حق المواطنة في دولته؛ لذا فليس لهم منعة سوى سيوفهم، وعلى قريش حصد الشوك الذي زرعته، لتمر الأيام.. تحصيها قريش بعدد الجنائز والدنانير والبضائع التي تخسرها، ويمر عام، ويقترب موعد تطبيق أحد بنود الحديبية، وهو السماح للنبي ﷺ وصحابته بأداء عمرة بديلة لعمرة الحديبية، فيأمر ﷺ شعبه بالتهيؤ وسط معنويات مرتفعة بفتح خيبر، وعودة مهاجري الحبشة، فاستعدت قريش لأسود يوم مر بها منذ بدر.. وسط أجواء إحباط وكساد اقتصادي مروع، استعدت وحرصت على تنفيذ الشرط الذي يقول: «لا يدخل محمد مكة بالسلاح إلا السيف في القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدًا إن أراد أن يقيم بها».

عمرة القضاء البديلة للحديبية

من ذي الحليفة قرب المدينة أحرم الرجال والنساء، وانطلقوا خلف نبيهم.. لم يحدد ﷺ للنساء لباسًا معينًا للإحرْام سوى خلع النقاب والقفازين، أما الرجال فنهاهم عن أنواع من الألبسة هي: السراويل والخفين والعمامة والقميص والبرنس، وهو كالقميص، لكن به غطاء للرأس، ونهاهم عن ارتداء أي ثوب أصابه زعفران، أو نبات أصفر طيب الرائحة يسمى الورس. سالت القافلة بين الجبال وعبر الأودية والشعاب.. تملؤها بالتلبية والذكر، وكأن سيلًا من الأرواح المشتاقة يتدفق نحو البيت الحرام، وبعد أيام أصبحوا على مشارف الحبيبة.. مكة ما أطيبها وأطيب

ريحها! هبت رياح ذكرياتها.. ذكريات الطفولة والشباب والمعاناة، وعلمت قريش بوصولهم، فبدأ طواغيتها يقولون بسخرية: «إنه يقدم عليكم غدًا قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة» وجاء الغد، فتدفقت الجموع خلف قائدها ﷺ بوقار نحو بيت ربها.. وسط نظرات المشركين.. يتأملون رجلًا كان بالأمس طريدًا شريدًا.. يختبئ هو وصاحبه في الكهوف والشعاب، واليوم يسير خلفه شعب من كل الألوان والأعراق.. شعب يفدونه بأرواحهم ومهجهم.

ها هم الوثنيون الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية: صفيرًا وتصفيقًا.. يتجمهرون للفرجة، فيرون المؤمنين سيلًا من السكينة والنظافة والوقار، تكدس الوثنيون خلف الحِجر للسخرية من هزال أجساد الصحابة، ولما دخل النبي ﷺ المسجد، ورأى تكدس الوثنيين خلف الحجر بمسافة.. أصدر أمره لصحابته أن يسيروا أول ثلاثة أشواط سيرًا أسرع من المشي، وأقل من الركض.. يسمى الرمل، فإذا غابوا عن أعين المشركين أبطؤوا بين الركن والحجر. اتجه ﷺ نحو الحجر الأسود، واستلمه، ثم وضعه عن يساره وبدؤوا الطواف مسرعين، فحدق المشركون بهذا النشاط، وزمّوا شفاههم، والتفت بعضهم إلى بعض من شدة الغيظ، وقالوا: «هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا» وفجأة سمع الوثنيون شيئًا مخيفًا يطوف حول الكعبة.. شيء لا يراه المشركون ولا حتى المسلمون، لكنهم يوجعهم كالرماح.. كالسيوف، ما حدا بابن الخطاب إلى محاولة إيقافه، فمنعه القائد ﷺ.

الشعر في الإسلام كائن حي

تحول الشعر في ظل الإسلام ودولته إلى كائن حي.. ينبض في السلم والحرب. كان الشعر كتيبة من كتائب الإسلام يرفرف فوقها جبريل.. دشن ﷺ للعالم أول شعر عقائدي، وهو ما يسمى الشعر المؤدلج. احتفى ﷺ بالشعر.. وظفه لا ليمدح، ولا ليصف، ولا ليفخر، ولا ليرثي فقط، فتلك وظائف قديمة.

الوظيفة الجديدة التي أبدعها الإسلام للشعر.. هي المساهمة في تغيير الإنسان والعالم.. الشعر المؤدلج الجديد لم يكن يصف البخيل بالكرم، ولا الرعديد بالشجاعة، ولا الخائن بالأمانة، ولا يقتات أو يتسول.. أصبح يغير الإنسان عقيدة وفكرًا.. رفع القائد ﷺ مستوى الشعر لدرجة أنه بنى له منبرًا.. ليس في الميادين والأسواق، بل في المسجد. «وَضَعَ ﷺ لِحَسَّانٍ مِنْبَرًا فِي الْمَسْجِدِ». ولما دخل عمر يومًا المسجد وجد حسانًا ينشد الشعر، فرمقه بنظرة غضب، فقال حسان مباشرة: «قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك».

الشعر كان يخلع قلوب خونة قريظة، ويهز حصونها، والقائد يحرضه، ويقول: «**هاجهم وجبريل معك**»، واليوم ها هم المشركون متكدسون خلف الحجر.. يغيظهم نشاط القائد وصحابته، وإذ بقلوبهم ترتجف وهم يسمعون شعرًا كالحتوف حول الكعبة يطوف.. يملأ أركان المسجد:

خلُّوا بني الكفارِ عنْ سبيلِه ... اليومَ نضربُكم علَى تنزيلِه

ضربًا يزيلُ الهامَ عنْ مقيلِه ... ويذهلُ الخليلَ عنْ خليلِه

حدق الوثنيون في صاحب الصوت، فإذا هو شاب أنصاري اسمه عبدالله بن رواحة.. يمشي أمام نبيه ﷺ يتفجر حماسًا وشعرًا.. رآه ابن الخطاب، فأسرع نحوه، وقال: «يا ابن رواحة، بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال ﷺ: **خلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل**»، لذا وتحسبًا لأي مكروه.. قام فتى من هوازن بن أسلم، ومعه مجموعة من شباب الإسلام، فشكلوا من أجسادهم جدارًا يحمون به نبيهم حتى أكمل طوافه، ثم صلى ركعتي الطواف، ثم اتجه لجبل الصفا ليبدأ السعي، ولما صعد الصفا رفع صوته بكلمات دكّ بها معنويات الطغاة في عقر دارهم، فقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**» أجل، هزم الأحزاب وحده.

ثلاثة أيام من السياحة في مكة الحبيبة

يـردد بعـض المنافقـين: أن المشركين في مكة كانوا يعيشـون في ظـل الوثنية حالة من التعددية إلى أن جاء الإسـلام، فألغى الحريات، ويتناسون أن النبي ﷺ وأصحابه تعرضـوا للإقصاء من أول يوم أعلن فيه التوحيد، وظلوا مضطهدين مطاردين ثلاثة عـشر عامًا، وبعد أن أعلن ﷺ قيام دولتـه دون إراقة دم.. أصدر الوثنيون قرارًا بمنع أي مسـلم مـن أداء العمـرة أو الحج، حتى إن عباد الشـجر والبقـر والحجر واليهود والنصارى، بل كل أهل الأرض يمكنهم الطواف بالبيت إلا أهل التوحيد.. إلا أهل ملـة إبراهيـم الذي بنـى الكعبة، واليوم يؤدي المسـلمون العمرة خلـف قائدهم ﷺ، يؤدونهـا ليس لأن الوثنيين أصبحوا متسـامحين، أو يقبلون الآخـر، ولكن لأن دولة الإسلام أصبحت قوية.

أتـم المسـلمون عمرتهم، ورفرفت أرواحهم في أجواء مكـة ثلاثة أيام.. ترددوا عـلى بيت ربهـم، وفاضت العيـون، وهي ترى أماكن سـحل الدعـاة: خباب وعمار وبـلال وإخوتهـم وأخواتهم على يـد الطواغيت.. هنـا طعنت سـمية، وهنا فاضت روح يـاسر، وهنـا حاول عقبة خنق نبـي الله ﷺ، وعلى الرغم مـن الذكريات المريرة أحب ﷺ أن يشـعر قريشًـا بالرحم التي تجمعهم، فخطب امرأة اسـمها ميمونة بنت الحارث، وهي أخت زوجة العباس. كان ابن عباس حينها طفلًا في السابعة.. تحدث عـن زواج خالته، فقـال: «تزوج النبي ﷺ ميمونة وهو محـرم، وبنى بها وهو حلال» وقـد أخطـأ لصغر سـنه، فهذا طفل آخر اسـمه يزيد بـن الأصم يقـول: «إن ميمونة حدثتـه أنـه ﷺ تزوجها وهو حلال» أي بعد العمرة، ثم يقول: «كانت خالتي وخالة ابـن عباس» خالتهما نفسـها تقول: إنه ﷺ «تزوجها بعـد أن انتهى من عمرته» وبعد أيام فوجئ علي بوثني يقترب منه، ويقول له: «إن هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فمرْه، فليخرج» توجه علي لقائده، فأخبره فقال ﷺ: «**نعم، فلنخرج**».

أمـر القائـد ﷺ بالتهيؤ للسـفر، وفي أثناء ذلـك أقبل رجل اسـمه حويطب بن عبدالعـزى، ومعـه مجموعة مـن الوثنيين نحو النبـي ﷺ، ولما اقتربوا منـه قالوا: «إنه

قد انقضى أجلك، فاخرج عنا» كان ﷺ أكرم منهم.. قدم لهم دعوة لحضور وليمة زواجه، فقال: «**وما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعامًا، فحضرتموه؟**» قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا.

مشاعر في أثناء مغادرة مكة

خرج القائد ﷺ بأصحابه من مكة.. من مهبط الوحي وبيت الله العتيق.. خرج وهو القائل: «**ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك**» تحركت قافلة القلوب.. سالت كالدموع عبر الطريق، فلئن ضاقت مكة فطيبة في الانتظار، وفجأة خفق قلب القائد ﷺ.. صوت ناعم يهتف به.. يناشده التوقف. التفت ﷺ فإذ بالذكريات الحزينة تلاحقه.. ذكريات عمه حمزة.

نظر ﷺ فإذ بالبراءة تناديه.. يتيمة تركض خلف القافلة تنادي: «يا عم.. يا عم» خفق قلب علي ورقّ لركضها، فنزل عن راحلته، ومد يده وأمسك بيدها الصغيرة، وتهادى بها نحو الزهراء، ثم حملها فوضعها في هودجها، وقال: «دونك ابنة عمك احمليها» أخذتها فاطمة، وأجلستها مع الحسن والحسين.. مشهد فطر قلوب الصحابة، وأثار ذكريات أبي عمارة سيد الشهداء، فحدث جدال بين ثلاثة من العظماء.. كلهم يرى أحقيته بتلك اليتيمة، وبعد جدل لم يحسم توجهوا نحو قائدهم ﷺ ليحكم بينهم. قال علي: «أنا أخذتها، وهي بنت عمي» فقال أخوه جعفر: «ابنة عمي وخالتها تحتي»، وقال زيد بن حارثة: «ابنة أخي» هنا نطق ﷺ بقانون من قوانين الأحوال الشخصية الإسلامية.. تشريع ينظر لمصلحة اليتيمة أولًا وأخيرًا، فأمر بأن تكون الطفلة مع خالتها، وقال: «**الخالة بمنزلة الأم**»، ثم شكر الثلاثة بكلمات تثمن حدبهم على هذه اليتيمة وجهدهم في الإسلام، فقال لعلي: «**أنت مني وأنا منك**»، وقال لجعفر: «**أشبهت خلقي وخلقي**»، وقال لزيد: «**أنت أخونا ومولانا**».

واصلت القافلة سيرها، ولما وصلوا مكانًا يقال له: (سرف) توقفت القافلة، ونزل المسافرون، فصنع ﷺ وليمة زواجه بميمونة، وبعد الاحتفال بها سارت القافلة

مجددًا.. نسيجًا متناغمًا وخلابًا من الحب في الله، وركبت اليتيمة مع خالتها العظيمة أسماء بنت عميس وأطفالها الثلاثة، وبعد أيام حطت القافلة بالمدينة، وبعد وصولها بمدة أصيبت قريش بزلزال.. وصل المدينة عظيمان ظلا أسيرين لعناد العظماء.. خدعتهما ثقتهما بقدراتهما على حل معضلة محمدٍ عاجلًا أو آجلًا، وبعد نجاحاته ﷺ اكتشفا أن ميزة الإسلام هي أنه بسيط ومدهش ومعجز، وقدرته على تطويع الجبابرة والدهاة.. تمامًا هي كنعومته ورقّته في الإمساك بأيدي البسطاء والمساكين.

وصل الرجلان طيبة، فاهتزت طيبة فرحًا، وتزلزلت مكة رعبًا.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص

وصل عمرو بن العاص من الحبشة، فقرر التوجه للمدينة وإعلان إسلامه، وفي الطريق فوجئ بقائد قريش المظفر.. خالد بن الوليد في الطريق. حيّا الرجلان بعضهما، وتبادلا نظرات التسليم لله وتوحيده، فقال عمرو: «أين يا أبا سليمان؟» فزفر خالد بكلمات من أعماق قلبه، وقال: «والله لقد استقام المنسم، وإن الرجل لنبي. أذهب والله أسلم، فحتى متى؟» تنهد ابن العاص، وقال: «والله ما جئت إلا لأسلم».

واصل الداهيتان طريقهما، فلا صلح الحديبية بقادر على منعهما، ولا يجرؤ أحد من أهلهما على الاقتراب من أسدين.. أقبلا على طيبة ونخيلها تهتز كقلبيهما.. سارا خلال نظرات التعجب والتفاؤل.. شقا بحارًا من الهمسات والالتفاتات حتى وقفا أمام نبي الله ﷺ، فحمل الشوق خالدًا حين رأى محياه، فمد يده، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فغمر المكان فرح وانتشاء، وبعد أن أسلم خالد، وتهادى يعانق إخوته الجدد.. دنا عمرو بن العاص نحو النبي ﷺ مترددًا، ثم مد يده، وقال: «يا رسول الله، ابسط يمينك لأبايعك» بسط ﷺ يمينه ومدها لعمرو، وفجأة قبض عمرو يده، وسحبها وسط دهشة الصحابة، وتساءل النبي ﷺ الذي قال: «ما

لـك يا عمـرو؟» نظر عمرو للنبي ﷺ نظـرة مثقلة بماضيه الأسـود، وقال: أردت أن أشـترط. قال ﷺ: «تشـترط؟ بماذا؟» فقال عمرو: أن يغفر لي. فبشره ﷺ وقال: «أما علمت أن الإسـلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟».

بسـط عمرو يده، وصافح نبيه، وتشهد وسط ارتياح الصحابة، ووصف التغير الـذي حدث له وعينـاه تفيضان، فقال: «لقد رأيتني، وما أحد أشـد بغضًا لرسـول الله مني، ولا أحب إلي أن أكون قد اسـتمكنت منه، فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنـت من أهـل النار، فلما جعل الله الإسـلام فيَّ، ما كان أحد أحب إلي من رسـول الله ﷺ، ولا أجـلّ في عينـي منـه، وما كنت أطيـق أن أملأ عيني منه إجـلالًا له، ولو سـئلت أن أصفـه مـا أطقـت؛ لأني لم أكن أملأ عينـي منه، ولو مت عـلى تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة» مشـاعر لم تغب عن ابنه الفتى عبدالله الذي أسـلم، فـآلى على نفسـه أن يعـوض أيـام الجاهلية التـي أمضاها مـع الأصنام، فصـار يقوم بعبادات جعلت والده يشكوه لنبيه ﷺ.

عمرو بن العاص وابنه

شـعر الفتـى عبدالله بن عمـرو بن العاص بالمسـافة التـي قطعها فتيـان في مثل سـنه، كعبدالله بن عمر وأسـامة بن زيد وغيرهما، فأصابه حماس جارف للحاق بهم وتعويـض ما فاته. أجاد القـراءة والكتابة، وبدأ يكتب القـرآن ويحفظه، حتى حفظ كل الـذي نـزل. لم يكتفِ بحفظه.. صار يختم القرآن كل يوم وليلة.. شـفّت روحه، ورفرفـت في معـارج حتى نسي جسـده، فأصبح يصـوم الكثير من الأيـام، بل صار يصـوم كل الأيـام.. تلاشـت الدنيا وملذاتها في عـالم لا ينتمي لطبيعة البشر، فشـعر والـده بأنـه يسـلك نهجًا لم يسـلكه نبيـه وقدوته والمثـال ﷺ، فأحـب أن يخفف هذه الرهبانية، فلم يجد أنسـب من أن يزوجه. خطب له فتاة، وزوجها إياه، وبعد أسابيع

من الزفاف سألها: «**كيف وجدت بعلك؟**» فإذا ابنه في عالم والفتاة في عالم، حين قالت: «خير الرجال لم يفتش لنا كنفًا، ولم يعرف لنا فراشًا».

شعر عمرو بالإحراج، فتوجه لابنه الناحل، وأقبل عليه يلومه، ويقول: «أنكحتك امرأة من قريش ذات حسب، فعضلتها، وفعلت، وفعلت؟» لم تغير تلك الكلمات رهبانية الفتى، فتوجه عمرو حزينًا لنبيه ﷺ يشكو له حاله؟ أنصت ﷺ، ثم استدعى الفتى، ولما حضر ابتسم في وجهه، وقال: «**أتصوم النهار؟**» قال: نعم. قال: «**وتقوم الليل؟**» قال: نعم. قال ﷺ: «**لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني، اقرأ القرآن في كل شهر**». قال الفتى: اني أجدني أقوى من ذلك. قال: «**فاقرأه في كل عشرة أيام**». قال: إني أجدني أقوى من ذلك. قال: «**فاقرأه في كل ثلاث**». ثم قال: «**صم في كل شهر ثلاثة أيام**»، فقال الفتى العابد: إني أقوى من ذلك. فلم يزل ﷺ يرفعه حتى قال: «**صم يومًا وأفطر يومًا، فإنه أفضل الصيام، وهو صيام أخي داود**»، ثم أخبره ﷺ أن لكل عابد جديد حماسًا يسمى شرة، ثم يعقبه فتور، وهذا الفتور يرسو به على سنة، أو يهوي به إلى القاع. قال له: «**فمن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدي، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك**».

عاد الفتى لسنة نبيه واعتداله، لكن روحه رفرفت من جديد، حين اكتشف وجود عبادة سرية في مكان ما.. توصل للجنة. أجج ذلك المكان السري فضوله، وحلق به شوق للنعيم لا يقاوم، فغادر بيته بحثًا عنها.

عبدالله بن عمرو يعثر على العبادة السرية

كان الفتى مع نبيه في المسجد، وفجأة حدق الجميع بباب المسجد، حين قال النبي ﷺ: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**» شخصت الأبصار بالباب.. يتوقعون رجلًا من العباد السابقين، فإذ برجل من الأنصار لا يلفت الأنظار يدخل.. قد علق نعاله بيده اليسرى، ولحيته تلمع.. تتقاطر ماءً وسط نظرات الدهشة

والغبطـة، وفي اليوم الثاني نظر ﷺ إلى باب المسـجد، فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فدخل الرجل نفسه، وفي اليوم الثالث حدث الأمر نفسه.

طار قلب الفتى، وهو يرى رجلًا ليس من العباد، أو العلماء.. يبشر بالجنة ثلاث مرات متتاليات، فالفتى ما ختم القرآن كل يوم، ولا صام كل يوم إلا شـوقًا للجنة. أيقـن عبدالله بـن عمرو بن العاص أن لهذا الأنصاري عبـادة سرية يخفيها ببيته بعيدًا عن أعين الناس، ولن يقر له قرار حتى يكتشفها. أقيمت الصلاة، فنهض الفتى بعد أن أعـد خطة عاجلة، وبعد الصلاة خرج الرجل، فانطلق عبدالله خلفه حتى أوقفه، ولما أوقفه سـلم عليه، ثم افتعل أمرًا لم يحدث، وقال: «إني لاحيت أبي، فأقسـمت ألا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت؟».

رحب الكرم الأنصاري به، ولما خيم الليل طرق الفتى الباب، واسـتأذن، فأذن لـه، فدخـل عبـدالله.. قدم الرجل فراشًـا للفتى، ثم أوى لفراشـه، أمـا الفتى فشرع يصلي، ويقرأ كعادته وسط غطيط صاحب المنزل، الذي كلما انتبه من نومه، أو تقلب على فراشه ذكر الله ﷻ وكبر.

ارتفع صوت بلال معلنًا نهاية الليلة الأولى، فخرجا لصلاة الفجر.. صام الفتى كعادتـه، ولم يصـم الرجل، وتكرر المشـهد في اليـوم الثاني والثالث. لم يَـرَ عبدالله في المبشر بالجنة قيامًا أو صيامًا لافتًا، لكنه لم يسـمعه يقول في حديثه إلا خيرًا.. لا غيبة ولا نميمة ولا انشـغال بعيـوب فلان وأخطاء فلان.. تحير الفتـى، وكاد يحتقر عمل الرجل، ثم شـكره على ضيافته، واعترف له، فقال: «يا عبدالله، إني لم يكن بيني وبين أبي غضـب ولا هجـر، ولكن سـمعت رسـول الله ﷺ يقول لك ثلاث مـرار: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرَكَ تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله؟».

امتلأ الرجل بالامتنان لله.. لم يدَّعِ.. لم يتصنع.. لم يكذب.. اكتفى بقوله: «ما هو إلا ما رأيت» مشى الفتى خطوات نحو الباب، وفجأة أوقفته كلمتان بحجم الدنيا.. ناداه الرجل، فقال: «ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين

غشًّا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه» أطرق الفتى.. سكت برهة.. سافرت به الكلمات، وأعادته، فقال «هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»، ثم خرج يتأمل جمال ووزن نقاء النفس من آفات الحقد والحسد والغش.

تجار بني محارب

قبل عشرة أعوام حط مجموعة من تجار مدينة الربذة من بني محارب في سوق ذي المجاز. وكان معهم طفل يدعى طارق بن عبدالله المحاربي، ولما نزلوا أعطاه أهله بياعة وبضاعة ليبيعها. جلس الطفل خلف بضاعته يترقب الزبائن، وفجأة مر به رجل كالقمر.. عليه حلة حمراء ينادي الناس عارضًا عليهم بضاعة ليست من الأرض.. ينادي الجميع: «يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا».

لم يعرفه الطفل، وقبل أن يسأل عنه رأى رجلًا أبيض يلاحقه.. يرميه بالحجارة حتى لمعت الدماء في عرقوبيه وكعبيه، ويصيح خلفه: «يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا؛ فإنه كذاب» التفت طارق إلى من حوله، وسألهم، فقال: «من هذا؟» فقالوا له: «غلام من بني عبدالمطلب»، فقال: «فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَتْبَعُهُ يَرْمِيهِ بِالْحِجَارَةِ؟» فقيل له: «هَـذَا عَبْدُالْعُزَّى أَبُولَهَبٍ»، وتمر الأيام، ويسافر أبولهب للجحيم، ويشيد محمد ﷺ دولة للإسلام، ويكبر طارق، ويسافر ضمن تجار قبيلته لعاصمتها لشراء التمر، ولما اقتربوا منها خيموا، وفي أثناء نزولهم، وفي يوم خميس، وبينما كانوا جلوسًا يتحدثون تهادى نحوهم رجل وسيم عليه ثوبان.. سلم الرجل، ثم سألهم: «من أين القوم؟ فقالوا: من الربذة»، فجال ببصره على إبلهم، فلمح جملًا أحمر، فأعجبه، فقال لهم: «تبيعوني هذا الجمل؟» فقالوا: «نعم. فقال: بكم؟» فقالوا: «بكذا وكذا صاعًا من تمر. فقال: أخذته»، ثم تقدم نحو الجمل، وأخذ بخطامه، وانطلق به حتى توارى في حيطان المدينة، واختفى بين نخيلها.

التفت القوم نحو بعضهم مدهوشين من تصرفهم، وقالوا: «تعرفون الرجل؟» فلم يعرفه أحد، فلاموا بعضهم، وقالوا: «تعطون جملكم من لا تعرفون!» فنطقت

امـرأة ضمن الوفد قد أُخذت بجماله، فقالـت: «لا تلاوموا، فلقد رأينا رجلًا لا يغدر بكم، ما رأيت شيئًا أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه» غاب ذلك القمر، وغابت شمس الخميس، فلما كان العشي أقبل مبعوث الدولة الإسـلامية نحو هؤلاء التجار الوثنيين ومعـه كمية كبيرة مـن التمر، فقال: «السـلام عليكم ورحمة الله وبركاتـه، أأنتم الذين جئتم من الربذة؟ فقالوا: نعم. قال: أنا رسـول رسـول الله ﷺ إليكم، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا»... لم تنتهِ القصة.

أجمل قادة الدول وجهًا ووفاءً

في بدايـات ليلـة الخميـس تلـك وعـلى مشـارف طيبة.. أقبـل مبعـوث الدولة الإسـلامية نحو التجار الوثنيين ومعه كمية كبيرة من التمر، فقال: «السـلام عليكم ورحمـة الله وبركاتـه، أأنتـم الذيـن جئتم مـن الربذة؟ فقالـوا: نعم. قال: أنا رسـول رسول الله إليكم، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا».

أدرك الوفد أن الرجل شبيه القمر، الذي اشترى منهم الجمل في النهار كان قائد الدولـة الإسـلامية ﷺ، وأدركـوا أن ثقتهم في محلها حين أعطوه جملهم، وأن فراسـة المرأة لم تخب. أكل التجار من تمر طيبة الطيب حتى شـبعوا، واكتالوا حتى اسـتوفوا ديونهم ورضوا، وأمضوا ليلتهم وسـمروا، ثم خلدوا لفرشهم، ولما أشرقت شمس الصبـح عليهم نهضوا، وحين ارتفعت ركبوا رواحلهم، ودخلوا المدينة.. تهادوا بين نخيلهـا وطرقاتهـا.. أخذهم مشـهد غريـب.. آلاف الخطوات تتجه كالشـوق نحو مركز المدينة.. عشرات الرجال والنسـاء والأطفـال يتداعون، وكأنهم على موعد في مركـز العاصمـة. لاحقتهم قافلة تجار الربذة، وحين وصلـوا وجدوا القمر في رابعة النهـار.. وجـدوا القائد الوسـيم والنبي الأمـين ﷺ يخطب الجمعـة كعادته.. خطبة قصيرة يستوعبها السامع.. لا يُنسي آخرها أولها.. مركزة وسهلة. وقف الفتى طارق مـع قافلته.. ينصت لكلمات تبني المجتمع لبنة لبنة.. سـمعه طـارق المحاربي يقول:

«**يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك**» وفجأة نادى رجل من الأنصار نبيه، وهو أمر جائز؛ لأنه حديث مع الإمام.. بعكس الحديث مع غير الإمام الذي حرمه ﷺ حتى قال: «**إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت، والإمام يخطب، فقد لغوت**» بل شدد، فقال: «**من مس الحصى فقد لغا**».

قال الأنصاري: «يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين قتلوا فلانًا في الجاهلية، فخذ لنا بثأرنا»، لكن النبي ﷺ أبطل عادة الثأر الخطيرة، فالمجرم وحده يتحمل جريمته؛ لذا قال طارق: رفع ﷺ يديه حتى رأيت بياض إبطيه، فقال: «**لا تجني أمّ على ولد، لا تجني أمّ على ولد**».

تأثرت القافلة بالقيادة النبوية العادلة والحكيمة، واعتنق الكثير منهم الإسلام فيما بعد، وجاء راكب آخر، فلم يتوقف حتى أدخل جمله داخل المسجد.

جمل داخل المسجد

من أرض هوازن.. من مرابع الطفولة وخيمات حليمة الحنون.. يقطع مسافر مئات الأميال نحو طيبة.. مسافر ذو جديلتين يدعى ضمام بن ثعلبة. دخل المدينة، فسأل عن محمد ﷺ، فقد سمع عن دينه فأعجبه، لكنه لم يرَه من قبل، فقيل له: إنه في المسجد، ودلوه على طريقه، فانساب خلال الطرقات حتى أقبل على المسجد.. لم يتوقف.. واصل جمله المسير حتى دخل المسجد، وبكل بساطة أوقفه داخل المسجد، ثم أناخه فيه، ونزل عنه وسط دهشة المسلمين والمسلمات.. ربط جمله، وقام يتلفت علّه يرى عرشًا، أو حرسًا أو حتى حليًا وأبهة يتميز بها قائد الدولة التي أصبحت حديث العالم، لم يجده يتميز عن رعيته بشيء.

لأول مرة يعجز إنسان عن تمييز قائد الدولة عن شعبه.. ما هذا؟ أهكذا يعيش من ملأ الدنيا وشغل الناس؟ هتف ضمام داخل المسجد من حيرته، وقال: «أيكم محمد؟»، فردّ أحد الصحابة قائلًا: «هذا الرجل الأبيض المتكئ».

نظـر ضمام إليه، فملك قلبه بتواضعـه، فتجرأ، فقال: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: «**قد أجبتك**». فقال: إني سائلك، فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك؟ فقال: «**سل عما بدا لك**».

بدأ ضمام بأسـئلته التـي قطع من أجلها مئـات الأميال، فقال: «أسـألك بربك ورب من قبلك: آلله أرسـلك إلى الناس كلهم؟ فقال ﷺ: **اللهم، نعم**. قال: أنشـدك بـالله، آلله أمـرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلـة؟ قال ﷺ: **اللهم، نعم**. قال: أنشـدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: **اللهم، نعم**. قال: أنشـدك بـالله، آلله أمرك أن تأخـذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسـمها عـلى فقرائنا؟ فقـال ﷺ: **اللهم، نعم**. فقـال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسـول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سـعد بن بكر، أشـهد أن لا إله إلا الله، وأشـهد أن محمدًا رسـول الله، وسـأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد، ولا أنقص».

انتهـت الرحلـة، فانعطـف الرجل نحو بعـيره وعينـا القائـد ﷺ تتأملانه وهو يغـادر، فقـال لصحابته: «**إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة**» مد ذو الجديلتين يديه نحـو رباط الجمـل، فحلّ عقاله، وركبـه، وزجره فنهض، ثم خرج مـن الباب نحو دياره، فلما حط بها حط كالمطر.. قلب التوقعات وغيّر البشر.

ضمام خير وافد

حـطّ ضمام في دياره محملًا بأربعة أسـطر.. قطع من أجلها أربع مئة ميل وأكثر. كانت أسئلته القليلة توحي بأنه رجل سيكتفي من الإسلام بأركانه، وسيكتفي بتتبع الكلأ خلف إبله وشـائه.. كانت أسـئلته توحي بأنه رجل لا يحمل هم الدعوة، لكن وصوله قلب التوقعات. أشرق كشـمس جديدة على عشـيرته التي جاء منها، وحين لمحـوه نهضـوا نحوه، والتفـوا حوله، وقبـل أن يعانقهم أو يصافحهـم، ويحكي لهم

حكايات السفر.. قبل ذلك كله.. صعقهم.. صدمهم.. أطار عقولهم، وهو يصرخ: «بئست اللات والعزى».

انتفض قومه، واقشعرت جلودهم من كلماته.. بدؤوا يعظونه.. ينصحونه خوفًا عليه من بطش الآلهة، ويصرخون: «مه يا ضمام، اتقِّ البرص، اتقِّ الجنون»، فقال هذا الأعرابي الذي تخرج توًّا من مدرسة محمد ﷺ.. هتف بهم ثقة بالواحد الأحد.. ساخرًا من خرافات الجاهلية التي يختلقونها، ويصدقونها، وينحتونها، ثم يعبدونها.. هتف بقومه: «ويلكم، إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولًا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به، وما نهاكم عنه» ظل ضمام يقنع قومه بتفاهة الأصنام والأوثان، ودجل تلك العجوز الساحرة التي تسمى العزى حتى قال أحد الصحابة: «والله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا» وقال أيضًا: «فما سمعنا بوافد قدم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة».. ضمام كان تلميذ محمد ﷺ الذي يقول لصحابته: «بلغوا عني ولو آية» فآية قادرة على أن تغير ملايين العقول المفتوحة، بينما يقفل العناد والحقد والحسد عقولًا وعيونًا ترى المعجزات، وتسمع الوحي طريًّا من فمه ﷺ؛ لذا كان النبي يكتفي بالتدرج، بل أحيانًا بالقليل من العبادات إذا رأى عقلًا واعدًا.

أتاه رجل ذات يوم ليسلم، ولكن بشرط غريب هو أن يصلي صلاتين فقط، فقبل منه، بل جاءه رجل، فقال النبي له: «**أَسْلِمْ**». قَالَ: أَجِدُنِي كَارِهًا. قَالَ: «**أَسْلِمْ، وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا**» لم يقل غير مقتنع، بل كان كارهًا، والكراهية تحجب العقل، لكن الإسلام كفيل بإذابة الكراهية.

خبر عاجل من الحبشة

خبر حزين لم ينقل على متن سفينة أو ظهر بعير.. خبر عاجل وصل طيبة لحظة حدوثه، على الرغم من أن بينه وبين طيبة آلاف الأميال، وعلى الرغم من أنه يحدث في

قارة أخرى.. خرج النبي ﷺ لشعبه ينعى أخاه.. ينعى الملك الحبشي العادل.. أصحمة الذي لا يكف عن تحريك القلوب والمشاعر، لتخيم على المدينة سحابات حزن ووجوم، فما الذي نحته النجاشي في قلوب المؤمنين، وأي حزن تركه في نفوس جعفر ورفاقه؟!

يقول أبوهريرة: «نعى لنا رسول الله صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه»، ثم قال لهم: «**قوموا فصلوا عليه، صلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم**»، قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «**أصحمة النجاشي**».. نهض الصحابة، لكن ليس للمسجد، بل أخذهم ﷺ للمصلى والعيون تفيض، والمصلى عادة يكون في الصحراء، وليس له جدران، وبعد أن صفّهم عدة صفوف صلى بهم صلاة لا ركوع فيها ولا سجود.. كبر أربع تكبيرات، وقال «**استغفروا لأخيكم**»، فاستغرب البعض لهذا الاهتمام والاستغفار لرجل لم يَرَ النبي ولم يَرَه النبي ﷺ، ولم يهاجر إليه، ولم يبايعه، بل ظنوه مازال علجًا نصرانيًّا، فقالوا: «يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة؟» فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩٩].

علم أولئك المتسائلون مكانة النجاشي عند ربه، وشهادته له التي أنزلها من فوق سبع سماوات.. رحل الحبشي الكريم الذي حمى المضطهدين من قمع الطغاة.. الملك الذي لهج شوقًا للنبي ﷺ وهو يرحب بجعفر ورفاقه، فقال: «مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أنه رسول الله، والذي بشر به عيسى بن مريم لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه، امكثوا في أرضي ما شئتم».

ما أجمل هذا الملك، وما أفسح صدره حين ضاقت صدور الأهل والأرحام!، وما أجمل عدله حين تجهم ذوو القربى، وضيقوا الأوطان!.. ودّع الصحابة أخاهم بالدعاء والاستغفار له، وتولى بعده نجاشي آخر على الحبشة، فتمنى ﷺ أن يكون مثل سلفه، فأرسل له رسالة يدعوه فيها للتوحيد والإسلام، لكن قبل ذلك اقترح عليه أحد الصحابة شيئًا تعارف عليه الملوك.

مكاتبة الملوك

كان القائد ﷺ يريد إيصال رسالته لكل إنسان مهما كانت منزلته، فكما كان يذوب لطفًا في طرقات المدينة مع امرأة في عقلها شيء، ويقول لها: «**يا أم فلان، انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك**».. ها هو يتواصل مع أعظم زعماء القارات الثلاث؛ ليدعوهم للإسلام وهم كسرى الفرس، وقيصر الروم الشرقيين، والنجاشي الجديد، بل أرسل لمن هم أقل شأنًا، كالمقوقس ملك القبط في الإسكندرية.

لم يهددهم ﷺ.. لم يستفزهم، بل بشرهم بالتوحيد والأمن والسلام، ولم يخوفهم منه، بل خوفهم بخالقهم ومعطيهم الملك، الذي سيسألهم عن كل مواطن حالوا بينه وبين التوحيد والعدل، ومن المتوقع أن تختلف ردود الفعل بحسب عقلية كل ملك ومستشاريه، فهم بشر.. فيهم العادل والظالم، والعاقل والأحمق الذي لن يستسيغ أن يرى عربيًّا كان يرعى الغنم في الشعاب والأودية.. يقدم له درسًا في العقيدة، أو يدعوه لاتباعه، ولا سيما والعرب أمة أمية.. شفهية الثقافة.. لم تبنِ مدرسة، ولم تؤلف كتابًا، حتى إن أقوى القبائل العربية، وأكثرها تحضرًا: الغساسنة والمناذرة كانوا مجرد تابعين للفرس والروم، ومهمتهم تقديم فروض الطاعة والعمالة. الأمر يبدو صعبًا، لكن محمدًا لم يخترع الإسلام.. محمد مجرد رسول، وما على الرسول إلا البلاغ؛ لذا استشار أصحابه، فأخبره بعضهم بأن الملوك لا يقبلون كتابًا إلا بخاتم، فأمر ﷺ أحد الصاغة أن يصمم له خاتمًا من فضة، وأن ينقش فيه كلمة (محمد رسول الله) نفذ المصمم الخاتم، فنقشه ثلاثة أسطر: محمد .. رسول.. الله..

(محمد) سطر، و(رسول) سطر، و(الله) سطر، ثم سلمه لقائده الذي لبسه بيمينه. ثم استدعى أحد كتابه وأملى عليه رسالة لهرقل قائد الروم، ونصّها:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِالله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ». وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٦٤]، وبعد أن انتهى سلمه لقائده، الذي غمس خاتمه بالحبر، ثم ختم الرسالة، وسلمها لصاحبه دحية الكلبي.

هرقل خائف

أملى القائد ﷺ رسالة أخرى إلى كسرى ملك الفرس.. ربما كتبها سلمان الفارسي، وهي مماثلة لرسالته لقيصر، ثم ختمها بخاتمه، وسلمها لجنديه عبدالله بن حذافة السهمي. لم تكن مهمة عبدالله تسليمها لكسرى، بل إيصالها لمن يوصلها له؛ لذا انطلق شرقًا نحو المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، التي تسمى آنذاك البحرين، وعند وصوله إلى الأحساء، أو هجر.. سلم الرسالة لأميرها، وطلب منه أن يوصلها لكسرى، فانطلق حامل الرسالة شمالًا نحو مدينة المدائن عاصمة الفرس، وعند وصوله توجه نحو قصر الملك، ونزل عن دابته وتهيأ لمقابلة كسرى، الذي لا يزال يعاني الهزيمة القاسية التي تلقاها من الروم.

طلب أمير البحرين الإذن بالدخول، فأُذن له، فدخل منبهرًا بأروقة القصر وفخامته، ومشى على السجاد الفارسي الفاخر.. محاطًا بعشرات الحرس المدججين كتماثيل الزينة، وبعد أن أذن للمبعوث البحريني بالكلام.. تهادى نحو العرش الذي يقبع فوقه كسرى، وسلمه الرسالة.

فتح كسرى الرسالة، ليصدم باسم محمد قبل اسمه، ثم تفاقم غضبه، حين لم يجد في الرسالة مبالغة في المدح والتبجيل، ولا تذللًا أو تقديمًا لأي فرض من فروض

الـولاء، ولا حتى تسـولًا كما اعتـاد كسرى أن يراه مـن الزعامات العربيـة الجاهلية وشـعرائها. وجـد احترامًا مقتصرًا على كلمة عظيم، ومُرسِـلًا يدعـوه لعبادة خالقه الواحـد الأحـد، وترك هـذا الحطب الذي يحرقـه ليصنع منه لهبًا يعبـده. جن جنون كسرى، وكأن الرسالة هزيمة أخرى.. فقد أعصابه ووقاره، فمزق الكتاب، وخرقه، واستشاط الغرور في رأسه يتساءل: كيف لعربي أن يجرؤ على مخاطبتي بهذه الطريقة؟ لم يكتـب ردًّا، ويبـدو من حماقته أنه أصدر أمرًا للعـرب بإعداد جيش لاجتثاث هذه الدولة الإسـلامية الجديدة وقتل قائدها.. أمر كان يخشاه عمر حتى قال: «كُنَّا تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّـانَ تُنْعِـلُ النِّعَالَ لِغَزْوِنَـا، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَخْوَفَ عِنْدَنَـا أَنْ يَغْزُوَنَا مِنْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ» لدرجة أن باب عمر طرق ذات يوم طرقًا شديدًا، فخرج، فرأى الفزع في وجه الطارق، فسـأله مباشرة: «أجاءت غسـان؟» لكن غسـان لم تأتِ.. ربما لحالة التناحر والتمزق التي أصيبت بها قيادات الفرس، بعد تمزيق كتاب رسـول الله ﷺ.. اضطربت فارس، وأصبح مستقبلها غامضًا ومخيفًا.

وصول رسالة النبي ﷺ لهرقل

أرسـل القائد ﷺ رسـالة إلى المقوقس يدعوه فيها للتوحيد، والمقوقس هو ملك الأقبـاط الذين اعتنق الكثير منهم المسيحية بعد الوثنية، لكـن اعتناقهم لها لم يخفف معاناتهـم مـع المحتـل الروماني. ليـس لأن المحتـل الروماني وثني، بل هو مسيحي مثلهـم، لكن الروم كانوا ينظـرون للأقباط المصريين نظرة دونية عنصرية على الرغم من أخوة الدين بينهم.. اضطهدوهم، وأذلوهم، وأثقلوهم بالضرائب.

وصلت الرسـالة للمقوقس، فكان أكثر تهذيبًا من كسرى المجوسي الأحمق.. لم يعتنق الإسـلام، لكنه رد برسـالة لطيفة، وأهدى بغلة وجاريتين للنبي ﷺ: إحداهما اسـمها (ماريـة القبطيـة) وصلـت ماريـة، فدعاها النبي ﷺ للإسـلام، فأسـلمت، وتسراها وجعل لها بيتًا، وفي أحد الأيام شاهد أحد الصحابة قبطيًّا من قرابتها يدخل

بيتها.. تكرر هذا الحدث في غيابه ﷺ حتى علم به، فدخل الشك إلى نفسه، وهو بشر كغيره، فاستدعى عليًّا، ولما حضر قال له: «**اذهب، فاضرب عنقه**».

انطلق علي يحمل سيفه.. يبحث عن القبطي حتى أخبروه عن مكان وجوده.. دخل علي المكان، وكان الجو حارًّا، فإذا القبطي قد غمس جسده في بئر يتبرد بها، فأطل عليه أبو الحسن كالموت، وطلب منه الخروج، ومد له يده ليعينه.

أمسك القبطي بيد علي، فسحبه وهو شبه عارٍ، فتأمل علي جسده، فإذا هو ليس للنساء، فكف عنه، وتركه، وعاد لقائده ليطمئنه، ويقول: «يا رسول الله، إنه لمجبوب» أما مارية فحملت من النبي، فكانت أول امرأة تحمل منه ﷺ بعد خديجة الحبيبة.. مارية كانت رسالة تكشف حجم الحب والخوف في قلوب الأقباط المصريين، ومدى معاناتهم من حكم هرقل الروم النصراني.. كان هرقل منتشيًا بنصره على الفرس، ومن شدة فرحه بالنصر مشى على قدميه من مدينة حمص إلى إيلياء.. شكرًا لما أبلاه الله، وإيلياء هي بيت المقدس، وفي بيت المقدس التقى ثلاثة مسافرين: أحدهم هو عظيم بصرى، وسبب قدومه هو أن القائد ﷺ بعث صاحبه دحية الكلبي برسالة إلى عظيم بصرى، وطلب منه أن يسلمها لإمبراطور الروم، فرحب به وبرسالته، وانطلق على الفور تجاه القدس لمقابلة هرقل.. في أثناء ذلك كان أبو سفيان يقود قافلة خائفة نحو الشام.. سالكًا طريقًا ملتويًا خوفًا من أبي بصير ورفاقه.. وصلت القافلة القدس، ونزل المسافرون في أحد أحيائها، وبعد أيام فوجئ أبو سفيان بجنود الروم يستدعونه.

رسالة تهز قلب هرقل

وصل عظيم بصرى القدس، وتوجه نحو مقر إقامة الإمبراطور، وطلب الإذن بمقابلته، فأذن له.. تهادى نحو العرش بإجلال، وسلمه رسالة النبي القائد ﷺ، فأخذها هرقل وفتحها وقرأها بينه وبين نفسه، فهزت قلبه وزلزلته، ثم طواها، ونظر لقادته وقساوسته ووزرائه، وهو في غاية الخوف، لكنه كان أعقل من كسرى المجوسي الأحمق، فقد نادى حاجبه، وقال له: «التمسوا لي ها هنا أحدًا من قومه؛ لأسألهم».

خرج الجنود يبحثون في الشوارع والأسواق وخانات المسافرين، عن عرب من أهل مكة بالتحديد.. ظلوا يبحثون حتى عثروا على مجموعة من المسافرين القرشيين من بينهم أبوسفيان، وبعد أخذ وردّ طلبوا منهم المثول بين يدي هرقل.. تهندم زعيم قريش وحاشيته، وانطلقوا تحفّهم الجند حتى وصلوا محل إقامة الإمبراطور، ثم أُدخلوا، وأجلسوا في مكان أعد للانتظار.. جلس زعيم قريش ينظر فيما حوله مذهولًا، فقد كان يسافر ويسافر، ولا أحد يسأل عنه، وزاد ذهوله حين علم أن سبب استدعائه هو رسالة وصلت من رجل عربي.

حضر هرقل، فقال: «هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقالوا: نعم» فتحرك الحاجب نحو الرهط العربي، وأمرهم بالدخول.. نهض أبوسفيان ورفاقه يمشون بإجلال وتواضع وتبجيل لهذا الإمبراطور، الذي يحلم كل عربي وثني بالمثول بين يديه، والتشرف بالسلام عليه.. مشوا حتى أُوقفوا أمام عرشه، ثم سمح لهم بالجلوس بين يديه بمسافة، وإذ بسؤال يخترق قلوب الوفد الوثني: «أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبوسفيان: أنا» فطلبوا منه أن يجلس أمام الإمبراطور مباشرة، وأن يجلس رفاقه خلفه، فامتثلوا بأدب يتأملون مشهدًا مهيبًا، ومراسيم صارمة، فهم أمام أعظم إمبراطور في الدنيا، وحوله البطارقة والقساوسة بصلبانهم، والوزراء وكبار رجال الدولة وقادة الجيوش برتبهم.. كل هذه الأبهة تنعقد من أجل رجل كذبوه، وافتروا عليه، واضطهدوه، وحاربوه، وحاصروه، وألّبوا عليه أكثر من عشرين عامًا.. سكت الجميع وهم يرون هرقل في حالة خوف على غير عادته، فصاح الإمبراطور طالبًا المترجم، فحضر المترجم، وقدم طقوس الولاء، فعاجله هرقل بأسئلة، وهو يحدق بحزم في الوثنيين الذين يجلسون خلف أبي سفيان.

هرقل يسأل وأبوسفيان يجيب

بحزم.. نبه الإمبراطور هرقل حاشية أبي سفيان، أنه سيسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وأن عليهم الإنصات وإخباره عن أي معلومة يكذب فيها أبوسفيان على النبي ﷺ قائلًا: «إن كذبني فكذبوه».

تأمل أبوسفيان تاريخًا سيروى، فصان لسانه عن الكذب، وقال في نفسه: «وايم الله، لولا أن يؤثروا علي الكذب لكذبت»، ثم أمطره هرقل بأسئلة كالموت، فقال: «كيف حسبه فيكم؟ فقال أبوسفيان: هو فينا ذو حسب. قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قال: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبوسفيان: لا. فقال: أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. قال: يزيدون أو ينقصون؟ فقال: يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبوسفيان: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال أبوسفيان: تكون الحرب بيننا وبينه سجالًا، يصيب منا ونصيب منه. قال: فهل يغدر؟ قال: لا، ونحن منه في هذه المدة لا ندري ما هو صانع فيها؟ قال هرقل: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ فقال أبوسفيان: لا».

سكت الجميع، ونطق هرقل، ليخبر الوثنيين والنصارى والدنيا مَنْ هو محمد ﷺ، فقال: «زعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومهم. وسألتك هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا، ولو كان من آبائه ملك، قلت رجل يطلب ملك آبائه، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب، فيكذب على الله، وسألتك: هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل قاتلتموه؟ فزعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالًا، ينال منكم، وتنالون

منه، وكذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك هل قال أحد هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت لو كان قال هذا القول أحد قبله، قلت رجل ائتم بقول قيل قبله» ثم حدق هرقل في الوثنيين، فسألهم سؤالًا عن النبي ﷺ حوَّل القاعة إلى عاصفة من الفوضى.

اسم محمد ﷺ يعصف بقاعة الإمبراطور

أشعر هرقل الوثنيين الجالسين أمامه بسفالة تعاملهم مع النبي ﷺ، ثم صعقهم قائلًا: «بِمَ يأمركم؟ فقال أبوسفيان: يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف» فأدلى الإمبراطور بشهادته قائلًا: «إن يكُ ما تقول فيه حقًا، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكُ أظنه منكم» ثم أطلق أشواقه.. كلمات من أعماقه، فقال: «ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي» بدأت الهمهمات ترتفع في القاعة، فالتفت الإمبراطور لوزيره، وطلب إحضار الرسالة المكتوبة على رق متواضع، التي زلزلت أقوى دولة في العالم، وأخافت إمبراطورها، وكأنه لم ينتصر توًّا على إمبراطورية الفرس، وكيف لا تذهله وهو يوقن بأن دين محمد سيحكم أرض بيت المقدس.

أُحضرت الرسالة، وسلمت لهرقل، فأخذها بإجلال، وطلب من المترجم أن يقرأها، فبدأ يقرأ، ويترجم على مسامع البابا والقساوسة والوثنيين وكبار القوم:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ»، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

تلفت البابا والقساوسة، وكبار القادة والوزراء والحاشية، وعادت الهمهمات، وبدأت ترتفع حتى تحولت القاعة إلى ضجيج ولغط، وهرقل يحدق في الزلزال حوله، فشعر بأن وباء العناد انتقل من هؤلاء الوثنيين الجاثمين أمامه، فأصاب حاشيته ورجاله، فنادى حاجبه، وطلب إخراج أبوسفيان ورفاقه.. نهض المشركون يجرجرون الذل، فالتفت إليهم أبوسفيان، وزادهم ذلًّا، حين قال: «لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر» ثم تحدث عن شعوره بعد تلك الجلسة، فقال: «والله مازلت ذليلًا مستيقنًا بأن أمره سيظهر».

أعترف أبوسفيان بما كان يرفض الاعتراف به منذ سنين؛ لأنه سمع ذلك من البعيد القوي، فالقريب عادة لا يقنع بإبداع قريبه، إلا بعد أن يرى اعترافات الأبعد والأقوى تنهال على إبداعه.. العناد عقد نفسية تدمر صاحبها إن لم يتدارك نفسه.

المعاندون والفاسدون والعادلون

لم ينتفع هرقل بالرسالة، أما النبي ﷺ فكان يتطلع إلى قلوب خصبة، وأرواح شفافة يعتقلها هرقل وأمثاله.. لم يكن في رسائل القائد ﷺ تهديد بقوة عسكرية، أو زحف أحمر.. كانت رسائل موجهة للضمير.. للعقل، فليس هناك من يستطيع تهديد هرقل أو كسرى، وقد أدرك هرقل أنه إن لم يستقبل الحق اليوم، فسوف يستقبل له غدًا، والإسلام والزمن كفيلان بإقناع الحاسد أو المعاند أو تجاوزه مهما بلغ منصبه؛ لذا وبعد وصول تلك الردود للنبي ﷺ قال لأصحابه: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله**»؛ لذا انشغل ﷺ بدعوته ودولته، وبعد مرور عام على فتح خيبر أرسل ﷺ الشاب عبدالله بن رواحة لتسلّم نصيب الدولة الإسلامية من المحصول السنوي من زراعة أرض خيبر.. بحسب الاتفاق المبرم مع اليهود، وكان عبدالله يقوم بذلك عن طريق الخرص؛ نظرًا لاستحالة الوزن والعد، والخرص هو تقدير الثمر، وهو على رؤوس النخل.

وصل عبدالله، وتم استقباله من قبل المزارعين، فجال بين النخيل والحقول، ولما رأى اليهود دقته ونزاهته تحركت طباع الإفساد المالي التي يجيدون حقن الأمم بها، فعرضوا عليه رشوة مقابل أن يأخذ أقل من نصف المتفق عليه.. عرضوا عليه رشوة مقابل أن يخون وطنه، فتغير وجهه غضبًا لله ورسوله، وقال: «يا أعداء الله، أتطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي»، ثم قال كلمة ترسم أهم ميزة في مسؤولي الدولة الإسلامية، وهي إبعاد العاطفة والميول الشخصي عند أداء الوظيفة، فقال: «ولأنتم أبغض إلي من عدتكم من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه ﷺ على ألا أعدل عليكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض».

بهذا المستوى من عدل المسؤولين قويت دولة الإسلام، وبغيره تنهار مهما تديّن أصحابها، وصاموا، وقاموا، وادعوا أنهم حماة الإسلام.. العدل هو تلك الواحة الجميلة التي أرسل ﷺ أصحابه المعذبين ذات يوم إليها.. أمرهم بالهجرة لقائد غير مسلم، ولبلد غير إسلامي.. للحبشة، لا لشيء إلا أن ملكها عادل، أما اليهود فعادوا يخططون لجريمة جديدة ضد رأس الدولة، فبعد فشل المحاولات السابقة لجؤوا لشر أسود: لجؤوا للسحر.

اليهود يسحرون النبي ﷺ

جرب اليهود الجدل مع النبي ﷺ فهزمهم بالحق.. بدؤوا سلسلة من الخيانات والمؤامرات، ومحاولات الاغتيال بالأسلحة والسم، فقادتهم إلى هزائم منكرة، وها هم اليوم يجربون سلاحًا أسود مختلفًا هو (السحر)، لكن كيف؟

كان للنبي القائد ﷺ مجموعة من الخدم، ليسوا لبيته، فهو لم يكن مشغولًا ببطنه لتلاحقه فرق الطهاة، ولم يسكن القصور، فيحف به الحرس والبوابون.. كان في غرفه المتواضعة يعيش عيشة الفقراء.. (كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله). (كان بشرًا

من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شـاته، ويخدم نفســه)، ويخدم زوجاته، ويخيط، ويخرز. أما هؤلاء الخدم، فموظفو دولة؛ لأنه ليس باستطاعة القائد أن يكون حاضرًا في كل الأماكن.. خاصة عند استدعاء خصوم، أو إعلان حرب، أو ملاحقة مطلوب؛ لذا كان ﷺ يوظف خدمًا غير دائمين، وأحيانًا يكون هؤلاء الموظفون من غير المسلمين كاليهـود، فقد وظف ﷺ ذلـك الغلام اليهودي، الذي مـرض، فذهب لزيارته وهو يحتـضر، فأسـلم على يـده قبل أن يفـارق الحياة، ووظـف يهوديًا آخر يقـال: لبيد بن الأعصـم، لكن لبيدًا لم يسـلم، بـل قابل حدب النبي عليه وعطفـه بارتكاب جريمة خسيسة هي: السحر.

استخدم اليهود السحر لتسخير قائد الدولة لليهود، ففي أحد أبياته ﷺ مد لبيد يده نحو مشـطه ﷺ، فوجد به مشـاطة، وهو الشـعر العالق به، فأخذ المشـط وأخفاه في ثيابه، ثم اتجه به إلى مكان يمارس فيه السـحر، أو يلتقي به مع سـاحر، ليتم وضع المشـط والشـعر العالق به داخل وعاء للقاح النخل يسمونه (جف طلعة)، ثم نُفثت عليـه تعاويذ شـيطانية، ثـم أخذ لبيد الجف، وخـرج يبحث عن مـكان غائر كحقد اليهود.. مكان لا يمكن توقعه، ولا الوصول إليه، فلم يجد أنسب من الآبار.

نـزل في بئـر يقال لها: (بئـر ذروان)، ثم أخرج الجف، ودسّـه في تجويف صخرة يسـمونها (رعـوف)، وهي الصخرة التي توضع في أسـفل البئـر، وفجأة بدأ مفعول السـحر يسري في جسد النبي ﷺ.. في جسـده فقط، أما الوحي، فمعصوم ولا ينطق عن الهوى.. كان يخيل إليه أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن، ويخيل له أنه أكل أو فعل شيئًا وهو لم يفعله. تحير ﷺ ما الذي يحدث له، فدعا ربه، ودعا واستفتاه وناشده سبحانه، وفي أحد الأيام، وبينما كان ﷺ نائمًا.. رأى في المنام رجلين.. وقف أحدهما عند رأسه، والآخـر عنـد قدميه، فقـال الذي عند رأسـه: «ما بال الرجل؟ قـال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم قال: وفيمَ؟» فأخبره بالمكان والنبي ينصت.

بطلان السحر

بعـد أن رأى ﷺ تلـك الرؤيا أفاق من نومه، ثم انطلـق مع بعض صحابته نحو البئـر، ولمـا وصلهـا حدق بمائهـا والنخل حولهـا، فقال لمـن حوله: «**هـذه البئر التي أُريتهـا**».. كان ماؤهـا يميـل للون البني، حتـى وصفه بأنه كنقاعـة الحناء، ووصف نخلهـا، فقـال: «**كأن نخلهـا رؤوس الشـياطين**».. بعـد ذلـك نزل أحـد الصحابة، واسـتخرج جفة الطلع التي تحتوي على السـحر، فزال أثره عن جسـده ﷺ، ثم عاد لبيته، فلما دخل على عائشة أخبرها بلون ماء البئر وشكل نخيله، فتمنت لو أنه رقى رقية تسمى النشرة، فقالت: أفلا تنشرت؟ فقال ﷺ: «**أما والله فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا**».

شـفي قائد الدولة من سـحر ذلك الموظف اليهودي.. سـحر لو ارتكبه يهودي بحق قيصر أو كسرى لأبيدت قبيلته اليهودية عن بكرة أبيها، أما النبي القائد ﷺ فلم يعاقبـه، ولم يسـجنه، لكن لو كان الأمـر يتعلق بحق مواطن من شـعبه ﷺ، لكان له شأن آخر.. ذلك أن القائد لم يكن يهتم بحقوقه كاهتمامه بحقوق مواطنيه، ولو كانوا مواطنين غير مسلمين.. كان ﷺ لا ينتقم لنفسه قط، بل لم تظهر في تعابير وجهه حين لقـي ذلك اليهـودي أي شيء يوحي بالغضـب، حتى قال أحد الصحابـة: «فما ذكر رسـول الله لذلك اليهودي شـيئًا مما صنع به، ولا أراه في وجهه» أي إنه لم يعاقبه، بل ظـل في وظيفته، ولم يشـعره حتى في تعابير وجهه بأنه يضمر له شـيئًا.. كانت تعابير وجه القائد ﷺ لا تتغير إلا حين يغضب لربه، أو حين يرى في شـعبه فاقة أو فقرًا لا يسـتطيع دفعه عنهم، بل كان وجهه يتمعر حين يرى إنسـانًا وثنيًّا في حالة من الفاقة، فقـد حـط بالمدينـة يومًا أغـراب من غير المسـلمين.. جياع حفاة شـبه عـراة، فتلون وجهه ﷺ، ولم ترتسـم البسمة على محياه، بل حرك شعبه رجالًا ونساء لإغاثتهم، ولم يبتسم حتى رأى كومتين من الطعام والثياب في ساحة مسجده.. كومتان خففت ما بهم.. كان المسجد واحة للفقراء أمثال أبي هريرة، الذي يتذكر أحن الناس عليه بعد رسول الله، فيقول: «ما احتذى النعال، ولا انتعل ولا ركب المطايا، ولا لبس الكور

بعد رسول الله أفضل من جعفر» فما الذي قدمه جعفر له حتى هام أبو هريرة بذكراه كل هذا الهيام، وهو لم يعش معه إلا أيامًا.

جعفر وأبو هريرة أرواح تماهت

وصل الرجلان أيام خيبر، وقد مر الآن عام على لقائهما، لكن جعفر.. القادم من غابات الغربة يشيد خلال ذلك العام مدائن للحب في قلب أبي هريرة.. رأى جعفر هذا الفقير يخر بين منبر النبي ﷺ وحجرة عائشة مغشيًّا عليه، فيجيء من لايعرفه، فيظن أن به مسًّا من الجنون، ولم يكن بأبي هريرة سوى الجوع.. جوع يصفه أبو هريرة، فيقول: «آلله الذي لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع».

لم يكن أبو هريرة عاشقًا للمال والصفق بالأسواق.. كان شغوفًا بالعلم.. بنقل وتوثيق القرآن والسنة؛ لذا فرغ نفسه لمجالسة نبيه ﷺ والإصغاء إليه، عله يتدارك ما فاته، حتى لامه بعضهم، فدافع عن حبه للعلم، وعن حبه لجعفر، فقال: «إن الناس كانوا يقولون: أكثر أبو هريرة! وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني، حين لا آكل الخمير، ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرئ الرجل الآية هي معي؛ كي ينقلب بي، فيطعمني، وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب».. كان جعفر الطيب يقرأ تقاسيم الجوع في وجه أبي هريرة ورفاقه، فيناديهم، ويذهب بهم إلى بيته، ويطلب من زوجته العظيمة أسماء بنت عميس أن تحضر لهم ما لديها من طعام، لكن الذي أسر أبا هريرة وملك قلبه.. هو سلوك جعفر حين لا يجد عند أسماء طعامًا.. كان يأتي بعكة أو قربة السمن أو العسل الفارغة، فيشقها، ويقسمها بينهم؛ كي يلعقوا ما التصق بها من بقايا السمن أو العسل.. هذا ما جعله يقول: «ما احتذى النعال، ولا انتعل ولا ركب المطايا، ولا لبس الكور بعد رسول الله أفضل من جعفر».



عام واحد.. انتزع فيه جعفر تلك الشهادة من أبي هريرة، لكن جعفر الآن يتهيأ للرحيل، وربما لن يعود للمدينة، ولا لأبي هريرة، فالوضع متوتر للغاية بين أوساط الروم بعد وصول رسالة النبي ﷺ لهرقل.. لقد قرروا غزو المدينة وسحق دولة الإسلام.. كل ذلك لأن القائد ﷺ بعث برسالة يدعوهم فيها للإسلام.. خشي ﷺ من جيوش الروم الهائلة، فقرر التصدي لها بعيدًا عن المدينة، فهي أكثر من جيوش الأحزاب مجتمعة، وأرقى تدريبًا وتنظيمًا وتسليحًا، إضافة إلى انضمام عملاء الروم من النصارى العرب.

جيش الأمراء الثلاثة يواجه الروم

أثارت الرسائل السلمية التي بعثها النبي ﷺ لكسرى وهرقل رعبًا داخل أعظم دولتين في العالم، على الرغم من أنها رسائل حب وسلام وتذكير، وعلى الرغم من تواضع جيش الدولة الإسلامية تسليحًا وأعدادًا، فقد قرروا إرسال عملائهم من العرب الغساسنة كي يقوموا بشن حرب بالنيابة عنهم، فوافق الغساسنة، وبدؤوا بتهيئة الجيوش الهائلة لهذه المهمة، لكن الروم سبقوهم، وقد يكون بينهم تنسيق.. أرسل الروم جيشًا هائلًا انحدر من الشام في اتجاه المدينة، فوصلت الأخبار للقائد ﷺ، فهيأ جيشًا صغيرًا للتصدي لهم بعيدًا عن المدينة، ثم نادى ثلاثة من أبطاله: هم ابنه السابق بالتبني زيد بن حارثة، وابن عمه جعفر بن أبي طالب، وفارس السيف والكلمة الشاب الأنصاري عبدالله بن رواحة، ولما وقفوا أمامه.. تأملهم، وكأنه لن يراهم إلا في الجنة، ثم نادى زيدًا وعينه أميرًا، وقال: «**عليكم زيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فجعفر، فإن أصيب جعفر فعبدالله ابن رواحة**».

وثب جعفر، وكأنه يريد تعويض ما فاته في سبيل الله، فقال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما كنت أرغب أن تستعمل علي زيدًا، فقال ﷺ: **امضِ، فإنك لا تدري في أي ذلك خير**». أثار تعيين زيد أميرًا على الجيش حفيظة بعض الصحابة الجدد، فتساءلوا: كيف يعين زيد بن حارثة الرقيق أميرًا، لكن النبي ﷺ الذي زوج زيدًا من

زينب السليلة يقدم درسًا آخر، فيحلف متحدثًا عن زيد، وقائلًا: «**وايم الله، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي**».

انطلق زيد بن حارثة الذي ملأ سمع النبي وبصره وقلبه.. انطلق زيد الذي تقول عنه عائشة: «ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو كان حيًّا بعده لاستخلفه».. زيد الرقيق هو الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن، فمن مثل هذا الأمير، وهو يتزين بهذه النياشين للجنة.. ودّع جيش الأمراء نبيهم ومدينتهم، وساروا نحو الشمال مدركين حجمهم وحجم من يقابلون، لكنها الجنة التي تذلل الصعاب، وتطوي مسافات المستحيل.. ساروا حتى وصلوا قرية من قرى البلقاء بالشام.. يقال لها: (مؤتة)، ليفاجؤوا بجيش رومي هائل أمامهم.. ترى ما الحل أمام هذا الجيش الذي حطم جيش الفرس قبل أشهر؟ جيش أوله في مؤتة وآخره في أوروبا؟

قرار الحرب في مؤتة

وصل جيش الأمراء الثلاثة أرض مؤتة.. جالت أبصارهم في المكان، فرأوا أمواجًا بشرية تتلاطم أمامهم، لكنهم لم يتضعضعوا، فمعنوياتهم قد حلقت حتى حطّت في الجنة، وأجسادهم تهفو للحاق بها: أمير الجيش زيد بن حارثة.. كله شوق حارق لأنهارها ونعيمها، وشوق لتلك الفاتنة التي تنتظره حين قال له ﷺ: «**دخلت الجنة، فاستقبلتني جارية شابة، فقلت: لمن أنت؟ قالت: أنا لزيد بن حارثة**» ترى هل تراءت له حبيبته على أرض مؤتة؟ وأما جعفر، فيريد تعويض كل يوم من أيام البعد عن حبيبه وقائده ﷺ، وأما ابن رواحة، الذي ردّد الخندق شعره، وتغنى به فاتحو خيبر، وزلزل به وثنيي قريش، وهو يطوف شعرًا حول الكعبة، والذي قال يومًا:

وَفِينا رَسُولُ اللهِ يتلُو كِتابَه ... إذا انشقَّ معروفٌ منَ الفَجْرِ ساطِعُ
أَرانا الهدَى بعدَ العمَى فقلوبُنا ... به مُوقِناتٌ أنَّ ما قالَ واقِعُ
يَبيتُ يُجافِي جنبَه عنْ فراشِه ... إذا استَثْقلتْ بالكافرينَ المضاجعُ

فقال ﷺ عن كلماته: «**إن أخًا لكم لا يقول الرفث**».. ابن رواحة لا يقل شوقًا للجنة هو وبقية الجيش، أما الروم، فاطمأنوا لنتيجة المعركة، وهم يرون جيش دولة إسلامية لم تبلغ الثامنة من عمرها.. لا يتجاوز الألفي مقاتل.. أمام جحافل إمبراطوريتهم ذات القرون، التي تتمدد بين قارتين، وهنا ترد الإشكاليات العسكرية التي وردت على دولة الإسلام في أثناء أزمة الخندق:

ما القرار أمام جيش رومي أوله في مؤتة وآخره في أوروبا؟ صحيح أن الله تعالى قال: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾[الأنفال: ٦٥]، لكن هذا الأمر ثقل على الصحابة، فأنزل سبحانه التخفيف في قوله: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾» [الأنفال: ٦٦].

إذًا، فإن كانت قوة المسلمين نصف قوة العدو وجبت المواجهة، أما إن كانوا أقل من النصف فيجوز لهم أن يتحوزوا.. أي ينسحبوا ويعودوا لبلادهم، والتحوز ليس كالفرار، فالفرار هروب إلى أي جهة، أما التحوز فانسحاب منظم.. هدفه الإبقاء على قوة الجيش المسلم عند تعذر المقاومة.

فكر زيد، وشاور جنده، على الرغم من أن القتال غير واجب عليهم، فاختارت معنوياتهم المواجهة، فتزين الجميع للجنة.

معركة مؤتة

على أرض مؤتة.. تفرض المعركة فرضًا على الدولة الإسلامية.. على أرض مؤتة تنتقل الدولة الإسلامية نوعيًا إلى مرحلة المجابهة مع الدول الكبرى، التي غالبًا ما يصيبها الهلع والغضب من انتشار أفكار تخالف أفكارها، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين. كان جيش الروم أضعاف جيش المسلمين، والقرآن يتعامل مع مثل هذا الظرف بواقعية تناسب قدرات أتباعه والأدوات المتاحة لهم، فقد نزل ليطبقه البشر لا ليدهشهم فقط؛ لذا يقول: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[الأنفال: ٦٦].

لكن أرواح بعض المؤمنين حين ترى جحافل الغزاة.. لا ترى سوى بوابات الجنة، وزيد بن حارثة وجنده من تلك الأرواح.. عجزوا عن مقاومة الشوق لها، حين رأوا الروم وعملاءهم من العرب النصارى من المناذرة وغيرهم.. كيف يرجعون وهم يشمون رائحة النعيم وعبير منتجعاته؟ لذا عزموا على خوض معركة أشبه بالأساطير، وقبل المعركة بدأ زيد ينظمهم للقاء الغد، وقد تبرع أحدهم بنحر ناقته ليطعم إخوته، وكان ضمن هؤلاء رجل من أهل اليمن لا يملك إلا سيفه وإيمانه.. جاء برفقة الصحابي عوف بن مالك. توجه اليمني لصاحب الناقة حين بدأ بنحرها، ولما وقف أمامه وهو يسلخ جلدها طلب منه طلبًا غريبًا.. طلب أن يمنحه الجلد.

رحب صاحب الناقة بالطلب، وواصل ورفاقه سلخ الجلد وتقطيع اللحم، ولما انتهى سلم الجلد لليمني، فأخذه وسحبه بعيدًا، ثم بسطه تحت أشعة الشمس ليجف، ثم توجه لمشاركة بقية الجيش تناول الطعام، وبعد ساعات عاد لجلده، وقد جلب عظامًا أو خشبًا، ثم ربطها ببعضها، ثم غلفها ببعض الجلد صانعًا منها ما يسمى الدرقة أو الترس، وجعل لها مقبضًا. أتم اليمني صنع أسلحته، ومر يوم التأهب، وغابت الشمس، ونام البعض، وحرس البعض، وأذن مؤذن الفجر، فاستيقظ الجميع للصلاة، وبعد أن أشرقت الشمس وزع الأمير زيد جيشه، وحمل

الرايـة بنفسـه، وتوجه نحـو جيش الروم، وكله شـوق إلى الجنة.. حينهـا بدأ اليمني بتنفيذ مخططه.

معركة مؤتة

بـدأ القتـال على أرض مؤتة، فشـنّ المؤمنـون هجومًا مخيفًا، وكأنهـم يقتحمون بوابات الجنة، بينما كان اليمني يرصد شـيئًا يلمع منذ الأمس.. يرصد فارسًـا يتلألأ مـن الذهب. كان الفارس الذهبي وفرسـه الشـقراء أيقونة مميزة.. تحـرض الروم.. ترفع معنوياتهم، بينما كان اليمني على قدميه يرصده، صال الجميع وجالوا، واليمني يرصـد الفارس الذهبي، ثم يختبئ منه خلـف إحدى الصخور، ثم حانت اللحظة.. مـر فارس الذهـب أمامه، فضرب اليماني عرقوبي الفـرس فعرقبها، وهوى الفرس، وهـوى الفـارس المذهـب، وإذ باليمني الشـجاع يهبط عليه كالحتـف، ويجهز عليه، ثم ينتزع سـيفه المرصع بالذهب، وترسـه المرصع بالذهب، ويمتطي فرسـه الشقراء المدللـة بالذهب، ثم يبدأ بالتوغـل في تفاصيل الروم. أدرك الروم أن هؤلاء المؤمنين لا يمكـن هزيمتهـم، ولا الإجهاز على عزيمتهـم.. مادامت رايـة التوحيد ترفرف، فأُوكلت مهام لإسـقاطها، وتوجهت قوة نحو الراية حتى أغمدت سيوفها في جسد حب رسول الله وهو يهتف بجنده.. سمعه نائبه جعفر، فالتقط الراية من أميره الذي خر شهيدًا، ورفرفت روحه نحو الجنة.

صاح جعفر بجنده محرضًا وسـط ذهول الروم من سرعة تشـافي المؤمنين.. كان جعفر يحمل الراية بيد، والسـيف بيد، وكأنه يسابق زيدًا للقفز في أنهار الجنة، وفجأة تتفجر داخله سنوات المعاناة في مكة والحبشة.. تتفجر معاناة الغربة والتشرد، وكأنه يريـد تعويض غيابه المرير عـن بدر وأحد والخندق والمعـارك المجيدة، وكأنه يبحث عن شـهادة كشـهادة عمه حمزة وأنس بن النضر، لكن فرسه كانت تعيقه عن اقتحام الجنـة، فقفز عنها، ورفع سـيفه نحوها وعقرها، فهو لن يحتـاج إليها بعد اليوم، ولن يعود للمدينة، وقد شم زهور الجنة وعطورها.

شق جحافل الروم والنصارى العرب والموت.. غير آبه بهذه المصطلحات، فليس في ذاكرته حروف للهرب.. عقر فرسه الشقراء، وامتطى صهوة الشعر والحماس يصرخ موتًا.. يصرخ شعرًا.. يملأ الأجواء لهيبًا:

يا حبَّذا الجنةَ واقترابَها   طَيِّبةً وبارِدًا شَرابُها

والرومُ قَدْ دَنا عَذابُها   كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

عليَّ إذا لاقيتُها ضرابُها

اقتحم جعفر يطعن ويطعن، وتسافر الرماح والسيوف في جسده الذي لا يكف عن السفر، وفجأة يباغته رومي بسيف حاد، فيبتر يد جعفر اليمنى، ويسقط سيفه.

استشهاد جعفر

كان جعفر حتفًا يشق بحر الروم المتلاطم برايته، حتى باغته رومي شجاع، فبتر يده، وسقط سيفه، وانفجر شلال الدم يروي أرض مؤتة، ويروي قصة فدائه.. ظل جعفر يحمل الراية بيده اليسرى.. يصرخ بالمؤمنين.. يحمسهم، ونائبه ابن رواحة قريب منه، لكن سيفًا آخر كان أقرب.. سيف احتز يد جعفر اليسرى، فسقطت الراية، وهو يصرخ بمن حوله.. كان المشهد مؤلمًا لعبدالله بن رواحة، وهو يرى أميره ينزف.. يركض دون يدين.. يحمس أصحابه حتى اصفر لونه، وخفت صوته، وهوى على الأرض، وقد نال الشهادة على طريقة العظماء.

التقط ابن رواحة الراية بعد أميريه، فشعر بشيء من التردد والفزع مما جرى لهما، لكن الشعر انتفض بين جنبيه.. الشعر الإسلامي الذي يعيد ضخ الحياة، ويؤجج الطاقات.. هتف ابن رواحة شعرًا يضعه على طريق صاحبيه، فقال:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلِنَّه   لـتـنـزلـنَّ أو لتكرهنَّه

إنْ أجلبَ الناسُ وشدُّوا الرنَّة   ما لِي أراكِ تكرهينَ الجنَّة

قد طالما قد كنتِ مُطمئنَّة هلْ أنتِ إلا نطفةٌ فِي شنَّة

كان ترردده يحكي لسان حال المعركة الشرسة، وأعداد الروم المهولة، والأطراف المتطايرة، والدماء التي تلون الثياب والأرض والوجوه.. عاد الشعر مجددًا يقذف بالخوف يطوح به، فيتطاير كالغبار.. كان الشعر على أرض مؤتة صهوة من الأهوال.. صاح ابن رواحة مرة أخرى:

يا نفسُ إلّا تقتلِي تَمُوتِي هَذا حمامُ الموتِ قَدْ صَليتِ
وما تمنَّيتِ قد أُعطيتِ إن تفعلِي فِعلَهما هُديتِ

ثم انطلق بالراية، وكأنه يريد غرزها في ساحة أحد قصوره في الجنة.. طاف بين جنده يحمسهم.. يحرضهم، فشاهده ابن عم له، فلحق به، وقدم له عظمًا به قطعة لحم، وقال: (شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت) فأخذه وكأنه يودع طعام الدنيا، فانتهس نهسة، ثم سمع حطمة وصياحًا، فنظر للحمته، وعاتب نفسه على التأخر عن رحلة صاحبيه، وقال لنفسه: (وأنت في الدنيا؟) ثم رماها، وعاد يفلّ الروم فلًّا، حتى تمكنوا منه فخرّ شهيدًا.

اختفى الأمراء الثلاثة، فالتقط الراية صحابي يعشق الحتف، ويكره الإمارة.. اسمه ثابت بن أقرم، فصاح بالجند: (يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل) تلفت الناس، فإذا العيون تطارد فارسًا يزهق أرواح الروم.. ينتزع سيوفهم حتى اعوج في يده تسعة سيوف.

خالد بن الوليد

اختفى الأمراء الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة.. سافروا للنعيم، وحلقت أرواحهم في عوالمه، بينما كان المجاهد ثابت بن أرقم يلتقط الراية، ويصيح طالبًا ترشيح أمير جديد لهذا الجيش، الذي أرهق جيش

الدولـة العظمى في العالم، فرشـحه إخوته للإمارة، لكنـه رفضها.. تلفت الصحابة، فرأوا فارسًـا يفتك بالروم فردًا فردًا، وينتزع سـيوفهم سيفًا سـيفًا.. فارس يتفنن في انتقـاء ضحايـاه واجتثاثهم، حتى اعوج بيده تسـعة من تلك السـيوف الرومية التي انتزعهـا مـن أيـدي شـجعانهم، حتى قـال: «لقد انقطعـت في يدي يوم مؤتة تسـعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية» صاح الصحابة بهذا الفاتك، فأقبل ملبيًّا، فإذا هو خالد بن الوليد، فاستبشروا به، واستبشرت السماء به، فقد نزل جبريل على نبـي الله بالمدينة، فأخبره بما جرى، فنهض ﷺ وخرج من بيته للمسـجد، ولما اجتمع الرجـال والنسـاء صعد منبره.. شـخصت الأبصار نحو القائد الـذي حمد الله وعيناه تفيضـان، فارتجفت القلوب وهم يرون تلـك الدموع، ففاضت العيون حين نعى ﷺ الفرسـان الثلاثـة، وقـال: «**أخـذ الراية زيد فأصيـب، ثم أخذها جعفـر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب**» ثم ذرفت عيناه حزنًا على أحبته، وقال: «**ثم أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم**» ترى أين الفتح وطوفان الروم يغرق مؤتة؟

كانـت عبقريـة خالد تدرك أن مهمتـه صعبة للغاية، فللبشر طاقة، وللشـجاعة حـدود.. أدرك خالـد أنه لو اعوج بيده ألف سـيف، فلن يتمكن مـن إفناء جحافل نصـارى الـروم وعملائهم من نصـارى العرب؛ لذا فكر في انسـحاب يبقي فيه على جيشـه.. قبض خالد على الراية، ثم هتف بجنده طالبًا منهم الانحياز، فاستجابوا له على مضض، فهم يريدون اللحاق بأمرائهم.

رأى الـروم عمليـة الانحياز، فأسـعدهم ذلك، وانحازوا هـم أيضًا، فمواجهة هذه الكتيبة المؤمنة التي لا تخيفها الأرقام نوع من الجنون.. رضي الطرفان بالنتيجة، ونزل الصحابة يعالجون جراحاتهم، ويبحثون عن شـهدائهم.. نزل عبدالله بن عمر عـن راحلته، وأخذ يتهادى بين الجثث الهائلة.. يبحث عن إخوته، وفجأة اسـتوقفه جسدٌ بلا يدين.. انحنى عليه، وجلس يتأمل وجهه، فهاله ما رأى.

جعفر الطيار

هنا يده اليمنى، وهناك اليسرى، وهنا سيفه، أما بقية جسده فبين يدي عبدالله بن عمر وقلبه يبكي.. يتأمل تلك النياشين التي تزين بها هذا المسافر لرحلته الأخيرة.. تلون وجهه وأكتافه وصدره وبطنه.. مد ابن عمر يده، وبدأ يعدّها، ولما توقف عن العد توقف عند الرقم خمسين.. خمسون طعنة وضربة وكدمة، ليس منها واحدة من الخلف، فجعفر ليس في حاجة للخلف، وقد قفز عن فرسه في ذروة حماسه، ثم عقرها؛ لأنه لن يحتاج إليها، ولن يحتاج إلى الالتفات للدنيا وهو يرى بقلبه بوابات الجنة تشرع له، فيقتله الشوق لها قبل أن تقتله طعنات الروم.. كان يشق حشودهم ليرتمي بين أحضانها، حتى عجز جسده عن ملاحقة روحه، فتساقط ذلك الجسد قطعة قطعة، وكأن روحه تتأهب لارتداء أجساد الجنة الغضة الفاتنة، التي لا تتعب، ولا تشيخ، ولا تمرض، ولا ترشح سوى العطور.

رفرفت روح جعفر في الجنة، فشاهده النبي ﷺ في منامه، وقال: «**رأيت جعفرًا ملكًا ذا جناحين**» سافرت الأرواح للجنة، وبقيت الأجساد، فحفر الصحابة القبور، ودفنوا شهداءهم، وأودعوهم أرض مؤتة، ثم عادوا خلف خالد بن الوليد للمدينة الحزينة، أما في المدينة، فلم يزر النبي ﷺ أسماء بنت عميس زوجة جعفر ولا أطفالها ثلاثة أيام، لكنه حرض مشاعر المدينة كلها على العناية بهم، والطواف بآلامهم، فقال لمن حوله: «**اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فقد جاءهم ما يشغلهم**».

هبّ أهل المدينة لمواساة بيت جعفر وغيره، ثم توجه القائد ﷺ إلى بيته مثقلًا بالحزن على أحبابه، ولما وصل، وجلس دخل عليه رجل أغضب عائشة الحزينة، حين أخبر نبيه بأن النساء في بيت جعفر يبكين بصوت مرتفع، فأمره ﷺ أن ينهاهن.

انطلق الرجل، ووقف عليهن، ونهاهن، فلم يأبهن به، فعاد يخبر النبي بأنهن لم يطعنه، فقال ﷺ: «**انْهَهُنَّ**» فعاد وتكرر المشهد ثلاث مرات، والرجل يعود، فيقول: «والله غلبننا يا رسول الله». فنظر ﷺ إليه، وقال: «**فاحثُ في أفواههن التراب**».. أدرك الرجل خطأه، وأنه لن يفعل، وأن عليه نقل الرسالة لا إرغام الناس على

تنفيذها، فتحير، فأطلت عائشة من خلف صائر الباب، وعاتبته قائلة: «أرغم الله أنفك، لم تفعل ما أمرك رسول الله، ولم تترك رسول الله من العناء»، وبعد ثلاثة أيام نهض ﷺ وتوجه نحو بيت جعفر.

النبي يعزي آل جعفر

بعد ثلاثة أيام من استشهاد الأمراء الثلاثة زيد ورفيقاه.. خرج القائد ﷺ من بيته نحو بيت ابن عمه الشهيد جعفر، حيث أسماء بنت عميس العظيمة، وحيث أبناؤه الثلاثة: محمد وعون وعبدالله، ولما وصل استأذن كما هي سنته، فأُذن له، ولما دخل قال لأسماء ومن معها من النساء: «**لا تبكوا عليه بعد اليوم**». ثم قال: «**ادعوا بني أخي**» فأحضر الأطفال كأنهم أفراخ.. قد حلقت رؤوسهم بطريقة لم تعجبه ﷺ، حيث حُلق بعض الشعر وترك بعضه، وهو ما يسمى بالقزع.. تأمل ﷺ رؤوسهم، فقال: «**ادعوا لي الحلاق**»، فانطلق أحد الرجال، وأحضره، فلما جاء يحمل أدواته.. أمره ﷺ بحلاقتهم، وبعد أن حلقهم تأمل تلك الوجوه البريئة التي لونها الوجد على أبيهم، فقال: «**أما محمد، فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عون، فشبيه خلقي وخلقي، ثم أخذ بيد عبدالله فشالها، وقال: اللهم، أخلف جعفرًا في أهله، وبارك لعبدالله في صفقة يمينه، اللهم، أخلف جعفرًا في أهله، وبارك لعبدالله في صفقة يمينه، اللهم، أخلف جعفرًا في أهله، وبارك لعبدالله في صفقة يمينه**». سمعت أسماء تلك الكلمات، فطمعت في المزيد من هذا الحدب العذب لأيتامها، وبدأت ترقق قلبه ﷺ، وتذكره بيتمهم، فقال مطمئنًا: «**العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟**».. كلمات هَمَت كالبرد على قلوب كالهجير.

لم تكن الحال بأحسن في بيت زيد بن حارثة، حيث زوجته أم أيمن، ويتيمه أسامة الذي ملك قلب النبي ﷺ وعينيه، حتى قال فيه وفي والده الشهيد: «**وايم الله إن كان لأحب الناس**»، ثم حلف أن أسامة لأحبهم إليه من بعده، وقال: «**أوصيكم به فإنه من صالحيكم**» نظر ﷺ إلى حبيبه الأسمر، فدمعت عيناه.. كان منظره يذكره

بزيـد الذي تبناه، وعاش في بيته مـدلالًا حتى تعلق زيد به، ورفض العودة لأهله... غابت الشمس، وخيّم الحزن على المدينة، ثم أشرقت، فلم تبدد أحزان الأمس، فقد رأى ﷺ أسامة ثانية، فانفتق جرح الأمس، وتجدد حزنه، فقال: «**ألاقي منك اليوم ما لقيت منك بالأمس**».

أمـا بيـت الأمير الثالث عبدالله بن رواحة فشـهد حدثًا غريبًا مـن أخته.. إنها لم تبكِ عليه، وسبب ذلك هو أنه أغمي عليه قبل سفره لمؤتة، فجعلت تنوح، وتقول: «واجبلاه، واكذا... واكذا. تعدد عليه، فلما أفاق، نظر إليها، وأخبرها بأن هاتفًا كان يسـأله كلـما ندبت، وعددت: أنت كذلـك؟» وها هي اليوم نظـرات حائرة، ودموع كالجمر، وصمت كالاحتساب، أماعلى أرض مؤتة فالأيتام كانوا كبارًا.

على أرض مؤتة أيتام كبار

تلـك كانت أجـواء المدينة، حين سـمعت بنعي الأمراء الثلاثـة، أما على أرض مؤتة فاليتم له طعم آخر.. الأيتام هناك لم يكونوا صغارًا، وعندما يكون اليتيم رجلًا فصفات الفقيد أعظم من أن تحيط بها جدران القلوب.

أبوهريرة.. الذي نحت الجوع على وجهه لغة لا يقرؤها إلا النبي ﷺ وجعفر.. أبوهريـرة يبكي جعفرًا الممدد أمامه.. يبكي الجود المسـجى على أرض مؤتة.. يبكي يديه اللتين طالما أعطته، وواسته، ويتحدث عن تلك اللغة، فيقول: «لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رسـول الله إلى حجرة عائشـة مغشـيًّا علي، فيجيء الجائي، فيضع رجله على عنقي، ويرى أني مجنون، وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع» ويقول: «كنت ألزم رسول الله بشبع بطني، حين لا آكل الخمير، ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان ولا فلانـة، وكنـت ألصق بطنـي بالحصباء من الجـوع، وإن كنت لأسـتقرئ الرجل الآية هي معي؛ كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس للمسـكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلب بنا، فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء، فنشقها، فنلعق ما فيها».

رحـل جعفر، فبكى أبوهريرة وجـدًا، وقال: «ما احتذى النعال، ولا انتعل ولا ركب المطايا، ولا لبس الكور بعد رسـول الله أفضل من جعفر».. خلف جعفر مجدًا ينثـال عـلى أبنائه، حتـى كان ابن عمر إذا سـلم على أحدهم قال: «السـلام عليك يا ابـن ذي الجناحين»، لكـن قبل عودة ابن عمـر ورفاقه للمدينـة.. حدث على أرض مؤتة حوار بين الأمير خالد بن الواليد وأحد جنده.. حول مسـألة مادية هي: أحقية الفارس بأمتعة عدوه الذي قضى عليه، وسبب ذلك الخلاف، أن ذلك اليماني البارع في فن القتال، الذي فتك بأبرز فرسـان الروم، وحصل على فرسـه المكسوة بالذهب وترسـه وسـيفه المذهبـين.. تهـادى نحو أمـيره خالد بعد نهايـة المعركـة، وبانضباط الجندية الإسلامية.. تقدم اليمني النزيه ليسلم الفرس والسيف والترس، على الرغم مـن أنها من حقـه، لكن هذا لا يعني تجـاوز الأنظمة وترتيبات التسـليم، أو مد اليد للمال العام دون اسـتئذان، وبعد أن سـلمها للأمير قدم طلبًا يوضح فيه أحقيته بها، فأعطاه خالد بعضها فقط.

هنا تدخل زميله عوف بن مالك منكرًا على أميره قائلًا: «يا خالد، أما علمت أن النبي قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى. فقال: فلم لم تعطِه السلب كله؟».

فرادة العسكرية الإسلامية

بعـد نهاية معركـة مؤتة تهادى الفـارس اليمنـي.. نحو أميره خالد بـن الوليد، ليسـلمه الفرس والسـيف والـترس الرومانية، وبعد أن سـلمها، وأصبحت بحوزة الدولة.. تقدم الفارس نفسه بطلب للأمير أن يمنحه إياها.

تأملهـا الأمـير خالد، فأعطاه بعضهـا، وأبقى بعضهـا.. كان الفارس عوف بن مالك يرى، ويسـمع ما يجري، فقال منكرًا على أميره، ومقدمًا الدليل على احتسـابه: «يا خالد، أما علمت أن النبي ﷺ قضى بالسلب للقاتل؟ قال: بلى. فقال: فلم لم تعطِه السلب كله؟ قال: استكثرته» هنا هدّده عوف برفع القضية لرأس الدولة ﷺ، ومبينًا

أنه لا أحد فوق النظام والمحاسبة في نظام الدولة الإسلامية قائلًا: «لتردنه إليه، أو لأعرفنكها عند رسول الله».

رفض خالد أن يعطيه إياها، لا لأنه يريد اختلاسها وضمها لممتلكاته، فالأمير خالد من أكثر الناس زهدًا في المال، لدرجة أن ثروته كانت مجموعة من الأدراع والأسلحة، ولما طُلبت منه الزكاة لم يدفع شيئًا، فجاء الموظف المسؤول لقائد الدولة ﷺ يرفع تقريرًا عن امتناع خالد بن الوليد، فدافع ﷺ عنه قائلًا: «أَمَّا خَالِدٌ، فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ الله» أي إنه جعلها كلها وقفًا لله.

سار خالد، وسارت قافلته نحو طيبة، وبعد وصولهم استقبلوا استقبال المنتصرين، لكن عوفًا كان مصرًّا على مرافعته، فالقضية أصبحت شخصية بالنسبة إليه.. قص على نبيه القصة، فقال ﷺ: **«يا خالد، ما حملك على ماصنعت؟»** قال: يا رسول الله، استكثرته، فقال: **«يا خالد، أعطِه السلب كله»** امتثل الأمير بأدب، وانصرف نحو مكان تجميع بقايا الغنائم، لينفذ الأمر، فلما أقفى هتف به عوف منتشيًا بنصره، وقال: «كيف رأيت يا خالد، ألم أفِ لك بما قلت لك؟».

دوت الكلمة في أذني القائد ﷺ، فالتفت لعوف يستفسره، وقال: **«وما ذاك؟»**، فأخبره عوف بالقصة.. أدرك القائد أن الدافع الشخصي تسرب إلى عوف، فنادى ﷺ خالدًا: **«يا خالد، لا تعطِه شيئًا»**، ثم نظر إلى عوف معاتبًا التشفي في نقد الأمراء، وقال: **«هل أنتم تاركون لي أمرائي، لكم صفوته، وعليهم كدره.. لكم صفوته وعليهم كدره؟»** لأن من حق المواطن أن يشتكي المسؤول، فالمسؤول ليس معصومًا، ولا مقدسًا، ولا إطلاق في صلاحياته، وهذا ما فعله عوف، وأقره النبي ﷺ عليه، لكن الشكوى للتشفي تفسد الأعمال النبيلة.. خاصة إذا كانت موجهة لمسؤول نزيه كخالد.. أنقذ جيشًا، وعاد مظفرًا دون أن يطالب بشيء من حطام الدنيا، أما الأمراء الذين سبقوه فقد وصلت عنهم رسالة ضمن رسائل مفزعة سردها النبي ﷺ على شعبه.

رؤيا مفزعة ومبهجة

ازداد الحزن على شهداء مؤتة، لكن الله سبحانه عزى الصحابة برؤيا رأى فيها النبي نفسه بصحبة رجلين.. يأخذانه نحو جبل شاهق، ثم يقولان: «**اصعد. فقال: إني لا أطيق، فقالا: إنا سنسهله لك. فصعد، حتى كان في سواء الجبل سمع أصواتًا شديدة؟ فقال: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا هو عواء أهل النار ثم مرّا به على صنوف مفزعة من العذاب.. بعدها انطلقا به إلى روضة غناء بين نهرين، فإذا بغلمان يلعبون، فسأل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين. ثم شرف لي شرف، فإذا أنا بثلاثة نفر يشربون من خمر لهم. قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جعفر بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وعبدالله بن رواحة، ثم شرف لي شرف آخر، فإذا أنا بثلاثة نفر؟ قلت: من هؤلاء؟ قال: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ينتظرونك**».

زاد حزن الصحابة على أحبتهم، فخطبهم ﷺ مبشرًا.. معزيًا بالمستقبل، لا بالبكاء على الماضي.. محرضًا على نشر رسالة الأنبياء: (التوحيد والعدل) فقال: «**ليدركن الدجال قومًا مثلكم، أو خيرًا منكم. ليدركن الدجال قومًا مثلكم أو خيرًا منكم. ليدركن الدجال قومًا مثلكم أو خيرًا منكم، ولن يخزي الله أمة أنا أولها، وعيسى ابن مريم آخرها**».. أدرك الصحابة أن قافلة الشهداء لن تتوقف، وأن أعداء الإسلام لن يتوانوا عن حربه إلى يوم القيامة، وإلا فما الذي صدر من الدولة الإسلامية المحاصرة حتى يهاجمها الروم والنصارى العرب.. مؤتة مؤشر على أن دور الوثنيين واليهود في الهجوم على الدولة الإسلامية أشرف على الانتهاء.. بعد ثماني سنوات من المحاولات الفاشلة، وقد حان دور النصارى العرب، والروم والفرس للقضاء على هذه الدولة الفتية، التي لم تعتدِ على أحد، ولم تخن معاهدة، أو تُقْصِ أحدًا، لكنه قدر من يحملون النور أن يحاربهم حراس الظلام، وطواغيت الظلم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢].

ولئن ولد خالد بن الوليد في الإسلام قائدًا متخصصًا في مواجهة الروم، فلقد أعد ﷺ لرفيقه في الهجرة عمرو بن العاص مهمة مماثلة.. في اتجاه خطر قادم من جهة فارس، حيث استدعى عمرو، وقال له: «**خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني**».

المدينة في حالة استنفار

في أحد أيام الشتاء الباردة استدعى القائد ﷺ جنديه عمرو بن العاص، وقال له: «**خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني**» انطلق عمرو نحو بيته، ولبس درعه، وأخذ سيفه، ثم خرج يتهادى بين الطرقات.. يفكر في أول مهمة له في الإسلام.

وصل عمرو المسجد، فوجد النبي ﷺ يتوضأ، فسلم عليه، وتوقف عنده حتى انتهى من وضوئه، ولما انتهى التفت إلى فارسه الداهية وتأمله.. جالت عيناه ﷺ في هيئته.. في لباسه من رأسه حتى أخمص قدميه، فقرأ التأهب للدفاع عن التوحيد ودولة الإسلام، ثم قال: «**إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله، ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة**» تلاشت الدنيا من عيني عمرو، الذي كان بالأمس يضطهد الموحدين من أجل الدنيا، فأحب أن يكفر عما جرى منه، فقال وكله إخلاص: «يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله».

طمأنه ﷺ فقال: «**يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح**» ونعم الجيش الصالح جيش عمرو هذا.. سمع عمرو تلك الكلمات الجميلة، وبدأ الإنصات للمهمة، أما رأس الدولة ﷺ فخطب شعبه، وأمرهم بالتأهب للدفاع عن دينهم ودولتهم.. دبّ الحماس بين الجميع، وقام ﷺ يتكلم.. يوجه، وبلال متقلد سيفه أمامه.. في تلك الأثناء دخل أحد الصحابة المدينة، فرأى الزحام حول المسجد، فقال: «قدمت المدينة، فدخلت المسجد، فإذا هو غاصٌّ بالناس، وإذا رايات سود تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله. قلت: ما شأن الناس؟ قالوا:

يريد أن يبعث عمرو بن العاص».. عمرو الذي أسلم منذ أشهر.. سيقود جيشًا، ويتأمر على رجلين هما أفضل الصحابة: أبوبكر وعمر، في لفتة منه ﷺ إلى الكفاءات لا الواسطات، وإلى القدرات لا القرابات، فمصلحة الدين والدولة قبل كل شيء.

حدد ﷺ أمير الجيش ونائبه، ولا خوف على جيش أبوبكر وعمر وعثمان وعلي من جنوده، ثم ودعهم ودعا لهم كعادته، وانطلق بهم عمرو متوجهًا إلى ديار خلف جبال أجا وسلمى.. حيث يشتد برد الشتاء. عبر الجيش الأودية والقفار، ولما توقف للاستراحة بديار طيء.. بحث عن رجل يعرف الأرض كما يعرف كفه.

مَنْ ذو الخلال الذي سرق رافعًا؟

على أرض طيء.. أرض حاتم الطائي عسكر جيش ذات السلاسل، لكن يبدو أن ابنه عدي بن حاتم غادر البلاد قبل وصول الجيش، فقد اعتنق النصرانية، وقد شوه الوثنيون سيرة محمد ﷺ عنده، ففر إلى الشام، والتحق بإحدى الكنائس، لكن فراره لم يكن مقنعًا، فالرجل حصيف وحكيم.. ظل يفكر، ويتأمل حتى ضاقت به الأرض. سنتركه يفكر لنعود إلى عمرو، الذي بحث عن دليل يعرف تعرجات الدروب، فأرشده بعضهم إلى طائي يقال له: (رافع).. فاتك يعرف الدروب كما يعرف خطوط كفه.. كان في الجاهلية لصًا لا يقدر عليه أحد.. كان يحدد له مخابئ في المفاوز يضع فيها بيض النعام، بعد أن يفرغها، ثم يملؤها بالماء، ثم يغطيها بإحكام، فإذا سطا على مسافر أو سلب قومًا، فلاحقوه هرب عبر تلك المفاوز والدروب المهلكة مارًا بتلك المخابئ، حيث يتعب مطاردوه، ويعطشون، ويشرب، ولا يشربون.

تم البحث عن رافع الطائي حتى وجدوه، ولما حضر استأجره عمرو بوصفه دليلًا، فوافق. التحق رافع بالجيش، فلما رأى سكينتهم ورقيهم دعا ربه، فقال: «اللهم، وفق لي رفيقًا صالحًا» بعدها رأى رجلًا تجاوز الخامسة والخمسين.. أبيض

خفيف اللحم.. نحيفًا يصبغ لحيته بالحناء كأنها لهب العرفج، فارتاح لمرآه، وأحب أن يكون رفيقه، لكن الغريب أن هذا الشيخ النحيل تمكن من سرقة رافع، حتى اضطر رافع للتعلم منه. السرقة هنا ليست على طريقة رافع، بل على طريقة الشيخ أبي بكر الصديق، وفي وضح النهار، وعلى مرأى من الجميع. كيف ذلك؟

في تلك الليالي الشاتية الباردة.. كان عطف أبي بكر وشفقته يغمران هذا الشاب الطائي، حتى أحس بقلبه بين يدي صاحب رسول الله، وكأنه قد هبط عليه من السماء، حيث يقول: «كان أبوبكر يُنيمُني على فراشه، ويلبسني كساء له من أكسية فدك، يخله عليه إذا ركب، ونلبسه أنا وهو إذا نزلنا، فإذا أصبح لبسه، ولا يلتقي طرفه حتى يخله بخلال» أي يجمع طرفيه بعود أو إبرة، ولذا صار رافع ينادي أبا بكر باسم مزين بالذكريات.. صار يناديه: (يا ذا الخلال) كانت مشاعر الصديق الفياضة تعرف طريقها إلى أحوج الناس إليها، ولم يكن هناك أحوج إلى الرعاية والعطف من هذا الشاب الشقي.. الهائم في البراري. لم يحدثه الصديق عن الإسلام، بل ترك أخلاق الإسلام تحدثه.. تغسل شقاءه، وتعيد له رشده.

عمرو بن العاص يهدد من يشعل نارًا

تعلق رافع الطائي بأبي بكر دون غيره.. كان الصديق داعية مذهلًا.. لم يحدثه عن الإسلام.. جعل أخلاق الإسلام تتحدث إليه.. تغطيه وتدفئه، وتحنو عليه.. تقلّه وتظلّه حتى ذهل عن كل شيء سوى الإسلام. استحضر دفاتر أعماله، وحسابات عمره، وأحصى ما له وما عليه، فرأى بقلبه الذي ولد اليوم على يد أبي بكر.. رأى أشياء جميلة ورائعة تمر بين يديه وهو غافل عنها.. رأى بذلك القلب كم هي المسافة بينه وبين هؤلاء القوم الذين يتولى هو بنفسه إرشادهم بين تلك التعاريج، لكنهم كانوا يحلقون عاليًا بينما كان ملتصقًا بالأرض.. دون هدف.. دون وعي. رايات سوداء، لكن القلوب بيضاء.. لا خمر.. لا سباب.. لا بغضاء.. نظافة وطهارة، وصلاة ترتب أوقاتهم وأنشطتهم على الأرض، وتصلهم بالسماء، أما هو فسطو وقتل ونهب، وحياة لا تكف عن التلفت واللهاث.. كأن وحوش الأرض تلاحقها.

سـار بالجيـش حتى اقتربوا من جيـش الأعداء.. حينها أمـر الأمير ابن العاص بالتوقف، فنزل الجيش، وعسـكر في جو زمهريـري. انتشر بعض الأفراد هنا وهناك يحتطبون، فبرد الليل لا يطاق. غابت الشمس، فاشتعل المعسكر بالنيران، وتراقصت ألسـنة اللهب، وفجأة خمدت النيران. أصدر الأمير أمرًا بإطفاء كل نيران المعسـكر. ثـارت أسـئلة الزمهرير، وبدأ التذمر بين أفراد الجيـش، فانطلق بعض الجند إلى عمر ابـن الخطاب الـذي لا يقل غضبًا عنهم، فشـكوا لـه الأمر، فنهض الفـاروق، وهمّ أن ينـال من ابن العاص، لكنه تذكر وصية رسـوله بالطاعة للأمير، فتوجه للصديق الأكـبر والوزير الأول، فقال له: «لِمَ لَمْ يَدَعْ عمرو الناس أن يوقدوا نارًا؟ ألا ترى إلى هـذا الذي منع الناس منافعهم؟» نظر الصديـق إلى هذا الغضب، فكرر حكمته يوم الحديبية، وقال: «دعه قائمًا. ولاه رسول الله علينا» ثم بيّن له سبب إمارته، فقال: «إنه لم يستعمله رسول الله عليك إلا لعلمه بالحرب».

هـدأ عمـر، فالصديـق أعلم النـاس بنبيه ﷺ، لكن الـبرد لم يهـدأ، فتوجه الجند للصديق عله يشـفع لهم لتخفيف هذا الزمهرير، فمشـى أبوبكر للأمير شـافعًا لهم، وعندمـا وصـل كلمه، فكان رد ابن العاص أشـد مـن ذلك الزمهرير وأقسـى. قال عمرو: «زملوك إلي؟ لا يوقد أحد منهم نارًا إلا ألقيته فيها».

دهاء عمرو واحتجاج الصحابة

عـاد أبوبكر يرتجف بـردًا، ويحمل إجابة محزنة لأصحابه، فقد فشـلت مهمته في إقناع عمرو بالسـماح لهم بإشـعال النار.. كان الصديق يدرك أن الجهاد ليس نصرًا أو شـهادة فقـط؟، بل مكابدة ومعاناة.. قـد يتعرض فيها المجاهد لـلأسر والتعذيب أو الإعاقة، وجيش ذات السلاسل يتعرض لبعض ما تعرض له النبي ﷺ وأصحابه أيام الخندق والأحزاب، والصبر على هذه الظروف في سبيل الله جزاؤه كجزاء من يصلي، ويصوم دون انقطاع.. منذ أن يغادر المجاهد بلاده حتى يعود إليها، فقد قال ﷺ: «**إِنَّ مَثَلَ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَثَلِ الْقَائِمِ الصَّائِمِ الْخَاشِعِ الرَّاكِعِ السَّاجِدِ**».

صبر جيش عمرو بن العاص على أوامره، فنام من نام، وحرس من حرس، وقام من قام، أما الأمير فأفاق على أذان الفجر، وقد أصيب في أثناء نومه بحالة تستوجب الغسل.. تأمل الزمهرير الذي يلف معسكره، فلم يطل التفكير، بل تيمم وأمّ جنده وصلى بهم، فاستغرب الجند وهم يرونه يتيمم مع وجود الماء، لتظهر الأسئلة من جديد، وتشرق الشمس من جديد، فيوزع عمرو جيشه وينظمهم، ويأمرهم بتنفيذ خطته المحكمة عند التقاء الجيشين، ويلتقي الجيشان، وتدور معركة تطايرت فيها الرؤوس، وبعد ساعات يولي الوثنيون ويهربون.. تاركين أمتعتهم وجثث ضحاياهم، فيلاحقهم فرسان التوحيد، لكن صيحة دوت تأمرهم بالتوقف عن ملاحقة الفلول الوثنية.

توقف الجيش المنتصر على مضض، وهدأ المكان، وسكن الغبار، لكن الأنفس لم تهدأ.. ثارت المطالبات للأمير بالسماح لهم بملاحقة الفلول المنهزمة، لكنه أصر على موقفه.. موقف كان أشد غرابة من منعهم من إشعال النار البارحة.

مواقف الأمير تلك.. جعلت بعض أفراد الجيش يقررون رفع دعوى ضده حال عودتهم للمدينة، أما عمرو فقرر بعد هذا النصر العودة بجيشه للمدينة، فأمر بالاستعداد للانطلاق، وحان الوداع بين رافع الطائي وصديقه أبي بكر، وقبل الوداع بث رافع مشاعره الفياضة لخير رفيق رآه، وقال: «يا ذا الخلال، توسمتك من بين أصحابك. فقال أبوبكر: ولِمَ؟ قال: لتعلمني. قال: قد اجتهدت» عندها أينعت أخلاق أبي بكر في يباب هذا الشاب الملهوف، فقال: «أردت أن تخبرني بشيء يسير، إذا فعلت كنت معكم ومنكم؟».

أبوبكر يودع رافعًا ويأخذ قلبه

حان وداع ديار طيء، وكان الوداع مريرًا، فرافع الطائي لم يعد يملك قلبه.. استله أبوبكر.. امتلكه بكرمه وعذوبة أخلاقه مع هذا الشاب الطائي، الذي يوشك

أن يتخلى عن حياة الطيش والشقاء، وهو يرى رعاية هذا الشيخ له وكأنه ولده. نظر رافع إلى من أعاد له رشده وصوابه.. نظر إلى الصديق، فقال: «يا ذا الخلال، توسمتك من بين أصحابك. فقال أبوبكر: ولِمَ؟ قال: لتعلمني. قال: قد اجتهدت».. عندها ولد رافع من جديد، وهو يقول: «أردت أن تخبرني بشيء يسير إذا فعلت كنت معكم ومنكم؟ فقال الصديق: تحفظ أصابعك الخمس؟ فقال رافع: نعم. فقال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة الخمس، وتخرج زكاة مالك إن كان عندك، وتحج البيت، وتصوم رمضان»، ثم اجتهد الصديق فأضاف كلمات أملتها ظروف الحرب، وتذمر هذا الجيش من قائده، فقال: «وخير، لا تأمرن على اثنين» استغرب رافع أن تكون الإمارة في غير أهل المدن، فقال لأبي بكر: «وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المدر؟ فقال الصديق: لعلها تفشو فتبلغك، ومن هو في دونك» ثم أوصاه بكلمات خطيرة حول تولي الإمارة لمن لا يقوم بها بالعدل.. بيّن أبوبكر حقوق كل مواطن حتى لو كان مواطنًا منافقًا، فقال: «إن الله لما بعث نبيه ﷺ، دخل الناس في الإسلام، فهم عواذ الله وجيران الله وفي خفرة الله. إن الأمير إذا كان في قوم، فظلموا، فلم ينتصر لبعضهم من بعض انتقم الله منه، ولعمر الله إن الرجل منكم يظل ناتيًا عضله، غضبًا لجاره، والله من وراء جاره».

ودع رافع رفاقه بغير القلب الذي استقبلهم به.. ودع إخوة جددًا، وودع معهم حياة الضياع، وتهادى نحو حياة تتزين بالتوحيد والعبادة، والعدل وإنصاف المظلوم.. سلك طريقًا أوله ذات السلاسل، وآخره عند بوابات الجنة.. غاب الجيش عن ناظريه، لكنه لم يغب عن وجدانه وقلبه، أما ذو الخلال ورفاقه، فسافروا كالشوق نحو طيبة، ولما وصلوا بادر البعض بتقديم شكوى للقائد ﷺ كتلك الشكوى ضد خالد في مؤتة، لكنها لا تحمل شيئًا من التشفي أو الانتصار للذات.. كانت شكوى هدفها الصالح العام، وهي مشروعة ومبررة، ولم يشفع انتصار الأمير عمرو بن العاص له برفض الدعوى ضده.

وصول جيش ابن العاص

رجل غريب يقال له: الحارث بن حسان.. يسافر نحو المدينة في قضية خصومة.. تمايلت به راحلته عبر بادية تسمى الربذة، وفي أثناء مروره يصادف في طريقه عجوزًا من بني تميم تقطعت بها السبل، فلما شاهدته قالت: «يا عبدالله، إن لي إلى رسول الله حاجة، فهل أنت مبلغي إليه» رحب الحارث بن حسان بالتميمية، وحملها، وانطلق بها نحو طيبة، ولما وصلها تهادى عبر نخيلها وطرقاتها نحو المسجد.. في تلك اللحظات شاهد وصول جيش ذات السلاسل.. يشق دربه.. ترفرف راياته السود نحو مسجد رسول الله ﷺ، الذي علم بوصولهم، فخرج لاستقبالهم.

ازدحم المسجد بالتهاني، وصعد القائد ﷺ منبره، ثم ألقى كلمة على شعبه المبتهج، وعمرو بن العاص بين يديه، وبلال قائم متقلدًا سيفه أمام المنبر.. سأل الحارث عن هذا التجمع، فقيل له: «عمرو بن العاص قدم من جيش ذات السلاسل»، ثم نزل القائد ﷺ عن المنبر وجلس، وجلس الناس، فطلب الحارث بن حسان مقابلة القائد، فأذن له على الرغم من مظاهر الابتهاج الجارفة.. دنا الحارث، وحيّا نبيه وتكلم، فكان رجلًا شهمًا قدم حاجة التميمية على حاجته، فقال: «إنها قد سألتني أن أحملها إليك» فنظر القائد ﷺ لبلال وقال: «**يا بلال، ائذن لها**».

تهادت العجوز، فسلمت، ثم جلست بين يدي القائد المتواضع ﷺ الذي لم يبنِ قصرًا لاستقبال الوفود.. كان المسجد قصره ومدرسته وبيت ربه وملتقاه بشعبه. جرى حوار عذب بين القائد وضيفته وضيفه.. طوّف بالحاضر وأقاصي الماضي، وجاب الأرض، وحلق في السماء والرمال والرياح. سأل ﷺ الحارثَ: «هل بينكم وبين تميم شيء؟ قال: نعم، وكانت لنا الدائرة عليهم، فإن رأيت أن تجعل الدهناء بيننا وبينهم حاجزًا فعلت» انتفضت حمية التميمية لقومها، فقالت: «فإلى أين تضطر مضرك يا رسول الله؟» انتبه الحارث، فإذا هو يجلس بجوار تميمية امتلأ قلبها بحب قومها مضر، فقال لها ممازحًا: «إن مثلي مثل ما قال الأول: معزى حملت حتفها، وحملتك تكونين علي خصمًا، أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد» هنا تدخل ﷺ فقال

متسـائلًا: «وما وافد عـاد؟» قال الحارث: على الخبير سـقطت. عندها قص الحارث قصة شعبية غابرة في القدم تتداولها الأجيال، وهي أن وثنيي قوم عاد أصابهم قحط، فطلبـوا من رجلين أن يستسـقيا لهم. خـرج الرجلان فمرّا على رجل ثـري يقال له: بكـر بن معاوية، فاستـضافهم، وأكرمهم، وأقام لهم مجلـس شرب وطرب تغني فيه مغنيتـان تدعيـان الجرادتـان، ويبدو أن النعيم أنسـاهما مهمتهما وحـال قومهما حتى مر شـهر، فانتبه أحدهما، فخرج إلى جبال يقال لها: مهرة، فنادى واسـتغاث: وإذ به يسمع صوتًا مرعبًا في السماء.

ابن العاص يبحث عن مكانه في قلب النبي ﷺ

صعد الرجل الذي انتدبه مشركو عاد ليستغيث لهم جبلًا يقال له: مهرة، وذلك بعد أن أمضى في ضيافة أحد الأثرياء شـهرًا أمضاه في السـكر والعربدة.. صاح فوق الجبـل: «إني لم أجـئ لمريض فأداويه، ولا لأسـير فأفاديه، اللهم اسـقِ عـادًا ما كنت مسـقيه» وإذ بسـحابات سـود تمر فوقه في اتجاه قومه عاد، وإذ بصوت مرعب يدوي كالرعـد: «خذها رمـادًا رمددًا، لا تبقِ من عاد أحدًا» توقـف الحارث عند هذا الحد مـن القصة، ولم يعلق النبي ﷺ عليها، لكـن التميمية مازحت الحارث، وحذرته من عواقـب اقتراحـه الذي قد يجر الوبـال على قومه، فقالت: «لا تكـن كوافد عاد» بعد ذلـك عرضت التميميـة حاجتها على النبي ﷺ فقضاها، وقدم الحارث شـكواه ضد خصـم يقال لـه: العلاء بن الحضرمي فأفتـاه فيها، ثم جاء دور الأمـير المظفر عمرو بـن العـاص الذي قدم بعض جنده شـكوى ضـده تتلخص في ثلاثة أمـور: الأول، منعـه للجيش من إيقاد النار والأجواء شـديدة البرودة. والثاني، منعه ملاحقة فلول الأعداء المنهزمة. الثالث، صلاته بالجيش دون اغتسال.

جلس الأمير أمام قائد الدولة ﷺ يدافع عن نفسه بقوله: «كانوا قليلًا، فكرهت أن يوقدوا، فيستبين للعدو قلتهم، وكرهت أن يتبعوا العدو، وخفت أن يكون للعدو مـادة، فيعطفوا على النـاس». نظر القائد ﷺ لجنديه نظرة ارتيـاح، وحمد أمره، وتبين

للجميع في تلك المحاكمة العلنية دقته ﷺ في انتقاء قادة الجيوش ومسؤولي الدولة. بعد ذلك قال ﷺ: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فقال: احتلمت في ليلة باردة، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت. وقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء: ٢٩]. فضحك ﷺ ولم يقل شيئًا.

ابتهج عمرو بتلك الضحكة.. ابتهج بتأمره على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وبقيامه بإنجازات يستحيل القيام بها لو ظل قابعًا حول أخشابه وحجارته المطروحة فوق الكعبة.. ضحكة النبي ﷺ أغرته بشيء أعظم.. أغرته بمساحات أكبر في قلب النبي ﷺ فقال: أي الناس أحب إليك؟ قال ﷺ: «**عائشة**». فقال: من الرجال؟ قال: «**أبوها**». قال: ثم من؟ ظل عمرو يسأل حتى قال عمرو: فعدّ رجالًا. عندها سكتت أسئلة عمرو خشية أن يجعله آخرهم. أدرك عمرو فضل السابقين عليه، وتثمين النبي لقدراته وكفاءته، لكن عليه أن يبذل الكثير للّحاق بمن سبقوه بإنجازاتهم.

عمرو بن العاص ليس رجلًا عاديًّا

لم يكن عمْرو بن العاص رجلًا عاديًّا يقنع باعتناق الإسلام دون أن يكون له أثر.. ابن العاص ليس كهذا المسافر الذي يدخل المدينة ثائر الشعر.. يسمع الصحابة دوي صوته، ولا يفهمون ما يقول حتى دنا من النبي، فسأله مباشرة عن الإسلام، فقال ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**». فقال: هل علي غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع**». قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان. قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع) وذكر له رسول الله الزكاة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تطوع**».. بعدها مباشرة عاد الرجل لبلاده.. عاد من حيث أتى وهو يقول: والله لا أزيد على هذا، ولا أنقص. سمع ﷺ كلمة الرجل فقال: «**أفلح إن صدق**».. أما عمرو ابن العاص فيبحث عن دور يخدم به الإسلام، وينطبق عليه مفهوم الخيرية التي قدمها ﷺ للصحابة حين سألوه: من أكرم الناس؟ قال: «**أكرمهم أتقاهم**». قالوا:

يا نبي الله، ليس عن هذا نسـألك. قال: «**فأكرم الناس يوسـف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسـألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألونني؟**» قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا**».

لعمـرو وأمثالـه أدوار بارزة في الجاهلية، وليس من المتوقع أن يخبو وهجه بعد إسلامه، فالإسلام مأخوذ بتفعيل الطاقات نحو الأجمل والأسمى، وهل هناك سمو كهذا الذي ناله عمرو وخالد، وهما يقطعان بالإسلام مسافات لم يحلما بها يومًا.. إنهما يتبخـتران اليوم على مشـارف أعظم دولتين في العالم.. فـارس والروم. هذا بالضبط ما كان الإسـلام يعـده لأبي جهل وأمية بن خلف وغيرهما لو أسـلموا، وهذا ما تنبأ أبوسـفيان بحدوثـه وهو على بلاط هرقـل.. ينصت لزعيم الـروم، وهو يعلن تأهبه للرحيـل عن بلاطه، وملكه وسـلطانه لمحمد البسـيط، الذي يخصـف نعله، ويخيط ثوبـه، ويرقع دلـوه، لمحمد الذي يقـول: «**آكل كما يأكل العبـد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد**»، لمحمد الذي يأمن عنده الخائف، ويُنصف عنده المظلوم، لمحمد الذي لم يبنِ معتقلًا ولم يشيّد قصرًا، فقصوره في قلوب شعبه.. ذات يوم أُتي له برجل ترعد فرائصه خوفًا، فرقّ له، وقال: «**هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد**» ومع كل هذه السـماحة، إلا أن أمير اليمامة يبغضه، ويبغض دينه بغضًا جعله يقرر اغتياله ﷺ متى ما سنحت لذلك الأمير فرصة، وها هي الفرصة تسنح، فالنبي ﷺ خارج المدينة، وأمير اليمامة يتأهب ليفتك به.

❧❧❧

أمير بني حنيفة يريد اغتيال النبي ﷺ

اسمه (ثمامة بن أثال الحنفي).. وهو سيد اليمامة، وسيد بني حنيفة، وهو يعلنها صريحـة للنبـي ﷺ فيقول: «ما وجـه أبغض إلي من وجهك، ولا ديـن أبغض إلي من دينك، ولا بلد أبغض إلي من بلدك».. بغض سـببه تقليد أعمى، وتأثر بليد بالدعاية القرشية الوثنية، وربما كان مدفوعًا بتحريض من أحمق من قومه يدعى مسيلمة، وقد راقت لمسيلمة هذا فكرة غبية هي ادعاء النبوة؛ عله ينافس النبي ﷺ.



لم يقنع ثمامة بمشاعر البغض، بل حاول تجسيدها على أرض الواقع.. حاول أن يشفي غليل قريش بسفح دم قائد الدولة الإسلامية، الذي لم يؤذِه يومًا، ولم يغزُه.

سافر القائد ﷺ يومًا، وفي إحدى مراحل الطريق فوجئ بهجوم يشنه عليه زعيم اليمامة ثمامة بن أثال.. هجم ثمامة يريد قتل النبي ﷺ، لكن المحاولة فشلت، وأنجا الله نبيه. حزن ﷺ لذلك الاعتداء غير المبرر، فدعا ربه أن يمكنه من ثمامة، وكان ﷺ كعادته لا يكتفي بالدعاء فقط، فالتوكل هو القيام بالعمل بطريقة صحيحة، مع جعل النتائج كلها على الله، لا على العمل.. يتوكل على الله في الوقت الذي يعد جيشًا ذكيًا للقبض على ثمامة.

قام الجيش بعمليتين: الأولى، مواجهة عسكرية غنم فيها المسلمون الكثير، حيث يقول الشاب عبدالله بن عمر: إنهم غنموا إبلًا كثيرة حتى أعطى النبي كل واحد بعيرًا، أما العملية الأهم، فهي القبض على أمير اليمامة، الذي رصد جواسيس دولة الإسلام قيامه برحلة نحو مكة لأداء العمرة والتواطؤ مع قريش.. فوجئ ثمامة بقوة عسكرية تحاصره فاستسلم، وتم أسره وأخذه للمدينة، ولما وصل.. لم يجد للدولة الإسلامية معتقلات أو سجونًا، على الرغم من انتشار ثقافة السجون في العالم.. خاصة محاكم التفتيش المسيحية المرعبة. أدخل ثمامة في أطهر البقاع: (المسجد) فربط بعمود من أعمدته، وهو الذي كان يحلم بزف خبر موت محمد لقريش.

خرج القائد ﷺ نحو مسجده لا يحمل رغبة في الانتقام أو إذلال ثمامة.. خرج ﷺ يريد للرجل أن يتعرف إلى خالقه، وأن يدع تلك الأخشاب التي يصنعها بيده، ثم يعبدها. وقف ﷺ أمام ثمامة، فسأله وقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟» دار السؤال في رأسه وقلبه، فلم يجد سوى الدنيا ولا شيء غيرها، فقال: «عندي يا محمد، خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تعطَ منه ما شئت» سكت القائد ﷺ.. تركه.. لم يجبه.. جعل أجواء المسجد، وأخلاق الشعب المسلم، ونظام الدولة الإسلاميه تريه الإسلام نقيًا.. بعيدًا عن دعايات الوثنية.

بقي حبل عجز عنه ثمامة

كان القائد ﷺ يتردد على المسجد، بينما كان أمير بني حنيفة مأسورًا داخله.. يتأمل شعبًا شوهته مقالات الوثنيين والمنافقين.. رأى حبًّا ونظافة، ونظامًا وتوحيدًا.. يطهرون ثيابهم وأجسادهم.. يصلون.. يتعلمون رجالًا ونساءً.. رأى أخوة بين العربي والفارسي، والرومي والحبشي لم يرَ أو يسمع مثلها.. رآهم يؤثرونه بالطعام على أنفسهم.. غابت الشمس تحمل معها الكثير من أحقاد الوثنية، ثم أشرقت فأقبل القائد ﷺ نحو أسيره حتى وقف أمامه، وقال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فكرر إجابته بالأمس، فتركه للمشاهد نفسها تنتزع بقايا ثقافة الكراهية، حتى جاء الغد فعاد ﷺ وسأله السؤال نفسه؟ فقال ثمامة: «عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال، فسل تعطَ منه ما شئت؟» وفي أثناء ذلك الحوار كان أبوهريرة ورفاقه الفقراء من ساكني الصفّة.. كانوا يتبادلون النظرات وهم ينصتون، وكانوا يتمنون لو انتهى الحوار إلى شيء يخفف ما بهم من فاقة، فقالوا لبعضهم: «ما يصنع بدم ثمامة، والله لأكلة من جزور سمينة من فدائه، أحب إلينا من دم ثمامة» لكن القائد ﷺ كان يرى أن الدنيا بحذافيرها.. بإبلها.. بكنوزها لاتساوي شيئًا أمام هداية رجل أو امرأة، فكيف بهداية أمير اليمامة هذا؟

لم يتركه ﷺ، بل واصل إقباله على ثمامة، ثم لهج ببشرى طار لها قلب ثمامة، حين قال: «**عفوت عنك يا ثمامة**» ثم التفت لرجاله، وقال: «**أطلقوا ثمامة**» اقترب الرجال من القيد، ومدّوا أيديهم فحلوا وثاق الأمير، وحرروه من كل الحبال، إلا حبلًا واحدًا لا تصل أيديهم إليه.. حبل أنزله الله على نبيه، حين قال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: ٣٤].

تخلص ثمامة من قيده، وتنفس حياة أخرى، ثم خرج من باب المسجد تاركا قلبه أسيرًا.. رفع رأسه، فرأى قرب المسجد بستان نخيل، فتهادى نحوه، ولما دخله ستر نفسه، وخلع ثيابه، وأخذ إناء ماء، فسكبه على رأسه وجسده وغسلهما، ثم

لبس ثيابه وانطلق، لكنه لم ينطلق لليمامة.. عاد يتقاطر ماء وحبًّا، فدخل المسجد مرة أخرى، وتوجه نحو القائد ﷺ، فقال وهو بكامل حريته: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي. والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي»، ثم هتف بكلمات كالسيف اهتزت لها جزيرة العرب.

ثمامة أول من سن المقاطعة الاقتصادية

تهلل وجه النبي ﷺ لإسلام أمير بني حنيفة، الذي بدأ منذ الدقائق الأولى من إسلامه يستفسر عن دينه، وهل يكمل ما بدأه من عمرة قائلًا لنبيه: «إن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟» فأمره ﷺ أن يعتمر، وعلمه كيفيتها، فخرج نحو مكة وكله إيمان وعزة.

ثمامة الحنفي، ورافع الطائي، وبنو المصطلق، وكثير من البشر.. نوعية قد لا تتأثر بكثرة صلاة المسلم أو صيامه أو هيئته، بل قد يرونها نوعًا من العناء.. هذه النوعية من البشر.. لا تأبه بالعبادات قبل هدايتها، لكن الخلق الجميل والتعامل الراقي يسحرها.. هي مأخوذة بالدين المعاملة، لا بالدين العبادة، وهي نوعية لا تجد أفضل من محمد ﷺ للتعامل معها.. لا تجد أفضل منه، وهو يتهادى خلف كلمات ربه التي تصنع الزعماء العظماء، والقادة الأفذاذ.. كلمات تقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وقد حول اللطف ثمامة إلى ولي حميم، بعد أن كان عدوًّا متطرفًا.

ودّع ثمامة نبيه وقائده ﷺ، وإخوته الجدد، بعد أن صلى ركعتين.. متجهًا لمكة بقلب آخر، وشخصية أخرى، وأهداف أرقى وأسمى، وكأنه خلق من جديد،

فلما أقفى قال ﷺ لأصحابه: «**لقد حسن إسلام أخيكم**».. سافر ثمامة عبر الأودية والشعاب أيامًا، ولما أشرف على مكة استبشر الوثنيون بحليفهم، ورحبوا به، فلما شرع يؤدي عمرته انقبضت قلوبهم، واتسعت أعينهم، وهم يرونه يؤدي العمرة كما يؤديها محمد ﷺ.. صدموا، فلما فرغ من عمرته أقبلوا عليه، فقال أحدهم: «أصبوت؟» نظر إليهم ثمامة بعزة، فقال: «لا، ولكني أسلمت مع رسول الله» عندها بدؤوا استفزازه، كما استفز الطاغوت أبو جهل سعدَ بن معاذ، فنظر إليهم سيد حنيفة بحدة، وانتفض في وجوههم كما انتفض سيد الأوس، فهددهم كما هدد سعدٌ أبا جهل.. انفجر ثمامة وسط البيت كالبركان، وأقسم قائلًا: «والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها رسول الله»، ثم ركب بعيره، وانطلق.. فنظر الطواغيت لبعضهم، وأخذهم شعور كالموت.

إغلاق معسكرات الموت

غادر سيد بني حنيفة مكة، وقد قرر أن يحاصر طواغيتها اقتصاديًّا غضبًا لله ورسوله ﷺ، ودفعًا للظلم الذي لحق بأصحاب نبيه، ثم بيّن لهم أن أمر الحصار لن يكون بعد اليوم بيده، بل بيد قائده ونبيه محمد ﷺ. حلف على ذلك لقريش، فقال: «وايم الذي نفس ثمامة بيده، لا تأتيكم حبة من اليمامة ما بقيت، حتى يأذن فيها محمد ﷺ» أدرك طواغيت قريش فداحة تهورهم، وسفاهة عقولهم التي أوصلتهم إلى معاداة اليمامة.. قلب نجد وريف مكة من محصول القمح.. علم القائد ﷺ بما فعله سيد حنيفة، فأقره ولم يعترض عليه، ولم يقل: مهلًا يا ثمامة، فإن في مكة أناسًا ممن يخفون إسلامهم.. لم يقل: ما ذنب عمي العباس وعمتي عاتكة، فكانت المقاطعة سنة نبوية، وسلاحًا فعالًا في وجه من يعادي دولة الإسلام، أما ثمامة العظيم، فرجع لنجد.. لليمامة، وأصدر أوامره على الرغم من أنف مسيلمة.. بقطع العلاقات الاقتصادية مع مكة، ومنع تصدير القمح لها، وحال بين أهلها وبين الميرة من اليمامة حتى جهدت قريش وأنهكها الجوع حتى أكل بعضهم العلهز، أي الدماء.

جـن جنون طواغيتها الذين قادهم تكميمهـم للأفواه إلى أن كرههم كل شيء، وسـاءت أوضاعهم جدًّا، وأشرفوا على الهلاك، فأبوجندل وأبوبصير يقطعان طرق القوافـل، واليمامـة وبنو حنيفة يضربـون عليهم حصارًا خانقـًا، فاجتمع الطواغيت لإنقاذ مجد تليد يكاد ينهار بسبب طيشهم وصبيانية قراراتهم، وهم من سيكتب نهايته بسجونهم واضطهادهم للدعاة الموحدين.. تأملوا، فإذا الأرض تضيق وكأن الجبال تدنو لتخنقهم.. تشاوروا، فلم يجدوا أحدًا يسعفهم سوى الرجل الذي اضطهدوه، وعذبـوه، وطردوه.. محمـد ﷺ، ومن غير محمد طوقًا للنجـاة.. نهضوا من مؤتمرهم وقـد قرروا إيقاف قمعهـم لأبنائهم، والتخلي عن شرطهم الـذي زرع الموت لهم في الأوديـة والشـعاب، فأبوبصير وأبوجندل ومن معهما يمارسـون الرعب لقوافلهم.. يتخللونـهـا كالأشـباح.. كالموت؛ لذا أرسـلوا وفدًا للقائد ﷺ يخبرونـه بتخليهم عن ذلـك الشرط الظالم الذي يمنع الهجرة للدولة الإسـلامية، وأنـه منذ الآن.. من أراد الانضمام للدولة الإسلامية فهو حر.

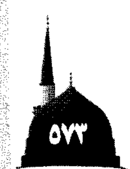
وصـل المبعـوث، فابتهـج النبي ﷺ، وابتهج الشـعب، وانطلقـت الخيل تشرق بالخـبر على دروب السـواحل.. على معسـكرات الموت.. أشرق كالشـمس على أبي بصـير وأبي جندل ومن معهما من الشـباب، فأغلقوا معسـكرات المـوت، والتحقوا بدولتهـم، وانضبطـوا خلـف نبيهـم وقائدهـم ﷺ... انتهى حصـار القوافل، وبقي حصار سـيد حنيفـة المميت، ومرة أخـرى تختفي الأصنـام والأوثـان، ويبقى أملها الوحيد بالله ثم بمحمد ﷺ.

أخو عمرو بن العاص يهرب من مكة

ظل هشـام بن العاص أخو عمرو بمكة محبوسًـا، فهشام كان قد اتّعد قبل سبع سـنوات مـع صديقه عياش بن أبي ربيعة وعمر بن الخطـاب للهجرة، فعلمت عائلة العاص، فحبسـوا ابنهم هشـام، أما عياش فوصل مع عمر لقباء، ولحق به أبوجهل وأخوه الحارث بن هشام، وهما أخوا عياش من الأم.. بحثًا عن أخيهما حتى وجداه،

ولما التقياه قالا: «إن أمك نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك» فرقّ لها، ولما رأى عمر وجهه قد تغير.. أدرك الحيلة، فقال: «يا عياش، والله إن يريدك القوم إلا عن دينك، فاحذرهم؟، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت» لكن الرحمة سافرت بعياش، فقال: «إن لي هناك مالًا، فآخذه» ألح عمر عليه، ولم يكتفِ، بل قال: «والله إنك لتعلم أني من أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما»، فأبى، فلم تتوقف عروض الفاروق عند نصف ثروته.. انطلق، فأحضر ناقة سريعة، ووضع خطامها بيد عياش، وقال وقلبه يعتصر ألمًا: «أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانجُ عليها».. انطلق الثلاثة، وفي منتصف الطريق غمز الطاغوت شقيقه الحارث، ثم التفت لعياش، وقال: «والله لقد استبطأت بعيري هذا، أفلا تحملني على ناقتك هذه؟ فقال عياش: بلى» فلما أناخ الثلاثة، وصاروا على الأرض.. وثب الطاغوت وأخوه على عياش، فطرحاه أرضًا، وكانا قد أعدا الحبال لتقييده، فقيداه وأدخلاه مكة ذليلًا، وأعاداه مكرهًا لعبادة الأصنام.

علم عمر بالأمر، فأحزنه، وتحدث هو ورفاقه بالمدينة عن عقيدة أمثال عياش وهشام، فقالوا: «والله لا يقبل الله ممن افتتن صرفًا ولا عدلًا، ولا يقبل توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم»، وكان هذا شعور هشام وعياش وأمثالهما، وذات يوم نزل على النبي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ففرح بها عمر، وأحب أن يفرح بها إخوته، فأرسلها لهشام الذي لم يفهمها في البداية، فصار من شغفه بفهمها يتجه إلى مكان اسمه ذو طوى.. يرددها، ويسأل الله أن يفهمه إياها، ويقول: «فلم أزل أقرؤها بذي طوى، أُصعد بها، وأصوب حتى فهمتها، فألقي في نفسي أنها نزلت فينا وفيها كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت، فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله بالمدينة».



الغدر عند نبع الوتير

جاعت مكة.. أكلت الدم والندم، بعد أن أكلت أبناءها في حروب لا طائل من ورائها.. اجتمع طواغيتها، وهم يرون شعبهم الوثني شاحبًا يترنح هزالًا، فكتبوا وهم أذلة رسالة لقائد الدولة الإسلامية ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى سيد حنيفة ثمامة بن أثال أن يعيد تصدير القمح لمكة. رق ﷺ لحالهم، على الرغم مما لاقاه منهم على مدى عشرين عامًا، فأرسل لأمير حنيفة أن يعفو عنهم، فاستجاب ثمامة مباشرة، وأصدر أوامره بالسماح بالتصدير لقريش.

دبت الحياة في مكة من جديد، وابتلت عروقها، لكن الطواغيت أغبياء لا يتعظون.. سرعان ما تسكرهم النعمة، وتلغي عقولهم، فبعد أن شبعوا، وامتلأت كروشهم بقمح نجد، وأمنت طرقاتهم للتجارة.. استيقظ حقدهم على الإسلام، لكنهم اليوم أضعف من أي يوم مضى.. هم أعجز من أن يحركوا قبائل الجزيرة ضد الإسلام ودولته، فتلك القبائل التزمت الحياد والترقب، بعد أن رأت مشركي مكة في حال يرثى لها.. كانت القبائل العربية تترقب نهاية قريبة لهم، ولم يبقَ في صفهم إلا الذين وقعوا معها حلفًا في الحديبية.. حتى هؤلاء الحلفاء لم يسعفوهم.. كانوا وبالًا عليهم.. كانوا فخًّا يدنيهم كل يوم من حتفهم، حتى خيمت تلك الليلة المشؤومة.. تلك الليلة المخيفة، التي قررت قريش وحليفتها بنوبكر الانتحار على ضفاف نبع يقال له: (الوتير)، ففي ساعة كالغدر.. في ساعة كالجنون.. قرر الحليفان الغدر بالقبيلة التي حالفت الدولة الإسلامية (قبيلة خزاعة) التي وقعت مع دولة الإسلام معاهدة دفاع مشترك.

خطط وثنيو بكر لتنفيذ المؤامرة بسرية بالغة، وسرعة خاطفة، وذلك بعد مرور عام ونصف على معاهدة الحديبية، ثم توجهوا بسرية لطواغيت قريش، فعرضوا عليهم خطتهم، فوافقوا، وقالوا لبكر: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل، وما يرانا أحد» ثم انتقوا لهم مجموعة من الرجال، ودعموهم بالكراع والسلاح، فانطلقت الكتيبة الوثنية المختلطة في الظلام، حتى وصلت نبع ماء يقال: الوتير؛ قرب مكة،

فإذ بأفراد من خزاعة مسلمين ووثنيين حول الماء.. منهم من يستسقي، ومنهم من يسمر، ومنهم الراكع والساجد.. هبطت عليهم الكتيبة المدججة فجأة وهم عزل، فمزقتهم السيوف والرماح، فسقط من سقط، ونجا من نجا، لكن الغدر لم يستطع طمس وجوه الخونة، الذين مزقوا معاهدة الحديبية بغدرهم.

الشعر يتفجر عند نبع الوتير

عند نبع الوتير ارتكبت قريش وبنوبكر مجزرة بحق قبيلة خزاعة حلفاء دولة الإسلام، لكن هناك من نجا، وتمكن من التعرف إلى بعض المجرمين وتحديد هويتهم، فانطلقوا لقادتهم يستغيثونهم. خرج قادة خزاعة نحو النبع، فإذ ببرك الدماء تختلط ببرك الماء، وإذ بالحزن يخالط الظلام.. جثث متناثرة، ومعاهدة مدتها عشر سنوات لم تصمد أكثر من عام ونصف.. هالهم المشهد، وأحرقت الخيانة قلوبهم، ثم دفنوا شهداءهم وقتلاهم، ثم عقد قادتهم اجتماعًا عاجلًا.

تشاوروا، فقرروا على الفور تفعيل معاهدة الدفاع المشترك مع الدولة الإسلامية، المنبثقة عن معاهدة الحديبية، وتم تكليف فارس اسمه عمرو بن سالم برسالة لقائد الدولة الإسلامية طلبًا للنجدة. ركب الرجل دابته، وانطلق ينهب الأرض حتى دخل شوارع المدينة التي قادته للنبي ﷺ، ولما مثل بين يديه سكتت الخطابة.. سكت النثر، ونطق الشعر من أضلاع كالجمر يئن لوعة ومرارة على الأحبة المغدورين. قال الخزاعي:

اللهُمَّ إنِّي ناشدٌ مُحمَّدَا ... حِلْفَ أبِينا وأبِيه الأتْلَدا

كنّا والدًا وكنتَ ولدًا ... ثُمَّتَ أسلمْنا ولم نَنزِعْ يَدا

فانصرْ رسولَ الله نصرًا أَعتدًا ... وادعُوا عبادَ الله يأْتُوا مدَدا

فِيهم رَسولُ الله قدْ تجرَّدا ... إنْ سيمَ خَسْفًا وجهُهُ تربَّدا

فِي فيلقٍ كالبحرِ يجرِي مزْبدًا ... إنّ قريشًا أخلفُوك الموعِدا

ونقضُــوا ميثاقَــكَ المؤكَّـدا　　　وزعمُـوا أن لسْـت أدعُو أحدا
فهـم أذلُّ وأقـلُّ عـددًا　　　قـد جعلُـوا لِي بكـداءٍ مرصِـدا
هـم بيَّتـونـا بالوتـيرِ هجـدًا　　　فقتلُونا رُكَّـعًـا وسـجَّـدا

سكت الشعر، ونطق الذي لا ينطق عن الهوى.. نطق محمد ﷺ.. نصير المظلومين، ومحرر المضطهدين، فهتف بالمستغيث قائلًا: «**نصرت يا عمرو بن سالم**» ثم رفع ﷺ رأسه إلى السماء، فرأى عنانة تعبر السماء، فقال لشعبه: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب**».

مرت أيام، فأمر القائد ﷺ بالتأهب لسفر مجهول.. لم يخبر به أحدًا.. حتى وزيره الأول أبا بكر، الذي دخل على ابنته عائشة «وهي تغربل حنطة لها، فسألها: ما هذا؟ أمركم رسول الله بالجهاز؟ فقالت: نعم، فتجهز. فقال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئًا، غير أنه قد أمرنا بالجهاز» سكت الصديق ممتثلًا، واكتفى بالتأهب للسفر، لكن أحد الصحابة لم يكتفِ.. كان حاضرًا حين جاء عمرو، ثم سمع بالتهيؤ للسفر المجهول، فربط بين الأمرين، فتسلل لبيته، وأخذ رقعة ومحبرة وقلمًا، ثم غمسه في المحبرة، وكتب رسالة بالغة الخطورة لطواغيت قريش.

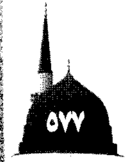
رسالة تخابر مع العدو

توجه الصحابي حاطب بن أبي بلتعة لبيته، وتناول قلمًا ومحبرة.. غمس القلم في المحبرة، وكتب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى فلان بن فلان».. كانت الرسالة تحذيرًا لطاغوت من طواغيت مكة.. من هجوم كاسح ووشيك قد تقوم به دولة الإسلام، ولما انتهى من الكتابة طوى الرسالة، وأخفاها، وتسلل ثانية نحو محطات السفر، فإذا امرأة على بعير على أتم الاستعداد للانطلاق لمكة.. دنا منها حاطب،

وهمس لها بأهمية رسـالته وحرصه على سريتها. وافقت المرأة، ومن شدة حرصها على إخفاء الرسالة لم تضعها في خرجها، أو بين متاعها، بل رفعت يديها، ونقضت ضفائر شعرها، ثم دست الرسالة بين خصل شعرها، ثم ألقت على رأسها خمارًا، ثم انطلقت يهوي بها بعيرها نحو مكة. سـارت وسـارت، وقبل أن تصل روضة يقال لها: روضة خاخ.. نزل جبريل، فأخبر النبي ﷺ بأمرها وأمر حاطب، فاستدعى فرسانه الشباب: علـي والزبير والمقـداد، ولما حضروا على خيلهـم أمرهم بالانطلاق فـورًا، وقال لهم: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها**».

انطلق الفرسـان كالريح.. تعادى بهم خيلهم حتى دخلوا الروضة.. تلفتوا، فإذا المـرأة هنـاك.. كما وصف النبي ﷺ.. توجهوا نحوها برفـق، ودون أي عنف لفظي أو جسـدي. خافت المرأة منهـم، لكن تحضرهم معها منحها شـعورًا بالأمان.. قالوا لها: «أخرجـي الكتـاب» فأنكرت، وقالت: «ما معي من كتاب» عندها نزل الفرسـان عن خيلهم، وتوجهوا نحو بعيرها، وأمسكوا بزمامه، وأناخوه، ثم فتشوا خرجها ومتاعها، فلم يجدوا شيئًا.. كانوا متأكدين من حملها للرسالة، فالذي أمرهـم لا ينطق عن الهوى؛ لذا وحسـمًا للأمر قالوا: «لتخرجن الكتـاب أو لنلقين الثياب» فأدركت المرأة خطورة الموقـف الذي وضعها حاطب فيه، فمدت يديها تحت خمارها وخلف رأسـها، فحلت شعرها، وأخرجت الرسالة ومدتها لهم. تناولها أحدهم، ففتحها، فإذا رسالة لا يمكن تفسيرها إلا بأنها خيانة عظمى، ومع ذلك لم يتخلَّ الفرسان عن أخلاقهم وتحضرهم، ولم يفتئتوا على القائد، ويبالغوا في الانفعال.. تركوها، وعادوا مسرعين لدولتهم، ولما وصلوا اتجهوا لنبيهم ﷺ وسلموه الرسالة، ومباشرة تم استدعاء حاطب لمساءلته عن هذا السلوك الذي لا يفعله إلا عدو للدين والقائد والوطن؟!

وصـل حاطب، ووقف خجـلًا بين يدي قائده ﷺ.. وقـف دون قيد أو ضرب أو إهانة، أو سجن على ذمة التحقيق، بينما كان ابن الخطاب متأهبًا بسيفه يريد فصل رأس حاطـب عن جسـده.. أمسـك القائد ﷺ بالرسـالة بيـده ونظر إليـه وقال: «**يا حاطب ما هذا؟**».



ما هذا يا حاطب؟

كان القائد ﷺ يمسك بيده رسالة حاطب، وحاطب أمامه، ثم قال: «**يا حاطب، ما هذا؟**» لم يرتبك حاطب.. لم يكذب، فهو أمام أعدل البشر الذي منحه حق الدفاع دون ضغط أو تهديد.. قال وهو يترافع في أعدل محكمة: «يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش، كنت حليفًا ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي»، ثم بيّن حاطب ثقته بربه ونبيه ودولته، فقال: «ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام»، ثم سكت.

تأمله القائد ﷺ، ثم خاطب رجال دولته، فقال: «**أما إنه قد صدقكم، فَلا تَقُولُوا لَهُ إلا خَيْرًا**» انتفض ابن الخطاب غضبًا على حاطب.. مفسرًا رسالته بالخيانة، وقائلًا: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ ورسولَه وَالْمُؤمِنِينَ» لكن القائد ﷺ أغمد سيف عمر بدرس للمسلمين وللقضاة، ألا يقتحموا النيات، فقال: «**إنه قد شهد بدرًا**»، ثم قدم ﷺ للأجيال درسًا عن وزن أصحابه الأوائل مهما بدر منهم من هفوات، فقال: «**يَا عُمَرُ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ**»، فدمعت عَيْنَا عُمَرَ خشية وإجلالًا لله، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

انصرف حاطب نادمًا، وهو يرى الإسلام يحتفظ له برصيد أودعه في أرض بدر، لكن القرآن نزل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١] .. آيات كشفت خطورة تخابر المواطن مع أعداء الإسلام ضد دولته، ولو بالمعلومة.. ناهيك عن الدعم المالي والعسكري.. المدهش في تحضر الدولة الإسلامية ورقيها هو

أن هذا المنع، وهذه الآية نزلت في أجواء تستعد فيها الدولة الإسلامية لحشد جيش هائل.. ليس دفاعًا عن الوطن، بل نصرة لقبيلة ليست مسلمة كلها، وهي خزاعة، لكنها قبيلة وقعت معاهدة دفاع مشترك مع دولة الإسلام.. هذه القيادة الفذة للنبي ﷺ تبين مستوى التحضر والالتزام بالمعاهدات الخارجية حتى مع الوثنيين، فعمل حاطب يُعدّ جريمة لأنه تخابر مع عدو الدولة الإسلامية دون إذن مسبق، والجيش الذي تعده الدولة الإسلامية لنصرة أناس وثنيين ومسلمين ليس جريمة، بل تحضر لأنه التزام بالمواثيق مهما كانت قاسية ومؤلمة.. أحداث كشفت أن سياسة الدولة الإسلامية تجاه غير المسلمين ليست سطحية، ولا ساذجة.. هي سياسة دولة راقية تتعامل مع الواقع ومع المستقبل لتنهض بهما.

الدولة الإسلامية تقدم دروسًا للمستقبل

لم تكن دولة النبي ﷺ دولة ساذجة أو سطحية في تعاملها مع العالم من حولها، فقد قدمت من خلال معاهدة الحديبية دروسًا لقيادات الدول الإسلامية في المستقبل.. حين يتعاملون مع دول غير مسلمة، فمفهوم الولاء والبراء لهذه الدولة ليس محنطًا، ولا يعني أن تكون الدولة انفعالية مندفعة، أو أن تكون قراراتها مجرد ردود أفعال تجني المر من ورائها، فها هو سيد القادة المسلمين يعدّ جيشًا لغزو مكة.. يفعل ذلك نصرة لحلفاء غير مسلمين، ومن قبل كان يرفض دخول شباب مسلمين لدولته، بينما يتمتع ابن سلول المنافق، ولبيد بن الأعصم اليهودي بحمايته، بل إن القرآن يأخذ دولته إلى تحضر أبعد من ذلك.. حين يمنعها من نصرة المسلمين، حين يهاجمهم العدو في حالة يقول الله تعالى عنها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الأنفال: ٧٢].

هذه الآية ومعها ومعاهدة الحديبية تكشفان أن الدولة الإسلامية دولة نظام لا فوضى، ودولة مبادئ ومواثيق لا دولة عواطف، وأهم تلك المبادئ الحفاظ

على مكتسبات الدولة وشعبها؛ لذا التزم القائد ﷺ بمعاهدته، فبعث لأمراء دولته من بني سليم، فأمدوه بنحو سبع مئة مقاتل، وأرسل لأمراء مزينة، فأمدوه بقرابة الألف، وتداعى الشجعان من كل القبائل، وفي كل القبائل خير وشجعان ينصرون الله ورسوله، حتى توافر لدى النبي ﷺ عند دخول شهر رمضان قوة ضاربة قوامها عشرة آلاف مقاتل.. هبوا خلف قائدهم.. لا يدرون أين وجهته.. يحدث ذلك وقريش لا يأتيهم خبر، ولا يدرون ما هو صانع.. سِرّية بالغة لحسم الأمر مع طواغيت استنفدوا كل طاقات السلام، والعفو والحلم، حتى خيل لهم أن تسامح المسلمين ورقيهم نوع من الخور والسذاجة تستحق الاستغلال.. هذا النوع من الطغاة لا يمكن أن يروا الحق، أو يحترموه حتى لو سطع كالشمس في أعينهم، لكنهم سيسرعون إليه إذا رأوا شعاعه منعكسًا على شفرة سيف صقيل.

اكتملت الحشود، وامتلأت المدينة وضواحيها بهم، فخرج لها القائد ﷺ وأمرها بالتحرك، فانطلقت في مشهد مهيب ومخيف في العاشر من رمضان.. مرت بالبوادي والقرى والمدن الوثنية دون أي جريمة سلب أو نهب أو اغتصاب.. كان جيشًا إسلاميًّا صائمًا ممتلئًا بخوف الله.

الانطلاق لفتح مكة

اليوم هو العاشر من رمضان.. بعد ثماني سنوات ونصف من هجرة النبي القائد ﷺ، وتأسيس الدولة الإسلامية، وفيه غصت المدينة وضواحيها بآلاف المجاهدين الذين تدفقوا من أنحاء الجزيرة كلها.. اكتملت الحشود، فاستدعى القائد رجلًا يدعى: كلثوم بن عتبة الغفاري، ويكنى بـ (أبي رهم)، ولما حضر عينه ﷺ أميرًا على المدينة في مدة غيابه، ثم ودّعه وانطلق. كان ﷺ أحيانًا إذا أراد السفر في رمضان يأكل قبل انطلاقه، ثم يركب كما يشير إلى ذلك ويفعل خادمه الشاب أنس، الذي يقول: (إنها سنة) لكن النبي ﷺ هذه المرة لم يفطر.. سار نحو مكة، وظل صائمًا حتى وصل مكانًا يقال له: الكديد، وهو ماء بين عسفان وقديد..

عندها توقف، وأمر جيشه بالوقف، ثم نزل فأفطر، وأفطر الناس، ولم يصوموا بقية الشهر طوال سفرهم.

سالت الحشود مرة أخرى، ثم توقفت بوادٍ يقال له: (الظهران) قرب قرية يقال لها: (مر)؛ لذا تنسب القرية للوادي، فيسمونها: (مر الظهران)، فانتشر الجند، وخيّم الليل، واشتعلت النيران على مساحات شاسعة في منظر هائل ومهيب لم تعرفه الجزيرة من قبل، بينما كانت مكة ساكنة، لكن بعض فرسانها لم يسكنوا.. شعروا بقلق.. بهدوء يسبق عاصفة مخيفة.. يخيفهم السكون.. يخيفهم الليل، وكأن الجن تطل من رؤوس الجبال، وكأن النجوم عيون غيلان.. لم يطق أحد شجعانهم هذا الجو الخانق، فجهز راحلته، وأردف ابنه وفرّ من مكة بحثًا عن محمد، الذي لا يكف سحاب تسامحه عن الهطل.. فارس يدعى (أبوسفيان بن الحارث) وهو ابن عم النبي ﷺ، وليس أبا سفيان بن حرب زعيم مكة.. يخرج ابن الحارث ومعه ابنه وابن عمة للنبي يدعى عبدالله بن أبي أمية، وهو أخو أم المؤمنين أم سلمة.. كان عبدالله شديدًا على المسلمين.. كارهًا للإسلام، لدرجة أنه جلس عند رأس أبي طالب حين وفاته، جلس هو وأبوجهل ليحولا بينه وبين الإسلام، وحتى لا ينطق بالشهادتين.

خرج أبوسفيان وابنه وابن أبي أمية يبحثون عن شيء يريح أرواحهم التي مزقها العناد، وفجأة يصدمون بمشهد معسكر هائل لم يروا ولم يسمعوا بمثله.. سألوا، فإذا هو معسكر المسلمين.. اقتربوا منه، ونزلوا عن رواحلهم، وبحثوا عن خباء زوجة القائد ﷺ ومستشارته أم سلمة، فلما وجدوه دخل عليها أخوها عبدالله وحياها وكلمها.. طالبًا منها أن تشفع لهم عند زوجها القائد ﷺ. ابتهجت أم المؤمنين بأخيها، فانطلقت حتى دخلت على زوجها ﷺ، فقدمت شفاعتها، لكن القائد ﷺ رفض مقابلتهم.. عادت حزينة فأخبرتهم، تأثر أبوسفيان وحزن، وأقسم أن ينتحر إن لم يقابله ﷺ.



أبوسفيان يقرر الانتحار

دخلت أم سلمة على زوجها القائد ﷺ فقالت: (يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك وصهرك؟) نظر ﷺ إليها وقد امتلأت ذاكرته بقسوتها، وقمعهما له ولأصحابه فقال: «لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال» خرجت أم سلمة حزينة على مصير أخيها، فأبلغته ورفيقه برد النبي ﷺ.. تأمل أبوسفيان الدنيا، فإذا هي بلا لون، ولا طعم، ولا طرقات.. شاحبة كالموت.. نظر لطفله الذي بجانبه، وحلف: «والله ليأذنن لي، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا» نُقلت تلك الكلمات الباكيات للنبي الرحيم ﷺ، فرقّ قلبه ولان، وأذن لهما بالدخول، فتهادى الرجلان يقطران خجلًا.. سلما، وشهدا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فذهب ما في نفسه ﷺ وعفا عنهما.. عفا عن تلك القائمة الطويلة من الجرائم، فاحترق جوف أبي سفيان ندمًا، وزفر بأبيات، وقال:

لعمرُك أني يوم أحملُ رايةً ... لتغلبَ خيلُ اللاتِ خيلَ محمدِ
لَكالمدْلِجِ الحَيرانِ أظلمَ ليلُه ... فَهَذا أَوانُ الحقِّ أهدِي وأَهْتدِي
فقُلْ لثَقِيفٍ لا أُرِيدُ قتالَكُمْ ... وقُلْ لثقيفٍ تِلْكَ عِنْدِي فأَوعِدِي
هَدانِي هادٍ غَيرُ نفسِي ودلَّنِي ... إِلَى اللهِ مَنْ طردتُ كلَّ مَطْرِدِ

هيجت الأبيات مشاعر النبي ﷺ، فقام بحركة تنضح بالعتاب لابن عمه أبي سفيان بن الحارث على قسوته، وهو الذي لم يؤذِه يومًا، فرفع ﷺ يده، وضرب صدر أبي سفيان، وقال معاتبًا: «**أنت طردتني كل مطرد**» أججت الضربة بركان الشعر مجددًا بين أضلاع أبي سفيان، فقال:

أفرُّ سرِيعًا جاهِدًا عنْ محمدٍ ... وأدَّعِي ولَو لم أنتَسِبْ لمحمَّدِ
همْ عصبةٌ مَنْ لم يقلْ بهواهُمُ ... وإنْ كانَ ذا رأيٍ يلمّ ويفنَد

أُريـدُ لأرضِيهِـمْ ولسـتُ بلافظٍ	مع القـومِ ما لم أهدِ في كلِّ مَقْعَـدَ
فَما كنتُ فِي الجيشِ الذِي نالَ عامرًا	وَلا كَلَّ عنْ خيرٍ لسـانِي ولا يدِي
قبائـلُ جـاءتْ مِـنْ بـلادٍ بعيـدةٍ	توابـعُ جاءتْ مِنْ سِـهامٍ وسَرْدَدِ
وإنَّ الـذِي أخْرَجْتـمُ وشَـتَمْتمُو	سَيَسْعَى لكمْ سعيَ امرئٍ غيرِ قعـدَدِ

التحـق أبو سـفيان بـن الحـارث بجيش الإسـلام، فأين أبو سـفيان بـن حرب، وأيـن رفيقه العباس عم النبـي ﷺ.. لقد وصلت الأخبار إلى مكة، فأمسـى العباس الـذي يخفي إيمانه، ويخشـى على مجد قريش.. أمسـى في أقصى حـالات التوتر، وقال في نفسـه: «والله لئن دخل رسـول الله مكة عنوة قبل أن يسـتأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر». ثم قرر التحرك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.. ركب دابته، وخرج مسرعًا للقاء النبي ﷺ عله يفعل شيئًا يخفف من هول الأمر.

العباس في معسكر مر الظهران

خرج العباس مسرعًا قلقًا للقاء النبي ﷺ في معسـكره بمر الظهران، ولما وصل هالتـه النيران والخيام والفرسـان.. أدرك نهاية قريـش، وأصيب برعب وخوف على تاريخهـا ومسـتقبلها، ولعله بقـي كل هذه المدة يخفـي إيمانه للإبقاء عـلى مكانة أهل البيـت في مكـة، فهو آخر مـن بقي من أبناء عبدالمطلب العـشرة، ولا يمكن أن يترك السـاحة للوثنيـين وحدهـم.. في تلك الأجـواء التي تحبس الأنفـاس.. قال العباس لنفسـه: «وا صبـاح قريش، والله لئن دخل رسـول الله مكة عنوة قبل أن يسـتأمنوه، إنـه لهلاك قريـش إلى آخر الدهر» ارتبك.. لم يطق البقاء في المعسـكر.. قرر التحرك، فاستعار من رسول الله بغلته البيضاء، وركبها، ثم انطلق مسرعًا عبر مكان يقال له: الأراك.. ذلك المكان الذي يحمل ذكريات الشهيد مرثد بن أبي مرثد، الذي كان ينقذ أسرى المسلمين من بيوت أهلهم، ثم يطلقهم هنا.

تلفت العباس في المكان باحثًا عن حطاب.. عن راعي غنم.. عن صاحب لبن.. عن أي مكي ليرسله؛ كي يحذر أهل مكة من هذا الطوفان الهائل.. عل قياداتهم تخرج للقائد ﷺ تطلب الأمان لمكة، فهذه الحشود التي تهز الأرض لن تتوقف إلا عند الكعبة، وقريش لا طاقة لها بها.. بحث العباس في الظلام، وهو متجه إلى مكة، فرأى ألسنة لهب من بعيد.. أسرع نحوها، فإذ بثلاثة رجال يتسامرون حولها.. نزل عن البغلة، ودب نحوهم، فإذا بصديقه أبو سفيان بن حرب، ومعه وجيه يقال له: بديل بن ورقاء، ورجل ثالث، وقد جلسوا في مكان مرتفع يراقبون نيران المعسكر.. اقترب العباس، فأنصت إليهم، فإذ بأبي سفيان يقول: «ما رأيت كاليوم قط نيرانًا ولا عسكرًا؟» فتوقع بديل أنها خزاعة.. جاءت للثأر من غدر قريش وبكر، وقال: «هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب» لكن أبا سفيان استبعد ذلك قائلًا: «خزاعة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها» حينها هتف العباس مقاطعًا صديقه ومناديًا: «يا أبا حنظلة؟ التفت أبو سفيان وقد عرف الصوت، فقال: أبو الفضل؟ قال: نعم. قال: ما لك، فداك أبي وأمي؟ فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، وا صباح قريش والله» عندها ارتجف زعيم مكة، فقال: «فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال العباس: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب معي هذه البغلة».

عمر يريد قتل أبي سفيان

كان أبو سفيان ورفيقان له في مكان مرتفع يحاولون اكتشاف ألسنة النيران الهائلة، ليفاجأ بالعباس يناديه: «يا أباحنظلة. التفت وقد عرف الصوت، فقال: أبو الفضل؟ قال: نعم. قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس» ثم هتف العباس بمرارة قائلًا: «وا صباح قريش والله» عندها ارتجف قلب زعيم مكة، فقال: «فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ فقال: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله، أستأمنه لك».

أصيب الرجلان بالهلع، فعادا لمكة، أما أبو سفيان فنهض خائفًا، وتهادى نحو بغلة رسول الله ﷺ، وركب خلف العباس.. سارت الراحلة بالزعيمين نحو المعسكر الذي بدأ يكبر، وتترامى أطرافه كلما اقتربا منه، فهل تذكرا نيران معسكر الأحزاب حول الخندق.. حين حشد اليهود أكثر من عشرة آلاف وثني لاجتياح المدينة دون مبرر.. حينها بلغت القلوب الحناجر، وزلزل المؤمنون زلزالًا شديدًا، لكن معسكرهم تحول بقوة الله إلى نفايات، والليلة ها هو محمد ﷺ والمؤمنون على مشارف مكة، وها هم طغاة مكة قد زلزلوا، وندم وثنيو الجزيرة على خدعة عشرين عامًا عادوا خلالها رسول الله انسياقًا خلف دعايات قريش المضللة.

شق العباس خيام المعسكر ونيرانه، وتوغل وسط قطاعات الجيش.. كلما مر بمجموعة قالوا: «من هذا؟» فإذا قيل لهم: «عم رسول الله على بغلته» تحولت نظرات التساؤل إلى نظرات احترام، ويبدو أن أبا سفيان كان يحاول إخفاء وجهه، حتى سطعت بالدابة نار رجل طويل، فنهض فزعًا، وهتف: «من هذا؟» ثم توجه نحوهما، وما إن أصبح أمامهما حتى نسي العباس، واتسعت عيناه وهو يحدق، بالرديف، ثم صاح: «أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد».

كان ذاك الصارخ عمر الفاروق، الذي انطلق يركض نحو خيمة القيادة.. ارتجف قلب أبي سفيان، وهو يرى الموت يركض أمامه، لكن العباس ضرب البغلة كي يلحق بعمر قبل أن يحصل على إذن بقتل صاحبه أبي سفيان.. انطلقت البغلة بسرعة حتى تمكنت من سبق عمر، ولما أصبحت أمام الخيمة نزل العباس عنها مسرعًا، وتمكن من دخول الخيمة، ثم دخل عمر بعده تتقطع أنفاسه.. قد امتلأ بالغضب لله ورسوله، وهو يصيح: «يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه» وقبل أن يرد القائد ﷺ صاح العباس: «يا رسول الله، إني أجرته».

عمر والعباس ورأس أبي سفيان

دخل عمر بن الخطاب خيمة القائد ﷺ تتقطع أنفاسه.. يرتجف قلبه غضبًا لله ورسوله، وفرحًا بالظفر بزعيم مكة أبي سفيان، عله يشفي غليله من قريش قبل أن تبدأ المعركة، وكأنه يثأر لخبيب الذي أُخذ غدرًا، وأُعدم دون مراعاة للأعراف والتقاليد.. صاح عمر: «يا رسول الله، هذا أبوسفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه».

وفجأة، وقبل أن يرد القائد ﷺ.. دخل العباس خيمة القيادة، وهو يصيح: «يا رسول الله، إني أجرته» لم يكتفِ العباس بإجارة أبي سفيان، بل وثب نحو القائد، ومد يديه، وأمسك برأسه ﷺ، وصاح بمن حوله حالفًا: «لا، والله، لا يناجيه الليلة رجل دوني» كرر عمر مناشدته، وأبوسفيان خائف فوق البغلة لا يدري ما مصيره.

ظل عمر يناشد نبيه ﷺ، فالتفت العباس نحوه، وقال غاضبًا: «مهلًا يا عمر، أما والله لوكان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبدمناف» سافرت تلك الكلمات في أعماق عمر، فلم تجد لها مكانًا، فلقد تخلص الفاروق من العنصرية القبلية، ولم يعد بين حناياه سوى حب الله ورسوله وحب ما يحبان ومن يحبان.. أعلن عمر حبه للعباس، بل حلف إنه يحبه أكثر من أبيه الخطاب، وقال: «مهلًا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب».. تغير عمر.. تغير في ذلك اليوم الذي كان يسير مع نبيه، ونبيه ممسك بيده، فأثرت تلك المسكة الحانية في قلبه، فقال: «يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: **لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**. فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: **الآن يا عمر**». سكت العباس، وهدأ الفاروق، وكأن النبي ينتظر سكوتهما، ثم التفت لعمه، وقال: «**اذهب به إلى رحلك يا عباس، فإذا أصبح فائتني به**».

نهض العباس، وانطلق برفيقه نحو خبائه، وباتا هناك، ولما أشرق الفجر أذن بلال، فنهض أكثر من عشرة آلاف مقاتل.. توضؤوا، وصلوا خلف نبيهم ﷺ، وأبو سفيان يتأملهم.. يتأمل الرجل الذي كان بالأمس يُخنق عند الكعبة، ويُلقى السلى على ظهره وهو ساجد، وها هو اليوم يتأهب لحكم مكة، وتتأهب الجزيرة كلها لمبايعته. انقضت الصلاة، فنهض العباس نحو أبي سفيان ولما وصل إليه ناداه، ثم أخذه معه نحو خيمة القائد ﷺ.. مشيا خطوات أمام عيون تلك الحشود الموحدة حتى وصلا، ولما وصلا استأذنا في الدخول، فأذن لهما، ولما دخلا جلسا والنبي ﷺ ينظر إلى آخر زعماء قريش، وقد فقد كل شيء.. نظر القائد ﷺ لضيفه نظرة رحمة، ثم قال له: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**».

أبوسفيان يتحدث في أجواء حرية

جلس أبو سفيان بين يدي النبي القائد ﷺ ينتظر مصيره.. جلس في موقف ضعف كما كان النبي ﷺ في مكة قبل عشر سنوات.. لم يتعرض لسب، ولا لإهانة، بل تمتع بأجواء الحماية التي توفرها الدولة الإسلامية لضيوفها.. تأمله النبي، ثم قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**» أدرك أبو سفيان أنه لن يمسه سوء، وأن هذا النبي لا يضمر له إلا خيرًا، ولو كان يضمر شرًّا لكان قد فارق الحياة على يد الفاروق البارحة؛ لذا عبر عما في نفسه في أجواء حرية بخلت بها قريش على الموحدين؛ لذا قال للنبي: «بأبي أنت وأمي، ما أكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا».

دخل أبو سفيان في التوحيد، وبقي الاعتراف بالإسلام والنبوة، فقال له النبي ﷺ: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن.

ما أصعب انقياد الزعماء للحق، وما أثقل ترك المناصب على النفوس!، وأبوسفيان يوشك أن يوقع استقالته عن زعامة تسلّمها منذ هلاك الطاغية أبي جهل.. اجتهد العباس في حلحلة الأمر بكلمات من عنده، وليست من عند النبي، فالتفت لصديقه، ووبخه قائلًا: «**ويحك يا أبا سفيان، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك؟**» كلمات جعلت أبا سفيان يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله».

خرج أبوسفيان مسلمًا، وهو يشعر بخسارة زعامته، ولما خرج تأمله العباس، فأشفق عليه، فأراد مواساته وترميم معنوياته، فهمس بنبيه ﷺ: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئًا» لم يرد ﷺ إذلال الزعيم القرشي ولا تحطيمه، وما بعث لتحطيم الهمم بل للارتقاء بها؛ لذا قال للعباس: «**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**» كان ﷺ يدرك تأثير الزعامة في تأخر إسلام القادة، فالرئاسة انشغال بالدنيا.. بالأتباع.. بالأعداء. الزعامة سياج من الشهوات تعيق الفكر، وقليل من يسمو على ذلك السياج؛ لذا أحب ﷺ أن يوقظ صهره أبا سفيان، ويفتح عينيه على الواقع، فأوصى العباس قائلًا: «**يا عباس، احبسه بمضيق الوادي، عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله، فيراها**» فانطلق العباس نحو راحلته، ثم أردف أبا سفيان، وسارت بهما الدابة حتى وصلا مضيق الوادي، وهناك أوقف راحلته، ونزلا ليرى أبوسفيان الطوفان المتدفق إيمانًا وحماسًا مع طلوع الشمس، أما رسول الله فلم تُغْرِه كثرة جيشه.. ظل قائدًا بارعًا.. وزّع جيشه إلى أربع كتائب، وجعل لها ثلاثة قادة هم: خالد بن الوليد، وأبا عبيدة، والزبير بن العوام، أما الكتيبة الكبرى فقادها ﷺ بنفسه. وقف العباس وصاحبه ينتظران، وفجأة اهتزت الأرض.. تحرك الجيش، وسالت الكتائب يمينًا وشمالًا لتطبق على جيش الوثنيين.

كتائب فتح مكة

وزع القائد ﷺ جيشه إلى أربع كتائب: كتيبة تمثل جناحًا أيمن يقودها الزبير بن العوام، وجناحًا أيسر يقوده خالد بن الوليد، وكتيبة يقودها أبو عبيدة، وهم الحسر الذين لا يملكون دروعًا، ويبدو أنهم في المؤخرة.

أما الكتيبة العظمى فيقودها النبي ﷺ، وهي قلب الجيش وأكثره، وتتكون من تشكيلات قبلية وآخرها الفرقة الأهم.. فرقة البنائين الأوائل وهم المهاجرون والأنصار، ولقبت بالخضراء؛ لشدة سوادها من كثرة الدروع، أما قريش فقد رقعت لها جيشًا مهلهلًا.. مهتز المعنويات.. معظمه من المرتزقة، والاعتماد على المرتزقة أسلوب قديم للطواغيت، حين يستشعرون نهايتهم، ومرتزقة قريش هم أفراد من الوثنيين.. جاؤوا من أجل المال والسلب والنهب.. لا تهمهم مكة، ولا أهلها، وسيتخلون عن طواغيتها عند أي انكسار.. هم باختصار: مجموعة من المجرمين وقطاع الطرق، وقد عبروا عن أنفسهم بقولهم: «نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أُصيبوا أعطينا ما سألوا».

بدأ الزحف، وثار الغبار والحماس مع مضيق الوادي، حيث يراقب العباس وأبو سفيان.. مر قسم من الكتيبة، فقال أبو سفيان: «من هؤلاء؟ فقال العباس: سليم. فقال: ما لي ولسليم» ثم مر قسم آخر، فسأل عنها؟ فقال العباس: «مزينة. فقال أبو سفيان: ما لي ولمزينة؟».. مرت قبائل وقبائل، فلا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فيخبره العباس، فيقول: «ما لي ولبني فلان» وأخيرًا هزت الأرض فرقة مرعبة كالموت.. الكتيبة الخضراء.. لا يرى منها إلا الحدق.. عندها اتسعت عينا أبي سفيان، وانتفض، فقال: «سبحان الله، من هؤلاء يا عباس؟ فقال العباس: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا. فقال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة».. عندها أذعن زعيم مكة، فقال: «فنعم، إذن» ثم نهض العباس، وأمر رفيقه بالانطلاق على عجل قائلًا: «النجاة إلى قومك» ثم ركبا وسلكا طريقًا مختصرًا لمكة،

وفجـأة جاءت عيون الجيش الإسـلامي بأخبـار المرتزقة، فتوقـف القائد ﷺ، وقرر حصـد هـؤلاء المجرمين حصدًا، وكلـف الأنصار وحدهم بتنفيذ هـذه المهمة، حين التفـت، فـرأى أبا هريرة، فناداه، وقال له: «**يا أباهريـرة، اهتف بالأنصار، فلا يأتيني إلا أنصاري**».

سحق المرتزقة قبل فتح مكة

قـرر القائـد ﷺ حصـد قطاع الطـرق والمجرمين مـن المرتزقة حصـدًا، فهم عباد للـمال.. لا مبدأ لهم ولا ذمـة، ولا يؤمنون بقوانين الحـرب ولا أعرافها، ولا يتمتعون بشرف الفروسية.. ما يهم قطاع الطرق هو المال، ولو خانوا وغدروا واغتصبوا، وقتلوا الطفل والمرأة والعجائز؛ لذا كلف القائد ﷺ الأنصار وحدهم بتنفيذ هذه المهمة.

التفـت، فـرأى أبا هريـرة قريبًا منه، فنـاداه، فأقبل حتى وقف بـين يدي قائده، فأصدر له أمرًا حاسمًا: «**يا أبا هريرة، اهتف بالأنصار، فلا يأتيني إلا أنصاري**».

انطلـق فارس السـيف والعلـم يصيح بالكتيبـة الخضراء: «يا معـشر الأنصار، أجيبـوا رسـول الله، فتداعـوا كأنـما كانوا عـلى ميعاد» تقاطـروا كالحـب، وأحاطوا بقائدهم، ولما اكتملوا حوله هتف ﷺ بهم، وبأميرهم سعد بن عبادة قائلًا: «**أما ترون إلى أوبـاش قريش وأتباعهم؟**» ثم قام بحركـة صارمة بيديه، «ضرب بيده اليمنى مما يلي الخنصر وسـط اليسرى» أي مسـح يده اليسري باليمني من جهة الخنصر؛ وقال: «**احصدوهم حصدًا، حتى توافوني بالصفا، اسـلكوا هـذه الطريق، ولا يشرفن لكم أحد إلا أنمتموه**» انتهى الأمر، فانطلق أسد الأنصار بكتيبته لسحق المرتزقة، بينما كان الزبير يلتف عن اليمن، وخالد عن الشـمال، أما القائد ﷺ فتوقف قليلًا بمكان يقال له: ذو طوى، بينما انشـغل وزيره الأول وآمر الخيـل أبوبكر الصديق بترتيب إحدى الكتائـب والإشراف على آخر ترتيبات الهجوم، الـذي يبدو أنه لن يلقى مقاومة. في أثناء ذلك، وفي أحد بيوت مكة.. كان هناك شيخ أعمى، قد ابيضت لحيته كالثلج..

يهتف بابنته الصغيرة، فأقبلت نحوه، وقد طوقت رقبتها الصغيرة بعقد من الفضة.. أمسك الشيخ بعصاه ونهض، وأمسك بيد ابنته، وقال لها: «أظهريني على الجبل» تهادت الطفلة بوالدها الأعمى، الذي يتهزع في مشيته وهو يصعد الجبل بصعوبة، وكأنها تتساءل عن جدوى صعود الجبل لشيخ أعمى لا يرى؟

توقفت الفتاة حين وصلت لمستوى من الجبل يشرف على ما حوله، وأخبرت والدها الشيخ بأنها وصلت للمكان الذي يريده، فرفع حاجبيه الثقيلين، وقلّب عينيه.. أطرق والريح تهز لحيته، ثم قال لابنته: «ما ترين؟ فقالت: سوادًا مجتمعًا. فقال: تلك والله الخيل»، ثم قالت الطفلة: «وأرى بين يدي ذلك السواد رجلًا يسعى مقبلًا ومدبرًا. فقال: ذاك الوازع»، يعني الذي يأمر الخيل، ويتقدم إليها.

لم يعلم هذا الشيخ الطاعن، وهو يقلب عينيه أنه يتحدث عن ابنه أبي بكر، ولم تعلم الفتاة أنها كانت تراقب تحركات أخيها الصديق، وفجأة ارتجف قلب الفتاة، وهتفت بأبيها: «أرى أن ذلك السواد قد انتشر» فصاح الشيخ بابنته وهو يمد يده لها: «قد والله دفعت الخيل، فأسرعي» مدت الفتاة كفها الصغير، فأمسكت بيده، وانحدرت به.. حاولت أن تسرع، لكن حركة الشيخ لا تساعدها، وفجأة قطع طوفان الجيش الطريق عليهما.

وصمتت مكة

انحدرت أخت أبي بكر بوالدها الشيخ الأعمى.. انحدرت من الجبل بصعوبة علها تصل البيت قبل وصول الجيش، لكن طلائع الكتائب الأولى قطعت الطريق عليهما.. توقفت الفتاة مذهولة، وأوقفت والدها أمام سيل من الصهيل والرغاء، وفجأة التفت رجل من حديثي الإسلام، فرأى الفتاة، وحدق في العقد حول عنقها، فانحنى ومد يده للعقد، فخطفه من رقبتها، وكأنه يخطف قلبها، فظلت واقفة مذهولة.. تتراجع للوراء حتى يمر الجيش، ثم التقطت أنفاسها، وتهادت بوالدها حزينة نحو البيت.

في مكان آخر.. كان العباس بن عبدالمطلب يصيح برفيقه أبي سفيان قائلًا: «النجاء إلى قومك» هب الرجلان، وركبا، وانطلقا يسلكان طريقًا مختصرًا نحو مكة، وما إن لامست قوائم الراحلة مكة حتى توقف أبوسفيان، وبدأ يصرخ بأعلى صوته.. يناشد شعبه سابقًا: «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

ظل أبوسفيان يطوف.. يصرخ.. يحذر حتى اقترب من بيته المشرع للخائفين.. كانت الحشود تتدافع نحو الباب، وإذ بامرأة تخرج من منزل زعيم مكة.. تشق حشود المنحشرين الخائفين.. تقبل نحو أبي سفيان.. تصيح بالخائفين.. تنادي قريشًا وهي في أشد حالات الغضب.. تقترب منه وهو غير آبه بها، وهي غير آبهة به.. تقترب، فإذا هي زوجته هند بنت عتبة.. عجزت عن ثني الناس عن الهرب، فمدت يديها نحو وجه زوجها بغضب، ثم أمسكت بشاربه، وصرخت ببقايا الوثنيين: «اقتلوا الدسم الأحمس، فبئس من طليعة قوم».

لم يؤاخذها أبوسفيان، فهي لم تَرَ الكتيبة الخضراء.. لم تَرَ ما رأى من جيش محمد وعفو محمد ونصر الله لمحمد ﷺ، فعاد للصراخ مرة أخرى: «ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

علا الضجيج، وتراكض الرجال والنساء في كل اتجاه، وانخلعت القلوب، وبلغت الحناجر من الرعب، وتدافع من كان بيته بعيدًا نحو بيت أبي سفيان.. اكتظ بهم الباب، وغصت بهم الدار، وصاحب الدار وصاحبته يتبادلان الصراخ في الخارج، فأقبل من لم يجد مكانًا في بيت أبي سفيان والرعب يقتلهم، والأرض تضيق بهم وكأن السيوف تقترب لحزّ رقابهم.. أقبلوا نحو زعيمهم يتصببون عرقًا وخوفًا.. يصرخون: «ويلك، وما تغني عنا دارك؟» فطمأنهم ثقة بوعد قائد الدولة الإسلامية محمد ﷺ وقال: «ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» عندها تنفس الناس الصعداء، وانقشعوا عن أبي سفيان، وأطلقوا سيقانهم للريح يركضون.. يركضون وكأن الموت يطاردهم في كل شبر طاردوا فيه النبي ﷺ وأصحابه.. منهم

مـن يهرب نحـو داره، ومنهم من كان بيته بعيـدًا، ففرّ إلى جـوار الكعبة، ومنهم من دخل أقرب دار مفتوحة.

التهمـت البيوت وثني مكة، وخلت الشـوارع والميادين والأسـواق من البشر، ثم صمتت مكة.. صمت كل شيء فيها صمت المقابر.. الأبواب مقفلة، والدكاكين مغلقة، والشوارع خالية حتى من الغبار.. مكة صمت.. مكة إنصات وسكون يسبق الإعصار.

الشعر يحدد طريق فتح مكة

صمتـت طرقـات مكة.. خلت من سـاكنيها.. مـن بقايا طواغيتهـا الذين طالما نـشروا فيهـا الرعـب والتعذيـب والاضطهـاد للدعـاة.. صمتـت مكـة، ونطقـت الذكريـات: هـا هنا عُذب بلال وعمار، وسـحبا بالحبـال.. ها هنا كانـت النار توقد لخبـاب، ثـم يجـرّه المراهقون على ظهره فـوق جمرها مرات ومرات حتـى تنطفئ بين قهقـات الطواغيت الذين هلك بعضهـم، وفرّ بعضهم، ويرتجـف الآن باقيهم.. ها هنـا خرت سـمية برمح اخـترق بطنها، وخرج مـن ظهرها، وخـر بجوارها زوجها ياسر غارقًا بدمائه شـهيدًا، وهناك أُلقي السلى على ظهر النبي ﷺ وهو سـاجد.. هنا عجـز المؤمنـون حتى عن لفظ كلمة التوحيد.. عجزوا حتـى عن الحركة وهم يرون عقبـة بـن أبي معيط يخنق نبيهم ﷺ وهو سـاجد عنـد الكعبة، وأخـيرًا ها هو الشرك وأهله يفرّون كالفئران لمساكنهم، وإلى المسجد الحرام.. يهرب عكرمة بن أبي جهل بعد أكثـر من عشرين عامًا تعصب فيها لأبيه، ويفرّ وحشي قاتل حمزة للطائف، وقد شـقي بحريته.. يفرّ وكأن الآلاف الذين يطوقون مكة قد أقبلوا للأخذ بثأر سيد الشهداء، أما خـارج مكة، فالزبير في الميمنة يشـق طريقه دون مقاومـة، حتى ركز رايته بمكان حدده القائد ﷺ، وهو ذو الحجون، وخالد يتحرك يسـارًا، فيلقى مقاومة لا تذكر، ويستشهد معـه صحابيان همـا: كرز بن جابـر، وحبيش بن الأشـعر، أما النبي القائـد ﷺ، فغادر ذا طوى، ثم توقف بذي الحجون، ليلتقي الزبير.. أصبحت الطرقات كلها تؤدي إلى مكة، لكن القائد ﷺ رأى مشـهدًا أثاره، فابتسم له، وجعله يترك للشعر مهمة تحديد مكان دخول الجيش، فبينما كانت مقدمة الخيل تعبر.. إذ بمجموعة من القرشـيات،

وفي أمن تام من الخطف أو الاغتصاب.. يخلعن خمرهن من على رؤوسهن، ويلطمن وجوه الخيل، فتبسم ﷺ لهذه المقاومة الناعمة، والتفت لوزيره الأول يسأله عن أبيات المبدع حسان بن ثابت قائلًا: «يا أبا بكر، كيف قال حسان بن ثابت؟ فأنشد أبوبكر:

عدِمْتُ بُنَيَّتي إنْ لَمْ تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقعَ مِنْ كَنَفِي كَدَاءُ
يُنازِعْنَ الأعِنَّةَ مُسرَجاتٍ ... يلْطمهُنَّ بالخُمُرِ النّساءُ

فقال ﷺ: **ادخلوا من حيث قال حسان**».

بالإسلام يرتقي الشعر

لم يكتفِ الإسلام بتحريض الشعر، حين قال ﷺ: «**اهجوا قريشًا، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل**» ولم يكتفِ الإسلام بجعل الشعر تعبيرًا عن المشاعر بصورة موحية، بل جعله إضاءة للمستقبل، وصانعًا للأحداث، فحسان كان مع نبيه في الطريق للعمرة بعد الحديبية، حين قال:

عدِمْتُ بُنَيَّتي إنْ لَمْ تَرَوْها ... تُثِيرُ النَّقعَ مِنْ كَنَفِي كَداءُ

وها هي أبياته بعد عام بالضبط.. تحدد طريق الفتح، فيقول ﷺ: «**ادخلوا من حيث قال حسان**» وتقول عائشة: «إن النبي ﷺ لما جاء إلى مكة دخل من أعلاها، من كداء، من الثنية العليا التي بالبطحاء».

منح النبي ﷺ للشعر منبرًا في مسجده، ورفرفت الملائكة تأييدًا له، حين قال لحسان: «**إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله**» فلما سب أحد الوثنيين نبيه.. ردّ حسان:

هَجَوتَ محمّدًا فأجبْتُ عنه ... وعنْدَ الله فِي ذاك الجَزاءُ
هَجَوتَ محمّدًا برًّا تقيًّا ... رسولُ الله شِيمتُه الوَفاءُ
فَإنَّ أبي ووالِدَه وعِرْضِي ... لعِرْضِ محمَّدٍ منكم وِقاء

ثم زلزله بقوله:

فَـإِنْ أعرضتُمُوا عَنّـا اعْتَمَرْنا   وَكانَ الفَتحُ وانْكَشَفَ الغِطاءُ
وَإِلّا فَاصْـبِرُوا لـضرابِ يومٍ   يعـزُّ اللهُ فيـهِ مَـنْ يَشـاءُ

الإسـلام منح الشعر ما لم يمنح غيره في التعبير.. سمح لشعر حسان أن يتجرأ، فيقول شيئًا لو قاله أحد نثرًا لتبوأ مقعده من النار.. تجرأ حسان، فقال:

وقالَ اللهُ قد أرســلتُ عبدًا   يقولُ الحـقَّ ليسَ بِه خَفــاءُ
وقـالَ اللهُ قـد يـسَّرْتُ جنـدًا   همُ الأنصـارُ عرضتُها اللِّقاءُ

وأنشد أيضًا:

فمَنْ يهجُو رسـولَ اللهِ مِنْكُمْ   ويمدحُـه وينـصرُه سَـواءُ
وجِبْريـلٌ رسـولُ اللهِ فِينـا   ورُوحُ القُـدْسِ لَيسَ لَه كفاءُ

بهذا المستوى من الشعر.. يفتح الشاعر المستقبل على مصراعيه، ويرسم أشكالًا أرقـى للحياة، ولئن كان القرآن مذهلًا ومعجزًا، إلا أنه ترك للشـعر مكانته ودوره، بل حرضه وتحداه أن يقطع شـيئًا من المسـافات الشاسـعة بينهما، وكأنه يجعل الشعر قطعًا لمسافات جديدة، أو لا يكون شعرًا.

بـدأ دخول مكـة، فلفّـت الفاجعة زعيمهـا أبا سـفيان، فانطلق بنفسـه مسرعًا للقائـد ﷺ.. يبحـث عنه، ولما وجـده عبر عن رعبه مـن هذه اللحظـات، فقال: «يا رسـول الله، أبيحـت خضراء قريش، لا قريـش بعد اليوم؟ فقال ﷺ: **مـن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سـفيان فهو آمن**». اطمأن أبو سـفيان، واطمأنت قريش كلها إلا سـتة مجرمين.. أصدر القائد ﷺ أمرًا باسـتثنائهم من العفو.. حتى لو تعلقوا بأستار الكعبة.

ستة مطلوبين

بدأ دخول الجيش الإسلامي مكة.. بدأ يجوب الشوارع الخالية، والساحات الفارغة، ويمر بالدكاكين المغلقة والبيوت المكتظة بالوثنيين الخائفين، الذين طمأنهم القائد ﷺ بتكرار خطاب الأمان: «**من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن**» لكنه أصدر أمرًا باستثناء ستة مجرمين: أربعة رجال وامرأتين، وقال: «**اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، وهم: امرأتان، وعكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبدالله بن سعيد بن أبي سرح**».

انتشر خبر ورود هذه الأسماء في لائحة المطلوبين في شوارع مكة، وكلما انتشر الخبر في مكان خسر هؤلاء مساحة من الأمن والأرض، حتى أصبحت طرقات مكة ووديانها وجبالها تضاريس للموت والرعب الذي لا يطاق.. الرعب الذي سقوه للنبي ﷺ وصحابته. وصل الخبر لعكرمة، فركب دابته، وتسلل خارج مكة متخفيًا.. لم تعد الجزيرة العربية في نظره سوى حتف. قرر الخروج منها.. انطلق إلى طريق الساحل، ومن هناك بحث عن ميناء وسفينة، وها هو الآن على ظهر مركب لا يدري أين يتجه به، ولا أين تأخذه الأقدار، أما المجرم مقيس، فيبدو أن الخبر لم يصله إلا متأخرًا.. حاول الفرار عبر أحد الأسواق، فأدركه الناس، فقتلوه قبل أن يغادر مكة، ليلحق بأبي جهل وأبي لهب، أما ذلك المرتد المدعو عبدالله بن أبي سرح، الذي كان أحد كتبة النبي ﷺ، والذي تم الاستغناء عنه وعن كتابته، فهو الآن مختبئ.. نادم على ما صدر عنه من سخافات، فالنبي ﷺ مازال حيًّا، والوحي لم ينقطع.. ينزل كل يوم، وجبريل يراجع معه القرآن كل عام، وبالتحديد في هذا الشهر (رمضان) من كل عام.

خسر ابن أبي سرح شرف الكتابة، وشرف النصر والفتح، وهو الآن يفتش عن ملاذ، أما الشقي الرابع ابن خطل فقد أغلقت في وجهه أبواب الهرب، ففرّ إلى الكعبة، وهو الآن متعلق بأستارها، والعيون تحدق به خائفة من مصيره، وتحدق بالخيل التي تدور على المكان.. لم يستطع ابن خطل أن يدخل الكعبة، فقد أغلق

سادنها الذي يدعى (عثمان بن طلحة) بابها بالمفتاح، بعد أن انحشر داخلها أكثر بقايا صناديـد قريش إجرامًا، وهي الآن تضيـق برائحتهم، وعيونهم تلمع كاللصوص في انتظار حد السيف؛ لذا اكتفى ابن خطل بالتعلق بأستار الكعبة علها تنجيه.

تواضع القائد يوم الفتح

سـال الجيش الإسـلامي كالغيث نحو مكة العطشى، بينما كان قائده ﷺ يذوب رقـة وتواضعًـا لله وامتنانًـا.. لم تـضرب الطبـول حوله، وهـو يتهادى في شـوارعها الحبيبـة.. لم يهتف له بالروح وبالدم.. كان المشـهد ينبض بالتوحيد لله، والشـكر لله، والامتنان لله وحده لا شريك له.

أحـد مـن كان يسـير بجانبه يقول: «رأيت رسـول الله يوم فتح مكـة على ناقته، وهو يقرأ سـورة الفتح يُرجّع» أي يردد القراءة شكرًا وعرفانًا، أما طريقة هذا القائد الفذ، وهو يتقدم جيشه الهائل المرصع بعظماء الرجال وسادة القبائل، فلوحة تواضع أخاذة.. لم يكن ﷺ محمولًا على الأعناق، ولم يركب حصانًا موشًّى سرجُه بالذهب، أو سيفًا مقبضه وجرابه من الذهب.. كان يركب ناقة استعارها من أحد أفراد شعبه، وكان صاحبها يركب خلفه، وصاحبها لم يكن أبا بكر سيد المهاجرين، ولا سعد بن عبادة سيد الأنصار، ولا حتى سيدًا من سادات العرب.. كان شابًّا أسود في الخامسة عشرة من عمره.. هو حبيبه وابن حبيبه أسامة بن زيد بن حارثة، أما من كان يمسك بزمام ناقته، فالحبشي العظيم بلال بن رباح.

كان مشـهدًا يحطـم العنصرية الجاهلية.. يحطمها ليشـيد التنافـس على الإنجاز والإبداع. مشـهد سر النفوس المؤمنة المتحضرة بالإسـلام، وأغاظ نفوسًـا غارقة في دبـق التخلف. فزع بقايا صناديد قريش وطغاتها، فشـعر بعضهم بالموت على الرغم مـن كل التطمينـات التي قدمت لهم، فهرعوا إلى عثمان بـن طلحة ليدخلهم الكعبة، فأحـضر المفتاح من عند أمه، وفتحها لهم وأدخلهم، ثـم أقفل الباب، وانطلق لبيته،

وأعطى المفتاح لأمه، وعاد للمسجد، وأقبل ابن خطل، فلم يجد سوى أستار الكعبة ملاذًا، فتعلق بها.

وصل القائد ﷺ المسجد، ودخل بناقته التي سارت بهدوء نحو الكعبة التي تئن من ثلاث مئة وستين صنمًا فوقها، وتنزكم من رائحة الصناديد داخلها.. تهادى ﷺ بوقار، والناس تفسح له بإجلال.. لا أحد يضرب عنه، أو يؤذى ليمر.. خلع ﷺ خوذته التي تسمى المغفر، فأقبل أحد جنده، فهتف: «إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال: اقتلوه» عندها دوت صرخة حماس طائشة من وسط الجيش الإسلامي تقول: «لا قريش بعد اليوم» فارتجّت الجموع خائفة، وازداد قلقها: هل تراجع محمد عن عفوه؟

دوت صيحته ﷺ تعيد للنفوس سكينتها وأمنها: «**من دخل دارًا فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن**» تم إلقاء السلاح، لكن فلول الوثنيين من بكر بقيت تحمله خارج مكة، فكانت فرصة لخزاعة، فجاء قادتها يستأذنون القائد ﷺ في قتالهم والأخذ بثأرهم من خيانتهم، فأذن لهم ساعة من النهار امتدت حتى وقت صلاة العصر، أما داخل المسجد فخيّم صمت مهيب في انتظار بيان النصر الأول.

بيان النصر الأول يوم الفتح

خيّم الصمت حول الكعبة.. جحظت عيون الوثنيين فجأة، وهم يرون محمدًا تتهادى به الناقة نحو المسجد، وخلفه الفتى الأسود أسامة بن زيد، وبلال يسير بجوار الناقة.. تعلقت العيون بهذا المنتصر، وتساءلت الدنيا: أين أبو جهل وأمية وابن أبي معيط ليروا هذا المشهد المهيب.. أفسح الناس الطريق نحو الكعبة.. الكعبة التي اشتاقت له كما اشتاق لها، ثم أقبل على الحجر الأسود فاستلمه، وطاف بالبيت وهو ممسك بسية قوس، أي بطرفها.. بدأ الالتفاف حولها، فإذ بصنم يصادفه بجنب البيت.

رفع ﷺ القوس ومده في اتجاه عيني الصنم، وطعنه وهو يقول: «**جاء الحق وزهق الباطل**» ربما كان هذا هو هبل الذي تغنوا باسمه على أرض أحد.. ربما، لكن هذا الصنم ليس الوحيد الذي يزعج الكعبة.. لم يكن وحده يلوث نقاء الحياة، فقد كان حول الكعبة ثلاث مئة وستون نصبًا، فجعل ﷺ يطعنها، وهو يقول: «**جاء الحق وزهق الباطل**».

انتهى ﷺ من الطواف، فأفاق الوثنيون على نشارة أخشاب ونثار حجارة ونفايات. اكتشف الوثنيون أنهم وآباءهم كانوا يعبدون مع الله نفايات.. يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى.. أجل نفايات، واليوم هو يوم النظافة.

اكتشف الوثنيون ساعتها ما الشرك.. إنه ببساطة: غابة من الكلام والهشيم والعناد.. ليس لها جذور في النفوس، ويكفي للقضاء عليها عود ثقاب صغير.

كان المشهد مهيبا عظيما، وكان المسجد يغص بالمؤمنين المزينين بنصر الله وفتح مكة، وبالمشركين اللائذين ببيت الله من الموت.. كان هؤلاء الوثنيون على أحر من الجمر.. ينتظرون بيان النصر الأول.. ينتظرون لغة المنتصر.. ينتظرون محاكم التفتيش والمقاصل والمشانق، التي سينتقم بها محمد ممن اضطهدوه، ومزقوا أجساد أصحابه وشردوهم، وخانوه، وحاربوه طوال عشرين عامًا.

انحدر ﷺ عن الناقة ووجّه وجهه للقبلة، وكبر وشرع في صلاة مفعمة بالحمد والثناء. ركع وسجد، وذكر الله من كل قلبه، ولما سلم نهض، ثم توجه نحو باب الكعبة، وصعد الدرجات، ثم توقف بآخرها، والتفت نحو الجموع الهائلة، وأمسك بيديه عن اليمين والشمال خشبتي باب الكعبة وعضادتيه، ثم حمد الله سبحانه، وأثنى عليه. ثم حدق في الجموع الوثنية، وهتف بهم: «يا معشر قريش ما تقولون؟».

فتح مكة موت الفاشية

أمسك النبي بخشبتي باب الكعبة المغلق وعضادتيه عن اليمين والشمال، فحمد الله سبحانه، وأثنى عليه، ثم هتف بالوثنيين: «**يا معشر قريش، ماتقولون؟**»

نظر بعضهم إلى بعض.. تلاشت غطرستهم.. تلاشت فاشيتهم.. تأملوا زنازينهم، فلم يجدوا لها مبررًا، ولا لقمعهم عذرًا، فارتجّ المسجد بهتافهم: «نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم» لم يقتنع ﷺ.. كان يريدهم أن يعبروا بحرية، ودون إكراه أو مجاملة، فقال: «**يا معشر قريش، ما تقولون؟**» قالوا: نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم.

كرر السؤال ثالثة، فقالوا: «نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم».

هنا أشرقت القيادة الإسلامية بالحرية على شعب لم يذقها إلا اليوم.. هنا قتل النبي ﷺ الفاشية في عقر دارها.. لم يطلب منهم أن يدخلوا في الإسلام كشرط للعفو. لم يطلب تعويضات عن عدوان بدر وأحد والخندق، أو ديات لشهداء دولته.

اكتفى بتحريرهم من الرعب، وثقافة القمع التي مارسوها معه أكثر من عشرين عامًا، حين قال: «**فإني أقول كما قال أخي يوسف:** ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢]»، انفجر المسجد بالفرحة، ولم تتسع الكعبة لسعادة الصناديد داخلها، وهم ينصتون لعظمة هذا النبي، وتساميه عن الانتقام لنفسه أو لأصحابه الذين مزق الطغاة أجسادهم.. لم تمتد أيدي الجيش المسلم لأموالهم، ولا لبيوتهم ولا لنسائهم، بل امتد الحب، فاختطف قلوبهم، فهرولوا نحو محمد ﷺ.

التفوا حوله يبايعونه.. يشهدون أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله دون أن يطلب منهم ذلك.. دون أن يفرض عليهم ذلك.. اقتنع الوثنيون بجرائمهم وخيانتهم، وبمبررات فتح مكة، لكن المنافقين مازالوا حتى اليوم يرونه إكراهًا.. متجاهلين أن فتح مكة كان معركة فرضتها قريش، ولم تبدأها الدولة الإسلامية، فقريش هي من هاجم المدينة ببدر وأحد والخندق، وهي من منع حق العمرة لمواطني الدولة الإسلامية، وقريش هي من فرض شروط معاهدة الحديبية الظالمة.. خاصة الشرط الأخطر، وهو عدم شن أي حرب مدة عشر سنوات.

هذا الشرط هو سبب فتح مكة؛ لأن الوثنيين الذين اشترطوه هم من اخترقوه بعملية إرهابية خيانية، ولولا خيانتهم لكف عنهم النبي عشر سنوات.. لولا خيانتهم

لما كان محمد ﷺ الآن بمكة.. فتح مكة كان نصرة للحلفاء الوثنيين لا جهاد طلب من الدولة الإسلامية ولا مبادرة منها.. تلك هي الحقيقة لكن للمنافقين جماجم فارغة.

من هذه العائلة وما قصتها مع مفتاح الكعبة؟

بايع جميع الوثنيين رسول الله وقائد الدولة الإسلامية ﷺ، إلا المختبئين داخل الكعبة، فهتف ﷺ مناديًا ذلك الرجل الشهم الذي أسلم توًّا.. الرجل الذي رقّ قلبه لأم سلمة قبل عشر سنوات، حين عادت من الحبشة في سنوات الاضطهاد بمكة.. حينها رآها تبكي ابنها المخطوف وزوجها المهاجر حولًا كاملًا، فعاتب الوثنيين على صلفهم، وأعاد ابنها لها، ثم أخذها للمدينة لتلحق بزوجها أبي سلمة.

اسم هذا الشهم عثمان بن طلحة، وهو المسؤول عن مفتاح الكعبة.. أقبل عثمان وقد أسلم، ولما أصبح أمام نبيه قال له ﷺ: «**ائتني بالمفتاح**» لبى عثمان، فانطلق نحو بيته، ولما دخل توجه نحو أمه العجوز، التي تحتفظ بالمفتاح، فأخبرها بأن النبي ﷺ يريده. رفضت العجوز إعطاءه المفتاح، فأصيب عثمان البارّ بحرج لم يتخلص منه إلا بتخويفها، فقال: «والله لتعطينه، أو ليخرجن هذا السيف من صلبي» ارتعدت فرائص العجوز خوفًا على ابنها الحبيب، فتوجهت نحو المكان الذي وضعت فيه المفتاح، وألتقطته ومدّته له، فانطلق به مسرعًا للقائد ﷺ فسلمه إياه، فما سر هذه العائلة وما علاقتها بمفتاح الكعبة؟

باختصار شديد: كان لقريش زعيم يقال له: (قصي) وكان يتمّ في بيت قصي كل أمر يهم القبيلة، ويؤثر في مسارها، وكان له أربعة أولاد أبرزهم (عبدالدار) وآخر اسمه (عبدمناف) وهو جد للنبي ﷺ، فجعل قصي أمر الكعبة من اختصاص ابنه عبدالدار، وعثمان هو حفيده الذي يقف الآن أمام النبي ممسكًا بالمفتاح، فهو: (عثمان ابن طلحة بن عبدالله بن عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار) وهو يلقب بالحجبي، ثم انتقلت الحجابة بعد أشهر لابن عمه شيبة.

سلم عثمان بن طلحة المفتاح للقائد ﷺ، فأخذه وفتح الباب، ثم أعاده لعثمان، فهو حق لهذه العائلة إلى يوم الدين.. فتح ﷺ الباب، فإذ بالمفاجأة.. لفظت الكعبة صناديد قريش والفرح يغمرهم، وكأنما خلقوا من جديد. يقول أحد الذين شاهدوا فرحتهم إنهم: «خرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام» فوجدوا رسول الله أرحم بهم من أمهاتهم وآبائهم، وهو يدعو لهم قائلًا: «**يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**» أسلم صناديد الأصنام، فتحولوا بالتوحيد إلى صحابة كرام، ونظر النبي ﷺ لباب الكعبة المفتوح.. جال بصره بداخلها، لكنه رفض أن يدخلها.

لماذا رفض ﷺ دخول الكعبة؟

حدق النبي ﷺ في جدران الكعبة وهو على الباب يهمّ بدخولها، لكن خطواته توقفت، وأحجم عن دخولها.. شاهد داخلها مناظر كدّرته.. شاهد الشرك متعفنًا يلوثها.. شاهد صورًا وتماثيل.. هي بالنسبة إلى كثير ممن يقدسون الحجر، ويبيدون البشر تحف جميلة.. آثار مقدسة لا تمس، لكن النبي ﷺ قدم درسًا علميًّا لمن يثقون في الآثار ثقة عمياء.. درس يقول: إنها أعمال بشرية.. تنحتها وترسمها ميول الإنسان وخياله وهواه، وأساطيره وخرافاته.. أبى ﷺ دخول الكعبة والشرك يملؤها، فدخل عثمان بن طلحة وأسامة وبلال، وبعد قليل خرجوا يحملون تمثالين لإبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام، والأزلام أعواد يكتب الوثنيون على أحدها: افعل، ويكتبون على الأخرى: لا تفعل. ثم يرمونها وينفذون ما يخرج لهم.. هي كالقرعة تمامًا، لكنها ليست كقرعة الحيران، بل هي استخارة للخرافة وتعلق بالوهم والأصنام.. يعتقدون أنها تنفع وتضر، وتربح وتخسر.

شاهد ﷺ الأزلام بأيدي التماثيل، فتكلم مشيرًا إلى آثار تزيف التاريخ، فقال: «**قاتلهم الله، والله ما استقسما بالأزلام قط**»، ثم دخلوا مرة أخرى، وأخرجوا أشياء من بينها حمامة مصنوعة من العيدان، فأعطوها للنبي ﷺ فأخذها وكسرها.. كانت بنت أخ السادن تشاهد ذلك، وتقول: «كسرها، ثم قام على باب الكعبة، فرمى بها،

وأنا أنظر». تم تنظيف الكعبة من نفايات الجاهلية، وبقيت رسوم على جدرانها، من بينها صورتان لإبراهيم ومريم، فأمر بمحوهما، ولما انتهى تنظيف الكعبة دخلها ﷺ، ومرة أخرى، ومن بين تلك الحشود لم يدخل معه أمراء العرب، ولا سادات القبائل.

دخل معه الفتى الأسود أسامة، وبلال بن برباح، وسادن الكعبة بحكم وظيفته، ثم أمر بالباب فأغلق، ولما أصبح داخلها تأملها، فرأى فيها ستة أعمدة، أو ست سوارٍ، فقام عند كل سارية، فدعا. قال: الله أكبر، وردّد التكبير في نواحيها، ثم صلى. بينما كان الناس بالخارج يحدقون في الباب المغلق ينتظرون خروجه ﷺ، وكان من أكثرهم شوقًا الشاب عبدالله بن عمر، وبعد مدة فُتح الباب، فخرج النبي ﷺ، فأسرع ابن عمر نحو الباب المفتوح، فكان أول من قابله بلال، فعاجله قائلًا: «ما صنع رسول الله ﷺ؟ قال: جعل عمودين عن يساره، وعمودًا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه... ثم صلى» فدخل ابن عمر، ونسي أن يسأله كم صلى.

تدافع المشتاقون للكعبة، وانطلق النبي ﷺ لمكة الحبيبة تحفّه القلوب والعيون إلا عيني وزيره الأول، الذي غادر مسرعًا.. يبحث عن رجل له دين عليه.. رجل طالما حمله وهو صغير، ولاعبه، وأمسك بيده، وطاف به أسواق مكة وشوارعها.. انطلق الصديق يبحث عن والده الأعمى، ولما رآه أكب عليه برًّا وحدبًا، وناشده أن يخرج معه.

توقير النبي لكبار السن

بعد تطهير الكعبة انطلق الوزير الأول أبوبكر الصديق بقلب ملهوف.. يحمل حلمًا لا يفارقه.. انطلق نحو بيت الشيخ الأعمى.. والده الطاعن في السن، ولما وصل دخل عليه وحياه برفق، وقدم له أعذب هدايا البر.. ناشده الانطلاق معه، فأخذ الشيخ عصاه ونهض، ومد يده لأحنّ يدٍ أمسكت به.. تهاديا معًا نحو مقر النبي ﷺ، ولما وصلا إذ بقائد الدولة الذي بلغ الستين يغمر الشيخ برقته واحترامه لكبار السن

مهما كانت ديانتهم.. لهج قائد الدولة ونبي الأمة بكلمات توجه بها لوزيره قائلًا: «**هلا تركت الشيخ في بيته، حتى أكون أنا آتيه فيه**» ملكت الكلمات الشيخ الأعمى، ونطق الصديق بحب لا يداني، فقال: «يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه» أمسك الصديق بوالده، وأجلسه على الأرض برفق.

رفع الشيخ حاجبيه وخفضهما، وقلب مقلتيه ينتظر أسعد لحظات عمره التي تأخرت كثيرًا، وكادت تفوته، وإذ بيد حانية تمتد نحو صدره. مد النبي ﷺ يده بلطف، ومسح صدر الشيخ، فسكنت روحه من نفورها، فقال ﷺ: «**أسلم**»، فخفق قلب الصديق، وفاضت عيناه، وهو ينصت لوالده يلهج بكلمات تمسح ما مضى من جاهلية، وتحيل السيئات إلى حسنات، وهو يردد: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» أسلم الشيخ، فكان الصديق أسعد الناس في تلك اللحظات، ونظر القائد إلى والد صاحبه نظرة الابن البارّ، فرأى رأس هذا الشيخ يكسوه البياض، وكأنه نبات الثغامة، وهو نبات زهره وثمره أبيض، فأراد ﷺ أن يضفي عليه مسحة جمال، فقال: «**غيروا هذا من شعره**» أي غيروا بياض الشيب، وكان النبي ﷺ يغير شيبه بنباتي الحناء والكتم.. على الرغم من أن شيبه لم يتجاوز العشرين شعره، وكان شعر رأسه ﷺ يبلغ كتفيه، وكان يقول: «**إن أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم**». وبعد أن أسلم الشيخ أخذه ابنه البارّ، وأعاده لبيته شخصًا آخر، ولما أدخله البيت تغير البيت سعادة بإسلامه، ونادى أبوبكر بعض نسائه، وقال لهن: «غيروا هذا بشيء».

في تلك الأثناء كانت عينان بريئتان تنتظران الصديق على أحر من الشوق.. أخته الصغيرة تدنو منه.. تشكو له رجلًا لا تعرفه.. انتزع طوقها حين انحدرت من الجبل هذا الصباح. أنصت الصديق لشكوى أخته، ثم أمسك بيدها الصغيرة بلطف، وخرجا من المنزل، وطاف بها على مواقع من أسلم حديثًا، وهتف بالرجال قائلًا: «أنشد بالله وبالإسلام طوق أختي».

خيم الصمت والحزن على الفتاة؛ لأن أخاها الصديق لم يتلقَّ إجابة، وربما لأن الرجل لم يكن هناك، فالجنود بالآلاف ومعظمهم من حديثي الإسلام، وهم ليسوا

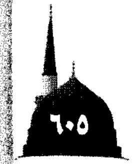
ملائكة، فالتفت أبوبكر لأخته، وقال: «يا أخية، احتسبي طوقك».. في تلك الأثناء كان هناك رجل ملثم خائف.. يتسلل يتلفت يسأل.. يبحث عن أحد كبار رجال الدولة الإسلامية حتى عرف مكانه، فلما رآه أسرع نحوه، وجثا بين يديه.. يناشده الرحمة.. يتعلق به كأنه طوق نجاة.

مكة ربيع من التسامح يوم الفتح

وصل خبر قتل المجرم ابن خطل لمسامع المرتد عبدالله بن أبي سرح.. ابن أبي السرح الذي أكرمه النبي ﷺ وجعله من كتابه، لكن فقر المؤمنين في المدينة وحصار الوثنيين لهم جعله يرتد، ويلحق بالوثنيين، فالشهوات تجتاح العقل أحيانًا.. تلغيه.. تجعله أسيرًا للجسد، وبدلًا من أن يسمو الإنسان بعقله وروحه.. يسفل به جسده، فيبقى العقل خادمًا للجسد، فحمزة وأنس بن النضر وجعفر تفتت أجسادهم، وهي تلاحق أرواحهم، أما ابن أبي سرح فارتد في لحظة ضعف أمام أطايب الطعام والشراب، لكن فتح مكة صعقه.. ضاقت به الأرض، فبحث عن صحابي كبير ورحيم وكريم من أقاربه، فلم يجد أنسب من عثمان بن عفان، فهو ذو النورين، ولولا صدقه وإيمانه وحب النبي ﷺ له لما زوّجه ابنتيه رقية فأم كلثوم.

تسلل ابن أبي سرح متخفيًا خلال سكك غير مطروقة، حتى وصل، فوجئ عثمان بقريبه ابن أبي سرح يجثو بين يديه.. يتمرغ في تراب الندم، ويعلن توبته من سفهه. حنّ ذو النورين عليه، فأجاره، ثم أخذه معه ذليلًا، وعثمان يعلن إجارته له خلال الطرقات المكتظة بالسيوف البتارة، والعيون الغاضبة على هذا المرتد.. ظل عثمان الكريم يشق الطرقات والجموع حتى أصبح أمام القائد ﷺ.. توقف عثمان وسلم، ثم تكلم.. ناشد نبيه العفو والصفح، ثم سكت.

لم ينطق النبي القائد ﷺ بكلمة.. شخصت أبصار الجند بقائدهم وأيديهم على سيوفهم.. ينتظرون كلمة.. ينتظرون غمزة.. إشارة.. تلميحًا، كي يطير رأس المرتد.



خيم الصمت على المكان، وخيم الموت على ابن أبي سرح، وارتجف من مصير أسود، فأعاد عثمان الأمل له، وكرر التماسه للقائد، فقبل ﷺ شفاعته، وأعلن العفو عنه.

تنفس ابن أبي سرح حياة جديدة، وعاد للتوحيد دون إكراه، فأخذه عثمان، وعاد به. انتشرت أخبار العفو كالعطور في أرجاء مكة، وتحولت مكة إلى ربيع من التسامح. خلال ذلك الربيع بحث القائد ﷺ عن مقر لإقامته في مكة، فلم يأمر جنده بمصادرة بيت غني أو فقير. ولم يغتصب فناء أو حديقة.. أعلن لشعبه أنه لم يعد يملك منزلًا، بل إن عليًّا وأبناء جعفر لا يملكون أيضًا. فمنزل أبي طالب ورثه ابنه عقيل؛ لأنه «**لا يرث المؤمن الكافر، ولا يرث الكافر المؤمن**»، ولذا عندما سئل القائد ﷺ: أين سيبيت؟ أخبرهم بأن عقيلًا ورث كل شيء قبل إسلامه. فقال: «**وهل ترك عقيل من رباع أو دور؟**» ارتفعت الشمس، وحانت ساعة الضحى، فاتجه القائد لبيت امرأة في أعلى مكة. وما إن دخل، حتى أقبلت صاحبة البيت مسرعة نحوه تطلب النجدة.

المرأة يوم الفتح

في أعلى مكة بيت مضياف.. بيت شابة تدعى أم هانئ بنت أبي طالب، وهي أخت علي. استضافت أم هانئ ابنة قائد الدولة فاطمة الزهراء، ولما اقترب الضحى انطلق القائد ﷺ لبيتها، ليغتسل من أثر الغبار والسفر.. دخل ﷺ فوجد فاطمة هناك، ولم يجد أم هانئ، فطلب منها أن تحضر له ماء ليغسل رأسه وجسده.

لبّت الزهراء، وانطلقت نحو مكان الماء، وأحضرته، ووضعته بين يدي والدها، ثم مدت قطعة قماش كستارة تستره ليغتسل، فتناول ﷺ الماء، وشرع يسكبه على جسده، وفي أثناء ذلك.. كانت أم هانئ في الخارج.. تفاجأ برجل يتجه نحوها وهو في حالة ذعر.. تأملته، فإذا هو نسيبها، ويدعى (ابن هبيرة).. جاء يلوذ بها.. يستجير بها من سيف أخيها علي بن أبي طالب، الذي يبحث عنه ليقتله؛ لإجرامه في

حـق الإسـلام وأهله.. طمأنتـه أم هانئ وأجارته، لكن إجارتها لن تنقذه من سـيف أبي الحسـن ما لم يقرّها رأس الدولة الإسـلامية ﷺ.. عادت لبيتها بعد أن علمت أن النبـي ﷺ هناك، وإذ بعلي يقبل يريد قتله غير مبـالٍ بإجارتها، فدخلت لرفع القضية له، ولما دخلت وجدت فاطمة تسـتر والدها ﷺ، فسـلمت على النبي، فردّ السـلام، وقال: «**من هذه؟** فقالت: أم هانئ بنت أبي طالب. فقال: **مرحبًا بأم هانئ**».

انتهـى ﷺ من الاسـتحمام، ثـم التحف بقطعة قماش كبيرة غطت كل جسـمه.. سـكتت أم هانـئ، وهـي تراه يهـمّ بالصـلاة في ذلك الثـوب الواحـد، وإذ به يصلي الضحـى ثـماني ركعـات وصفتها أم هانئ بقولهـا: «ثماني ركعـات، لم أرَه صلى صلاة أخـف منها، غـير أنه يتـم الركوع والسـجود» وقالـت: «لا يُدرَى قيامهـا أطول أم ركوعهـا أم سـجودها؟» فرغ ﷺ من صلاته، فبادرتـه أم هانئ وهي في منتهى القلق قائلة: «يا رسول الله، زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلًا أجرته؟» فهون القائد ﷺ من الأمر، ورفع من شـأن المرأة، وتبنى إنجازها، وجعله من مسـؤوليات الدولـة قائـلًا: «**قـد أجرنـا من أجرت يـا أم هانـئ**»، فللمـرأة أدوارهـا العظيمة في الإسلام، بشرط أن تعيها، وأن ترتقي إلى مستوى الإسلام في تفكيرها واهتماماتها.

مضى وقت، وارتفعت شـمس مكة حتى أصبحت فوق الرؤوس، فانحدر ﷺ نحو المسـجد الحرام لأداء صلاة الظهر.. حيث أمواج الحب والتوحيد تطوف حول الكعبة.. وصل ﷺ، وبدأت الشمس تتحرك نحو جهة الغرب، فصدع بلال بالأذان لأول مرة في مكة.. فاضت العيون، وهو يردد: الله أكبر... أشـهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله.. صدع بها بعد أن كان قبل عشر سنوات يُسحب بالحبال في شـوارعها كلـما ردّد: أحـد.. أحد.. يسـحب في قيظها وعلى رمضائهـا.. ينزف.. يصيح بها، وكأنه لا يرى سـوى الله.. حي عـلى الصلاة.. حي على الفلاح.. ليتوضأ عشرات الآلاف رجالًا ونسـاء، وتقبل آلاف الخطوات لأول مرة للصلاة.. ويغص الحـرم بالوجوه التـي تتقاطر ماء وتوحيدًا ونظافة... لا إله إلا الله يا مكة.. لا أصنام ولا خرافة.. قد قامت الصلاة يا مكة.. قد قامت الصلاة.



حب الأنصار ثم باقي البشر

أقام بلال الصلاة لأول مرة بمكة، فقام النبي القائد ﷺ أمام الكعبة، وارتسمت حوله دائرة من المؤمنين تليها دوائر فدوائر أكبر من الرجال، فالنساء في مشهد أخاذ.. ركعوا وسجدوا خلفه ﷺ، وسلم فسلموا، ثم نهضوا إخوة وأحبة بعد أن كانوا أعداء، لكن فئة من المصلين خفقت قلوبهم.. تلفتوا نحو بعضهم، فشعروا بغربة تعصف أفئدتهم.. شعروا بحزن كالموت بين حناياهم... الأنصار تنزف قلوبهم حزنًا.. ينتابهم شعور كاليتم.. شعروا بأن المقام بمكة طاب لنبيهم ﷺ، وذلك حين رأوا طيفه يتهادى نحو جبل الصفا، ويصعده، ولما أصبح على قمته استدار نحو الكعبة، ورفع يديه يحمد الله، ويذكره، ويدعو، ويدعو.. تعلقت عيونهم الحزينة بحبيبها.. شعروا بأن فراقه قد دنا، وأنه لن يعود معهم لطيبة.. لمسجده الذي بنوه معه حجرًا حجرًا.. لن تعود زوجاته للحجرات الصغيرة التي شهدت أفراحهم به. لن يشرق عليهم بعد اليوم من حجرة عائشة ليؤمهم، ولن يروا طيفه الجميل بين نخيل طيبة، فما طيب العيش بعد فراق من سكن القلوب، وملأ الأسماع والأبصار.. نظروا لبعضهم، وتهامسوا همس المودعين، وقالوا كلمات كالدموع: «أما الرجل، فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته».

اجتاح الشحوب قلوبهم، لكن رحمة المولى أدركتهم.. أمطرتهم.. حين شخصت أبصارهم من جديد، واتسعت أحداقهم لمشهد طالما رأوه في طيبة.. رأوا نبيهم يتصبب عرقًا على الصفا، فعرفوا أنه يوحى إليه، فخفضوا أبصارهم بانتظار جديد الوحي، ولما أفاق نظر إليهم وحدهم، وخاطبهم وحدهم: «**يا معشر الأنصار**» رفعوا رؤوسهم، وشخصت أبصارهم ينتظرون كلمات الوداع، وهتفوا والحزن يزلزلهم: (لبيك يا رسول الله) ففاجأهم بسؤال كالموت يقول: «**قلتم: أما الرجل، فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟**» فاشتاقوا إليه وهو أمامهم، وقالوا والدموع تلمع منهم: «قد قلنا ذلك يا رسول الله» عندها ذكرهم بأنفسهم.. ذكرهم بحبه لهم، ووعده لهم، وشروط البيعة التي كانت لليالي العقبة بينه وبينهم.. ذكرهم بأن الإخلاف ليس من شيمه مع أعداء الله، فكيف مع أحب الناس إليه؟ فقال ﷺ: «**ألا فما**

اسـمي إذًا.. ما اسـمي إذًا.. ما اسـمي إذًا؟) (**كلا، إني عبدالله ورسول الله، هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم، والممات مماتكم**». سالت الدموع لهذا الوفاء، وأجهش الأنصـار بالبـكاء، حتـى كاد الصفا يبكي معهـم، وأقبلوا إلى الحبيـب يعتذرون عن همـس قلوبهـم، ويقولـون: «والله يـا رسـول الله، مـا قلنا الـذي قلنـا إلا للضن بالله ورسـوله»، فطمـأن حبهم، وهـدأ روع قلوبهم، وقال: «**فإن الله ورسـوله يعذرانكم ويصدقانكم، فوالله ما منهم أحد إلا بلّ نحره بالدموع**» دموع رآها أبوهريرة، فقال: «فرأيت الشيوخ يبكون حتى بلّ الدموع لحاهم».

الأنصار يقدمون الدروس للطلقاء

شـعر الأنصـار وهـم يحيطون بالصفـا بأنهم سـادة الدنيـا، وأن مدينتهم غدت عاصمـة المدائن، حتـى مكة.. أفضل بقـاع الأرض.. غدت تابعـة لمدينة الأنصار.. أدرك الأنصـار والمهاجـرون كـم هـو وفي هذا القائد بعهـوده، وأدركوا مجـددًا وزن العهـود والمواثيـق والمعاهدات في الدولة الإسـلامية، وأن مصطلحـات تعامل هذا النبـي لا تعـرف شـيئًا عـن الجحـود والنكـران، وأدرك المسـلمون الجدد كـم يرفع الإسلام أهله ويعلي قدرهم، وها هو الإسلام يضع اليوم أقدامهم على أول المضمار، وعليهم أن يبذلوا الكثير ليلحقوا بهؤلاء العظماء، الذين أقبلوا مع نبيهم من المدينة.

في أثنـاء ذلـك كان بنو خزاعـة في حالة حرب مـع الخونة من وثنيـي بكر، فقد قال ﷺ لجيشـه في الصباح: «**كفوا السـلاح إلا خزاعة عن بني بكر**»، فأذن لهم حتى صلـوا العـصر، ولما صلوا العصر أرسـل لخزاعة رسـالة يقول لهم: «**كفوا السـلاح**» فتوقفـوا، وتوقـف القتال تمامًا حول مكة، وسـاح القائد ﷺ بين شـعبه.. يعلم هذا، ويجيـب عن سـؤال هذا، ويـزور ذاك، ويتفقد شـعبه حتى أقبل الليـل، فطرح عليه حبيبه ومرافقه ابن الخامسة عشرة.. أسامة بن زيد سؤالًا، فقال: «يا رسول الله، أين تنـزل غـدًا؟ قال: **وهل ترك لنا عقيل مـن منزل؟**» ثم قال: «**لا يـرث المؤمن الكافر،**

ولا يرث الكافر المؤمن» أي إن عليًّا وأبناء جعفر لم يرثوا من بيوت أبي طالب شيئًا، فورثه عقيل لأنه كان كافرًا، حين توفي والده.

بات القائد ﷺ في بيت أم هانئ.. لم يصادر بيت زعيم أو صنديد، ولم يغتصب أرضًا ولا حتى خيمة بحجة أنه رأس الدولة الإسلامية، أو بحجة أنه فاتح منتصر.. اكتفى بالنوم حيث تيسر له، فهو في هذه الدنيا مجرد مسافر يقول عن نفسه: «**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح، وتركها**».. نام القائد حيث يسر الله له، ولما أشرق الغد حدث خرق خطير لأوامر القائد ﷺ، فقد جاء بعض المواطنين يخبره بأن أحد رجال خزاعة ارتكب حماقة بحق أحد رجال بني بكر، فغضب ﷺ غضبًا شديدًا على الرغم من كل ما بدر من بكر تجاه خزاعة؛ لأن الدولة الإسلامية دولة نظام لا فوضى.. دولة شريعة لا جماعة ثأر.. غضب ﷺ فقام خطيبًا ليعلن البيان الثاني للدولة في مكة.

البيان رقم (٢) للدولة الإسلامية في مكة

في يوم الفتح أصدر القائد ﷺ أمرًا يقول: «**كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر**»؛ لأن سبب فتح مكة لم يكن جهاد طلب، ولا دفاعًا عن المدينة ولا انتقامًا للغزوات السابقة.. كان تنفيذًا لاتفاقية دفاع مشترك، ونصرة لحليف وثني.. هو قبيلة خزاعة، الذين تعرضوا لخيانة من قبل قريش وبني بكر.. هذا هو السبب الوحيد لفتح مكة؛ لذا سمح القائد ﷺ بذلك الاستثناء لخزاعة لتقوم بالدور الذي يقوم به في مكة، ولما صلى العصر قال: «**كفوا السلاح**»، ولما جاء اليوم الثاني للفتح.. كان رجل مسلح من خزاعة يسير بمنطقة مزدلفة، فإذ به يرى رجلًا من بني بكر.. حدق به، فعرفه، فغلى الثأر في رأسه حتى تجاوز حدوده، فسل سيفه، ولاحقه حتى تمكن منه، ولم يتركه حتى خر جثة هامدة. بلغ الأمر قائد الدولة ﷺ فغضب غضبًا شديدًا لقتل ذلك المواطن الوثني، فهو يظل مواطنًا في الدولة الإسلامية له حرمته وحقوقه.

قـام ﷺ خطيبًـا في الحرم.. معظـمًا مكة والحرم، ومعظـمًا أمر الدمـاء، ومبينًا أن القتال فيها من أشـد أنواع الجرائم، وأن الله أباح له القتال فيها سـاعة من الزمن، ثم حرمه إلى يوم القيامة، فقال: «**يا أيها الناس، إن الله ﷻ حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهـي حـرام من حرام الله تعـالى إلى يوم القيامة، لا يحـل لامرئ يؤمن بالله واليـوم الآخـر أن يسـفك فيها دمًـا، ولا يعضد بها شـجرًا، لم تحلل لأحـد كان قبلي، ولا تحـل لأحـد يكون بعـدي، ولم تحلل لي إلا هذه السـاعة غضبًا عـلى أهلها، ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشـاهد منكـم الغائب، فمن قال لكم: إن رسـول الله قـد قاتل بها؟ فقولـوا: إن الله ﷻ قد أحلها لرسـوله، ولم يحللها لكم**»، ثم خاطب حلفاءه خزاعة، وخاطب شـعبه معلنًا قانونًا ونظامًا جنائيًّا إسـلاميًّا، لدولة منظمـة تحترم حقوق الإنسـان مهـما كان، فقال: «**يـا معشر خزاعة، ارفعـوا أيديكم عـن القتل، فقد كثر أن يقع، لئن قتلتم قتيـلًا لأدينّه**».. كلمات متحضرة تحملت فيها الدولة الإسـلامية تكاليف ديات مواطنيها الوثنيين؛ لأن الدماء كانت تسفك باسم جيش الدولة الإسلامية، وتحت سلطتها، وهي الآن في حالة حرب.

ثـم توجه القائد لعائلة القتيـل فخيّرها على الرغم من وثنيتها وغدرها.. خيّرها بـين القصـاص أو الدية، فقال: «**فمن قُتل بعد مقامي هـذا، فأهله بخير النظرين: إن شـاؤوا فدم قاتله، وإن شـاؤوا فعقله**» أي ديته، ثم بيّن خطورة سفك الدم في الحرم، فقـال: «**إن أعـدى الناس عـلى الله من عدا في الحـرم، ومن قتل غير قاتلـه، ومن قتل بنحـول الجاهلية**» أي قتل أحدًا بدافع الثأر.. كان القائد ﷺ يلقي بيانه الثاني، وفجأة قاطعه أحد المسلمين الجدد.. يسأله عن ابن أنجبه من صديقته وبغير زواج؟

تطور النظام الجنائي الإسلامي

قبـل أن يهـم القائد ﷺ بتـلاوة أحكام القانـون الجنائي الإسـلامي الجديد على شعبه.. قاطعه رجل ليسأله عن ابن له أنجبه من امرأة دون زواج، فقال ﷺ: «**ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش**»، أي إن الوليد من سـفاح ينسب لأمه، فيقال: فلان بن

فلانـة. وقـال: «**للعاهر الأثلب**» أي للرجل الزاني الأثلب.. سـأل بعض الحاضرين عن معنى كلمة الأثلب؟ فقال ﷺ: «**الحجر**» أي الرجم إن كان الزاني متزوجًا.

بعد تلك الوقفة عاد ﷺ لهذه الآلاف التي أسـلمت توًّا، والتي تحتاج إلى النظام بعد حاجتها للتوحيد.. تحتاج إلى النظام لأنها لا تفقه الإسـلام، كما فقهه المهاجرون والأنصـار، ولم ترتوِ من ينبوعه بعد.. أمثال هؤلاء في حاجة لنظام سـياسي عادل لا يحـابي أحدًا، فالتربيـة الروحية الداخلية وحدها لا تكفـي للنهوض بالأمم.. النظام العادل يوجههم من الخارج.. يعرفون من خلاله حقوقهم وحدودهم وواجباتهم.. النظـام السـياسي العادل هـو رسـالة الأنبياء بعـد التوحيـد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فالمنفلـت يتـأدب في دولة القانون، والمنضبط ينفلت في بلد الانفلات، والدولة الإسلامية التي شيدها النبي ﷺ دولة نظام وانضباط.

أعلن ﷺ التشريع الجنائي، فقال: «**في الأصابع عشر عشر**» أي إن من قطع إصبع أحد، فعليه دفع عشر من الإبل، ثم قال «**وفي المواضح خمس خمس**» أي خمس إبل دية، أي جـرح يوضـح العظم، وبيّن أن عائلة المقتول عمدًا مخـيرة بين القصاص أو الدية، ثم بيّن حكم حالة القتل شـبه العمد، وسماها خطأ العمد، وضرب لها مثلًا بمن يقتل بالسوط والعصا والحجر، وفيه دية مغلظة، ثم بيّن الفرق بين الدية والدية المغلظة.

فالديـة مئة مـن الإبل، أما الدية المغلظة فوصفها بأنها مئـة من الإبل، لكن منها أربعـون في بطونها أولادهـا أي حوامل، وفي التو واللحظة فرض القائد ﷺ العدالة، فأنصـف المواطنين المشركين قبل غيرهم، فاسـتدعى عائلة المواطـن الوثني المقتول، فدفـع لهـم الديـة؛ حتى يـدرك الجميـع أن لا أحد فـوق المحاسـبة، ولا أحد يملك حصانة أمام العدالة الإسلامية.

مذهـل هذا القائد بعدله.. أذهل المسـلمين الجدد، فلم يعودوا يأسـفون على زوال الجاهليـة وفوضاها وثاراتها، وهم يرون أنفسـهم قد أصبح لهم قائـد يقتص لعدوه من جنده.. أصبح لهم دولة غير عنصرية.. تفوق فارس والروم، ودول العالم عدلًا وشفافية.

إعادة المفتاح لأسرة بني شيبة

جدد القائد ﷺ في خطبته ثاني أيام الفتح الشكر لله، الذي نصره على اليهود والوثنيين حين تكتلوا لسحق الإسلام ودولته يوم الخندق، وأعلن إعادة المفتاح لبني شيبة، وتثبيت أمر السقاية لبني عبدالمطلب، حيث أبطل تقاليد الجاهلية في الحرم إلا هاتين العادتين، فقال ﷺ: «**الحمد لله الذي صدق وعده: لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.. ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تعد وتدعى، وكل دم أو دعوى، موضوعة تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج**»، وهذا يعني إعادة مفتاح الكعبة لبني شيبة إلى يوم القيامة، وبيّن في خطبته بعض أحكام العبادات ثم بيّن بعض أحكام الأحوال الشخصية، فحرم أن يتزوج الرجل امرأة على عمتها أو خالتها، ونهى أن تعطِي المرأة من مال زوجها دون إذنه.

كانت السيدة الأولى في مكة هند بنت عتبة تلاحقه بنظراتها وعقلها.. شعرت بقائد عظيم يرفع شأن المرأة، وهي التي كانت أمس تساند ثقافة الجاهلية التي تئدها، وترثها كالمتاع.. استيقظت بنت عتبة على دين يحررها.. يعيد خلقها من جديد.. يضعها في مضمار المنافسة مع الرجل نحو الجنة.. فتحت قلبها.. أخرجت ركام الأصنام منه، وانطلقت به أبيض نحو نبيها ﷺ تعلن حبها له ولآل البيت. وقفت أمام هذا القائد المبهر.. تعلن أسرارها، وترمي ثاراتها، وتقول: «يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك». فقال ﷺ: **وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**» أي ستزدادين حبًّا، وبعد أن أعلنت حبها لأهل بيت النبي أرادت الاستفسار عن قوله: «**لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها**». فقالت: «إن أبا سفيان رجل مسيك أي فيه بخل، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: **لا أراه إلا بالمعروف**» أي أنفقي بحسب ما تعارف عليه الناس.

كثر النادمون، فشعر القائد ﷺ بحاجة هذه الألوف إلى المزيد من الارتواء، فقرر البقاء بمكة، والاحتفال بعيد الفطر فيها، وكان خلال سفره وإقامته بمكة يقصر الصلاة قرابة العشرين يومًا.

إبطال الحلف هل هو إبطال للمعاهدات

لفت النبي ﷺ في خطبته نظر شعبه وأمته إلى حالة جاهلية جميلة تسمى (الحلف)، وهي أن يأتي شخص أو أشخاص، فيدخلون في حلف مع أسرة أو عائلة من قبيلة أخرى، فتكون نتيجة هذا الحلف أن يرث المتحالفان بعضهما، وقد حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، حين وصل المدينة وآخى بينهما، فكان الأنصاري يرث المهاجري والمهاجري يرث الأنصاري، أما اليوم فالإسلام يتجه للعالمية.. يتجاوز حدود القبيلة والمدينة.. يستعد للمساحات القارية، حيث الشعوب والأمم والحضارات التي تحتاج إلى من يدفع بها نحو الأسمى؛ لذا أقر ﷺ حلف الجاهلية على ما كان عليه، لكنه نهى عن فعله في ظل الدولة الإسلامية.. حيث التشريع ينظم كل شيء، فقال: «**وأوفوا بحلف الجاهلية، فإن الإسلام لم يزده إلا شدة، ولا تحدثوا حلفًا في الإسلام**»، والحلف غير المعاهدات: فالمعاهدات أنظمة تنظم علاقة الدولة المسلمة بغيرها، والدولة الإسلامية ليست في جزيرة معزولة، ولا تهدف إلى الانعزال، إضافة إلى التشريع الذي ينظم علاقة الدولة بالمواطن، والمواطن بالمواطن.

قرر القائد ﷺ البقاء مدة تكفي لإذابة ما بقي في نفوس الطلقاء من بقايا الجاهلية، حتى قال أحد الصحابة «أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يصلي ركعتين» أي يصلي الظهر والعصر والعشاء ركعتين، وكانت سنته أن يقصر الصلاة إذا خرج من المدينة مسافة تقارب الثلاثين كيلومترًا. يقول أنس: «كان رسول الله إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين» وكأنه يهدف من البقاء بمكة إعطاء ألوف الطلقاء فرصة لتنفس التوحيد نقيًا.. تسعة عشر يومًا يفز فيها أكثر من عشرين ألف مؤمن للصلاة.. يملؤون البيت الحرام خمس مرات في اليوم والليلة.. في خشوع

وحركات راكعة ساجدة للواحد الأحد.. خلف هذا النبي العادل الرحيم. مشهد مهيب اختفت فيه الأصنام.. اختفت صلاة الجاهلية التي كانت رقصًا وتصفيقًا وصفيرًا وثنيًّا، حيث وصفها الواحد الأحد، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[الأنفال: ٣٥].. تمكن القائد ﷺ من استمالة كل مكة في تلك الأيام القليلة دون إكراه، وتحول الفاتحون المهاجرون الأوائل إلى سحابات رحمة.. ينطلقون نحو أقاربهم علهم ينتشلونهم من وحل الوثنية وتخلفها.

الفاتحون سحابات رحمة

على أرض مكة.. لم ينشغل المهاجرون والأنصار بالاحتفال بانتصارهم، ولا باستعراض سبقهم وقوتهم على طرقاتها.. كانت ابتساماتهم وأخلاقهم أطواق نجاة لمن حولهم، وكانت كلماتهم بساتين كرم للمتعبين.. ينطلقون في اتجاه كل عقل حائر، ونحو كل روح تائهة في صحارى الجاهلية، فكما نجح أبوبكر مع والده انطلق المنتصرون بل والمسلمون الجدد لأقاربهم، بعد أن انتشت أرواحهم بالإيمان.. أحدهم يدعى مجاشع بن مسعود يبايع النبي ﷺ ثم يتجه إلى أخيه أبي معبد؛ ليحرك المياه الراكدة في حياته الآسنة.. أخذه برفق للقائد، ولما وقفا أمامه ﷺ اكتشف مجاشع تحولًا في حياة المسلمين، واتجاهًا للعالمية، لا للمدينة فقط.

قال مجاشع: يا رسول الله، بايعه على الهجرة. فقال ﷺ: «**قد مضت الهجرة بأهلها**». فقال: فبأي شيء تبايعه؟ قال: «**على الإسلام والجهاد والخير**» ويبدو أن مجاشع لم يستمع للنبي، حين قال يوم افتتح مكة: «**لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض**» ثم قال: «**فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها**» أي لا يجوز التقاط شيء ضائع في حدود الحرم إلا لإيصاله لأهله، أو الإعلان عنه. وقال أيضًا: «**لا يختلى خلاها**» أي لا يقطع شجرها، لكن العباس ناشد نبيه، فقال: «إلا الإذخر يا رسول الله، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا؟

قال: **إلا الإذخر**» وهو حشـيش طيب الريح أطول من الثيل. كان الصحابة ينصتون للتعليمات، بينما كان رجل من أهل اليمن لا يكتفي بالإنصات.. كان يريد من قائده توثيـق الخطبة كتابة، لكـن كيف وقد نهى ﷺ من قبل عن كتابـة الحديث، فقال: «**لا تكتبـوا عني، ومن كتـب عني غير القـرآن فليمحُه، وحدثوا عنـي، ولا حرج، ومن كـذب عـلي متعمدًا، فليتبـوأ مقعده من النـار**» لكن إجابته ﷺ لليمنـي خلقت قفزة هائلة في ثقافة الأمة الأمية.. قفزة غيرت الجزيرة العربية.. غيرت العالم كله.

تدوين السنة قفزة ثقافية هائلة

فتح مكة لم يكن حدثًا عسكريًا فقط.. لم يكن جهاد طلب.. كان قفزة حضارية نهضـت بالعـالم كلـه، فالفتح كاد يتأخـر أكثر من عشر سـنوات لـو لم تنقض قريش المعاهدة.. الفتح كان نصرة لكيان غير مسـلم بالكلية، ولا ينتمي لدولة الإسـلام.. الفتـح كان نقلـة في الانفتاح على الآخر، حين أعلن ﷺ عـن توقف الهجرة، فلم يعد للتكتل في المدينة داعٍ مع تحطم كل أشكال الحصار الوثني اليهودي. الفتح نقلة ثقافية هائلة، فبعد أن نشر الإسلام لأول مرة في التاريخ ثقافة اقتناء الكتاب في البيوت.. ها هـو يضغط على أيقونة الانفجار العلمي، فقبـل الفتح قال ﷺ لأصحابه: «**لا تكتبوا عنـي، ومن كتب عني غير القرآن فليمحُه**» قالها خشـية الانشـغال عـن القرآن.. في وقت كانت الوثنية هي الطاغية بحصارها وقضّها وقضيضها، لكنه أسس بعد الفتح لانفجـار علمـي لا مثيل له، حـين هتف به رجل مـن اليمن، والعلم يـمان والإيمان يمان، فقال: «اكتبوا لي يا رسول الله. فالتفت لأصحابه، فقال: **اكتبوا لأبي شاه**» أقبل أحـد الصحابة، فدون لذلـك اليماني الخطبة، فإذ بفتح جديد يـشرع للأمة، حين بدأ الصحابة تدوين أقوال نبيهم وأفعاله وتقريراته.. كلٌّ بحسب مشاهدته.

هذه النقلة العظيمة فسرت تفوق بعض الصحابة في النقل على الرغم من تأخر إسـلامهم، مثـل الفتى عبدالله بـن عمرو بن العـاص، حتى قال أبوهريـرة: «ما من أصحـاب النبي أحد أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو، فإنه كان

يكتب، ولا أكتب» تلك الكلمة كانت الشرارة التي أشعلت العقول، لتنجب الأمة كتّابًا ومؤلفين ومبدعين في تخصصات يعرفها العرب لأول مرة، بل ويعرفها العالم لأول مرة.

أصبح في الأمة المحدث والمفسر والفقيه والأصولي والعروضي والنحوي، بعد أن كانت أمة شفهية.. ثقافتها محدودة بين اللسان والأذن.. كان الفتح أيامًا بيضاء في مكة، لكنها هيجت الذكريات، وأحرقت حنايا الصدور، فبعد أن سكنت مكة بالإيمان والحب تحرك قلب النبي ﷺ.. حركته ذكريات لا أدري ما الذي هيجها؟

هل مر ببيتها، أم مر بمكان كانت تأخذه إليه؟ هل مشى بدروب كانت تمسك بيده الصغيرة فيها وهو طفل؟ لا أدري، لكن طيف آمنة الحبيبة تجول بين أضلاعه حتى أبكى قلبه، وأخرجه من مكة حتى بكى، وأبكى معه أصحابه.

حين بكى الصحابة حول قبر آمنة

في مكة.. مر طيف آمنة الحبيبة بين أضلاع ابنها الرحيم محمد ﷺ.. رفرف قلبه خلف طيفها حتى أخرجه من مكة.. تهوي به راحلته حتى أسلمته لمكان يقال له: الأبواء.. توقفت الرواحل هناك، وانحدر المشتاق ﷺ عن راحلته، ثم مشى نحو رسم قبر آمنة، الذي حفر بين عينيه قبل خمسين عامًا.. حينما كان معها وهو لم يبلغ العاشرة.. أخذت آمنة منه هنا، ودفنت أمام عينيه الغارقتين بالدموع هنا، وها هو اليوم يتوقف في المكان نفسه، وعيون صحابته معلقة بحزنه.. لا يدرون ما أصابه.

جلس ﷺ على حافة القبر.. هزه الحزن حتى بدا لأصحابه وكأنه يخاطب أحدًا، ثم ازداد خفقان قلبه، واجتاحته الرحمة، فإذ بدموعه تبلل قبرها.. وإذ بنفسه تذرف، وإذ به يبكي بكاء لم يرَ أصحابه أشد تأثيرًا منه، فاجتاح الحزن قلوبهم، وتأثر عمر، فلم يطق البقاء في مكانه ولا الصبر على السكوت.. فتهادى نحو حبيبه، وفدى تلك الدموع بأمه وأبيه، وقال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما الذي أبكاك؟» فتهدج

صوت الحبيب ﷺ وهو يقول: «**هذا قبر أمي، سألت ربي الزيارة، فأذن لي، وسألته الاستغفار، فلم يأذن لي، فذكرتها، فذرفت نفسي فبكيت**»، فما رُؤيت ساعة أكثر باكيًا من تلك الساعة.

انطوى ﷺ على أحزانه. فالأمر ليس بيده.. هو عبدالله ورسوله، وله عزاء بقول الله الذي أنزل عليه: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥]، ثم امتطى راحلته وعاد لمكة، ليجعل منها واحة للمتعبين.. ينشر فيها التوحيد والعدل والحب والنظافة.. يعيد تكوينها بالإسلام، فينعم الجميع بأجواء هادئة وجميلة، ويقترب عيد الفطر، فيخرج المسلمون زكاة الفطر للفقراء والمساكين من أهل مكة، ويواسونهم بطريقة عذبة لم يتعودوا رقتها من قبل، ويصلي القائد ﷺ صلاة العيد لأول مرة بمكة، وخلفه أكثر من ثلاثين ألف مسلم ومسلمة، ثم يخطب بهم، ثم يحتفلون بعيد الفطر لأول مرة في مكة، فيرى الطلقاء كم هو فاتن هذا العيد، وكم هو جميل هذا الإسلام، فمكة صاخبة بالحركة.. مزينة بالحب والتراحم.. يتحادثون بود.. يتبايعون بأمانة، ويقرضون دون ربا، ويتصدقون، ويواسي بعضهم بعضًا.

أهذه مكة التي كانت قبل أيام بطيئة مملة كئيبة خائفة، وملوثة بالأصنام والطبقية والعنصرية والربا والأحقاد؟ لو لم يكن هذا الرجل نبيًّا لما تغيرت مكة بهذه الطريقة المعجزة، ولو بعد آلاف السنوات، ويمر العيد بأمن وسلام، لكنه أمن أثار حفيظة قبيلة قريبة إلى قلبه ﷺ.. شيء ما وتر قبيلة هوازن وأثارها، حتى خرجت قبيلة حليمة برجالها ونسائها وكل ثروتها.. خرجت في مهمة انتحارية لم تجرؤ عليها قبيلة من قبل، فمن سعى بالنميمة بين هوازن والدولة الإسلامية؟

مَنْ وتر هوازن؟

كانت مكة حالة فرح وأعياد، لكن أرضًا أخرى كانت تعيش حالة توتر تجاه تلك الأعياد.. أرض تثير ذكريات طفولة القائد ﷺ وحنينه. هوازن.. أرض أمه

حليمـة.. حيـث مراعي الغنـم الجميلة.. هـوازن.. مهبط الملائكة عليـه لأول مرة، ورؤيته لها لأول مرة.. الأرض التي شـق فيها صدره.. تلك القبيلة الشجاعة التي لم يشهد تاريخها عداء للدولة الإسلامية.. استفزتها الشائعات حول جيش الفتح الذي تجـاوز العشرة آلاف مجاهد.. ذهبت بها التخمينات بعيدًا، فظنت أن ابنها سـيهاجمها بجيشه الكاسح، فقررت المبادرة، وخوض حرب انتحارية الشكل والمضمون.

تحـرك زعيمها مالك بن عوف النصري لجمع من بقي حول مكة من المشركين، فاستطاع إقناع الكثيرين (من بني نصر وجشم، ومن سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وناسًا من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر، وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف وبنو مالك وغطفان).. لم يكتفِ مالك بهذه الجموع، بل لا يصدق المرء ما قام به هذا الأمير. لقد حشـد النسـاء والأطفال وما يملكون من ثروة الإبل والغنم، حتى قال أحد شهود العيان: «أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم».. كان مالك رجل المغامرة والمقامرة.. رجل الفرصة الواحدة، ربما لثقته ببسالة جيشه.

تحركت الحشود الهائلة تهز الأرض.. تحرثها.. مرت بالطائف، فالتحقت ثقيف بهـم، ثـم انحدرت من جبـال الطائف نحـو مكة. لم تكـن عيون الدولة الإسـلامية نائمة.. كانت تمسح المناطق المحيطة، فرصدت تلك الحشود، فأقبلت تقدم تقاريرها لقائـد الدولة ﷺ، فاسـتدعى مباشرة أحد جنده، واسـمه عبدالرحمـن بن أبي حدرد الأسـلمي، ولما جـاء عبدالرحمن كلفه بمهمة اسـتخبارية بالغة الخطـورة، وقال له: «اذهب، فادخل بالقوم حتى تعلم لنا من علمهم».

انطلـق الجاسـوس، وتوغل بين القـوم، وعاش معهم يومـين، ورصد عددهم وعدتهـم ومشـاعرهم، ثـم غادر معسـكرهم، وعـاد لقائـده وقدم تقريـره. تعجب القائـد ﷺ من هـول التقريـر، فالتفت لوزيره عمـر بن الخطاب، وقال: «**ألا تسـمع مـا يقـول ابن أبي حـدرد؟**» لم يصـدق عمر ما يجـري واسـتبعده، وقال: «كـذب ابن أبي حدرد»عندها استشاط الرجل غضبًا من عمر، وتلفظ بكلمات شكى منها الفاروق لنبيه.

انفعل ابن أبي حدرد لتكذيب عمر له، وقال له: «إن كذبتني فربما كذبت من هو خير مني. فقال عمر: يا رسول الله، ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟ فقال رسول الله: **قد كنت يا عمر ضالًا، فهداك الله ﷻ**» أدرك القائد ﷺ خطورة الوضع، فتوجه لأحد تجار السلاح بمكة، وهو ابن الطاغية أمية بن خلف واسمه صفوان بن أمية، فطلب منه تأمين (مئة درع، وما يصلحها من عدتها).

كان صفوان قد أسلم حديثًا.. لم ترفرف روحه في الإيمان بعد، فصدمه الطلب، وظن أن محمدًا تغير، فغدا قائدًا مستبدًّا.. يصادر أموال شعبه، ويسطو على ممتلكاتهم، فقال بلغة قلقة: «**أغصبًا يا محمد؟**» فطمأنه ﷺ قائلًا: «**بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك**».

اطمأن صفوان على أدراعه وعتاده، فمحمد الأمين بمكة قبل عشرين عامًا.. هو الآن أكثر أمانة. انطلق صفوان، وطلب من خدمه إحضار الأدراع والعتاد من مخزنها، ثم أحصاها، ثم أقبلوا يحملونها حتى سلمها للنبي ﷺ عارية مؤداة تضمن الدولة الإسلامية لصفوان دفع ثمن ما يتلف منها أو يضيع.

تسلّمت الدولة الأدراع، ووزعت على الأشخاص الذين أراد القائد تسليحهم بها، وخطب ﷺ بشعبه محرضًا على الدفاع عن دولتهم، فانطلق الآلاف لبيوتهم، وأحضروا أسلحتهم التي قاتلوا بها الإسلام ثماني سنوات مضت.. خرجوا بها للدفاع عنه اليوم، بينما كان المهاجرون والأنصار سيوفًا مسلولة.. رهن الإشارة كالعادة، وبعد أن اكتملت الحشود الهائلة.. نادى القائد ﷺ صحابيًّا من أهل مكة اسمه عتاب بن أسيد، فلما جاء عينه أميرًا على مكة، ثم انطلق ﷺ بجيشه.. انطلق بأعداد غفيرة تهز الأرض.. تثير النقع بين الجبال وعبر الأودية، وفي الطريق مروا بشجرة سدر عظيمة على جانب الطريق. حدق بها بعض المسلمين الجدد، فأثارتهم، فلها مكانة عند بعض الوثنيين.. كانوا يسمونها ذات أنواط، ويأتونها كل عام، فيذبحون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، ويعكفون عليها، ويتبركون بها.

تحركت عواطفهم، فهتفوا بطلب قادم من جذور الوثنية: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟» غضب النبي ﷺ لهذا الطلب من بعض الطلقاء، فلم يجاملهم على الرغم من حاجته لهم، ولم يغادر المكان حتى أعادهم للتوحيد النقي.

خالد لا يعثر على العزى

سمع النبي ﷺ تلك الأصوات النشاز، التي تطالب بمنحهم شجرة يعكفون عليها كشجرة الوثنيين ذات أنواط.. طلبٌ يهدم الإسلام من أساسه، فالله سخر ما في السماوات والأرض للإنسان؛ كي يطوعه صناعة وزراعة واكتشافًا ورُقيًّا، أماالوثنية فتفعل العكس.. تمرغ عقل الإنسان في وحل التخلف، فتسخر الإنسان للأشجار والأحجار والأبقار؛ لذا لم يتزحزح ﷺ حتى أعاد هؤلاء للتوحيد.. لم يجاملهم لأنهم جنده، ولم يسايرهم لأنه يحتاج إليهم في معركته القادمة، فالقضية قضية توحيد، وكل معاناته ومعاركه التي فرضت عليه كانت من أجل الدفاع عن التوحيد. لقد قبل النبي إسلام رجل لن يتنفل، وقبل إسلام قوم اشترطوا إعفاءهم من الزكاة، وقبل إسلام رجل بايعه على أن يصلي صلاتين، لكنه لم يقبل إطلاقًا أن يبايع أحدًا على أن يكون لله شريك، أو أن يجعل بينه وبين ربه واسطة من شجر أو حجر أو حتى عالم أو ولي، فليس في الإسلام كهنوت، أو مناصب دينية. التفت ﷺ للمسلمين الجدد وهم حول ذات أنواط، فقال: «**الله أكبر؛ قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[الأعراف: ١٣٨]، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[الأعراف: ١٣٨]، **إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم**» أي سوف تقلدون اليهود والنصارى في بدعهم الدينية، فالعقيدة والعبادات بدع إن لم تكن وحيًا نقيًّا، أما تقليد غير المسلمين في الإبداع الدنيوي فالمطلوب أن يفوقهم المسلمون، ويتجاوزوهم لا أن يقلدوهم فقط، وذلك حين قد قدم ﷺ لهم قاعدة تقول: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»، وحرضهم على الاكتشاف، فقال: «**ما أنزل الله ﷻ داء، إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»، والعلم أفضل من الجهل.

توقف ﷺ أمام ذات أنواط لحسم هذا الشرك الطارئ، كما قرر حسم أمر الشرك في مكان آخر، لكن هذه المرة لم يكن الوثن شجرة.. كان شيئًا مختلفًا، وقد تخلى عنه عابدوه، وهم الآن ضمن جيش التوحيد؛ لذا أرسل ﷺ خالد بن الوليد لاجتثاثه، لكن خالدًا عاد دون أن يتعرف إليه. انطلق سيف الله، ولما وصل لم يجد سوى شجر، فعاد لقائده، فأعاده القائد ﷺ مرة أخرى.

نهاية العزى

انطلق خالد بن الوليد بمفرزة من الجند نحو العزى، وهي الإلهة التي لم يعد أحد يعبدها.. كانت تقبع في مكان يقال له نخلة.. ذلك الوادي الذي التقى به النبي ﷺ الجن قبل الهجرة.

تعرجت الدروب بخالد، فلم يجد أحدًا.. لم يجد عبادًا ولا زائرين ولا متوسلين. أفلس سوق العزى بعد الفتح.. لم يجد خالد في المكان الموحش سوى تلال تكاثرت عليها أشجار السمر، وعندها بيت مهجور. تلفت، فإذا المكان موحش كالموت.. تنتشر فيه أشجار كذات أنواط، فأمر بقطعها. هوت السيوف قطعًا بأشجار السمر حول البيت المهجور وهدم البيت نفسه، ثم عاد خالد لقائده، فأخبره بما فعل، فقال ﷺ: «**ارجع فإنك لم تصنع شيئًا**». رجع خالد للمكان، وبحث وبحث فلم يجد أحدًا، لكنه لمح من بعيد رجالًا يتسلقون الجبال هربًا كقرود خائفة.. تأملهم، فإذا هم السدنة.. سدنة العزى، وأكثر الناس معرفة بدجلها.. حتى هؤلاء تخلوا عنها.. تبرّؤوا منها كما يتبرأ المنافق من كفره عند علو التوحيد وأهله، وكما يتبرأ الشيطان من أتباعه يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم: ٢٢]، صعد خالد وجنده الجبل، فأمعن الكهنة في الهرب وهم يطالبون إلهتهم السخيفة بالدفاع عن نفسها.. يصرخون بها: (يا عزى، خبليه، يا عزى، عوريه، وإلا فموتي برغم) لم تظهر

العزى ظلت خائفة في وكرها. سمع خالد المناشدة، فأدرك أن العزى داخل الوكر.. اقتحم خالد الوكر، فإذ به يفاجأ بامرأة قذرة عارية ناشرة شعرها.. أقبل خالد عليها بسيفه المسلول، فتطايرت الخرافات من رأسها كما تطاير شعرها وسدنتها.. جثت المعتوهة على الأرض من الرعب، ومدت يديها نحو الأرض.. تقبض التراب بكفيها، ثم ترفعه، وتحثوه على شعرها، فيزداد شعثًا وتزداد اتساخًا.

لم يكن لدى خالد وقت ليضيعه في مشاهدة هذه المسرحية السخيفة.. أنهى الأمر.. حسمه بحد سيفه، فتدحرجت الخرافة ملفوفة بكومة شعر أشعث، ثم انحدر من الجبل نحو قائده، ولما قابله أخبره، فقال ﷺ: «**تلك العزى**».

كانت المنطقة تشهد توترًا، فأرسله ﷺ لمنطقة توتر أخرى، فتحرك خالد مأخوذًا بحماس المنتصر.. حماس كلف الدولة الإسلامية الكثير، ودفع النبي القائد ﷺ للاعتذار للوثنيين والتبرؤ من فعل خالد.

خالد بن الوليد يأسر عاشقًا

الزمن: أيام الفتح. المكان: منطقة توتر حول مكة. المشهد: قافلة تحمل عروسًا يقال لها (حبيش)، وخلف القافلة يهيم شاب وثني بتلك العروس.. كان هيامًا عذريًّا لم تدنسه رذيلة، وجد الحب قلبًا خاليًا من الهموم والمسؤولية، فاحتله، وعندما يحتل الحب أمثال تلك القلوب الفارغة يوردها المهالك، ففي أحد الأيام يحط بمرابع حبيش أمير، فينتزعها من أرض عاشقها بجاهه وماله.

غادرت الفتاة نحو ديار الأمير، لكنها أردفت قلب عاشقها.. جنّ الفتى، فامتطى راحلته خلف قافلتها، وكأنها الماء والهواء.. سار كالمجنون لا يعرف وجهة غير وجهتها، ولا عنوانًا غير عنوان تكتبه آثار راحلتها، وفجأة توقفت العيس في آخر المحطات عند ماء قوم يقال لهم: (بنو جذيمة) قرب مكة.. توقفت القافلة في وقت حرب، فصادفتها سرية خالد بن الوليد، وكان من بين جنده شاب تضلع بسنة

النبي ﷺ وهديه وسمته.. هو عبدالله بن عمر بن الخطاب.. كان جنديًّا مطيعًا لأميره، لكن خالدًا تسرع حين سمع بني جذيمة يصيحون: «صبأنا صبأنا» فأسر من أسر، وفر من فر، فوزع خالد الأسرى على الجند، وأمر كل جندي أن يقتل أسيره، فانتفض ابن عمر، وأبدى احتجاجه دون شحناء.. إنها هي الحرية التي منحها الإسلام لأتباعه في الاحتساب حتى في حالة كحالة حرب فاصلة كهذه، فقال: «والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره» امتنع ابن عمر وصحبه، لكن خالدًا الذي مارس العنف ضد المسلمين قبل أن يسلم.. يدرك أكثر من غيره عنف الوثنيين في هذه المنطقة، وكيدهم للموحدين دون مبرر.. قرأ في صياحهم تحديًا وقحًا للإسلام في ساحة الحرب، فكيف بحالة السلم.

تم أسر العاشق الذي كان في وادٍ والعالم في وادٍ، وتم تسليمه لفتى في مثل سنه يقال له: ابن أبي حدرد.. نظر العاشق للسيف المسلول، فاشتاق للموت بعد أن سلبته حبيش طعم الحياة، ولم تسعفه الجاهلية بهدف أرقى، فناشد آسره أن يسمح له بالاقتراب من نساء القافلة دقائق قبل قتله. فقال ابن أبي حدرد: (والله ليسير ما طلبت) نهض العاشق يرسف في قيوده، وظل يمشي حتى وقف أمامهن. ولما وقف نهضت فتاة سمراء طويلة، وما إن شاهدها عاشقها حتى نفث من صدره أبياتًا، وفاضت روحه بطريقة أحزنت النبي ﷺ حزنًا شديدًا، وأنب خالدًا وجنده، واعتذر للوثنيين مما حدث.

أما كان فيكم رجل رحيم؟

وقف الفتى العاشق أمام الفتاة السمراء يودعها، ويقول: «اسلمي حبيش قبل نفاد العيش»، ثم ارتجل أبياتًا هي آخر حروفه في الدنيا، وقال:

أُريتُكِ إذ طالَبتُكم فوجَدتُكم ... بحليةٍ أو ألفيتُكم بالخَوانقِ

ألم يكُ أهلًا أن ينولَ عاشقٌ ... تكلّفَ إدلاجَ السرَى والودائِق

فلا ذنبَ لِي قد قلتُ إذْ أهلُنا معًا أثيبي بودٍّ قبلَ إحْدى الصفائِق

أثيبي بودٍّ قبلَ أن تشحطَ النَّوَى وينأى الأميرُ بِالحبيبِ المفارِق

فـإنِّي لا ضيعـتُ سرَّ أمانـةٍ ولا راقَ عيني عنكِ بعدَكِ رائِق

فقالت الفتاة: «نعم، فديتك. وأنت فحييت عشرًا، وسبعًا وترًا، وثمانيًا تترى» سكت العاشق.. انتهت حروفه، فعاد به ابن حدرد، وعيناها معلقة به، وفجأة اتسعت عيناها وهي تراه يهوي من بعيد.. تخلت عن وقارها وإمارتها والهوادج المحملة بحليها.. تركض نحوه.. تريد استعادته، لكن رحل.. مات، فوقفت عليه، ثم انحنت عليه كالفجيعة، ثم شهقت شهقتين، وهوت بجانبه، وفاضت روحها.. رحلت، وكأنها أقسى العشاق وأضعفهم.

مشهد طعن ابن عمر وصحبه، فانطووا على حزنهم ينتظرون تقييم الإسلام لهذه الفاجعة.. ينتظرون حكمه ﷺ. عادوا لمكة مثقلين بالهموم، ولما وصلوا توجهوا نحو قائدهم، فاشتكوا أميرهم، فحزن ﷺ وعاتبهم، وقال: «أما كان فيكم رجل رحيم» فقد عفا ﷺ أمس عن آلاف الصناديد الذين اضطهدوه، وعذبوا أصحابه وحاربوه، فكيف بعاشق هائم كل طموحه في الدنيا قرب معشوقته؟

توجه القائد ﷺ لأمير الجيش خالد، فعاتبه بدعاء كالمرارة، وقال: «اللهم، إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد، اللهم، إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد». كلمات لم يقلها القادة المتحضرون، ولا الصليبيون، ولا اليهود، ولا الوثنيون، وهم يبيدون الملايين.. لم يكن الدافع للأمير تعطشًا للدماء، لكنها الغيرة على التوحيد، والحماس المفرط الذي لا يمكن تبريره تحت أي عذر، فهو خطأ دون جدال، وقد اعترفت الدولة الإسلامية بذلك، وتحملت مسؤوليتها، ولم تتنصل من تبعاته، والقائد ﷺ بهذه البراءة يؤيد احتجاج الشاب ابن عمر، وإنكاره لتلك الحادثة.. إنكار لا يعني خروجًا، بل ردًّا لخالد الأمير إلى الوحي الذي بعث به النبي ﷺ، فخالد يظل بشرًا مهما بلغت عظمته.

لم يكتفِ القائد ﷺ ودولته بالتبرؤ، ولا باللوم، ولا بالحزن، بل أمر ﷺ بدفع ديات الضحايا في وقت لا يستطيع أحد إرغامه أو حتى عتابه.. في وقت كان وادي حنين ملغمًا بالموت لدولته.

وادي حنين ملغّم

زحفت قوات هوازن نحو مكة، فمرت بوادي حنين، فوجدوته مناسبًا لإقامة معسكرها. بينما كان القائد ﷺ في الطريق لصدهم، وقد توقف عند أحد الشعاب لأداء صلاة العصر. وبعد أداء الصلاة أقبل أحد فرسان المسلمين المكلفين بمسح المنطقة، ولما توقف به جواده قال: «يا رسول الله، إني حين خرجت أشرفت على جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن على بكرة أبيها بظعنها ونعمها وشائها هي في وادي حنين» تبسم النبي في وجه فارسه، وقال مطمئنًا أصحابه: «**تلك غنيمة للمسلمين غدًا إن شاء الله ﷻ**».

كان الوقت متأخرًا؛ لذا فضل القائد ﷺ البقاء والزحف من الغد، ولما اقتربت الشمس من المغيب هتف بجنده: «**من يحرسنا الليلة؟**» فإذ بصوت يذكر بالشهيد محرر الأسرى والمضطهدين (مرثد بن أبي مرثد).. صوت أخيه أنس يلبي: «أنا يا رسول الله، قال ﷺ: **فاركب**». فركب فرسًا له، فجاء إلى رسول الله، فقال له: «**استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا نغرن من قِبَلِكَ الليلة**».. أي احذر أن تسهو، فيفاجئنا العدو من الجهة التي تراقبها. انطلق الفارس نحوالشعب يتخلل أشجاره، ثم صعد نحو أعلى الشعب الذي يطل على الجهة المؤدية لوادي حنين، ولما صعد نزل عن فرسه، وربطه، ثم شرع يراقب. غابت الشمس، فصلى المغرب وصلى العشاء، وساد سكون الليل وظلامه، وتناثرت النجوم، وظل أنس بمكانه يحدق بالأحجار والأشجار والممرات.. لا يقطع مراقبته إلا لصلاة أو لحاجة، وشيئًا فشيئًا بث الفجر خطوطه في بقايا الليل، فتوضأ أنس وصلى الفجر، وعاد للحراسة، وكثفها حتى شملت الشعب المجاور. أما القائد ﷺ فتوجه للمصلى وصلى ركعتي الفجر،

ثم هتف بجنده: «**هل أحسستم فارسكم؟**» قالوا: يا رسول الله، ما أحسسناه، فنادى للصلاة ولما كبر صلى بهم صلاة خوف بطريقة لم يعهدوها.. جعل ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب حتى سلم، ولما سلم قال لهم: «**أبشروا، فقد جاءكم فارسكم**» التفت الجند يحدقون في أشجار الشعب، وإذ بطيف الفارس الشجاع يتخلل تلك الأشجار مقبلًا نحوهم. ولما توقف أمام قائده بشره ﷺ باللحاق بأخيه مرثد، بل بشره بأجر أكثر من قوله ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**».

أنس يلحق بمرثد قبل وادي حنين

صلى القائد ﷺ بجيشه الفجر وهو يلتفت للشعب، ولما سلم بشرهم بوصول فارس الرباط أنس بن أبي مرثد الغنوي قائلًا: «**أبشروا فقد جاءكم فارسكم**» أقبل الفارس خلال الأشجار حتى وقف أمام قائده، فسلم فردوا السلام، فقال: «إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أرَ أحدًا. فسأله: **هل نزلت الليلة**؟ قال: لا، إلا مصليًا أو قاضيًا حاجة».. عندها بشره ﷺ بأنه عمل عملًا أوجب له الجنة قائلًا: «**قد أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها**» وهي كلمة خاصة بالنبي ﷺ، شعر المجاهدون بالغبطة لهذا المجاهد، ونهض القائد، فأمر جنده بالتحرك.

نهض الجيش، وكأن الأرض كلها تنهض، فأعجبت المؤمنين كثرتهم، وكان من أكثرهم زهوًا الطلقاء الذين بلغ عددهم وحدهم عشرة آلاف مقاتل، حتى وصف الشاب البراء بن عازب شبابهم، فقال: «خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسرًا، ليس عليهم سلاح أو كثير سلاح» شباب ظنوا أن جيش النبي لا يهزم، وهم معذورون، فهم لم يحضروا أحدًا ولا الأحزاب، ولم تصقلهم التجارب وسنن الله التي تقول: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**»، فالصلاح لا يكفي وحده. اقترب الجيش الإسلامي الضخم من وادي حنين، ففوجئوا بجيش هوازني ذكي درس خطط

النبي ﷺ ومعاركه السابقة، واستنسخها في ذلك الوادي. حتى أثار توزيعهم ببطن الوادي إعجاب الشاب أنس بن مالك، فقال: «جاء المشركون بأحسن صفوف رأيت، فصفت الخيل، ثم صفت المقاتلة، ثم صفت النساء من وراء ذلك، ثم صفت الغنم، ثم صفت النعم» أي الإبل. أما الموت فلم يكن بهذه الصفوف.. الموت يكمن في تجاويف الوادي وغيرانه، وخلف صخور منحدراته التي شاهدها جابر، فقال: «استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة، أجوف حطوط -أي شديد الانحدار- إنما ننحدر فيه انحدارًا وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا، وأعدوا» الموت يكمن في سهام هوازن الذين وصفهم البراء بقوله: «قوم رماة لا يكاد يسقط لهم سهم».. كان الوادي ملغمًا بالموت، وكانت الأماكن ملغمة بالجواسيس.

جاسوس المشركين يأكل مع المسلمين

سار القائد ﷺ بجيشه حتى اقترب من وادي حنين، وقد ارتفعت الشمس كثيرًا، فنزل ﷺ ونزل الجيش، وانتشروا في المكان، وأنزلوا أزوادهم، وصاروا يتضحون.. أي يتغدون وقت الضحى. وفجأة لمح سلمة بن الأكوع جملًا أحمر مقبلًا من بعيد.. يمتطيه رجل يكثر من التلفت المريب! شك سلمة في سلوكه. اقترب صاحب الجمل وسلمة يلاحقه بنظراته، ثم أوقف جمله الأحمر، وأناخه ونزل عنه، ثم فتح حقيبته، وأخرج منه حبلًا، فقيّد به الجمل، ثم حيا القوم، وجلس يتغدى معهم، ويتلفت، ويرصد المعسكر، وسلمة يحدق في حركاته، وبعد أن تغدى الغريب نهض، فنهض سلمة، وركض الغريب نحو جمله، ثم حل حبله، ووثب عليه وأثاره وانطلق به، فلحق به صحابي على ناقة ورقاء، وركض سلمة خلفهما مباشرة، وصار يعدو بسرعته الفائقة حتى اقترب من ورك الناقة، ثم تجاوزها حتى أصبح عند ورك جمل الغريب، ثم شد وأسرع حتى أصبح بموازاة لبة الجمل، فقفز وهو يمد يده حتى انتزع خطام الجمل، وأوقفه وأناخه، ولما ثنى الجمل ركبتيه ولامست الأرض..

قبض سلمة على سيفه، فاخترطه وهوى بحده على رأس الجاسوس الوثني، فإذ به يتدحرج وجسده يهوي عن الجمل، فأثار سلمة الجمل مرة أخرى، وأمسك بزمامه، وانثنى به نحو جيشه يسوقه وعليه متاع الجاسوس وعتاده. هب القائد ﷺ وبعض جنده لاستقباله، ولما رآه ﷺ من بعيد سأل الجند: «**من قتل الرجل**؟ قالوا: ابن الأكوع فقال: **له سلبه أجمع**» والسلب هو ما يحمله العدو المقاتل من سلاح وأمتعة شخصية.

عاد الجند للجلوس، ويبدو أن قتالًا لن يحدث اليوم؛ لذا أمضوا بقية اليوم في الاستعداد، ووزع القائد ﷺ جيشه كالعادة إلى جناح أيمن وأيسر، وقلب يقوم هو على قيادته، وكانت الميمنة بقيادة خالد بن الوليد.

لاح الفجر، فنهض الجيش للصلاة خلف نبيه، ولما انتهت الصلاة كان ﷺ يتمتم بكلمات وهو يتأمل مشهد جيشه الهائل.. أخذه مشهد الصفوف الهائلة والمهيبة خلفه إلى أحداث مشابهة. مشهد نبي من الأنبياء السابقين أعجبته كثرة جيشه. خفق قلبه ﷺ فبدأ يتمتم بكلمات تناجي ربه خشية أن يقع فيما وقع به ذلك النبي، فأثارت حركة شفتيه فضول الصحابة، فقالوا: «يا رسول الله، إنا نراك تفعل شيئًا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟».

نبي لا يتسلل الغرور لنفسه ولكن

لما صلى القائد ﷺ بأصحابه فجرًا في حنين.. حرك شفتيه، فأثارت حركتها فضول من أمامه من الصحابة، فقالوا: يا رسول الله، إنا نراك تفعل شيئًا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ فقال ﷺ: «**إن نبيًّا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء. فأوحى الله إليه: أن خير أمتك بين إحدى ثلاث: أما أن نسلط عليهم عدوًّا من غيرهم، فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت**»، فقام ذلك النبي أمام جيشه، فشاورهم، فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت. فأرسل عليهم الموت، فمات منهم في

ثلاثة أيام سبعون ألفًا. قال ﷺ: «**فأنا أقول الآن: اللهم، بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل**» فلا حول ولا قوة لمحمد وجنده إلا بالله، وما خرجوا إلا لله وحده لا شريك له.. لم يكن ﷺ خائفًا على جنده من شيء أكثر من العجب، فحين يتسلل للمرء ينسى فضل خالقه عليه، ومحمد ﷺ يتذكر جيدًا أيام المرارة قبل عشرة أعوام.. حين مر بهذا المكان وحيدًا طريدًا حافيًا ليناشد أهل الطائف بعد موت خديجة وعمه أبي طالب، وكيف عاد منكسرًا، وها هو اليوم في الطريق نفسه، ولكن بعد أن دانت له مكة وطيبة وما بينهما. ها هو اليوم يقود أكثر من عشرين ألف مقاتل، فلم يشعر بالزهو، بل فاض قلبه بالامتنان لربه، وبدأ معركته التي فرضت عليه بمناجاة الله سبحانه والانكسار أمامه، ثم أمر جنده بالزحف.

هجم الجيش الإسلامي، فاكتسحوا الوثنيين المتكدسين في الوادي بسرعة خاطفة، وأظهر جند الإسلام بسالة، فهرب الوثنيون، وتركوا غنائم هائلة خلفهم حتى قال البراء: «لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم».. الغنائم مرة أخرى.. الغنائم الهائلة تناثرت في الوادي، فتكالب عليها الطلقاء ظنًّا منهم أن نظام الجاهلية مازال سائدًا، وأنها لمن سبق، فإذ بهم ينسون عدوهم ومعركتهم، ويتحولون إلى شبكة معقدة من الانشغال بالدنيا.. في ساعة يفترض أن تهفو فيها الأرواح للجنات، وفجأة أمطرتهم سهام هوازن موتًا.. يعدون خلف الغنائم، فإذا ما قبضوا عليها قضت عليهم السهام.. تناثرت الجثث، وحلت الفوضى، وانفجر الوادي بالصياح والغبار والهروب بكل اتجاه، وتحول المشهد إلى كارثة يصفها القرآن، فيقول: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥]، ضاقت الأرض، وضاق الوادي، وتطاير الجيش، فحدق فرسان هوازن الهاربون في مشهد الهروب خلفهم، فتوقفوا، ثم عادوا كالموت من جديد.

غلطة أحد تتكرر في حنين

تدافـع الطلقـاء.. تدافع المسـلمون الجدد يجمعـون الغنائم بشـكل فوضوي.. تدفقت عشرة آلاف منهم كالأمواج ليصطكّوا بآلاف من إخوتهم، ليتحول الطرفان إلى هدف مكشوف للرماة... مرة أخرى: الغنائم والسهام تهزمان المسلمين.. الرماة خلف تلـك التجاويف والمنحنيات التي كمنوا فيها يجولـون بطن الوادي إلى زوبعة مـن الفوضى والجثـث. فر الطلقـاء من السـهام، فأحدثوا فوضى عارمة تسـببت في تشـتت الجيش وتطايره، حتى اعترف البراء حين سـئل: «أفررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفر، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنـا على الغنائم، فاسـتُقبلنا بالسـهام. فجعلت خيلنا تلوي خلـف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب ومن نعلم من الناس».

توقف فرسـان هـوازن الهاربون على أثر الفوضى والصياح، ثم تأملوا المشـهد، وبعد قليل عادت رايتهم السوداء ترفرف نحو الوادي، حتى قال جابر: «كان القوم قد سـبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شـعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعـدوا، فوالله مـا راعنا ونحـن منحطون إلا الكتائب قد شـدوا علينا شـدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد».

انكسـر المسـلمون، وفقـدوا التواصل مع قائدهم ﷺ في مشـهد حزيـن، وخافت النسـاء المسـعفات، حتى إن والدة أنس تسـلحت بخنجـر للدفاع عن نفسـها، وذهل أبو قتادة، فصار يقاتل وكأنه وحده، ويقول: «لما التقينا، كانت للمسلمين جولة، فرأيت رجـلًا مـن المشركين علا رجلًا من المسـلمين، فاسـتدرت حتى أتيته مـن ورائه، حتى ضربته بالسيف على حبل عاتقه، فأقبل عليّ، فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت، فأرسـلني» بعدها لمح أبو قتادة عمر بن الخطاب، فشاهد في وجهه علامة الذهول، فأسرع نحوه يسـتفسر عما جرى، وقال له «ما بال الناس؟ قال عمر: أمر الله» أحبط كبار الصحابة، وحزن القائد الثابت لمرأى الفرار من الوادي.. كان البراء يصف نبيـه، فيقـول: «كنـا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشـجاع منا للذي يحاذي به ﷺ»

وفجـأة نزل ﷺ عن بغلته البيضاء التي يمسـك بخطامها ابن عمه الشـجاع أبو سـفيان بـن الحارث، وبدأ يصيـح بجنده محاولًا ترميم معنوياتهم: «**أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبدالمطلب**» ظل يهتف، ثم اتجه ليمين الوادي في محاولة لإنقاذ الموقف.

حتى الصحابة يهزمون

امتزج الحزن بالغضب لدى القائد، فانحاز ﷺ ذات اليمن، ثم صاح بالهاربين: «**أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رسول الله. أنا محمد بن عبدالله**». فلا شيء.. لم يلتفت لـه أحد، ولم يبقَ حولـه ﷺإلا مجموعة من المهاجرين والأنصـار وأهل بيته. وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبوبكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبدالمطلب وأبوسفيان بن الحارث والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث وأسامة ابن زيد وأخو أسامة لأمه أيمن بن عبيد.

ظهـرت رايـة المشركين السـوداء وسـط وادي حنـين، بعد فـرار معظم الجيش الإسـلامي الهائـل.. يحمل تلـك الراية وثني شـجاع، قد لفها عـلى رأس رمح، كلما لحق بمسـلم مـن الهاربين طعنه بـرأس الرمح، فـإذا لم يجد أمامه أحـدًا يطعنه رفعها لقومه ليلحقوا به. عادت الغنائم لأهلها، وظل القائد ﷺ يصيح بجنده، وأبوسفيان بن الحارث ممسـك ببغلته، أما أبوسـفيان بن حرب فكان معـه مجموعة من الطلقاء، وقـد كانـوا في حالـة شـماتة بالمسـلمين.. شـماتة لم تطـل، فسرعـان مـا أعـاد القائد الفذ ﷺ تشكيل جيشه.. تجاهل الآلاف الهاربة من المسلمين الجدد والطلقاء.. تجاهل الكثـرة، وعاد للبنائين الأوائل.. عـاد للمهاجرين الذين عانوا معه بمكة.. للأنصار الذين أسسوا معه دولته في المدينة. لمح ﷺ صحابيًّا اسمه زيد، فناداه: «**ويحك يا زيد.. ادعُ الناس**». «فنادى: أيها الناس، هذا رسول الله يدعوكم. فلم يجب أحد عند ذلك». تأمل ﷺ المشـهد، فكرر هتافه بزيد، فقال: «**ويحك حـض الأوس والخزرج**». فقال: «يـا معـشر الأوس والخزرج، هـذا رسـول الله يدعوكم. فلم يجبه أحـد عند ذلك». فقال ﷺ: «**ويحك ادعُ المهاجرين، فإن لله في أعناقهم بيعة**».

كانت الفوضى عارمة، وصوت زيد لم يصل، فاستعان ﷺ بصوت عمه الجهوري، وهتف به: «**يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة**» وصل صوت العباس للمهاجرين والأنصار، فعرفوا مكان قائدهم، فالتفتوا، وانتفضوا كالموت، وقالوا: «لبيك يا رسول الله» ورموا جفون سيوفهم وأغمدتها على الأرض، وانطلقوا نحو مصدر الصوت بسيوف مصلتة، وعجز بعضهم عن ثني ناقته أو بعيره الهائج، فقفزوا عنها، وأخذوا تروسهم وسيوفهم، وركضوا على أقدامهم بحثًا عن قائدهم وقرة أعينهم، حتى تجمع حول القائد ﷺ ما يقارب الألف من المهاجرين والأنصار.

حنين بيد البنائين الأوائل

سمع المهاجرون والأنصار نداء العباس يجلجل في الوادي.. يهز القلوب، فعرفوا مكان نبيهم ﷺ، وأدركوا أنه في خطر، فانطلقوا نحو مصدر النداء، ومن عجز عن ثني راحلته أخذ ترسه وسيفه ورمى غمده، وقفز عن راحلته، واشتد يركض نحو نبيه. التقت مئات الأرواح التواقة للجنة حول قائدها، وانشغل المشركون بملاحقة الهاربين من الطلقاء، فنظر القائد ﷺ لأحبته الأوائل، فنظمهم، ثم أطلقهم كالحتوف. انطلق أكثر من ألف مقاتل منظم نحو المشركين.. في حركة منضبطة، انغمسوا في أعدائهم.. يخوضون قتالًا شرسًا ومريرًا وجلادًا تطايرت معه الرؤوس والأطراف.. حينها أشرف القائد، ورفع رأسه، وتطاول على بغلته يتأمل مجتلد القوم وهم يجتلدون، فصاح بجنده: «**الآن حمي الوطيس**».

لمح علي بن أبي طالب وأحد الأنصار حامل الراية الوثني يطعن الهاربين أمامه، ثم يرفعها ليلحق به رفاقه، فقرر علي والأنصاري تمزيق معنويات الوثنيين، فانطلقوا كالسهام نحو حامل الراية.. شدّا كالصقرين عليه.. رفع علي سيفه، فضرب عرقوبي الجمل، فوقع الجمل على عجزه، وفقد حامل الراية توازنه، فضربه الأنصاري ضربة قطعت نصف ساقه، فهوى وهوت معه راية الشرك، وتفرق أتباعه، وشعروا بالهزيمة، ففرّ منهم من فرّ، وقتل من قتل، وأسر من أسر.

في مكان آخر كان سلمة بن الأكوع يمارس هوايته (العدو والرماية) وكأنه يصنع معاركه الشخصية.. صعد مكانًا مرتفعًا، فرأى مشركًا في وضع مريب، فانتزع من كنانته سهمًا، وأطلقه في اتجاهه، لكن الوثني اختفى، ففوجئ سلمة بمجموعة كبيرة من الوثنيين تخرج من ثنية في هجوم مباغت على النبي القائد ﷺ وهو محاط بقلة من أصحابه، فانسحب النبي والصحابة، وركض سلمة نحوهم ليلقاهم حتى ارتخى إزاره، فقبض عليه وعلى ردائه بيده، وقبض على القوس باليد الأخرى، حتى أدرك نبيه منسحبًا على بغلته، فلما شاهده النبي قال: «**لقد رأى ابن الأكوع فزعًا؟**» أصبح القائد ﷺ وجهًا لوجه أمام الوثنيين، فالتفت فرأى شخصًا يمسك ببغلته وهو «آخذ بثفر بغلته. فقال: **من هذا؟**» فقال ابن عمه أبو سفيان: «أنا ابن أمك يا رسول الله». فنزل ﷺ بسكينة عن بغلته، وبجواره العباس، فانحنى على الأرض، ثم مد يده، وقبض قبضة من التراب، ثم ضرب بها وجوه المشركين حين حاصروه، وقال: «**شاهت الوجوه**» فحدثت المعجزة.

لا نصر مع الفوضى والارتجال

في ساعة الحصار المفاجئة للنبي ﷺ كان عمه العباس ثابتًا في وجه الموت.. هو وابن أخيه أبو سفيان بن الحارث، حيث يقول العباس: «لزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه» يقول العباس: «ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «**انهزموا ورب محمد**، فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى أحدهم كليلًا وأمرهم مدبرًا».. غشي التراب أعينهم، فثنوا ركائبهم، وولوا مدبرين مع من أدبر حتى خفتت الأصوات شيئًا فشيئًا، وعم السكون إلا من صهيل خيل أو رغاء إبل. جالت العيون في الساحة الساكنة، فإذ الجثث متناثرة بالمئات، وإذ بآلاف الأسرى والمتروكين.

أخذ القائد ﷺ يحمد ربه، ويثني عليه وهو يتجول في ساحة المعركة التي فرضت عليه، ولم يبحث عنها.. ظل يتفقد جنده، ويتفقد أولئك الأسرى. مر في أثناء تجواله بالمقاتلة الشابة أم سليم.. أم أنس التي لم تترك معركة قادها النبي ﷺ إلا كانت من جندها.. برفقة زوجها أبي طلحة الذي أطاح بعشرين مشركًا، ولما عاد رأى بيدها خنجرًا، فقال أبو طلحة لقائده: «يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر؟ فقال ﷺ لها: **ما هذا الخنجر**؟ قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل ﷺ يضحك». ثم استرجعت أم سليم آلام الهروب والهزيمة، وانفجرت غاضبة، وقالت: يا رسول الله، اقتل من بعدنا من الطلقاء، انهزموا بك؟ فقال ﷺ: «**يا أم سليم، إن الله قد كفى، وأحسن**» واصل القائد ﷺ تجواله وسط الغنائم المهولة التي لا تعد ولا تحصى.. إنها ثروة هوازن كاملة التي انتصرت بسبب الطلقاء، لكن المهاجرين والأنصار صححوا الأخطاء، وأصلحوا الأضرار، فنزل نصر الله. نصر لن تحظى به أي دولة إسلامية إن لم تتخذ احتياطاتها المادية، وتتقن أداءها. فالقرآن يضيء أن الكثرة دون نظام تعني التخبط والتخلف والهزيمة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، لم يقسم القائد ﷺ الغنائم.. كان يشعر بشيء تجاه هوازن، وكأن حليمة الحبيبة تتجول بين أضلاعه.. كان يتمنى لو عاد فرسانها، واصطحبوا نساءهم وأطفالهم لديارهم، فقد غدت الدولة الإسلامية أكثر قوة، ولكنها أكثر تسامحًا.

القائد يتفقد جيش حنين المنتصر

تم النصر على أرض حنين، فحمد النبي القائد ﷺ ربه، وجال بين جنده، ودفن شهداءه، ومن بينهم المجاهد أيمن بن عبيد، أخو أسامة بن زيد لأمه، الذي صمد إلى جانبه حين هرب الطلقاء. أمر ﷺ بدفن الشهداء، وكانت سنته فيهم أن

يدفنـوا على أرض استشـهادهم بدمائهم الطاهرة، وألا يغسـلوا، ولا يصلى عليهم، وتفقـد ﷺ الجرحـى ومـن بينهـم عبـدالله بـن أبي أوفى، ومن أبـرز الجرحـى الأمير خالـد بن الوليد.. المسـؤول عن جناح الجيش الأيمـن، وها هو القائد ﷺ وقد رجع المحاربون إلى رحالهم يمشي بينهم، ويسـأل: «**من يدل على رحل خالد بن الوليد؟**»، فـإذ بفتى صغير في أول سـنوات بلوغه.. يدعـى عبدالرحمن بن أزهر يشـاهد قائده ينادي، فينطلق حبًّا له، ويمشي أمامه وينادي بدلًا عنه: «**من يدل على رحل خالد؟**» ظل الفتى يسير، وينادي حتى دلوه على مكان الأمير المصاب.

أقبل القائد ﷺ على رحل الأمير المصاب، فإذا خالد قد مد رجليه على الأرض، وأسـند ظهره إلى الخشـبة التي تكـون في آخر مقعـد الراكب، والتي تسـمى مؤخرة الرحـل، وهـو يعـاني إصابة أقعدتـه. أقبل النبي ﷺ بـكل الحب لهذا الخالد، وسـلم ثـم جلـس أمامه، وبعد سـؤاله والاطمئنان عليه كشـف ﷺ جرحه، ونظـر إليه، ثم نفث فيه، وفجأة وبعد تلك اللمسة القيادية الحانية، والحديث الطيب.. حدث شيء كـدر أجواء النصر. أحضر الصحابة رجلًا من الطلقـاء يترنح.. يهذي، وقد احمرت عينـاه.. قـد ابتلي بـشرب الخمر، فأمر القائـد ﷺ بإقامة الحد عليـه. كان الصحابة في حالـة غضب، فضربوه بالأيدي والنعال وأطراف الثيـاب، وحتى بعضهم عليه من الـتراب.. كان الموقف يسـتحق التوبيـخ، فقال ﷺ: «**بكتوه**» فبكتـوه، ثم أمر بتركه، وقـد وبخوه لأن الوقت وقـت حرب، وأخطاء الشـارب في الحرب تعني تصرفات خـارج العقـل، فعندما يـشرب الجندي تنهـار منظومة النظام والعقـل والأخلاق.. السكر في الحرب يعني المذابح للأسرى والانتهاك لحقوقهم.

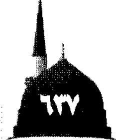
عدّ الصحابة ذلك الحد، فقدروه بأربعين.. لا سـياط فيها، ولا كشـف لظهره، ولا لطـم لوجهـه. كانت إلى التوبيخ أقرب، ثم تم إطلاق الرجل وقد طهر من ذنبه، لكي يعود لمشـاركة إخوته، فالقائد ﷺ لا يدع للمعصية فرصة لتعيق رجاله ونسـاءه عـن البـذل في سـبيل الله.. هـي كبوة أو كبـوات، لكنها ليسـت أغـلالًا إلا عند من

يجهل أعماق هذا الدين وآفاقه.. عند من لا يرى في الآخرين سوى الزوايا المعتمة.. متغاضيًا عن تلك الجوانب الجميلة فيهم، ثم نهض القائد ﷺ ليكرم أبرز المقاتلين.

تكريم الصامدين

بعد أن تم الانتصار للمسلمين ودفن شهدائهم، وعولج جرحاهم.. هتف القائد ﷺ: «**من قتل قتيلًا له عليه بينة، فله سلبه**» فنهض من نهض منهم، وهناك من أتى بشاهد فنهض فارس مغوار، وخاطب إخوته، فقال: (من يشهد لي؟).. حدق الجند فيه، فإذا هو أبو قتادة، لكن أحدًا لم يشهد فجلس، كرر ﷺ نداءه: «**من قتل قتيلًا له عليه بينة، فله سلبه**» فقام أبو قتادة ثانية، وصاح: «من يشهد لي؟» تلفت أبو قتادة باحثًا عمن يشهد له، فلما لم يرَ أحدًا جلس. كرر القائد ﷺ نداءه ثالثة، فنهض أبو قتادة، فنظر القائد إليه، واستغرب نهوضه للمرة الثالثة، وقال له: «**ما لك يا أبا قتادة؟**» فأخبره بأنه رأى رجلًا من المشركين علا رجلًا من المسلمين، فاستدار أبو قتادة من خلفه، فضربه بالسيف على حبل عاتقه، فالتفت المشرك من حر الضربة على أبي قتادة وقد سقط سيفه، ففتح ذراعيه وضم أبا قتادة ضمة وجد منها أبو قتادة ريح الموت، ثم غشاه الموت فارتخت أطرافه، وهوى على الأرض.

ترك أبو قتادة المشرك، وانطلق لمواصلة المعركة، وكان هناك فارس مسلم يشاهد الحدث من بعيد، لكنه لم يعرف أبا قتادة حينها، لكن تفاصيل العراك عالقة بذهنه؛ لأنه اقترب من الوثني بعد سقوطه، فانحنى عليه، وأخذ سلبه.. تذكر هذا الفارس المشهد، فأنطقه الصدق وشهد لأبي قتادة، لكنه تقدم بالتماس لقائد الدولة أن يعطيه السلب، ويعوض أبا قتادة من الغنائم الهائلة قائلًا: «صدق يا رسول الله، وسلبه عندي، فأرضه عني» هنا تدخل الوزير الأول والصديق الأكبر قائلًا: «لا، ها الله، إذا لا يعمد إلى أسد من أُسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ يعطيك سلبه!» كان السلب من حق فارس الإسلام أبي قتادة؛ لذا أيّد القائد كلام أبي بكر، فقال: «**صدق فأعطِه**».



نهض الرجل ومشى نحو متاعه، ثم عاد وقد أحضر الدرع والسيف وبقية أمتعة المشرك، وسلمها لأبي قتادة، فأخذها أبو قتادة، ثم باع الدرع، واشترى به مخرفًا، أي نخلات في حي بني سلمة بالمدينة، ويعبر أبو قتادة عن ذلك المال، فقال: «فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام» أخذ أبو قتادة ماله، ونهض فاتك قد تلونت ثيابه بالدماء.. هو أبو طلحة زوج أم سليم، فخاطب قائده عن ضحاياه، وإذ به ﷺ يسلم أبا طلحة أسلاب عشرين وثنيًّا أفناهم أبو طلحة بسيفه، وبعد أن انتهى القائد ﷺ من توزيع الأسلاب.. كانت عيون الطلقاء تحدق في الغنائم الهائلة.. ينتظرون الثراء منها، لكن القائد ﷺ ترك تلك الغنائم في مكانها، ولم يمسها أو يعد أصحابه بشيء منها، بل أمر جيشه بالتحرك نحو خطر داهم لا يمكن تأخير التعامل معه.

معركتا أوطاس والطائف

بعد نهاية معركة حنين ودفن الشهداء.. كانت أمام القائد ﷺ مهام خطيرة، فحنين مؤشر على أن الوثنيين لم ييأسوا بعد من الهجوم على الدولة الإسلامية؛ لذا لم يكن توزيع غنائم حنين من أولوياته.. استدعى ﷺ أحد زعماء خزاعة واسمه (بديل بن ورقاء)، فعيّنه مسؤولًا عن الأسرى والغنائم، وكلّفه بأخذها إلى منطقة قريبة من مكة اسمها الجعرانة.

أخذ بديل الأسرى والغنائم إلى الجعرانة، وهي تقع خارج الحرم، وهناك عامل الرجال والنساء والأطفال معاملة إسلامية راقية تضيئها آيات القرآن التي تقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان: ٨]، واستدعى القائد ﷺ أحد جنده، ويدعى أبو عامر الأشعري.. بعد أن أتته معلومات حول قوة للأعداء تم رصدها في منطقة يقال لها أوطاس، فأمره بقيادة فرقة نحوها، أما النبي ﷺ فقاد بنفسه القسم الأكبر من الجيش.. غادر حنين، ثم صعد به طرقات متعرجة ووعرة بين الجبال.. صعد بجيشه نحو الطائف، ولما وصل الجيش، وأصبح على مشارف حصن الطائف المنيع جدًّا.. عسكر بمسافة عن الحصن، وبث القائد ﷺ عيونه

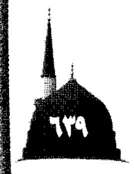
لمسح المنطقة، والتعرف إلى نقاط ضعف الحصن، لتأتي التقارير بمناعة الحصن، وارتفاع جدرانه واستحالة اقتحامه. أمام هذا الواقع لم يكن هناك بديل للسهام؛ لذا حرض ﷺ جنده على الرماية، وحرض الرجال والنساء على أمر إنساني وهم على حياض الشهادة، فقال: «**من بلغ بسهم في سبيل الله، فهو له عدل محرر.. من رمى بسهم في سبيل الله ﷻ فهو له درجة في الجنة، ومن شاب شيبة في الإسلام كانت به نورًا يوم القيامة، وأيما رجل مسلم أعتق رجلًا مسلمًا، فإن الله ﷻ جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت، فإن الله ﷻ جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار**» لم يكتفِ ﷺ بتحريض أمته على الإعتاق، وتجفيف الرق حتى شمل حصون الطائف.

صاح منادي القائد ﷺ بحراس الحصن ومن وراءه معلنًا: أن كل رقيق يهرب من الحصن فهو حر. وإذ بالمسلمين يرون مشهدًا أخاذًا يرتسم على حصن الطائف.. فجأة تدلت الحبال المتينة من قمم الحصن.. بعدها انخرط مجموعة من العبيد من تلك الحبال نحو الأرض.. أحد هؤلاء العبيد انتزع بكرة تستخدم لنزع الماء من الآبار، فاستخدمها لينخرط من فوق السور هاربًا، ولما وصل الأرض أعلن إسلامه، فسماه المسلمون بعد ذلك بأبي بكرة، وقد هرب ضمن ثلاثة وعشرين عبدًا.. هروب أحدث ارتباكًا داخل الحصن.

الطائف منيعة

حدث اضطراب داخل حصن الطائف، لكنه لم يؤثر في سير المعركة، فقد نشبت معركة بالسهام بين الطرفين.. أصيب خلالها كثير من الصحابة؛ لذا اكتفى القائد ﷺ بالحصار، وأقام خلال ذلك معسكرًا ضخمًا يطوق الحصن.

نصبت الخيام، وروقب الحصن بشدة، ومرت عشرات الأيام، وظل الحصن صامدًا منيعًا، وفي أحد تلك الأيام كان القائد في طريقه لخيمة زوجته أم سلمة،



فوجد عندها أخاها عبدالله بن أبي أمية، ووجد عندهما شخصًا لم يتحدد جنسه: هل هو ذكر أم أنثى..؟ دخل النبي ﷺ فسلم، فردوا السلام، لكن القائد صدم بكلمة صادرة من ذلك الشخص.. كلمة تفتقر إلى الذوق أمام النساء، حين قال لعبدالله: «يا عبدالله، أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدًا، فعليك بابنة فلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمانٍ» كان هذا الشخص يصف امرأة بعينها ويسميها، ويغري أحد المسلمين بجسدها الممتلئ حتى تثنى بطنها من الأمام، فأصبح أربعة أحزمة دهنية، لدرجة أن بإمكانه رؤية أطراف تلك الأحزمة الدهنية من خلفها؛ لأنها تطل من جوانبها: أربعة من الجانب الأيمن ومثلها من الأيسر.

استمع ﷺ لهذا الوصف، فقال لأم سلمة: «**لا يدخلن هؤلاء عليكن**» فهؤلاء لا يمكن تحديد جنسهم إلا بكشف طبي حديث، أو عملية جراحية؛ لذا فألفاظهم هي ما قد يفصح عن جنسهم، ويبدو أن هذا الشخص خبير بالطائف، لكن بدلًا من أن تكشف خبرته نقاط ضعف الحصن، وتعين الجيش في مهمته.. أشغل نفسه بإثارة غرائز المجاهدين لجهله بأحكام الجهاد، فليس في الجهاد اغتصاب، أو انتقام، أو مقابر جماعية كما يفعل جنود الدول العظمى في نشوة النصر.. هناك نظام للدولة الإسلامية مفعم بخوف الله، فالمجاهد لم يخرج طلبًا للنساء، ولا للمال ولا الشهرة، وإلا أمسى مع أول من تسعر بهم النار، والذين ذكر النبي ﷺ أن أحدهم قاتل حتى يقتل، فلما بعثه الله من موته سئل عن قتاله، فقال لربه: «**قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار**».

ظل القائد ﷺ معسكرًا حول حصن الطائف مدة أربعين يومًا، ثم قرر ﷺ عدم إضاعة المزيد من الجهد والوقت، فأمر بالعودة، وطلب من جنده الاستعداد للرحيل، لكنه فوجئ بحماسهم لم يَخْبُ، حين استغربوا، فقالوا: «نذهب ولا نفتحه؟!».

العودة من حصار الطائف ومعركة أوطاس

قرر القائد ﷺ التخلي عن فتح الطائف بعد أربعين يومًا من حصارها، فقال لجنده: «**إنا قافلون إن شاء الله**»، فثقل عليهم الأمر، وعبروا عن مشاعرهم، وقالوا: «نذهب، ولا نفتحه؟! فقال: **اغدوا على القتال**».

استعد الصحابة لاستئناف المعركة، وأطلقت السهام مجددًا، فأصابهم جراح، ولما توقفت المعركة ونقل الجرحى النازفون لخيامهم.. قام القائد ﷺ بين جنده يعرض الأمر عليهم مجددًا، وقال: «**إنا قافلون غدًا إن شاء الله**» فأعجبهم القرار، وعبروا عن ارتياحهم، فضحك النبي ﷺ. تحرك الجيش تاركًا مشركي الطائف في حيرة من أمرهم، فالشرك يذبل يومًا بعد يوم، ودولة الإسلام تتعاظم، وشمس التوحيد تشرق على الجميع إلا عليهم، وعلى الرغم من عجز المسلمين عن الفتح، إلا أنهم لم يعجزوا عن إيقاظ الإيمان المنطمر في أعماق أهل الطائف تحت أكداس العادات والتقاليد، أما هوازن فقد خسرت كل شيء إلا قلب النبي ﷺ.. كان قلبه أفسح من حنين لهم ولنسائهم وأطفالهم.. لقد كان ﷺ أرحم بهم ممن ساقهم، وخاطر بهم، أما قادتهم فتلاحقهم سرية بقيادة صحابي يدعى (أبوعامر الأشعري).. في منطقة أوطاس، وكان ضمن المُطاردين شاعر جاهلي كبير القدر والسن.. اسمه دريد بن الصمة، وقد قتل في أثناء المطاردة في أوطاس، وهرب أصحابه، وفي أثناء المطاردة نزع رجل وثني من قبيلة جشم سهمًا، ثم وضعه في كبد القوس، ثم أرسله نحو الأمير أبي عامر، فانغرز السهم في ركبته، وأحدث جرحًا خطيرًا ظل ينزف حتى ضعف ضَعْف الموت، فلحق به أبوموسى الأشعري ليطمئن عليه، ولما وصل انحنى عليه، فرأى السهم منغرزًا، فقال: «يا عم، من رماك؟» فرفع أبوعامر يده نحو الرجل، وقال: «ذاك قاتلي الذي رماني» فركب أبوموسى حصانه، ولحق به.. التفت الوثني الجشمي، فعرف أنه مستهدف ففرّ، وظل أبوموسى يطارده حتى عجز، فلم يجد أبوموسى وسيلة سوى استفزاز الوثني قائلًا: «ألا تستحي.. ألا تثبت؟» شعر الرجل بكلمات كالعار، فتوقف وثنى راحلته وعاد لمواجهة أبي موسى. أصبحا وجهًا لوجه، ثم ضرب كل واحد منهما ضربة، ثم تمكن أبوموسى من الوثني فقتله،

ثـم عـاد لأبي عامر، وقال له: «قتل الله صاحبك» فنظر أبوعامر للسـهـم وهو يتأهب للرحيل عن هذه الدنيا، ثم قال لأبي موسـى: «انزع هذا السـهم» مد أبوموسـى يده نحـو ركبته، فنزع السـهم، فنزا منه الماء، وتدفق الـدم وكأن روحه تتدفق معه، فنظر لأبي موسـى نظرة وداع، وأوصاه لحبيبه قائلًا: «يا ابن أخي، أقرئ النبي ﷺ السـلام وقل له: استغفر لي».

ما الذي أخّر قادة هوازن؟

طلب أبوعامر الأشـعري من ابن أخيه أبي موسـى الأشـعري أن ينزع السـهم المنغرز في ركبته وهو طريح على أرض أوطاس. تدفق الدم بعد نزع السـهم، فشـعر بدنـو رحلته للعـالم الآخر، فقال لأبي موسـى مودعًا: «يا ابن أخـي، أقرئ النبي ﷺ السـلام، وقل له: اسـتغفر لي» وقبل أن يسـدل جفنيه عن هذه الدنيـا عيّنه خليفة له على السرية. لم يتحرك أبوموسـى.. ظل عند عمه حتى صعدت روحه إلى بارئها، ثم حفـر أفراد السرية قبرًا لأميرهم، ثم دفنوه، وبعد أن سـكبوا العبرات والدعوات له غادروا المكان مثقلين بالحزن نحو قائدهم ﷺ، الذي وصل لمنطقة تسـمى الجعرانة، حيـث أسرى غـزوة حنين بالمئات، والغنائم بالآلاف، وقد مر عليها أكثر من أربعين يومًـا هناك، ومع ذلك بقي ﷺ هناك أيامًا ينتظر عودة فرسـان هـوازن، وكأنه ينتظر حليمـة، لكن الفرسـان لم يأتوا.. انتظرهم بضع عشرة ليلـة، حين قفل من الطائف، وهذا يعني مرور قرابة الشـهرين على معركة حنين، وهي مدة طويلة أثارت حشـود الطلقاء الذين سال لعابهم للغنائم على الرغم من هروبهم.

وفي أحـد الأيـام هنـاك.. فوجـئ القائد ﷺ بحشـود هائلـة من الطلقـاء الذين تسـببوا في الهزيمـة.. حشـود هائلة تحيط بـه.. تطالب بحقوقهـا.. تصيح على أرض الجعرانـة: «يـا رسـول الله، اقسـم علينـا فيئنـا من الإبـل والغنـم» لم يقولـوا: هبنا، أو تكـرم علينـا، أو أعطِنـا مـن مالك، بل قالوا: «اقسـم علينـا فيئنـا» أي مالنا، فلم ينكر ﷺ مطالبتهم، ولم يجحد حقوقهم، ولم يستأثر بها هو وكبار وزرائه من المهاجرين

والأنصار والسابقين.. سكت في أثناء مطالبتهم، فإذ بالجموع تدنو منه.. تدنو وهو يتراجع للوراء حتى ألجؤوه إلى شجرة سمر وهو يرجع للوراء، فخطفت الشجرة رداءه، وانكشفت أكتافه وظهره، فتوقف، وهتف بشعبه، وكأنه لا يملك على أرض الجعرانة إلا ذلك الرداء.. هتف بهم قائلًا: «**أعطوني ردائي**»، وقبل أن يردوا رداءه كشف لهم وزن تلك الغنائم في نفسه، بل وزن الدنيا بكنوزها أمام وزنهم في قلبه، فقال كلمة أخجلتهم: «**ردّوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعمًا، لقسمتها عليكم**»، «**لو كان لي عدد هذه العضاة نعمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا**» سكت عشرات الآلاف.. خيم السكون على الجعرانة وهي تنصت لمحمد الذي يؤثر على نفسه، ويفدي شعبه بنفسه. لاحقته العيون والدموع وهو يمشي نحو بعيره، ولما أصبح بجانبه مد يده نحو سنامه، ثم انتزع وبرة منه، ثم جعلها بين أصبعيه، ثم رفعها، فقال كلمات أبكت قلوبهم.

القائد ﷺ وحقوق شعبه

التفت القائد ﷺ لبعيره، ثم مشى نحوه، ونظر إلى سنامه ومد يده نحوه، ثم انتزع منه وبرة، فجعلها بين أصبعيه ورفعها أمام شعبه، وحلف فأبكى آلاف القلوب، وفاضت آلاف العيون وهي تحدق في تلك الوبرة، وقائدهم يقول: «**أيها الناس، إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يوم القيامة**».

ارتجف قلب مجاهد من مجاهدي الأنصار الكرماء.. الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فتهادى نحو خيمته، وفتش أمتعته، ثم أخرج منها كبة شعر، ثم عاد يحملها.. يتخلل الجموع بقلب خائف حتى أصبح أمام قائده ﷺ، ولما وقف أمامه مد الكبة له، وقال: «يا رسول الله، أخذت هذه الكبة أعمل بها بردعة بعير لي» نظر القائد ﷺ إلى حبيبه الأنصاري، فقال: «**أما نصيبي منها فلك**».

هنا تأمل الأنصاري كبة الشعر التي أخذها من المال العام دون إذن من القائد.. أخذها خارج النظام، فوجد أن خمس خمسها له، فالخمس لله وللرسول ولذي القربى وليتامى الدولة ومساكينها، وأدرك أن عشرات الآلاف من الشعب شركاؤه في باقيها في هذه الدنيا، وسيكونون خصومه يوم القيامة، فإذ بجهنم تشتعل في مخيلته من أجل خيوط شعر، فقال لقائده ﷺ: «**إنه إذا بلغت هذه، فلا حاجة لي بها**». ثم طرحها من يده.. رماها على الأرض، فهو لن يفسد جهاده مقابل كنوز الدنيا، فكيف يفسده من أجل كومة شعر تافه؟.. كان النبي القائد ﷺ قدوة في عدله.. في تطبيق النظام على الجميع.. قدوة في شفافيته ومحاسبته، وقبل ذلك كان درسًا في نفسه.. كان قائدًا نزيهًا عفّ فعفّ شعبه. رمى الأنصاري كبة الشعر التي أخذها بدعوى أنه مجاهد، أو لأن قومه وعشيرته احتضنوا دولة الإسلام.. أدرك أنه مجرد جندي في جيش إسلامي منضبط بالكتاب والسنة، لا بالتشريعات والأنظمة العسكرية البشرية التي عجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاغتصاب وجرائم الحرب.

بكلمة واحدة ضبط النبي ﷺ كل شيء؛ لأنه لا يكتفي بمحاسبة جنده بالنظام العادل فقط، بل يشيدهم قبل ذلك من الداخل.. يجذر فيهم خوف الله قبل كل شيء، وها هو صوته الذي يسافر في أعماقهم ينادي رجالًا ليس لهم تاريخ ولا رصيد في الإسلام، بل إن بعضهم سخر كل ما يملك من أجل القضاء على هذا الدين.. نادى رجالًا كانوا يشمتون، ويسخرون من هزيمة المسلمين في حنين قبل شهر، ومع ذلك وفي أنسب لحظات الانتقام والتشفي يشرق محمد ﷺ عليهم رحمة وعطاء أخجلهم طوال حياتهم.

توزيع غنائم حنين درس للقادة

استدعى القائد ﷺ أبا سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فحولهم إلى أثرياء، وأعطى كل واحد منهم مئة من الإبل.. في لحظات كان الجميع يترقب أن يكون الثراء من نصيب كبار وزراء الدولة أبي بكر وعمر وعلي وسعد بن

عبادة وأسيد بن حضير وغيرهم من البنائين الأوائل من الأنصار والمهاجرين، أو حتى من نصيب من ثبت ولم يفر من المعركة، فإذ بها تذهب إلى رجال كان بعضهم يشمت في المسلمين حين انكسروا، ثم أعطى كل فرد من الطلقاء نصيبه.. قدم القائد ﷺ طريقة استثنائية في التوزيع.. طريقة تناسب ظروف المرحلة، فقد دخلت في الإسلام أعداد لا حصر لها ما بين يوم وليلة، وهؤلاء قد تلقوا ضخًّا إعلاميًّا كريهًا، ودعاية شوهت الإسلام ودعاته على مدى عشرين عامًا، ولن يغسل ذلك الركام إلا عطاء يحول العداء إلى حب.. كان توزيع غنائم حنين درسًا للقادة في التعامل مع شعوبهم المحتقنة والفقيرة، فالعطاء يذهب الفقر، ويهدئ النفوس، ويمحو الأحقاد، ويقوي الدولة والوطن.

سالت الإبل بين أيدي أمراء القبائل الطلقاء، فانفعل أحد شباب الأنصار وهو يراها تساق لمن حاربوا الإسلام أكثر من عشرين عامًا، فلم يطق التحكم في غضبه، فقال منفعلًا: «والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله».. كلمة أعلنت مولد ظاهرة التطرف لأول مرة.

اخترقت الكلمة قلب ابن مسعود، فالتفت للشاب وهو يغلي غضبًا، وقال: «يا عدو الله. والله لأخبرن رسول الله» ثم انطلق ليخبر قائده ﷺ بهذه الكلمة الكفرية التي تطعن في عقيدته.. في مصدر دينه.. في نزاهة نبيه ﷺ الذي لقبه أهل الجاهلية (بالأمين)، ولما وقف ابن مسعود أمامه أخبره بما قال الفتى، وإذ بوجه النبي ﷺ يتغير لونه.. يحمر كأنه نبات الصرف الأحمر، وغضب من ذلك غضبًا شديدًا. ثم قال ﷺ : «**فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله**» ومع ذلك لم يصدر قرارًا باعتقاله أو حتى إحضاره للتحقيق معه، بل لهج بكلمات من أمضى حياته في الصبر والتحمل، وإذا كان قد تحمل من يعادون الله ورسوله، فما له لا يتحمل طيش فتى مسلم؟.. قال ﷺ لابن مسعود ولمن حوله: «**يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**» تأمل ابن مسعود شدة غضب قائده وحبيبه، فتمنى أنه لم يكدر عليه نصره، بل تمنى أنه لم يسلم إلا ذلك اليوم، ثم قرر بعدها ألا يرفع لقائده أي تقرير عن أحد من الشعب قد يفسد العلاقة بين القائد والشعب، فقال: «لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثًا». لم

يقتصر الأمر على ذلك الفتى، ففي مكان آخر يقف الشاب أبو سعيد الخدري، فإذ به يسمع متطرفًا أكثر وقاحة.

القائد ﷺ وظاهرة التطرف

صوت نشاز يقال له: (ذو الخويصرة) متطرف لم يكتفِ ببث الوقاحة لمن حوله، بل شق الجموع نحو قائد الدولة ﷺ حتى وقف أمامه، ثم قال في وجهه وبكل صفاقة: «يا رسول الله، اعدل». نظر ﷺ إليه.. تأمله، فقال كلمات زلزلت المكان: **«ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»**.

طفح الكيل بالوزير الثاني لدولة الإسلام.. طفح الكيل بأبي حفص، فقال: «يا رسول الله، ائذن لي فيه، فأضرب عنقه» فإذ بالإجابة على الرغم من كل هذا الغضب، وعلى الرغم من كل ذلك الفحش الموجه لرأس الدولة ونبي الأمة ﷺ.. الإجابة كلمة هادئة تقول: «دعْه» دعْه يا ابن الخطاب، فالقائد ﷺ ليس مأخوذًا بتكميم الأفواه، ولا بمصادرة الحريات، وما الذي يضير محمدًا ﷺ من تلك الكلمات المنحطة وهو الذي لم يبت يومًا وفي بيته ذهب أو فضة، إلا قسمها بين فقراء شعبه؟ ما الذي يضيره ﷺ وهو الذي لم يبنِ لزوجاته ولا لبناته قصورًا، ولم يبنِ لشعبه سجنًا؟.. لن يضير أستاذ العدل نقد متطرف ولا شتمه، فليقل ما يقول بكل حرية، فالكلمة لا تهدم إلا الطواغيت، ومحمد ﷺ هدم الطواغيت بالكلمة، وها هو يواجه الكلمة بالكلمة، والفكر بالفكر.. هكذا عالج القائد ﷺ التطرف اللفظي، لكن ماذا لو تفاقم التطرف، وأخذ صاحبه إلى حمل السلاح؟

على أرض الجعرانة رسم القائد ﷺ سنته في علاج التطرف، فالتطرف سلوك بشري يسكن الجهلة ومحدودي الأفق، وعلاجه ليس بالقمع ولا بتكميم الأفواه.. القمع يجعل التطرف يزداد ويتمدد.. القمع يمنح التطرف حججًا ومبررات وصكوك غفران.

المتطرف طفل غاضب، وليس للطفل الغاضب أفضل من أن يترك ليتحدث.. لينفس عن غضبه، فإذا نفس بالكلمات عن صراعات تحتد بين أضلاعه.. يُناقش بهدوء، فإذا هو قد نسي الموضوع، وعاد لحياته الطبيعية، والنبي القائد ﷺ خير من داوى هذا المتطرف. لم يسجنه.. لم يجلده، بل نهى أن يُمسّ بأذى، أو يتعرض له أحد.

لكن القائد ﷺ كان يقرأ فكر التطرف جيدًا، ويغطي جميع احتمالاته، ومن تلك الاحتمالات حمل السلاح.. هنا يظل للكلمة دورها، لكن حمل السلاح معناه تهديد الشعب، والدولة، وحتى الدين، وهي مسؤولية لا يمكن لقائد مخلص التخلي عنها؛ لذا لا بد من ردع التطرف المسلح بالقوة، بعد حواره والإنصات لمطالبه.. على أرض الجعرانة تحدث القائد ﷺ لشعبه.. لأمته من بعده.. راسمًا منهجًا مستقبليًّا لعلاج التطرف، ومبينًا ملامحه.

عتابان حول غنائم حنين

نظر النبي القائد ﷺ إلى ذلك الوقح.. نظر إلى ذي الخويصرة وهو مقف كالعار، وكأنه يجعله أيقونة لفئات ستتصدر المشهد، وتخطف الحقيقة يومًا، فقال: «**إن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» يمرقون وكأنهم لم يأخذوا من الإسلام شيئًا.. على الرغم من غيرتهم عليه، أما أبرز صفاتهم فهي أنهم قد سلم منهم الوثنيون، ولم يسلم منهم إخوتهم في الدين، حتى بلغ من تطرفهم أن قال ﷺ: «**يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان**»؛ لذا قال ﷺ في المسلحين منهم: «**فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة قيل: ما سيماهم؟ قال ﷺ: سيماهم التحليق**» أي حلق شعر الرأس، وهذا يعني تحذيرًا أشد من مسلمين لا يقرؤون القرآن، ولا يدعون له، بل يحاربون أهله ودعاته، فهؤلاء أشد من المتطرفين؛ لأنهم جمعوا أسوأ ما في المنافقين والوثنيين والمتطرفين.

لكن، هناك فرق بين تطرف ذي الخويصرة وتطرف الفتى الأنصاري؟

هذا ما كشفه النبي ﷺ، فهناك فرق بين مؤمن تنفلت منه كلمة ساعة غضب، وبين من لا رصيد له في بناء الدولة والدين سوى النقد، فبعد أن استأنف النبي توزيع الغنائم على المقاتلين الطلقاء، وحرم منه الأنصار، وتحركت قلوب بعضهم عتابًا، فقال بعض شبابهم: «إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا» بلغ الأمر للقائد ﷺ فشعر بعتاب أحبته الأنصار يتمدد في قلبه.. يستفز حبه، فأحب أن يقدم كنوزًا خبأها لهم.. لا يستحقها سواهم، ومجدًا لا يطاوله سوى الأنصار، وما أجمل عتاب الأحبة وما أعذب بث الشكوى بينهم، فهم لا يعيشون في الخارج.. هم القلب وهم السمع والبصر.. على أرض الجعرانة عتابان:

عتاب من الأنصار الذين لم يأخذوا من الغنائم شيئًا، وعتاب من العباس بن مرداس الذي أعطي أقل من مئة من الإبل، فتأثر وهو يرى أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس يحصل كل إنسان منهم على مئة من الإبل، فأطلق عتابه شعرًا يقول:

أَتجْعلُ نَهبِي ونهبَ العَبيـ ... ـدِ بينَ عُيينَةَ والأَقْرعِ

فَما كانَ بدرٌ ولا حابسٌ ... يفوقانِ مِرْداسَ في المجمعِ

وما كنتُ دونَ امرئٍ منهُما ... ومَنْ تخفضِ اليومَ لا يُرفعِ

الأنصار مجد لا يُطال

أنصت القائد ﷺ إلى شعر ابن مرداس، فتأثر، ورفع نصيبه من الغنائم إلى مئة من الإبل، ثم أعطى الآلاف من الطلقاء، لكنه حمل الكنز الأعظم إلى من يستحقه.. حمله إلى أحبته الذين انتشرت بين بعضهم الظنون أن حبيبهم قد تخلى عنهم، ورغب في البقاء بين أهله، وإلا فكيف يعطي الطلقاء، ويتركهم.. ظنون تنامت إلى مسامع القائد ﷺ، فخفق قلبه وتأثر لتأثرهم، فأرسل يستدعي أمير الخزرج الكريم سعد ابن عبادة،

وبعد دقائق لبى سعد النداء والحزن يثقل خطواته، ولما توقف بين يدي قائده سلم.. رد النبي ﷺ السلام، ونظر إلى سعد وقال مستفسرًا: «**ما مقالة بلغتني عن قومك أكثروا فيها**؟ فقال له سعد: فقد كان ما بلغك. قال: **فأين أنت من ذلك**؟ قال: ما أنا إلا رجل من قومي. فاشتد غضبه ﷺ وقال: **اجمع قومك، ولا يكن معهم غيرهم**» انطلق سعد نحو الأنصار، وهتف بهم أمرًا بالاجتماع في حظيرة من حظائر النبي ﷺ، فنهضوا ملبين، ومشوا نحو ذلك القسم من المعسكر، أما سعد فقام على مدخل المعسكر كالحارس.. لا يسمح بالدخول إلا للأنصار، أو لمن كانت أمه أنصارية.

غصّت الحظيرة بأكرم الناس.. الذين تعودوا على العطاء لا الأخذ.. لا يزاحمهم سوى عتابهم، ولما اكتمل عددهم التفتوا فإذ بحبيبهم يتهادى نحوهم والغضب يرسم تقاسيم وجهه. سلم عليهم، فردّوا السلام، ولما قام أمامهم هتف ﷺ بهم: «**هل فيكم من غيركم**؟ قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا. فقال ﷺ: **ابن أخت القوم منهم**» ثم قال: «**ما حديث بلغني عنكم**؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال ﷺ: **فإني أعطي رجالًا حديثي عهد بكفر أتألفهم**».

اتضحت الصورة، وتبين لهم سبب إعطاء زعماء الطلقاء، فاقتنعوا، فهم الأنصار يعطون ولا يأخذون، ويبذلون ولا ينتظرون.. هتف ﷺ مرة أخرى بقلوبهم المرتجفة، فقال: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالًا، فهداكم الله**؟ فقالوا: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله. فقال: **يا معشر الأنصار، ألم أجدكم عالة فأغناكم الله**؟ فقالوا: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله. فقال: **يا معشر الأنصار، ألم أجدكم أعداء فألف الله بين قلوبكم**؟ «فيقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله».

عندها وجه ﷺ لهم سؤالًا سما بهم فوق الناس.. كشف لهم منزلتهم عند الله ورسوله، حتى حلقت أرواحهم.. حلقت هناك فوق النجوم.. فوق السماء.. يتهادون عبر شوارع الفردوس يتلألؤون بجواره ﷺ.

الأنصار ثم البقية

وجه القائد ﷺ سؤالًا هز أبدان الأنصار وقلوبهم، فخيّم الصمت على المعسكر، فاستفز حبهم، حين طلب منهم أن يجيبوا.. أن يذكروا فضلهم عليه، لكنهم الأنصار.. يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة.. الأنصار الذين استقبلوه وهو شريد طريد من قبل أهله وعشيرته.. هتف بهم: «**ألا تجيبون؟** قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل».

هنا سري عنه، وتلاشت تقاسيم الغضب عن وجهه، وتهلل في وجوههم وكأنه يبايعهم في العقبة، وكأنهم يستقبلونه على مشارف طيبة، فقال معترفًا بفضلهم وحبهم: «**ولو شئتم لقلتم، فصدقتم: ألم نجدك طريدًا فآويناك، ومكذبًا فصدقناك، وعائلًا فآسيناك ومخذولًا فنصرناك**» سكت النبي.. سكت المكان، وإذ بصوت بكائهم يرتفع شيئًا فشيئًا، وإذ بدموعهم تنساب شوقًا إليه وهو أمامهم، وإذ بأصواتهم تتهدج حبًّا وهم يجأرون ولهم نشيج، ويقولون: «الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل» حينها بيّن لهم أنهم سمعه وبصره، فقال: «**أوجدتم من شيء من دنيا أعطيتها قومًا أتألفهم على الإسلام، وكلتكم إلى إسلامكم، لو سلك الناس واديًا أو شِعبًا، وسلكتم واديًا وشعبًا لسلكت واديكم أو شعبكم، وأنتم شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار**» ضج المعسكر بالنحيب، وهم يرون حبيبهم يرفع يديه: «**اللهم، اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار**»، ثم أعطاهم الكنز الذي لم يحصل عليه أحد قبلهم ولا بعدهم، فقال: «**أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم؟**» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وانصرفوا وهم يقولون: «رضينا بالله ربًّا، وبرسوله حظًّا ونصيبًا».

فاح حب الأنصار.. فاح عبيره في المعسكر، ثم نهض الأنصار يغبطهم الطلقاء.. تغبطهم الدنيا، وانطلقوا إلى رحالهم، وبدأ الاستعداد لمغادرة الجعرانة، وقبل أن يغادر الجيش سمعوا وئيد الأرض، ورأوا عجاجة ترتفع من بعيد.. اقتربت العجاجة، فإذا هي تحلق خلف فرسان ينهبون الأرض بقلوب وأرواح أكثر تحليقًا..

توقف الفرسان، فإذا هم فرسان هوازن.. يبحثون عن النبي لا ليقاتلوه، بل ليصبحوا من جند الإسلام ودولته. استقبلهم ﷺ بكل ترحاب، فأعلنوا إسلامهم، وبعد أن أسلموا قدموا التماسهم قائلين: «يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك».. بعدها نطق رجل اسمه (زهير بن صرد) فأخذ بنياط قلب القائد ﷺ قائلًا: «يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته وأنت خير المكفولين»، ثم ترك الحديث للشعر.

هوازن جند للإسلام

قدم زهير بن صرد التماسه نثرًا، ثم ترك للشعر البقية، حين أنشد:

امْنُنْ عَلَينا رسولَ الله في كرمٍ ... فإنَّك المرءُ نرجُوه وندَّخِرُ
امْنُنْ علَى بيضَةٍ قَدْ عاقَها قدرٌ ... ممزقٌ شملَها فِي دهرِها غِيَرُ
أبقَتْ لها الحربُ هتّافًا عَلَى حزنٍ ... عَلَى قُلُوبِهِم الغماءُ والغمرُ
إنْ لمْ تدارِكْهم نَعماءُ تنشرُها ... يا أَرْجحَ النّاسِ حِلمًا حِينَ يختبرُ
امْنُنْ علَى نسوةٍ قد كنتَ ترضعُها ... إذْ فوكَ يملؤُه مِنْ مخضِها الدررُ
لا تجعلْنا كمنْ شالَتْ نعامتُه ... واستبقِ منّا فَإنّا معشرٌ زهرُ
إنّا لنشكرُ آلاءً وإنْ كفرتْ ... وعندَنا بعدَ هذا اليومِ مدَّخرُ

طافت الأبيات بقلب النبي ﷺ.. طافت به حول خيام حليمة الحبيبة.. حين كان طفلًا يتهادى مع إخوته، ويرعى غنمات هوازن، فهتف بأخواله وأعمامه من الرضاعة قائلًا: «**أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم، أم أموالكم؟** فقالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟ بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا، فهم أحب إلينا».

هنا وهبهم ﷺ قلبه وكل ما يملك، لكنه لا يملك مصادرة أموال شعبه؛ لذا اقترح عليهم اقتراحًا جميلًا، فقال: «**أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم**»، ولما ارتفعت الشمس فوق الرؤوس.. أذن بلال، ونهض الجيش لصلاة الظهر، وصلت هوازن كلها خلف نبيها لأول مرة، وبعد الصلاة نهض قادتها من بين الصفوف، وهتفوا بنبيهم ﷺ: «إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا» فقال ﷺ رافعًا صوته.. متعمدًا إسماع جنده.. مخاطبًا نخوتهم: «**أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم**» سمع المهاجرون والأنصار جوابه ﷺ، فهتفوا مرحبين بهوازن.. مقتدين بنبيهم، فقالوا: «وما كان لنا فهو لرسول الله» ووافق بعض أمراء القبائل، ورفض بعضهم، وتعرض العباس بن مرداس أمير سليم لموقف محجل حين أحرجه قومه بكرمهم لما قال: «أما أنا وبنو سليم، فلا» فإذ بأصواتهم قبيلته تجلجل في السماء محتجة.. تقول: «ما كان لنا فهو لرسول الله» فخجل الأمير، وقال لقومه: «وهنتموني» فخفق قلب القائد رحمة بهوازن، وأبى ألا يعودوا إلا وقد اجتمع شملهم بأحبتهم.

واجتمع شمل هوازن

أبى قلب القائد ﷺ إلا أن يجمع شمل هوازن، مهما كان الثمن، فتوجه لمن تمسك بحقه، ورفض إطلاقه، وأغراهم لكي يطلقوا ما بأيديهم.. خاطبهم، فقال: «**أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم، فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه**» عندها انطلق بقية أسرى هوازن من الرجال النساء والأطفال نحو أحبتهم.. في مشهد فاضت فيه العيون، وعادت هوازن لديارها مسلمةً معززةً مكرمةً، وأدرك الأنصار حب قائدهم ﷺ، الذي أمر بالتحرك لمكة، ولكن بعد أن نوى أداء العمرة، وقبل تحركهم توجه عمر بن الخطاب إلى قائده ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني نذرت

في الجاهلية أن أعتكف يومًا في المسجد الحرام، فكيف ترى؟ قال: **اذهب فاعتكف يومًا**» فالنذر عبادة تحتاج إلى سؤال النبي ﷺ لأخذ شرعيتها، فالعبادات في الإسلام محرمة، إلا إذا كان لها دليل من كلام الله أو موافقة نبيه، وإلا لابتكر من شاء.. ما شاء من عبادات تتحول مع الأيام إلى ديانات أخرى، فذات يوم كان النبي ﷺ يخطب، فإذ به يرى رجلًا قائمًا تحت الشمس وحده، فسأل عنه؟ فقالوا: «أبوإسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم». هنا تأمل ﷺ نذور الرجل، فوجد فيها السنة، ووجد فيها البدعة، فقام بفرزها وإبعاد البدع منها، وقال ﷺ: «**مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه**» ففي الإسلام يجب أن تظل العبادة نقية من الزيادة والنقصان والغلو، حتى يبقى الدين نقيًّا كما نزل، وحتى لا يتكئ المسلم على فعل عمر وأبي إسرائيل، فالصحابة غير معصومين، أما النبي ﷺ فلا ينطق عن الهوى، وهو وحده الذي يوحى إليه، وهو وحده النبي، بل خاتم النبيين وآخرهم، والبقية تبع لمحمد ﷺ، وبهذا المنهج يظل الإسلام جديدًا طريًّا يُشرب من النبع لا من الفروع، التي قد تلتاث عبر التاريخ بالأهواء والعواطف والنزوات.. تظل عباداته تؤخذ من القرآن والسنة، لا من تخرصات الذين يأكلون بدينهم، فلا رجال دين في الإسلام، ولا كهنوت ولا طبقات ولا مراتب دينية، ولا ملابس خاصة بهم.. كل ذلك حتى يتفرغ عقل المسلم للإبداع في الدنيا، في الكون في التجربة المادية، لا في الغيبيات والعبادات، فالنبي ﷺ يقول لأمته: «**إذا كان شيء من أمر دنياكم فشأنكم، وإذا كان شيء من أمر دينكم فإلي**».

انطلق عمر لأداء نذره، ثم نهض أكثر من عشرين ألف مجاهد لمغادرة أرض الجعرانة، وقد أودعوها الكثير من الذكريات والحب والدموع.. ساروا مسافة، ثم توقفوا للصلاة.. توقفوا، فرفع بلال صوته بالأذان يجلجل في المكان.. ترده الجبال، ويردد خلفه المؤمنون المنتصرون، وفجأة سمع القائد ﷺ أصواتًا وثنية تسخر من الأذان.

࿇ ࿇ ࿇

شباب يسخرون من الأذان

بعد مغادرة الجعرانة بمسافة توقف الجيش، وفي أثناء توقفه حان وقت الصلاة، وقد كان ﷺ يقصر الصلاة في حالة الحرب والأمن، حتى قال أحد الصحابة: «كان رسول ﷺ الله يسافر بين مكة والمدينة لا يخاف إلا الله ﷻ، يصلي ركعتين حتى يرجع إلى أهله» والنبي مازال يقصر، على الرغم من أنه الآن قد تجاوز الشهرين بعيدًا عن المدينة، وهما مجموع: أيام الفتح وأربعين يومًا في حصار الطائف، ونصف شهر ينتظر هوازن.

رفع بلال صوته بالأذان.. تردد الجبال أصداء صوته الجميل، ليفاجأ القائد ﷺ وجيشه بصدى ليس صادرًا عن الجبال.. صوت جميل يردد خلف بلال والجبال. أنصت القائد ﷺ لهذا الصدى، وواصل بلال أذانه. كان الصدى صوتًا صادرًا عن مجموعة من الشباب الوثنيين المسافرين.. تقاطع خط سيرهم مع خط الجيش العائد من حنين، وهم الآن يسخرون من بلال وأذانه، ويرددون ما يقول باستهزاء، وكان الذي يردد أكثرهم بغضًا للنبي ﷺ وللإسلام وأذانه. أنهى بلال أذانه، فأمر القائد باستدعاء الشباب المستهزئين.. انطلق بعض الجند نحو مصدر الصوت، ففوجئ الشباب بمن يستدعيهم، فامتثلوا لا يدرون ما مصيرهم.. مشوا حتى وقفوا أمامه. نظر ﷺ إليهم، فسألهم برفق: «**أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟**».

لم يجيبوا.. لم يتكلموا.. لم ينطقوا.. بحركة واحدة مدوا أيديهم وأصابعهم نحو فتى يقال له (أبومحذورة).. ملأ الخوف جوف الفتى وهو يرى الأيدي تشير إليه، والتهمة تثبت عليه، وأصحابه ترتجف قلوبهم، وترتجف أيديهم، وفجأة خفت دقات قلوب الفتيان، وتسارعت دقات قلب الفتى حين طلب ﷺ منهم الانصراف، لكنه طلب من الفتى البقاء، فأخذ الرعب (أبا محذورة) وهو يقف في مكان تملؤه السيوف والرماح، ويغصّ بأكثر من عشرين ألف جندي مدججين بالسلاح، وهو موقوف بجريمة السخرية من الدين. ليفاجأ بالنبي القائد ينظر إليه، ويقول له: «**قم، فأذن بالصلاة**» يقول الفتى: «فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله، ولا مما يأمرني به،

فقمت بين يده، فألقى إلي رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه، فقال: **قل: الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله أشهد أن محمدًا رسول الله**»، ثم طلب منه أن يكرر، فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله أشهد أن محمدًا رسول الله.. حي على الصلاة مرتين.. حي على الفلاح مرتين.. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله انتهى أبو محذورة من الأذان، ثم سكت منتظرًا النطق بالحكم عليه.

غنائم هائلة وقائد على حصير

نظر النبي القائد ﷺ إلى الفتى الذي يدعى (أبو محذورة) دون تجهم.. نظرة الداعية الواعي والوالد الحنون.. تأمله ﷺ فوجد طيشًا يحتاج إلى من يترفق به، وموهبة ليس من العدل إهدارها، أما أبو محذورة فشعر بنوافذ روحه تفتح لنور لم يعهده، وهو يرى هذا النبي الحليم يمد يده للفتى. نظر الفتى إلى كف القائد ﷺ فإذ بها تحمل صرة من الفضة. ارتجف قلبه لهذا الكرم.. لهذا التسامح.. لهذه الأبوة، فمد يده، وأخذ صرة الفضة والفرحة تغمره، والأمن ينزل عليه، فإذا كف النبي ﷺ تمتد مرة أخرى برفق نحو ناصية الفتى.. مسح ﷺ تلك الناصية الطائشة، ثم مرر كفه على وجهه مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم مررها على كبده حتى بلغت سرته، ثم دعا له وهو مشرك، فقال: «**بارك الله فيك**».

شعر الفتى بأب يحنو على ضياعه، وقائد يوظف موهبته، فإذ بقلبه أبيض دون أوثان.. دون حقد، وإذ بحب الله ورسوله يملأانه، فأسلم، وناشد نبيه ﷺ قائلًا: «يا رسول الله، مرني بالتأذين بمكة؟ فقال ﷺ: **قد أمرتك به**» فانطلق الفتى بروح أخرى نحو أمير مكة المؤقت عتاب بن أسيد، فأخبره بتعيين النبي له مؤذنًا للحرم المكي، فرحب به، وأصبح الفتى منذ ذلك اليوم يوظف صوته الجميل لإحياء القلوب، بدلًا من أن يسهم في إماتتها بالسخرية من الآخرين، أما القائد ﷺ فأحرم لأداء العمرة الثالثة له بعد الهجرة، وبعد أن أدى العمرة وصلت السرية التي يقودها

أبوموسى الأشعري من منطقة أوطاس تحمل خبر استشهاد عمه أبوعامر الأشعري ووصيته لنبيه.

توقف أبوموسى الأشعري، وما إن سلم حتى سأل عن نبيه، وتوجه لمقابلته في مقر إقامته بمكة.. استأذن الأمير في الدخول على قائد يحكم الجزيرة العربية تقريبًا.. قائد حصل قبل أيام على غنائم هائلة، فلم يُرَ عليه أي مظهر للترف.. دخل أبوموسى، فإذا المشهد درس للقادة الذين يريدون التربع على عروش القلوب.. كان أبوالقاسم ﷺ جالسًا على سرير مرمل، وهو نوع من الكراسي القاسية المنسوجة من حبال الرمل، وهو نوع من الحصير، وكان ﷺ يرتدي إزارًا، ويرتدي رداءً قد بدت من خلاله أذرعه وأكتافه وبعض ظهره.. تأمله أبوموسى، فإذ بحبال الحصير قد نحتت خطوطًا حمراء على ظهر نبيه وجنبيه، في وقت يحكم قادة عُشر ما يحكم، فيلبسون الذهب والجواهر والحرير، ويجلسون على الأرائك الفاخرة الوثيرة. لوّن المشهد وجه أبي موسى، فأدرك أن القيادة عطاء قبل أن تكون أخذًا، ومغرمًا قبل أن تكون مغنمًا، فبث نبيه خبره وخبر عمه، فقال ﷺ كلمات رفعت الشهيد فوق الكثير من الناس.

ꕥ ꕥ ꕥ

حين يستثني النظام كبار القوم

تهدجت كلمات أبي موسى تأثرًا لمشهد نبيه المتواضع فوق الحصير، ثم نقل وصية عمه أبي عامر قبل استشهاده أن يستغفر له النبي ﷺ. سمع ﷺ الوصية، فطلب ممن حوله ماء، فأحضر أحدهم ماء، فنهض ﷺ عن سرير الحصير، ومد يديه نحو الماء، فغسل كفيه، وتوضأ ثم رفع يديه، فقال: «**اللهم، اغفر لعبيد أبي عامر**»، ثم قال: «**اللهم، اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس**» فخفق قلب أبي موسى لهذه الدعوة، فناشد نبيه قائلًا: ولي، فاستغفر. فقال ﷺ: «**اللهم، اغفر لعبدالله ابن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلًا كريمًا**».

خرج أبو موسى وهو أسعد الناس بدعوات نبيه، أما القائد ﷺ فبقي في مكة يصنع لها بالإسلام نظامًا، ويضخ فيها معنى للحياة، لكن ذات يوم بلغه خبر كدره على الرغم من أفراح الفتوحات والانتصارات.. بلغه عن امرأة قرشية سليلة أنها سرقت، وقد ثبتت عليها تهمة السرقة.. باعترافها، فأمر القائد ﷺ بتطبيق الحد عليها، فضاقت الدنيا بأشراف من مكة.. فلم يجدوا واسطة لإنقاذها سوى أسامة بن زيد، حين قالوا: «ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقال بعضهم: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله ﷺ».

انطلقت ثلّة من أشراف قريش يمشون نحو الفتى الأسود أسامة بن زيد.. ذي السادسة عشرة يطلبون وساطته في جعل النظام لا يسري على المرأة الرفيعة النسب. استجاب الفتى، فتوجه إلى قائده ﷺ، فقدم التماسه نظرًا لمكانة المرأة، أنصت القائد، فرأى أسامة وجه قائده ﷺ يتلون غضبًا، ولما انتهى من التماسه سكت. فنطق القائد ﷺ وحيًا.. نطق نظامًا يكفل للدول ديمومتها وقوتها وأمنها: في البداية حذره ﷺ من كسر النظام قائلًا: «**أتشفع في حد من حدود الله؟!**»، ثم بيّن له هيمنة النظام حين لم يكتفِ بتحذيره وهو أخص بطانته، بل كان يومًا ابنه بالتبني.. خرج القائد ﷺ للشعب مبينًا أن كسرهم للنظام يعني كسر استقرارهم ورفاهيتهم.. يعني شراء للفوضى.. خطب في الشعب قائلًا: «**إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد**» والهلاك هنا ليس حجارة أو زلزالًا أو خسفًا ومسخًا أو غيرها من العقوبات الإلهية المفاجئة.. الهلاك هنا هلاك الدولة، وفشلها؛ لأنه عندما يكسر الشريف نظامها يوقف نموها.. يتضخم كورم سرطاني يخنق أنظمة القضاء وقوانينه.. يصبح دولة داخل دولة، فيتكاثر المنتفعون من حصانته والمتسلقون عليها حتى يحطموا مفاصل الدولة؛ لذا أعلن القائد ﷺ أن ذلك لن يحدث.. أنصت له الشعب، وهو يقسم على ذلك.

هل يودع الغزاة بالدموع؟

رفض القائد ﷺ واسطة بطانته الممثلة في أسامة، ثم أقسم إنه لن يكون سببًا في هلاك دولته، حين حلف أن أقرب الناس منه لن يكون محصنًا ضد النظام، حتى لا تتحول دولته إلى كيان هش يسهل اختراقه بالدينار والدرهم والمنصب، وحتى لا تصبح دولة بلا انضباط ولا نظام ولا هيبة، فلا قيمة للتعليم ولا للقضاء ولا للجيش مع وجود الواسطة.. حلف ﷺ قائلًا: «**وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» كلمات أحرقت بقايا الجاهلية، وأدركت البطانة والشعب بعدها أن لا أحد فوق النظام. في مكة.. جمع ﷺ رسالتي الأنبياء: الأولى التوحيد ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦]، والأخرى: النظام العادل﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[الحديد: ٢٥]، ولأن من العدل إعادة الحقوق لأصحابها، فقد استدعى ﷺ صفوان ابن الطاغية أمية بن خلف، بعد أن أمر جنده بجمع أدراعه التي استعارها قبل خروجه لحنين.

قام الجند بجمعها وعدّها، فأخبروا قائدهم ﷺ بأنها ناقصة بعض الدروع، وكان القائد ﷺ قد أخبره قبل أخذها بأنها عارية مضمونة. لذا كلم صفوان عند تسليمه لها، وأخبره بأنها ناقصة، ثم قال له: «**إن شئت غرمناها لك؟**».. قالها ﷺ على الرغم من أنه أعطى صفوان مئة بعير من الغنائم، لكن صفوان تغير.. غيرته حنين.. حين رأى المعجزات، وحين رأى العدل، وحين رأى قلب محمد أبيض لم يحاسبه على جرائمه السابقة، ولم يأخذه بجرائم والده، فقال صفوان حبًّا: «يا رسول الله، إن في قلبي اليوم من الإيمان ما لم يكن يومئذ»، فقد أصبح صفوان لا يرى في الدنيا غير محمد وأخلاق محمد ودين محمد ﷺ، مع أن صفوان موّل ذات يوم عملية إرهابية لاغتياله ﷺ في المدينة. ولما حان وداع القائد ﷺ لحبيبته مكة، التي أمضى فيها طفولته وشبابه وكهولته سالكًا شعب الأنصار.. ميممًا نحو ديارهم.. فاضت العيون حزنًا على نبي حوّل الأعداء إلى أحبة في يوم واحد، ثم رحل.

متى عرفت الدنيا غازيًا يُودع بالدموع؟ الشعوب لا تودع الغزاة.. تقاومهم.. تطردهم وهم أذلة، أما محمد فيحتل القلوب، وهل يقاوم من يحتل القلوب؟.. هناك شيء يجهله المنافقون المثرثرون.. المنتقدون لفتح مكة، ألا وهو سبب فتحها.

لم يفتح القائد ﷺ مكة كما يقال جهاد طلب، ولا تحريرًا للمسجد الحرام، بل نصرة لقبيلة وثنية، وبناء على اتفاقية دفاع مشترك معها، ولولا ذلك لتأخر فتحها عشر سنوات وربما أكثر.. ودع ﷺ مكة، لكن قلب صفوان بن أمية بن خلف عجز عن الفراق.

ابن الطاغية بين الحب والعدل في المدينة

كان ﷺ بارعًا في احتلال القلوب، وقلب صفوان بن أمية بن خلف من بينها، فذات يوم من أيام مكة الجاهلية، وبالتحديد بعد معركة أحد.. عبر عمير بن وهب عن أمنيته بقتل النبي ﷺ لكن ديونه وخشيته على أسرته تمنعه، فمول صفوان بن أمية العملية الإرهابية، وسافر وهب للمدينة، وقابل النبي، ولما قابل القائد ﷺ أخبره بأن الوحي أخبره باتفاقه مع صفوان، فأسلم وهب بعد سماعه لهذه المعجزة، وها هو صفوان قد أسلم.. تحول الوطن عنده إلى مساحات يرسمها حب النبي ﷺ، وارتجف قلبه، حين قال له أحدهم: «إنه من لم يهاجر هلك» فأمر صفوان بتجهيز زاده وراحلته، ثم ركب نحو طيبة؛ حتى لا يهلك. وصل طيبة.. سار عبر دروب الأنصار، وسأل عن نبيه ﷺ فأرشدوه، ولما وصل نزل عن راحلته، وتوجه نحوه وسلم. استغرب القائد ﷺ قدومه، فقال: «**ما جاء بك يا أبا وهب؟** قال: بلغني أنه لا دين لمن لا هجرة له؟ فقال ﷺ: **ارجع إلى أباطح مكة**»؛ لأنه «**لا هجرة بعد الفتح**».

اطمأن قلب صفوان، وبقي مدة في طيبة، وقبل أن يسافر دخل المسجد ليستريح.. كان متعبًا، فخلع رداءه، وجعله وسادة له، واضطجع، وغط في نوم عميق. مر أحد ضعاف الإيمان، فرأى الرداء سهل المنال، فتسلل، ومد يده بخفة فاستل الرداء وهرب. تحرك رأس صفوان، فانتبه من نومه، والتفت فرأى الرداء

يتدلى بيد اللص، فصاح به، فحاصره الرجال في الطريق، وقبضوا عليه، وتم تسليمه للقائد القاضي ﷺ بالجرم المشهود.. أمر بقطع يده، ولما صدر الحكم ندم صفوان، فقال: «يا رسول الله، لم يبلغ ردائي ما تقطع فيه يد رجل! قد جعلتها صدقة عليه»، فبين له النبي القائد ﷺ أن الحدود قابلة للتنازل والشفاعة قبل وصولها للقضاء.. قائلًا ﷺ: «**فهلا قبل أن تأتيني به**».

كانت شفاعة صفوان كشفاعة أسامة.. جاءت بعد صدور الحكم، وهي شفاعة.. تشل القضاء.. تجعله فاسدًا.. تسقط أحد أهم سلطاته، وتفقد الدولة هيبتها، وفي التشريع الجنائي الإسلامي حدود وقصاص: فالحدود لله، والقصاص للناس، والقصاص تجوز فيه الوساطات والشفاعات كالقتل والجروح حتى بعد صدورالحكم، ومن حق الناس المعتدى عليهم الاختيار بين ثلاثة أمور: طلب القصاص، أو أخذ الديات، أو العفو. أما الحدود فهي حقوق لله، ولا تجوز فيها الواسطات إذا صدر فيها الحكم. والحدود تكون في خمسة أشياء: السرقة، والحرابة كالسطو المسلح وقطع الطريق، والزنا، والقذف وهو اتهام أحد بالزنا، وشرب الخمر. والحدود ضرورية لحماية أمن الوطن والشعب، وحفظ هيبة الدولة، لكن كيف كان القائد ﷺ يحصل على اعترافات الجناة؟

كيف تُنتزَع الاعترافات في دولة النبي ﷺ؟

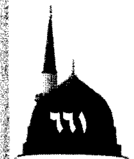
الحدود والقصاص تحفظ دماء الشعوب وأموالهم وأعراضهم وعقولهم وأنسابهم، فلا خير في العيش في وطن تمتهن فيه تلك الأشياء، بل لا قيمة للإنسان ولا قيمة لدولة لا تحمي تلك الأشياء.. لكن كيف كان القائد يتعامل مع المتهمين؟ لم يكن ﷺ في مثل هذه الحالات يمارس التعذيب لانتزاع الاعتراف.. كان يقرر قاعدة: أن المتهم بريء حتى تثبت عليه التهمة بالدليل أو الشهود، فذات يوم قبض على رجل قد سرق قماشًا يسمى الشملة، فقالوا له: «يا رسول الله، إن هذا سرق؟ فقال ﷺ: **ما أخاله سرق**. فقال السارق: بلى، يا رسول الله. فقال ﷺ: **اذهبوا به فاقطعوه، ثم**

احسموه، ثم إيتوني به. فقطع، ثم أتي به، فقال: تب إلى الله. فقال: تبت إلى الله. فقال: تاب الله عليك».

عندما يقف المتهم أمام قاضٍ عادل يذكره بالله قبل كل شيء.. يذكره بمأساة من سرقهم، ومصيره يوم القيامة.. تهون معه العقوبة، فالنبي يسأل أصحابه: «**أتدرون من المفلس**؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله، من لا درهم له ولا متاع. قال رسول الله ﷺ: **المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقعد، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم، فطرح عليه، ثم طرح في النار**».

تاب الله على ذلك اللص، وعاد مواطنًا صالحًا، فالحدود ليست حكمًا مؤبدًا.. ليست عيبًا لا يمحى.. تاب الله عليه كما تاب على تلك القرشية التي سرقت، فعادت مواطنة صالحة، بل انتقلت للعيش بجوار من أمر بقطع يدها حبًّا فيه.. انتقلت لجوار قائد الدولة ﷺ العادل، حتى تحدثت عنها عائشة، فقالت: «إنها حسنت توبتها بعد ذلك، وتزوجت، فكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله»، فهي مواطنة كغيرها ولها من الحقوق مثل الذي لفاطمة ولعائشة.

كان القائد ﷺ يراعي حالة المذنب الصحية عند إقامة الحد، فذات يوم اعترف شاب بالخطيئة، فأمر ﷺ بتطبيق الحد، وقال: «اضربوه حده»، فأخبروه بأنه أصيب بمرض، وقالوا: يا رسول الله، إنه أضعف من ذلك، إن ضربناه مئة قتلناه. فأمر ﷺ أن يحضروا عذق نخل فيه مئة شمراخ. والشمراخ هو العود الدقيق الذي يخرج منه الرطب، وقال: «**فخذوا له عثكالًا فيه مئة شمراخ، فاضربوه به ضربة واحدة، وخلوا سبيله**» كان ﷺ حاسمًا في تطبيق الحدود بحق المجرمين، لكنه يذوب رحمة بشعبه، لدرجة أن جبريل نزل من السماء ليعاتبه على ضربه لأحد المواطنين بسواك.



لا تحطم كرامة شعبك

عاد القائد ﷺ لعاصمة دولته، التي أصبحت وجهة زعماء القبائل ووفودها، فلم تعد المدينة وجهة المهاجرين فقط.. أصبحت قبلة الباحثين عن العطاء أيضًا. ذات يوم كان ﷺ يسير في أحد طرقات طيبة.. تلاحقه العيون والقلوب.. تكاثرت الحشود.. تداعت تركض نحوه.. تريد الارتواء من محياه، وكان حينها مشغولًا.. لا يريد أحدًا أن يتبعه، وكان أحد الصحابة قريبًا منه، فإذ بمجموعة من المحبين تدهم الرجل الذي يبدو أنه التصق بقائده، وكان بيده ﷺ سواك أو عصا بحجم السواك، فأراد تنبيهه إلى طريقة سيره، فضربه به ضربة خفيفة حتى حلف الرجل، فقال: «والله ما أوجعني»، لكن هذا الرجل كان حساسًا.. انكسر حزنًا.. أمضى يومه مهمومًا، ولما خيم عليه الليل.. خيم معه القلق والأرق، فلم يعرف طعمًا للنوم.. خشي على إيمانه من تلك الضربة. فبدأ يكلم نفسه يحاسبها يؤنبها طوال الليل، ويقول: «ما ضربني رسول الله ﷺ إلا لشيء علمه الله في».. تطاول هذا الليل حتى أزاحه بلال بأذانه والرجل مستيقظ مهموم، فقرر أن يضع حدًّا لهمومه، وأن يبوح لنبيه بهواجسه عله يخبره بذنوبه، فقال: «حدثتني نفسي أن آتي رسول الله ﷺ إذا أصبحت».

هذا ما كان يحدث على الأرض، أما في السماء، فكان كبير الملائكة يهبط برسالة من الجبار سبحانه وتعالى نصرة لهذا المواطن الحزين المرهف الإحساس، ولما أصبح جبريل أمام النبي ﷺ خاطبه بصفته قائد دولة، ومسؤولًا عن شعب.. بلغه رسالة تجاه شعبه.. تجاه مواطنيه فقال «**إنك راعٍ؛ فلا تكسر قرون رعيتك**».

تلقى النبي القائد ﷺ رسالة ربه وعتابه، ولما دخل الرجل المسجد، وصلى خلف نبيه، وبعد أن انتهت الصلاة لم يُخفِ القائد الرسالة عن شعبه.. لم يخشَ أن يطمعوا، أو يستأسدوا.. لم يخفِها لأنه نبي، ولأنه قائد وقدوة في الشفافية ومحاسبة الذات.. نهض أعظم قائد وأفضل نبي مر على الدنيا وعيون الرجل تلاحقه، فخاطب شعبه معتذرًا لمواطن من ضربة خفيفة بسواك.. يعتذر وهو يحكم قبائل الجزيرة، ويعتذر وهو نبي، ثم يجبر كسر ذلك المواطن الذي ذهبت به الظنون بعيدًا.. يجبر كسره

بالدعـاء قائـلًا: «**اللهم، إن أناسًـا يتبعوني، وإني لا يعجبنـي أن يتبعوني. اللهم، فمن ضربـت، أو سـببت، فاجعلها له كفارة وأجـرًا، أو مغفرة ورحمـة**» بكت قلوبٌ لهذا الاعتذار، وانزاح ما بنفس المواطن المسكين من ألم، وامتلأ بالبشر، وهو يستمع لدعاء النبـي ﷺ لـه، لكن البشر يختلفـون، فكما أن لهذا الصحابي نفسًـا شـفافة، فإن لأحد المواطنين نفسًا ثقيلة، وجلافة وجفاء لا يلينه سوى العدل.

مواطن عنيف.. وقائد لطيف

انتشرت الأخبار بأن القائد ﷺ يحب شعبه.. يغدق عليهم.. يؤثرهم على نفسه، بـل يعتذر لهم.. سـيرة أسرت القلـوب، وحررت العقول، حتـى أصبحت عاصمة دولـة الإسـلام مهوى الأفئـدة، ووجهـة القوافـل، ومقصد أمـراء القبائـل لتقديم البيعة والولاء.

ذات يـوم أنصـت مواطـن أعـرابي وثني لتلـك السـجايا، فاهتز قلبـه، وركب بعـيره.. حـين عرف أن الإسـلام يمنحـه حقًّا في بيت المـال، وأن هذا المـال هو مال الله لا مـال نبـي الله وقائد الدولة ﷺ، فانطلق يبحث عن هذا الأمين على مال الله، لا ليتسـول، بل ليطالب بحقه. دخل شـوارع العاصمة.. يتلفت.. يسـأل حتى أشاروا لـه بقلوبهم وأيديهم، بأنه ذلك الرجل الذي يمـشي في إحدى الطرقات مرتديًا رداء نجراني الصنـع.. له حاشـية غليظـة قد لفهـا ﷺ على رقبتـه، فأسرع نحـوه، فوجد قائـد الدولة يمشي مع شـاب من شـباب الوطـن لم يبلغ العشريـن.. دون حرس أو فـرق حمايـة. اقترب منهـما، وعندما أصبح خلـف القائد ﷺ مباشرة لم يسـلم عليه.. لم يسـتأذنه.. مـد يده لا ليصافحه.. مدّهـا وكأنه يمدها نحو نصيبـه من بيت المال.. أحكـم الأعرابي بقبضته على رداء قائد الدولة من الخلف، ثم سـحبه بقوة.. بجلافة متناهية، حتى مال عنق القائد ﷺ للخلف، فتوقف من قوة الجذب، ثم استدار القائد نحو هذا المواطن الوقح فلم يصفعه، ولم يضربه، ولم يزجره، بل ولم يكشر في وجهه.. كل الـذي فعلـه هـو أنه زين المكان ببسـمة الحليم. حـدق أنس برقبـة نبيه ﷺ فرأى

احمرارًا من غلظ الحاشية، فتألم لكنه سكت، فقائده لم يتخذ بطانة من ماسحي الجوخ والمداحين والمتبرعين بالشتائم.. سكت أنس، لكن الأعرابي لم يسكت.. صاح بكل صفاقة: «يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك» لم يقل: يا رسول الله».. لم يقل: سيدي، ولم يقل: أعطِني من مالك، ومع ذلك لم ينكر ﷺ عليه؛ لأنه صاحب حق، وإن كان أساء الأدب.

موقف لو حدث لأباطرة العالم كهرقل الروم، أو كسرى الفرس، لكان الرجل نسيًا منسيًّا في لحظات.. بحجة محاولة الاغتيال، أو حتى إسقاط الهيبة، لكنه القائد الرحمة ﷺ.. استقبل مواطنه ببشاشة على الرغم من الوجع، وأنصت لمطالبه، ولما انتهى أعطاه حتى رضي، وانصرف.. كان الصحابة يتألمون، لكنهم يتعلمون من المشهد الكثير، وأتى آخرون غيره، وانصرفوا راضين بعد أن أخذوا وأخذوا، لكن أثمن ما أخذوه هو الشهادة بأنه نبي كريم، وأنه على خلق عظيم لم يروا مثله.. أحد المواطنين الوثنيين قابل قائد الدولة، وأنصت له حتى تغير قلبه، ثم عاد لدياره مسلمًا ليغير كل قومه، لكنه فوجئ بأن طفله الذي لم يبلغ التاسعة قد تغير قبله.

دين يفجر المواهب

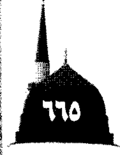
كان القائد ﷺ يكتشف المواهب.. يوظفها.. لم يكن في قاموس تعامله شيء اسمه المحسوبية، ولا بين وظائفه وظيفة لشخص لمجرد أنه قريب، وكان للفتيان مساحات في قلبه، وفي تخطيطه لمستقبل دولته ودينه، فحين قدم المدينة رأى طفلًا حاد الذكاء قوي الذاكرة من بني النجار.. اسمه زيد بن ثابت.. تأمله ﷺ فأعجب بمواهبه، فأحب توظيفها لمصلحة دينه ووطنه وأمته، فقد كانت تأتيه خطابات باللغة السريانية تحتاج إلى مترجم وردود، وإطلاع المنافقين أو اليهود على أسرار دولته يعني كارثة؛ لذا استدعى الفتى زيد بن ثابت، وقال له: «**أتحسن السريانية؟ إنه ليأتيني كتب**» قال زيد: لا، فقال ﷺ: «**إنه يأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب السريانية؟**» «**إني أكتب إلى قوم، فأخاف أن**

يزيدوا علي أو ينقصوا؛ فتعلم السريانية» يقول الفتى: «فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم».

طفل آخر في الثامنة اسمه عمرو بن سلمة.. يسكن قومه على طريق مكة.. تزينه البراءة والفضول. يلبس ثوبًا قصيرًا ربما تجاوز ركبتيه، لكن له ذاكرة تجاوزت قومه، فكان كلما نزل بحيهم مسلمون لاحقهم ببراءة.. يصغي لآيات القرآن، ويقول: «يمر بنا الركبان، فنسألهم: ما للناس، ما للناس، ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام، وكأنما يقر في صدري» سافر والده للنبي ﷺ ليستطلع خبره، فأذهلته أخلاقه، فعاد مسلمًا.. التفّ حوله قومه يسألونه بشغف عن رحلته، فقال: «**جئتكم والله من عند النبي حقًّا**»، **ثم حدثهم أن النبي ﷺ أوصاه، فقال:** «**صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا**» أسلم القوم على يد مبعوثهم، ولما حان وقت الصلاة بحثوا عمن يحفظ قرآنًا، فلم يجدوا أكثر حفظًا من هذا الطفل الذي يلهو مع أقرانه، فالتزموا بالنص، وقدموه لأن الإسلام قدمه.. كبّر الطفل فكبروا، وقرأ فأنصتوا، وركع فركعوا، ولما سجدوا وسجدوا خلفه ارتفع ثوبه القصير، فانكشفت عورة الطفل، وبينما هم سجود مرت امرأة، فلمحت عورة الطفل بادية، فهتفت بالمصلين: «ألا تغطون عنا عورة قارئكم؟» تنبه كبار القوم لمكانة إمامهم، فاشتروا له قطعة قماش، ثم فصلوها قميصًا له. أدخل الصبي يديه في أكمام القميص، وعاد ليلعب مع أقرانه يركض.. يكاد يطير فرحًا، ويقول: «ما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص» كان ﷺ يسكن الأطفال قلبه، فماذا عن حبه لطفله الذي تحمله مارية؟

النبي ﷺ يرزق طفلًا

شعرت مارية القبطية بحركة في أحشائها.. ببطنها يكبر يومًا بعد يوم، ومرت الأشهر.. دوت بعدها صرخة جميلة في بيتها.. علم النبي ﷺ بالخبر، فأقبل نحو ابنه



الأول، ولما رآه مد يديه، وحمله، وقبله، ثم خرج لأصحابه، فقال لهم: «**ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبراهيم**» وبعد مدة بحث عن مرضعة له، فذكرت له امرأة تسكن عوالي المدينة يقال لها (أم سيف) وكان زوجها أبوسيف الأنصاري حدادًا، فطلب منها أن ترضعه، فأسعدها الطلب وهي ستصبح أمًّا لابن النبي ﷺ، وسعد أبوسيف، وهو سيصبح أبا لهذا الرضيع الجميل.

أحبت المرأة وزوجها إبراهيم، وملأ بيتهما بالبهجة، لكن حبه الأعظم كان يسكن قلب والده ﷺ، فكان الشوق يحمله على التردد على ذلك البيت شوقًا. شوق يصفه أنس، فيقول: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت وإنه ليدخل وكان ظئره قينًا، فيأخذه فيقبله، ثم يرجع» كانت تلك القبلات الحانية موضع استهجان بعض ضيوفه ممن أكسبتهم الصحراء بعض ما فيها، فقالوا له: «أتقبّلون صبيانكم؟ فقال ﷺ: **نعم**. فقالوا: لكن والله ما نُقَبِّل. فقال ﷺ: **وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة**»، وإذا كان إبراهيم الصغير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أدخل البهجة على والده، ونحت الشوق في قلبه ﷺ حتى تجشم عناء البحث عنه لتقبيله وضمه، وهو رأس الدولة، وباستطاعته أن يطلب إحضاره متى شاء وأين شاء.

إذا كان إبراهيم قد فعل ذلك، فإن طفلًا آخر قد ملأ قلبه ﷺ بالحزن.. ابن أحد بناته يعاني الآن مرضًا شديدًا.. أوشك معه أن يموت، وأمه تبكيه بحرقة، فترسل لوالدها ﷺ وتقول: «إن ابني قد احتضر، فاشهدنا» كان ﷺ مشغولًا بقضايا شعبه، وعنده وزيره سيد الأنصار سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فأرسل لها يقرئها السلام، ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب**» فأرسلت إليه تقسم عليه أن يأتي «فقام وقاموا معه، فرفع الطفل له، فأخذه بين يديه، ووضعه في حجره ونفسه تتقعقع كأنها شنّ» كأنها صوت قربة يابسة، فنظر ﷺ إلى حبيبه الصغير، ففاضت عيناه ﷺ بالدموع.

تأمل ابن عبادة الدموع، فاستغرب، وقال: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال ﷺ: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**».

نصارى العرب عملاء الروم

بعد فتح خيبر انتهى الخطر اليهودي، وفشلت خياناته في إسقاط دولة الإسلام، وبعد فتح مكة بدأ خطر الوثنية يتلاشى.. هنا ولد الخطر النصراني الجديد، الذي لم تصنعه دولة الإسلام، ولا القرآن، ولا النبي القائد ﷺ.. صنعته دولة الصليب؛ لأن الإمبراطوريات لا تسمح بالمنافسة، وإمبراطورية الروم قلقة من تنامي دولة التوحيد، ولن تتركها بسلام.. تريد إعادة الجزيرة العربية كما كانت: قبائل متناحرة، أو عميلة. بدأت دولة الروم الصليبية بالتحرش بدولة الإسلام مبكرًا، وبالتحديد بعد خيبر، أما مكان الاعتداء فهو منطقة مؤتة. لم يقم الروم بالهجوم نصرة لليهود، فالنصارى في ذلك الوقت يمارسون هواية الفتك باليهود والتنكيل بهم وإقامة المجازر لهم وتشريدهم، حتى إنهم حرموا عليهم أن يطؤوا الأرض المقدسة؛ لأنهم يتهمونهم بالتآمر على المسيح.. بعكس النبي محمد ﷺ، الذي تسامح مع يهود وتسامح.. حتى تمادوا، فأصبح خطرهم على شعبه ودولته لا يحتمل. الصليبيون وبمساعدة عملائهم النصارى العرب، الذين يشكلون رأس الحربة في خاصرة دولة التوحيد.. كرروا مهاجمة دولة النبي قبل أن تلتقط أنفاسها، وتستريح بعد فتح مكة، فوصلت الأخبار للقائد ﷺ في ظروف مادية قاسية، حيث وزع القائد غنائم الدولة كلها على شعبه.. في ظرف زمني غير مناسب؛ لأنه موسم الصيف.. وقت نضج الرطب.

بدأ القائد ﷺ يعدّ جيشًا بلا ميزانية تسليح؛ لأن التوسع ليس من أهدافه.. كان جيشًا لحماية الثغور، وردع الاعتداء وجنده أصحاب مبادئ وأهداف، لا أصحاب وظائف ورتب ومرتبات، بل إن بعضهم لا يملك راحلة ولا حتى ثمنًا لراحلة، وفي حاجة للاستراحة قليلًا من عناء الحروب التي تفرض عليهم فرضًا.. كان جيشًا في حاجة لكل شيء إلا العزيمة والإيمان. تأمل القائد ﷺ جيشه، فأحزنه ضعف تسليحه ومؤونته، فحرض رجال الأعمال على المساهمة فيه، وفي مثل هذه الظروف ذهب عمر لبيته، فجمع نصف ثروته وهو يكلم نفسه ويمنيها قائلًا: «اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا». ولما وضعها بين يدي قائده. تأمل ﷺ ثروته، فقال: **«ما أبقيت لأهلك؟** فقال: مثله». وبعد قليل تهادى الصديق لقائده، فوجد عمر عنده،

فسلم وجلس، ثم وضع مالًا كثيرًا بين يدي قائده، فسأله ﷺ: «**يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟** فقال: أبقيت لهم الله ورسوله». نظر عمر إلى الصديق الأكبر معترفًا بالمسافة التي بينه وبين غيره، فقال: «لا أسابقك إلى شيء»، ولأن المواجهة اليوم هي مع الدولة الأعظم (الروم الصليبيين)، فقد عاود المنافقين شعور كالموت.. كالذي أصابهم يومي أحد والخندق.

المنافقون وجيش العسرة

رصدت جواسيس دولة النبي ﷺ حشد إمبراطورية الروم الصليبية وعملائها النصارى العرب.. كان جيشًا هائلًا للإجهاز على دولة الإسلام، فقرر القائد ﷺ قيادة الجيش بنفسه.. تأمل جنده، فوجد بعضهم في حال يرثى لها.. لا مال ولا رواحل، والمسافة ليست كالمسافة نحو بدر، حتى يمكن للثلاثة التعاقب على البعير الواحد.. المسافة بعيدة.. على تخوم الشام. تقاطر الفقراء لمرافقة نبيهم وقائدهم ﷺ، علهم ينالون الشهادة، أو يسهمون في صد جيش أوله في تبوك وآخره في أوروبا، ولما وقفوا أمامه ﷺ ناشدوه أن يأخذهم. تأمل هؤلاء الفقراء الذين لا يملكون رواحل تحملهم للذود عن وطنهم، أو تتهادى بهم إلى الجنة، فقال لهم وقلبه يعتصر ألمًا: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾[التوبة: ٩٢]، ضاقت صدورهم، ودمعت عيونهم حزنًا، وعادوا من حيث أتوا وقد حال الفقر بينهم وبين أمانيهم، لكن دموع الرجال لم تذهب سدى.

نزل الوحي يخلد تلك الدموع.. نزل قوله سبحانه: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩١ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩١-٩٢]. نزل القرآن يفضح مواطنين أقوياء أصحاء وأغنياء، وليس لديهم عذر في عدم الخروج للدفاع عن

أوطانهم ودولتهم؛ لأنهم قلة خونة.. كانوا عملاء لليهود سابقًا، وهم اليوم مثبطون مخذلون، وليس لديهم مانع أن يقدموا العمالة للنصارى.. خاصة وأن لديهم عقدة تجاه الدول العظمى.. قالوها في الخندق؛ لذا فمنازلة الصليبيين اليوم في نظرهم انتحار، وقد كشفتهم غزوتا أحد، والخندق.. أنزل العليم سبحانه قرآنًا يفضح هؤلاء المنافقين: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]؛ لأنه ليس لله ورسوله مكان في قلوبهم؛ لذا تجاهل القائد ﷺ عقم المنافقين، واتجه إلى العالم الخصب.. مدركًا أن لكل ميدان فرسانًا، ولكل مناسبة فرسانًا.. هكذا كان ﷺ يفجر طاقات شعبه ومواهبه وإمكاناته.. كان يبني دولته بالكفاءات، ويحرض الكفاءات على الإنجاز؛ لذا هتف برجال اللحظة.. هتف بالأغنياء ورجال الأعمال المخلصين، فقال: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**»، وفجأة تحولت المدينة إلى حركة لا تهدأ.. مضمار سباق نحو الجنة.. الرجال والنساء في سباق نحو عوالم الجنة.. هنا احترقت قلوب المنافقين حقدًا.. حقد عجزوا عن كتمه بقلوبهم، فظهر في مقالاتهم.

مقالات المنافقين عند اقتراب الدول العظمى

أنصت رجل الأعمال عبدالرحمن بن عوف لنبيه وقائده ﷺ وهو يهتف: «**تصدقوا، فإني أريد أن أبعث بعثًا**» فقال: «يا رسول الله، إن عندي أربعة آلاف؛ ألفين أقرضهما الله، وألفين لعيالي». تأمل ﷺ هذا التاجر السخي، فدعا له، وقال: «**بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت**».

خطفت الدعوة قلب أحد فقراء الأنصار، فتبرع بنصف ثروته أيضًا، وقال: «إن عندي صاعين من تمر؛ صاعًا لربي وصاعًا لعيالي». احترقت قلوب المنافقين بهذا السخاء، فلم يستطيعوا كتم دناءتهم وخيانتهم لوطنهم، فالنفاق قتل فيهم حتى أخلاق الجاهلية الجميلة: الكرم والحمية.

انكشفت خستهم، وتطاير جمر الحقد من كلماتهم، حين قال بعضهم: «ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء» وقال بعضهم عن صاع ذلك الفقير: «أو لم يكن الله غنيًّا عن صاع هذا» فأنزل الجبار قرآنًا يسلط الضوء على خباياهم المعتمة، ويفضح سرائرهم المخيفة، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[التوبة: ٧٩].

للمنافقين حقد يتناسل.. ينتشر كالوباء على مدى التاريخ.. لا يريدون للإسلام أي دور في الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، ولا حتى العسكرية، في الوقت الذي ليس لديهم ما يقدمونه سوى اللهاث خلف شهواتهم كالبهائم، وإن كان لهم رسالة، فهي محصورة في محاربة الإسلام.. في محاربة دعاته، وها هي فرصتهم حين رأوا جيشًا مسلمًا يشيد بالصدقات والتبرعات كي يتصدى لجيش إمبراطورية الروم الذي أوله في تبوك وآخره في أوروبا، والمنافقون ينفضحون في هذه المناسبات. مناسبات اقتراب جحافل أعداء الإسلام من الحدود.. حينها ينشرون مقالات كلها سخرية وتشفٍّ، فلا مكان لله ولا لرسوله في قلوبهم.. قلوبهم عروش لمن يبطش بهم، ويسحلهم. بدؤوا يدبّون كالعقارب نحو القائد ﷺ، لا ليسهموا بوصفهم مواطنين شرفاء، ولكن ليعتذروا عن مرافقة الجيش، فقد حسموا نتيجة المعركة، وأيقنوا بهزيمة حتمية، حتى وقف أحدهم أمام القائد ﷺ فقال: ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾[التوبة: ٤٩]، فنزل القرآن يفضح انغماسه في الفتنة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[التوبة: ٤٩].. لم يتردد القائد ﷺ لحظة في الإذن لهم بالبقاء، ولم يسألهم عن السبب؛ لذا لم يسر منهم إلا أقل من عشرين رجلًا ضمن جيش قوامه العشرين ألفًا تقريبًا.. دنا الرحيل، فبكى رجال، لكن عثمان جفف دموعهم فجأة.

عثمان فارس جيش العسرة

في مثل هذه الظروف القاسية التي تفضح المنافقين.. يشع الإيمان إنجازًا، ويشع ذو النورين سخاء، ليؤسس نموذجًا راقيًا لرجل الأعمال المسلم، الذي لا ينظر إلى الدنيا من خلال الأرقام، بل ينظر للأرقام من خلال الدنيا والآخرة معًا، وليست هذه هي المرة الأولى التي ينفرد فيها عثمان بإنجاز، فذات يوم عطشت المدينة، وكان من أعظم آبارها بئر يقال لها: رومة، وهي بئر مميزة، وصاحبها يبيع الماء على المواطنين، فحث القائد ﷺ الأغنياء على أن يشتروها ليسقوا إخوتهم المواطنين منها مجانًا، وبشر من يفعل ذلك بالجنة، فاشتاق عثمان لأنهار الجنة، فاشتراها، وزاد في حفرها وعمّقها، ثم جعلها سبيلًا للفقراء والأغنياء وابن السبيل وغيرهم، وها هو القائد ﷺ يقول: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**».

شعر عثمان بالشوق لأجواء الجنة مجددًا، فتفقد الجيش، وأحصى ما ينقصه من رواحل وعتاد، ثم توجه إلى مراح إبله، ومخازن أمواله، ثم أقبل ومعه خدمه يسوقون الإبل، ويحمل الدنانير والدراهم وينثرها بين يدي قائده ﷺ، الذي أسعده المشهد العثماني المبهر.. المخلص لله.. المحب لرسوله المدافع عن دولته في مواجهة الروم والنصارى العرب.. بعدها نادى القائد ﷺ معظم الفقراء الذين عادوا منكسرين، فحملهم على تلك الإبل العثمانية، واعتذر لمجموعة لم يجد لهم مراكب.

لم تيأس تلك المجموعة الفقيرة.. إنها تلح على المسير، وفي سط الإلحاح وكثرة المطالب، وكثر الجيش.. كان ﷺ في أقصى حالات الانشغال.. انشغال شابه بعض الغضب، وفي لحظات الغضب تلك أقبل الشاب الفقير أبو موسى الأشعري نحو قائده ﷺ أرسله مجموعة من أصدقائه الفقراء كي يناشد نبيهم، ويتوسط لهم بالسفر معه. انطلق أبو موسى محرجًا، فوصل للقائد ﷺ وهو في حالة غضب، فقال: يا نبي الله، إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم؟ فقال: «**والله لا أحملكم على شيء، وما عندي ما أحملكم عليه**» يقول أبو موسى: ووافقته وهو غضبان ولا أشعر.

رجع الشاب مباشرة إلى رفاقه حزينًا خائفًا أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد في نفسه عليه، ولما وصل أصحابه أخبرهم، فزاد حزنهم.. خيم الصمت والوجوم عليهم، وقبل أن تمضي ساعة تطاير الحزن، وتلاشى الوجوم.. صوت عذب يملأ المكان.. صوت بلال يهتف.. ينادي أبا موسى الأشعري: «أي عبدالله بن قيس، أي عبدالله بن قيس، أجب رسول الله يدعوك».

علي يتخلف عن غزوة تبوك

كان أبوموسى الأشعري وأصحابه في مجلس تغطيه خيمة من الحزن والفقر، فقائدهم ﷺ قد اعتذر لهم عن مرافقته، وهو سيغادر اليوم إلى منطقة تبوك للتصدي لجحافل الروم والنصارى العرب، وفجأة تلاشى الوجوم، وتوقف الحزن.. صوت بلال وزير المالية، والمسؤول عن بيت المال يزين الطريق ينادي: «أي عبدالله بن قيس» نهض أبوموسى ملبيًا، فرآه بلال، فعاجله قائلًا: «أجب، رسول الله يدعوك»، فانطلق أبوموسى، ومشى إلى جانب الوزير بلال حتى أوقفه بين يدي القائد ﷺ، الذي لا يهمش أحدًا من شعبه.. نظر أبوموسى، فوجد حول قائده ﷺ ستة أبعرة، وقد قرن كل بعيرين معًا، وقد اشتراهن ﷺ بعد توافر ثمنهن. نظر القائد للشاب المتوقد حماسًا، فقال: «**خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين، فانطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء، فاركبوهن**».

تهلل وجه أبي موسى، وانطلق بالإبل ليبشر رفاقه، ولما أقبل عليهم، فزّوا من أماكنهم ينتظرون كلماته.. يتفاءلون بابتساماته، ولما وصل أحيا مجلسهم، واقتلع خيمة الوجوم وطوّح بها قائلًا: «إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء»، لكن مهلًا، فأبوموسى لن يعطيهم الإبل إلا بشرط، فقد خشي أن يكون قد تسرب لنفوسهم شك في نقله للحديث الأول عن نبيه ﷺ، فنبيه يقول: «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**» لذا قال: «والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع

مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم.... لا تظنوا أني حدثتكم شيئًا لم يقله. فقالوا: والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت».

مشى بعضهم معه حتى وصلوا للشهود، فأكدوا ما قاله أبوموسى، فرجعوا لأصحابهم وأخبروهم، فارتفعت معنوياتهم، وأحضروا أمتعتهم، وحملوها على الإبل، واستعدوا للانطلاق مع إخوتهم يوم الخميس.

أشرق فجر الخميس، فصلى الجيش في أماكن متفرقة، فالمسجد لا يسعهم، وكان ﷺ يحب أن يخرج يوم الخميس. ثم ركب ﷺ، وقبل أن يتحرك عين كعادته نائبًا له على المدينة، وقد عين اليوم علي بن أبي طالب، ثم ودع بناته وأحفاده، وانطلق بجيشه بين نظرات المنافقين وغمزاتهم الساخرة من هذا الجيش الذي ستطحنه سنابك الروم في نظرهم بساعات، ولما وصل القائد ﷺ منطقة قريبة تدعى الجرف، فوجئ بعلي مقبلًا فزعًا.. قد لبس أداة الحرب.

أتتركني مع النساء؟

كانت سنة القائد ﷺ هي عدم إفشاء وجهة الجيش عند انطلاقه، لكنه اليوم يعلن وجهته، وهي منطقة (تبوك) أخبر جنده عن وجهتهم، فانطلقوا لا يهابون إلا الله، أما المنافقون فساعدهم على التخلف عدم وجود ما يسمى الكتاب الحافظ، أو سجل أسماء المجاهدين، فغياب هذا الكشف سهل أمر غياب المنافقين، بعكس رؤوسهم كابن سلول، الذين خرجوا كارهين، فمواجهة إمبراطورية الروم الصليبية وعملائها من النصارى العرب أمر مرعب.. كيف يواجه الروم والعرب في الجاهلية كانوا يحلمون برؤية قصور الشام، أو رؤية الإمبراطور من بعيد، بل يحلمون بالتشرف بإلقاء القصائد أمام ملوك بني جفنة الغساسنة.

ترك ﷺ المنافقين في المدينة، وتكفل الوحي بفضحهم.. نزلت آيات من سورة التوبة كالبرق تكشف قبحهم.. كالصواعق تحرق أعذارهم.. آيات تتجاوز الزمان



والمكان.. ترعب المنافقين في كل آن، حتى سميت السورة الفاضحة. تلاها ﷺ، فأحرقهم بها، فبدؤوا يطلقون ألسنتهم كالأفاعي مجددًا بإشاعات تنبئ عن عفن يسكنهم.. إشاعات ومقالات رددتها طرقات المدينة تقول: إن النبي ترك عليًّا لأنه يستثقله، فوصلت الإشاعة إلى مسامع علي بن أبي طالب، الذي لم يتحملها، فتسلح، وحمل أمتعته على راحلته، وانطلق مسرعًا خلف الجيش، وفي مكان يقال له: الجرف، فوجئ الجند بعلي مسرعًا، وهو مدجج بالسلاح.

هدأت خطوات رحلته شيئًا فشيئًا وهو يقترب من القائد ﷺ، ثم نزل عنها، ولما وقف أمامه سلم عليه، وقال والحزن يملؤه: «أتخلفني والنساء»؟ يا رسول الله، أتخلفني بعدك ولم أتخلف عنك في غزاة قط؟ قال ﷺ: **يا علي، ارجع**. فقال: يا رسول الله، إن المنافقين يزعمون أنك إنما خلفتني إلا استثقالًا بي؟ قال: **يا علي، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي، ارجع فاخلفني في أهلي وأهلك**» كان ﷺ يثمن كل مجهود وكل مجتهد، وكان لا يغفل أي دور يقوم به أحد من شعبه، فلئن كان بقاء علي في المدينة يعني في نظره الغياب عن ساحة الوغى، فإنه في نظر النبي ﷺ يقوم بدور هارون عندما توجه موسى نحو جبل الطور، وهو دور أداه كثير من الصحابة قبله، واليوم هو دور علي، لكن عليًّا يتميز عن سابقيه بقرابته من النبي ﷺ، ولذا شبهه ﷺ بدور هارون؛ لأن هارون كان خليفة وأخًا لموسى في الوقت نفسه، وبنو إسرائيل هم آل يعقوب.

عاد علي ليفاجأ بوجود رجال أغنياء أصحاء لم يكونوا يومًا من المنافقين.

تبوك وكارثة التسويف

عاد علي لإمارة المدينة، فوجد شوارعها شبه خالية.. لا يجوبها سوى النساء والعجزة والأطفال وأخس الرجال (المنافقون) وبعض جواسيس الروم، لكنه استغرب وجود أربعة رجال أشغلهم التسويف، والثقة المفرطة بالنفس، والثقة

بالوقت الذي لا ينتظر أو يجامل.. أربعة رجال من خيرة رجال الدولة.. أحدهم كان حاضرًا ليالي العقبة المجيدة مع المؤسسين الأوائل، وهو الشاعر كعب بن مالك.

كان رجلًا متوسط الحال، وقد تمكن من امتلاك ناقتين، وقد عزم على أخذهما لتلك الغزوة.. كان كعب يتوجه كل صباح ليتجهز، فيمضي النهار في الانشغال بأمور شخصية وهو حائر لا يدري ما يفعل، ثم تغيب الشمس، فيخاطب نفسه قائلًا: «أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم. فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضِ شيئًا. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقضِ شيئًا. فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل، فأدركهم وليتني فعلت. فلم يقدر لي ذلك».

فقد كعب الأمل باللحاق بقائده ﷺ، واستبد به حزن حاصره في شوارع وصفها: «أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء».. كان كعب يشعر بغصة وبغربة داخل مدينته؛ لأنه ليس من هؤلاء، ولا من هؤلاء.. هو من السابقين الذين لم يتخلفوا عن قائدهم إلا في غزوة بدر.. هو ممن كابد خلف نبيه في حروبه مع اليهود والوثنيين.. هو ممن تأهب لمواجهة الروم الذين استعدوا للقضاء على الدولة الإسلامية، لكنه التسويف الذي يورث الندم، ويكدس الوظائف، ويصيب الإنسان بالإحباط.

لم يكن كعب وحيدًا في معاناته.. هناك ثلاثة آخرون أحدهم اسمه: هلال بن أمية، والآخر يدعى مرارة بن الربيع، وهما يمران بالتجربة المريرة نفسها، وصفهما كعب بـ «رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة».. هم ثلاثة من السابقين للإسلام يبحثون عن مخرج مما هم فيه ولا سبيل، فجيش الدولة الذي جهزه عثمان يشق السراب والعطش والقفار.. عبر قيظ محرق ولهيب مشتعل، أما الرابع فيدعى أبو خيثمة، وهو الرجل الذي تصدق بالصاع، وسخر منه المنافقون، وذات يوم حدث له موقف جعله ينتفض.. يفزّ من مكانه، ويركب راحلته، فلا يقر له قرار حتى يوقفها في تبوك.

أبو خيثمة

بينما كان النبي القائد ﷺ في طريقه إلى تبوك.. كان الأنصاري أبو خيثمة يمشي في إحدى طرقات المدينة إلى بستانه، وكان له زوجتان تعيشان معه في حائط متواضع، وقد صنع لكل زوجة عريشًا مستقلًّا داخل ذلك الحائط، وبعد الخميس بيوم أو يومين، وحين ارتفعت الشمس، وحميت الظهيرة، وسال العرق على الجباه.. قامت كل زوجة بإحضار الماء من البئر، ثم قامت برش العريش ليبرد، ويطيب الجلوس فيه، ثم أعدت كل واحدة ماء باردًا ورطبًا شهيًّا.. كان كل عريش ينافس صاحبه نحو قلب الحبيب.

تهادى أبو خيثمة نحو حائطه ينشد الراحة.. دخل العريش الأول، فرحبت به زوجته الحسناء، ورأى ما لديها، ثم توجه للعريش الآخر، فرأى التنافس في عينيها وعريشها، وإذ بشمس حامية ترتفع داخل قلبه تحرق العريشين، وتحول النسيم البارد إلى شعور كالسموم.. عجز أبو خيثمة عن الجلوس أو التبرد أو حتى تناول لقمة.. فجأة وضع نفسه مكان أحب الناس إليه.. تخيل نفسه في مكان نبيه ﷺ، فإذ بالريح تسفع وجهه، والشمس تحرق أقدامه، فنظر إلى حبيبتيه، وقال: «رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وماء بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف. والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيّئا لي زادًا» سافرت الكلمات في قلبي الشابتين المؤمنتين، فهبتا تسهمان في تجهيز هذا المجاهد.. زودتاه بالطعام والشراب، ووضعتاه في خرجه، ثم ودعهما وخرج.. تاركًا موسم الرطب ونضج العنب.. تهادت به راحلته كالشوق إلى تبوك، وبعد أن قطع مسافات ومسافات يلمح من بعيد فارسًا فاتكًا.. اقتربا من بعضهما، فإذا هو عمير بن وهب، الذي قرر يومًا اغتيال النبي ﷺ بتمويل من صفوان ابن أمية بن خلف.. وها هو اليوم جندي من جنود الإسلام.. يبذل روحه دون نبيه.

حيا الفارسان المؤمنان بعضهما، وترافقا عبر لهيب الحر يشقان أمواج السراب والعطش، وفي أثناء أحاديث السفر، وقبل وصولهما تبوك طلب أبو خيثمة من عمير

طلبًا غريبًا.. طلب من عمير بن وهب أن يتوقف عند وصولهما لتبوك قائلًا: «إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلّف عني حتى أقدم على رسول الله ﷺ» استجاب عمير لطلب صاحبه، وواصلا سيرهما نحو قائدهما ﷺ، الذي كان يعاني وأصحابه لهيب القيظ، وشدة العطش، لدرجة لا يستطيع التعبير عنها إلا الذي عاناها وكابدها، لكن الأشد هو اكتشاف الصحابة مجموعةً من الخونة ضمن الجيش.

عطش وخونة

تبوك معركة فرضت على الدولة الإسلامية، كأحد.. كالخندق.. كفتح مكة، ومهمة دولة الإسلام فيها دفاعية بحتة، وفي الطريق إلى تبوك تكبد الجيش المسلم عناء السفر والحرارة والعطش.. عطش ألجأهم إلى فعل شيء يثير الشفقة.. بلغ ببعضهم العطش درجة نحر الإبل وارتشاف الماء الذي يبلل فرث الإبل، حتى قال عمر بن الخطاب: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل ينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده».

عطش جعل الوزير الأول أبا بكر يتجه لنبيه وهم قرب مدائن صالح؛ ليناشده أن يسأل ربه معجزة لهذا الجيش، الذي ترك ظلال النخيل إلى ظلال السيوف فداء لله ورسوله، وعندما أصبح أمام قائده ﷺ قال: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا، فادعُ لنا. فقال ﷺ: «**أتحب ذلك؟**» قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلمت، ثم سكبت، فملؤوا ما معهم. كان المشهد مبهرًا، والفرح يهطل مع كل قطرة مطر. دبت حياة أخرى في المعسكر، وانساب المطر في الأرض وفي العروق، وتحولت الساحة إلى أرض ملبدة، وغدير ساحر وسط المعسكر، وسماء ملونة فاتنة.. شرب الجند من السماء، واغتسلوا، وغسلوا غبار السفر وأثر العرق عن أجسادهم وثيابهم، وملؤوا قربهم، وشربت الخيل والإبل، وبعد الارتواء

الجميل طابت النزهة.. نهض عمر وبعض الجند يتمشون، ليشاهدوا السيل من أين انحدر، وأين وصل.. لم يسيروا طويلًا.

توقفوا عند أطراف المعسكر الكبير، وحدقوا في المنطقة، فلم يجدوا أثرًا للمطر خارج المعسكر، حتى قال عمر: «ذهبنا ننظر، فلم نجدها جازت العسكر».. معاناة تكشف عن طبيعة هذا الدين، وأن الله قضى ألا ينتشر ويدوم حكمه العادل في الأرض إلا بجهد البشر وتضحياتهم، أما المعجزات الحسية، فهي أدلة وبراهين تأتي مع الأنبياء، وتغادر معهم، ومع ذلك تقف المعجزات طويلًا أمام أبواب صدئة.. تقف المعجزات أمام أبواب العناد، وعناد المنافقين من أسوأ أنواع الصدأ. اقترب مجموعة الجند من رجل يشكّون بنفاقه، فقالوا له: «ويحك أبعد هذا شيء؟ فقال بكل صفاقة: سحابة مارة».

ثم حدثت معجزة أخرى.. جعلت من تبوك معركة فضح للمنافقين، وذلك حين اكتشف أحد الجند أنه كان طوال السفر يطعم ويؤوي ويشارك خيمته رجلًا من ألد أعداء الجيش.. يهوديًا حاقدًا.

❧ ❧ ❧

تبوك معركة تفضح المنافقين

في أثناء توقف جيش دولة الإسلام في الطريق لتبوك.. انفلتت ناقة القائد ﷺ.. انطلقت تهوي بين الشعاب، ثم انحدرت نحو أحد الأودية.. مدت رقبتها هنا وهناك لتأكل، فإذ بحبل زمامها يلتف على إحدى الأشجار.. حركت رأسها يمينًا وشمالًا وفي كل اتجاه علها تنفلت، فلم تستطع، فظلت حبيسة الوادي حتى افتقدها ﷺ، فهتف بجنده يسأل عنها، فانطلق بعضهم يمشطون الجوار يبحثون.

سمع رجل يهودي يدعي الإسلام اسمه (زيد بن اللصيت القينقاعي).. سمع نداء القائد، وشاهد الرجال ينتشرون، فقال لمن حوله: «أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟» قال هذا الكلام وهو يجلس في

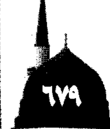
خيمة بطل من أبطال العقبة وبدر.. اسمه (عمارة بن حزم)، وكان عمارة يؤوي هذا اليهودي المنافق، ويطعمه بسخاء، لكن عمارة لم يكن في الخيمة حينها.. كان هناك جالسًا بجوار قائده ﷺ، فإذ بالوحي يخبر النبي بمقالة اليهودي المنافق، فقال ﷺ لجنده: «**إن رجلًا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، وهي في هذا الوادي من شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها**».

انحدر بعض الجند في الوادي، وتلفتوا، فإذ بهم يرونها.. اقتربوا منها، وخلصوا زمامها من الشجرة، ثم عادوا بها للمعسكر، أما عمارة بن حزم، فعاد بعد مدة إلى خيمته، فوجد يزيد القينقاعي المنافق وحوله مجموعة من الرجال فيها.. سلم عمارة عليهم، وردّوا السلام، ثم جلس، وأخبرهم بالمعجزة التي رآها بعينه، وروى لهم مقالة النبي عن المنافق، فاضطرب القينقاعي، وتغير وجهه، فتأمله أحد الجالسين، ففضحه اضطرابه وتلونه قائلًا: (ابن لُصَيْتٍ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي) صعق عمارة، ونهض من مكانه غاضبًا، وأقبل على اليهودي المنافق يجأ عنقه، ويهتف: (إليَّ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر!) ثم صرخ في وجهه: (اخرج أي عدو الله من رحلي، فلا تصحبني).

لا يلام عمارة بما فعل بهذا اليهودي المنافق، فالمنافقون خونة للدين والوطن، وخطرهم كعسكر وجنود أشد وأنكى.. لا تردعهم أخلاق ولا قيم، فهم يتواطؤون مع الغازي والمحتل بسهولة، فليس في قاموسهم مصطلح اسمه الحمية للعرض أو الوطن أو الدين، وليس في حياة معنى للكرامة.

دروس جديدة في الطريق إلى تبوك

في المسير إلى تبوك لم يكن الطريق آمنًا، فإمبراطورية الروم الصليبية تبث سراياها وجنودها، والمنافقون يثيرون القلق، فقد أكلهم الحقد حتى غدوا جواسيس.. جيوبًا



مجانيـة للعدو؛ لـذا صلى القائد ﷺ بأصحابـه في بعض مراحل الطريـق صلاة الخوف.. صلى بهم بطريقة مختلفة عن صلوات الخوف السابقة.. قسمهم إلى قسمين: قسم يراقب الطرقات، وقسـم آخر صلى خلفه ركعتين، ثم سـلم فسـلموا، وانطلقوا للحراسـة، ثم نهض وكبر ثانية، فأتى القسم الأول وصف خلفه، وصلى بهم ركعتين، ثم سلم وسلموا.

يقـول أبوبكـرة الذي تدلى قبل شـهر من حصن الطائف واصفًـا تلك الصلاة: «كانت لرسـول الله ﷺ أربعًـا، ولأصحابه ركعتين ركعتـين» أي كان الجند يصلونها قصرًا، بل وجمعًا، فقد قال معاذ بن جبل عن مسير طريق تبوك: «إن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر، فيصليهما جميعًـا، وإذا ارتحل بعد زيغ الشـمس صلى الظهر والعصر جميعًا، ثم سـار، وكان إذا ارتحـل قبـل المغرب أخـر المغرب حتى يصليها مع العشـاء، وإذا ارتحـل بعد المغرب عجل العشاء، فصلاها مع المغرب» وملخص ما يفعله ﷺ في الجمع في طريق تبوك، هـو أنـه إذا كان يسـير في أثنـاء دخول وقـت الصلاة أخـر الجمـع، وإذا دخل وقت الصلاة وهو متوقف جمع جمع تقديم.

ظـل النبـي ﷺ يجمع، ويقصر كما فعـل في فتح مكة.. لم يحدد مـدة للجمع، ولا للقـصر لا أربعـة أيام ولا أكثر ولا أقل.. هذا عن الجمع والقصر، أما الصيام في هذا السفر الشاق، فقد صام بعض الصحابة في هذه الغزوة، وفجأة رأى النبي ﷺ تجمعًا ولغطًا تحت ظل شجرة، وإذ برجل قد سقط تحتها من الإعياء، فسأل عنه، فقالوا: يا رسول الله، رجل صام، فجهده الصوم؟ فقال ﷺ: «**ليس البر أن تصوموا في السفر**».

واصـل القائد ﷺ مسـيره، فلما قطع أكثر من ثلاث مئة ميـل.. إذ هم يدلفون واديًا غريب الجبال.. غريب البيوت.. موحش بالليل.. مبهر في النهار.. يشكو فقد الساكنين.. عـلى الرغـم من كثرة آباره، وخصوبة تربته، وجمال بيوته وقوة تشـييدها ومناعتها.. وادٍ تماهـت فيـه يومًا التجـارة بالزراعة بفـن العمارة.. تلفـت الجيش، وكأنهـم يبحثون عن أسـواق القـوم ودكاكينهم، فلـم يجدوا مُزارعًـا ولا تاجرًا.. لم يجدوا من يتحرك سـوى أغصان الأشجار وذرات الرمال والكثير من القصص والذكريات، فأين سكانه؟

الوصول إلى حجر ثمود ومدائن صالح

قطع جيش دولة الإسلام أكثر من ثلاث مئة ميل شمال المدينة في اتجاه تبوك، سالكًا طريق القوافل، وإذ بالجيش يسيل عبر وادٍ مخيف وموحش وكأن الأشباح تسكنه. تلفتوا: هل هذه بيوت على شكل جبال، أم جبال على شكل بيوت؟ جبال أخرى غريبة التكوين.. سار الجيش يتأمل متحفًا لفن النحت: نقوش وتماثيل، وبوابات وواجهات مهيبة، وصمت يشعر بالوحشة.. هنا سكنت ثمود، وهنا جابوا الصخر، ونحتوه، فأصابهم الإبداع بالغرور، وأنستهم براعتهم في نحت الحجر براعة فن بناء البشر.. بناء الإنسان بالتوحيد، والعدل في الحكم. أرسل الله لهم رسوله صالح ﷺ بالتوحيد والنظام اللذين بعث الله من أجلهما من سبقه من الأنبياء، وقال لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٠]، لكن يبدو أن ثمود قدوا من الصخر عنادهم.. رفضوا التوحيد والعدل فقالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

ظل صالح عليه السلام يدعو ويدعو، فاتبعه أحرار العقول، ولما رأت ثمود أن أتباعه يزيدون طلبوا آية تدل على أنه نبي، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤]، وفجأة تهادت أمامهم ناقة ضخمة تسير بين البيوت والمزارع، فرأوا شيئًا لم تعرفه البشر من قبل، لكن العقول العنيدة صدئة.. لا تفلح الآيات في تفعيلها وزحزحتها عن التقليد. المقلدون مصابون بهوس التقديس لمن سبقهم.. يخشون نقد ماضيهم، وطرح الأسئلة على إرثهم، فجاء صالح ينسف سنوات التقليد والتقديس للبشر والحجر.. ينسف التقاليد البالية بالوحي النقي. ضاقوا بهذه الآية المبهرة، فكلما دبت على الأرض رأوا فيها دليل إدانتهم، فقرروا التخلص منها، فتربص لها طاغوت يقال له: (قدار بن سالف)، فرماها حتى خرت على الأرض، وفارقت

الحياة.. هنا حلت عليهم اللعنة وأعطاهم الله مهلة ثلاثة أيام ليتراجعوا، فقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٥-٦٧].

تحول عناد ثمود إلى جثث نتنة، وها هو جيش محمد ﷺ يتوقف على آثارهم، فينزل الجند، ويسرع الكثير منهم نحو الآبار يروون عطشهم، ليفاجؤوا بصوت يصيح بهم.. يطالبهم بسكب الماء الذي استسقوه.

المنع من مياه ثمود

توقف الجيش المتجه لمنطقة تبوك في وادي ثمود ومدائن صالح.. نزل الجيش، فنصبت الخيام، وانطلق الكثير منهم نحو آبارها، فملؤوا قربهم، وبدأ بعضهم بإخراج الدقيق، وسكب ذاك الماء عليه ليعجن تمهيدًا لصنع الخبز، وجمع كثير منهم الحطب، وأشعلوا النيران، ووضعوا صخور الأثافي حول الحطب المشتعل، ثم نصبت القدور على الأثافي، وقطع من كان معه لحم لحمه، وألقاه في القدور، وسكب عليه من ذلك الماء، وفجأة نهض النبي ﷺ وركب ناقته، ونادى أحد الصحابة، وطلب منه أن يصيح قائلًا: «**الصلاة جامعة الصلاة جامعة**»، وهي لفظة ينادي بها النبي ﷺ أصحابه للاجتماع.

رفع الصحابة رؤوسهم عن قدورهم، وتوقفوا عن اللت والعجن، والتفتوا نحو مصدر الصوت، وإذ بالنبي فوق ناقته يتأهب للمغادرة.. آمرًا بسكب الماء الذي استقوه من هذه الأرض «أمرهم ﷺ ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها» فهتف بعض الصحابة قائلًا: «قد عجنّا منها، واستقينا؟» فأمرهم ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء. وقال لجنده: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا**

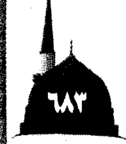
أن تكونـوا باكـين أن يصيبكم ما أصابهم»، ثم تقنـع بردائه وهو على الرحل، فوضع الرداء على رأسه، ثم زجر ناقته، وأسرع حتى جعل بيوت ثمود خلفه.

أطفأ الجند نيرانهم، وسكبوا ما فيها من ماء، أما العجين فأخرجوه من القدور، وتوجهـوا به لإبلهم، فعلفوها العجين، ثم اسـتاقوها خلـف قائدهم الذي أخذهم مسـافة قصيرة، ثم توقـف بهم عند بئر ماء، وأخبرهم بأن هذه هـي البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ثم أمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. وقال لهم: «**إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم**».

امتثـل الجنـد، وعسـكروا حـول البئـر، واسـتقوا وأشـعلوا نيرانهـم، ونصبوا قدورهـم، ولمـا اسـتراحوا قـام ﷺ خطيبًـا، فحدثهـم عـن قـوم صالـح وعنادهـم وعقوبتهـم، وحذرهـم من الإلحاح في طلـب الآيات بعد بيان الحـق كما تمحّك قوم صالـح، وقـال: «**لا تسـألوا الآيات وقد سـألها قوم صالـح**»، ثم تحدث عـن الناقة، وأشـار لطريقين كانت تسـلكهما للبئر، فقال: «**كانت تردّ من هذا الفج، وتصدر من هـذا الفـج، فعتوا عن أمر ربهم، فكانت تـشرب ماءهم يومًا، ويشربـون لبنها يومًا، فعقروهـا، فأخذتهـم صيحة أهمد الله ﷻ من تحت أديم السـماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حـرم الله ﷻ**» فقـال أحد الجند: «من هو يا رسـول الله؟ فقـال: **هو أبورغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**».. بات الجيش هناك، ثم تحرك ليفاجأ بعد تحركه برعب يصيب الروم.

معجزة الماء والطعام في تبوك

غادر النبي القائد ﷺ وجيشه أرض ثمود، حيث حلّ في مدينة قريبة جدًّا تدعى (وادي القرى) ويبدو أن بعض ساكنيها من المسلمين، حيث مر ببستان امرأة مؤمنة، فرحبـت بمقدمه. كانت تملك حديقة مـن النخيل، فأخبرها ﷺ بوجوب الزكاة على نخلها، لكن كيف وثمرها على رؤوس النخل؟ هتف القائد ﷺ ببعض جنده ممن لهم



خبرة بالنخيل ومن بينهم الشاب جابر، فقال لهم: «اخرصوها» والخرص هو تقدير ما على النخل من رطب تمهيدًا لأخذ زكاته.

يقول جابر: «فخرصناها، وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أوسق»، وهي تساوي ست مئة صاع؛ لأن الوسق يساوي ستين صاعًا. ثم توجه ﷺ بالحديث إلى تلك المواطنة، فقال: «**أحصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله**» بقي الجيش مدة في وادي القرى، ثم ارتحل وكان ﷺ في حلّه وارتحاله يقدم الدروس، فقد تحرج البعض من مرور الناس أمامه في الصلاة، فسأل عن سترة المصلي؟ فقال ﷺ: «**كمؤخرة الرحل**» أي إذا وضع شيئًا بارتفاع العود الموجود في آخر مقعد رحل البعير كان كافيًا.

سار الجيش، ثم توقف، فهتف القائد ﷺ بجنده محذرًا، فقال: «**إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي**»، ولما أشرقت شمس الغد، وارتفعت شمس الضحى وصل الجيش عين تبوك، فوجد ﷺ رجلين قد خالفا أمره، فغضب عليهما.. يقول معاذ: «ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا، حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو غزير حتى استسقى الناس» لم يكن العطش وحده في تبوك.. الجوع كان هناك حتى قال أحد الجند: «لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا، فنحرنا نواضحنا، فأكلنا، وادّهنّا؟ فقال رسول الله ﷺ: افعلوا» تأهب الجند لنحر بعض الإبل، فإذ بعمر بن الخطاب يفزع للأمر، ويسرع لنبيه ﷺ ويقول: «يا رسول الله، إن فعلت قَلَّ الظَّهر، ولكن ادعُهم بفضل أزوادهم، ثم ادعُ الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله: نعم. فدعا ﷺ بنطع وهو بساط من الجلد فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم... فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. فدعا ﷺ عليه بالبركة، ثم قال: **خذوا في أوعيتكم**. فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه. فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة» فقال ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**»، ثم نطق بمعجزة نراها اليوم.

أين الروم يا تبوك؟

بعد أن رأى الجند المعجزات السابقة كمعجزة المطر، والماء والطعام، قال النبي ﷺ لجنده ومعظمهم ممن أسلم بعد الفتح: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ، فيحجب عن الجنة**».. معجزة تثبتهم في ميادين الجهاد، ويزدادون بها شوقًا للجنة، أما المعجزة الوعد، فكانت لنا.. هي وإن تحدث بها إلى معاذ وخصّه بالحديث عنها. تحدث ﷺ عن تبوكنا اليوم التي غدت من أكثر البلاد زراعة، فقال لمعاذ وهم في أيام جفاف وعطش وجوع: «**يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة، أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا**» شرب الجيش معجزة، ورأينا الأخرى ولم يرَوها، بل لم يروا جيش الروم، فأين الروم؟

هنا تبوك، فأين جيوش الدولة البيزنطية الصليبية.. أين جيوش عملائهم النصارى العرب يا تبوك؟ لا أحد على هذه الأرض سوى النبي القائد وأصحابه والمعجزات! نزل الجيش، وأقيم معسكر كبير، وتناثرت مجالسه، وفي مجلس القيادة تلفت ﷺ فخفق قلبه شوقًا لصاحبه الشاعر كعب بن مالك، الذي افتقده طوال الطريق، فقال: «ما فعل كعب؟» فكانت الإجابة نقدًا لاذعًا وغيبة لكعب. قال أحد الأنصار: «يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفيه» استاء معاذ من تلك النميمة التي تصف أخاه كعبًا بالانشغال بأناقته عن الجهاد، فقال: «بئس ما قلت» ثم ذبّ عن عرضه كما أوصاهم ﷺ حين قال: «**من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة**»، فحلف معاذ: «والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت ﷺ»، فكعب من البنائين الأوائل، وسيرته تنضح بالإيمان. سكت القائد ﷺ، لكن شيئًا لفت نظره من بعيد.. طيف مقبل يتماهى بياض ثيابه ببياض السراب رأى ﷺ رجلًا مبيضًا يزول به السراب، فقال: «**كن أبا خيثمة**» بدأ الطيف يشق أمواج السراب يتشكل بين أمواجه.. يقترب، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري على ناقته.. أبو خيثمة الذي تصدق بصاع التمر، فلمزه المنافقون، والذي ترك عريشًا باردًا وزوجتين شابّتين.. تركها لأنه شعر بأن نبيه أولى منه بالظل والماء البارد، ولأن قائده تجشم العناء والعطش ولفح السموم دفاعًا عنه وعن زوجتيه وظله وأولاده فلما تأمله القوم قالوا: «يا

رسول الله، هذا أبوخيثمة. فلما أناخ، سلم على رسول الله ﷺ، فقال له: «**أولى لك أبا خيثمة**» جلس أبوخيثمة، فقصّ على نبيه قصته، فثمن ﷺ شعور جنديه بالمسؤولية، فدعا له بخير، وقال له خيرًا. مرت أيام، وجالت طلائع الاستكشاف تمسح المنطقة، وتبيّن من خلال المسح أن الروم قد أصابهم الرعب، فإذ بالقائد يحول تبوك إلى بؤرة نشاط سياسي وعسكري.

تبوك نشاط سياسي

تبوك.. معركة دفاعية، ولو كانت جهاد طلب لواصل ﷺ المسير حتى يصطدم بالروم، لكنه اكتفى بحماية حدوده، ووضع سياج الهيبة عليها على الرغم من أن جيشه جهز بالتبرعات، ومعظم تجهيزاته قام بها صهر قائد الدولة عثمان بن عفان.. ماذا سيفعل القائد ﷺ ولا حرب ولا روم هنا؟.. غاب العراك، فأشرقت السياسة.

قرر ﷺ أن يبقى أيامًا ليحول أرض تبوك إلى مركز نشاط عسكري وسياسي، وأول المستهدفين بتلك الأنشطة هم من جاء من أجلهم: الروم. استدعى ﷺ كاتبه، ولما حضر، وجلس بين يديه.. غمس قلمه في محبرته، فأملى عليه خطابًا، ولما انتهى هتف بجنده، فقال: «من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟» فقال أحد الجند: «وإن لم أقتل؟ قال ﷺ: **وإن لم تقتل**» تقدم الجندي الشجاع، وتناول الخطاب من نبيه، ووضعه في خرج سفره، وانطلق على راحلته حتى وصل الأرض المقدسة في الشام، وهناك ظل يسأل، ويسأل حتى علم أن قيصر في القدس، فانطلق نحو مقر إقامته، وإذ به يفاجأ ببساط طويل قد مد نحو بيت المقدس. سأل عن البساط، فأخبروه بأنه قد مد ليمشي عليه الإمبراطور وحده نحو بيت المقدس.

تسلل الصحابي بين الجموع المحتشدة بفضول على طرفي البساط تريد رؤية زعيمها.. يتطاول خلف حرس الشرف الذين يشكلون عادة صفين حول البساط،

ثم انتظر حتى وصول موكب القيصر. وصل الموكب، وتعالى الهتاف، ونزل القيصر عن عربته بكامل أبهته، فاستغل الجندي المسلم ضوضاء الهتاف والتلويح لقيصر، فأخرج الكتاب من ثيابه، ورماه على البساط، واختفى بين الجموع، وظل يراقب مآلات المشهد.

لم يجرؤ أحد على مس الخطاب، ومشى القيصر خطوات وإذ به يفاجأ بشيء ملقى على السجادة.. اقترب منه وتأمله، فإذا هو خطاب، فانحنى ومد يده وأخذه، ثم هتف بكبير الأساقفة، أو من يسمى رأس الجاثليق.. اقترب الأسقف بوقار، وحين أصبح بين يديه مد القيصر كفه بالخطاب، وطلب منه أن يقرأه. أخذه الأسقف، وقرأه عليه، ولما انتهى من القراءة شعر القيصر بخوف شديد، وكأن شبحًا بين الجموع يطارده.. يرمقه بعينين مخيفتين. نظر للأسقف، وسأله عن الكتاب، ومن أحضره؟ فأجاب قائلًا: «ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك» ازداد خفقان قلب الإمبراطور، فهذه الرسالة من عند النبي محمد الذي هاب القيصر مواجهته قبل أيام.. على الرغم من ضخامة جيش الروم الذي انتهى توًّا من هزيمة فارس ثاني إمبراطوريات العالم. أصيب القيصر بالرعب، فقرر الدخول في الإسلام.

القيصر يعلن إسلامه

أصيب القيصر برعب شديد.. أصيب بالرعب الذي حدّث النبي ﷺ جنده عنه، فقال «**نصرت بالرعب**، فيرعب العدو، وهو مني مسيرة شهر»، وإلا فما الذي يدعو دولة الروم التي تجاوز عمرها الألف عام، والتي تتمدد على ثلاث قارات للعدوان على دولة إسلامية ناشئة فقيرة مسالمة.. لم تبلغ الثامنة من عمرها؟ ما الذي يدعو قيصر لغزوها في مؤتة، ثم في تبوك؟ لا مبرر سوى الرعب الذي يعيشه أعداء الإسلام دون مبرر؛ لذا التفت القيصر للحشود الدَّهِشَة، فنادى: «مَنْ صاحب الكتاب، فهو آمن؟».

سكت الجمهور، وتلفتوا ونظر بعضهم إلى بعض، وبدأت الهمهمات ترتفع

والضجيج، وفجأة شق الجندي المسلم الجموع حتى خرج منها، ثم مشى على البساط حتى وقف أمام القيصر الذي تأمله، وتأمل هيئته المتواضعة بإعجاب، وقال له: «إذا أنا قدمت، فأتِني» عاد الجندي المسلم من حيث أتى وسط حيرة الجمهور.. وبين نظراتهم المتسعة التي لاحقته حتى ركب راحلته.

وبعد أن خرج القيصر من بيت المقدس سأل الجندي عن قصر قيصر، فأخبروه، وسأل عن وقت وجوده، فأخبروه، وفي الوقت المحدد كان الجندي ينيخ بعيره قرب القصر، وينزل عنه، ثم يستأذن للدخول.. كان القيصر يتحرق للقائه، فأذن له على الفور، ولما دخل الجندي البلاط رأى الأساقفة والوزراء وكبار الشخصيات بلباسهم الفاخر، ورأى الحرس قد اصطف بشكل مهيب وهم مدججون بالسلاح.

مشى الجندي بلباسه المتواضع مجردًا من سلاحه، لكن له هيبة يكاد القصر يتصدع منها، وما إن رآه القيصر حتى صاح بجنده آمرًا بإغلاق أبواب القصر.. بدأت الهمهمات: من هذا العربي الفقير الذي من أجله تغلق أبواب قصر أعظم إمبراطور في العالم؟ استغرب الحاضرون من وزراء وقساوسة ورجال دين وكبار شخصيات. سمع من في القصر صفق الأبواب الضخمة، وردّد رخام القصر صداها، ثم خيم صمت مخيف.. ما الداعي للإغلاق: أخوفًا أن يهرب هذا الجندي المسلم الذي لا يجد جيشه ما يكفيهم من الطعام؟ ارتجف الحاضرون، وهم ينتظرون ملكهم يتأهب للحديث.. صاح منادي القيصر صيحة دوّت لها جدران القصر ورخامه، وصدعت قلوب رجال الدين حتى فقدوا صوابهم.. صاح المنادي: «ألا إن قيصر قد اتبع محمدًا، وترك النصرانية» اهتز القصر مجددًا وعلا الضجيج واللغط، واختلط الحاضرون ببعضهم، وتحرك كبير الأساقفة نحو كبار قادة الجيش، وتشاوروا، وفجأة تحرك الحرس ليطوقوا القصر من الخارج، بينما القساوسة والوزراء وكبار العسكر يطوقون الإمبراطور من الداخل.

انقلاب بسبب رسالة محمد

أصبح مصير القيصر مجهولًا، ومصير الصحابي مخيفًا.. عندها التفت القيصر بهدوء لصاحب رسول الله ﷺ فقال له: «قد ترى.. إني خائف على مملكتي»، ثم استدعى المنادي مرة أخرى، وهمس به، فرفع المنادي عقيرته يصيح بأعلى صوته في القصر: «ألا إن قيصر قد رضي عنكم، وإنما خبركم، لينظر كيف صبركم على دينكم. فارجعوا» انقشع الحصار عن القيصر، وأنهى الجند حالة الطوارئ حول القصر، لكن القيصر مازال يعاني داخله حالة صراع بين غزوه لدولة الإسلام ورعبه منها.. موقنًا بأن المستقبل للإسلام شاء أم أبى؛ لذا توجه لمبعوث النبي ﷺ وحمله رسالة مجاملة، ثم طلب من أحد المسؤولين إحضار كمية من دنانير الذهب، فأحضرها، وسلمها للجندي المسلم، الذي حملها على راحلته وركب مغادرًا أرض بيت المقدس جنوبًا نحو تبوك، ولما وصل سلم الرسالة والهدية، فسلم القائد ﷺ الرسالة للمترجم، ففتحها وقرأها، فإذا القيصر يقول فيها: «إني مسلم» ابتهج الصحابة لسماع الخبر، لكن النبي ﷺ صدمهم حين قال: «**كذب عدو الله ليس بمسلم وهو على النصرانية**» فقيصر يعرف صدق النبي ﷺ، ومع ذلك أعد لغزوه مرتين، ما يعني أن الزعامة من أكبر العوائق عن قبول الحق.

قسم القائد ﷺ الذهب على شعبه، ولم يأخذ لنفسه شيئًا، وظل وجيشه على أرض تبوك أيامًا، وفي أحد تلك الأيام أقبل موكب ملك أقل شأنًا.. أقبل موكب ملك مدينة على ساحل البحر الأحمر تدعى إيلة، ولما وصل رحب به ﷺ، فأعلن الملك انضواءه للدولة الإسلامية، وقدم للنبي ﷺ بغلة بيضاء هدية، فكساه رسول الله بردًا وكتب له ببحرهم، أي أبقاه ملكًا على أيلة، ثم بعث سرية شرق تبوك إلى مدينة دومة الجندل، وأوكل قيادة هذه السرية للفارس (خالد بن الوليد)، وريثما يعود خالد من مهمته حوّل النبي ﷺ المكان إلى مدرسة يتعلم منها الجنود الجدد أقام ﷺ بتبوك عشرين يومًا، وفي إحدى تلك الليالي قام يصلي، وقام خلفه رجال يحرسونه، ولما انتهى من صلاته التفت إليهم، ثم قال: «**لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي: أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى**

قومه. ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منه رعبًا. وأُحلّت لي الغنائم آكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها. وجعلت لي الأرض مساجد وطهورًا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يُعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم» وعندما نطق بالخامسة نطق رحمة بهذه الأمة.

الشفاعة في تبوك

كانت البشرى الخامسة على أرض تبوك رحمة بهذه الأمة وبعصاتها، الذين لو يعلمون رحمته بهم لاحتل قلوبهم، ففي تلك الليلة قيل للنبي ﷺ: «**سل، فإن كل نبي قد سأل**» وعندما أراد أن يسأل ربه، كما سأل غيره من الأنبياء.. شعر بأمته تتجول بين حناياه، فأشفق عليها وحدب على عصاتها، فقال: «**أخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم، ولمن شهد أن لا إله إلا الله**» وقال: «**اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**» وقد أعطى الله للنبي ﷺ أربع شفاعات يوم القيامة: الأولى: هي الكبرى حين تموج البشرية فزعًا ويقبل بعضهم إلى بعض يريدون خلاصًا لهذا الموقف الرهيب، فيعجّون لأبيهم آدم، فيقولون: اشفع لذريتك فيعتذر، ويوصيهم بإبراهيم فيعتذر، ويوصيهم بموسى فيعتذر، ويوصيهم بعيسى فيعتذر، ويقول: «**لست لها ولكن عليكم بمحمد ﷺ**» فيقبلون على الرحمة المهداة، فيقول: «**أنا لها**».. في أيام تبوك الهادئة كان الصحابة ينصتون بشغف لتلك الهبات الإلهية، وكان نبيهم وقائدهم ﷺ يواصل تعليمهم وتثقيفهم وتبشيرهم. وفي إحدى ساعات السحر كان ﷺ يجلس داخل خيمته الجلدية الصغيرة، وإذ بخطوات جندي من جنوده يدعى عوف بن مالك تتجه نحوه. سلم عوف، فردّ ﷺ السلام، فاستأذن عوف قائلًا: «أأدخل يا رسول الله؟ فقال: **ادخل**. فقال: كلّي؟ فقال: **كلّك**» وبعد أن جلس عوف أخبره ﷺ بأمور غيبية ستحدث مستقبلًا، فقال: «**اعدُدْ ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس،**

ثم مُوْتانٌ يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مئة دينار، فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا» كلمات معجزة، فالحديث عن فتح بيت المقدس يعدّ من المستحيلات لو قاله غيره. تواصلت دروس تبوك حتى تناولت النظافة.

النظافة في الإسلام ليست من الإيمان، بل هي نصف الإيمان، حيث قال ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**» وفي تبوك كان القائد ﷺ يلبس جبّة شامية، أوما يسمى اليوم المعطف، وأهل الشام آنذاك نصارى، وكأنه يشير إلى أن ملابس الشعوب ليس فيها تشبه بالكفار، ولا سيما وملابس الصحابة هي ملابس المشركين قبلهم، كالرداء والإزار والعمامة والقميص وغيرها، وهذا يعني أن الملابس التي فيها تشبه ليست ملابس الشعوب، بل ملابس رجال الدين، أو التي تحمل شارات دينية، فما الدرس الذي رافق لبسه ﷺ للجبة الشامية؟

شجار بين الصحابة

على أرض تبوك كان المغيرة بن شعبة يصب على النبي ﷺ، فضاقت أكمام جبة النبي عندما أراد غسل ذراعيه، فأخرج يده من أسفلها، وغسلها، لكنه بعد ذلك لم يمسح رأسه كله.. رآه المغيرة يكتفي بالمسح على ناصيته وعلى العمامة. والناصية هي مقدمة الرأس وبداية الشعر، وعندما جاء دور غسل الرجلين انحنى المغيرة لينزع خفي نبيه، فقال ﷺ: «**دعْهما، فإني أدخلتهما طاهرتين، فمسح عليهما**» وقد سمعه عوف بن مالك يبين لأمته مدة المسح، فقال: «أمر ﷺ بالمسح على الخفين في غزوة تبوك ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويومًا وليلة للمقيم»، وبعد درس النظافة هذا.. تهادى القائد ﷺ والمغيرة لأداء صلاة الفجر، ويبدو أنهما تأخرا، ولما وصلا وجدا أن الصحابة قد قدموا عبدالرحمن بن عوف، فصلى لهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين، فصلى مع الناس الركعة الآخرة، فلما سلم عبدالرحمن قام

رسـول الله ﷺ يتمّ صلاته. التفت الصحابة لنبيهـم ﷺ وهو قائم يصلي، فأفزع ذلك المسـلمين، فأكثروا التسـبيح. فلما سـلم أقبل عليهـم، وطمأنهم قائلًا: «**أحسـنتم**»، أوقال: «**قد أصبتم**» لم يسـتفد الصحابة من دروس العبادة فقط.. كان هناك دروس أخـرى، ففـي النهـار حدث سـوء تفاهم بـين جنديين ثم شـجار أدى إلى التشـابك بالأيدي، لكن أحدهما اسـتخدم أسـنانه، فعضّ صاحبه عضـة مؤلمة جعلت الآخر ينتـزع يـده بقوة، وينتزع معها ثنية العاضّ، فسـال دم العـاضّ، فأقبل نحو قائده ﷺ حتى وقفه أمامه، وبعد أن قص عليه ما حدث بأمانة طالب بتعويض أو عقاب، فلما انتهى من مرافعته سـكت، منتظرًا حكم النبـي القاضي ﷺ. نطق القاضي ﷺ فحكم بإهدار ثنية العاض، ولم يحكم له بتعويض مادي؛ لأنه هو المعتدي وقال ﷺ: «**أيدفع يـده إليـك، فتقضمها، كـما يقضم الفحل؟**» فتعلـم الصحابة أن خسـائر المعتدي لا تعوض، فهو السبب فيها، لا خصمه.

أقام ﷺ بتبوك عشرين يومًا عدا أيام المسير والتوقف، وهذا يعني قرابة الشهر.. يجمع الصلاة ويقصر، وأخيرًا خطب ﷺ بجنده آمرًا بالتأهب للعودة.. خطبة سمعها أبوهريـرة، فقـال: قام فينا ﷺ يوم تبوك، فحمد الله تعـالى، وأثنى عليه، ثم قال: «**إن الله أذن لكـم بهـذا المسـير، وقد أذن لكم بالرجـوع، والذي نفس محمـد بيده لو لا أنه ليس عندي سـعة فأعطيكم، ولا تطيب أنفسـكم أن تقعدوا خلفي، ما قعدت خلف سريـة ولا بعث من المسـلمين، فلوددت أني أقتل في سـبيل الله، ثـم أحيا ثم أقتل، ثم أحيـا بعدهـا مرارًا، جرح الرجل جرحًا في سـبيل الله والله أعلم بمن يجرح في سـبيله يأتي يوم القيامة كلون الدم وريح المسك**» طوى الجيش خيامه، لكن المنافقين عجزوا عن طي حقدهم.

العودة من تبوك

تأهب الجيش للعودة للمدينة.. طووا خيامهم، وحملوا قدورهم وفرشـهم، ثم ركبوا، وانطلقوا فاحترقت قلوب المنافقين وهم يرون الجيش يعود سالمًا بلغت هيبته

الـروم حتى أعلن قيصر إسـلامه خوفًـا.. ودّع الجيش أرض تبـوك، ودّعوا الدروس والمعجـزات، وفي طريـق العودة لمـح معاذ بن جبـل نبيه ﷺ فوجدها فرصـة ليقدم له استفسارًا يلح على مشاعره، فدنا منه وقال: «يا رسول الله، أنبئني بعمل يدخلني الجنة ويباعـدني من النار؟ قال: **لقد سـألت عن عظيم، وإنه ليسـير على مـن يسّره الله عليه: تعبـد الله ولا تشرك به شـيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الـزكاة المفروضة، وتصوم رمضـان ثم زاده** ﷺ، فقال: «**وإن شـئت أنبأتك بأبواب الجنة؟** قلت: أجل، يا رسـول الله. قـال: **الصـوم جنة، والصدقة تكفـر الخطيئة، وقيام الرجل في جـوف الليل يبتغي وجـه الله**» ثـم قـرأ هـذه الآيـة: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[السجدة: ١٦]، ثم قال ﷺ: «**وإن شئت أنبأتك برأس الأمـر وعمـوده وذروة سـنامه؟**» قال معاذ: «أجل، يا رسـول الله» فقال ﷺ «**أما رأس الأمر فالإسـلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سـنامه فالجهاد في سـبيل الله، وإن شـئت أنبأتك بملاك ذلك كله**» وفجأة رأى معاذ شـيئًا أقلقه.. رأى راكبين مسرعين نحـو القائـد ﷺ، فخشي أن يقطعا حديث نبيه الشـائق، فقال قبـل أن يصلا: «ما هو يـا رسـول الله؟» عندها رفـع ﷺ يده، ومد أصبعـه، وأهوى بها إلى فمه.. مشـيرًا إلى خطورة اللسان.

اسـتغرب معاذ أن يكون للكلام الذي يطير به الهواء كل هذا الوزن، فقال: «يا رسـول الله، وإنـا لنؤاخـذ بما نقول بألسـنتنا؟ فقال ﷺ: **ثكلتك أمـك ابن جبل، هل يُكـبُّ الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسـنتهم**» كان ﷺ يحدث معاذ عن خطورة اللسـان، وكأنه يستشعر تلك الأفاعي التي يخفيها المنافقون داخل أفواههم، وفجـأة رأى معـاذ تلـك الأفاعي على الأرض تنهـش الدعاة المجاهديـن عن دينهم ودولتهم. ففي إحدى الخيام.. حاول أحدهم أن يستظرف نفسه بالتطاول على دولة الإسـلام ومؤسسـيها وجندها.. اسـتظرف نفسـه قال: «ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغـب بطونًـا، ولا أكذب ألسـنًا، ولا أجبن عنـد اللقاء». انتفض أحـد الجند غيرة عـلى إخوتـه الدعاة، فصـاح بوجه هـذا الحاقد: «كذبـت، ولكنك منافـق. لأخبرن رسـول الله ﷺ»، ثـم انطلـق ليخـبره ﷺ. اتسـعت عينـا المنافـق.. أصيـب بالرعب

لانكشافه، فركض خلفه علّه يسبقه إلى القائد ﷺ، ولما أدرك ناقته هتف به.. ناشده.. تعلق بناقته، بينما كان النبي لا يرد عليه، بل يردد: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة: ٦٥ - ٦٦].

كيف تعرف المنافق؟

المنافق مخلوق وضيع.. يدعي الإسلام، ويصر على أنه مسلم، بينما ليس في مقالاته أي إشارة لأي شيء جميل في الإسلام.. مقالات المنافق تطفح بالحقد عليه، لكنه جبان لا يطعن في الإسلام مباشرة؛ لذا يتجه لدعاة الإسلام والمبشرين به، وفنه الوحيد الذي يجيده هو تصيد أخطاء الدعاة وزلاتهم والتشفي بعثراتهم، وقلب كل جميل إلى قبيح.. فكرم الدعاة في نظره خبث واحتيال، وشجاعتهم تهور.. المنافق كالذباب الذي يطن حول قصر رائع أخاذ، فلا تهمه روعته ولا حدائقه ولا زهوره، ولا العطور التي تفوح منه.. ما يهمه هو القمامة. المنافق أحط بمراحل من الكافر الصريح، ففي الكفار منصفون، وفي الكفار عادلون، وفي الكفار أهل شهامة ونخوة ووطنية، أما المنافق ففي السلم هماز لماز، وفي الحرب جيب للعدو، وفي غزوة تبوك شارك مجموعة من هذه المخلوقات القمامة، ومن بينهم هذا الذي وصف المجاهدين العائدين من تبوك بالكذب، وهم أصدق أهل الأرض، وبالنهم على الرغم من جوعهم وتركهم لفاكهة طيبة، وبالجبن وهم الذين خرجوا للتصدي لأعظم جيش على الأرض.

علم القائد ﷺ بتلك المقالة الحاقدة، فلم يقل شيئًا.. همّشها، لكن القرآن نزل يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[التوبة: ٦٥]. لحق المنافق بالنبي ﷺ يريد تكذيب الصحابي. يركض خلف ناقته. يتعلق بالحبل المشدود على بطنها، وحجارة الطريق تضرب قدميه، وقدماه تثيران الغبار.. رآه ابن عمر، فقال: «أنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب». لم يرد النبي على الحاقد، ظل يردد قول ربه: ﴿أَبِٱللَّهِ

وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦]. انهار المنافق، فترك الحبل، لكن العيون لم تتركه.. ظلت تطارده. تمقت وقاحته وافتراءه عليها، وعلى الرغم من جريمته لم تمسه يد.. لم يضرب.. لم يشتم.. تركه القائد لفشله يأكله، فلم يُبعث ﷺ ليكمم الأفواه، وقد صبر على ما هو أشد في مكة؛ لذا تركهم يجترّون الفشل، فهم عنوانه في كل زمان ومكان. ما خططوا إلا فشلوا، وما قادوا إلا دمروا، وما تحدثوا إلا فرقوا.

واصل الجيش الإسلامي مسيره نحو المدينة، وفي الطريق مر بوادي القرى، فمر القائد ﷺ بتلك المرأة الغنية، فحياها، وسألها: «**كم جاءت حديقتك؟** قالت: عشرة أوسق». وهو العدد الذي توقعه ﷺ، وبعد ذلك أخذ زكاتها ليوزعها على فقراء شعبه ومساكينه، ثم خاطب جيشه، فقال: «**إني متعجل إلى المدينة، فمن أراد منكم أن يتعجل معي فليتعجل**» لكن يبدو أن للمنافقين رأيًا آخر.

كلمة من القائد تجمع شمل الشعب

كان النبي القائد ﷺ يريد التعجل للمدينة، لكن يبدو أن أفرادًا من الجيش لا يريدون أن يصل إليها.. المنافقون يفركون غباءهم علّهم يجدون فرصة أخرى لزرع الفتنة، وإيجاد حرب أهلية داخل دولة الإسلام، فهم يرون في عدلها موت فسادهم، وفي وحدتها نهاية عمالتهم.. احترقوا وهم يرون إمبراطورية الروم تهاب دولة الإسلام التي لم تبلغ العاشرة من عمرها، بينما عجزت الجاهلية عن وقف السلب والنهب والتشتت والثأر والوأد آلاف السنوات. الشيء الوحيد الذي نجحت فيه الجاهلية هو جعل أهلها في مؤخرة الأمم، والمنافقون على استعداد لاستعادة الجاهلية والتخلف، بل وسفك الدماء وتمزيق الأوطان والتحريض عليه إن حكمه الإسلام.

وها هي الفرصة يحملها الشيطان لهم على طبق من فتنة، حين توقف القائد ﷺ بجيشه للاستراحة، فانتشر الجند وفي أثناء انتشارهم اقترب غلام مهاجري لعّاب..

اقـترب مـن غلام أنصاري فكسـعه.. أي ضربه برجله أو يده مـن قفاه، فلم يتحمل الأنصاري هذا المزاح الثقيل، وغضب غضبًا شـديدًا، فتلاحيا، ثم اشـتبك الأخوان اشـتباكًا غاب معه التعقل، والصحابة بشر يعتريهم مـا يعتري غيرهم من الانفعال. هتف الأنصاري: يا للأنصار. فهتف اللعّاب، وقد تورط، وقال: يا للمهاجرين.

صرخـة أصابت أذن القائد ﷺ كالسـهم.. طعنته تلـك الاصطفافات الجاهلية البغيضة داخل دولة إسـلامية متحضرة، فنهض نحو شـعبه وجنده وأحبابه غاضبًا، وهتف بهم: «**ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية**» «**دعوها فإنها منتنة**»، فأقبل بعض الجند نحـو قائدهـم، وطمأنـوه، وقالوا: «لا، يارسـول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسـع أحدهما الآخر». هنا اطمأن ﷺ، ثم ارتقى بسلوك شعبه عن تكرار ذلك، وأضاء لهم فن التعامل مع الخصمين، فقال: «**لا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهَه، فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره**».

بهـذه القيـادة العادلة الحكيمة قتـل ﷺ العنصرية.. قتل الفتنـة، وأعاد الرجلين أخويـن، لكن عراب النفـاق وزعيم عصاباتـه وتلميذ اليهود (عبدالله ابن سـلول) لم تعجبـه تلك الحكمـة، ولا تلك العدالة، فقرر إنعاش الفتنـة مرة أخرى.... هتف محرضًـا الأنصـار، فقال: «فعلوها»، ثـم قرر إثارة حرب أهلية استماتَ لرؤيتها منذ قيام الدولة الإسـلامية.. منذ تسـلُّم النبي ﷺ الحكم، ولن يجـد فرصة كهذه، فالكل يتشح بالسيوف، وقد حان غرزها في صدور المسلمين.. هتف بمن حوله من المنافقين مقسمًا: «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

المنافقون يشعلون حربًا أهلية بين الشعب

بعـد أن أطفـأ القائد ﷺ جمرة الفتنـة الجاهلية التقطها ابن سـلول، لينفخ فيها.. لينفـث فيها من لهيب الحقد الذي يحرق أضلاعه، لعل وعسـى أن تثور حرب أهلية بين هؤلاء المدججين بالسـلاح.. لعل وعسـى أن تنهار دولة الإسلام، ويحقق حلمه

بطرد النبي ﷺ من المدينة، فتعود يثرب كما كانت.. يثرب الأصنام لا مدينة الإسلام. نبش المنافق أجداث الجاهلية، ووزع رفاتها بين رفاقه حين سمع بأمر المشاجرة بين المهاجري والأنصاري، فقال: «فعلوها؟»، ثم أطلق تهديدًا صريحًا لرأس الدولة بكلمة عجن فيها الردة بالخيانة.. كلمة انقلابية حلف فيها ابن سلول، فقال: «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل».

كان الفتى زيد بن أرقم ينصت للتهديد المسلح.. للتحريض الذي تصاعدت نبرته، حين أطلق رأس العصابة المنافقة تهديدًا آخر لرأس الدولة.. يأمر فيه أفراد عصابته بعدم التعامل الاقتصادي مع القائد ﷺ قائلًا: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[المنافقون: ٧].. صدم زيد، فلم يجرؤ على إيلام نبيه وقائده، فاتجه لعمه وأخبره، فغضب عمه، وانطلق مباشرة للنبي فأخبره، فطلب القائد ﷺ استدعاء ابن سلول وأصحابه، فأقبلوا كالحيات. سألهم القائد ﷺ عما ينسب لهم؟ فأخفوا أنيابهم، وأظهروا نعومة جلدهم، وأنكروا.. يقول زيد: «فحلفوا: ما قالوا، فصدقهم رسول الله، وكذبني».

انصرف الفتى حزينًا، وملأ قلبَه همٌّ لم يصب بمثله، ثم تعاظم همه حين رأى عمه يقبل نحوه غاضبًا منه.. يعاتبه ويلومه على إحراجه، ويقول: «ما أردت إلى أن كذبك النبي ﷺ ومقتك» تجاهل رأس الدولة ﷺ كلامه؛ لأنه لم يقدم أدلة أو شهودًا على ما يقول، وبرأ زعيم عصابة المنافقين.. صاحب السوابق والإفك.. برأه وهو يجزم بنفاقه؛ لأن الأصل في نظام دولة الإسلام: أن أي مواطن، أو إنسان يعيش فيها.. الأصل أنه بريء حتى تثبت التهمة عليه. فهي دولة راقية يحكمها النظام، لا العواطف.

ضاقت الأرض بزيد، وانطوى على أوجاعه، وأكمل مسيرًا ثقيلًا للمدينة، فقد عكر المنافقون عليه وعلى إخوته صفو جهادهم مع نبيهم ﷺ، وزاد همومهم ابتهاج المنافقين بتخلصهم من عواقب تلك الكلمات الانقلابية الخطيرة، لكن المنافقين لم يكتفوا.. أصيبوا بالسعار، فاجتمع أكثر من عشرة منهم في مكان منعزل، ثم راقبوا القائد ﷺ حتى رأوه يصعد مكانًا مرتفعًا ومعه رجلان. فتغامزوا، وتلثموا، وانطلقوا خلفه.



محاولة اغتيال القائد ﷺ

في طريق العودة من تبوك شعر المنافقون بأن دولة النبي ﷺ تتجه للعالمية؛ لذا فليس أمامهم سوى فرصة أخيرة قد تمكنهم من نسفها قبل ذلك، وفي إحدى محطات توقف الجيش.. تغامز أكثر من عشرة من المنافقين، ثم اتعدوا في مكان منعزل، وبعد قليل انسلوا إلى مكان منعزل، وهناك خططوا، وقرروا أن يكون التنفيذ في أثناء غروب الشمس.

انتهى أخطر اجتماع لحزب المنافقين، فخرجوا يدبون كالعقارب، واختلطوا بأفراد المعسكر. أمر القائد ﷺ بالتحرك في العصر، فسار الجيش مسافات والوقت يبرد شيئًا فشيئًا.. بدأت الشمس تطلي قمم الجبال بالذهب، بينما هي تنغمس في المغيب، وفجأة أشرف الجيش على أحد الأودية، وبدأ الظلام يطارد أشعة الشمس من قمم الجبال، فتوقف القائد ﷺ، وأمر جيشه الكبير بأن ينحدروا عبر الوادي مبررًا ذلك بقوله: إنه (أوسع لكم). أما هو ﷺ، فأراد أن يسلك طريقًا شاقًّا، لكنه مختصر عبر هضبة وعقبة مرتفعة.. حتى يتمكن من فوقها على الإشراف على سير جيشه، ثم هتف بعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وطلب منهما أن يسيرا معه مشيًا، فنزل الجنديان عن راحلتيهما، وسارا بجوار قائدهما.

سال الجيش في الوادي الفسيح، أما القائد ﷺ فاقتحم العقبة المرتفعة بناقته، فوجدها صعبة، فأمر عمار أن يمسك بزمام الناقة، وأمر حذيفة بأن يسوقها من الخلف. نفذ الجنديان ما طلب منهما، وفجأة ارتجفت قلوب العصابة، وبدأت روائحهم تفوح، حين لمحوا قائد الدولة ﷺ فوق الهضبة، فتغامزوا ثم تلثموا، ثم انفصلوا عن الجيش، وغادروا الوادي، والتفوا بسرعة نحو العقبة ليدركوا النبي ﷺ قبل أن يلتقي بجيشه. اقتحم المنافقون الملثمون العقبة بحماس حتى أصبحوا خلفه ﷺ، فتعالى رغاء إبلهم، فالتفت القائد ففوجئ بالملثمين يسرعون نحوه يهجمون عليه، وهو على حافة الهضبة، وقد بدأت الملامح تتلاشى.. دهمته العصابة تريد رمي النبي من فوق الجبل، فصاح ﷺ من شدة الغضب لهذه الخيانة آمرًا حذيفة

بـأن يردّهم. شـخص حذيفة ببـصره نحو نبيه، فـرأى الغضب، فانتـزع من راحلته عصـا غليظـة معقوفـة الرأس تسـمى المحجن، ثـم انعطف كالأسـد نحـو الخونة، فرفـع المحجن، ثم هـوى به على هامة أول بعير صادفه، فـإذ بالبعير يَكَعُ.. يعود من حيـث أتـى، فرفع حذيفة عصـاه الغليظة، ثم هـوى بها على وجه البعـير الذي يليه، فكـع كصاحبه، وظل حذيفة يضرب وجوه الإبـل، والرغاء والصراخ والغبار يعلو والارتباك يملأ العقبة، حتى ارتعد الملثمون وكأن الجن انفجرت عليهم من تجاويف الـوادي وصخوره، وأدركوا أن بقاءهـم على الهضبة يعنـي انفضاحهم، فانكسروا، وانحدروا بسرعة ليغرقوا في ظلام الوادي، وليذوبوا بين الجموع.

حذيفة يتسلم قائمة بأسماء الخونة

عاد حذيفة لقائده ﷺ بعد أن تمكن من صد أخطر هجوم على نبيه.. عاد وأنفاسه تعلـو وترتفـع، فإذ بنبيـه يأمره، ويقـول: «**اضرب الراحلة يا حذيفـة، وامشِ أنت يا عـمار**» نفذ الجنديان الأوامر، وأسرعوا حتى أصبحـوا بأعلاها، ثم تجاوزوا الهضبة، وانحـدروا نحـو مخرج الـوادي، وتوقفوا ينتظرون قـدوم الجيش الـذي مازال يعبر طريـق الـوادي الطويل.. كان الظلام خفيفًا، فالتفت ﷺ لحذيفة الشـجاع، وسـأله: «**هل عرفت يا حذيفة، من هؤلاء الرهط، أو أحدًا منهم؟** قال حذيفة: عرفت راحلة فـلان وفلان». ثم اعتذر حذيفة لعدم تمكنه مـن معرفتهم قائلًا: «كانت ظلمة الليل وغشـيتهم وهـم متلثمون» فخاطـب ﷺ صاحبيه، وسـألهم ليخبرهـم، فقال: «**هل علمتـم ما كان شـأن الركـب وما أرادوا؟** قالـوا: لا، والله يا رسـول الله. قال: **فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا أظلمت في العقبة طرحوني منها**».

خيانة عظمى، ومحاولة انقلابية عقوبتها الإعدام.. خيانة أججت غضب حذيفة وعـمار، فقـالا: «أفلا تأمر بهم يا رسـول الله، إذا جاءك النـاس، فتضرب أعناقهم؟» فكان جواب القائد ﷺ يحمل بعد نظر القائد الحليم الحكيم، الذي تهمه سمعة دولته ودعوتـه عـلى الرغم من أنه يحكـم الجزيرة العربيـة.. قال كلمة مسـتقبلية لكل قادة

أمته: «**أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمدًا قد وضع يده على أصحابه**»، ولذا تغاضى عن تلك الطوام؛ حتى لا ينفر الناس من الإسلام بحجة صرامته.. كان ﷺ في تعامله مع المنافقين ملهمًا خلاقًا ماهرًا.. لم يضيّع أوقاته بملاحقتهم والتجسس عليهم وتكميم أفواههم، بل صنع معجزة جعلت شعبه يكمم أفواههم قرفًا منهم.. جعلت الشعب عينًا للدولة على خونة الوطن والدين.. معجزة اسمها العدل. مرة أخرى يقدم ﷺ درسًا في السلوك السلطوي الإسلامي الرائع في تعامله مع الآخر، وتتضح سعة أفقه وحكمته في السيطرة على الأحداث الخطيرة، ثم تجاوزها بهدوء دون تعريض أمن الدولة والوطن للزعزعة.

على مخرج الوادي، وفي لحظات الانتظار المخيفة تلك سلم القائد ﷺ حذيفة وعمار قائمة بأسماء فلول المنافقين، ثم أمرهما بالكتمان، فقال: «**اكتماهم**» وقال لحذيفة: «**في أصحابي اثنا عشر منافقًا، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة**» وهي دمل كبيرة قاتلة، وبعد قليل التقى الجيش المظفر بقائده ﷺ كما تلتقي الروح بالجسد، ثم سار بهم نحو طيبة، ولما اقترب منها هش لها وتحرك قلبه شوقًا، فقال: «**إني مسرع، فمن شاء منكم فليسرع معي ومن شاء فليمكث**» ولما تراءت طيبة لعينيه تحدث عنها مذكرًا العالم بحبه وبمحبوبته وأشياءها، فقال: «**هذه طابة وهذا أحد وهو جبل يحبنا ونحبه**».

هنيئًا لكم بهذا الحب يا أهل طابة

أشرق أحد، وتمايلت نخيل طيبة، ولاحت البيوت للقلوب، فبشر ﷺ أهلها، وقال: «**ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: «**إن خير دور الأنصار دار بني النجار، ثم دار بني عبدالأشهل، ثم دار بني عبدالحارث بن الخزرج، ثم دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير**».. كان سعد بن عبادة سيد الخزرج بعيدًا، وعندما اقترب قال له ابن عمه أبوأسيد: «ألم تَرَ أن رسول الله ﷺ خَيَّرَ دُورَ الأنصار، فجعلنا آخرًا».

كان سعد يحب قومه جدًّا.. يريد لهم الصدارة في الخير، فلحق بنبيه، ولما أدركه سأله سؤالًا يبحث عن مواطن الصدارة، فقال: «يا رسول الله، خيرت دور الأنصار، فجعلتنا آخرًا؟ فقال: **أوليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار**»، ثم مدّ ﷺ يده إلى الأمام، ثم قبض أصابعه، ثم نشرها وكأنه يرمي شيئًا، وكأنه يشبه الأنصار بالشمس حين تنشر ضوءها، فقال: «**وفي كل دور الأنصار خير**»، ثم بشر رجالًا ونساء فاضت أعينهم ساعة الرحيل حزنًا ألا يجدوا رواحل تحملهم.. حزنًا ألا يجدوا ما لا ينفقونه في تجهيز المجاهدين، فقال: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: **وهم بالمدينة، حبسهم العذر**» لقد حصلوا على أجر الجهاد الذي يقول عنه ﷺ: «**مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله**».

دين لا يهمش الفقراء، وقائد لا يتعامل معهم بفوقية، وفقراء تجاهد نياتهم نيابة عنهم، لكن هناك بقايا المنافقين الذين انتهوا من إعداد وتزوير ملفات أعذارهم في التخاذل عن حماية وطنهم، وهناك المشتاقون لحبيبهم ﷺ، ومن بينهم عصافير طيبة.. أطفالها الذين هرولوا لاستقباله من مدخل المدينة جهة تبوك.. المدخل الذي يسمى (ثنيات الوداع).. ها هو أحدهم يقول: «خرجت مع الصبيان نتلقى النبي ﷺ مقدمه من تبوك» «خرج الناس يتلقونه، فخرج النساء والصبيان، فكنت فيمن تلقاه مع الصبيان حتى لقينا رسول الله ﷺ بثنية الوداع».. أحد هؤلاء الأطفال ابن الشهيد جعفر الطيار الذي يقول كان ﷺ «إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته، وإنه قدم من سفر، فسبق بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة، فأردفه خلفه، فأدخلنا المدينة ثلاثة على دابة» وبعد أن حيا القائد ﷺ المبتهجين بعودته من تبوك توجه كما هي سنته نحو المسجد، وكان ﷺ إذا قدم من سفر ضُحى دخل المسجد، فصلى ركعتين قبل أن يجلس. ثم جلس لاستقبال شعبه، وإذ بأكثر من ثمانين رجلًا من المخلفين يتوافدون على المسجد.. يعتذرون، وكان من بينهم رجل تلاحقه جواسيس الروم.

أقصى الفرح وأقصى الحزن في استقباله ﷺ

جلس القائد ﷺ في المسجد بعد وصوله من تبوك، فتوافد أكثر من ثمانين رجلًا من المتخلفين عن السفر «يعتذرون إليه، ويحلفون له، فقبل منهم ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله»، وفي لحظات الفرح بالمجاهدين.. دلف المسجد حزنان ثقيلان.. دخل صحابيان لا عذر لهما في التخلف سوى التسويف، والثقة الزائدة بالزمن الذي لا ينتظر مسوفًا.. رجلان اسم أحدهما مرارة ابن الربيع، والآخر اسمه هلال بن أمية.. سلما على نبيهما، فردّ السلام، ثم تهدج صوتهما بالحزن وهما يعترفان بتسويفهما وخطئهما.

أنصت ﷺ لكل منهما، لكنه قال لهما كلامًا يختلف عن البقية.. لقد صدقهما، ثم أضاف كلمة لكل منهما: «**قم حتى يقضي الله فيك**» بقي رجل واحد لم يأتِ.. رجل قد احتشدت في رأسه الحيرة والهموم، وعلى الرغم من أنه شاعر الكلمة والبيان الساحر، وبإمكانه أن ينمق عذرًا يخلب الألباب، إلا أن ضميره وخوفه من الله جعله يقول: «طفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟».. ضاقت به السبل قبل قدوم قائده، فاتجه لاستشارة كل ذي رأي من أهله، لكنه عندما قيل له: «إن قائده ﷺ قد أظل قادمًا زاح عنه الباطل، وعرف أنه لن يخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب»، فقرر أن يقول الصدق.. أن يعترف بالحقيقة.

تهادى الشاعر المجاهد كعب بن مالك نحو المسجد للسلام على نبيه.. يجرّ خطاه.. يلملم حطام قلبه.. تهادى يظلله الخجل ويقلّه، فسلم على قائده، فردّ النبي ﷺ السلام، ونظر إليه، وتبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعالَ. اقترب كعب حتى جلس بين يدي قائده، فقال ﷺ: «**ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**» فقال: «بلى، إني والله يا رسول الله، لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت، لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث

صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله. لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك».

كان ﷺ ينصت للندم.. للصدق يتفجر كالدموع، ثم قال «**أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك**» نهض كعب، وانصرف.. تلاحقه عيون أقاربه من بني سلمة.. مشفقين على حالته وحطام قلبه، فنهض بعضهم، ومشوا خلفه حتى أوقفوه، ولما أوقفوه أقنعوه بالعودة ليختلق عذرًا، وينتهي الأمر.

تهابه فارس والروم وتجرؤ عليه جارية

نهض الشاعر كعب بن مالك من عند نبيه ﷺ بعد أن أخبره بالحقيقة، ثم انصرف يحمل حزنًا كالجبال، لكن النبي ﷺ حمله كلمة أثقل، حين قال له: «**قم حتى يقضي الله فيك**».. انصرف كعب العظيم، الذي شهد بيعة العقبة، وشهد المعارك إلا بدرًا.. انصرف مهمومًا خجلًا، فتأثر لحزنه رجال من أقاربه بني سلمة كانوا في مجلس النبي ﷺ فانطلقوا خلفه علّهم يقنعونه باختلاق عذر كأعذار المنافقين والمتخلفين لينتهي الأمر.. أوقفوه.. حاصروه بنظراتهم وكلماتهم، وقالوا: «والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك».

ظلوا يؤنبونه حتى تضعضع، وقال في نفسه: «أردت أن أرجع، فأكذب نفسي»، وفجأة طرح عليهم سؤالًا: «هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك» فقال كعب: «من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي»، فقال كعب في نفسه وهو يقيّم الرجلين: «رجلان صالحان قد شهدا بدرًا»، وبعد أن سمع باسمهما قرر الثبات على صدقه، ففي هذين الصحابيين أسوة وقدوة، فترك قرابته، وواصل مسيره لبيته، أما القائد ﷺ فبعد أن انتهى من لقاء شعبه توجه نحو بيت فاطمة، فقد كان إذا قدم من

سفر، فأول ما يدخل عليه فاطمة وكان ﷺ «إذا دخل عليها قامت إليه، فأخذت بيده، فقبلته، وأجلسته في مجلسها.

مكث ﷺ مع ابنته وحفيديه، وزار زينب وأم كلثوم، ثم توجه إلى أحد أبياته، وبعد مدة أقبلت جارية سوداء من شعبه.. تنضح بالحماس والفرح بعودة نبيها وقرة عينها سليمًا معافًى.. استأذنت المواطنة الفقيرة، فأذن لها، فطلبت منه التعبير عن فرحها بأسلوبها الخاص، وقالت: «يا رسول الله، إني نذرت إن ردّك الله سالمًا أن أضرب على رأسك بالدف» لم تقل أن أضرب الدف فقط، بل اشترطت أن يكون الضرب فوق رأس قائد الدولة ونبي الأمة، فقال ﷺ: «إن نذرت فافعلي، وإلا فلا. قالت: إني كنت نذرت».

جلس محمد بن عبدالله ﷺ خير من وطئ الأرض.. جلس أتقى الناس وأخشى الناس لله.. جلس القائد الذي تهابه فارس والروم من أجل مواطنة فقيرة تريد تحقيق حلمها والتعبير عن حبها، فأمسكت بالدف، وبدأت تضرب، ولما انتهت لم تنصرف.. أخبرته ﷺ بنذر أشدّ.

دف في بيت النبي ﷺ!

جلس النبي التقي النقي ﷺ.. جلس القائد الذي تهابه فارس والروم على الأرض استجابة لأمة فقيرة من شعبه، فأمسكت بالدف، وبدأت تضرب فوق رأسه فدخل أبوبكر وهي تضرب، ثم دخل عمر. فصدمت وتوقفت عن الضرب خوفًا من الفاروق، وألقت الدف تحتها، وقعدت عليه. فقال ﷺ: «**إن الشيطان يخاف منك يا عمر**».

لم تكتفِ الجارية بالدف.. لم تنصرف، بل توجهت بسؤال لنبيها، فقالت: «إني نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا، وهو مكان كان يذبح فيه أهل الجاهلية» فسألها عن ذبح أهل الجاهلية هناك؟ هل كانوا يذبحون «لصنم؟ قالت: لا. قال: لوثن؟ قالت:

لا. قال: **أوفي بنذرك**» فالذبح عبادة، والعبادة إما أن تكون لله، أو تكون شركًا؛ لأن الله سبحانه يقول لنبيه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١ - ٢]، ولأن نذر الجارية كان كمن نذر أن يذبح كبشًا في مسلخ مشهور، أو يذبح في منتجع إن نجح أو رزق مولودًا فلا شيء فيه؛ لذا أقر الجارية على نذرها، فهو يقول: «**لا نذر في معصية الله**».

انتهى ذلك المشهد مع أطياف الشعب، ثم دخل القائد المظفر ﷺ بيته المتواضع، فلم يستنكف العيش فيه بعد أن دانت له الجزيرة تقريبًا.. حتى بعد أن بدأت وفود قبائل الجزيرة وأمراؤها يتوافدون يعلنون انضمامهم لدولة الإسلام دون إكراه.. دون تهديد، وبدأ ملوك العالم من حوله يهدون له هيبة وإجلالًا، فلم يتغير بعد كل هذه الانتصارات والنجاحات.. لم يأمر ببناء قصر ليري العالم أبهة دولته، ولم يلبس ذهبًا أو حريرًا.. ظلت ملابسه المتواضعة النظيفة هي هي.. عاد لحجراته المتواضعه، التي قد لا تتجاوز الواحدة عشرين مترًا، ولما دخل حجرة زوجته عائشة وجدها قد أجرت تغييرات على ديكور الحجرة.. زينت باب حجرتها بعباءة وغطت جزءًا من الجدار بستر من بلاد الأرمن، وكان في داخل الجدار كوة كالرف.. تضع فيه أغراضها، وقد أسدلت عليه ستارة صغيرة. دخل ﷺ فسلم وتأمل الجدار المكسو بالستر، فقال لحبيبته: «**ما لي يا عائشة، والدنيا**». ثم مد يده نحو الستر، فهتكه حتى وقع بالأرض. في أثناء ذلك هبت ريح، فتحركت ستارة الكوة، فكشفت ناحية الستر عن عرائس لعائشة، فقال: «**ما هذا يا عائشة**؟ قالت: بناتي» ثم جالت عيناه بين البنات، فرأى شيئًا غريبًا له أجنحة، فقال: «**فما هذا الذي أرى في وسطهن**؟ قالت: فرس. قال: **ما هذا الذي عليه**؟ قالت: جناحان. قال: **فرس له جناحان**؟ قالت: أو ما سمعت أن لسليمان بن داود خيلًا له أجنحة؟» فضحك ﷺ حتى بدت نواجذه. كانت عائشة حبه ودلاله، أما هو فكان سمعها وبصرها، حتى إنها فقدت شعورها ولسانها يومًا من شدة حبها وحميتها له.



كانت عائشة تتمتع بدلال هذا الزوج الرائع.. كانت تتلقى منه الذوق والمستوى الرفيع في التعامل حتى مع أعدائه، فذات مرة دخل عليه بعض حاخامات اليهود، فألقوا عليه تحية كالسم، وقالوا: «السام عليكم»، ففهمتها عائشة، فاستشاطت غضبًا، وقالت: «وعليكم السام واللعنة»، فهدأ ﷺ ثورتها وقال: «**مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»، فقالت: «يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: **قد قلت: وعليكم**» إذا كان هذا هو رفق القائد ﷺ بأعدائه الذين تآمروا ضده، وخانوه وحاولوا قتله وحاربوه، فكيف سيكون موقفه من ثلاثة رجال مؤمنين ينتظرون قضاء الله فيهم، وحكمه عليهم لتخلفهم عن غزوة تبوك، وهم الشاعر المجاهد كعب بن مالك وهو من أهل العقبة، واثنان من أبطال بدر هما: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية؟

كان الثلاثة في حالة قلق وتوجس.. لا يدرون ما ينتظرهم، ولا الحكم الذي سينزل فيهم، وفي لحظات القلق والخوف والانتظار.. أصدر القائد ﷺ أمرًا بعدم التحدث مع هؤلاء الثلاثة فقط، ولم يأبه بعشرات المتخلفين.

نزل الحكم عليهم كالصاعقة.. ذهلوا.. وساعة فساعة ضاقت عليهم الأرض وهم يرون الناس لا يكلمونهم، ولا يلقون عليهم حتى السلام.. أمسوا غرباء في شوارعهم.. في أحيائهم.. في مدينتهم وبين عشائرهم، بل في بيوتهم.. تتحاشاهم العيون، وتشيح عنهم الوجوه، وتحولت الأماكن حولهم صمتًا قاتلًا حيثما حلوا. لم تعد الدنيا كما كانت حتى إن كعبًا قال: «تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف» عجز الشيخان مرارة وهلال عن تحمل الصمم، وصد الأحبة، فبقيا في بيتيهما يبكيان بحرقة، ويسألان الله الفرج، أما كعب فكان أشب منهما.. ظل متشبثًا بالأمل.. يفتش عنه في الطرقات.. يتردد في الأسواق.. يخالط الناس، ويصلي معهم في مسجد النبي، فإذا ما انصرف ﷺ من صلاته وسلم، وجلس بين أصحابه يحدثهم ويحدثونه تحطم قلب كعب وهو لا يرى له مكانًا بين أحبته، ولا أنيسًا

يسـليه، ثم ينهض كالغريب فيمر عليهم ويسلم، فلا يسمع ردًّا، فيقول لنفسه: «هل حرك ﷺ شفتيه بردّ السلام علي أم لا؟».. مرت الأيام والأسابيع والغرباء الثلاثة في وحشـة قاتلة.. لا جيران يردون السـلام، ولا أقارب يزورون أو يزارون، ولا مارّة يكترثون.. شـهر وكعب بن مالك يتمنى لو سـمع أحدًا يناديه.. يكلمه.. يسأله عن حاله وحال رفيقيه الشـيخين.. شـهر من الحزن والبكاء، وكأن كعبًا في كوكب آخر لا يعـرف أحـد لغته، ولا يفهم أحد إشـاراته، وفجأة، وفي أحد الأيام يسـمع صوتًا يناديه، فلما أنصت له زادت همومه.

جواسيس الدول العظمى في المدينة

إذا حانت الصلاة مشـى كعب خلال الصمت والنظرات حتى يدخل المسجد، فيصـلي خلف نبيه ﷺ، ثم يسـلم، وينظـر إلى أحب الناس إليه علـه يبادله بنظرة، أو ابتسـامة، أو حتى إشـارة.. كان يسأل نفسه، ويقول: «آتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردّ السلام علي أم لا؟ ثـم أصـلي قريبًا منه، فأسـارقه النظر، فإذا أقبلـت على صلاتي أقبـل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني» وذات يوم قرر كعب أن يكسر هذا الصمت، فتوجه نحو حائط رجـل هـو أحب الناس إليه بعد رسـول الله.. توجـه لمزرعة ابن عمـه أبي قتادة، ولما وصل جدار الحائط تسـلقه، ثم انحدر من الجهة الأخرى إلى داخل الحائط.. مشـى بـين نخيلـه ومائه حتـى رأى ابن عمـه، الذي لمحـه فتجاهله، وشـعر بالإحراج من دخوله عليه، فتشاغل عنه حتى اقترب كعب منه: فقال له: «السلام عليكم».

تسـمر أبو قتـادة كالحزن، فلم يسـتطع الـرد عليه، فنظر إليه كعـب نظرة رجاء، وناشـده من قلب يحرقه الهجران، وقال: «يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟» ألجم الحزن أبا قتادة، وخنقته العبرة. فقال كعب: «يا أبا قتادة، أنشدك بـالله، هـل تعلمني أحبّ الله ورسـوله؟» ارتجف قلب ابن عمـه، وعجز عن الكلام والحركـة وهو يـرى حبيبه يتعلق بـه كالغريق. فكررها كعب مرة ثالثـة ورابعة، وإذ



بالدموع تفيض.. تتكلم نيابة عنه.. سـالت دموع أبي قتادة حتى عجز عن الصمت، ثم تهدج صوته، وهو يقول لكعب: «الله ورسوله أعلم».

شـعر كعب بأنه يؤلم حبيبه بإلحاحه، فانطوى على حزنه، ثم انثنى ومشى ثقيلًا، وخرج من الحائط، وقد اسـودت الدنيا في وجهه، وعاد لغربته السـوداء.. انتشرت أخبار المقاطعة حتى علم جواسـيس إحدى الـدول النصرانية المجاورة، ونقل الخبر لملكهـا، فظن أن الشـاعر ذائع الصيت مازال يتسـول بشـعره، ويمكن شراؤه كما في الجاهلية، فلم يجد أنسب من هذه الفرصة للطعن في النبي ﷺ وشراء المدائح. وذات يوم، وبينما كان كعب يمشي في سوق المدينة مهمومًا.. كأن الناس لا تراه ولا تسمعه، إذ بقافلة تجارية محملة بأطعمة شـامية يقودها نبطي من أنباط الشـام.. دخلت الإبل السـوق تتمايل، ويطاردها الناس بأعينهم، ثم توقفـت، وانحدر النبطي عن مطيته، وأناخ إبله، وبدأ بعرض سـلعته وأطعمته، فمشت مئات الخطوات نحوه، وامتدت الأيدي تقلب بضاعته، وبدأ السـوم والسؤال والعرض والطلب، لكن التاجر وقبل أن يبيع شيئًا هتف في زبائنه يسألهم سؤالًا أذهلهم عن القافلة، حين صاح: «من يدلّ على كعب بن مالك؟».

من يدلّ على كعب بن مالك؟

بدأ التاجر الشـامي بعرض بضاعته، وبدأت المسـاومة والبيع والشراء، وفجأة هتف التاجر النبطي في زبائنه يسألهم: «من يدلّ على كعب بن مالك؟» تلفت الزبائن حول البضاعة، فلمحوا كعبًا يسير حزينًا وحده، فمد بعضهم أيديهم نحوه، وأشاروا إليـه. ترك النبطي بضاعته دون وجل، فهو في عاصمة دولة الإسـلام.. حيث الأمن والأمـان الحقيقيـان.. حيـث خوف الله في نفـوس الناس، وصرامـة الدولة في تنفيذ النظـام عـلى أي مواطن مهما كان مركـزه أو قرابته، حتى لو كانـت فاطمة بنت قائد الدولة ﷺ. ترك التاجر النبطي بضاعته، وأطلق سـاقيه ليلحق بكعب. فوجئ كعب بمـن يناديه، ويكلمه أول مـرة.. التفت ونظر إليه، فاستغرب.. إنه رجل غريب لا

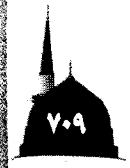
يعرفـه.. فـماذا يريد منه؟ توقف كعب، واقترب التاجر منـه، ولما أصبح أمامه أدخل التاجر يده في ثيابه، ثم أخرج منها شيئًا مطويًّا ومده إليه.

أخـذ كعـب المطوية، ثم توجـه وكله اسـتغراب إلى بيته.. لم يكـن في عجلة من أمـره، فلا أحد ينتظره، وقـد ألغت المقاطعة كل مواعيده.. فتـح كعب المطوية، فإذا قماش حريري فاخر داخلها.. قد كتبت عليه رسالة موجهة له. بدأ قراءتها، فإذا هي ممهـورة بختم أحد الملوك الذين تسـببوا في معاناته.. كانت رسـالة من ملك غسـان النـصراني العربي الحاقد على دولة الإسـلام.. ملك كان عميـلًا لإمبراطورية الروم، ويمثـل خطرًا على دولة الإسـلام حتى إن عمر كان يقول: «وكان من حول رسـول الله ﷺ قـد اسـتقام له، فلم يبقَ إلا ملك غسـان بالشـام، كنا نخـاف أن يأتينا» «وكنا تحدثنا أن غسـان تنعل النعـال لغزونا» أي تعدّ الحدوات لخيلها اسـتعدادًا للاعتداء على دولة الإسلام دون مبرر سوى العمالة للروم الصليبيين.

قرأ كعب رسـالة ملك غسـان، فإذا الملـك يعرض عليه منح اللجـوء قائلًا: «أما بعـد، فإنـه قد بلغنـي أن صاحبك قد جفـاك، ولم يجعلك الله بدار هـوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسِـك» كان الملك يريد توظيف هذا الكنز الإعلامي ضد دولة الإسـلام، لكـن رسـالته لم تحـرك ذرة في كيـان كعـب.. لم تضف لـه إلا مزيدًا من الهمـوم، فقال لنفسه: «وهذا أيضًا من البلاء» «قد بلغ بي ما قد وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك» نهض كعب على الرغم من ثقل همومه، وأخذ ذلك الحرير الفاخر، وتوجه إلى تنور يتقد لهبًا، فرمى قطعة الحرير بين ألسنة لهبه، فحفاوة ملك غسان وهداياه وحريره وكنوزه، وطبيعة بلاده الساحرة لا تعدل عند كعب ابتسامة واحدة من محمد ﷺ. ظل كعب ينتظر تلك الابتسامة أربعين يومًا ليفاجأ بخبر أبكاه، وأبكى زوجته.

كعب معزول عن العالم

مـر أربعـون يومًـا ليس لكعـب أنيس ولا عزاء بعـد الله إلا زوجتـه، وفي اليوم الأربعـين فوجئ برجل يناديه.. ارتجف قلبه، فهذه أول مرة يسـمع فيها من يناديه..



توجه نحو الباب، ففتحه منتظرًا خبرًا سعيدًا، وإذ بالرجل يصدمه، ويقول له: «إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك» أحبط كعب.. فقد كل شيء.. تقوض العالم فوق رأسه حتى قال من ذهوله: «أطلقها، أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها، ولا تقربها».

نادى كعب زوجته، ولما أقبلت نظر إلى حبيبته نظرة وداع وعيناه تفيضان، فأبكاها.. أخبرها بأمر نبيه ﷺ الذي لا يصدر أوامره من تلقاء نفسه، فهو لم يهتم لعشرات المتخلفين المنافقين، بينما أمر المدينة كلها أن تعتزل كعبًا ورفيقيه.. قال كعب لزوجته: «الحقي بأهلك فتكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر».

انطلقت الزوجة، وجمعت ثيابها، وودعت حبيبها، وغادرت البيت والحزن يقتلها، أما الرجل الذي حمل الأمر، فانطلق إلى بيت مرارة بن الربيع، ولما قابله قال له: «إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك» وتوجه كذلك للشيخ الذي أنهكه الحزن، وأذهله عن كل شيء هلال بن أمية، فأبلغه الأمر نفسه، فنادى هلال زوجته، وأخبرها، فذهلت لكنها لم تغادر بيتها.. تأملت دموع زوجها التي لم تتوقف منذ أربعين يومًا.. تأملت ضعف جسده وشيخوخته وحاجته لها، فلبست جلبابها وخمارها، وخرجت من البيت تبحث عن نبيها ﷺ حتى وجدته، فسلمت، ودخلت عليه، وعرفته بنفسها، ثم نطق حزنها وحدبها على زوجها، فقالت: «يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال ﷺ: **لا، ولكن لا يقربك.** قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان أمره ما كان إلى يومه هذا». عادت المرأة لتضميد جراح زوجها، وانتشر خبر هذه المرأة العظيمة، فعلم بالخبر بعض أقارب كعب، فوجدوها فرصة للحديث معه.. توجهوا نحوه فوجدوه وحيدًا في بيته لا يناجي سوى ربه.. قد بلغ به الحزن مسافات مهلكة، فأشاروا عليه، وقالوا: «لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه»، لكن كعبًا كان يدرك أنه في حالة امتحان وبلاء، وقد استعد لتحمل تبعاتها، فقال: «والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟» مرت خمسون ليلة من الحزن والغربة والوحشة القاتلة، وبعد أن انقضت الليلة الخمسون، وبدأ الفجر يتسلل.. يبدد بقايا

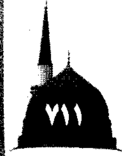
ظلامها كان كعب يصعد إلى سطح بيته، ثم يستقبل القبلة، ويصلى ركعتي الفجر، وإذ بصوت صادر من قمة جبل «يا كعب بن مالك أبشر».

يا كعب بن مالك، أبشر

بعد أن تلاشت الليلة الخمسون من سماء الحزن، وأشرق الفجر.. أشرق النبي ﷺ على الرجال والنساء في مسجده، فصلى بهم، ولما سلم أوحى الله له بشيء، فنهض يخاطب أصحابه وصحابياته الذين امتلأ بهم المسجد، وقال: «**إن الله قد تاب على الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع**».

انفجر المسجد بالتكبير والحمد والشكر، وانطلق رجال من باب المسجد نحو الثلاثة.. هناك من يركض، ومنهم من يركب فرحًا وابتهاجًا.. كان كعب بن مالك ساعتها وحيدًا كئيبًا على سطح منزله.. تحفه الجبال والنخيل وكأنها تخنقه، وكأن الأفق يموت بين عينيه.. صعد ليصلي ركعتي الفجر، وليجلس بين نسائم الفجر التي فقد لذة الإحساس بها وهو الشاعر المرهف.. يتأمل النخيل والجبال وخيوط الفجر تتسلل عن يساره، وإذ بأحد المبشرين يصعد جبلًا قريبًا من بيته يقال له: سلع، ولما علاه توقف، ثم رفع عقيرته، ودوى صوته بصرخة ملأت سماء المدينة، وسبقت الخيل.. صيحة أيقظت النائم، وأسعدت المستيقظ.. تهتز لها البيوت.. وتنصدع منها جدران الحزن: «يا كعب بن مالك، أبشر».

ذهل كعب.. تحير ماذا يفعل.. انهمرت الدموع، وارتعشت الأطراف، وخفق الفؤاد.. انفجر الفرح داخل أضلاعه، وأدرك أن الفرج قد جاء، وأن الله قد تاب عليه، فخرّ ساجدًا لله شاكرًا للواحد الأحد، وإذ به يسمع وقع حوافر فرس تدب على الأرض. أقبل المبشرون، وانطلقت الكلمات المحرومة، والمشاعر المكبوتة شلالات من الدموع والعناق، وعاد الأبناء والزوجات، وتحولت المدينة إلى ساحات فرح، وشعر المنافقون بالاختناق.. شعروا بوزنهم الضئيل وهم يرون



المدينة تحتفل بالصادقين، وانطلق كعب إلى أحد إخوته، فاستعار منه ثوبين، فأعاره، ثـم خلع ثوبيه، ولبسـهما. ولما لقي أخاه الذي بشره مـن فوق الجبل عانقه، ومد يديه بالثوبين هدية، ثم انطلق أسـعد رجل في العالم عبر الشـوارع والطرقات.. يخفق قلبه شـوقًا لنبيه ﷺ يريد الارتواء من قربه، لكن أشياء أعاقته عن المسير.. أفواج وأمواج تتدفـق.. تغمره في الطرقات.. تعانقـه.. تهتف له، وتقول: «لتهنك توبة الله عليك»، وبعد أن شـق مواكـب المهنئين أشرق مسـجد نبيه ﷺ أمام عينيه، فدخـل فإذ بقائده وحبيبـه ﷺ جالس حوله بعـض أصحابه، الذيـن تركوا لأخيهم فرصة الاسـتمتاع بأجمـل لحظـات حياته، إلا واحدًا عجز عن كبت فرحه.. هو طلحة بن عبيدالله، فقد فـز طلحة من شـوقه، وهـرول، وصافحه، وهنأه، حتى قال كعـب: «والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة».

الصدق يرفع كعبًا

دخل كعب المسـجد، وكأنه قد ولد من جديد.. توجه نحو نبيه وإخوته فسلم، فرد النبي السلام، واستقبل صاحبه بطريقتين: طريقة يراها وأخرى يسمعها.. يقول كعب: «قال ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمـك**. قلـت: أمن عنـدك يا رسـول الله، أم من عنـد الله؟ قال: **لا، بل مـن عند الله**، وكان ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر»، ثم جلس كعب بين يدي قائده، فعبر عن شـكره لله بكلمات عظيمة قائلًا: «يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله»، لكن النبي ﷺ قال: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك** فقال: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر».

ثم استرسـل ممتنًّا لله سـبحانه، فقال: «يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت»، ثم يذكر كعب أثر الصدق في حياته، فيقـول: «فوالله ما أعلم أحدًا من المسـلمين أبـلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسـول الله ﷺ أحسـن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسـول الله ﷺ

إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت» فلئن بلغ الموت في سبيل الله بصاحبه درجة الشهداء، فإن الصدق يبلغ بصاحبه درجة أعلى من الشهادة دون جهد أو دماء، حيث يقول الصادق ﷺ: «**ما يزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صدّيقًا**» وبعد تلك الأفراح تلا النبي ﷺ ما أنزله التواب الرحيم عليه من آيات، فقال: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١١٧ - ١١٨]، وبعد كعب أقبل الشيخان الجليلان: هلال ومرارة، فأعادت التوبة والصدق لهما الروح والأحبة.. صدق وصفه كعب، فقال: «فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ: ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾» [التوبة: ٩٥ - ٩٦]، انتهت أحزان الفرسان الثلاثة، وبقي حزن رابع.. بقي حزن زيد بن أرقم يدمي قلبه.

ابن سلول يتهاوى

كعب بن مالك ورفاقه معاناة لا تحتمل أكثر من شهرين.. كانت تصفية لإيمانهم، ولو مر مشرك بتلك الظروف لكان الانتحار أو الفرار أفضل خيار، لكنه الإيمان الذي يمنح المسلم قدرة على تجاوز الأزمات.. الإيمان الذي يقول ﷺ عن صاحبه: «**مثل المؤمن كالزرع، ومثل الكافر كشجر الأرز**» «**الزرع لا تزال الريح تميله، ولا**

يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز، لا تهتز حتى تستحصد»، لكن ماذا عن أحزان زيد بن أرقم، وهل سيحمله صدقه إلى عالم الهجران كما حمل كعب؟ ها هو في بيته لا يخرج منه خجلًا من صدقه، الذي حولته أيمان المنافقين الكاذبة إلى كاذب.. غارق في هوممه منذ أبلغ قائده ﷺ بتهديد ابن سلول لدولته، فأرسل ﷺ إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا: ما قالوا.

يقول زيد: «فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت. فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك».. ظل زيد في همّ وغمّ حتى جاء ذلك اليوم، الذي طرق بابه فيه شخص، فنهض زيد ليفتح الباب، ولما فتحه وجده أحد إخوته يخبره بأن النبي ﷺ يستدعيه.

خرج زيده على الفور من بيته، وتهادى مع أخيه والقلق يملأ رأسه.. لا يدري ما ينتظره من قيادته، فهو في نظر المنافقين محرض يشق الصف. أقبل على نبيه ﷺ، وبمجرد دخوله رأى ابتسامة أحب الناس إليه تشرق عليه.. تلاشت هواجسه، وانزاحت جبال الهموم عن كاهله ونبيه ﷺ يقول له مباشرة: «إن الله قد صدقك يا زيد»، ثم تلا على مسامعه وثيقة صدقه وانتصاره التي نزلت من السماء على فتى مخلص من فتيان الإسلام.. قرأ ﷺ عليه سورة المنافقين التي نزلت توًّا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١-٣]، لم يعد للنفاق أرض تقلّه، ولا سماء تظلّه.. طاشت ضربات ابن سلول الحقيرة والأخيرة، لكن هذه المرة ليست في الهواء، بل في صدره.. أمراضًا وكآبة وإحباطًا، وزاد من انهياره انهيار مسجد الضرار الذي بناه ورفاقه لمضارّة مسجد قباء.. بنوه ليكون مسجد مؤامرات يشتتون من خلاله الصف.. بدأ حقد ابن سلول يفتك به كالسرطان.. عرّته سورة المنافقين، وفضحته الفاضحة (سورة التوبة)، التي لا يكره المنافقون على مدار التاريخ سورة مثلها.. تحول ابن سلول إلى خرائب وأطلال، لكن ما موقف دولة الإسلام من تهديدات حزبه لها؟

ابن سلول مشروع انقلابي

نزلت سورة المنافقين على النبي ﷺ موثقة أقوالًا خطيرة لبعض المواطنين الخونة كابن سلول وأتباعه، ومقدمة أدلة دامغة على تورطهم في التخطيط لإسقاط الدولة. كل ذلك وثّقه القرآن في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون: ٧ - ٨].

هذا التحريض على محاصرة النبي وقائد الدولة ﷺ، وعزله وعدم التعاون معه، والتهديد بإخراجه وطرده وطرد نصف المواطنين من عاصمة الإسلام لمجرد أنهم دعاة، ووصف خير البشر ورفاقه المناضلين بأنهم الأذل، بل والشروع في قتله.. تهم تتجاوز حد الخيانة العظمى، وهي جرائم تدحض أيمان المنافقين المغلظة، فما الإجراء الذي اتخذه قائد الدولة ﷺ ودولته الآن هي الأقوى.. تهابها فارس والروم، ما الإجراء الذي سيتم في حق حزب ضعيف متهالك وجبان يعيش أيام انهياره.. هل سيجهز عليه ﷺ بالإعدامات والتصفية الجسدية، ولاسيما أنه من المعتاد في مثل هذه الحالة أن يقوم الزعماء بسحق من يرتكب عشر ما ارتكبه هؤلاء الخونة؟ الإجابة كانت أرقى، فالذي يقود قائد ونبي ليس متعطشًا للدماء ولا للانتقام، وإلا لسالت وِديان مكة من دماء طواغيتها.. اتخذ القائد ﷺ موقفًا حضاريًّا لا تطاوله قيادة قبله ولا بعده.. لم يحرك جنوده لاعتقالهم والتنكيل بهم.. لم يبنِ لهم سجنًا.. لم يهددهم.. لم يوبخهم.. لم يتفوه حتى بعتاب لهم، بل قدم درسًا لكل متطرف.

سل سيفًا لا يفلّ.. سلّ سيف العفو فقتلهم به، ثم ترك مهمة دفنهم لتلك المشاهد المبهرة التي بدأ عرضها على أرض طيبة.. مشاهد الجموع الهائلة والوفود من أمراء القبائل، التي سالت تتدافع كالأمواج نحو العاصمة (المدينة) تعلن انضمامها لدولة الإسلام.. كان كل وفد رمحًا في كبد ابن سلول حتى تفتت كبده..

تحول إلى أنقاض حقد.. قتلته ثقافة الكراهية والحسد، وكأن كل زعيم حط بالمدينة جاء ليقتله، وكأن كل يد تصافح محمدًا ﷺ تخنقه، وكان أشد ما يخنقه مشهد زعماء كان بالأمس يتمنى منادمتهم والجلوس في مجالسهم، فغدوا تابعين لمحمد ﷺ، ومن بين هؤلاء ملك دومة الجندل واسمه أكيدر، وقد جاء يعلن الولاء لدولة الإسلام.. لم يخض حربًا بالوكالة عن فارس تجاه دولة الإسلام، بل تهادى موكبه مع خالد بن الوليد محملًا بهدايا فاخرة هدمت ما تبقى من ابن سلول.

أكيدر يدخل في اتحاد مع دولة الإسلام

بعد تبوك فوجئت عاصمة دولة الإسلام بموكب فخم بصحبة الفارس خالد ابن الوليد.. كان موكب ملك مملكة دومة الجندل.. دخل موكبه شوارع المدينة.. أدهشه مشهد التواضع.. أدهشته النظافة والسكينة والأخوة التي تجوب تلك الشوارع. واصل طريقه نحو القائد ﷺ حتى أوقفه خالد أمامه، ولما وصل، ورآه كانت دهشته بلا حدود.. كانت دهشته أكثر من دهشة ذلك الأعرابي الوثني الذي أدخل بعيره في المسجد، ثم أناخه على الأرض، ثم انحدر عنه، وربطه بأحد أعمدته، ثم وقف، وتلفت يبحث عن عرش.. عن حرس.. عن أساور من ذهب وأردية من حرير.. تلفت الأعرابي، فعجز عن تمييز قائد الدولة عن أفراد شعبه، فصاح في المسجد صيحة لم تقل لقائد قبله ولا بعده: (أيكم محمد؟) كلهم محمد ﷺ، ورضي عنهم.. لقد تماهى بهم وتماهوا به، وأبحر في مشاعرهم، فأبحروا في مشاعره.. لم يستطع الأعرابي التمييز حتى رفع بعضهم يده مشيرًا، ثم قال له: إن محمدًا هو (هذا الرجل الأبيض المتكئ).

وقف ملك دومة الجندل مذهولًا أمام أعظم قادة الدنيا وأنبيائها، فقال: «يا رسول الله، بلغني أن خيلك انطلقت، وإني خفت على أرضي ومالي، فاكتب لي كتابًا لا تعرض له، ولا لشيء هو لي، فإني مقر بالحق الذي هو عليّ».

أملى القائد ﷺ على كاتبه كتابًا، وهذا الكتاب يعني أن الرجل كان ضمن حلف شارك في الاعتداء على دولة الإسلام، وهو الآن يتنصل منه، ويريد التوقيع على شكل من أشكال الاتحاد السياسي بين دولة الإسلام ومملكة دومة الجندل.. تمثل فيه دولة الإسلام دور الحامي بمقابل، مع احتفاظ ملك دومة الجندل بحكمه.

مارس القائد ﷺ مرونة سياسية بتوقيع تلك الشراكة، وهي امتداد للمرونة التي مارسها ﷺ في وثيقة الحديبية، فابتهج أكيدر بهذه الوثيقة مع هذا القائد الذي أبهر العالم كله قبل أشهر بفتح مكة.. ليس من أجل توسيع رقعة دولته، ولا انتقامًا من طغاة قريش، بل نصرة لقبيلة وثنية، وتنفيذًا لاتفاقية دفاع مشترك معها، وبعد الاتفاق طلب (أكيدر) ممن معه إخراج الهدايا، ومن بينها لباس من الحرير يسمى قباء منسوجًا بالذهب مما كان كسرى يكسوهم، فقال: «يا رسول الله، اقبل عني هذا» مد القائد ﷺ يده، فتناول ذلك الحرير الفاخر.. المنسوج على شكل جبة، أو ما يسمى اليوم المعطف أو الجاكيت ولبسه، فانطلقت همهمات التعجب من جماله، ثم صعد ﷺ المنبر، ثم توقف، وصمت، ثم طال صمته. حدق الشعب في قائده ينتظرون كلماته بشغف، لكنه لم يتكلم بل جلس، وبعد أن جلس فاضت الذكريات والدموع.

حين بكى الرجال لرؤية الحرير

لبس القائد ﷺ معطف الحرير الذي أهداه إليه ملك دومة الجندل، ثم صعد المنبر، ولما أصبح في الدرجة الثالثة منه استدار نحوهم، ثم صمت، فازداد شوقهم لخطابه، لكنه ظل صامتًا، ثم جلس وسط حيرة أكيدر والشعب، ثم نهض ثانية، ونزل دون أن يتفوه بكلمة.. ترى أي ذكريات عصفت بقلبه حتى أعجزته عن الكلام؟.. هل خنقته عبرة ما، وفجأة خلع الحرير، ثم جعله بيده، ومدّه إلى شعبه، فاقترب الناس «امتدت الأيدي تتحسس نعومته، وتتعجب..» هنا انطلقت الكلمات، وفاضت الذكريات، وأشرقت الجنات حين قال ﷺ لشعبه: «**أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**» فاضت



الدموع على ذلك الشهيد الذي هدد طواغيت قريش في المطاف حين كانت دولة الإسلام وليدة لم تبلغ العام.. بكى الفتى أنس وهو يتذكر ابن معاذ، ويقول: «إن سعدًا كان أعظم الناس وأطوله، ثم بكى، فأكثر البكاء». أما القائد ﷺ فنادى أحد رجاله، وسلمه معطف الحرير، وأمره بإعطائه لعمر، فقال بعض الحضور مستغربين سرعة خلعه: «قد أوشكت ما نزعته يا رسول الله؟ قال: **نهاني عنه جبريل** عليه السلام».

انطلق الرجل، فأعطاه لعمر، وقصّ عليه ما جرى، فخفق قلبه، وفاضت عيناه، وأقبل خائفًا، ولما وصل قال: «يا رسول الله كرهت أمرًا، وأعطيتنيه؟ قال: **إني لم أعطِكه لتلبسه، إنما أعطيتكه تبيعه**»، سافر أكيدر ثم بعث هدية ثانية، وهي قطعة قماش من حرير، فاستدعى ﷺ عليًا، ثم قال له: «**شقّقه خُمُرًا بين الفواطم**» والفواطم هن: فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت أسد (أم علي)، وفاطمة بنت حمزة بن عبدالمطلب. فرحت الفواطم بهدية قائد الدولة وبالحرير الفاخر، لكن مهلًا. لماذا قال المصطفى: شقّقه بين الفواطم.. أين زينب؟.. أين أم كلثوم؟ لماذا لم يذكرهما ﷺ؟ لماذا لم ينلهما شيء من هذا الحرير المدهش؟ سؤال يحدق بباب زينب.. ينتظر وينتظر، فلا يجد سوى الحزن إجابة.. لم تجب زينب، ولم تعد لبيتها، وعينا طفلتها الصغيرة أمامة تبحث عنها في المسجد.. في طرقات المدينة وعند الجيران، فلا تجدها. ماتت زينب، وتحدثت عن موتها امرأة عظيمة تدعى أم عطية. تلك المجاهدة والممرضة التي تقول: «غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى» ها هي أم عطية تبكي مع النساء حول جسد زينب. ومعهن والدها ﷺ تفيض عيناه، وهو يقول: «**اغسلنها وترًا**» «**ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها**» «**اغسلنها ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافورًا أو شيئًا من كافور، فإذا فرغتنّ فآذنني**» أي أخبرنني.

نبي يفقد أولاده ودولة تكسب أولادًا

بدأت النساء بتغسيل زينب الطاهرة المناضلة كما أوصاهن والدها ﷺ، ولما انتهين أخذن بجدل شعرها المبلل، حيث تقول أم عطية: «ومشطناها ثلاثة قرون» «فضفرنا شعرها ثلاثة أثلاث، قرنيها وناصيتها» انتهت النساء من الغسل، فأخبرن النبي ﷺ، فأحضر إزارًا له، ورماه لهن وقال: «**أشعرنها إياه**» أي أمرهن أن يجعلنه يلاصق جسدها مباشرة، ثم حملوها على الأعناق أمام حزن ابنتها الصغيرة أمامة، وزوجها أبي العاص بن الربيع، ثم صلى عليها والدها ﷺ والمؤمنون، ثم حملت إلى قبرها.

أدخلوها في اللحد، ونصبوا عليها اللبن، ثم أهالوا عليها التراب والدموع، وبعد ذلك أو قبله فجع والدها ﷺ بوفاة أختها أم كلثوم.. يشاهده أنس، وهو جالس على القبر وعيناه ﷺ تدمعان، ثم قال لأصحابه: «**هل فيكم من أحد لم يقارف الليلة؟**» فقال أبو طلحة: أنا. قال: «**فانزل في قبرها**». فنزل في قبرها، فقبرها. أمام نظرات عثمان الحزين ودموعه. فلم يدخل عثمان بن عفان القبر.

رحلت أم كلثوم وزينب في قافلة لا تمهل أحدًا، ولا تمنحه فرصة كي ينهي بقية أشغاله، أو يودع كل أحبته.. قافلة لم يعرف جدول رحلاتها التأجيل أو التأخر يومًا، وخلال ترداد قافلة الموت لم تَصْفُ الحياة لمحمد ﷺ، فها هو يدخل الستين ولم يتبقَّ له من أولاده سوى الزهراء، فأي قلب عاشت فيه فاطمة، وهي ترى أمها وشقيقاتها وصديقاتها يرحلن بين عينيها في سن الشباب؟، فلله ما أخذ ولله ما أعطى، لكن بين قوافل الحزن هناك قوافل للبهجة.. قوافل أقبلت من كل الجهات تعلن انضمامها للدولة دون تهديد.. دون غزو أو إكراه. بدأ أمراء القبائل العربية يتقاطرون من كل الجهات.. من الحجاز ونجد والبحرين والشمال والجنوب باختيارهم وكامل إرادتهم. تتلألأ المدينة بمشاهد لا توصف: عناق وابتسامات وتشهد.. اتسعت رقعة دولة الإسلام دون دماء.. تحولت عاصمتها إلى عاصمة مزدانة بالمبايعة والالتزام السياسي والديني بالإسلام، وكل يوم يمر يدني الجاهلية من قبرها، لكن الأمر

كان مختلفًا في الطائف، حيث الحصون المنيعة جدًّا، التي أعيت دولة الإسلام، فداخل تلك الحصون يجري الآن اجتماع خطير ونقاش ساخن بين كبار رجالات الطائف.. يتشاورون.. يريدون أن يخرجوا بموقف واضح من دولة الإسلام، فالقبائل المتحالفة معهم تتدفق نحو طيبة معلنة إسلامها. انفض الاجتماع بالموافقة على الانضمام لدولة الإسلام، ولكن بشرطين خطيرين: الأول، لن يلتزموا بالركن الثاني، أي لن يدفعوا الزكاة، أما الشرط الآخر فهو أنهم لن يدافعوا عن دولة الإسلام. فهل سيقبل القائد ﷺ؟

قدوم وفد الطائف

بدأ أمراء الطائف بالتهيؤ للسفر للمدينة.. بدؤوا تجهيز رواحلهم، فانتشر الخبر في البيوت والشوارع، حتى وصل إلى رجل غريب ليس من أهل الطائف.. رجل صعد جبالها للتحصن بحصنها هربًا من دولة الإسلام، وما إن شعر بالأمان حتى داهمه الخوف مجددًا بعد ذلك الاجتماع. ضاقت عليه الطائف التي ستصبح إسلامية.. ضاقت به الأرض كلها، وها هو يصف حالته، فيقول: «لما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت علي المذاهب، فقلت: ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد؟ فوالله إني لفي ذلك من همي» إذ مر به رجل حكيم من أهل الطائف، فرأى حيرته وهمومه، فاقترب منه، وسأله؟ فأشرع وحشي صدره، واعترف قاتل حمزة بخوفه من أن ينتقموا منه لقتله حمزة، لكن الطائفي طمأنه.. حلف بالله ثقة بأخلاق محمد قائلًا: «ويحك إن محمدًا والله ما يقتل أحدًا من الناس دخل في دينه، وتشهد شهادته»، فأزاح ذلك التطمين جبال الهموم عن أكتاف وحشي، فتوجه نحو بيته، وهيأ راحلته، ووضع زاده عليها وركبها، ثم انطلق ليلحق بوفد الطائف.

انحدر وفد الطائف بين الجبال والأودية نحو المدينة.. ساروا مئات الأميال حتى احتضنتهم جبال طيبة، ولاحت نخيلها الطيبة، ولما أصبحوا على مشارفها توقفوا، وأناخوا مطاياهم واستراحوا، ثم اغتسلوا وغيروا لباس السفر، ولبسوا

ثيابًا أنيقة.. نظر بعض قادتهم، فرأى أصغر شاب في القافلة واسمه عثمان بن العاص يغتسل، ويغير ثيابه مثلهم، فثار لغط وجدل قبل الانطلاق لمقابلة القائد ﷺ فقال بعضهم: «من يمسك لنا رواحلنا؟» لم يتطوع أحد منهم فكل القوم أحب الدخول على النبي ﷺ وكره التخلف عنه؟.

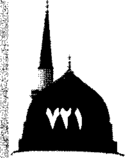
هنا هتف بهم الشاب الصغير عثمان متطوعًا بالبقاء لرعاية الرواحل، ولكنه اشترط عليهم أن يسمحوا له بعد عودتهم أن يدخل على النبي ﷺ وأن ينتظروه حتى يعود إليهم. قال لكبار قومه: «إن شئتم أمسكت لكم، على أن عليكم عهد الله لتمسكنّ لي إذا خرجتم؟ قالوا: فذلك لك» انطلق الأمراء وكبار القوم، ومعهم وحشي، ومعهم رجل قد تغير جلده ووجهه من مرض معدٍ يسمونه (الجذام).

كانت المدينة تعجّ بالوفود، ويبدو أن أبا بكر وعمر كانا المسؤولين عن تنظيم دخول الوفود، فلاحظ المنظمون وجود ذلك الرجل المجذوم، فأخبروا القائد، فرحب ﷺ بهم، لكنه طلب أن يخص المجذوم بكلمات. انطلق المندوب نحو الوفد مرحبًا بهم، ثم توجه للرجل المجذوم، وبلغه رسالة نبيه ﷺ.

وفد الطائف يشترط إسقاط الزكاة والجهاد

توجه مندوب النبي ﷺ لوفد الطائف، ورحب بهم، ثم أقبل على الرجل المصاب بمرض الجذام المعدي حاملًا رسالة خاصة من القائد ﷺ حيث قال له: إن رسول الله ﷺ يقول لك: «**إنا قد بايعناك، فارجع**».

رجع الرجل المريض، وقدم النبي ﷺ وسط تلك الأجواء المزدحمة درسًا صحيًّا في الوقاية الطبية، وتحصين المجتمع من الأمراض المعدية، فهو القائل: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد**» فالطيرة أي التشاؤم، والهامة أي البومة، وشهر صفر أشياء موجودة، ومنها يتشاءم أهل الجاهلية. لذا قال ﷺ لها جميعًا: (لا)، أي إنها لا تضر، ولا تنفع بحسب اعتقاد الجاهلية، فالجاهليون يظنونها مخلوقات تنتقي ضحاياها انتقاء. فبين ﷺ أن الذي يُفترَض تجنبه هو المرض



المعدي، أما البقية فمجرد مخلوقات تشاءم الجاهلي منها؛ لأنها تذكره بأشياء يكرهها، ثم توارثوها بوصفها تراثًا شعبيًّا، ولذا قال ﷺ: «**فرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد**» قالها في تلك الأيام التي كان الطب فيها متخلفًا، بل قام ﷺ بالتأسيس لمبدأ الحجر الصحي، حين قال لشعبه وللعالم: «**إذا سمعتم بالطاعون بأرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها**».

دخل وفد الطائف المدينة، وكحلوا أعينهم بنبي الله الذي تهلل وجهه بقدوم ثقيف، فالقائد هنا لا يوقع وثيقة استسلام ولا هدنة، ولا حتى وثيقة دفاع مشترك.. إنها وثيقة أخوة، وانصهار في وحدة ثقافية ووطنية، لكن قبل أن يمد أمراء الطائف أيديهم مبايعين، ومعلنين دخولهم في دولة الإسلام والإسلام.. اشترطوا شروطًا يقول عنها أحد شهود العيان وهو جابر: «اشترطت على النبي ﷺ أن لا صدقة عليها، ولا جهاد» شرطان غريبان من قبيلة شجاعة، لكن القائد كان واسع الأفق.. كانت نظرته أبعد من اللحظة والحدث.. يدرك أن هؤلاء القوم يشعرون بتفوق؛ لأنهم لم يهزموا وهم داخل حصونهم، ويريدون تميزًا عن بقية العرب، أما الأهم فهو أن هذا القائد ﷺ لم يكن يبحث عما في جيوب شعبه.. لم تكن عيناه على ثرواتهم.. كان يبحث عن القلوب لا عن الجيوب.. يدرك أن هؤلاء القوم الباحثين عن التميز لن يرضوا بالنقيصة مستقبلًا، فهم وإن امتنعوا عن الجهاد ودفع الزكاة، فسيأتي اليوم الذي يشعرون فيه بأن امتيازهم هذا تحول إلى نقص وعيب لن يرضوه لأنفسهم، وسيتخلون عنه عندما يرون الأمة كلها تدفع زكاتها لفقراء الشعب، وتهبّ كلها للدفاع عن وطن يمثل الطائف دعامة من دعائمه، وكأنه ﷺ يستشرف قادة أفذاذًا سينجبهم الطائف يومًا.

مدرسة في خيمة الطائف

خرج وفد الطائف من مجلس النبي ﷺ بعد أن أثاروا استغراب من كان حاضرًا: كيف يقبل منهم القائد ﷺ إسلامًا بلا زكاة أو جهاد؟ فطمأنهم القائد ﷺ على نقاء



معدنهم، وقال وحيًا.. قال ثقة بربّه: «**سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا**». لم يكن النبي ﷺ يستخدم هذا الأسلوب الترغيبي مع الجماعات فقط، بل كان يفعله مع الأفراد أيضًا. ذات يوم دخل المدينة رجل وثني يبدو أنه معجب بالإسلام، لكنه يستثقل الصلوات.. بحث عن النبي ﷺ، فسأل عنه حتى وجده، ولما وصله أخبره برغبته في الدخول في دين الإسلام، لكنه اشترط شرطًا أغرب من شرط ثقيف: لقد «أتى النبي ﷺ على أن يصلي صلاتين» فقط، فلم يرده النبي ﷺ ولم يتردد في قبوله، قبل منه إسلامه؛ لأن العقبة تكمن في الشرك ووحشته، فإذا خرج المرء من ضيق الشرك ووحشته إلى فضاءات الإسلام الرحبة وأجوائه التنافسية، فإنه سوف يرفّ مع غيره في تلك الأجواء الرحبة، ولاسيما وأن من يشترطون تلك الشروط يرون لأنفسهم ما لا يرون لغيرهم قبل دخول الإسلام، فإذا دخلوه أدركوا أن غيرهم قد تجاوزهم بمسافات، ولن يرضوا لأنفسهم البقاء في المؤخرة. تمت بيعة أهل الطائف، فزاد احتفاء قائد الدولة ﷺ بصحابته الجدد، وأمر رجاله أن يكرموهم، وأن يبنوا لهم خيمة في المسجد، بل إن النبي ﷺ سكن معهم أيامًا في تلك الخيمة إكرامًا لهم وتوددًا إليهم، وكان الضيوف يكحلون أعينهم بالنبي القدوة.. ينهلون من نبع الوحي الصافي. سألوه يومًا، فقالوا: «إن أرضنا أرض باردة فكيف بالغسل؟ فقال: **أمّا أنا فأفرغ على رأسي ثلاثًا**» وهو ما يفسره جابر بقوله: «إنه ﷺ يحثو على رأسه ثلاث حثياتٍ». أي كان يملأ كفيه بالماء، وينثره على رأسه ثلاث مرات، وأعقبت ذلك السؤال أسئلة أخرى وإجابات تترى.. يتخلل تلك الدروس أوقات يخرج فيها الضيوف للطرقات والأسواق والتجوال في المدينة، التي لم تعد يثرب التي يعرفونها.. غدت مدينة راقية.. قيادة موحدة، ونظام قضائي وسياسي وتشريع جنائي ونظام للأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق والإرث، ونظام اقتصادي فريد راقٍ، ونظافة ومدرسة وكتاب.. لأول مرة يرى العالم شعبًا يقتني الكتاب في البيوت.. لم يعد العلم حكرًا على الرجال، كما في النصرانية واليهودية والجاهلية واليهودية، فللنساء أيام يتلقين فيها التعليم.. فضلًا على مشاركتهن في المسجد خمس مرات وجميع مناشط الحياة. كان وفد الطائف يجوب عالمًا مبهرًا أنجزه القرآن في أقل من عشر سنوات، على الرغم من حملات التشويه والحملات العسكرية والمؤامرات

اليهودية، وفي أحد تلك الأيام أقبل مواطن غيور على دينه نحو الخيمة، فهمس بأذن قائده، فأمره ﷺ بشيء مخيف.

ذكريات حمزة في خيمة أهل الطائف

سكن قائد الدولة ﷺ مع ضيوفه أهل الطائف في الخيمة التي نصبها لهم في المسجد.. يتلقون الدروس، ويتبادلون الحديث، وفي أحد الأيام كان الجميع في الخارج، وكان القائد ورجل اسمه أوس بن أوس الثقفي داخل الصُّفَّة، وفجأة دخل المسجد مواطن غيور على دينه، ثم اتجه للصفة، فهمس في أذن النبي بشيء أزعجه جدًّا، وأثار غضبه، فقال ﷺ: «**اذهبوا، فاقتلوه**» انطلق الرجل لينفذ أمر قائد الدولة، وقبل أن يخرج من باب المسجد هتف ﷺ به قائلًا: «**أيشهد أن لا إله إلا الله؟** قال الرجل: نعم.. نعم يا رسول الله». ثم استدرك الرجل مبينًا أن الرجل منافق وقائلًا: «ولكنه يقولها تعوذًا» ونفاقًا. فقال: «**اذهبوا فخلوا سبيله، فإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك حرمت علي دماؤهم، وأموالهم، إلا بحقها**».

درس جديد في خيمة ثقيف يقدمه ﷺ للذين أباحوا لأنفسهم اقتحام النيات ورسم البواطن، فالغيب لا يعلمه إلا الله، والنفاق لا يعلمه إلا الله ودولة الإسلام دولة واقعية، دولة نظام، وليست ثيوقراطية توزع صكوك الغفران، ويستغفلها كهنوت يتاجرون بتصنيف الناس.. كانت خيمة ثقيف دروسًا في الوقاية من الأمراض، والنظافة، وحفظ الدماء، وفجأة وبينما كان القائد ﷺ بين أحبته الجدد.. فوجئ بطيف شاخص أمامه.. قائم على رأسه يردد قائلًا: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله». رفع القائد ﷺ رأسه، ونظر إلى المتشهد.. حدق به، فانثالت الذكريات المريرة، وقال: «**أوحشي؟** قال: نعم، يا رسول الله». شخبت دماء حمزة في قلبه ﷺ، وتذكر عمه، فقال: «**اقعد، فحدثني، كيف قتلت حمزة**».

جلس وحشي متلفعًا بالندم، وبدأ يقص فصول الحزن، وكيف كان يحمل حربته لا يبحث عن شيء سوى حمزة، ولا يخشى أحدًا سوى حمزة، وكيف كان يلوذ بالشجر خوفًا منه، وكيف اقترب منه حتى أصبح في مرمى عينيه وحربته، فهزها، ثم أرسلها قذيفة إلى أسفل بطنه حتى خرجت من ظهره، لينهض حمزة غير مبالٍ بالحربة التي اخترقت جسده.. يريد أن يواجهه.. ظل حمزة يمشي.. يترنح حتى سقط، ولما سقط اقترب وحشي منه، فانتزع حربته، وتدفّق دم حمزة مجددًا.. زاد توجع النبي ﷺ وهو ينصت لآخر كلمات وحشي، وهو يقول: «وذهب ليقوم، فلم يستطع، فقتلته ثم أخذت حربتي، ما قتلت أحدًا ولا قاتلته».. توجع ﷺ وهو يرى رجلًا قطع مئات الأميال ليمزق جسد رجل لم يؤذِه يومًا، ولم يتعرض له بأذى، فقال محمد الإنسان: «**ويحك غيّب عني وجهك، فلا أرينك**» بكى قلب النبي ﷺ، وتأثر السامعون، وحان وداع أهل الطائف، لكن شيئًا حبسهم على مشارف طيبة.

نبي يحتفي بالشباب

ودّع القائد ﷺ أهل الطائف.. ودّع القوم الذين أبكوه يومًا، وأسعدوه اليوم.. أسعدوه وهو يرى حلمه يتحقق حين أتاه الملك، فقال له: «**إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**». فقال ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**».. ها هم قبل أبنائهم يعبدون الله لا شريك له، ويبايعون، وينصرفون مصحوبين بالسلامة، ولما وصلوا إلى رواحلهم وجدوا الشاب عثمان بن أبي العاص في شوق لعودتهم، ولكنه صدم حينما أمروه بالتحرك قائلين: «انطلق بنا. قال لهم: أين؟ فقالوا: إلى أهلك» فأحرجهم الفتى حين ذكرهم بوعدهم وبشوقه لنبيه قائلًا: «ضربت من أهلي، حتى إذا حللت بباب النبي ﷺ أرجع ولا أدخل عليه! وقد أعطيتموني من العهد ما قد علمتم؟ فقالوا: فاعجل، فإنا قد كفيناك المسألة، لم ندع شيئًا إلا سألناه عنه» لبس الفتى حلته، واتجه نحو نبيه ﷺ، ولما قابله سلم عليه، وعرفه بنفسه، ثم ناشده قائلًا: «يا رسول الله، ادعُ الله يفقهني في الدين، ويعلمني»

فأعجب ﷺ بتلك المناشدة، وطلب تكرارها قائلًا: «**ماذا قلت؟**» فقال: «يا رسول الله، ادعُ الله يفقهني في الدين، ويعلمني» فقال ﷺ: «**لقد سألتني شيئًا ماسألني عنه أحد من أصحابك**» توسم ﷺ بمنطق الفتى ورجاحة عقله شخصية قيادية على الرغم من أنه أصغرهم، فعينه على الفور أميرًا، وقال: «**اذهب فأنت أمير عليهم وعلى من تقدم عليه من قومك**» وأمره أن يصلي بهم، وأن يجعل طول صلاته مناسبًا لحالة أضعفهم، فقال: «**اقتدِ بأضعفهم، واتخذ مؤذنًا لا يأخذ على أذانه أجرًا**» وأوصاه أن يقرأ في صلاته: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلق: ١]، (وأشباهها من القرآن) فإطالة الصلاة على الناس مؤشر على قلة الفقه إذا كان بين المصلين كبير أو ضعيف أو مريض، حيث يقول ﷺ: «**إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن منهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء**» انتهت أسئلة عثمان، فودع نبيه أميرًا، وبعد مدة ابتلي بمرض أقلقه، ما حدا به إلى ركوب راحلته مجددًا والعودة لنبيه. يشكو له مرضه، فقال ﷺ: «**ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: باسم الله ثلاثًا. وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد، وأحاذر**» ثم اشتكى عثمان وسواسًا يجده معظم الخاشعين في صلاتهم، حيث يبرع الشيطان في محاولة إشغالهم كلٌّ بحسب مهنته وميوله.. يأتي التاجر بخطط اقتصادية، ويأتي العالم بمشروعات علمية، وهكذا ليحول بينه وبين صلاته، كالفتى الثقفي عثمان بن العاص الذي يقول: «إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها علي» فأخبره ﷺ بأن يعالج هذا الوسواس بالتوجه لله قائلًا: «**إذا أحسسته، فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثًا**».. إذًا فقد ذهب وفد ثقيف، وجاءت وفود أخرى.

وفود مزينة وأسد

تتابعت الوفود على عاصمة دولة الإسلام.. هذه المرة حملت المطايا وفدًا مؤمنًا من بني أسد.. قابلوا النبي ﷺ فرحب بهم، وقد تميز بعض رجالهم بلغة بليغة، لكن أحدهم أفسدها بفخر في ظرف لا مكان فيه للفخر، ولاسيما وقد قدموا للانضمام

لدولة الإسلام. قال ذلك المتحدث: «يا رسول الله، قاتلتك مضر كلها، ولم نقاتلك، ولسنا بأقلهم عددًا، ولا أكلهم شوكة وصلنا رحمك» ولما انتهى التفت القائد ﷺ لوزيريه المسؤولين عن تنظيم الوفود أبي بكر وعمر، فقال متعجبًا: «**أفتقولان هكذا؟** قالا: لا. قال: **إن فقههم لقليل، وإن الشيطان لينطق على لسانهم**» تراجع ذلك الوفد عن تلك المنة التي تفوه بها فرد أو فردان منهم، فالفضل لله، فلولاه سبحانه لما تشرف هؤلاء بصحبته ﷺ ولماتوا على وثنيتهم. وعلى عكسهم قدم وفد قبيلة مزينة، وقد بلغ عددهم الأربع مئة، وقد كانوا يعانون عامًا صعبًا وفقرًا وقلة طعام.. قابلوا نبيهم ﷺ وبايعوه، وبقوا أيامًا ينعمون بكرم ضيافته، وعندما أرادوا المغادرة اقترب بعضهم من قائد الدولة، وقال: «يا رسول الله، ما لنا طعام نتزوده؟» فالتفت ﷺ لوزيره عمر، وقال: «**زودهم**» فقال عمر: «ما عندي إلا فاضلة من تمر، وما أراها تغني عنهم شيئًا» عندها نطق النبي ﷺ وحيًا ومعجزة تغمر هؤلاء الأربع مئة، وتزيد إيمانهم، فقال لعمر: «**انطلق، فزوّدهم**». انطلق عمر ثقة بالله ورسوله نحو بيدر التمر، وتهادى خلفه رجال مزينة، وعددهم يفوق عدد جيش الدولة في معركة بدر.. مشوا خلال شوارع طيبة ونظرات شعبها المضياف، ثم توقفوا أمام سلم يقود إلى غرفة مرتفعة تسمى العلية.. صعد عمر، ثم عالج بابها، وأشرعه، تأمل الرجال التمر، فإذا هو بحجم الجمل الأورق.. بالكاد يكفي العشرات. وقف المئات متعجبين.. مستغربين متسائلين: ترى كم تمرة هي نصيب كل واحد منا؟ التفت عمر لضيوفه، ثم هتف بهم مرحبًا، وقال: «خذوا». اصطف الرجال، ثم بدؤوا يصعدون، وينحدرون واحدًا تلو الآخر.. يصعد الواحد منهم يحمل وعاءه، ثم يدخل الغرفة العلية، ويضع إناءه على أرضها، ثم ينحني على التمر، ويملأ الإناء، ثم ينحدر.. مشهد جميل لكن الأجمل هو ذلك الكثيب الذي لا ينقص. أخذتهم الدهشة وهم يغرفون والكثيب كما هو، وكأنهم يغرفون من البحر.. كان أحدهم، ويدعى النعمان بن مقرن يقف في آخر الصف، ولما حان دوره صعد للعلية، وكال من التمر حاجته، لكنْ عيناه ظلتا مأخوذتين بالكثيب المدهش، حتى قال: «أخذ القوم حاجتهم، فالتفتّ، وما أفقد موضع تمرة، وقد احتمل منه أربع مئة رجل».

لم يبقَ أحد منهم بلا زاد.. طابت أنفسهم، وودعوا عمر، ثم انطلقوا نحو ديارهم محملين بالتمر والمعجزات، وجاء وفد جعله حبهم يفعل شيئًا لم يفعله من قبل.

وفد جميل من المشرق

كانت الشمس فوق الرؤوس حين وصل وفد عبدالقيس.. القادم من المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، التي تسمى البحرين. وقد تميزوا بأنهم أصحاب «أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ»، ومسجدهم يقع بقرية من قرى البحرين اسمها جواثي، فميزهم ﷺ بكلمات أشجى بها أسماعهم، ولاسيما وهم لا يستطيعون السفر للمدينة إلا في الأشهر الحرم، أما السبب فبينوه بعد أن تهلل ﷺ في وجوههم، وقال: «**مَنِ الوفدُ**؟ قالوا: ربيعة. قال: **مرحبًا بالوفد أو القوم غير خزايا ولا ندامى**». أذن بلال، فصلوا خلف النبي ﷺ الظهر، ومباشرة بدأ اللقاء. «قالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك كفار مضر، فمرنا بأمر ندخل به الجنة، ونخبر به من وراءنا؟ فأمرهم بأربع: أمرهم بالإيمان بالله. قال: «**هل تدرون ما الإيمان بالله؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وتؤتوا من المغانم الخمس**»، ونهاهم عن أربع: نهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير. وهي أوعية خاصة بشرب الخمر.. نهاهم عنها حتى لا تذكرهم بها، لكن هذا الحكم أُلغي، فقد نزل وحي فيما بعد، فقال ﷺ: «**نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء، فاشربوا في الأسقية كلها، ولا تشربوا مسكرًا**»، ثم توجه القائد ﷺ إلى أبرز رجل في هذا الوفد، ويدعى أشج عبدالقيس، فأثنى على صفتين من صفاته، فقال «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».. طال الحديث الماتع حتى أذن بلال لصلاة العصر، فصلوا مع النبي ﷺ، وبعد الصلاة خرج ﷺ من المسجد، ودخل بيت زوجته العظيمة أم سلمة، ففعل شيئًا لم يكن يصنعه، فقد كان ﷺ لا يصلي نافلة بعد صلاة العصر، بل

نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، لكنه ما إن دخل على أم سلمة حتى سلم، فإذا مجموعة من نساء الأنصار عندها، فتوجه إلى جهة من البيت، فصلى ركعتين، فاستغربت أم سلمة هذه النافلة الجديدة! فنادت جارية عندها، فأقبلت فقالت لها: «قومي بجنبه، فقولي له: تقول أم سلمة يا رسول الله: إني أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين وأراك تصليهما، فإن أشار بيده، فاستأخري عنه» تهادت الجارية نحوه ﷺ، ثم توقفت، وقالت: «تقول أم سلمة: يا رسول الله، إني أسمعك تنهى عن هاتين الركعتين، وأراك تصليهما» حرك ﷺ يده، فاستأخرت الجارية، وعادت لأم سلمة، فلما سلم توجه لزوجته، وقال لها: «**يا بنت أبي أمية، سألت عن الركعتين بعد العصر؟ إنه أتاني ناس من عبدالقيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فهما هاتان**».

الوفود والدجال

انصرف وفد عبدالقيس، وجاءت وفود أخرى، فكان الوزيران أبوبكر وعمر ينظمان دخول الوفود، لكنّ خلافا بينهما حدث عند قدوم أميرين من أمراء تميم.. طلب أبوبكر أن يتكلم أحدهما، ويدعى القعقاع بن معبد، لكن عمر قال: (بل أمر الأقرع بن حابس. فقال أبوبكر: «ما أردت إلى خلافي. فقال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[الحجرات: ٢]، وكان لخلاف الشيخين العظيمين ورفع أصواتهما عقوبة آنية عندما هتف أحد الأميرين: يا محمد، يا محمد. فلم يجبه ﷺ فهتف: «إن مدحي زين، وإن شتمي شين» فلما خرج ﷺ قال له: «**ويلك ذلك الله**». فأنزل الله في ذلك الرجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[الحجرات: ٤].

التقى ذلك الوفد بنبيه، وأعلن إسلامه، ثم غادر، لكن كلمات النبي ﷺ لاحقتهم.. كلمات جعلت عائشة تحب تميمًا، وتحكي سر حبها، فتقول: «لا أزال

أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: «**كانت منهم سبية**»، فقال: «**أعتقيها؛ فإنها من ولد إسماعيل**». وجاءت صدقاتهم، فقال: «**هذه صدقات قومي**». كما أخبرت بأنه قال: «**هم أشد أمتي على الدجال**».

الدجال الذي يقال: إنه موجود الآن في المدينة.. رآه أحدهم بين النخيل، وعلم ﷺ بالأمر، فانطلق بحثًا عنه، وعندما وجده جرى حوار مخيف. فمن هو هذا المخلوق؟

كان في المدينة فتى يهودي غريب الأطوار، وتصرفاته مخيفة يدعى صاف.. ولدته أمه مختونًا مسرورًا.. كبر الطفل، وأصبح في سن المراهقة، وبدأت الإشاعات تدور حول تصرفاته، وذات يوم كان يلعب مع صبيان يهود قرب أحد حصون عائلة يهودية يقال لهم: بنومغالة، وفجأة تفرق الأطفال من حوله، وشعر بضربة خفيفة على ظهره. توقف الفتى الغريب، والتفت للوراء ونظر، ففوجئ برسول الله ﷺ ينظر إليه وحوله وزيراه الأكبران أبوبكر وعمر وبعض الصحابة. جلس الفتى، فسأله النبي ﷺ: «**أتشهد أني رسول الله؟**» حدق صاف بن صياد في النبي، فقال: «أشهد أنك رسول الأميين». وهي الشهادة التي يكتفي بها اليهود عند إحراجهم، فيقولون أن محمدًا ﷺ رسول، لكنه للعرب فقط. لم يكتفِ الفتى المخيف بذلك، بل استعاد حقده مباشرة، وحدق في النبي، وقال: «أتشهد أني رسول الله». عندها قال ﷺ: «**آمنت بالله وبرسله**» أراد ﷺ أن يكتشف المزيد عن هذا الفتى المحير، وهل هو يعاني مرضًا نفسيًّا أم مسًّا، فسأله سؤالًا مخيفًا.

ابن صياد هو الدجال

سأل النبي ﷺ الفتى اليهودي الغريب صاف بن صياد.. سأله سؤالًا خطيرًا يكشف غموضه قائلًا: «**ماذا ترى؟**» فقال ابن صياد: أرى عرشًا على الماء، فقال ﷺ: «**ترى عرش إبليس على البحر**» ثم قال ابن صياد: «أرى صادقين أو كاذبين». «يأتيني صادق وكاذب». وكأن النبي ﷺ أدرك أن الفتى يتعامل مع شياطين الجن الذين يخلطون الصدق بأضعافه من الكذب.. ابن صياد ككبار كهنة اليهود وحاخاماتهم الذين

يسمون (الماسون)؛ لذا قال النبي ﷺ: «**خلط عليك الأمر**»، ثم قال لأصحابه: «**لبس عليه، فدعوه**» ثم قال لابن صياد: «**إني قد خبأت لك خبيئًا**. فقال ابن صياد: هو الدخ؟» فقاطعه ﷺ مباشرة قبل أن يكمل قائلًا: «**اخسأ، فلن تعدو قدرك**» شعر ابن الخطاب بتمادي اليهودي ووقاحته مع نبيه، فقال: «ذرني يا رسول الله، أضرب عنقه»، لكن القائد ﷺ أوقفه مبينًا أنه إن كان الدجال فلن يقدر على قتله، وإن كان شخصًا عاديًا فقتله لا يجوز في دولة تعيش على النظام العادل كالنظام الإسلامي. قال ﷺ لعمر: «إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»، ففي هذا الحوار اتضح تعاطي ابن صياد لنوع من السحر والكهانة، وذلك عندما أراد أن يلفظ النبي ﷺ كلمة الدخان.. السورة التي نزلت على النبي ﷺ، لكن النبي قاطعه فورًا قبل أن يكمل اسم السورة، وقال له: اخسأ.

عاد النبي ﷺ وأصحابه بعد رؤيتهم لابن صياد، ولم ينزل وحي عليه بشأن الفتى، لكن مازالت الشكوك تلتف حوله، حتى جزم البعض أنه الدجال، فذات يوم كان جابر بن عبدالله في مجلس، فدار الحديث عن ابن صياد، فحلف جابر بالله إنه الدجال، فقال أحد الجالسين: «أتحلف بالله؟ قال: إني سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبي ﷺ فلم ينكره النبي» لذا كرر ﷺ المحاولة. نادى أبي بن كعب، وأخذه معه، وانطلقا نحو حي من أحياء اليهود تحيط به النخيل، ولما لامست أقدامهما تراب حائط عائلة ابن صياد تسللا بهدوء بين النخيل القريبة من بيته.. صارا يتخفيان بالنخيل، وفجأة أبصره النبي ﷺ مضطجعًا، فأبطأ الخُطا، وصار يختل عله يسمع كلماته.. اقترب ﷺ منه فإذا هو مضطجع في كساء مخمل يسمى القطيفة، وتصدر منه أصوات غريبة.. زمزمة وأصوات غير مفهومة. بقي ﷺ ينصت علّ أمره يتبين، لكن صيحة دوت بين النخيل فجأة. أبصرت أم اليهودي رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، ويختبئ خلف ابنها، فصرخت: «ياصاف، هذا محمد». ثار ابن صياد، ووثب من مرقده. فقال ﷺ: «**لو تركته بيّن**».. ظل أمر ابن صياد غامضًا، حتى إن الفتى ابن عمر كان يحلف: «وَالله، ما أَشك أن المسيح الدجّال ابن صيّاد» وذلك لتصرف مخيف جرى منه، فما ذلك التصرف؟

الدجال والمكان المخيف

ازداد شك الشاب عبدالله بن عمر حول الشاب اليهودي الغريب (صاف بن صياد)، وذلك حين كان ابن عمر يسير في إحدى سكك المدينة الضيقة وبيده عصا، فإذ به يفاجأ بابن صياد أمامه. ذهل ابن عمر مما يرى من تغير في وجه ابن صياد، فقد تأمل عينيه، فوجد إحداهما قد نفرت من مكانها. أوقفه ابن عمر على الفور، وقد هاله الأمر وساله سؤالًا متوجسًا: «متى فعلت عينك ما أرى؟ فقال ابن صياد ساخرًا: لا أدري» غضب ابن عمر من إجابته الساخرة، وقال: «لا تدري وهي في رأسك؟» عندها ازدادت سخرية اليهودي، وقال: «إن شاء الله خلقها في عصاك هذه» ولم يكتفِ بل أراد إرعاب ابن عمر وإخافته، فنخر كأشد الحمير نخيرًا.. فقد ابن عمر صوابه، فرفع العصا دون أن يشعر، وهوى بها بكل قوته على ابن صياد، فإذا العصا قد انكسرت. لم يشعر ابن عمر بما فعل.. ربما هو الغضب وربما الخوف، حتى إنه قال: (زعم بعض أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأما أنا فوالله ما شعرت).. فرّ ابن صياد، وتوجه ابن عمر لبيت أخته أم المؤمنين حفصة بنت عمر، فقصّ عليها ما جرى بينه وبين اليهودي المخيف، فعاتبته «وقالت ما تريد إليه: ألم تعلم أنه قد قال: إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه؟» لم تنتهِ قصة الدجال عند هذا الحد، فها هو أحد النصارى يتلفت خائفًا في أحد الأماكن الموحشة، فإذ به يفاجأ بشخص مخيف يناديه.. هل هو الدجال، أم ابن صياد أم شخص آخر؟

سنعرف بعد أن نعود للمدينة المكتظة بالوفود ومن بينها هذا الوفد الذي أقبل بعد وفد تميم.. وفد جميل.. العلم يمان والحكمة يمانية.. كان وفدًا شغوفًا يبحث عن إجابات، فبشرهم ﷺ فقبلوا البشارة، وقالوا: «قد قبلنا يا رسول الله»، ثم طرحوا سؤالًا في العقيدة فقالوا: «جئناك نسألك عن هذا الأمر؟ فقال: **كان الله، ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض**».

لم تنقطع وفود اليمن.. كانوا يتقاطرون جماعات وأفرادًا.. ها هو أحدهم يدعى جرير بن عبدالله البجلي تحمله راحلته نحو طيبة حتى وصلها في أحد أيام الجمعة، فأناخ

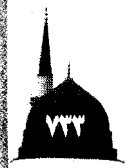
راحلته، وخلع ملابس السفر، وتطهر ثم مد يده إلى عيبته وهي الحقيبة التي يحفظ فيها ثيابه الجميلة.. حل رباطها وفتحها، وأخرج حلته الأنيقة ولبسها، فسمع صوت بلال العذب ينساب في سماء طيبة.. يأخذه نحو المسجد، ولما اقترب جرير كان النبي ﷺ يخطب، لكن المثير في الأمر هو أن الصحابة لم يكونوا ينظرون إلى نبيهم كعادتهم على الرغم من انشغالهم بالخطبة.. كانوا يحدقون في جرير، وهو يتهادى نحو المسجد.

وافد بلا يدين

في أحد أيام عام الوفود، وبالتحديد يوم جمعة ما، وبينما كان النبي ﷺ يخطب الجمعة.. دخل مسافر يماني اسمه جرير البجلي المسجد، ففوجئ بعيون المصلين تحدق في الباب.. كانوا ينتظرون دخوله بشوق وفضول أثار انتباهه، فقد كان لدى هذا اليماني ما يثير. دخل جرير المسجد والعيون تلاحقه على الرغم من إنصاتهم للخطبة، فصلى ركعتين، ثم جلس ينصت معهم، ولما سلم النبي ﷺ من الصلاة.. التفت جرير للرجل الجالس بجانبه، فقال: «يا عبدالله، ذكرني رسول الله ﷺ؟»، فقال: نعم، ذكرك آنفًا بأحسن ذكر، فبينا هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: **يدخل عليكم من هذا الباب من خير ذي يمن، ألا إن على وجهه مسحة ملك**».

اجتاحت جرير مشاعر سعادة لا توصف، وغمره الشكر لله، فقال: «فحمدت الله ﷻ على ما أبلاني»، ثم نهض للسلام على قائده ونبيه، فوجده ﷺ كالنسمة.. كالماء البارد حتى قال: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي» ثم بايعه «على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»، ثم بايعه «على السمع والطاعة» لقائد دولته ﷺ، وعلى الرغم من أن قائد الدولة نبي، إلا أنه لم يشق عليه، بل أمره بالطاعة بحسب الطاقة، فلقنه قائلًا: «**فيما استطعت**».

لم يكن جرير وحده الوافد اليمني المثير.. جاء وافد قديم جديد اسمه الطفيل ابن عمرو، وهو أحد أمراء دوس، وكان قد جاء مكة قبل عشر سنوات، فقابل



النبي ﷺ في سنوات اضطهاده، وكان قد سبق الطفيل الأنصار، ووافق على تأسيس دولة الإسلام في اليمن، لكنه طلب مهلة ليستشير قومه في استقبال هذا النبي المضطهد. لكن النبي ﷺ رفض إقامة دولته بالقوة، أو الاعتماد على أقلية تفرض على الأكثرية رأيها.

قال الطفيل، حين قابل النبي: «يا رسول الله، هل لك في حصن حصين ومنعة؟» يعني حصنًا كان لدوس في الجاهلية، فسأله ﷺ عن موافقة قومه، وقال: [**أمعك من وراءك**؟ قال: لا أدري]، فأبى ذلك النبي ﷺ»، وها هو الطفيل يعود بعد أن شيد النبي ﷺ دولة.. أقبل الطفيل ومعه رجل من اليمن.. رحب بهما القائد ﷺ، ثم بقيا في المدينة، لكن صديق الطفيل مرض مرضًا شديدًا، فلم يتحمل الألم، فجزع فأخذ من كنانته حديدة سهم حادة وهي التي تسمى مشاقص، ثم قام بقطع مفاصل أصابع إحدى يديه وهي التي تسمى البراجم (فشخبت يداه حتى مات).. دفن الرجل وصُلي عليه، وحزن الطفيل على صاحبه الذي كان يجهل حكم الانتحار، وبعد مدة كان الطفيل نائمًا، فرأى صاحبه في هيئة حسنة، لكنه قد غطى يديه. فسأل نبيه ﷺ عن ذلك؟

سر الثناء على أهل اليمن

رأى الأمير الطفيل بن عمرو الدوسي صاحبه الذي انتحر في المنام، فقال: «ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ. فقال: ما لي أراك مغطيًا يديك؟ قال: قيل لي لن نصلح منك ما أفسدت» اجتمع الحزن بالفرح في قلب الطفيل، فتوجه لنبيه ﷺ وقصّ الرؤيا التي رآها في صاحبه الذي انتحر، وهو لا يعلم أن الانتحار محرم، فقال ﷺ: «**اللهم، وليديه فاغفرْ**»، لكن الطفيل مازال حزينًا، فقومه دوس قد تأخر إسلامهم على الرغم من أنه كان يدعوهم منذ عشر سنوات، فشكى لنبيه ﷺ وقال: «يا رسول الله، إن دوسًا عصت وأبت، فادعُ الله عليها»، فترقب الحاضرون عقوبة تحل بدوس، بل قال بعضهم: «هلكت دوس»، لكن قلب الرحمة

المهـداة ﷺ خفق حدبًا على دوس ورأفة بهم، فناشـد ربه، وقال: «**اللهم، اهدِ دوسًـا وأتِ بهم**».

يماني رابع هو أبوموسـى الأشـعري.. رمته السفينة في الحبشـة، ثم عاد للمدينة بصحبـة جعفـر بن أبي طالـب، وبعد فتح مكـة وتوافد القبائل.. شـعر بـأن الوقت مناسـب للإتيان بقومه، فعاد لليمن عله يأتي بهم.. ناشد قومه ورغّبهم، وبعد أشهر من الدعوة كانت القافلة الأشـعرية في الطريق لطيبة، وإذ بالنبي ﷺ يثير الشـوق في القلـوب وهو يكلم مـن حوله، ويقول: «**يقـدم عليكم أقوام هـم أرق منكم قلوبًا**» وإذ بقافلتهـم تتهادى شـعرًا وحـداءً، فلما دنوا مـن المدينة كانوا يرتجـزون يقولون: «غـدًا نلقـى الأحبـة. محمدًا وحزبـه» ترى ما سر هـذا الوهج اليماني؟.. ما سر علو منزلتهم عند الله ورسـوله؟ يبدو من سـياق الأحـداث والأحاديث التي جرت، أن سر الوهـج اليماني يكمن في تواضعهـم، وابتعادهم عن مظاهر الفخر الجاهلي القائم عـلى الاعتـداد بالنفس وازدراء الآخرين، فالنبي ﷺ يقـول: «**أهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبرّه، وأهل النار كل جواظ عتل مستكبر**».

أقبلت قبائل اليمن تبايع، وأمسـى الشرك في أرض اليمن مخجلًا.. يتسلل نحو جحور النفاق، وإذا كانت القلوب اليمنية بهذه الرقة والصفاء، فأرضها أشـد شـوقًا للتوحيد، لكنّ على أرضها نصبًا جاهليًّا قد يعيد ضعاف النفوس للجاهلية، واليمن قـد أسـلمت، وانضمت لدولة النبـي ﷺ.. هنا جاء دور اليماني ذو المسـحة الملائكية (جرير بن عبدالله) الذي كان بجوار نبيه يتأمله وهو قد مدّ يده إلى إحدى الأفراس.. يلوي ناصية فرس بإصبعه وهو يقول: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والغنيمة**»، فتأثر جرير الذي كان يعاني فقد توازنه حين يركب الخيل، ويتمنى لو ثبت على ظهرها، وإذ بالقائد ﷺ يكلفه بمهمة تستدعي ركوب الخيل.

اليمن تتخلص من الكعبة المزيفة

استدعى القائد ﷺ جرير بن عبدالله البجلي، وكلفه بالقضاء على الرمز الوثني المسمى (ذوالخلصة)، وذوالخلصة بناء لقبيلة خثعم يسمونها كعبة اليمانية، وخثعم قد اعتنقت الإسلام طواعية، فلا مبرر لبقاء رموز التخلف والخرافة التي لا تزيد الشعب إلا تخلفًا؛ لذا قال ﷺ: «**يا جرير، ألا تريحني من ذي الخلصة؟**»، فوافق على الفور لكنّ جريرًا ذكر لقائده مشكلته، وهي أنه يفقد توازنه، فاقترب النبي ﷺ، ومدّ يده نحو صدره، فضربه على صدره برفق، ودعا له، فقال: «**اللهم، ثبّته، واجعله هاديًا مهديًّا**» استجاب الله لنبيه حتى قال جرير: «فما وقعت عن فرس بعد».

أمر القائد ﷺ مئة وخمسين فارسًا بمرافقة جرير، وجعله أميرًا عليهم، فانطلقت السرية تطوي الأرض نحو اليمن.. نحو تلك الكعبة الزائفة، ولما وصلها وأوقف سريته أمامها فلم يجد من يدافع عنها.. لم يجد من يلتف حولها، بل وجد الخجل يلف من حولها، فنزل عن ظهر فرسه، ثم أشعل شعلة ومشى نحوها، وأشعل النار في قماشها وأخشابها، فارتفعت ألسنة اللهب تحرق ما تبقى من ذكريات مخجلة.. تحرق حقبة رسمها الجهل والغباء، ثم خبت ألسنة النار شيئًا فشيئًا لترتفع ألسنة الدخان، ويركب الأمير فرسه، ويغادر أكوام الرماد، وينادي الأمير جنديًّا يدعى أبوأرطأة الأحمسي، ويطلب منه الانطلاق للعاصمة ليبشر قائده ﷺ.

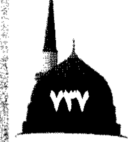
ركب أبوأرطاة ظهر جواده، وانطلق شمالًا حتى احتضنته نخيل طيبة، فتوجه نحو قائده، ولما قابله حياه وبشره بكلمات تنضح بالحماس قائلًا: «ما جئتك حتى تركناها كأنها جمل أجرب» أضفت تلك البشارة شعورًا بالسعادة للنبي.. سعادة جعلته يدعو بالبركة لأبي أرطاة وقومه، فبرَّك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات، أما اليمن وبعد انضمامها لدولة الإسلام فقد حان الوقت لبعث من يثقفها بالتوحيد، وكان من سمات الأمراء الذين يعينهم ﷺ حسن الإدارة والعلم، لكنْ رجلان من أهل اليمن أقبلا نحو القائد ﷺ مع أبي موسى، فوقف أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وتقدما بالتماس لتولي منصب الإمارة في اليمن. لم يستشر

النبي ﷺ أبا بكر ولا عمر.. استشار أبا موسى الأشعري الذي يقف بينهما؛ لأن الثلاثة من البلاد نفسها. نظر ﷺ لأبي موسى، وطلب رأيه قائلًا: «**ما تقول يا أبا موسى؟**» فقال: «والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل» قلصت شفتا النبي ﷺ على سواكه، فتكلم بكلمات هي المنهج عند تعيين الأمراء.

منهج النبي ﷺ في انتقاء الأمراء

نأى أبو موسى الأشعري بنفسه عن الطلب، وبيّن أنه لم يعلم بنية صاحبيه.. هنا أدرك القائد ﷺ أنه لا يمكن المجازفة بتعيين شخص لمجرد أنه صاحب لصحابي، بل قال: «**لا نستعمل على عملنا من أراده**» «**ولا أحدًا حرص عليه**»، ثم نظر إلى أبي موسى، وعيّنه أميرًا، فقال: «**ولكن اذهب أنت يا عبدالله بن قيس**» «فبعثه على اليمن».. امتثل الشاب أبو موسى، وانطلق ليصبح أميرًا على اليمن، وكان في المدينة شاب عشريني ينضح إيمانًا وحماسًا هو معاذ بن جبل.. قد عيّنه ﷺ إمامًا في مسجد حيّه بني سلمة في المدينة، وكان من حب معاذ للنبي ﷺ أنه يصلي العشاء خلفه، ثم ينطلق بعد الصلاة مباشرة إلى حيّه ليصلي بهم، وكان من بين جماعة المسجد رجال يعملون في الساقية بإبلهم، وذات ليلة أخّر النبي ﷺ العشاء، وبعد أن صلاها انطلق معاذ نحو حيّه ليؤم قومه، ويبدو أنه أخبرهم بسبب تأخره، وكان الوقت متأخرًا قليلًا.. كبر معاذ، فإذ بالمصلين يفاجؤون بالإمام معاذ يشرع في الركعة الأولى بقراءة سورة البقرة.

تراجع أحد الرجال الذين يعملون في الساقية عن الصف، وأكمل صلاته وحده، ثم سلّم، وانصرف لساقيته ليسقي زرعه، أما معاذ فسلم بعد صلاة طويلة، ولما أدار وجهه للمصلين أخبره أحدهم بأن الرجل واسمه حرام «دخل المسجد، فلما رآك طولت تجوّز في صلاته، ولحق بنخله يسقيه». غضب معاذ الإمام العابد، وقال: «إنه لمنافق، أيعجل عن الصلاة من أجل سقي نخله» سمع بعض المصلين كلمة



منافق، فانطلقوا بها لحرام، فاشتد غضبه، وقرر أن يرفع شكوى على إمام مسجده، وقال: «لا، ولكني آتي النبي ﷺ فأخبره» انطلق الرجل لقائده ﷺ، ولما وصل حياه، ففوجئ بمعاذ عنده، فقدم شكوى قال فيها: «يا رسول الله، إنك أخرت العشاء، وإن معاذًا صلى معك، ثم رجع فأمنّا، فافتتح سورة البقرة، فلما رأيت ذلك تأخرت فصليت، وإنما نحن أصحاب نواضح نعمل بأيدينا» «يا نبي الله، إني أردت أن أسقي نخلًا لي، فدخلت المسجد لأصلي مع القوم، فلما طوّل، تجوزت في صلاتي، ولحقت بنخلي أسقيه، فزعم أني منافق».. سكت النبي ﷺ مؤيدًا صنع الرجل، ولم ينكر عليه، ولم يقل له: إن صلاتك باطلة، بل على العكس التفت إلى معاذ، وأقبل عليه، وعاتبه عتابًا مخيفًا.. حذره أن يفتن الناس عن دينهم حتى وهو إمام مسجد، وقال له: «أفتان أنت يا معاذ؟ أفتان أنت» «لا تطول بهم، اقرأ: بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، ونحوهما» أنصت معاذ لتلك الوصية الجميلة، وعمل بها، وها هو اليوم يقف أمام نبيه، وقد استدعاه القائد ﷺ هذه المرة ليعينه نائبًا لأمير اليمن وهو يعرف حماسه للدعوة والدين، لكنه أوصاه بوصية لا تقل رحمة عن الأولى.

منهج القائد في التعامل مع الطوائف

عين القائد ﷺ الشاب العشريني (معاذ بن جبل) معينًا لأمير اليمن أبي موسى الأشعري ونائبًا له ومساعدًا، وعلى الرغم من قوة الدولة واتساع مساحتها، إلا أن القائد ﷺ لم يتخلَّ عن سنة الرحمة وأسلوب التدرج في الدعوة، فهو لم يسعَ لتوسيع مساحة دولته على الأرض، بل سعى لاجتياح القلوب واحتلالها بالرحمة والحب والرفق.

قدم ﷺ لتلميذه معاذ أولويات الدولة في الجانب الدعوي على أرض جديدة تسكنها طوائف متعددة.. لم يأمره بإرغام الناس على الإسلام، ولا بقتل من يرفض الدخول فيه، ولم يأمره بأخذ الجزية.. أوصاه وهو يرسله لأرض تعجّ باليهود والنصارى والوثنيين أن يفتح عقولهم وقلوبهم إلى ركن الإسلام الركين.. إلى الكلمة التي ظل يناضل من أجلها ثلاثة عشر عامًا بمكة، فقال: «**إنك ستأتي قومًا من أهل**

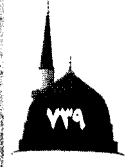
الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة».

حسنًا، فإن لم يطيعوا؟ لا يأس ولا توقف.. استمر في دعوتهم حتى يوحدوا؛ لأن الصلاة وما بعدها لا قيمة لها دون شهادة وتوحيد؛ لذا أكمل ﷺ فقال: «**فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم. واتّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**». تعاليم تحلق بالإنسان في معارج التوحيد بعيدًا عن خرافات الوثنية، ثم تعيده إلى عالم الواقع بالزكاة، حين تمر به على بيوت المعدمين وذوي الحاجة لتملأها بالغنى والشبع والفرح، ولأن الأمير سلطة قاهرة فلن يخيفه شيء أكثر من سلطة الله عليه «**اتّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» اتّقِ دعوة المظلوم فحواسك وكل بدنك بيده سبحانه، وهو القاهر فوق عباده.

في تلك الوصية يصدر قائد الدولة ﷺ تحذيرًا لكبار موظفيه قائلًا: «**إياك وكرائم أموالهم**» فمتى نظفت يد الأمير من أموال شعبه.. سيجد يده قد امتلأت بقلوبهم وأرواحهم، ثم أوصى القائد ﷺ الأميرين أبا موسى ومعاذ، فقال: «**يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا**»«**وتطاوعا**» أصبح الإسلام دين اليمن لكن بقايا الوثنيين بدؤوا بتجميع فلولهم، وقرروا مقاومة الإسلام وإعادة الأصنام متناسين أن أهل اليمن هم من أتوا طائعين مختارين لعاصمة الإسلام.. هم من اعتنق الإسلام دون أن تطأ أرضهم رجل جندي واحد؛ لذا فأن تفرضَ أقليةٌ رأيها على أكثرية أهل اليمن أمرٌ ترفضه اليمن نفسها، فما موقف قائد دولة الإسلام من تلك الفلول؟

قائد يوزع نصيبه على شعبه

عندما بعث النبي ﷺ لم يرغم الوثنيين على اعتناق الإسلام، بل اضطهده الوثنيون ليتخلى عن رسالته، وعندما شيّد دولته شيّدها دون أن يريق قطرة دم،



فاتحد الوثنيون كلهم على حربه حتى قال أحد الصحابة: «لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينـة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة» وبعد أن تحطمت الوثنية.. بدأ دور النصرانية، فشنّ النصارى العرب بمؤازرة الإمبراطورية الرومانية الصليبية الغاراتِ لتحطيم دولة الإسـلام، أما المجوس فأخرتهم خلافاتهم عن شـن الغارات حتى الآن، ومع ذلك ظل القائد ﷺ في كل معاركه مدافعًا عن حرية شعبه في اعتناق ما يشـاؤون، وها هو الإسـلام يصبـح دين اليمن، لكـن فلول الوثنيـة يريدون منع الأكثرية من اختيار التوحيد.. أمثال هؤلاء يحتاجون إلى أمثال خالد بن الوليد الذي ترتعد فرائص الوثنيين لذكر اسـمه؛ لذا سيّره القائد ﷺ على رأس جيش لهم، فنجح في مهمتـه، وتـوارت الفلول، وانكسروا مؤقتًا، ثم اسـتبدل بخالد عليًّا في مهمة قال عنهـا أحـد الجنود الفتيان، وهو البراء: «بعثنا رسـول الله ﷺ مـع خالد بن الوليد إلى اليمـن، ثـم بعـث عليًّا بعد ذلك مكانه، فقـال: **مرْ أصحاب خالد من شـاء منهم أن يعقـب معك فليعقب، ومن شـاء فليقبل**». فكنت فيمن عقـب معه، فغنمت أواقي ذوات عدد. وغنم المسـلمون غنائم. فأخذ علي قطعة ذهب لم تفصل عن تربتها، ثم غلفها بأديم مقروظ، أي بجلد مدبوغ، وأرسلها لقائده ﷺ؛ لأنها نصيبه من الغنائم، ونصيبه هو خمس الخمس.

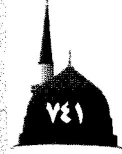
أخـذ الجنـدي الذهب المغلف، وانطلـق حتى وصل المدينة، فسـلمها لنبيه ﷺ، وكعـادة قائـد الدولة ﷺ، لم يحتفظ بذهب أو فضـة في رصيده يومًا.. لم يبت يومًا وفي بيته شيء منها. فتح القائد الغلاف، وأخرج الذهب وتأمله، فلم يحتفظ به لنفسه، ولم يعطِـه لكبـار رجال الدولة، ولا لخالد الذي كان يصول ويجول في اليمن قبل شـهر، بـل وزّعه ﷺ على فئة من شـعبه.. هي الفئة نفسـها التي أغـدق عليها في حنين وهم فئـة المؤلفـة قلوبهم من أمـراء القبائل المؤثرين على قبائلهم.. المسـاهمين في اسـتقرار الدولة.. قسمها بين أربعة من بينهم عيينة بن بدر وأقرع بن حابس وزيد الخيل. نظر أحـد الحضور إلى أولئك الرجال، ثم قارنهم بالسـابقين مـن المؤمنين، لكنه لم يكلف نفسـه النظر إلى حكمة نبيه، فقال بامتعـاض: «كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء» وصل الخـبر للقائـد ﷺ، فقام على منبره، وخطب في صحابته قائلًا: «**ألا تأمنونني وأنا أمين**

من في السماء، **يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء**».. أغرت تلك الجرأة رجلًا متهورًا، فتلفظ بكلمات أغرت سيف خالد برقبته.

بذرة أخرى للخوارج عند توزيع الغنائم

على أرض اليمن الإسلامية وزّع علي بن أبي طالب أربعة أخماس غنائم الحرب التي انتصر فيها.. وزّعها على المجاهدين، ثم أرسل الخمس لقائده ﷺ، فوزّع القائد نصيبه الخمس على الأمراء المؤلفة قلوبهم.. أعطاهم مرة أخرى كما أعطاهم على أرض حنين، فهؤلاء لم يتربوا على يده ﷺ.. لم يعانوا معه أو يقاتلوا، بل إن بعضهم قاتله عشر سنوات وهم لا يسكنون المدينة معه حتى يتسنى لهم التأثر بسلوكه.. أمثال هؤلاء يحتاجون إلى شيء مؤثر يتناسب ومكانتهم: العطاء ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وفي أثناء العطاء تكرر المشهد مرة أخرى.. قام رجل من بين الحضور غائر العينين مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة كثّ اللحية.. محلوق الرأس مشمر الإزار، فصاح بنبي الله ﷺ فقال: «يا رسول الله اتّقِ الله» فقال ﷺ: «**ويلك أولست أحقَّ أهل الأرض أن يتقي الله؟**».

أُفحم الرجل، فولى مندحرًا، لكن خالد بن الوليد لاحقه بنظرات كاللهب.. استشاط خالد النزيه الذي ما تطلع لعطاء أو منصب.. استشاط غضبًا لله ورسوله.. يريد وضع حدّ لهذه المهزلة، فقال: «يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال ﷺ: **لا، لعله أن يكون يصلي**. فقال خالد: وكم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟» عندها بيّن ﷺ لخالد الأمير ألا يكرر ما فعل ببني جذامة.. بيّن له أنه عسكري من جنود دولة الإسلام، وأن هذه الدولة يضبطها نظام عادل وإلا ستنها.. قال ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم**»، ثم بيّن لأمته أنها سترى من أمثال هؤلاء الكثير.. شباب متحمس لا يؤمن إلا بعسكرة الإسلام؛ لذا نظر ﷺ إلى الفتى المتطرف، وقال عنه وهو مُقَفٍّ: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا، قوم يتلون كتاب**



الله رطبًا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود» كلمات ترسم سنته ﷺ ومنهجه في التعامل مع التطرف الذي لا يعرف من الإسلام سوى العسكرة، ولا يعرف من تعاليمه سوى القتال. فها هو نبي الأمة وقائد الدولة ﷺ يترك هذا المتطرف الذي اتهم رأس الدولة.. تركه يعبر بكلمة، وردّ عليه بكلمة؛ لأن التعبير عن الرأي مكفول في دولته ﷺ.. كلمة بكلمة، ورأي دحضه وحي. لم يكفر النبي ﷺ هذا المتطرف، ولم يقتله، ولم يعتقله، ولم يمسّه بأذى؛ لأنه لا يمثل تهديدًا في ظل توجه الدولة بكليتها نحو العدل بكتاب الله وسنة رسوله، فالأفكار المتطرفة تتقوض عندما تعرض على الكتاب والسنة، فمتى تعرض على السيف؟

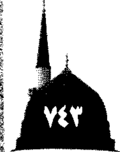
نظام واهتمام بالمطلقة

ردّ النبي القائد ﷺ على الفتى المتطرف بكلمة؛ لأنه قال كلمة، فمتى يكون الرد على الخوارج بالسيف؟ لا يعرضون على السيف إلا في حالة تحولهم إلى مجموعات مسلحة تتحرك على وجه الأرض لشق جماعة المسلمين، وزعزعة أمنهم وأمن دولتهم.. هنا لا بد للدولة الإسلامية من القيام بمسؤولية حماية شعبها ونظامها بالردع المسلح؛ حتى تنكسر شوكة التطرف، ويزول ضرره؛ لذا قال ﷺ: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**» وهذا الصنف من المسلمين قد لا ينقصهم الإخلاص وحسن النية، لكنهما لا يكفيان لتبرير أقوالهم وأفعالهم المتطرفة. هذا ما كان يجري في عاصمة الإسلام، أما على أرض اليمن، فإن كان الأمير علي أرسل لقائده ﷺ ذهبًا من اليمن، فإن ابن عم خالد بن الوليد وهو أبوعمرو بن حفص بن المغيرة.. قد بعث لزوجته فاطمة بنت قيس بحزنين، حين أرسل رسالة مع أحد أقاربه يبلغها بأنه قد طلقها الطلقة الثالثة، ربما لأنه يشعر بدنو استشهاده، فغادر المبعوث أبوعمرو اليمن، ولما وصل المدينة توجه نحو فاطمة، وأبلغها الخبر، وسلمها عشرة أصواع: خمسة من التمر، ومثلها خمسة من الشعير، فضاق صدرها من الطلاق، واستغربت

معـة الطلاق قائلة لأبي عمرو: «أما لي نفقـة إلا هذا، ولا أعتد في منزلكم؟ قال: لا» ثـم بلغهـا فيما بعد استشـهاد طليقها، فتحـيرت، ولجأت لنبيها ﷺ تسـأله عن حقها في الحصـول عـلى النفقـة مـن إرث طليقهـا، وتقول: «شـددت عـليّ ثيـابي، وأتيت رسـول الله ﷺ فقـال: **كم طلقك**؟ قلـت: ثلاثًا قال: **صدق، ليس لك نفقة**»، فشـعر خالـد بن الوليد بالمسـؤولية تجـاه ذمة ابن عمه حـين علم باستشـهاده، فأخذ بعض أصدقائـه، وتوجـه نحو القائد ﷺ، فوجـدوه في بيت زوجته ميمونة.. سـلموا عليه واسـتأذنوا للدخول عليه، فأذن لهم، فأخبروه بأن ابن عمهم طلق امرأته ثلاثًا، فهل لهـا من نفقة؟ فقال ﷺ: «**ليسـت لها نفقة وعليها العـدة**» فخرج خالد ومن معه، وقد شـعروا بارتياح لبراءة ذمة الشـهيد، وأخلوا مسؤوليتهم، لكن قائد الدولة ﷺ يشعر بمسـؤوليته ومسـؤولية دولته تجاه شعبه رجالًا ونسـاء.. نادى أحد رجاله، وأرسله لفاطمة المطلقة ليقول لها: «**لا تسبقيني بنفسك**»، ثم أرسل لها يطلب منها أن تعتد في بيت امرأة غنية من الأنصار تدعى أم شريك. ثم استدرك، فقال: «**إن أم شريك يأتيها المهاجـرون الأولون**» وهي «امرأة عظيمة النفقة في سـبيل الله ينزل عليها الضيفان». فقـال ﷺ: «**اعتـدّي في بيت ابن عمـك ابن أم مكتوم، فإنه ضريـر البصر تلقي ثوبك عنـده**» «**إذا وضعـت خمارك لم يرَك**» فانتقلت فاطمة لبيـت ابن عمها وزوجته، وبعد أن انتهـت عدتهـا كثر خطابها، في مشـهد يحتفي بالمطلقة.. مشـهد لم يشـوّهه إلا تأثر المسلمين بتعاليم اليهود والنصارى حول المطلقة، فكيف تأثروا؟

المطلقة بين المسلمين واليهود والنصارى

كثر خطاب فاطمة المطلقة في مشهد حضاري لم يتأثر بثقافة اليهود والنصارى، الذين يهينون المرأة اعتمادًا على كتابهم المقدس، فكتابهم يحكم على المطلقة بأنها زانية، ومـن يتزوج بهـا زانٍ مثلها، بل إن تعففت بزواج آخر فهـي زانية، ويحرم على القس والحاخـام التزوج بها؛ لأنها نجسـة.. كثر خطاب فاطمة بنـت قيس، لكنها فوجئت بالنبـي ﷺ ينتقـي لها زوجًـا لم تكن ترغـب به، فقائـد الدولة ﷺ جعـل اهتمامه بهذه



المواطنة المسكينة ضمن أولوياته؛ لذا كان قد قال لها: «**إذا حللت فآذنيني**»، فأخبرته بانتهاء عدتها، وأخبرته بأنه قد تقدم لخطبتها ابن زعيم قريش السابق معاوية أبي سفيان، وخطبها أحد وجهاء قريش ويدعى أبوالجهم بن حذيفة. وقف قائد الدولة أمام تلك المواطنة كمستشار، فهو القائل: «**المستشار مؤتمن**»؛ لذا نصح لها، فقال: «**أما معاوية فرجل ترب (صعلوك) لا مال له، وأما أبوجهم، فرجل ضراب للنساء**» «**لا يضع عصاه عن عاتقه**»، ثم أحب أن يتحف ذات الحسب والنسب بما يسعدها، فانتقى لها فتى أسود يحبه الله، ويحبه الرسول، وكأنه من صلبه، فقال: «**أنكحي أسامة بن زيد**» استغربت ابنة قيس، فأسامة لم يكن ضمن من تحلم بهم، أو حتى من ترضى بهم.. هي نفسها تقول ذلك، فقد نفضت يديها بإشارة تعني الرفض، وقالت: «أسامة، أسامة»؟! بل عبرت عن مشاعرها، فقالت: «فكرهته» فكرر ﷺ ترشيحه، وقال: «**طاعة الله وطاعة رسوله خير لك**» فقالت: «أمري بيدك، فأنكحني من شئت» فزوجها أسامة، فقالت: «فجعل الله تعالى فيه خيرًا كثيرًا، واغتبطت به».

كان زواج هذه السليلة الجميلة بهذا الشاب الأسود مؤشرًا على رقي الإسلام عن العنصرية والتحيز لعرق، بل وصف ﷺ زواجها بقوله: «**طاعة الله وطاعة رسوله خير لك**» بعد أن جعل الخيار بيدها، فبإمكانها أن ترفض ولا تثريب عليها، فهي حرة في انتقاء شريك حياتها، وقبل أسامة تزوج والده زيد بن حارثة من ابنة عمة القائد ﷺ زينب بنت جحش، وكذلك تزوج بلال من أخت عبدالرحمن بن عوف وغيرهم وغيرهم، والزواج قبل هذا وبعده خيار شخصي.. مبني على التوافق لا على العنصرية. وقبل أن تزفّ فاطمة إلى أسامة ملأ سماء المدينة نداء مفاجئ في غير وقت الصلاة: «**الصلاة جامعة.. الصلاة جامعة**».. التفت الجميع لمصدر الصوت.. فتحت الأبواب، وخرج الرجال والنساء، والتقت آلاف الخطوات في مقر القيادة (المسجد). دخلوا.. صاروا يؤدون تحية المسجد، ودخلت فاطمة بنت قيس، فجلست في الصف الأول خلف الرجال مباشرة. جلس الجميع في حالة ترقب.. ينتظرون كلمة قائد الدولة ﷺ.

المطلقة والمخلوق المرعب

دخلت فاطمة بنت قيس خطيبة أسامة بن زيد.. دخلت المسجد الذي اكتظ بالرجال والنساء، ودخل معهم رجل نصراني أسلم توًّا.. قضى النبي ﷺ صلاته، ثم نهض وتوجه نحو منبره، وصعد درجاته الثلاث، ثم جلس عليه.. تزين وجهه ابتسامة عذبة، ثم هتف بمن في المسجد، وهو يضحك: «**ليلزم كل إنسان مصلاه**».. لزم الرجال والنساء أماكنهم وعيونهم معلقة بقائدهم ﷺ.. ساد المسجد السكون، فنطق القائد ﷺ قائلًا: «**أتدرون لم جمعتكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميمًا الداري كان رجلًا نصرانيًّا، فجاء فبايع، وأسلم، وحدثني حديثًا**» ثم روى ﷺ حكاية تميم التي حدثت قبل أشهر.

فقبل أشهر ركب تميم سفينة كبيرة مع ثلاثين رجلًا من قبيلتي لخم وجذام.. انطلقت السفينة تشق البحر.. ترتفع، وتنخفض بهم أيامًا وليالي، وفي أحد الأيام اشتدت الريح، وتلاطمت الأمواج، وترنحت السفينة، وعجز ربانها عن التحكم فيها.. شهر من المعاناة وسط التيه، حتى لاحت لهم ذات عصر جزيرة موحشة.. توجهوا نحوها، ولما أصبحوا قريبًا من شاطئها ألقوا مراسيهم، وحلوا أربطة القوارب الصغيرة المعلقة على جوانب السفينة، وأنزلوها بالحبال حتى أصبحت على الماء، ثم انحدروا من الحبال، فركبوها، ولما ركبوا القوارب الصغيرة جدفوا نحو الجزيرة، حتى ألقوا مراكبهم على رمالها في وقت كانت الشمس تنغمس في البحر.. مشهد شاعري لم يدم طويلًا.. خرجوا من القوارب، ومشوا داخل الجزيرة علّهم يجدون دليلًا أو أناسًا يدلونهم، أو يزيلون وحشتهم... فقد بدأ الظلام يكسو الشاطئ، وخلال ذلك الظلام رأوا مخلوقًا مخيفًا يجول على الشاطئ، وكأنه ينتظرهم.. حدقوا فيما بقي من ملامحه، فلم يروا سوى كتلة من الشعر تكسوه بشكل مفزع. استجمعوا شجاعتهم، وصاحوا به: «ويلك ما أنت؟» فجاءت الإجابة مرعبة: «أنا الجساسة. قالوا: وما الجساسة؟» لم تكشف الجساسة المزيد عن هويتها، لكنها أشارت إلى معبد يسمى الدير، وقالت: «أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق».

اقشعرت جلودهم، وارتجفت قلوبهم موقنين أنها من الجن، لكن لما علموا بوجود رجل في الدير بدؤوا يركضون بأقصى سرعتهم خوفًا منها.. علّهم يجدون في الدير حاخامًا أو رهبانًا أو عابدًا يدلهم أو يفسر لهم ما يجري. وصلوا الدير.. تأملوا جدرانه، ولما رأوا الباب دخلوه.. كانت جدرانه تومض من الداخل بالمشاعل.. جالت أعينهم فيه، وإذ بهم يصدمون بمشهد أكثر رعبًا.

العملاق المخيف

هبط الظلام على الشاطئ، والركاب التائهون الخائفون يركضون نحو المعبد. دخلوا مبنى الدير المخيف، وجالت أعينهم في جدرانه التي تومض من المشاعل.. حدقوا، فهالهم ما رأوا.. عملاق مكبل بالحديد.. قد صفدت يداه بالأغلال، وبسلسلة متصلة بطوق في عنقه، وبطوق آخر من الحديد من ركبتيه إلى كعبيه.. أنساهم مشهد الأغلال وضخامة الرجل رعب المشهد السابق.. اقتربوا من العملاق الذي كانت إحدى عينيه طافية كحبة العنب، فصاح بعضهم من الرعب: «ويلك ما أنت؟».

حدق العملاق بعينه السليمة بمن حوله.. مستغربًا عثورهم عليه في هذه الجزيرة النائية.. لم يجبهم.. عاجلهم بسؤال: «قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهرًا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها. فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يُدرَى ما قُبُلُه من دُبُره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق. فأقبلنا إليك سراعًا، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة» عاد العملاق يطرح أسئلة عن أماكن في الشام بطريقة تثير الخوف، فقال: «أخبروني عن نخل بيسان؟» فقالوا: «عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟» فقالوا: «نعم. قال: أما إنه يوشك ألا تثمر»، ثم

قال: «أخبروني عن بحيرة الطبرية؟» فقالوا: «عن أي شـأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشـك أن يذهب» ثم سـألهم عن عين يقـال لها: زغـر، «وهل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟» فقالوا له: «نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها»، ثم طرح السؤال الأهم والأخطر، فقال: «أخـبروني عـن نبي الأميين مـا فعل؟ قالوا: قد خـرج من مكة، ونـزل يثرب. قال: أقاتَله العرب؟ فقالوا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟» فأخبروه بانتصاره على الوثنيين، فتشوق لمعرفة المزيد، وقال: «قد كان ذلك؟» فقالوا: «نعم. قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه» ثم سأل، فقال: «فما فعلتْ فارس؟ هل ظهر عليها؟ قَالُوا: لم يظهر عليها بعْدُ، قَالَ: أما إِنَّهُ سـيظهر عليها»، وفجـأة وثب العملاق وثبة مخيفة رددت الجدران من شـدتها صدى صلصلة السلاسـل والأغـلال حتى ظنوا أنه سـيفلت، فارتجفت قلوبهم، وفزعزا، وقالوا وهم في أشد حالات الرعب: «من أنت» فقال: «إني مخبركم عني: إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج».

الدجال وابن صياد مجددًا

قال المسـافرون وهم في أشـد حـالات الخوف: «مـن أنت؟ فقـال: إني مخبركم عني: إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج، فأسير في الأرض، فـلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكـة وطيبة، فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة منهما، اسـتقبلني ملك بيده السـيف صلتًا يصدّني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها».

كان النبـي ﷺ عـلى المنبر يقـص حكاية تميم الـداري، وهو يمسـك بعصاه، ثم رفـع ﷺ عصـاه، ثم طعن بهـا أرض المنبر، وهتف بمن في المسـجد: «**هذه طيبة، هذه طيبـة، هذه طيبة**»«**ألا هل كنـت حدثتكم ذلك؟**» فقال النـاس وكلهم ذهول: نعم، ثم قال ﷺ: «**فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكـة، ألا أنـه في بحـر الشـام أو بحر اليمن، لا بـل من قبل المشرق مـا هو، من قبل**

المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو». وأومأ بيده إلى المشرق. وقد حث ﷺ أصحابه وأمته على الاستعاذة من هذا اليهودي الدجال، بل كان يدعو في الصلاة: «**اللهم، إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا، وفتنة المات، اللهم، إني أعوذ بك من المأثم والمغرم**» نهتف أحد الصحابة قائلًا: «ما أكثر ما تستعيذ من المغرم! فقال: **إن الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف**». تبين للصحابة أن الدجال مأسور في جزيرة نائية في الشرق، لكن ماذا عن ابن صياد؟ يبدو أنه يهودي يحاول استغلال الشبه بينه وبين الدجال لإخافة من حوله، وبث الرعب فيهم.. في محاولة لإشباع غروره، لكن القصة الآتية كشفت عن علاقة بين الاثنين.

في سفرة من السفرات كان ابن صياد ضمن قافلة، وكان يعاني كآبة شديدة كاد معها يشنق نفسه وكأنه يدفع ثمن تهوره وعمله بالكهانة.. كان حزينًا، لا يسايره أحد، ولا يرافقه، ولا يؤاكله، ولا يشاربه، ويسمونه الدجال.. وصلت القافلة لمكان كثير الشجر، فتوقفت وأنيخت الإبل وتفرق الناس بحثًا عن الظل تحت الأشجار، وابن صياد وحيد يبحث عن رفيق.. تلفت، فرأى أبا سعيد الخدري يضع متاعه تحت ظل شجرة، فمد يديه وحل رباط متاعه، وأخذه من على راحلته، وتوجه نحوه، وما إن رآه أبو سعيد حتى استوحش منه وحشة شديدة، ولما وصل وضع متاعه على الأرض بجانب متاع أبي سعيد، فاعتذر أبو سعيد بلطف قائلًا: «إن الحر شديد، فلو وضعته تحت تلك الشجرة» انحنى ابن صياد، فحمل متاعه مرة أخرى، وتوجه به للشجرة وجلس، وفجأة شاهد قطيعًا من الغنم، فاستغله لكي يتقرب من أبي سعيد.

دجال آخر في المدينة

شاهد ابن صياد قطيع الغنم، فأخرج من متاعه قدحًا كبيرًا يقال له: العس، ثم نهض ومشى حتى لحق بالغنم، جالت عينه الوحيدة بينها، فانتقى حلوبًا منها، فجلس وحلبها، ولما انتهى نهض بالعس المليء باللبن، وتوجه به نحو أبي سعيد عله

يزيل وحشته منه، فمدّ يديه، وقال: «اشرب أبا سعيد».. اعتذر أبوسعيد مرة أخرى على الرغم من حبه للبن؛ لأنه يكره أن يشرب من يده، وقال: «إن الحر شديد واللبن حار»، لكن ابن صياد لم ينصرف.. وضع الإناء، وجلس وبدأ يبوح بكآبته، ويقول: «أبا سعيد، لقد هممت أن آخذ حبلًا، فأعلقه بشجرة، ثم أختنق مما يقول لي الناس، يا أبا سعيد، من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار؟ ألست من أعلم الناس بحديث رسول الله؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: هو كافر وأنا مسلم، أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: هو عقيم لا يولد له، وقد تركت ولدي بالمدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله: لا يدخل المدينة ولا مكة وقد أقبلت من المدينة، وأنا أريد مكة؟».

رقّ له أبوسعيد وكاد يعذره، لكن ابن صياد أراد طمأنته، فأفسد كل شيء بغبائه حين حلف: «أما والله إني لأعرفه، وأعرف مولده وأين هو الآن»«والله ما أنا بالدجال. ولكن والله لو شئت لأخبرتك باسمه واسم أبيه واسم أمه واسم القرية التي يخرج منها» انتفض أبوسعيد، وفزع من معلوماته حتى قال: «فلبسني» أي جعلني أشك في أمره، ثم قال أبوسعيد: «تبًا لك سائر اليوم» تلك قصة الدجال المنتظر، لكنه ليس الوحيد، فهناك دجال آخر في طريقه الآن للمدينة، وذلك حين كان النبي ﷺ نائمًا، فرأى في المنام كأن خزائن الأرض أحضرت له، فوضع في يديه إسوارين من ذهب، فكبرا عليه وأهماه، فأوحي إليه: انفخهما. فنفخهما، فذهبا. يقول ﷺ: **«فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة»** أول كذابين سيدعيان النبوة.. ظهر الأول في اليمن التي بارك الله فيها، وظهر الآخر في اليمامة ريف مكة وأرض حنطتها.. ديار الرجل الذي صنع طين المسجد النبوي طلق بن علي.. ديار الأمير العظيم ثمامة بن أثال أول من سن المقاطعة الاقتصادية نصرة لله ورسوله ﷺ، وها قد أقبل وفد اليمامة معلنًا انضمامها لدولة الإسلام.. كان وفدًا حاشدًا، وكان من بين زعمائه رجل حقود يقال له: مسيلمة، وقد قدم بطموحات أكبر منه، بل بطموحات تنسف دولة الإسلام الحديثة.. كان هذا المعتوه يعدّ نفسه لخلافة النبي ﷺ، وكأن الأمة لا خيار لها، بل ما قدم إلا ليطلب ذلك من

القائد ﷺ؛ لذا بدأ الترويج لنفسه وهو في الطريق، فكان يقول لرفاقه: «إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته». فما موقف النبي ﷺ منه؟

مسيلمة يؤلف هراء

نزل وفد اليمامة في دار امرأة أنصارية غنية يقال لها: بنت الحارث، وقد سبق لمسيلمة أن تزوجها، فأكرم النبي ﷺ وفد اليمامة، وتوجه لتحيتهم والترحيب بهم ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وهو الذي يقال له: خطيب رسول الله، لكن مسيلمة أفسد اللقاء باستفزاز للنبي ﷺ، وقد سبق للقائد ﷺ أن تجاوز عن كل الإساءات الموجهة لشخصه، لكن أن يزعم أحد أنه نبي بعده، فأمر ينسف ما بعث من أجله.

وصل القائد ﷺ فكلم مسيلمة ورفاقه، ففاجأه مسيلمة بوقاحة، وقال: «إن شئت خليت بيننا وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك» كان ﷺ ينصت وفي يده قطعة جريد، فلما انتهى مسيلمة من وقاحته سحقه ﷺ بكلمات كالسيف، فقال: «**لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله**» ثم ذكره بالرؤيا التي رآها قائلًا: «**وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني**»، ثم انصرف عنه بعد أن حوله ﷺ إلى حاوية للسخرية بين الوفود.. هذا الأفاك الذي لا يعي ما يخرج من رأسه.. يريد أن يكون نبيًّا! بل شرع منذ عودته إلى اليمامة بتأليف هراء يزعم أنه وحي، وذلك بعد أن صعقه ما رأى من نظام تشريعي واجتماعي وعبادي وسياسي واقتصادي إسلامي راقٍ.. لاحظ انتشار الكتاب.. القرآن في البيوت لأول مرة.. تأثر بتداول القرآن بين الشعب، فلما عاد لليمامة حاول استنساخ الأمر، فبدأ بتأليف كتاب علّه يحدث الأمر نفسه بين قومه، لكنه أتى بهراء قال فيه: «والطَّاحِنَاتُ طَحْنًا فَالْعَاجِنَاتُ عَجْنًا، فَالْخَابِزَاتُ خَبْزًا فَالثَّارِدَاتُ ثَرْدًا فَاللاقِمَاتُ لَقْمًا».

كان أمير حنيفة ثمامة بن أثال يدرك دجل مسيلمة، ويدعو الناس لمراجعة عقولهم، لكن بعض المتعصبين للقبيلة التفوا حول الدجال حتى قال أحدهم: «كنت يوم بعث النبي ﷺ غلامًا أرعى الإبل على أهلي، فلما سمعنا بخروجه فررنا إلى النار

إلى مسيلمة الكذاب» ولا يستغرب منهم ذلك، فهذا الفتى يكمل كاشفًا عن العقلية الجاهلية السائدة، فيقول: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثْوَةً من تراب، ثم جئنا بالشاة، فحلبناه عليه ثم طفنا به».. رأى مسيلمة التفاف بعض المغفلين حوله، فزاد طموحه، فكتب رسالة للقائد ﷺ يعلن فيها نبوته، ثم استدعى رجلين من أتباعه أحدهما يقال له ابن أثال والآخر يدعى ابن النواحة، فأمرهما بإيصال الرسالة. انطلق الرجلان حتى وصلا المدينة، فتوجها لقائد الدولة ﷺ فسلماه الخطاب، فقرئ عليه، ولما انتهى القارئ نظر ﷺ للرجلين، وقال لهما: «**مَا تَقُولانِ أَنْتُمَا؟**».

دجال اليمن الأسود العنسي

وقف رسولا مسيلمة، وقرأ أحدهما رسالته، فنظر إلى الرسولين، وقال لهما: «**مَا تَقُولانِ أَنْتُمَا**؟ قالا: نقول: كما قال». قال: «**أتشهدان أني رسول الله**؟ قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله». فقال رسول الله ﷺ: «**والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما**»؛ لذا سن النبي ﷺ سنة سياسية متحضرة، وهي أن الرسل والبعثات الدبلوماسية لا تمس بأذى؛ لذا عاد الرجلان لليمامة التي هي جزء من الدولة الإسلامية.. عادا لمسيلمة، فأخبراه، فأضمر التخطيط للتمرد على الدولة الإسلامية.

هذا ما كان يعدّه مسيلمة، فما الذي يعدّه دجال اليمن الأسود العنسي؟.. دجال أغاظه انضمام اليمن لدولة النبي ﷺ، فبدأ التخطيط مع فلول الوثنيين للتمرد مجددًا عليها، دون أن يقدم مبررًا واحدًا للتمرد، فاليمنيون هم من أتى للانضمام، ودولة النبي ﷺ تبهرهم بإبداعاتها: لا ظلم.. لا مجازر.. لا اغتصاب.. لا قمع ولا إكراه في الدين، بل عدل وإيمان وأخوة ومكافحة للفقر وأخوة مع الفاتحين؛ لذا لم يجد العنسي مبررًا سوى الهرب للأمام، وافتعال حدث أكبر من الدولة نفسها، وهو (ادعاء النبوة) حتى يشعل حريقًا من العصبية، لكنه الآن لا يستطيع الإعلان عن ادعاء النبوة وأمير اليمن علي بن أبي طالب موجود؛ لذا التزم الحذر علّ عليًّا يغادر.

لم يكن الأسود ومسيلمة ولن يكونا آخر الدجالين، فعندما كثرت الشائعات حول مسيلمة نهض النبي ﷺ بعد إحدى الصلوات، وصعد منبره، وقام خطيبًا، فقال: «**أما بعد ففي شأن هذا الدجال الذي قد أكثرتم فيه، وإنه كذاب من ثلاثين كذابًا يخرجون بين يدي المسيح**» وقد كان الناس في الجزيرة العربية يقعون تحت ضغط رهيب من الدعاية الوثنية التي شوهت النبي ﷺ والدعاة.. دعايات ومقالات جعلت الناس ينفرون منهم، فهذا أحدهم يقول: «كنت يوم بعث النبي ﷺ غلامًا أرعى الإبل على أهلي، فلما سمعنا بخروجه فررنا إلى النار، إلى مسيلمة الكذاب» لم يقتصر الفرار من الحق على البسطاء والسذج والرعاة.. حتى كبار القوم فرّوا، فهذا هو القس عدي بن حاتم الطائي تحاصره الإشاعات حول دولة الإسلام، فيحزم أمتعته، ويركب مطيته، ويغادر دياره كرهًا للإسلام وبغضًا لنبيه دون مبرر.. يقطع آلاف الأميال عبر الفيافي والقفار نحو أرض الروم، ولما حطّ بمهد المسيحية، ونزل بها.. زادته الكنائس غربة، وزادته الغربة حيرة، فعاد لرشده.. يطرح على نفسه أسئلة كانت تغنيه عن ثقافة الكراهية لو طرحها في دياره.. أسئلة أخجلته، فجلس يفكر ويفكر، ويلوم نفسه على إقفال عقله قائلًا: «لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذبًا لم يخفَ علي، وإن كان صادقًا اتبعته».

عدي بن حاتم يعود لرشده

طرح عدي بن حاتم الطائي على نفسه أسئلة أحيته من جديد.. جعلته ينهض مجددًا، ويعيد حزم أمتعته، ويمتطي راحلته، ويعود، ولكن ليس لدياره، بل لعاصمة الإسلام. سافر ابن الكريم نحو أرض الكرم والكرام الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، بعد أن قال لنفسه: «لو أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذبًا لم يخفَ علي، وإن كان صادقًا اتبعته».. تهادت راحلة عدي في شوارع طيبة، فاستشرف له الناس، وبدؤوا يقولون: «جاء عدي بن حاتم، جاء عدي بن حاتم».. سار حتى وقف أمام النبي.. تأمله ﷺ فحدب عليه، وأشفق عليه مما هو فيه، فقال: «**يا عدي**

ابن حاتم، **أسلم تسلم**»، فقال عدي وكأنه يستدعي المزيد: «إن لي دينًا» فكشف له ﷺ المسافة الشاسعة بين حياة أمثاله من القساوسة والباباوات المترفة مقارنة بحياة المسيح المتواضعة.. كشف له حرمة المبالغ الباهظة التي يسطو عليها باسم الكنيسة، فقال له: «**أنا أعلم بدينك منك، أنا أعلم بدينك منك. ألست ترأس قومك؟**» فقال: بلى. قال: «**ألست تأكل المرباع؟**» اعترف عدي بأخذه ربع دخل رعاياه، فقال: بلى. فقال ﷺ: «**فإن ذلك لا يحل لك في دينك**» عندها شعر عدي برقي هذا النبي ونزاهته ونزاهة دينه، حتى اعترف بارتباكه، فقال: «فتضعضعتُ لذلك».. تضعضع عدي، كما يتضعضع كل نصراني حين يتأمل حياة المسيح الحقيقية، فيقارنها بحياة القساوسة والباباوات الذين يلبسون الذهب والحرير، ويأكلون الخنزير، ويشربون الخمر، ولا يختتنون، بينما كان المسيح مختونًا، كالمسلمين، ولا يأكل الخنزير كالمسلمين، ولا يلبس الذهب ولا الحرير كالمسلمين، بل إنه يلبس الإزار والرداء، ويلتحي كالمسلمين، والأهم أن المسيح يعبد الله وحده كالمسلمين، بينما المسيحيون يعبدونه، ويعبدون جبريل معه أيضًا. أحب ﷺ أن يضفي الطمأنينة على روح عدي، فكشف له زيف المظاهر والأبهة التي رآها في أرض الروم، فالمستقبل للعدالة والنظام، فقال: «**يا عدي بن حاتم، أسلم تسلم، فإني قد أظن أنه ما يمنعك أن تسلم خصاصة تراها من حولي، وتوشك الظعينة أن ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز، وليفيضنّ المال حتى يهم الرجل من يقبل منه ماله صدقة**».. أسلم عدي، ومرت الأيام، فأشرقت النبوات أمام عينيه، فقال: «رأيت الظعينة ترحل من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وكنتُ في أول خيل أغارت على المدائن، على كنوز كسرى بن هرمز، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة. إنه لقول رسول الله ﷺ لي». هكذا حولت الحقيقة هذا النصراني المتشائم إلى ثقة بالله ورسوله.. أصبح يحلف ثقة، ويبشر ثقة، لكنّ وفدًا نصرانيًا آخر لم يكونوا أحرارًا... وفد ورث النصرانية دون اقتناع، وبقي عليها عنادًا.

قساوسة نجران يهربون من التحدي

وفد نصراني يجسد صعوبة التخلص من الموروث.. انطلقوا من بلاد الأخدود.. من نجران نحو عاصمة دولة الإسلام، بعد أن وصلتهم أخبار انضواء الجزيرة لها، وكانوا في نجران يحاولون إحراج المسلمين بالتنقيب عن أي خطأ في تعاليم هذا الدين الجديد، فذات يوم كان المغيرة بن شعبة في نجران، فرآه القساوسة، فأقبلوا نحوه ليشككوه في القرآن كما يفعل المنصرون في كل زمان ومكان، وهي محاولة منهم للهروب للأمام.. الهروب من آلاف الأخطاء في الكتاب المقدس النصراني الذي يطفح بالكوارث بدءًا من جهالة مؤلفيه، ومرورًا بضياع لغته الأولى، وجهالة مترجميه، وتاريخ تدوين التراجم، ومصيبة تعدد نسخه التي تتجاوز المئة إنجيل، حتى أصبحت الأناجيل تزداد مع مرور الزمن باكتشاف المزيد من نسخ الكتاب المقدس التي تودع المتاحف، ولا تتاح للبحث العلمي. أمام هذه الكوارث يلجأ المنصرون للتشويش على القرآن لإلهاء النصارى عن أخطاء الكتاب المقدس.

سأل القساوسة المغيرة، فقالوا: «إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟» سكت المغيرة أمام هذا السؤال الذي يحتاج إلى معلومة.. ظل السؤال يحيره حتى عاد للمدينة، ولما قابل نبيه ﷺ سأله عن ذلك؟ فكانت الإجابة أيسر مما تصور. قال ﷺ: «**إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**» لم تصل الإجابة للقساوسة، فولد لديهم شعورًا بالانتصار والجرأة، فأرادوا نشر التشكيك في معقل الإسلام (المدينة)، وقد تطوع لهذه المهمة قسّان، فالنصارى بعد رفع المسيح بعشرات السنين قسموا الناس إلى طبقتين لا وجود لهما في الدين الإسلامي، بل لا وجود لهما حتى في الكتاب المقدس. الطبقتان هما: طبقة رجال الدين، وطبقة أخرى لبقية الرجال، أما النساء فلا طبقات لهن ولا دور، فالمرأة في الكتاب المقدس نجسة تنجس حتى البهائم، ولا يحق لها التعلم، أو حتى التكلم أو السؤال في الكنيسة.

وصل قساوسة نجران للمدينة، فرحب بهم نبي الله كعادته مع كل ضيف، فهو القائل: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**» وقد كان في مقدمة هؤلاء

القساوسة رجلان يدعى أحدهما: (العاقب) ويدعى الآخر (السيد) وقد بلغت بهما الجرأة أن يجعلا من المباهلة حلًّا، وهي الملاعنة، حيث يدعو كل خصم على نفسه باللعنة إن كان كاذبًا في دعواه. اقترب موعد المباهلة، فنظر القسان إلى بعضهما، واضطربا، واكتشفا ضعف حجتهما، وانهارت ثقتهم في عقيدتهم، فالتفت أحدهما للآخر، وطلب منه الانسحاب.

لماذا هرب قساوسة الكنيسة النجرانية؟

قال أحد القساوسة الذين جاؤوا لملاعنة النبي ﷺ ومباهلته: «لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا» أذعن القس الآخر لمطلب زميله وتشاورا، ثم أخبرا النبي ﷺ بقرارهما، وأنهما يطلبان انضمامهما للدولة الإسلامية، فقد اكتشفا قائدًا عادلًا لم تعرف المسيحية، ولا العالم مثله، فمنذ أصبح للمسيحية دولة على يد الإمبراطور قسطنطين.. لم تتوقف المجازر والمذابح بحق المخالفين كاليهود وغيرهم، بل بحق المثقفين والفلاسفة، ولم تتوقف المحارق بشأن المكتبات، كمكتبة الإسكندرية الشهيرة.

حرائق حولت تراث أوروبا الثقافي إلى رماد، وأغرقتها في ظلام الاستبداد والجهل ومحاكم التفتيش أكثر من ألف عام، وعندما بعث النبي ﷺ كانت أوروبا تعيش في أسوأ عصورها تحت حكم الكنيسة. رأى القساوسة عدالة القائد ﷺ وإنصاته للآخر، فتوجها بخطاب كله ثقة به، فقالا: «إنا نعطيك ماسألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا. فقال ﷺ: **لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين**».. أنصت الصحابة لتلك الصفة كما أنصتوا في خيبر، حين تحدث عن الراية، فاستشرفوا لها، فحدق ﷺ في أحد العظماء الجالسين حوله.. حدق في عامر بن عبدالله، فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**». فلما قام قال ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»، ثم أوصاه، فانطلق مع النصارى إلى نجران.

انطلق وفد نجران، وأتت وفود أخرى، وكانت الوفود في ذهابها وإيابها تطحن رجلًا قلبه كالحجارة قسوة وعنادًا وحسدًا، وكأن أيدي الوفود وهي تبايع تخنقه.. مشاهد مفرحة قتلت معنويات المنافق عبدالله بن أبي بن سلول، وأزمات نفسية وجسدية جعلته طريح الفراش. انهار جسده الضخم، وتحول إلى عينين زائغتين من شدة الغل.. لم يعد يحتمل انتصار التوحيد، ونجاح دولة التوحيد.. احتسى الرجل سم الحقد الذي صنعه بنفسه لنفسه وها هو السم يقتله، ويبدو من تقاسيمه وهزاله أنه راحل عن هذه الدنيا، وعلى الرغم من كل ما فعله من خيانات، وما خطط له من مؤامرات، فقد عفا عنه القائد ﷺ، ولم يكتفِ بالعفو عنه، فحين سمع بأمر مرض هذا المواطن الحاقد.. نهض لزيارته وهو الذي أمضى حياته خنجرًا في خاصرة دولة الإسلام.. مستشعرًا مسؤوليته تجاه أفراد شعبه مهما كانت ديانتهم، ومن أسوأ من منافق؟، لكن القائد ﷺ ليس مجرد حاكم يقيّم الناس باقترابهم من كرسيه.. إنه أرقى من ذلك.. هو رحمة لا تعرف اليأس، وأمل لا يكفّ عن التلويح، لكن ابن سلول طلب طلبًا غريبًا.

ابن سلول يطلب ثوب النبي ﷺ

زار القائد ﷺ زعيم حزب النفاق عبدالله بن سلول؛ علّه يجد في قلبه مكانًا لله ولرسوله.. تهادى نحو بيته، ولما وصل استأذن فأذن له، ولما دخل نظر إليه، فأدرك أنها النهاية، وقرأ فيه تقاسيم الموت، فرمى ﷺ له بآخر أطواق النجاة، وقال: «**أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود**» فإذا بعميل يهود ينفث بقايا حقده، ويقول: «أبغضهم أسعد بن زرارة فمه؟» أي ماذا أفاد أسعد بن زرارة كرهه لليهود؟ حيث إن أسعد مات في أول أيام الهجرة.. إجابة تفضح ضيق أفق هذا المنافق، ونظرته المحدودة بين جدران الدنيا الضيقة، فالنبي ﷺ لم يكن يعني أن حب اليهود هو الذي أمرضه، بل كان يعني أنني كنت أنهاك عن موالاتهم التي لا تفيد في مثل هذه الساعة، التي يكون فيها المرء أحوج ما يكون إلى الله وحده لا شريك له.

كان ابن سلول مكابرًا حتى في ساعات احتضاره.. لم يقل للنبي ﷺ أي كلمة تشير لأسفه وندمه أو توبته، فالحسد مازال يأكل قلبه، ويعميه، ويصمه.. انتهت

الزيارة، فخرج قائد الدولة ﷺ متألمًا من رد هذا الرجل الطافح بالغل، وبقي ابن سلول على فراشه يتأمل العالم الذي سيغادره، وربما العالم الذي سيقبل عليه.. كان ابنه المؤمن عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول يمرضه، ويعتني به على الرغم من نفاقه، فالله أرحم بالمنافقين من أنفسهم، والإسلام دين تحضر يقول لأولاد المنافقين وغيرهم: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[لقمان: ١٤ - ١٥]، ولكن بعد أن خرج النبي ﷺ من عند رأس النفاق.. شعر ابن سلول بالضعف، فالتفت لابنه، ونظر إليه، وطلب منه أمرًا غريبًا لم يطلبه من غيره، بل كان يسخر ممن يطلبه.. نادى ابنه، فقال له: «أي بني، اطلب ثوبًا من ثياب رسول الله، فكفني فيه، ومره فليُصلّ عليّ» ثم ضعف الرجل ضعف الموت، ولفظ أنفاسه الأخيرة، وأسلم الروح، فحزن الفتى على خاتمة أبيه، وانشغل هو وأهله بتكفينه، ثم حمله نحو قبره، ويبدو أن الابن نسي، أو شعر بالإحراج وسط عزوف المؤمنين عن اتباع جنازته.. مقارنة بالازدحام الذي يراه كلما مات عظيم من عظماء الأنصار المؤمنين.

حمله نحو قبره، ووضعه في اللحد، ثم أهال عليه التراب، ونفض يديه، وكأنه ينفضها من آخر المؤامرات على دولته، ثم نهض عنه وقد اختلطت في قلبه مشاعر الابن البار، والمؤمن المتألم من تاريخ أبيه الأسود.. تجاه نبي وقائد أضمر الخير لابن سلول، وتسامح معه حتى أحرج ابنه بتسامحه، لكن هذا الابن يدرك أي قلب بين جنبي نبيه وقائده ﷺ، وأي رحمة يهمي بها على شعبه؛ لذا قرر مصارحته بوصية والده.

هل ينفذ النبي ﷺ وصية ابن سلول

بعد أن دفن الشاب والده عبدالله بن سلول شعر برحمة النبي ﷺ، وتذكر تسامحه مع أشد أعدائه، وأن تسامحه مبدأ وليس مجاملة، فتهادى ثقيل الخُطا نحو

نبيه ﷺ.. نحو قائد الدولة، ولما أصبح أمامه نظر إليه وهو يتصبب خجلًا، وقال على استحياء: «يا رسول الله، أعطني قميصك أكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له».. كلمات أفزعت الحاضرين، أما النبي القائد ﷺ فلم يتردد.. نهض مباشرة نحو بيته، وخلع قميصه، ولبس غيره، ثم مشى مع هذا المواطن الحزين نحو قبر والده المنافق، ثم توقف أمامه بعدما دفن، فأخرجه، فنفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه، ثم وضع جثته الضخمة بينه وبين القبلة، ثم استأذن ابنه قائلًا: «**آذني أصلي عليه**»، فآذنه.

تراجع النبي ﷺ للوراء خطوات ليصلي عليه، ثم توقف، وقبل أن يكبر فوجئ بشخص يجذبه.. يحاول منعه من الصلاة. التفت ﷺ للرجل، فإذا هو عمر، والغضب والذهول يلون وجهه من شدة كرهه لابن سلول.. تقدم عمر، ووقف بين قائده ﷺ وبين الجثة، وقال لنبيه: «أليس نهاك أن تصلي على المنافقين؟» ثم بدأ يسرد قائمة بخياناته قائلًا: «يا رسول الله، أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟» «القائل كذا وكذا والقائلُ كذا وكذا؟». كان القائد ﷺ ينصت لوزيره ويَبْتسِمُ، وعمر يعَدِّدُ أَيَّامَهُ المخزية.. يسرد قائمة بخياناته ضد الإسلام ودولته وقيادته في أحد والخندق وتبوك ودوره في الإفك ومسجد ضرار وغيرها.. ظل عمر يسرد، فلما أكثر عمر أوقفه الرحمة المهداة.. أوقفه رحمة بعدوه، وقال: «**يا عمر، أخر عني إني قد خيرت، قد قيل:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، **فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت**».. انصاع عمر، وانسحب من المشهد، فكبر النبي ﷺ ثم صلَّى عليه، ومَشى معه، فقام علَى قبرِهِ حتَّى فرغ.. كان الشاب جابر بن عبدالله يشاهد ما يحدث، فبحث عن سبب لتكفين ابن سلول بثوب النبي ﷺ، فعادت به الذكريات لأيام بدر.. حينها كان العباس أسيرًا بين يدي المؤمنين، فقال جابر: «لما كان يوم بدر أُتي بأسارى وأُتي بالعباس، ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبي ﷺ له قميصًا، فوجدوا قميص عبدالله ابن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه» مكافأة له. تلك كانت وجهة نظر جابر، لكن الصحيح هو أن المنافق هو من طلب ذلك.. انصرف الجميع، وتنفست المدينة الصعداء بزوال جرثومة المؤامرات، وبعد

ذلك بمدة قصيرة نزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[التوبة: ٨٤].

أبوبكر أول أمير لأول حجة في الإسلام

تلاشى المنافقون بعد هلاك الخائن ابن سلول.. لم يتبقَّ سوى قلة، ومن بينهم أولئك الاثنا عشر الذين حاولوا رمي النبي ﷺ من قمة الهضبة بعد الرجوع من تبوك، فقال مرافقاه عمار وحذيفة: «يا رسول الله، أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: **لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم**». ثم قال: **اللهم، ارمِهم بالدبيلة**».. لم يعتقلهم على الرغم من أنه يعرفهم واحدًا واحدًا.. لم يتعرض لهم.. ترك لحقدهم مهمة قتلهم، فقد بلغ ذروة النجاح، ولن يلوث نجاحه بدمائهم، بل بشّر بنهاية حقبة النفاق، فقال: «**في أصحابي اثنا عشر منافقًا، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة**» وهي دُمَل أو خراج يسبب الموت.

واصلت وفود القبائل التوافد على المدينة، وأصبحت الجزيرة العربية كلها تقريبًا من البحر إلى الخليج ومن اليمن إلى الشام ضمن دولة الإسلام دون إكراه.. لم يجبرها أحد.. لم يغزُها أحد.. في حدث لم تشهده الجزيرة العربية من قبل، وفي هذا العام بالتحديد أمر النبي ﷺ بأمر عظيم، وكلف به أعظم رجل في أمته.. كلفه أن يقود الأمة كلها.. مسلمها ومشركها في مهمة كشفت عن قيمة هذا الرجل ومنزلته. اقترب شهر ذي الحجة من العام التاسع للهجرة، فاستدعى القائد ﷺ وزيره الأول وصاحبه في الغار أبا بكر الصديق، وطلب منه التأهب نيابة عنه في أهم حدث بعد الفتح: قيادة الشعب مسلمهم ووثنيهم لأداء حج بيت الله لأول مرة في الإسلام.



مثل الأمير بين يدي قائده، وانتشر الخبر في كل الجزيرة العربية، فتداعت الجموع من كل فج عميق، وانطلق نائب الإمام ﷺ بالجموع نحو بيت الله الحرام.. سالت الحشود كالطوفان.. تملأ السماء بالتلبية والتوحيد خلف الصديق، أما في المدينة فحدث أمر عظيم.. نزلت الفاضحة.. نزلت أثقل سورة على المنافقين تكشف خباياهم وأسلوبهم الذي لا يتغير مع الدين والوطن.. نزلت سورة التوبة تعرّي المنافقين في الماضي والمستقبل، فنادى النبي ﷺ أحد كتبة الوحي، وأملاها عليه، وأمره بأربع تعليمات خطيرة، ثم أمر علي بن أبي طالب بأن ينطلق إلى الأمير أبي بكر، ويسلمه الكتاب، ثم قدم له ناقته القصواء، وأمره بالانطلاق فورًا عليها.

امتثل أبوالحسن، فركب الناقة، وأسرع نحو مكة.. كان الأمير أبوبكر قد عسكر في إحدى محطات الطريق، وبينما هو في خبائه إذ سمع صوتًا أفزعه.. سمع صوت رغاء القصواء الناقة التي اشتراها أبوبكر لنبيه في مكة، ففزع، وخرج من خيمته.

أربعة بيانات في حجة أبي بكر

كان أمير الحج أبوبكر قد توقف بعشرات الآلاف من الحجاج في إحدى المحطات للاستراحة.. نصبت الخيام، وأوقدت النيران، وتفرق الحجاج هنا وهناك، ففوجئ الأمير بصوت رغاء يعرفه.. رغاء القصواء، ففزع أبوبكر، وكأنه يتساءل ما الذي أتى برسول الله ﷺ؟ خرج من الخباء فزعًا لاستقبال نبيه، لكنه فوجئ بعلي على الناقة. أناخ أبوالحسن القصواء، وسلم على أميره أبي بكر، ثم مد يده إلى مكان الكتاب، فأخرجه، وسلمه للصديق.

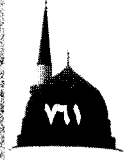
فتح أبوبكر الكتاب وقرأه، فإذا فيه أربع بيانات كُلّف علي بتلاوتها يوم النحر، وهي: أولًا: منع التقليد الوثني المنحط، وهو التعري في المسجد الحرام. ثانيًا: لن يدخل الجنة مشرك. ثالثًا: منع المشركين من الحج بعد هذا العام بعد أن تخلت قبائل الجزيرة العربية كلها رسميًّا وطواعية عن الشرك والأصنام. رابعًا: إعلان

الموقف السياسي لدولة الإسلام من أعدائها الوثنيين الذين حاربوها منذ قيامها، والذين لم يتبقَّ منهم إلا جيوب منبوذة، ومع ذلك أعلنت دولة الإسلام التزامها بالمواثيق والمعاهدات حتى مع الأفراد، فقد كانت القبائل الوثنية كلها قد حاربت دولة الإسلام، ورمتها عن قوس واحدة؛ لذا لا بد من إيجاد حل لمن تبقى من فلول الوثنيين من تلك القبائل، وتغطية احتمالات الأسوأ، فهم أصحاب سوابق. لذا كان البيان الرابع واضحًا: من كان قد وقع اتفاقية مع الدولة الإسلامية، فاتفاقيته سارية المفعول حتى ينتهي تاريخها، أما من كان معاديًا لدولة الإسلام ولم يوقع اتفاقية فقد قدمت له دولة الإسلام فرصة ومدة ليراجع نفسه، وهي أربعة أشهر، وهو موقف مفصل في سورة التوبة التي يتلوها أبوبكر الآن.

أتم الصديق تلاوة السورة والرسالة، ثم انطلق يقود الحشود ليؤدوا الحج فقط، حيث لم يكونوا يعرفون العمرة في موسم الحج، ولما جاء اليوم الثامن من ذي الحجة توجه بهم أبوبكر إلى منطقة منى، ثم توجه بهم في اليوم التاسع إلى منطقة عرفة، وبعد الغروب توجه بهم لمنطقة مزدلفة.. كانت أيامًا من التلبية والذكر والتوحيد لله، ولما أشرق اليوم العاشر، وهو يوم النحر قام الحجاج بذبح هديهم من الإبل والبقر والغنم، ووزعوا لحمه.. عندها طلب الأمير أبوبكر من علي بن أبي طالب تنفيذ مهمته، نهض علي يرافقه بعض الصحابة.. يطوف بين الحجاج يصيح بأعلى صوته معلنًا البيانات الأربع، فإذا تعب قام أبوبكر وأعانه، ونظرًا لكثرة الأعداد انتقى الأمير مجموعة تعلن مع علي حتى انتهى الحج، ولما انتهى عاد الصديق للمدينة وفي نفسه سؤال يقلقه.

إبراهيم يُبكي أباه

نظرًا لعدد الحجاج الهائل انتقى الأمير أبوبكر مجموعة لمواصلة إعلان البيانات الأربع، ومن بينهم أبوهريرة الذي يقول: «بعثني أبوبكر الصديق، في الحجة التي أمّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع، في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر».



استمر الإعلان طوال أيام التشريق، وهي ثلاثة بعد يوم العيد، حتى أتم الشعب مناسك حجهم، وبدؤوا بالعودة لديارهم، وقد علموا مكانة أبي بكر الصديق الذي نـاب عن القائد ﷺ في قيادة الشعب وإمارتهم، وانطلق الصديق بمن معه لعاصمة الدولـة، لكـن الصديق كان حساسًـا جدًّا.. لم تشغله الإمارة على الأمة عن محاسـبة نفسه.. ظن أن شيئًا نزل يخصه؛ لذا انطلق فور وصوله نحو نبيه، وسلم عليه، فرحب بـه النبـي ﷺ، وقدم له تقريره حول الحج، لكن الصديق كعادة العظماء الأنقياء سـأل نبيه عن تبليغ السورة، فقال: «هل نزل في شيء؟ قال: **لا، ولكني أمرت أن أبلغها أنا، أو رجل من أهل بيتي**» كان الأمر تكريمًا لعلي على بقية أهل البيت، كما أن قيادة الحج تكريـم لأبي بكـر على الأمة كلهـا، وخلال تلك الأيـام الجميلة لم تنقطـع الوفود عن المدينـة.. كانـوا يتدفقون موجات من الحب والسرور تغمر قلبه ﷺ، لكن هذا القلب ظل يسـتقبل موجات أخرى مـن الحزن.. لم تخلُ تلك الأيام مـن منغصات، فالحياة تحمل الفواجع لهذا النبي كل عام.

بلـغ النبـي ﷺ خـبر محزن حـول طفلـه إبراهيم، فاتجـه لبيت ماريـة ومعه أنس وعبدالرحمـن بن عـوف، ولما وصل دخل البيت، فإذا أمه تبكـي، فمد يديه نحو ابنه الوحيد، واحتضنه، وقبّله، فإذا هو ينازع، وإذا جسـده الصغير يذبل ونظراته البريئة تختفـي.. فاضـت عيناه وقبّلـه وصوت نزعه يدمـي القلب.. قبّله وهو يرى جسـده الغض يسـكن سـكون الموت، فسـالت دموعه، وقال: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم، إنا بك لمحزونون**».

نظـر ابن عـوف لدموع حبيبه ﷺ وتسـاءل عنها، وقال: «وأنت يا رسـول الله؟ فقـال ﷺ: **يـا ابـن عـوف، إنها رحمة**». ثـم أتبعهـا بأخرى، فقـال: «**إن العـين تدمع، والقلـب يحـزن، ولا نقـول إلا ما يـرضي ربنا، وإنا بفراقـك يا إبراهيـم لمحزونون**». أخـذ النبـي الوالد ﷺ ابنه الصغـير، ثم حمله للمقبرة، ودفنـه دون أن يصلي عليه، ثم عـاد لبيته حزينًا، لكن شـيئًا حـدث جعله يخرج من بيته يجـر رداءه، ثم أمر رجلًا أن يصيح بالناس.. يناديهم قائلًا: «**إن الصلاة جامعة إن الصلاة جامعة**». خرج الرجال

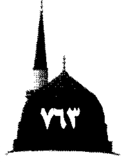
والنساء من بيوتهم، وتوجهو نحو المسجد ليستطلعوا الخبر، وخرجت أسماء من بيتها نحو المسجد، فرأتهم يصلون خلف نبيهم في وقت ليس وقت صلاة مكتوبة، فلم تدخل المسجد، بل ذهبت لتستطلع الخبر من أختها عائشة.

دخلت بيت عائشة، فرأتها قائمة تصلي، فسألتها: «ما للناس؟ فقالت عائشة: سبحان الله»، ومدت يدها نحو السماء. رفعت أسماء رأسها للسماء، وحدقت في الشمس، فإذا هي قد تغيرت، وكأنه قد اقتطع منها، فسألت عائشة: «آية؟ فأشارت برأسها: أي نعم». قامت أسماء تصلي، وكانت متعبة حتى كاد يغمى عليها من الحرارة، فمدت يدها لإناء فيه ماء بالقرب منها، ثم رفعته، وصبّت على رأسها كي تنشط، أما النبي ﷺ فكان يصلي بأصحابه صلاة الكسوف، وهي ركعتان جهريتان كصلاة الجمعة والفجر، لكن عدد الركوع فيها يساوي عدد السجود. أي إنه يكبر، فيقرأ ثم يركع، ثم يرفع ويقرأ، ثم يركع ثانية، ثم يرفع ثانية، ثم يسجد ثم يرفع ثم يسجد ثم يقوم، فيكرر ما فعله في الركعة الأولى.

انتهت الصلاة، وبدأ الناس يخمنون أن سبب الكسوف هو موت إبراهيم ابن النبي ﷺ، وقالوا: «كسفت الشمس لموت إبراهيم»، فسمع النبي ﷺ تلك المقولة، فنهض من مصلاه، ثم ارتقى درجات منبره الثلاث، ثم التفت للرجال والنساء، وقام خطيبًا.. مفندًا تلك الخرافة التي تقول: إن الشمس تنكسف لمولد عظيم أو موته.

الكسوف والخرافة

كان النبي ﷺ يصلي بالناس صلاة الكسوف وفي أثناء الصلاة مد يده نحو القبلة، ثم كع راجعًا، وأكمل صلاته، ثم نهض نحو منبره، وخطب فأثنى على الله بما هو أهله. ثم قال: **«إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»«هما آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة»«فصلوا وادعوا الله»«حتى يكشف ما بكم»**.



عندها سـأله أحد المصلين عن تلـك الحركة.. حين مد يـده للقبلة، ثم تراجع، فقال: «يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك كعكعت؟ فقال ﷺ: «**رأيت الجنة، فتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»، وذكر سـبب تراجعه، فإذا قسـاة القلوب أحد أسـبابها، حين قال: «**دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنـا معهـم؟ فإذا امرأة تخدشـها هرة، قال: ما شـأن هذه؟ قالوا: حبسـتها حتى ماتـت جوعًـا**» وقـال: «**وأريت النـار فلم أرَ منظـرًا كاليوم قط أفظـع، ورأيت أكثر أهلهـا النسـاء**» وهو أمـر طبيعي إن لم يكن الرجـال أكثر أهلها، لكن ما أكثر سـبب أدخل أولئك النسـاء اللاتي رآهن في النار؟ سـؤال طرحـه الصحابة أو الصحابيات المعلقـة قلوبهـم وأعينهم بمفـردات الخطبـة ومعانيها، فقـال ﷺ: «**بكفرهـن. قيل: يكفـرن بـالله؟ قال: يكفـرن العشـير، ويكفرن الإحسـان، لو أحسـنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**» إذًا هذه الصفة ليست لـكل النسـاء، بل لأكثر من دخل النار منهن، وهي مشـابهة لصفـات الرجل المنافق الـذي «**إذا خاصـم فجر**» ثم قال ﷺ: «**ولقد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور مثل أو قريبًـا من فتنـة الدجال، يؤتى أحدكم، فيقال له: ماعلمك بهـذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: محمد رسـول الله ﷺ، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقـال لـه: نم صالحًا، فقـد علمنا إن كنت لموقنًـا. وأما المنافـق أو المرتاب فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا، فقلته**».

أشرعـت صـلاة الكسـوف قلـوب الرجـال والنسـاء وأرواحهـم، ثـم حثّهم القائـد ﷺ على تجفيف منابع الرق وتخليص العبيد مـن رقهم، فقال: «**من أعتق رقبة مسـلمة، أعتـق الله بـكل عضو منه عضـوًا من النـار**».. دفن إبراهيم ابـن النبي ﷺ، وانتهى الكسوف، لكن أحزان النبي ﷺ لم تنتهِ.

كان الموت يخطف أحبته ﷺ كبارًا وصغارًا.. خطف والده وهو جنين، وخطف أمـه وهـو طفل، ومـات جده وهو غـلام، ثم رحل عمـه، ورحلـت حبيبتاه خديجة

ورقيـة، واستشـهد عمه حمـزة، وها هو قـد ودّع أم كلثـوم وزينـب وإبراهيم.. كان الأحبـة والأصحـاب يرحلون أمام عينيه.. يختفون من بين يديـه وهو يتوجع صابرًا محتسبًا.. تدمع عينه، ويحزن قلبه، ولا يقول إلا ما يرضي الرب سبحانه، فلله ما أخذ وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمى.

يشـاهد حفيدتـه اليتيمة أمامة بنت زينب التي تنافس الحسـن والحسـين داخل قلبـه، وداخـل مسـجده ﷺ.. كانـت أمامـة دلالًا يتبخـتر عـبر رياض جدهـا، فقد «قدمـت عـلى النبي ﷺ حلية من عند النجـاشي أهداها له، فيها خاتـم من ذهب فيه فـص حبـشي، فأخذه رسـول الله ﷺ بعود معرضًا عنـه، أو ببعض أصابعـه، ثم دعا أمامة ابنة أبي العاص ابنة ابنته زينب، فقال: **تحلّي بهذا يا بنية**».

لم يبـقَ للنبي ﷺ من بناته سـوى فاطمـة الزهراء التي تحتل قلبـه، والتي تصفها عائشـة الوفية.. عائشـة التي حفظـت أخبارها وروتها، فتقول: «مـا رأيت أحدًا من الناس أشـبه كلامًا برسـول الله ﷺ، ولا حديثًا ولا جلسـة من فاطمة، كان رسـول الله ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها، فجاء يجلسها في مكانه، وكانت إذا رأت النبي ﷺ رحبت به، ثم قامت إليه فقبلته».

تعاظم هذا الحب لدرجة أن النبي ﷺ قال لزوجها بصورة غير مباشرة: «**فاطمة بضعـة منـي، فمن أغضبها أغضبني**»، لكن فاطمة كانت تريـد أكثر من ذلك.. تريد أن يثبـت والدها ذلك للشـعب، فزوجها علي بن أبي طالب يوشـك أن يؤلمها، حين سـمعت أنـه تقدم لخطبـة صحابية جليلة هـي ابنة أبي جهل، فوصـل الخبر لفاطمة، فذهلـت، وخرجت من بيتها لبيـت والدها، ولما دخلت عليه ممتلئة بالغيرة.. أرادت منه أن يثبت حبه لبناته وغضبه لهن، فقد كان عدله ﷺ قد أوحى للناس بأن مشـاعر القائـد أخفـت مشـاعر الأب، فقالت: «يزعم قومـك أنك لا تغضـب لبناتك»، ثم أخبرته «أن عليًّا قد خطب ابنة أبي جهل» ثم سكتت في انتظار ردّة فعله.

هل يطلق علي فاطمة؟

دخلت فاطمة على والدها ﷺ وقد أذهلتها الغيرة، فقالت له بلسان الفتاة المدللة: «يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك» ثم أخبرته عن السبب، فقالت: «أن عليًّا قد خطب ابنة أبي جهل» ثم سكتت.. لم يجبها ﷺ، بل انتظر حتى اجتمع أصحابه للصلاة، وبعد أن صلى بهم وسلم صعد منبره، وتشهد، وقال: «**أما بعد، أنكحت أبا العاص ابن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوؤها، [أتخوف أن تفتن في دينها]. وأني لست أحرم حلالًا، ولا أحل حرامًا ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ، وبنت عدو الله عند رجل واحد**».

كانت كلمات صادرة من قلب الأب الحاني الذي فجع بكل بناته، ولم يبقَ له سوى هذه الزهراء، وهي على وشك الرحيل واللحاق بأخواتها، أما كلمة بنت عدو الله فليس فيها شتم لتلك الصحابية الجليلة، بل هي إيصال للفكرة بصوت أقوى.

هنا فصل تام للتشريع عن العواطف، حين قال ﷺ: «**أني لست أحرم حلالًا، ولا أحل حرامًا**» فكانت خطبته في المسجد رحمة بمشاعر ابنته التي توشك أن ترحل، وإضاءة لمن لا تطيق أن يتزوج عليها زوجها، أن تطلب الخلع إن كانت تخشى على نفسها، لكن عليها أن تتحمل مسؤولية قرارها، وألا تلوم إلا نفسها إن جاءت نتائج الخلع عكسية، فالحرية التي منحها الإسلام للمرأة لا تعني الانفلات، بل تعني تحمل مسؤولية تلك الحرية.

نزل النبي الوالد ﷺ عن منبره، وتأثر علي بن أبي طالب بتلك الخطبة، ورقّ لحبيبته، فتخلى عن الفكرة، وأدرك العالم أن قول النبي ﷺ «**فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني**» لم يكن موجهًا لأبي بكر ولا لغيره، بل كان موجهًا لزوجها العظيم علي حين أراد الزواج عليها، وإذا كانت فاطمة قد خيّرت في البقاء مع علي، فماذا عن والدها نفسه؟ أليس له تسع زوجات؟ أليس لهن مشاعر؟ أَوَلا يغرن كبقية النساء؟ أم تم قهرهن على العيش معه؟

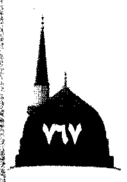
أسـئلة يرددها أعداء الإسـلام من المنافقين وأسـاتذتهم المنصرين وتلاميذهم؛ لذا نزل أمر خطير كشـف الإجابة عن ذلك كله.. كشـف عـن حدود حرية المرأة في الإسلام، وهل هي كما في النصرانية بلا حقوق، وأن ليس من حقها حتى التفكير في الانفصال، فإن انفصلت فهي زانية.

زوج يحرم نفسه مراعاة لشعور زوجاته

كان جـدول أعـمال النبـي القائـد ﷺ مزدحمًا بشـؤون دولته وشـعبه، وفي آخر يبـدأ بالمـرور على أبيات زوجاتـه بعدالة، ثم يمكـث عند من يكـون يومها، وذات يـوم مر بإحداهن، ولما جلس عندهـا، ثم أراد الخروج طلبت منه البقاء، ثم نهضت وتوجهـت إلى مـكان وضعـت فيه كيسًـا مـن الجلد أو قربـة صغيرة تسـمى العكة أهديـت لهـا. سـكبت أم المؤمنين من العكة في إنـاء صغير، فإذا هو عسـل، ثم أتت بـه ومدّتـه لزوجها ﷺ فـشرب منه، ثم شـكرها، ودعا لها كما هي سنته، ثم خرج، ولـما صـار من الغد ومر على حجرتها تكرر الأمر، فخفق قلب عائشـة الممتلئ بحبه والغيرة عليه.. خفق قلبها، وكأنها تحسب زياراته بدقات قلبها.. ارتابت غيرتها: ما الذي يؤخره عندها؟

لم يمر الأمر بسـلام.. تحسسـت عائشـة حتى تثبتت من الأمـر.. عندها قررت تفعيل حزبها.. اجتمعت عائشـة بهن، فقالـت: «والله لنحتالن عليه»، ثم قدمت لهن خطتها لكي يعترف قائد الجزيرة العربية كلها بشربة عسل.

أوصت عائشـة كل واحدة منهن بطرح أسـئلة تعرف جوابها، ثم بأسئلة تؤدي الغرض، ولن يؤدي السـؤال غرضه حتى يكون مسـتفزًّا للمشـاعر، ولأن النبي ﷺ كان أطيب الناس رائحة، وكان يكره أن يشم منه أحد رائحة كريهة كرائحة المغافير، وهو صمغ حلو الطعم يخرج من شـجرة اسمها العرفط، لكن رائحته غير محبوبة... لـذا قالت عائشـة لكل واحـدة: «إذا دخـل عليك، فإنه سـيدنو منك، فقـولي له: يا



رسول الله، أكلت مغافير؟ فإنه سيقول: لا، فقولي له: ما هذه الريح؟» «فإنه سيقول: **سقتني.. شربة عسل**، فقولي له: جرست نحله العرفط؟» أي إن نحل هذا العسل قد جرس، وامتص من زهر العرفط، وهو سبب تغير رائحته.

دخل النبي ﷺ عليهن، فسألنه، فلما تكرر السؤال شعر بانزعاجهن من شربه، وقال «**بل شربت عسلًا**» ثم تعهد بعدم العودة، فقال: «**ولن أعود له**»، ولما جاء الغد ومر على صاحبة العسل أرادت أن تسقيه، وقالت: «ألا أسقيك منه؟» فاعتذر وهو يشعر بالحزن قائلًا: «لا حاجة لي به»، وبعد أن خرج من عندها مر على سودة، فعلمت أنه لم يشرب عسلًا، فشعرت بالندم، ثم كلمت عائشة، فقالت: «سبحان الله، والله لقد حرمناه، فقالت عائشة: اسكتي».. لا تلام عائشة وصاحباتها، فجلسة واحدة مع هذا المحبوب تعدل كنوز الدنيا وما فيها.. لا يلمن على التنافس على هذا الزوج الرقيق الذي بلغت به مراعاة مشاعر زوجاته، إلى أن يحرم على نفسه شيئًا حلالًا آخر، وهو الخلوة بمارية القبطية.. مجاملة لبعض زوجاته، فكان الله سبحانه أرأف به من نفسه.

أنزل آيات تأمره بعدم تحريم ما أحل الله له من أجل مشاعر زوجاته، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[التحريم: ١ - ٢].

ليس هذا فقط.. كانت زوجاته في تعاملهن اليومي لا يختلفن عن غيرهن، حتى إنهن كنّ يراجعنه في بعض الأحيان عندما يقرر أمرًا، بل يهجرنه في بعض الأحيان.. أمر أغضب عمر، فتوجه لابنته حفصة مهددًا حتى أبكاها.

عمر يهدد ابنته حفصة

كانت ثقافة مهاجري مكة تتسم بالصرامة تجاه المرأة، وكأنها تستمد صرامتها من طبيعة مكة الجبلية، بينما كان الأنصار أصحاب زراعة وبساتين وفلاحة تمنح المرء

شاعرية وتسامحًا أكثر، ولذا حدث لدى المهاجرات تغير مع مخالطة الأنصاريات. أصبحن يناقشن أزوجهن في قراراتهم ويراجعنهم.. تغير تحدث عنه عمر، فقال: «كنا في الجاهلية لا نعتد بالنساء، ولا ندخلهن في شيء من أمورنا، فلما جاء الله ﷻ بالإسلام وأنزلهن الله تعالى حيث أنزلهن وجعل لهن حقًّا» و«كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار»«فبينا أنا يومًا جالس في بعض شأني، إذ قالت لي امرأتي كذا وكذا. فقلت: ما لك أنت ولهذا؟ ومتى كنت تدخلين في أمورنا؟ فقالت: يا ابن الخطاب، ما يستطيع أحد أن يكلمك وابنتك تكلم رسول الله ﷺ حتى يظل غضبان؟ فقلت: وإنها لتفعل؟ قالت: نعم»«قالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل؟».. فزع عمر لتلك المعلومة، فقال: «قد خاب من فعل ذلك منهن» ثم انطلق غاضبًا نحو بيت ابنته حفصة أم المؤمنين، ولما استأذن، ودخل عليها سألها: «أي حفصة، أتغاضب إحداكن رسول الله ﷺ اليوم حتى الليل؟ فقالت: نعم» فقال: «خابت وخسرت، أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله، فتهلكين؟ لا تستكثري على رسول الله ﷺ، ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك وأحب إلى رسول الله» يقصد عائشة.

كان الفاروق ملهمًا، وكأنه يقرأ المستقبل، بل وكأن الملائكة تحدثه حتى قال النبي ﷺ: «**إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب**»، أما بيته ﷺ فلم يكن بيت ملائكة.. كان كبقية البيوت، لكنه الأرقى؛ لأنه يستقي من النبع مباشرة.. من الوحي قرآنًا وسنة، ولو كان بيتًا بلا أخطاء، لما كان بيت قدوة، ولما تعلمت الأمة سنته في التعامل مع الزوجات والأولاد.. كانت أخطاء بيت النبوة تغلب عليها الغيرة والعواطف، لكن دون أحقاد.

عاد عمر لبيته والمدينة في حالة توجس لاعتداء صليبي ثالث خطير قد يقوم به ملك الغساسنة النصراني لتدمير دولة الإسلام، فقد كان عمر يقول: «كنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا» أي كانوا يصنعون حدوات لخيلهم.. كان الأمر مخيفًا

حتى قال عمر: «ولم يكن أحد أخوف عندنا أن يغزونا من ملك من ملوك غسان»، وذات ليلة وبعد أن صلى الناس العشاء، انطلق صديق لعمر خلال الظلام نحو بيت عمر في العوالي فزعًا، ولما أصبح أمام بابه طرقه طرقًا شديدًا، ولما لم يُفتح له.. أخذ يصيح، وهو في الشارع ينادي عمر: (أنائم هو؟).

انتبه عمر، فخرج، فإذ بوجه صديقه قد تغير، وهو يقول: «حدث أمر عظيم. فقال عمر: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول.. طلق رسول الله ﷺ نساءه».

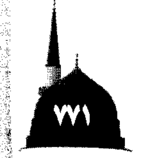
طلق الرسول نساءه

ذهل عمر، وهو يسمع بالخبر، فقال: «قد خابت حفصة، وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون».. أمضى عمر ليلة حزينة، ولما اقترب الفجر نزل من بيته في العوالي نحو المدينة، مشى خلال الظلام.. عبر الشوارع الساكنة حتى دخل المسجد، وبعد أن أذن بلال وأقام صلى مع المصلين المحزونين خلف نبيه ﷺ، وبعد الصلاة خرج ﷺ من المسجد، ثم مشى ولكن ليس إلى أي حجرة من حجر زوجاته.. ظل يمشي حتى وصل إلى مكان يعتزل فيه ﷺ.. كان المكان عبارة عن جذع نخلة مائل كالسلم.. وضع النبي ﷺ قدمه، وبدأ الصعود، فإذا الجذع يؤدي إلى غرفة علوية متواضعة يسمونها المشربة.. لم يبنِ قائد الدولة ﷺ لها درجًا.. اكتفى حاكم الجزيرة العربية كلها بوضع جذع نخلة كسلم. لم يعلم الناس بأمر اعتزاله في تلك الغرفة إلا بالأمس، ولذا بدأت الشائعات اليوم، على الرغم من أنه أمضى في المشربة ما يقارب الشهر لا يدخل أي غرفة من غرف زوجاته، ولا يحول بينه وبين عليته المتواضعة إلا تدبير أمر دولته، أو النظر في شؤون شعبه. خرج عمر مباشرة من المسجد حزينًا وغاضبًا في الوقت نفسه، فاتجه نحو بيت ابنته حفصة ليستطلع الأمر، ولما دخل عليها وجدها تبكي، فعاجلها معاتبًا: «ما يبكيك؟ أَوَ لم أكن حذرتك؟ أطلقكن رسول الله ﷺ، قالت: لا أدري، هو ذا في المشربة» طافت الهموم برأسه، ولم يعد لديه

ما يقولـه، فقد انتهى كل شيء.. لم تعد ابنته ولا غيرها تهمّه.. مـا يهمّه هو ألا يحزن نبيـه.. ألا يضطر إلى البقاء وحيدًا.. خرج عمر من عند حفصة حائرًا قد ضاقت به الأرض، ثـم عاد إلى المسـجد. كان النور قد أشرق، لكـن الحزن لا يزال مخيمًا.. دخل المسـجد، ثم توجه نحو جماعة من الصحابة حول المنبر يبكي بعضهم لما وصلت إليه الأمور، فجلس معهم قليلًا، لكن الفاروق ليس ممن يكتفي بالحزن.. غالب مشاعر الحزن، ونهض مجددًا، ثم مشى حتى أصبح عند جذع المشربة، ولما وصل شاهد شابًّا أسود جالسًا على الجذع يدلي قدميه.

نظر إليه عمر، فعرفه، وقال: «يا رباح استأذن لعمر» نهض الغلام، وصعد على الجذع، ثم اسـتأذن، ودخل على قائد الدولة ﷺ وأبلغه باسـتئذان عمر؟ لم يجبه ﷺ.. ظـل صامتًا في وحدتـه، ففهم رباح، وخرج، ونزل إلى عمر، وقـال له: «ذكرتك له، فصمـت» انـصرف عمر وهـو أكثر حزنًا وهمًّا.. عـاد لينضم للرجـال الملتفين حول المنـبر، لكـن قلقًا كالـبركان كان يتفجر بين أضلاعه.. قلق جعلـه ينهض مجددًا نحو المشربة، ولما وصل كرر الطلب من رباح، لكنه تلقى الإجابة نفسـها، فانصرف وهو كتلة من الهم والغم، وما إن مشـى مسـافة حتى سـمع صوت رباح يناديه: «أذن لك رسول الله ﷺ».

أشرقت الشـمس بين أضلاع عمر.. امتلأ بالبهجـة، فعاد وصعد الجذع بهدوء وحـذر، ثم دخل على نبيـه.. نظر إلى قائد الدولة ونبي الأمـة ﷺ، فوجده مضطجعًا على حصير ليس بينه وبينه فراش.. تأمل جنب قائده الأيمن الذي ينام عليه، فوجد خطوط نسـج الحصير التي تسمى الرمال قد حفرت خطوطًا حمراء في جسده، فزاده المشـهد ألمًا. اتكأ ﷺ على وسـادة من جلد محشـوة بالليف، فسلم عمر، وردّ النبي ﷺ السلام، وقبل أن يجلس عمر سأل نبيه: «طلقت نساءك؟» فرفع ﷺ بصره، ونظر إلى عمـر وقال: «لا». انفرجت أسـارير عمر.. ذهب همّه وغمّـه، وأحب أن يسرّي عن نبيـه، فقال وهو قائم: «أسـتأنس يا رسـول الله، لو رأيتني وكنـا معشر قريش نغلب النسـاء، فلـما قدمنا على قوم تغلبهم نسـاؤهم» فتبسـم ﷺ، فسرّ عمر لتلك البسـمة الغاليـة، وواصل حديثه عله يسـعد نبيـه، فقال: «لو رأيتنـي، ودخلت على حفصة،



فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى النبي ﷺ» فتبسم مرة أخرى. وانجلت بقايا هموم عمر، فجلس، لكنه سرعان ما بكى، وسالت دموعه، فقال ﷺ: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**».

زوجات النبي ﷺ حرات في الانفصال عنه

جلس عمر بن الخطاب أمام نبيه وقائده ﷺ، فجالت عيناه في أثاث غرفة قائد الجزيرة العربية كلها.. تلك الغرفة التي عاش فيها شهرًا كاملًا لا أنيس له سوى الله ونعم الأنيس.. جالت عينا عمر، فرأى ثلاثة جلود لم تدبغ وقليلًا من الشعير، ففاضت عيناه، فسأله نبيه ﷺ: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**» فقال: «يا رسول الله، ألا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جسدك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وقيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك. ادعُ الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم، وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله».

اعتدل النبي ﷺ بعد تلك الكلمات، وكان متكئًا، فقال: «**أَوَفِي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**» فقال عمر: «يا رسول الله، استغفر لي». ثم اكتشف عمر أن سبب اعتزاله لنسائه شهرًا هو إفشاء ابنته حفصة سرًّا إلى عائشة، وأنه ﷺ قال بعد ذلك: «**ما أنا بداخل عليهن شهرًا** من شدة موجدته عليهن، حين عاتبه الله».

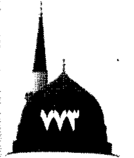
ظل عمر يحدث نبيه حتى سرّي عنه، ولما اطمأن عمر قال لنبيه: «أفأنزل، فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: **نعم، إن شئت**». يقول عمر: «فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى كشر، فضحك، وكان ﷺ من أحسن الناس ثغرًا». وبعد تلك الابتسامة الجميلة نهض ﷺ، ثم خرج من الغرفة، ونزل ينحدر على الجذع وكأنه يسير على الأرض في توازن أدهش عمر الذي يقول: «نزل نبي الله ﷺ،

ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع، ونزل رسول الله كأنما يمشي على الأرض، ما يمسه بيده!) فسأل عمر نبيه، فقال: «يا رسول الله، إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين؟ قال ﷺ: **إن الشهر يكون تسعًا وعشرين**» هنا افترقا.. انطلق عمر إلى المسجد، ولما وصل قام على الباب، ونادى الناس بأعلى صوته: «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه».

كانت بشرى عمر شمسًا أخرى في ذلك الصباح.. زينت شمس المدينة، وشرحت صدور أهلها، أما النبي ﷺ فتوجه لبيوته.. دخل على عائشة التي عبرت عن فرحها بسؤال امتزج فيه الفرح بالارتباك، فقالت: «إنك أقسمت ألا تدخل علينا شهرًا، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أعدها عدًّا، فقال ﷺ: **الشهر تسع وعشرون**».

لم تنتهِ الأمور عند هذا الحد.. نزل القرآن يخيّر كل زوجات نبي الأمة وقائد الدولة ﷺ دون استثناء بين البقاء معه، أو حرية الانفصال عنه.. كان معظمهن دون الثلاثين، ومنهن من لم تبلغ العشرين، ومنهن من تجاوزت الستين. نزل القرآن يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

آيات قدمت لهن حرية لا يستطيع أهلهن منعها، بل إن النبي ﷺ نفسه لا يستطيع منعها، حيث أُمر بإيصالها لهن واحدة واحدة، ولو لم يكن نبيًّا لما أوصلها، ولأخفاها عنهن وعن شعبه.. آيات تبطل دعاوى المنصرين وتلاميذهم المنافقين في إكراه النبي لزوجاته على الاقتران به، بل إن الآيات تمنح أي زوجة تشعر بالملل أو الغبن والظلم، أو يغريها فارق السن على الانفصال.. تمنحها عند انفصالها مالًا تتمتع به بقية حياتها، فكيف ستكون إجابتهن وهن يعلمن أن الله هو من خيرهن، وأنه سيفضح لنبيه من بقيت معه وهي كارهة، أو من تخفي في نفسها مشاعر غير التي تعلن؟ ترى كيف كانت إجابتهن؟



كيف ستكون إجابة زوجاته ﷺ؟

كانت إجابتهن حبًّا، إجابة لم تعرف لها الزوجات مثيلًا.. ثقفهن محمد ﷺ بكلمات الله، ورفع من مستوى وعيهن، وأوقد عقولهن، ورفرف بأرواحهن حتى سكن قلوبهن.. حتى همن برفقته هنا في الدنيا، وبالاحتفال معه هناك.. هناك في الفردوس، فأصبحن لا يرين الحياة إلا سفرًا معه نحو النعيم.. حيث الرفاهية والترف والجمال الذي لا يعرف التغير إلا إلى الأجمل.. حيث الأجساد الغضة التي لا تعرف التهدل أو الشيخوخة أو الأمراض، ولا ترشح سوى العطور.. حيث القصور تأخذ العقول بتصاميمها وجمالها، والشوارع والميادين المرصوفة بالأحجار الكريمة، والحدائق والبساتين التي لاحدود لألوانها وروائحها وأشكالها.

اخترنه ﷺ مباشرة دون أن يستشرن أهلهن، مع أن بينه وبين بعضهن أكثر من أربعين عامًا، حتى إن عائشة، وهي أصغرهن وأجملهن، لما قرأ ﷺ عليها الآية قال لها: «**لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك**» قالت دون تردد: «أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خيّر نساءه، فقلن مثل ما قالت عائشة..».

اخترنه حتى إن سودة، وهي التي تجاوزت الستين خفق قلبها لرفقته في الجنة، فوهبت يومها وليلتها لعائشة، تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ. ومع ذلك كانت عائشة من فرط حبها ووَلَهِهَا به.. تتحسس فراشه وهو نائم؛ خشية أن يغادره في ليلتها.. كانت حياته الزوجية وشغف زوجاته به أحد البراهين على نبوته، فالحياة الزوجية هي الجزء الغامض من حياة كل عظيم، وكثيرًا ما شوهت، وخدشت أسرارها تلك الصور الجميلة التي ترسم للزعماء والعظماء، أما حياة النبي ﷺ الزوجية فزادته عظمة وجمالًا وإشراقًا.. أكملت صورته نبيًّا، فإذا هو في بيته كما هو مع شعبه.. لا تصنّع ولا مثالية ولا ازدواجية.

يأتي أفراد الشعب رجالًا ونساء، فيسألون زوجاته عن سننه وسلوكياته حتى يقتدوا به، فلا يجدون عيبًا ولا مخجلًا ولا شراسة. «كان خلقه القرآن»«ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه»، ولذا اخترنه مجددًا من أعماقهن ودون تردد.

هذا بعض ما كان يجري في بيته، أما خارجه فواصلت الوفود إقبالها على عاصمة دولته ﷺ، وبعدما يقارب العام على إمامة أبي بكر الصديق وقيادته للأمة في الحج، اقتربت أشهر الحج مجددًا، فخاطب النبي القائد ﷺ شعبه، فقال: «**أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا**».

حجة النبي ﷺ

اقتربت أشهر الحج، فخاطب النبي ﷺ أمته، فقال: «**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا.** فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت ﷺ. فقال الرجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت ﷺ، فقال: أكل عام يا رسول الله؟) بعدها قال ﷺ: «**لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**» وخطف أرواحهم، حين قال: «**من حج لله، فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**» وبشرهم، فقال: «**العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**» وحين قالت له زوجته عائشة: (يا رسول الله، ألا نغزو، ونجاهد معكم؟) قال لها ولنساء الأمة: «**أحسن الجهاد وأجمله الحج، حج مبرور**. فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ»، وذات يوم قال رجل: «يا رسول الله، إني أريد أن أخرج في جيش كذا وكذا، وامرأتي تريد الحج؟ فقال: **اخرج معها**» وكأنه ﷺ يبشر من يسافر مع زوجته لأداء فريضة الحج، بأجر يفوق أجره وهو في ساحات الجهاد. وكان ﷺ قد حدد مواقيت زمانية ومكانية للحج، فالزمانية هي: أشهر شوال وذي القعدة، وذي الحجة، أما المواقيت المكانية فهي أماكن محددة لحجاج كل منطقة.

ومـن هذه المواقيـت يبدأ الحاج والمعتمر حجه وعمرتـه، والمواقيت تحيط بمكة من جميع الجهات، حيث تمثل نقاط مرور إلى مكة، فحجاج المدينة وما حولها يحرمون من مكان يسـمى (ذوالحليفة) ومن يأتي للحج من منطقة الشـام وما حولها يحرم من مـكان يقال له: (الجحفة) ومن يحج من نجد يحـرم من مكان يقال له: (قرن المنازل) والقـادم من أرض اليمن يحـرم من مكان يقال له: (يلملم)، وهذه المواقيت ليسـت لأهـل تلـك البلاد فقط، بل هي لمن يمر بها أيضًـا، أما من كانت دياره بين مكة وبين تلك المواقيت، فيحرم من دياره، وأما أهل مكة فيحرمون من مكة نفسها.

لم يحـدد ﷺ ملابس أو ألونًـا معينة للإحرام، لكنه منع من مجموعة من الملابس، فقال: «**لا تلبسوا القميص ولا السراويلات، ولا العمائم، ولا البرانس**» وهي الملابس التي في أعلاها غطاء للرأس، ونهى ﷺ عن لبس الأحذية التي تغطي الكعبين، فإن لم يجد غيرها فقد قال ﷺ: إنه «**من ليسـت له نعلان فليلبس الخفين، وليقطع أسـفل من الكعبـين**»، ونهى عن لبس شيء مغسـول بالزعفران، أو نبـات أصفر ينبت في اليمن يسمى الورس، وبيّن ﷺ أن من ليس له إزار، فليلبس السراويل. ولم يتحدث ﷺ عن شيء مخيط أو غير مخيط.

أمـا النسـاء فليس لهـن ملابس معينـة، لكن نهى ﷺ المـرأة عن لبـس القفازين والنقـاب، فقـال: «**لا تنقـب المـرأة المحرمة، ولا تلبـس القفازين**» وكـما نهى ﷺ عن لبس ملابس معينة، فقد نهى عن بعض الممارسات كالصيد في البر فقط لا في البحر، والخطبة والزواج والجماع، وحلق الشـعر... تلـك هي بعض المعلومات التي تلقاها الصحابة في أثناء فترة الاستعداد للحج.

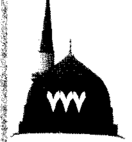
انتشر الخبر في أرجـاء الجزيرة، فعادت معظـم تلك الوفـود، وقدمت للمدينة حشود عظيمة.. كلها رغبة في الحج خلف النبي القائد ﷺ.

قبل مغادرة المدينة

قبل خروج النبي ﷺ من بيته للسفر لأداء الحج، ونظرًا لأن شعره طويل، وقد يشعث، ويدخله الغبار في أثناء السفر، فقد لبد شعره بمادة من مواد تثبيت الشعر، ثم خرج ﷺ من بيته، ومر في طريقه على بيت صاحبه المقداد بن الأسود، فوجد زوجته وهي ابنة عم النبي ﷺ واسمها ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب. وجدها تتأهب للسفر للحج، لكنها تشعر ببداية مرض، وتخشى ألا تتمكن من إكمال الحج.. شكت ضباعة للنبي حالها، فقال ﷺ لها: «**لعلك أردت الحج؟** قالت: والله لا أجدني إلا وجعة؟ فقال لها: **حجي، واشترطي**».. ثم بيّن لها ﷺ معنى الاشتراط، وهو أن تقول: «**اللهم، محلي حيث حبستني**» أي إنني إن تعرضت لمانع يمنعني من إكمال الحج، كالمرض أو الحوادث أو الحبس، فأنا في حل من الحج. وبتلك الكلمات ينتهي إحرامها مباشرة بمجرد حصول أي مانع، وتصبح في حل من إحرامها دون ذبح فدية أو القيام بأي كفارة.

خرج القائد ﷺ من بيت المقداد، ثم أمر حشود المؤمنين بالتحرك، وذلك في السادس والعشرين من شهر ذي القعدة. تحركت الحشود، ثم سارت أميالًا.. بعدها انحدرت في وادٍ يقال له: وادي العقيق، وفجأة أمر القائد ﷺ بالتوقف، وعندما توقف خاطب شعبه معلنًا أمرًا يمحو به بعض معتقدات الجاهلية حول الحج، فقد كانوا في الجاهلية يحرمون العمرة إذا دخلت أشهر الحج شوال وذوالقعدة وذوالحجة، ويعتبرون من اعتمر في تلك الأشهر قد ارتكب أفجر الفجور، حتى إن جابر كان يقول: «لسنا ننوي إلا الحج لسنا نعرف العمرة».

نزل النبي ﷺ عن دابته في وادٍ كبير يقال له: وادي العقيق، ثم هتف بشعبه قائلًا: «**أتاني الليلة آتٍ من ربي، فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك. وقل: عمرة في حجة**» إذًا، فهذه الألوف قد سارت تنوي الحج فقط؛ لأنها لم تتعود على العمرة في أشهر الحج، وهو ما يسمى (الإفراد)، لكن النبي ﷺ لأول مرة قدّم نسكًا جديدًا هو ما يسمى (القرآن) أي إدخال العمرة مع الحج في وقت واحد، وطريقته هي أن يعتمر المرء، فإذا انتهى من العمرة دخل مباشرة في الحج دون فاصل.



هتف النبي ﷺ قائلًا: «**عمرة في حج**»، فاقتدى الناس به، ثم صلى صلاته في وادي العقيق، ثم نهض، وركب راحلته، وانطلق بهم عبر الوادي حتى وصل الجهة الأخرى منه التي تسمى (ذوالحليفة)، وفجأة حدث شيء مفرح ومؤلم لأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب سابقًا، وهي زوجة أبي بكر الآن، فأرسلت للنبي شخصًا يسأله عن وضعها، فقد ولدت وهي تسأله، وتقول: كيف أصنع؟، فأرسل لها يقول: «**اغتسلي، واستثفري بثوب، وأحرمي**» أي إن النفاس والولادة لا تمنعان الحج ولا العمرة، وكل ما عليها هو أن تنتبه لنظافتها والدم الخارج منها، عن طريق الاستثفار، وهو القيام بما تقوم به المرأة من احتياطات، ثم تواصل رحلتها وحجها وعمرتها.

كان ﷺ في ميقات ذي الحليفة يتأهب للإحرام، وعائشة تطيبه قبل إحرامه، وتقول: «كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه، ثم يصبح محرمًا ينضخ طيبًا» وبعد أن طيبته أحرم ﷺ، وأحرم عشرات الألوف من ذي الحليفة، ثم اضطبع بردائه، أي إنه لف الرداء على كتفه الأيسر، وغطاه، ثم أدار الرداء تحت إبطه الأيمن.. كاشفًا كتفه الأيمن، ثم بدأ ﷺ بالتلبية، وإذ ببعض الصحابة يلبون بكلمات أخرى.

نزول الوحي بطريقة ثالثة للحج

انطلق ﷺ من ذي الحليفة، فـ أهلّ بالتوحيد: «**لبيك اللهم، لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**». وأهلّ الناس بهذا الذي يهلّون به والناس يزيدون: «**ذا المعارج**» ونحوه من الكلام، والنبي ﷺ يسمع، فلا يقول لهم شيئًا. فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئًا منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته) ثم قال لهم: «**أتاني جبريل، فأمرني أن آمر أصحابي، أو من معي أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية**».

تدفقت الجموع تملأ الأجواء تلبية وتوحيدًا.. ارتفعت مع الهضاب، وسالت في الأودية والشعاب، حتى وصلوا مكانًا يقال له: الروحاء، وقد قال ﷺ عن

الروحـاء مبشرًا: «**والذي نفسي بيده ليهلّنّ ابن مريم بفج الروحاء حاجًّا أو معتمرًا**» وهناك لقي ﷺ قافلة من شـعبه.. أسـلموا قبل أن يروه، فسـألهم: «**مَنِ القومُ؟** قالوا: المسـلمون. فقالوا: من أنت؟ قال: **رسـول الله**»، وفي أثناء حديثهم مر بعير قد ركب على ظهره هودج لا سـقف له.. يسـمى المحفة، وفجأة ارتفع طفل صغير من وسـط الهـودج.. رفعته أمه من عضديه نحو السـماء ليراه النبي ﷺ، ثـم هتفت: ألهذا حج؟ قال ﷺ: **نعم، ولك أجر**».

التحمـت الجمـوع سـيلًا بشريًّـا موحـدًا.. يغسـل الأرض بالتوحيد مـن بقايا الخرافـة والوثنيـة، أمـا القائـد ﷺ، فلم يكـن مزهوًّا بعـشرات الآلاف التـي تتدفق خلفـه، ولم يتميز عنهـم بأثاث أو مركب أو طعام.. كانوا يرونه في الوسـط والمقدمة والخلـف.. كان رفيقًـا بهم، بل «كان يتخلف في المسـير، فيزجي الضعيف، ويردف، ويدعو لهم».. كان يحدب على شعبه، فلم يتعبهم في أثناء السفر؛ لذا أمضى في الطريق تسـعة أيـام، وبعدها اقـترب موكب التوحيد مـن مكة، فنزل إليها، ونـزل مع نزوله حكم ونسك ثالث للحج .. فقد كانوا لا يعرفون سوى الحج فقط، ثم نزلت طريقة القرآن، وهي إدخال العمرة على الحج، أما الثالثة فهي سنة التمتع.

تاريخ وصول مكة وبدء العمرة

وصـل النبي ﷺ مكـة في يوم حدده أحد الصحابة، فقـال: «قدم ﷺ مكة لأربع ليـالٍ خلـون مـن ذي الحجـة» أي في اليـوم الرابع من شـهر ذي الحجـة، فيكون قد بقـي عـلى وقوف الحجاج بعرفة خمسـة أيـام، وهنا نـزل حكم جديد فيـه رحمة بهذه الجمـوع الغفـيرة. حيـث أمر ﷺ أي حـاج أو حاجة لم يحـضر معه هديًا مـن بلاده.. أمره أن يتحلل بمجرد انتهائه من العمرة، والعمرة هي طواف حول الكعبة وسـعي بـين الصفا والمـروة فقط، وهذا معنـاه أن يتمتع بحياته الطبيعية، فيلبس ما شـاء من ملابس، ويفعل ما شـاء من طيب وغيره، ويسـتمر هكذا حتى اليوم الثامن من ذي الحجة، وهو اليوم الذي سماه النبي ﷺ (يوم التروية).

أدرك المسلمون أن طريقة ثالثة للحج نزلت، وهي ما يسمى (التمتع)، وقد أثار هذا الأمر تساؤل بعض الصحابة، فقالوا: «كيف نجعلها متعة، وقد سمينا الحج؟» أي كيف نتمتع ونحن قد أهللنا بالحج؟ (فقال ﷺ: «**افعلوا ما أمرتكم، فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم**»؛ أي إن النبي أمرهم بذلك لأنهم لم يحضروا الهدي مثله، أما من أحضر هديه معه مثل النبي ﷺ وغيره، فعليه أن يبقى محرمًا حتى ينتهي من الحج.

في تلك الأثناء دخل النبي ﷺ على زوجته عائشة، فرآها تبكي؛ لأن الدورة الشهرية قد أصابتها قبل أن تبدأ العمرة، فقال لها: «**ما يبكيك؟**» قالت: «لوددت والله أني لم أحج العام. قال: **لعلك نفست؟**» قالت: «نعم. قال: **فإن ذلك شيء كتبه الله على بنات آدم، فافعلي ما يفعل الحاج، غير ألا تطوفي بالبيت حتى تطهري**»؛ أي إنها تمارس كل مناسك الحج إلا الطواف حول الكعبة، وقال لها: «**انقضي رأسك، وامتشطي، وأهلّي بالحج، ودعي العمرة**»، ففعلت.

لم يدخل ﷺ مكة، بل مكث بمكان يقال له: ذو طوى.. خيم الليل على ذي طوى، فبات الجميع هناك، وأشرق الفجر، فأذن بلال، وصلى النبي ﷺ الفجر، واغتسل، ثم دخل مكة من أعلاها أي (من كداء، من الثنية العليا التي بالبطحاء) ثم توجه نحو بيت الله الحرام، فكان أول شيء بدأ به ﷺ حين قدم مكة أنه توضأ، لأن «الطواف صلاة»، يسن له الوضوء.. بعد ذلك مشى ﷺ نحو الكعبة، وبالتحديد نحو الحجر الأسود، ليبدأ منه الطواف.. أتى ﷺ الحجر، فاستلمه، ثم مشى على يمينه، أي جعل الكعبة والحجر عن يساره، ثم يبدأ بالطواف حول الكعبة سبعة أشواط.. يرمل في أول ثلاثة أشواط، أي يسير سيرًا بين الركض والمشي، ثم يمشي مشيًا عاديًّا في بقية الأشواط، وكان ﷺ في طوافه «يستلم الحجر بيده، ثم قبّل يده». وكان «لا يستلم إلا الحجر والركن اليماني»، وكان ﷺ يقوم بتقبيل الحجر الأسود فقط، لكنه لا يقبل الركن اليماني، ولذلك كان عمر بن الخطاب يقبل الحجر، ويقول:

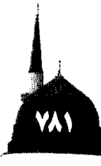
«والله إني لأقبلك، وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك» ولم يحدد ﷺ للطواف أدعية أو أذكارًا خاصة به؛ لذا جعل الأمر متسعًا لكل الأذكار، من قراءة القرآن، إلى الدعاء، إلى التسبيح والتهليل، بل وحتى الصمت.

أما الكلام فقال ﷺ: «إنما الطواف صلاة، فإذا طفتم، فأقلوا الكلام» وبعد أن طاف ﷺ توجه مباشرة نحو مكان يقع أمام باب الكعبة بمسافة قصيرة يسمى (مقام إبراهيم) وهو يقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[البقرة: ١٢٥]، فجعل المقام بينه وبين البيت، وكان يقرأ في الركعتين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١]، و ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[الكافرون: ١]، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج نحو جبل الصفا، وبذلك انتهى من الطواف ليبدأ في السعي.

السعي بين الصفا والمروة

مشى ﷺ حتى دنا من الصفا، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ١٥٨]، وقال: «أبدأ بما بدأ الله به»، فبدأ بالصفا، فرقي عليه حتى رأى البيت، فاستقبل الكعبة، فوحد الله، وكبره، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» قالها ثلاث مرات، ثم دعا بين ذلك، ثم نزل من جبل الصفا وهو يمشي مشيًا، حتى أصبح في بطن الوادي، عند ذلك بدأ يركض ركضًا، وقال: «لا يقطع الأبطح إلا شدًّا» ولما تجاوز بطن الوادي عاد يمشي مشيًا عاديًّا حتى وصل جبل المروة، فصعده، وبذلك يكون قد أكمل شوطًا واحدًا، لينحدر من جبل المروة حتى وصل الصفا، وبذلك يكون قد أدى الشوط الثاني، وهكذا واصل حتى أكمل سبعة أشواط.

سبعة أشواط لم يحدد لها أذكارًا ولا أدعية.. ترك لكل حاج الحرية في انتقاء العبارات التي يتقرب بها إلى ربه، ويناجيه، ويوحده بها.. لم يحدد لهم منسكًا



يقرؤونه، ولا عبارات يلتزمون بها، ولم يكونوا يرددون خلفه أدعية بشكل جماعي.. كانوا يتوجهون بألفاظ كلها شوق وتذلل وتوحيد للواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

انتهى السعي بانتهاء الشوط السابع عند جبل المروة، وبذلك تنتهي العمرة، فالعمرة باختصار هي: طواف وسعي، ولما أكمل ﷺ وصحابته عمرتهم ذكرهم بما قاله من قبل، وهو أن من لم يحضر معه غنمًا أو إبلًا أو بقرًا، فعليه أن يتحلل من إحرامه، ليتمتع بكل المباحات التي حرمت عليه كالطيب ولبس ما شاء من لباس والحلق وغيرها، وأن يظل متمتعًا حتى اليوم الثامن من شهر (ذي الحجة) وهو المسمى (يوم التروية)، فتفرق الصحابة هنا وهناك، وبقي القارن والمفرد على إحرامهم حتى جاء يوم التروية، ولما أشرق يوم التروية توجه النبي ﷺ إلى أرض منى لإكمال الحج.

يوم التروية في منى

لما كان يوم التروية توجه الحجاج إلى منى، فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ إلى منى، ونصبت له خيمة هناك، ومكث اليوم الثامن كله في منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.. كان يومًا جميلًا حافلًا بذكر الله وتوحيده، ولم يحدد ﷺ لأمته أدعية أو أذكارًا معينة لليوم الثامن.. ترك أرواحهم ترفرف نحو خالقهم، وألسنتهم تلهج بمناجاته، وتفيض بأمانيهم وحاجاتهم، ولعل من أهم الأمور المطلوبة خلال ذلك التجمع الحاشد هو جهاد النفس وضبطها عن الانفعال، في تلك الأيام التي يشتد فيها الزحام والتعب، فالحج مجاهدة للانفعالات.

ظل النبي ﷺ وأصحابه في منى، وباتوا هناك، ولما أشرق فجر اليوم التاسع صلى فيها صلاة الفجر، وبعد صلاة الفجر أمر النبي ﷺ ببناء خيمة صغيرة في مكان في عرفة يسمى (نمرة)، ثم تحرك هو وأصحابه نحو عرفة، وكان الصحابة في مسيرهم

كما وصفهم أحدهم، فقال: «كان يهلّ منا المهلّ، فلا ينكر عليه، ويكبر منا المكبر، فلا ينكر عليه» سار رسول الله ﷺ نحو عرفة، بينما كان المسلمون الجدد من قريش حديثًا يتوقعون أن يمر النبي ﷺ بعرفة مرورًا ليقف في مكان في مزدلفة يقال له: المشعر الحرام، كما كانت قريش تفعل في الجاهلية، لكن النبي ﷺ ألغى تلك العادة الوثنية، فسار حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها وظل فيها، وبعدما ارتفعت الشمس فوق الرؤوس، وبدأت تتحرك في اتجاه الغرب دخل وقت صلاة الظهر، فخرج ﷺ من خيمته، وألقى على شعبه خطبة قصيرة ومختصرة، على الرغم من أن الخطيب كان أبلغ الناس، وأعلم الناس، وأكثرهم تأثيرًا، وأنه لا ينطق عن الهوى، وعلى الرغم من أن الناس لن يملوا حديثه، إلا أنه سن سنته لمن بعده أن يقصروا الخطبة.. كانت خطبته إعلانًا لنهاية ثقافة الثأر، ووقفًا لاستغلال الإنسان للإنسان، واستغلال الرجل للمرأة والاستهانة بها، حين قال: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع**» أي باطل وساقط، «**ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا، دم ابن ربيعة بن الحارث، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبدالمطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله**» ثم ذكر تشريعات أسرية وزعت المسؤوليات بين المرأة والرجل، وأنصفت الاثنين.. تشريعات أثارت حسد رجال الكنيسة والكنس الذين انحطوا بالمرأة إلى أدنى من درجة البهيمة.

تشريعات في الحج

قام القائد ﷺ بإلقاء خطبة يوم عرفة أمام جموع.. الأغلبية الكاسحة منهم حاربوه أكثر من عشرين عامًا، والقلة منهم تربوا على يديه؛ لذا كانت الخطبة عامة.. تحطم أقسى عادات الجاهلية وأعتاها.. تلك المتوغلة في النفوس، كالثأر المدمر للحياة، والربا المدمر للاقتصاد، وامتهان المرأة لدرجة وأدها ووراثتها، وحبسها عند

وفـاة زوجهـا في خيمة نتنة مدة عـام كامل.. تمنع من الطيب والاغتسـال والخروج، واسـتغلالها في البغـاء، أو ممارسـات من المـوروث النصراني الذي يرى أنها شـيطان ونجاسة في صورة إنسان.

وضـع ﷺ النقـاط عـلى الحـروف، وبـيّن أن العلاقة بـين الرجل والمـرأة علاقة عاطفية، لكن عند جموح العاطفة هناك قانون يحد من ذلك الجموح، فللمرأة حدود وللرجل حدود، وبيّن ﷺ أن الرجل اسـتحل المرأة ليس لأنه الأقرب إلى الله، ولكن بكلمة الله، وبعهد وميثاق غليظين.. لذا قال: «**لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونـه، فـإن فعلن ذلـك فاضربوهن ضربًـا غير مـبرح**» فإدخال الرجـال الذين يكرههم الزوج في منزله، ودون إذنه خيانة له، وتدمير للأسرة، والزواج في الإسلام ليس رقًّا كما في المسيحية، التي تجعل من تسأل زوجها الطلاق زانية، والمطلقة زانية، ومـن يتـزوج بها زانٍ مثلها، بل هو مشـاركة، وعلى كل شريك مسـؤولياته.. بيّن أن إحضار الطعام وتحضيره واللباس وخياطته والنفقة وظيفة الرجال لا النسـاء، ولذا قال: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

أما أروع ما في تلك الخطبة، فهو تعففه ﷺ وترفعه عن المطالبة بشيء له.. الشيء الوحيد الذي طلبه هو شهادة من شعبه أمام الله، حين قال: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسـألون عني، أي يوم القيامة، فما أنتم قائلـون؟**» هنا هتفت الحشـود بكلمات كالدموع.. كلمات من وفـاء لحبيبهم وأرحم الناس بهم ومن تلك الكلمات: «نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت».

وسـط ذلك الهتاف الذي يأخذ بنياط القلب.. رفع الحبيب إصبعه السـبابة إلى السـماء، ثم أنزلها مشـيرًا بها إلى النـاس، ومخاطبًا ربه وقائلًا: «**اللهم، اشـهد. اللهم، اشهد. اللهم، اشهد**».

خطبـة قصيرة وبليغـة.. بعدها أذن بلال، ثم أقام فصـلى ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام بلال فصلى النبي ﷺ العصر ولم يصلِّ بينهما شيئًا، ثم تحرك نحو جبل عرفة، ولما وصـل لم يصعد ﷺ الجبـل، بل أوقف ناقته عنـد الصخرات واسـتقبل القبلة، وقال

للنـاس: «**وقفت ها هنـا، وعرفة كلها موقف**» ثم تحدث عن فضل يوم عرفة، فقال: «**مـا مـن يوم أكثـر من أن يعتق الله فيـه عبدًا من النـار من يوم عرفة، وإنـه ليدنو، ثم يباهـي بهم الملائكـة، فيقول: ما أراد هـؤلاء؟**» وفي أثناء وقوفه أقبـل أناس من أهل نجد، فسـألوه عن الحج؟ فقـال: «**الحج يوم عرفة، مـن أدرك قبل صلاة الصبح فقد أدرك الحج**»؛ أي إن من وقف في عرفة ما بين شروق شـمس التاسـع إلى قبل طلوع فجر العاشر.. من وقف ولو ساعة، فقد أدرك الحج، ومن فاته الوقوف بعرفة خلال تلك المدة فقد فاته الحج.

ظـل النبي ﷺ واقفًا حتى غربت الشـمس، وذهبت الصفـرة قليلًا، حتى غاب القـرص، وبعـد أن غاب قرص الشـمس ركـب ﷺ ناقته، وأردف مـن بين الجموع الفتى الأسود أسامة بن زيد، وانطلق بالحجاج نحو مزدلفة.

انطلاق الحجاج نحو مزدلفة

أمام تلك الحشـود الهائلة من القبائل، التي تغادر عرفة متجهة إلى منطقة اسمها مزدلفة.. كان القائد ﷺ يواصل تحطيم الجاهلية والعنصرية، وهو يردف خلفه الفتى أسامة بن زيد، وقد شنق للقصواء الزمام، أي سحب الزمام حتى إن رأسها ليصيب مـورك رحله، ثم مـد ﷺ يده اليمنى لمن خلفه من الحجاج يشـير بها إليهم يهدئ من سرعتهم، يهدئ، ويهتف بهم: «**أيها الناس، السكينة.. السكينة**».

هـدأت الجمـوع، بينما كان ﷺ يسـحب الزمـام، لكنـه كان يرخيـه أحيانًا، وكلما أتـى جبـلًا مـن الجبال أرخـى لها قليلًا حتـى تصعـد.. كان ﷺ حكيمًا في إدارة حركة المـرور لعشرات الألـوف من الحجاج، حيث كان أسـامة يرصد خلفـه طريقة تحكمه في القصواء، فلفت انتباهه أنه «كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص»، أي كان يسير ببـطء في المـكان الضيق، حتى لا يتكتل الناس في المضيق، فتتعرقل حركة السـير، فإذا وجد طريقًا فسيحًا انطلق. وفي أثناء هذا الانسياب الجميل فوجئ ﷺ بضجيج ورغاء

خلفه يملأ المكان.. سمع «وراءه زجرًا شديدًا، وضربًا، وصوتًا للإبل»، فأخرج سوطه لهم، ومده مطالبًا الهدوء والسكينة، وهتف بهم: «**أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع**» أي ليس البر أن تزجروا الرواحل، وترغموها على السرعة.

سار ﷺ بشعبه حتى وصل المزدلفة، ولما وصلها أوقف راحلته، فتوقف الآلاف مثله، ثم نزل فنزلوا، فأحضر له ماء، فتوضأ ﷺ فأسبغ الوضوء، ثم أقيمت الصلاة، فصلى المغرب بالحشود، ثم أمر بإقامة صلاة العشاء، فصلى، ولم يصلِّ بينهما، وبعد الصلاة تفرق الناس كلٌّ يبحث عن مكان مناسب للمبيت، «ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله»، ثم بدأت الأصوات تخفت شيئًا فشيئًا حتى سكن المكان، وهجع الرجال والنساء والأطفال بعد يوم شاق.

في تلك الأثناء وصل رجل اسمه عروة بن مضرس.. لم يَرَ جبلًا في الحرم إلا وقف عنده.. ظل يقوم بذلك حتى أدرك الحجاج بعد مشقة.. حينها أقبل يتخلل الجموع يبحث عن نبي الأمة ﷺ يسأله عن مشروعية عمله، ولما وقف أمامه قال: «يا رسول الله، جئت من جبلي طيء، والله ما جئت حتى أتعبت نفسي، وأنضيت راحلتي، وما تركت جبلًا إلا وقفت عليه، فقال رسول الله ﷺ: من شهد معنا هذه الصلاة، وقد كان وقف بعرفة قبل ذلك ليلًا أو نهارًا فقد تم حجه، وقضى تفثه» أي ما يصيب الحاج من الغبار والتعب والشعث، وقال ﷺ: «**وقفت ها هنا والمزدلفة كلها موقف**» وفي تلك الليلة استدعى النساء والأطفال والضعفة، ومن بينهم الطفل عبدالله بن عباس، وأمرهم بأن يغادروا مزدلفة الليلة، وأن يتوجهوا نحو منى قبل الحجيج، وذلك لشدة الزحام المتوقعة غدًا عند رمي الجمرة، ولكنه نبههم إلى عدم رمي الجمرات قبل طلوع الشمس، «وكان رسول الله ﷺ يقدم ضعفاء أهله بغلس، ويأمرهم، يعني لا يرمون الجمرة حتى تطلع الشمس»، ثم نام ﷺ تلك الليلة، فـ«اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر»، ولما طلع الفجر أذن المؤذن، فنهض الناس، ثم أقام، فأمّهم النبي ﷺ، ثم نهض قبل أن يسفر المكان، وتحرك نحو مكان في مزدلفة يقال له: المشعر الحرام.

الوقوف في المشعر والرمي

بعـد أن صلى النبي ﷺ صلاة الفجر في مزدلفـة ركب ناقته، ثم توجه نحو جبل في منطقة مزدلفة يسمى المشعر الحرام، ولما وصله استقبل «القبلة، فدعا الله، وكبّره، وهلّله، ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسـفر جدًّا». وبعد أن أسـفر الجو ركب، وعاد نحـو منطقـة منى لرمـي جمرة واحدة تسـمى العقبـة، وفي طريقـه مر بـوادٍ يقال له: (محسر)، وهو الوادي الذي أهلك الله فيه أصحاب الفيل، فأسرع السير حتى تجاوزه عابـرًا بطن محسر، فحرّك قليلًا، ثم سـلك الطريق الوسـطى التـي تخرج على الجمرة الكـبرى، وكان ﷺ يلبي في مسـيره نحو منى، ولما وصل منى أوقـف مطيته، وهناك رأى الطفـل عبـدالله بن عبـاس الذي أتم رميه هـو ومن معه من النسـاء والضعفة، فنـاداه، وكأنـه يعلّمه، ويزرع الثقـة فيه، فطلب منه أن يجمع لـه حصيات، وهو على راحلته قائلًا: «**هات القطْ لي**».

انحنى الطفل نحو الأرض، ومدّ يده الصغيرة، فالتقط حصيات صغيرات، وهي التي تسـمى حصا الخذف التي ترمى بأطراف الأصابع، وهي في حجم حبة البندق، ثـم مدّهن إلى نبيه ﷺ وقال: «فلـما وضعتهن في يده قال: **نعم، بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا.. بأمثال هؤلاء فارموا. وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكـم الغلـو في الديـن**». وكأنه يشـير إلى أن من الغلو في الديـن الرمي بأحجار كبـيرة، أو بالأحذية والعصي، ثم أخذ النبي ﷺ الحصيات السـبع، وانطلق نحو جمرة العقبة، وهو يلبي، ولما أصبح أمامها توقف عن التلبية، وظل واقفًا على ناقته لم ينزل، ثم جعل مكة «عن يساره ومنى عن يمينه» ثم رمى الحصى واحدة واحدة.. يقول مع كل رميـة: الله أكـبر.. «رماها بسـبع حصيات، يكبر مع كل حصـاة منها، مثل حصى الخـذف، رمى من بطن الوادي»، ثم قال: هتـف للجموع بكلمة مؤثرة كالوداع لهذه الأمة.. سـمعها جابر، فقال: «رأيت النبي ﷺ يرمـي على راحلته يوم النحر، ويقول: **لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**».. كان ﷺ يقدم لأمته صورة القائد المتماهي بأمته.. رأته امرأة من شـعبه تدعى: أم الحصين، فرأت انحسـار العنصرية في سلوكه وكلماته.. لم يكن محاطًا بكبار الزعماء وأمراء القبائل.

إنها تقول: «حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فرأيته حين رمى جمرة العقبة، وانصرف وهو على راحلته، ومعه بلال وأسامة أحدهما يقود به راحلته، والآخر رافع ثوبه على رأس رسول الله ﷺ من الشمس. فقال رسول الله ﷺ قولًا كثيرًا، ثم سمعته يقول: **إن أمّر عليكم عبد مجدع أسود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له، وأطيعوا**» وكأنه يؤكد على أن خلافته، أو حكم الأمة لا يرتبط بلون أو عرق، بل هو منوط بقرار الأمة، وعلى الأمة الالتزام بالنظام الذي اختارته، وبالإمام الذي أمّرته.. كان القائد ﷺ جزءًا من أمته.. متماهيًا بشعبه تواضعًا وسكينة وضبطًا للنفس.. في وقت اشتد فيه الزحام والتدافع، ومع ذلك لم يُضرب الناس لإفساح الطريق له، ولم يؤذِ الشعب لكي يرتاح، حتى قال أحد الصحابة: «رأيت رسول الله ﷺ يوم النحر على ناقته صهباء، لا ضرب ولا طرد ولا إليك إليك». أي لا يقال لهم: أفسحوا الطريق للنبي، أو ابتعدوا كي يمر، وبعد أن انتهى من الرمي تحرك ﷺ لينحر هديه.

نحو المذبح يوم النحر

بعد رمي الجمرة توجه النبي القائد ﷺ إلى مكان النحر لينحر هديه؛ لذا سمي هذا اليوم يوم العاشر بـ(يوم النحر)، ولما وصل ﷺ نزل عن ناقته، وتوجه نحو هديه الذي أحضره عنه وعن أهل بيته، وكان هديه من الإبل والبقر، وقبل نحرها ترك الإبل قائمة على ثلاث قوائم، لكن أيديها اليسرى مثنية ومربوطة، ثم «نحر ﷺ ثلاثًا وستين بيده».. نحرها مع أسفل الرقبة، وهي المنطقة التي تسمى اللبة، ثم ترك الباقي لعلي بن أبي طالب لينحره، ثم ترك اللحم لمن أراد من شعبه أن يأخذ، فقال ﷺ بعد أن ذبح هديه: «**من شاء اقتطع**»، وكان ذلك السلوك الكريم منه ﷺ تأثرًا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الحج: ٣٦]، والقانع هو الفقير المتعفف الذي لا يسأل الناس، أما المعتر، فهو الذي يتعرض لهم كي يعطوه، ثم بيّن ﷺ لأصحابه

التيسير في أمر الذبح، وبيّن لهم أن منى كلها مكان صالح للنحر، فقال: «**نحرت ها هنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم**» أي اذبحوا في أماكن إقامتكم في منى، دون التكلف للذهاب إلى المذبح، كما يسّر لهم، وسن لهم الاشتراك في الهدي إن كان بقرًا أو إبلًا، فقال أحد الصحابة: «نحرنا البعير عن سبعة، والبقرة عن سبعة» كما قال ﷺ: «**إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القَرِّ، وهو الذي يليه**»؛ لأنها أيام توحيد لله، وأيام إطعام للفقراء والمحتاجين... في ذلك اليوم فوجئت زوجات النبي ﷺ بلحم بقر يقدم لهن وهن في الخيام، فقالت عائشة: «ما هذا؟ قال: نحر رسول الله ﷺ عن أزواجه، لكن ماذا عن الذي لا يستطيع النحر، لفقره مثلًا؟ الإجابة هي أن الحجاج من ناحية الهدي أربعة أنواع:

- حاج من أهل مكة، فلا يجب عليه الذبح.

- حاج مفرد نوى الحج فقط، فلا يجب عليه الذبح.

- حاج قارن أحضر معه هديه، وانتهى أمره.

- حاج متمتع يجب عليه ذبح هدي إن كان من غير أهل مكة، فإن عجز عن الذبح لظرف من الظروف، فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده؛ لأن الله سبحانه يقول عن المتمتع الذي ليس من أهل الحرم: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[البقرة: ١٩٦].

وبعد أن أرسل ﷺ لنسائه اللحم.. كان الحجام الحلاق جالسًا بقربه، فجلس النبي ﷺ بين يديه، ثم أشار إلى أن يبدأ بحلاقة نصف رأسه الأيمن، «فحلق شقه الأيمن»، «ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: **احلق**. فحلقه»، وكان قد قال في عمرة الحديبية: «**اللهم، اغفر للمحلقين**. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: **اللهم، اغفر للمحلقين**. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: **اللهم، اغفر للمحلقين**. قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين؟ قال: **وللمقصرين**» أما النساء فقال ﷺ: «**ليس على النساء حلق، إنما على النساء التقصير**» ثم توجه ﷺ إلى عائشة لتطييبه، وهذا يعني

أنه قد أبيح له الطيب، وانتهى من الإحرام. حيث تقول ﷺ: «طيّبت رسـول الله ﷺ بيـدي هاتين حين أحرم، ولحله حين أحل، قبل أن يطوف»، فعلم الحجاج أن الحاج يتحلـل إذا قـام بالرمي والنحـر، أما النبي ﷺ فهو في طريقـه للكعبة ليطوف طواف الإفاضة، لكن قبل ذلك قام بإلقاء خطبة.

خطبة يوم النحر

مازال النبي القائد ﷺ في منى.. وسـط الحشـود من شـعبه يوم النحر.. يستنون بسنته، ويهتدون بهديه. امتطى ﷺ بعيرًا له، ثم هتف بهم.. خاطب إيمانهم.. خاطب فيهـم هذا الصفـاء، وهذه الأخوة الرائعـة.. آملًا أن تسـتمر دون منغصات، فالحج ليس سـعيًا وطوافًا ورميًا ونحرًا فقط.. هناك هدف أسـمى هـو التوحيد، وأهداف أخـرى هي اسـتمرار وحدة دولة الإسـلام التي بناهـا بهم، ولن تتوحـد إلا بالحب وضبط النفس، والتحكم في الغرائز، والامتناع عن الانتصار للذات، وتعلم الإيثار، وإزالة الفوارق العنصرية والمناطقية بين الشعب، والتخلص من وهم التفوق، وقبل ذلك التزام النظام الذي خطته الشريعة للحاكم والمحكوم.

قال ﷺ: «**إن الزمان قد اسـتدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شـهرًا، منها أربعة حرم، ثـلاث متواليات: ذوالقعدة، وذوالحجة، والمحرم، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشـعبان**» وفجأة سـألهم سؤالًا أثار استغرابهم. هذا أحدهم يروي استغرابهم حين سـألهم ﷺ فقال: «**أي شـهر هذا؟** قلنا: الله ورسـوله أعلم. فسـكت حتى ظننا أنه سيسـميه بغير اسـمه، قال: **أليس ذا الحجة؟** قلنا: بلى. قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **أليس البلدة؟** قلنا: بلى. قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسـوله أعلم. فسـكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **أليس يوم النحر؟** قلنا: بلى».

قال: «**فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالًا يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه**». ثم قال: «**ألا هل بلغت.. ألا هل بلغت؟**».

كانت خُطبه ﷺ في الآونة الأخيرة تركز على مرحلة ما بعد موته ﷺ، وعلى ضرورة الوحدة وعدم التفرق، وبينما هو على ظهر البعير انهالت عليه الأسئلة، فقال أحدهم: «يا رسول الله، إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل الرمي؟ قال رسول الله ﷺ: **فارمِ، ولا حرج**. وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر؟ فيقول: **انحر، ولا حرج**».

أجاب ﷺ عن أسئلة شعبه، ثم انطلق ﷺ لمكة لأداء: طواف يسمى الإفاضة.. شق الجموع نحو بيت الله، ولما وصل المسجد لم ينزل عن بعيره كما فعل في طوافه السابق، بل دخل به المسجد، فـ «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع حول الكعبة على بعيره، يستلم الركن كراهية أن **يضرب** عنه الناس». وكان كلما أصبح أمام الحجر، مدّ يده بعصا طويلة معوجة الرأس تسمى المحجن «كلما أتى على الركن أشار إليه بشيء في يده وكبّر». وقد لمح صحابي يدعى أبو الطفيل طريقة استلامه للحجر بالمحجن، فقال: «رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت، ويستلم الركن بمحجن معه، ويقبل المحجن». كل ذلك حتى لا يؤذي الناس، أما بالنسبة إلى الأشخاص ضعيفي البنية الذين لا يطيقون الزحام، فقد أرشدهم قبل ذلك إلى الابتعاد عن منطقة الزحام، فقد أتته أم سلمة، وقالت: «شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي. فقال: **طوفي من وراء الناس وأنت راكبة**»، وبعد أن انتهى من الطواف توجه إلى مكان في الحرم يتولى المسؤولية عنه عمه العباس.

العباس مسؤول عن سقاية الحجيج

أكمل النبي ﷺ طوافه، ثم توجه نحو بئر زمزم حيث يشرف بنو عبدالمطلب وحدهم على سقاية زمزم، فأتاهم وهم يسقون على زمزم، فقال: «**انزعوا بني عبدالمطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم**... فناولوه دلوًا، فشرب منه»[١] وبعد أن شرب حرك بعيره نحو المسعى، فتوجه نحو جبل الصفا، حيث يقول جابر: «طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت وبالصفا والمروة، ليراه الناس، وليشرف، وليسألوه». وكان ركوبه وركوب أم سلمة إضاءة للمستقبل في جواز التعامل مع السعي والطواف، باستخدام أحدث الوسائل التقنية التي تجعل الحج ميسرًا وسهلًا، فالأدوات الحديثة أكثر مرونة من البعير والناقة، وتحمل أعدادًا أكثر، وبعد أن انتهى من السعي خرج ﷺ من المسجد عائدًا نحو منى.. منهيًا أعمال يوم النحر، وهي الرمي والنحر والحلق والطواف. فـ«رجع، فصلى الظهر بمنى» والعصر والمغرب والعشاء.. عاد ليمضي في منى بقية أيام الحج، وهي الأيام التي تسمى أيام التشريق.

أشرقت شمس اليوم الحادي عشر على منى، وبشروقها بدأت أيام التشريق، وهي ثلاثة أيام: اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر. وخلال تلك الأيام كان ﷺ يبيت بمنى، ويؤدي عملًا واحدًا هو (الرمي)، وكان ينتظر حتى يدخل وقت الظهر.. بعدها يتوجه نحو الجمرات الثلاث، فيرميها جميعًا.. كل جمرة بسبع حصيات، إذًا فوقت الرمي أيام التشريق يختلف عن وقت الرمي يوم النحر. «فقد رمى رسول الله ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى». وأما بعد أيام التشريق، فيرميها «إذا زالت الشمس».

دخل وقت ظهر اليوم الحادي عشر، فتوجه ﷺ للرمي، فبدأ بالجمرة الصغرى، ولما أصبح أمامها بدأ الرمي مع التكبير بعد كل حصاة، وبعد أن انتهى من الرمي تحرك عن يمينه، ثم استقبل القبلة، ورفع يديه ودعا دعاء طويلًا، ثم تحرك نحو الجمرة الوسطى، ثم بدأ يرميها بسبع حصيات.. يكبر بعد كل حصاة، ولما انتهى

تحـرك عن يسـاره، واسـتقبل القبلة، ودعا دعـاء طويـلًا رافعًا يديه، ثـم تحرك نحو جمرة العقبة، وبدأ يرميها بسـبع حصيات من بطن الوادي، ثم غادرها دون أن يقف عندها. يقول الشاب ابن عمر «هكذا رأيت النبي ﷺ يفعله».

ظـل ﷺ يكرر هذا النسـك مدة ثلاثة أيـام.. هي أيام التشريق، لكنه سـمح لمن أراد التعجـل، والاكتفـاء بالرمـي يومين فقط أن يغادر منـى في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة، ولكن يغادرها قبل أن تغرب الشمس، فإن غابت الشمس قبل مغادرته، فعليـه المبيـت في منى، ليرمي اليوم الثالث عـشر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[البقرة: ٢٠٣]، ولذلـك قال ابـن عمر: «من غربت له الشـمس من أوسـط أيام التشريق، وهـو بمنى، فلا ينفرن حتـى يرمي الجـمار من الغد» لكن هل المبيت في منى واجـب على كل الحجاج؟ ماذا عن منظمي الحج من موظفي الدولة وأهل السقاية وغيرهم؟

المبيت في منى ليس واجبًا على كل الحجاج

أذن النبـي القائـد ﷺ للمضطريـن، وأصحـاب الأعـذار، كمن عليه مسـؤولية خدمة الحجيج بالمبيت خارج منى، فقد «استأذن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه رسول الله ﷺ أن يبيـت بمكـة ليـالي منى، من أجل سـقايته، فأذن له»، والسـقاية هي تقديم الـشراب إكرامًـا لضيوف بيت الله؛ لـذا عاد العباس لمكة لسـقاية الحجاج، وكان من ضمن الأشربة التي يقدمها النبيذ المباح، الذي لم يتحول إلى خمر، وذات يوم كان أحد الأعراب يتناول شربة من ذلك النبيذ، فرأى أحد أبناء العباس، فسـأله، فقال: «ما لي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن، وأنتم تسقون النبيذ؟ أمن حاجة بكم، أم من بخـل؟ فقـال ابن العباس: الحمـد لله، ما بنا من حاجة ولا بخـل.. قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة، فاستسقى، فأتيناه بإناء من نبيذ، فشرب، وسقى فضله أسامة، وقال: **أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا**. فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ».



كذلك رخص ﷺ للرعاء أن يرموا بالليل، وأن يجمعوا الرمي. وقد أوضح أحد الصحابة معنى الجمع، فقال: «إن النبي ﷺ رخص للرعاة أن يرموا يومًا»، ويدعوا يومًا. أما النبي ﷺ فقضى أيام التشريق بمنى، ولما انتهت أيام التشريق الثلاثة، توجه ﷺ نحو مكة ليطوف بالكعبة سبعة أشواط تسمى: طواف الوداع، فهو يقول: «**لا ينفرن أحد حتى يكون آخر عهده بالبيت**»، ثم طاف طواف الوداع قبل سفره للمدينة، سبعة أشواط مثل ما كان يفعل، وفجأة حدث أمر قد يعيق السفر، وهو أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرت عائشة أنها قد أصيبت بالدورة الشهرية قبل طواف الوداع، فتوجهت عائشة للنبي، فأخبرته، فقال ﷺ: «**أحابستنا هي؟**» لكنهم أخبروه أنها قد طافت طواف الإفاضة قبل أن تحيض، وقالوا: «أفاضت يوم النحر»، فطمأنهم ﷺ أنها لن تحبسهم، وقال: «**إذًا اخرجوا**».

أي إن طواف الإفاضة يكفيها عن طواف الوداع، وقبل أن يخرج النبي ﷺ حدد لأصحابه مكانًا للاجتماع اسمه: (المحصب)، وهو ذلك المكان الذي يحمل ذكريات مريرة جدًّا للنبي ﷺ وأهله وصحابته.. عندما حاصرتهم قريش فيه، وقاطعتهم، ومنعت الاتصال بهم والتعامل معهم. فعندما سأله أسامة بن زيد: «يا رسول الله، أين تنزل غدًا؟ قال ﷺ: **نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة المحصب**» «**حيث تقاسموا على الكفر**»، ولما أمر القائد ﷺ بالتحرك نحو المدينة.. طلبت عائشة القيام بأمر قد يؤخرهم عن السفر.

عائشة تريد أداء العمرة

بدأ الحجاج يغادرون.. تحركت قوافلهم نحو الديار.. حولهم الإسلام إلى إخوة.. بنى لهم دولة، وأصبح لهم قيادة.. بدأ عناق الوداع، وفاضت العيون وسط العناق، وبدأت المطايا تتمايل عبر البطاح تحمل توحيدًا وحبًّا لم يعرف له العالم مثيلًا، أما قائد الأمة ﷺ، فقبل مغادرته شكت له زوجته عائشة أنها لم تعتمر، وقالت: «يا رسول الله، يرجع الناس بحجة وعمرة، وأرجع بحجة؟» «أيرجع الناس بأجرين، وأرجع بأجر؟».

لم ينتهرها ﷺ أو يعنفها، أو يلمها، بل نادى أخاها عبدالرحمن ابن أبي بكر، ولما جاء أمره ﷺ أن ينطلق بها إلى التنعيم. وهو مكان خارج الحرم، فركب عبدالرحمن على جمله، وأقبل نحو أخته أم المؤمنين، وأردفها خلفه، وقال لها النبي ﷺ: «**اذهبي مع أخيك إلى التنعيم، فأهلّي بعمرة ثم موعدك كذا وكذا**» فانطلقت عائشة مع أخيها نحو التنعيم، ثم أحرمت منه بالعمرة، ثم عادت لمكة، وفي أثناء عودتها التقت زوجها ﷺ وأصحابه الحجاج، وهم يخرجون من مكة، وقالت: «لقيني النبي ﷺ وهو مصعد من مكة، وأنا منهبطة عليها».. دخلت عائشة مكة، فطافت، وسعت، وأنهت عمرتها، ثم خرجت من مكة، ولحقت بزوجها ﷺ، ولما لحقت به ورآها قال لها: «**هذه مكان عمرتك**».

انطلق ﷺ نحو المدينة، وفي الطريق إلى طيبة كان الأنصار أسعد الناس بنبي الأمة وقائد الدولة، وكان ﷺ أوفى الناس بعهوده ومواثيقه، حين عاد معهم لطيبة. سار ﷺ وتوقف، وسار وتوقف، وفي الطريق حدثت قصص طريفة بين زوجاته، لكن قبل ذلك رأى القائد ﷺ ماء في الطريق، فتوقف، ونزلت قافلة المهاجرين والأنصار. كان ذلك الغدير يسمى (غدير خم)، وفي إحدى لحظات الاسترخاء تلك نهض القائد ﷺ، ليخاطب المهاجرين والأنصار، وكأنه يخبرهم بدنوّ أجله، وكأنه يقرأ مستقبلًا لن يصفو إلا بالأخوة وترك التنازع.. كان يخاطب المهاجرين والأنصار (فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به... فحث على كتاب الله، ورغب فيه) ثم ذكر الأمر الآخر، فلم يأمر بالتمسك به؛ لأنه ليس نصًّا ولا وحيًا، لكنه أوصى الناس أن يتقوا الله فيه، فقال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**» ثم قال: «**أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟** قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: **من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه**» يقصد علي بن أبي طالب.

كان زيد بن أرقم ينصت للخطبة، ثم سأله أحدهم: «من أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟» فقال زيد: «نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم» ترى ماذا يعني السائل بقوله: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ وما معنى أذكركم الله في أهل بيتي، ووالِ من والى عليًّا؟

ꕥ ꕥ ꕥ

لم أوصى النبي ﷺ بأهل بيته؟

الإجابة تدهش أعداء النبي ﷺ قبل أتباعه.. هو في هذه الخطبة قد أمر بالتمسك بالقرآن، والقرآن أوصى بالتمسك بسنته ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] .. إذًا ما علاقة آل البيت بالأمة هنا؟

النبي ﷺ في خطبة الغدير.. لم يأمر باتباع أهل بيته، ولم يقل: إن الخلفاء لا بد أن يكونوا منهم، وقبل ذلك لم يرتب لهم مخصصات، ولم يبنِ لهم قصورًا، ولم يسبغ عليهم حصانة، ولم يجعلهم فوق النظام.. إنه يحلف، فيقول عن أحب وأقرب أهل بيته: «**والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»، بل إنه حرم على فقراء أسرته وبيته أن يأخذوا من الزكوات والصدقات شيئًا، حتى إنه أخرج من فم الحسن تمرة من تمر الزكاة، وقال له: «**كخ كخ، ألقِها، أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة**»، بل إن النبي القائد ﷺ لم يورث لهم حتى ماله الذي كد في الحصول عليه، فقال: «**لا نورث، ما تركنا صدقة**».. لقد جعل ﷺ أسرته وأهل بيته أقل الأسر فرصًا للإثراء.. إن أرادوا المال فليعملوا كغيرهم من الشعب، أو ينتظروا نصيبهم من الميزانية وبيت المال.. تشريعات راقية تدحض هراء المنافقين والمنصرين واليهود، الذين روجوا أكاذيب بأن محمدًا أسس دولة لكي يثري، ويسلب، وينهب، إذًا فما مغزى خطبته ﷺ ووصيته بأهل بيته وبعلي في غدير خم؟

لـو كان ﷺ يعنـي اتباع أهـل البيت، وتأمير عـلي بالتحديد لـصرح بذلك، ولن يعصيـه أصحابـه الذيـن قدموا أرواحهـم طاعة لله ورسـوله.. لو كان يريـد ذلك لما صرح قبـل أربعة أيام بوجوب طاعة مـن تختاره الأمة وإن كان عبدًا مجدع الأطراف، حين قال: «**إن أمّر عليكم عبد مجدع أسـود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسـمعوا له، وأطيعوا**»، لكن لهذه الكلمات بقية تكشف عن سر ذكر علي بالتحديد، وهو أن الوحي قد أخبره ﷺ بأحداث مريرة سـتحدث في المسـتقبل عند افتراق الأمة، وسيكون علي طرفًـا فيهـا؛ لذا أخبر ﷺ بـأن موالاة علي في تلك الأحداث.. هي اتباع لسـنة الخلفاء الراشـدين، بغـض النظر عـن اجتهاد الطـرف الآخـر أو خطئه أو صوابـه، وآل بيته سـيتعرضون لبعض الابتلاءات، فحثّ ﷺ على ألا يسـهم أصحابه فيها.. ينكشـف ذلـك حـين قال أحد الصحابـة: «صلى بنا رسـول الله ﷺ الصبح ذات يـوم، ثم أقبل علينـا، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يـا رسـول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينـا؟ فقال: **أوصيكم بتقوى الله، والسـمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشـيًّا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسـنتي وسـنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسـكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**».

إذًا، فهنـاك اختلاف سـيحدث في الأمة، والعصمة منه في انتهاج سـنة النبي ﷺ وهي العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وسنة الخلفاء الراشدين وهي الاجتهاد من أجل العدل، والعدل هو لب الرشد، ومن فقد العدل فقد الرشد.

كانـت خطبة غدير خم معجزة تتحدث عن مسـتقبل قريب، أما خلافته وتحديد الشـخص الذي يتولى بعده فظلت تشـع طوال فترة حكمه، وهي أنه لا يهم من يحكم عربيًّا أم أعجميًّا.. أبيض أم أسود، فالأمة صاحبة القرار الأول والأخير، ولو كان أمر بشـخص معين لما كتمه، وكيف يكتمه وهو الذي لم يكتم ما هو أخطر وأجل وأعظم، والـذي كاد يفقـد روحه ثمنًا له، بل فقد العشرات من أصحابه أرواحهم ثمنًا له.. ألا وهـو التوحيـد، فهل يبعث محمـد ﷺ لمحاربة الوثنيـة والشرك في العبـادات، ثم يعيد

الوثنيـة مـن بوابة الحكم بتقديس الأشـخاص.. هذا هراء لا يـردده إلا من غابت عنه ثلاث وعشرون سنة من النضال لنزع القداسة عن البشر والشجر والحجر، فلا إله إلا الله، ومن يحكم بما أنزل أقرب له ممن لا يحكم بما أنزل، ولو كان من سلالة محمد ﷺ.

خلاف بين زوجاته ﷺ في الطريق

مكـث ﷺ عـلى ماء خم قليـلًا، ثم أمـر بالتحرك نحـو المدينـة، وكان أحد أيام ذلك السـفر يصادف يـوم صفية بنت حيي، وقد اسـتغلت ذلك اليـوم لتنهل المزيد من الحنان والدلال، لكنها بالغت في الشـكوى حتى قسـت على مشـاعره، فكلفتها مبالغتها تلك متعة يومها ذلك. كان ﷺ كعادته يتفقد شـعبه حتى في السـفر.. لم يكن أفضل منهم مركبًا ولا مأكلًا ولا مشربًا.. كان يتفقد الضعفاء، ويردفهم، ويواسيهم، فلمـح بعير زوجته صفية قد أبطأ بها، فيمم نحوها، فاسـتقبلها رسـول الله ﷺ وهي تبكـي، وتقول: «حملتنـي على بعير بطيء» اقترب منهـا ﷺ ورقّ لتلك الدموع، فمدّ يديـه برفق، وبدأ «يمسـح بيديه عينيهـا، فأبت إلا بكاء، وجعلت تـزداد بكاء، وهو ينهاهـا». حاول تهدئتها ومواسـاتها كثيرًا، لكنها ازدادت عتابًـا وبكاء، «فلما أكثرت زبرهـا، وانتهرها»، لكنه ظل حزينًـا لبكائها؛ لذا أمر الناس بالتوقف والنزول، وهو لا يريد النزول.

انشـغل عنها في أثناء التوقف بشـعبه، فشـعرت صفية بالخجـل والحرج، وهي تغضب زوجًا عطوفًا، وتعطل قافلة جميلة.. شعرت بالذنب، وهي ترى قائد الدولة يحاول استرضاءها، فتقابله بالبكاء، فتهادت نحو منافستها عائشة تقدم لها عرضًا لا يرد.. تقدم عرضًا مقابل أن ترد قلب حبيبها لها. مشت نحو عائشة، فقالت: «يومي هذا لك من رسـول الله ﷺ إن أنت أرضيتِه عني» وافقت عائشـة دون تردد، وبدأت الأنوثة تمارس وهجها في التأليف لا في التفريق.

صبغت عائشـة خمـارًا لها بورس وزعفران، ورشـته بقليل من المـاء، ثم تهادت نحـو زوجهـا الحزين الـذي اعتـزل في خيمة وحـده، واسـتلقى فيها.. قـد حطمته

السـنون، وبدأت آثار التعب تنال من جسـده الشريف.. دخلت عائشـة، فجلسـت عند رأسـه ﷺ، فنظر إليها مسـتغربًا اقتحامها ليوم غيرها، وقـال: «**ما لك؟** فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشـاء». ثم اسـتدرت عاطفته، وألانت قلبه حتى رضي عن صفية، وتلاشى غضبه عليها.

لم يكتـفِ ﷺ بالرضـا عن صفية، بل قـرر أن يبهجها.. قرر أن يسـتعير لها وهو قائـد الدولـة بعـيرًا، لكن بـدلًا من أن تنحـل تلك المشـكلة الأسرية تعقـدت، فقد انطلـق ﷺ إلى زينـب، فقـال لها: «**إن صفية قـد أعيا بها بعيرها، فـما عليك أن تعطيها بعـيرك؟**» نظرت زينب إلى حبيبها وابـن خالها، وقد غلت غيرتها، فانفلتت الكلمات دون شعور، وقالت: «أتعمد إلى بعيري، فتعطيه اليهودية؟». لم يردّ ﷺ عليها.. تغير وجهه غضبًا لتلك الكلمة القاسـية، ولم يأخذ منها شـيئًا، بل تركها، وهجرها طوال الطريق. فصفية يهودية من ناحية النسـب، وهذا ليس عيبًا، لكن عندما تحضر الغيرة تغيـب الحكمة، فذات يوم دخل ﷺ عـلى صفية، فوجدها تبكي، فقال: «**ما يبكيك؟** فقالـت صفية: قالت حفصة: إني ابنة يهودي، وإذ بالـزوج الرائع يذكرها بمجد من الله لا يطاول.

❧ ❧ ❧

بيت القائد ﷺ كبقية البيوت

شـعر ﷺ أن غيرة حفصة وجدت في أصل صفية اليهودي مكانًا مناسـبًا للوخز والإيـلام، لكن صفية وجدت الإنصـاف في كلمات زوجها العذبـة الحانية.. أوقف دموعهـا، وعرض عليها مجدًا منحه الله لهـا، فقال: «**إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنـك لتحـت نبـي، فبـم تفخر عليـك؟**»، ثم لقـي حفصة، فقـال لها: «**اتقـي الله يا حفصة**»، فصفية الآن مؤمنة وأم للمؤمنين.

أمـا زينـب فكلفتها كلماتها الكثير، فهـا هي تعاني هجـران زوجها ﷺ لها طوال الطريـق، وبعـد أن وصلت قافلة الحجـاج إلى المدينة، وتفرق الجميـع نحو بيوتهم..



كان للبيوت طعم جميل.. إلا بيت زينب.. ظل يشكو فراق حبيبه ﷺ.. لم يعد يمر كل يوم كما كان يفعل.. يأتي يومها، لكن حبيبها ﷺ لا يأتي، بل إنه لم يقرب بيتها. شعرت زينب بالحزن، وطالت مدة هجرانه لها، فأدركت أنه لن يعود، ففقدت بهجة الحياة، وعطلت زينب نفسها، وعطلت بيتها، وبلغ بها اليأس إلى أن تتوجه إلى سرير زوجها، فترفعه حتى أسندته إلى مؤخر البيت، وأيست أن يأتيها رسول الله ﷺ.

مر شهر ذوالحجة ومر محرم وجاء شهر صفر، وفي لحظات اليأس أشرق حبيبها ﷺ عليها.. كان درسًا مريرًا لزينب، فأصل المرء أو لونه أو شكله ليس سبّة، ولا موضع سخرية أو تندر.. لا أحد له فضل في الحصول على لونه أو أصله أو شكله.. هي أقدار الله، ولا يملك أحد في الدنيا اختيارها، أو الحصول عليها بذكائه وجهده أو كدّه.. هي عطايا ربانية.. هي ابتلاء: هل يشكر المرء على جميلها، أو يصبر على مكروهها، ولم يكن ﷺ يمرّر النَّبْزَ بها، فذات يوم حكت عائشة لزوجها ﷺ عن قِصَر صفية، فقال: «**لقدْ قلت كَلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته**».

كان بيت النبوة كبقية البيوت.. يجري فيه ما يجري فيها من غيرة وخصومة، لكن رقي النبي ﷺ في التعاطي مع المشكلات الأسرية ذلّلها.. خفّف آثارها، فالغيرة التي تلمّ بالمرأة واقع، لكن يفترض ألا تتحول إلى عداوة أو شحناء، أو إضرار بالآخر، والتعامل معها فن يجيده النبي ﷺ، وهن معذورات في غيرتهن، فالرجل الذي يغرن عليه ليس كبقية الرجال: إنه محمد ﷺ الذي شغف قلوبهن بخلقه وذوقه ورقّته ورقيّه.. محمد ﷺ الذي يقول عنه ربه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن يخيّر زوجاته بين العيش معه أو الانفصال عنه، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

الإجابة حب لا مثيل له

الإجابة حب لم تعرف له الزوجات مثيلًا.. اخترنه ﷺ مباشرة دون أن يستشرن أهلهن، مع أن أهلهن لا يملكون حق منعهن.. اخترنه كلهن دون جدال، حتى إن عائشة، وهي أصغرهن وأجملهن، لما قرأ ﷺ عليها الآية قال لها: «**لا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك**» قالت دون تردد: أفي هذا أستأمر أبوي؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خيّر نساءه، فقلن مثل ما قالت عائشة.. اخترنه حتى إن زوجته سودة التي تجاوزت الستين خفق قلبها لرفقته في الجنة، فوهبت يومها وليلتها لعائشة، تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ. وحتى إن أجملهن وأصغرهن، وهي عائشة كانت من فرط حبها ووَلَهِهَا به تتحسس فراشه وهو نائم؛ خشية أن يغادره في ليلتها.

ذات ليلة استيقظت، فمدت يدها تتحسس مكانه، فإذا الفراش خالٍ منه ﷺ، فهمست غيرتها بأنه عند بعض نسائه، فانطلقت تبحث.. تتحسس، فلم تجده عند أيٍّ منهن، فلما عادت وجدته راكعًا يقول: «**سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت**» فلما سمعت تسبيحه فدته بأمها وأبيها، وقالت: «بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر».

كان محمد ﷺ حبًّا أذهل عائشة حتى أخرجها من حجرتها.. تبحث عن قلبها الذي كان يرقد بجانبها.. عن قلبها الذي يحمله ﷺ أينما اتجه. حدث ذلك حين أوى ﷺ إلى فراشه ذات ليلة ووضع رداءه، ثم خلع نعليه، ووضعهما عند رجليه، ثم بسط طرف إزاره على فراشه المتواضع، واضطجع.. لم يكن يريد النوم.. كان ينتظر أن تنام عائشة.. انتظر حتى ظن أنها قد نامت، ثم رفع رأسه، ونهض برفق، وبمنتهى الذوق خشية أن يوقظها، فاستل رداءه، وأخذ نعاله، ولبسها، ثم تهادى رويدًا نحو الباب دون أن يحدث صوتًا، ففتحه، وفجأة فتحت عائشة عينيها على طيفه الحبيب ينسلّ، ثم يجافي الباب رويدًا، ويغادر غرفتها، ويغادر بقلبها.

جافى ﷺ الباب، لكنها لم تجافي عينيها، ولم تجد لذة للنوم. نهضت من فراشها، ولبست حجابها، ثم تسللت خلفه ترصد طيفه بلهف، وقلبها يتساءل: إلى أين سيذهب في دجى المدينة؟



يغادر فراشها نحو منازل أحبته

إلى أيـن يتجـه ﷺ؟ إنه ليس في طريقـه إلى أي حجرة من حجرهن.. إنه يسـلك طريقًا مؤلمًا يحمل الكثير من الذكريات والوجد.. طريق يؤدي إلى منازل أحبته الذين رحلـوا. وقـف ﷺ بين تلك المنازل، فتوقفت عائشـة يخفق قلبها للمشـهد من بعيد.. ترقب حزنه الذي طال أمام قبور أحبته في البقيع.. تأملته وهو يرفع يديه ثلاث مرات دون أن تدري ما يقول، ثم أنزل يديه، ثم انثني عائدًا، فانسـحبت حبيبته كي تسـبقه لبيتها.. مشت وهي تلحظه بعينيها، وتلتفت نحوه تلمح حركته، فحدق ﷺ في ذلك الطيف الغريب الذي يراقبه في الظلام، فشكّ في أمره، فأسرع نحوه بشجاعة.

التفتـت عائشـة، فإذا هو يـسرع نحوها، فأسرعت محتفظة بالمسـافة نفسـها، فزاد ارتيابه ﷺ فهرول، فالتفتت عائشـة وخفق قلبها خوفًا، فهرولت، فأحضر ﷺ أي صار يعدو، فصارت تعدو وتعدو حتى سبقته للبيت، ففتحت الباب بسرعة، وألقت بنفسها على الفراش، لكن صدرها مازال يعلو وينخفض، وأنفاسها تتقطع وقلبها يرجف.

دخل ﷺ فأنصت لأنفاسها المتقطعة، فاقترب منها، وجلس ونظر إليها مستغربًا لباسـها وارتجافهـا، فقـال: «**ما لك يـا عائش، حَشْـيا رابيةً؟** فقالـت: لا شيء. قال: **لتخبرينـي أو ليخـبرني اللطيف الخبير**» ففدته بأمها وأبيهـا، وقصّت عليه قصة حبها وغيرتها التي حرمتها النوم، فقال: «**فأنت السـواد الذي رأيت أمامي؟** قالت: نعم». فلهد حبيبته في صدرها ممازحًا.. لهدها لهدة أوجعتها، ثم قال: «**أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله؟** قالت: مهما يكتم الناس يعلمه الله؟! **نعم**».

طمأنها ﷺ بعدله وحبه، ثم قصّ عليها قصة البقيع، ووقوفه على شاطئ الموت، ثم قال وهو يستشعر وداعًا قريبًا لحبيبته التي خشي عليها أن تستوحش إن أيقظها.. قـال: «**فـإن جبريل أتاني.. فقـال: إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع، فتسـتغفر لهم.** قالت عائشـة: كيف أقول لهم يا رسـول الله؟ قال: **قولي: السـلام على أهل الديار من المؤمنين والمسـلمين، ويرحم الله المسـتقدمين منا والمسـتأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**» ترى ما سر هذا الاستغفار لساكني البقيع؟

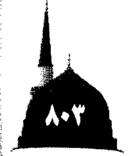
الإجابـة اتضحت بعد أيام، حين أنزل الرحمـن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النصر: ١-٣] ، فكان لنزول هـذه السـورة ظلال مؤثرة.. شعرت بها عائشة، فقالت: ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[النصر: ١]،يصـلي صـلاة، إلا دعـا أو قال فيها: «**سبحانك ربي وبحمدك اللهم، اغفر لي**».

لم تترك هذه الفتاة العظيمة هذا الأمر يمر دون استفسـار، فهي لا تحب رسـول الله ﷺ فقط، بل تحب سـنته، وتعشـق التتلمذ على يديه، توجهت إليه لتستفسره عن تلك الإشارات الحزينة؟

إشارات الوداع الحزينة

قالت عائشة: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: «**سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه**». فقال: «**خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه. فقد رأيتها**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ -(فتـح مكـة)- وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النصر: ١-٣].

مع تلك المؤشرات الحزينة تعاظم خوف القائد ﷺ على شـعبه.. على أمته، حتى بـدأ يكثر الحديث عن مسـتقبلهم، فقد أشرق فجر أحد تلـك الأيام، فأذن بلال، ثم أمّهـم ﷺ، ولـما صلى بهم وسـلم. نهض مقبلًا عليهـم بقلبه، فوعظهـم موعظة بليغة ذرفـت منها العيون، ووجلت منها القلوب. عصفـت الموعظة بقلب أحد المصلين، فهتـف بنبيـه ﷺ وقال: «يـا رسـول الله، كأن هذه موعظة مـودع، فماذا تعهـد إلينا؟ فقال: **أوصيكم بتقوى الله، والسـمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشـيًّا، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين،**



تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

يا إلهي.. لمَ أوصاهم بسنة خلفاء راشدين قادمين بعده؟ هل اقترب أجله ﷺ.. هل آن الأوان للرحيل؟ لم كل هذه الإشارات؟ لماذا راجع معه جبريل القرآن مرتين هذا العام، بدلًا من مرة واحدة، كما كان يفعل كل عام؟ هل هي علامة الوداع أيضًا؟

حتى جسده ﷺ بدأ يضعف، فهذا النبي الذي كان يقرأ البقرة وآل عمران والنساء قائمًا في ركعة واحدة.. أصبح يصلي الليل جالسًا، وعلى الرغم من أنه في الثالثة والستين، وهي سن ليست بالكبيرة جدًّا، خاصة لمن يتغذى تغذيته ﷺ، فغذاء زعيم الجزيرة العربية كلها مقتصر على الماء والتمر واللبن في معظم الأيام، فهو لم يشبع من خبز الشعير يومًا في المدينة ولا رأى رغيفًا مرققًا على سفرته.. إذا كان ﷺ قد عاش بهذا النظام الغذائي الصارم القاسي، فما الذي أتعب جسده؟

الإجابة بحجم مشاعر هذا القائد ﷺ، فقد أنهك جسده شيء أخطر، وهم أثقل.. كشفت عنه حبيبته عائشة، حين سُئلت: «هل كان النبي ﷺ يصلي وهو قاعد؟ قالت: نعم، بعدما حطمه الناس». لم تحطمه الموائد وجمع المال.. حطمت جسده المسؤوليات، وهموم شعبه ودولته، والتفكير فيهم وحل مشكلاتهم، والحدب على صغارهم قبل كبارهم، وإذا كانت هموم هذه الأيام همومًا يطوف بها الوداع والموت، إلا أنها لم تكن لتأخذ هذا النبي القائد ﷺ بعيدًا عن شعبه ومسؤولياته.. كان يغرس فيهم الحياة.. كان يشعلهم، ويأخذهم إلى الإنجاز بلا حدود، فذات يوم خاطب شعبه محرضًا إياهم على زرع الحياة في تلافيف الموت.. خاطبهم خطابًا لا يعرف حدودًا للإبداع، ولا زمنًا للتوقف، فقال: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها، فليفعل**».

ما الذي سيجنيه مسلم على وشك الموت، من غرس فسيلة نخل تحتاج إلى سنوات لتنمو وتثمر؟ ما الذي سيعود عليه من غرسها والقيامة ستقوم بين لحظة وأخرى؟ لا شيء إلا أن الإسلام جاء لتظل حياة المسلم إبحارًا نحو اللا نهايات، وإبداعًا دون توقف.. كان ﷺ ينظر إلى ما بعد الموت، فالموت مرحلة لا أكثر في حياة المسلم.

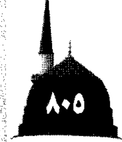
يستدعي أسامة من أجل أمته

ها هي عيون الدولة ترصد تحركًا عدوانيًا صليبيًا ثالثًا على دولته الفتية.. قد يكون الغساني أو هرقل الروماني، لكنه عدوان لا مبرر له..، لكن المفاجأة أن القائد ﷺ لم يستدعِ أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليًّا ولا سعد بن عبادة... استدعى فتى الدولة الأسود.. استدعاه على الرغم من أنه في سن أبنائهم.. نادى أسامة بن زيد وأمَّره على جيش، وجعل هؤلاء العظماء ضمن جنده، ثم طلب منه التوجه نحو الشام للتصدي للجيش الصليبي المعتدي.

شعر بعض الرجال بنوع من التبرم لإمارة أسامة، فقام ﷺ يخطب محطمًا بقايا العنصرية خاصة بين من أسلم حديثًا، فقال: «**قد بلغني أنكم قلتم في أسامة، وإنه أحب الناس إلي**».. «**إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إِمْرَةِ أبيه من قبله! وايم الله إن كان لخليقًا للإِمْرَةِ، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده**».

كانت كلماته لأسامة ككلماته لأبي بكر في الحج، ولعلي في الغدير، ولعمر ولعثمان في تبوك، ولغيرهم في ظروف مختلفة.. لم يكن هناك تقديس لشخص، ولا حدية تعني أن فلانًا بعينه والبقية تبع له، بل كانت تعني أن في الكل طاقات، وفي الكل مواهب، وليست محصورة في صحابي واحد، فلا عصمة لغير محمد ﷺ، ولا نبي بعده.. الصحابة إخوة، ولكل جهده وجهاده، وما ضرّ الأمم شيء كالغلو، لكن قبل ذلك هناك أمة هي الأهم.. هي الأهم، حين قال ﷺ: «**لكل نبي دعوة قد دعا بها في أمته، وخبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**».. هي الأهم، حين قال ﷺ: «**اللهم، من ولي من أمر أمتي شيئًا، فشقّ عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا، فرفق بهم، فارفق به**».. أمته سمعه وبصره.. حتى عصاتها ومرتكبو الكبائر منهم يسكنون قلبه وتفكيره ورحمته، حين قال: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**».

كانت كلماته ﷺ لأسامة كالوداع للدنيا، واقتراب الوداع مرير، فهل ستحتمله القلوب؟



ذات يـوم عـاد ﷺ من مقبرة البقيع، وهو يشـعر بألم في رأسـه، فتوجه نحو بيت عائشة، ولما دخل عليها وجدها تشعر بصداع أيضًا، وتقول: «**وا رأساه**. قال ﷺ: بل أنا والله يا عائشة.. وارأساه»، ثم مازحها على الرغم من صداعه قائلًا: «**ما ضرك لو مـت قبلي، فقمت عليك وكفنتك، وصليت عليـك، ودفنتك؟**» فردت عليه بمزحة جعلتـه يبتسـم قائلـة: «**والله لكأني بك لو فعلـت ذلك، رجعت إلى بيتي، فأعرسـت ببعض نسائك**».

ازداد وجعه ﷺ بعد ذلك الصداع شـيئًا فشـيئًا، وانتقل الألم لبقية جسـده حتى ثقلت حركته، فصار مشيه ثقيلًا، وأصبح يتنقل بصعوبة بين أبيات زوجاته، لدرجة أنـه كان يحتاج إلى من يعينه أحيانًا، ففي أحد الأيام كان يتهادى بصعوبة مسـتندًا إلى بعـض أصحابـه، وهو في طريقه إلى بيـت زوجته ميمونـة.. كان عاصب الرأس من شدة الألم، ولما دخل، وسلم عليها، وجلس عندها.. شعر بأنه لا يستطيع التنقل بين حجر زوجاته، فجمعهن عند ميمونة.

انطلق شخص لاستدعائهن، فلما حضرن، وسلمن.. جلسن حوله وعيونهن تفيض حزنـًا.. قد تعلقت قلوبهن بهذا الحبيب الذي بدأ جسـده بالضعـف، وبدأ يكثر الحديث عن الرحيل.. خاطب تلك القلوب الحزينة، فاستأذنهن في أمر ثقيل جدًّا على قلوبهن.

محمد ﷺ يودع أبيات زوجاته

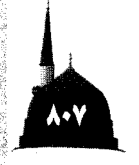
في بيت ميمونة نظر ﷺ نظرة حزينة إلى زوجاته، ثم اسـتأذنهن في أن يمرض في بيت عائشـة، فليـس لقائد الدولة بيت مسـتقل غير غرف زوجاتـه.. حاكم الجزيرة العربيـة كلهـا لم يأمر بإحضـار أطباء الجزيرة، أو بناء مبنى مسـتقل ليتـم فيه علاجه بعيدًا عن ضوضاء الشعب ومطالبهم التي لا تنتهي، بل اكتفى بالمكوث في حجرة لا يزيد طولها على ثلاثة أمتار، ولا يرتفع سـقفها عن المترين ونصف.. حجرة ملاصقة لمسجده الذي يتردد عليه شعبه ليل نهار.

ـ استـأذن زوجاتـه أن يمرض في حجرة عائشـة، «فأذِنَّ لـه»، وبعد أن مكث ﷺ في بيـت ميمونـة مدة تم اسـتدعاء ابني عميه علي بن أبي طالـب والفضل بن عباس، ولـما دخلا عليه طلب منهما أخذه إلى حجرة عائشـة، فمـدا أيديهما نحوه وهو يحاول النهوض بصعوبة، فرفعاه ﷺ برفق، وأسنداه بينهما، وخرجا به.. سارا به في الطريق، وفي أثناء سـيره المؤلم كانت عيون المارّة من الشعب تفيض، وهي ترى قائدها عاجزًا عـن تحريـك قدميه كـما كان.. كانـت قدماه تخطان عـلى الأرض خطوطًـا، وتحفران أخاديـد في قلـوب الرجال والنسـاء والأطفال، حتى قالت عائشـة: «إنه كانت تخط قدماه الأرض، عاصبًا رأسـه حتى دخل بيتي».. كان مشهدًا يدمي القلب.. نبي الله وقائد الشعب لا يستطيع السير وحده، وهو الذي كان يقودهم قبل أشهر إلى مكة.

دخـل ﷺ بيت عائشـة، فاضطجع على فراشـه، ثم خرج عـلي والفضل، وبقيت عائشـة بجواره تمرضه، وجاء الغد، فلم يغادر الوجع جسـده.. ظل ضجيعه.. يزداد شـيئًا فشـيئًا، فتزوره حبيباته أمهات المؤمنـين، وتزوره فاطمة كل يـوم ومعها أحيانًا ريحانتاه الحسـن والحسـين.. افتقدته الشـوارع والأسـواق والميادين.. افتقدته نخيل طيبة وجبالها، وطافت القلوب بحثًا عنه، وتعلقت العيون المارّة ببابه عله يشرق منه.. عله يخرج، فيروي هذا العطش الذي استبد بطيبة، أما هو ﷺ فشعر بدنوّ أجله.. شعر بقرب رحيله، فكانت أمته بين عينيه وحناياه، وكأنها هي المريضة لا هو.

التفـت إلى حبيبتـه عائشـة، ثـم طلـب منها أن تنـادي أباهـا الصديـق وأخاها عبدالرحمن، وقال: «**ادعي لي أبا بكر وأخاك، حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍ، ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**».

استشعر ﷺ ذلك الفراغ السياسي الذي سيتركه خلفه، فدبّ الخوف على شعبه وأمتـه مـن أن يتفرقوا ويختلفـوا، فاجتهد من عنـده في أن يولي أبا بكـر خليفة، لكنه تراجـع لأنـه لم يـرد أن يصادر حق الأمـة في انتقاء قائدهـا.. تراجـع ﷺ، والنبي إذا هـمّ بشيء، فلـم يفعله، فيعني أن همه ذلك اجتهاد منـه لا وحي، ولذا قال بعد ذلك مباشرة: «**يأبى الله، ويدفع المؤمنون**» والمؤمنون أعلم بما يصلح لهم.



كانت أمته تتجول بين حناياه.. يخشى عليها من الفتن.. يخشى عليها من الفرقة.. يخشى على هذا الإنجاز من الانهيار؛ لذا وفي يوم الإثنين الموافق للخامس من ربيع الأول، وبينما كانت زوجاته في زيارته في حجرة عائشة.. كان الألم يزاحمهن.. يكاد يفقده الوعي، فشعر ﷺ بحاجة إلى إلقاء خطاب يوصي فيه الأمة، فقال لزوجاته: «**أهريقوا علي من سبع قرب، من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم**».

النبي ﷺ يشير إلى أبي بكر

انطلق أحدهم إلى بيت حفصة، فأحضر منه وعاء نحاسيًّا يُستخدم للاستحمام، يسمى المخضب، وانطلق آخرون، فأحضروا قربًا فارغة، ثم توجهوا بها نحو آبار متفرقة، فملؤوها منها، ثم أحضروها لبيت عائشة، ولما جهزوا المخضب نهض النبي ﷺ، وساعدته زوجاته حتى جلس في المخضب، ثم حلت أمهات المؤمنين أفواه القرب، وبدأن بصب الماء على جسده المنهك، «حتى طفق يقول: **حسبكم حسبكم**»، فتقول عائشة: «حتى طفق يشير إلينا: **أن قد فعلتن**».

توقف تدفق الماء، وشعر النبي ﷺ بانتعاش، فالتحف بلحاف، وتعطف به على منكبيه، وعصب رأسه بعصابة دسماء داكنة اللون عليها أثر الزيت، ثم طلب من يسنده من أصحابه، فتم استدعاء أحد الصحابة، فجاء ملهوفًا، ولما دخل استند ﷺ إليه، ثم «خرج إلى الناس»، «فصلى بهم، وخطبهم»، ثم «جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **أما بعد أيها الناس**»: «**إن الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله**».

انغرزت الكلمات في قلب أبي بكر، فنزف حزنًا، وأجهش بالبكاء، وسالت دموعه لتلك الكلمات، وعجز عن حبس مشاعره، فهتف بنبيه ﷺ، وقال: «فديناك بآبائنا وأمهاتنا».

كان الشاب أبوسعيد الخدري إلى جانب أبي بكر، فهزّه ذلك الهتاف، واستغرب تلك الدموع، والتفت نحو الصديق، وقال في نفسه: «ما يبكي هذا الشيخ! إن يكن

الله خيّر عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله؟».. لم يدرك أبوسعيد تلك الأحرف التي أبكت الصديق، حتى انتبه لنبيه ﷺ يناشـد رفيق نضاله ووزيره الأول وصاحبه في الغار.

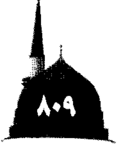
ناشـده ﷺ أن يكف عن البكاء، وقال بصوت يتهدج حزنًا وحبًّا: «**يا أبا بكر، لا تَبْكِ**»، **ثم وجه ﷺ الخطاب لشعبه، فقال:** «**إن أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبوبكر، ولو كنت متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته**» عندها فهم أبوسـعيد أول الخطبة، وأدرك المسـافة التي قطعها الصديق في قلب نبيه ﷺ فقال: «كان رسول الله ﷺ هو العبد، وكان أبوبكر أعلمنا».

حبس الناس أنفاسـهم.. فاضت أعين الرجال، وبكت النسـاء، وهم ينصتون لحبيبهم يخاطبهم بأسلوب نزفت له قلوبهم، وكأنه يلوح لهم بالرحيل، بعد أن قادهم بعـد الله للتوحيد، ووحد شـملهم وبنى لهم دولة، وجعلهـم أعز أهل الأرض، فـ: هل هي آخر خطبة للنبي ﷺ؟

أشـار ﷺ إلى فضل الصديق وسـبقه، ثم جاء دور الوفـاء للأنصار، خاطب ﷺ شـعبه وأمته.. يوصيها بأحب الأقوام إليـه.. يوصيهم بالأنصار ومن مثل الأنصار، فقـال: «**إن الناس يكثـرون، وتقلّ الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضرّ فيه أحدًا، أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم**».

آخر خطبة للنبي ﷺ

كان ﷺ يكثر الأحاديث السياسية حول اجتماع شعبه وعدم التفرق، وكأنه يهيئ الأمـة لتولي أمورها بعد أن خط لها منهجًا يقول: «**إذا كان شيء من أمر دنياكم فأنتم أعلـم بـه، فإذا كان مـن أمر دينكم فـإلي**»، وقد أنـزل الله أحكامًا أمـر بتطبيقها أولها العدل، وترك ما يسـتجد من أمور للأمة.. في مرونة تجعل منه دينًا مناسبًا لكل زمان



ومكان. فإشاراته تشير إلى خيارات الأمة في انتقاء خليفته، وهو غير عاجز عن تحديد الأشخاص، ولم ينزل عليه وحي يحدد شخصًا، ويدرك أن تحديد شخص بعينه قد يؤدي إلى الغلو فيه، ويؤدي إلى تهميش الأمة على حساب الفرد. ولذا قال في خطبته مشددًا على خطورة الغلو: «**إن الله تعالى قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا. ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**»، ثم نهض ﷺ ثقيلًا نحو بيت عائشة الملاصق للمسجد، ليمكث فيه ما تبقى من أيامه التي يبدو من شدة مرضه أنها قليلة.

مر يوم الإثنين، ومر يوم الثلاثاء والصحابة ـ ﭫ ـ يترددون لعيادته، والاطمئنان على حاله، وكان يخرج للمسجد ليصلي بهم جالسًا، فيصلون خلفه جلوسًا.. زاره حبيبه وتلميذه ابن مسعود، فأحزنه وجعه، وتألم وهو يراه يوعك، فقال: «يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا؟ فقال ﷺ: **أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم**. فقال: **ذلك بأن لك أجرين**. قال ﷺ: **أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحطّ الشجرة ورقها**».

خرج ابن مسعود، وجاء غيره.. وظل الزوار يترددون، وفي إحدى الساعات اشتد به الوجع حتى أغمي عليه، ففزعت أمهات المؤمنين، وبكين، وقمن باستدعاء عمه العباس، فأقبل قلقًا، ولما رآه تألم، وقدم اقتراحًا على زوجاته الحاضرات (أم سلمة وميمونة، ونساء من نساء المؤمنين، منهم أسماء بنت عميس).. اقترح أن يقدم له علاجًا يسمى (اللد) وهو أن يسقى المريض دواء من أحد شقي الفم، فوافق الجميع.

كان ﷺ في غيبوبة، فرفعوا رأسه، وفتحوا فمه، وأمالوا رأسه إلى أحد جنبيه، ثم سكبوا الدواء، وبعدما أفاق ﷺ حرك فمه، واستطعم ما بفمه، فعرف الدواء، واحتج على الحاضرات، وأشار متهمًا زوجة أبي بكر أسماء بنت عميس بإحضاره؛ لأنها كانت في الحبشة مع زوجها السابق جعفر بن أبي طالب؛ لذا أمر ﷺ بمعاقبة كل الحاضرات بعقاب ظريف. قال ﷺ: «**من صنع بي هذا**؟ قالوا: يا رسول الله،

عمك العباس. قال: هذا دواء أتى به نساء من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة، ولم فعلتم ذلك؟» فقال العباس: خشينا يا رسول الله، أن يكون بك وجع ذات الجنب. فقال: «**إذن ذلك لداء، ما كان الله ليعذبني به. لا يبقى في البيت أحد إلا لد، إلا عمي**».

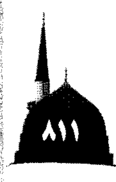
بدأ تنفيذ العقوبة التي كانت أشبه بالمزاح.. وسط ابتسامات الحاضرات ودموعهن، حتى قالت عائشة: «فلقد لدت ميمونة، وإنها لصائمة لقسم رسول الله ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا».

هل لليهود علاقة بمرضه ﷺ؟

كان النبي ﷺ يبث شكواه لحبيبته عائشة عندما يكونان وحدهما، حيث كان كلما اشتد به الألم تذكر محاولة اغتياله على يد المرأة اليهودية في خيبر، فيقول: «**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**»؛ أي هذا هو وقت انقطاع عرقي من أثر ذلك السم.

مر الأربعاء، وجاء الخميس، وفي يوم الخميس اشتد به الوجع حتى كأنه الموت.. دخل عليه مجموعة من الصحابة، فلما رآهم تحرك الخوف على أمته مرة أخرى، فهمّ بكتابة كتاب، وقال: «**ائتوني بكتاب، أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا**» فقال عمر: «إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت، فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**قوموا**» فقالوا: هجر رسول الله ﷺ»؛ أي تعب، وبدا عليه الإرهاق.

كان ذلك الكتاب اجتهادًا منه ﷺ، كما همّ قبل أيام أن يكتب كتابًا يوصي فيه لأبي بكر، والهم ليس من الوحي، ولو كان وحيًا لوجب عليه تبليغه؛ لأن الله يقول



له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

بعد ذلك الجدل عنده نطق ﷺ بكلمات تعبر عن حالة يرى فيها ما لا يرون، وسماعه لما لا يسمعونه، فقال: «**دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه**».

ظل ﷺ منشغلًا بأمته، خائفًا على ضعفاء شعبه وفقرائهم ومعدميهم، حتى كان عامة وصيته: «**الصلاة.. الصلاة، وما ملكت أيمانكم**، حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره، وما يفيض بها لسانه» من حرصه على الأخذ بهما.

كان النبي ﷺ في يوم الخميس هذا يصلي بالناس، وهو جالس، ولما حانت صلاة المغرب حمل ﷺ ليصلي بالمؤمنين، فصلى بهم، وقرأ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ١-٧].

كان الرجال والنساء ينصتون إلى ذلك الصوت الخاشع الذي أنهكه المرض، حتى قالت إحدى النساء اللواتي كنّ خلف تلك التلاوة، وهي أم الفضل زوجة عمه العباس: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفًا، ثم ما صلى لنا بعدها»، فمن سيصلي بهم؟

مروا أبا بكر فليصل بالناس

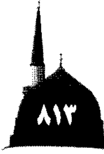
غربت شمس يوم الخميس، فخرج النبي ﷺ من حجرة عائشة تخطّ قدماه، قد استند على اثنين من الصحابة، فوضعاه على الأرض، فاعتدل جالسًا وكبر، ثم قرأ الفاتحة، فأمن الناس، ثم قرأ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: ١]، وبعد أن أتم صلاته

أُخذ مرة أخرى إلى بيت عائشة، فوضع على فراشه، ثم استلقى عليه، وصار يوعك وعكًا شديدًا.. دخل وقت العشاء وجدران المسجد تومض بالسرج، فصعد بلال بيت أحد الأنصاريات، وأذن كعادته للعشاء، وكله أمل أن يخرج نبيه الراقد خلف تلك الستارة للصلاة، وهو بأحسن حال.

حاول النبي ﷺ النهوض، فلم يستطع.. حاول مرة، ومرتين، لكن جسده لم يسعفه، فقد أثقله الألم، وغشاه حتى أغمي عليه، بل أمسى يعاني الإغماء تلو الإغماء.. امتلأ المسجد بالأحبة، وعيون الأحبة تفيض شوقًا، وتلمع كالدموع.. تحدق في تلك الستارة علّ حبيبهم يشرق منها.. كان الشوق يفتك بالصحابة والصحابيات.. ينتظرونه بلهف.. ينتظرونه، لكنه لم يخرج، ولم يستطع النهوض من مكانه.. كانت عائشة تعاني معه، وتحكي معاناته وهو ينظر إليها بعينين ضعيفتين، ويقول: «**أصلى الناس؟**»، فتقول له: «لا، هم ينتظرونك. قال: **ضعوا لي ماء في المخضب**».

أحضرت بعض القرب، ثم فتحت أفواهها، وسكب الماء منها في المخضب، فقامت عائشة وحفصة ومن معهما بمساعدته ﷺ حتى أجلسوه فيه، فاغتسل، وبعد أن اغتسل حاول النهوض، فعجز، وذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال ﷺ: «**أصلى الناس؟**» فقلن: «لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: **ضعوا لي ماء في المخضب**. فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «**أصلى الناس؟**» فقلن: «لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: **ضعوا لي ماء في المخضب**. فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: **أصلى الناس؟ فقالت زوجاته**: «لا، هم ينتظرونك يا رسول الله».

كانت قلوب الرجال والنساء تخفق وأعينهم تنتظر أن ينجلي هذا الحزن بمحيا نبيهم وقائدهم ﷺ، لكنه أدرك أنه غير قادر، فطلب إرسال شخص إلى وزيره الأول وصاحبه في الهجرة والغار.. «**إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس**»، وما إن سمعت عائشة اسم أبيها على لسان النبي ﷺ، وهو يجعله أحق الصحابة بالصلاة وإمامة الشعب، بعد أن جعله إمامهم جميعًا في الحج.. ما إن سمعت عائشة التي تحب أباها، حتى خشيت عليه من التشاؤم الذي لا مبرر له إلا في حزنها، فهي مشفقة على أبيها حزينة على زوجها ﷺ.. رحلت بها



الهموم والمخاوف، فقالت: «إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ غلبه البكاء، فقال ﷺ: **مروه فيصلي**، فكررت عائشة كلامها، وقالت: «إنه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطيع أن يصلي بالناس. قال: **مروه، فيصلي، إنكن صواحب يوسف**».

عندها التفتت عائشة لحفصة، وهمست بها: قولي له: «إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصلِّ للناس». لبّت حفصة كلام صديقتها عائشة، والتفتت لزوجها، وقالت له: «إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصلِّ للناس».. فهم ﷺ مراد عائشة، فقال لها ولحفصة: «**مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصلِّ للناس**» شعرت حفصة بالإحراج، فنظرت إلى عائشة تعاتبها قائلة: «ما كنت لأصيب منك خيرًا»، وكأن حفصة ترى أن عائشة ورطتها حتى قال لها حبيبها ما قال.

تم إرسال شخص إلى أبي بكر، فانطلق إلى المسجد المكتظ بالرجال والنساء.. المتحرق إلى إشراقة القائد ﷺ، ثم توجه نحو أبي بكر، وقال له: «إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس» شعر أبوبكر بثقل التكليف وحزن الأمة، وهو يقوم في مقام نبيه ﷺ، فالتفت إلى عمر، فقال له: «يا عمر، صلِّ بالناس».

أنت الأحق يا أبا بكر

نظر أبوبكر إلى عمر، فقال له: «يا عمر، صلِّ بالناس» فلم يفرح عمر بالتنازل له عن الإمامة.. لم يتقدم وهو يرى من هو أحق منه، بل قال لأبي بكر: «أنت أحق بذلك» عندها أقام بلال الصلاة، فتقدم الصديق ليؤمّ المصلين.. تقدم أبوبكر الحزين ليكون أول رجل يؤم الناس نيابة عن النبي ﷺ في مسجده وهو حي.. وهو بجواره.

انتشر الخبر خارج المدينة، فبدأ الناس يتوافدون شوقًا وقلقًا نحو مهوى أفئدتهم وقرة أعينهم، ووصل الخبر إلى الأمير إلى أسامة بن زيد المعسكر بجيشه خارج المدينة، ففجعه الخبر، وأوقف الجيش، وعاد إلى المدينة ملهوفًا، أما المدينة

فمرت الليلة ثقيلة عليها وعلى أهلها.. تختنق صدورهم بالهموم والتفكير في نبيهم ﷺ.. مرت الليلة طويلة وثقيلة على فاطمة وعائشة وأمهات المؤمنين.. تحسب بالدموع والزفرات، فهل يحمل هذا الفجر فرجًا؟

أشرق فجر الجمعة، فأذن بلال، وتوافد الرجال والنساء نحو المسجد، وتعلقت قلوبهم وعيونهم بباب نبيهم مرة أخرى، علّه يخرج إليهم.. طال انتظارهم، لكنه ﷺ لم يستطع النهوض، فأقام بلال وصلى أبوبكر الفجر بهم، بينما صلى النبي على فراشه، وظل صباح ذلك اليوم يوعك، والألم لا يبارح جسده.. مرت ساعات الصبح، وزاره الزائرون والزائرات من شعبه، ثم ارتفعت الشمس، وبدأت تقترب من منتصف السماء، فتوافد الرجال والنساء من داخل المدينة وخارجها نحو المسجد، علّهم يحظون برؤية نبيهم وقائدهم ﷺ والإنصات إلى كلماته والصلاة خلفه، وفوجئ الناس بأسامة ومن معه بينهم.

اكتظّ المسجد بالحزن والرجال والنساء، وعلت شمس الجمعة فوق الرؤوس، وغاب الظل، ولما بدأت بالزوال نحو جهة المغرب، بدأت أبصار الأحبة ترمق باب عائشة علّه ﷺ يشرق منه، علّه يخطبهم كالعادة، لكنه لم يخرج، وإذ بخليفته في الصلاة يدخل من الباب، فينهض بلال ويؤذن، فينهض الصديق على المنبر، ويخطب وسط دموع الشعب ونشيجهم وهم يفتقدون صوت قائدهم ونبيهم ﷺ، وقد اعتادوا على سماع كلماته العذبة على هذا المنبر طوال عشر سنوات.. سالت دموعهم وهم يشعرون بأناته وآلامه خلف تلك الستارة، ثم خرجوا من المسجد وهم أشد حزنًا.

وفي إحدى الساعات كانت أقدام الأمير الشاب أسامة بن زيد تعبر طرقات المدينة نحو بيت النبي ﷺ، ولما أصبح أمامه استأذن، فأذن له، فدخل أسامة وسلم والعبرة تخنقه، فردت عليه عينا نبيه ﷺ الذي لا يستطيع حتى الكلام.. دنا أسامة من حبيبه، ثم جلس بجانبه.. جلس بجانب من كان جده في يوم من الأيام.. ولطالما حمله وقبله ودلله، ووضعه في حجره، ودعا، فقال: «**اللهم، إني أحبه فأحبه**».

لم يَخْبُ ذلك الحب.. مازال يعظم في قلبه ﷺ.. حب أرغم النبي على تحريك يده بصعوبة نحو السماء، ثم إنزالها على جسد حبيبه الأسمر.. حركات تنبض كالقلب يعبر عنها أسامة، فيقول: «لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت، وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت، فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء، ثم يضعها علي، فعرفت أنه يدعو لي».

بكى قلب أسامة، وبكت عيناه، ثم مضى ومضى معه يوم الجمعة، والنبي ﷺ على فراشه، وجاء يوم السبت، فصلى أبوبكر الفجر، ثم صلى بهم الظهر، وفجأة وفي أثناء صلاة الظهر حدثت مفاجأة سارّة كادت تفتن الصحابة عن صلاتهم.

النبي ﷺ يخرج للصلاة

أذن بلال لصلاة الظهر من يوم السبت، فتقاطر الناس نحو المسجد، ثم أقام الصلاة، فتقدم أبوبكر للصلاة وكبّر وأمّهم، وفي أثناء الصلاة تحرك الستر، فتحركت قلوب المصلين.. فجأة خرج علي وعمه العباس وبينهما حبيب الأمة وقرة العين ﷺ يحملانه. لحظ أبوبكر حبيبه، فأخذته الفرحة على الرغم من خشوعه، فبدأ يتراجع للصف تاركًا مكان الإمام للنبي ﷺ، وإذ بالنبي يرفع يده نحوه يشير إليه أن يستمر في مكانه، ويواصل إمامته، ثم نظر ﷺ لعمه ولعلي، وقال لهما: «**أجلساني إلى جنبه**» فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبوبكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ.

سلم النبي ﷺ وسلم أبوبكر، فسلم الرجال والنساء، وتحول المسجد إلى ساحة من البهجة والسعادة والحمد والشكر لله على رؤية نبيهم ﷺ.. سالت دموع الفرح، لكن سرعان ما تماهت بها دموع الحزن، حين التفت ﷺ ببطء إلى الشاب أنس بن مالك، وقال له: «**ادعُ لي أسامة بن زيد**»، فنهض أنس، وتوجه نحو الأمير الشاب، وأخبره بأن نبيه يريده، فلبى أسامة، وتهادى نحو نبيه، ولما أصبح أمامه طلب

منـه ﷺ أن يعيده إلى حجرة عائشـة، فاسـتدار من خلفه فأسـند ظهـره ﷺ إلى نحره، وحمله وسـط نظرات الرجال والنسـاء الذين يتمنون أن يفدوا نبيهم بمهجهم، وألا يصيبه ما هو فيه.

توارى الحبيب ﷺ خلف السـتار، وظل في بيته يئنّ جسـده من الوجع وعائشـة إلى جـواره.. يـزوره أبوبكر وغيره من الصحابة، لكن زيارة مـن بين تلك الزيارات قرأت الكثير.. دخل عليه العباس بن عبدالمطلب وابن أخيه علي، فسـلما وجلسـا.. كان ﷺ في حالة ضعف شـديد بدا على وجهه، فلم يقرأه سـوى العباس الذي تأمله، وتفرس في تقاسـيم وجهه، فانقبض قلبه، وشـعر بالوجع.. أدرك العباس أن الموت في الطريـق، فهذه تقاسـيم بنـي عبدالمطلب عند وفاتهم وقد أفزعـه الأمر. مكثا مدة عنده ﷺ ثم خرجا من حجرة عائشـة يسـيران عبر طرقات حزينة.. كان الناس فيها ينظران إليهما بلهف، ويسـألون عليًّا: «يا أبا الحسـن، كيف أصبح رسـول الله ﷺ؟» فيردّ عليهم مطمئنًا، ويقول: «أصبح بحمد الله بارئًا».

هنا التفت العباس بفزع إلى ابن أخيه علي ليصحح مقولته، فأخذ بيده، ومشـى بـه إلى مـكان بعيد عـن أعين الناس، ولما خـلا به قال له: «أنـت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبدالمطلب عند الموت».. كان العباس قلقًا على مصير بيت النبي ﷺ بعد وفاته؛ لأن النبـي القائـد لم يوصِ لأسرته بـشيء طوال العـشرة أعوام من قيادتـه.. مكتفيًا بالوصيـة بهم في غدير خـم، وهناك فرق بين الوصية لهم والوصية بهم، فالوصية لهم تعني مخصصات أو حكمًا، أما الوصية بهم فمتروك لمدى وعي الشعب والأمة ونظام الدولة ومعرفتها بحق قرابة النبي ﷺ رحمة وعناية؛ لذا أراد العباس العودة للنبي ﷺ ليحسم أمر الحكم بعد وفاته.

هل الحكم لآل البيت بعد وفاته ﷺ؟

فزع العباس، حين قرأ الموت في وجه النبي ﷺ.. أراد أن يرجع إليه لا ليطالبه، ولكن ليسأله: هل الحكم والقيادة بعد موته لآل البيت، أو على الأقل: هل لهم الأولوية في الحكم من بين الناس؟ قال العباس لعلي: «اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا».

لم يكن علي ولا العباس ولا أحد من الصحابة على علم بآلية الحكم بعده ﷺ.. ترك النبي القائد هذا الأمر الخطير لحكمة الأمة التي رباها بالقرآن وسنة ثلاثة وعشرين عامًا. لم يكن علي يملك أي معلومة عن هذا الأمر، مع أنه صحب قائده ونبيه ﷺ منذ بعثته، وما كان يخفى عليه هذا الأمر لو قاله، وهو ابن عمه وزوج ابنته.. يراه يوميًّا في المسجد وفي بيته، وعلى الرغم من أنه قال له يومًا: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي**»، وعلى الرغم من أنه قال له قبل أشهر في غدير خم: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**».. لم يفهم علي من تلك الإشارات أن الحكم من حقه، أو من حق أحد من آل البيت، ولو كان الأمر كذلك لجعله يؤمّ الناس بدلًا من أبي بكر، بل لجعله يحجّ بالناس بدلًا من أبي بكر.. أدرك علي أن الأمر منوط بالأمة، وعليّ أستاذ من أساتذة الفقه.. لا يُخرج نصًّا من سياقه ليوظفه لمصلحته وهواه.. هو من أعلم الناس بنبيه وسنة نبيه، وعندما يتحدث عن نبيه ﷺ.. يتحدث عنه بشمولية، ويحكم من خلال سيرته كلها، لا من خلال موقف واحد يوافق هواه.

لا شك أن عليًّا بشر، وله ما للبشر من أمنيات، وأي أمنية أعظم من خلافة أعظم الأنبياء وخاتمهم، لكن الأمنية ليست نصًّا، وشهوة الحكم أحقر عنده من أن يتقول على نبيه؛ لذا نظر إلى عمه العباس، فقال: «إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ».

أدرك العباس حكمة هذا الفتى الثلاثيني، فهو لا يملك نصًّا في التعيين، وإن سألها نبيه ﷺ فرفض، فسيكون مرفوضًا من قبل الشعب.. كان عليّ أوسع أفقًا.. كان يدرك أن الخلافة ليست هبة ولا منحة، ورسول الله ﷺ يدرك أنه في

ساعات احتضار، وقد همّ بالكتابة مرتين، ثم تراجع، ما يعني أن وحيًا لم ينزل، والنبي ﷺ كان يرجع في أمور السياسة والحرب لأمته منذ أن بنى دولته، وكان يقدم رأيها على رأيه.. حدث ذلك في أحد والخندق وغيرهما، ولو كان هناك نص على شخص بعينه لما أخفاه ﷺ، وهو الذي خطب فيهم خطبًا سياسية كثيرة منذ الحج، أما العباس فمعذور في توجسه، فهو يرى العرب لأول مرة في دولة وتحت راية واحدة وقيادة واحدة، أما النبي القائد ﷺ فكان على الرغم من آلامه مشغولًا بأمته، ولأن أمر خلافتها من أمور الدنيا، فقد جعل الأمة تجتهد فيها، أما أمر العقيدة فوحي لا اجتهاد فيه؛ لذا ظل يبلغه حتى وهو يعاني آلام الاحتضار، فالعقيدة نص والحكم اجتهاد، ولذا ظل ينقي العقيدة خشية أن تلتاث كما التاثت عقيدة اليهود والنصارى بالغلو.

العقيدة في أثناء سكرات الموت

كان النبي ﷺ يئنّ على فراشه، وكان يضع قطعة قماش على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها، ثم يقول كلمات مؤلمة.. كلمات تفصح عن خوفه من الغلو في قبره بعد موته.. كان يذكر سبب لعن الله لليهود والنصارى، وهو (الغلو) في قبور أنبيائهم، فيقول: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».. يحذر ما صنعوا.. كان ﷺ يدرك أن وفاته قريبة، وأن العاطفة تزداد بعد وفاة أي نبي.. تجيش المشاعر، فتطيش بدعًا وخرافات، وزخارف ومزارات، حتى يتحول قبره من مجرد ضريح إلى وثن يطاف به ويتمسح، ويستقبل ويصلى إليه، ويدعى من دون الله، ويذبح عنده، وتحيط به السرج والشموع والمصابيح، ويطلى بالذهب ويرصع بالجواهر، فيسيل لاستغلاله لعاب لصوص يتخذون من العواطف الدينية لدى العوام وسيلة للثراء.. لا يهمهم أنهم صرفوا الخلق عن الخالق سبحانه.. ما يهمهم هو أنهم صرفوا أموال الخلق إلى جيوبهم، وأثروا بالدين، وتاجروا به، وليذهب التوحيد ولتذهب العقيدة.

خشي ﷺ أن ينهدم ما بناه طوال ثلاثة وعشرين عامًا.. خشي أن يتلاشى جهده وجهاده هو وصحابته، الذين بذل الكثير منهم أرواحهم وأموالهم فداء للتوحيد النقي، فيتسرب الشرك من جديد، لكن بدلًا من عبادة الصنم الذي على شكل صورة.. يصبح وثنًا على شكل قبر، وبالمبررات نفسها ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣].

كان ﷺ يخشى ذلك، ويحذر منه.. على الرغم مما هو فيه من المعاناة والحمى، التي يزداد اشتعالها داخل جسده الشريف، ما أعجزه عن الخروج للصلاة، حيث صلى أبوبكر في الناس عصر السبت ومغربه وعشاءه والستر لم يتحرك، والحبيب لم يظهر، والناس يترددون على المسجد، وفي الطرقات وفي الأسواق، فلا يرون حبيبهم.

أذن بلال فجر الأحد، فاكتظّ المسجد وصلى أبوبكر بالناس، ثم خرج منهم من خرج، ثم أشرقت الشمس، فتوالى الزائرون من أهل البيت وغيرهم على حجرة عائشة، وكانت ابنته فاطمة رضي الله عنها في طريقها إلى هناك.. دخلت وقبلته، وجلست تنظر إلى هذا الأب الحاني، الذي ما رآها يومًا إلا قام لها، وقال لها: مرحبًا بابنتي، وقبّل يدها، وأجلسها في مكانه، وها هي اليوم تدخل عليه، فلا يستطيع النهوض لها ولا ترك مكانه لها.. كل الذي يستطيعه هو النظر إليها، فتدمع عينها، وتبكي، وتتأثر لكربه، فيقول لها: «**مرحبًا بابنتي**»، ثم يطلب منها الجلوس بجانبه، فيرى ما بها من حزن فيرقّ قلبه الحنون، فيحاول التخفيف عنها، ويلتفت إليها، فتدني رأسها له، فيهمس في أذنها، ويقول: «**إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي**» خفقت الفجيعة في قلب الزهراء، فقال ﷺ: «**وإنك أول أهل بيتي ﷺ لحاقًا بي**» عندها انفجرت في البكاء، فوالدها سيتركها في هذه الدنيا، كما تركتها أمها وأخواتها الشابات، وزاد في حزنها أنها ستغادر الدنيا تاركة أربعة أيتام: الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب.

عندها همس ﷺ بها مرة أخرى، وقال لها: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟**» فتلاشت الدنيا شوقًا إلى الجنة، فضحكت لذلك، فنظرت إليها صديقتها الوفية وناقلة أخبارها عائشة، فقالت متعجبة: «ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن. فسألتها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ».

امتزجت مشاعر الحزن بالسرور في أعماق الزهراء، وبعد أن جلست مدة نهضت ثقيلة إلى بيتها وأطفالها تتنازعها مشاعر لا تنتهي، وهي تتأمل عيونهم البريئة التي تفتقد إلى دلال جدهم.. جدهم الذي لن يلاعبهم بعد اليوم، ولن يأخذهم للمسجد كما كان يفعل، ولن يردفهم على دابته.. عيون بريئة توشك أن تتلفت، فلا ترى محمدًا ﷺ، ثم تتلفت مرة أخرى، فلا ترى فاطمة الحبيبة، فأي مشاعر كانت تقلّ فاطمة وتظلّها وهي تتأمل صغارها.. ترى من سيتولاهم بعدها.. من سيلحفهم عند نومهم، ومن سيطعمهم وبأيدي من سيستحمون؟ هل هناك امرأة تعوض الأم.. ترى أي قلب ستعيش به فاطمة بقية حياتها القصيرة؟

الموت

تبكي فاطمة، ويقبل الليل، ويخيم الحزن على المدينة، ثم يتسلل فجر الإثنين، فيؤذن بلال، ثم يقيم، فينهض الصديق ويكبر فيكبر المؤمنون والمؤمنات، ويقرأ أبوبكر فيبحر المصلون في خشوع حزين، وفي أثناء الصلاة يحدث شيء كاد الصحابة معه يفتنون في صلاتهم. فجأة ارتفع الستر الذي على يسار أبي بكر.. ارتفعت ستارة ابنته عائشة، فإذ بالحبيب يشرق منها.. خفقت القلوب فرحًا وتحرك أبوبكر من مكانه حتى قال أنس: «كشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ، فنكص أبوبكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر» أرخى الستر، وأرخى الصحابة أعينهم على دموعهم، وعاد الحبيب إلى فراشه، فصلى الفجر، ثم ضعف ضعف الموت:

الموت الذي لا ينتظر أحدًا من البشر.. حتى الأنبياء، ولا يؤجل مواعيد رحلاته، وبعد أن أشرقت الشمس دخلت فاطمة مرة أخرى، فرأت والدها ﷺ يتألم.. يئنّ، ورأسه على صدر حبيبته عائشة.. كان يوعك وعكًا شديدًا جعله يتلوى.. يحرك رجليه ويديه بشكل مبكٍ.. «كان يبسط رجلًا ويقبض أخرى، ويبسط يدًا ويقبض

أخرى»، ودموع عائشة مطر لا يتوقف، وفاطمة تئنّ قربه، وتقول: «يا كرباه لكربك يا أبتاه) فتهدج صوته: «**أي بنية، لا كرب على أبيك بعد اليوم**».

في تلك الأثناء دخل أخو عائشة عبدالرحمن بن أبي بكر مذهولًا، فنظر إلى نبيه، ونظر أنظف الخلق ﷺ إلى سواك في يد عبدالرحمن.. لاحظت عائشة نظرات حبيبها، فعرفت أنه يحب السواك، فقالت: «آخذه لك؟ فأشار برأسه.. أن نعم» فقالت له: «أعطِني هذا السواك يا عبدالرحمن».

مد ابن الصديق السواك لأخته، فأخذته، فقضمت طرفه ولينته حتى لان، ثم مضغته، ونفضته وطيبته، ثم وضعته بيده ﷺ، فاستن به. تقول عائشة: «فما رأيت رسول الله ﷺ استن استنانًا قط أحسن منه»، ثم عاوده الوجع، وبدأ يقبض رجليه، ويبسطهما من الألم.. تفاقم وجعه، فنظر إلى (ركوة) أو علبة بها ماء قد وضعوها بين يديه، فمد يديه من شدة ما يجد، وجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، وهو يقول: «**لا إله إلا الله إن للموت سكرات**» وفجأة شخصت عيناه للأعلى كأنه يحدق في شيء مفرح.. رفع طرفه إلى السماء، وكأنه يرى منزله من الجنة، فلم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم مال رأسه على فخذ عائشة، وأغمي عليه، ثم أفاق، وفتح عينيه، وأشخص ببصره بشوق نحو السماء، ثم قال: «**اللهم، الرفيق الأعلى**».

عصفت كلماته بقلب حبيبته عائشة، فحاولت استعادته.. تذكرت كيف كان حنونًا، حين يرى مريضًا.. كان ﷺ يمسح المريض بيده اليمنى، ويقول: «**أذهب الباس رب الناس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا**».

مدت عائشة يدها برفق نحو يده، ثم بدأت ترقيه علّه يشفى.. عله يبقى.. علّ رحلته تتأخر، فقلبها لا يطيق الفراق، وما إن وضعت يدها، وبدأت بالدعاء حتى سحب يده من يدها، فقد حان السفر.. لم يعد يريد الشفاء.. لم يعد يريد البقاء، وقد رأى ما رأى.. أخذه الشوق إلى تلك الأماكن التي سبقته إليها خديجة ومصعب وحمزة وزيد.. سحب يده، وناشد الرحمن الرحيم بكلمات كالدموع، وقال: «**اللهم، اغفر لي، واجعلني مع الرفيق الأعلى**»، ثم بحّ صوته، وتهدج وهو يكمل دعوته:

«واجعلني مع الرفيق الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا».

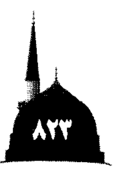
أنّتْ عائشة، وأدركت أنه اختار الرحيل، بعد أن سحب يده، ورفع إصبعه، ثم قال: «في الرفيق الأعلى.. في الرفيق الأعلى.. في الرفيق الأعلى» ثم مالت يده، وفاضت روحه في بيت عائشة، ومال رأسه بين نحرها وسحرها، في آخر يوم من أيام دنياه، وأول يوم من أيام آخرته تقول عائشة: «فلما خرجتْ نفسه لم أجد ريحًا قط أطيب منها».

عندها أنّتِ الزهراء أنّةً من أعماقها، وبكته بكاء مرًّا، وقالت: «يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه.. يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه.. يا أبتاه إلى جبريل ننعاه».

عمر حين أذهلته وفاة نبيه ﷺ

سمعت النساء في الخارج أنين فاطمة وعائشة، فتعالى بكاؤهن، وفقدت عائشة صوابها، وتحدثت عن ذهولها، فقالت: «مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، وفي بيت لم أظلم فيه أحدًا، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألتدم مع النساء، وأضرب وجهي».

خرجت عائشة مذهولة، لتجد أمهات المؤمنين، وبقية النساء يبكين بحرقة، وبكى الرجال والأطفال.. احترقت القلوب على ساكن القلوب، وبكت المدينة إلا رجلًا لم يجد البكاء طريقًا إلى قلبه.. صدمه الخبر.. أفقده صوابه، فملأ الشوارع صياحًا غاضبًا، وتهديدًا مخيفًا.. عمر بن الخطاب لم يبكِ.. يجلجل صوته قرب بيت النبي ﷺ مهددًا ومتوعدًا من يقول: إن النبي ﷺ قد مات.. فقد صوابه من شدة الصدمة، والرجال والنساء والأطفال يبكون.. حاول إسكاتهم فعجز، فذهب، وأحضر سيفه وشهره، وصاح: «لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا. فسكتوا».



سكت الحاضرون، وخيّم السكون فهم لا يدرون ما يفعلون، «وقد كانوا قومًا أميين لم يكن فيهم نبي قبله».. سكتوا خائفين.. ليس من سيف عمر، ولكن ربما كان عند عمر معلومة تخفى عليهم حول مصير النبي ﷺ.. حار حزنهم، فلم يجدوا سوى صاحب نبيهم في الهجرة والغار، وقائدهم في الحج، وإمامهم في الصلاة، فعنده الخبر اليقين؛ لذا طلب أحدهم من رجل من أهل الصفة اسمه (سالم بن عبيد) أن يذهب إلى بيت أبي بكر ليناديه، وقالوا: «يا سالم، اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعُه».

ركب سالم حصانًا أو فرسًا، ثم شق الجموع، وانطلق مسرعًا نحو منطقة السنح، حيث بيت أبي بكر.. وصل سالم السنح، وتلفت فإذا أبوبكر قائم في مسجد، لكنه لم يكن يصلي. أوقف جواده، ونزل عنه والحزن والحيرة يلونان وجهه، ثم مشى إلى الصديق، فالتفت أبوبكر وقد خفق قلبه.. نظر إلى سالم متفرسًا في تقاسيم حزنه وعينيه، فبكى قلبه قبل عينه، ثم قال وقد غشيته السكينة والرضا بالقدر: «مات رسول الله؟» لم يدرِ سالم ما الإجابة.. كان حائرًا؛ لذا وصف له المشهد، فقال: «إن عمر يقول: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا».

مد أبوبكر يده، فوضعها على ساعد سالم، ثم مشيا نحو الجواد، ثم ركبا وانطلقا نحو بيت رسوله ﷺ، وعندما أقبلا على الجموع الحزينة أبطأت خطوات الجواد شيئًا فشيئًا حتى توقفت، ثم نزلا.. مشى الصديق بسكينة وحزن، فسلم على إخوته، فردّوا السلام.. لم يتوقف عند خطبة عمر التي لم تتوقف.. تهادى مباشرة نحو بيت ابنته.. بيت نبيه ﷺ، فإذ بالحشود تفسح له الطريق، وتنتظر كلماته بعد خروجه.

سكن كل شيء إلا صوت عمر، و«أقبل الصديق يمشي حتى دخل، فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ فإذا هو مغطى»، «مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبّله، وبكى». سالت دموعه على صديق طفولته وشبابه ورجولته ونبيه وقائده ﷺ، ثم تهدج صوته حزنًا وهو يفديه بأمه وأبيه، ويقول: «بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي كتبت عليك فقد متّها».

انحنى الصديق شوقًا.. انحنى كالأضلاع على هذا القلب الذي توقف عن النبض «وأكب عليه حتى كاد يمسّ وجهه وجه النبي ﷺ، حتى استبان له أنه قد

مات»، ثم رفع رأسه، وقال رضا بقدر الله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[الزمر: ٣٠]، ثم خرج أبوبكر للناس.. خرج أبوبكر في وقت أبي بكر.

خرج أبو بكر في وقت أبي بكر

خرج الصديق إلى هذا الشعب المفجوع بنبيه وقائده ﷺ، فشاهد عمر مصدومًا يصيح.. يهدد المنافقين بأن النبي ﷺ سوف يعود ليمزقهم.. خرج الصديق في ظرف ليس له سوى الصديق، فالتفت بسكينته وحكمته إلى عمر ليزيل عن العقول ذهول الفاجعة وعمر يحلف، ويقول: «والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم» فنظر إليه أبوبكر، وقال: «أيها الحالف، على رسلك» لم يأبه عمر.. ظل يصرخ.. يهدد المنافقين، فقال أبوبكر: «اجلس». فأبى. فقال: «اجلس». فأبى.

أدرك الصديق أن صاحبه في حالة ذهول، وأن مهمته ليست إسكاته.. مهمته هي أمة محمد ﷺ وإزالة أوهام الفجيعة وتداعياتها، حتى لا تلتصق في أذهان الناس المشدودين إلى عمر، لذا تركه وتوجه للناس، فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

سمع الناس تشهد إمامهم، فاستدارت الوجوه والقلوب نحوه، واقتربت الخطوات منه حتى استدارت حوله، فإذ بالصديق يأخذهم من اجتهاد الذهول إلى الحقيقة، وإلى النص.. حمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ألا من كان يعبد محمدًا ﷺ، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت» ثم غشيتهم السكينة حين تلا كلمات ربهم التي أيقظتهم: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[الزمر: ٣٠]، وقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٤].

أفاق الناس على الحقيقة، وهوى عمر على ركبتيه، وهو ينصت لقول ربه، وكأنه يستمع إليه لأول مرة.. كان عمر من هول الصدمة يعتقد أن النبي ﷺ سيكون آخر الأمة موتًا، لكن الصديق أيقظه، أما المكان فضجّ بالحزن وبكاء الرجال والنساء والأطفال.. نشج الناس يبكون، فقد أخذهم أبوبكر مما هم فيه إلى كتاب الله، فأفاقت العقول، ورضيت بقدر الله.. لم ينهَهم الصديق عن الحزن.. لم ينهَهم عن البكاء، ولكن نهاهم عن الاستسلام للعواطف، والانجراف في تيارها، فيهلكون كما هلكت الأمم السابقة.. أيقظتهم الآية حتى قال أحدهم: «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها».

بدأ الرجال والنساء يرددون من أعماقهم: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وكان أكثر المتأثرين بتلك الآية عمر حتى إنه قال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها. علمت أن النبي ﷺ قد مات».

كان أبوبكر رجل المهمات الصعبة.. أعاد الأمة إلى صوابها، وقال لها في غياب نبيها المفجع: إن هذا النبي الحبيب يظل بشرًا وعبدًا لله، وإن الغلو فيه ليس من صفات المؤمنين، وليس من هديه ﷺ، رحل محمد ولم يبقَ سوى الصلاة عليه، واتباع رسالته والمشي على خطاه، وما عدا ذلك فهو من الغلو الذي نهى عنه ﷺ وهو حي، فقال: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا: عبدالله ورسوله»**.

رحل النبي ﷺ عن الدنيا.. مصيبة ما بعدها مصيبة، وفراغ سياسي هائل تركه بعده، حيث غدت الأمة اليوم دون قائد.. فراغ يكون أكثر خطورة على الأمة إذا كان الراحل قائدًا عظيمًا، فكيف إذا كان الراحل قائدًا عظيمًا، ونبيًّا يأتيه الوحي من الله، وتحمله الأمة كلها في قلوبها؟.. ترى هل سينجح تلاميذ محمد ﷺ في تجاوز هذا الاختبار ولا سيما وهو لم يعين خليفة من بعده، ولم يحدد آلية معينة للاستخلاف؟.. تركها لعقول تلاميذه.. لاجتهادهم، فعليهم منذ اليوم أن يتصدّوا للمتغيرات

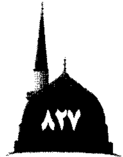
باجتهـاد يسـتنير بالوحـي، وقد بدأت أول ملامـح الاجتهاد في أثنـاء ذلك الحزن.. اجتهـد مجموعـة من كبـار الأنصـار، فقدموا مرشـحهم لخلافة رسـول الله، فكيف ستجري الأمور؟

ـــ

الأنصار يرشحون خليفة للمسلمين

شـعر بعض رجالات الأنصار بهذا الفراغ، فخافوا على مسـتقبلهم بعد رسول الله.. خافـوا أن يفقـدوا ذلك الحب الـذي منحهم إياه ﷺ، أو ينضب شـلال الوفاء الذي غمرهم به، حين قال: «**ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل، وتذهبون برسـول الله إلى رحالكـم؟ الأنصار شـعار والناس دثـار، ولولا الهجـرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سـلك الناس واديًا وشـعبًا، لسـلكت وادي الأنصار وشـعبهم**»، ويبـدو أن إشـاعة سرت تقول: إن المهاجرين يريدون الحكم لهم بعد رسـول الله ﷺ ؛ لذا تداعى القلقون منهم نحو مكان مسـقوف لأسرة أنصارية تدعى بنوسـاعدة.. يجتمعون تحته ويتفيؤون ظلاله، وبعد مداولات لم يروا أنسب من أمير الخزرج سعد بـن عبـادة لخلافة النبـي ﷺ، فهو قائد عظيـم، وصحابي جليل من أهـل العقبة، وله أيادٍ بيضاء على دولة الإسـلام، وهو صاحب سـهم في تشييدها، وهو أهل للخلافة، ومدينتهـم هـي عاصمة الدولة، وهم أكثر سـاكنيها، لكن سـعدًا الآن ينتقض تحت أغطيته.. يعاني آلام الحمى الشديدة، فذهبوا إليه، وحملوه، وأحضروه، وجعلوه على فراش بينهم تحت سقيفة بني ساعدة، في انتظار رد بقية المسلمين.

كان المشـهد مفعـمًا بالحماس والميـل للقبيلة، لكن الأمة ليسـت الأنصار الكرام وحدهم، والدولة ليست المدينة وحدها.. الدولة الإسلامية نسيج من شتى الأعراق والألوان، وقيادتها ليست حكرًا على قبيلة أو منطقة أو عرق، ولا سيما وقد قال النبي القائد ﷺ في الحج.. قبل أربعة أشـهر.. قال لكل الشـعب.. قال لكل الأمة: «**إن أُمِّر عليكم عبد مجدع أسود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له وأطيعوا**».



في تلـك الأثنـاء كان علي بن أبي طالب في بيته منشـغلًا بحـزن زوجته الزهراء، ومعه عمه العباس، بينما كان أبوبكر مشـغولًا بالأمة المفجوعة بنبيها ﷺ، وفجأة أتى شـخص، فأخـبر النـاس المجتمعين في المسـجد، والملتفين حول بيـت النبي ﷺ، بأن الأنصار قد رشحوا سعد بن عبادة في السقيفة.

سمع أبوبكر الخبر، فانطلق نحو إخوته الأنصار، وانطلق معه عمر وأمين الأمة أبوعبيدة بن الجراح، ومعهم بعض الصحابة.. مشـوا خلال الطرقات الحزينة، وبين العيـون الدامعة، والأسـواق المغلقة.. التـي خلت من الباعة والمشـترين، وامتلأت بالهمـوم والغمـوم.. انطلق أبوبكـر يريد رأب ذلك الصدع السـياسي الذي حدث، بعد أن رأب صدع الفجيعة قبل قليل، فالأمة هي رسالة محمد ﷺ، وأبوبكر الصديق أكثـر النـاس وعيًـا برسـالة نبيه ﷺ، وأكثـر ما يسـكنه الآن هو ألا تفـترق الأمة بعد توحيدها، وألا تتمزق بعد تلاحمها، وألا تقع فتنة بين الأنصار والمهاجرين، وفي أثناء سـيره شاهدهم رجلان من الأنصار، فاقتربا من أبي بكر ومن معه، ويبدو أن مبادرة اسـتخلاف سـعد بن عبادة لم تعجبهما؛ لذا عاجلاهم بسـؤال قالا فيه: «أين تريدون يـا معـشر المهاجرين؟ فقالوا: نريد إخواننا هؤلاء مـن الأنصار»، ويبدو أن الرجلين سمعا بالإشاعة إياها وأيداها، فقالا: «لا عليكم ألا تقربوهم، اقضوا أمركم»، لكن عمر بعد أن هدأ عادت له عبقريته، وأدرك أن نبيه ﷺ شيّد دولته دون أن تراق قطرة دم؛ لذا فلا بديل عن الحوار، فقال: «والله لنأتينّهم»، ثم واصلوا المسير، وعمر يجهز بينه وبين نفسه خطبة مناسبة للحدث.. يراجعها حتى أقبلوا على السقيفة.

❧ ❧ ❧

السقيفة [illegible]

تهادى أبوبكر ومن معه نحو سـقيفة بني سـاعدة، ففوجئـوا بالجمع من بعيد.. اقتربوا، فسلموا، فرد الأنصار التحية بمثلها أو أحسن منها.. تأمل أبوبكر ومن معه المكان تحت تلك السـقيفة، فـإذ ببعض الأنصار، ومعظمهم من الخزرج قد شـكلوا دائـرة حول رجل مريض، قد غطوه بلحاف، فسـألهم عمر: «مـن هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقال: ما له؟ قالوا: يوعك».

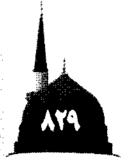
جلس أبوبكر ومن معه، وجلس عمر وأبو عبيدة عن يمينه وشماله، فأخذ الحماس رجلًا أنصاريًّا، فقام يخطب مبينًا وجهة نظر الأنصار وسبب اجتماعهم.. تكلم الخطيب، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال بكل أريحية وحرية: «أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر».

انتهى خطاب ممثلي بعض الأنصار، وبين حروفه تلوح إشاعة أن المهاجرين حسموا أمر الخلافة، ولا يلام الأنصار، وهم كما وصفهم خطيبهم وأطيب، وهم الأقوى، فدولة الإسلام أُسِّست على أيديهم وأرضهم، ومرشحهم سعد بن عبادة أهل للخلافة، لكن هل هكذا تدار الأمور؟ وهل هكذا يتم اختيار الخليفة؟

للمهاجرين وجهة نظر أخرى تختلف عن وجهة نظر الأنصار؛ لذا كان عمر قد انتهى من أعداد خطبته، وتأهب لإلقائها، وما إن همّ بالكلام حتى نظر إليه أبوبكر، وقال له: «على رسلك».

سكت عمر، وكره أن يغضب أستاذه الصديق، ثم تكلم أبوبكر بكلام جاء فيه: «ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم»، ثم مد يده عن يمينه وشماله، فقبض بهما على يدي عمر وأبي عبيدة.

كان عمر في غاية السرور والإعجاب بخطبة أبي بكر، حتى قال: «تكلم أبوبكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها، أو أفضل منها، حتى سكت» لكن عمر كره آخر الخطبة، وهو ترشيح أبي بكر له خليفة للنبي ﷺ حتى قال: «لم أكره مما قال غيرها» ويبرر عمر ذلك بأن الموت أحب إليه من أن يكون أميرًا على أبي بكر، بل قال: «كان والله أن أقدم، فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم، أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبوبكر. اللهم، إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئًا لا أجده الآن».



انتهى خطاب الصديق الذي تضمن وجهة نظره، لكنه لم يلقَ قبولًا لدى الأنصار.. كان كخطاب الأنصار الذي سبقه؛ فالترشيحات كانت مبنية على الجهة أولًا، لا على الكفاءة، مع أن المرشحين كلهم أهل للخلافة؛ لذا قوبلت وجهة نظر أبي بكر بخطاب قاسٍ من الطرف الأقوى وهم الأنصار، حين قال خطيبهم: «أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب: منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش» «وإلا أعدنا الحرب بيننا وبينكم جذعة؟».

وجهة نظر ثالثة تبدو أضعف مما سبقها؛ لأنها تضعف الدولة، ولا تقويها، وهي غير عملية؛ لذا هتف عمر مفندًا هذا الرأي غير الواقعي، فقال: «سيفان في غمد واحد!! إذًا لا يصطلحا».

لأول مرة يتحدث العرب بهذا المستوى من الرقي دون إراقة دم.. ولا سيما وهم لا يتحدثون عن زعامة طيبة فقط، أو مكة.. هم لا يتحدثون عن زعامة قبيلة.. هم يتحدثون عن قيادة أعظم دولة ناشئة مساحتها غطت الجزيرة العربية كلها، وحكمت شواطئها الثلاثة.. لم تكن دولة عربية.. كانت دولة تنضوي تحتها أعراق وألوان، ولها رسالة لا مطامع، فكيف سيقنع بعضهم بعضًا؟ أدرك عمر أن الترشيح على أساس الجهة أو القبيلة لن ينجح، فرفع مستوى الترشيح إلى حيث الإسلام.. إلى الأجدر.. إلى الكفاءة، فقدم اقتراحًا بعيدًا عن الجهة والانتساب.

في السقيفة: أنتم أعلم بأمور دنياكم

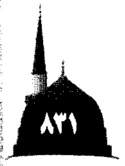
كان المجتمعون يتحدثون من أعماقهم.. من أفكارهم، وبكامل حريتهم، ومن رؤيتهم للأمور.. هكذا تركهم قائدهم ونبيهم ﷺ.. لم يحدد لهم خليفة بعده.. ترك لعقول أمته حرية التفكير والاجتهاد والاختلاف.. يستضيئون بكتاب الله وسنته ﷺ، وها هم يمارسون السياسة برقي ودون عنف.. استمر الحوار دون أن يقنع طرف الطرف الآخر، فكلهم أهل للقيادة، وكلهم أسهم في بناء الدولة، وكلهم مات رسول الله ﷺ

وهو عنهم راضٍ، ونظرًا لأنه ليس مع أحد منهم نص من كتاب أو سنة على تأييد وجهة نظره، ولأنه ليس بينهم معصوم، ولأنهم بشر، وعلى البشر الاجتهاد للرقي بمستوى معيشتهم، فقد قال لهم أستاذهم المسجى في حجرة عائشة: «**إذا كان شيئًا من أمر دنياكم فشأنكم به، وإذا كان شيئًا من أمر دينكم فإلي**».

اختلف الصحابة في أمر من أمور الدنيا، فهم عقول، وهذه هي سنة الحياة.. لم يعثر أحد منهم على نص يرجح به رأيًا على رأي، بل سكت أبوبكر: إمامهم في الصلاة، وقائدهم في الحج، ورديف الهجرة، فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، لكن دون شتائم أو انتقاص.. كانت قممًا تتحاور، وهممًا تتجاور.. لا أحد يملك ملفًّا أسود يدين به الآخر، ويحطمه به.. كان الحوار بين النجوم أيها أشد بريقًا.

ارتقى الحوار فوق القبيلة، غيّبها الوعي عن المشهد.. وكأن وقود تلك العقول في صعودها وكأنهم ينصتون لخطبة نبيهم ﷺ، حين قال: «**إن أمّر عليكم عبد مجدع أسود، يقودكم بكتاب الله تعالى، فاسمعوا له، وأطيعوا**» وقوله: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ**» وهل سنته إلا العدل.. حتى هؤلاء الخلفاء: لم يسمِّهم.. لم يحدد من هم؟ لكنه أخبر بالأهم وهو أنهم جديرون راشدون.

هذا ما لامسه عمر، حين أدهش الحضور بسؤال عن الأجدر لا عن القبيلة، فقال: «يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمّر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤمّ الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر»، ثم كشف المزيد عن جدارة الصديق وأهليته بسؤال آخر، قال فيه: «يا معشر الأنصار، يا معشر المسلمين، إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، أبوبكر السباق المتين»، ثم عزز بسؤال مفحم: «من هذا الذي له هذه الثلاث:



إذ هما في الغار، من هما؟

إذ يقول لصاحبه، من صاحبه؟

﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، مع من هو؟».

سكت الأنصار.. نظر بعضهم إلى بعض.. لم يجدوا بين الحاضرين من يسامي إنجازات أبي بكر، ولم يجدوا في كلام عمر عيبًا، فكلماته سمت بهم نحو العوالم التي أراد نبيهم وقائدهم ﷺ أن يسموا إليها، وأشرقت تربية النبي القائد ﷺ ببعدهم عن الجدل، وليّ أعناق النصوص.. أنصتوا لإنجازات أبي بكر، فإذا القرآن يحلق بهم إلى الآفاق التي رسمها لهم حبيبهم وقائدهم ﷺ.

بعد هذا الهدوء مد عمر يديه، وأمسك بيد أستاذه الصديق، وفتح أصابعه، ثم نظر لكل من تحت السقيفة، وهتف: (بايعوه) لم يعترض أحد من الأنصار على الرغم من أنهم الأقوى.. لم يماحكوا، ويقولوا: إن أبا بكر من تيم، وهي ليست في قوتها وكثرتها كبني هاشم أو بني أمية في مكة.

أصبح وعيهم بمستوى إيمانهم، فغابت قبائلهم وأنسابهم، واستعادوا تلك النفوس التي كانت تشيد الدولة خلف رسول الله ﷺ، فشعروا بمصلحة دولتهم فوق مصالحهم، وتجاوزوا ذواتهم ونزواتهم، ثم هتف عمر: «أبسط يدك يا أبا بكر»، فبسط يده فصافحه عمر وبايعه، ثم نهضوا نحو الصديق، فصافحوه فردًا فردًا.. فبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار عن اقتناع ودون خوف، ومن ذا الذي يخيف الأنصار وهم الذين خاضوا المنايا، وواجهوا حشود الشرك على مدى عشر سنوات، ومن الذي يخيفهم، وقد قال قائلهم: «وإلا أعدنا الحرب بيننا وبينكم جذعة».

بيعة أبي بكر تمت باقتناع

تمت البيعة بالأغلبية، ولا يمكن انتظار الإجماع إلا بين الأمم التي لا إرادة لها، وكان بإمكان الأنصار التعصب لمرشحهم سعد بن عبادة ورفض أبي بكر، وهم



قادرون، والسيوف بأيديهم، والمهاجرون على أرضهم، لكن الثقافة التي نهلوها من نبيهم ﷺ جعلتهم يتركون مرشحهم لمن هو أفضل وأولى.. ثقافة غابت عنهم أيام يثرب، فكان الدم هو الحكم، والثأر هو لغة الحوار، حتى وصفت عائشة حالهم قبل الهجرة، فقالت: «قدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم، وجرحوا».

أدركوا أي نبي وأي نظام إسلامي جمعهم، وجعلهم إخوة إلى يوم القيامة، وجعل مدينتهم عاصمة لأعظم دولة على الأرض.. أدركوا أن البديل لذلك هو العودة للتخلف والثأر والجاهلية، ومع ذلك تكلم أحدهم بكلمات عاطفية، حين رأى خسارة مرشحه السابق سعد بن عبادة، فقال: «قتلتم سعد بن عبادة» فردّ عمر عليه بحزم، فقال: «قتل الله سعد بن عبادة» فإرادة الأمة فوق الأفراد مهما كانوا عظماء.. حتى لو كانت إنجازاتهم بحجم إنجازات الأمير العظيم سعد بن عبادة، ولذا قال عمر منبهًا إلى وزن الأمة: «فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه».

بويع لأبي بكر وهو من أسرة ليست قوية في قريش.. بويع على أرض الأنصار وهم الذين ما كانوا ليقبلوا رجلًا من غيرهم، لو لم يتشبعوا بالتربية الإسلامية العظيمة، بل ما كان الأوس ليقبلوا عليهم زعيمًا من الخزرج، ولن يرضى الخزرج أن يتأمر عليهم زعيم من الأوس، لو كانوا على ثقافتهم الجاهلية الخشبية.. بويع الصديق؛ لأنه الأجدى والأجدر، حيث عجز الحاضرون عن مقارنته بمن حضر، أو حتى بمن غاب كعلي والزبير، وتمت البيعة في دقائق، ودون إراقة قطرة دم واحدة، بشكل لم يحدث من قبل داخل مدينة أو حتى قبيلة.. ناهيك عن دولة عظمى مختلفة الأعراق والألوان والمناطق.

مر يوم الإثنين بسلام، وأصبح للدولة الإسلامية قائد جديد.. قائد أعاد للمفجوعين رشدهم قبل قليل، فواصل صلاته بالأمة الظهر والعصر وبقية الصلوات، بعد أن استقر الوضع السياسي، ليعود للنفوس كمدها وحزنها على نبيها ﷺ في يوم أسود وصف أنس بن مالك مشاعره فيه، فقال: «لما كان اليوم الذي



دخـل فيه رسـول الله ﷺ المدينة أضاء منهـا كل شيء، فلما كان اليـوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء»، وغابت شمس الإثنين، وسافرت بالفتنة معها.

فجر الثلاثاء: إعلان الخلافة الراشدة

انساب صوت بلال الحزين فجر الثلاثاء، وربما خنقته العبرة، وهو يقول: أشهد أن محمدًا رسـول الله.. أشعلت السرج، وسكب الماء على الأيدي، وتوضأ المسلمون وتطهروا، ثم تداعوا نحو المسجد حتى اكتظ بالرجال والنساء في وقت مبكر، وقبل أن تقـام الصلاة نهض عمر بـن الخطاب نحو المنبر، ولما صعـده التفت نحو الرجال والنسـاء، فتشـهد واعتذر عما بـدر منه بالأمس من أقـوال، وقال: «كنـت أرجو أن يعيش رسـول الله ﷺ حتـى يدْبرنا (أي أن يكون آخرنا موتًـا)، فإن يكُ محمد ﷺ قد مـات، فإن الله تعالى قـد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون بـه، بما هدى الله محمدًا ﷺ» ثم دعا بقية الشـعب لمبايعة أبي بكر، (وأبوبكر صامت لا يتكلم) ينتظر رد الشـعب، فمازال لبقيتهم رأي؛ لذا كرر عمر حجج ترشـيح الصديق وبيعته بسبقه في دين الله، ومصاحبته لنبيه ﷺ، ودوره في تشييد هذه الدولة، فقال: «إن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى المسلمين بأموركم، فقوموا فبايعوه».

نزل عمر عن المنبر بعد تلك الكلمات، والصديق صامت في الصف، فتوجه عمر نحوه، وطلب منه الصعود كي يبايعه المؤمنون، لكن أبا بكر رفض، فلم يزل عمر يلحّ عليه، فنهض الصديق نحو المنبر، وجلس عليه صامتًا ينتظر رد الشـعب، فإذ بالمسجد ينهـض كلـه.. يتجـه نحـو أول خليفة لرسـول الله اختاره الشـعب.. يمـدّون أيديهم يصافحه الرجال رجلًا رجلًا.. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

اطمـأن الصديق بـأن بيعته حظيت برضا الشـعب وقبوله، فلـم يعترض منهم أحـد، لكـن قلبه خفق حـين لم يرَ بـين المبايعين رجلين لهـما في نفسـه وزن ومكانة.. صاحبهـما في مكة، وشـاركاه الهجـرة والمعاناة.. همـا علي بن أبي طالـب، والزبير بن

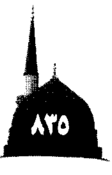
العـوام زوج ابنتـه أسـماء. استغرب الخليفة، فسـأل الحاضرين عنهـما، فمهما كانت وجهة نظرهما ورأيهما.. يظلان من أعلام الأمة، ومن حقهما أن يكون لكل منهما رأيه الخـاص، كما كان لسـعد بن عبادة رأيه الخاص، لكن تظـل الأمة والوطن هما الأهم بعد التوحيد في هدي محمد ﷺ.

لم ينهـض عمر لا سـتدعاء علي والزبير، بل نهـض مجموعة من الأنصار، وخرجوا مـن المسـجد، وتوجهوا نحو بيت علي، ولمـا وقفوا أمام بابه سـلموا، وهتفوا له، فخرج لهـم، وأخـبروه بما يجري في المسـجد. فانطلق علي معهم، ولما دخل أبوالحسـن المسـجد توجـه مبـاشرة نحو أبي بكر ومدّ يده للبيعة وهو الأسـد الهصور الـذي لا يرغمه أحد، فنظـر إليـه الخليفة نظـرة عتاب لعدم وجـوده، وقال له: «ابن عم رسـول الله ﷺ وختنه أردت أن تشـق عصا المسـلمين؟» فقال علي معتذرًا: «لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ» ثم سـأل الصديق عن ابن عمة رسـول الله ﷺ وزوج ابنته أسماء: الزبير بن العوام؟، فخرج أناس واسـتدعوه، ولما دخل المسـجد مد يده، وبايع أبا بكـر، فعاتبه الخليفة، وقال له: «ابن عمة رسـول الله ﷺ، وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟» فقال مثل قول علي: «لا تثريب يا خليفة رسول الله».

بعـد ذلك خطـب الخليفة الأول خطبة رسـم فيها الخطـوط العريضة للخلافة الراشدة.

فجر الثلاثاء: مبادئ الخلافة الراشدة

تكلـم أول خليفـة تختـاره الأمة.. تكلـم أبوبكر الصديق، فرسـم معالم الخلافة الراشـدة والحكـم الرشـيد دون مبالغـات.. دون وعـود زائفة، أو تهديـد أو وعيد، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال:



«أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم» ثم بيّن أن الأمة هي محور الخلافة.. هي الرقابة، وهي القوة التي تدفع بالدولة للرقي، فقال: «فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني»، ثم استأنف نظامًا عادلًا يخضع له جميع المواطنين دون استثناء.. يكفل قوة الدولة ووحدتها وديمومتها، فقال: «الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي، حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شاء الله»، ثم بيّن أهمية القوة العسكرية في الدفاع عن رسالة الإسلام ووحدة الوطن وقوته، فقال: «لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل» وبيّن خطورة انتشار الفساد الأخلاقي، فقال: «ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء» وأخيرًا قرر دور الأمة في الرقابة السياسية والمالية على الخليفة في أول اجتماع تمارسه الأمة، فقال: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

نهض الجميع إلى الصلاة خلف الخليفة الأول أبي بكر، وقد سكنت نفوسهم حول مستقبل دولتهم ووحدتها، واستمرار نظامها العادل الذي سنّه قائدهم ﷺ.. نهضوا مطمئنين بعد أن تجاوزوا أخطر إشكالية تهدد الدول.

قام الناس للصلاة، ففاضت أحزانهم من جديد على نبيهم ﷺ، فخالطت صلاتهم الدموع والوجد على أرحم الناس بهم، وأحناهم وأكثرهم رفقًا، ونشج البعض وهم يرون مكانه ومنبره، وعاود الوجع أهل الصفة، فالذي كان يقاسمهم شربة اللبن وكسرة الرغيف قد رحل، وبعد أن فرغوا من صلاتهم. تفرغوا لبقية الأوجاع التي حانت مع اقتراب لحظات الوداع الذي لا يطاق.. حين بدأ الإعداد لتغسيل النبي ﷺ وتكفينه.

تغسيله ﷺ وتكفينه

مازال النبي ﷺ مسجى في بيت عائشة، وعائشة مقيمة بجوار جسده الشريف، وبعد أن تمت البيعة دخل بعض أهل البيت على نبي الله ﷺ لغسله، وقد تولى علي

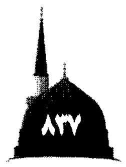
ابن أبي طالب غسله، فلم ينزعوا ثيابه، بل قام بعض أهل البيت بسكب الماء على قميصه، ثم مد علي يديه برفق ودلك القميص المبلل على جسده ﷺ.

في أثناء ذلك كان علي يحدق في جسد حبيبه.. يتأمله.. يبحث عن شيء يراه مميزًا، أو غريبًا يحدث، وكأنه يبحث عن تلك المبالغات التي تقال عن الأموات، فقال: «غسلت رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر ما يكون من الميت فلم أرَ شيئًا، وكان طيبًا حيًّا وميتًا ﷺ» وبعد أن انتهوا من غسله ندمت عائشة ألا تكون هي وبقية زوجاته من غسله، فقالت: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»، وكأنها تتذكر ابتسامته ﷺ لها قبل أسبوع حين رجع من جنازة بالبقيع، وهي تئنّ من الصداع، وتقول: «وارأساه. فقال ممازحًا: بل **أنا يا عائشة وارأساه، ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي، فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ثم دفنتك..؟**» وكأنها فهمت من هذا المزاح أن تغسيل الزوج لزوجته والعكس هو الأولى، لكن ذلك لم يحدث، وشرف الله عليًّا ومن معه بتغسيل نبيه.

قام علي بن أبي طالب في آخر غسلة بمزج الكافور مع الماء، ثم سكب المزيج على جسده الشريف، فهو يساعد على نقاء جسد الميت ونظافته، وبعد أن انتهى علي ومن معه من تغسيله ﷺ أحضر علي قارورة أو وعاء ممتلئًا بالمسك، فسكب معظمه على جسد ﷺ، ثم مسحه به، واحتفظ علي بباقي المسك وأوصى أن يحنط به، وقال: «هو فضل حنوط رسول الله ﷺ» أي باقيه.

انتهى علي من تطييب النبي ﷺ، فدخل عبدالله بن أبي بكر بحلة يمانية غالية.. اشتراها لكي يكفن فيها النبي ﷺ، فنزعوا قميصه ﷺ وكفنوه فيها، وبعد أن كفنوه بها تشاور الصحابة، ويبدو أنهم شعروا بأن الأمر فيه تكلف، فنزعوا الحلة عن جسده، وأرجعوها إلى عبدالله بن أبي بكر، فأخذها، وقال: «لأحبسنها حتى أكفن فيها نفسي» لكنه تراجع، وقال: «لو رضيها الله ﷻ لنبيه لكفنه فيها»، فباعها، وتصدق بثمنها.

أحضر الصحابة ثلاث قطع قماش من القطن.. ليس من ضمنها قميص أو عمامة، فكفنوا بها النبي ﷺ، ولما انتهوا من تكفينه سألوا أبا بكر، فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ؟ قال: نعم».



تأمل الخليفة والصحابة غرفة عائشة.. تأملوا الطرقات المؤدية إليها، فإذا طوفان من القلوب رجالًا ونساء وأطفالًا ينتظرون دورهم في وداع نبيهم قائدهم ﷺ.. قد احمرت عيونهم، واكتوت جفونهم، وقل نومهم، وقد قدم بعضهم من أطراف المدينة وما حولها، ولا يمكن أن تحرم هذه الجموع المفجوعة من الصلاة على نبيها ووداعه والدعاء له، فسألوا الخليفة عن كيفية الصلاة على النبي ﷺ؟

كيف صلوا على النبي ﷺ؟

سأل الصحابة خليفتهم عن كيفية الصلاة على نبيهم ﷺ فقالوا: «وكيف يصلى عليه؟ قال: يدخل قوم، فيكبرون، ويدعون، ويجيء آخرون».

قام مجموعة من الصحابة بتنظيم الشعب الملهوف مجموعات مجموعات، وحددوا أحد أبواب عائشة للدخول، وآخر للخروج، حيث يقول أحد الذين شاهدوا تدفق أمواج الحب تلك: لما قبض رسول الله ﷺ قالوا: «كيف نصلي عليه؟ قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالًا أرسالًا، فصلوا عليه، واخرجوا من الباب الآخر».

تحولت الحشود إلى مجموعات صغيرة.. تتهادى بترتيب وسكينة وخشوع مخضب بالدموع، وما إن ترى نبيها حتى يتحول المكان إلى عالم من النحيب والأنين، والرضا بقدر الله، فكيف كان حال المكان، حين حان دور أمهات المؤمنين وبقية النساء، وكيف كان حال الفقراء والمساكين وأهل الصفة وهم يودعون كافلهم والحاني عليهم، الذي كان يشاطرهم كسرة الخبز وشربة اللبن.. القائد الذي لم يعرف الشبع وهم جياع.

انتهى الرجال والنساء والأطفال من الصلاة على النبي ﷺ، فإذا الدنيا مساء، وإذا الشمس قد غربت، فتساءلوا عن جسده؟ هل يدفن كبقية المسلمين أم ماذا يفعل به؟ سؤال وجهوه إلى أعلم الناس بسنته.. إلى صاحبه وخليفته، فقالوا: «يا صاحب النبي، هل يدفن النبي ﷺ؟ قال: نعم. قالوا: وأين يدفن؟ قال: في المكان الذي قبض الله فيها روحه، فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة» ثم تساءلوا مرة أخرى هل يكون

شكل قبره لحدًا كما هو الأشهر، أم يشقون قبره ضريحًا في الأرض، وكان في المدينة رجل متخصص في حفر اللحود، وآخر في صنع الأضرحة، فاستقر رأي الصحابة على الاستخارة، وقالوا: «نستخير ربنا، فنبعث إليهما، فأيهما سبق تركناه» يحفر على طريقته.

انطلق المبعوثون إلى الرجلين، وبعد ساعات أقبل الرجل الذي يصنع اللحد في ساعة متأخرة من الليل، فأمروه بصنع لحد للنبي ﷺ.

أضاءت السرج غرفة عائشة في ساعة متأخرة من الليل، وخرجت فيها عائشة من غرفتها مودعة حبيبها الذي لن تراه على وجه الأرض بعد اليوم، وفجأة سمعت صوتًا كالخناجر في قلبها وقلوب من معها من أمهات المؤمنين والنساء.. صوت المساحي تشق أرض غرفتها.. وكأنها تبسط فيها روضة من رياض الجنة.. فقالت: «ما شعرنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل».

انتهى الرجل من حفر اللحد، ونزل في القبر (علي والفضل وأسامة)، ثم أدخلوا عبدالرحمن بن عوف، لتهيئة القبر، ثم فرشوا على أرض القبر كساء أحمر يسمى (قطيفة). وبعد أن فرشت تلك القطيفة، وتهيؤوا لوضع النبي ﷺ في اللحد قال علي: «إنما يلي الرجل أهله»، فخرج عبدالرحمن من القبر، ونزل بدلًا منه قثم بن العباس.

حانت ساعة الوداع المريرة.. حان وضع الحبيب والقائد والنبي والوالد والمربي في قبره، فلن تراه العيون بعد اليوم إلى يوم القيامة.. حانت ساعة النحيب المر في ليلة كان السهر والحزن فيها مستبدين.

حمل الصحابة نبيهم ﷺ من الأرض، ثم مدوه إلى علي ومن معه داخل القبر، فاستلموا جسده الشريف، وأضجعوه في لحده على جنبه الأيمن في اتجاه القبلة، ثم جعلوا اللِّبْنَ منصوبًا على اللحد، وكان سعد بن أبي وقاص يشهد المنظر، ثم يقول لمن حوله: «ألحدوا لي لحدًا، وانصبوا على اللبن نصبًا كما صنع برسول الله ﷺ» ثم خرج علي ومن معه من القبر، وكان آخر من خرج من القبر قثم بن العباس. حيث يقول علي: «أحدث الناس عهدًا برسول الله ﷺ قثم بن العباس»، ثم أهال الصحابة التراب على القبر.

كان المغيرة بن شعبة يرقب المشهد بألم.. كان يفرك دهاءه كي يمس النبي ﷺ في قبره قبل أن يهال التراب عليه، فقال: «قد بقي من رجليه شيء لم يصلحوه. قالوا: فادخل، فأصلحه» بعدها نزل المغيرة للقبر، ثم مد يده بشوق، وأدخلها نحو قدمي حبيبه ﷺ، (فمس قدميه) ثم رفع رأسه نحو إخوته، وقال: «أهيلوا علي التراب. فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه، ثم خرج، فكان يقول: أنا أحدثكم عهدًا برسول الله ﷺ».

أهالوا التراب، وأسالوا الدموع، وانتحب من في بيت عائشة، ومن في المسجد، ومن في الطرقات والمنازل.. بكوا ذلك النبي الذي كان أرحم الخلق بهم وأرقّهم معهم.. بكوا نبيهم وقائدهم الذي لم يضرب أحدًا من شعبه، رجلًا كان أو امرأة أو طفلًا أو عبدًا، أو خادمًا، ولم يسلب حق أحد منهم، بل لم يبنِ لهم سجنًا.. بكوا من كان يجوع إذا جاعوا، ويعاني إذا عانوا، ولم يتميز عنهم بطعام أو لباس أو سكن، بل إن بيته في مكة أكبر من بيته وهو قائد دولة.. مات في حجرة كأكواخ الفقراء، ودفن فيها.. مات ولم يبنِ له قصرًا مع أن الجزيرة كلها دانت له بقبائلها وممتلكاتها.

نهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالكمد.. محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.. نهض الصحابة بعد دفنه، ولم يعكفوا عند قبره، ولم يحولوا ذلك القبر إلى مزار، ولم يرصعوه بالجواهر، أو يطلوه بالذهب والفضة.

خرجوا من عند قبره لتعود عائشة إلى السكن بجوار قبره في تلك الغرفة الصغيرة، أما الصحابة والصحابيات فلم يمضوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا بقراءة القرآن.. لقد علمهم قائدهم ونبيهم ﷺ كيف يصنعون الحياة.. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره يحملون رسالته للعالم، لينقذوه بها كما أنقذهم هو. قاموا ليواصلوا إزاحة الإصر والأغلال التي تكبل العالم ظلمًا واستبدادًا وشركًا بالله.

فصلى الله عليه وسلم عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، وجزاه عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وجمعنا به في جناته في الفردوس.

الرحمة المهداة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مات أبوه قبل أن يولد، فرعته أمه، ولما أصبح طفلًا رحلت أمه عن الدنيا، ثم زادت مرارة يتمه برحيل جده عبدالمطلب وهو فتى.. أخذ الموت أحبته.. فجعه بهم، وترك له الذكريات والدموع. كد وكافح.. رعى الغنم وباع واشترى، وتعامل مع الناس حتى كسوه لقب الأمين. لم يعاقر خمرًا أو يمس صنمًا أو يعرف الخنا، فكان حلم العذارى، لكنهن فوجئن بالأربعينية الطيبة.. خديجة تفوز بقلبه، فرزقهما الله أربع بنات كالزهرات، ولما اقترب من الأربعين واصل رحلة التأمل والأسئلة الكبرى فيما حوله: الناس والحياة والكون.. أدرك أنه لا إله ولا خالق إلا الله، فناجاه وحده سبحانه، وأخلص له قلبه، وهوت روحه الانعزال أحيانًا، فانتقى كهفًا في جبل حراء، لتصفو فيه روحه، ويناجي ربه أيامًا من كل عام، ثم بدأ يرى رؤى صادقة تبشره وتحيره، وفي ليلة من ليالي ذلك الغار هبط عليه كبير الملائكة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبلغه رسالة ربه، وأنزل عليه (اقرأ)، فنزل ﷺ إلى مكة بشيرًا ونذيرًا لقومه، فصدقه قلة وكذبه الباقون، فظل يدعوهم.. يخاطب القلوب والعقول.. سلاحه الوحيد الكلمة (القرآن)، وتاريخ أبيض خالٍ من الكذب، حتى كثر أتباعه، فخاف طغاة قريش، وبدؤوا الاعتقالات والسحل للمؤمنين، الذين تفرقوا بين المنافي والمعتقلات، فبدأ ﷺ بمخاطبة القبائل الأخرى.. يناشدهم علهم يؤوونه وينصرون توحيد ربه، حتى اقتنع بدعوته أكرم أهل الأرض (الأنصار) أهل يثرب، فأسس معهم دولة على أرضهم وبالكلمة فقط.. شيدها دون أن يريق قطرة دم واحدة.. أسسها بالمعاهدات والوثائق، فلم يُقصِ الوثنيين كما أقصوه.. كان شعبه مكونًا من اليهود والوثنيين والمسلمين، فحاول استصلاحهم جميعًا والتأليف بينهم، لكنه أضافَ إلى سلاح الكلمة الذي حمله من مكة سلاحًا آخر: (سلاح العدل). لم يبنِ سجنًا.. كان متواضعًا حتى إن بيته وهو طريد بمكة أكبر من بيته وهو حاكم في المدينة.. انشغل ببناء دولته، وتناسى اضطهادَ قريش، بل أقر شعبه على التجارة معهم، خاصة طواغيتهم، لكنهم لم يتركوه.. منعوه ومنعوا شعبه من حقهم في زيارة بيت ربهم، ثم حرضوا عليه قبائل العرب، فتناوبوا في غزوه وحصاره والغدر بأصحابه، وخانته الأقلية اليهودية من شعبه بالتحالف مع طغاة قريش.. اليهود الذين استضاف ﷺ حاخامتهم في بيته، وأحب موافقتهم في غير الوحي، ومع ذلك كذبوه وتآمروا عليه وشتموه حتى داخل بيته، فاضطر إلى التوقيع معهم على معاهدات وطنية، تكفل حقوقهم وحريتهم وأمنهم، فاستغلوا عدله، وخانوا الوثيقة تلو الوثيقة، واتصلوا سرًّا بمعظم القبائل الوثنية وحرضوها، حتى تمكنوا من تحويلها إلى جيوش تحاصر شعبه، فأصبح مضطرًّا إلى حمل السلاح دفاعًا عن دينه ووطنه وشعبه، الذين تعهد بالدفاع عنهم كما يدافعون عنه. خاض حروبًا كان رجال أسرته في مقدمتها، وفقد الكثير من الأحبة، ولما أصبحت دولته هي الأقوى في جزيرة العرب لم يتعطش للدماء.. لم ينتقم.. كان مأخوذًا بالبناء.. بالسلم.. بأسر القلوب.. بالحفاظ على الأرواح لا بإزهاقها، أسرت رحمته قلوب الناس حين رأوا وجهه يتلون حزنًا لما رأى وثنيين غرباء حفاة عراة جائعين، فلم يقر له قرار حتى أشبعهم وكساهم وطيب خواطرهم. وفي أوج قوته وأنسب فرص الانتقام من طغاة قريش.. وقع معهم معاهدة صلح، فأملوا عليه شروطًا جائرة، وهم في أشد حالات الضعف، فوافق ليحقن الدماء ويعم السلام، لكنهم خانوه ليفاجأ العالم بفتح مكة.. فاجأهم لأنه فتحها نصرة لقبيلة وثنية، وقعت معه معاهدة دفاع مشترك، فغدر بها طغاة قريش، ولما انتصر عليهم لم يقم بمجازر.. لم ينتقم لعشرين عامًا من الظلم والتعذيب والمؤامرات.. دخل مكة فلم يغتصب بيتًا أو أرضًا، بل لم يجد مكانًا يبيت فيه، إلا واديًا كان يُحبس فيه هو وأصحابه قبل الهجرة.. فتح مكة وحكم الجزيرة، ففزعت الدول الكبرى، وبدؤوا التحرش بدولة القرآن.. بدأ المجوس والنصارى وعملاؤهم إرسال الجيوش، فاضطر إلى الدفاع عن شعبه في مؤتة وذات السلاسل وتبوك، وأعد جيشًا ثالثًا للمهمة نفسها قبيل وفاته، ثم رحل ﷺ عن الدنيا وهو يحكم الجزيرة العربية كلها.. رحل دون أن يسكن قصرًا، أو يلبس ذهبًا أو حريرًا، أو يبيت ليلة وفي رصيده دينار أو درهم.. مات لم يترك عبدًا أو أمة، لكنه ترك درعه مرهونة عند تاجر يهودي من شعبه مقابل كمية من الشعير طعامًا لعائلته، أما شعبه فتركهم وهم أنظف الشعوب، وأكثرها نظامًا وثقافة.. رحل بعد أن أدخل القلم والكتاب لكل بيت، فجعلهم أول شعب يقتني الكتاب في البيوت.. كتاب الله الذي يثقفهم عقائديًّا وعقليًّا وروحيًّا ونفسيًّا وتربويًّا واجتماعيًّا وصحيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وقضائيًّا.. رحل ﷺ لكنه لا يزال شمسًا لا تعرف المغيب: توحيدًا وأخلاقًا وعدلاً ورحمة للعالمين.

ISBN:978-603-503-851-5



موضوع الكتاب: السيرة النبوية







